UNIVERSAL LIBRARY

(فهرست الجزء الخامس من تفسير الفخر الرازي رحمه الله تعالى)

صحيفة

صحيفة

صحيفه

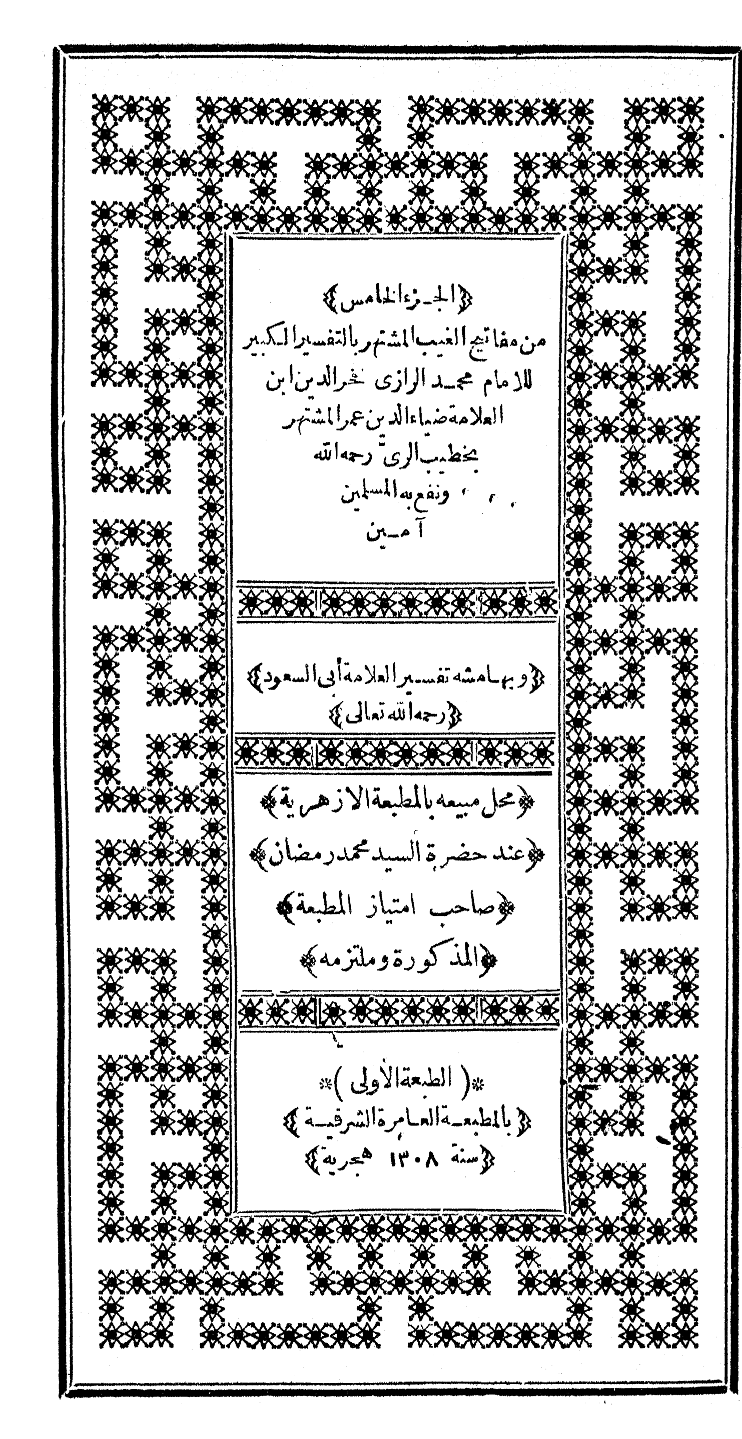
صحيفة

﴿تمت﴾

﴿فهرست ما بالهامش من تفسير أبى السعود العمادى رحمه الله﴾

صحيفة

﴿تمت﴾



﴿الجزء الخامس﴾

من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير

للامام محمد الرازى فخر الدين ابن

العلامة ضياء الدين عمر المشتهر

بخطيب الرى رحمه الله

ونفع به المسلمين

آمين

﴿وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود﴾

﴿رحمه الله تعالى﴾

﴿محل بيعه بالمطبعة الازهرية﴾

﴿عند حضرة السيد محمد رمضان﴾

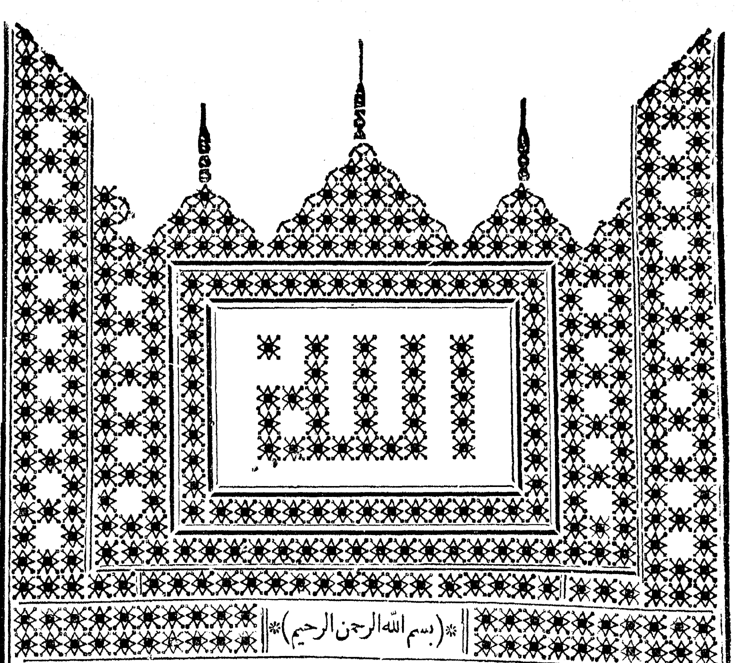
﴿صاحب امتياز المطبعة﴾

﴿المذكورة وملتزمه﴾

﴿الطبعة الأولى﴾

﴿بالمطبعة العامرة الشرقية﴾

﴿سنة ١٣٠٨ هجرية﴾



(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى ﴿ويستنبئونك أحق هو قل اى وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ اعلم انه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وأجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم انهم رجعوا الى الرسول مرة أخرى فى عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا أحق هو واعلم ان هذا السؤال جهل محض من وجوه (أولها) انه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون فى الاعادة فائدة (وثانيها) انه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولا من عند الله وهو بيان كون القرآن معجزا واذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه فهذه المعانى توجب الاعراض عنهم وترك الالتفات الى سؤالهم واختلفوا فى الضمير فى قوله أحق هو وقيل أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع وقيل ما تعدنا من البعث والقيامة وقيل ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا ثم انه تعالى أمره أن يجيبهم بقوله قل اى وربى انه لحق والفائدة فيه أمور (أحدها) ان يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر ان من أخبر عن شئ وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله فى باب الجد (وثانيها) ان الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشئ الا بالبرهان الحقيقى ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقى بل ينتفع بالاشياء الاقناعية نحو القسم ولذلك فان الاعرابى الذى جاء الرسول عليه الصلاة والسلام وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم فكذا ههنا ثم انه تعالى أكد ذلك بقوله وما أنتم بمعجزين ولا بد فيه من تقدير محذوف فيكون المراد وما أنتم بمعجزين لمن وعدكم بالعذاب ان ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحدا لا يجوز أن يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى ثم انه تعالى بين ان هذا الجنس من الكلمات انما يجوز عليهم ما داموا فى الدنيا فاما اذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا باشياء أخرى ثم انه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء (أولها) قوله ولو ان لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به الآن ذلك متعذر لانه فى محفل القيامة لا يملك شيأ كما قال تعالى

(قال فرعون) منكرا على السحرة موبخا لهم على ما فعلوه (آمنتم به) بهمزة واحدة اما على الاخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة كما مر فى ان لنا لاجرا وقد قرئ بتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين بين أى آمنتم بالله تعالى (قبل أن آذن لكم) أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن الاذن منه ممكن فى ذلك (ان هذا لمكر مكرتموه) يعنى ان ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى (فى المدينة) يعنى مصر قبل أن تخرجوا الى الميعاد روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وأمير السحرة التقيا فقال له موسى أرأيتك ان غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون يسمعهما وهو الذى نشأ عنه هذا القول

وكاهم

وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وبتقدير ان يملك خزائن الارض الا أنه لا ينفعه الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون وقال فى صفة هذا اليوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (وثانيها) قوله وأسروا الندامة لما رأوا العذاب واعلم ان قوله وأسروا الندامة جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة الا انها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى واعلم ان الاسرار هو الاخفاء والاظهار وهو من الاضداد أما ورود هذه اللفظة بمعنى الاخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الاظهار فهو من قولهم سر الشئ وأسره اذا أظهره اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد منه اخفاء تلك الندامة والسبب فى هذا الاخفاء وجوه (الاول) انهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة (الثانى) انهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم * فان قيل ان مهابة ذلك الموقف تمنع الناس عن هذا التدبير فكيف أقدموا عليه * قلنا ان هذا الكتمان انما يحصل قبل الاحتراق بالنار فاذا احترقوا تركوا هذا الاخفاء وأظهروه بدليل قوله تعالى قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا (الثالث) انهم أسروا تلك الندامة لانهم أخلصوا لله فى تلك الندامة ومن أخلص فى الدعاء أسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم يعنى انهم لما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته لم ينفعهم بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وأما من فسر الاسرار بالاظهار فقوله ظاهر لانهم انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفى القيامة بطل هذا الغرض فوجب الاظهار (وثانيها) قوله تعالى وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون فقيل بين المؤمنين والكافرين وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل بين الكفار بانزال العقوبة عليهم واعلم ان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فانه لا بد وان يقضى الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين * قوله تعالى ﴿ألا ان لله ما فى السموات والارض ألا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون هو يحيى ويميت واليه ترجعون﴾ اعلم ان من الناس من قال ان تعلق هذه الآية بما قبلها هو انه تعالى قال قبل هذه الآية ولو ان لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به فلا جرم قال فى هذه الآية ليس للظالم شئ يفتدى به فان كل الاشياء ملك الله تعالى وملكه واعلم ان هذا التوجيه حسن أما الاحسن أن يقال انا قد ذكرنا أن الناس على طبقات فمنهم من يكون انتفاعه بالاقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات وأما المحققون فانهم لا يلتفتون الى الاقناعيات وانما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة فلما حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا أحق هو أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقول اى وربى وهذا جار مجرى الاقناعيات فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على اثبات الاله القادر الحكيم وان كل ما سواه فهو ملكه وملكه فعبر عن هذا المعنى بقوله ألا ان لله ما فى السموات والارض ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية لانه تعالى قد استقصى فى تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة وهو قوله ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض وقوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها وذكر ان كل ما فى العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ومتى كان الامر كذلك كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات غنيا عن جميع الحاجات منزها عن النقائص والآفات فهو تعالى لكونه قادرا على جميع الممكنات يكون قادرا على انزال العذاب على الاعداء فى الدنيا وفى الآخرة ويكون قادرا على ايصال الرحمة الى الاولياء فى الدنيا وفى الآخرة ويكون قادرا على تأييد رسوله عليه الصلاة والسلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرا على اعلاء شأن رسوله واظهار دينه وتقوية شرعه ولما كان قادرا على كل ذلك فقد

(لتخرجوا منها أهلها) أى القبط وتخلص هى لك ولبنى اسرائيل وهاتان شبهتان ٣ ألقاهما الى أسماع عوام القبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها وعدم تمالكهم من أن يؤمنوا بها ليمنعهم بهما عن الايمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام باراءة أن ايمان السحرة مبنى على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضهم بذلك اخراج القوم من المدينة وابطال ملكهم ومعلوم أن مفارقة الاوطان المألوفة والنعمة المعروفة مما لا يطاق به فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتا للقبط على ما هم عليه وتهييجا لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن له قوة وقدرة على المدافعة فقال (فسوف تعلمون) أى عاقبة ما فعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الاجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم أجمعين) تفضيحا لكم وتنكيلا لامثالكم قيل هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيما لجرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربة لله ورسوله (قالوا) استئناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال السحرة عندما سمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه

بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزها عن النقائص والآفات كان منزها عن الخلف والكذب وكل ماوعد به فلابد وان يقع هذا اذا قلنا انه تعالى لا يراعي مصالح العباد أما اذا قلنا انه تعالى يراعيها فنقول الكذب انما يصدر عن العاقل اما للعجز أو للجهل أو للحاجة ولما كان الحق سبحانه منزها عن الكل كان الكذب عليه محالا فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى ألا ان لله ما في السموات والارض مقدمة توجب الجزم بصحة قوله ألا ان وعد الله حق ثم قال ولكن أكثرهم لايعلمون والمراد انهم غافلون عن هذه الدلائل مغرورون بظواهر الامور فلاجرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ثم انه أكد هذه الدلائل فقال هو يحيي ويميت واليه ترجعون والمراد أنه لما قدر على الاحياء في المرة الاولى فاذا أماته وجب أن يبقى قادرا على احيائه في المرة الثانية فظهر بما ذكرنا انه تعالى أمر رسوله بأن يقول اى وربي ثم انه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة واعلم ان في قوله ألا ان لله ما في السموات والارض دقيقة أخرى وهي كلمة ألا وذلك لان هذه الكلمة انما تذكر عند تنبيه الغافلين وايقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر الى الاسباب الظاهرة فيقولون البستان للامير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شئ الى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين في نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الاضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله ألا ان لله ما في السموات والارض وذلك لانه لما ثبت بالعقل ان ماسوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وثبت ان الممكن مستند الى الواجب لذاته اما ابتداء أو بواسطة فثبت ان ماسواه ملكه وملكه واذا كان كذلك فليس لغيره في الحقيقة ملك فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به لاجرم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر هذا النداء لعل واحدا منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة ﴿قوله تعالى ﴿ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن الطريق الى اثبات نبوة الانبياء عليهم السلام أمران (الاول) أن نقول ان هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك فهو رسول من عند الله حقا وصدقا وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى في هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه في قوله وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية ما يقوي الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات (وأما الطريق الثاني) فهو أن نعلم بعقولنا ان الاعتقاد الحق والعمل الصالح ماهو فكل من جاء ودعا الخلق اليه وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية في نقل الناس من الكفر الى الايمان ومن الاعتقاد الباطل الى الاعتقاد الحق ومن الاعمال الداعية الى الدنيا الى الاعمال الداعية الى الآخرة فهو النبي الحق الصادق المصدق وتقريره ان نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا ونحن نعلم بعقولنا ان سعادة الانسان لاتحصل الا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وحاصله يرجع الى حرف واحد وهو أن كل ما قوى نفرتك عن الدنيا ورغبتك في الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية واذا كان الامر كذلك كانوا محتاجين الى انسان كامل قوي النفس مشرق الروح علوي الطبيعة ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان الى مقام الكمال وذلك هو النبي فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة الناقصون والكاملون الذين لايقدرون على تكميل الناقصين والقسم الثالث هو الكامل الذي يقدر على تكميل الناقصين فالقسم الاول هو عامة الخلق والقسم الثاني هم الاولياء والقسم الثالث هم الانبياء ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان الى درجة الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة لاجرم كانت درجات الانبياء في قوة النبوة مختلفة ولهذا السر قال النبي صلى الله عليه وسلم

من الدين فقيل قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الايمان (انا الى ربنا منقلبون) أي بالموت لامحالة فسواء كان ذلك منك أو لا فلا نبالي بوعيدك أو انا الى رحمة ربنا وثوابه منقلبون ان فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفا على لقاء الله تعالى أو انا جميعا الى ربنا منقلبون فيحكم بيننا وبينك (وماتنقم منا) أي وماتنكر وتعيب منا (الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) وهو خير الاعمال وأصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته اظهارا لما في قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريرا له ففزعوا الى الله عز وجل وقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أي أفض علينا من الصبر مايغمرنا كما يغمر الماء أوصب علينا مايطهرنا من أوضار الاوزار وأدناس الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون (وتوفنا مسلمين) ثابتين على مارزقتنا من الاسلام غير مفتونين من الوعيد قيل فعل بهم ما أوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون (وقال الملأ من قوم فرعون) مخاطبين له بعد ماشاهدوا من أمر موسى عليه السلام (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض) أي في أرض مصر بتغيير الناس عليك وصرفهم عن متابعتك (ويذرك) عطف على يفسدوا

علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل اذا عرفت هذه المقدمة فنقول انه تعالى لما بين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق المعجزة ففي هذه الآية بين صحة نبوته بالطريق الثاني وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها فالاستدلال بالمعجز هو الذي تسميه المنطقيون برهان الان وهذا الطريق هو الطريق الذي يسمونه برهان اللم وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى وصف القرآن في هذه الآية بصفات أربعة (أولها) كونه موعظة من عند الله (وثانيها) كونه شفاء لما في الصدور (وثالثها) كونه هدى (ورابعها) كونه رحمة للمؤمنين ولابد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول ان الارواح لما تعلقت بالاجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعي وحب للروح على الجسد ثم ان جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسداني وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها ومن المعلوم ان نور العقل انما يحصل في آخر الدرجة حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية فصار ذلك الاستغراق سببا لحصول العقائد الباطلة والاخلاق الذميمة في جوهر الروح وهذه الاحوال تجرى مجرى الامراض الشديدة لجوهر الروح فلابد لها من طبيب حاذق فان من وقع في المرض الشديد فان لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لامحالة وان اتفق ان صادفه مثل هذا الطبيب وكان هذا البدن قابلا للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم اذا عرفت هذا فنقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب الحاذق وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التي بتركيبها تعالج القلوب المريضة ثم ان الطبيب اذا وصل الى المريض فله معه مراتب أربعة (الاولى) أن ينهاه عن تناول مالا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن تلك الاشياء التي بسببها وقع في ذلك المرض وهذا هو الموعظة فانه لامعنى للوعظ الا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله تعالى والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله تعالى (وثانيها) الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الاخلاط الفاسدة الموجبة للمرض فكذلك الانبياء عليهم السلام اذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل مالا ينبغي فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة في ازالة الاخلاق الذميمة وتحصيل الاخلاق الحميدة وأوائلها ماذكره الله تعالى في قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وذلك لانا ذكرنا ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة جارية مجرى الامراض فاذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهرا عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت (والمرتبة الثالثة) حصول الهدى وهذه المرتبة لايمكن حصولها الا بعد المرتبة الثانية لان جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والاضواء الالهية وفيض الرحمة عام غير منقطع على ماقال عليه الصلاة والسلام ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها وأيضا فالمنع انما يكون اما للعجز أو للجهل أو للبخل والكل في حق الحق ممتنع فالمنع في حقه ممتنع فعلى هذا عدم حصول هذه الاضواء الروحانية انما كان لاجل ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة طبعها طبع الظلمة وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور فاذا زالت تلك الاحوال فقد زال العائق فلابد وأن يقع ضوء عالم القدس في جوهر النفس القدسية ولامعنى لذلك الضوء الا الهدى فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت وأول هذه المرتبة هو قوله ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك وأوسطها قوله تعالى ففروا الى الله وآخرها قوله قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ومجموعها قوله ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون وسيجيء تفسير هذه الآيات في مواضعها باذن الله تعالى وهذه المرتبة هي المراد بقوله سبحانه وهدى (وأما المرتبة الرابعة) فهي أن تصير النفس البالغة الى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على اجرام هذا العالم وذلك هو المراد بقوله ورحمة للمؤمنين وانما خص المؤمنين بهذا المعنى لان أرواح المعاندين لاتستضيء بأنوار أرواح الانبياء عليهم

أو جواب الاستفهام بالواو كما في قول الحطيئة

ألم أك جاركم ويكون بيني ٥ * وبينكم المودة والاخاء

أى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه اياك وقرئ بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرئ بالسكون كانه قيل يفسدوا ويذرك كقوله تعالى فأصدق وأكن (وآلهتك) ومعبوداتك قيل انه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه أصناما وأمرهم بأن يعبدوها تقربا اليه ولذلك قال أنا ربكم الاعلى وقرئ والاهتك أى عبادتك (قال) مجيبا لهم (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرئ سنقتل بالتخفيف (وانا فوقهم قاهرون) كما كنا لم يتغير حالنا أصلا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك (قال موسى لقومه) تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه (استعينوا بالله واصبروا) على ما سمعتم من أقاويله الباطلة (ان الارض لله) أى أرض مصر أو جنس الارض وهى داخلة فيها دخولا أوليا (يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) الذين أنتم منهم وفيه ايذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرئ والعاقبة بالنصب عطفا على

السلام لان الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذي يكون وجهه مقابلا لوجه الشمس فان لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه فكذلك كل روح لما لم تتوجه الى خدمة أرواح الانبياء المطهرين لم تنتفع بأنوارهم ولم يصل اليها آثار تلك الارواح المطهرة المقدسة وكما أن الاجسام التى لا تكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب فى البعد عن هذه المقابلة ولا تزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهى ذلك الجسم الى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس فلا جرم يبقى خالص الظلمة فكذلك تتفاوت مراتب النفوس فى قبول هذه الانوار عن أرواح الانبياء ولا تزال تتزايد حتى تنتهى الى النفس التى كملت ظلمتها وعظمت شقاوتها وانتهت فى العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة الى أقصى الغايات وأبعد النهايات فالحاصل أن الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغى وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الارواح عن العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى وهو اشارة الى ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة وهى اشارة الى كونها بالغة فى الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهى النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ولا تقديم ما تأخر ذكره ولما نبه الله تعالى فى هذه الآية على هذه الاسرار العالية الالهية قال قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون والمقصود منه الاشارة الى ما قرره حكماء الاسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبالغة فى تقرير هذا المعنى فلا فائدة فى الاعادة انتهى (المسئلة الثالثة) قوله قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا تقديره بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم يقول مرة أخرى فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد وأيضا قوله فبذلك فليفرحوا يفيد الحصر يعنى يجب أن لا يفرح الانسان الا بذلك * واعلم ان هذا الكلام يدل على أمرين (أحدهما) أنه يجب أن لا يفرح الانسان بشئ من الاحوال الجسمانية ويدل عليه وجوه (الاول) ان جماعة من المحققين قالوا لا معنى لهذه اللذات الجسمانية الا دفع الآلام والمعنى العدمى لا يستحق أن يفرح به (والثانى) ان بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية لكنها معنوية من وجوه (الاول) ان التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها ألا ترى ان أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ولا شك ان الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية (والثانى) أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة فانه لا سبيل الى تحصيل اللذة الجسمانية الا بهذين الطريقين أعنى لذة البطن والفرج وأما الآلام فان كل جزء من أجزاء بدن الانسان معه نوع آخر من الآلام ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخر (والثالث) ان اللذات الجسمانية لا تكون خالصة البتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره فلو لم يحصل فى لذة الاكل والوقاع الا اتعاب النفس فى مقدماتها وفى لواحقها لكفى (الرابع) ان اللذات الجسمانية لا تكون باقية فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد ولذلك قال المعرى

ان حزنا فى ساعة الموت أضعا * ف سرور فى ساعة الميلاد

فمن المعلوم ان الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته (الخامس) ان اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء لان لذة الاكل لا تبقى بحالها بل كما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالاكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة (السادس) ان اللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة فانها التذاذ بكيفيات حاصلة فى أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير فاما اللذات الروحانية فانها بالضد فى جميع هذه الجهات فثبت ان الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء (والبحث الثانى) من مباحث هذه الآية أنه اذا حصلت اللذات الروحانية فانه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هى هى بل يجب أن يفرح بها من حيث انها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته فلهذا السبب قال الصديقون من فرح بنعمة الله من

اسمر ان (قالوا) أي بنواسرائيل (أوذينا) أي من جهة فرعون (من قبل أن تأتينا) أي بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه الصلاة والسلام وبعده (ومن بعدما جئتنا) أى رسولا يعنون به ما توعدهم به من اعادة قتل الابناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب وأما ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من انواع الخدم والمهن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام (قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح بما لوح به فى قوله ان الارض لله الخ (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) الذى فعل بكم ما فعل وتوعدكم باعادته (ويستخلفكم فى الارض) أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر (فينظر كيف تعملون) أحسنا أم قبيحا فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الاعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للامر قيل لعل الاتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم فقد روى أن مصر انما فتحت فى زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها فان

حيث انها تلك النعمة فهو مشرك أما من فرح بنعمة الله من حيث انها من الله كان فرحه بالله وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا يعني فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي بل من حيث انها بفضل الله وبرحمة الله فهذه أسرار عالية اشتملت عليها هذه الالفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل وهذا ما تلخص عندنا في هذا الباب أما المفسرون فقالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله ﴿المسئلة الرابعة﴾ قرئ فلتفرحوا بالتاء قال الفراء وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبي فبذلك فافرحوا والاصل في الامر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد وذلك لان حكم الامر في الصورتين واحد الا ان العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله وحذفوا التاء أيضا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائي يعيب قولهم فلتفرحوا لانه وجده قليلا فجعله عيبا الا أن ذلك هو الاصل وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض المشاهد لتأخذوا مصافكم يريد به خذوا وهذا كله كلام الفراء وقرئ تجمعون بالتاء ووجهه انه تعالى عنى المخاطبين والغائبين الا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الانسان حصل فيه معنى يدعوه الى خدمة الله تعالى والى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات وفيه معنى آخر يدعوه الى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية ومادام الروح متعلقا بهذا الجسد فانه لا ينفك عن حب الجسد وعن طلب اللذات الجسمانية فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين وقال حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الالهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية والترجيح لجانب العقل لانه يدعو الى فضل الله ورحمته والنفس تدعو الى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لان الآخرة خير وأبقى وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل ❁ قوله تعالى ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها ولا أستحسن واحدا منها والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان (الاول) ان المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث في اثبات النبوة وتقريره انه عليه الصلاة والسلام قال للقوم انكم تحكمون بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه على سبيل الافتراء على الله تعالى وتعلمون أنه حكم حكم الله به والاول طريق باطل بالاتفاق فلم يبق الا الثاني ثم من المعلوم انه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة ولما بطل هذا ثبت ان هذه الاحكام انما وصلت اليكم بقول رسول أرسله الله اليكم ونبي بعثه الله اليكم وحاصل الكلام ان حكمكم بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل في الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة واذا كان الامر كذلك فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة في انكار النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذي ذكرته طريق حسن معقول ﴿الطريق الثاني﴾ في حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم في انكارها أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في شرائعهم وأحكامهم وبين ان التمييز بين هذه الاشياء بالحل والحرمة مع انه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد والمقصود ابطال مذاهب القوم في أديانهم وفي أحكامهم وأنهم ليسوا على شئ في باب من الابواب ﴿المسئلة الثانية﴾ المراد بالشئ الذي جعلوه حراما ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأيضا قوله تعالى وقالوا هذه أنعام وحرث حجر الى قوله وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وأيضا قوله تعالى ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز

للتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم وانما يجيء فعل الطمع للجري على سنن الكبرياء (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود وايذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا في خفض ودعة بل رتبت أسباب هلاكهم فتحولوا من حال الى حال الى أن حل بهم عذاب الاستئصال وتصدير الجملة بالقسم لاظهار الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان أشهرهما اجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ويحذف نونه بالاضافة واللغة الثانية اجراء الاعراب على النون ولكن مع الياء خاصة اما باثبات تنوينها أو بحذفه قال الفراء هي في هذه اللغة مصروفة عند بني عامر وغير مصروفة عند بني تميم ووجه حذف التنوين التخفيف وحينئذ لا يحذف النون للاضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر

دعاني من نجد فان سنينه ... لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وجاء الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف وسنينا كسنين يوسف باللغتين (ونقص من الثمرات) باصابة العاهات عن كعب يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة الا تمرة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات

اثنين والدليل عليه ان قوله فجعلتم منه حراما اشارة الى أمر تقدم منهم ولم يحك الله تعالى عنهم الا هذا فوجب توجه هذا الكلام اليه ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وهذه القسمة صحيحة لان هذه الاحكام اما أن تكون من الله تعالى أولم تكن من الله فان كانت من الله تعالى فهو المراد بقوله آلله أذن لكم وان كانت ليست من الله فهو المراد بقوله أم على الله تفترون ثم قال تعالى وما ظن الذين يفترون على الله الكذب وهذا وان كان في صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفترى على الله وقرأ عيسى بن عمر وما ظن على لفظ الفعل ومعناه أى ظن ظنوه يوم القيامة وجىء به على لفظ الماضى لما ذكرنا ان أحوال القيامة وان كانت آتية الا أنها لما كانت واجبة الوقوع فى الحكمة لاجرم عبر الله عنها بصيغة الماضى ثم قال ان الله لذو فضل على الناس أى باعطاء العقل وارسال الرسل وانزال الكتب ولكن أكثرهم لا يشكرون فلا يستعملون العقل فى التأمل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله ﴿المسئلة الثالثة﴾ ما فى قوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله فيه وجهان (أحدهما) بمعنى الذى فينتصب برأيتم (والآخر) أن يكون بمعنى أى فى الاستفهام فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وجاز أن يعبر عن الخلق بالانزال لان كل ما فى الارض من رزق فمما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما فلما كان ايجاده بالانزال سمى انزالا ﴿قوله تعالى ﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما أطال الكلام فى أمر الرسول بايراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار وفى أمره بايراد الجواب عن شبهاتهم وفى أمره بتحمل أذاهم وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين وتمام الخوف والفزع للمذنبين وهو كونه سبحانه عالما بعمل كل واحد وبما فى قلبه من الدواعى والصوارف فان الانسان ربما أظهر من نفسه نسكا وطاعة وزهدا وتقوى ويكون باطنه مملوأ من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك فاذا كان الحق سبحانه عالما بما فى البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم انه تعالى خصص الرسول فى أول هذه الآية بالخطاب فى أمرين ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين فى شئ واحد أما الامران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام (فالاول منهما) قوله وما تكون فى شأن واعلم ان ما ههنا جحد والشأن الخطب والجمع الشؤن تقول العرب ما شأن فلان أى ما حاله قال الاخفش وتقول ما شأنت شأنه أى ما عملت عمله وفيه وجهان قال ابن عباس وما تكون يا محمد فى شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن فى شأن من شأن الدنيا وحوائجك فيها (والثانى منهما) قوله تعالى وما تتلو منه من قرآن واختلفوا فى أن الضمير فى قوله منه الى ماذا يعود وذكروا فيه ثلاثة أوجه (الاول) انه راجع الى الشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه وعلى هذا التقدير فكان هذا داخلا تحت قوله وما تكون فى شأن الا أنه خصه بالذكر تنبيها على علو مرتبته كما فى قوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وكما فى قوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم (الثانى) أن هذا الضمير عائد الى القرآن والتقدير وما تتلو من القرآن من قرآن وذلك لانه كما ان القرآن اسم للمجموع فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والاضمار قبل الذكر يدل على التعظيم (الثالث) أن يكون التقدير وما تتلو من قرآن من الله أى نازل من عند الله * واقول قوله وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن أمران مخصوصان بالرسول صلى الله عليه وسلم وأما قوله ولا تعملون من عمل فهذا خطاب مع النبى ومع جميع الامة والسبب فى أن خص الرسول بالخطاب أولا ثم عمم الخطاب مع الكل هو أن قوله وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن وان كان بحسب الظاهر خطابا مختصا بالرسول الا أن الامة داخلون فيه ومرادون منه لانه من المعلوم

فكان فى أمصارهم (لعلهم يذكرون) كى يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لاجل معاصيهم ويتزجروا عما هم عليه من العتو والعناد قال الزجاج ان أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل وفى الرجوع اليه تعالى ألا يرى الى قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقد مر تحقيق القول فى لعل وفى محلها فى تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون فى أوائل سورة البقرة وقوله تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة) الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم فى الغى أى فاذا جاءتهم السعة والخصب وغيرهما من الخيرات (قالوا لنا هذه) أى لاجلنا واستحقاقنا لها (وان تصبهم سيئة) أى جدب وبلاء (يطيروا بموسى ومن معه) أى يتشاءموا بهم ويقولوا ما أصابتنا الا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم فان الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لاسيما بعد مشاهدة الآية وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شئ منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق للايذان بكثرة وقوعها وتعلق الارادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة وايرادها بحرف الشك للاشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الارادة بها الا بالعرض وقوله تعالى (ألا انما طائرهم عند الله) استئناف مسوق

أنه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب والدليل عليه قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ثم انه تعالى بعد أن خص الرسول بذلك الخطابين عم الكل بالخطاب الثالث فقال ولا تعملون من عمل فدل ذلك على كونهم داخلين في الخطابين الاولين ثم قال تعالى الا كنا عليكم شهودا وذلك لان الله تعالى شاهد على كل شيء وعالم بكل شيء أما على أصول أهل السنة والجماعة فالامر فيه ظاهر لانه لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة فكلها حصلت بايجاد الله تعالى واحداثه والموجد للشيء لابد وأن يكون عالما به فوجب كونه تعالى عالما بكل المعلومات وأما على أصول المعتزلة فقد قالوا انه تعالى حي وكل من كان حيا فانه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات والموجب لتلك العالمية هو ذاته سبحانه فنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضي حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالما بجميع المعلومات أما قوله تعالى اذ تفيضون فيه فاعلم أن الافاضة ههنا الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه وهو الانبساط في العمل يقال أفاض القوم في الحديث اذا اندفعوا فيه وقد أفاضوا من عرفة اذا دفعوا منه بكثرتهم فتفرقوا (فان قيل) اذ ههنا بمعنى حين فيصير تقدير الكلام الا كنا عليكم شهودا حين تفيضون فيه وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه فيلزم منه أن يقال انه تعالى ما علم الاشياء الا عند وجودها وذلك باطل (قلنا) هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه وهذا ممنوع فان الشهادة لا تكون الا عند حضور المشهود عليه وأما العلم فلا يمتنع تقدمه على الشيء والدليل عليه أن الرسول عليه الصلاة والسلام لو أخبرنا عن زيد أنه يأكل غدا كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها واعلم أن حاصل هذه الكلمات أنه لا يخرج عن علم الله شيء * ثم انه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد فقال وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين وفيه مسائل (المسألة الاولى) أصل العزوب من البعد يقال كلأ عازب اذا كان بعيد المطلب وعزب الرجل بابله اذا أرسلها الى موضع بعيد من المنزل والرجل سمي عزبا لبعده عن الاهل وعزب الشيء عن علمي اذا بعد (المسألة الثانية) قرأ الكسائي وما يعزب بكسر الزاي والباقون بالضم وفيه لغتان عزب يعزب وعزب يعزب (المسألة الثالثة) قوله من مثقال ذرة أي وزن ذرة ومثقال الشيء ما يساويه في الثقل والمعنى ما يساوي ذرة والذر صغار النمل واحدها ذرة وهي تكون خفيفة الوزن جدا وقوله في الارض ولا في السماء فالمعنى ظاهر * فان قيل لم قدم الله ذكر الارض ههنا على ذكر السماء مع انه تعالى قال في سورة سبأ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض * قلنا حق السماء أن تقدم على الارض الا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الارض وأعمالهم ثم وصل بذلك قوله لا يعزب عنه ناسب أن تقدم الارض على السماء في هذا الموضع * ثم قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وفيه قراءتان قرأ حمزة ولا أصغر ولا أكبر بالرفع فيهما والباقون بالنصب واعلم أن قوله وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة تقديره وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ مثقال عند دخول كلمة من عليه مجرور بحسب الظاهر ولكنه مرفوع في المعنى فالمعطوف عليه ان عطف على الظاهر كان مجرورا الا أن لفظ أصغر وأكبر غير منصرف فكان مفتوحا وان عطف على المحل وجب كونه مرفوعا ونظيره قوله ما أتاني من أحد عاقل وعاقل وكذا قوله ما لكم من اله غيره وقال الشاعر * فلسنا بالجبال ولا الحديدا * هذا ما ذكره النحويون قال صاحب الكشاف لو صح هذا العطف لصار تقديره هذه الآية وما يعزب عنه شيء في الارض ولا في السماء الا في كتاب وحينئذ يلزم أن يكون الشيء الذي في الكتاب خارجا عن علم الله تعالى وانه باطل * وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين (الاول) أنا بينا أن العزوب عبارة عن مطلق البعد واذا ثبت هذا فنقول الاشياء المخلوقة على قسمين قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والارض وقسم آخر

خيرهم الا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح أو ليس سبب شؤمهم وهو أعمالهم السيئة الا عنده تعالى أي مكتوبة لديه فانها التي ساقت اليهم ما يسوءهم لا ما عداها وقرئ انما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك فيقولون ما يقولون مما حكي عنهم واسناد عدم العلم الى أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس الا بما كسبت أيديهم ولكن لا يعملون بمقتضاه عنادا واستكبارا (وقالوا) شروع في بيان بعض آخر مما أخذ به آل فرعون من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أي قالوا بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات (مهما تأتنا به) كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء وأصلها ما الجزائية ضمت اليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت الى أين وان في أينما تكونوا فاما نذهبن بك خلا أن ألف الاولى قلبت هاء حذارا من تكرير المتجانسين هذا

أوجده الله بواسطة القسم الاول مثل الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد ولا شك ان هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله وما يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الارض ولا في السماء الا وهو في كتاب مبين وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه ومتى كان الامر كذلك فقد كان عالما بها محيطا بأحوالها والغرض منه الرد على من يقول انه تعالى غير عالم بالجزئيات وهو المراد من قوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (الوجه الثاني في الجواب) أن نجعل كلمة الا في قوله الا في كتاب مبين استثناء منقطعا بمعنى لكن هو في كتاب مبين وذكر أبو علي الجرجاني صاحب النظم عنه جوابا آخر فقال قوله وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر وهو قوله الا في كتاب مبين أي وهو أيضا في كتاب مبين قال والعرب تضع الا موضع واو النسق كثيرا على معنى الابتداء كقوله تعالى اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم يعني ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا يعني والذين ظلموا وهذا الوجه في غاية التعسف * وأجاب صاحب الكشاف بوجه رابع فقال الاشكال انما جاء اذا عطفنا قوله ولا أصغر من ذلك ولا أكبر على قوله من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء اما بحسب الظاهر أو بحسب المحل لكنا لا نقول ذلك بل نقول الوجه في القراءة بالنصب في قوله ولا أصغر من ذلك الحمل على نفي الجنس وفي القراءة بالرفع الحمل على الابتداء وخبره قوله في كتاب مبين وهذا الوجه اختيار الزجاج ﴿قوله تعالى ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ اعلم أنا بينا ان قوله تعالى وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن مما يقوي قلوب المطيعين ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور في هذه الآية وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أنا نحتاج في تفسير هذه الآية الى أن نبين أن الولي من هو ثم نبين تفسير نفي الخوف والحزن عنه فنقول أما ان الولي من هو فيدل عليه القرآن والخبر والاثر والمعقول أما القرآن فهو قوله في هذه الآية الذين آمنوا وكانوا يتقون فقوله آمنوا اشارة الى كمال حال القوة النظرية وقوله وكانوا يتقون اشارة الى حال كمال القوة العملية وفيه مقام آخر وهو أن يحمل الايمان على مجموع الاعتقاد والعمل ثم نصف الولي بانه كان متقيا في الكل أما التقوى في موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر فالصديق اذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال فهو يقدس الله تعالى عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرا على ذلك المقدار الذي عرفه ووصفه به واذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت انه أبدا يكون في مقام الخوف والتقوى وأما الاخبار فكثيرة روى عمر رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ هذه الآية وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم قال أهل التحقيق السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ولما ذكر الله سبحانه في قوله سيماهم في وجوههم من أثر السجود وأما الاثر فقال أبو بكر الاصم أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه * وأما المعقول فنقول ظهر في علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب فولي كل شيء هو الذي يكون قريبا منه والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال فالقرب منه انما يكون اذا كان القلب مستغرقا في نور معرفة الله تعالى سبحانه فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك في خدمة الله وان اجتهد اجتهد في طاعة الله فهنالك يكون في غاية القرب من الله فهذا

الشخص

هو الرأي السديد وقيل مه كلمة يصوت بها الناهي ضمت اليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء أو النصب بفعل يفسره ما بعدها أي أي شيء تظهره لدينا وقوله تعالى (من آية) بيان لمهما وتسميتهم اياها آية لمجاراتهم على رأي موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللاشعار بأن عنوان كونها آية لا يؤثر فيهم وقوله تعالى (لتسحرنا بها) اظهار لكمال الطغيان والغلو فيه وتسمية للارشاد الى الحق بالسحر وتسكير للابصار والضميران المجروران راجعان الى مهما وتذكير الاول لمراعاة جانب اللفظ لابهامه وتأنيث الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بآية كما في قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له (فما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك (فأرسلنا عليهم) عقوبة لجرائمهم لا سيما لقولهم هذا (الطوفان) أي الماء الذي طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل وقيل هو الجدري وقيل الموتان وقيل الطاعون (والجراد والقمل) قيل هو كبار القردان وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها (والضفادع والدم) روى انهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج أحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه الى تراقيهم ولم يدخل بيوت بني اسرائيل منه

الشخص يكون وليا لله تعالى وإذا كان كذلك كان الله تعالى وليا له أيضا كما قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ويجب أن يكون الامر كذلك لان القرب لا يحصل الا من الجانبين وقال المتكلمون ولي الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة فهذا كلام مختصر في تفسير الولي ❊ وأما قوله تعالى في صفتهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ففيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ أن الخوف انما يكون في المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شيء في المستقبل من المخوف والحزن انما يكون على الماضي اما لاجل أنه كان قد حصل في الماضي ما كرهه أو لانه فات شيء أحبه ﴿البحث الثاني﴾ قال بعض المحققين ان نفي الحزن والخوف اما أن يحصل للاولياء حال كونهم في الدنيا أو حال انتقالهم الى الآخرة والاول باطل لوجوه (أحدها) أن هذا لا يحصل في دار الدنيا لانها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصا لا يخلو من ذلك على ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعلى ما قاله حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (وثانيها) ان المؤمن وان صفا عيشه في الدنيا فانه لا يخلو من هم بأمر الآخرة شديد وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى واذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون على أمر الآخرة فهذا كلام محقق وقال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب فولي الله تعالى هو الذي يكون في غاية القرب من الله تعالى وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه في معرفة الله تعالى بحيث لا يخطر بباله في تلك اللحظة شيء مما سوى الله ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فان صاحبها لا يخاف شيأ ولا يحزن بسبب شيء وكيف يعقل ذلك والخوف من الشيء والحزن على الشيء لا يحصل الا بعد الشعور به والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله تعالى فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن وهذه درجة عالية ومن لم يذقها لم يعرفها ثم ان صاحب هذه الحالة قد تزول عنه هذه الحالة وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الاحوال الجسمانية كما يحصل لغيره وسمعت أن ابراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس في موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا منها والشيخ ما كان فازعا من تلك السباع فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة فقال المريد كيف تليق هذه الحالة بما قبلها فقال الشيخ انا انما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبي فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى ﴿المسئلة الثانية﴾ قال أكثر المحققين ان أهل الثواب لا يحصل لهم خوف في محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وبقوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة وأيضا فالقيامة دار الجزاء فلا يليق به ايصال الخوف ومنهم من قال بل يحصل فيه أنواع من الخوف وذكروا فيه أخبارا تدل عليه الا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد ❊ وأما قوله الذين آمنوا وكانوا يتقون ففيه ثلاثة أوجه (الاول) النصب بكونه صفة للاولياء (والثاني) النصب على المدح (والثالث) الرفع على الابتداء وخبره لهم البشرى وأما قوله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ففيه أقوال (الاول) المراد منه الرؤيا الصالحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال البشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعنه عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وعنه صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وعن ابن مسعود الرؤيا ثلاثة الهم يهم به الرجل من النهار فيراه في الليل وحضور الشيطان والرؤيا التي هي الرؤيا الصادقة وعن ابراهيم الرؤيا ثلاثة فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزأ من النبوة والشيء يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحزنه فليقل أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياي التي رأيتها أن تضرني في دنياي أو

قطارة وهي في خلال بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلا ما لم يعهد قبله ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا اليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج الى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القمل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها ففزعوا اليه ثالثا فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام الا وجدت فيه وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب الى قدورهم وهي تغلي والى أفواههم عند التكلم ففزعوا اليه رابعا وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء حتى كان يجتمع القبطي والاسرائيلي على اناء فيكون ما يليه دما وما يلي الاسرائيلي ماء على حاله ويمص من فم الاسرائيلي فيصير دما في فيه وقيل سلط الله عليهم الرعاف (آيات) حال

فى آخرتى واعلم أنا اذا حملنا قوله لهم البشرى على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى أن لا تحصل هذه الحالة الالهم والعقل أيضا يدل عليه وذلك لان ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ومن كان كذلك فهو عند النوم لا يبقى فى روحه الا معرفة الله ومن المعلوم أن معرفة الله ونور جلال الله لا يفيده الا الحق والصدق وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم فانه اذا نام يبقى كذلك فلا جرم لا اعتماد على رؤياه فلهذا السبب قال لهم البشرى فى الحياة الدنيا على سبيل الحصر والتخصيص (القول الثانى فى تفسير البشرى) أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم اياه بالثناء الحسن عن أبى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن واعلم أن المباحث العقلية تقوى هذا المعنى وذلك أن الكمال محبوب لذاته لا لغيره وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال صار محبوبا بالكل أحد ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله مستغرق اللسان بذكر الله مستغرق الجوارح والاعضاء بعبودية الله فاذا ظهر عليه أمر من هذا الباب صارت الالسنة جارية بمدحه والقلوب مجبولة على حبه وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر كانت هذه المحبة أقوى وأيضا فنور معرفة الله مخدوم بالذات ففى أى قلب حضر صار ذلك الانسان مخدوما بالطبع ألا ترى أن البهائم والسباع قد تكون أقوى من الانسان ثم انها اذا شاهدت الانسان هابته وفرت منه وما ذاك الا المهابة النفس الناطقة (والقول الثالث فى تفسير البشرى) انها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وسلام الله عليهم كما قال سلام قولا من رب رحيم ويندرج فى هذا الباب ما ذكره الله فى هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم وما يلقون فيها من الاحوال السارة فكل ذلك من المبشرات (والقول الرابع) ان ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه ودليله قوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان واعلم أن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ومجموع الامور المذكورة مشتركة فى هذه الصفة فيكون الكل داخلا فيه فكل ما يتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله لهم البشرى فى الحياة الدنيا وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله وفى الآخرة ثم انه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم قال تعالى لا تبديل لكلمات الله والمراد انه لا خلف فيها والكلمة والقول سواء ونظيره قوله ما يبدل القول لدى وهذا أحد ما يقوى أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب والكرامة لمن أطاعه بقوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ثم بين تعالى ان ذلك هو الفوز العظيم وهو كقوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ثم قال القاضى قوله لا تبديل لكلمات الله يدل على أنها قابلة للتبديل وكل ما قبل العدم امتنع أن يكون قديما ونظيره هذا الاستدلال بحصول النسخ على ان حكم الله تعالى لا يكون قديما وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه ﴿قوله تعالى ﴿ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون﴾ اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التى حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالاجوبة التى فسرناها وقررناها عدلوا الى طريق آخر وهو انهم هددوه وخوفوه وزعموا انا أصحاب التبع والمال فنسعى فى قهرك وفى ابطال أمرك والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا واعلم أن الانسان انما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده لو جوز كونه مؤثرا فى حاله فاذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لا يؤثر خرج من أن يكون سببا لحزنه ثم انه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا

من المنصوبات المذكورة (مفصلات) مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته وقيل مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعا وقيل انه عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل (فاستكبروا) أى عن الايمان بها (وكانوا قوما مجرمين) جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها (ولما وقع عليهم الرجز) أى العذاب المذكور على التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة أى كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات (قالوا) فى كل مرة (ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة أو بالذى عهد اليك أن تدعوه فيجيبك كما أجابك فى آياتك وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا اليه بما عهد عندك أو متعلق بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا الى ما نطلب بحق ما عندك أو قسم أجيب بقوله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز) الذى وقع علينا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل) أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ (فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه) أى الى حد من الزمان هم بالغوه

فاذا

فاذا كان الله تعالى هو الذى أرسله الى الخلق وهو الذى أمره بدعوتهم الى هذا الدين كان لا محالة ناصراله ومعينا ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست الا له فقد حصل الامن وزال الخوف * فان قيل فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفا حتى احتاج الى الهجرة والهرب ثم من بعد ذلك يخاف حالا بعد حال * قلنا ان الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقا والوقت ما كان معينا فهو فى كل وقت كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام فى هذا الوقت * وأما قوله تعالى ان العزة لله جميعا ففيه ابحاث ﴿البحث الاول﴾ قال القاضى ان العزة بالالف المكسورة وفى فتحها فساد يقارب الكفر لانه يؤدى الى ان القوم كانوا يقولون ان العزة لله جميعا وان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك أما اذا كسرت الالف كان ذلك استئنافا وهذا يدل على فضيلة علم الاعراب قال صاحب الكشاف وقرأ أبو حيوة أن العزة بالفتح على حذف لام العلة يعنى لان العزة على صريح التعليل ﴿البحث الثانى﴾ فائدة ان العزة لله فى هذا المقام أمور (الاول) المراد منه ان جميع العزة والقدرة هى لله تعالى يعطى ما يشاء لعباده والغرض منه أنه لا يعطى الكفار قدرة عليه بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم فآمنه الله تعالى بهذا القول من اضرار الكفار به بالقتل والايذاء ومثله قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى انا لننصر رسلنا (الثانى) قال الاصم المراد ان المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الاشياء كلها لله تعالى فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الاشياء وان ينصرك وينقل أموالهم وديارهم اليك * فان قيل قوله ان العزة لله جميعا كالمضادة لقوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين * قلنا لا مضادة لأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله أما قوله هو السميع العليم أى يسمع ما يقولون ويعلم ما يعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك وأما قوله ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض ففيه وجهان (الاول) انه تعالى ذكر فى الآيات المتقدمة ألا ان لله ما فى السموات والارض وهذا يدل على أن كل ما لا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له وأما ههنا فكلمة من مختصة بمن يعقل فتدل على أن كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالا على ان الكل ملكه وملكه (والثانى) ان المراد بمن فى السموات العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان وانما خصهم بالذكر ليدل على ان هؤلاء اذا كانوا له وفى ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحا فى جعل الاصنام شركاء لله تعالى ثم قال تعالى وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وفى كلمة ما قولان (الاول) انه نفى وجحد والمعنى انهم ما اتبعوا شريكا لله تعالى انما اتبعوا شيأ ظنوه شريكا لله تعالى ومثاله ان أحدنا لو ظن ان زيدا فى الدار وما كان فيها فخاطب انسانا فى الدار ظنه زيدا فانه لا يقال انه خاطب زيدا بل يقال خاطب من ظنه زيدا (الثانى) ان ما استفهام كأنه قيل أى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى انهم ليسوا على شئ ثم قال تعالى ان يتبعون الا الظن والمعنى انهم انما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة ثم بين ان هذا الظن لا حكم له وان هم الا يخرصون وذكرنا معنى الخرص فى سورة الانعام عند قوله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون * قوله تعالى ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله ان العزة لله جميعا احتج عليه بهذه الآية والمعنى انه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل النهار مبصرا أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم بالابصار والمبصر الذى يبصر والنهار يبصر فيه وانما جعله مبصرا على طريق نقل الاسم من السبب الى المسبب * فان قيل ان قوله هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه يدل على انه تعالى ما خلقه الا لهذا الوجه وقوله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيرة من الدلائل * قلنا ان قوله تعالى لتسكنوا لا يدل على أنه لا حكمة فيه الا ذلك بل ذلك يقتضى حصول تلك الحكمة * أما قوله تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون فالمراد يتدبرون ما يسمعون ويعتبرون به * قوله تعالى ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى

فهم ينكثون بعده أو مهلكون (اذا هم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير تأمل وتوقف (فانتقمنا منهم) أى فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوه من المعاصى والجرائم فان قوله تعالى (فأغرقناهم) عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام منهم والفاء تفسيرية كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ (فى اليم) فى البحر الذى لا يدرك قعره وقيل فى لجته (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) تعليل للاغراق أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى واعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية والفاء وان دلت على ترتب الاغراق على ما قبله من النكث لكنه صرح بالتعليل ايذانا بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى والاعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعراض عنها (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) أى بالاستعباد وذبح الابناء والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنو اسرائيل ذكروا بهذا العنوان اظهارا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيم احسانه اليهم فى رفعهم من

الارض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ اعلم أن هذا نوع آخر من الاباطيل التى حكاها الله تعالى عن الكفار وهى قولهم اتخذ الله ولدا ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول الملائكة بنات الله ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول الاوثان أولاد الله ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم انه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض واعلم ان كونه تعالى غنيا مالكا لكل ما فى السموات والارض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد وبيان ذلك من وجوه (الاول) أنه سبحانه غنى مطلقا على ما فى هذه الآية والعقل أيضا يدل عليه لانه لو كان محتاجا لافتقر الى صانع آخر وهو محال وكل من كان غنيا فانه لابد أن يكون فردا منزها عن الاجزاء والابعاض وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الانسان ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله واذا كان هذا محالا ثبت ان كونه تعالى غنيا يمنع من ثبوت الولد له ﴿الحجة الثانية﴾ انه تعالى غنى وكل من كان غنيا كان قديما أزليا باقيا سرمديا وكل من كان كذلك امتنع عليه الانقراض والانقضاء والولد انما يحصل للشئ الذى ينقضى وينقرض فيكون ولده قائما مقامه فثبت أن كونه تعالى غنيا يدل على انه يمتنع أن يكون له ولد ﴿الحجة الثالثة﴾ انه تعالى غنى وكل من كان غنيا فانه يمتنع أن يكون موصوفا بالشهوة واللذة واذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد ﴿الحجة الرابعة﴾ انه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له ولد لان اتخاذ الولد انما يكون فى حق من يكون محتاجا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة فمن كان غنيا مطلقا امتنع عليه اتخاذ الولد ﴿الحجة الخامسة﴾ ولد الحيوان انما يكون ولدا له بشرطين اذا كان مساويا له فى الطبيعة والحقيقة ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه وهذا فى حق الله تعالى محال لانه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا كان واجب الوجود لذاته فلو كان لواجب الوجود ولد لكان ولده مساويا له فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضا واجب الوجود لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره واذا لم يكن متولدا من غيره لم يكن ولدا فثبت أن كونه تعالى غنيا من أقوى الدلائل على انه تعالى لا ولد له وهذه الثلاثة مع الثلاثة الاول فى غاية القوة ﴿الحجة السادسة﴾ أنه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له أب وأم وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدسا عن الاولاد ※ فان قيل يشكل هذا بالوالد الاول ※ قلنا الوالد الاول لا يمتنع كونه ولدا لغيره لانه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الاول من أبوين يقدمانه اما الحق سبحانه فانه يمتنع افتقاره الى الابوين والا لما كان غنيا مطلقا ﴿الحجة السابعة﴾ انه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا امتنع أن يفتقر فى احداث الاشياء الى غيره اذا ثبت هذا فنقول هذا الولد اما أن يكون قديما أو حادثا فان كان قديما فهو واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكن الوجود لافتقر الى المؤثر وافتقار القديم الى المؤثر يقتضى ايجاد الموجود وهو محال واذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولدا لغيره بل كان موجودا مستقلا بنفسه وأما ان كان هذا الولد حادثا والحق سبحانه غنى مطلقا فكان قادرا على احداثه ابتداء من غير تشريك شئ آخر فكان هذا عبدا مطلقا ولم يكن ولدا فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله هو الغنى الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد أما قوله له ما فى السموات وما فى الارض فاعلم أنه نظير قوله ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا وحاصله يرجع الى أن ما سوى الواحد الاحد الحق ممكن وكل ممكن محتاج وكل محتاج محدث فكل ما سوى الواحد الاحد الحق محدث والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول باثبات الصاحبة والولد ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف عليهم بالانكار والتوبيخ فقال ان عندكم من سلطان بهذا منبها بهذا على انه لا حجة عندهم فى ذلك البتة ثم بالغ فى ذلك الانكار فقال أتقولون على الله مالا تعلمون وقد ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها فى ابطال التقليد فى أصول الديانات ونفاة القياس وأخبار الآحاد قد يحتجون بها فى ابطال هذين الاصلين وقد سبق الكلام فيه ۞ قوله تعالى ﴿قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى

حضيض المذلة الى أوج العزة (مشارق الارض ومغاربها) أى جانبها الشرقى والغربى حيث ملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى أكنافها الشرقية والغربية كيف شاؤا وقوله تعالى (التى باركنا فيها) أى بالخصب وسعة الارزاق صفة للمشارق والمغارب وقيل للارض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى قولك قامت أم هند وأبوها العاقلة (وتمت كلمة ربك الحسنى) وهى وعده تعالى اياهم بالنصر والتمكين كما ينبئ عنه قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وقرئ كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت (على بنى اسرائيل بما صبروا) أى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة فرعون وقومه (ودمرنا) أى خربنا وأهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات والقصور أى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد الى ما الموصولة ويصنع مسند الى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف أيضا والتقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الخ وقيل كان زائدة وما

الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ اعلم انه تعالى لما بين بالدليل القاهر
أن اثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بين انه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله فقد ظهر أن ذلك المذهب
افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به اليه فبين ان من هذا حاله فان لا يفلح البتة ألا ترى انه تعالى قال في أول سورة
المؤمنون قد أفلح المؤمنون وقال في آخر هذه السورة انه لا يفلح الكافرون واعلم أن قوله ان الذين يفترون
على الله الكذب لا يفلحون يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال في ذات
الله تعالى وفي صفاته قولا بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلا في هذا الوعيد ومعنى قوله لا يفلح قد ذكرناه في
أول سورة البقرة في قوله تعالى وأولئك هم المفلحون وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول الى المقصود
والمطلوب فمعنى انه لا يفلح هو انه لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر ومن الناس من اذا فاز بشئ
من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد الاقصى والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن
قال ان ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا ثم لا بد من الموت وعند الموت لا بد من الرجوع الى الله
وعند هذا الرجوع لا بد وأن يذيقه الله العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم وهذا كلام في غاية
الانتظام ونهاية الحسن والجزالة والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ياقوم ان كان
كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم
اقضوا الي ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾
اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات شرع بعد ذلك في بيان
قصص الانبياء عليهم السلام لوجوه (أحدها) أن الكلام اذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم فربما
حصل نوع من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر انشرح صدره وطاب
قلبه ووجد من نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا (وثانيها) ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام
ولاصحابه أسوة بمن سلف من الانبياء فان الرسول اذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت
الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت (وثالثها) أن الكفار اذا سمعوا هذه
القصص وعلموا أن الجهال وان بالغوا في ايذاء الانبياء المتقدمين الا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم
وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف
والوجل في صدورهم وحينئذ يقللون من أنواع الايذاء والسفاهة (ورابعها) انا قد دللنا على أن محمدا عليه
الصلاة والسلام لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه الاقاصيص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن
غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحي والتنزيل * واعلم أنه تعالى ذكر في هذه
السورة من قصص الانبياء عليهم السلام ثلاثة ﴿فالقصة الاولى﴾ قصة نوح عليه السلام وهي المذكورة
في هذه الآية وفيها وجهان من الفائدة (الاول) ان قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر والجحد
عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار وداعية الى مفارقة
الجحد بالتوحيد والنبوة (والثاني) ان كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول عليه الصلاة
والسلام لهم وكانوا يقولون له كذبت فانه ما جاءنا هذا العذاب فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام
لانه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا ﴿المسئلة
الثانية﴾ أن نوحا عليه السلام قال لقومه ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت وهذا
جملة من الشرط والجزاء أما الشرط فهو مركب من قيدين ﴿القيد الاول﴾ قوله ان كان كبر عليكم مقامي قال
الواحدي في البسيط يقال كبر يكبر كبرا في السن وكبر الامر والشئ اذا عظم يكبر كبرا وكبارة قال ابن عباس
ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمقام بفتح الميم مصدر كالاقامة يقال أقام بين أظهرهم مقاما
واقامة والمقام بضم الميم الموضع الذي يقام فيه وأراد بالمقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله كبر عليكم
مقامي جار مجرى قولهم فلان ثقيل الظل واعلم أن سبب هذا الثقل أمران (أحدهما) أنه عليه السلام

مصدرية والتقدير ما يصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصولة اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذي يصنعه فرعون الخ أي صنعه والعدول الى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة (وما كانوا يعرشون) من الجنات أوما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرئ يعرشون بضم الراء والكسر أفصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه وقوله عز وجل (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) شروع في قصة بني اسرائيل وشرح ما أحدثوه من الامور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة للشكر وأراهم من الآيات الكبار ما تخر له صم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وايقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم وجاوز بمعنى جاز وقرئ جوزنا بالتشديد وهو أيضا بمعنى جاز فعدي بالباء أي قطعنا بهم البحر روي أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكرا لله عز وجل (فأتوا) أي مروا (على قوم) قيل كانوا من لخم وقيل من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم (يعكفون على أصنام لهم) أي يواظبون على عبادتها ويلازمونها وقرئ بكسر الكاف قال ابن جريج كانت

مكث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما (والثانى) ان أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة فى الدين فانه يثقل عليه أن يدعى الى خلافها ويذكر له ركاكتها فاذا اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية فان اقترن به ايراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب فى حصول ذلك الثقل ﴿والقيد الثانى﴾ هو قوله وتذكيرى بآيات الله واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الامر بالطاعات والنهى عن المعاصى والمنكرات قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فانه يستثقل الانسان الذى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفى الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله معناه انهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود واعلم أن هذا هو الشرط المذكور فى هذه الآية أما الجزاء ففيه قولان (الاول) أن الجزاء هو قوله فعلى الله توكلت يعنى ان شدة بغضكم لى تحملكم على الاقدام على ايذائى وأنا لا أقابل ذلك الشر الا بالتوكل على الله واعلم أنه عليه السلام كان أبدا متوكلا على الله تعالى وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله فى هذه الساعة لكن المعنى انه انما توكل على الله فى دفع هذا الشر فى هذه الساعة (والقول الثانى) وهو قول الاكثرين ان جواب الشرط هو قوله فأجمعوا أمركم وشركاءكم وقوله فعلى الله توكلت كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول فى الكلام ان كنت أنكرت على شيأ فالله حسبى فاعمل ما تريد واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب ﴿القيد الاول﴾ قوله فأجمعوا أمركم وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ قال الفراء الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وأنشد

يا ليت شعرى والمنى لا ينفع * هل أغدون يوما وأمرى مجمع

واذا أردت جمع المتفرق قلت جمعت القوم فهم مجموعون وقال أبو الهيثم أجمع أمره أى جعله جميعا بعد ما كان متفرقا قال وتفرقه أنه جعل يتدبره فيقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا فهذا هو الاصل فى الاجماع ومنه قوله تعالى وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى فقيل أجمعت على الامر أى عزمت عليه والاصل أجمعت الامر ﴿البحث الثانى﴾ روى الاصمعى عن نافع فاجمعوا أمركم بوصل الالف من الجمع وفيه وجهان (الاول) قال أبو على الفارسى فاجمعوا ذوى الامر منكم فحذف المضاف وجرى على المضاف اليه ما كان يجرى على المضاف لو ثبت (الثانى) قال ابن الانبارى المراد من الامر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير ولا تدعوا من أمركم شيأ الا أحضرتموه ﴿والقيد الثانى﴾ قوله وشركاءكم وفيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ الواو ههنا بمعنى مع والمعنى فأجمعوا أمركم مع شركائكم ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ولو خليت نفسك والاسد لأكلك ﴿البحث الثانى﴾ يحتمل أن يكون المراد من الشركاء الاوثان التى سموها بالآلهة ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم فان كان المراد هو الاول فانما حث الكفار على الاستعانة بالاوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع وان كان المراد هو الثانى فوجه الاستعانة بهم ظاهر ﴿البحث الثالث﴾ قرأ الحسن وجماعة من القراء وشركاؤكم بالرفع عطفا على الضمير المرفوع والتقدير فأجمعوا أنتم وشركاؤكم قال الواحدى وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله اسكن أنت وزوجك الجنة لان قوله أمركم فصل بين الضمير وبين المنسوق فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة لانها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود فى المصاحف ﴿القيد الثالث﴾ قوله ثم لا يكن أمركم عليكم غمة قال أبو الهيثم أى مبهما من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم اذا التبس قال طرفة

لعمرى ما أمرى على بغمة * نهارى ولا ليلى على بسرمد

وقال الليث انه لفى غمة من أمره اذا لم يهتد له قال الزجاج أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا ﴿القيد الرابع﴾

أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل (قالوا) عند ما شاهدوا أحوالهم (يا موسى اجعل لنا الها) مثالا نعبده (كما لهم آلهة) الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لالها وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا الها كائنا كالذى استقر هو لهم (قال انكم قوم تجهلون) تعجب عليه السلام من قولهم هذا اثر ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق اذ لا جهل أعظم مما ظهر منهم وأكده بقوله (ان هؤلاء) يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل (متبر) أى مدمر مكسر (ما هم فيه) أى من الدين الباطل أى يتبر الله تعالى ويهدم دينهم الذى هم عليه عن قريب ويحطم أصنامهم ويتركها رضاضا وانما جىء بالجملة الاسمية للدلالة على التحقق (وباطل) أى مضمحل بالكلية (ما كانوا يعملون) من عبادتها وان كان قصدهم بذلك التقرب الى الله تعالى فانه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كما توهم فان المراد به أعمال البر التى عملوها فى الجاهلية فانها فى أنفسها حسنات لو قارنت الايمان لاستتبعت أجورها وانما بطلت لمقارنتها الكفر وفى ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة الاصنام بأنهم هم المعرضون للتبار

قوله

قوله ثم اقضوا الى وفيه بحثان (البحث الاول) قال ابن الانبارى معناه ثم امضوا الى بمكروهكم وما توعدونى به تقول العرب قضى فلان يريدون مات ومضى وقال بعضهم قضاء الشئ احكامه وامضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضى لانه اذا حكم فقد فرغ فقوله ثم اقضوا الى أى افرغوا من أمركم وامضوا ما فى أنفسكم واقطعوا ما بينى وبينكم ومنه قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب أى أعلمناهم اعلاما قاطعا قال تعالى وقضينا اليه ذلك الامر قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة الى فى هذا الموضع من قولهم برئت اليك وخرجت اليك من العهد وفيه معنى الاخبار فكأنه تعالى قال ثم اقضوا الى ما يستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه (البحث الثانى) قرئ ثم افضوا الى بالفاء بمعنى ثم انتهوا الى بشركم وقيل هو من أفضى الرجل اذا خرج الى الفضاء أى أصحروا به الى وأبرزوه الى (القيد الخامس) قوله ولا تنظرون معناه لا تمهلون بعد اعلامكم اياى ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الالفاظ وقد نظم القاضى هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال انه عليه الصلاة والسلام قال فى أول الامر فعلى الله توكلت فانى واثق بوعد الله جازم بانه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم اياى بالقتل والايذاء يمنعنى من الدعاء الى الله تعالى ثم انه عليه الصلاة والسلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال فأجمعوا أمركم فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الاسباب التى توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا الى أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانهم وبالتقرب اليهم ثم لم يقتصر على هذين بل ضم اليهما ثالثا وهو قوله ثم لا يكن أمركم عليكم غمة وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية فى المكاشفة والمجاهرة ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم اليها رابعا فقال ثم اقضوا الى والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور الى ثم ضم الى ذلك خامسا وهو قوله ولا تنظرون أى عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير انظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله تعالى وانه كان قاطعا بان كيدهم لا يصل اليه ومكرهم لا ينفذ فيه * وأما قوله تعالى فان توليتم فما سألتكم من أجر فقال المفسرون هذا اشارة الى انه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم الى دين الله تعالى ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال انه عليه الصلاة والسلام بين انه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لان الخوف انما يحصل باحد شيئين اما بايصال الشر أو بقطع المنافع فبين فيما تقدم انه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا لانه ما أخذ منهم شيأ فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا * ثم قال ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين وفيه قولان (الاول) انكم سواء قبلتم دين الاسلام أو لم تقبلوه فانا مأمور بأن أكون على دين الاسلام (والثانى) أنى مأمور بالاستسلام لكل ما يصل الى لاجل هذه الدعوة وهذا الوجه أليق بهذا الموضع لانه لما قال ثم اقضوا الى بين لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل اليه فى هذا الباب والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ اعلم انه تعالى لما حكى الكلمات التى جرت بين نوح وبين أولئك الكفار ذكر ما اليه رجعت عاقبة تلك الواقعة أما فى حق نوح وأصحابه فأمران (أحدهما) انه تعالى نجاهم من الكفار (الثانى) أنه جعلهم خلائف بمعنى انهم يخلفون من هلك بالغرق وأما فى حق الكفار فهو انه تعالى أغرقهم وأهلكهم وهذه القصة اذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدا وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الانبياء عليهم السلام وأما تفاصيل هذه القصة فهى مذكورة فى سائر السور ۞ قوله تعالى ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ اعلم ان المراد ثم بعثنا من بعد نوح رسلا ولم يسمهم وكان منهم هود وصالح

وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب ايحذرهم عاقبة ما طلبوا أو يبغض اليهم ما أحبوا (قال أغير الله أبغيكم الها) شروع فى بيان شؤن الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه الصلاة والسلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ وادخال الهمزة على غير للايذان بأن المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لما أنه لاختصاص الانكار بغيره تعالى دون انكار الاختصاص بغيره تعالى وانتصاب غير على أنه مفعول أبغى بحذف اللام أى أبغى لكم أى أطلب لكم غير الله تعالى والها اما تمييز أو حال أو على الحالية من الها وهو المفعول لابغى على أن الاصل أبغى لكم الها غير الله فغير الله صفة لالها فلما قدمت صفة النكرة انتصبت حالا (وهو فضلكم على العالمين) أى والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وفيه تنبيه على ما صنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى اياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بأن عمدوا الى أخس شئ من مخلوقاته تعالى فجعلوه شريكا له تعالى تبالهم ولما يعبدون (واذ أنجيناكم) تذكير لهم من جهته سبحانه بنعمة الانجاء من ملكة فرعون

وقرئ نجيناكم من التنجية وقرئ أنجاكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أي واذكروا وقت انجائنا اياكم

وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات وهي المعجزات القاهرة فأخبر تعالى عنهم انهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما بلغهم من اهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك فلهذا قال فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل وليس المراد عين ما كذبوا به لان ذلك لم يحصل في زمانهم بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات لان البينات الظاهرة على الانبياء عليهم السلام أجمع كانها واحدة ثم قال تعالى كذلك نطبع على قلوب المعتدين واحتج أصحابنا على ان الله تعالى قد يمنع المكلف عن الايمان بهذه الآية وتقريره ظاهر قال القاضي الطبع غير مانع من الايمان بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ولو كان هذا الطبع مانعا لما صح هذا الاستثناء (والجواب) ان الكلام في هذه المسئلة قد سبق على الاستقصاء في تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا فائدة في الاعادة ﴿القصة الثانية﴾ قصة موسى عليه السلام ۞ قوله تعالى ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾ اعلم أن هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد وهو ان القوم لما قالوا ان هذا لسحر مبين فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا أسحر هذا على سبيل الاستفهام (وجوابه) ان موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا أسحر هذا بل قال أتقولون للحق لما جاءكم ما تقولون ثم حذف عنه مفعول أتقولون لدلالة الحال عليه ثم قال مرة أخرى أسحر هذا وهذا استفهام على سبيل الانكار ثم احتج على انه ليس بسحر وهو قوله ولا يفلح الساحرون يعني ان حاصل صنعهم تخييل وتمويه ولا يفلح الساحرون وأما قلب العصا حية وفلق البحر فمعلوم بالضرورة انه ليس من باب التخييل والتمويه فثبت انه ليس بسحر ۞ قوله تعالى ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم انه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام وعللوا عدم القبول بأمرين (الاول) قوله أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا قال الواحدي اللفت في أصل اللغة الصرف عن أمر واصله اللي يقال لفت عنقه اذا لواها ومن هذا يقال التفت اليه أي أمال وجهه اليه قال الازهري لفت الشيء وفتله اذا لواه وهذا من المقلوب واعلم ان حاصل هذا الكلام انهم قالوا لا نترك الدين الذي نحن عليه لانا وجدنا آباءنا عليه فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الاصرار ﴿والسبب الثاني﴾ في عدم القبول قوله وتكون لكما الكبرياء في الارض قال المفسرون المعنى ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا فالنبي اذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته اليه فصار أكبر القوم واعلم ان السبب الاول اشارة الى التمسك بالتقليد والسبب الثاني اشارة الى الحرص على طلب الدنيا والجد في بقاء الرياسة ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا وما نحن لكما بمؤمنين واعلم ان القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ليظهروا عند الناس ان ما أتى به موسى من باب السحر فجمع فرعون السحرة وأحضرهم فقال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴿فان قيل﴾ كيف أمرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر كفر (قلنا) انه عليه السلام أمرهم بالقاء الحبال والعصي ليظهر للخلق ان ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل والغرض منه أن القوم قالوا لموسى ان ما جئت به سحر فذكر موسى عليه السلام ان ما ذكرتموه باطل بل الحق ان الذي جئتم به هو السحر والتمويه الذي يظهر بطلانه ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل وقد أخبر الله تعالى في سائر السور انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب ان

(من آل فرعون) من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم في المكنة والقدرة بل باهلاكهم بالكلية وقوله تعالى (يسومونكم سوء العذاب) من سامه خسفا أي أولاه اياه أو كلفه اياه وهو اما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له (وفي ذلكم) الانجاء أو سوء العذاب (بلاء) أي نعمة أو محنة (من ربكم) من مالك أمركم فان النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى (عظيم) لا يقادر قدره (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) روي أن موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فافسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فأمره

ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله ما جئتم به السحر ما ههنا موصولة بمعنى الذى وهى مرتفعة بالابتداء وخبرها السحر قال الفراء وانما قال السحر بالالف واللام لانه جواب كلام سبق ألا ترى أنهم قالوا لما جاءهم موسى هذا سحر فقال لهم موسى بل ما جئتم به السحر فوجب دخول الالف واللام لان النكرة اذا عادت عادت معرفة يقول الرجل لغيره لقيت رجلا فيقول له من الرجل فيعيده بالالف واللام ولو قال له من رجل لم يقع فى فهمه انه سأله عن الرجل الذى ذكره له وقرأ أبو عمرو آلسحر بالاستفهام وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء وجئتم به فى موضع الخبر كأنه قيل أى شئ جئتم به ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع آلسحر كقوله تعالى أأنت قلت للناس والسحر بدل من المبتدا ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوى المبدل منه فى انه استفهام كما تقول كم مالك أعشرون أم ثلاثون فجعلت أعشرون بدلا من كم ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر لانك اذا أبدلته من المبتدا صار فى موضعه وصار ما كان خبرا عن المبدل منه خبرا عنه ثم قال تعالى ان الله سيبطله أى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين أى لا يقويه ولا يكمله ثم قال ويحق الله الحق ومعنى احقاق الحق اظهاره وتقويته وقوله بكلماته أى بوعده موسى وقيل بما سبق من قضائه وقدره وفى كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية وقد ذكرناها فى بعض مواضع من هذا الكتاب ۞ قوله تعالى ﴿فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين﴾ واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ثم انه تعالى بين انهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر فبين ان له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الاعجاز فى مرأى العين أعظم ومع ذلك فما آمن به منهم الا ذرية واختلفوا فى المراد بالذرية على وجوه (الاول) ان الذرية ههنا معناها تقليل العدد قال ابن عباس لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ولا سبيل الى حمله على التحقير على وجه الاهانة فى هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد (الثانى) قال بعضهم المراد أولاد من دعاهم لان الآباء استمروا على الكفر اما لان قلوب الاولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف (الثالث) أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بنى اسرائيل (الرابع) الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها وأما الضمير فى قوله من قومه فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون لان ذكرهما جميعا قد تقدم والاظهر أنه عائد الى موسى لانه أقرب المذكورين ولانه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بنى اسرائيل ✻ أما قوله على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ففيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدا لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى فاذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ﴿البحث الثانى﴾ انما قال وملئهم مع ان فرعون واحد لوجوه (الاول) أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم قال الله تعالى انا نحن نزلنا الذكر (الثانى) أن المراد بفرعون آل فرعون (الثالث) أن هذا من باب حذف المضاف كانه أريد بفرعون آل فرعون ثم قال أن يفتنهم أى يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم ثم قال وان فرعون لعال فى الارض أى لغالب فيها قاهر وانه لمن المسرفين قيل المراد انه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه فى أمر من الامور والغرض منه بيان السبب فى كون أولئك المؤمنين خائفين وقيل انما كان مسرفا لانه كان من أخس العبيد فادعى الالهية ۞ قوله تعالى ﴿وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين جزاء معلق على شرطين أحدهما متقدم والآخر

الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى (وأتممناها بعشر) والتعبير عنها بالليالى لانها غرر الشهور وقيل أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرئ كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لوعدنا بحذف المضاف أى اتمام ثلاثين ليلة (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) أى بالغا أربعين ليلة (وقال موسى لاخيه هرون) حين توجه الى المناجاة حسبما أمر به (اخلفنى) أى كن خليفتى (فى قومى) وراقبهم فيما يأتون وما يذرون (وأصلح) ما يحتاج الى الاصلاح من أمورهم أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) أى لا تتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه (ولما جاء موسى لميقاتنا) لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص مجيئه بميقاتنا (وكلمه ربه) من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين (قال رب أرنى أنظر اليك) اى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر

متأخر والفقهاء قالوا المتأخر يجب أن يكون متقدما والمتقدم يجب أن يكون متأخرا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته ان دخلت الدار فأنت طالق ان كلمت زيدا وانما كان الامر كذلك لان مجموع قوله ان دخلت الدار فأنت طالق صار مشروطا بقوله ان كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط وذلك يقتضى أن يكون المتأخر في اللفظ متقدما في المعنى وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرا في المعنى والتقدير كانه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا ان دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا التعليق قبل ان كلمت زيدا لم يقع الطلاق اذا عرفت هذا فنقول قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين يقتضى أن يكون كونهم مسلمين شرطا لان يصيروا مخاطبين بقوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا فكانه تعالى يقول للمسلم حال اسلامه ان كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والامر كذلك لان الاسلام عبارة عن الاستسلام وهو اشارة الى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى واظهار الخضوع وترك التمرد وأما الايمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد وان ماسواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره الى الله تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الاسرار والتوكل على الله عبارة عن تفويض الامور بالكلية الى الله تعالى والاعتماد في كل الاحوال على الله تعالى واعلم أن من توكل على الله تعالى في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴿المسئلة الثانية﴾ أن هذا الذى أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذى حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال فعلى الله توكلت وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لان نوحا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاما وكان موسى عليه السلام فوق التمام ﴿المسئلة الثالثة﴾ انما قال فعليه توكلوا ولم يقل توكلوا عليه لان الاول يفيد الحصر كانه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير والامر كذلك لانه لما ثبت أن كل ماسواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره امتنع في العقل أن لا يتوكل الانسان على غيره فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا على الله توكلنا أى توكلنا عليه ولا نلتفت الى أحد سواه ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء فطلبوا من الله تعالى شيئين (أحدهما) ان قالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين وفيه وجوه (الاول) أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لانك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم انا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قوية في اصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم (الثانى) أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة وذلك يكون فتنة لهم (الثالث) لا تجعلنا فتنة لهم أى موضع فتنة لهم أى موضع عذاب لهم (الرابع) أن يكون المراد من الفتنة المفتون لان اطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق والتكوين بمعنى المكون والمعنى لا تجعلنا مفتونين أى لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وأما المطلوب الثانى في هذا الدعاء فهو قوله تعالى ونجنا برحمتك من القوم الكافرين واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم وذلك لانا ان حملنا قولهم ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين على أنهم ان سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في ان هذا الدين باطل فتضرعوا الى الله تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لانفسهم وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وان حملناه على أن لا يمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضا دليلا على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم

اليك وأراك وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لما أن طلب المستحيل مستحيل من الانبياء لاسيما ما يقتضى الجهل بشؤن الله تعالى ولذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة خطأ اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا الها ولا يتبع سبيلهم كما قال لاخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ اذ لا يدل الاخبار بعدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كانه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ما قال فقيل قال (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل أيضا دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن فلما تجلى ربه للجبل أى ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة ورؤية

حتى رآه (جعله دكا) مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرئ دكاء أي أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء التي

قبلة وأقيموا الصلوة وبشر المؤمنين﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون باتخاذ المساجد والاقبال على الصلوات يقال تبوأ المكان أي اتخذه مبوأ كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون اليه للعبادة والصلاة ※ثم قال واجعلوا بيوتكم قبلة وفيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ من الناس من قال المراد من البيوت المساجد كما في قوله تعالى في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ومنهم من قال المراد مطلق البيوت أما الاولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة ثم قالوا والمراد من قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أي اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقال الفراء واجعلوا بيوتكم قبلة أي الى القبلة وقال ابن الانباري واجعلوا بيوتكم قبلة أي قبلا يعني مساجد فأطلق لفظ الوحدان والمراد الجمع واختلفوا في أن هذه القبلة أين كانت فظاهر أن لفظ القرآن لا يدل على تعيينه الا أنه نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام وكان الحسن يقول الكعبة قبلة كل الانبياء وانما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى في أيام الرسول عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة وقال آخرون كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة في هذه الآية مطلق البيت فهؤلاء لهم في تفسير قوله قبلة وجهان (الاول) المراد جعل تلك البيوت قبلة أي متقابلة والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض وقال آخرون المراد واجعلوا دوركم قبلة أي صلوا في بيوتكم ﴿البحث الثاني﴾ أنه تعالى خص موسى وهرون في أول هذه الآية بالخطاب فقال أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهرون أن يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يفوض الى الانبياء ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لان ذلك واجب على الكل ثم خص موسى عليه الصلاة والسلام في آخر الكلام بالخطاب فقال وبشر المؤمنين وذلك لان الغرض الاصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الاصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هرون تبع له ﴿البحث الثالث﴾ ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة (الاول) ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة في أول الاسلام في مكة (الثاني) قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون (الثالث) انه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الاعداء ۞ قوله تعالى ﴿وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ اعلم أن موسى عليه السلام لما بالغ في اظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو أنهم لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين فلهذا السبب قال موسى عليه السلام ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا والزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والمال ما يزيد على هذه الاشياء من الصامت والناطق ※ثم قال ليضلوا عن سبيلك وفيه مسألتان ﴿المسألة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ليضلوا بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء ﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضل الناس ويريد اضلالهم وتقريره من وجهين (الاول) أن اللام في قوله ليضلوا لام التعليل والمعنى أن موسى قال يارب العزة انك أعطيتهم هذه الزينة والاموال لاجل أن يضلوا فدل هذا على أنه تعالى قد يريد اضلال الكافرين (الثاني) أنه قال واشدد على قلوبهم فقال الله تعالى قد

لاسنام لها وقرئ دكا جمع دكاء أي قطعا (وخر موسى صعقا) مغشيا عليه من هول ما رآه (فلما أفاق) الافاقة رجوع العقل والفهم الى الانسان بعد ذهابه بما يسبب من الاسباب (قال) تعظيما لما شاهده (سبحانك) أي تنزيها لك من أن أسألك شيأ بغير اذن منك (تبت اليك) أي من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن (وأنا أول المؤمنين) أي بعظمتك وجلالك وقيل أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا وقيل بأنه لا يجوز السؤال بغير اذن منك (قال ياموسى) استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الاجابة الى سؤال الرؤية كأنه قيل ان منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها (انى اصطفيتك) أي اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك (على الناس) أي المعاصرين لك وهرون وان كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع (برسالاتي) أي بأسفار التوراة وقرئ برسالتي (وبكلامي) وبتكليمي اياك بغير

واسطة (فخذ ما آتيتك) أي أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على ما أعطيت من جلائل النعم قيل كان سؤال

وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات وهي المعجزات القاهرة فأخبر تعالى عنهم انهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما بلغهم من اهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك فلهذا قال فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل وليس المراد عين ما كذبوا به لان ذلك لم يحصل في زمانهم بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات لان البينات الظاهرة على الانبياء عليهم السلام أجمع كانها واحدة ثم قال تعالى كذلك نطبع على قلوب المعتدين واحتج أصحابنا على ان الله تعالى قد يمنع المكلف عن الايمان بهذه الآية وتقريره ظاهر قال القاضي الطبع غير مانع من الايمان بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ولو كان هذا الطبع مانعا لما صح هذا الاستثناء (والجواب) ان الكلام في هذه المسئلة قد سبق على الاستقصاء في تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا فائدة في الاعادة (القصة الثانية) قصة موسى عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾ اعلم أن هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد وهو ان القوم لما قالوا ان هذا لسحر مبين فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا أسحر هذا على سبيل الاستفهام (وجوابه) ان موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا أسحر هذا بل قال أتقولون للحق لما جاءكم ما تقولون ثم حذف عنه مفعول أتقولون لدلالة الحال عليه ثم قال مرة أخرى أسحر هذا وهذا استفهام على سبيل الانكار ثم احتج على انه ليس بسحر وهو قوله ولا يفلح الساحرون يعني ان حاصل صنعهم تخييل وتمويه ولا يفلح الساحرون وأما قلب العصا حية وفلق البحر فمعلوم بالضرورة انه ليس من باب التخييل والتمويه فثبت انه ليس بسحر ﴿قوله تعالى ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام وعللوا عدم القبول بأمرين (الاول) قوله أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا قال الواحدي اللفت في أصل اللغة الصرف عن أمر واصله اللي يقال لفت عنقه اذا لواها ومن هذا يقال التفت اليه أي أمال وجهه اليه قال الازهري لفت الشيء وفتله اذا لواه وهذا من المقلوب واعلم ان حاصل هذا الكلام انهم قالوا لا نترك الدين الذي نحن عليه لانا وجدنا آباءنا عليه فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الاصرار (والسبب الثاني) في عدم القبول قوله وتكون لكما الكبرياء في الارض قال المفسرون المعنى ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا فالنبي اذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته اليه فصار أكبر القوم واعلم ان السبب الاول اشارة الى التمسك بالتقليد والسبب الثاني اشارة الى الحرص على طلب الدنيا والجد في بقاء الرياسة ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا وما نحن لكما بمؤمنين واعلم ان القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ليظهروا عند الناس ان ما أتى به موسى من باب السحر فجمع فرعون السحرة وأحضرهم فقال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (فان قيل) كيف أمرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر كفر (قلنا) انه عليه السلام أمرهم بالقاء الحبال والعصي ليظهر للخلق ان ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل والغرض منه أن القوم قالوا لموسى ان ما جئت به سحر فذكر موسى عليه السلام ان ما ذكرتموه باطل بل الحق ان الذي جئتم به هو السحر والتمويه الذي يظهر بطلانه ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل وقد أخبر الله تعالى في سائر السور انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب ان

وقرئ نجيناكم من التنجية وقرئ أنجاكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أي واذكروا وقت انجائنا اياكم (من آل فرعون) من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم في المكنة والقدرة بل باهلاكهم بالكلية وقوله تعالى (يسومونكم سوء العذاب) من سامه خسفا أي أولاه اياه أو كلفه اياه وهو واما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له (وفي ذلكم) الانجاء أو سوء العذاب (بلاء) أي نعمة أو محنة (من ربكم) من مالك أمركم فان النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى (عظيم) لا يقادر قدره (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) روي أن موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فافسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فأمره

ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى ＊(المسئلة الثانية) قوله ما جئتم به السحر ما ههنا موصولة بمعنى الذى وهى مرتفعة بالابتداء وخبرها السحر قال الفراء وانما قال السحر بالالف واللام لانه جواب كلام سبق ألا ترى أنهم قالوا لما جاءهم موسى هذا سحر فقال لهم موسى بل ما جئتم به السحر فوجب دخول الالف واللام لان النكرة اذا عادت عادت معرفة يقول الرجل لغيره لقيت رجلا فيقول له من الرجل فيعيده بالالف واللام ولو قال له من رجل لم يقع فى فهمه انه سأله عن الرجل الذى ذكره له وقرأ أبو عمرو آلسحر بالاستفهام وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء وجئتم به فى موضع الخبر كأنه قيل أى شئ جئتم به ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع آلسحر كقوله تعالى أأنت قلت للناس والسحر بدل من المبتدا ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوى المبدل منه فى انه استفهام كما تقول كم مالك أعشرون أم ثلاثون فجعلت أعشرون بدلا من كم ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر لانك اذا أبدلته من المبتدا صار فى موضعه وصار ما كان خبرا عن المبدل منه خبرا عنه ثم قال تعالى ان الله سيبطله أى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين أى لا يقويه ولا يكمله ثم قال ويحق الله الحق ومعنى احقاق الحق اظهاره وتقويته وقوله بكلماته أى بوعده موسى وقيل بما سبق من قضائه وقدره وفى كتاب الله أبحاث غامضة عميقة عالية وقد ذكرناها فى بعض مواضع من هذا الكتاب ＊ قوله تعالى ﴿فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين﴾ واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ثم انه تعالى بين انهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر فبين ان له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الاعجاز فى مرأى العين أعظم ومع ذلك فما آمن به منهم الا ذرية واختلفوا فى المراد بالذرية على وجوه (الاول) ان الذرية ههنا معناها تقليل العدد قال ابن عباس لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ولا سبيل الى حمله على التحقير على وجه الاهانة فى هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد (الثانى) قال بعضهم المراد أولاد من دعاهم لان الآباء استمروا على الكفر اما لان قلوب الاولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف (الثالث) أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بنى اسرائيل (الرابع) الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها وأما الضمير فى قوله من قومه فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون لان ذكرهما جميعا قد تقدم والاظهر أنه عائد الى موسى لانه أقرب المذكورين ولانه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بنى اسرائيل ＊ أما قوله على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ففيه أبحاث ＊(البحث الاول) أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدا لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى فاذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ＊(البحث الثانى) انما قال وملئهم مع ان فرعون واحد لوجوه (الاول) أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم قال الله تعالى انا نحن نزلنا الذكر (الثانى) أن المراد بفرعون آل فرعون (الثالث) أن هذا من باب حذف المضاف كانه أريد بفرعون آل فرعون ثم قال أن يفتنهم أى يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم ثم قال وان فرعون لعال فى الارض أى لغالب فيها قاهر وانه لمن المسرفين قيل المراد انه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه فى أمر من الامور والغرض منه بيان السبب فى كون أولئك المؤمنين خائفين وقيل انما كان مسرفا لانه كان من أخس العبيد فادعى الالهية ＊ قوله تعالى ﴿وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ فى الآية مسائل ＊(المسئلة الاولى) ان قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين جزاء معلق على شرطين أحدهما متقدم والآخر

الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى (وأتممناها بعشر) والتعبير عنها بالليالى لانها غرر الشهور وقيل أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرئ كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لوعدنا بحذف المضاف أى اتمام ثلاثين ليلة (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) أى بالغا أربعين ليلة (وقال موسى لاخيه هرون) حين توجه الى المناجاة حسبما أمر به (اخلفنى) أى كن خليفتى (فى قومى) وراقبهم فيما يأتون وما يذرون (وأصلح) ما يحتاج الى الاصلاح من أمورهم أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) أى لا تتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه (ولما جاء موسى لميقاتنا) لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص مجيئه بميقاتنا (وكلمه ربه) من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين (قال رب أرنى أنظر اليك) اى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر

متأخر والفقهاء قالوا المتأخر يجب أن يكون متقدما والمتقدم يجب أن يكون متأخرا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته ان دخلت الدار فأنت طالق ان كلمت زيدا وانما كان الامر كذلك لان مجموع قوله ان دخلت الدار فأنت طالق صار مشروطا بقوله ان كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ متقدما في المعنى وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرا في المعنى والتقدير كانه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا ان دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا التعليق قبل ان كلمت زيدا لم يقع الطلاق اذا عرفت هذا فنقول قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطا لان يصيروا مخاطبين بقوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا فكانه تعالى يقول للمسلم حال اسلامه ان كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والامر كذلك لان الاسلام عبارة عن الاستسلام وهو اشارة الى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى واظهار الخضوع وترك التمرد وأما الايمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد وان ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره الى الله تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الاسرار والتوكل على الله عبارة عن تفويض الامور بالكلية الى الله تعالى والاعتماد في كل الاحوال على الله تعالى واعلم أن من توكل على الله تعالى في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه (المسئلة الثانية) أن هذا الذى أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذى حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال فعلى الله توكلت وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لان نوحا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاما وكان موسى عليه السلام فوق التمام (المسئلة الثالثة) انما قال فعليه توكلوا ولم يقل توكلوا عليه لان الاول يفيد الحصر كانه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير والامر كذلك لانه لما ثبت أن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره امتنع في العقل أن لا يتوكل الانسان على غيره فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا على الله توكلنا أى توكلنا عليه ولا نلتفت الى أحد سواه ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء فطلبوا من الله تعالى شيئين (أحدهما) ان قالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين وفيه وجوه (الاول) أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لانك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم انا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قوية في اصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم (الثانى) أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة وذلك يكون فتنة لهم (الثالث) لا تجعلنا فتنة لهم أى موضع فتنة لهم أى موضع عذاب لهم (الرابع) أن يكون المراد من الفتنة المفتون لان اطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق والتكوين بمعنى المكون والمعنى لا تجعلنا مفتونين اى لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وأما المطلوب الثانى في هذا الدعاء فهو قوله تعالى ونجنا برحمتك من القوم الكافرين واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم وذلك لانا ان حملنا قولهم ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين على أنهم ان سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في ان هذا الدين باطل فتضرعوا الى الله تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لانفسهم وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وان حملناه على أن لا يمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضا دليلا على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم

اليك وأراك وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لما أن طلب المستحيل مستحيل من الانبياء لاسيما ما يقتضي الجهل بشؤن الله تعالى ولذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة خطأ اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا الها ولا يتبع سبيلهم كما قال لاخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ اذ لا يدل الاخبار بعدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كانه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ما قال فقيل قال (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفي تعليقها باستقرار الجبل أيضا دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن فلما تجلى ربه للجبل أي ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة ورؤية

قبلة وأقيموا الصلوة وبشر المؤمنين﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون باتخاذ المساجد والاقبال على الصلوات يقال تبوأ المكان أى اتخذه مبوأ كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون اليه للعبادة والصلاة* ثم قال واجعلوا بيوتكم قبلة وفيه أبحاث (البحث الاول) من الناس من قال المراد من البيوت المساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ومنهم من قال المراد مطلق البيوت اما الاولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة ثم قالوا والمراد من قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أى اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقال الفراء واجعلوا بيوتكم قبلة أى الى القبلة وقال ابن الانبارى واجعلوا بيوتكم قبلة أى قبلا يعنى مساجد فأطلق لفظ الوحدان والمراد الجمع واختلفوا فى أن هذه القبلة أين كانت فظاهر أن لفظ القرآن لا يدل على تعيينه الا أنه نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام وكان الحسن يقول الكعبة قبلة كل الانبياء وانما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى فى أيام الرسول عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة وقال آخرون كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة فى هذه الآية مطلق البيت فهؤلاء لهم فى تفسير قوله قبلة وجهان (الاول) المراد بجعل تلك البيوت قبلة أى متقابلة والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض وقال آخرون المراد واجعلوا دوركم قبلة أى صلوا فى بيوتكم (البحث الثانى) أنه تعالى خص موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب فقال أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهرون أن يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يفوض الى الانبياء ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لان ذلك واجب على الكل ثم خص موسى عليه الصلاة والسلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال وبشر المؤمنين وذلك لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هرون تبع له (البحث الثالث) ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة (الاول) ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام فى مكة (الثانى) قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون (الثالث) أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الاعداء * قوله تعالى ﴿وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ اعلم أن موسى عليه السلام لما بالغ فى اظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو أنهم لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين فلهذا السبب قال موسى عليه السلام ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا والزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والمال ما يزيد على هذه الاشياء من الصامت والناطق * ثم قال ليضلوا عن سبيلك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وعاصم ليضلوا بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضل الناس ويريد اضلالهم وتقريره من وجهين (الاول) أن اللام فى قوله ليضلوا لام التعليل والمعنى أن موسى قال يارب العزة انك أعطيتهم هذه الزينة والاموال لاجل أن يضلوا فدل هذا على أنه تعالى قد يريد اضلال الكافرين (الثانى) أنه قال واشدد على قلوبهم فقال الله تعالى قد

حتى رآه (جعله دكا) مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرئ دكاء أى أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لا سنام لها وقرئ دكا جمع دكاء أى قطعا (وخر موسى صعقا) مغشيا عليه من هول ما رآه (فلما أفاق) الافاقة رجوع العقل والفهم الى الانسان بعد ذهابهما بسبب من الاسباب (قال) تعظيما لما شاهده (سبحانك) أى تنزيها لك من أن أسألك شيأ بغير اذن منك (تبت اليك) أى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن (وأنا أول المؤمنين) أى بعظمتك وجلالك وقيل أول من آمن بانك لا ترى فى الدنيا وقيل بانه لا يجوز السؤال بغير اذن منك (قال ياموسى) استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الاجابة الى سؤال الرؤية كأنه قيل ان منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها (انى اصطفيتك) أى اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك (على الناس) أى المعاصرين لك وهرون وان كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع (برسالاتى) أى بأسفار التوراة وقرئ برسالتى (وبكلامى) وبتكليمى اياك بغير واسطة (فخذ ما آتيتك) أى أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على ما أعطيت من جلائل النعم قيل كان سؤال

أجيبت دعوتكما وذلك أيضا دل على المقصود قال القاضي لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ويدل عليه وجوه (الاول) أنه ثبت انه تعالى منزه عن فعل القبيح وارادة الكفر قبيحة (والثانى) أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم لانه لا معنى للطاعة الا الاتيان بما يوافق الارادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الاموال وشد القلوب (والثالث) انا لو جوزنا أن يريد اضلال العباد لجوزنا أن يبعث الانبياء عليهم السلام للدعاء الى الضلال ولجاز أن يقوى الكذابين الضالين المضلين باظهار المعجزات عليهم وفيه هدم الدين وابطال الثقة بالقرآن (والرابع) أنه لا يجوز أن يقول لموسى وهرون عليهما السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وأن يقول ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ثم انه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكي يضلوا لان ذلك كالمناقضة فلا بد من حمل أحدهما على موافقة الآخر (الخامس) أنه لا يجوز أن يقال ان موسى عليه السلام دعا ربه بأن يطمس على أموالهم لاجل أن لا يؤمنوا مع تشدده في ارادة الايمان واعلم أنا بالغنا في تكثير هذه الوجوه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب واذا ثبت هذا فنقول وجب تأويل هذه الكلمة وذلك من وجوه (الاول) أن اللام في قوله ليضلوا لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال وقد أعلمه الله تعالى لا جرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ (الثانى) أن قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك أي لئلا يضلوا عن سبيلك فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله يبين الله لكم أن تضلوا والمراد أن لا تضلوا وكقوله تعالى قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة والمراد لئلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير في الكلام (الثالث) أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالانكار والتقدير كأنك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فانهم لا ينفقون هذه الاموال الافيه وكانه قال آتيتهم زينة وأموالا لاجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما في قول الشاعر

كذبتك عينك أم رأيت بواسط * غلس الظلام من الرباب خيالا

أراد أكذبتك فكذا ههنا (الرابع) قال بعضهم هذه اللام لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيقال ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك (الخامس) أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الامر لا في نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الاموال وصارت تلك الاموال سببا لمزيد البغي والكفر أشبهت هذه الحالة حالة من أعطى المال لاجل الاضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لاجل هذا المعنى (السادس) بينا في تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا في أول سورة البقرة ان الضلال قد جاء في القرآن بمعنى الهلاك يقال ضل الماء في اللبن أي هلك فيه اذا ثبت هذا فنقول قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك معناه ليهلكوا ويموتوا ونظيره قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا فهذا جملة ما قيل في هذا الباب * واعلم انا قد أجبنا عن هذه الوجوه مرارا كثيرة في هذا الكتاب ولا بأس بأن نعيد بعضها في هذا المقام فنقول الذي يدل على أن حصول الاضلال من الله تعالى وجوه (الاول) أن العبد لا يقصد الا حصول الهداية فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذي لا يريده علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى فان قالوا انه ظن بهذا الضلال انه هدى فلا جرم قد أوقعه وأدخله في الوجود فنقول فعلى هذا يكون اقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال فثبت ان هذه الجهالات والضلالات لا بد من انتهائها الى جهل أول وضلال أول وذلك لا يمكن أن يكون باحداث العبد وتكوينه لانه كرهه وانما أراد ضده فوجب أن يكون من الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حبا شديدا لا يمكنهم ازالة هذا الحب عن نفسهم البتة وكان حصول هذا الحب يوجب الاعراض عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات الى قوله وذلك يوجب الكفر فهذه الاشياء بعضها يتأدى الى البعض تأديا على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا

الرؤية يوم عرفة واعطاء التوراة يوم النحر (وكتبنا له في الالواح من كل شئ) أي مما يحتاجون اليه من أمور دينهم (موعظة وتفصيلا لكل شئ) بدل من الجار والمجرور أي كتبنا له كل شئ من المواعظ وتفصيل الاحكام واختلف في عدد الالواح وفي جوهرها ومقدارها فقيل انها كانت عشرة ألواح وقيل سبعة وقيل لوحين وأنها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام وقيل من زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء وقيل أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه وعن الحسن رضي الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام وعن مقاتل رضي الله عنه كتب في الالواح اني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيأ ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين (فخذها) على اضمار قول معطوف على كتبنا أي فقلنا خذها (بقوة) بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله تعالى فخذ ما آتيتك والضمير للالواح أو لكل شئ لانه بمعنى الاشياء أو للرسالة أو للتوراة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أي بأحسن ما فيها كالعفو

الكفر هو الذى خلق الانسان مجبولا على حب المال والجاه (الثالث) وهو الحجة الكبرى ان القدرة بالنسبة الى الضدين على السوية فلا يترجح أحد الطرفين على الثانى الا لمرجح وذلك المرجح ليس من العبد والا لعاد الكلام فيه فلا بد وان يكون من الله تعالى واذا كان كذلك كانت الهداية والاضلال من الله تعالى (الرابع) انه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالا وقوى حب ذلك المال والجاه فى قلوبهم وأودع فى طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له لاسيما وكان فرعون كالمنعم فى حقه والمربى له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة فى القلوب وكل ذلك يوجب اعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام واصرارهم على انكار صدقه فثبت بالدليل العقلى ان اعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لابد وأن يكون موجبا لضلالهم فثبت ان ما أشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ فى مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جدا اذا عرفت هذا فنقول (أما الوجه الاول) وهو حمل اللام على لام العاقبة فضعيف لان موسى عليه السلام ما كان عالما بالعواقب فان قالوا ان الله تعالى أخبره بذلك قلنا فلما أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون كان صدور الايمان منهم محالا لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذبا وهو محال والمفضى الى المحال محال (وأما الوجه الثانى) وهو قولهم يحمل قوله ليضلوا عن سبيلك على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول ان هذا التأويل ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره وأقول انه لما شرع فى تفسير قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ثم نقل عن بعض أصحابنا أنه قرأ أفمن نفسك على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار ثم انه استبعد هذه القراءة وقال انها تقتضى تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ فى انكار تلك القراءة وهذا الوجه الذى ذكره ههنا شر من ذلك لانه قلب النفى اثباتا والاثبات نفيا وتجويزه يفتح باب أن لا يبقى الاعتماد على القرآن لا فى نفيه ولا فى اثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية وهذا بعينه هو الجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الانكار فان تجويزه يوجب تجويز مثله فى سائر المواطن فلعله تعالى انما قال أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة على سبيل الانكار والتعجب وأما بقية الجوابات فلا يخفى ضعفها ثم انه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال ربنا اطمس على أموالهم وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى من قبل أن نطمس وجوها والطمس هو المسخ قال ابن عباس رضى الله عنهما بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وجعل سكرهم حجارة ثم قال واشدد على قلوبهم ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الايمان قال الواحدى وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال ثم قال فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وفيه وجهان (أحدهما) أنه يجوز أن يكون معطوفا على قوله ليضلوا والتقدير ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وقوله ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم يكون اعتراضا (والثانى) يجوز أن يكون جوابا لقوله واشدد والتقدير اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا فانها تستحق ذلك ثم قال تعالى قد أجيبت دعوتكما وفيه وجهان (الاول) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال قد أجيبت دعوتكما وذلك لان من يقول عند دعاء الداعى آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعى سائل أيضا (الثانى) لا يبعد أن يكون كل واحد منهما ذكر هذا الدعاء غاية ما فى الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا الا أن هذا لا ينافى أن يكون هرون قد ذكر ذلك الدعاء أيضا وأما قوله فاستقيما يعنى فاستقيما على الدعوة والرسالة والزيادة فى الزام الحجة فقد لبث نوح فى قومه ألف سنة الا قليلا فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة وأما قوله ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ففيه بحثان (البحث الاول) المعنى لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء انسان فى مطلوبه

والصبر بالاضافة الى الاقتصاص والانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الافضل كما فى قوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم أو بواجباتها فانها أحسن من المباح وقيل المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب اى بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى ولذكر الله أكبر وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أولمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها الى الصواب (سأريكم دار الفاسقين) تلوين للخطاب وتوجيه له الى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفات حملا لهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به اما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين ارض مصر وديار عاد وثمود وأضرابهم فان رؤيتها وهى خالية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ما حل بأولئك واما على نهج الوعد والترغيب على أن المراد بدار الفاسقين اما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فانها أيضا مما أتيح لبنى اسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ومعنى الاراءة الادخال بطريق الايراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما فى قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض

الا أنه انما يوصله اليه في وقته المقدر والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال لنوح عليه السلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين واعلم ان هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه ﴿البحث الثاني﴾ قال الزجاج قوله ولا تتبعان موضعه جزم والتقدير ولا تتبعا الا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها فاختير لها الكسرة لانها بعد الالف تشبه نون التثنية وقرأ ابن عامر ولا تتبعان بتخفيف النون ۞ قوله تعالى ﴿وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ اعلم أن تفسير اللفظ في قوله وجاوزنا ببني اسرائيل البحر مذكور في سورة الاعراف والمعنى أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بني اسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله فأتبعهم أي لحقهم يقال أتبعه حتى لحقه وقوله بغيا وعدوا البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم روي أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا الى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم فوقعوا في خوف شديد لانهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقا في البحر على ما ذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها في سائر السور ثم ان موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسا ليطمع فرعون وجنوده في التمكن من العبور فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بان أوصل أجزاء الماء بعضها وأزال الفلق فهو معنى قوله فأتبعهم فرعون وجنوده وبين ما كان في قلوبهم من البغي وهي محبة الافراط في قتلهم وظلمهم والعدو وهو تجاوز الحد ثم ذكر تعالى أنه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الاخلاص ظنا منه أنه ينجيه من تلك الآفة وههنا سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ ان الانسان اذا وقع في الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك ﴿والجواب﴾ من وجهين (الاول) ان مذهبنا أن الكلام الحقيقي هو كلام النفس لا كلام اللسان فهو انما ذكر هذا الكلام بالنفس لا بكلام اللسان ويمكن أن يستدل بهذه الآية على اثبات كلام النفس لانه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام وثبت بالدليل انه ما قاله باللسان فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب (الثاني) أن يكون المراد من الغرق مقدماته ﴿السؤال الثاني﴾ انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب في عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال انه لاجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الاقرار ﴿والجواب﴾ العلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان في هذا الوقت غير مقبول لان عند نزول العذاب يصير الحال وقت الالجاء وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة ولهذا السبب قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا (الوجه الثاني) هو انه انما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها الى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة فما كان مقصوده من هذه الكلمة الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية وعلى هذا التقدير فما كان ذكره هذه الكلمة مقرونا بالاخلاص فلهذا السبب ما كان مقبولا (الوجه الثالث) هو أن ذلك الاقرار كان مبنيا على محض التقليد ألا ترى أنه قال لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله الا أنه سمع من بني اسرائيل أن للعالم الها فهو أقر بذلك الاله الذي سمع من بني اسرائيل أنهم أقروا بوجوده فكان هذا محض التقليد فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه ※ ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته الا بنور الحجج القطعية والدلائل اليقينية وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد لانه يكون ضما لظلمة التقليد الى ظلمة الجهل السابق (الوجه الرابع) رأيت في بعض الكتب أن بعض

ومغاربها وقرئ سأوريكم ولعله من أوريت الزند أي سأبينها لكم وقوله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض) استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والاحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وعد اراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لاصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع أن في المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظام الجليل أي سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتي التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم وقيل المعنى سأصرفهم عن ابطالها وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون في ابطال ما رآه من الآيات فأبى الله تعالى الا احقاق الحق وازهاق الباطل وعلى هذا فالانسب أن يراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة المشهورين بالفسق

أقوام من بنى اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر (الوجه الخامس) ان اليهود كانت قلوبهم مائلة الى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل فى جسد ذلك العجل ونزل فيه فلما كان الامر كذلك وقال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل فكأنه آمن بالاله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول وكل من اعتقد ذلك كان كافرا فلهذا السبب ما صح ايمان فرعون (الوجه السادس) لعل الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى والاقرار بنبوة موسى عليه السلام فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لا جرم لم يصح ايمانه ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا ههنا (الوجه السابع) روى صاحب الكشاف أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها ما قول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيها يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه اليه * أما قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ففيه سؤالات (السؤال الاول) من القائل له آلآن وقد عصيت قبل (الجواب) الاخبار دالة على أن قائل هذا القول هو جبريل وانما ذكر قوله وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومن الناس من قال ان قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده فاليوم ننجيك ببدنك الى قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى (السؤال الثانى) ظاهر اللفظ يدل على انه انما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة (والجواب) مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلا وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية وأيضا فالتعليل ما وقع بمجرد المعصية السابقة بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين (السؤال الثالث) هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبا عليه (والجواب) الاقرب أنه لا يصح لان فى تلك الحالة اما أن يقال التكليف كان ثابتا أوما كان ثابتا فان كان ثابتا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة لقوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وأيضا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة لان الاخرس قد يتوب بان يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهرون عليهما السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ثم يأمر جبريل عليه السلام أن يمنعه من الايمان ولو قيل ان جبريل عليه السلام انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بأمر ربك وقوله تعالى فى صفتهم وهم من خشيته مشفقون وقوله لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأما ان قيل ان التكليف كان زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الفعل الذى نسب جبريل اليه فائدة أصلا * ثم قال تعالى فاليوم ننجيك ببدنك وفيه وجوه (الاول) ننجيك ببدنك أى نلقيك بنجوة من الارض وهى المكان المرتفع (الثانى) نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق وقوله ببدنك فى موضع الحال أى فى الحال التى أنت فيها حينئذ لا روح فيك (الثالث) ان هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم كما فى قوله فبشرهم بعذاب أليم كأنه قيل له ننجيك لكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال نعتقك ولكن بعد الموت ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت (الرابع) قرأ بعضهم ننحيك بالحاء المهملة أى نلقيك بناحية مما يلى البحر وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر قال كعب رماه الماء الى الساحل كأنه ثور وأما قوله ببدنك ففيه وجوه

والتكبر فى الارض وباراءتها للخلائق بين ادخالهم الشام واسكانهم فى مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتى الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشئ من الوعد بادخال الشام على أن المراد بالآية ما تلى آنفا ونظائره وبصرفهم عنها ازالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها باهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التيه بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين الى أريحاء ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو اسرائيل بالشام وملكوا مشارقها ومغاربها كأنه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل سأهلكهم وانما عدل الى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى (بغير الحق) اما صلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية اما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها أو ما يعمها وغيرها من المعجزات فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة

(الاول) ماذكرنا انه فى موضع الحال أى فى الحال التى كنت بدنا محضا من غير روح (الثانى) المراد ننجيك ببدنك كاملا سويا لم تتغير (الثالث) ننجيك ببدنك أى نخرجك من البحر عريانا من غير لباس (الرابع) ننجيك ببدنك أى بدرعك قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين فقوله ببدنك أى بدرعك وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف بها فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف * أقول ان صح هذا فقد كان ذلك معجزا لموسى عليه السلام * وأما قوله لتكون لمن خلفك آية ففيه وجوه (الاول) أن قوما ممن اعتقد واقيه الالهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت فاظهر الله تعالى أمره بان أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم وقيل كان مطرحه على ممر بنى اسرائيل (الثانى) لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الاعلى ليكون ذلك زجرا للخلق عن مثل طريقته ويعرفوا أنه كان بالامس فى نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره الى ما يرون (الثالث) قرأ بعضهم لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر آياته (الرابع) انه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم انه تعالى ما أخرج أحدا منهم من قعر البحر بل خصه بالاخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة وأما قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا الغافلون فالاظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لامته عن الاعراض عن الدلائل وباعثا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها فان المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار كما قال تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر ما وقع عليه الختم فى واقعة فرعون وجنوده ذكر أيضا فى هذه الآية ما وقع عليه الختم فى أمر بنى اسرائيل وههنا بحثان (البحث الاول) ان قوله بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق أى أسكناهم مكان صدق أى مكانا محمودا وقوله مبوأ صدق فيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدرا أى بوأناهم تبوأ صدق (الثانى) أن يكون المعنى منزلا صالحا مرضيا وانما وصف المبوأ بكونه صدقا لان عادة العرب أنها اذا مدحت شيئا أضافته الى الصدق تقول رجل صدق وقدم صدق قال تعالى وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق والسبب فيه أن ذلك الشئ اذا كان كاملا فى وقته صالحا للغرض المطلوب منه فكل ما يظن فيه من الخير فانه لابد وأن يصدق ذلك الظن (البحث الثانى) اختلفوا فى أن المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا فى زمن محمد عليه الصلاة والسلام (أما القول الاول) فقد قال به قوم ودليلهم انه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى وعلى هذا التقدير كان المراد بقوله ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق الشام ومصر وتلك البلاد فانها بلاد كثيرة الخصب قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والمراد من قوله ورزقناهم من الطيبات تلك المنافع وأيضا المراد منها أنه تعالى أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها * ثم قال تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرؤا التوراة فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم ثم بين تعالى ان هذا النوع من الاختلاف لابد وأن يبقى فى دار الدنيا وانه تعالى يقضى بينهم يوم القيامة (وأما القول الثانى) وهو ان المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية اليهود الذين كانوا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين قال ابن عباس وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين

المتقاطعة للاسماع والابصار أى وان يشاهدوا كل آية من الآيات لا يؤمنوا بها على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى (وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى لا يتوجهون الى الحق ولا يسلكون سبيله أصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ وقرئ بفتحتين وقرئ الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام (وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) أى يختارونه لانفسهم مسلكا مستمرا لا يكادون يعدلون عنه لموافقته لاهوائهم الباطلة وافضائه بهم الى شهواتهم (ذلك) اشارة الى ما ذكر من تكبرهم وعدم ايمانهم بشئ من الآيات واعراضهم عن سبيل الرشد واقبالهم التام الى سبيل الغى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأنهم) أى حاصل بسبب أنهم (كذبوا بآياتنا) الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها (وكانوا عنها غافلين) لا يتفكرون فيها والا لما فعلوا ما فعلوا من الاباطيل ويجوز أن يكون اشارة الى ما ذكر من الصرف ولا ينعه الاشعار بعلية ما فى حيز الصلة كيف لا وقد مر أن ذلك فى قوله تعالى ذلك بما عصوا الآية

المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيبا في البلاد ثم انهم بقوا على دينهم ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان (الاول) ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدا وبغيا وايثارا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم فبهذا الطريق صار نزول القرآن سببا لحدوث الاختلاف فيهم (الثاني) أن يقال ان هذه الطائفة من بني اسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارا محضا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم وأما قوله تعالى ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في ازالته في دار الدنيا وانه تعالى في الآخرة يقضي بينهم فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق ﴿قوله تعالى ﴿فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عند ما جاءهم العلم أورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ما يقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة فقال تعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الواحدي الشك في وضع اللغة ضم بعض الشئ الى بعض يقال شك الجواهر في العقد اذا ضم بعضها الى بعض ويقال شككت الصيد اذا رميته فضممت يده الى يده أو رجله الى رجله والشكائك من الهوادج ما شك بعضها ببعض والشكاك البيوت المصطفة والشكائك الادعياء لانهم يشكون أنفسهم الى قوم ليسوا منهم أي يضمون وشك الرجل في السلاح اذا دخل فيه وضمه الى نفسه وألزمه اياها فاذا قالوا شك فلان في الامور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين فيجوز هذا ويجوز هذا فهو يضم الى ما يتوهمه شيأ آخر خلافه ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف المفسرون في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو فقيل النبي عليه الصلاة والسلام وقيل غيره أما من قال بالاول فاختلفوا على وجوه ﴿الاول﴾ أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر والمراد غيره كقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وكقوله لئن أشركت ليحبطن عملك وكقوله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ومن الامثلة المشهورة
* اياك أعني واسمعي يا جاره * والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه (الاول) قوله تعالى في آخر السورة يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فبين ان المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح (الثاني) أن الرسول لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية (والثالث) ان بتقدير أن يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع انهم في الاكثر كفار وان حصل فيهم من كان مؤمنا الا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والانجيل فالكل مصحف محرف فثبت أن الحق هو ان هذا الخطاب وان كان في الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان الكبير اذا كان له أمير وكان تحت راية ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذي جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أقوى تأثيرا في قلوبهم ﴿الوجه الثاني﴾ انه تعالى علم أن الرسول لم يشك في ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفيني ما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة ونظيره قوله تعالى للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال

يجوز أن يكون اشارة الى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله صريحا وقيل محل اسم الاشارة النصب على المصدر أي سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أي ولقائهم الدار الآخرة أو لقائهم ما وعده الله تعالى في الآخرة من الجزاء ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (حبطت أعمالهم) خبره أي ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الارحام واغاثة الملهوفين ونحو ذلك أو حبطت بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير ايمانهم بها (هل يجزون) أي لا يجزون (الا ما كانوا يعملون) أي الا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصي (واتخذ قوم موسى من بعده) أي من بعد ذهابه الى الطور (من حليهم) متعلق باتخذ كالجار الاول لاختلاف معنييهما فان الاول للابتداء والثاني للتبعيض أو للبيان أو الثاني متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده اذ لو تأخر لكان صفة له واضافة الحلي اليهم مع أنها كانت للقبط لادنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قبل الغرق فبقيت في أيديهم وأما انهم ملكوها بعد الغرق فذلك منوط بتملك بني اسرائيل غنائم القبط وهم

مستأمنون فيما بينهم فلا يساعده قولهم حملنا أوزارا من زينة القوم والحلي بضم الحاء وكسر اللام جمع حلي كثدي وثدي

لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا (الوجه الثالث) هو أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان من البشر وكان حصول الخواطر المشوشة والافكار المضطربة في قلبه من الجائزات وتلك الخواطر لا تندفع الا بايراد الدلائل وتقرير البينات فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس ونظيره قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك * وأقول تمام التقرير في هذا الباب ان قوله فان كنت في شك فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا اشعار فيها البتة بأن الشرط وقع أو لم يقع ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها الا بيان ان ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط والدليل عليه أنك اذا قلت ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهو كلام حق لان معناه أن كون الخمسة زوجا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا فأما ان هذا الشك وقع أو لم يقع فليس في الآية دلالة عليه والفائدة في انزال هذه الآية على الرسول عليه السلام أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر ولهذا السبب أكثر الله تعالى في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة (والوجه الرابع) في تقرير هذا المعنى أن نقول المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الايمان وذلك لانهم طالبوه مرة بعد أخرى بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات وذلك الاستحياء صار مانعا لهم عن قبول الايمان فقال تعالى فان كنت في شك من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه ثم مع هذا ان طلب هو من نفسه دليلا على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فانه ليس فيه عيب ولا يحصل بسببه نقصان فاذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وازالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات (الوجه الخامس) أن يكون التقدير انك لست شاكا البتة ولو كنت شاكا لكان لك طرق كثيرة في ازالة ذلك الشك كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعا لزم منه المحال الفلاني فكذا ههنا ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع الى التوراة والانجيل لتعرف بهما ان هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة (الوجه السادس) قال الزجاج ان الله خاطب الرسول في قوله فان كنت في شك وهو شامل للخلق وهو كقوله يا أيها النبي اذا طلقتم النساء قال وهذا أحسن الاقاويل قال القاضي هذا بعيد لانه متى كان الرسول داخلا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال سواء أريد معه غيره أو لم يرد وان جاز أن يراد هو مع غيره فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر ثم قال ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل (الوجه السابع) هو أن لفظ ان في قوله ان كنت في شك للنفي أي ما كنت في شك قبل يعني لا أمرك بالسؤال لانك شاك لكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه السلام بمعاينة احياء الموتى يقينا (وأما الوجه الثاني) وهو أن يقال هذا ليس مع الرسول فتقريره أن الناس في زمانه صلى الله عليه وسلم كانوا فرقا ثلاثة المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال ان كنت أيها الانسان في شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع كما في قوله يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك و يا أيها الانسان انك كادح وقوله فاذا مس الانسان ضر ولم يرد في جميع هذه الآيات انسانا بعينه بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أن المسؤل منه في قوله فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من هم فقال المحققون هم الذين آمنوا من أهل الكتاب

وقرئ بكسر الحاء بالاتباع كدلي وقرئ حليهم على الافراد وقوله تعالى (عجلا) مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقيل هو متعد الى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثاني محذوف أي الها وقوله تعالى (جسدا) بدل من عجلا أي جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح معه وقوله تعالى (له خوار) أي صوت بقر وقرئ بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فيه ترابا من أثر فرس جبريل عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجهه الطور فصار حيا وقيل صاغه نوع من الحيل فيدخل الريح في جوفه فيصوت والانسب بما في سورة طه هو الاول وانما نسب اتخاذه اليهم وهو فعله اما لانه واحد منهم واما لانهم رضوا به فكأنهم فعلوه واما لان المراد بالاتخاذ اتخاذهم اياه الها لا صنعه واحداثه (ألم يروا أنه لا يكلمهم) استئناف سوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي هو اتخاذه الها أي

[illegible]

كعبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم الدارى وكعب الاحبار لانهم هم الذين يوثق بخبرهم ومنهم من قال الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار لانهم اذا بلغوا عدد التواتر ثم قرؤا آية من التوراة والانجيل وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض * فان قيل اذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل عليها * قلنا انهم انما حرفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لانها لما بقيت مع توفر دواعيهم على ازالتها دل ذلك على أنها كانت فى غاية الظهور وأما أن المقصود من ذلك السؤال معرفة أى الاشياء ففيه قولان (الاول) أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام (والثانى) أنه رجع ذلك الى قوله تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والاول أولى لانه هو الاهم والحاجة الى معرفته أتم * واعلم أنه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك وانتفاء التكذيب بآيات الله ويجوز أن يكون ذلك على طريق التهييج واظهار التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق ثم قال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين * واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة اما أن يكون من المصدقين بالرسول أو من المتوقفين فى صدقه أو من المكذبين ولا شك أن أمر المتوقف أسهل من أمر المكذب لاجرم قدم ذكر المتوقف بقوله ولا تكونن من الممترين ثم أتبعه بذكر المكذب وبين أنه من الخاسرين * ثم انه تعالى لما فصل هذا التفصيل بين أن له عبادا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون وعبادا قضى لهم بالكرامة فلا يتغيرون فقال ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ نافع وابن عامر كلمات على الجمع وقرأ الباقون كلمة على لفظ الواحد وأقول انها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية وكلمة واحدة بحسب الوحدة الجنسية ﴿المسئلة الثانية﴾ المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك واخباره عنه وخلقه فى العبد مجموع القدرة والداعية الذى هو موجب لحصول ذلك الاثر أما الحكم والاخبار والعلم فظاهر وأما مجموع القدرة والداعى فظاهر أيضا لان القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر الا لمرجح وذلك المرجح من الله تعالى قطعا للتسلسل وعند حصول هذا المجموع يجب الفعل وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه ثم قال تعالى ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم والمراد انهم لا يؤمنون البتة ولو جاءتهم الدلائل التى لا حد لها ولا حصر وذلك لان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل ﴿القصة الثالثة﴾ من القصص المذكورة فى هذه السورة قصة يونس عليه السلام ۞ قوله تعالى ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين﴾ اعلم أنه تعالى لما بين من قبل ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم اتبعه بهذه الآية لانها دالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الايمان وذلك يدل على أن الكفار فريقان منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ومنهم من حكم عليه بخاتمة الايمان وكل ما قضى الله به فهو واقع وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى كلمة لولا فى هذه الآية طريقان (الاولى) ان معناه النفى روى الواحدى فى البسيط قال قال أبو مالك صاحب ابن عباس كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر لولا فمعناه هلا الا حرفين فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها وكذلك فلولا كان من القرون من قبلكم معناه فما كان من القرون فعلى هذا تقدير الآية فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس وانتصب قوله الا قوم يونس على انه استثناء منقطع عن الاول لان أول الكلام جرى على القرية وان كان المراد أهلها ووقع استثناء القوم من القرية

ألم يروا انه ليس فيه شئ من أحكام الالوهية حيث لا يكلمهم (ولا يهديهم سبيلا) بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه الها وقوله تعالى (اتخذوه) أى فعلوا ذلك (وكانوا ظالمين) أى واضعين للاشياء فى غير موضعها فلم يكن هذا أول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى وتكرير اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا على ما فعلوا غاية الندم فان ذلك كناية عنه لان النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرئ سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فالـــــــيد حقيقة وقال الزجاج معناه سقط الندم فى أنفسهم اما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل (ورأوا أنهم قد ضلوا) باتخاذ العجل أى تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة الى بيانه والاشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية (قالوا) والله (لئن لم يرحمنا ربنا) بانزال التوبة المكفرة (ويغفر لنا) ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية اما للمسارعة الى ما هو المقصود الاصلى واما لان المراد بالرحمة مطلق ارادة الخير بهم وهو مبدأ لانزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام فى لئن

فكان كقوله * وما بالربع من أحد * الأواري وقرئ أيضا بالرفع على البدل (الطريق الثاني) أن لولا معناه هلا والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الايمان قبل معاينة العذاب الا قوم يونس وظاهر اللفظ يقتضي استثناء قوم يونس من القرى الا أن المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا (المسئلة الثانية) روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العقاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وكان يونس قال لهم ان أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة وسوّد سطوحهم فخرجوا الى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض فعلت الاصوات وكثرت التضرعات وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن يردوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه فيرده الى مالكه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحي حين لاحي و ياحي يامحيي الموتى و ياحي لا اله الا أنت فقالوا فكشف الله العذاب عنهم وعن الفضل بن عباس أنهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (المسئلة الثالثة) ان قال قائل انه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب في آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق (والجواب) أن فرعون انما تاب بعد ان شاهد العذاب وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت لهم أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن شاهدوا فظهر الفرق ﴿ قوله تعالى ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ اعلم أن هذه السورة من أولها الى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في انكار النبوة مع الجواب عنها وكانت احدى شبهاتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب على الكافرين ويعد أتباعه ان الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم ثم ان الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ثم ان الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد ثم ضرب لهذا أمثلة وهي واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات الى هذه المقامات ثم في هذه الآية بين أن جد الرسول في دخولهم في الايمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل وفي الجواب عن الشبهات لا تفيد لان الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته وارشاده وهدايته فاذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الايمان وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى فقالوا كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فقوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة وما حصل ايمان أهل الارض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ما أراد ايمان الكل * أجاب الجبائي والقاضي وغيرهما بأن المراد مشيئة الالجاء أي لو شاء الله أن يلجئهم الى الايمان لقدر عليه ولصح ذلك منه ولكنه ما فعل ذلك لان الايمان الصادر من العبد على سبيل الالجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة ثم قال الجبائي ومعنى الجاء الله تعالى اياهم الى ذلك أن يعرفهم اضطرارا أنهم لو حاولوا تركه حال الله بينهم و بين ذلك وعند هذا لابد وأن يفعلوا ما الجئوا اليه كما أن من علم منا أنه ان حاول قتل ملك فانه يمنعه منه قهرا لم يكن تركه لذلك الفعل سببا لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا * واعلم ان هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) ان الكافر ان كان قادرا على الكفر فهل كان قادرا على الايمان أو ما كان قادرا عليه فان قدر على الكفر ولم يقدر على الايمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر فاذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم أن

موطئة للقسم كما أشير اليه وفي قوله تعالى (لنكونن من الخاسرين) لجواب القسم وما حكي عنهم من الندامة والرؤية والقول وان كان بعد مارجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم كما ينطق به الآيات الواردة في سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ماصدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد (ولما رجع موسى الى قومه) شروع في بيان ماجرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات اثر بيان ماوقع من قومه بعده وقوله تعالى (غضبان أسفا) حالان من موسى عليه السلام أو الثاني من المستكن في غضبان والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال بئسما خلفتموني من بعدي) أي بئسما فعلتم من بعد غيبتي حيث عبدتم العجل بعد مارأيتم مني من توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه واخلاص العبادة له أو من حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه أبصاركم حيث قلتم اجعل لنا الها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من السامري وأشياعه أو بئسما قمتم مقامي ولم تراعوا عهدي حيث لم تكفوا العبدة عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى قال ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت

يقال انه تعالى خالق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال انه أراد منه الكفر وأما ان كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم فرجحان أحد الطرفين على الآخر ان لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل وان توقف على مرجح فذلك المرجح اما أن يكون من العبد أو من الله تعالى فان كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال وان كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجبا لذلك الكفر فاذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الالزام (الثاني) ان قوله ولو شاء ربك لا يجوز حمله على مشيئة الالجاء لان النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يطلب أن يحصل لهم ايمان لا يفيدهم في الآخرة فبين تعالى أنه لا قدرة للرسول على تحصيل هذا الايمان ثم قال ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا فوجب أن يكون المراد من الايمان المذكور في هذه الآية هو هذا الايمان النافع حتى يكون الكلام منتظما فاما حمل اللفظ على مشيئة القهر والالجاء فانه لا يليق بهذا الموضع (الثالث) المراد بهذا الالجاء اما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها ثم يأتي بالايمان عندها واما أن يكون المراد خلق الايمان فيهم والاول باطل لانه تعالى بين فيما قبل هذه الآية ان انزال هذه الآيات لا يفيد وهو قوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم وقال أيضا ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وان كان المراد هو الثاني لم يكن هذا الالجاء الى الايمان بل كان ذلك عبارة عن خلق الايمان فيهم ثم يقال لكنه ما خلق الايمان فيهم فدل على انه ما أراد حصول الايمان لهم وهذا عين مذهبنا واعلم انه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين والمعنى انه لا قدرة لك على التصرف في أحد والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست الا للحق سبحانه وتعالى (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على صحة قولهم انه لا حكم للاشياء قبل ورود الشرع بقوله وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله قالوا وجه الاستدلال به أن الاذن عبارة عن الاطلاق في الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على انه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الايمان ثم قالوا والذي يدل عليه من جهة العقل وجوه (الاول) ان معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لا يدل العقل على حصول نفع فيه فوجب أن لا يجب ذلك بحسب العقل بيان الاول ان ذلك النفع اما أن يكون عائدا الى المشكور أو الى الشاكر * والاول باطل لان في الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران فلا جرم كان الشكر حسنا والكفران قبيحا أما الله سبحانه فانه لا يسره الشكر ولا يسوءه الكفران فلا ينتفع بهذا الشكر أصلا * والثاني أيضا باطل لان الشاكر يتعب في الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع أن المشكور لا ينتفع به البتة ولا يمكن أن يقال ان ذلك الشكر علة الثواب لان الاستحقاق على الله تعالى محال فان الاستحقاق على الغير انما يعقل اذا كان ذلك الغير بحيث لو لم يعطه لوجب امتناعه من اعطاء ذلك الحق حصول نقصان في حقه ولما كان الحق سبحانه منزها عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك في حقه فثبت أن الاشتغال بالايمان وبالشكر لا يفيد نفعا بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع ان يكون العقل موجبا فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله قال القاضي المراد أن الايمان لا يصدر عنه الا بعلم الله أو بتكليفه أو باقداره عليه وجوابنا ان حمل الاذن على ما ذكرتم ترك للظاهر وذلك لا يجوز لا سيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلي يقوي قولنا (المسئلة الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم نجعل بالنون وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا على صحة قولهم ان خالق الكفر والايمان هو الله تعالى بقوله تعالى ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا المراد من الرجس ههنا العمل القبيح سواء كان كفرا أو معصية وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية الى طهارة الايمان والطاعة فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الايمان لا يحصل الا بمشيئة

مري ويجوز أن يكون الخطاب للكل على أن المراد بالخليفة ما يعم الأمرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم (أعجلتم أمر ربكم) أي تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى سبق يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الاربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الامم بعد أنبيائهم (وألقى الالواح) طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين روي ان التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستة أسباعها التي كان فيها تفصيل كل شئ وبقي سبع كان فيه المواعظ والاحكام (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه عليهما السلام (يجره اليه) حال من ضمير أخذ فعله عليه السلام توهما أنه قصر في كفهم وهرون كان أكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك كان أحب الى بني اسرائيل (قال) أي هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام (ابن أم) بحذف حرف النداء وتخصيص الام بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حق الام أعظم وأحق بالرعاية مع أنها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرئ بكسر الميم باسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء وقراءة

الله تعالى وتخليقه ذكر بعده أن الرجس لا يحصل الا بتخليقه وتكوينه والرجس الذي يقابل الايمان ليس الا الكفر فثبت دلالة هذه الآية على ان الكفر والايمان من الله تعالى * أجاب أبو علي الفارسي النحوي عنه فقال الرجس يحتمل وجهين آخرين (أحدهما) أن يكون المراد منه العذاب فقوله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون أي يلحق العذاب بهم كما قال ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات (والثاني) انه تعالى يحكم عليهم بانهم رجس كما قال انما المشركون نجس والمعنى أن الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم (والجواب) انا قد بينا بالدليل العقلي ان الجهل لا يمكن أن يكون فعلا للعبد لانه لا يريده ولا يقصد الى تكوينه وانما يريد ضده وانما قصد الى تحصيل ضده فلو كان به لما حصل الا ما قصده وأوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب وأما حمل الرجس على العذاب فهو باطل لان الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقا صادقا صوابا وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم فهو في غاية البعد لان حكم الله تعالى بذلك صفته فكيف يجوز أن يقال ان صفة الله رجس فثبت ان الحجة التي ذكرناها ظاهرة ﴿قوله تعالى ﴿قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة قل انظروا بكسر اللام لالتقاء الساكنين والاصل فيه الكسر والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة الى اللام (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما بين في الآيات السالفة أن الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض فقال قل انظروا ماذا في السموات والارض * واعلم ان هذا يدل على مطلوبين (الاول) انه لا سبيل الى معرفة الله تعالى الا بالتدبر في الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق (والثاني) هو ان الدلائل اما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الارض أما الدلائل السماوية فهي حركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد وأما الدلائل الارضية فهي النظر في أحوال العناصر العلوية وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الانسان خاصة ثم ينقسم كل واحد من هذه الاجناس الى أنواع لا نهاية لها ولو ان الانسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل الى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد ولا شك ان الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد فلهذا السبب ذكر قوله قل انظروا ماذا في السموات والارض ولم يذكر التفصيل فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية حتى ان العاقل يتنبه لاقسامها وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية البشرية ثم انه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بين بعد ذلك ان هذا التفكر والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الازل بالشقاء والضلال فقال وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون ما في هذا الموضع تحتمل وجهين (الاول) أن تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله عليه بانه لا يؤمن كقولك ما يغني عنك المال اذا لم تنفق (والثاني) أن تكون استفهاما كقولك أي شئ يغني عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (المسئلة الثانية) الآيات هي الدلائل والنذر الرسل المنذرون أو الانذارات (المسئلة الثالثة) قرئ وما يغني بالياء من تحت ﴿قوله تعالى ﴿فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين﴾ واعلم أن المعنى هل ينتظرون الا أياما مثل أيام الامم الماضية والمراد أن الانبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجيء أيام مشتملة على أنواع العذاب وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية وكذلك الكفار الذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون ثم انه تعالى أمره بان يقول لهم فانتظروا اني

الفتح لزيادة التخفيف أو التشبيه بخمسة عشر (ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني) ازاحة لتوهم التقصير في حقه والمعنى بذلت جهدي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي (فلا تشمت بي الاعداء) أي فلا تفعل بي ما يكون سببا لشماتتهم بي (ولا تجعلني مع القوم الظالمين) أي معدودا في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة الى التقصير وهذا يؤيد كون الخطاب للكل أولا تعتقد أني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية اعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى عند ذلك فقيل قال (رب اغفر لي) أي ما فعلت بأخي من غير ذنب مقرر من قبله (ولأخي) ان فرط منه تقصير ما في كفهم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضي أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للايذان بأنه محتاج الى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم (وأدخلنا في رحمتك) بمزيد الانعام بعد غفران ما سلف منا (وأنت أرحم الراحمين) فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة في الدنيا والآخرة والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ان الذين اتخذوا العجل) أي تموا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامري

ممكم

منكم من المنتظرين * ثم انه تعالى قال ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ الكسائي في رواية نصير ننجي خفيفة وقرأ الباقون مشددة وهما لغتان وكذلك في قوله ننجي المؤمنين (المسألة الثانية) ثم حرف عطف وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى أن نهلكهم ثم بعدها ننجي رسلنا (المسألة الثالثة) لما أمر الرسول في الآية الاولى أن يوافق الكفار في انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال العذاب لا ينزل الا على الكفار واما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة * ثم قال كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين وفيه مسألتان (المسألة الاولى) قال صاحب الكشاف اى مثل ذلك الانجاء ننجي المؤمنين ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض يعني حق ذلك علينا حقا (المسألة الثانية) قال القاضي قوله حقا علينا المراد به الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب الى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الافعال الشاقة واذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم والجواب أنا نقول انه حق بسبب الوعد والحكم ولا نقول انه حق بسبب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيأ * قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله عليه السلام باظهار دينه وباظهار المباينة عن المشركين لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر الى الاظهار فقال قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني * واعلم ان ظاهر هذه الآية يدل على ان هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الخبر انهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فامر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين ابراهيم حنيفا مسلما لقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولقوله وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا ولقوله لا أعبد ما تعبدون والمعنى انكم ان كنتم لا تعرفون ديني فانا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورا (فالقيد الاول) قوله فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله وانما وجب تقديم هذا النفي لما ذكرنا أن ازالة النقوش الفاسدة عن اللوح لا بد وان تكون مقدمة على اثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللوح وانما وجب هذا النفي لان العبادة غاية التعظيم وهي لا تليق الا بمن حصلت له غاية الجلال والاكرام وأما الاوثان فانها أحجار والانسان أشرف حالا منها وكيف يليق بالاشرف أن يشتغل بعبادة الاخس (القيد الثاني) قوله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم والمقصود أنه لما بين انه يجب ترك عبادة غير الله بين أنه يجب الاشتغال بعبادة الله * فان قيل ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصفة وهي قوله الذي يتوفاكم * قلنا فيه وجوه (الاول) يحتمل أن يكون المراد اني أعبد الله الذي خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مرارا وأطوارا فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبها على البواقي (الثاني) ان الموت أشد الاشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع (الثالث) انهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وهو اشارة الى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول أعبد ذلك الذي وعدني باهلاككم وبابقائي (والقيد الثالث) من الامور المذكورة في هذه الآية قوله وأمرت أن أكون من المؤمنين واعلم انه لما ذكر العبادة وهي من جنس أعمال الجوارح انتقل منها الى الايمان والمعرفة وهذا يدل على أنه ما لم يصر الظاهر مزينا بالاعمال الصالحة فانه لا يحصل في القلب نور الايمان والمعرفة (والقيد الرابع) قوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا وفيه مسائل (المسألة الاولى) الواو في قوله وأن أقم وجهك حرف عطف وفي المعطوف عليه وجهان (الاول) ان قوله وأمرت

وأشياعه من الذين أشربوه في قلوبهم كما يفصح عنه كون الموصول الثاني عبارة عن التائبين فان ذلك صريح في ان الموصول الاول عبارة عن المصرين (سينالهم) أي في الآخرة (غضب) أي عظيم لا يقدر قدره مستتبع لفنون العقوبات لما أن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر وقوله تعالى (من ربهم) أي مالكهم متعلق بينالهم أو بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أي كائن من ربهم (وذلة في الحيوة الدنيا) هي ذلة الاغتراب التي تضرب بها الامثال والمسكنة المنتظمة لهم ولاولادهم جميعا والذلة التي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس والابتلاء بالامساس يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا في الوقت وايراد ما نالهم في حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الاخلاف على حال الاسلاف وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم واعتذر عن السين بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بأنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وأنت خبير بان سياق النظم الكريم وسياقه نابيان عن ذلك نبوا

ان أكون قائم مقام قوله وقيل لي كن من المؤمنين ثم عطف عليه وأن أقم وجهك (الثاني) ان قوله وأن أقم وجهك قائم مقام قوله وأمرت باقامة الوجه فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وباقامة الوجه للدين حنيفا (المسئلة الثانية) اقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية الى طلب الدين لان من يريد أن ينظر الى شئ نظرا بالاستقصاء فانه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير لانه لو صرفه عنه ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة واذا بطلت تلك المقابلة فقد اختل الابصار فلهذا السبب حسن جعل اقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين وقوله حنيفا أي مائلا اليه ميلا كليا معرضا عما سواه اعراضا كليا وحاصل هذا الكلام هو الاخلاص التام وترك الالتفات الى غيره فقوله أولا وامرت أن أكون من المؤمنين اشارة الى تحصيل أصل الايمان وقوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا اشارة الى الاستغراق في نور الايمان والاعراض بالكلية عما سواه (والقيد الخامس) قوله ولا تكونن من المشركين واعلم انه لا يمكن أن يكون هذا نهيا عن عبادة الاوثان لان ذلك صار مذكورا بقوله تعالى في هذه الآية فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه فلو التفت بعد ذلك الى غيره كان ذلك شركا وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفي (والقيد السادس) قوله تعالى ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك والممكن لذاته معدوم بالنظر الى ذاته وموجود بايجاد الحق واذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له الا بايجاد الحق وعلى هذا التقدير فلا نافع الا الحق ولا ضار الا الحق فكل شئ هالك الا وجهه واذا كان كذلك فلا حكم الا لله ولا رجوع في الدارين الا الى الله ثم قال في آخر الآية فان فعلت فانك اذا من الظالمين يعني لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فانت من الظالمين لان الظلم عبارة عن وضع الشئ في غير موضعه فاذا كان ما سوى الحق معزولا عن التصرف كانت اضافة التصرف الى ما سوى الحق وضعا للشئ في غير موضعه فيكون ظلما فان قيل فطلب الشبع من الاكل والري من الشرب هل يقدح في ذلك الاخلاص قلنا لا لان وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه وطلب الانتفاع بشئ خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيا للرجوع بالكلية الى الله الا أن شرط هذا الاخلاص أن لا يقع بصر عقله على شئ من هذه الموجودات الا ويشاهد بعين عقله انها معدومة بذواتها وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق فحينئذ يرى ما سوى الحق عدما محضا بحسب أنفسها ويرى نور وجوده وفيض احسانه عاليا على الكل ❊ قوله تعالى ﴿وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه وتعالى قرر في آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود والوجود فائض منه ❊ واعلم أن الشئ اما أن يكون ضارا واما أن يكون نافعا واما أن يكون لا ضارا ولا نافعا وهذان القسمان مشتركان في اسم الخير ولما كان الضر أمرا وجوديا لا جرم قال فيه وان يمسسك الله بضر ولما كان الخير قد يكون وجوديا وقد يكون عدميا لا جرم لم يذكر لفظ الامساس فيه بل قال وان يردك بخير والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والايمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات فبين سبحانه وتعالى أنه ان قضى لاحد شرا فلا كاشف له الا هو وان قضى لاحد خيرا فلا راد لفضله البتة ثم في الآية دقيقة أخرى وهي أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه (الاول) انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفي اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بانه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة انه قال سبقت رحمتي غضبي (الثاني) انه تعالى قال في صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على ان جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب (والثالث) انه قال وهو الغفور

ظاهرا كيف لا وقوله تعالى (وكذلك نجزي المفترين) ينادي على خلافه فانهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضا ليس يجزي الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذي ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة وقيل المراد بهم أبناؤهم المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان تعيير الابناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف منه قوله تعالى واذ قتلتم نفسا الآية وقوله تعالى واذ قلتم ياموسى الآية والمراد بالغضب الغضب الاخروي وبالذلة ما أصابهم من القتل والاجلاء وضرب الجزية عليهم وقيل المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير في ينالهم أخلافهم ولا ريب في أن توسيط حال هؤلاء في تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه (والذين عملوا السيآت) أي سيئة كانت (ثم تابوا) عن تلك السيآت (من بعدها) أي من بعد عملها (وآمنوا) ايمانا صحيحا خالصا واشتغلوا باقامة ما هو من مقتضياته من الاعمال الصالحة ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الاولى (ان ربك من بعدها) أي من بعد تلك التوبة المقرونة بالايمان (لغفور) للذنوب وان عظمت وكثرت (رحيم) مبالغ في افاضة فنون الرحمة الدنيوية والاخروية والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه

الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه ثم نبه على أن الخير مراد بالذات والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة فهذا ما نقوله في هذه الآية ﴿المسئلة الثانية﴾ قال المفسرون انه تعالى لما بين في الآية الاولى في صفة الاصنام انها لا تضر ولا تنفع بين في هذه الآية انها لا تقدر أيضا على دفع الضرر الواصل من الغير وعلى دفع الخير الواصل من الغير قال ابن عباس رضي الله عنهما ان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو يعني بمرض وفقر فلا دافع له الا هو وأما قوله وان يردك بخير فقال الواحدي هو من المقلوب معناه وان يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ابدال كل واحد منهما بالآخر وأقول التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله وان يردك بخير يدل على ان المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لاجله فهذه الدقيقة لا تستفاد الا من هذا التركيب ۞ قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية وفي تفسيرها وجهان (الاول) انه من حكم له في الازل بالاهتداء فسيقع له ذلك ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة في دفعه (الثاني) وهو الكلام اللائق بالمعتزلة قال القاضي انه تعالى بين انه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل فلا يجب علي من السعي في ايصالكم الى الثواب العظيم وفي تخليصكم من العذاب الاليم أزيد مما فعلت قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية القتال ۞ ثم انه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة فقال ﴿واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ والمعنى انه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل فان وصل اليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه الى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين وأنشد بعضهم في الصبر شعرا فقال

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري ❊ وأصبر حتى يحكم الله في أمري

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني ❊ صبرت على شئ أمر من الصبر

تم تفسير هذه السورة والله أعلم بمراده وبأسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه ﴿يقول﴾ جامع هذا الكتاب ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة احدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواع المغفرة والرحمة وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين وهذا المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

۞﴿سورة هود عليه السلام مائة وثلاث وعشرون آية﴾۞

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان قوله الر اسم للسورة وهو مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله أحكمت آياته ثم فصلت صفة للكتاب قال الزجاج لا يجوز أن يقال الر مبتدأ وقوله كتاب أحكمت آياته ثم فصلت خبر لان الر ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده وهذا الاعتراض فاسد لانه ليس من شرط كون الشئ مبتدأ أن يكون خبره محصورا فيه ولا أدري كيف وقع للزجاج هذا السؤال ثم ان الزجاج اختار قولا آخر وهو أن يكون التقدير الر هذا كتاب أحكمت آياته وعندي أن هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) أن على هذا التقدير يقع قوله الر كلاما باطلا لا فائدة فيه (والثاني) انك اذا قلت هذا كتاب فقولك هذا يكون اشارة الى أقرب المذكورات وذلك هو قوله الر

السلام للتشريف (ولما سكت عن موسى الغضب) شروع في بيان بقية الحكاية اثر ما بين تحزب القوم الى مصر وتائب والاشارة الى مآل كل منهما اجمالا أي لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم وهذا صريح في أن ما حكى عنهم من الندم وما يتفرع عليه كان بعد مجئ موسى عليه الصلاة والسلام وفي هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغري عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى وقرئ سكن وسكت وأسكت على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون (أخذ الالواح) التي ألقاها (وفي نسختها) أي فيما نسخ فيها وكتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الالواح المنكسرة (هدى) أي بيان للحق (ورحمة) للخلق بارشادهم الى ما فيه الخير والصلاح (للذين هم لربهم يرهبون) اللام الاولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة أي كائنة لهم أو هي لام الاجل أي هدى ورحمة لاجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما في قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون أو هي أيضا لام العلة والمفعول محذوف أي يرهبون المعاصي لاجل ربهم لا للرياء والسمعة (واختار موسى قومه) شروع في بيان كيفية استدعاه

فيصير حينئذ الزمخشري راجعا عنه بانه كتاب أحكمت آياته فيلزمه على هذا القول مالم يرض به في القول الاول فثبت ان الصواب ماذكرناه ﴿المسئلة الثانية﴾ في قوله أحكمت آياته وجوه (الاول) أحكمت آياته نظمت نظما رصيفا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف (الثاني) ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله أحكمت آياته أي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها واعلم ان على هذا الوجه لا يكون كل الكتاب محكما لانه حصل فيه آيات منسوخة الا انه لما كان الغالب كذلك صح اطلاق هذا الوصف عليه اجراء للحكم الثابت في الغالب مجرى الحكم الثابت في الكل (الثالث) قال صاحب الكشاف أحكمت يجوز أن يكون نقلا بالهمزة من حكم بضم الكاف اذا صار حكيما أي جعلت حكيمة كقوله آيات الكتاب الحكيم (الرابع) جعلت آياته محكمة في أمور (أحدها) ان معاني هذا الكتاب هي التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وهذه المعاني لا تقبل النسخ فهي في غاية الاحكام (وثانيها) ان الآيات الواردة فيه غير متناقضة والتناقض ضد الاحكام فاذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الاحكام (وثالثها) ان ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة الى حيث لا تقبل المعارضة وهذا أيضا مشعر بالقوة والاحكام (ورابعها) ان العلوم الدينية اما نظرية واما عملية أما النظرية فهي معرفة الاله تعالى ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وهذا الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم ولطائفها وأما العملية فهي اما أن تكون عبارة عن تهذيب الاعمال الظاهرة وهو الفقه أو عن تهذيب الاحوال الباطنة وهي علم التصفية ورياضة النفس ولا نجد كتابا في العالم يساوي هذا الكتاب في هذه المطالب فثبت أن هذا الكتاب مشتمل على أشرف المطالب الروحانية وأعلى المباحث الالهية فكان كتابا محكما غير قابل للنقض والهدم وتمام الكلام في تفسير المحكم ذكرناه في تفسير قوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴿المسئلة الثالثة﴾ في قوله فصلت وجوه (أحدها) ان هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفرائد الروحانية وهي دلائل التوحيد والنبوة والاحكام والمواعظ والقصص (والثاني) أنها جعلت فصولا سورة سورة وآية آية (الثالث) فصلت بمعنى انها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ونظيره قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة (الرابع) فصل ما يحتاج اليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة (الخامس) جعلت فصولا حلالا وحراما وأمثالا وترغيبا وترهيبا ومواعظ وأمرا ونهيا لكل معنى فيها فصل قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها أو يحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الاكمل ﴿المسئلة الرابعة﴾ معنى ثم في قوله ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وكما تقول فلان كريم الاصل ثم كريم الفعل ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال صاحب الكشاف قرئ أحكمت آياته ثم فصلت أي أحكمتها أنا ثم فصلتها وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أي فرقت بين الحق والباطل ﴿المسئلة السادسة﴾ احتج الجبائي بهذه الآية على أن القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه (الاول) قال المحكم هو الذي أتقنه فاعله ولولا أن الله تعالى يحدث هذا القرآن والا لم يصح ذلك لان الاحكام لا يكون الا في الافعال ولا يجوز أن يقال كان موجودا غير محكم ثم جعله الله محكما لان هذا يقتضي في بعضه الذي جعله محكما أن يكون محدثا ولم يقل أحد بأن القرآن بعضه قديم وبعضه محدث (الثاني) أن قوله ثم فصلت يدل على أنه حصل فيه انفصال وافتراق ويدل على أن ذلك الانفصال والافتراق انما حصل بجعل جاعل وتكوين مكون وذلك أيضا يدل على المطلوب (الثالث) قوله من لدن حكيم خبير والمراد من عنده والقديم لا يجوز أن يقال انه حصل من عند قديم آخر لانهما لو كانا قديمين لم يكن القول بأن أحدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس ❊ أجاب أصحابنا بأن هذه النعوت عائدة الى هذه الحروف والاصوات ونحن معترفون بأنها محدثة مخلوقة وانما الذي ندعي قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والاصوات ﴿المسئلة السابعة﴾ قال صاحب الكشاف قوله من لدن حكيم خبير يحتمل وجوها

التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى الى اثنين ثانيهما مجرور بمن أي اختار من قومه بحذف الجار وايصال الفعل الى المجرور كما في قوله
اختارك الناس اذ رثت خلائقهم
واعتل من كان يرجى عنده السول
أي اختارك من الناس (سبعين رجلا) مفعول لاختار أخر عن الثاني لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر (لميقاتنا) الذي وقتناه بعد ما وقع من قومه ما وقع لا لميقات الكلام الذي ذكر قبل ذلك كما قيل قال السدي أمره الله تعالى بأن يأتيه في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه تعالى من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلا وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا اليه تعالى مما صنعوه ويسألوه التوبة على من تركوهم وراءهم من قومهم قالوا اختار عليه الصلاة والسلام من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه الصلاة والسلام ان لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم فخرج بهم الى طور سيناء فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه حسبما يشاء وهو الامر بقتل

(الاول) أنا ذكرنا أن قوله كتاب خبر وأحكمت صفة لهذا الخبر وقوله من لدن حكيم خبير صفة ثانية والتقدير الر كتاب من لدن حكيم خبير (والثانى) أن يكون خبرا بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير (والثالث) أن يكون ذلك صفة لقوله أحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كانه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور ﴿ قوله تعالى ﴿الا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير﴾ اعلم أن فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن فى قوله الا تعبدوا الا الله وجوها (الاول) أن يكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل أن لا تعبدوا الا الله * وأقول هذا التأويل يدل على أنه لا مقصود من هذا الكتاب الشريف الا هذا الحرف الواحد فكل من صرف عمره الى سائر المطالب فقد خاب وخسر (الثانى) أن تكون أن مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى لان قوله وأن استغفروا معطوف على قوله الا تعبدوا فيجب أن يكون معناه أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه (والثالث) أن يكون التقدير الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لا يعبدوا الا الله ويقول لهم انى لكم منه نذير وبشير والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكاليف من وجوه (الاول) أنه تعالى أمر بأن لا يعبدوا الا الله واذا قلنا الاستثناء من النفى اثبات كان معنى هذا الكلام النهى عن عبادة غير الله تعالى والامر بعبادة الله تعالى وذلك هو الحق لانا بينا أن ما سوى الله فهو محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت أن عبادة غير الله منكرة والاعراض عن عبادة الله منكر * واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة لان من لا يعرف معبوده لا ينتفع بعبادته فكان الامر بعبادة الله أمرا بتحصيل المعرفة أولا ونظيره قوله تعالى فى أول سورة البقرة يا أيها الناس اعبدوا ربكم ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله الذى خلقكم والذين من قبلكم وانما حسن ذلك لان الامر بالعبادة يتضمن الامر بتحصيل المعرفة فلا جرم ذكر ما يدل على تحصيل المعرفة * ثم قال اننى لكم منه نذير وبشير وفيه مباحث ﴿الاول﴾ أن الضمير فى قوله منه عائد الى الحكيم الخبير والمعنى انى لكم نذير وبشير من جهته ﴿البحث الثانى﴾ أن قوله الا تعبدوا الا الله مشتمل على المنع عن عبادة غير الله وعلى الترغيب فى عبادة الله تعالى فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الاول بالحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشير على الثانى بالحاق الثواب العظيم لمن أتى بها واعلم أنه صلى الله عليه وسلم ما بعث الا لهذين الامرين وهو الانذار على فعل ما لا ينبغى والبشارة على فعل ما ينبغى ﴿المرتبة الثانية﴾ من الامور المذكورة فى هذه الآية قوله وأن استغفروا ربكم ﴿والمرتبة الثالثة﴾ قوله ثم توبوا اليه واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه (الاول) أن معنى قوله وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على أنه لا سبيل الى طلب المغفرة من عند الله الا باظهار التوبة والامر فى الحقيقة كذلك لان المذنب معرض عن طريق الحق والمعرض المتمادى فى التباعد ما لم يرجع عن ذلك الاعراض لا يمكنه التوجه الى المقصود بالذات فالمقصود بالذات هو التوجه الى المطلوب الا أن ذلك لا يمكن الا بالاعراض عما يضاده فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة (الوجه الثانى فى فائدة هذا الترتيب) أن المراد استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا اليه فى المستأنف (الثالث) وأن استغفروا من الشرك والمعاصى

أنفسهم توبة (فلما أخذتهم الرجفة) مما اجترؤا عليه من طلب الرؤية فانه يروى انه لما انكشف الغمام أقبلوا الى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة أى الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أى ماتوا واهلهم أرادوا بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك فى أن الآمر عاينه من الامر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا فحين شاهد موسى تلك الحالة الهائلة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل) أى حين فرطوا فى النهى عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا اصرارهم عليها (واياى) أيضا حين طلبت منك الرؤية أى لو شئت اهلاكنا بذنوبنا لاهلكتنا حينئذ أراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق فان الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد ويستجلب المزيد يعنى انا كنا مستحقين للاهلاك ولم يكن من موانعه الاعدم مشيئتك اياه فحيث لطفت بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا غرو فى أن تعفو عنا هذه الجريمة أيضا وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى الذين لا يعلمون تفاصيل شؤنك ولا يتثبتون فى المداحض والهمزة اما الانكار

ثم تو بوا من الاعمال الباطلة (الرابع) الاستغفار طلب من الله لازالة ما لا ينبغي والتوبة سعي من الانسان في ازالة ما لا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشئ الا من مولاه فانه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتي به الانسان ويتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعي النفس واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ومن المعلوم أن المطالب محصورة في نوعين لانها اما أن يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة أما المنافع الدنيوية فهي المراد من قوله يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال مرفه البال وفي الآية سؤالات (الاول) أليس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما (الجواب) من وجوه (الاول) المراد أنه تعالى لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا (الثاني) أنه تعالى يوصل اليهم الرزق كيف كان واليه الاشارة بقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك (الثالث) وهو الاقوى عندي أن يقال ان المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شئ يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكل من كان امعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أتم لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه فأما من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال الله تعالى في صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة (السؤال الثاني) هل يدل قوله الى أجل مسمى على أن للعبد أجلين وأنه يقع في ذلك التقديم والتأخير (والجواب) لا ومعنى الآية أنه تعالى حكم بأن هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله في الوقت الفلاني ولو أعرض عنها لكان أجله في وقت آخر لكنه تعالى عالم بأنه لو اشتغل بالعبادة أم لا فان أجله ليس الا في ذلك الوقت المعين فثبت أن لكل انسان أجلا واحدا فقط (السؤال الثالث) لم سمى منافع الدنيا بالمتاع (الجواب) لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية * ثم لما بين تعالى ذلك قال ويؤت كل ذي فضل فضله والمراد منه السعادات الاخروية وفيها لطائف وفوائد (الفائدة الاولى) ان قوله ويؤت كل ذي فضل فضله معناه ويؤت كل ذي فضل موجب فضله ومعلوله والامر كذلك وذلك لان الانسان اذا كان في نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان في غاية الرغبة في تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فص النقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت الا أن العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الانوار الروحانية فاذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الانوار وتلألأت تلك الاضواء وتوالت موجبات السعادات فهذا هو المراد من قوله ويؤت كل ذي فضل فضله (الفائدة الثانية) ان هذا تنبيه على أن مراتب السعادات في الآخرة مختلفة وذلك لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال ويؤت كل ذي فضل فضله (الفائدة الثالثة) أنه تعالى قال في منافع الدنيا يمتعكم متاعا حسنا وقال في سعادات الآخرة ويؤت كل ذي فضل فضله وذلك يدل على ان جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس الا منه وليس الا بايجاده وتكوينه واعطائه وجوده * وكان الشيخ الامام الوالد رحمه الله تعالى يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه فأما الذين

وقوع الاهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الانبارى أو للاستعطاف كما قاله المبرد أى لا تهلكنا (ان هى الا فتنتك) استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم أى ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ما قالوا من العظيمة الا فتنتك أى محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) اما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أى حال كونها مضلا بها الخ أى تضل بسببها من تشاء اضلاله فلا يهتدى الى التثبت وتهدى من تشاء هدايته الى الحق فلا يتزلزل فى أمثالها فيقوى بها ايمانه (أنت ولينا) أى القائم بأمورنا الدنيوية والاخروية وناصرنا وحافظنا لا غيرك (فاغفر لنا) ما قارفناه من المعاصى والفاء لترتيب الدعاء على ما قبله من الولاية كأنه قيل فمن شأن الولى المغفرة والرحمة وقيل ان اقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول ان هى الا فتنتك الخ جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها (وارحمنا) بافاضة آثار الرحمة الدنيوية والاخروية علينا (وانت خير الغافرين) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة

توغلوا

بالذكر لانها الاهم بحسب المقام (واكتب لنا) أي عين لنا وقيل أوجب ٣٩ وحقق وأثبت (في هذه الدنيا حسنة) أي نعمة

توغلوا في المعارف الالهية وخاضوا في بحار أنوار الحقيقة علموا أن ما سواه ممكن لذاته موجود بايجاده فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه سبحانه وتعالى هو الضار النافع والمعطي والمانع ثم انه تعالى لما بين هذه الاحوال قال وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير والامر كذلك لان من اشتغل بعبادة غير الله صار في الدنيا أعمى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا والذي يبين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوي حبه لها ومال طبعه اليها وعظمت رغبته فيها فاذا مات بقي معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزا عن الوصول الى محبوبه فحينئذ يعظم البلاء ويتكامل الشقاء فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم وأما تفاصيل تلك الاحوال فهي غائبة عنا مادمنا في هذه الحياة الدنيوية ثم بين أنه لابد من الرجوع الى الله تعالى بقوله الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير * واعلم أن قوله الى الله مرجعكم فيه دقيقة وهي ان هذا اللفظ يفيد الحصر يعني أن مرجعنا الى الله لا الى غيره فيدل هذا على أنه لا مدبر ولا متصرف هناك الا هو والامر كذلك أيضا في هذه الحياة الدنيوية الا ان أقواما اشتغلوا بالنظر الى الوسائط فعجزوا عن الوصول الى مسبب الاسباب فظنوا أنهم في دار الدنيا قادرون على شئ وأما في دار الآخرة فهذا الخيال الفاسد زائل أيضا فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله الى الله مرجعكم ثم قال وهو على كل شئ قدير وأقول ان هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه وبشارة عظيمة من سائر الوجوه أما انه تهديد عظيم فلان قوله تعالى الى الله مرجعكم يدل على أنه ليس مرجعنا الا اليه وقوله وهو على كل شئ قدير يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته والرجوع الى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما انه بشارة عظيمة فلان ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد والملك القاهر العالي الغالب اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فأسجح (يقول مصنف هذا الكتاب) قد أفنيت عمري في خدمة العلم والمطالعة للكتب ولا رجاء لي في شئ الا اني في غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر غفر وأسألك يا أكرم الاكرمين ويا أرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدي وفلذة كبدي وأن تخصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور﴾ اعلم أنه تعالى لما قال وان تولوا يعني عن عبادته وطاعته فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير بين بعده أن التولي عن ذلك باطنا كالتولي عنه ظاهرا فقال ألا انهم يعني الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين (الاول) أنهم يثنون صدورهم يقال ثنيت الشئ اذا عطفته وطويته وفي الآية وجهان (الاول) روي أن طائفة من المشركين قالوا اذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فكيف يعلم بنا وعلى هذا التقدير كان قوله يثنون صدورهم كناية عن النفاق فكأنه قيل يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله تعالى ثم نبه بقوله ألا حين يستغشون ثيابهم على انهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم (الوجه الثاني) روي أن بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه والتقدير كأنه قيل انهم ينصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلام رسول الله وما يتلو من القرآن وليقولوا في أنفسهم ما يشتهون من الطعن وقوله ألا للتنبيه فنبه أولا على أنهم ينصرفون عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة ألا للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم وهو حين يستغشون ثيابهم كأنه قيل ألا انهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ألا انهم يستخفون حين يستغشون ثيابهم ثم ذكر أنه لا فائدة لهم في استخفائهم بقوله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الاولى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون أردفه بما يدل على كونه تعالى عالما

وعافية أو خصلة حسنة قال ابن عباس رضي الله عنهما القبول وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة (وفي الآخرة) أي واكتب لنا فيها أيضا حسنة وهي المثوبة الحسنى والجنة (انا هدنا اليك) أي تبنا وأنبنا اليك من هاد يهود اذا رجع وقرئ بكسر الهاء من هاده يهيده اذا حركه وأماله ويحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول بمعنى أملنا أنفسنا أو أملنا اليك ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل والجملة استئناف مسوق لتعليل الدعاء فان التوبة مما يوجب قبوله بموجب الوعد المحتوم وتصديرها بحرف التحقيق لاظهار كمال النشاط والرغبة في التوبة والمعنى انا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين قيل لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام

يتضرع الى الله تعالى حتى أحياهم وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى

بجميع المعلومات فذكر أن رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات
لما حصلت هذه المهمات وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الزجاج الدابة اسم لكل حيوان لان
الدابة اسم مأخوذ من الدبيب وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث وأطلق على كل حيوان ذي روح
ذكرا كان أو انثى الا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية الموضوع
الاصلي اللغوي فيدخل فيه جميع الحيوانات وهذا متفق عليه بين المفسرين ولا شك أن أقسام الحيوانات
وأنواعها كثيرة وهي الاجناس التي تكون في البر والبحر والجبال والله يحصيها دون غيره وهو تعالى عالم
بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها وما يوافقها وما يخالفها فالاله المدبر
لاطباق السموات والارضين وطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها روى أن موسى
عليه السلام عند نزول الوحي اليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة
فانشقت وخرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ثم ضربها بعصاه فانشقت
فخرجت منها دودة كالذرة وفي فيها شئ يجري مجرى الغذاء لها ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام
فسمع الدودة تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني ﴿المسئلة الثانية﴾
تعلق بعضهم بانه يجب على الله تعالى بعض الاشياء بهذه الآية وقال ان كلمة على للوجوب وهذا يدل على
أن ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله وجوابه أنه واجب بحسب الوعد والفضل والاحسان ﴿المسئلة
الثالثة﴾ تعلق أصحابنا بهذه الآية في اثبات أن الرزق قد يكون حراما قالوا لانه ثبت أن ايصال الرزق الى كل
حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق والله تعالى لا يخل بالواجب ثم قد نرى انسانا
لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد
أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا * وأما قوله ويعلم مستقرها ومستودعها فالمستقر
هو مكانه من الارض والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار في صلب أو رحم أو بيضة وقال الفراء
مستقرها حيث تأوي اليه ليلا أو نهارا ومستودعها موضعها الذي تموت فيه وقد مضى استقصاء تفسير
المستقر والمستودع في سورة الانعام ثم قال كل في كتاب مبين قال الزجاج المعنى ان ذلك ثابت في علم الله
تعالى ومنهم من قال في اللوح المحفوظ وقد ذكرنا فائدة ذلك في قوله ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين
۞ قوله تعالى ﴿وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا
ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين﴾ واعلم أنه تعالى لما أثبت
بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادرا على كل المقدورات وفي الحقيقة
فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله تعالى وعلى كمال قدرته واعلم أن قوله تعالى وهو الذي
خلق السموات والارض في ستة أيام قد مضى تفسيره في سورة يونس على سبيل الاستقصاء بقي ههنا أن
نذكر وكان عرشه على الماء قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم
خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء قال أبو بكر الاصم معنى قوله وكان عرشه على
الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وكيف كانت الواقعة
فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والارض وقالت المعتزلة في الآية دلالة على وجود
الملائكة قبل خلقهما لانه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء لانه تعالى لما خلقهما فاما أن
يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثاني عبث فبقي الاول وهو انه خلقهما لمنفعة وتلك المنفعة اما أن
تكون عائدة الى الله وهو محال لكونه متعاليا عن النفع والضرر أو الى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حيا
لان غير الحي لا ينتفع وكل من قال بذلك قال ذلك الحي كان من جنس الملائكة وأما أبو مسلم الاصفهاني
فقال معنى قوله وكان عرشه على الماء أي بناؤه السموات كان على الماء وقد مضى تفسير ذلك في سورة يونس
وبين أنه تعالى اذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب فان البناء الضعيف اذا لم يؤسس على أرض

فكشفها الله تعالى عنهم (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند
دعاء موسى عليه السلام
فقيل قال (عذابي
أصيب به من أشاء) لعله
عز وجل حين جعل توبة
عبدة العجل بقتلهم
أنفسهم ضمن موسى
عليه السلام دعاءه
التخفيف والتيسير حيث
قال واكتب لنا في هذه
الدنيا حسنة أي خصلة
حسنة عارية عن المشقة
والشدة فان في قتل
أنفسهم من العذاب
والتشديد ما لا يخفى
فاجاب الله تعالى بأن
عذابي شأنه أن أصيب
به من أشاء تعذيبه من
غير دخل لغيري فيه وهم
ممن تناولته مشيئتي
ولذلك جعلت توبتهم
مشوبة بالعذاب
الدنيوي (ورحمتي وسعت
كل شئ) أي شأنها أن
تسع في الدنيا المؤمن
والكافر بل كل
ما يدخل تحت الشيئية
من المكلفين وغيرهم
وقد نال قومك نصيب
منها في ضمن العذاب
الدنيوي وفي نسبة
الاصابة الى العذاب
بصيغة المضارع ونسبة
السعة الى الرحمة بصيغة
الماضي ايذان بأن الرحمة
مقتضى الذات وأما
العذاب فبمقتضى معاصي
العباد والمشيئة معتبرة في
جانب الرحمة أيضا وعدم
التصريح بها للاشعار بغاية الظهور الايرى الى قوله تعالى (فسأكتبها) أي أثبتها وأعينها فانه متفرع على اعتبار

صلبة لم يثبت فكيف بهذا الامر العظيم اذا بسط على الماء * وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى ذكر ان عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والارض (والجواب) فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه (الاول) ان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض كان على الماء فلولا أنه تعالى قادر على امساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك (والثانى) انه تعالى أمسك الماء لا على قرار والا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية وذلك يدل على ما ذكرناه (والثالث) أن العرش الذى هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وذلك يدل أيضا على ما ذكرنا (السؤال الثانى) هل يصح ما روى انه قيل يا رسول الله أين كان ربنا قبل خلق السموات والارض فقال كان فى عماء فوقه هواء وتحته هواء (والجواب) ان هذه الرواية ضعيفة والاولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شئ ثم كان عرشه على الماء (السؤال الثالث) اللام فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا يقتضى انه تعالى خلق السموات والارض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه (والجواب) ظاهر هذا الكلام يقتضى ان الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذى قال به الآخرون وشرح تلك المقالات لا يليق بهذا الكتاب والذين قالوا ان أفعاله تعالى وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا لام التعليل وردت على ظاهر الامر ومعناه انه تعالى فعل فعلا لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله الا لهذا الغرض (السؤال الرابع) الابتلاء انما يصح على الجاهل بعواقب الامور وذلك على الله تعالى محال فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء فى حقه (والجواب) ان هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة لعلكم تتقون * واعلم أنه تعالى لما بين أنه خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسىء بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة فعند هذا خاطب محمدا عليه الصلاة والسلام وقال ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ومعناه انهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون بفساد القول بالبعث * فان قيل الذى يمكن وصفه بانه سحر ما يكون فعلا مخصوصا وكيف يمكن وصف هذا القول بانه سحر * قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) قال القفال معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا احرازا لهم الى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم (الثانى) أن معنى قوله ان هذا الا سحر مبين هو أن السحر أمر باطل قال تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام ما جئتم به السحر ان الله سيبطله فقوله ان هذا الا سحر مبين أى باطل مبين (الثالث) ان القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا فى القرآن بكونه سحرا لان الطعن فى الاصل يفيد الطعن فى الفرع (الرابع) قرأ حمزة والكسائى ان هذا الا ساحر يريدون النبى صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب * قوله تعالى ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار انهم يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم ان هذا الا سحر مبين فحكى عنهم فى هذه الآية نوعا آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذى توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به أخذوا فى الاستهزاء ويقولون ما السبب الذى حبسه عنا فأجاب الله تعالى بانه اذا جاء الوقت الذى عينه الله تعالى لنزول ذلك العذاب الذى كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب * بقى ههنا سؤالات (السؤال الاول) المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة (الجواب) للمفسرين فيه وجوه (الاول) قال الحسن معنى حكم الله فى هذه الآية أنه لا يعذب أحدا منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك الى يوم القيامة فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذى حبسه عنا (والثانى) أن المراد الامر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر وعلى هذا الوجه تأولوا قوله وحاق بهم أى نزل بهم هذا العذاب يوم بدر (السؤال الثانى) ما المراد بقوله الى أمة معدودة

المشيئة كأنه قيل فاذا كان الامر كذلك أى كما ذكر من اصابة عذابى وسعة رحمتى لكل من أشاء فسأكتبها كتبة كائنة كما دعوت بقولك واكتب لنا فى هذه الخ أى سأكتبها خاصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى (للذين يتقون) أى الكفر والمعاصى اما ابتداء أو بعد ملابستهما وفيه تعريض بقومه كأنه قيل لا لقومك لانهم غير متقين فهم ماقدر لهم من الرحمة وان كانت مقارنة للعذاب الدنيوى (ويؤتون الزكاة) وفيه أيضا تعريض بهم حيث كانت الزكاة شاقة عليهم ولعل الصلاة انما لم تذكر مع انافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنكرات عن آخرها وايراد ايتاء الزكاة لما مر من التعريض (والذين هم بآياتنا) جميعا (يؤمنون) ايمانا مستمرا من غير اخلال بشئ منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجىء بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ما أريد بالموصول الاول دون أن يقال ويؤمنون بآياتنا عطفا على يؤتون الزكاة كما عطف هو على يتقون لما أشير اليه من القصر بتقديم الجار والمجرور أى

(الجواب) من وجهين (الاول) ان الاصل فى الامة هم الناس والفرقة فاذا قلت جاءنى أمة من الناس فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون وقوله وادكر بعد أمة أى بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة أى الى حين تنقضى أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول لقالوا ما يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد وتسمية الشئ باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر أى فى ذلك الحين (الثانى) ان اشتقاق الامة من الام وهو القصد كأنه يعنى الوقت المقصود بايقاع هذا الموعود فيه ﴿السؤال الثالث﴾ لم قال وحاق على لفظ الماضى مع ان ذلك لم يقع (والجواب) قد مر فى هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس والضابط فيها انه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضى مبالغة فى التأكيد والتقرير ❁ قوله تعالى ﴿ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيآت عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر ان عذاب أولئك الكفار وان تأخر الا أنه لا بد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب فقال ولئن أذقنا الانسان وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لفظ الانسان فى هذه الآية فيه قولان ﴿الاول﴾ ان المراد منه مطلق الانسان ويدل عليه وجوه (الاول) أنه تعالى استثنى منه قوله الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فثبت ان الانسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر وذلك يدل على ما قلناه (الثانى) ان هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وموافقة أيضا لقوله تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا (الثالث) ان مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز قال ابن جريج فى تفسير هذه الآية يا ابن آدم اذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور فاذا نزعت منك فيؤس قنوط ﴿والقول الثانى﴾ ان المراد منه الكافر ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاصل فى المفرد المحلى بالالف واللام ان يحمل على المعهود السابق لولا المانع وههنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور فى الآية المتقدمة (الثانى) أن الصفات المذكورة للانسان فى هذه الآية لا تليق الا بالكافر لانه وصفه بكونه يؤسا وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ووصفه أيضا بكونه كفورا وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضا بانه عند وجدان الراحة يقول ذهب السيآت عنى وذلك جراءة على الله تعالى ووصفه أيضا بكونه فرحا والله لا يحب الفرحين ووصفه أيضا بكونه فخورا وذلك ليس من صفات أهل الدين ثم قال الناظرون لهذا القول وجب أن يحمل الاستثناء المذكور فى هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات ﴿المسئلة الثانية﴾ لفظ الاذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم فكان المراد أن الانسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع فى التمرد والطغيان وبادراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع فى اليأس والقنوط والكفران فالدنيا فى نفسها قليلة والحاصل منها للانسان الواحد قليل والاذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم انه فى سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين فهذه الاذاقة قليل من قليل ومع ذلك فان الانسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الاتيان بالطريق الحسن معها وأما النعماء فقال الواحدى انها انعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها لانها خرجت مخرج الاحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء والمضرة والضراء ﴿المسئلة الثالثة﴾ اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال الا أن الضابط فيه انه اما أن يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب ومن المحرمات الى الطيبات ﴿أما القسم الاول﴾ فهو المراد من قوله واذا أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الانسان بانه يؤس كفور

هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض (الذين يتبعون الرسول) الذى نوحى اليه كتابا مختصا به (النبى) أى صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة اليه تعالى وعنوان النبوة بالنسبة الى الامة (الامى) بضم الهمزة نسبة الى الام كأنه باق على حالته التى ولد عليها من أمه أو الى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام انا أمة لا نحسب ولا نكتب أو الى أم القرى وقرئ بفتح الهمزة أى الذى لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الاولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الاول بدل الكل أو منصوب على المدح أو مرفوع عليه أى أعنى الذين أو هم الذين وأما جعله مبتدأ على أن خبره يأمرهم أو أولئك هم المفلحون فغير سديد (الذى يجدونه مكتوبا) باسمه ونعوته بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون اسمه أو وصفه مكتوبا (عندهم) زيد هذا لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا (فى التوراة والانجيل) اللذين تعبد بهما بنو اسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا وذكر الانجيل قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبى عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قبل مجيئهما (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) كلام

وتقريره

وتقريره أن يقال انه حال زوال تلك النعمة يصير يؤسا وذلك لان الكافر يعتقد ان السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي ثم انه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس وأما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة انما حصلت من الله تعالى وفضله واحسانه وطوله فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها الي بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فانه يكون كفورا لانه لما اعتقد أن حصولها انما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الانسان حصلها بسبب جده وجهده فحينئذ لا يشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة فالحاصل ان الكافر يكون عند زوال تلك النعمة يؤسا وعند حصولها يكون كفورا ﴿وأما القسم الثاني﴾ وهو أن ينتقل الانسان من المكروه الى المحبوب ومن المحنة الى النعمة فههنا الكافر يكون فرحا فخورا أما قوة الفرح فلان منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية وهو منكر للسعادات الاخروية الروحانية فاذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها وأما كونه فخورا فلانه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به فحاصل الكلام انه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين ثم لما قرر ذلك قال الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والمراد منه ضد ما تقدم فقوله الا الذين صبروا والمراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين وقوله وعملوا الصالحات المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين ثم بين تعالى حالهم فقال أولئك لهم مغفرة وأجر كبير فجمع لهم بين هذين المطلوبين (أحدهما) زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله لهم مغفرة (والثاني) الفوز بالثواب وهو المراد من قوله وأجر كبير ومن وقف على هذا التفصيل الذي ذكرناه علم ان هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضا معجز بحسب معانيه ﴿قوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شئ وكيل﴾ اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار والله تعالى بين أن قلب الرسول ضاق بسببه ثم انه تعالى قواه وأيده بالاكرام والتأييد وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية واختلفوا في المراد بقوله تارك بعض ما يوحى اليك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك وقال الحسن طلبوا منه لا يقول ان الساعة آتية وقال بعضهم المراد نسبتهم الى الجهل والتقليد والاصرار على الباطل ﴿المسئلة الثانية﴾ أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون في الوحي والتنزيل وأن يترك بعض ما يوحى اليه لان تجويزه يؤدي الى الشك في كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح في النبوة وأيضا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فاذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك شيأ آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه (الاول) لا يمتنع أن يكون في معلوم الله تعالى أنه انما يترك التقصير في أداء الوحي والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى أمثال هذه التهديدات البليغة (الثاني) انهم كانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقي اليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه الله تعالى لاداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات الى استهزائهم والغرض منه التنبيه على أنه ان أدى ذلك الوحي وقع في سخريتهم وسفاهتهم وان لم يؤد ذلك الوحي اليهم وقع في ترك وحي الله تعالى وفي ايقاع الخيانة فيه فاذا لا بد من تحمل أحد الضررين وتحمل ضرر سفاهتهم أسهل من تحمل ايقاع الخيانة في وحي الله تعالى والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفي الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر في جانب الترك أعظم

مستأنف لا محل له من الاعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التي وعد فيما سبق بكتبها اجمالا فان ما بين فيه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث واسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار رحمته الواسعة وقيل في محل النصب على أنه حال مقدرة مفعول يجدونه أو من النبي أو من المستكن في مكتوبا أو مفسر لمكتوبا أي لما كتب (ويحل لهم الطيبات) التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم (ويحرم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم) أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي هي من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب واحراق الغنائم وتحريم السبت وعن عطاء انه كانت بنو اسرائيل اذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم الى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة وقرئ آصارهم أصل الاصر الثقل الذي يأصر صاحبه من الحراك (فالذين آمنوا به) تعليم لكيفية اتباعه عليه

وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف فالمقصود من ذكر هذا الكلام ماذكرناه * فان قيل قوله فلعلك كلمة شك فما الفائدة فيها * قلنا المراد منها الزجر والعرب تقول للرجل اذا أرادوا ابعاده عن أمر لعلك تقدر أن تفعل كذا مع انه لا شك فيه ويقول لولده لو أمره لعلك تقصر فيما أمرتك به ويريد توكيد الامر فمعناه لا تترك وأما قوله وضائق به صدرك فالضائق بمعنى الضيق قال الواحدي الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا ومثله قولك زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين فاذا أردت الحدوث قلت سائد وجائد والمعنى ضائق صدرك لاجل أن يقولوا لولا أنزل عليه فان قيل الكنز كيف ينزل قلنا المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم فكأن القوم قالوا ان كنت صادقا في انك رسول الاله الذي تصفه بالقدرة على كل شئ وانك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ما تستغني به وتغني أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وان كنت صادقا فهلا أنزل الله معك ملكا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة في أمرك فلما لم يفعل الهك ذلك فأنت غير صادق فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على ايجاد هذه الاشياء والذي أرسله هو القادر على ذلك فان شاء فعل وان شاء لم يفعل ولا اعتراض لاحد عليه في فعله وفي حكمه ومعنى وكيل حفيظ أي يحفظ عليهم أعمالهم أي يجازيهم بها ونظير هذه الآية قوله تعالى تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا وقوله وقالوا لن نؤمن لك الى قوله قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ❁ قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ﴾ اعلم ان القوم لما طلبوا منه المعجز قال معجزي هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغيا وجهلا ثم قرر كونه معجزا بان تحداهم بالمعارضة وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم في سورة البقرة وفي سورة يونس وفي الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ الضمير في قوله افتراه عائد الى ما سبق من قوله يوحى اليك أي ان قالوا ان هذا الذي يوحى اليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى أمثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضا أن يكون المراد هو المجموع لان مجموع السور العشرة شئ واحد ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قال ابن عباس هذه السورة التي وقع بها هذا التحدي معينة وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام وقوله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات اشارة الى السور المتقدمة على هذه السورة وهذا فيه اشكال لان هذه السورة مكية وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سور التي ما نزلت عند هذا الكلام فالاولى أن يقال التحدي وقع بمطلق السور التي يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه * واعلم ان التحدي بعشر سور لابد وأن يكون سابقا على التحدي بسورة واحدة وهو مثل أن يقول الرجل لغيره اكتب عشرة أسطر مثل ما اكتب فاذا ظهر عجزه عنه قال قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله اذا عرفت هذا فنقول التحدي بالسورة الواحدة ورد في سورة البقرة وفي سورة يونس كما تقدم أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية وأما في سورة يونس فالاشكال زائل أيضا لان كل واحدة من هاتين السورتين مكية والدليل الذي ذكرناه يقتضي أن تكون سورة هود متقدمة في النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذي ذكرناه ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ اختلف الناس في الوجه الذي لاجله كان القرآن معجزا فقال بعضهم هو الفصاحة وقال بعضهم هو الاسلوب وقال ثالث هو عدم التناقض وقال رابع هو اشتماله على العلوم الكثيرة وقال خامس هو الصرف وقال سادس هو اشتماله على الاخبار عن الغيوب والمختار عندي وعند الاكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية لانه لو كان وجه الاعجاز هو كثرة العلوم أو الاخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله مفتريات معنى أما اذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لان فصاحة الفصيح تظهر

عليه الصلاة والسلام اياهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث أي فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه في أوامره ونواهيه (وعزروه) أي عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرئ بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير (ونصروه) على أعدائه في الدين (واتبعوا النور الذي أنزل معه) أي مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره أو مظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا أي واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه (أولئك) اشارة الى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للاشعار بعليتها للحكم وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل والشرف أي أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة (هم المفلحون) أي هم الفائزون بالمطلوب الناجون من المكروب لاغيرهم من الامم فيدخل فيهم موسى عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا

بالكلام سواء كان الكلام صدقا أو كذبا وأيضا لو كان الوجه في كونه معجزا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة ثم انه تعالى لما قرر وجه التحدي قال وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين والمراد ان كنتم صادقين في ادعاء كونه مفترى كما قال أم يقولون افتراه واعلم أن هذا الكلام يدل على انه لابد في اثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين وذلك لانه تعالى أورد في اثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام هذا الدليل وهذه الحجة ولولا أن الدين لا يتم الا بالدليل لم يكن في ذكره فائدة ۞ قوله تعالى ﴿فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون﴾ اعلم أن الآية المتقدمة اشتملت على خطابين (أحدهما) خطاب الرسول وهو قوله قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (والثاني) خطاب الكفار وهو قوله وادعوا من استطعتم من دون الله فلما أتبعه بقوله فان لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لتعذرها عليهم واحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين فبعضهم قال هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين والمراد أن الكفار ان لم يستجيبوا لكم في الاتيان بالمعارضة فاعلموا أنما أنزل بعلم الله والمعنى فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقينا وثبات قدم على أنه منزل من عند الله ومعنى قوله فهل أنتم مسلمون أي فهل أنتم مخلصون ومنهم من قال فيه اضمار والتقدير فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا أنما أنزل بعلم الله (والقول الثاني) ان هذا خطاب مع الكفار والمعنى ان الذين تدعونهم من دون الله اذا لم يستجيبوا لكم في الاعانة على المعارضة فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن انما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم والقائلون بهذا القول قالوا هذا أولى من القول الاول لانكم في القول الاول احتجتم الى أن حملتم قوله فاعلموا على الامر بالثبات أو على اضمار القول وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه الى اضمار فكان هذا أولى وأيضا فعود الضمير الى أقرب المذكورين واجب وأقرب المذكورين في هذه الآية هو هذا الاحتمال الثاني وأيضا ان الخطاب الاول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله قل فأتوا بعشر سور والخطاب الثاني كان مع جماعة الكفار بقوله وادعوا من استطعتم من دون الله وقوله فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذي قلناه أولى ۞ بقي في الآية سؤالات (السؤال الاول) ما الشيء الذي لم يستجيبوا فيه (الجواب) المعنى فان لم يستجيبوا لكم في معارضة القرآن وقال بعضهم فان لم يستجيبوا لكم في جملة الايمان وهو بعيد (السؤال الثاني) من المشار اليه بقوله لكم (والجواب) ان حملنا قوله فان لم يستجيبوا لكم على المؤمنين فذلك ظاهر وان حملناه على الرسول ففيه جوابان (الاول) المراد فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لان الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال في موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم (والثاني) يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم (السؤال الثالث) أي تعلق بين الشرط المذكور في هذه الآية وبين ما فيها من الجزاء (الجواب) أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى فقال لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ثبت انه من عند الله فقوله انما أنزل بعلم الله كناية عن كونه من عند الله ومن قبله كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمي (السؤال الرابع) أي تعلق لقوله وأن لا اله الا هو بعجزهم عن المعارضة (والجواب) فيه من وجوه (الاول) أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالاصنام في تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر انها لا تنفع ولا تضر في شيء من المطالب البتة ومتى كان كذلك فقد بطل القول باثبات كونهم آلهة فصار عجز القوم عن المعارضة بعد الاستعانة بالاصنام مبطلا لالهية الاصنام ودالا على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان قوله وأن لا اله الا هو اشارة الى ما ظهر من فساد القول بالهية الاصنام (الثاني) انه ثبت في علم الاصول أن القول بنفي الشريك عن الله من المسائل التي يمكن اثباتها بقول الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى هذا فكأنه قيل لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقا وثبت كون محمد صلى

حيث لم ينجوا عما في توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه الصلاة والسلام وبين الجواب لا بمجرد ما قيل من أنه لما دعا لنفسه ولبني اسرائيل أجيب بما هو منطو على توبيخ بني اسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظام التي أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرض بذلك في قوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين لطفا بهم وترغيبا في اخلاص الايمان والعمل الصالح (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم) لما حكى ما في الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم لسعادة الدارين أمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص رسالة سائر الرسل عليهم السلام بأقوامهم وارسال موسى عليه السلام الى فرعون وملئه بالآيات التسع انما كان لامرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بني

الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة ثم انه كان يخبر عن أنه لا اله الا الله فلما ثبت كونه محقا فى دعوى النبوة ثبت قوله أن لا اله الا هو (الثالث) ان ذكر قوله وأن لا اله الا هو جار مجرى التهديد كأنه قيل لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه الصلاة والسلام صادقا فى دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا اله الا الله فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الاصرار على الكفر واقبلوا الاسلام وتظيره قوله تعالى فى سورة البقرة عند ذكر آية التحدى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وأما قوله فهل أنتم مسلمون فان قلنا انه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الاخلاص وان قلنا انه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى أصل الاسلام ﴿ قوله تعالى ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا صلى الله عليه وسلم فى أكثر الاحوال فكانوا يظهرون من أنفسهم ان محمدا مبطل ونحن محقون وانما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وابطال الباطل وكانوا كاذبين فيه بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى ونظير هذه الآية قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن فى الآية قولين (الاول) انها مختصة بالكفار لان قوله من كان يريد الحياة الدنيا يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق لان كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها الا ان آخر الآية يدل على ان المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر لان قوله تعالى أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون لا يليق الا بالكفار فصار تقدير الآية من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط أى تكون ارادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالبا لسعادات الآخرة كان حكمه كذا وكذا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه فمنهم من قال المراد منهم منكرو البعث فانهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون الا فى سعادات الدنيا وهذا قول الاصم وكلامه ظاهر ﴿والقول الثانى﴾ ان الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها ﴿والقول الثالث﴾ ان المراد اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس (والقول الرابع) وهو الذى اختاره القاضى ان المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها وعمل الخير قسمان العبادات وايصال المنفعة الى الحيوان ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور واجراء الانهار فهذه الاشياء اذا أتى بها الكافر لاجل الثناء فى الدنيا فان بسببها تصل الخيرات والمنافع الى المحتاجين فكلها تكون من أعمال الخير فلا جرم هذه الاعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم وأما العبادات فهى انما تكون طاعات بنيات مخصوصة فاذا لم يؤت بتلك النية وانما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات واذا عرفت هذا فنقول قوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر ﴿القول الثانى﴾ وهو أن تجرى الآية على ظاهرها فى العموم ونقول انه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته وهذا القول مشكل لان قوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لا يليق بالمؤمن الا اذا قلنا المراد أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار بسبب هذه الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة المقرونة بالرياء ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخبارا كثيرة فى هذا الباب روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن قال عليه الصلاة والسلام واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن وقال عليه الصلاة والسلام أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيرا ولا خير فيه وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله

عليه

اسرائيل من الاسر والقسر وأما العمل باحكام التوراة فمختص ببنى اسرائيل (جميعا) حال من الضمير فى اليكم (الذى له ملك السموات والارض) منصوب أو مرفوع على المدح أو مجرور على أنه صفة للجلالة وان حيل بينهما بما هو متعلق بما أضيف اليه فانه فى حكم المتقدم عليه وقوله تعالى (لا اله الا هو) بيان لما قبله فان من ملك العالم كان هو الاله لا غيره وقوله تعالى (يحيى ويميت) لزيادة تقرير ألوهيته والفاء فى قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله) لتفريع الامر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام وايراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات الى الغيبة للمبالغة فى ايجاب الامتثال بامره ووصف الرسول بقوله (النبى الامى) لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين ووصفه بقوله تعالى (الذى يؤمن بالله وكلماته) أى ما أنزل اليه والى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به والتصريح بايمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الايمان به تعالى لا ينفك عن الايمان بكلماته ولا يتحقق الا به وقرئ وكلمته على ارادة الجنس أو القرآن تنبيها على أن المأمور به هو الايمان به عليه الصلاة والسلام من حيث

عليه وسلم أنه قال اذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له ما عملت فيه فيقول يارب قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول وصلت الرحم وتصدقت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل في سبيل الله فيقول قاتلت في الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جرىء وقد قيل ذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتي وقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروى أن أبا هريرة رضي الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوي فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها ﴿المسئلة الثانية﴾ المراد من توفية أجور تلك الاعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب فانه يصل اليهم حال كونهم في دار الدنيا فاذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الاعمال أثر من آثار الخيرات بل ليس لهم منها الا النار واعلم أن العقل يدل عليه قطعا وذلك لان من أتى بالاعمال لاجل طلب الثناء في الدنيا ولاجل الرياء فذلك لاجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا ولم يحصل في قلبه حب الآخرة اذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتي بالخيرات لاجل الدنيا وينسى أمر الآخرة فثبت ان الآتي بأعمال البر لاجل الدنيا لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فاذا مات فانه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزا عن وجدانها غير قادر على تحصيلها ومن أحب شيأ ثم حيل بينه وبين المطلوب فانه لا بد وأن تشتعل في قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلي ان كل من أتى بعمل من الاعمال لطلب الاحوال الدنيوية فانه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ثم اذا مات فانه لا يحصل له منه الا النار ويصير ذلك العمل في الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الاثر ﴿ قوله تعالى ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة الا النار الا أنه حذف الجواب لظهوره ومثله في القرآن كثير كقوله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء وقوله أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وقوله قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون واعلم أن أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل واحد منها مجمل (فالاول) أن هذا الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو (والثاني) أنه ما المراد بهذه البينة (والثالث) أن المراد بقوله يتلوه القرآن أو كونه حاصلا عقيب غيره (والرابع) أن هذا الشاهد ما هو فهذه الالفاظ الاربعة مجملة فلهذا كثر اختلاف المفسرين في هذه الآية (أما الاول) فهو أن هذا الذي وصفه الله تعالى بانه على بينة من ربه من هو فقيل المراد به النبي عليه الصلاة والسلام وقيل المراد به من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره وهو الاظهر لقوله تعالى في آخر الآية أولئك يؤمنون به وهذا صيغة جمع فلا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذي عرف به صحة الدين الحق والضمير في يتلوه يرجع الى معنى البينة وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه أي من الله ومن قبله كتاب موسى أي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجىء القرآن كتاب موسى واعلم أن كون كتاب موسى تابعا للقرآن ليس في الوجود بل في دلالته على هذا المطلوب واماما نصب على الحال فالحاصل أنه يقول اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة (أولها) دلالة البينات العقلية على صحته (وثانيها) شهادة القرآن بصحته (وثالثها) شهادة التوراة بصحته فعند اجتماع هذه الثلاثة لا يبقى في صحته شك ولا ارتياب فهذا القول أحسن الاقاويل في هذه الآية وأقربها الى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر (فالقول الاول) ان الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه هو محمد عليه الصلاة والسلام والبينة هو

أنزل عليه القرآن لا من حيثية أخرى أو على أن المراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضا باليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتد بايمانه (واتبعوه) أي في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين (لعلكم تهتدون) علة للفعلين أو حال من فاعليهما أي رجاء لاهتدائكم الى المطلوب أو راجين له وفي تعليقه بهما ايذان بان من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغي والضلالة (ومن قوم موسى) كلام مبتدأ مسوق لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم بل منهم (أمة يهدون) أي الناس (بالحق) أي ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق (وبه) أي بالحق (يعدلون) أي في الاحكام الجارية فيما بينهم وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويأباه أنه قد مر ذكرهم فيما سلف وقيل ان بني اسرائيل لما بالغوا في العتو والطغيان حتى اجترؤا على قتل الانبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقا في الارض فساروا فيه سنة ونصفا

القرآن والمراد بقوله يتلوه هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا في تفسير الشاهد وجوها (أحدها) أنه جبريل عليه السلام والمعنى أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام (وثانيها) أن ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه الصلاة والسلام وهو قول الحسن ورواية عن محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما قال قلت لأبي أنت التالي قال وما معنى التالي قلت قوله ويتلوه شاهد منه قال وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الانسان انما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لا جرم جعل اللسان تاليا على سبيل المجاز كما يقال عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق (وثالثها) أن المراد هو علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والمعنى أنه يتلو تلك البينة وقوله منه أي هذا الشاهد من محمد وبعض منه والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليه الصلاة والسلام (ورابعها) أن لا يكون المراد بقوله ويتلوه القرآن بل حصول هذا الشاهد عقيب تلك البينة وعلى هذا الوجه قالوا ان المراد ان صورة النبي عليه الصلاة والسلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه لان من نظر اليه بعقله علم انه ليس بمجنون ولا كاهن ولا ساحر ولا كذاب والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الاحوال متعلقة بذات النبي صلى الله عليه وسلم (القول الثاني) ان الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة القرآن ويتلوه أي ويتلو الكتاب الذي هو الحجة يعني ويعقبه شاهد من الله تعالى وعلى هذا القول اختلفوا في ذلك الشاهد فقال بعضهم انه محمد عليه الصلاة والسلام وقال آخرون بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعا على وجه يعرف كل من نظر فيه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لا يقدر البشر على الاتيان بمثله وقوله شاهد منه أي من تلك البينة لان أحوال القرآن وصفاته من القراآت متعلقة به (وثالثها) قال الفراء ويتلوه شاهد منه يعني الانجيل يتلو القرآن وان كان قد أنزل قبله والمعنى انه يتلوه في التصديق وتقريره انه تعالى ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم في الانجيل وأمر بالايمان به واعلم أن هذين القولين وان كانا محتملين الا أن القول الاول أقوى وأتم واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه اماما ورحمة ومعنى كونه اماما انه كان مقتدى العالمين واماما لهم يرجعون اليه في معرفة الدين والشرائع وأما كونه رحمة فلانه يهدي الى الحق في الدنيا والدين وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب فلما كان سببا للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه اطلاقا لاسم المسبب على السبب ثم قال تعالى أولئك يؤمنون به والمعنى ان الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم في صحة هذا الدين يؤمنون واعلم أن المطالب على قسمين منها ما يعلم صحتها بالبديهة ومنها ما يحتاج في تحصيل العلم بها الى طلب واجتهاد وهذا القسم الثاني على قسمين لان طريق تحصيل المعارف اما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل واما الاستفادة من الوحي والالهام فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع اليهما في تعريف المجهولات فاذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية في القوة والوثوق ثم ان في أنبياء الله تعالى كثرة فاذا توافقت كلمات الانبياء على صحته وكان البرهان اليقيني قائما على صحته فهذه المرتبة قد بلغت في القوة الى حيث لا يمكن الزيادة عليها فقوله أفمن كان على بينة من ربه المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية وقوله ويتلوه شاهد منه اشارة الى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام وقوله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة اشارة الى الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء الى حيث لا يمكن الزيادة عليه ثم قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده والمراد من الاحزاب أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس روى سعيد بن جبير عن أبي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بي يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وقال بعضهم لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده ثم قال تعالى فلا تك في مرية

حتى خرجوا من وراء الصين وهم اليوم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وقد ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الامي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد محمد على موسى السلام عليهما السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم يكن نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت هذا وأنت خبير بأن تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع أن منهم من آمن بجميع الشرائع لا يخلو عن بعد (وقطعناهم) أي قوم موسى لا الامة المذكورة منهم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى (اثنتي عشرة) ثاني مفعولي قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الامة أو القطعة أي صيرناهم اثنتي عشرة أمة أو قطعة متميزا بعضها من بعض أو حال من مفعوله أي فرقناهم معدودين هذا العدد وقوله تعالى (أسباطا) بدل منه ولذلك جمع أو مميز له على أن كل واحدة من اثنتي عشرة قطعة أسباط لا سبط وقرئ

منه انه الحق من ربك وفيه قولان (الاول) فلا تك في مرية من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله تعالى فكان متعلقا بما تقدم من قوله تعالى أم يقولون افتراه (الثاني) فلا تك في مرية من ان موعد الكافر النار وقرئ مرية بضم الميم ثم قال ولكن أكثر الناس لا يؤمنون والتقدير لما ظهر الحق ظهورا في الغاية فكن أنت متابعا له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا والاقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون﴾ اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم في تحصيلها وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الى آخر الآية ومنها انهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويقدحون في معجزاته وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله أفمن كان على بينة من ربه ومنها انهم كانوا يزعمون في الاصنام أنها شفعاؤهم عند الله وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية وذلك لان هذا الكلام افتراء على الله تعالى فلما بين وعيد المفترين على الله فقد دخل فيه هذا الكلام واعلم أن قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا انما يورد في معرض المبالغة وفيه دلالة على أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم كما أنه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله أولئك يعرضون على ربهم وما وصفهم بذلك لانهم مختصون بذلك العرض لان العرض عام في كل العباد كما قال وعرضوا على ربك صفا وانما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الاشهاد عند عرضهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فحصل لهم من الخزى والنكال ما لا مزيد عليه وفيه سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ اذا لم يجز أن يكون الله تعالى في مكان فكيف قال يعرضون على ربهم ﴿والجواب﴾ أنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال ويجوز أيضا أن يكون ذلك عرضا على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والانبياء والمؤمنين ﴿السؤال الثاني﴾ من الاشهاد الذين أضيف اليهم هذا القول ﴿الجواب﴾ قال مجاهد هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا وقال قتادة ومقاتل الاشهاد الناس كما يقال على رؤس الاشهاد يعني على رؤس الناس وقال الآخرون هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة في اعتبار قول الاشهاد المبالغة في اظهار الفضيحة ﴿السؤال الثالث﴾ الاشهاد جمع فما واحده ﴿والجواب﴾ يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب وناصر وأنصار ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف قال أبو علي الفارسي وهذا كأنه أرجح لان ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل كقوله ويكون الرسول عليكم شهيدا وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ثم لما أخبر عن حالهم في عذاب القيامة أخبر عن حالهم في الحال فقال ألا لعنة الله على الظالمين وبين أنهم في الحال ملعونون من عند الله ثم ذكر من صفاتهم انهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا يعني انهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال في العاصي يبغي عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم قال وهم بالآخرة هم كافرون قال الزجاج كلمة هم كررت على جهة التوكيد لثباتهم في الكفر ﴿قوله عز وجل﴾ ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الارض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون﴾ اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم ﴿الصفة الاولى﴾ كونهم مفترين على الله وهي قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴿والصفة الثانية﴾ انهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزى والنكال وهي قوله أولئك يعرضون على ربهم ﴿والصفة الثالثة﴾ حصول الخزى والنكال والفضيحة العظيمة وهي قوله ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا

عشرة بكسر الشين وقوله تعالى (أمما) على الاول بدل بعد بدل أو نعت لاسباطا وعلى الثاني بدل من أسباطا (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) حين استولى عليهم العطش في التيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا بمجرد استسقائهم اياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى واذ استسقى موسى لقومه وقوله تعالى (ان اضرب بعصاك الحجر) مفسر لفعل الايحاء وقد مر بيان شأن الحجر في تفسير سورة البقرة (فانبجست) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف تعويلا على كمال الظهور وايذانا بغاية مسارعته عليه السلام الى الامتثال واشعارا بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبيها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كأنه حصل اثر الامر قبل تحقق الضرب كما في قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أي فضرب فانبجست (منه اثنتا عشرة عينا) بعدد الاسباط وأما ما قيل من أن التقدير فان ضربت فقد انبجست فغير حقيق بجزالة النظم التنزيلي وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها (قد علم كل أناس) كل سبط عبر عنهم بذلك ايذانا بكثرة كل واحد من الاسباط (مشربهم) أي عينهم الخاصة بهم (وظللنا عليهم الغمام) أي جعلناه بحيث تلقى عليهم ظلها تسير في التيه بسيرهم وتسكن باقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من

على ربهم (والصفة الرابعة) كونهم ملعونين من عند الله وهى قوله الا لعنة الله على الظالمين (والصفة الخامسة) كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق وهى قوله الذين يصدون عن سبيل الله (الصفة السادسة) سعيهم فى القاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة وهى قوله ويبغونها عوجا (الصفة السابعة) كونهم كافرين وهى قوله وهم بالآخرة هم كافرون (الصفة الثامنة) كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله وهى قوله أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض قال الواحدى معنى الاعجاز المنع من تحصيل المراد يقال أعجزنى فلان أى منعنى عن مرادى ومعنى معجزين فى الارض أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا فان هرب العبد من عذاب الله محال لانه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف (الصفة التاسعة) انهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم والمراد منها الرد عليهم فى وصفهم الاصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود ان قوله أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض دل على انهم لا قدرة لهم على الفرار وقوله وما كان لهم من دون الله من أولياء هو أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب فجمع تعالى بين ما يرجع اليهم وبين ما يرجع الى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ثم اختلفوا فقال قوم المراد ان عدم نزول العذاب ليس لاجل انهم قدروا على منع الله من انزال العذاب ولا لاجل أن لهم ناصرا يمنع ذلك العذاب عنهم بل انما حصل ذلك الامهال لانه تعالى أمهلهم كى يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فاذا أبوا الا الثبات عليه فلابد من مضاعفة العذاب فى الآخرة وقال بعضهم بل المراد لم يكونوا معجزين لله عما يريد انزاله عليهم من العذاب فى الآخرة أو فى الدنيا ولا يجدون وليا ينصرهم ويدفع ذلك عنهم (والصفة العاشرة) قوله تعالى يضاعف لهم العذاب قيل سبب تضعيف العذاب فى حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور فكفرهم بالمبدا والمعاد صار سببا لتضعيف العذاب والاصوب أن يقال انهم مع ضلالهم الشديد سعوا فى الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم (الصفة الحادية عشرة) قوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون والمراد ما هم عليه فى الدنيا من صمم القلب وعمى النفس واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق فى المكلف ما يمنعه الايمان روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال انه تعالى منع الكافر من الايمان فى الدنيا وفى الآخرة أما فى الدنيا ففى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما فى الآخرة فهو قوله يدعون الى السجود فلا يستطيعون وحاصل الكلام فى هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم انهم لا يستطيعون السمع فاما أن يكون المراد أنهم ما كانوا يستطيعون سمع الاصوات والحروف واما أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى والقول الاول باطل لان البديهة دلت على انهم كانوا يسمعون الاصوات والحروف فوجب حمل اللفظ على الثانى أجاب الجبائى عنه بان السمع اما أن يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة أو عن معنى يخلقه الله تعالى فى صماخ الاذن وكلاهما لا يقدر العبد عليه لانه لو اجتهد فى أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه واذا ثبت هذا كان اثبات الاستطاعة فيه محالا واذا كان اثباتها محالا كان نفى الاستطاعة عنه هو الحق فثبت ان ظاهر الآية لا يقدح فى قولنا ثم قال المراد بقوله ما كانوا يستطيعون السمع اهمالهم له ونفورهم عنه كما يقول القائل هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه وهذا مما يمجه سمعى وذكر غير الجبائى عذرا آخر فقال انه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الاصنام ثم بين نفى كونهم أولياء بقوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف يصلحون للولاية والجواب أما حمل الآية على أنه لا قدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل لان هذه الآية وردت فى معرض الوعيد فلابد وأن يكون ذلك معنى مختصا بهم والمعنى الذى قالوه حاصل فى الملائكة والانبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه وأما قوله ان ذلك محمول على انهم كانوا يستثقلون سماع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وابصار صورته فالجواب انه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر وأيضا ان حصول ذلك الاستثقال اما أن يمنع من الفهم والوصول الى

نار يسيرون بضوئه (وأنزلنا عليهم المن 50 والسلوى) أى الترنجبين والسمانى قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات ما رزقناكم) مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى (وما ظلمونا) رجوع الى سنن الكلام الاول بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للايجاز والاشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) اذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لافادة القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر (واذ قيل لهم) منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وايراد الفعل على البناء للمفعول مع استناده اليه تعالى كما يفصح عنه ما وقع فى سورة البقرة من قوله تعالى واذ قلنا للجرى على سنن الكبرياء والايذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالامر بالذكر للتشديد فى التوبيخ أى اذكر لهم وقت قوله

الغرض

الغرض أولم يمنع فان منع فهو المقصود وان لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سببا أجنبيا عن المعانى المعتبرة فى الفهم والادراك ولا تختلف أحوال القلب فى العلم والمعرفة بسببه فكيف يمكن جعله ذما لهم فى هذا المعرض وأيضا فقد بينا مرارا كثيرة فى هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفا عن قبول الدين الحق وبين فيه انه حصل حصولا على سبيل اللزوم بحيث لا يزول البتة فى ذلك الوقت كان المكلف فى ذلك الوقت ممنوعا عن الايمان وحينئذ يحصل المطلوب وأما قوله فانا نجعل هذه الصفة من صفات الاوثان فبعيد لانه تعالى قال يضاعف لهم العذاب ثم قال ما كانوا يستطيعون السمع فوجب أن يكون الضمير فى هذه الآية المتأخرة عائدا الى عين ما عاد اليه الضمير المذكور فى هذه الآية الاولى وأما قوله وما كانوا يبصرون فقيل المراد منه البصيرة وقيل المراد منه انهم عدلوا عن ابصار ما يكون حجة لهم ﴿الصفة الثانية عشرة﴾ قوله أولئك الذين خسروا أنفسهم ومعناه انهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران ﴿الصفة الثالثة عشرة﴾ قوله وضل عنهم ما كانوا يفترون والمعنى انهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا لانهم أعطوا الشريف ورضوا بأخذ الخسيس وهذا عين الخسران فى الدنيا ثم فى الآخرة فهذه الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر وهو المراد بقوله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿الصفة الرابعة عشرة﴾ قوله لا جرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون وتقريره ما تقدم وهو انه لما أعطى الشريف الرفيع ورضى بالخسيس الوضيع فقد خسر فى التجارة ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لا يبقى بل لا بد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة الى النهاية فى صفة الخسارة فلهذا قال لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وقوله لا جرم قال الفراء انها بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وأما النحويون فلهم فيه وجوه (الاول) لا حرف نفى وجرم أى قطع فاذا قلنا لا جرم معناه انه لا قطع قاطع عنهم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون (الثانى) قال الزجاج ان كلمة لا نفى لما ظنوا انه ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران فى الدنيا والآخرة وذكرنا جرم بمعنى كسب فى تفسير قوله تعالى لا يجرمنكم شنآن قوم قال الازهرى وهذا من أحسن ما قيل فى هذا الباب (الثالث) قال سيبويه والاخفش لا رد على أهل الكفر كما ذكرنا وجرم معناه حق وصحح التأويل انه حق كفرهم ووقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

واقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد حقت الطعنة فزارة أن يغضبوا ۞ قوله تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم اتبعه بذكر أحوال المؤمنين والاخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الارض المطمئنة وخبت ذكره أى خفى فقوله أخبت أى دخل فى الخبت كما يقال فيمن صار الى نجد أنجد والى تهامة أتهم ومنه المخبت من الناس الذى أخبت الى ربه أى اطمأن اليه ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلنا أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له اذا عرفت هذا فنقول قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع الاعمال الصالحة وقوله وأخبتوا اشارة الى ان هذه الاعمال لا تنفع فى الآخرة الا مع الاحوال القلبية ثم ان فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان المراد انهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادة مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات الى ما سوى الله تعالى أو يقال انما قلوبهم صارت مطمئنة الى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب وأما ان فسرنا الاخبات بالخشوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الاخلال والتقصير ثم بين ان من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة ويحصل لهم الخلود فى الجنة ۞ قوله تعالى ﴿مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا فقيل انه راجع الى من ذكر آخرا من المؤمنين والكافرين من قبل وقال

تعالى لاسلافهم (اسكنوا هذه القرية) منصوب على المفعولية يقال سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل أريحاء وهى قرية الجبارين وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة رأسهم عوج بن عنق وفى قوله تعالى اسكنوا ايذان بأن المأمور به فى سورة البقرة هو الدخول على وجه السكنى والاقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى (وكلوا منها) أى من مطاعمها وثمارها على أن من تبعيضية أو منها على أنها ابتدائية (حيث شئتم) أى من نواحيها من غير أن يزاحمكم فيها أحد فان الاكل المستمر على هذا الوجه لا يكون الا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتهما زمانا بخلاف الدخول فانه مقدم على الاكل ولذلك قيل هناك فكلوا (وقولوا حطة) أى مسئلتنا أو أمرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة (وادخلوا الباب) أى باب القرية (سجدا) أى متطامنين مخبتين أو ساجدين شكرا على اخراجهم من التيه وتقديم الامر بالدخول على الامر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا الترتيب لان المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم ان كان المراد بالقرية أريحاء فقد روى أنهم دخلوها حيث سار اليها موسى عليه السلام بمن بقى من بنى اسرائيل

آخرون بل رجع الى قوله أفمن كان على بينة من ربه ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بانهم على بينة من ربهم واعلم ان وجه التشبيه هو انه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس وكما ان للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر وكما ان الجسد اذا كان أعمى أصم بقي متحيرا لا يهتدى الى شئ من المصالح بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورا يهتدى به ولا يسمع صوتا فكذلك الجاهل الضال المضل يكون أعمى وأصم القلب فيبقى في ظلمات الضلالات حائرا تائها ثم قال تعالى أفلا تذكرون منبها على انه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم واذا كان العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل أن يسعى في ذلك العلاج بقدر الامكان واعلم أنه قد جرت العادة بانه تعالى اذا أورد على الكافر أنواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة وفي هذه السورة ذكر أنواعا من القصص ﴿القصة الاولى﴾ قصة نوح عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ اعلم انه تعالى قد ابتدأ بذكر هذه القصة في سورة يونس وقد أعادها في هذه السورة أيضا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى أنى بفتح الهمزة والمعنى أرسلنا نوحا بأنى لكم نذير مبين ومعناه أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله أنى لكم نذير مبين فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح في كان وأما سائر القراء فقرؤا انى بالكسر على معنى قال انى لكم نذير مبين ﴿المسئلة الثانية﴾ قال بعضهم المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ومن المبين كونه مبينا ما أعد الله للطائعين من الثواب والاولى أن يكون المعنى انه نذير للعصاة من العقاب وانه مبين بمعنى انه بين ذلك الانذار على الطريق الاكمل والبيان الاقوى الاظهر ثم بين تعالى ان ذلك الانذار انما حصل في النهى عن عبادة غير الله وفي الامر بعبادة الله لان قوله أن لا تعبدوا الا الله استثناء من النفى وهو يوجب نفى غير المستثنى واعلم ان تقدير الآية كأنه تعالى قال ولقد أرسلنا نوحا الى قومه بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين ثم قال أن لا تعبدوا الا الله فقوله أن لا تعبدوا الا الله بدل من قوله انى لكم نذير ثم انه أكد ذلك بقوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم والمعنى انه لما حصل الالم العظيم في ذلك اليوم أسند ذلك الالم الى اليوم كقولهم نهارك صائم وليلك قائم ﴿قوله تعالى ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم انهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات ﴿فالشبهة الاولى﴾ انه بشر مثلهم والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين ﴿والشبهة الثانية﴾ كونه ما اتبعه الا الأراذل من القوم كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكياس من الناس والاشراف منهم ونظيره قوله تعالى في سورة الشعراء أنؤمن لك واتبعك الارذلون ﴿والشبهة الثالثة﴾ قوله تعالى وما نرى لكم علينا من فضل والمعنى لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل فاذا لم نشاهد فضلك علينا في شئ من هذه الاحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات فهذا خلاصة الكلام في تقرير هذه الشبهات واعلم أن الشبهة الاولى لا تليق الا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الاطلاق أما الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الانبياء وفي لفظ الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الملأ الاشراف وفي اشتقاقه وجوه (الاول) أنه مأخوذ من قولهم ملئ بكذا اذا كان مطيقا له وقد ملؤا بالامر والسبب في اطلاق هذا اللفظ عليهم انهم ملؤا بترتيب المهمات وأحسنوا في تدبيرها (الثانى) انهم وصفوا بذلك لانهم يتمالؤن أى يتظاهرون عليه (الثالث) وصفوا بذلك لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة (الرابع) وصفوا به لانهم ملؤا العقول الراجحة والآراء

أو بذرار بهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر في سورة المائدة وأما ان كان بيت المقدس فقد روى أنهم لم يدخلوه في حياة موسى عليه السلام فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون اليها (نغفر لكم خطيئاتكم) وقرئ خطاياكم كما في سورة البقرة وتغفر لكم خطيئاتكم وخطاياكم وخطيئتكم على البناء للمفعول (سنزيد المحسنين) عدة بشيئين بالمغفرة وبالزيادة وطرح الواو ههنا لا يخل بذلك لانه استئناف مترتب على تقدير سؤال نشأ من الاخبار بالغفران كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد وكذلك زيادة منهم زيادة بيان (فبدل الذين ظلموا منهم) بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه (قولا) آخر مما لا خير فيه روى أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا سمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (غير الذى قيل لهم) نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه (فأرسلنا عليهم) اثر ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير وفي سورة البقرة على الذين ظلموا والمعنى واحد

الصائبة

الصائبة ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الاولى وهى قولهم ما نراك الا بشرا مثلنا وهو مثل ما حكى الله تعالى عن بعض العرب انهم قالوا لولا أنزل عليه ملك وهذا جهل لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة لا بالصورة والخلقة بل نقول ان الله تعالى لو بعث الى البشر ملكا لكانت الشبهة أقوى فى الطعن عليه فى رسالته لانه يخطر بالبال ان هذه المعجزات التى ظهرت لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى فلهذه الحكمة ما بعث الله الى البشر رسولا الا من البشر ثم حكى الشبهة الثانية وهى قوله وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم وهذا أيضا جهل لان الرفعة فى الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية بل الفقر أهون على الدين من الغنى بل نقول الانبياء ما بعثوا الا لترك الدنيا والاقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنا فى النبوة والرسالة ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهى قوله وما نرى لكم علينا من فضل وهذا أيضا جهل لان الفضيلة المعتبرة عند الله ليست الا بالعلم والعمل فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه بل نظنكم كاذبين وفيه وجهان (الاول) أن يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه والمراد منه تكذيب نوح فى دعوى الرسالة (والثانى) أن يكون هذا خطابا مع الاراذل فنسبوهم الى أنهم كذبوا فى أن آمنوا به واتبعوه ﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدى الاراذل جمع رذل وهو الدون من كل شئ فى منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل والاراذل جمع الارذل كقوله أكابر مجرميها وقوله عليه الصلاة والسلام أحاسنكم اخلاقا فعلى هذا الاراذل جمع الجمع وقال بعضهم الاصل فيه أن يقال هو أرذل من كذا ثم كثر حتى قالوا هو الارذل فصارت الالف واللام عوضا عن الاضافة وقوله بادى الرأى البادى هو الظاهر من قولك بدا الشئ اذا ظهر ومنه يقال بادية لظهورها وبروزها للناظر واختلفوا فى بادى الرأى وذكروا فيه وجوها (الاول) اتبعوك فى الظاهر وباطنهم بخلافه (والثانى) يجوز أن يكون المراد اتبعوك فى ابتداء حدوث الرأى وما احتاطوا فى ذلك الرأى وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافى (الثالث) انهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا كونهم كذلك بادى الرأى أمر ظاهر لكل من يراهم والرأى على هذا المعنى من رأى العين لا من رأى القلب ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ الا الذين هم أراذلنا بادى رأى العين ﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائى بادئ بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ بالهمزة فالمعنى أول الرأى وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أى ظهر وبادى نصب على المصدر كقولك ضربت أول الضرب ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ فى الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكرى نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جوابا عن تلك الشبهات (فالشبهة الاولى) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فقال نوح حصول المساواة فى البشرية لا يمنع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة ثم ذكر الطريق الدال على امكانه فقال أرأيتم ان كنت على بينة من ربى من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه ثم انه تعالى آتانى رحمة من عنده والمراد بتلك الرحمة اما النبوة واما المعجزة الدالة على النبوة فعميت عليكم أى صارت مظنة مشتبهة ملتبسة فى عقولكم فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون الى معرفتها شئتم أم أبيتم والمراد انى لا أقدر على ذلك البتة وعن قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها ولكنه لم يقدر عليه وحاصل الكلام انهم لما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل ذكر نوح عليه السلام ان ذلك بسبب ان الحجة عميت عليكم واشتبهت فاما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم فى الدليل لظهر المقصود وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما ﴿المسألة الثانية﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم فعميت عليكم بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله بمعنى ألبست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم أى التبست واشتبهت واعلم أن الشئ اذا بقى مجهولا محضا أشبه المعمى لان العلم نور

والارسال من فوق فيكون كالانزال (رجزا من السماء) عذابا كائنا منها والمراد ٥٣ الطاعون روى أنه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا (بما كانوا يظلمون) بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لا بسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الارسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم ههنا مترتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة وأما التعليل بالفسق بعد الاشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هنالك والله تعالى أعلم (واسألهم) عطف على المقدر فى اذ قيل أى واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى واعلاما لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفية التى لا يقف عليها الا من مارس كتبهم قد أحاط به النبى عليه الصلاة والسلام خبرا واذ ليس ذلك بالتلقى من كتبهم لانه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحى الصريح (عن القرية) أى عن حالها وخبرها وما جرى على أهلها من الداهية الدهياء وهى ايلة قرية بين مدين والطور وقيل هى مدين وقيل طبرية والعرب تسمى المدينة قرية (التى كانت حاضرة البحر) أى قريبة منه مشرفة على شاطئه (اذ يعدون فى السبت) أى

البصيرة الباطنة والابصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منهما مجازا عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالابصار قال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة وكذلك توصف بالعمى قال تعالى فعميت عليهم الانباء وقال في هذه الآية فعميت عليكم (المسئلة الثالثة) أنلزمكموها فيه ثلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب وأجاز الفراء اسكان الميم الاولى وروى ذلك عن أبي عمرو قال وذلك ان الحركات توالت فسكنت الميم وهي أيضا مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة قال الزجاج جميع النحويين البصريين لا يجيزون اسكان حرف الاعراب الا في ضرورة الشعر وما يروى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه الفراء وروى عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها وهذا هو الحق وانما يجوز الاسكان في الشعر كقول امرئ القيس * فاليوم أشرب غير مستحقب * قوله تعالى ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجري الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم اني اذا لمن الظالمين﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهي قولهم لا يتبعك الا الاراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه (الاول) أنه عليه الصلاة والسلام قال أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا وانما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين واذا كان الامر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك (الثاني) كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم انكم لما نظرتم الى ظواهر الامور وجدتموني فقيرا وظننتم اني انما اشتغلت بهذه الحرفة لاتوسل بها الى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ فاني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرا ان أجري الا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد (والوجه الثالث) في تقرير هذا الجواب انهم قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا الى قوله وما نرى لكم علينا من فضل فهو عليه الصلاة والسلام بين انه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع في طلب الدنيا وانما يسعى في طلب الدين والاعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه وأما قوله وما أنا بطارد الذين آمنوا فهذا كالدليل على أن القوم سألوه طردهم رفعا لانفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء روى ابن جريج انهم قالوا ان أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فانا لا نرضى بمشاركتهم فقال عليه الصلاة والسلام وما أنا بطارد الذين آمنوا وقوله تعالى حكاية عنهم انهم قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لانه كالدليل على أنهم كانوا يقولون لو اتبعك أشراف القوم لوافقناهم ثم انه تعالى حكى عنه انه ما طردهم وذكر في بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أمورا (الاول) انهم ملاقو ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوها منها أنهم قالوا هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بأن هذا الامر ينكشف عند لقاء ربهم في الآخرة ومنها انه جعله علة في الامتناع من الطرد وأراد انهم ملاقو ما وعدهم ربهم فان طردتهم استخصموني في الآخرة ومنها أنه نبه بذلك الامر على انا نجتمع في الآخرة فأعاقب على طردهم فلا أجد من ينصرني ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال ولكني أراكم قوما تجهلون ثم قال بعده ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون والمعنى ان العقل والشرع تطابقا على انه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي ومن اهانة الفاجر الكافر فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم وطردت المؤمن التقي على سبيل الاهانة كنت على ضد أمر الله تعالى وعلى عكس حكمه وكنت في هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من ايصال الثواب الى المحقين والعقاب الى المبطلين وحينئذ أصير مستوجبا للعقاب العظيم فمن ذا الذي ينصرني من الله تعالى ومن الذي يخلصني من عذاب الله أفلا تذكرون فتعلمون ان ذلك لا يصح ثم أكد هذا البيان بوجه ثالث فقال ولا أقول لكم عندي خزائن الله أي كما لا أسألكم فكذلك

يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت واذ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه وقيل ظرف لكانت أو حاضرة وليس بذاك اذ لا فائدة في تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان وقرئ يعدون وأصله يعتدون ويعدون من الاعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة (اذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل والاول هو الاولى لان السؤال عن عدوانهم أدخل في التقريع والحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كنون ونينان لفظا ومعنى واضافتها اليهم للاشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة أولان المراد بها الحيتان الكائنة في تلك الناحية وان ما ذكر من الاتيان وعدمه لاعتيادها أحوالهم في عدم التعرض يوم السبت (يوم سبتهم) ظرف لتأتيهم أي تأتيهم يوم تعظيمهم لامر السبت وهو مصدر سبتت اليهود اذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم والاضافة لاختصاصهم بأحكام فيه ويؤيد الاول قراءة من قرأ يوم اسباتهم وقوله تعالى (شرعا) جمع شارع من شرع عليه اذا دنا وأشرف وهو حال من حيتانهم أي تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء

لا ادعي أني أملك مالا ولا لي غرض في المال لا أخذا ولا دفعا ولا أعلم الغيب حتى أصل به الى ما أريد لنفسي ولاتباعي ولا أقول اني ملك حتى أتعظم بذلك عليكم بل طريقي الخضوع والتواضع ومن كان هذا شأنه وطريقه فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين وانما شأنه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين فلما كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبا علي ثم انه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم وهذا كالدلالة على انهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق فقال اني لا أقول ذلك لانه من باب الغيب والغيب لا يعلمه الا الله فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذبا فيما أخبرت به فاني ان فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسي ومن الظالمين لهم في وصفهم بانهم لا خير لهم مع ان الله تعالى آتاهم الخير في الآخرة ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء وقالوا ان الانسان اذا قال أنا لا أدعي كذا وكذا فهذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب أن تكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الانبياء ثم قالوا وكيف لا يكون الامر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا منذ خلقوا الى أن تقوم الساعة وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست الا ثلاثة أشياء (أولها) الاستغناء المطلق وجرت العادة في الدنيا أن من ملك المال الكثير فانه يوصف بكونه غنيا فقوله ولا أقول لكم عندي خزائن الله اشارة الى أني لا أدعي الاستغناء المطلق (وثانيها) العلم التام واليه الاشارة بقوله ولا أعلم الغيب (وثالثها) القدرة التامة الكاملة وقد تقرر في الخواطر أن أكمل المخلوقات في القدرة والقوة هم الملائكة واليه الاشارة بقوله ولا أقول اني ملك والمقصود من ذكر هذه الامور الثلاثة بيان أنه ما حصل عندي من هذه المراتب الثلاثة الا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الانسانية فاما الكمال المطلق فانا لا أدعيه واذا كان الامر كذلك فقد ظهر أن قوله ولا أقول اني ملك يدل على انهم أكمل من البشر وأيضا يمكن جعل هذا الكلام جوابا عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا في أتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم عندي خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بأنهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية باطنهم وانما أجري الاحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بانهم قد يأتون بأفعال لا كما ينبغي فقال ولا أقول اني ملك حتى أكون مبرأ عن جميع الدواعي الشهوانية والبواعث النفسانية ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الانبياء فقالوا ان هذه الآية دلت على ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وذلك يدل على اقدام محمد صلى الله عليه وسلم على الذنب والجواب يحمل الطرد المذكور في هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم على التقليل في أوقات معينة لرعاية المصالح ﴿المسئلة الرابعة﴾ احتج الجبائي على انه لا تجوز الشفاعة عند الله في دفع العقاب بقول نوح عليه السلام من ينصرني من الله ان طردتهم معناه ان كان هذا الطرد محرما فمن ذا الذي ينصرني من الله أي من الذي يخلصني من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت في حق نوح عليه السلام أيضا جائزة وحينئذ يبطل قوله من ينصرني من الله واعلم أن هذا الاستدلال يشبه استدلالهم في هذه المسئلة بقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيأ الى قوله ولا هم ينصرون والجواب المذكور هنالك هو الجواب عن هذا الكلام ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن الكفار لما أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة

قريبة من الساحل (ويوم لا يسبتون) أي لا يراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معا أي لا سبت ولا مراعاة كما في قوله

ولا ترى الضب بها ينجحر

وقرئ لا يسبتون من أسبت ولا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت ولا يدار عليهم حكم السبت ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت (لا تأتيهم) كما كانت تأتيهم يوم السبت حذارا من صيدهم وتغيير السمك حيث لم يقل ولا تأتيهم يوم لا يسبتون لما أن الاخبار باتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال فماذا حالها يوم لا يسبتون فقيل يوم لا يسبتون لا تأتيهم (كذلك نبلوهم) أي مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم ونؤاخذهم به وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لكن لا في تلك المادة فان فسقهم فيها لا يكون سببا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون وما يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيهم مثل ما تأتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده حينئذ استئناف مبني على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه أخرى (واذ قالت) عطف على

أوردا الكفار على نوح كلامين (الاول) أنهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا في اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال في تقرير الدلائل وفي ازالة الشبهات حرفة الانبياء وعلى أن التقليد والجهل والاصرار على الباطل حرفة الكفار (والثاني) انهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به فقالوا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ثم انه عليه السلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين والمعنى أن انزال العذاب ليس الي وانما هو خلق الله تعالى فيفعله ان شاء كما شاء واذا أراد انزال العذاب فان أحدا لا يعجزه أي لا يمنعه منه والمعجز هو الذي يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بانه أعجزه فقوله وما أنتم بمعجزين أي لا سبيل لكم الى فعل ما عنده فلا يمتنع على الله تعالى ما يشاء من العذاب ان أراد انزاله بكم وقد قيل معناه وما أنتم بمانعين وقيل وما أنتم بمصونين وقيل وما أنتم بسابقين الى الخلاص وهذه الاقوال متقاربة واعلم أن نوحا عليه السلام لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم أي ان كان الله يريد أن يغويكم فانه لا ينفعكم نصحي البتة واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد وأنه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه قالوا ان نوحا عليه السلام قال ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم والتقدير لا ينفعكم نصحي ان كان الله يريد أن يغويكم ويضلكم وهذا صريح في مذهبنا أما المعتزلة فانهم قالوا ظاهر الآية يدل على ان الله تعالى ان أراد اغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول وهذا مسلم فانا نعرف أن الله تعالى لو أراد اغواء عبد فانه لا ينفعه نصح الناصحين لكن لم قلتم انه تعالى أراد هذا الاغواء فان النزاع ما وقع الا فيه بل نقول ان نوحا عليه السلام انما ذكر هذا الكلام ليدل على انه تعالى ما أغواهم بل فوض الاختيار اليهم وبيانه من وجهين (الاول) انه عليه السلام بين انه تعالى لو أراد اغواءهم لما بقي في النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمره بأن ينصح الكفار وأجمع المسلمون على انه عليه السلام مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم فعلمنا أن هذا النصح غير خال عن الفائدة واذا لم يكن خاليا عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم فهذا الكلام صار حجة لنا من هذا الوجه (الثاني) انه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم لصار هذا عذرا لهم في عدم اتيانهم بالايمان ولصار نوح منقطعا في مناظرتهم لانهم يقولون له انك سلمت ان الله اذا أغوانا فانه لا يبقى في نصحك ولا في جدنا واجتهادنا فائدة فاذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة فثبت ان الامر لو كان كما قاله الخصم لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام ومعلوم أن نوحا عليه السلام لا يجوز أن يذكر كلاما يصير بسببه مفحما ملزما عاجزا عن تقرير حجة الله تعالى فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية لا تدل على قول المجبرة ثم انهم ذكروا وجوها من التأويلات (الاول) أولئك الكفار كانوا مجبرة وكانوا يقولون ان كفرهم بارادة الله تعالى فعند هذا قال نوح عليه السلام ان نصحه لا ينفعهم ان كان الامر كما قالوا ومثاله أن يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد لا أقدر على غير ما أنا عليه فيقول الوالد فلن ينفعك اذا نصحي ولا زجري وليس المراد انه يصدقه على ما ذكره بل على وجه الانكار لذلك (الثاني) قال الحسن معنى يغويكم أي يعذبكم والمعنى لا ينفعكم نصحي اليوم اذا نزل بكم العذاب فآمنتم في ذلك الوقت لان الايمان عند نزول العذاب لا يقبل وانما ينفعكم نصحي اذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب (الثالث) قال الجبائي الغواية هي الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى فسوف يلقون غيا أي خيبة من خير الآخرة قال الشاعر * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما * (الرابع) انه اذا أصر على الكفر وتمادى فيه منعه الله تعالى الالطاف وفوضه الى نفسه فهذا شبيه ما اذا أراد اغواءه فلهذا السبب حسن أن يقال ان الله تعالى أغواه هذه جملة كلمات المعتزلة في هذا الباب والجواب عن أمثال هذه الكلمات قد ذكرناه مرارا وأطوارا فلا فائدة في الاعادة (المسألة الثانية) قوله ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضي أن يكون الشرط المؤخر

اذ يعدون مسوق لتماديهم في العدوان وعدم انزجارهم عنه بعد العظات والانذارات (أمة منهم) أي جماعة من صلحائهم الذين ركبوا في عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لا يقلعون عن التذكير رجاء للنفع والتأثير مبالغة في الاعذار وطمعا في فائدة الانذار (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أي مخترمهم بالكلية ومطهر الارض منهم (أو معذبهم عذابا شديدا) دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم في الدنيا أو معذبهم في الآخرة لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان والترديد لمنع الخلو دون منع الجمع فانهم مهلكون في الدنيا ومعذبون في الآخرة وايثار صيغة اسم الفاعل مع أن كلا من الاهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما البتة كأنهما واقعان وانما قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينجع فيهم أو ترهيبا للقوم أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم انما قالوه بمحضر من القوم حثا لهم على الاتعاظ فان بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقي في قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس بذلك كما ستقف عليه (قالوا) أي الوعاظ (معذرة الى ربكم) أي نعظهم معذرة

المؤخر فى اللفظ مقدما فى الوجود وذلك لان الرجل اذا قال لامرأته أنت طالق ان دخلت الدار كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول فاذا ذكر بعده شرطا آخر مثل أن يقول ان أكلت الخبز كان المعنى أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط مشروط بحصول هذا الشرط الثانى والشرط مقدم على المشروط فى الوجود فعلى هذا ان حصل الشرط الثانى تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول أما ان لم يوجد الشرط المذكور ثانيا لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول هذا هو التحقيق فى هذا التركيب فلهذا المعنى قال الفقهاء ان الشرط المؤخر فى اللفظ مقدم فى المعنى والمقدم فى اللفظ مؤخر فى المعنى واعلم أن نوحا عليه السلام لما قرر هذه المعانى قال هو ربكم واليه ترجعون وهذا نهاية الوعيد أى هو الهكم الذى خلقكم وربا كم ومالك التصرف فى ذواتكم وفى صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم اليه وهذا فيه نهاية التحذير

﴿ قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامى وأنا برىء مما تجرمون﴾ اعلم أن معنى افتراه اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى بلغه اليهم وقوله فعلى اجرامى الاجرام اقتراح المحظورات واكتسابها وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى عقاب اجرامى وفى الآية محذوف آخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه كقوله أمن هو قانت آناء الليل ولم يذكر البقية وقوله وأنا برىء مما تجرمون أى أنا برىء من عقاب جرمكم وأكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام وهذه الآية وقعت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى أثناء حكاية نوح وقولهم بعيد جدا وأيضا قوله قل ان افتريته فعلى اجرامى لا يدل على أنه كان شاكا الا أنه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول ﴿ قوله تعالى ﴿وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ فيه مسائل ﴿ (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما جاءه هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقوله فلا تبتئس أى لا تحزن قال أبو زيد ابتأس الرجل اذا بلغه شئ يكرهه وأنشد أبو عبيدة

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس ＊ به وأقعد كريما ناعم البال

أى غير حزين ولا كاره ﴿ (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى القضاء والقدر وقالوا انه تعالى أخبر عن قومه انهم لا يؤمنون بعد ذلك فلو حصل ايمانهم لكان اما مع بقاء هذا الخبر صدقا ومع بقاء هذا العلم علما أو مع انقلاب هذا الخبر كذبا ومع انقلاب هذا العلم جهلا والاول ظاهر البطلان لان وجود الايمان مع أن يكون الاخبار عن عدم الايمان صدقا ومع كون العلم بعدم الايمان حاصلا حال وجود الايمان جمع بين النقيضين والثانى أيضا باطل لان انقلاب خبر الله كذبا وعلم الله جهلا محال ولما كان صدور الايمان منهم لا بد وأن يكون على هذين القسمين وثبت ان كل واحد منهما محال كان صدور الايمان منهم محالا مع أنهم كانوا مأمورين به وأيضا القوم كانوا مأمورين بالايمان ومن الايمان تصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ومنه قوله انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فيلزم أن يقال انهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة وذلك تكليف بالجمع بين النقيضين وتقرير هذا الكلام قد مر فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا ﴿ (المسئلة الثالثة) اختلفت المعتزلة فى أنه هل يجوز أن ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان فى المعلوم أن فيهم من يؤمن أو كان فى أولادهم من يؤمن فقال قوم انه لا يجوز واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وهذا يدل على أنه انما حسن منه تعالى انزال عذاب الاستئصال عليهم لاجل أنه تعالى علم أنه ليس فيهم من يؤمن ولا فى أولادهم أحد يؤمن قال القاضى وقال كثير من علمائنا ان ذلك من الله تعالى جائز وان كان منهم من يؤمن وأما قول نوح عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فذلك يدل على أنه انما سأل ذلك من حيث انه كان فى المعلوم أنهم

اليه تعالى على انه مفعول له وهو الانسب بظاهر قولهم لم تعظون أو نعتذر معذرة على انه مصدر لفعل محذوف وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أى موعظتنا معذرة اليه تعالى حتى لا تنسب الى نوع تفريط فى النهى عن المنكر وفى اضافة الرب الى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين (ولعلهم يتقون) عطف على معذرة أى ورجاء لان يتقوا بعض التقاة وهذا صريح فى أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة والا لوجب الخطاب (فلما نسوا ما ذكروا به) أى تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشئ وأعرضوا عنه اعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شئ من تلك المواعظ أصلا (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفريقان المذكوران واخراج انجائهم مخرج الجواب الذى حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لاهلاكهم لما أن ما فى حيز الشرط شيآن النسيان والتذكير كانه قيل فلما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الاولين وأخذنا الآخرين وأما تصدير الجواب بانجائهم فلما مر مرارا من المسارعة الى بيان نجاتهم من أول الامر مع ما فى المؤخر من نوع طول (وأخذنا الذين ظلموا) بالاعتداء ومخالفة الامر (بعذاب بئيس) أى شديد وزنا ومعنى من

يفعلون عباده ولا يلدون الا فاجرا كفارا فذلك يدل على أن ذلك الحكم كان قولا مجموع هاتين العلتين وأيضا فلا دليل فيه على انهما لو لم يحصلا لما جاز انزال الاهلاك والاقرب أن يقال ان نوحا عليه السلام اشتدت محبته لايمانهم كان سأل ربه أن يبقيهم فأعلمه أنه لا يؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل فيه من تلك المحبة ولذلك قال تعالى من بعد فلا تبتئس بما كانوا يفعلون أى لا تحزن من ذلك ولا تغتم ولا تظن ان فى ذلك مذلة فان الدين عزيز وان قل عدد من يتمسك به والباطل ذليل وان كثر عدد من يقول به ۞ قوله تعالى ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ واعلم أن قوله تعالى ان يؤمن من قومك الا من قد آمن يقتضى تعريف نوح عليه السلام أنه معذبهم ومهلكهم فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذى هو الغرق ولما كان السبيل الذى به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة لا جرم أمره الله تعالى باصلاح السفينة واعدادها فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر فان قيل قوله تعالى واصنع الفلك أمر ايجاب أو أمر اباحة قلنا الاظهر أنه أمر ايجاب لانه لا سبيل له الى صون روح نفسه وأرواح غيره عن الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ويحتمل أن لا يكون ذلك الامر أمر ايجاب بل كان أمر اباحة وهو بمنزلة أن يتخذ الانسان لنفسه دارا ليسكنها ويقيم بها أما قوله بأعيننا فهذا لا يمكن اجراؤه على ظاهره من وجوه (أحدها) انه يقتضى أن يكون لله تعالى أعين كثيرة وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى ولتصنع على عينى (وثانيها) أنه يقتضى أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الاعين كما يقال قطعت بالسكين وكتبت بالقلم ومعلوم ان ذلك باطل (وثالثها) انه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزها عن الاعضاء والجوارح والاجزاء والابعاض فوجب المصير فيه الى التأويل وهو من وجوه (الاول) ان معنى بأعيننا أى بعين الملك الذى كان يعرفه كيف يتخذ السفينة يقال فلان عين على فلان نصب عليه ليكون متفحصا عن أحواله ولا تحول عنه عينه (الثانى) أن من كان عظيم العناية بالشئ فانه يضع عينه عليه فلما كان وضع العين على الشئ سببا لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية عن الاحتياط فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا اياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك وحاصل الكلام ان اقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين (أحدهما) أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل (والثانى) أن يكون عالما بأنه كيف ينبغى تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه وقوله ووحينا اشارة الى أنه تعالى يوحى اليه انه كيف ينبغى عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب * وأما قوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ففيه وجوه (الاول) يعنى لا تطلب منى تأخير العذاب عنهم فانى قد حكمت عليهم بهذا الحكم فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا (الثانى) ولا تخاطبنى فى تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا فانى لما قضيت انزال ذلك العذاب فى وقت معين كان تعجيله ممتنعا (الثالث) المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان ۞ قوله تعالى ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أما قوله تعالى ويصنع الفلك ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى قوله ويصنع الفلك قولان (الاول) انه حكاية حال ماضية أى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك (الثانى) التقدير وأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك (المسئلة الثانية) ذكروا فى صفة السفينة أقوالا كثيرة (فأحدها) أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة فى سنتين وقيل فى أربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل فى البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام (وثانيها) قال الحسن كان طولها الفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع واعلم ان أمثال هذه المباحث لا تعجبنى لانها أمور

بؤس يبؤس بأسا اذا اشتد وقرئ بيئس على وزن فيعل بفتح العين وكسرها وبئس كحذر وبأس على تخفيف العين ونقل حركتها الى الفاء ككبد فى كبد وبيس بقلب الهمزة ياء كذيب فى ذئب وبيس كريس بقلب همزة بيئس ياء وادغام الياء فيها وبيس على تخفيف بيس كهين فى هين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل (بما كانوا يفسقون) متعلق بأخذنا كالباء الاولى ولا ضير فيه لاختلافهما معنى أى أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم فى الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضا واجراء الحكم على الموصول وان أشعر بعلية ما فى حيز الصلة له لكنه صرح بالتعليل المذكور ايذانا بان العلة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل لا نفس الظلم والعدوان والا لما أخروا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا عليه بل ازدادوا فى الغى فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) صاغرين اذلاء بعداء عن الناس والمراد بالامر هو الامر التكوينى لا القولى وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه

لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذى نعلمه أنه كان فى السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور فى القرآن فأما غير ذلك القدر فغير مذكور أما قوله تعالى وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ففى تفسير الملا وجهان قيل جماعة وقيل طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لاجله كانوا يسخرون وفيه وجوه (أحدها) انهم كانوا يقولون له يا نوح كنت تدعى رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا (وثانيها) انهم كانوا يقولون له لو كنت صادقا فى دعواك لكان الهك يغنيك عن هذا العمل الشاق (وثالثها) انهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون (ورابعها) ان تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها فى موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها الى الانهار العظيمة والى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون (وخامسها) انه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا فى ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة ثم انه تعالى حكى عنه انه كان يقول ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون وفيه وجوه (الاول) التقدير ان تسخروا منا فى هذه الساعة فانا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة (الثانى) ان حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فانا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا (الثالث) ان تستجهلونا فانا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد لانكم لا تستجهلون الا لاجل الجهل بحقيقة الامر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الاطفال والجهال * فان قيل السخرية من آثار المعاصى فكيف يليق ذلك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام * قلنا انه تعالى سمى المقابلة سخرية كما فى قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أما قوله تعالى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أى فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة وفى قوله من يأتيه وجهان (أحدهما) أن يكون استفهاما بمعنى أى كأنه قيل فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب وعلى هذا الوجه فمحل من رفع بالابتداء (والثانى) أن يكون بمعنى الذى ويكون فى محل النصب وقوله تعالى ويحل عليه عذاب مقيم أى يجب عليه وينزل به ﴿ قوله تعالى ﴿حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله ويصنع الفلك أى فكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد ﴿المسئلة الثانية﴾ الامر فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا يحتمل وجهين (الاول) انه تعالى بين أنه لا يحدث شئ الا بأمر الله تعالى كما قال انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون فكان المراد هذا (والثانى) أن يكون المراد من الامر ههنا هو العذاب الموعد به ﴿المسئلة الثالثة﴾ فى التنور قولان (أحدهما) أنه التنور الذى يخبز فيه (والثانى) أنه غيره (أما الاول) وهو انه التنور الذى يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح عليه السلام وقيل كان لآدم قال الحسن كان تنورا من حجارة وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام واختلفوا فى موضعه فقال الشعبى انه كان بناحية الكوفة وعن على رضى الله عنه انه فى مسجد الكوفة قال وقد صلى فيه سبعون نبيا وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردان وهو قول مقاتل وقيل فار التنور بالهند وقيل ان امرأته كانت تخبز فى ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل فى الحال بوضع تلك الاشياء فى السفينة (القول الثانى) ليس المراد من التنور تنور الخبز وعلى هذا التقدير ففيه أقوال (الاول) أنه انفجر الماء من وجه الارض كما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر والعرب تسمى وجه الارض تنورا (الثانى) ان التنور أشرف موضع فى الارض وأعلى مكان فيها

للايذان بانه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الامر والاستعصاء عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للاولى روى ان اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنى بقوله تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم فى سائر الايام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الاحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا الى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الاحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له انى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى يوم السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلث استمروا على النهى وثلث ملوا التذكير وسئموه وقالوا لم تعظون الخ وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن

وقد أخرج اليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له وأيضا المعنى انه لما نبع الماء من أعالى الارض ومن الامكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير (الثالث) فار التنور أى طلع الصبح وهو منقول عن على رضى الله عنه (الرابع) فار التنور يحتمل أن يكون معناه اشتد الامر كما يقال حمى الوطيس ومعنى الآية اذا رأيت الامر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك الى السفينة فان قيل فالاصح من هذه الاقوال قلنا الاصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع فى العقل فى أن يقال ان الماء نبع أولا من موضع معين وكان ذلك الموضع تنورا *فان قيل ذكر التنور بالالف واللام وهذا انما يكون لمعهود سابق معين معلوم عند السامع وليس فى الارض تنور هذا شأنه فوجب أن يحمل ذلك على أن المراد اذا رأيت الماء يشتد نبوعه والامر يقوى فانج بنفسك ومن معك *قلنا لا يبعد أن يقال ان ذلك التنور كان معلوما لنوح عليه السلام بان كان تنور آدم أو حواء أو كان تنورا عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه انك اذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الامر قد وقع وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى صرف الكلام عن ظاهره (المسئلة الرابعة) معنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة فى أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور والذى روى أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لان هذه واقعة عظيمة وقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنجاة فلا بد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة (المسئلة الخامسة) قال الليث التنور لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار قال الازهرى وهذا يدل على ان الاسم قد يكون أعجميا فتعربه العرب فيصير عربيا والدليل على ذلك ان الاصل تنار ولا يعرف فى كلام العرب تنور قبل هذا ونظيره مادخل فى كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والاستبرق فان العرب لما تكلموا بهذه الالفاظ صارت عربية *واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء (فالاول) قوله قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين قال الاخفش تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين فالسماء زوج والارض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج وتقول للمرأة هى زوج وهو زوجها قال تعالى وخلق منها زوجها يعنى المرأة وقال وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى فثبت ان الواحد قد يقال له زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين اذا عرفت هذا فنقول الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر والآخر أنثى ولذلك قرأ حفص من كل بالتنوين وأرادوا احمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج لا يقال عليه ان الزوجين لا يكونان الا اثنين فما الفائدة فى قوله زوجين اثنين لانا نقول هذا على مثال قوله لا تتخذوا الهين اثنين وقوله نفخة واحدة وأما على القراءة المشهورة فهذا السؤال غير وارد واختلفوا فى أنه هل دخل فى قوله زوجين اثنين غير الحيوان أم لا فنقول أما الحيوان فداخل لان قوله من كل زوجين اثنين يدخل فيه كل الحيوانات وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه الا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب ان الناس محتاجون الى النبات بجميع أقسامه وجاء فى الروايات عن ابن مسعود رضى الله عنهما أنه قال لم يستطع نوح عليه السلام أن يحمل الاسد حتى ألقيت عليه الحمى وذلك أن نوحا عليه السلام قال يارب فمن أين أطعم الاسد اذا حملته قال تعالى فسوف أشغله عن الطعام فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الاولى تركها فان حاجة الفيل الى الطعام أكثر وليس به حمى (الثانى) من الاشياء التى أمر الله نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى وأهلك الا من سبق عليه القول قالوا كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناء له وهم سام وحام ويافث ولكل واحد منهم زوجة وقيل أيضا كانوا ثمانية هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام وأما قوله الا من سبق عليه القول فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك فان قيل الانسان أشرف من جميع الحيوانات فما السبب انه وقع الابتداء

لا نسا كنكم فقسموا القرية بجدار للسابين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسباءهم من الانس وهم لا يعرفونها فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه فيبكى فيقول له نسيبه ألم ننهكم فيقول القرد برأسه بلى ثم ماتوا عن ثلاث وقيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وعن مجاهد رضى الله عنه مسخت قلوبهم وقال الحسن البصرى أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة هاه وايم الله ماحوت أخذ قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر (واذ تأذن ربك) منصوب على المفعولية بمضمر معطوف على قوله تعالى واسألهم وتأذن بمعنى آذن كما أن توعد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فان العازم على الامر يحدث به نفسه وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بجوابه حيث قيل (ليبعثن عليهم الى يوم القيامة) أى ليسلط عليهم واذكر لهم وقت اجابه تعالى على نفسه أن يسلط على اليهود البتة (من يسومهم سوء العذاب) كالاذلال وضرب

بذكر

يذكر الحيوانات قلنا الانسان عاقل وهو لعقله كالمضطر الى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة في الترغيب بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله الا من سبق عليه القول في اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب قالوا لان قوله سبق عليه القول مشعر بأن كل من سبق عليه القول فانه لا يتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه ﴿النوع الثالث﴾ من تلك الاشياء قوله ومن آمن قالوا كانوا ثمانين قال مقاتل في ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك لان هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها فسميت بهذا الاسم وذكروا ما هو أزيد منه وما هو أنقص منه وذلك مما لا سبيل الى معرفته الا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى وما آمن معه الا قليل * فان قيل لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا في السفينة كانوا جماعة فلم يقل قليلون كما في قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون * قلنا كلا اللفظين جائز والتقدير ههنا وما آمن معه الا نفر قليل فأما الذي يروى أن ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي وكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه فالاولى ترك الخوض فيه ﴿ قوله تعالى ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم﴾ أما قوله وقال يعني نوح عليه السلام لقومه اركبوا فيها والركوب العلو على ظهر الشئ ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شئ علا شيأ فقد ركبه يقال ركبه الدين قال الليث وتسمي العرب من يركب السفينة راكب السفينة وأما الركبان والركب من ركبوا الدواب والابل قال الواحدي ولفظة في في قوله اركبوا فيها لا يجوز أن تكون من صلة الركوب لانه يقال ركبت السفينة ولا يقال ركبت في السفينة بل الوجه أن يقال مفعول اركبوا محذوف والتقدير اركبوا الماء في السفينة وأيضا يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة أنه أمرهم أن يكونوا في جوف الفلك لا على ظهرها فلو قال اركبوها لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة * أما قوله تعالى بسم الله مجريها ومرساها ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا في مرساها أنه بضم الميم وقال صاحب الكشاف قرأ مجاهد مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله تعالى قال الواحدي المجرى مصدر كالاجراء ومثله قوله منزلا مباركا وأدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأما من قرأ مجريها بفتح الميم فهو أيضا مصدر مثل الجري واحتج صاحب هذه القراءة بقوله وهي تجري بهم ولو كان مجراها لكان وهي تجريهم وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان في المعنى فاذا قال تجري بهم فكأنه قال تجريهم وأما المرسى فهو أيضا مصدر كالارساء يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وأرساه غيره قال تعالى والجبال أرساها قال ابن عباس يريد تجري بسم الله وقدرته وترسو بسم الله وقدرته وقيل كان اذا أراد أن تجري بهم قال بسم الله مجريها فتجري واذا أراد أن ترسو قال بسم الله مرسيها فترسو ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكروا في عامل الاعراب في بسم الله وجوها (الاول) اركبوا بسم الله (والثاني) ابدؤا بسم الله (والثالث) بسم الله اجراؤها وارساؤها وقيل انها سارت لاول يوم من رجب وقيل لعشر مضين من رجب فسارت ستة أشهر واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودي ﴿المسئلة الثالثة﴾ في الآية احتمالان (الاول) أن يكون مجموع قوله اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها كلاما واحدا والتقدير وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها يعني ينبغي أن يكون الركوب مقرونا بهذا الذكر (والاحتمال الثاني) أن يكونا كلامين والتقدير ان نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بان مجريها ومرساها ليس الا بسم الله وأمره وقدرته (فالمعنى الاول) يشير الى أن الانسان لا ينبغي أن يشرع في أمر من الامور الا ويكون في وقت الشروع فيه ذاكرا لاسم الله تعالى بالاذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببا لتمام ذلك المقصود (والثاني) يدل على انه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببا لحصول النجاة بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى وأخبرهم أنه تعالى هو المجري والمرسي للسفينة فاياكم أن تعولوا على السفينة بل يجب أن يكون تعويلكم

الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم وكانوا يؤدونها الى المجوس حتى بعث النبي عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة الى آخر الدهر (ان ربك لسريع العقاب) يعاقبهم في الدنيا (وانه لغفور رحيم) لمن تاب وآمن منهم (وقطعناهم) أي فرقنا بني اسرائيل (في الارض) وجعلنا كل فرقة منهم في قطر من أقطارها بحيث لا تخلو ناحية منها منهم تكملة لادبارهم حتى لا تكون لهم شوكة وقوله تعالى (أمما) اما مفعول ثان لقطعنا أو حال من مفعوله (منهم الصالحون) صفة لامما أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم (ومنهم دون ذلك) أي ناس دون ذلك الوصف أي منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) بالنعم والنقم (لعلهم يرجعون) عما كانوا فيه من الكفر والمعاصي (فخلف من بعدهم) أي من بعد المذكورين (خلف) أي بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع وقيل جمع وهو شائع في الشر والخلف بفتح اللام في الخير والمراد به الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثوا الكتاب) أي التوراة

على فضل الله فانه هو المجرى والمرسى لها فعلى التقدير الاول كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة في مقام الذكر وعلى التقدير الثاني كان في مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الاسباب واستغراق القلب في نور جلال مسبب الاسباب * واعلم أن الانسان اذا تفكر في طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس في سفينة التفكر والتدبر وأمواج الظلمات والضلالات قد علت تلك الجبال وارتفعت الى مصاعد القلال فاذا ابتدأت سفينة الفكرة والروية بالحركة وجب أن يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه الى الله تعالى وان يكون بلسان القلب ونظر العقل يقول بسم الله مجريها ومرساها حتى تصل سفينة فكره الى ساحل النجاة وتتخلص عن أمواج الضلالات * وأما قوله ان ربي لغفور رحيم ففيه سؤال وهو أن ذلك الوقت وقت الاهلاك واظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر * وجوابه لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا في أنفسهم انا انما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لازالة ذلك العجب منهم فان الانسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات وفي جميع الاحوال فهو محتاج الى اعانة الله وفضله واحسانه وان يكون رحيما لعقوبته غفورا لذنوبه ﴿ قوله تعالى ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ واعلم ان في قوله وهي تجري بهم في موج كالجبال مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله وهي تجري بهم في موج متعلق بمحذوف والتقدير وقال اركبوا فيها فركبوا فيها يقولون بسم الله وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴿ المسئلة الثانية ﴾ الامواج العظيمة انما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على انه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة والمقصود منه بيان شدة الهول والفزع ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ الجريان في الموج هو أن تجري السفينة داخل الموج وذلك يوجب الغرق فالمراد أن الامواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب شبهت تلك السفينة بما اذا جرت في داخل تلك الامواج * ثم حكى الله تعالى عنه انه نادى ابنه وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ اختلفوا في أنه هل كان ابناله وفيه أقوال (الاول) انه ابنه في الحقيقة والدليل عليه انه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يا بني وصرف هذا اللفظ الى انه رباه فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة وانه لا يجوز والذين خالفوا هذا الظاهر انما خالفوه لانهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرا وهذا بعيد فانه ثبت ان والد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان كافرا ووالد ابراهيم عليه السلام كان كافرا بنص القرآن فكذلك ههنا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في انه عليه السلام لما قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فكيف ناداه مع كفره فأجابوا عنه من وجوه (الاول) أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته (والثاني) انه عليه السلام كان يعلم أنه كافر لكنه ظن انه لما شاهد الغرق والاهوال العظيمة فانه يقبل الايمان فصار قوله يا بني اركب معنا كالدلالة على انه طلب منه الايمان وتأكد هذا بقوله ولا تكن مع الكافرين أي تابعهم في الكفر واركب معنا (والثالث) ان شفقة الابوة لعلها حملته على ذلك النداء والذي تقدم من قوله الا من سبق عليه القول كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلا فيه (القول الثاني) انه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر وقول الحسن البصري ويروى ان عليا رضي الله عنه قرأ ونادى نوح ابنها والضمير لامرأته وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير ابنه بفتح الهاء يريدان ابنها الا انهما اكتفيا بالفتحة عن الالف وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال والله ما كان ابنه فقلت ان الله حكى عنه انه قال ان ابني من أهلي وأنت تقول ما كان ابناله فقال لم يقل انه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي (القول الثالث) انه ولد على فراشه لغير رشدة والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن أما قوله تعالى فخانتاهما فليس فيه ان تلك الخيانة انما

من اسلافهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها (يأخذون عرض هذا الادنى) استئناف مسوق لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم اياه أى يأخذون حطام هذا الشئ الادنى أى الدنيا وهو من الدنو أو الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا (ويقولون سيغفر لنا) ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند الى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) حال من الضمير في لنا أى يرجون المغفرة والحال أنهم مصرون على الذنب عائدون الى مثله غير تائبين عنه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى الميثاق الوارد في الكتاب (أن لا يقولوا على الله الا الحق) عطف بيان للميثاق أو متعلق به أى بان لا يقولوا الخ والمراد به الرد عليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على انها افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب (ودرسوا ما فيه) عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير أو على ورثوا وهو اعتراض (والدار الآخرة خير للذين يتقون) ما فعل هؤلاء (أفلا تعقلون) فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الادنى المؤدى الى العقاب بالنعيم المخلد وقرئ بالياء وفى الالتفات تشديد للتوبيخ

حصلت بالسبب الذي ذكروه وقيل لابن عباس رضي الله عنهما ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجي مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزلوا به ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات وأيضا قوله تعالى الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين وبالجملة فقد دللنا على ان الحق هو القول الاول وأما قوله وكان في معزل فاعلم ان المعزل في اللغة معناه موضع منقطع عن غيره وأصله من العزل وهو التنحية والابعاد تقول كنت بمعزل عن كذا أي بموضع قد عزل منه واعلم ان قوله وكان في معزل لا يدل على انه في معزل من أي شيء فاهذا السبب ذكروا وجوها (الاول) أنه كان في معزل من السفينة لانه كان يظن ان الجبل يمنعه من الغرق (الثاني) انه كان في معزل عن أبيه واخوته وقومه (الثالث) انه كان في معزل من الكفار كانه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام ان ذلك انما كان لانه أحب مفارقتهم أما قوله يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فنقول قرأ حفص عن عاصم يا بني بفتح الياء في جميع القرآن والباقون بالكسر قال أبو علي الوجه الكسر وذلك ان اللام من ابن ياء أو واو فاذا صغرت ألحقت ياء التحقير فلزم أن ترد اللام المحذوفة والا لزم أن تحرك ياء التحقير بحركات الاعراب لكنها لا تحرك لانها لو حركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد واللين اذا كانت حروف اعراب نحو عصا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم اذا أضفت الى نفسك اجتمعت ثلاث ياآت (الاولى) منها للتحقير (والثانية) لام الفعل (والثالثة) التي للاضافة تقول هذا بني فاذا ناديته صار فيه وجهان اثبات الياء وحذفها والاختيار حذف الياء التي للاضافة وابقاء الكسرة دلالة عليه نحو يا غلام ومن قرأ يا بني بفتح الياء فانه أراد الاضافة أيضا كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الالف تخفيفا فصار يا بنيا كما قال ٭ يا ابنة عما لا تلومي واهجعي ٭ ثم حذف الالف للتخفيف واعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعاه الى أن يركب السفينة حكى عن ابنه انه قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء وهذا يدل على ان الابن كان متماديا في الكفر مصرا عليه مكذبا لابيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم (وفيه سؤال) وهو ان الذي رحمه الله معصوم فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله لا عاصم اليوم من أمر الله ٭ وذكروا في الجواب طرقا كثيرة (الاول) انه تعالى قال قبل هذه الآية وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم فبين انه تعالى رحيم وانه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق اذا عرفت هذا فنقول ان ابن نوح عليه السلام لما قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام أخطأت لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم والمعنى الا ذلك الذي ذكرت انه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية لا عاصم اليوم من عذاب الله الا الله الرحيم وتقديره لا فرار من الله الا الى الله وهو نظير قوله عليه السلام في دعائه وأعوذ بك منك وهذا تأويل في غاية الحسن (الوجه الثاني) في التأويل وهو الذي ذكره صاحب حل العقد ان هذا الاستثناء وقع من مضمر هو في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه والتقدير لا عاصم اليوم لاحد من أمر الله الا من رحم وهو كقولك لا تضرب اليوم الا زيدا فان تقديره لا تضرب أحدا الا زيدا الا انه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا (الوجه الثالث) في التأويل ان قوله لا عاصم أي لا ذا عصمة كما قالوا رامح ولابن ومعناه ذو رمح وذو لبن وقال تعالى من ماء دافق وعيشة راضية ومعناه ما ذكرنا فكذا ههنا وعلى هذا التقدير العاصم هو ذو العصمة فيدخل فيه المعصوم وحينئذ يصح استثناء قوله الا من رحم منه (الوجه الرابع) قوله لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم عنى بقوله الا من رحم نفسه لان نوحا وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته والمراد لا عاصم لك الا الله بمعنى أن بسببه تحصل رحمة الله كما أضيف الاحياء الى عيسى عليه السلام في قوله وأحيي الموتى لاجل أن الاحياء حصل بدعائه (الوجه الخامس) ان قوله الا من رحم استثناء منقطع والمعنى لكن من رحم الله معصوم ونظيره قوله تعالى ما لهم به

(والذين يمسكون بالكتاب) أي يتمسكون في أمور دينهم يقال مسك بالشيء وتمسك به قال مجاهد هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقرئ يمسكون من الامساك وقرئ تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى (وأقاموا الصلوة) ولعل التغيير في المشهورة للدلالة على ان التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الازمنة بخلاف اقامة الصلاة فانها مختصة بأوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات لانافتها عليها ومحل الموصول اما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله أفلا تعقلون اعتراض مقرر لما قبله واما الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (انا لا نضيع أجر المصلحين) والرابط اما الضمير المحذوف كما هو رأي جمهور البصريين والتقدير أجر المصلحين منهم وأما الالف واللام كما هو رأي الكوفيين فانه في حكم مصلحيهم كما في قوله تعالى فان الجنة هي المأوى أي مأواهم وقوله تعالى مفتحة لهم الابواب أي أبوابها واما العموم في المصلحين فانه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الوجوه وقيل الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو

من علم الا اتباع الظن ثم انه تعالى بين بقوله وحال بينهما الموج أى بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح فكان من المغرقين ﴿ قوله تعالى ﴿وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ اعلم أن المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان فكان التقدير انه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا يا أرض ابلعى ماءك يقال بلع الماء يبلعه بلعا اذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعا اذا لم يمضغه وقال أهل اللغة الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها ويا سماء أقلعى يقال أقلع الرجل عن عمله اذا كف عنه وأقلعت السماء بعد ما مطرت اذا أمسكت وغيض الماء يقال غاض الماء يغيض غيضا ومغاضا اذا نقص وغضته أنا وهذا من باب فعل الشئ وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته ودلع اللسان ودلعته ونقص الشئ ونقصته فقوله وغيض الماء أى نقص وما بقى منه شئ * واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه (فأولها) قوله وقيل وذلك لان هذا يدل على أنه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة بحيث انه متى قيل قيل لم ينصرف العقل الا اليه ولم يتوجه الفكر الا الى أن ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه على انه تقرر فى العقول أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى الا هو (وثانيها) قوله يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى فان الحس يدل على عظمة هذه الاجسام وشدتها وقوتها فاذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الاجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره وكمال قدرته ومشيئته (وثالثها) ان السماء والارض من الجمادات فقوله يا أرض ويا سماء مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ فى الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الامر كذلك فلأن يكون أمره نافذا على العقلاء كان أولى وليس مرادى منه أنه تعالى يأمر الجمادات فان ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الامر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر فى الوهم نوع عظمته وجلاله تقريرا كاملا وأما قوله وقضى الامر فالمراد ان الذى قضى به وقدره فى الازل قضاء جزما حتما فقد وقع تنبيها على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع فى وقته وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه فى أرضه وسمائه * فان قيل كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يغرق الاطفال بسبب جرم الكفار * قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) ان كثيرا من المفسرين يقولون ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق الا من بلغ سنه الى الاربعين ولقائل أن يقول لو كان الامر على ما ذكرتم لكان ذلك آية عجيبة قاهرة ويبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر وأيضا فهب انكم ذكرتم ما ذكرتم فما قولكم فى اهلاك الطير والوحش مع أنه لا تكليف عليها البتة (والجواب الثانى) وهو الحق أنه لا اعتراض على الله تعالى فى أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وأما المعتزلة فهم يقولون انه تعالى أغرق الاطفال والحيوانات وذلك يجرى مجرى اذنه تعالى فى ذبح هذه البهائم وفى استعمالها فى الاعمال الشاقة الشديدة وأما قوله تعالى واستوت على الجودى فالمعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودى وكان ذلك الجبل جبلا منخفضا فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء * وأما قوله تعالى وقيل بعدا للقوم الظالمين ففيه وجهان (الاول) انه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد (والثانى) أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لان الغالب ممن يسلم من الامر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فاذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولانه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق ﴿ قوله تعالى ﴿ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسأل ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾ وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن قوله رب ان ابنى من أهلى فقد ذكرنا الخلاف فى أنه هل كان ابنا له أم لا فلا نعيده ثم انه

مثابون وقوله تعالى انا لانضيع الخ اعتراض مقرر لما قبله (واذ نتقنا الجبل فوقهم) أى قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم (كأنه ظلة) أى سقيفة وهى كل ما أظلك (وظنوا) أى تيقنوا (انه واقع بهم) ساقط عليهم لان الجبل لا يثبت فى الجو ولانهم كانوا يوعدون به واطلاق الظن فى الحكاية لعدم وقوع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم ان قبلتم ما فيها فبها والا ليقعن عليكم (خذوا ما آتيناكم) أى وقلنا أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب (بقوة) بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو (واذكروا ما فيه) بالعمل ولا تتركوه كالمنسى (لعلكم تتقون) بذلك قبائح الاعمال ورذائل الاخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين (واذ أخذ ربك) منصوب بمضمر معطوف على ما انتصب به اذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس قاطبة وتوبيخهم بنقضه اثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا أى واذكر لهم أخذ ربك (من بنى آدم) المراد بهم الذين ولدهم كائنا من كان نسلا بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من

تعالى ذكر انه قال يا نوح انه ليس من أهلك واعلم أنه لما ثبت بالدليل انه كان ابناله وجب حمل قوله انه ليس من أهلك على أحد وجهين (أحدهما) أن يكون المراد انه ليس من أهل دينك (والثانى) المراد انه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب فان فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الالفاظ وهو قوله انه ليس من أهلك ثم قال تعالى انه عمل غير صالح قرأ الكسائى عمل على صيغة الفعل الماضى وغير بالنصب والمعنى ان ابنك عمل عملا غير صالح يعنى أشرك وكذب وكلمة غير نصب لانها نعت لمصدر محذوف وقرأ الباقون عمل بالرفع والتنوين وفيه وجهان (الاول) أن الضمير فى قوله انه عائد الى السؤال يعنى ان هذا السؤال عمل وهو قوله ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم الجزم بأنه لا ينجى أحدا منهم سؤال باطل (الثانى) أن يكون هذا الضمير عائدا الى الابن وعلى هذا التقدير ففى وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه (الاول) ان الرجل اذا كثر عمله واحسانه يقال له انه علم وكرم وجود فكذا ههنا لما كثر اقدام ابن نوح على الاعمال الباطلة حكم عليه بأنه فى نفسه عمل باطل (الثانى) أن يكون المراد انه ذو عمل باطل فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (الثالث) قال بعضهم معنى قوله انه عمل غير صالح أى انه ولد زنا وهذا القول باطل قطعا ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) احتج بهذه الآية من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (الاول) ان قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهى محكمة وهذا يقتضى عود الضمير فى قوله انه عمل غير صالح اما الى ابن نوح واما الى ذلك السؤال فالقول بأنه عائد الى ابن نوح لا يتم الا باضمار وهو خلاف الظاهر ولا يجوز المصير اليه الا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا لانا اذا حكمنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير فثبت أن هذا الضمير عائد الى هذا السؤال فكان التقدير ان هذا السؤال عمل غير صالح أى قولك ان ابنى من أهلى لطلب نجاته عمل غير صالح وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبا ومعصية (الثانى) ان قوله فلا تسألن نهى له عن السؤال والمذكور السابق هو قوله ان ابنى من أهلى فدل هذا على انه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبا ومعصية (الثالث) ان قوله فلا تسألن ما ليس لك به علم يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (الرابع) أن قوله تعالى انى أعظك أن تكون من الجاهلين يدل على أن ذلك السؤال كان محض الجهل وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر وأيضا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور فى القرآن قال تعالى يعملون السوء بجهالة وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين (الوجه الخامس) ان نوحا عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمعصية فى هذا المقام فانه قال انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين واعترافه بذلك يدل على انه كان مذنبا (الوجه السادس فى التمسك بهذه الآية) ان هذه الآية تدل على أن نوحا نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق والآية المتقدمة وهى قوله ونادى نوح ابنه وقال يا بنى اركب معنا تدل على انه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة فنقول اما أن يقال ان طلب هذا المعنى من الله كان سابقا على طلبه من الولد أو كان بالعكس والاول باطل لان بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقا على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله انه تعالى لا يخلص ذلك الابن من الغرق وانه تعالى نهاه عن ذلك الطلب وبعد هذا كيف قال له يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين وأما ان قلنا ان هذا الطلب من الابن كان متقدما فكان قد سمع من الابن قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وظهر بذلك كفره فكيف طلب من الله تخليصه وأيضا انه تعالى أخبر ان نوحا لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد ان صار من المغرقين فهذه الآية من هذه الوجوه

الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيرا وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الإنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب فى اسناده الى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى (من ظهورهم) بدل من بنى آدم بدل البعض بتكرير الجار كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم ومن فى الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الابهام والتفصيل غب الاجمال وتنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم فى أصلاب الآباء ولم يستودعوا فى أرحام الامهات وقوله تعالى (ذريتهم) مفعول أخذ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع اليه ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر وقرئ ذرياتهم والمراد بهم أولادهم على العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا أوليا كما اندرج أسلافهم فى بنى آدم كذلك وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا مع أن ما أريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل (وأشهدهم

السنة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام * واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الانبياء عليهم السلام من المعاصي وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الافضل والاكمل وحسنات الابرار سيآت المقربين فلهذا السبب حصل هذا العتاب والامر بالاستغفار لا يدل على سابقة الذنب كما قال اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وليس جميعهم مذنبين فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الافضل (المسئلة الثانية) قرأ نافع برواية ورش واسمعيل بتشديد النون واثبات الياء تسألني وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير اثبات الياء وقرأ أبو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء تسألن أما التشديد فللتأكيد وأما اثبات الياء فعلى الاصل وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير اخلال واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين والمعنى انه تعالى لما قال له فلا تسألن ما ليس لك به علم فقال عند ذلك قبلت يا رب هذا التكليف ولا أعود اليه الا اني لا أقدر على الاحتراز منه الا باعانتك وهدايتك فلهذا بدأ أولا بقوله اني أعوذ بك واعلم أن قوله اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم اخبار عما في المستقبل أي لا أعود الى هذا العمل ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى فقال والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين وحقيقة التوبة تقتضي أمرين (أحدهما) في المستقبل وهو العزم على الترك واليه الاشارة بقوله اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم (والثاني) في الماضي وهو الندم على ما مضى واليه الاشارة بقوله والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التي صدرت عن نوح عليه السلام في هذا المقام فنقول ان أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه وجمع من المنافقين وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الاب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فلما رآه معتزلا عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال سآوي الى جبل يعصمني من الماء وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجري مجرى الركوب في السفينة في أنه يصونه عن الغرق وقول نوح لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم لا يدل الا على انه عليه السلام كان يقرر عند ابنه انه لا ينفعه الا الايمان والعمل الصالح وهذا أيضا لا يدل على انه علم من ابنه أنه كان كافرا فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق اما بأن يمكنه من الدخول في السفينة واما بأن يحفظه على قلة جبل فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وانه ليس من أهل دينه فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو انه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد لانه كان كافرا فلم يصدر عنه الا الخطأ في هذا الاجتهاد كما قررنا ذلك في أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة الا لانه أخطأ في الاجتهاد فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وانما هو من باب الخطا في الاجتهاد والله أعلم

﴿قوله تعالى﴾ ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى أخبر عن السفينة انها استوت على الجودي فهنالك قد خرج نوح وقومه من السفينة لا محالة ثم انهم نزلوا من ذلك الجبل الى الارض فقوله اهبط يحتمل أن يكون أمرا بالخروج من السفينة الى أرض الجبل وأن يكون أمرا بالهبوط من الجبل الى الارض المستوية (المسئلة الثانية) انه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولا ثم بالبركة ثانيا أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين (الاول) انه تعالى أخبر في الآية المتقدمة ان نوحا عليه السلام تاب عن زلته وتضرع الى الله تعالى بقوله

على أنفسهم) أي أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله تعالى (ألست بربكم) على ارادة القول أي قائلا ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الاطلاق من غير أن يكون لاحد مدخل في شأن من شؤنكم فينتظم استحقاق المعبودية ويستلزم اختصاصه به تعالى (قالوا) استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا (بلى شهدنا) أي على أنفسنا بأنك ربنا والهنا لا رب لنا غيرك كما ورد في الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى اياهم جميعا في مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والانفس المؤدية الى التوحيد والاسلام كما نطق به قوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة الحديث مبني على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى اياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم في الآفاق والانفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم منها تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله تعالى اياهم على الاعتراف بها بطريق الامر ومن مسارعتهم

والا

والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فكان نوح عليه السلام محتاجا الى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له يا نوح اهبط بسلام منا حصل له الامن من جميع المكاره المتعلقة بالدين (والثاني) ان ذلك الغرق لما كان عاما في جميع الارض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم انه ليس في الارض شئ مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك الامع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بان وعده بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الامل ومنه برك الابل ومنه البركة لثبوت الماء فيها ومنه تبارك وتعالى أي ثبت تعظيمه ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء (فالقول الاول) انه تعالى صير نوحا أبا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله وعند هذا القائل انه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الامن ذريته فالخلق كلهم من نسله وذريته وقال آخرون لم يكن في سفينة نوح عليه السلام الامن كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم انما تولدوا منه ومن أولاده والدليل عليه قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا عليه السلام كان آدم الاصغر فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها (والقول الثاني) أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات وعده بان موجبات السلامة والراحة والفراغة يكون في التزايد والثبات والاستقرار ثم انه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال وعلى أمم ممن معك واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال منهم من حمله على أولئك الاقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمما وجماعات لانه ما كان في ذلك الوقت في جميع الارض أحد من البشر الاهم فلهذا السبب جعلهم أمما ومنهم من قال بل المراد ممن معك نسلا وتولدا قالوا ودليل ذلك انه ما كان معه الا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى وما آمن معه الا قليل ومنهم من قال المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك والمختار هو القول الثاني ومن في قوله ممن معك لابتداء الغاية والمعنى وعلى أمم ناشئة من الذين معك واعلم انه تعالى جعل تلك الامم الناشئة من الذين معه على قسمين (أحدهما) الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته اليهم وهم أهل الايمان (والثاني) أمم وصفهم بانه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم فحكم الله تعالى بان الامم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لابد وأن ينقسموا الى مؤمن والى كافر قال المفسرون دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة الى يوم القيامة ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة الى يوم القيامة ثم قال أهل التحقيق انه تعالى انما عظم شأن نوح بايصال السلامة والبركات منه اليه لانه قال بسلام منا وهذا يدل على ان الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث انها نعمة ولكنهم انما يفرحون بالنعمة من حيث انها من الحق وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم الى الحق وهذا مقام شريف لا يعرفه الا خواص الله تعالى فان الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير والفرح بالسلامة والبركة من حيث انهما من الحق غير والاول نصيب عامة الخلق والثاني نصيب المقربين ولهذا السبب قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم فحكم أنه تعالى يعطيهم نصيبا من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا فانه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر البتة انه يعطيهم الدنيا أم لا ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر انه يعطيهم الدنيا وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب في المقامات الروحانية ۞ قوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا

الى ذلك من غير تلعثم أصلا من غير أن يكون هناك أخذ واشهاد وسؤال وجواب كما في قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله تعالى (أن تقولوا) بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاصريه من اليهود تشديدا في الالزام أو اليهم والى متقدميهم بطريق التغليب لكن لامن حيث انهم مخاطبون بقوله تعالى ألست بربكم فانه ليس من الكلام المحكي وقرئ بالياء على أن الضمير للذرية وأياما كان فهو مفعول له لما قبله من الاخذ والاشهاد أي فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أولئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم (يوم القيامة) عند ظهور الامر (انا كنا عن هذا) عن وحدانية الربوبية وأحكامها (غافلين) لم ننبه عليه فانهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك اذلا سبيل لاحد الى انكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا) عطف على تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أي هم اخترعوا الاشراك وهم سنوه (من قبل) أي من قبل زماننا (وكنا) نحن (ذرية من بعدهم) لانهتدي الى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) من آبائنا المضلين

بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأي أو أنؤاخذ بما فعلتم لكنا الخ فإن ما ذكر من استعدادهم

﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تلك أي تلك الآيات التي ذكرناها وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق فقوله تلك في محل الرفع على الابتداء ومن أنباء الغيب الخبر ونوحيها إليك خبر ثان وما بعده أيضا خبر ثالث ثم قال تعالى ما كنت تعلمها أنت ولا قومك والمعنى أنك ما كنت تعرف هذه القصة بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضا ونظيره أن تقول لإنسان لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل بلدك فإن قيل أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم قلنا تلك القصة بحسب الإجمال كانت مشهورة أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ثم قال فاصبر إن العاقبة للمتقين والمعنى يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه * فإن قال قائل إنه تعالى ذكر هذه القصة في سورة يونس ثم إنه أعادها ههنا مرة أخرى فما الفائدة في هذا التكرير * قلنا القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلا في زمان نوح إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة * قوله تعالى ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾ اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة واعلم أن هذا معطوف على قوله ولقد أرسلنا نوحا والتقدير ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا وقوله هودا عطف بيان واعلم أنه تعالى وصف هودا بأنه أخوهم ومعلوم أن تلك الأخوة ما كانت في الدين وإنما كانت في النسب لأن هودا كان رجلا من قبيلة عاد وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ونظيره ما يقال للرجل يا أخا تميم ويا أخا سليم والمراد رجل منهم فإن قيل إنه تعالى قال في ابن نوح إنه ليس من أهلك فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين وههنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين فما الفرق بينهما قلنا المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم لأن قومه كانوا يستبعدون في محمد عليه السلام مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا إليهم من عند الله فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وأن صالحا كان واحدا من ثمود لإزالة هذا الاستبعاد * واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف (فالنوع الأول) أنه دعاهم إلى التوحيد فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الإله تعالى قلنا دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلائل الآفاق والأنفس وقلما توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى ولذلك قال تعالى في صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله * قال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله وختم له بالحسنى دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله وأكثر بلاد الترك أيضا كذلك وإنما الشأن في عبادة الأوثان فإنها آفة عمت أكثر أطراف الأرض وهكذا الأمر كان في الزمان القديم أعني زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام فكان قوله اعبدوا الله معناه لا تعبدوا غير الله والدليل عليه أنه قال عقيبه ما لكم من إله غيره وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام وأما قوله ما لكم من إله غيره فقرئ غيره بالرفع صفة على محل الجار والمجرور وقرئ بالجر صفة على اللفظ ثم قال إن أنتم إلا مفترون يعني أنكم كاذبون في قولكم إن هذه

الكامل بسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضا فإن التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا هذا وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال ألست بربكم قالوا بلى فنودي يومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهورهم أبناءهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الأصلي ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديثين

الأصنام

الاصنام تحسن عبادتها أوفى قولكم انها تستحق العبادة وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهى جمادات لاحس لها ولا ادراك والانسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالانسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها ثم انه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم الى التوحيد ومنعهم عن عبادة الاوثان قال ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام وذلك لان الدعوة الى الله تعالى اذا كانت مطهرة عن دنس الطمع قوى تأثيرها فى القلب ثم قال أفلا تعقلون يعنى أفلا تعقلون انى مصيب فى المنع من عبادة الاصنام وذلك لان العلم بصحة هذا المنع كأنه مركوز فى بدائه العقول ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثانى من التكاليف التى ذكرها هود عليه السلام لقومه وذلك لانه فى المقام الاول دعاهم الى التوحيد وفى هذا المقام دعاهم الى الاستغفار ثم الى التوبة والفرق بينهما قد تقدم فى أول هذه السورة قال أبو بكر الاصم استغفروا أى سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعودوا الى مثله ثم انه عليه الصلاة والسلام قال انكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم وهذا غاية ما يراد من السعادات فان النعم ان لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وان كانت حاصلة الا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا أما اذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى يرسل السماء عليكم مدرارا اشارة الى تكثير النعم لان مادة حصول النعم هى الامطار الموافقة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم اشارة الى كمال حال القوى التى بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ولا شك ان هذه الكلمة جامعة فى البشارة بتحصيل السعادات وان الزيادة عليها ممتنعة فى صريح العقل ويجب على العاقل أن يتأمل فى هذه اللطائف ليعرف ما فى هذا الكتاب الكريم من الاسرار المخفية وأما المفسرون فانهم قالوا القوم كانوا مخصوصين فى الدنيا بنوعين من الكمال (أحدهما) أن بساتينهم ومزارعهم كانت فى غاية الطيب والبهجة والدليل عليه قوله ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد (والثانى) أنهم كانوا فى غاية القوة والبطش ولذلك قالوا من أشد منا قوة ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الامرين وعدهم هود عليه السلام انهم لو تركوا عبادة الاصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فان الله تعالى يقوى حالهم فى هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة ونقل أيضا ان الله تعالى لما بعث هودا عليه السلام اليهم وكذبوه حبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود ان آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد فذلك قوله يرسل السماء عليكم مدرارا والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم فسروا هذه القوة بالمال والولد والشدة فى الاعضاء لان كل ذلك مما يتقوى به الانسان (فان قيل) حاصل الكلام هو أن هودا عليه السلام قال لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية وليس الامر كذلك لانه عليه الصلاة والسلام قال خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فكيف الجمع بينهما وأيضا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب فى الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والاخروية عليها فأما الترغيب فى الطاعات لاجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور فى التوراة (الجواب) انه لما أكثر الترغيب فى السعادات الاخروية لم يبعد الترغيب أيضا فى خير الدنيا بقدر الكفاية وأما قوله ولا تتولوا مجرمين فمعناه لا تعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه وأرغبكم فيه مجرمين أى مصرين على اجرامكم وآثامكم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم حكى أيضا ما ذكره القوم له وهو أشياء (أولها) قولهم ما جئتنا ببينة أى بحجة والبينة سميت

الشريفة بين بيان حال الفريقين اجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسائط غرض على نسب اخراج الكل اليه وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم افادة الاعتذار باسناد الاشراك الى آبائهم اقتضى الحال نسبة اخراج كل واحد منهم الى ظهر أبيهم من غير تعرض لاخراج الابناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا وعدم بيان الميثاق فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه ليس بيانا لعدمه ولا مستلزما له وأما ما قالوا من أن أخذ الميثاق لاسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ومعلوم أنه غير دافع لغفلتهم فى دار التكليف اذ لا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك فمردود لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد اخبار المخبر الصادق بل بأن قوله تعالى أن تقولوا الخ ليس مفعولا لقوله تعالى وأشهدهم وما يتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى يجب كون ذلك الاشهاد والشهادة محفوظا لهم فى الزامهم بل لفعل مضمر ينسحب

دينة لانها تبين الحق من الباطل ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات الا أن القوم جهلوها وأنكروها وزعموا أنه ما جاءنا بشئ من المعجزات (وثانيها) قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وهذا أيضا ركيك لانهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الاصنام لا تنفع ولا تضر ومتى كان الامر كذلك فقد ظهر فى بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس (وثالثها) قولهم وما نحن لك بمؤمنين وهذا يدل على الاصرار والتقليد والجحود (ورابعها) قولهم ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقال اعتراه كذا اذا غشيه وأصابه والمعنى انك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه وهو ظاهر ثم قال فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه فأجمعوا أمركم وشركاءكم الى قوله ولا تنظرون واعلم أن هذا معجزة قاهرة وذلك أن الرجل الواحد اذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم بالغوا فى عداوتى وفى موجبات ايذائى ولا تؤجلون فانه لا يقول هذا الا اذا كان واثقا من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الاعداء ثم قال ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها قال الازهرى الناصية عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هنالك ناصية باسم منبته واعلم أن العرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان أى انه مطيع له لان كل من أخذت بناصيته فقد قهرته وكانوا اذا أسروا الاسير فأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون فقوله ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها أى ما من حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره * ثم قال ان ربى على صراط مستقيم وفيه وجوه (الاول) أنه تعالى لما قال ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله ان ربى على صراط مستقيم أى انه وان كان قادرا عليهم لكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم الا ما هو الحق والعدل والصواب قالت المعتزلة قوله ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها يدل على التوحيد وقوله ان ربى على صراط مستقيم يدل على العدل فثبت ان الدين انما يتم بالتوحيد والعدل (الثانى) أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله ان ربى على صراط مستقيم يعنى أنه لا يخفى عليه مستتر ولا يفوته هارب فذكر الصراط المستقيم وهو يعنى به الطريق الذى لا يكون لاحد مسلك الا عليه كما قال ان ربك لبالمرصاد (الثالث) أن يكون المراد ان ربى يدل على الصراط المستقيم أى يحث أو يحملكم بالدعاء اليه

﴿قوله تعالى﴾ ﴿فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيأ ان ربى على كل شئ حفيظ﴾ اعلم أن قوله فان تولوا يعنى فان تتولوا ثم فيه وجهان (الاول) تقدير الكلام فان تتولوا لم أعاتب على تقصير فى الابلاغ وكنتم محجوجين كانه يقول أنتم الذين أصررتم على التكذيب (الثانى) فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ثم قال ويستخلف ربى قوما غيركم يعنى يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم وهذه اشارة الى نزول عذاب الاستئصال ولا تضرونه شيأ يعنى ان اهلاككم لا ينقص من ملكه شيأ * ثم قال ان ربى على كل شئ حفيظ وفيه ثلاثة أوجه (الاول) حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها (الثانى) يحفظنى من شركم ومكركم (الثالث) حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك اذا شاء ويهلكه اذا شاء ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود﴾ اعلم أن قوله ولما جاء أمرنا أى عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام تدخل فى مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية فان قيل فهذه الريح كيف تؤثر فى اهلاكهم قلنا يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشدة قوتها فتخطف الحيوان من الارض ثم تضرب به على الارض فكل ذلك محتمل وأما قوله نجينا هودا فاعلم أنه يجوز اتيان البلية على المؤمن وعلى

عليه الكلام والمعنى فعلنا ما فعلنا من الامر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة انا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف والا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الامر المضمر العامل فى اذ أخذ والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء هذا على تقدير كون قوله تعالى شهدنا من كلام الذرية وهو الظاهر فأما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل فى أن تقولوا ولا محذور أصلا اذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لانا نردكم ونكذبكم حينئذ (وكذلك) اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما أفاده اسم الاشارة من الفخامة والتقديم على الفعل لافادة القصر ومحله النصب على المصدرية أى ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة (نفصل الآيات) المذكورة لا غير ذلك (ولعلهم يرجعون) ولعلهم يرجعوا عما هم عليه من الاصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور

الكافر معا وحينئذ تكون تلك النجاة رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر فأما العذاب النازل بمن يكذب الانبياء عليهم السلام فانه يجب فى حكمة الله تعالى أن ينجى المؤمن منه ولولا ذلك لما عرف به كونه عذابا على كفرهم فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا نجيناه هودا والذين آمنوا معه * وأما قوله برحمة منا ففيه وجوه (الاول) أراد أنه لا ينجو أحد وان اجتهد فى الايمان والعمل الصالح الا برحمة من الله (والثانى) المراد من الرحمة ما هداهم اليه من الايمان بالله والعمل الصالح (الثالث) أنه رحمهم فى ذلك الوقت وميزهم عن الكافرين فى العقاب * وأما قوله ونجيناهم من عذاب غليظ فالمراد من النجاة الاولى هى النجاة من عذاب الدنيا والنجاة الثانية من عذاب القيامة وانما وصفه بكونه غليظا تنبيها على أن العذاب الذى حصل لهم بعد موتهم بالنسبة الى العذاب الذى وقعوا فيه كان عذابا غليظا والمراد من قوله تعالى ونجيناهم أى حكمنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه * واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد فهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا * ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة فأما أوصافهم فهى ثلاثة (الصفة الاولى) قوله جحدوا بآيات ربهم والمراد أنهم جحدوا دلالة المعجزات على الصدق أو جحدوا دلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ان ثبت أنهم كانوا زنادقة (الصفة الثانية) قوله وعصوا رسله والسبب فيه أنهم اذا عصوا رسولا واحدا فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقيل لم يرسل اليهم الا هود عليه السلام (الصفة الثالثة) قوله واتبعوا أمر كل جبار عنيد والمعنى ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم ما هذا الا بشر مثلكم والمراد من الجبار المرتفع المتمرد والعنيد العنود والمعاند وهو المنازع المعارض * واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة أى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا وفى الآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ثم انه تعالى بين السبب الاصلى فى نزول هذه الاحوال المكروهة بهم فقال الا ان عادا كفروا ربهم قيل أراد كفروا بربهم فحذف الباء وقيل الكفر هو الجحد فالتقدير الا ان عادا جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم ثم قال ألا بعدا لعاد قوم هود وفيه سؤالان (السؤال الاول) اللعن هو البعد فلما قال وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة فما الفائدة فى قوله ألا بعدا لعاد (والجواب) التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد (السؤال الثانى) ما الفائدة فى قوله لعاد قوم هود (الجواب) كان عاد عادين فالاولى القديمة هم قوم هود والثانية هم ارم ذات العماد فذكر ذلك لازالة الاشتباه (والثانى) أن المبالغة فى التنصيص تدل على مزيد التأكيد * قوله تعالى ﴿والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب﴾ اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة وهى قصة صالح مع ثمود ونظمها مثل النظم المذكور فى قصة هود الا أن ههنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر فى تقريره دليلين (الدليل الاول) قوله هو أنشأكم من الارض وفيه وجهان (الاول) ان الكل مخلوقون من صلب آدم وهو كان مخلوقا من الارض * وأقول هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه وذلك لان الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى انما تولد من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما تولد من الاغذية وهذه الاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانات حالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات وظاهر أن تولد النبات من الارض فثبت أنه تعالى أنشأنا من الارض (والوجه الثانى) أن تكون كلمة من معناها فى والتقدير أنشأكم فى الارض وهذا ضعيف لانه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة الى صرفه عنه وأما تقرير أن تولد الانسان من الارض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مرارا كثيرة (الدليل الثانى) قوله واستعمركم فيها وفيه ثلاثة أوجه (الاول)

فالواو ابتدائية ويجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مترتب على التفصيل أى وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر وليرجعوا الخ (واتل عليهم) عطف على المضمر العامل فى اذ أخذ وارد على قطعه فى الانباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى أى واتل على اليهود (نبأ الذى آتيناه آياتنا) أى خبره الذى له شأن وخطر وهو أحد علماء بنى اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعور من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله تعالى وقيل هو أمية بن أبى الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل فى ذلك الزمان رسولا ورجا أن يكون هو الرسول فلما بعث الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به والاول هو الانسب بمقام توبيخ اليهود ههنا تهم (فانسلخ منها) أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلا أو خرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره وأياما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبئ عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبدا للايذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (فأتبعه الشيطان) أى تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قرينا له وهو المعنى على قراءة فاتبعه من الافتعال وفيه تلويح

جعل لكم عمارها قالوا كان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار لا جرم حصلت لهم
الاعمار الطويلة فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله تعالى اليه انهم عمروا
بلادي فعاش فيها عبادي وأخذ معاوية في احياء أرض في آخر عمره فقيل له ما حملك عليه فقال ما حملني
عليه الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له في الارض آثار

(الثاني) أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق واستعمركم من العمر مثل استبقاكم من البقاء (والثالث)
انه مأخوذ من العمرى أي جعلها لكم طول أعماركم فاذا متم انتقلت الى غيركم واعلم أن في كون الارض
قابلة للعمارات النافعة للانسان وكون الانسان قادرا عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ويرجع حاصله
الى ما ذكره الله تعالى في آية أخرى وهي قوله والذي قدر فهدى وذلك لان حدوث الانسان مع انه حصل
في ذاته العقل الهادي والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الارض
موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضا على وجود الصانع الحكيم أما قوله فاستغفروه ثم
توبوا اليه فقد تقدم تفسيره وأما قوله ان ربي قريب مجيب يعني انه قريب بالعلم والسمع مجيب دعاء
المحتاجين بفضله ورحمته * ثم بين تعالى أن صالحا عليه السلام لما قرر هذه الدلائل قالوا يا صالح قد كنت فينا
مرجوا قبل هذا وفيه وجوه (الاول) انه لما كان رجلا قوي العقل قوي الخاطر وكان من قبيلتهم قوي
رجاؤهم في أن ينصر دينهم ويقوي مذهبهم ويقرر طريقتهم لانه متى حدث رجل فاضل في قوم طمعوا فيه
من هذا الوجه (الثاني) قال بعضهم المراد انك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا
فقوي رجاؤنا فيك انك من الانصار والاحباب فكيف أظهرت العداوة والبغضة ثم انهم أضافوا الى هذا
الكلام التعجب الشديد من قوله فقالوا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا والمقصود من هذا الكلام التمسك
بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة
حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ثم قالوا وانا لفي شك مما تدعونا اليه مريب
والشك هو أن يبقى الانسان متوقفا بين النفي والاثبات والمريب هو الذي يظن به السوء فقوله وانا لفي
شك يعني به انه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله وقوله مريب يعني انه ترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا
مبالغة في تزييف كلامه * قوله تعالى ﴿قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن
ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾ اعلم أن قوله ان كنت على بينة من ربي ورد بحرف
الشك وكان على يقين تام في أمره الا أن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول فكأنه قال
قدروا أني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة وانظروا اني ان تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن
يمنعني من عذاب الله فما تزيدونني على هذا التقدير غير تخسير وفي تفسير هذه الكلمة وجهان (الاول) ان
على هذا التقدير تخسرون أعمالي وتبطلونها (الثاني) ان يكون التقدير فما تزيدونني بما تقولون لي
وتحملوني عليه غير أن أخسركم أي أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم خاسرون والقول الاول أقرب لان
قوله فمن ينصرني من الله ان عصيته كالدلالة على انه أراد ان اتبعتكم فيما أنتم عليه من الكفر الذي دعوتموني
اليه لم أزدد الا خسرانا في الدين فأصير من الهالكين الخاسرين * قوله تعالى ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية
فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام
ذلك وعد غير مكذوب﴾ اعلم ان العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الاصنام أن يبتدئ بالدعوة الى
عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لابد وأن يطلبوا منه المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان * روي أن
قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا صالح
ربه فخرجت الناقة كما سألوا * واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه (الاول) انه تعالى خلقها من
الصخرة (وثانيها) انه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل (وثالثها) انه تعالى خلقها حاملا من غير

بأنه أشد من الشيطان غواية أو اتبعه خطواته (فكان من الغاوين) فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين وروي أن قومه طلبوا اليه أن يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف أدعو على من معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا في التيه ويرده أن التيه كان لموسى عليه السلام روحا وراحة وانما عذب به بنو اسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر في سورة المائدة (ولو شئنا) كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ما ذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه في مهاوي الغواية ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أي ولو شئنا رفعه (لرفعناه) أي الى المنازل العالية للابرار العالمين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لا بمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخل في ذلك أصلا فانه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الاجزية بالافعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدي الى الرفع بصرف اختياره الى تحصيله كما ينبئ عنه قوله تعالى (بها) أي بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجبها فان اختياره وان لم يكن مؤثرا في حصوله ولا في ترتب الرفع عليه بل

ذكر

ذكر (ورابعها) انه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة (وخامسها) ما روى أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر (وسادسها) انه كان يحصل منها لبن كثير يكفى الخلق العظيم وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوى وليس فى القرآن الا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة فأما بيان أنها كانت معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه * ثم قال فذروها تأكل فى أرض الله والمراد انه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روى انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى اخفائها وابطالها بأقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال لا تمسوها بسوء وتوعدهم ان مسوها بسوء بعذاب قريب وذلك تشديد لهم من الاقدام على قتلها ثم بين الله تعالى انهم مع ذلك عقروها وذبحوها ويحتمل انهم عقروها لابطال تلك الحجة وأن يكون لانها ضيقت الشرب على القوم وأن يكون لانهم رغبوا فى شحمها ولحمها وقوله فيأخذكم عذاب قريب يريد اليوم الثالث وهو قوله تمتعوا فى داركم * ثم بين تعالى ان القوم عقروها فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ومعنى التمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ولما كان التمتع لا يحصل الا للحى عبر به عن الحياة وقوله فى داركم فيه وجهان (الاول) ان المراد من الدار البلد وتسمى البلاد بالديار لانه يدار فيها أى يتصرف يقال ديار بكر أى بلادهم (الثانى) ان المراد بالدار الدنيا * وقوله ذلك وعد غير مكذوب أى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأيكم المفتون وقيل غير مكذوب فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم فى الايمان وذلك لانهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب فقالوا وما علامة ذلك فقال تصير وجوهكم فى اليوم الاول مصفرة وفى الثانى محمرة وفى الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب فان قيل كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح عليه السلام ثم يبقون مصرين على الكفر قلنا مادامت الامارات غير بالغة الى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر واذا صارت يقينية قطعية فقد انتهى الامر الى حد الالجاء والايمان فى ذلك الوقت غير مقبول ﴿قوله تعالى ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود﴾ اعلم ان مثل هذه الآية قد مضى فى قصة عاد وقوله ومن خزى يومئذ فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الواو فى قوله ومن خزى واو العطف وفيه وجهان (الاول) أن يكون التقدير نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزى الذى لزمهم وبقى العار فيه مأثورا عنهم ومنسوبا اليهم لان معنى الخزى العيب الذى تظهر فضيحته ويستحيا من مثله فحذف ما حذف اعتمادا على دلالة ما بقى عليه (الثانى) أن يكون التقدير نجينا صالحا برحمة منا ونجيناهم من خزى يومئذ ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ الكسائى ونافع فى رواية ورش وقالون واحدى الروايات عن الاعشى يومئذ بفتح الميم وفى المعارج عذاب يومئذ والباقون بكسر الميم فيهما فمن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف الى اذ وأن اذ مبنى والمضاف الى المبنى يجوز جعله مبنيا ألا ترى ان المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتنكير فكذا ههنا وأما الكسر فى اذ فالسبب أنه يضاف الى الجملة من المبتدا والخبر تقول جئتك اذ الشمس طالعة فلما قطع عنه المضاف اليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسر الذال لسكونها وسكون التنوين وأما القراءة بالكسر فعلى اضافة الخزى الى اليوم ولم يلزم من اضافته الى المبنى أن يكون مبنيا لان هذه الاضافة غير لازمة ﴿المسئلة الثالثة﴾ الخزى الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى فى المحاربين ذلك لهم خزى فى الدنيا وانما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزيا لانه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال ان ربك هو القوى العزيز وانما حسن ذلك لانه تعالى بين أنه أوصل ذلك العذاب الى

كلامه ما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك البتة حسب جريان العادة الالهية وقد أشير الى ذلك فى الاستدراك بأن أسند ما يؤدى الى نقيض التالى اليه حيث قيل (ولكنه أخلد الى الارض) مع أن الاخلاد اليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره اليه الا بخلقه تعالى كأنه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأ لمباشرته لسبب نقيضه فترك فى كل من المقامين ما ذكر فى الآخر تعويلا على اشعار المذكور بالمطوى كما فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للايذان بان الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لا دخل فيه لفعله حقيقة كيف لا وجميع أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وان نقيضه انما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالارادة الذاتية له سبحانه كما قيل فى وجه ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر فى الآية المذكورة وهو السر فى جريان السنة القرآنية على اسناد الخير اليه تعالى واضافة الشر الى الغير كما فى قوله تعالى واذا

الكافر وصان أهل الايمان عنه وهذا التمييز لا يصح الا من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الاشياء فيجعل الشئ الواحد بالنسبة الى انسان بلاء وعذابا و بالنسبة الى انسان آخر راحة وريحانا * ثم انه تعالى بين ذلك الامر فقال وأخذ الذين ظلموا وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ انما قال أخذ ولم يقل أخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث فاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقد سبق لها نظائر ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكروا في الصيحة وجهين قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد الصاعقة (الثاني) الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جاثمين في دورهم ومساكنهم وجثومهم سقوطهم على وجوههم يقال انه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها والصياح لا يكون الا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ فان كان من فعل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وان كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه والدليل عليه ان صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ فان قيل فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت قلنا فيه وجوه (أحدها) أن الصيحة العظيمة انما تحدث عند سبب قوي يوجب تموج الهواء وذلك التموج الشديد ربما يتعدى الى صماخ الانسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت (الثاني) انها شئ مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والاعراض النفسانية اذا قويت أوجبت الموت (الثالث) أن الصيحة العظيمة اذا حدثت من السحاب فلابد وأن يصحبها برق شديد محرق وذلك هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما * ثم قال تعالى فأصبحوا في ديارهم جاثمين والجثوم هو السكون يقال للطير اذا باتت في أوكارها انها جثمت ثم ان العرب أطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله كأن لم يغنوا فيها أي كأنهم لم يوجدوا والمغنى المقام الذي يقيم الحي به يقال غنى الرجل بمكان كذا اذا أقام به * ثم قال تعالى ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود قرأ حمزة وحفص عن عاصم ألا ان ثمود غير منون في كل القرآن وقرأ الباقون ثمودا بالتنوين ولثمود كلاهما بالصرف والصرف للذهاب الى الحي أو الى الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة ۞ قوله تعالى ﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب﴾ اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال النحويون دخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل الى اثباته الا بدليل آخر وأجمعوا على أن الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام ثم اختلفت الروايات فقيل أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة وقال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وهم الذين ذكرهم الله في سورة والذاريات في قوله هل أتاك حديث ضيف ابراهيم وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلفوا في المراد بالبشرى على وجهين (الاول) ان المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب (الثاني) ان المراد منه أنه بشر ابراهيم عليه السلام بسلامة لوط وباهلاك قومه * وأما قوله قالوا سلاما قال سلام ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي قالوا سلم قال سلم بكسر السين وسكون اللام بغير ألف وفي والذريات مثله قال الفراء لا فرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لان في التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه قال أبو علي الفارسي ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قال انا سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من

مرضت فهو يشفين ونظائره والاخلاد الى الشئ الميل اليه مع الاطمئنان به والمراد بالارض الدنيا وقيل السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة (واتبع هواه) معرضا عن تلك الآيات الجليلة فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين والى ذلك أشير بقوله تعالى (فمثله كمثل الكلب) لما انه أخس الحيوانات وأسفلها وقد مثل حاله بأخس أحواله وأذلها حيث قيل (ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أي فحاله التي هي مثل في السوء كصفته في أرذل أحواله وهي حالة دوام اللهث به في حالتي التعب والراحة فكأنه قيل فتردى الى ما لا غاية وراءه في الخسة والدناءة وايثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال فصار مثله كمثل الكلب الخ للايذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استقراره واستمراره عليها والخطاب في فعلي الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فانه أدخل في اشاعة فظاعة حاله واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد أي هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته

تناول

تناول طعام العدو وهذا الوجه عندي بعيد لان على هذا التقدير ينبغي أن يكون تكلم ابراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد احضار الطعام الا أن القرآن يدل على ان هذا الكلام انما وجد قبل احضار الطعام لانه تعالى قال قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ والفاء للتعقيب فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام ﴿المسئلة الثانية﴾ قالوا سلاما تقديره سلمنا عليك سلاما قال سلام تقديره أمري سلام أي لست مريدا غير السلامة والصلح قال الواحدي ويحتمل أن يكون المراد سلام عليكم فجاء به مرفوعا حكاية لقوله كما قال وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله فصبر جميل وانما يحسن هذا الحذف اذا كان المقصود معلوما بعد الحذف وههنا المقصود معلوم فلا جرم حسن الحذف ونظيره قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام على حذف الخبر واعلم أنه انما سلم بعضهم على بعض رعاية للاذن المذكور في قوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴿المسئلة الثالثة﴾ أكثر ما يستعمل سلام عليكم بغير ألف ولام وذلك لانه في معنى الدعاء فهو مثل قولهم خير بين يديك فان قيل كيف جاز جعل النكرة مبتدأ قلنا النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ فاذا قلت سلام عليكم فالتنكير في هذا الموضع يدل على التمام والكمال فكأنه قيل سلام كامل تام عليكم ونظيره قولنا سلام عليك وقوله تعالى قال سلام عليك سأستغفر لك ربي وقوله سلام قولا من رب رحيم سلام على نوح في العالمين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم فاما قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فهذا أيضا جائز والمراد منه الماهية والحقيقة * وأقول قوله سلام عليكم أكمل من قوله السلام عليكم لان التنكير في قوله سلام عليكم يفيد الكمال والمبالغة والتمام وأما لفظ السلام فانه لا يفيد الا الماهية قال الاخفش من العرب من يقول سلام عليكم فيعرى قوله سلام عن الالف واللام والتنوين والسبب في ذلك أن كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف والله أعلم * ثم قال تعالى فما لبث أن جاء بعجل حنيذ قالوا مكث ابراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتم لذلك ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل وجاء بعجل حنيذ فقوله فما لبث أن جاء بعجل حنيذ معناه فما لبث في المجيء به بل عجل فيه أو التقدير فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة أما الحنيذ فهو الذي يشوى في حفرة من الارض بالحجارة المحماة وهو من فعل أهل البادية معروف وهو محنوذ في الاصل كما قيل طبيخ ومطبوخ وقيل الحنيذ الذي يقطر دسمه يقال حنذت الفرس اذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقا ثم قال تعالى فلما رأى أيديهم لا تصل اليه أي الى العجل وقال الفراء الى الطعام وهو ذلك العجل نكرهم أي أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره واعلم أن الاضياف انما امتنعوا من الطعام لانهم ملائكة والملائكة لا يأكلون ولا يشربون وانما أتوه في صورة الاضياف ليكونوا على صفة يحبها وهو كان مشغوفا بالضيافة وأما ابراهيم عليه السلام فنقول اما أن يقال انه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر أو يقال انه كان عالما بأنهم من الملائكة ﴿أما على الاحتمال الاول﴾ فسبب خوفه أمران ﴿أحدهما﴾ انه كان ينزل في طرف من الارض بعيد من الناس فلما امتنعوا من الاكل خاف أن يريدوا به مكروها ﴿وثانيهما﴾ ان من لا يعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان أكل حصل الامن وان لم يأكل حصل الخوف ﴿وأما الاحتمال الثاني﴾ وهو انه عرف أنهم ملائكة الله تعالى فسبب خوفه على هذا التقدير أيضا أمران ﴿أحدهما﴾ انه خاف أن يكون نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه ﴿والثاني﴾ انه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه فان قيل فأي هذين الاحتمالين أقرب وأظهر قلنا أما الذي يقول انه ما عرف أنهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور ﴿أحدها﴾ أنه تسارع الى احضار الطعام ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك ﴿وثانيها﴾ أنه لما رآهم ممتنعين من الاكل خافهم ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الاكل على حصول الشر ﴿وثالثها﴾ انه رآهم في أول الامر في صورة البشر وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة وأما الذي يقول انه عرف ذلك احتج بقوله لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وانما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأي سبب أرسلوا * ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط

على حاله فانه في الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فانها لا تحتاج الى التنفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة الا عند التعب والاعياء والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم في المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه لا محل له من الاعراب على منهاج قوله تعالى خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون اثر قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم وقيل هي في محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجهما من حقيقة الشرط وتحولهما الى معنى التسوية حسب تحول الاستفهام من المتناقضين اليه في مثل قوله تعالى أأنذرتهم أم لم تنذرهم كأنه قيل لاهثا في الحالتين وأيا ما كان فالاظهر أنه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الاحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب وأن هلك ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما ذكر من الحالة الخسيسة منسوبة الى الكلب أو الى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها في

ومعناه أرسلنا بالعذاب الى قوم لوط لانه أضمر لقيام الدليل عليه فى سورة أخرى وهو قوله انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة * ثم قال تعالى وامرأته قائمة يعنى سارة بنت آزر بن باحور ابنت عم ابراهيم عليه السلام وقوله قائمة قيل كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل لانها ربما خافت أيضا وقيل كانت قائمة تخدم الاضياف وابراهيم عليه السلام جالس معهم ويؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وامرأته قائمة وهو قاعد * ثم قال تعالى فضحكت فبشرناها باسحق واختلفوا فى الضحك على قولين منهم من حمله على نفس الضحك ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا فى أنها لم ضحكت وذكروا وجوها (الاول) قال القاضى ان ذلك السبب لابد وأن يكون سببا جرى ذكره فى هذه الآية وماذاك الا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن ابراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه وفى مثل هذه الحالة قد يضحك الانسان وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لابراهيم عليه السلام لا تخف فكان كالبشارة فقيل لها نجعل هذه البشارة بشارتين فكما حصلت البشارة بزوال الخوف فقد حصلت البشارة أيضا بحصول الولد الذى كنتم تطلبونه من أول العمر الى هذا الوقت وهذا تأويل فى غاية الحسن (الثانى) يحتمل أنها كانت عظيمة الانكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث فلما أظهروا انهم جاؤا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكت (الثالث) قال السدى قال ابراهيم عليه السلام لهم ألا تأكلون قالوا لا نأكل طعاما الا بالثمن فقال ثمنه ان تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلا فضحكت امرأته فرحا منها بهذا الكلام (الرابع) ان سارة قالت لابراهيم عليه السلام أرسل الى ابن أخيك وضمه الى نفسك فان الله تعالى لا يترك قومه حتى يعذبهم فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على ابراهيم عليه السلام فلما أخبروه أنهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقا لقولها فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة (الخامس) ان الملائكة لما أخبروا ابراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لا من البشر وانهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب ابراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى فطفر ذلك العجل المشوى من الموضع الذى كان موضوعا فيه الى مرعاه وكانت امرأة ابراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه (السادس) انها ضحكت تعجبا من أن قوما أتاهم العذاب وهم فى غفلة (السابع) لا يبعد أن يقال انهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت اما على سبيل التعجب فانه يقال انها كانت فى ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وابراهيم عليه السلام ابن مائة سنة واما على سبيل السرور ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بان ذلك الولد هو اسحق ومن وراء اسحق يعقوب (الثامن) انها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف ابراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه (التاسع) ان هذا على التقديم والتأخير والتقدير وامرأته قائمة فبشرناها باسحق فضحكت سرورا بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ومعناه التأخير (القول الثانى) هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالا ضحكت أى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت قال أبو بكر الانبارى هذه اللغة ان لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم حكى الليث فى هذه الآية فضحكت طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم أن أصله من ضحاك الطلعة يقال ضحكت الطلعة اذا انشقت واعلم أن هذه الوجوه كلها زوائد وانما الوجه الصحيح هو الاول * ثم قال تعالى ومن وراء اسحق يعقوب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب والباقون بالرفع أما وجه النصب فهو أن يكون التقدير بشرناها باسحق ومن وراء اسحق وهبنا لها يعقوب وأما وجه الرفع فهو أن يكون التقدير ومن وراء اسحق يعقوب مولود أو موجود (المسئلة الثانية) فى لفظ وراء قولان

الخسة والدناءة أى ذلك المثل السيئ (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وهم اليهود حيث أوتوا فى التوراة ما أوتوا من نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز وما فيه فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة (فاقصص القصص) القصص مصدر سمى به المفعول كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى اذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى اليك (لعلهم يتفكرون) فيقفون على جلية الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال ويعلمون أنك قد علمته من جهة الوحى فيزدادون ايقانا بك والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو على أنها مفعول له أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم أى أو رجاء لتفكرهم (ساء مثلا) استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ وساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها ومثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى (القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير الى تقدير مضاف اما اليه وهو الظاهر أى ساء مثلا مثل القوم الخ أو الى التمييز أى ساء أصحاب

(الاول) وهو قول الاكثرين ان معناه بعده أى بعد اسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر (والثانى) ان الوراء ولد الولد عن الشعبى انه قيل له هذا ابنك فقال نعم من الوراء وكان ولد ولده وهذا الوجه عندى شديد التعسف واللفظ كانه ينبو عنه ﴿ قوله تعالى ﴿قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الفراء أصل الويل وى وهو الخزى ويقال وى لفلان أى خزى له فقوله ويلك أى خزى لك وقال سيبويه ويح زجر لمن أشرف على الهلاك وويل لمن وقع فيه قال الخليل ولم أسمع على بنائه الاويح وويس وويك وويه وهذه الكلمات متقاربة فى المعنى وأما قوله ياويلتا فنهم من قال هذه الالف ألف الندبة وقال صاحب الكشاف الالف فى ويلتا مبدلة من ياء الاضافة فى ياويلتى وكذلك فى يالهفا وياعجبا ثم أبدل من الياء والكسرة الالف والفتحة لان الفتح والالف أخف من الياء والكسرة * أما قوله أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو آلد بهمزة ومدة والباقون بهمزتين بلامد ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول انها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر * بيان المقدمة الاولى من ثلاثة أوجه (أولها) قوله تعالى حكاية عنها فى معرض التعجب أألد وأنا عجوز (وثانيها) قوله ان هذا لشئ عجيب (وثالثها) قول الملائكة لها أتعجبين من أمر الله وأما بيان ان التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر فلان هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى وذلك يوجب الكفر (والجواب) انها انما تعجبت بحسب العرف والعادة لابحسب القدرة فان الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبا ابريزا فلاشك انه يتعجب نظرا الى أحوال العادة لالاجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله وهذا بعلى شيخا اعلم أن شيخا منصوب على الحال قال الواحدى رحمه الله وهذا من لطائف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قوله وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة ﴿المسئلة الرابعة﴾ قرأ بعضهم وهذا بعلى شيخ على انه خبر مبتدا محذوف أى هذا بعلى وهو شيخ أو بعلى بدل من المبتدا وشيخ خبر أو يكونان معا خبرين ثم حكى تعالى ان الملائكة قالوا أتعجبين من أمر الله والمعنى انهم تعجبوا من تعجبها ثم قالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت والمقصود من هذا الكلام ذكر مايزيل ذلك التعجب وتقديره ان رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت ان الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى اظهار خوارق العادات واحداث البينات والمعجزات فكيف يليق به التعجب وأما قوله أهل البيت فانه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ثم أكدوا ذلك بقولهم انه حميد مجيد والحميد هو المحمود وهو الذى تحمد أفعاله والمجيد الماجد وهو ذو الشرف والكرم ومن محامد الافعال ايصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ومن أنواع الفضل والكرم ان لايمنع الطالب عن مطلوبه فاذا كان من المعلوم انه تعالى قادر عن الكل وأنه حميد مجيد فكيف يبقى هذا التعجب فى نفس الامر فثبت ان المقصود من ذكر هذه الكلمات ازالة التعجب ﴿ قوله تعالى ﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب﴾ اعلم ان هذا هو القصة الخامسة وهى قصة لوط عليه السلام واعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى انه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجىء البشرى بحصول الولد أخذ يجادلنا فى قوم لوط وجواب لما هو قوله أخذ الا انه حذف فى اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا واعلم أن قوله يجادلنا أى يجادل رسلنا ﴿فان قيل﴾ هذه المجادلة ان كانت مع الله تعالى فهى جراءة على الله والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ولان المقصود من هذه المجادلة ازالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ما كان راضيا بقضاء الله تعالى وانه كفر وان كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهى أيضا عجيبة لان المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا اهلاك قوم لوط

مثل القوم الخ وقرئ ساء مثل القوم واعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال ساء مثلا مثلهم للايذان بأن مدار السوء ما فى حيز الصلة ولربط قوله تعالى (وأنفسهم كانوا يظلمون) به فانه اما معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آيات الله بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها وبين ظلمهم لانفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا بالتكذيب الا أنفسهم فان وباله لايتخطاها وأياما كان ففى يظلمون لمح الى أن تكذيبهم بالآيات متضمن للظلم بها وأن ذلك أيضا معتبر فى القصر المستفاد من تقديم المفعول (من يهد الله فهو المهتدى) لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركوا ما هم عليه من الاخلاد الى الضلالة ويهتدوا الى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وانما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعى الى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى اياه كسائر أفعال العباد فالمراد بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء قطعا لكن لا لان حقيقتها الدلالة الموصلة الى البغية البتة بل لانها الفرد

فان كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون في هذا الاهلاك فهذا سوء ظن بهم وان اعتقد فيهم انهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضي أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر (والجواب) من وجهين (الاول) وهو الجواب الاجمالي أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال ان ابراهيم لحليم أواه منيب ولو كان هذا الجدال من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح العظيم (والوجه الثاني) وهو الجواب التفصيلي أن المراد من هذه المجادلة سعي ابراهيم في تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه (الاول) ان الملائكة قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية فقال ابراهيم أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ثم قال ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك فبان بهذا ان مجادلة ابراهيم عليه السلام انما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم (الثاني) يحتمل أن يقال انه عليه السلام كان يميل الى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الايمان والتوبة عن المعاصي وربما وقعت تلك المجادلات بسبب ان ابراهيم كان يقول ان أمر الله ورد بايصال العذاب ومطلق الامر لا يوجب الفور بل يقبل التراخي فاصبروا مدة أخرى والملائكة كانوا يقولون ان مطلق الامر يقبل الفور وقد حصلت هنالك قرائن دالة على الفور ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب وهذا الوجه عندي هو المعتمد (الوجه الثالث) في الجواب لعل ابراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الامر وكان ذلك الامر مشروطا بشرط فاختلفوا في أن ذلك الشرط هل حصل في ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه وبالجملة نرى العلماء في زماننا يجادل بعضهم بعضا عند التمسك بالنصوص وذلك لا يوجب القدح في واحد منهما فكذا ههنا ثم قال تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فانه يحب من غيره هذه الطريقة وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ثم ضم الى ذلك ما له تعلق بالحلم وهو قوله أواه منيب لان من يستعمل الحلم في غيره فانه يتأوه اذا شاهد وصول الشدائد الى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لاجل اهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ووصفه أيضا بأنه منيب لان من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فانه ينيب ويتوب ويرجع الى الله في ازالة ذلك العذاب عنهم أو يقال ان من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فبأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولا طريق الى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله الا بالتوبة والانابة فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيبا ﴿قوله تعالى ﴿يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب﴾ اعلم أن قوله يا ابراهيم أعرض عن هذا معناه ان الملائكة قالوا له اترك هذه المجادلة لانه قد جاء أمر ربك بايصال هذا العذاب اليهم واذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل الى دفعه فلذلك أمروه بترك المجادلة ولما ذكروا أنه قد جاء أمر ربك ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على أن هذا الامر بماذا جاء لا جرم بين الله تعالى أنهم آتيهم عذاب غير مردود أي عذاب لا سبيل الى دفعه ورده ثم قال ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا ابراهيم بالولد عليهم السلام قال ابن عباس رضي الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه (الاول) انه ظن انهم من الانس فخاف عليهم خبث قومه وان يعجزوا عن مقاومتهم (الثاني) ساءه مجيئهم لانه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان

الكامل من حقيقة الهداية التي هي الدلالة الى ما يوصل الى البغية أي ما من شأنه الايصال اليها كما سبق تحقيقه في تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وليس المراد مجرد الاخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الافادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه على انه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقتضي به تعريف الخبر فالمعنى من يهد الله أي يخلق فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدي لا غير كائنا من كان (ومن يضلل) بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختياره نحوها (فأولئك) الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور (هم الخاسرون) أي الكاملون في الخسران لا غير وافراد المهتدي نظرا الى لفظ من وجمع الخاسرين نظرا الى معناها للايذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال (ولقد ذرأنا) كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله بطريق التذييل أي خلقنا (لجهنم) أي لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى (كثيرا) أي خلقا كثيرا مع كونه مفعولا به لما في

قادرا

قادرا على القيام بحق ضيافتهم (والثالث) ساءه ذلك لان قومه منعوه من ادخال الضيف داره (الرابع) ساءه مجيئهم لانه عرف بالحزر انهم ملائكة وأنهم انما جاؤا لاهلاك قومه والوجه الاول هو الاصح لدلالة قوله تعالى وجاءه قومه يهرعون اليه عليه * وبقى فى الآية ألفاظ ثلاثة لابد من تفسيرها (اللفظ الاول) قوله سيء بهم ومعناه ساءه مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسيء مثل شغلته فشغل وسررته فسر قال الزجاج أصله سوئ بهم الا أن الواو سكنت ونقلت كسرتها الى السين (واللفظ الثانى) قوله وضاق بهم ذرعا قال الازهرى الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوته فاذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة على قدر الوسع والطاقة فيقال مالى به ذرع ولا ذراع أى مالى به طاقة والدليل على صحة ما قلناه انهم يجعلون الذراع فى موضع الذرع فيقولون ضقت بالامر ذراعا (واللفظ الثالث) قوله هذا يوم عصيب أى يوم شديد وانما قيل للشديد عصيب لانه يعصب الانسان بالشر ﴿ قوله تعالى ﴿وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيآت قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوها ولا أنظف ثيابا ولا أطيب رائحة منهم فجاءه قومه يهرعون اليه أى يسرعون وبين تعالى أن اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله ومن قبل كانوا يعملون السيآت نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذى كان فيه جبريل عليه السلام فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه فمسح أعينهم بيده فعموا فقالوا يالوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة ولاهل اللغة فى يهرعون قولان (الاول) ان هذا من باب ما جاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو أولع فلان فى الامر وأرعد زيد وزهى عمرو من الزهو (والقول الثانى) انه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول وهذه الافعال حذف فاعلوها فتأويل أولع زيد انه أولعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهيا وأهرع معناه أهرعه خوفه أو حرصه واختلفوا أيضا فقال بعضهم الاهراع هو الاسراع مع الرعدة وقال آخرون هو العدو الشديد أما قوله تعالى قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ففيه قولان قال قتادة المراد بناته لصلبه وقال مجاهد وسعيد بن جبير المراد نساء أمته لانهن فى أنفسهن بنات وله فى اضافتهن اليه بالمتابعة وقبول الدعوة قال أهل النحو يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب لانه كان نبيا لهم فكان كالاب لهم قال تعالى وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وهذا القول عندى هو المختار ويدل عليه وجوه (الاول) ان اقدام الانسان على عرض بناته على الاوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروأة فكيف بأكابر الانبياء (الثانى) وهو أنه قال هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فبناته اللواتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل (الثالث) انه صحت الرواية انه كان له بنتان وهما زنتا وزعورا واطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت ان أقل الجمع ثلاثة فأما القائلون بالقول الاول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم الى الزنا بالنسوان بل المراد انه دعاهم الى التزوج بهن وفيه قولان (أحدهما) انه دعاهم الى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الايمان (والثانى) انه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته وهكذا كان فى أول الاسلام بدليل أن عليا عليه السلام زوج ابنته زينب من أبى العاص بن الربيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبى لهب ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن وبقوله ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا واختلفوا أيضا فقال الاكثرون كان له بنتان وعلى هذا التقدير ذكر الاثنين بلفظ الجمع كما فى قوله فان كان له اخوة فقد صغت قلوبكما وقيل انهن كن أكثر من اثنتين * أما قوله تعالى هن أطهر لكم ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ ظاهر قوله هن أطهر لكم يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم أنه فاسد ولانه لا طهارة فى نكاح الرجل بل

توابعه من نوع طول يؤدى توسيطه بينهما وتأخيره عنها الى الاخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى (من الجن والانس) متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أى كائنا منهما وتقديم الجن لانهم أعرق من الانس فى الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددا وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدى الى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيا بها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيا بها كما نطق به قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى (لهم قلوب) فى محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا وقوله تعالى (لا يفقهون بها) فى محل الرفع على انه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها وابهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكمالها بالكلية لكن لا بحسب الفطرة حقيقة بل بسبب اتباعهم عن صرفها الى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الاغراق فى

هذا جار مجرى قولنا الله أكبر والمراد أنه كبير ولقوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ولا خير فيها ولما قال أبو سفيان اعل أحد اعل هبل قال النبي الله أعلى وأجل ولا مقاربة بين الله وبين الصنم ﴿المسألة الثانية﴾ روي عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا هن أطهر لكم بالنصب على الحال كما ذكرنا في قوله تعالى وهذا بعلي شيخا الا أن أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لو قرئ هؤلاء بناتي هن أطهر كان هذا نظير قوله وهذا بعلي شيخا الا أن كلمة هن قد وقعت في البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالا وطولوا فيه ﴿ثم قال فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قرأ أبو عمرو ونافع ولا تخزوني باثبات الياء على الاصل والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه ﴿المسألة الثانية﴾ في لفظ لا تخزوني وجهان (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تفضحوني في أضيافي يريد أنهم اذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة (والثاني) لا تخزوني في ضيفي أي لا تخجلوني فيهم لأن مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل الى الضيف يقال خزي الرجل اذا استحيا ﴿المسألة الثالثة﴾ الضيف ههنا قائم مقام الاضياف كما قام الطفل مقام الاطفال في قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا ويجوز أن يكون الضيف مصدرا فيستغني عن جمعه كما يقال رجال صوم ثم قال أليس منكم رجل رشيد وفيه قولان ﴿الاول﴾ رشيد بمعنى مرشد أي يقول الحق ويرد هؤلاء الاوباش عن أضيافي (والثاني) رشيد بمعنى مرشد والمعنى أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى الى الصلاح وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح والاول أولى ﴿ثم قال تعالى قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وفيه وجوه (الاول) ما لنا في بناتك من حاجة ولا شهوة والتقدير أن من احتاج الى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق فلهذا السبب جعل نفي الحق كناية عن نفي الحاجة (الثاني) أن نجري اللفظ على ظاهره فنقول معناه انهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن البتة ولا يميل أيضا طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذي نريده وهو اشارة الى العمل الخبيث (الثالث) ما لنا في بناتك من حق لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لا نجيبك الى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق ﴿ثم انه تعالى حكى عن لوط انه عند سماع هذا الكلام قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد وفيه مسألتان ﴿المسألة الاولى﴾ جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لمنعتكم ولبالغت في دفعكم ونظيره قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وقوله ولو ترى اذ وقفوا على النار قال الواحدي وحذف الجواب ههنا لان الوهم يذهب الى أنواع كثيرة من المنع والدفع ﴿المسألة الثانية﴾ لو أن لي بكم قوة أي لو أن لي ما أتقوى به عليكم وتسميته موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل والمراد السلاح وقال آخرون القدرة على دفعهم وقوله أو آوي الى ركن شديد المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيها له بالركن الشديد من الجبل ﴿فان قيل ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم ﴿قلنا قال صاحب الكشاف قرئ أو آوي بالنصب باضمار أن كأنه قيل لو أن لي بكم قوة أو أويا ﴿واعلم أن قوله لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة وفيه وجوه (الاول) المراد بقوله لو أن لي بكم قوة كونه بنفسه قادرا على الدفع وكونه متمكنا اما بنفسه واما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم والمراد بقوله أو آوي الى ركن شديد هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته (الثالث) انه لما شاهد سفاهة القوم واقدامهم على سوء الادب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ثم استدرك على نفسه وقال بل الاولى أن آوي الى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى وعلى هذا التقدير فقوله أو آوي الى ركن شديد كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام رحم الله أخي لوطا كان يأوي الى ركن شديد ﴿ قوله تعالى ﴿قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ اعلم أن قوله تعالى مخبرا عن لوط عليه السلام

انه

في القساوة فانها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها غير قابلة له رأسا وكذا الحال في أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أي لهم قلوب ليس من شأنها ان يفقهوا بها شيأ مما من شأنه ان يفقه فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالافصاح عن كنه حالهم (ولهم أعين لا يبصرون بها) الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالابصار والسمع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الادراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الاحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الانعام أي لا يبصرون بها شيأ من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا (ولهم آذان لا يسمعون بها) أي شيأ من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا واعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بان يقال وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفي اثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بان يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ما لا يخفى (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما

أنه قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب اقدام أولئك الاوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات (أحدها) انهم رسل الله (وثانيها) أن الكفار لا يصلون الى ما هموا به (وثالثها) أنه تعالى يهلكهم (ورابعها) انه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب (وخامسها) ان ركنك شديد وان ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات وروى ان جبريل عليه السلام قال له ان قومك لن يصلوا اليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم وذلك قوله تعالى ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ومعنى قوله لن يصلوا اليك أي بسوء ومكروه فانا نحول بينهم وبين ذلك ثم قال فأسر بأهلك قرأ نافع وابن كثير فاسر موصولة والباقون بقطع الالف وهما لغتان يقال سريت بالليل وأسريت وأنشد حسان رضي الله تعالى عنه * أسرت اليك ولم تكن تسرى * فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الالف فحجته قوله سبحانه وتعالى سبحان الذي أسرى بعبده ومن وصل فحجته قوله والليل اذا يسر والسرى السير في الليل يقال سرى يسرى اذا سار بالليل وأسرى بفلان اذا سير به بالليل والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة يريد اخرجوا ليلا لتسبقوا نزول العذاب الذي موعده الصبح قال نافع بن الازرق لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما أخبرني عن قول الله بقطع من الليل قال هو آخر الليل سحر وقال قتادة بعد طائفة من الليل وقال آخرون هو نصف الليل فانه في ذلك الوقت قطع بنصفين * ثم قال ولا يلتفت منكم أحد نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الانسان الى ما وراءه والظاهر ان المراد انه كان لهم في البلدة أموال وأقمشة وأصدقاء فالملائكة أمروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الاشياء ولا يلتفتوا اليها البتة وكأن المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الاشياء وقد يراد منه الانصراف أيضا كقوله تعالى قالوا أجئتنا لتلفتنا أي لتصرفنا وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله ولا يلتفت منكم أحد النهي عن التخلف * ثم قال الا امرأتك قرأ ابن كثير وأبو عمرو الا امرأتك بالرفع والباقون بالنصب قال الواحدي من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الاهل على معنى فأسر بأهلك الا امرأتك والذي يشهد بصحة هذه القراءة ان في قراءة عبد الله فأسر بأهلك الا امرأتك فأسقط قوله ولا يلتفت منكم أحد من هذا الموضع وأما الذين رفعوا فالتقدير ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك فان قيل فهذه القراءة توجب انها أمرت بالالتفات لان القائل اذا قال لا يقم منكم أحد الا زيد كان ذلك أمرا لزيد بالقيام وأجاب أبو بكر الانباري عنه فقال معنى الا ههنا الاستثناء المنقطع على معنى لا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم واذا كان هذا الاستثناء منقطعا كان التفاتها معصية ويتأكد ما ذكرنا بما روى عن قتادة أنه قال انها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأصابها حجر فأهلكها واعلم أن القراءة بالرفع أقوى لان القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الاهل كأنه أمر لوطا بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فانها هالكة مع الهالكين وأما القراءة بالنصب فانها أقوى من وجه آخر وذلك لان مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلا ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعا * ثم بين الله تعالى أنهم قالوا انه مصيبها ما أصابهم والمراد انه مصيبها ذلك العذاب الذي أصابهم ثم قالوا ان موعدهم الصبح روى انهم لما قالوا للوط عليه السلام ان موعدهم الصبح قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا أليس الصبح بقريب قال المفسرون ان لوطا عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل ﴿قوله تعالى﴾ ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في الامر وجهان (الاول) أن المراد من هذا الامر ما هو ضد النهي ويدل عليه وجوه (الاول) ان لفظ الامر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعا للاشتراك (الثاني) ان الامر لا يمكن حمله ههنا على العذاب وذلك لانه تعالى قال فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وهذا الجعل هو العذاب فدلت هذه

ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الضلال أي أولئك الموصوفون بالاوصاف المذكورة (كالانعام) أي في انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو في ان مشاعرهم متوجهة الى أسباب التعيش مقصورة عليها (بل هم أضل) فانها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد في جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الامر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لانها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفي الخبر كل شئ أطوع لله من ابن آدم (أولئك) المنعوتون بما مر من مثلية الانعام والشرية منها (هم الغافلون) الكاملون في الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم كيف لا وانهم لا يعرفون من شؤن الله عز وجل ولا من شؤن ما سواه شيأ فيشركون به سبحانه وليس كمثله شئ وهو السميع البصير أصنامهم التي هي من أخس مخلوقاته تعالى (ولله الاسماء الحسنى) تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه رعما يليق به من الامور وبما لا يليق به اثر بيان

الآية على ان هذا الامر شرط والعذاب جزاء والشرط غير الجزاء فهذا الامر غير العذاب وكل من قال بذلك قال انه هو الامر الذى هو ضد النهى (والثالث) انه تعالى قال قبل هذه الآية انا أرسلنا الى قوم لوط فدل هذا على انهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب الى قوم لوط وبايصال هذا العذاب اليهم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى أمر جمعا من الملائكة بان يخربوا تلك المدائن فى وقت معين فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل فكان قوله فلما جاء أمرنا اشارة الى ذلك التكليف فان قيل لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها لان الفعل صدر عن ذلك المأمور قلنا هذا لا يلزم على مذهبنا لان فعل العبد فعل الله تعالى عندنا وأيضا ان الذى وقع منهم انما وقع بامر الله تعالى وبقدرته فلم يبعد اضافته الى الله عز وجل لان الفعل كما تحسن اضافته الى المباشر فقد تحسن أيضا اضافته الى السبب (القول الثانى) أن يكون المراد من الامر ههنا قوله تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وقد تقدم تفسير ذلك الامر (القول الثالث) أن يكون المراد من الامر العذاب وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار والمعنى ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى فى هذه الآية بنوعين من الوصف ﴿فالاول﴾ قوله جعلنا عاليها سافلها روى ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الارض واعلم ان هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين (أحدهما) ان قلع الارض واصعادها الى قريب من السماء فعل خارق للعادات (والثانى) ان ضربها من ذلك البعد البعيد على الارض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ولم تصل الآفة الى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم مع ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا ﴿الثانى﴾ قوله وأمطرنا عليها حجارة من سجيل واختلفوا فى السجيل على وجوه (الاول) انه فارسى معرب وأصله سنك كل وانه شئ مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون فى غاية الصلابة قال الازهرى لما عربته العرب صار عربيا وقد عربت حروفا كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق (والثانى) سجيل أى مثل السجل وهو الدلو العظيم (والثالث) سجيل أى شديد من الحجارة (الرابع) مرسلة عليهم من أسجلته اذا أرسلته وهو فعيل منه (الخامس) من أسجلته أى أعطيته تقديره مثل العطية فى الادرار وقيل كان كتب عليها أسامى المعذبين (السادس) وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب فى الازل أى كتب الله أن يعذبهم بها والسجل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لانه يتضمن أحكاما كثيرة وقيل مأخوذ من المساجلة وهى المفاخرة (والسابع) من سجين أى من جهنم أبدلت النون لاما (والثامن) من السماء الدنيا وتسمى سجيلا عن أبى زيد (والتاسع) السجيل الطين لقوله تعالى حجارة من طين وهو قول عكرمة وقتادة قال الحسن كان أصل الحجر هو من الطين الا انه صلب بمرور الزمان (والعاشر) سجيل موضع الحجارة وهى جبال مخصوصة ومنه قوله تعالى من جبال فيها من برد* واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات ﴿فالصفة الاولى﴾ كونها من سجيل وقد سبق ذكره ﴿الثانية﴾ قوله تعالى منضود قال الواحدى هو مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه على بعض وفيه وجوه (الاول) ان تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فأتى به على سبيل المبالغة (والثانى) ان كل حجر فان ما فيه من الاجزاء منضود بعضها ببعض وملتصق بعضها ببعض (والثالث) انه تعالى كان قد خلقها فى معادنها ونضد بعضها فوق بعض وأعدها لاهلاك الظلمة واعلم أنه قوله منضود صفة للسجيل ﴿الصفة الثالثة﴾ مسومة وهذه الصفة صفة للاحجار ومعناها المعلمة وقد مضى الكلام فيه فى تفسير قوله والخيل المسومة واختلفوا فى كيفية تلك العلامة على وجوه (الاول) قال الحسن والسدى كان عليها أمثال الخواتيم (الثانى) قال ابن صالح رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع (الثالث) قال ابن جريج كان عليها سيما لا تشارك حجارة الارض وتدل على انه تعالى انما خلقها للعذاب (الرابع) قال الربيع مكتوب على كل حجر اسم من رمى به ثم قال تعالى عند ربك أى فى

غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة والحسنى تأنيث الاحسن أى الاسماء التى هى أحسن الاسماء وأجلها لانبائها عن أحسن المعانى وأشرفها (فادعوه بها) أى فسموه بتلك الاسماء (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) الالحاد واللحد الميل والانحراف يقال لحد وألحد اذا مال عن القصد وقرئ يلحدون من الثلاثى أى يميلون فى شأنها عن الحق الى الباطل اما بأن يسموه تعالى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كما فى قول أهل البدو يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخى ونحو ذلك فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الاضمار بان يقال يلحدون فيها واما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما نعرف سوى رحمان اليمامة فالمراد بالترك الاجتناب أيضا وبالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه الحسنى واجتنبوا اخراج بعضها من البين واما بان يطلقوها على غيره تعالى كما سموا أصنامهم آلهة واما بأن يشتقوا من بعضها أسماء أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز فالمراد بالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة كما فى الوجه الثانى والاظهار فى موقع الاضمار مع

خزائنه

خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد الا هو ثم قال وما هي من الظالمين ببعيد يعني به كفار مكة والمقصود انه تعالى يرميهم بها عن أنس أنه قال سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال يعني عن ظالمي أمتك ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير في قوله وما هي للقرى أي وما تلك القرى التي وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد وذلك لان تلك القرى كانت في الشأم وهي قريب من مكة ﴿قوله تعالى ﴿والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان اني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾ اعلم ان هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة واعلم ان مدين اسم ابن لابراهيم عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة وكثير من المفسرين يذهب الى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم عليه السلام والمعنى على هذا التقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف الاهل واعلم انا بينا ان الانبياء عليهم السلام يشرعون في أول الامر بالدعوة الى التوحيد فلهذا قال شعيب عليه السلام ما لكم من اله غيره ثم انهم بعد الدعوة الى التوحيد يشرعون في الاهم ثم الاهم ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان دعاهم الى ترك هذه العادة فقال ولا تنقصوا المكيال والميزان والنقص فيه على وجهين (أحدهما) أن يكون الايفاء من قبلهم فينقصون من قدره (والآخر) أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير وفي القسمين حصل النقصان في حق الغير ثم قال اني أراكم بخير وفيه وجهان (الاول) انه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة ان لم يتوبوا فكأنه قال اتركوا هذا التطفيف والا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة (والثاني) أن يكون التقدير انه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم الى هذا التطفيف ثم قال واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط وفيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أخاف أي أعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون بل المراد هو الخوف لانه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائما فالحاصل هو الظن لا العلم ﴿البحث الثاني﴾ انه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد والمحيط من صفة اليوم في الظاهر وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب ﴿البحث الثالث﴾ اختلفوا في المراد بهذا العذاب فقال بعضهم هو عذاب يوم القيامة لانه اليوم الذي نصب لاحاطة العذاب بالمعذبين وقال بعضهم بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة وقال بعضهم بل المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا كما في حق سائر الانبياء والاقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة في الوعيد كقوله وأحيط بثمره ثم قال ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴿فان قيل﴾ وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه لانه قال أولا ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرير ﴿قلنا﴾ ان فيه وجوها (الاول) ان القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتيج في المنع منه الى المبالغة والتأكيد والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام (والثاني) ان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهي عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل والنهي عن ضد الشئ مغاير للامر به وليس لقائل أن يقول النهي عن ضد الشئ أمر به فكان التكرير لازما من هذا الوجه لانا نقول الجواب من وجهين (الاول) انه تعالى جمع بين الامر بالشئ وبين النهي عن ضده للمبالغة كما تقول صل قرابتك ولا تقطعهم فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد (الثاني) أن نقول لا نسلم ان الامر كما ذكرتم لانه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضا عن أصل المعاملة فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بايفاء الحق ليدل ذلك على انه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات وانما منع من التطفيف وذلك لان طائفة من الناس يقولون ان المبايعات لا تنفك عن

التجريد عن الوصف في الكل للايذان بان الحادهم في نفس الاسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك اذ لا يتوهم صدور مثل هذا الالحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الاعراض عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر من قوله تعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) فانه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بعدم المبالاة والاعراض عن المجازاة كانه قيل لم لا نبالي بالحادهم ولا نتصدى لمجازاتهم فقيل لانه سينزل بهم عقوبته وتتشفون بذلك عن قريب وأما على الوجهين الاولين فالمعنى اجتنبوا الحادهم كي لا يصيبكم ما أصابهم فانه سينزل بهم عقوبة الحادهم (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) بيان اجمالي لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والالحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ اما باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما بعده خبره كما مر في تفسير قوله تعالى ومن الناس الخ أي وبعض من خلقنا أو وبعض ممن خلقنا أمة أي طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها وعن النبي صلى

التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية فلاجل ابطال هذا الخيال منع تعالى فى الآية الاولى من التطفيف وفى الآية الاخرى أمر بالايفاء وأما قوله ثالثا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير لانه تعالى خص المنع فى الآية السابقة بالنقصان فى المكيال والميزان ثم انه تعالى عمم الحكم فى جميع الاشياء فظهر بهذا البيان انها غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة (والوجه الثالث) انه تعالى قال فى الآية الاولى ولا تنقصوا المكيال والميزان وفى الثانية قال أوفوا المكيال والميزان والايفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام ولا يحصل ذلك الا اذا أعطى قدرا زائدا على الحق ولهذا المعنى قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من أجزاء الرأس فالحاصل انه تعالى فى الآية الاولى نهى عن النقصان وفى الآية الثانية أمر باعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكانه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانية أمر بالسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله بالقسط يعنى بالعدل ومعناه الامر بايفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالامر بايتاء الزيادة على ذلك غير حاصل ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم والبخس هو النقص فى كل الاشياء وقد ذكرنا ان الآية الاولى دلت على المنع من النقص فى المكيال والميزان وهذه الآية دلت على المنع من النقص فى كل الاشياء ثم قال ولا تعثوا فى الارض مفسدين * فان قيل العثو الفساد التام فقوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين جار مجرى أن يقال ولا تفسدوا فى الارض مفسدين * قلنا فيه وجوه (الاول) أن من سعى فى ايصال الضرر الى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعى الى ايصال الضرر اليه فقوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين معناه ولا تسعوا فى افساد مصالح الغير فان ذلك فى الحقيقة سعى منكم فى افساد مصالح أنفسكم (والثانى) أن يكون المراد من قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين مصالح دنياكم وآخرتكم (والثالث) ولا تعثوا فى الارض مفسدين مصالح الاديان ثم قال بقية الله خير لكم قرئ تقية الله وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى ثم نقول المعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعنى المال الحلال الذى يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن بقية الله أى طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل لان ثواب الطاعة يبقى أبدا وقال قتادة حظكم من ربكم خير لكم وأقول المراد من هذه البقية اما المال الذى يبقى عليه فى الدنيا واما ثواب الله واما كونه تعالى راضيا عنه والكل خير من قدر التطفيف أما المال الباقى فلان الناس اذا عرفوا انسانا بالصدق والامانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا فى كل المعاملات اليه فيفتح عليه باب الرزق واذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه البتة فتضيق أبواب الرزق عليه وأما ان حملنا هذه البقية على الثواب فالامر ظاهر لان كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق وأما ان حملناه على حصول رضا الله تعالى فالامر فيه ظاهر فثبت بهذا البرهان ان بقية الله خير ثم قال ان كنتم مؤمنين وانما شرط الايمان فى كونه خيرا لهم لانهم ان كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا ان السعى فى تحصيل الثواب وفى الحذر من العقاب خير لهم من السعى فى تحصيل ذلك القليل واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فهذه الآية تدل بظاهرها على ان من لم يحترز عن هذا التطفيف فانه لا يكون مؤمنا * ثم قال تعالى وما أنا عليكم بحفيظ وفيه وجهان (الاول) أن يكون المعنى انى نصحتكم وارشدتكم الى الخير وما أنا عليكم بحفيظ أى لا قدرة لى على منعكم عن هذا العمل القبيح (الثانى) انه قد أشار فيما تقدم الى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال وما أنا عليكم بحفيظ يعنى لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وأنا لا أقدر على حفظها عليكم فى تلك الحالة * قوله تعالى ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم أصلاتك بغير واو

الله عليه وسلم أنه كان يقول اذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية وعنه عليه الصلاة والسلام ان من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى وروى لا تزال من أمتى طائفة على الحق الى أن يأتى أمر الله وروى لا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون وفيه من الدلالة على صحة الاجماع ما لا يخفى والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للايذان بان اهتداءهم فى أنفسهم أمر محقق غنى عن التصريح به (والذين كذبوا بآياتنا) شروع فى تحقيق الحق الذى به يهدى الهادون وبه يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده من الجملة الاستقبالية واضافة الآيات الى نون العظمة لتشريفها واستعظام الاقدام على تكذيبها أى والذين كذبوا بآياتنا التى هى معيار الحق ومصداق الصدق والعدل (سنستدرجهم) أى سنستدنيهم البتة الى الهلاك شيأ فشيأ والاستدراج استفعال من درج اما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل نقل تدريجى سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة واما بمعنى مشى مشيا ضعيفا واما بمعنى طوى والاول هو الانسب

والباقون أصلواتك على الجمع (المسئلة الثانية) اعلم ان شعيبا عليه السلام أمرهم بشيئين بالتوحيد وترك البخس فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة فقوله أن نترك ما يعبد آباؤنا اشارة الى انه أمرهم بالتوحيد وقوله أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء اشارة الى أنه أمرهم بترك البخس أما الاول فقد أشاروا فيه الى التمسك بطريقة التقليد لانهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم يعنى الطريقة التى أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف نتركها وذلك تمسك بمحض التقليد (المسئلة الثالثة) فى لفظ الصلاة ههنا قولان (الاول) المراد منه الدين والايمان لان الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين أو نقول الصلاة أصلها من الاتباع ومنه أخذ المصلى من الخيل الذى يتلو السابق لان رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين والمراد دينك يأمرك بذلك (والثانى) ان المراد منه هذه الاعمال المخصوصة روى أن شعيبا كان كثير الصلاة وكان قومه اذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزؤ وكما أنك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا ✽ فان قيل تقدير الآية أصلواتك تأمرك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء وهم انما ذكروا هذا الكلام على سبيل الانكار وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين فى أموالهم ما يشاؤن فكيف وجه التأويل ✽ قلنا فيه وجهان (الاول) التقدير أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نترك فعل ما نشاء وعلى هذا فقوله أو أن نفعل معطوف على ما فى قوله ما يعبد آباؤنا (والثانى) أن تجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير أصلواتك تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان وتنهاك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء وقرأ ابن أبى عبلة أو أن تفعل فى أموالنا ما تشاء بتاء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير ✽ ثم قال تعالى حكاية عنهم انك لانت الحليم الرشيد وفيه وجوه (الاول) أن يكون المعنى انك لانت السفيه الجاهل الا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك (والثانى) أن يكون المراد انك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد (والوجه الثالث) انه عليه السلام كان مشهورا عندهم بأنه حليم رشيد فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد المعروف الطريقة فى هذا الباب فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفا بالحلم والرشد وهذا الوجه أصوب الوجوه ﴿ قوله تعالى ﴿قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره فى الجواب عن كلماتهم (فالاول) قوله أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وفيه وجوه (الاول) ان قوله ان كنت على بينة من ربى اشارة الى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا اشارة الى ما آتاه الله من المال الحلال فانه يروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير المال واعلم أن جواب ان الشرطية محذوف والتقدير انه تعالى لما آتانى جميع السعادات الروحانية وهى البينة والسعادات الجسمانية وهى المال والرزق الحسن فهل يسعنى مع هذا الانعام العظيم أن أخون فى وحيه وان أخالفه فى أمره ونهيه وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لانهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال انما أقدمت على هذا العمل لان نعم الله تعالى عندى كثيرة وهو أمرنى بهذا التبليغ والرسالة فكيف يليق بى مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمره وتكليفه (الثانى) أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندى أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر ثم أنا رجل أريد اصلاح أحوالكم ولا أحتاج الى أموالكم

بالمعنى المراد الذى هو النقل الى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ثم استعير لطلب كل نقل تدريجى من حال الى حال من الاحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق فى مراقى منافعه مع أنه فى الحقيقة تردٍ فى مهاوى مصارعه فاستدراجه سبحانه اياهم أن يواتر عليهم النعم مع انهماكهم فى الغى فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطرا وطغيانا لكن لا على أن المطلوب تدرجهم فى مراتب النعم بل هو تدرجهم فى مدارج المعاصى الى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعها والاول وسيلة اليه وقوله تعالى (من حيث لا يعلمون) متعلق بنستدرجهم وقع صفة لمصدر الفعل المذكور أى سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثرة من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لا يعلمون ما يراد بهم (وأملى لهم) عطف على سنستدرجهم غير داخل فى حكم السين لما أن الاملاء الذى هو عبارة عن الامهال والاطالة ليس من الامور التدريجية كالاستدراج الحاصل فى نفسه شيأ فشيأ بل هو فعل يحصل دفعة وانما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه

لاجل ان الله تعالى آتانى رزقا حسنا فهل يسعنى مع هذه الاحوال أن أخون فى وحى الله تعالى وفى حكمه (الثالث) قوله ان كنت على بينة من ربى أى ما حصل عنده من المعجزة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا المراد انه لا يسألهم أجرا ولا جعلا وهو الذى ذكره سائر الانبياء من قولهم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على رب العالمين (المسئلة الثانية) قوله ورزقنى منه رزقا حسنا يدل على أن ذلك الرزق انما حصل من عند الله تعالى وباعانته وانه لا مدخل للكسب فيه وفيه تنبيه على أن الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى واذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالى بمخالفتكم ولا أفرح بموافقتكم وانما أكون على تقرير دين الله تعالى وايضاح شرائع الله تعالى (وأما الوجه الثانى من الاجوبة التى ذكرها شعيب عليه السلام) فقوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد أنه قد ذهب اليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه يعنى أن أسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا أن الذى اختاره عقلى لنفسى لا بد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة الى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما الى جزأين التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما فى شئ من الاحوال البتة فلما اعترفتم لى بالحلم والرشد وترون انى لا أترك هذه الطريقة فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرف الاديان والشرائع (وأما الوجه الثالث من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام) فهو قوله ان أريد الا الاصلاح ما استطعت والمعنى ما أريد الا ان أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وقوله ما استطعت فيه وجوه (الاول) أنه ظرف والتقدير مدة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه لا آلو فيه جهدا (والثانى) أنه بدل من الاصلاح أى المقدار الذى استطعت منه (والثالث) أن يكون مفعولا له أى ما أريد الا أن أصلح ما استطعت اصلاحه واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بانه حليم رشيد وانما أقروا له بذلك لانه كان مشهورا فيما بين الخلق بهذه الصفة فكأنه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالى أنى لا أسعى الا فى الاصلاح وازالة الفساد والخصومة فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايذاء الناس فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضى منه ايقاع الخصومة واثارة الفتنة فانكم تعرفون أنى أبغض ذلك الطريق ولا أدور الا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتى وذلك هو الابلاغ والانذار وأما الاجبار على الطاعة فلا أقدر عليه ثم انه عليه الصلاة والسلام أكد ذلك بقوله وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وبين بهذا أن توكله واعتماده فى تنفيذ كل الاعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته واعلم أن قوله عليه الصلاة والسلام عليه توكلت اشارة الى محض التوحيد لان قوله عليه الصلاة والسلام عليه توكلت يفيد الحصر وهو أنه لا ينبغى للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وكيف وكل ما سوى الحق سبحانه ممكن لذاته فان بذاته ولا يحصل الا بايجاده وتكوينه واذا كان كذلك لم يجز التوكل الا على الله تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدا هو الذى ذكرناه وأما قوله واليه أنيب فهو اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه أنيب يدل على أنه لا مرجع للخلق الا الى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيب عليه السلام قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته فى كلامه بين قومه (وأما الوجه الرابع من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام) فهو قوله وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم قال صاحب الكشاف جرم مثل كسب فى تعديته تارة الى مفعول واحد وأخرى الى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم أى لا يكسبنكم شقاقى اصابة العذاب وقرأ ابن كثير يجرمنكم بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارما له

على تجديد القصد والعزيمة وأما أن ذلك للاشعار بأنه بمحض التقدير الالهى والاستدراج بتوسط المدبرات فبناء دلالة نون العظمة على الشركة وأنى ذلك والا لاحترز عن ايرادها فى قوله تعالى لا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم الآية بل انما ايرادها فى أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء (ان كيدى متين) تقرير للوعيد وتأكيد له أى قوى لا يدافع بقوة ولا بحيلة والمراد به اما الاستدراج والاملاء مع نتيجتهما التى هى الاخذ الشديد على غرة فتسميته كيدا لما أن ظاهره لطف وباطنه قهر واما نفس ذلك الاخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك وأما أن حقيقة الكيد هو الاخذ على خفاء من غير أن يعتبر فيه اظهار خلاف ما أبطنه فمما لا تعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) كلام مبتدأ مسوق لانكار عدم تفكرهم فى شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للايمان به وبما أنزل عليه من الآيات التى كذبوا بها والهمزة للانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه وما اما استفهامية انكارية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم

اى

أى كاسباله وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه والقراءتان مستويتان فى المعنى لا تفاوت بينهما الا أن المشهورة أفصح لفظا كما أن كسبه مالا أفصح من أكسبه اذا عرفت هذا فنقول المراد من الآية لا تكسبنكم معاداتكم اياى أن يصيبكم عذاب الاستئصال فى الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة ولقوم لوط من الخسف وأما قوله وما قوم لوط منكم ببعيد ففيه وجهان (الاول) أن المراد نفى البعد فى المكان لان بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين (والثانى) أن المراد نفى البعد فى الزمان لان اهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب عليه السلام وعلى هذين التقديرين فان القرب فى المكان وفى الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل لم قال وما قوم لوط منكم ببعيد وكان الواجب أن يقال ببعيدين أجاب عنه صاحب الكشاف من وجهين (الاول) أن يكون التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد (الثانى) أنه يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما (وأما الوجه الخامس من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام) فهو قوله واستغفروا ربكم عن عبادة الاوثان ثم توبوا اليه عن البخس والنقصان ان ربى رحيم بأوليائه ودود قال أبو بكر الانبارى الودود فى أسماء الله تعالى المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده وقال الازهرى فى كتاب شرح أسماء الله تعالى ويجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة افضاله واحسانه على الخلق * واعلم أن هذا الترتيب الذى راعاه شعيب عليه السلام فى ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف وذلك لانه بين أولا أن ظهور البينة له وكثرة انعام الله تعالى عليه فى الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة فى وحى الله تعالى ويصده عن التهاون فى تكاليفه ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح واخفاء موجبات الفتن فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ثم لما بين صحة طريقته أشار الى نفى المعارض وقال لا ينبغى أن تحملكم عداوتى على مذهب ودين تقعون بسببه فى العذاب الشديد من الله تعالى كما وقع فيه أقوام الانبياء المتقدمين ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد الى تقرير ما ذكره أولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله ثم توبوا اليه ثم بين لهم ان سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغى أن يمنعهم من الايمان والطاعة لانه تعالى رحيم ودود يقبل الايمان والتوبة من الكافر والفاسق لان رحمته لعباده وحبه لهم يوجب ذلك وهذا التقرير فى غاية الكمال ۞ قوله تعالى

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بالغ فى التقرير والبيان أجابوه بكلمات فاسدة (فالاول) قولهم يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات (فالاول) أن المراد ما نفقه كثيرا مما تقول لانهم كانوا لا يلقون اليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (الثانى) أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدرى ما تقول (الثالث) ان هذه الدلائل التى ذكرها ما أقنعتهم فى صحة التوحيد والنبوة والبعث وما يجب من ترك الظلم والسرقة فقولهم ما نفقه أى لم نعرف صحة الدلائل التى ذكرتها على صحة هذه المطالب (المسئلة الثانية) من الناس من قال الفقه اسم لعلم مخصوص وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه واحتجوا بهذه الآية وهى قوله ما نفقه كثيرا مما تقول فأضاف الفقه الى القول ثم صار اسما لنوع معين من علوم الدين ومنهم من قال انه اسم لمطلق الفهم يقال أوتى فلان فقها فى الدين أى فهما وقال النبى صلى

واما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجنة من المصادر التى يراد بها الهيئة كالركبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أى أكذبوا بها ولم يتفكروا فى أى شئ من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الامة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات أو فى أنه ليس بصاحبهم شئ من جنة حتى يؤديهم التفكر فى ذلك الى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى أولم يتفكروا أى أكذبوا بها ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدئ فقيل أى شئ بصاحبهم من جنة ما على طريقة الانكار والتعجب والتبكيت أو قيل ليس بصاحبهم شئ منها والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للايذان بأن طول مصاحبتهم له عليه الصلاة والسلام مما يطلعهم على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة ما ذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له والتعرض لنفى الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة والسلام لما أن التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر الا عمن به مس من الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى أو عن له تأييد الحق

يخبر به عن الامور الغيبية واذ ليس به عليه السلام شائبة الاول تبين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى وقد

الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين أى يفهمه تأويله ﴿والنوع الثانى﴾ من الاشياء التى ذكروها قولهم وانا لنراك فينا ضعيفا وفيه وجهان (الاول) انه الضعيف الذى يتعذر عليه منع القوم عن نفسه (والثانى) ان الضعيف هو الاعمى بلغة حمير واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه (الاول) أنه ترك للظاهر من غير دليل والثانى ان قوله فينا يبطل هذا الوجه ألا ترى انهم لو قالوا انا لنراك أعمى فينا كان فاسدا لان الاعمى أعمى فيهم وفى غيرهم (الثالث) أنهم قالوا بعد ذلك ولولا رهطك لرجمناك فنفوا عنه القوة التى أثبتوها فى رهطه ولما كان المراد بالقوة التى أثبتوها للرهط هى النصرة وجب أن تكون القوة التى نفوها عنه هى النصرة والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم انما حملوه عليه لانه سبب للضعف * واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الانبياء الا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لما بيناه وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال انه لا يجوز لكونه منفرا فانه لا يمكنه الاحتراز عن النجاسات ولانه يخل بجواز كونه حاكما وشاهدا فلأن يمنع من النبوة كان أولى والكلام فيه لا يليق بهذه الآية لانا بينا أن الآية لا دلالة فيها على هذا المعنى ﴿والنوع الثالث﴾ من الاشياء التى ذكروها قولهم ولولا رهطك لرجمناك وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف الرهط من الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة وقد كان رهطه على ملتهم قالوا ولولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وأنهم انما لم يقتلوه لاجل احترامهم رهطه ﴿المسئلة الثانية﴾ الرجم فى اللغة عبارة عن الرمى وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ولما كان هذا الرجم سببا للقتل لاجرم سموا القتل رجما وقد يكون بالقول الذى هو القذف كقوله رجما بالغيب وقوله ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وقد يكون بالشتم واللعن ومنه قوله الشيطان الرجيم وقد يكون بالطرد كقوله رجوما للشياطين اذا عرفت هذا ففى الآية وجهان (الاول) لرجمناك لقتلناك (الثانى) لشتمناك وطردناك ﴿والنوع الرابع﴾ من الاشياء التى ذكروها قولهم وما أنت علينا بعزيز ومعناه انك لما لم تكن علينا عزيزا سهل علينا الاقدام على قتلك وايذائك واعلم أن كل هذه الوجوه التى ذكروها ليست دافعة لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات بل هى جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة

﴿ قوله تعالى ﴿قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب﴾ اعلم أن الكفار لما خوفوا شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنه ما ذكره فى هذا المقام وهو نوعان من الكلام ﴿فالنوع الاول﴾ قوله ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط والمعنى ان القوم زعموا أنهم تركوا ايذاءه رعاية لجانب قومه فقال أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلى اكراما لرهطى والله تعالى أولى أن يتبع أمره فكأنه يقول حفظكم اياى رعاية لامر الله تعالى أولى من حفظكم اياى رعاية لحق رهطى وأما قوله واتخذتموه وراءكم ظهريا فالمعنى انكم نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به قال صاحب الكشاف والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة الى الامس امسى بكسر الهمزة وقوله ان ربى بما تعملون محيط يعنى انه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها ﴿والنوع الثانى﴾ قوله ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما فى وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى فانى أيضا عامل بقدر ما آتانى الله تعالى من القدرة * ثم قال سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ لسائل أن يقول لم لم يقل فسوف تعلمون (والجواب) ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل واما حذف الفاء فانه يجعله جوابا عن سؤال مقدر والتقدير انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى باب

انه عليه الصلاة والسلام علا الصفا للا فحعل يدعو قريشا فخذا فخذا يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت فالتصريح بنفى الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع ما فيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى (ان هو الا نذير مبين) جملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى ان هذا الا ملك كريم بعد قوله تعالى ما هذا بشرا أى ما هو عليه الصلاة والسلام الا مبالغ فى الانذار مظهر له غاية الاظهار ابرازا لكمال الرأفة ومبالغة فى الاعذار وقوله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض) استئناف آخر مسوق للانكار والتوبيخ باخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والانفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة اثر ما نعى عليهم اخلالهم بالتفكر فى شأنه عليه الصلاة والسلام والهمزة لما ذكر من الانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم والملكوت

الملك العظيم أى أكذبوا بها أو ألم يتفكروا فيها ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك

الفظاعة والتهويل ثم قال وارتقبوا انى معكم رقيب والمعنى فانتظروا العاقبة انى معكم رقيب أى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع ﴿ قوله تعالى ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم وقوله ولما جاء أمرنا يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكا من الملائكة بتلك الصيحة ويحتمل أن يكون المراد من الامر العقاب وعلى التقديرين فأخبر الله انه نجى شعيبا ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان (الاول) أنه تعالى انما خلصهم من ذلك العذاب لمحض رحمته تنبيها على أن كل ما يصل الى العبد فليس الا بفضل الله ورحمته (والثانى) أن يكون المراد من الرحمة الايمان والطاعة وسائر الاعمال الصالحة وهى أيضا ما حصلت الا بتوفيق الله تعالى ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال وأخذت الذين ظلموا الصيحة وانما ذكر الصيحة بالالف واللام اشارة الى المعهود السابق وهى صيحة جبريل عليه السلام فأصبحوا فى ديارهم جاثمين والجاثم الملازم لمكانه الذى لا يتحول عنه يعنى أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع فى مكانه ميتا كأن لم يغنوا فيها أى كأن لم يقيموا فى ديارهم أحياء متصرفين مترددين ثم قال تعالى ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وانما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ واعلم أن هذه هى القصة السابعة من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر القصص من هذه السورة أما قوله بآياتنا وسلطان مبين ففيه وجوه (الاول) أن المراد من الآيات التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة والتقدير ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة (الثانى) ان الآيات هى المعجزات والبينات وهو كقوله ان عندكم من سلطان بهذا وقوله ما أنزل الله بها من سلطان وعلى هذا التقدير ففى الآية وجهان (الاول) أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته (الثانى) أن يراد بالسلطان المبين العصا لانها أشهرها وذلك لانه تعالى أعطى موسى عليه السلام تسع آيات بينات وهى العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والانفس ومنهم من أبدل نقص الثمرات والانفس باظلال الجبل وفلق البحر واختلفوا فى ان الحجة لم سميت بالسلطان فقال بعض المحققين لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره فلهذا توصف الحجة بانها سلطان وقال الزجاج السلطان هو الحجة والسلطان سمى سلطانا لانه حجة الله فى أرضه واشتقاقه من السليط والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث وهو أن السلطان مشتق من التسليط والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة الا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة ﴿فان قيل﴾ اذا حملتم الآيات المذكورة فى قوله بآياتنا على المعجزات والسلطان أيضا على الدلائل والمبين أيضا معناه كونه سببا للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة ﴿قلنا﴾ الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التى تفيد الظن وبين الدلائل التى تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين الا أنه اسم لقدر المشترك بين الدلائل التى تؤكد بالحس وبين

وكمال القدرة (وما خلق الله) أى وفيما خلق فيهما على أنه عطف على ملكوت وتخصيصهما لكمال ظهور عظم الملك فيهما أو وفى ملكوت ما خلق على أنه عطف على السموات والارض والتعميم لاشتراك الكل فى الدلالة على عظم الملك فى الحقيقة وعليه قوله تعالى فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وقوله تعالى (من شئ) بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشئ ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شؤونه التى ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما فى المدلول فان كل فرد من أفراد الاكوان مما عز وهان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى عالم التوحيد وقوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) عطف على ملكوت وان مخففة من ان واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى مع فاعله الذى هو ان يكون واسم يكون أيضا ضمير الشأن والخبر قد اقترب أجلهم والمعنى

أولم ينظروا في ان الشأن عسى أن يكون الشأن قد اقترب أجلهم وقد جوز أن يكون اسم يكون أجلهم وخبرها قد اقترب

الدلائل التي لم تتأكد بالحس وأما الدليل القاطع الذي تأكد بالحس فهو السلطان المبين ولما كانت معجزات موسى عليه السلام كذلك لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبين ثم قال الى فرعون وملائه يعني وأرسلناه موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات الى فرعون وملائه أي جماعته ثم قال فاتبعوا أمر فرعون ويحتمل ان يكون المراد أمره اياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الامر الطريق والشأن ثم قال تعالى وما أمر فرعون برشيد أي بمرشد الى خير وقيل رشيد أي ذي رشد * واعلم أن بعد طريق فرعون عن الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد في عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية ثم انه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وفيه بحثان (البحث الاول) من حيث اللغة يقال قدم فلان فلانا بمعنى تقدمه ومنه قادمة الرحل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه ومنه مقدمة الجيش (والبحث الثاني) من حيث المعنى وهو أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو يقال كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ويجوز أيضا أن يريد بقوله وما أمر فرعون برشيد أي وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله يقدم قومه تفسيرا لذلك وايضاحا له أي كيف يكون أمره رشيدا مع ان عاقبته هكذا * فان قيل لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل قال يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضي * قلنا لان الماضي قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل البتة الى دفعه فاذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة * ثم قال وبئس الورد المورود وفيه بحثان (البحث الاول) لفظ النار مؤنث فكان ينبغي أن يقال وبئست الورد المورود الا ان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدي (البحث الثاني) الورد قد يكون بمعنى الورود فيكون مصدرا وقد يكون بمعنى الوارد قال تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذي يورد عليه قال صاحب الكشاف الورد المورود الذي حصل وروده فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة الى الماء وشبه أتباعه بالواردين الى الماء ثم قال بئس الورد الذي يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده ثم قال وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة والمعنى انهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وفي يوم القيامة أيضا ومعناه ان اللعن من الله ومن الملائكة والانبياء ملتصق بهم في الدنيا وفي الآخرة لا يزول عنهم ونظيره قوله في سورة القصص وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ثم قال بئس الرفد المرفود والرفد هو العطية وأصله الذي يعين على المطلوب سأل نافع بن الازرق ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله بئس الرفد المرفود قال هو اللعنة بعد اللعنة قال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عونا لشيء فقد رفدته به * قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الاولين قال ذلك من أنباء القرى نقصه عليك والفائدة في ذكرها أمور (أولها) أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض انما يحصل للانسان الكامل وذلك انما يكون في غاية الندرة فأما اذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الاولين صار ذكر هذه الاقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية الى العقول (الوجه الثاني) انه تعالى خلط بهذه الاقاصيص أنواع الدلائل التي كان الانبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ثم يذكر عقيبها أجوبة الانبياء عنها ثم يذكر عقيبها انهم لما أصروا واستكبروا وقعوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة فكان ذكر

على انها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكما وأيا ما كان فمناط الانكار والتوبيخ تأخيرهم للنظر والتأمل أي لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لا يسارعون الى التدبر في الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنية وقد يجوز أن يكون الاجل عبارة عن الساعة والاضافة الى ضميرهم لملابستهم لها من جهة انكارهم لها وبحثهم عنها وقوله تعالى (فبأي حديث بعده يؤمنون) قطع لاحتمال ايمانهم رأسا ونفي له بالكلية مترتب على ما ذكر من تكذيبهم بالآيات واخلالهم بالتفكر والنظر والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو تأويلها بالمذكور واجراء الضمير مجرى اسم الاشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأي حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات وقيل الضمير للقرآن والمعنى فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون اذا لم يؤمنوا به

هذه

هذه القصص سببا لايصال الدلائل والجوابات عن الشبهات الى قلوب المنكرين وسببا لازالة القسوة والغلظة عن قلوبهم فثبت ان أحسن الطرق فى الدعوة الى الله تعالى ماذكرناه (الفائدة الثالثة) انه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ لاحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه (الفائدة الرابعة) ان الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق الى ترك الدنيا والخروج عنها الا ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فى الدنيا والعقاب فى الآخرة فاذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلابد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل فى القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال فهذا كلام جليل فى فوائد ذكر هذه القصص * أما قوله ذلك من أنباء القرى ففيه ابحاث (البحث الاول) ان قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد منه ههنا الاشارة الى هذه القصص التى تقدمت وهى حاضرة الا ان الجواب عنه ما تقدم فى قوله ذلك الكتاب لاريب فيه (الثانى) أن لفظ ذلك يشار به الى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى لافارض ولابكر عوان بين ذلك وأيضا يحتمل ان يكون المراد ذلك الذى ذكرناه هو كذا وكذا (البحث الثالث) قال صاحب الكشاف ذلك مبتدأ من أنباء القرى خبر نقصه عليك خبر بعد خبر أى ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك ثم قال منها قائم وحصيد والضمير فى قوله منها يعود الى القرى شبه ما بقى من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطل بالحصيد والمعنى ان تلك القرى بعضها بقى منه شئ وبعضها هلك وما بقى منه أثر البتة * ثم قال تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وفيه وجوه (الاول) وما ظلمناهم بالعذاب والاهلاك ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية (الثانى) ان الذى نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة لاجل ان القوم أولا ظلموا أنفسهم بسبب اقدامهم على الكفر والمعاصى فاستوجبوا لاجل تلك الاعمال من الله ذلك العذاب (الثالث) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وما نقصناهم من النعيم فى الدنيا والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى ثم قال فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ أى ما نفعتهم تلك الآلهة فى شئ البتة ثم قال وما زادوهم غير تتبيب قال ابن عباس رضى الله عنهما غير تخسير يقال تب اذا خسر وتببه غيره اذا أوقعه فى الخسران والمعنى ان الكفار كانوا يعتقدون فى الاصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم انه تعالى أخبر انهم عند مساس الحاجة الى المعين ما وجدوا منها شيأ لاجلب نفع ولادفع ضر ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده وهو ان ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران ﴿ قوله تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره الا لاجل معدود ﴾ وفى الآية مسائل (المسألة الاولى) قرأ عاصم والجحدرى اذ أخذ القرى بالف واحدة وقرأ الباقون بالفين (المسألة الثانية) اعلم انه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام فى كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الانبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا قال بعده وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة فبين ان عذابه ليس بمقتصر على من تقدم بل الحال فى أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله وهى ظالمة الضمير فيه عائد الى القرى وهو فى الحقيقة عائد الى أهلها ونظيره قوله وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وقوله وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها * واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الامم المتقدمة ثم بين انه انما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية فقال ان أخذه أليم شديد فوصف ذلك العذاب بالايلام وبالشدة لامنقصة فى الدنيا الا الالم ولا تشديد فى الدنيا وفى الآخرة وفى الوهم والعقل الا تشديد الالم * واعلم ان هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فانه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لئلا يقع فى الاخذ

وهو النهاية فى البيان وقيل هو انكار وتبكيت لهم مترتب على أخلالهم بالمسارعة الى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لايبادرون الى الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا وقيل الضمير لاجلهم والمعنى فبأى حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون وقيل للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أى فبأى حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس وقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادى له) استئناف مقرر لما قبله منبئ عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى (ويذرهم فى طغيانهم) بالياء والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم وقرئ بنون العظمة على طريقة الالتفات أى ونحن نذرهم وقرئ بالياء والجزم عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله لايهده أحد ويذرهم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبى عمرو فى الشواذ وقوله تعالى (يعمهون) أى يترددون ويتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير فى حيز النفى نظرا الى لفظ من وجمعه فى حيز الاثبات نظرا الى معناها للتنصيص على شمول النفى والاثبات للكل (يسئلونك عن الساعة) استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم

الذي وصفه الله تعالى بانه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن ان هذه الاحكام مختصة بأولئك المتقدمين لانه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة فبين ان كل من شارك المتقدمين في فعل مالا ينبغي فلابد وأن يشاركهم في ذلك الاخذ الاليم الشديد ثم قال تعالى ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة قال القفال تقرير هذا الكلام أن يقال ان هؤلاء انما عذبوا في الدنيا لاجل تكذيبهم الانبياء واشراكهم بالله فاذا عذبوا في الدنيا على ذلك وهي دار العمل فلأن يعذبوا عليه في الآخرة التي هي دار الجزاء كان أولى * واعلم أن كثيرا من تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه بل هو ضعيف وذلك لان على هذا الوجه الذي ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال في الدنيا دليلا على ان القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق وظاهر الآية يقتضي ان العلم بان القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلا للعلم بان القيامة حق فبطل ما ذكره القفال والاصوب عندي أن يقال العلم بان القيامة حق موقوف على العلم بان اله العالم لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لا موجب بالذات وما لم يعرف الانسان أن اله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وان جميع الحوادث الواقعة في السموات والارضين لا تحصل الا بتكوينه وقضائه لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال وذلك لان الذين يزعمون ان المؤثر في وجود هذا العالم موجب بالذات لا فاعل مختار يزعمون ان هذه الاحوال التي ظهرت في أيام الانبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها انما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض واذا كان الامر كذلك فحينئذ لا يكون حصولها دليلا على صدق الانبياء فأما الذي يؤمن بالقيامة فلا يتم ذلك الايمان الا اذا اعتقد ان اله العالم فاعل مختار وانه عالم بجميع الجزئيات واذا كان الامر كذلك لزم القطع بان حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة انما كان بسبب ان اله العالم خلقها وأوجدها وانها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ويستدل بها على صدق الانبياء فثبت بما ذكرناه صحة قوله ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة * ثم قال تعالى ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود واعلم انه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين (أحدهما) انه يوم مجموع له الناس والمعنى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون (والثاني) انه يوم مشهود قال ابن عباس رضي الله عنهما يشهده البر والفاجر وقال آخرون يشهده أهل السماء وأهل الارض والمراد من الشهود الحضور والمقصود من ذكره انه ربما وقع في قلب انسان انهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد الا واقعة نفسه فبين تعالى ان تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة ثم قال تعالى وما نؤخره الا لاجل معدود والمعنى أن تأخير الآخرة وافناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ما كان متناهيا فانه لابد وأن يفنى فيلزم أن يقال ان تأخير الآخرة سينتهي الى وقت لابد وأن يقيم الله القيامة فيه وأن تخرب الدنيا فيه وكل ما هو آت قريب * قوله تعالى ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ في الآية مسائل

(المسألة الاولى) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء والباقون باثبات الياء قال صاحب الكشاف وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونحوه قولهم لا أدر حكاه الخليل وسيبويه

(المسألة الثانية) قال صاحب الكشاف فاعل يأتي هو الله تعالى كقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله وقوله أو يأتي ربك ويعضده قراءة من قرأ وما يؤخره بالياء أقول لا يعجبني هذا التأويل لان قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله أو يأتي ربك أما ههنا فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الاتيان اليه مشكل فان قالوا فما قولك في قوله

وطغيانهم أي عن القيامة وهي من الاسماء الغالبة واطلاقها عليها اما لوقوعها بغتة أو لسرعة ما فيها من الحساب أو لانها ساعة عند الله تعالى مع طولها في نفسها قيل ان قوما من اليهود قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا فانا نعلم متى هي وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها وقيل السائلون قريش وقوله تعالى (أيان مرساها) بفتح الهمزة وقد قرئ بكسرها وهو ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ويليه المبتدا والفعل المضارع دون الماضي بخلاف متى حيث يليها كلاهما قيل اشتقاقه من أي فعلان منه لان معناه أي وقت وهو من أويت الى الشئ لان البعض آو الى الكل متساند اليه ومحله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدا مؤخر أي متى ارساؤها أي اثباتها وتقريرها فانه مصدر ميمي من أرساه اذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل الا في الشئ الثقيل كما في قوله تعالى والجبال أرساها ومنه مرساة السفن ومحل الجملة قيل الجر على البدلية من الساعة والتحقيق أن محلها النصب بنزع الخافض لانها بدل من الجار والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أولا وبوقت وقوعها ثانيا تنبيه على أن المقصد الاصلي من

تعالى

تعالى وجاء ربك قلنا هناك تأويلات وأيضا فهو صريح فلا يمكن دفعه فوجب المصير الى التأويل أما ههنا فليس اللفظ صريحا في اسناد الاتيان الى الله تعالى فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال المراد منه يوم يأتي الشيء المهيب الهائل المستعظم فحذف الله تعالى ذكره تعظيما له ليكون أقوى في التخويف (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف العامل في انتصاب الظرف هو قوله لا تكلم أو اضمار اذكر أما قوله لا تكلم نفس الا باذنه ففيه حذف والتقدير لا تكلم نفس فيه الا باذن الله تعالى (فان قيل) كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين ومنها قوله تعالى وقفوهم انهم مسئولون ومنها قوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (والجواب) من وجهين (الاول) أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على ذكر الاعذار الكاذبة الباطلة وحيث ورد الاذن في الكلام فهو محمول على الجوابات الحقة الصحيحة (الثاني) ان ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم أما قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الضمير في قوله فمنهم لاهل الموقف ولم يذكر لانه معلوم ولان قوله لا تكلم نفس الا باذنه يدل عليه لانه قد مر ذكر الناس في قوله مجموع له الناس (المسئلة الثانية) قوله فمنهم شقي وسعيد يدل بظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين * فان قيل أليس في الناس مجانين وأطفال وهم خارجون عن هذين القسمين * قلنا المراد من يحشر ممن أطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين * فان قيل قد احتج القاضي بهذه الآية على فساد ما يقال ان أهل الاعراف لا في الجنة ولا في النار فما قولكم فيه * قلنا لما سلم أن الاطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لانهم لا يحاسبون فلم لا يجوز أيضا أن يقال ان أصحاب الاعراف خارجون عنه لانهم أيضا لا يحاسبون لان الله تعالى علم من حالهم ان ثوابهم يساوي عذابهم فلا فائدة في حسابهم * فان قيل القاضي استدل بهذه الآية أيضا على أن كل من حضر عرصة القيامة فانه لا بد وأن يكون ثوابه زائدا أو يكون عقابه زائدا فأما من كان ثوابه مساويا لعقابه فانه وان كان جائزا في العقل الا أن هذا النص دل على أنه غير موجود * قلنا الكلام فيه ما سبق من أن السعيد هو الذي يكون من أهل الثواب والشقي هو الذي يكون من أهل العقاب وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث والدليل على ذلك ان أكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط وليس فيه ذكر ثالث لا يكون مؤمنا ولا كافرا مع أن القاضي أثبته فاذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا الثالث عدمه (المسئلة الثالثة) اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيد وعلى بعضهم بأنه شقي ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر امتنع كونه بخلافه والا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذبا وعلمه جهلا وذلك محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا وأن الشقي لا ينقلب سعيدا وتقرير هذا الدليل مر في هذا الكتاب مرارا لا تحصى وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لما نزل قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول الله فعلى ماذا نعمل على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه فقال على شيء قد فرغ منه يا عمر وجفت به الاقلام وجرت به الاقدار ولكن كل ميسر لما خلق له وقالت المعتزلة نقل عن الحسن أنه قال فمنهم شقي بعمله وسعيد بعمله * قلنا الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضا فلا نزاع أنه انما شقي بعمله وانما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذي ذكرناه باقيا * واعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة الى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في الفرق بين الزفير والشهيق وجوها (الاول) قال الليث الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ولم يخرجه والشهيق أن يخرج

السؤال نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلا لها وقد سلك هذا المسلك في الجواب الملقن أيضا حيث أضيف العلم المطلوب بالسؤال الى ضميرها اذا أخبر باختصاصه به عز وجل حيث قيل (قل انما علمها) أي علمها بالاعتبار المذكور (عند ربي) ولم يقل انما علم وقت ارسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام للايذان بأن توقيفه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والارشاد ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به أحدا من ملك مقرب أو نبي مرسل وقوله تعالى (لا يجليها لوقتها الا هو) بيان لاستمرار تلك الحالة الى حين قيامها واقناط كلي عن اظهار أمرها بطريق الاخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية اياه فانه أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أن اخفاء الاجل الخاص للانسان كذلك والمعنى لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألونني عنه الا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط في اظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو المسؤل بل بأن يقيمها فيشاهدوها عيانا كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف

ذلك النفس وقال الفراء يقال للفرس انه عظيم الزفرة أى عظيم البطن * وأقول ان الانسان اذا عظم غمه انحصر روح قلبه فى داخل القلب فاذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان الى النفس القوى لاجل أن يستدخل هواء كثيرا باردا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة فلهذا السبب يعظم فى ذلك الوقت استدخال الهواء فى داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصورا فى داخل القلب استولت البرودة على الاعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصرا فى الصدر ويقرب من أن يختنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة فى اخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الاطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة فى القلب بسبب انحصار الروح فيه والشهيق هو اخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة فى اخراجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم (الوجه الثانى فى الفرق بين الزفير والشهيق) قال بعضهم الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار (الوجه الثالث) قال الحسن قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع فنقول الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى اذا وصلوا الى أعلى درجات جهنم وطمعوا فى أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم الى الدرك الاسفل من جهنم وذلك قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فارتفاعهم فى النار هو الزفير وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق (الوجه الرابع) قال أبو مسلم الزفير ما يجتمع فى الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس والشهيق هو الصوت الذى يظهر عند اشتداد الكربة والحزن وربما تبعهما الغشية وربما حصل عقيبه الموت (الوجه الخامس) قال أبو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر (الوجه السادس) قال قوم الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف (الوجه السابع) قال ابن عباس رضى الله عنهما لهم فيها زفير وشهيق يريد ندامة ونفسا عاليا وبكاء لا ينقطع وحزنا لا يندفع (الوجه الثامن) الزفير مشعر بالقوة والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة اذا عرفت هذا فنقول لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم الى عالم الدنيا والى اللذات الجسدانية والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد بعالم الروحانيات والاستكمال بالانوار الالهية والمعارج القدسية * ثم قال تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واحتجوا بالقرآن والمعقول * أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين (الاول) انه تعالى قال ما دامت السموات والارض دل هذا النص على أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض ثم توافقنا على أن مدة بقاء السموات والارض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة (الثانى) ان قوله الا ما شاء ربك استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب فى وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضا قوله تعالى فى سورة عم يتساءلون لابثين فيها أحقابا بين تعالى أن لبثهم فى ذلك العذاب لا يكون الا أحقابا معدودة * وأما المعقول فوجهان (الاول) ان معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهى بعقاب لا نهاية له ظلم وانه لا يجوز (الثانى) ان ذلك العقاب ضرر خال من النفع فيكون قبيحا بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع الى الله تعالى لكونه متعاليا عن النفع والضرر ولا الى ذلك المعاقب لانه فى حقه ضرر محض ولا الى غيره لان أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم فى الالتذاذ بالعذاب الدائم فى حق غيرهم فثبت ان ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز * وأما الجمهور الاعظم من الامة فقد اتفقوا على أن عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا الى الجواب عن التمسك بهذه الآية * أما قوله خالدين فيها ما دامت السموات والارض فذكروا عنه جوابين (الاول) قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها قالوا والدليل على أن فى الآخرة سماء وأرضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وأيضا لا بد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم وذلك هو الارض

التام المزيل للابهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها أى فى وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها لا قبله كأنه قيل لا يجليها الا هو فى وقتها الا أنه قدم على الاستثناء للتنبيه من أول الامر على أن تجليتها ليست بطريق الاخبار بوقتها بل باظهار عينها فى وقتها الذى يسألون عنه وقوله تعالى (ثقلت فى السموات والارض) استئناف كما قبله مقرر لمضمون ما قبله أى كبرت وشقت على أهلهما من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها وقيل ثقلت فيهما اذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شئ أصلا والاول هو الانسب بما قبله وبما بعده من قوله تعالى (لا تأتيكم الا بغتة) فانه أيضا استئناف مقرر لمضمون ما قبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء أى لا تأتيكم الا فجأة على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم سلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه (يسئلونك كأنك حفى عنها) استئناف مسوق لبيان خطئهم فى توجيه السؤال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم

والسموات

والسموات ولقائل أن يقول التشبيه انما يحسن ويجوز اذا كان حال المشبه به معلوما مقررا فيشبه به غيره تأكيدا لثبوت الحكم فى المشبه ووجود السموات والارض فى الآخرة غير معلوم وبتقدير أن يكون وجوده معلوما الا أن بقاءها على وجه لا يفنى البتة غير معلوم فاذا كان أصل وجودهما مجهولا لاكثر الخلق ودوامهما أيضا مجهولا للاكثر كان تشبيه عقاب الاشقياء به فى الدوام كلاما عديم الفائدة أقصى ما فى الباب أن يقال لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض فى الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به وحينئذ يحسن التشبيه الا انا نقول لما كان الطريق فى اثبات دوام سموات أهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر فحينئذ الدليل الذى دل على ثبوت الحكم فى الاصل حاصل بعينه فى الفرع وفى هذه الصورة أجمعوا على أن القياس ضائع والتشبيه باطل فكذا ههنا ﴿والوجه الثانى فى الجواب﴾ قالوا ان العرب يعبرون عن الدوام والابد بقولهم ما دامت السموات والارض ونظيره أيضا قولهم ما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وما أقام الجبل وانه تعالى خاطب العرب على عرفهم فى كلامهم فلما ذكروا هذه الاشياء بناء على اعتقادهم انها باقية أبد الآباد علمنا أن هذه الالفاظ بحسب عرفهم تفيد الابد والدوام الخالى عن الانقطاع ولقائل أن يقول هل تسلمون أن قول القائل خالدين فيها ما دامت السموات والارض يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات أو تقولون انه لا يدل على هذا المعنى فان كان الاول فالاشكال لازم لان النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم فى النار مساوية لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقائهم فى النار بعد فناء السموات ثم ثبت أنه لا بد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب وأما ان قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم فى النار بعد فناء السموات والارض فلا حاجة بكم الى هذا الجواب البتة فثبت أن هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع * واعلم أن الجواب الحق عندى فى هذا الباب شئ آخر وهو أن المعهود من الآية انه متى كانت السموات والارض دائمتين كان كونهم فى النار باقيا فهذا يقتضى أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى انه اذا عدم الشرط يعدم المشروط ألا ترى أنا نقول ان كان هذا انسانا فهو حيوان فان قلنا لكنه انسان فانه ينتج انه حيوان أما اذا قلنا لكنه ليس بانسان لم ينتج أنه ليس بحيوان لانه ثبت فى علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيأ فكذا ههنا اذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم فاذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلا أما اذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم * فان قالوا فاذا كان العقاب حاصلا سواء بقيت السموات أو لم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة * قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهرا داهرا وزمانا لا يحيط العقل بطوله وامتداده فاما انه هل يحصل له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر وهذا الجواب الذى قررته جواب حق ولكنه انما يفهمه انسان ألف شيأ من المعقولات ﴿وأما الشبهة الثانية﴾ وهى التمسك بقوله تعالى الا ما شاء ربك فقد ذكروا فيه أنواعا من الاجوبة ﴿الوجه الاول فى الجواب﴾ وهو الذى ذكره ابن قتيبة وابن الانبارى والفراء قالوا هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله البتة كقولك والله لأضربنك الا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه فكذا ههنا وطولوا فى تقرير هذا الجواب وفى ضرب الامثلة فيه وحاصله ما ذكرناه ولقائل أن يقول هذا ضعيف لانه اذا قال لأضربنك الا أن أرى غير ذلك معناه لأضربنك الا اذا رأيت أن الاولى ترك الضرب وهذا لا يدل البتة على أن هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك فان معناه الحكم بخلودهم فيها الا المدة التى شاء ربك فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزما فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام ﴿الوجه الثانى فى الجواب﴾ أن يقال ان كلمة الا ههنا وردت بمعنى سوى والمعنى أنه تعالى لما قال خالدين فيها ما دامت السموات والارض فهم منه أنهم يكونون فى النار فى جميع مدة بقاء السموات والارض فى الدنيا ثم قال سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولا فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له بقوله

بالمسؤل عنه أو ان العلم بذلك من مواجب الرسالة ثم بيان خطئهم فى أصل السؤال باعلام شأن المسؤل عنه والجملة التشبيهية فى محل النصب على أنها حال من الكاف جئ بها بيانا لما يدعوهم الى السؤال على زعمهم واشعارا بخطئهم فى ذلك أى يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفى عنها أى بالغ فى العلم بها فعيل من حفى وحقيقته كأنك مبالغ فى السؤال عنها فان ذلك فى حكم المبالغة فى العلم بها لما أن من بالغ فى السؤال عن الشئ والبحث عنه استحكم علمه به ومبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء ومنه احفاء الشارب واحتفاء البقل أى استئصاله والاحفاء فى المسئلة أى الالحاف فيها وقيل عن متعلقة بيسئلونك وقوله تعالى كأنك حفى معترض وصلة حفى محذوفة أى حفى بها وقد قرئ كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فان قريشا قالوا له عليه الصلاة والسلام ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسئلونك كأنك حفى تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لاجل القرابة وتزوى أمرها عن غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفى بالشئ بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره له لما أنه تعرض لحرم الغيب

الاماشاء ربك والمعنى الاماشاء ربك من الزيادة التى لا آخر لها (الوجه الثالث فى الجواب) وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم فى الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا ففى النار الاوقت وقوفهم للمحاسبة فانهم فى ذلك الوقت لا يكونون فى النار وقال أبو بكر الاصم المراد الاماشاء ربك وهو حال كونهم فى القبر أو المراد الاماشاء ربك حال عمرهم فى الدنيا وهذه الاقوال الثلاثة متقاربة والمعنى خالدين فيها بمقدار مكثهم فى الدنيا أو فى البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون الى النار (الوجه الرابع فى الجواب) قالوا الاستثناء يرجع الى قوله لهم فيها زفير وشهيق وتقريره أن نقول قوله لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فاذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت فى المعقولات أنه كما ينتفى المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفى بانتفاء فرد واحد من أجزائه فاذا انتهوا آخر الامر الى أن يصيروا ساكتين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة الى الحكم بانقطاع كونهم فى النار (الوجه الخامس فى الجواب) أن يحمل هذا الاستثناء على أن أهل العذاب لا يكونون أبدا فى النار بل قد ينقلون الى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفى فى صحة هذا الاستثناء (الوجه السادس فى الجواب) قال قوم هذا الاستثناء يفيد اخراج أهل التوحيد من النار لان قوله فاما الذين شقوا ففى النار يفيد ان جملة الاشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ثم قوله الاماشاء ربك يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع ويكفى فى زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الاشقياء ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة وهذا كلام قوى فى هذا الباب * فان قيل فهذا الوجه انما يتعين اذا فسدت سائر الوجوه التى ذكرتموها فما الدليل على فسادها وأيضا فمثل هذا الاستثناء مذكور فى جانب السعداء فانه تعالى قال وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ * قلنا انا بهذا الوجه بينا ان هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار ثم اذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا فى أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار * قلنا أما حمل كلمة الا على سوى فهو عدول عن الظاهر وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضا لان الاستثناء وقع عن الخلود فى النار ومن المعلوم أن الخلود فى النار كيفية من كيفيات الحصول فى النار فقبل الحصول فى النار امتنع حصول الخلود فى النار واذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء وأما قوله الاستثناء عائد الى الزفير والشهيق فهذا أيضا ترك للظاهر فلم يبق للآية محمل صحيح الا هذا الذى ذكرناه وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار الى الزمهرير فنقول لو كان الامر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير الا بعد انقضاء مدة السموات والارض والاخبار الصحيحة دلت على ان النقل من النار الى الزمهرير وبالعكس يحصل فى كل يوم مرارا فبطل هذا الوجه * وأما قوله ان مثل هذا الاستثناء حاصل فى جانب السعداء فنقول أجمعت الامة على أنه يمتنع أن يقال ان أحدا يدخل الجنة ثم يخرج منها الى النار فلاجل هذا الاجماع افتقرنا فيه الى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات أما فى هذه الآية لم يحصل هذا الاجماع فوجب اجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام فى هذه الآية واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال ان ربك فعال لما يريد وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية اذا حملنا الاستثناء على اخراج الفساق من النار كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لانى فعال لما أريد وليس لاحد على حكم البتة * ثم قال وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ماشاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم سعدوا بضم السين والباقون بفتحها وانما جاز ضم السين لانه على حذف الزيادة من أسعد ولان سعد لا يتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال (المسئلة الثانية) الاستثناء فى باب السعداء يجب حمله

الذى استأثر الله عزوجل بعلمه (قل انما علمها عند الله) أمر عليه الصلاة والسلام باعادة الجواب الاول تأكيدا للحكم وتقريرا له واشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بايراد اسم الذات المنبئ عن استتباعها الصفات الكمال التى من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون ما ذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأسا فلا يعلمون شيأ مما ذكر قطعا وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلا وبعضهم يدعون ان العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة الى القدح فى رسالتك والمستثنى من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان فهم منتظمون فى سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم وقوله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا) شروع فى الجواب عن السؤال ببيان عجزه صلى الله عليه وسلم عن علمها اثر بيان عجز الكل عنه وابطال زعمهم الذى بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها واعادة الامر لاظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للاول والتعرض لبيان عجزه

عما ذكر من النفع والضر لاثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهاني واللام

اما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا

على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر وهو أنه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة الى العرش والى المنازل الرفيعة التي لا يعلمها الا الله تعالى قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقوله عطاء غير مجذوذ فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جذه يجذه جذا اذا قطعه وجذ الله دابرهم فقوله غير مجذوذ أي غير مقطوع ونظيره قوله تعالى في صفة نعيم الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى لما صرح في هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك في جانب الاشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع فهذا تمام الكلام في هذه الآية ﴿قوله تعالى ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الاوثان ثم أتبعه بأحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال فلا تك في مرية والمعنى فلا تكن الا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ولان النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به الا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوه والمعنى فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع ثم قال ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل والمراد أنهم أشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد ثم قال وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص فيحتمل أن يكون المراد انا موفوهم نصيبهم أي ما يخصهم من العذاب ويحتمل أن يكون المراد أنهم وان كفروا وأعرضوا عن الحق فانا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية ويحتمل أيضا أن يكون المراد انا موفوهم نصيبهم من ازالة العذر وازاحة العلل واظهار الدلائل وارسال الرسل وانزال الكتب ويحتمل أيضا أن يكون الكل مرادا ﴿قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما يعملون خبير﴾ اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الاولى اصرار كفار مكة على انكار التوحيد بين أيضا اصرارهم على انكار نبوته عليه الصلاة والسلام وتكذيبهم بكتابه وبين تعالى ان هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الانبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلا وهو انه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وفيه وجوه (الاول) ان المراد ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الامة الى يوم القيامة لكان الذي يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم انزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم في دنياهم (الثاني) لولا كلمة سبقت من ربك وهي ان الله تعالى انما يحكم بين المختلفين يوم القيامة والا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل في دار الدنيا (الثالث) ولولا كلمة سبقت من ربك وهي ان رحمته سبقت غضبه وان احسانه راجح على قهره والا لقضي بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال وانهم لفي شك منه مريب يعني ان كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب ثم قال تعالى وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى ان من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم وقوله تعالى انه بما يعملون خبير توكيد للوعد والوعيد فانه لما كان عالما بجميع المعلومات كان عالما بمقادير الطاعات والمعاصي فكان عالما بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء فحينئذ لا يضيع شئ من الحقوق والاجزية وذلك نهاية البيان (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو والكسائي وان مشددة النون لما خفيفة قال أبو علي اللام في لما هي التي تقتضيها ان وذلك لان حرف ان يقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها اللام كقوله ان الله لغفور رحيم وقوله ان في ذلك لآية واللام الثانية هي التي تجئ بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لامان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة وقال الفراء ما موصولة بمعنى من وبقية التقرير كما تقدم

من نفسها أي لا أقدر لاجل نفسي على جلب نفع ما ولا على دفع ضرما (الا ما شاء الله) أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكنني منه ويقدرني عليه أو لكن ما شاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ في اظهار العجز (ولو كنت أعلم الغيب) أي جنس الغيب الذي من جملته ما بين الاشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية والمسببية ومن المباينات المستتبعة للممانعة والمدافعة (لاستكثرت من الخير) أي لحصلت كثيرا من الخير الذي نيط تحصيله بالافعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه (وما مسني السوء) أي السوء الذي يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فان منه ما لا مدفع له (ان أنا الا نذير وبشير) أي ما أنا الا عبد مرسل للانذار والبشارة شأني حيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الاحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الانذار من

مجيئها لا محالة واقترابها وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الانذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من

أن ابهامه أدعى الى الانزجار عن المعاصي وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الانذار وقوله تعالى (لقو

ومثله وان منكم لمن ليبطئن (والقراءة الثانية في هذه الآية) قرأ ابن كثير ونافع وابو بكر عن عاصم وان كلا لما مخففتان والسبب فيه انهم أعملوا ان مخففة كما تعمل مشددة لان كلمة ان تشبه الفعل فكما يجوز اعمال الفعل تاما ومحذوفا في قولك لم يكن زيد قائما ولم يك زيد قائما فكذلك ان وان (والقراءة الثالثة) قرأ حمزة وابن عامر وحفص وان كلا لما مشددتان قالوا وأحسن ما قيل فيه ان أصل لما لما بالتنوين كقوله أكلا لما والمعنى ان كلا ملومين أي مجموعين كأنه قيل وان كلا جميعا ﴿المسئلة الثالثة﴾ سمعت بعض الافاضل قال انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات (أولها) كلمة ان وهي للتأكيد (وثانيها) كلمة كل وهي أيضا للتأكيد (وثالثها) اللام الداخلة على خبر ان وهي تفيد التأكيد أيضا (ورابعها) حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا (وخامسها) القسم المضمر فان تقدير الكلام وان جميعهم والله ليوفينهم (وسادسها) اللام الثانية الداخلة على جواب القسم (وسابعها) النون المؤكدة في قوله ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على أن امر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله انه بما يعملون خبير وهو من أعظم المؤكدات ﴿قوله تعالى ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم انه تعالى لما أطنب في شرح الوعد والوعيد قال لرسوله فاستقم كما أمرت وهذه الكلمة كلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد والاعمال سواء كان مختصا به أو كان متعلقا بتبليغ الوحي وبيان الشرائع ولا شك ان البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدا وأنا أضرب لذلك مثالا يقرب صعوبة هذا المعنى الى العقل السليم وهو ان الخط المستقيم الذي يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لا يقبل القسمة في العرض الا أن عين ذلك الخط مما لا يتميز في الحس عن طرفيه فانه اذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض في الحس فلم يقع الحس على ادراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ما سواه اذا عرفت هذا في المثال فاعرف مثاله في جميع أبواب العبودية (فأولها) معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصونا في طرف الاثبات عن التشبيه وفي طرف النفي عن التعطيل في غاية الصعوبة واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك وأيضا فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا افراط وتفريط وهما مذمومان والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل الى أحد الجانبين والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب فثبت أن معرفة الصراط المستقيم في غاية الصعوبة وبتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب ولما كان هذا المقام في غاية الصعوبة لا جرم قال ابن عباس ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام شيبتني هود وأخواتها وعن بعضهم قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له روي عنك انك قلت شيبتني هود وأخواتها فقال نعم فقلت وبأي آية فقال بقوله فاستقم كما أمرت ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر في الزكاة باداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به وعندي أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس لانه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله فاستقم كما أمرت والعمل بالقياس انحراف عنه ثم قال ومن تاب معك وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الواحدي من في محل الرفع من وجوه (الاول) أن يكون عطفا على الضمير المستتر في قوله فاستقم وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل في صحة العطف أي فاستقم أنت وهم (والثاني) أن يكون عطفا على الضمير في أمرت (والثالث) أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم ﴿المسئلة الثانية﴾ ان الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق ففي تلك الحالة لا يصح اشتغالهما بالاستقامة وأما التائب عن الكفر والفسق فانه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج

يؤمنون) اما متعلق بهما جميعا لانهم ينتفعون بالانذار كما ينتفعون بالبشارة واما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير محذوف أي نذير للكافرين أي الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أي في أي وقت كان ففيه ترغيب للكفرة في احداث الايمان وتحذير عن الاصرار على الكفر والطغيان (هو الذي خلقكم) استئناف سيق لبيان كمال عظم جناية الكفرة في جراءتهم على الاشراك بتذكير مبادي أحوالهم المنافية له وايقاع الموصول خبرا لتفخيم شأن المبتدا أي هو ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعا وحده من غير أن يكون لغيره مدخل في ذلك بوجه من الوجوه (من نفس واحدة) هو آدم عليه الصلاة والسلام وهذا نوع تفصيل لما أشير اليه في مطلع السورة الكريمة اشارة اجمالية من خلقهم وتصويرهم في ضمن خلق آدم وتصويره وبيان لكيفيته (وجعل) عطف على خلقكم داخل في حكم الصلة ولا ضير في تقدمه عليه وجودا لما ان

الواو لا تستدعي الترتيب في الوجود (منها) أي من جنسها كما في قوله تعالى

دين

دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ثم قال ولا تطغوا ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار قال ابن عباس يريد تواضعوا لله تعالى ولا تتكبروا على أحد وقيل ولا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله وقيل لا تتجاوزوا ما أمرتم به وحد لكم وقيل ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والاولى دخول الكل فيه ثم قال ولا تركنوا الى الذين ظلموا والركون هو السكون الى الشئ والميل اليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضي من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الازهري وليست بفصيحة قال المحققون الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شئ من تلك الابواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون ومعنى قوله فتمسكم النار أى انكم ان ركنتم اليهم فهذه عاقبة الركون ثم قال وما لكم من دون الله من أولياء أى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله ثم قال ثم لا تنصرون والمراد لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة واعلم أن الله تعالى حكم بان من ركن الى الظلمة لابد وأن تمسه النار واذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه ﴿ قوله تعالى ﴿وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة وذلك يدل على ان أعظم العبادات بعد الايمان بالله هو الصلاة وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) رأيت في بعض كتب القاضي أبي بكر الباقلاني ان الخوارج تمسكوا بهذه الآية في اثبات أن الواجب ليس الا الفجر والعشاء من وجهين (الاول) انهما واقعان على طرفي النهار والله تعالى أوجب اقامة الصلاة طرفي النهار فوجب أن يكون هذا القدر كافيا فان قيل قوله وزلفا من الليل يوجب صلوات أخرى قلنا لا نسلم فان طرفي النهار موصوفان بكونهما زلفا من الليل فان ما لا يكون نهارا يكون ليلا غاية ما في الباب ان هذا يقتضي عطف الصفة على الموصوف الا أن ذلك كثير في القرآن والشعر (الوجه الثاني) أنه تعالى قال ان الحسنات يذهبن السيآت وهذا يشعر بأن من صلى طرفي النهار كان اقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال ان سائر الصلوات واجبة الا أن اقامتهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات واعلم أن هذا القول باطل باجماع الامة فلا يلتفت اليه (المسئلة الثانية) كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاقرب ان الصلاة التي تقام في طرفي النهار هي الفجر والعصر وذلك لان أحد طرفي النهار طلوع الشمس والطرف الثاني منه غروب الشمس فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر اذا عرفت هذا كانت الآية دليلا على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن التنوير بالفجر أفضل وفي أن تأخير العصر أفضل وذلك لان ظاهر هذه الآية يدل على وجوب اقامة الصلاة في طرفي النهار وبينا أن طرفي النهار هما الزمان الاول لطلوع الشمس والزمان الثاني لغروبها وأجمعت الامة على أن اقامة الصلاة في ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية فوجب حمله على المجاز وهو أن يكون المراد أقم الصلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النهار لان ما يقرب من الشئ يجوز أن يطلق عليه اسمه واذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب الى طلوع الشمس والى غروبها كان أقرب الى ظاهر اللفظ واقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب الى وقت الطلوع من اقامتها عند التغليس وكذلك اقامة صلاة العصر عند ما يصير ظل كل شئ مثليه أقرب الى وقت الغروب من اقامتها عند ما يصير ظل كل شئ مثله والمجاز كلما كان أقرب الى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى فثبت أن ظاهر هذه الآية يقوي قول أبي حنيفة في هاتين المسئلتين وأما قوله وزلفا من الليل فهو يقتضي الامر باقامة الصلاة في ثلاث زلف من الليل لان أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب ايقاع الصلاة فيها واذا ثبت وجوب الوتر في حق النبي صلى الله عليه وسلم وجب في حق غيره لقوله تعالى واتبعوه ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى وسبح بحمد

جعل لكم من أنفسكم أزواجا أومن جسدها لما روى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والاول هو الانسب اذ الجنسية هي المؤدية الى الغاية الآتية لا الجزئية والجعل اما بمعنى التصيير فقوله تعالى (زوجها) مفعوله الاول والثاني هو الظرف المقدم واما بمعنى الانشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من المفعول والاول هو الاولى وقوله تعالى (ليسكن اليها) علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثاني أى ليستأنس بها ويطمئن اليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير وينصح عنه قوله تعالى (فلما تغشاها) أى جامعها (حملت حملا خفيفا) في مبادي الامر فانه عند كونه نطفة أوعلقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة الى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للاشارة الى نعمته تعالى عليهم في انشائه تعالى اياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم الى الوجود ومن الضعف الى القوة (فمرت به) أى فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقرئ فمرت بالتخفيف وفارت من المور وهو المجيء والذهاب أو

ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فالذى هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر والذى هو قبل غروبها هو صلاة العصر ثم قال تعالى ومن آناء الليل فسبح وهو نظير قوله وزلفا من الليل ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال المفسرون نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما تقول فى رجل أصاب من امرأة محرمة كل ما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع فقال عليه الصلاة والسلام ليتوضأ وضوأ حسنا ثم ليقم وليصل فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل للنبى عليه الصلاة والسلام هذا له خاصة فقال بل هو للناس عامة وقوله وزلفا من الليل قال الليث زلفة من أول الليل طائفة والجمع الزلف قال الواحدى وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى هى القربى يقال أزلفته فازدلف أى قربته فاقترب ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال صاحب الكشاف قرئ زلفا بضمتين وزلفا باسكان اللام وزلفى بوزن قربى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمتين نحو يسر فى يسر والزلفى بمعنى الزلفة كما ان القربى بمعنى القربة وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل وقيل فى تفسير قوله وزلفا من الليل وقربا من الليل ٭ ثم قال ان الحسنات يذهبن السيآت وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ فى تفسير الحسنات قولان (الاول) قال ابن عباس المعنى ان الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر (والثانى) روى عن مجاهد أن الحسنات هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج من قال ان المعصية لا تضر مع الايمان بهذه الآية وذلك لان الايمان أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيآت فالايمان الذى هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو أعلى درجة فى العصيان فلأن يقوى على المعصية التى هى أقل السيآت درجة كان أولى فان لم يفد ازالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد ازالة العذاب الدائم المؤبد ثم قال تعالى ذلك ذكرى للذاكرين فقوله ذلك اشارة الى قوله فاستقم كما أمرت الى آخرها ذكرى للذاكرين عظة للمتعظين وارشاد للمسترشدين ثم قال واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين قيل على الصلاة وهو كقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ٭ قوله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ان الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران ﴿السبب الاول﴾ أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى فلولا كان من القرون والمعنى فهلا كان وحكى عن الخليل أنه قال كل ما كان فى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التى فى الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى فى غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا وقوله أولو بقية فالمعنى أولو فضل وخير وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار هذا اللفظ مثلا فى الجودة يقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرئ أولو بقية بوزن لقية من بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره والبقية المرة من مصدره والمعنى فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى ثم قال الا قليلا ولا يمكن جعله استثناء متصلا لانه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لاولى البقية فى النهى عن الفساد الا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين فى قراءة القرآن واذا ثبت هذا قلنا انه استثناء منقطع والتقدير لكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون النهى ﴿والسبب الثانى﴾ لنزول عذاب الاستئصال قوله واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه والترف النعمة وصبى مترف اذا كان منعم البدن والمترف الذى أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركى النهى عن المنكرات أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات

واشتغلوا

من المرية أى فظنت الحمل وارتابت به

وأما ما قيل من أن المعنى حملت حملا خفيفا عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والاذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به أى مضت به الى ميلاده من غير اخراج ولا ازلاق فيرده قوله تعالى (فلما أثقلت) اذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها ولا ريب فى أن الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور انما يقابلها الكرب الذى يعترى بعضهن من أول الحمل الى آخره دون بعض أصلا وقرئ أثقلت على البناء للمفعول أى أثقلها حملها (دعوا الله) أى آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتما به وتضرعا اليه عز وجل وقوله تعالى (ربهما) أى مالك أمرهما الحقيق بأن يخص به الدعاء اشارة الى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما فى قولهما ربنا ظلمنا أنفسنا الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة الجملة القسمية به أى دعواه تعالى أن يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمى وقالا أو قائلين (لئن آتيتنا صالحا) أى ولدا من جنسنا سويا (لنكونن) نحن ومن يتناسل من ذريتنا (من الشاكرين) الراسخين فى الشكر على نعمائك التى من جملتها هذه النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما أنهما قد علما

واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي واتبع الذين ظلموا ما أترفوا أي واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ثم قال وكانوا مجرمين ومعناه ظاهر ﴿ قوله تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ اعلم أنه تعالى بين أنه ما أهلك أهل القرى إلا بظلم وفيه وجوه (الأول) أن المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى إن الشرك لظلم عظيم والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الأثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم فمعنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أي لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية قالوا والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق (والوجه الثاني) في التأويل وهو الذي تختاره المعتزلة هو أنه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعاليا عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل إنما يهلكهم لأجل سوء أفعالهم ثم قال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار وقد سبق الكلام عليه ثم قال ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذي سميناه بالرياض المونقة إلا أنا نذكر ههنا تقسيما جامعا للمذاهب فنقول الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بأن النار حارة والشمس مضيئة والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ومنهم من أنكرهما والمنكرون هم السوفسطائية والمقرون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم وهم فريقان منهم من سلم أنه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ومنهم من أنكره وهم الذين ينكرون أيضا النظر إلى العلوم وهم قليلون والأولون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم وهم فريقان منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسماني مبدأ أصلا وهم الأقلون ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان منهم من يقول ذلك المبدأ موجب بالذات وهم جمهور الفلاسفة في هذا الزمان ومنهم من يقول إنه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم ثم هؤلاء فريقان منهم من يقول إنه ما أرسل رسولا إلى العباد ومنهم من يقول إنه أرسل الرسول فالأولون هم البراهمة والقسم الثاني أرباب الشرائع والأديان وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حد لها ولا حصر والعقول مضطربة والمطالب غامضة ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ولما حسن من بقراط أن يقول في صناعة الطب العمر قصير والصناعة طويلة والقضاء عسر والتجربة خطر فلأن يحسن ذكره في هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة كان ذلك أولى (فإن قيل) إنكم حملتم قوله تعالى ولا يزالون مختلفين على الاختلاف في الأديان فما الدليل عليه ولم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال (قلنا) الدليل عليه أن ما قبل هذه الآية هو قوله ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية هو قوله إلا من رحم ربك فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله إلا من رحم ربك وذلك ليس إلا ما قلنا ثم قال تعالى إلا من رحم ربك احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى وذلك لأن هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف في الدين لا يحصل إلا لمن خصه الله برحمته وتلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العذر فإن كل ذلك حاصل في حق الكفار فلم يبق إلا أن يقال تلك الرحمة هو أنه سبحانه

أن ما علقا به دعاءهما أنموذج لسائر أفراد الجنس ومعيار لها ذاتا أو صفة وبجرده مستتبع لوجودها وصلاحه مستلزم لصلاحها فالدعاء في حقه متضمن للدعاء في حق الكل مستتبع له كأنهما قالا لئن آتيتنا وذريتنا أولادا صالحة وقيل إن ضمير آتيتنا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجه ظاهر وأنت خبير بأن نظم الكل في سلك الدعاء أصالة يأباه مقام المبالغة في الاعتناء بشأن ما هما بصدده وأما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لأن توسيع دائرة الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له وأيا ما كان فمعنى قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا) لما آتاهما ما طلباه أصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى (جعلا) أي جعل أولادهما (له) تعالى (شركاء) على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ثقة بوضوح الأمر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال في قوله تعالى (فيما آتاهما) أي فيما آتى أولادهما من الأولاد حيث سموهم بعبد مناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ مع أن إشراكهم بالعبادة أغلظ منه جناية وأقدم وقوعا لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح وأول كفرهم في حقه إنما هو تسميتهم إياه بما ذكر وقرئ

خلق فيه تلك الهداية والمعرفة قال القاضي معناه الامن رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب فيرحمه الله بالثواب ويحتمل الامن رحمه الله بألطافه فصار مؤمنا بألطافه وتسهيله وهذان الجوابان في غاية الضعف (أما الاول) فلأن قوله ولا يزالون مختلفين الامن رحم ربك يفيد ان ذلك الاختلاف انما زال بسبب هذه الرحمة فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف والثواب شيء متأخر عن زوال هذا الاختلاف فالاختلاف جار مجرى السبب له ومجرى المعلول فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد (وأما الثاني) وهو حمل هذه الرحمة على الالطاف فنقول جميع الالطاف التي فعلها في حق المؤمن فهي مفعولة أيضا في حق الكافر وهذه الرحمة أمر اختص به المؤمن فوجب أن يكون شيأ زائدا على تلك الالطاف وأيضا فحصول تلك الالطاف هل يوجب رجحان وجود الايمان على عدمه أولا يوجبه فان لم يوجبه كان وجود تلك الالطاف وعدمها بالنسبة الى حصول هذا المقصود سيان فلم يكن لطفا فيه وان أوجب الرجحان فقد بينا في الكتب العقلية أنه متى حصل الرجحان فقد وجب وحينئذ يكون حصول الايمان من الله ومما يدل على أن حصول الايمان لا يكون الا بخلق الله انه مالم يتميز الايمان عن الكفر والعلم عن الجهل امتنع القصد الى تكوين الايمان والعلم وانما يحصل هذا الامتياز اذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقا للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك وانما يصح حصول هذا العلم أن لو عرف أن ذلك المعتقد في نفسه كيف يكون وهذا يوجب انه لا يصح من العبد القصد الى تكوين العلم بالشيء الا بعد أن كان عالما وذلك يقتضي تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال فثبت أن زوال الاختلاف في الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل الا بخلق الله تعالى وهو المطلوب ثم قال تعالى ولذلك خلقهم وفيه ثلاثة أقوال (القول الاول) قال ابن عباس وللرحمة خلقهم وهذا اختيار جمهور المعتزلة قالوا ولا يجوز أن يقال وللاختلاف خلقهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان عود الضمير الى أقرب المذكورين أولى من عوده الى أبعدهما وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة والاختلاف أبعدهما (والثاني) انه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الايمان لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه اذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف (الثالث) اذا فسرنا الآية بهذا المعنى كان مطابقا لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون * فان قيل لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال ولتلك خلقهم ولم يقل ولذلك خلقهم * قلنا ان تأنيث الرحمة ليس تأنيثا حقيقيا فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله هذا رحمة من ربي وقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين (والقول الثاني) ان المراد وللاختلاف خلقهم (والقول الثالث) وهو المختار انه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وأهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه (الاول) الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما في العبد الا بخلق الله تعالى (الثاني) أن يقال انه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وعلى الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك والا لزم انقلاب العلم جهلا وهو محال (الثالث) انه تعالى قال بعده وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وهذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواما للهداية والجنة وأقواما آخرين للضلالة والنار وذلك يقوي هذا التأويل ﴿قوله تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة (أولهما) تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلي بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت فاذا سمع الرسول هذه القصص وعلم أن حال جميع الانبياء صلوات الله عليهم مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (والفائدة الثانية) قوله وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وفي قوله في هذه وجوه (أحدها) في هذه السورة (وثانيها) في هذه الآية (وثالثها) في هذه الدنيا

شركا أي شركة أوذوي شركة أي شركاء ان قيل ماذكر من حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه انما يصار اليه فيما يكون للفعل ملابسة تامة بالمضاف اليه أيضا بسرايته اليه حقيقة أو حكما وتتضمن نسبته اليه صورة مزية يقتضيها المقام كما في مثل قوله تعالى واذ أنجيناكم من آل فرعون الآية فان الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس الا بأسلاف اليهود قد نسب الى أخلافهم بحكم سرايته اليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا في قوله تعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله الآية فان القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند اليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب في انهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سراية الجعل المذكور اليهما بوجه من الوجوه فما وجه اسناده اليهما صورة قلنا وجهه الايذان بتركهما الاولى حيث أقدما على نظم أولادهما في سلك أنفسهما والتزما شكرهم في ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان ان اخلالهم بالشكر الذي وعداه وعداما مؤكدا باليمين بمنزلة اخلالهما به بالذات في استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما في ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية وهذا

وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالا مما ذكر في سائر السور ولو لم يكن فيها الا قوله فاستقم كما أمرت لكان الامر كما ذكرنا ثم انه تعالى بين انه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى (أما الحق) فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة (وأما الذكرى) فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال الباقية الصالحة (وأما الموعظة) فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح أحوالها في الدار الآخرة والذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة وذلك لان الروح انما جاء من ذلك العالم الا أنه لاستغراقه في محبة الجسد في هذا العالم نسى أحوال ذلك العالم فالكلام الالهى يذكره أحوال ذلك العالم فلهذا السبب صح اطلاق لفظ الذكر عليه (ثم ههنا دقيقة أخرى عجيبة) وهى أن المعارف الالهية لابد لها من قابل ومن موجب وقابلها هو القلب والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الالهية والتجليات القدسية لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب وهو تثبيت الفؤاد ثم لما ذكر صلاح حال القابل أردفه بذكر الموجب وهو مجىء هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى وهذا الترتيب في غاية الشرف والجلالة ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية في الاعذار والانذار والترغيب والترهيب أتبع ذلك بأن قال للرسول وقل للذين لا يؤمنون ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة اعملوا على مكانتكم انا عاملون وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه والمعنى افعلوا كل ما تقدرون عليه في حقى من الشر فنحن أيضا عاملون وقوله اعملوا وان كانت صيغته صيغة الامر الا أن المراد منه التهديد كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وكقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وانتظروا الهلاك فانا منتظرون لكم العذاب * ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال ولله غيب السموات والارض واعلم أن مجموع ما يحتاج الانسان الى معرفته أمور ثلاثة وهى الماضى والحاضر والمستقبل أما الماضى فهو أن يعرف الموجود الذى كان موجودا قبله وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذى نقله من العدم الى الوجود وذلك هو الاله تعالى وتقدس واعلم أن حقيقة ذات الاله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة وانما المعلوم للبشر صفاته ثم ان صفاته قسمان صفات الجلال وصفات الاكرام أما صفات الجلال فهى سلوب كقولنا انه ليس بجوهر ولا جسم ولا كذا ولا كذا وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال لان السلوب عدم والعدم المحض والنفى الصرف لا كمال فيه فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم انما أفاد الكمال لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرا عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا ألا ترى ان الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله وهو يطعم ولا يطعم انما أفاد الجلال والكمال والكبرياء لان قوله ولا يطعم يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنيا عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه فثبت ان صفات الكمال والعز والعلو هى الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان العلم والقدرة فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته في هذه الآية بهما في معرض التعظيم والثناء والمدح أما صفة العلم فقوله ولله غيب السموات والارض والمراد أن علمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات وتمام البيان والشرح في دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه وتعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وأما صفة القدرة فقوله واليه يرجع الامر كله والمراد أن مرجع الكل اليه وانما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو وهو والذى يكون مبدأ لجميع الممكنات واليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات كان

عليهما السلام (فتعالى الله عما يشركون) تنزيه فيه معنى التعجب والفاء لترتيب على ما فصل من أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية الى التوحيد وصيغة الجمع لما أشير اليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك وما في عما اما مصدرية أى عن اشراكهم أو موصولة أو موصوفة أى عما يشركونه به سبحانه والمراد باشراكهم اما تسميتهم المذكورة أو مطلق اشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرئ تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصى من قريش والمراد بالنفس الواحدة نفس قصى فانهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولاعقابهما المقتدين بهما وأما ما قيل من أنه لما حملت حواء أتاها ابليس في صورة رجل فقال لها ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب أو خنزير وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فأهمهما ذلك ثم عاد اليها وقال انى من الله تعالى بمنزلة فان دعوته أن يجعله خلفا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسمه حارثا في الملائكة فقبلت فلما ولدته سمته عبد الحرث فما

عظيم القدرة نافذ المشيئة قهار للعدم بالوجود والتحصيل جبار له بالقوة والفعل والتكميل فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلال المبدا ونعت كبريائه ﴿والمرتبة الثانية﴾ من المراتب التي يجب على الانسان كونه عالما بها أن يعرف ما هو مهم له في زمان حياته في الدنيا وما ذلك الا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية وهذه المرتبة لها بداية ونهاية أما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية أما العبادات الجسدانية فأفضل الحركات الصلاة وأكمل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة وأما العبادة الروحانية فهي الفكر والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والارض كما قال تعالى ويتفكرون في خلق السموات والارض وأما نهاية هذه المرتبة فالانتهاء من الاسباب الى مسببها وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات وتوجيه حدقة العقل الى نور عالم الجلال واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء ومن وصل الى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولا تائها في ساحة كبريائه هالكا فانيا في فناء سناء أسمائه وحاصل الكلام ان أول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله وآخرها التوكل على الله فلهذا السبب قال فاعبده وتوكل عليه ﴿والمرتبة الثالثة﴾ من المراتب المهمة لكل عاقل معرفة المستقبل وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية وهل لاعماله أثر في السعادة والشقاوة واليه الاشارة بقوله تعالى وما ربك بغافل عما تعملون والمقصود انه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الامر فريق في الجنة وفريق في السعير فظهر أن هذه الآية وافية بالارشاد الى جميع المطالب العلوية والمقاصد القدسية وانه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادي للصواب * تمت السورة بحمد الله وعونه ﴿وقد وجد بخط المصنف رضي الله تعالى عنه في النسخة المنتقل منها﴾ تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة احدى وستمائة وقد كان لي ولد صالح حسن السيرة فتوفي في الغربة في عنفوان شبابه وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب فأنا أنشد الله اخواني في الدين وشركائي في طلب اليقين وكل من نظر في هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿سورة يوسف مائة واحدى عشرة آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ وقد ذكرنا في أول سورة يونس تفسير الر تلك آيات الكتاب الحكيم فقوله تلك اشارة الى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة المسماة الر هي آيات الكتاب المبين وهو القرآن وانما وصف القرآن بكونه مبينا لوجوه (الاول) أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم (والثاني) أنه بين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام ولما بينت هذه الاشياء فيه كان الكتاب مبينا لهذه الاشياء (الثالث) أنه بينت فيه قصص الاولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين * ثم قال انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج الجبائي بهذه الآية على كون القرآن مخلوقا من ثلاثة

اوجه

لا تعويل عليه كيف لا وانه عليه الصلاة والسلام كان عالما في علم الاسماء والمسميات فعدم علمه بابليس واسمه واتباعه اياه في مثل هذا الشأن الخطير أمر قريب من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال (أيشركون) استئناف مسوق لتوبيخ كافة المشركين واستقباح اشراكهم على الاطلاق وابطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوه به سبحانه وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقه أي يشركون به تعالى (ما لا يخلق شيئا) أي لا يقدر على أن يخلق شيئا من الاشياء أصلا ومن حق المعبود أن يكون خالقا لعابده لا محالة وقوله تعالى (وهم يخلقون) عطف على لا يخلق وايراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما الى ما المعبر بها عن الاصنام انما هو بحسب اعتقادهم فيها واجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة وكذا حال سائر الضمائر الآتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لابانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها واظهار غاية جهلهم فان اشراك ما لا يقدر على خلق شئ ما بخالقه وخالق جميع الاشياء مما لا يمكن أن يسوغه من له عقل في الجملة وعدم التعرض لنذاقة اللائذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (ولا يستطيعون لهم) أي لعبدتهم اذا حزبهم أمرهم

أوجه (الاول) ان قوله انا أنزلناه يدل عليه فان القديم لا يجوز تنزيله وانزاله وتحويله من حال الى حال (الثاني) انه تعالى وصفه بكونه عربيا والقديم لا يكون عربيا ولا فارسيا (الثالث) انه لما قال انا أنزلناه قرآنا عربيا دل على انه تعالى كان قادرا على أن ينزله لا عربيا وذلك يدل على حدوثه (الرابع) ان قوله تلك آيات الكتاب يدل على انه مركب من الآيات والكلمات وكل ما كان مركبا كان محدثا (والجواب) عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول انها تدل على ان المركب من الحروف والكلمات والالفاظ والعبارات محدث وذلك لا نزاع فيه انما الذي ندعي قدمه شئ آخر فسقط هذا الاستدلال (المسئلة الثالثة) احتج الجبائي بقوله لعلكم تعقلون فقال كلمة لعل يجب حملها على الجزم والتقدير انا أنزلناه قرآنا عربيا لتعقلوا معانيه في أمر الدين اذ لا يجوز أن يراد لعلكم تعقلون الشك لانه على الله تعالى محال فثبت أن المراد أنه أنزله لارادة ان يعرفوا دلائله وذلك يدل على انه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه من عرف منهم ومن لم يعرف بخلاف قول المجبرة (والجواب) هب ان الامر على ما ذكرتم الا أنه يدل على انه تعالى أنزل هذه السورة وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم انها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الايمان والعمل الصالح ﴿ قوله تعالى ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ روى سعيد بن جبير أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴿المسئلة الثانية﴾ القصص اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله في اللغة المتابعة قال تعالى وقالت لاخته قصيه أي اتبعي أثره وقال تعالى فارتدا على آثارهما قصصا أي اتباعا وانما سميت الحكاية قصصا لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ كما يقال تلا القرآن اذا قرأه لانه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص يقال قص الحديث يقصه قصا وقصصا اذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله ارسالا ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى أي مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أي معلومه وهذا رجاؤنا أي مرجونا فان حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص وعلى هذا التقدير فالحسن يعود الى حسن البيان لا الى القصة والمراد من هذا الحسن كون هذه الالفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة الى حد الاعجاز ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيأ منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة وان حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها فان احدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى اذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه ﴿والفائدة الثانية﴾ دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان ﴿والفائدة الثالثة﴾ أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فانه لما صبر فاز بمقصوده وكذلك في حق يوسف عليه السلام أما قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن فالمعنى بوحينا اليك هذا القرآن وهذا التقدير ان جعلنا ما مع الفعل بمنزلة المصدر ثم قال وان كنت من قبله يريد من قبل أن نوحي اليك لمن الغافلين عن قصة يوسف واخوته لانه عليه السلام انما علم ذلك بالوحي ومنهم من قال المراد انه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴿ قوله تعالى ﴿اذ قال يوسف لابيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ تقدير الآية اذكر اذ قال يوسف قال صاحب الكشاف الصحيح أنه اسم عبراني لانه لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف وقرأ بعضهم يوسف بكسر السين ويوسف بفتحها وأيضا روي في يونس هذه اللغات الثلاث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف

وخطاب مسلم (نصرا) أي نصرا ما بجلب منفعة أو دفع مضرة (ولا أنفسهم ينصرون) اذا اعتراهم حادثة من الحوادث أي لا يدفعونها عن أنفسهم وايراد النصر للمشاكلة وهذا بيان لعجزهم عن ايصال منفعة ما من المنافع الوجودية والعدمية الى عبدتهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن ايصال منفعة الوجود اليهم والى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هنالك بالمخلوقية لكونهم أهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لانهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى (وان تدعوهم الى الهدى) بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والارشاد الى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت أي ان تدعوهم أيها المشركون الى أن يهدوكم الى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره (لا يتبعوكم) الى مرادكم وطلبتكم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين لكيفية عدم الاتباع أي مستو عليكم في عدم الافادة دعاؤكم لهم وسكوتكم الصمت فانه لا يتغير حالكم في الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية وقوله تعالى أم أنتم

الدرجات العالية فههنا يفسر اتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بامور (الاول) ان اتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان وماذاك في حق البشر الا بالنبوة فان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة الى كمال النبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس الا النبوة (والثاني) قوله كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز ابراهيم واسحق عن سائر البشر ليس الا النبوة فوجب أن يكون المراد باتمام النعمة هو النبوة واعلم انا اذا فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء وذلك لانه قال ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب فلما كان المراد من اتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن يبقى معمولا به في حق أولاده وأيضا ان يوسف عليه السلام قال اني رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لاشيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا * فان قيل كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام * قلنا ذاك وقع قبل النبوة وعندنا العصمة انما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها (القول الثاني) أن المراد من قوله ويتم نعمته عليك خلاصه من المحن ويكون وجه التشبيه في ذلك بابراهيم واسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على ابراهيم بانجائه من النار وعلى ابنه اسحق بتخليصه من الذبح (والقول الثالث) أن اتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعمة الآخرة بان جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى في الجنة واعلم أن القول الصحيح هو الاول لان النعمة التامة في حق البشر ليست الا النبوة وكل ماسواها فهي ناقصة بالنسبة اليها ثم انه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاث ختم الكلام بقوله ان ربك عليم حكيم فقوله عليم اشارة الى قوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقوله حكيم اشارة الى ان الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لا يضع النبوة الا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية (فان قيل) هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها أم لا فان كان قاطعا بصحتها فكيف حزن على يوسف عليه السلام وكيف جاز أن يشتبه عليه ان الذئب أكله وكيف خاف عليه من اخوته أن يهلكوه وكيف قال لاخوته وأخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون مع علمه أن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولا وأما اذا قلنا انه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الاحوال فكيف قطع بها وكيف حكم بوقوعها حكما جازما من غير تردد (قلنا) لا يبعد أن يكون قوله وكذلك يجتبيك ربك مشروطا بأن لا يكيدوه لان ذكر ذلك قد تقدم وأيضا فبتقدير أن يقال انه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل الى هذه المناصب الا انه لا يمتنع أن يقع في المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل الى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله وأخاف أن يأكله الذئب الزجر عن التهاون في حفظه وان كان يعلم أن الذئب لا يصل اليه ﴿قوله تعالى ﴿لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين﴾ في هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر صاحب الكشاف أسماء اخوة يوسف يهوذا روبيل شمعون لاوى ربالون يشجر دينة دان نفتالى جاد آشر ثم قال السبعة الاولون من ليا بنت خالة يعقوب والاربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (المسئلة الثانية) قوله آيات للسائلين قرأ ابن كثير آية بغير ألف جعله على شأن يوسف والباقون آيات على الجمع لان أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه (المسئلة الثالثة) ذكروا في تفسير قوله تعالى آيات للسائلين وجوها (الاول) قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد الى اليهود فاعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع فقالوا له من علمك هذه القصة فقال الله علمني فنزل لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين وهذا الوجه عندي

أخذه وتأخيره هذا عما قبله لما أن المشي حالهم في أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة الى الغير وأما تقديمه على قوله تعالى (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة الى الغير فلمراعاة المقابلة بين الايدي والارجل ولان انتفاء المشي والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى وأما تقديم الاعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عينا وأثرا هذا وقد قرئ ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم على اعمال ان النافية عمل ما الحجازية أي ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى ألهم الخ تقريرا لنفي المماثلة باثبات القصور والنقصان (قل ادعوا شركاءكم) بعد ما بين أن شركاءهم لا يقدرون على شيء ما أصلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يناصبهم للمحاجة ويكرر عليهم التبكيت والقام الحجر أي ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم على (ثم كيدون) جميعا أنتم وشركاؤكم وبالغوا في ترتيب ما تقدرون عليه من مبادى الكيد والمكر (فلا تنظرون) أي فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فاني

بعيد لان المفهوم من الآية ان في واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذي نقلناه ما كانت الآيات في قصة يوسف بل كانت الآيات في اخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر (والثاني) أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته و يظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين ان اخوة يوسف بالغوا في ايذائه لاجل الحسد و بالآخرة فان الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ومثل هذه الواقعة اذا سمعها العاقل كانت زاجرة له عن الاقدام على الحسد (والثالث) أن يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك ان الله تعالى لما وعد محمدا عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الاعداء فاذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذبا فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه (الرابع) ان اخوة يوسف بالغوا في ابطال أمره ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الامر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الاعداء فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله لما ضمن له اعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في ابطال أمره وأما قوله للسائلين فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿ثم قال تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ليوسف اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين وانما قالوا أخوه وهم جميعا اخوة لان أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ ونحن عصبة بالنصب قيل معناه ونحن نجتمع عصبة (المسئلة الثانية) المراد منه بيان السبب الذي لاجله قصدوا ايذاء يوسف وذلك ان يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الاولاد في الحب وانهم تأذوا منه لوجوه (الاول) انهم كانوا أكبر سنا منهما (وثانيها) انهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياما بمصالح الاب منهما (وثالثها) انهم قالوا انا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات اذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل ثم انه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا ان أبانا لفي ضلال مبين يعني هذا حيف ظاهر وضلال بين وههنا سؤالات (الاول) ان من الامور المعلومة أن تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد ويورث الآفات فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضا الاسن والاعلم والانفع أفضل فلم قلب هذه القضية (والجواب) انه عليه السلام ما فضلهما على سائر الاولاد الا في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم (السؤال الثاني) ان أولاد يعقوب عليه السلام ان كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله وان كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم (والجواب) انهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى الا انهم لعلهم جوزوا من الانبياء عليهم السلام أن يفعلوا افعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد وذلك لانهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات واصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة فليس لله علي فيه تكليف وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه (أحدها) أن أمهما ماتت وهما صغار (وثانيها) لانه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الاولاد (وثالثها) لعله عليه السلام وان كان صغيرا الا انه كان يخدم أباه بانواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الاولاد والحاصل ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في

لا أبالي بكم أصلا (ان وليي الله الذي نزل الكتاب) تعليل لعدم المبالاة المفهوم من السوق انفهاما جليا ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب للاشعار بدليل الولاية والاشارة الى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل لا أبالي بكم وبشركائكم لان وليي هو الله الذي نزل الكتاب الناطق بانه وليي وناصري وبان شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم وقوله تعالى (وهو يتولى الصالحين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله أي ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصرهم ولا يخذلهم (والذين تدعون) أي تعبدونهم (من دونه) تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به (لا يستطيعون نصركم) أي في أمر من الامور أو في خصوص الامر المذكور (ولا أنفسهم ينصرون) اذا نابتهم نائبة (وان تدعوهم الى الهدى) الى أن يهدوكم الى ما تحصلون به مقاصدكم على الاطلاق أو في خصوص الكيد المعهود (لا يسمعوا) أي دعاءكم فضلا عن المساعدة والامداد وهذا أبلغ من نفي الاتباع وقوله تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) بيان لعجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار أصلا والرؤية بصرية وقوله تعالى ينظرون اليك حال من المفعول والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون أي وترى

ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ ابن عامر يا أبت بفتح التاء في جميع القرآن والباقون بكسر التاء أما الفتح فوجهه أنه كان في الاصل يا أبتاه على سبيل الندبة فحذفت الالف والهاء وأما الكسر فأصله يا أبي فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال يا أبت ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فادخلوا عليه الاضافة وهذا قول ثعلب وابن الانباري واعلم أن النحويين طولوا في هذه المسئلة ومن أراد كلامهم فليطالع كتبهم ﴿المسئلة الثالثة﴾ ان يوسف عليه السلام رأى في المنام ان أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدت له وكان له أحد عشر نفرا من الاخوة ففسر الكواكب بالاخوة والشمس والقمر بالاب والام والسجود بتواضعهم له ودخولهم تحت أمره وانما حملنا قوله اني رأيت أحد عشر كوكبا على الرؤيا بالوجهين (الاول) أن الكواكب لا تسجد في الحقيقة فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا (والثاني) قول يعقوب عليه السلام لا تقصص رؤياك على اخوتك وفي الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ قوله رأيتهم لي ساجدين فقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات (قلنا) ان جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب احياء ناطقة احتجوا بهذه الآية وكذلك احتجوا بقوله تعالى وكل في فلك يسبحون والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء وقال الواحدي انه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل فاخبر عنها كما يخبر عمن يعقل كما قال في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما في قوله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴿السؤال الثاني﴾ قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية وقال رأيتهم لي ساجدين فما الفائدة في هذا التكرير (الجواب) قال القفال رحمه الله ذكر الرؤية الاولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له كيف رأيت فقال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين ان أيهما يحمل على الرؤية وأيهما على الرؤيا فذكر قولا مجملا غير مبين ﴿السؤال الثالث﴾ لم أخر الشمس والقمر (قلنا) أخرهما لفضلهما على الكواكب لان التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴿السؤال الرابع﴾ المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله

* ترى الاكم فيه سجدا للحوافر *

(قلنا) كلاهما محتمل والاصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له ﴿السؤال الخامس﴾ متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا (قلنا) لا شك أنه رآها حال الصغر فاما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم الا بالاخبار قال وهب رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون سنة واعلم أن الحكماء يقولون أن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم ﴿السؤال السادس﴾ قال بعضهم المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه (قلنا) انما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لان رؤيا الانبياء عليهم السلام لابد وأن تكون وحيا وهذه الحجة غير قوية لان يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الانبياء ﴿السؤال السابع﴾ وما تلك الكواكب (قلنا) روى صاحب الكشاف أن يهوديا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أخبرني عن النجوم

صامتون جملة اسمية في معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لانها في قوة أم صمتم فعدل عنها للمبالغة في عدم افادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وما قيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وان تدعوا المشركين الى الهدى أي الاسلام لا يتبعوكم الخ مما لا يساعده سياق النظم الكريم وسياقه أصلا على أنه لو كان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما في قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فان استواء الدعاء وعدمه انما هو بالنسبة الى المشركين لا بالنسبة الى الداعين فانهم فائزون بفضل الدعوة (ان الذين تدعون من دون الله) تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم أي ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الاصنام وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أي مماثلة لكم لكن لا من كل وجه بل من حيث انها مملوكة لله عز وجل مسخرة لامره عاجزة عن النفع والضر وتشبيهها بهم في ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم انما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما اذ هو الذي يدعوهم الى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى (فادعوهم فليستجيبوا لكم) تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أي فادعوهم في جلب نفع أو كشف ضر (ان كنتم صادقين) في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم

التي

التى رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودى ان أخبرتك هل تسلم قال نعم قال جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له فقال اليهودى اى والله انها الاسماء واعلم أن كثيرا من هذه الاسماء غير مذكور فى الكتب المصنفة فى صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال ﴿ قوله تعالى ﴿قال يابنى لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حفص يابنى بفتح الياء والباقون بالكسر ﴿المسئلة الثانية﴾ ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالامارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن اخوته وأبويه يخضعون له فقال لاتخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال الواحدى الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى الا أنه لما صار اسما لهذا المتخيل فى المنام جرى مجرى الاسماء قال صاحب الكشاف الرؤيا بمعنى الرؤية الا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفى التأنيث كما قيل القربة والقربى وقرئ رويا بقلب الهمزة واوا وسمع الكسائى يقرأ رياك وريّاك بالادغام وضم الراء وكسرها وهى ضعيفة ثم قال تعالى فيكيدوا لك كيدا وهو منصوب باضمار ان والمعنى ان قصصتها عليهم كادوك * فان قيل فلم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى * قلنا هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل هى من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيدا لك قال أهل التحقيق وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا والا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدا وغضبا ثم قال ان الشيطان للانسان عدو مبين والسبب فى هذا الكلام انهم لو اقدموا على الكيد لكان ذلك مضافا الى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ثم ان يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكر امورا (أولها) قوله وكذلك يجتبيك ربك يعنى وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شان كذلك يجتبيك لامور عظام قال الزجاج الاجتباء مشتق من جبيت الشئ اذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض واختلفوا فى المراد بهذا الاجتباء فقال الحسن يجتبيك ربك بالنبوة وقال آخرون المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه (وثانيها) قوله ويعلمك من تأويل الاحاديث وفيه وجوه (الاول) المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رآه فى المنام يعنى تأويل أحاديث الناس فيما يرونه فى منامهم قالوا انه عليه السلام كان فى علم التعبير غاية (والثانى) تأويل الاحاديث فى كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين كما ان الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله وتأويل الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم (والثالث) الاحاديث جمع حديث والحديث هو الحادث وتأويلها مآلها ومآل الحوادث الى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته والمراد من تأويل الاحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته (وثالثها) قوله ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر اتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضا والا لزم التكرار بل يفسر اتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والحشم واجلاله فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى وأما من فسر الاجتباء بنيل

عاجزون عنه وقوله تعالى (ألهم أرجل يمشون بها) الخ تبكيت اثر تبكيت مؤكد لما يفيده الامر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية انما تتصور اذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شئ من ذلك فهو بمعزل من الافاعيل بالمرة كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لكم وقد وجه الانكار الى كل واحدة من هذه الآلات الاربع على حدة تكريرا للتبكيت وتثنية للتقريع واشعارا بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة ووصف الارجل بالمشى بها للايذان بأن مدار الانكار هو الوصف وانما وجه الى الارجل لا الى الوصف بأن يقال أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الارجل فهى ليست بأرجل فى الحقيقة وكذا الكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث الباقية وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم أيد يبطشون بها) منقطعة وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والالزام وبل للاضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه الى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الاخذ بقوة وقرئ يبطشون بضم الطاء وهى لغة فيه والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون

دين الآخر أوفى عرضه (السؤال الثالث) انهم نسبوا أباهم الى الضلال المبين وذلك مبالغة فى الذم والطعن ومن بالغ فى الطعن فى الرسول كفر لاسيما اذا كان الطاعن ولدا فان حق الابوة يوجب مزيد التعظيم (والجواب) المراد منه الضلال عن رعاية المصالح فى الدنيا الا البعد عن طريق الرشد والصواب (السؤال الرابع) ان قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر لاسيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد وعلى تضييع ذلك الاخ الصالح والقائه فى ذل العبودية وتبعيده عن الاب المشفق وألقوا أباهم فى الحزن الدائم والاسف العظيم وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة فى الشر والفساد الا وقد أتوا بها وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (والجواب) الامر كما ذكرتم الا أن المعتبر عندنا عصمة الانبياء عليهم السلام فى وقت حصول النبوة وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين﴾ واعلم انه لما قوى الحسد وبلغ النهاية قالوا لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل الا باحد طريقين القتل أو التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه فى الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ثم ذكروا العلة فيه وهى قولهم يخل لكم وجه أبيكم والمعنى ان يوسف شغله عنا وصرف وجهه اليه فاذا فقده أقبل علينا بالميل والمحبة وتكونوا من بعده قوما صالحين وفيه وجوه (الاول) انهم علموا ان ذلك الذى عزموا عليه من الكبائر فقالوا اذا فعلنا ذلك تبنا الى الله ونصير من القوم الصالحين (والثانى) أنه ليس المقصود ههنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محبا لكم مشتغلا بشأنكم (الثالث) المراد انكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لاصلاح مهم فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم واختلفوا فى أن هذا القائل الذى أمر بالقتل من كان على قولين (أحدهما) أن بعض اخوته قال هذا (والثانى) انهم شاوروا أجنبيا فاشار عليهم بقتله ولم يقل ذلك أحد من اخوته فامامن قال بالاول فقد اختلفوا فقال وهب انه شمعون وقال مقاتل روبيل فان قيل كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء قلنا من الناس من أجاب عنه بانهم كانوا فى هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين وهذا ضعيف لانه يبعد من مثل نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم انسان عاقل يمنعهم عن القبائح وأيضا انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين وذلك ينافى كونهم من الصبيان ومنهم من أجاب بان هذا من باب الصغائر وهذا أيضا بعيد لان ايذاء الاب الذى هو نبى معصوم والكذب معه والسعى فى اهلاك الاخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر بل الجواب الصحيح أن يقال انهم ما كانوا أنبياء وان كانوا أنبياء الا ان هذه الواقعة انما أقدموا عليها قبل النبوة ثم انه تعالى حكى ان قائلا قال لا تقتلوا يوسف قيل انه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن القتل وقيل يهودا وكان أقدمهم فى الرأى والفضل والسن ثم قال وألقوه فى غيابة الجب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع فى غيابات الجب على الجمع فى الحرفين هذا والذى بعده والباقون غيابة على الواحد فى الحرفين اما وجه الغيابات فهو ان للجب أقطارا ونواحى فيكون فيها غيابات ومن وحد قال المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب وقرأ الجحدرى فى غيبة الجب (المسئلة الثانية) قال أهل اللغة الغيابة كل ما غيب شيأ وستره فغيابة الجب غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله والجب البئر التى ليست بمطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها غير القطع من طى أو ما أشبهه وانما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على ان المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى اذ كان يحتمل أن يلقى فى موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين (المسئلة الثالثة) الالف واللام فى الجب تقتضى المعهود السابق واختلفوا فى ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو بارض الاردن وقال مقاتل

الاصنام رأى العين يشبهون الناظرين اليك ويخيل اليك أنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته الى الشئ ينظر اليه والحال أنهم غير قادرين على الابصار وتوحيد الضمير فى تراهم مع رجوعه الى المشركين لتوجيه الخطاب الى كل واحد منهم لا الى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيها على أن رؤية الاصنام على الهيئة المذكورة لا تتسنى للكل معا بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل فى تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله وقيل للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى لا يسمعوا أى وترى المشركين ينظرون اليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه وعن الحسن أن الخطاب فى قوله تعالى وان تدعوا للمؤمنين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى ينصرون أى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الاسلام لا يلتفتوا اليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون اليك والحال أنهم لا يبصرونك حق الابصار تنبيها على أن ما فيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين (خذ العفو) بعد ما عد من أباطيل المشركين وقبائحهم

هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم يلتقطه بعض السيارة وذلك لان تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيرا وكان يعلم أنه اذا طرح فيها يكون الى السلامة أقرب لان السيارة اذا اجتازوا وردوها واذا وردوها شاهدوا ذلك الانسان فيها واذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان القاؤه فيها أبعد عن الهلاك (المسئلة الرابعة) الالتقاط تناول الشئ من الطريق ومنه اللقطة واللقيط وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء على المعنى لان بعض السيارة أيضا سيارة والسيارة الجماعة الذين يسيرون فى الطريق للسفر قال ابن عباس يريد المارة وقوله ان كنتم فاعلين فيه اشارة الى أن الاولى أن لا تفعلوا شيأ من ذلك وأما ان كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به يعنى الاولى أن لا تفعلوا ذلك ﴿قوله تعالى ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون﴾ اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك والا لما قالوا هذا القول واعلم انهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم انهم فى غاية المحبة ليوسف وفى غاية الشفقة عليه وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة الى الرعى فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف لا تأمنا قرئ باظهار النونين وبالادغام باشمام وبغير اشمام والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به (المسئلة الثانية) فى يرتع ويلعب خمس قرا آت (الاولى) قرأ ابن كثير بالنون وبكسر عين نرتع من الارتعاء ويلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت يقال رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيا اذا أكلته وقوله نرتع الارتعاء للابل والمواشى وقد أضافوه الى أنفسهم لان المعنى نرتع ابلنا ثم نسبوه الى أنفسهم لانهم هم السبب فى ذلك الرعى والحاصل انهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال الى أنفسهم لانهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب الى يوسف لصغره (القراءة الثانية) قرأ نافع كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء الى يوسف بمعنى انه يباشر رعى الابل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان (القراءة الثالثة) قرأ أبو عمرو وابن عامر نرتع بالنون وجزم العين ومثله نلعب قال ابن الاعرابى الرتع الاكل بشره وقيل انه الخصب وقيل المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان وأما نلعب فروى أنه قيل لابى عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورته (القراءة الرابعة) قرأ أهل الكوفة كليهما بالياء وسكون العين ومعناه اسناد الرتع واللعب الى يوسف عليه السلام (القراءة الخامسة) يرتع بالياء ونلعب بالنون وهذا بعيد لانهم انما سألوا ارسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون﴾ اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر اليهم بشيئين (أحدهما) ان ذهابهم به ومفارقتهم اياه مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة (والثانى) خوفه عليه من الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به قيل انه رأى فى النوم ان الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم الحجة وفى أمثالهم البلاء موكل بالمنطق وقيل الذئاب كانت فى أراضيهم كثيرة وقرئ الذئب بالهمز على الاصل وبالتخفيف وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا أتت من كل جهة فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون وفيه سؤالات (السؤال الاول) ما فائدة اللام فى قوله لئن أكله الذئب (والجواب) من وجهين (الاول) ان كلمة ان تفيد كون الشرط مستلزما للجزاء أى ان وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام (الثانى) قال صاحب الكشاف هذه

مالا يطاق فحمله أمر عليه الصلاة والسلام بجامع مكارم الاخلاق التى من جملتها الاغضاء عنهم أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تكلفهم ما يشق عليهم من العفو الذى هو ضد الجهد أو خذ العفو من المذنبين أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة (وأمر بالعرف) بالجميل المستحسن من الافعال فانها قريبة من قبول الناس من غير نكير (وأعرض عن الجاهلين) من غير مماراة ولا مكافأة قيل لما نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال له يا محمد ان ربك أمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر الصادق أمر الله تعالى نبيه بمكارم الاخلاق وروى أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام كيف يا رب والغضب متحقق فنزل قوله تعالى (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسته للناس واغراؤه لهم على المعاصى بغرز السائق لما يسوقه واسناده الى النزغ من قبيل جد جده أى واما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ما أمرت به من اعتراء غضب أو نحوه (فاستعذ بالله) فالتجئ اليه تعالى من شره (انه سميع) يسمع استعاذتك به قولا (عليم) يعلم تضرعك

اللام تدل على اضمار القسم تقديره والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين ﴿السؤال الثانى﴾ ما فائدة الواو فى قوله ونحن عصبة (الجواب) انها واو الحال حلفوا لئن حصل ما خافه من خطف الذئب اخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب انهم اذا القوم خاسرون ﴿السؤال الثالث﴾ ما المراد من قولهم انا اذا لخاسرون (الجواب) فيه وجوه (الاول) خاسرون أى هالكون ضعفا وعجزا ونظيره قوله تعالى لئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أى لعاجزون (الثانى) انهم يكونون مستحقين لان يدعى عليهم بالخسارة والدمار وان يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون (الثالث) المعنى انا ان لم نقدر على حفظ اخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها (الرابع) انهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم فى خدمة أبيهم واجتهدوا فى القيام بمهماته وانما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا لو قصرنا فى هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الاعمال وخسرنا كل ما صدر منا من أنواع الخدمة ﴿السؤال الرابع﴾ أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر (والجواب) ان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه ﴿قوله تعالى ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ اعلم أنه لابد من الاضمار فى هذه الآية فى موضعين (الاول) ان تقدير الآية قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فاذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله فلما ذهبوا به (والثانى) أنه لابد لقوله فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب من جواب اذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وههنا كذلك قال السدى ان يوسف عليه السلام لما برز مع اخوته أظهروا له العداوة الشديدة وجعل هذا الاخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك فقال يهودا أليس قد أعطيتمونى موثقا ان لا تقتلوه فانطلقوا به الى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب فقال لهم ردوا على قميصى لا توارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك ثم دلوه فى البئر حتى اذا بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام بها وهو يبكى فنادوه فظن انه رحمة أدركتهم فأجابهم فارادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام وروى أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال يا شاهدا غير غائب ويا قريبا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وروى ان ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف عليه السلام فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه اياه ثم قال تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى قوله وأوحينا اليه قولان (أحدهما) ان المراد منه الوحى والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أنه عليه السلام هل كان فى ذلك الوقت بالغا أو كان صبيا قال بعضهم انه كان فى ذلك الوقت بالغا وكان سنه سبع عشرة سنة وقال آخرون انه كان صغيرا الا ان الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما فى حق عيسى عليه السلام ﴿والقول الثانى﴾ ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله وأوحى ربك الى النحل والاول أولى لان الظاهر من الوحى ذلك فان قيل كيف يجعل نبيا فى ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة قلنا لا يمتنع أن يشرفه بالوحى والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحى تأنيسه وتسكين نفسه وازالة الغم والوحشة عن قلبه ﴿المسئلة الثانية﴾ فى قوله وهم لا يشعرون قولان (الاول) المراد ان الله تعالى أوحى الى يوسف انك لتخبرن اخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون فى ذلك الوقت بانك يوسف والمقصود تقوية قلبه بانه سيحصل له

اليه قلبا فى ضمن القول أو بدونه فيحملك من شره وقد جوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما فى قول الصديق رضى الله عنه ان لى شيطانا يعترينى ففيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه وفى الامر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لامره وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها الا بالالتجاء الى حرم عصمته عز وجل وقيل يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها (ان الذين اتقوا) استئناف مقرر لما قبله ببيان أن ما أمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكة للمتقين والاخلال بها ديدن الغاوين أى ان الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها (اذا مسهم طائف من الشيطان) أدنى لمة منه على أن تنوينه للتحقير وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أو من طاف به الخيال يطيف طيفا أى ألم وقرئ طيف على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوى أو اليائى كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره فيما سيأتى (تذكروا) أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه (فاذا هم) بسبب ذلك التذكر (مبصرون) مواقع الخطاء ومكايد

الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته وروى انهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه في البئر وقلتم لابيكم أكله الذئب (والثاني) ان المراد انا أوحينا الى يوسف عليه السلام في البئر بانك تنبئ اخوتك بهذه الاعمال وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه والفائدة في اخفاء نزول ذلك الوحي عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله (المسئلة الثالثة) اذا حملنا قوله وهم لا يشعرون على التفسير الاول كان هذا أمرا من الله تعالى ليوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه فلهذا السبب كتم اخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة مع علمه بوجد أبيه به خوفا من مخالفة أمر الله تعالى وصبر على تجرع تلك المرارة فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل اليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه الى الله تعالى وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل الى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول اليها الا بتحمل المحن الشديدة والله أعلم * قوله تعالى ﴿وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ اعلم انهم لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا الى أبيهم وقت العشاء باكين وروى ابن جني عشى بضم العين والقصر وقال عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال هل أصابكم في غنمكم شئ قالوا لا قال فما فعل يوسف قالوا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب فبكى وصاح وقال أين القميص فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص وروى أن امرأة تحاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبي يا أبا أمية ما تراها تبكي قال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان أن يقضي الا بالحق واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج يسابق بعضهم بعضا في الرمي ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف أو نصل أو حافر يعني بالنصل الرمي وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمي اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهما وأبعد غلوة ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال استبقا وتسابقا اذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهما ويدل على صحة هذا التفسير ما روى أن في قراءة عبد الله انا ذهبنا ننتضل (والقول الثاني في تفسير الاستباق) ما قاله السدي ومقاتل نستبق نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدوا * فان قيل كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان * قلنا الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولانه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب اذا اختلس الشاة وقوله فأكله الذئب قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع والوجه هو الاول ثم قالوا وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك اياه ولظننت أنا قد كذبنا والحاصل انا وان كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لانك تتهمنا وقيل المعنى انا وان كنا صادقين فانك لا تصدقنا لانه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الايمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق لان المراد من قوله وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق واذا ثبت أن الامر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبقى في عرف الشرع كذلك وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله الذين يؤمنون بالغيب * ثم قال تعالى وجاؤا على قميصه بدم كذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما جاؤا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهموا كونهم صادقين في مقالتهم قيل ذبحوا جديا ولطخوا ذلك القميص بدمه قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم لانه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المسئلة من أن يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الايهام أقوى فلما شاهد يعقوب

الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه (واخوانهم) أي اخوان الشياطين وهم المنهمكون في الغي المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار (يمدونهم في الغي) أي يكون الشياطين مددا لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه وقرئ يمدونهم من الامداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والاغراء وهؤلاء بالاتباع والامتثال (ثم لا يقصرون) أي لا يمسكون عن الاغواء حتى يردوهم بالكلية ويجوز أن يكون الضمير للاخوان أي لا يرعوون عن الغي ولا يقصرون كالمتقين ويجوز أن يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير الى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هو له (واذا لم تأتهم بآية) من القرآن عند تراخي الوحي أو بآية مما اقترحوه (قالوا لولا اجتبيتها) اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه أي هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا يرون بذلك أن سائر الآيات أيضا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاء (قل) ردا عليهم (انما أتبع ما يوحى الي من ربي) من غير أن يكون لي دخل ما في ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع ما يوحى اليه بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالنسبة الى مقابله الذي كلفوه اياه عليه الصلاة والسلام لا على

القميص صحيحا علم كذبهم (المسئلة الثانية) قوله وجاؤا على قميصه أي وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال جاؤا
على جمالهم بأحمال (المسئلة الثالثة) قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الانباري
بدم كذب أي مكذوب فيه الا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذي كذب ولكنه جعل نفسه كذبا للمبالغة
قالوا والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال ماء سكب أي مسكوب ودرهم ضرب الامير وثوب نسج
اليمن والفاعل كقوله ان أصبح ماؤكم غورا ورجل عدل وصوم ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمي المصدر
أيضا بهما فقالوا للعقل المعقول وللجلد المجلود ومنه قوله تعالى بأيكم المفتون وقوله اذا مزقتم كل ممزق قال
الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك لانهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على
أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب عليه السلام فألقي على
وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى أن اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص
الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت لكم أنفسكم أمرا قال ابن عباس معناه بل زينت لكم
أنفسكم أمرا والتسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه قال الازهري كان التسويل تفعيل
من سول الانسان وهو أمنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز غير ان العرب
استثقلوا فيه الهمز وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء اذا عرفت هذا
فنقول قوله بل رد لقولهم أكله الذئب كانه قال ليس كما تقولون بل سولت لكم أنفسكم في شأنه أمرا أي
زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون واختلفوا في السبب الذي به عرف كونهم كاذبين على وجوه
(الاول) أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم (والثاني) أنه كان عالما بأنه
حي لانه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل قاطع على انهم كاذبون في
ذلك (القول الثالث) قال سعيد بن جبير لما جاؤا على قميصه بدم كذب وما كان متخرقا قال كذبتم لو أكله
الذئب لخرق قميصه وعن السدي أنه قال ان يعقوب عليه السلام قال ان هذا الذئب كان رحيما فكيف
أكل لحمه ولم يخرق قميصه وقيل انه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه
وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منهم الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم * ثم قال
يعقوب عليه السلام فصبر جميل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) منهم من قال انه مرفوع بالابتداء وخبره
محذوف والتقدير فصبر جميل أولى من الجزع ومنهم من أضمر المبتدأ قال الخليل الذي أفعله صبر جميل
وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل (المسئلة الثانية) كان يعقوب عليه
السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى
الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكوني فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي وروى عن عائشة رضي الله عنها
في قصة الافك أنها قالت والله لئن حلفت لا تصدقوني وان اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب
وولده فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون فأنزل الله عز وجل في عذرها ما أنزل (المسئلة الثالثة)
عن الحسن أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله فصبر جميل فقال صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر
ويدل عليه من القرآن قوله تعالى انما أشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل أي من غير
جزع وقال الثوري من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك (وههنا بحث) وهو ان الصبر
على قضاء الله تعالى واجب فأما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين فغير واجب بل الواجب ازالته لا سيما
في الضرر العائد الى الغير وههنا ان اخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ولم لم
يبالغ في التفتيش والبحث سعيا منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان في الاحياء
وفي اقامة القصاص ان صح أنهم قتلوه فثبت أن الصبر في هذا المقام مذموم ومما يقوي هذا السؤال انه
عليه الصلاة والسلام كان عالما بأنه حي سليم لانه قال له وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل
الاحاديث والظاهر أنه انما قال هذا الكلام من الوحي واذا كان عالما بأنه حي سليم فكان من الواجب أن

معنى تخصيص اتباعه عليه الصلاة والسلام بما يوحى اليه بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الشائع
في موارد الاستعمال وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ان أتبع الا ما يوحى الي كأنه قيل ما أفعل الا اتباع ما يوحى الي منه تعالى وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ الى الكمال اللائق مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده ما لا يخفى (هذا) اشارة الى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى الي (بصائر من ربكم) بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل حجج بينة وبراهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أي بصائر كائنة منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتأكيد وجوب الايمان بها وقوله تعالى (وهدى ورحمة) عطف على بصائر وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) للايذان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة الى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به
اذهم المقتبسون من أنواره والمعتنون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له)

يسعى في طلبه وأيضا ان يعقوب عليه السلام كان رجلا عظيم القدر في نفسه وكان من بيت عظيم شريف وأهل العالم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص اظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما السبب في أنه عليه السلام مع شدة رغبته في حضور يوسف عليه السلام ونهاية حبه له لم يطلبه مع ان طلبه كان من الواجبات فثبت ان هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلا وشرعا (والجواب) عنه أن نقول لاجواب عنه الا أن يقال انه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديدا للمحنة عليه وتغليظا للامر عليه وأيضا لعله عرف بقرائن الاحوال ان أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على ايذائه وقتله وأيضا لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وان أمره سيعظم بالآخرة ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضي بالقائهم في ألسنة الناس وذلك لان أحد الولدين اذا ظلم الآخر وقع الاب في العذاب الشديد لانه ان لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وان انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر الى الله تعالى بالكلية (المسئلة الرابعة) قوله فصبر جميل يدل على أن الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلا وما قد يكون غير جميل * فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعا له من اظهار الشكاية (والوجه الثاني) أنه يعلم أن منزل هذا البلاء حكيم لا يجهل وعالم لا يغفل عليم لا ينسى رحيم لا يطغى واذا كان كذلك فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابا فعند ذلك يسكت ولا يعترض (والوجه الثالث) أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق فاستغراقه في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل أما اذا كان الصبر لاجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا والضابط في جميع الافعال والاقوال والاعتقادات ان كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنا والا فلا وههنا يظهر صدق ما روي في الاثر استفت قلبك ولو أفتاك المفتون فليتأمل الرجل تأملا شافيا ان الذي أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا فان أهل العلم لو أفتونا بالشئ مع أنه لا يكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة ولما ذكر يعقوب قوله فصبر جميل قال والله المستعان على ما تصفون والمعنى أن اقدامه على الصبر لا يمكن الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعو الى الصبر والرضا فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجري مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجري مجرى قوله واياك نستعين ۞ قوله تعالى ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة فقال وجاءت سيارة يعني رفقة تسير للسفر قال ابن عباس جاءت سيارة أي قوم يسيرون من مدين الى مصر فأخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن الا للرعاة وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقي فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم فأدلى دلوه ونقل الواحدي عن عامة أهل اللغة انه يقال أدلى دلوه اذا أرسلها في البئر ودلاها اذا نزعها من البئر يقال أدلى يدلي ادلاء اذا أرسل ودلا يدلو دلوا اذا جذب وأخرج والدلو معروف والجمع دلاء * قال يا بشرى هذا غلام وههنا محذوف والتقدير فظهر يوسف قال المفسرون لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد اليه ورأى حسنه نادى فقال يا بشرى وفيه مسئلتان (المسئلة

ارشاد الى طريق الفوز بما أشير اليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن أي واذا قرئ القرآن الذي ذكرت شؤونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول (وأنصتوا) أي واسكتوا في خلال القراءة وراعوها الى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع (لعلكم ترحمون) أي تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والانصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنه في استماع المؤتم وقد روي أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات له وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية اما من تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى (واذكر ربك في نفسك) على الاول عطف على قل وعلى الثاني فيه تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام في الاذكار كافة فان الاخفاء أدخل في الاخلاص وأقرب من الاجابة (تضرعا وخيفة) أي متضرعا وخائفا (ودون الجهر من القول) أي ومتكلما كلاما دون الجهر فانه أقرب الى حسن

الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى يا بشرى بغير الالف و اسكون الياء والباقون يا بشراى بالالف وفتح الياء على الاضافة (المسئلة الثانية) فى قوله يا بشرى قولان (الاول) انها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم يا عجباه من كذا وقوله يا أسفا على يوسف وعلى هذا القول ففى تفسير النداء وجهان (الاول) قال الزجاج معنى النداء فى هذه الاشياء التى لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فاذا قلت يا عجباه فكأنك قلت اعجبوا (الثانى) قال أبو على كانه يقول يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولامرت بالحضور واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاما فى غاية الحسن وقالوا نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سببا لحصول الغنى (والقول الثانى) وهو الذى ذكره السدى ان الذى نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما تقول يا زيد وعن الاعمش أنه قال دعا امرأة اسمها بشرى يا بشرى قال أبو على الفارسى ان جعلنا البشرى اسما للبشارة وهو الوجه جاز أن يكون فى محل الرفع كما قيل يا رجل لاختصاصه بالنداء وجاز أن يكون فى موضع النصب على تقدير أنه جعل ذلك النداء شائعا فى جنس البشرى ولم يخص كما تقول يا رجلا و يا حسرة على العباد * وأما قوله تعالى وأسروه بضاعة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير فى وأسروه الى من يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فى الجب وذلك لانهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب أن نقول ان أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر (والثانى) نقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه يعنى اخوة يوسف أسروا شأنه والمعنى انهم أخفوا كونه أخاهم بل قالوا انه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على ان المراد أنهم أسروه حال ما حكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف (المسئلة الثانية) البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم اذا قطعته قال الزجاج و بضاعة منصوبة على الحال كانه قال وأسروه حال ما جعلوه بضاعة * ثم قال تعالى والله عليم بما يعملون والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر فى النوم سجدت له وذكر ذلك حسده اخوته عليه واحتالوا فى ابطال ذلك الامر عليه فأوقعوه فى البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود وأنه تعالى جعل وقوعه فى ذلك البلاء سببا الى وصوله الى مصر ثم تمادت وقائعه وتتابع الامر الى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فكان العمل الذى عمله الاعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال والله عليم بما يعملون * ثم قال تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة أما قوله وشروه ففيه قولان (الاول) المراد من الشراء هو البيع وعلى هذا التقدير ففى ذلك البائع قولان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان اخوة يوسف لما طرحوا يوسف فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا هذا عبد لنا أبق منا فقالوا لهم فبيعوه منا فباعوه منهم والمراد من قوله وشروه أى باعوه يقال شريت الشئ اذا بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير فى قوله وشروه وفى قوله وكانوا فيه من الزاهدين عائد الى شئ واحد لكن الضمير فى قوله وكانوا فيه من الزاهدين عائد الى الاخوة فكذا فى قوله وشروه يجب أن يكون عائدا الى الاخوة واذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع (والقول الثانى) أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر وقال محمد بن اسحق ربك أعلم أاخوته باعوه أم السيارة وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال المراد من الشراء نفس الشراء والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين لانهم علموا بقرائن الحال أن اخوة يوسف كذابون فى قولهم انه عبد لنا وربما عرفوا أيضا أنه ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفا من الله تعالى ومن ظهور تلك الواقعة الا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لانهم اشتروه بثمن قليل مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين وغرضهم أن يتوصلوا بذلك الى تقليل الثمن ويحتمل أيضا أن يقال ان الاخوة لما قالوا انه عبد لنا أبق صار المشترى عديم الرغبة فيه قال مجاهد وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق * ثم اعلم

التفكر (بالغدو والآصال) متعلق باذكر أى اذكر فى وقت الغدوات والعشيات وقرئ والايصال وهو مصدر آصل أى دخل فى الاصيل موافق للغدو (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله تعالى (ان الذين عند ربك) وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى (لا يستكبرون عن عبادته) بل يؤدونها حسبما أمروا به (ويسبحونه) أى ينزهونه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه (وله يسجدون) أى يخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به شيأ وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته * عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار * وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الاعراف جعل الله تعالى يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم عليه السلام شفيعا له يوم القيامة

﴿سورة الانفال مدنية وهى ست وسبعون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسألونك عن الانفال) النفل الغنيمة سميت به لانها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو أصل الاجر فى الجهاد

انه

انه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث (الصفة الاولى) كونه بخسا قال ابن عباس يريد حراما لان ثمن الحر حرام وقال كل بخس فى كتاب الله نقصان الا هذا فانه حرام قال الواحدى سمى الحرام بخسا لانه ناقص البركة وقال قتادة بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أى نقصه وقال عكرمة والشعبى قليل وقيل ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا وقيل كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار قال الواحدى رحمه الله تعالى وعلى الاقوال كلها فالبخس مصدر وضع موضع الاسم والمعنى بثمن مبخوس (الصفة الثانية) قوله دراهم معدودة قيل تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون الا اذا بلغ أوقية وهى الاربعون ويعدون مادونها فقيل للقليل معدود لان الكثير يمتنع من عدها لكثرتها وعن ابن عباس كانت عشرين درهما وعن السدى اثنين وعشرين درهما قالوا والاخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين الا يهوذا لم يأخذ شيأ (الصفة الثالثة) قوله وكانوا فيه من الزاهدين ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وفيه وجوه (أحدها) ان اخوة يوسف باعوه لانهم كانوا فيه من الزاهدين (والثانى) أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به لا يبالى باى شئ يبيعه أو لانهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم فلا جرم باعوه باوكس الاثمان (والثالث) أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين وقد سبق توجيه هذه الاقوال فيما تقدم والضمير فى قوله فيه يحتمل أن يكون عائدا الى يوسف عليه السلام ويحتمل أن يكون عائدا الى الثمن البخس والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه ثبت فى الاخبار ان الذى اشتراه اما من الاخوة أو من الواردين على الماء ذهب به الى مصر وباعه هنالك وقيل ان الذى اشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان يلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فابى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه ماساويه فى الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن وقالوا اسم تلك المرأة زليخا وقيل راعيل ۞ واعلم ان شيأ من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فالاليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها (المسئلة الثانية) قوله اكرمى مثواه أى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان اذا أقمت به ومصدره الثواء والمعنى اجعلى منزله عندك كريما حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربى أحسن مثواى وقال المحققون أمر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما أمرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا أى يقوم باصلاح مهماتنا أو نتخذه ولدا لانه كان لا يولد له ولد وكان حصورا ۞ ثم قال تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بان عطفنا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك الى أن صار متمكنا من الامر والنهى فى أرض مصر (واعلم) ان الكمالات الحقيقية ليست الا القدرة والعلم وانه سبحانه لما حاول اعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين أما تكميله فى صفة القدرة والمكنة فاليه الاشارة بقوله مكنا ليوسف فى الارض وأما تكميله فى صفة العلم فاليه الاشارة بقوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث وقد تقدم تفسير هذه الكلمة ۞ واعلم انا ذكرنا انه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وذلك يدل ظاهرا على انه تعالى أوحى اليه

من الثواب الاخروى ويطلق على ما يعطى بطريق التفضيل زيادة على السهم ١١٧ من المغنم وقرئ علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام نون عن فى اللام روى ان المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر وفى قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها اللمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا وقيل ان الشبان قد أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ لكم وفئة تنحازون اليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة فى الاجر ولا جبن من العدو ولكن كرهنا أن نعرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم قد شرط لمن كان له بلاء أن ينفله ولذلك فعل الشبان ما فعلوا من القتل والاسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ما شرطه لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وان تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت والاول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم الانفال بقضية كلمة عن لا استعطاء لانفسها كما ذكر به الوجه الاخير وادعاء زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص

فى ذلك الوقت وعندنا الارهاص جائز فلا يبعد أن يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت ما كان لاجل بعثته
الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ثم
انه تعالى قال ههنا ولنعلمه من تأويل الاحاديث والمراد منه ارساله الى الخلق بتبليغ التكاليف ودعوة الخلق
الى الدين الحق ويحتمل أيضا أن يقال ان ذلك الوحى الاول كان لاجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله ولنعلمه
من تأويل الاحاديث على انه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالا مما كان قبله
وقال ابن مسعود أشد الناس فراسة ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته اكرمى مثواه عسى أن
ينفعنا والمرأة لما رأت موسى فقالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر ثم قال تعالى والله غالب على
أمره وفيه وجهان (الاول) غالب على أمر نفسه لانه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه فى
أرضه وسمائه (والثانى) والله غالب على أمر يوسف يعنى ان انتظام أموره كان الهيا وما كان بسعيه واخوته
أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير فكان كما أراد الله تعالى ودبر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ان
الامر كله بيد الله واعلم ان من تأمل فى أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان
قضاء الله غالب ۞ قوله تعالى ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾ فى الآية
مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم أن يقال بين تعالى ان اخوته لما أساؤا اليه ثم انه صبر على تلك الشدائد
والمحن مكنه الله تعالى فى الارض ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم والمقصود بيان ان جميع ما فاز به
من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ومن الناس من قال ان النبوة جزاء على الاعمال الحسنة
ومنهم من قال ان من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة
واحتجوا على صحة قولهم بانه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر انه أعطاه النبوة والرسالة ثم
قال وكذلك نجزى المحسنين وهذا يدل على ان كل من أتى بالطاعات الحسنة التى أتى بها يوسف فان الله
يعطيه تلك المناصب وهذا بعيد لاتفاق العلماء على ان النبوة غير مكتسبة واعلم ان من الناس من قال
ان يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة وانما كان عبدا أطاع الله تعالى فأحسن الله اليه وهذا القول باطل
بالاجماع وقال الحسن انه كان نبيا من الوقت الذى قال الله تعالى فى حقه وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم
هذا وما كان رسولا ثم انه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ومنهم
من قال انه كان رسولا من الوقت الذى ألقى فى غيابة الجب (المسئلة الثانية) قال أبو عبيدة تقول العرب
بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان وهذا اللفظ يستعمل فى الواحد
والجمع يقال بلغ أشده وبلغوا أشدهم وقد ذكرنا تفسير الاشد فى سورة الانعام عند قوله حتى يبلغ أشده
وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ولما بلغ أشده قال ثلاثا وثلاثين سنة وأقول هذه
الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لان الاطباء قالوا ان الانسان يحدث فى أول الامر
ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى أن ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع والانتقاص الى أن لا يبقى
منه شئ فكانت حالته شبيهة بحال القمر فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد الى أن يصير بدرا تاما ثم
يتراجع الى ان ينتهى الى العدم والمحاق اذا عرفت هذا فنقول مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوما
وكسر فاذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة أيام فلا جرم رتبوا أحوال الابدان على
الاسابيع فالانسان اذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب الى أن يتم له سبع سنين ثم اذا دخل فى السبعة
الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال فى الترقى الى أن يتم له أربع عشرة سنة فاذا دخل فى
السنة الخامسة عشرة دخل فى الاسبوع الثالث وهناك يكمل العقل ويبلغ الى حد التكاليف وتتحرك
فيه الشهوة ثم لا يزال يرتقى على هذه الحالة الى ان يتم السنة الحادية والعشرين وهناك يتم الاسبوع الثالث
ويدخل فى السنة الثانية والعشرين وهذا الاسبوع آخر أسابيع النشو والنماء فاذا تمت السنة الثامنة
والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء وينتقل الانسان منه الى زمان الوقوف وهو الزمان الذى يبلغ

وعلى بن الحسين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسئلونك الانفال غير منسوخ فان معناها كما قالوا على
الحذف والايصال كما
وقرب عنه الجواب بقوله
عز وجل (قل الانفال
لله والرسول) أى حكمها
مختص به تعالى يقسمها
الرسول عليه الصلاة
والسلام كيفما أمر به من
غير أن يدخل فيه رأى
أحد ولو كان السؤال
استعطاء لما كان هذا
جوابا له فان اختصاص
حكم ما شرط لهم من
الانفال بالله والرسول
لا ينافى اعطاءها اياهم بل
يحققه لانهم انما يسألونها
بموجب شرط الرسول
عليه الصلاة والسلام
الصادر عنه باذن الله
تعالى لا بحكم سبق أيديهم
اليها ونحو ذلك مما يخل
بالاختصاص المذكور
وحمل الجواب على معنى
أن الانفال بالمعنى
المذكور مختصة برسول
الله صلى الله عليه وسلم
لا حق فيها للنفل كائنا
من كان مما لا سبيل اليه
قطعا ضرورة ثبوت
الاستحقاق بالتنفيل
وادعاء أن ثبوته بطريق
متأخر التزام لتكرار النسخ
من غير علم بالناسخ
الاخير ولا مساغ للمصير
الى ما ذهب اليه مجاهد
وعكرمة والسدى من أن
الانفال كانت لرسول الله
صلى الله عليه وسلم خاصة
ليس لاحد فيها شئ بهذه
الآية فنسخت بقوله تعالى فان لله خمسه وللرسول لما أن المراد بالانفال فيما قالوا هو المعنى الاول حتما كما

الانسان فيه أشده وبتمام هذا الاسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ثم ان هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان فهذا الاسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين الى الثالثة والثلاثين وقد يمتد الى الخامسة والثلاثين فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب والله أعلم بحقائق الاشياء (المسئلة الثالثة) في تفسير الحكم والعلم وفيه أقوال (الاول) ان الحكم والحكمة أصلها حبس النفس عن هواها ومنعها عما يشينها فالمراد من الحكم الحكمة العملية والمراد من العلم الحكمة النظرية وانما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية لان أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية وأما أصحاب الافكار العقلية والانظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية وطريقة يوسف عليه السلام هو الاول لانه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله تعالى عليه أبواب المكاشفات فلهذا السبب قال آتيناه حكما وعلما (القول الثاني) الحكم هو النبوة لان النبي يكون حاكما على الخلق والعلم علم الدين (والقول الثالث) يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الامارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الانوار القدسية والاضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب ان جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والانوار العقلية الا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية ان جواهر الارواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة ومنها عظيمة الميل الى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الاقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والاضعف والاكمل والانقص فاذا اتفق ان كان جوهر النفس الناطقة جوهرا مشرقا شريفا شديد الاستعداد لقبول الاضواء العقلية واللوائح الالهية فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الاحوال لان النفس الناطقة انما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لان تستعملها النفس الانسانية واذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الاضواء فيها فقوله ولما بلغ أشده اشارة الى اعتدال الآلات البدنية وقوله آتيناه حكما وعلما اشارة الى استكمال النفس في قوتيها العملية والنظرية والله أعلم * قوله تعالى ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون﴾ اعلم ان يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضا ان زوجها كان عاجزا يقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وغلقت الابواب والسبب ان ذلك العمل لا يؤتى به الا في المواضع المستورة لاسيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد وقوله وغلقت الابواب أي أغلقتها قال الواحدي وأصل هذا من قولهم في كل شئ نشب في شئ فلزمه قد غلق يقال غلق في الباطل وغلق في غضبه ومنه غلق الرهن ثم يعدى بالالف فيقال أغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه قال المفسرون وانما جاء غلقت على التكثير لانها غلقت سبعة أبواب ثم دعته الى نفسها ثم قال تعالى وقالت هيت لك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة وقال الاخفش هيت لك مفتوحة الهاء والتاء ويجوز أيضا كسر التاء ورفعها قال الواحدي قال أبو الفضل المنذري أفادني ابن التبريزي عن أبي زيد قال هيت لك بالعبرانية هيالج أي تعال عربه القرآن وقال الفراء انها لغة لاهل حوران سقطت الى مكة فتكلموا بها قال ابن الانباري وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في القسطاس ولغة العرب والفرس في السجيل ولغة العرب والترك في الغساق ولغة العرب والحبشة في ناشئة الليل (المسئلة الثانية) قرأ

تعلق به قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ الآية على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ أيضا حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بل بين في صدر السورة الكريمة اجمالا أن أمرها مفوض الى الله تعالى ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعني الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الانفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل في سائر الانفال المشروطة يأباه مقام بيان الاحكام كما ينبئ عنه اظهار الانفال في موقع الاضمار على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لا يليق بشأنه الكريم أصلا وقد روي عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله تعالى قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف فقال لي عليه الصلاة والسلام ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته وبي ما لا يعلمه الا الله من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا سعد انك سألتني السيف وليس لي وقد صار لي فاذهب فخذه وهذا كما ترى يقتضي عدم وقوع التنفيل يومئذ والا لكان سؤال

في ذلك الوقت وعندنا الارهاص جائز فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحي اليه في ذلك الوقت ما كان لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ثم انه تعالى قال ههنا ولنعلمه من تأويل الاحاديث والمراد منه ارساله الى الخلق بتبليغ التكاليف ودعوة الخلق الى الدين الحق ويحتمل أيضا أن يقال ان ذلك الوحي الاول كان لاجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث على انه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالا مما كان قبله وقال ابن مسعود أشد الناس فراسة ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة لما رأت موسى فقالت يا أبت استأجره وابو بكر حين استخلف عمر ﷺ ثم قال تعالى والله غالب على أمره وفيه وجهان (الاول) غالب على أمر نفسه لانه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه (والثاني) والله غالب على أمر يوسف يعني ان انتظام أموره كان اليها وما كان اليه واخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير فكان كما أراد الله تعالى ودبروا لكن أكثر الناس لا يعلمون ان الامر كله بيد الله واعلم ان من تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله غالب ﴿ قوله تعالى ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ وجه النظم أن يقال بين تعالى ان اخوته لما أساؤا اليه ثم انه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى في الارض ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم والمقصود بيان ان جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ومن الناس من قال ان النبوة جزاء على الاعمال الحسنة ومنهم من قال ان من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة واحتجوا على صحة قولهم بانه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر انه أعطاه النبوة والرسالة ثم قال وكذلك نجزي المحسنين وهذا يدل على ان كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف فان الله يعطيه تلك المناصب وهذا بعيد لاتفاق العلماء على ان النبوة غير مكتسبة واعلم ان من الناس من قال ان يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة وانما كان عبدا أطاع الله تعالى فأحسن الله اليه وهذا القول باطل بالاجماع وقال الحسن انه كان نبيا من الوقت الذي قال الله تعالى في حقه وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وما كان رسولا ثم انه صار رسولا من هذا الوقت أعني قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ومنهم من قال انه كان رسولا من الوقت الذي ألقي في غيابة الجب ﴿المسئلة الثانية﴾ قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان وهذا اللفظ يستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ أشده وبلغوا أشدهم وقد ذكرنا تفسير الاشد في سورة الانعام عند قوله حتى يبلغ أشده وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ولما بلغ أشده قال ثلاثا وثلاثين سنة ﴿ وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لان الاطباء قالوا ان الانسان يحدث في أول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى أن ينتهي الى غاية الكمال ثم يأخذ في التراجع والانتقاص الى أن لا يبقى منه شئ فكانت حالته شبيهة بحال القمر فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد الى ان يصير بدرا تاما ثم يتراجع الى ان ينتهي الى العدم والمحاق اذا عرفت هذا فنقول مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوما وكسر فاذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة أيام فلا جرم رتبوا أحوال الابدان على الاسابيع فالانسان اذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب الى أن يتم له سبع سنين ثم اذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال في الترقي الى أن يتم له أربع عشرة سنة فاذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الاسبوع الثالث وهناك يكمل العقل ويبلغ الى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة ثم لا يزال يرتقي على هذه الحالة الى ان يتم السنة الحادية والعشرين وهناك يتم الاسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين وهذا الاسبوع آخر أسابيع النشو والنماء فاذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء وينتقل الانسان منه الى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ

وعلى بن الحسين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسئلونك الانفال غير منسوخ فان مبناها كما قالوا على الحذف والايصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل (قل الانفال لله والرسول) أي حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأي أحد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جوابا له فان اختصاص حكم ما شرط لهم من الانفال بالله والرسول لا ينافي اعطاءها اياهم بل يحققه لانهم انما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر عنه باذن الله تعالى لا بحكم سبق أيديهم اليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب على معنى أن الانفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا حق فيها للمنفل كائنا من كان مما لا سبيل اليه قطعا ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الاخير ولا مساغ للمصير الى ماذهب اليه مجاهد وعكرمة والسدي من أن الانفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لاحد فيها شئ بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى فان لله خمسه وللرسول لما أن المراد بالانفال فيما قالوه والمعنى الاول حتما كما

الانسان

الانسان فيه أشده وبتمام هذا الاسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ثم ان هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان فهذا الاسبوع الخامس الذى هو أسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين الى الثالثة والثلاثين وقد يمتد الى الخامسة والثلاثين فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب والله أعلم بحقائق الاشياء ﴿المسئلة الثالثة﴾ في تفسير الحكم والعلم وفيه أقوال (الاول) ان الحكم والحكمة أصلها ما حبس النفس عن هواها ومنعها عما يشينها فالمراد من الحكم الحكمة العملية والمراد من العلم الحكمة النظرية وانما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية لان أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية وأما أصحاب الافكار العقلية والانظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية وطريقة يوسف عليه السلام هو الاول لانه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله تعالى عليه أبواب المكاشفات فلهذا السبب قال آتيناه حكما وعلما ﴿القول الثاني﴾ الحكم هو النبوة لان النبي يكون حاكما على الخلق والعلم علم الدين ﴿والقول الثالث﴾ يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الامارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الانوار القدسية والاضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب ان جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والانوار العقلية الا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية ان جواهر الارواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة ومنها عظيمة الميل الى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الاقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والاضعف والاكمل والانقص فاذا اتفق ان كان جوهر النفس الناطقة جوهرا مشرقا شريفا شديد الاستعداد لقبول الاضواء العقلية واللوائح الالهية فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الاحوال لان النفس الناطقة انما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لان تستعملها النفس الانسانية واذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الاضواء فيها فقوله ولما بلغ أشده اشارة الى اعتدال الآلات البدنية وقوله آتيناه حكما وعلما اشارة الى استكمال النفس في قوتيها العملية والنظرية والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون﴾ اعلم ان يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضا ان زوجها كان عاجزا يقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وغلقت الابواب والسبب ان ذلك العمل لا يؤتى به الا في المواضع المستورة لا سيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد وقوله وغلقت الابواب أي أغلقتها قال الواحدي وأصل هذا من قولهم في كل شيء نشب في شيء فلزمه قد غلق يقال غلق في الباطل وغلق في غضبه ومنه غلق الرهن ثم يعدى بالالف فيقال أغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه قال المفسرون وانما جاء غلقت على التكثير لانها اغلقت سبعة أبواب ثم دعته الى نفسها ثم قال تعالى وقالت هيت لك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي هيت لك اسم للفعل نحو رويدا وصه ومه ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة وقال الاخفش هيت لك مفتوحة الهاء والتاء ويجوز أيضا كسر التاء ورفعها قال الواحدي قال أبو الفضل المنذري أفادني ابن التبريزي عن أبي زيد قال هيت لك بالعبرانية هيالج أي تعال عربه القرآن وقال الفراء انها لغة لاهل حوران سقطت الى مكة فتكلموا بها قال ابن الانباري وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في القسطاس ولغة العرب والفرس في السجيل ولغة العرب والترك في الغساق ولغة العرب والحبشة في ناشئة الليل (المسئلة الثانية) قرأ

نطق به قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شيء الآية على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ أيضا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بل بين في صدر السورة الكريمة اجمالا أن أمرها مفوض الى الله تعالى ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعني الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الانفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل في سائر الانفال المشروطة يأباه مقام بيان الاحكام كما ينبئ عنه اظهار الانفال في موقع الاضمار على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لا يليق بشأنه الكريم أصلا وقد روي عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله تعالى قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف فقال لي عليه الصلاة والسلام ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته وبي ما لا يعلمه الا الله من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا سعد انك سألتني السيف وليس لي وقد صار لي فاذهب فخذه وهذا كما ترى يقتضي عدم وقوع التنفيل يومئذ والا لكان سؤال

(والثالث) قوله انه من عبادنا مع انه تعالى قال وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (والرابع) قوله المخلصين وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فورود باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص وروده باسم المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وأما بيان ان ابليس أقر بطهارته فلانه قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين فأقر بأنه لا يمكنه اغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى انه من عبادنا المخلصين فكان هذا اقرارا من ابليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا الى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ان كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا في أول الامر تلامذة ابليس الى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي

وكنت امرأ من جند ابليس فارتقى * بي الدهر حتى صار ابليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام برىء عما يقول هؤلاء الجهال واذا عرفت هذا فنقول الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين (المقام الاول) أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها والدليل عليه انه تعالى قال وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وجواب لولا ههنا مقدم وهو كما يقال قد كنت من الهالكين لولا ان فلانا خلصك وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين (الاول) أن تقديم جواب لولا شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح (الثاني) ان لولا يجاب جوابها باللام فلو كان الامر على ما ذكرتم لقال ولقد همت به ولهم بها لولا وذكر غير الزجاج سؤالا ثالثا وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله لولا أن رأى برهان ربه فائدة * واعلم أن ما ذكره الزجاج بعيد لانا نسلم أن تأخير جواب لولا حسن جائز الا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال انهم يقدمون الاهم فالاهم والذى هم بشأنه أعنى فكان الامر في جواز التقديم والتأخير مربوطا بشدة الاهتمام وأما تعيين بعض الالفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة وأيضا ذكر جواب لولا باللام جائز أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز ثم انا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج في هذين السؤالين وهو قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها (وأما السؤال الثالث) وهو انه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله لولا أن رأى برهان ربه فائدة فنقول بل فيه أعظم الفوائد وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته في النساء وعدم قدرته عليهن بل لاجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ثم نقول ان الذى يدل على أن جواب لولا ما ذكرناه ان لولا تستدعي جوابا وهذا المذكور يصلح جوابا له فوجب الحكم بكونه جوابا له لا يقال انا نضمر له جوابا وترك الجواب كثير في القرآن لانا نقول لا نزاع أنه كثير في القرآن الا أن الاصل أن لا يكون محذوفا وأيضا فالجواب انما يحسن تركه وحذفه اذا حصل في اللفظ ما يدل على تعينه وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفا فليس في اللفظ ما يدل على تعيين ذلك الجواب فان ههنا أنواعا من الاضمارات يحسن اضمار كل واحد منها وليس اضمار بعضها أولى من اضمار الباقي فظهر الفرق والله أعلم (المقام الثاني) في الكلام على هذه الآية أن نقول سلمنا أن الهم قد حصل الا انا نقول ان قوله وهم بها لا يمكن حمله على ظاهره لان تعليق الهم بذات المرأة محال لان الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية فثبت أنه لا بد من اضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو ايقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيأ آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه (الاول) المراد انه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لان الهم هو القصد فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذى يليق به فاللائق بالمرأة القصد الى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث الى الخلق

فيه (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك ما يوجب الفزع من صفاته وأفعاله استعظاما لشأنه الجليل وتهيبا منه وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه وقرئ وجلت بفتح الجيم وهي لغة وقرئ فرقت أي خافت (واذا تليت عليهم آياته) أي آية كانت (زادتهم ايمانا) أي يقينا وطمأنينة نفس فان تظاهر الادلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل ان نفس الايمان لا يقبل الزيادة والنقصان وانما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فانه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد ايمانه عددا وأما نفس الايمان فهو بحاله وقيل باعتبار أن الاعمال تجعل من الايمان فيزيد بزيادتها والاصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الانبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الامة وعليه مبنى ما قال على رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وكذا بين ما قام عليه دليل واحد وما قامت عليه أدلة كثيرة (وعلى ربهم) مالكهم ومدبر أمورهم خاصة (يتوكلون) يفوضون أمورهم لا الى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلوة

القصد الى زجر العاصي عن معصيته والى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يقال هممت بفلان أي بضربه ودفعه فان قالوا فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله لولا أن رأى برهان ربه فائدة قلنا بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين (الاول) انه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله فأعلمه الله تعالى ان الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك (والثاني) انه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هي الخائنة فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا عنها حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية (الوجه الثاني في الجواب) أن يفسر الهم بالشهوة وهذا مستعمل في اللغة الشائعة يقول القائل فيما لا يشتهيه ما يهمني هذا وفيما يشتهيه هذا أهم الاشياء الي فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هما فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود (الثالث) أن يفسر الهم بحديث النفس وذلك لان المرأة الفائقة في الحسن والجمال اذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوي فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل تجاذبات ومنازعات فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف اذا رأى الجلاب البرد بالثلج فان طبيعته تحمله على شربه الا أن دينه وهداه يمنعه منه فهذا لا يدل على حصول الذنب بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذي ذهبنا اليه ولم يبق في يد الواحدي الا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين ولو كان قد ذكر في تقرير ذلك القول شبهة لاجبنا عنها الا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات فقلت الاولى أن لا تقبل مثل هذه الاخبار فقال على طريق الاستنكار فان لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له يا مسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب ابراهيم عليه السلام وان رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولا شك أن صون ابراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب * اذا عرفت هذا الاصل فنقول للواحدي ومن الذي يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين والله أعلم (المسئلة الثانية) في أن المراد بذلك البرهان ما هو أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه (الاول) أنه حجة الله تعالى في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب (والثاني) أن الله تعالى طهر نفوس الانبياء عليهم السلام عن الاخلاق الذميمة بل نقول ان الله تعالى طهر نفوس المتصلين بهم منها كما قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الاخلاق وتذكير الاحوال الرادعة لهم عن الاقدام على المنكرات (والثالث) أنه رأى مكتوبا في سقف البيت ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا (والرابع) انه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش والدليل عليه أن الانبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وأيضا ان الله تعالى عير اليهود بقوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وما يكون عيبا في حق اليهود كيف ينسب الى الرسول المؤيد بالمعجزات * وأما الذين نسبوا المعصية الى يوسف عليه السلام فقد ذكروا في تفسير ذلك البرهان أمورا (الاول) قالوا ان المرأة قامت الى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك قالت أستحي من الهي هذا أن يراني على معصية فقال يوسف أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من الهي القائم على كل نفس

وممارزقناهم ينفقون) مرفوع على أنه نعت للموصول الاول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبئ عن المدح ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة (أولئك) اشارة الى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث انهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه في سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف (هم المؤمنون حقا) لانهم حققوا ايمانهم بأن ضموا اليه ما فصل من أفاضل الاعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف أي أولئك هم المؤمنون ايمانا حقا أو مصدر مؤكد للجملة أي حق ذلك حقا كقولك هو عبد الله حقا (لهم درجات) من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية في الجنة وهو اما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل ما لهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى (عند ربهم) اما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أي كائنة عنده تعالى أو بما تعلق به الخبر أعني لهم من

الاستقرار وفي اضافة الظرف الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وايذان بأن ما وعد لهم متيقن

بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبدا قالوا فهذا هو البرهان (الثاني) نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضا على أصابعه ويقول له أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الانبياء فاستحى منه قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير تمثل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله (والثالث) قالوا انه سمع في الهواء قائلا يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه (والرابع) نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة الا خرج ولما نقل الواحدي هذه الروايات تصلف وقال هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهدوا التنزيل فيقال له انك لا تأتينا البتة الا بهذه التصلفات التي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل وأيضا فان ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز وانه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعا عن الزنا بحسب الدلائل الاصلية فلما انضاف اليها هذه الزواجر قوي الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جروا دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وبقي هنالك بغير علمه قالوا فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوما وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب اليه جبريل عليه السلام والعجب أيضا أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل على زي الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل وههنا انه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت اليه ثم ان جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام الى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغي في الدين والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام الملخص في هذه المسألة والله أعلم (المسألة الثالثة) في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه (الاول) ان السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا (والثاني) السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هو الزنا * أما قوله انه من عبادنا المخلصين أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الاسواء ويحتمل أن يكون المراد انه من ذرية ابراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم انا أخلصناهم بخالصة (المسألة الرابعة) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو المخلصين بكسر اللام في جميع القرآن والباقون بفتح اللام * قوله تعالى ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنها انها همت اتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال واستبقا الباب والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه الى نفسها والاستباق طلب السبق الى الشيء ومعناه تبادرا الى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح الباب وخرج وان سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج وقوله واستبقا الباب أي استبقا الى الباب كقوله واختار موسى قومه سبعين رجلا أي من قومه واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها الى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل الا الى دبر القميص فقدته أي قطعته طولا وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله وألفيا سيدها لدى الباب أي صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي وانما لم يقل سيدهما لان يوسف عليه السلام ما كان مملوكا لذلك الرجل في الحقيقة فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت الى أن رمت يوسف بالفعل القبيح وقالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم والمعنى ظاهر * وفي الآية لطائف (احداها) ان ما يحتمل أن تكون نافية أي ليس جزاؤه الا السجن ويجوز أيضا أن تكون استفهامية يعني أي شيء جزاؤه الا أن يسجن كما تقول من في

الثبوت والحصول مأمون الفوات (ومغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) لا ينقضي أمده ولا ينتهي عدده وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الكاف في محل الرفع على انه خبر مبتدا محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك يعني أن حالهم في كراهتهم لما رأيت مع كونه حقا كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو في محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر في قوله تعالى الانفال لله أي الانفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك في المدينة أو من المدينة اخراجا ملتبسا بالحق (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) أي والحال أن فريقا منهم كارهون للخروج اما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة

الدار الا زيد (وثانيها) أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع وذلك لانها بدأت بذكر السجن وأخرت ذكر العذاب لان المحب لا يسعى في ايلام المحبوب وأيضا انها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والالم وأيضا قالت الا أن يسجن والمراد أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخفيف فأما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين (وثالثها) انها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع انه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول ان يوسف عليه السلام قصدني بالسوء وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض فانظر الى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وان هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح (ورابعها) أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها أو يدفعها عن نفسه وكان ذلك بالنسبة اليها جاريا مجرى السوء فقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ جار مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد اقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الامر كانت توهم انه قصدني بما لا ينبغي واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف الى ازالة هذه التهمة فقال هي راودتني عن نفسي وان يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الامر الا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الامر * واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق (فالاول) أن يوسف عليه السلام في ظاهر الامر كان عبدا لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحد (والثاني) انهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدوا شديدا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه (والثالث) انهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى (الرابع) انهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذا الفعل المنكر وذلك أيضا مما يقوي الظن (الخامس) ان المرأة ما نسبته الى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاما مجملا مبهما وأما يوسف عليه السلام فانه صرح بالامر ولو أنه كان متهما لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فان الخائن خائف (السادس) قيل ان زوج المرأة كان عاجزا وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فالحاق هذه الفتنة بها أولى فلما حصلت هذه الامارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة وهو قوله وشهد شاهد من أهلها وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال (الاول) انه كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه فان كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وان كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا الى القميص ورأوا الشق من خلفه قال ابن عمها انه من كيدكن ان كيدكن عظيم أي من عملكن ثم قال ليوسف أعرض عن هذا اكتمه وقال لها استغفري لذنبك وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين (والثاني) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك ان ذلك الشاهد كان صبيا أنطقه الله تعالى في المهد فقال ابن عباس تكلم في المهد أربعة صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب قال الجبائي والقول الاول أولى لوجوه (الاول) أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله انها كاذبة كافيا وبرهانا قاطعا لانه من البراهين القاطعة القاهرة والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظني ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال

يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم أموالكم ان أصابها محمد لم تفلحوا بعدها أبدا وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رؤيا فقالت لاخيها اني رأيت عجبا رأيت كان ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدثت بها العباس رضي الله عنه فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم أن يتنبؤا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس الى مكة فقال لا والله لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وان محمدا لم يصب العير وانا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه فقال ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير

حضورها وحصولها الى الدلالة الظنية لا يجوز (الثانى) أنه تعالى قال وشهد شاهد من أهلها وانما قال من أهلها ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة لان الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والاضرار فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات انما يحتاج اليها عند كون الدلالة ظنية ولو كان هذا القول صادرا عن الصبى الذى فى المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر (والثالث) ان لفظ الشاهد لا يقع فى العرف الا على من تقدمت له معرفة بالواقعة واحاطة بها (والقول الثالث) ان ذلك الشاهد هو القميص قال مجاهد الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر وهذا فى غاية الضعف لان القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب الى الاهل ✽ واعلم أن القول الاول عليه أيضا اشكال وذلك لان العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لان من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضربا وجيعا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع أن المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنبا (وجوابه) انا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا اليها هذه العلامة الاخرى لا لاجل أن يعولوا فى الحكم عليها بل لاجل أن يكون ذلك جاريا مجرى المقويات والمرجحات ثم انه تعالى أخبر وقال فلما رأى قميصه وذلك يحتمل السيد الذى هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه قال انه من كيدكن أى ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ من كيدكن ان كيدكن عظيم (فان قيل) انه تعالى لما خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم وأيضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء (والجواب) عن الاول ان خلقة الانسان بالنسبة الى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوان بالنسبة الى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضا فالنساء لهن فى هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولان كيدهن فى هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال يوسف أعرض عن هذا فقيل ان هذا من قول العزيز وقيل انه من قول الشاهد ومعناه أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال واستغفرى لذنبك وظاهر ذلك طلب المغفرة ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح وعلى هذا التقدير فالاقرب ان قائل هذا القول هو الشاهد ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله لان أولئك الاقوام كانوا يثبتون الصانع الا انهم مع ذلك كانوا يعبدون الاوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وعلى هذا التقدير فيجوز أن يكون القائل هو الزوج وقوله انك كنت من الخاطئين نسبها الى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف فى أول الامر ان الذنب للمرأة لا ليوسف لانه كان يعرف منها اقدامها على ما لا ينبغى وقال أبو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار قال صاحب الكشاف وانما قال من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث ويحتمل أن يقال المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ﴾ وفى هذه الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ لم يقل وقالت نسوة قلنا لوجهين (الاول) أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (الثانى) قال الواحدى تقديم الفعل يدعو الى اسقاط علامة التأنيث على قياس اسقاط علامة التثنية والجمع ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قال الكلبى هى أربع امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب

ودع العدو فقام عند ما غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه يا رسول الله امض لما أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس وهو يريد الانصار لانهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبي عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الانصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى

بعدنا

بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسيروا على بركة الله ففرح رسول

يحبه وامرأة صاحب دوابه وزاد مقاتل وامرأة الحاجب والاشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء ❊ وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومة تراود فتاها عن نفسه الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة قد شغفها حبا وفيه مسئلتان ❊ (المسئلة الاولى) ان الشغاف فيه وجوه (الاول) ان الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلانا اذا أصبت شغافه كما تقول كبدته اذا أصبت كبده فقوله شغفها حبا أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب (والثاني) أن حبه أحاط بقلبها مثل احاطة الشغاف بالقلب ومعنى احاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجابا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها الا اياه (والثالث) قال الزجاج الشغاف حبة القلب وسويداء القلب والمعنى انه وصل حبه الى سويداء قلبها وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم ❊ (المسئلة الثانية) قرأ جماعة من الصحابة والتابعين شعفها بالعين قال ابن السكيت يقال شعفه الهوى اذا بلغ الى حد الاحتراق وشعف الهناء البعير اذا بلغ منه الالم الى حد الاحتراق وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال الشعف بالعين احراق الحب القلب مع لذة يجدها كما ان البعير اذا هنئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه وقال ابن الانباري الشعف رؤس الجبال ومعنى شعف بفلان اذا ارتفع حبه الى أعلى المواضع من قلبه ❊ (المسئلة الثالثة) قوله حبا نصب على التمييز ثم قال انا لنراها في ضلال مبين أي في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها اياه كقوله ان أبانا لفي ضلال مبين ❊ ثم قال تعالى فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وفي الآية مسائل ❊ (المسئلة الاولى) المراد من قوله فلما سمعت بمكرهن أنها سمعت قولهن وانما سمى قولهن مكرا لوجوه (الاول) أن النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن (الثاني) أن امرأة العزيز أسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك غدرا ومكرا (الثالث) أنهن وقعن في غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر ❊ (المسئلة الثانية) انها لما سمعت انهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت ابداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ وفي تفسيره وجوه (الاول) المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه (الثاني) أن المتكأ هو الطعام قال العتبي والاصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة (والثالث) متكأ أترجا وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة في ذلك المجلس (والرابع) متكأ طعاما يحتاج الى أن يقطع بالسكين لان الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان الى أن يتكئ عليه عند القطع ثم نقول حاصل ذلك انها دعت أولئك النسوة وأعتدت لكل واحدة منهن مجلسا معينا وآتت كل واحدة منهن سكينا اما لاجل أكل الفاكهة أو لاجل قطع اللحم ثم انها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج اليهن وبعبر عليهن وانه عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفا منها فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وههنا مسائل ❊ (المسئلة الاولى) في أكبرنه قولان (الاول) أعظمنه (والثاني) أكبرن بمعنى حضن قال الازهري والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وفيه وجه آخر وهو ان المرأة اذا خافت وفزعت فربما اسقطت ولدها فحاضت فان صح تفسير الاكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله وقطعن أيديهن كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن انها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها أو يقال انها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها ❊ (المسئلة الثانية) اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بي الى

الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس رضي الله عنه وهو في وثاقه لا يصلح فقال النبي صلى الله عليه وسلم لم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك (يجادلونك في الحق) الذي هو تلقي النفير لايثارهم عليه تلقي العير والجملة استئناف أو حال ثانية أي أخرجك في حال مجادلتهم اياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير في لكارهون وقوله تعالى (بعدما تبين) منصوب بيجادلونك وما مصدرية أي بعد تبين الحق لهم باعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وكان ذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون الى الموت) الكاف في محل النصب على الحالية من الضمير في لكارهون أي مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار الى القتل (وهم ينظرون) حال من ضمير يساقون أي والحال أنهم ينظرون الى أسباب الموت ويشاهدونها عيانا

السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا فقال هذا يوسف فقيل يا رسول الله كيف رأيته قال كالقمر ليلة البدر وقيل كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها وقيل كان يشبه آدم يوم خلقه ربه وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه وعندى انه يحتمل وجها آخر وهو انهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى ❊ فان قيل فاذا كان الامر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها فذلكن الذى لمتننى فيه وكيف تصير هذه الحالة عذرا لها فى قوة العشق وافراط المحبة ❊ قلنا قد تقرر ان الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهذا السبب وقعت فى المحنة والحسرة والأرق والقلق وهذا الوجه فى تأويل الآية أحسن والله أعلم (المسئلة الثالثة) قرأ أبو عمرو وحده حاشا لله باثبات الالف بعد الشين وهى رواية الاصمعى عن نافع وهى الاصل لانها من المحاشاة وهى التنحية والتبعيد والباقون بحذف الالف للتخفيف وكثرة دورها على الالسن اتباعا للمصحف وحاشا كلمة تفيد معنى التنزيه والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله وأما قوله حاش لله ما علمنا عليه من سوء فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله (المسئلة الرابعة) قوله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم فيه وجهان (الاول) وهو المشهور ان المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا لانه تعالى ركز فى الطباع أن لا حى أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا حى أقبح من الشيطان ولذا قال تعالى فى صفة جهنم طلعها كأنه رؤس الشياطين وكذلك لما ذكرنا انه تقرر فى الطباع أن أقبح الاشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر فى الطباع ان أحسن الاحياء هو الملك فلما أرادت النسوة المبالغة فى وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهته بالملك (والوجه الثانى) وهو الاقرب عندى ان المشهور عند الجمهور ان الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ثم ان النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن البتة ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة وسيما الطهارة قلن انا ما رأينا فيه أثرا من أثر الشهوة ولا شيأ من البشرية ولا صفة من الانسانية فهذا قد تطهر من جميع الصفات المغروزة فى البشر وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل فى الملكية فان قالوا ان كان المراد ما ذكرتم فكيف يمهد عذر تلك المرأة عند النسوة فالجواب قد سبق والله أعلم (المسئلة الخامسة) القائلون بان الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا لا شك أنهن انما ذكرن هذا الكلام فى معرض تعظيم يوسف عليه السلام فوجب أن يكون اخراجه من البشرية وادخاله فى الملكية سببا لتعظيم شأنه واعلاء مرتبته وانما يكون الامر كذلك لو كان الملك أعلى حالا من البشر ثم نقول لا يخلو اما أن يكون المقصود بيان كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الظاهر أو كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الباطن والاول باطل لوجهين (الاول) انهم وصفوه بكونه كريما وانما يكون كريما بسبب الاخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة (والثانى) أنا نعلم بالضرورة أن وجه الانسان لا يشبه وجوه الملائكة البتة اما كونه بعيدا عن الشهوة والغضب معرضا عن اللذات الجسمانية متوجها الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة واذا ثبت هذا فنقول تشبيه الانسان بالملك فى الامر الذى حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى هذه الآية انما وقع فى الخلق الباطن لا فى الصورة الظاهرة وثبت انه متى كان الامر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالا من الانسان فى هذه الفضائل فثبت أن الملك أفضل من البشر والله أعلم (المسئلة السادسة) لغة أهل الحجاز اعمال ما عمل ليس

وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع الا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة روى أنه لم يكن فيهم الا فارسان (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأى والخوف والجزع واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات واحدى الطائفتين مفعول ثان ليعدكم أى اذكروا وقت وعد الله اياكم احدى الطائفتين وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير ما فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها لما ان ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فاذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا وقرئ يعدكم بسكون الدال تخفيفا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى (أنها لكم) بدل اشتمال من احدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى يعدكم أن احدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليهم تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم (وتودون) عطف على يعدكم داخل تحت الامر بالذكر

وبها ورد قوله ما هذا بشرا ومنه قوله ما هن أمهاتهم ومن قرأ على لغة بني تميم قرأ ما هذا بشر وهي قراءة ابن مسعود وقرئ ما هذا بشرا أي ما هو بعبد مملوك للبشر ان هذا الا ملك كريم ثم نقول ما هذا بشرا أي حاصل بشراء بمعنى هذا مشترى وتقول هذا لك بشرا أم بكرا والقراءة المعتبرة هي الأولى لموافقتها المصحف ولمقابلة البشر للملك ﴿قوله تعالى ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ اعلم أن النسوة لما قلن في امرأة العزيز قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين عظم ذلك عليها فجمعتهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها (فان قيل) فلم قالت فذلكن مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرا (والجواب) عنه من وجهين (الأول) قال ابن الانبارى أشارت بصيغة ذلكن الى يوسف بعد انصرافه من المجلس (والثاني) وهو الذي ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ما قيل ان النسوة كن يقلن انها عشقت عبدها الكنعاني فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني فيه يعني أنكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم واعلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة وعن السدى أنه قال فاستعصم بعد حل السراويل وما الذي يحمله على الحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب ثم قال ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين والمراد أن يوسف عليه السلام ان لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار ومعلوم ان التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام وقوله وليكونا كان حمزة والكسائي يقفان على وليكونا بالالف وكذلك قوله لنسفعا والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم﴾ واعلم أن المرأة لما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر انهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها والا وقعت في السجن وفي الصغار فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة (أحدها) أن زليخا كانت في غاية الحسن (والثاني) انها كانت ذات مال وثروة وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها (والثالث) أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ومكر النساء في هذا الباب شديد (والرابع) انه عليه السلام كان خائفا من شرها واقدامها على قتله واهلاكه فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه واعلم أن القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه وقرئ السجن بالفتح على المصدر وفيه سؤالان ﴿السؤال الأول﴾ السجن في غاية المكروه وما دعونه اليه في غاية المطلوبية فكيف قال المشقة أحب الي من اللذة (والجواب) ان تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة فلهذا السبب قال السجن أحب الي مما يدعونني اليه ﴿السؤال الثاني﴾ ان حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية (والجواب) تقدير الكلام أنه اذا كان لا بد من التزام أحد الأمرين أعني الزنا والسجن فهذا أولى لانه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل ثم قال والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين أصب اليهن أميل اليهن يقال صبا الى اللهو يصبو صبوا اذا مال واحتج أصحابنا بهذه

أي تحبون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) من الطائفتين لا ذات الشوكة وهي النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هي العير اذ لم يكن فيها الا أربعون فارسا ورئيسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها (ويريد الله) عطف على تودون منتظم معه في سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم أي اذكروا وقت وعده تعالى اياكم احدى الطائفتين وودادتكم لادناهما وارادته تعالى لاعلاهما وذلك قوله تعالى (أن يحق الحق) أي يثبته ويعليه (بكلماته) أي بآياته المنزلة في هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالامداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر وقرئ بكلمته (ويقطع دابر الكافرين) أي آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الامور والله عز وعلا يريد معاليها وما يرجع الى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى (ليحق الحق ويبطل الباطل) جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية الى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع ارادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أي لهذه الغاية الجليلة فعل ما فعل لا لشيء آخر وليس فيه تكرار اذ

وهذا البيان الحكمة الداعية الى ماذكر ومعنى احقاق الحق اظهار حقيته لاجعله حقا الاول لبيان تفاوت مابين الارادتين

الآية على ان الانسان لا ينصرف عن المعصية الا اذا صرفه الله تعالى عنها قالوا لان هذه الآية تدل على أنه تعالى ان لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقريره أن القدرة والداعي الى الفعل والترك ان استويا امتنع الفعل لان الفعل رجحان لاحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال وان حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد والا لذهبت المراتب الى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحا لانه متى صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لان الوقوع رجحان فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية وهو يقتضي حصول الجمع بين النقيضين وهو محال فثبت بهذا ان انصراف العبد عن القبيح ليس الا من الله تعالى وتوجهه الى الطاعة ليس الا من الله تعالى ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر وهو انه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الاسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل في الاعراض عنها جميع الاسباب المنفرة ومتى كان الامر كذلك فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية اذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خاليا عما يعارضه وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله أصب اليهن وأكن من الجاهلين ﴿قوله تعالى ﴿ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها فلم يلتفت يوسف اليها فلما أيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها ان هذا العبد العبراني فضحني في الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على اظهار عذرى فاما أن تأذن لي فاخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستني فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فهذا هو المراد من قوله ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين لان البداء عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه في الاول والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر وخمش الوجه والزام الحكم اياها بقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وذكرنا انه ظهرت هنالك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيا في اخفاء الفضيحة ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله بدا لهم فعل وفاعله في هذا الموضع قوله ليسجننه وظاهر هذا الكلام يقتضي اسناد الفعل الى فعل آخر الا أن النحويين اتفقوا على أن اسناد الفعل الى الفعل لا يجوز فاذا قلت خرج ضرب لم يفد البتة فعند هذا قالوا تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه الا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم وأقول الذوق يشهد بأن جعل الفعل مخبرا عنه لا يجوز وليس لاحد أن يقول الفعل خبر فجعل الخبر مخبرا عنه لا يجوز لانا نقول الاسم قد يكون خبرا كقولك زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا أن كون الشئ خبرا لا ينافي كونه مخبرا عنه بل نقول في هذا المقام شكوك ﴿أحدها﴾ انا اذا قلنا ضرب فعل فالمخبر عنه بأنه فعل هو ضرب فالفعل صار مخبرا عنه فان قالوا المخبر عنه هو هذه الصيغة وهى اسم فنقول فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل بل نقول المخبر عنه بأنه فعل ان كان فعلا فقد ثبت ان الفعل يصح الاخبار عنه وان كان اسما كان معناه أنا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم انه باطل وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في كتب المعقولات ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال أهل اللغة الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه وعلى الطويل وقال ابن عباس يريد الى انقطاع المقالة وما شاع في المدينة من الفاحشة ثم قيل الحين ههنا خمس سنين وقيل بل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنى عشرة سنة والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقى محبوسا مدة طويلة لقوله تعالى

بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال ابطال الباطل (ولو كره المجرمون) أى المشركون ذلك أى احقاق الحق وابطال الباطل (اذ تستغيثون ربكم) بدل من اذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم منه سبحانه والتجائهم اليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وامداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية وماقيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لانه منصوب بأن فلا يمكن عمله في اذ لانه ظرف لماضى ليس بشئ لان كونه مستقبلا انما هو بالنسبة الى زمان ما هو غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة الى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل فيه بل هما في وقت واحد وانما عبر عن زمانها باذ نظرا الى زمان النزول وصيغة الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف أى اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أى رب انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى المشركين

واذكر بعد أمة أما قوله تعالى ودخل معه السجن فتيان فههنا محذوف والتقدير لما أراد واحبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله ودخل معه السجن فتيان عليه قيل هما غلامان كانا للملك الاكبر عصر أحدهما صاحب طعامه والآخر صاحب شرابه رفع اليه ان صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن ان الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما * بقي في الآية سؤالات (الاول) كيف عرفا انه عليه السلام عالم بالتعبير (والجواب) لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا انا رأينا في المنام هذه الرؤيا ويحتمل انهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤيا فعندها ذكرا له ذلك (السؤال الثاني) كيف عرف انهما كانا عبدين للملك (الجواب) لقوله فيسقي ربه خمرا أي مولاه ولقوله اذكرني عند ربك (السؤال الثالث) كيف عرف ان أحدهما كان صاحب شراب الملك والآخر صاحب طعامه (والجواب) رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لان أحدهما رأى انه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزا (السؤال الرابع) كيف وقعت رؤية المنام (والجواب) فيه قولان (الاول) ان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لاهله اني أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين هلم فلنختبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيأ قال ابن مسعود ما كانا رأيا شيأ وانما تحالما ليختبرا علمه (والقول الثاني) قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها فقال الساقي أيها العالم اني رأيت كاني في بستان فاذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كاس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله اني أراني أعصر خمرا وقال صاحب الطعام اني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز والوان الاطعمة واذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه (السؤال الخامس) كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله اني أراني أعصر خمرا رؤيا المنام (الجواب) لوجوه (الاول) انه لولم يقصد النوم كان ذكر قوله أعصر يغنيه عن ذكر قوله أراني (والثاني) دل عليه قوله نبئنا بتأويله (السؤال السادس) كيف يعقل عصر الخمر (الجواب) فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أي العنب الذي يكون عصيره خمرا فحذف المضاف (الثاني) ان العرب تسمي الشئ باسم ما يئول اليه اذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا (والثالث) قال أبو صالح أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب (السؤال السابع) ما معنى التأويل في قوله نبئنا بتأويله (الجواب) تأويل الشئ ما يرجع اليه وهو الذي يئول اليه آخر ذلك الامر (السؤال الثامن) ما المراد من قوله انا نراك من المحسنين (الجواب) من وجوه (الاول) معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتي بمكارم الاخلاق وجميع الافعال الحميدة قيل انه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم فقالوا انك من المحسنين أي في حق الشركاء والاصحاب وقيل انه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك من المحسنين في أمر الدين ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا وفي سائر الامور وقيل المراد انا نراك من المحسنين في علم التعبير وذلك لانه متى عبر لم يخطئ كما قال وعلمتني من تأويل الاحاديث (السؤال التاسع) ما حقيقة علم التعبير (الجواب) القرآن والبرهان يدلان على صحته أما القرآن فهو هذه الآية وأما البرهان فهو انه قد ثبت انه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود الى عالم الافلاك ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفي وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الاحوال تركت آثارا مخصوصة مناسبة لذلك الادراك الروحاني الى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الادراكات العقلية فهذا كلام مجمل وتفصيله مذكور في الكتب العقلية والشريعة مؤكدة له روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا ما يحدث به الرجل نفسه ورؤيا تحدث من الشيطان ورؤيا التي هي الرؤيا الصادقة

وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك (فاستجاب لكم) عطف على تستغيثون داخل معه في حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة (أني ممدكم) أي بأني فحذف الجار وسلط عليه الفعل فنصب محله وقرئ بكسر الهمزة على ارادة القول أو على اجراء استجاب مجرى قال لان الاستجابة من مقولة القول (بألف من الملائكة مردفين) أي جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لانفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الاجمالي وبين في سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته اذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته اياه فردفه وقرئ مردفين بفتح الدال أي متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم وقرئ مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصلهما مرتدفين بمعنى مترادفين

حقة وهذا تقسيم صحيح في العلوم العقلية وقال عليه الصلاة والسلام رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ﴿قوله عز وجل ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد ههنا من بيان الوجه الذي لاجله عدل عن ذكر الجواب الى هذا الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه حتى اذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة (الثاني) انه عليه السلام أراد أن يبين ان درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه وذلك لانهم طلبوا منه علم التعبير ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين فبين لهما أنه يمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه واذا كان الامر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس في علم التعبير كان أولى فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا في علم التعبير واصلا فيه الى ما لم يصل غيره (والثالث) قال السدي لا يأتيكما طعام ترزقانه في النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس مقصورا على شئ دون غيره ولذلك قال الا نبأتكما بتأويله (الرابع) انه عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله فاورد عليهما ما دل على كونه رسولا من عند الله تعالى فان الاشتغال باصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا (والخامس) انه عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الاسلام حتى لا يموت على الكفر ولا يستوجب العقاب الشديد وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة (والسادس) قوله لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله محمول على اليقظة والمعنى أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه الا أخبرتكما أي طعام هو وأي لون هو وكم هو وكيف تكون عاقبته أي اذا أكله الانسان فهو يفيد الصحة أو السقم وفيه وجه آخر قيل كان الملك اذا أراد قتل انسان صنع له طعاما مسموما فأرسله اليه فقال يوسف لا يأتيكما طعام الا أخبرتكما ان فيه سما أم لا هذا هو المراد من قوله لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وحاصله راجع الى أنه ادعى الاخبار عن الغيب وهو يجري مجرى قول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم فالوجوه الثلاثة الاول لتقرير كونه فائقا في علم التعبير والوجوه الثلاثة الاخر لتقرير كونه نبيا صادقا من عند الله تعالى فان قيل كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع انه لم يتقدم ادعاء للنبوة قلنا انه وان لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لا بد وأن يقال انه كان قد ذكره وأيضا في قوله ذلكما مما علمني ربي وفي قوله واتبعت ملة آبائي ما يدل على ذلك ثم قال تعالى ذلكما مما علمني ربي أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم وانما أخبرتكما بوحي من الله وعلم حصل بتعليم الله * ثم قال اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لقائل أن يقول في قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة فنقول جوابه من وجوه (الاول) ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضا فيه (والثاني) وهو الاصح أن يقال انه عليه السلام كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والايمان خوفا منهم على سبيل التقية ثم انه أظهره في هذا الوقت فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر ﴿المسئلة الثانية﴾ تكرير لفظ هم في قوله وهم بالآخرة هم كافرون لبيان اختصاصهم بالكفر ولعل انكارهم للمعاد كان أشد من انكارهم للمبدا فلاجل مبالغتهم في انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد واعلم أن قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله اشارة الى علم المبدا وقوله وهم بالآخرة هم كافرون اشارة الى علم المعاد ومن تأمل في القرآن المجيد وتفكر في كيفية دعوة الانبياء عليهم السلام علم أن المقصود من ارسال الرسل

فأدغمت التاء في الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الاصل أو بالضم على الاتباع وقرئ بآلاف ليوافق ما في سورة آل عمران ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالالف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل منهم واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل على وقوعها (وما جعله الله) كلام مستأنف سيق لبيان أن الاسباب الظاهرة بمعزل عن التأثير وانما التأثير مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه والجعل متعد الى مفعول واحد هو الضمير العائد الى مصدر فقيل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فأمدكم بهم وما جعل امدادكم بهم (الا بشرى) وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أي وما جعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشئ من الاشياء الا للبشرى لكم بأنكم تنصرون (ولتطمئن به) أي بالامداد (قلوبكم) وتسكن اليه نفوسكم كما كانت السكينة لبني اسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه وبقي الثاني على حاله لفقدانها وقيل للاشارة الى أصالته في العلية وأهميته في نفسه كما قيل في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفي قصر الامداد عليهما اشعار بعدم مباشرة

الرسل وانزال الكتب صرف الخلق الى الاقرار بالتوحيد وبالمبدا والمعاد وان ما وراء ذلك عبث * ثم قال تعالى واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب وفيه سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة في ذكر هذا الكلام (الجواب) انه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة وان اباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكما أن درجة ابراهيم عليه السلام واسحق ويعقوب كان أمرا مشهورا في الدنيا فاذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل (السؤال الثاني) لما كان نبيا فكيف قال اني اتبعت ملة آبائي والنبي لابد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه (قلنا) لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير وأيضا لعله كان رسولا من عند الله الا أنه كان على شريعة ابراهيم عليه السلام (السؤال الثالث) لم قال ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ وحال كل المكلفين كذلك (والجواب) ليس المراد بقوله ما كان لنا أنه حرم ذلك عليهم بل المراد انه تعالى طهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله ما كان لله أن يتخذ من ولد (السؤال الرابع) ما الفائدة في قوله من شئ (الجواب) ان أصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة فقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق وارشاد الى الدين الحق وهو أنه لا موجد الا الله ولا خالق الا الله ولا رازق الا الله * ثم قال ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس (وفيه مسئلة) وهي أنه قال ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ثم قال ذلك من فضل الله فقوله ذلك اشارة الى ما تقدم من عدم الاشراك فهذا يدل على ان عدم الاشراك وحصول الايمان من الله ثم بين أن الامر كذلك في حقه بعينه وفي حق الناس ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الايمان * حكى أن واحدا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر وقال هل تشكر الله على الايمان أم لا فان قلت لا فقد خالفت الاجماع وان شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلا له فقال بشر انا نشكره على انه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة فيجب علينا أن نشكره على اعطاء القدرة والآلة فاما أن نشكره على الايمان مع ان الايمان ليس فعلا له فذلك باطل وصعب الكلام على بشر فدخل عليهم ثمامة بن الاشرس وقال انا لا نشكر الله على الايمان بل الله يشكرنا عليه كما قال فأولئك كان سعيهم مشكورا فقال له بشر لما صعب الكلام سهل واعلم ان الذي ألزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية وذلك لانه تعالى بين ان عدم الاشراك من فضل الله ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة وانما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على انه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الايمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة قال القاضي قوله ذلك ان جعلناه اشارة الى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لانه انما حصل بألطافه وتسهيله ويحتمل أن يكون اشارة الى النبوة (والجواب) ان ذلك اشارة الى المذكور السابق وذلك هو ترك الاشراك فوجب أن يكون ترك الاشراك من فضل الله تعالى والقاضي يصرفه الى الالطاف والتسهيل فكان هذا تركا للظاهر وأما صرفه الى النبوة فبعيد لان اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه الى أقرب المذكورات وهو ههنا عدم الاشراك * قوله تعالى ﴿ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله ياصاحبي السجن يريد ياصاحبي في السجن ويحتمل أيضا انه لما حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضافهما اليه واذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبا فمن عرف الله تعالى وأحبه طول عمره أولى بان يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب (المسئلة الثانية) اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الاولى وكان اثبات النبوة مبنيا على اثبات الالهيات لاجرم شرع في هذه الآية في تقرير الالهيات ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الاله العالم القادر وانما الشأن في أنهم يتخذون

الملائكة للقتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأى بعض السلف وقيل الجعل متعد الى اثنين ثانيهما الابشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله شيأ من الاشياء الا البشارة لكم فاللام في ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا لشئ آخر (وما النصر) أى حقيقة النصر على الاطلاق (الا من عند الله) أى الا كائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هي مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية (ان الله عزيز) لا يغالب في حكمه ولا ينازع في أقضيته (حكيم) يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل لما قبلها متضمن للاشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة (اذ يغشيكم النعاس) أى يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم وهو بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة أخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما في تستغيثون أو منصوب باضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بما في من عند الله من معنى الفعل أو بالجعل وليس بواضح وقرئ يغشيكم من الاغشاء بمعنى التغشية والفاعل في الوجهين هو البارى تعالى وقرئ يغشاكم على اسناد الفعل الى النعاس وقوله

أصناما على صورة الارواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لاجرم كان سعي أكثر الانبياء في المنع من عبادة الاوثان فكان الامر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام فلهذا السبب شرع ههنا في ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الاصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج (الحجة الاولى) قوله أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وتقرير هذه الحجة أن نقول ان الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل وكون الاله واحدا يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات قال ههنا أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار (والحجة الثانية) ان هذه الاصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة فان الانسان اذا أراد كسرها وابطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها واله العالم فعال قهار قادر يقدر على ايصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار فقوله أأرباب اشارة الى الكثرة فجعل في مقابلته كونه تعالى واحدا وقوله متفرقون اشارة الى كونها مختلفة في الكبر والصغر واللون والشكل وكل ذلك انما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله متفرقون اشارة الى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهارا فبهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين (والحجة الثالثة) ان كونه تعالى واحدا يوجب عبادته لانه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك وفيه اشارة الى ما يدل على فساد القول بعبادة الاوثان وذلك لان بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة الا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما اذا كان المعبود واحدا ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في انه لا يستحق للعبادة الا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات الا هو فهذا أيضا وجه لطيف مستنبط من هذه الآية (الحجة الرابعة) ان بتقدير أن يساعد على أن هذه الاصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات الا أنه لا نزاع في أنها تنفع في أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة والاله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الاطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الاطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى (الحجة الخامسة) وهي شريفة عالية وذلك لان شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهار الكل ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الاله واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لا قاهرا ويجب أن يكون واحدا اذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهرا لكل ما سواه فالاله لا يكون قهارا الا اذا كان واجبا لذاته وكان واحدا واذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضي أن يكون الاله شيأ غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس فاما من تمسك بالكواكب فهي أرباب متفرقون وهي ليست موصوفة بانها قهارة وكذا القول في الطبائع والارواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف في اثبات هذا التوحيد المطلق وانه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية * بقي فيها سؤالان (السؤال الاول) لم سماها أربابا وليست كذلك (والجواب) لاعتقادهم فيها أنها كذلك وأيضا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير والمعنى انها ان كانت أربابا فهي خير أم الله الواحد القهار (السؤال الثاني) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير أم الله الواحد القهار (الجواب) انه خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهي خير أم الله الواحد القهار * ثم قال ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان (وفيه سؤال) وهو انه تعالى قال فيما قبل هذه الآية أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وذلك يدل على وجود هذه المسميات ثم قال عقيب تلك الآية ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها وهذا يدل على ان المسمى غير حاصل وبينهما تناقض (الجواب)

تعالى (أمنة منه) على القراءتين الاوليين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيكم النعاس فتنعسون أمنا كائنا من الله تعالى لا كلالا واعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أي فأمنون أمنا كما في قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والامنة بمعنى الايمان وعلى القراءة الاخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فانه في حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرئ أمنة كرحمة (وينزل عليكم من السماء ماء) تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرئ بالتخفيف من الانزال (ليطهركم به) أي من الحدث الاصغر والاكبر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) الكلام في تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه اياهم من العطش روى أنهم نزلوا في كثيب أعفر تسوخ فيه الاقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل

ان

ان الذات موجودة حاصلة الا أن المسمى بالاله غير حاصل وبيانه من وجهين (الاول) أن ذوات الاصنام وان كانت موجودة الا أنها غير موصوفة بصفات الالهية واذا كان كذلك كان الشيء الذي هو مسمى بالاله في الحقيقة غير موجود ولا حاصل (الثاني) يروى أن عبدة الاوثان مشبهة فاعتقدوا أن الاله هو النور الاعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الانوار هذه الاوثان ومعبودهم في الحقيقة هو تلك الانوار السماوية وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسما كبيرا مستقرا على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح أنهم لا يعبدون الا مجرد الاسماء* واعلم أن جماعة ممن يعبدون الاصنام قالوا نحن لا نقول ان هذه الاصنام آلهة للعالم بمعنى انها هي التي خلقت العالم الا أنا نطلق عليها اسم الاله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا ان الله أمرنا بذلك فاجاب الله تعالى عنه فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهانا ولا دليلا ولا سلطانا وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والامر والتكليف ليس الا له ثم انه أمر أن لا تعبدوا الا اياه وذلك لان العبادة نهاية التعظيم والاجلال فلا تليق الا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الاله تعالى لان منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ونعم الله كثيرة وجهات احسانه الى الخلق غير متناهية ثم انه تعالى لما بين هذه الاشياء قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون وتفسيره ان أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الارضية الى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لاجل أنه تقرر في العقول أن الحادث لا بد له من سبب فاذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الاربعة انما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك ربطوا الفصول الاربعة بحركة الشمس ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الاربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الاربعة فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ثم انه تعالى اذا وفق انسانا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذواتها وصفاتها مفتقرة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم فذلك الشخص يكون في غاية الندرة فلهذا قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون* قوله عز وجل ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الامر الذي فيه تستفتيان﴾ اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكراه والمعنى ظاهر وذلك لان الساقي لما قص رؤياه على يوسف وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف ما أحسن ما رأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك وأما الاغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن وقال للخباز لما قص عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ثم نقل في التفسير أنهما قالا ما رأينا شيأ فقال قضي الامر الذي فيه تستفتيان واختلف فيما لاجله قالا ما رأينا شيأ فقيل انهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيأ وقيل انهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيأ (فان قيل) هذا الجواب الذي ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحي من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير* والاول باطل لان ابن عباس رضي الله عنهما نقل انه انما ذكره على سبيل التعبير وأيضا قال تعالى وقال للذي ظن انه ناج منهما ولو كان ذلك التعبير مبنيا على الوحي لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين* والثاني أيضا باطل لان علم التعبير مبني على الظن والحسبان والقضاء والالزام بالجزم والحكم البتة فكيف يبنى الجزم والقطع على الظن والحسبان (الجواب) لا يبعد أن يقال انهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فان الله تعالى أوحى اليه ان عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص فلما نزل الوحي بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع في الظن انه ذكره على سبيل التعبير ولا يبعد أيضا أن يقال انه بنى ذلك الجواب على علم التعبير وقوله قضي الامر الذي فيه تستفتيان ما عنى به ان الذي ذكره واقع لا محالة بل عنى به أن حكمه في تعبير ما سألاه عنه ذلك الذي ذكره* قوله عز وجل ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما

ثم الشيطان فوسوس اليهم وقال أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وانكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادي فاغتسلوا وتوضؤا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الاقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى (وليربط على قلوبكم) أي يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه (ويثبت به الاقدام) فلا تسوخ في الرمل فالضمير للماء كالاول ويجوز أن يكون للربط فان القلب اذا قوي وتمكن فيه الصبر والجراءة لا تكاد تزل القدم في معارك الحروب وقوله تعالى (اذ يوحي ربك الى الملائكة) منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما ينطق به الكاف لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فان الوحي المذكور قبل ظهوره بالوحي المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التي يقف عليها عامة الامة كسائر النعم السابقة

اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾ فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا في ان الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجي فعلى الاول كان المعنى وقال للرجل الذي ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا وعلى هذا القول ففيه وجهان (الاول) أن نحمل هذا الظن على العلم واليقين وهذا اذا قلنا بانه عليه السلام انما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير في القرآن قال تعالى الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وقال اني ظننت أني ملاق حسابيه (والثاني) ان نحمل هذا الظن على حقيقة الظن وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحي بل على الاصول المذكورة في ذلك العلم وهي لا تفيد الا الظن والحسبان ﴿والقول الثاني﴾ أن هذا الظن صفة الناجي فان الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ولكنهما كانا حسني الاعتقاد فيه فكان قوله لا يفيد في حقهما الا مجرد الظن ﴿المسئلة الثانية﴾ قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذي حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك اذكرني عند ربك أي عند الملك والمعنى اذكر عنده انه مظلوم من جهة اخوته لما أخرجوه وباعوه ثم انه مظلوم في هذه الواقعة التي لاجلها حبس فهذا هو المراد من الذكر ثم قال تعالى فأنساه الشيطان ذكر ربه وفيه قولان ﴿الاول﴾ انه راجع الى يوسف والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وعلى هذا القول ففيه وجهان ﴿أحدهما﴾ ان تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه وتقريره من وجوه (الاول) أن مصلحته كانت في أن لا يرجع في تلك الواقعة الى أحد من المخلوقين وان لا يعرض حاجته على أحد سوى الله وان يقتدي بجده ابراهيم عليه السلام فانه حين وضع في المنجنيق ليرمى الى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال هل من حاجة فقال اما اليك فلا فلما رجع يوسف الى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بان الشيطان أنساه ذلك التفويض وذلك التوحيد ودعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين ثم لما وصفه بذلك ذكر انه بقي لذلك السبب في السجن بضع سنين والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع الى ربه الى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين وحاصل الامر أن رجوع يوسف الى المخلوق صار سببا لامرين أحدهما انه صار سببا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه الثاني أنه صار سببا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة (الوجه الثاني) أن يوسف عليه السلام قال في ابطال عبادة الاوثان أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ثم انه ههنا أثبت ربا غيره حيث قال اذكرني عند ربك ومعاذ الله أن يقال انه حكم عليه بكونه ربا بمعنى كونه الها بل حكم عليه بالربوبية كما يقال رب الدار ورب الثوب على أن اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفي الارباب (الوجه الثالث) انه قال في تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ وذلك نفي للشرك على الاطلاق وتفويض الامور بالكلية الى الله تعالى فههنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة الا أن حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا أن الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب ﴿الوجه الثاني﴾ في تأويل الآية أن يقال هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقي أن يشرح حاله عند ذلك الملك الا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلي ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول ان شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك ﴿القول الثاني﴾ أن يقال ان قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه راجع الى الناجي والمعنى ان الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الامر فلبث في السجن بضع سنين بهذا السبب ومن الناس من قال القول الاول أولى لما روى عنه عليه الصلاة والسلام قال رحم الله يوسف لولم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن وعن قتادة ان يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه لغير الله وعن ابراهيم التيمي أنه لما انتهى الى باب السجن قال له صاحبه ما حاجتك قال أن تذكرني عند رب سوى الرب الذي قال يوسف وعن مالك لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاخوتي

(قال

التي أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الاقدام فلابد حينئذ من عود الضمير المجرور فى به الى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت ايحائه الى الملائكة وأمره بتثبيتهم اياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من اذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام مع ما عرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر أخواته وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريف ما لا يخفى والمعنى اذكر وقت ايحائه تعالى الى الملائكة (أني معكم) أي بالامداد والتوفيق فى أمر التثبيت فهو مفعول يوحي وقرئ بالكسر على ارادة القول أو اجراء الوحي مجراه وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة انما هي من حيث انهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الاصالة من تلك الحيثية كما فى أمثال قوله تعالى ان الله مع الصابرين والفاء فى قوله تعالى (فثبتوا الذين آمنوا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان امداده تعالى اياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت

{قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازى رحمه الله} والذى جربته من أول عمرى الى آخره ان الانسان كلما عوّل فى أمر من الامور على غير الله صار ذلك سببا الى البلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عوّل العبد على الله ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت فيه الى السابع والخمسين فعند هذا استقر قلبى على انه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه ومن الناس من رجح القول الثانى لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل أولى من صرفها الى يوسف الصديق ولان الاستعانة بالعباد فى التخلص من الظلم جائزة واعلم أن الحق هو القول الاول وما ذكره هذا القائل الثانى تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الاول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة ومن كان له ذوق فى مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الامر كما ذكرناه وأيضا فى لفظ الآية ما يدل على أن هذا القول ضعيف لانه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه {المسئلة الثالثة} الاستعانة بغير الله فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة لا انكار عليه الا أنه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين فى بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذا به وعند هذا أقول الذى يصير مؤاخذا بهذا القدر لأن يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الاحسان بالاساءة كان أولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ولم يؤاخذه فى تلك القضية البتة وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه {المسئلة الرابعة} الشيطان يمكنه القاء الوسوسة وأما النسيان فلا لانه عبارة عن ازالة العلم عن القلب والشيطان لا قدرة له عليه والا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بنى آدم (وجوابه) انه يمكنه من حيث انه بوسوسته يدعو الى سائر الاعمال واشتغال الانسان بسائر الاعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة {المسئلة الخامسة} قوله ذلبث فى السجن بضع سنين فيه بحثان (الاول) بحسب اللغة قال الزجاج اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال الفراء ولا يذكر البضع الا مع عشرة أو عشرين الى التسعين وذلك يقتضى أن يكون مخصوصا بما بين الثلاثة الى التسعة وقال هكذا رأيت العرب يقولون وما رأيتهم يقولون بضع ومائة وروى الشعبى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لاصحابه كم البضع قالوا الله ورسوله أعلم قال ما دون العشرة واتفق الاكثرون على أن المراد ههنا بضع سنين سبع سنين قالوا ان يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل اذكرنى عند ربك كان قد بقى فى السجن خمس سنين ثم بقى بعد ذلك سبع سنين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما تضرع يوسف عليه السلام الى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث فى السجن بعده سبع سنين وروى ان الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها ما لبث فى السجن هذه المدة الطويلة ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا أمر تضرعنا الى الناس ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين﴾ اعلم أنه تعالى اذا أراد شيأ هيأ له أسبابا ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر فى النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها وتعبيرها فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل {المسئلة الاولى} قال الليث العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والانثى عجفاء والجمع عجاف فى الذكران والاناث وليس فى كلام العرب أفعل وفعلاء جمعا على فعال غير أعجف وعجفاء وهى شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا سمان وعجاف لانهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض واللام فى قوله للرؤيا تعبرون على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل وقال

فقالت جماعة انما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدهم فى القتال وهو الانسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل على الثبات فى مواطن الحرب والجد فى مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول انى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) تفسيرا لقوله تعالى انى معكم وقوله تعالى (فاضربوا) الخ تفسيرا لقوله تعالى فثبتوا مبينا لكيفية التثبيت وقد روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرا أنه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لاضربه فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا يشير بسيفه الى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وأنت خبير بأن قتالهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على الامداد بالقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الامر به عليه بالفاء وقد

صاحب الكشاف ويجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر أو حالا ويقال عبرت الرؤيا أعبرها عبارة وعبرتها تعبيرا اذا فسرتها وحكى الازهرى أن هذا مأخوذ من العبر وهو جانب النهر ومعنى عبرت النهر والطريق قطعته الى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر لانه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر فى أطرافها وينتقل من أحد الطرفين الى الآخر والاضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى وخذ بيدك ضغثا اذا عرفت هذا فنقول الرؤيا ان كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث (المسئلة الثانية) انه تعالى جعل هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن وذلك لان الملك لما رآه قلق واضطرب بسببه لانه شاهد ان الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وانه منذر بنوع من أنواع الشر الا انه ما عرف كيفية الحال فيه والشئ اذا صار معلوما من وجه وبقى مجهولا من وجه آخر عظم تشوف الناس الى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة فى اتمام الناقص لاسيما اذا كان الانسان عظيم الشأن واسع المملكة وكان ذلك الشئ دالا على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك فى تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ثم انه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسئلة وعماه عليهم ليصير ذلك سببا لخلاص يوسف عليه السلام من تلك المحنة واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير بل قالوا ان علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الامور المتخيلة الى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا ان رؤيا الملك من قسم الاضغاث ثم أخبروا انهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدى اليها ولا يحيط عقلنا بها وفيه ايهام أن الكامل فى هذا العلم والمتبحر فيه قد يهتدى اليها فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم ﴿ قوله تعالى ﴿وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون﴾ اعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابى ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى الكل وما أخطأ فى حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب فهذا هو قوله وقال الذى نجا منهما وأما قوله وادكر بعد أمة فنقول سيجىء ادكر فى تفسير قوله تعالى فهل من مدكر فى سورة القمر قال صاحب الكشاف وادكر بالدال هو الفصيح عن الحسن واذكر بالذال أى تذكر وأما الامة ففيه وجوه (الاول) بعد أمة أى بعد حين وذلك لان الحين انما يحصل عند اجتماع الايام الكثيرة كما ان الامة انما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الايام والساعات (والثانى) قرأ الاشهب العقيلى بعد امة بكسر الهمزة والامة النعمة قال عدى

ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور

والمعنى بعد ما أنعم عليه بالنجاة (الثالث) قرئ بعد أمه أى بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها اذا نسى والصحيح انها بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم وحاصل الكلام انه اما أن يكون المراد وادكر بعد مضى الاوقات الكثيرة من الوقت الذى أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك أو المراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادكر بعد النسيان * فان قيل قوله وادكر بعد أمة يدل على أن الناسى هو الشرابى وأنتم تقولون الناسى هو يوسف عليه السلام * قلنا قال ابن الانبارى ادكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقى انما لم يذكره للملك خوفا من أن يكون ذلك اذكارا للذنب الذى من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضا أن يقال حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضا

اعتذر الاولون بأن قوله تعالى سألقى الخ ليس بنص فيما ذكر بل يجوز أن يكون ذلك اثر قوله تعالى فثبتوا الذين آمنوا تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ما قيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة انما نزلت بعد تمام الوقعة وقوله تعالى (فوق الاعناق) أى أعاليها التى هى المذابح أو الهامات (واضربوا منهم كل بنان) قيل البنان أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقيل هى الاصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانة وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الاطراف أى اضربوهم فى جميع الاعضاء من أعاليها الى أسافلها وقيل المراد بالبنان الادانى وبفوق الاعناق الاعالى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الامر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره ومنهم به أو متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده (ذلك) اشارة الى ما أصابهم من العقاب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحله الرفع

لذلك

لذلك الشرابي وأما قوله فأرسلون خطاب اما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم أما قوله يوسف أيها الصديق ففيه محذوف والتقدير فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق والصديق هو البالغ في الصدق وصفه بهذه الصفة لانه لم يجرب عليه كذبا وقيل لانه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيأ فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك ونعم ما فعل فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم أما قوله تعالى لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون فالمراد لعلي أرجع الى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وانما قال لعلي أرجع الى الناس بفتواك لانه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسئلة فخاف أن يعجز هو أيضا عنه فلهذا السبب قال لعلي أرجع الى الناس ﴿ قوله عز وجل ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال تزرعون وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما يخرج الخبر بمعنى الامر ويخرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الامر قوله فذروه في سنبله وقوله دأبا قال أهل اللغة الدأب استمرار الشئ على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا اذا استمر في فعله وقد دأب يدأب دأبا ودأبا أي زراعة متوالية في هذه السنين قال أبو علي الفارسي الاكثرون في دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة فيكون كشمع وشمع ونهر ونهر قال الزجاج وانتصب دأبا على معنى تدأبون دأبا وقيل انه مصدر وضع في موضع الحال وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه لان ابقاء الحبة في سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد أي سبع سنين مجدبات والشداد الصعاب التي تشتد على الناس وقوله يأكلن ما قدمتم لهن هذا مجاز فان السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسندا الى السنين وقوله الا قليلا مما تحصنون الاحصان الاحراز وهو القاء الشئ في الحصن يقال أحصنته احصانا اذا جعلته في حرز والمراد الا قليلا مما تحرزون أي تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما وقوله ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس قال المفسرون السبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شئ يدل عليه بل حصل ذلك من الوحي فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم وعن قتادة زاده الله علم سنة * فان قيل لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضا من مدلولات المنام فلم قلتم انه حصل بالوحي والالهام * قلنا هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام اما تفصيل الحال فيه وهو قوله فيه يغاث الناس وفيه يعصرون لا يعلم الا بالوحي قال ابن السكيت يقال غاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الارض تغاث وقوله يغاث الناس معناه يمطرون ويجوز أن يكون من قولهم أغاثه الله اذا أنقذه من كرب أو غم ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب وقوله وفيه يعصرون أي يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير وقيل يحلبون الضروع وقيل يعصرون من عصره اذا نجاه وقيل معناه يمطرون من أعصرت السحابة اذا أعصرت بالمطر ومنه قوله وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴿ قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب

على الابتداء وخبره قوله تعالى (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أي ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لا سبيل الى مغالبته أصلا واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين في شق خلاف شق الآخر كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أي الجانب لان كلا من المتعادين والمتخاصمين في عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه (ومن يشاقق الله ورسوله) الاظهار في موضع الاضمار لتربية المهابة واظهار كمال شناعة ما اجترؤا عليه والاشعار بعلة الحكم وقوله تعالى (فان الله شديد العقاب) اما نفس الجزاء قد حذف منه العائد الى من عند من يلتزمه أي شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أي يعاقبه الله فان الله شديد العقاب وأياما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فاذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد وأما انه وعدلهم بما أعد لهم في الآخرة بعدما حاق بهم في الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) فانه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر ناطق بكون المراد

﴿وأن الله لا يهدى كيد الخائنين﴾ اعلم أنه لما رجع الشرابى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال ائتونى به وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية فعاد الشرابى الى يوسف عليه السلام قال أجب الملك فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن الا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الى الباب ولما ابتغيت العذر انه كان حليما ذا أناة واعلم أن الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف الى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل وبيانه من وجوه (الاول) انه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثرها فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوصل بها الى الطعن فيه (الثانى) ان الانسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة اذا طلبه الملك وأمر باخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات وذلك يصير سببا لان يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ولأن يحكم بان كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتانا (الثالث) ان التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته اذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفا أن يذكر ما سبق (الرابع) انه حين قال للشرابى اذكرنى عند ربك فبقى بسبب هذه الكلمة فى السجن بضع سنين وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقم لطلبه وزنا واشتغل باظهار براءته عن التهمة ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى فى قلبه التفات الى رد الملك وقبوله وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافى لما صدر منه من التوسل اليه فى قوله اذكرنى عند ربك ليظهر أيضا هذا المعنى لذلك الشرابى فانه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معا * أما قوله فاسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن كثير والكسائى فسله بغير همز والباقون فاسئله بالهمز وقرأ عاصم برواية أبى بكر عنه النسوة بضم النون والباقون بكسر النون وهما لغتان ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف (أولها) ان معنى الآية فسل الملك بان يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن ليعلم براءتى عن تلك التهمة الا أنه اقتصر على ان يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجرى مجرى أمر الملك بعمل أو فعل (وثانيها) انه لم يذكر سيدته مع أنها هى التى سعت فى القائه فى السجن الطويل بل اقتصر على ذكر سائر النسوة (وثالثها) أن الظاهر ان أولئك النسوة نسبنه الى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن وما شكاهن على سبيل التعيين والتفصيل ثم قال يوسف عليه السلام بعد ذلك ان ربى بكيدهن عليم وفى المراد من قوله ان ربى وجهان (الاول) أنه هو الله تعالى لانه تعالى هو العالم بخفيات الامور (والثانى) أن المراد به الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن واعلم أن كيدهن فى حقه يحتمل وجوها (أحدها) ان كل واحدة منهن ربما طمعت فيه فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه الى القبيح (وثانيها) لعل كل واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة فى حق السيد المنعم لا تجوز فأشار بقوله ان ربى بكيدهن عليم الى مبالغتهن فى الترغيب فى تلك الخيانة (وثالثها) أنه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل فى تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذلك ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام انه لما التمس ذلك أمر الملك باحضارهن وقال لهن ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه وفيه وجهان (الاول) ان قوله اذ راودتن يوسف عن نفسه وان كانت صيغة الجمع فالمراد منها الواحدة

بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم اشارة الى نفس العقاب أو الى ما تفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الاول فلان الاظهر أن محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو فى قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى أصابكم فذوقوه عاجلا مع أن لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثانى فلان الاقرب أن محله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الاول لنفس المشار اليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى اعراب الآية الكريمة وجوه أخر مدار الكل على أن المراد بالعقاب ما أصابهم عاجلا والله تعالى أعلم وقرئ بكسر ان على الاستئناف (يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمؤمنين بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جىء به فى تضاعيف القصة اظهارا للاعتناء بشأنه ومبالغة فى حثهم على المحافظة عليه (اذا لقيتم الذين كفروا زحفا)

كقوله

كقوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم (والثاني) أن المراد منه خطاب الجماعة ثم ههنا وجهان (الاول) ان كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها (والثاني) ان كل واحدة منهن راودت يوسف لاجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه وعند هذا السؤال قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء وهذا كالتأكيد لما ذكرن في أول الامر في حقه وهو قولهن ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم واعلم ان امرأة العزيز كانت حاضرة وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات انما وقعت بسببها ولاجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بان يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهرا عن جميع العيوب وههنا دقيقة وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة فعرفت المرأة أنه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عليها فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بان الذنب كله كان من جانبها وان يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل * ورأيت في بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضي وادعت عليه المهر فأمر القاضي بان يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فاني مقر بصدقها في دعواها فقالت المرأة لما أكرمتني الى هذا الحد فاشهدوا اني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك (المسئلة الثانية) قال أهل اللغة حصحص الحق معناه وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم حصحص البعير في بروكه اذا تمكن واستقر في الارض قال الزجاج اشتقاقه في اللغة من الحصة أي بانت حصة الحق من حصة الباطل (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب كلام من وفيه أقوال (الاول) وهو قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وهذا كلام بلقيس ثم انه تعالى قال وكذلك يفعلون وأيضا قوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعي ثم قال ان الله لا يخلف الميعاد * بقي على هذا القول سؤالات (السؤال الاول) قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد ههنا الاشارة الى تلك الحادثة الحاضرة (والجواب) أجبنا عنه في قوله ذلك الكتاب وقيل ذلك اشارة الى ما فعله من رد الرسول كانه يقول ذلك الذي فعلت من ردي الرسول انما كان ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب (السؤال الثاني) متى قال يوسف عليه السلام هذا القول (الجواب) روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وانما ذكره على لفظ الغيبة تعظيما للملك عن الخطاب والاولى أنه عليه السلام انما قال ذلك عند عود الرسول اليه لان ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب (السؤال الثالث) هذه الخيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب (والجواب) قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة وقيل انه اذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه وقيل ان الشرابي لما رجع الى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ثم ختم الكلام بقوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ولعل المراد منه أني لو كنت خائنا لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة وحيث خلصني منها ظهر اني كنت مبرأ عما نسبوني اليه (والقول الثاني) ان قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب كلام امرأة العزيز والمعنى أني وان أحلت الذنب عليه عند حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته أي لم أقل فيه وهو في السجن خلاف الحق ثم انها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول وقالت وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وأنه لما كان بريئا عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه قال صاحب هذا القول والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضرا في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن

الزحف الدبيب يقال زحف الصبي زحفا اذا دب على استه قليلا قليلا سمي به الجيش الدهم المتوجه الى العدو لانه لكثرته وتكاثفه يرى كانه يزحف وذلك لان الكل يرى كجسم واحد متصل فيحسب حركته بالقياس اليه في غاية البطء وان كانت في نفس الامر على غاية السرعة قال قائلهم

وأرعن مثل الطود تحسب أنهم
وقوف لحاج والركاب تهملج

ونصبه اما على أنه حال من مفعول لقيتم أي زاحفين نحوكم واما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أي يزحفون زحفا واما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى (فلا تولوهم الادبار) اذ لا معنى لتقييد النهي عن الادبار بتوجههم السابق الى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو اليهم وكثرتهم هو الداعي الى الادبار عادة والمحوج الى النهي عنه وحمله على الاشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفا بعيد والمعنى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم (ومن يولهم يومئذ) أي يوم اللقاء (دبره) فضلا عن الفرار وقرئ بسكون الباء (الا متحرفا لقتال) اما بالتوجه الى قتال طائفة

الصادقين ففي تلك الحالة يقول يوسف ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب بل يحتاج فيه الى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس الى السجن ويذكر له تلك الحكاية ثم ان يوسف يقول ابتداء ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ومثل هذا الوصل بين الكلامين الاجنبيين ما جاء البتة في نثر ولا نظم فعلمنا ان هذا من تمام كلام المرأة ﴿المسئلة الرابعة﴾ هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة (الاول) ان الملك لما أرسل الى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهما بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة لانه لو كان قد أقدم على الذنب ثم انه يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيا منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته الا انه لاشك انه كان عاقلا والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه وفي حمل الاعداء على أن يبالغوا في اظهار عيوبه (والثاني) أن النسوة شهدن في المرة الاولى بطهارته ونزاهته حيث قلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم وفي المرة الثانية حيث قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء (والثالث) ان امرأة العزيز أقرت في المرة الاولى بطهارته حيث قالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وفي المرة الثانية في هذه الآية * واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه (أولها) قول المرأة أنا راودته عن نفسه (وثانيها) قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى انه صادق في قوله هي راودتني عن نفسي (وثالثها) قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب والحشوية يذكرون انه لما قال يوسف هذا الكلام قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم في تحريف ظاهر القرآن (ورابعها) قوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني ان صاحب الخيانة لابد وان يفتضح فلو كنت خائنا لوجب ان افتضح وحيث لم افتضح وخلصني الله تعالى من هذه الورطة فكل ذلك يدل على اني ما كنت من الخائنين (وههنا وجه آخر) وهو أقوى من الكل وهو أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة وتلك المحنة صارت منتهية فاقدامه على قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب مع انه خانه باعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير ان يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لا يليق باحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى سيد العقلاء وقدوة الاصفياء فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته عما يقوله الجهال والحشوية * قوله تعالى ﴿وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لانا ان قلنا ان قوله ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب كلام يوسف كان هذا أيضا من كلام يوسف * وان قلنا ان ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضا كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا التقديرين اما اذا قلنا ان هذا من كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء أي بالزنا الا ما رحم ربي أي عصم ربي ان ربي غفور للهم الذي هممت به رحيم أي لو فعلته لتاب علي * واعلم أن هذا الكلام ضعيف فانا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب * بقي أن يقال فما جوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان (الاول) أنه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقال تعالى فلا تزكوا أنفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما أبرئ نفسي والمعنى وما أزكي نفسي ان النفس لأمارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة في المعصية (والوجه الثاني في الجواب) ان الآية لا تدل البتة على شيء مما ذكروه وذلك لان يوسف عليه السلام لما قال اني لم أخنه بالغيب بين أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة لان النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة الى اللذات فبين بهذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة

أخرى أهم من هؤلاء واما بالفر للكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من في الكمين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها (أو متحيزا الى فئة) أي منحازا الى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو * عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ان سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا الى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم بل أنتم العكارون أي الكرارون من عكر أي رجع وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت ففررت من الزحف فقال رضي الله عنه أنا فئتك ووزن متحيز متفيعل لا متفعل والا لكان متحوزا لانه من حاز يحوز وانتصابهما اما على الحالية والا لغو لا عمل لها واما على الاستثناء من المولين أي ومن يولهم دبره الا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا (فقد باء) أي رجع (بغضب) عظيم لا يقادر قدره ومن في قوله تعالى (من الله) متعلقة بمحذوف هو صفة الغضب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة والهول

بل القيام الخوف من الله تعالى أما اذا قلنا ان هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان (الاول) وما أبرئ نفسي عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام فى قوله هى راودتنى عن نفسى (الثانى) انها لما قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قالت وما أبرئ نفسي عن الخيانة مطلقا فانى قد خنته حين قد أحالت الذنب عليه وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم وأودعته السجن كانها أرادت الاعتذار مما كان (فان قيل) جعل هذا الكلام كلاما ليوسف أولى أم جعله كلاما للمرأة (قلنا) جعله كلاما ليوسف مشكل لان قوله قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق كلام موصول بعضه ببعض الى آخره فالقول بان بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد وأيضا جعله كلاما للمرأة مشكل أيضا لان قوله وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى كلام لا يحسن صدوره الا ممن احترز عن المعاصي ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس وذلك لا يليق بالمرأة التى استفرغت جهدها فى المعصية (المسئلة الثانية) قالوا ما فى قوله الا ما رحم ربى بمعنى من والتقدير الا من رحم ربى وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقال ومنهم من يمشى على أربع وقوله الا ما رحم ربى استثناء متصل أو منقطع فيه وجهان (الاول) انه متصل وفى تقريره وجهان (الاول) ان يكون قوله الا ما رحم ربى أى الا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة (الثانى) الا ما رحم ربى أى الا وقت رحمة ربى يعنى انها امارة بالسوء فى كل وقت الا فى وقت العصمة (والقول الثانى) انه استثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة كقوله ولا هم ينصرون الا رحمة منا (المسئلة الثالثة) اختلف الحكماء فى أن النفس الامارة بالسوء ما هى والمحققون قالوا ان النفس الانسانية شئ واحد ولها صفات كثيرة فاذا مالت الى العالم الالهى كانت نفسا مطمئنة واذا مالت الى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه ان النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها فاما شعورها بعالم المجردات وميلها اليه فذلك لا يحصل الا نادرا فى حق الواحد فالواحد وذلك الواحد فانما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره فى الاوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها الى العالم الجسدانى وكان ميلها الى الصعود الى العالم الاعلى نادرا لاجرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هى النفس العقلية النطقية وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية والكلام فى تحقيق الحق فى هذا الباب مذكور فى المعقولات (المسئلة الرابعة) تمسك أصحابنا فى أن الطاعة والايمان لا يحصلان الا من الله بقوله الا ما رحم ربى قالوا دلت الآية على ان انصراف النفس من الشر لا يكون الا برحمته ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف فنقول لا يمكن تفسير هذه الرحمة باعطاء العقل والقدرة والالطاف كما قاله القاضى لان كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشئ آخر وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضا بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب ﴿قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى هذا الملك فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال بل هو الريان الذى هو الملك الاكبر وهذا هو الاظهر لوجهين (الاول) ان قول يوسف اجعلنى على خزائن الارض يدل عليه (الثانى) ان قوله أستخلصه لنفسى يدل على انه قبل ذلك ما كان خالصا له وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الاكبر (المسئلة الثانية) ذكروا أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو فى الحبس وقال قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن وتقرير الكلام أن الملك عظم اعتقاده فى يوسف عليه السلام لوجوه (أحدها) انه عظم اعتقاده فى علمه وذلك لانه لما عجز القوم عن الجواب

بالقيامة الاضافية أى بغضب كائن منه تعالى (ومأواه جهنم) أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى اليه من مأوى ينجيه من القتل (وبئس المصير) فى ايقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة ما لا مزيد عليه * عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الفرار من الزحف من أكبر الكبائر وهذا اذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة باهل بيته والحاضرين معه فى الحرب (فلم تقتلوهم) رجوع الى بيان بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ما سبق منها والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر امداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كانه قيل اذا كان الامر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم (ولكن الله قتلهم) بنصركم وتسليطكم عليهم والقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير اذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم أى فاعلموا أو فأخبركم أنكم لم تقتلوهم وقيل التقدير ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على أحد التأويلين لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل قال هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون

وقدره وعلى الجواب الموافق الذى يشهد العقل بصحته مال الطبع اليه (وثانيها) انه عظم اعتقاده فى صبره وثباته وذلك لانه بعد ان بقى فى السجن بضع سنين لما أذن له فى الخروج ما أسرع الى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولا ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم (وثالثها) انه عظم اعتقاده فى حسن أدبه وذلك لانه اقتصر على قوله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن وان كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لامر سائر النسوة مع انه وصل اليه من جهتهن أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الادب العجيب (ورابعها) براءة حاله عن جميع أنواع التهم فان الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم (وخامسها) ان الشرابى وصف له جده فى الطاعات واجتهاده فى الاحسان الى الذين كانوا فى السجن (وسادسها) انه بقى فى السجن بضع سنين وهذه الامور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الانسان فكيف مجموعها فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه واذا أراد الله شيأ جمع أسبابه وقواها اذا عرفت هذا فنقول لما ظهر للملك هذه الاحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال ائتونى به أستخلصه لنفسى روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام قم الى الملك متنظفا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ولما دخل عليه قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشئ من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وانه لا يشاركه فيه غيره لان عادة الملوك أن ينفردوا بالاشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به روى أن الملك قال ليوسف عليه السلام ما من شئ الا وأحب أن تشركنى فيه الا فى أهلى وفى أن لا تأكل معى فقال يوسف عليه السلام أما ترى أن آكل معك وأنا يوسف بن يعقوب ابن اسحق الذبيح ابن ابراهيم الخليل عليه السلام ثم قال فلما كلمه وفيه قولان (أحدهما) ان المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لان فى مجالس الملوك لا يحسن لاحد أن يبتدئ بالكلام وانما الذى يبتدئ به هو الملك (والثانى) أن المراد فلما كلم يوسف الملك قيل لما صار يوسف الى الملك وكان فى ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة فلما رآه الملك حدثا شابا قال للشرابى هذا هو الذى علم تأويل رؤياى مع أن السحرة والكهنة ما علموها قال نعم فأقبل على يوسف وقال انى أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاها فاجاب بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك قال له الملك انك اليوم لدينا مكين أمين يقال فلان مكين عند فلان بين المكانة أى المنزلة وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد وقوله أمين أى قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت اليه واعلم ان قوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب وذلك لانه لابد فى كونه مكينا من القدرة والعلم أما القدرة فلان بها يحصل المكنة وأما العلم فلان كونه متمكنا من أفعال الخير لا يحصل الا به اذ لو لم يكن عالما بما ينبغى وبما لا ينبغى لا يمكنه تخصيص ما ينبغى بالفعل وتخصيص ما لا ينبغى بالترك فثبت أن كونه مكينا لا يحصل الا بالقدرة والعلم أما كونه أمينا فهو عبارة عن كونه حكيما لا يفعل الفعل لداعى الشهوة بل انما يفعله لداعى الحكمة فثبت ان كونه مكينا أمينا يدل على كونه قادرا وعلى كونه عالما بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد وعلى كونه بحيث يفعل لداعى الحكمة لا لداعية الشهوة وكل من كان كذلك فانه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه ولهذا المعنى لما حاولت المعتزلة اثبات انه تعالى لا يفعل القبيح قالوا انه تعالى لا يفعل القبيح لانه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا وانما يكون غنيا عن القبيح اذا كان قادرا واذا كان منزها عن داعية السفه فثبت ان وصفه بكونه مكينا أمينا نهاية ما يمكن ذكره فى هذا الباب ❊ ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال فى هذا المقام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال المفسرون لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك فما ترى أيها الصديق قال أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم

رسولك اللهم انى أسألك ما وعدتنى فأتاه جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله تعالى عنه أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) تحقيقا لكون الرمى الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الاصلى بيان حال الرمى نفيا واثباتا اذ هو الذى ظهر منه ما ظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره الى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الامة الجمة شئ من ذلك أى وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة والا لكان أثرها من جنس آثار الافاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لا على نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فاذا اثباتها لله تعالى ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله سبحانه لا من أفعاله عليه الصلاة والسلام وقرئ

فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف اجعلنى على خزائن الارض أى على خزائن أرض مصر وأدخل الالف واللام على الارض والمراد منه المعهود السابق روى ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أنه قال رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة وأقول هذا من العجائب لانه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع فى ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على ان ترك التصرف والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل ان يقول لم طلب يوسف الامارة والنبى عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة وأيضا فكيف طلب الامارة من سلطان كافر وأيضا لم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلب الامارة فى الحال وأيضا لم طلب أمر الخزائن فى أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة وأيضا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله انى حفيظ عليم مع انه تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم وأيضا فما الفائدة فى قوله انى حفيظ عليم وأيضا لم ترك الاستثناء فى هذا فان الاحسن أن يقول انى حفيظ عليم ان شاء الله بدليل قوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها (فنقول) الاصل فى جواب هذه المسائل أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان انما قلنا ان ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجوه (الاول) أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الامة بقدر الامكان (والثانى) وهو أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى الى هلاك الخلق العظيم فلعله تعالى أمره بان يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق (والثالث) أن السعى فى ايصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول واذا ثبت هذا فنقول انه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فكان هذا الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الاسئلة بالكلية * وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى كان ذلك منه خطيئة أوجبت عقوبة وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة * وأقول لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك انه انما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلاجل هذا المعنى ترك الاستثناء وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه (الاول) لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفا بهاتين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج الى ذكر هذا الوصف لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكنه ما كان عالما بانه يفى بهذا الامر ثم نقول هب انه مدح نفسه الا ان مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل فاما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما اذا كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم * قوله ما الفائدة فى وصفه نفسه بانه حفيظ عليم قلنا انه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال عليم بالجهات التى تصلح لان يصرف المال اليها او يقال حفيظ بجميع مصالح الناس عليم بجهات حاجاتهم أو يقال حفيظ لوجوه أياديك وكرمك عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الارض لم يحك الله عن الملك انه قال قد فعلت بل الله سبحانه قال وكذلك مكنا ليوسف فى الارض فههنا المفسرون قالوا فى الكلام محذوف وتقديره قال الملك قد فعلت لان تمكين الله له فى الارض يدل على أن الملك قد أجابه الى ما سأله وأقول ما قالوه حسن

ولكن الله بالتخفيف والرفع فى الحالين والاء فى قوله تعالى (وليبلى المؤمنين منه) أى ليعطيهم من عنده تعالى (بلاء حسنا) أى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره اما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية أى وللاحسان اليهم بالنصر والغنيمة فعل ما فعل لا لشئ غير ذلك مما لا يجديهم نفعا واما برمى فالواو للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى (ان الله سميع) أى لدعائهم واستغاثتهم (عليم) أى بنياتهم وأحوالهم الداعية الى الاجابة تعليل للحكم (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (وأن الله موهن كيد الكافرين) بالاضافة معطوف عليه أى المقصد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقيل المشار اليه القتل والرمى والمبتدأ الامر أى الامر ذلكم أى القتل فيكون قوله تعالى وان الله الآية من قبيل عطف البيان وقرئ موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين (ان تستفتحوا) خطاب لاهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أى ان تستنصروا

الان ههنا ماهو أحسن منه وهو ان اجابة الملك له سبب في عالم الظاهر وأما المؤثر الحقيقي فليس الا أنه تعالى مكنه في الارض وذلك لان ذلك الملك كان متمكنا من القبول ومن الرد فنسبة قدرته الى القبول والى الرد على التساوي وما دام يبقى هذا التساوي امتنع حصول القبول فلا بد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك وذلك الترجح لا يكون الا بمرجح يخلقه الله تعالى واذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة فالتمكن ليوسف في الارض ليس الا من خلق الله تعالى في قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة التي عندحصولها يجب الاثر فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر اجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الالهي لان المؤثر الحقيقي ليس الا هو (المسئلة الثانية) روى أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله في اصبعه وقلده بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال يوسف عليه السلام أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي وجلس على السرير ودانت له القوم وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرايم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم سنين فقالوا والله ما رأينا ملكا أعظم شأنا من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال اني أشهد الله اني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وكان لا يبيع لاحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب الكشاف والله أعلم (المسئلة الثالثة) قوله وكذلك الكاف منصوبة بالتمكين وذلك اشارة الى ما تقدم يعني به ومثل ذلك الانعام الذي أنعمنا عليه في تقريبنا اياه من قلب الملك وانجائنا اياه من غم الحبس وقوله مكنا ليوسف في الارض أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله يتبوأ منها حيث يشاء يتبوأ في موضع نصب على الحال تقديره مكناه متبوأ وقرأ ابن كثير نشاء بالنون مضافا الى الله تعالى والباقون بالياء مضافا الى يوسف واعلم أن قوله يتبوأ منها حيث يشاء يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد ولا ينازعه منازع بل صار مستقلا بكل ما شاء وأراد ثم بين تعالى ما يؤكد أن ذلك من قبله تعالى فقال نصيب برحمتنا من نشاء واعلم أنه تعالى ذكر أولا أن ذلك التمكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله وكذلك مكنا ليوسف في الارض ثم أكد ذلك ثانيا بقوله نصيب برحمتنا من نشاء وفيه فائدتان (الفائدة الاولى) ان هذا يدل على أن الكل من الله تعالى قال القاضي تلك المملكة لما لم تتم الا بامور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى وجوابه أنا ندعي أن نفس تلك المملكة انما حصلت من قبل الله تعالى لان لفظ القرآن يدل على قولنا والبرهان القاطع الذي ذكرناه يقوي قولنا فصرف هذا اللفظ الى المجاز لا سبيل اليه (الفائدة الثانية) انه أتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الالهية والقدرة النافذة قال القاضي هذه الآية تدل على أنه تعالى يجري أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح قلنا الآية تدل على ان الامور معلقة بالمشيئة الالهية والقدرة المحضة فاما رعاية قيد الصلاح فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه ثم قال تعالى ولا نضيع أجر المحسنين وذلك لان اضاعة الاجر اما ان يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى فكانت الاضاعة ممتنعة واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق القول بأنه جلس بين شعبها الاربع لامتنع أن يقال انه كان من المحسنين فههنا لزم اما تكذيب الله في حكمه على يوسف بانه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لزم تكذيب الحشوي فيما رواه وهو عين الايمان والحق * ثم قال تعالى ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تفسير هذه الآية قولان (الاول) المراد منه أن يوسف عليه السلام وان كان قد وصل الى المنازل العالية والدرجة الرفيعة في الدنيا الا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل

لأنه على الجانبين (فقد جاءكم الفتح) حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم في المجيء أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم في نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله (وان تنتهوا) عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم (فهو) أي الانتهاء (خير لكم) أي من الحراب الذي ذقتم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والاسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية في المفضل عليه هو التهكم (وان تعودوا) أي الى حرابه عليه الصلاة والسلام (نعد) لما شاهدتموه من الفتح (ولن تغني) بالتاء الفوقانية وقرئ بالياء التحتانية لان تأنيث الفئة غير حقيقي وللفصل أي ان تدفع أبدا (عنكم فئتكم) جماعتكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم (شيأ) أي من الاغناء أو من المضار وقوله تعالى (ولو كثرت) جملة حالية وقد مر التحقيق (وان الله مع المؤمنين) أي ولان الله معين المؤمنين كان ذلك أو والامر أن الله مع المؤمنين ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وان تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وان تعودوا اليه نعد عليكم بالانكار

واكمل

وأكمل وجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذي يكون نفعاً خالصاً دائماً مقروناً بالتعظيم وكل هذه القيود الاربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا (القول الثاني) ان لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخيرين أفضل من الآخر كما يقال الجلاب خير من الماء وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيراً من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال الثريد خير من الله يعني الثريد خير من الخيرات حصل باحسان من الله اذا ثبت هذا فقوله ولأجر الآخرة خير ان حملناه على الوجه الاول لزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضاً وأما ان حملناه على الوجه الثاني لزم أن لا يقال ان منافع الدنيا أيضاً خيرات بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير وأما ما سواه فعبث ﴿المسألة الثانية﴾ لا شك أن المراد من قوله ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه انه من الذين آمنوا وكانوا يتقون وهذا تنصيص من الله عز وجل على أنه كان في الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج الى بيان انه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذي قال الله فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وأيضاً قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على انه عليه السلام كان من المحسنين وقوله انه من عبادنا المخلصين شهادة من الله تعالى على انه من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوي يقول انه كان من الاخسرين المذنبين ولا شك ان من لم يقبل قول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين ﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضي قوله تعالى ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون يدل على بطلان قول المرجئة الذين يزعمون أن الثواب يحصل في الآخرة لمن لم يتق الكبائر قلنا هذا ضعيف لانا ان حملنا لفظ خير على أفعل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلاً وان حملناه على أصل معنى الخيرية فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على ان غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير ﴿قوله تعالى ﴿وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون﴾ اعلم أنه لما عم القحط في البلاد ووصل أيضاً الى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه ان بمصر رجلاً صالحاً يمير الناس فاذهبوا اليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا اليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع اخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه في قوله ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه في الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وأخبر تعالى ان يوسف عرفهم وهم ما عرفوه البتة أما انه عرفهم فلانه تعالى كان قد أخبره في قوله لتنبئنهم بأمرهم بأنهم يصلون اليه ويدخلون عليه وأيضاً الرؤيا التي رآها كانت دليلاً على انهم يصلون اليه فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصداً لذلك الامر وكان كل من وصل الى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف ان هؤلاء الواصلين هل هم اخوته أم لا فلما وصل اخوة يوسف الى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصاً ظهر له انهم اخوته وأما انهم ما عرفوه فلوجوه (الاول) انه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بالواسطة ومتى كان الامر كذلك لا جرم انهم لم يعرفوه لاسيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذي عنده يحصل العرفان (والثاني) هو أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيراً ثم أنهم رأوه بعد وفور اللحية وتغير الزي والهيئة فانهم رأوه جالساً على سرير وعليه ثياب الحرير وفي عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب والقوم أيضاً نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة فيقال ان من وقت ما ألقوه في الجب الى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة وكل واحد من هذه الاسباب يمنع من حصول

تهييج العدو ولن تغني حينئذ كثرتكم اذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين في الايمان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا) بطرح احدى التاءين وقرئ بادغامها (عنه) أي لا تتولوا عن الرسول فان المراد هو الامر بطاعته والنهي عن الاعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى في طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للامر الذي دل عليه الطاعة وقوله تعالى (وأنتم تسمعون) جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقاً كما في قوله تعالى فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون لا لتقييد النهي عنه بحال السماع كما في قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى أي لا تتولوا عنه والحال انكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم واذعان (ولا تكونوا) تقرير للنهي السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على انها مؤدية الى انتظامهم في سلك الكفرة بكون سماعهم كلا سماع أي لا تكونوا بمخالفة الامر والنهي (كالذين قالوا سمعنا) بمجرد الادعاء من غير فهم واذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع (وهم لا يسمعون) حال من ضمير قالوا أي قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون

المعرفة لاسيما عند اجتماعها (والثالث) ان حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى فلعله تعالى ماخلق ذلك العرفان والتذكير فى قلوبهم تحقيقا لما أخبره عنه بقوله لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام * ثم قال تعالى ولما جهزهم بجهازهم قال الليث جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهازهم للسفر وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج اليه فى وجهه قال وسمعت أهل البصرة يقولون الجهاز بالكسر قال الازهرى القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة ليست بجيدة قال المفسرون حمل لكل رجل منهم بعيرا وأكرمهم أيضا بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا اليه فى السفر فذلك قوله جهزهم بجهازهم ثم بين تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم واعلم أنه لابد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيهم وذكروا فيه وجوها (الاول) وهو أحسنها ان عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص واخوة يوسف الذين ذهبوا اليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا ان لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه وذكروا أن أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وأن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ولابد لهما أيضا من شئ من الطعام فجهز لهما أيضا بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شئ عجيب لانكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة فى العقل وفى الفضل والادب فجيئونى به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب (والوجه الثانى) انهم لما دخلوا عليه عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم من أنتم قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبى اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد وبقى واحد مع الاب يتسلى به عن ذلك الذى هلك ونحن عشرة وقد جئناك قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخ لكم من أبيكم ليبلغ الى رسالة أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده (والوجه الثالث) انهم لما ذكروا أباهم قال يوسف فلم تركتموه وحيدا فريدا قالوا ما تركناه وحيدا بل بقى عنده واحد فقال لهم لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لاجل نقص فى جسده فقالوا لا بل لاجل انه يحبه أكثر من محبته لسائر الاولاد فعند هذا قال يوسف لما ذكرتم ان أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة ثم انه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدا عليكم فى الفضل وصفات الكمال مع انى أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسى الى رؤية ذلك الاخ فائتونى به والسبب الثانى ذكره المفسرون والاول والثالث محتمل والله أعلم * ثم انه تعالى حكى عنه انه قال ألا ترون أنى أوفى الكيل أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير آخر لاجل أخيكم وأنا خير المنزلين أى خير المضيفين لانه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم وأقول هذا الكلام يضعف الوجه الثانى وهو الذى نقلناه عن المفسرين لان مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع انه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق * ثم قال فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم احضار ذلك الاخ جمع بين الترغيب والترهيب أما الترغيب فهو قوله ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وأما الترهيب فهو قوله فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون وذلك لانهم كانوا فى نهاية الحاجة الى تحصيل الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده فاذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ثم انهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون أى سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده وانا لفاعلون هذه المراودة والغرض من التكرير التأكيد ويحتمل أن يكون وانا لفاعلون أن نجيئك به ويحتمل وانا لفاعلون كل ما فى وسعنا من هذا الباب ﴿ قوله تعالى ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم

مبالغة فى التحذير وتقرير للنهى اثر تقرير أى ان شر ما يدب على الارض أو شر البهائم عند الله أى فى حكمه وقضائه (الصم) الذين لا يسمعون الحق (البكم) الذين لا ينطقون به وصفوا بالصم والبكم لان ما خلق له الاذن واللسان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد فيهم شئ من ذلك صاروا كأنهم فاقدون الجارحتين رأسا وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فان السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل (الذين لا يعقلون) تحقيقا لكمال سوء حالهم فان الاصم الابكم اذا كان له عقل ربما يفهم بعض الامور ويفهمه غيره بالاشارة ويهتدى بذلك الى بعض مطالبه وأما اذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية فى الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخس من كل خسيس (ولو علم الله فيهم خيرا) شيأ من جنس الخير الذى من جملته صرف قواهم الى تحرى الحق واتباع الهدى (لأسمعهم) سماع تفهم وتدبر

اباهم يرجعون فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾ في الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم لفتيانه بالالف والنون والباقون لفتيته بالتاء من غير ألف وهما لغتان كالصبيان والصبية والاخوان والاخوة قال أبو علي الفارسي الفتية جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير فوجه البناء الذي للعدد القليل أن الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لان هذا من باب الاسرار فوجب صونه الا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال اجعلوا بضاعتهم في رحالهم والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين ﴿المسألة الثانية﴾ اتفق الاكثرون على أن اخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ومنهم من قال انهم كانوا عارفين به وهو ضعيف لان قوله لعلهم يعرفونها يبطل ذلك ثم اختلفوا في السبب الذي لاجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه (الاول) أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كان كرما من يوسف وسخاء محضا فيبعثهم ذلك على العود اليه والحرص على معاملته (الثاني) خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى (الثالث) أراد به التوسعة على أبيه لان الزمان كان زمان القحط (الرابع) رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه واخوته مع شدة حاجتهم الى الطعام لؤم (الخامس) قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الانبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه أو رجعوا ليردوا المال الى مالكه (السادس) أراد أن يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة (السابع) مقصوده أن يعرفوا انه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن (الثامن) أراد أن يعرف أبوه انه أكرمهم وطلبه له لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه (التاسع) أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم (العاشر) أراد أن يقابل مبالغتهم في الاساءة بمبالغته في الاحسان اليهم ثم انه تعالى حكى عنهم انهم لما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل وفيه قولان (الاول) أنهم لما طلبوا الطعام لابيهم وللاخ الباقي عنده منعوا منه فقولهم منع منا الكيل اشارة اليه (والثاني) انه منع الكيل في المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي والدليل على ان المراد ذلك قولهم فأرسل معنا أخانا نكتل قرأ حمزة والكسائي يكتل بالياء والباقون بالنون والقراءة الاولى تقوي القول الاول والقراءة الثانية تقوي القول الثاني ثم قالوا وانا له لحافظون ضمنوا كونهم حافظين له فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل والمعنى انكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه حيث قلتم وانا له لحافظون ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أماني الا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الامان هناك فكذلك لا يحصل ههنا ثم قال فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين قرأ حمزة والكسائي حافظا بالالف على التمييز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظا كقولهم هو خيرهم رجلا ولله دره فارسا وقيل على الحال والباقون حفظا بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظا يعني حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم وقرأ الاعمش فالله خير حافظ وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه خير الحافظين وهو أرحم الراحمين وقيل معناه وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين فان قيل لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد قلنا الوجوه (أحدها) انهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح (وثانيها) انه كان يشاهد انه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام (وثالثها) ان ضرورة القحط أحوجته الى ذلك (ورابعها) لعله تعالى أوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه فان قيل هل يدل قوله فالله خير حافظا على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت قلنا الاكثرون قالوا يدل عليه وقال آخرون لا يدل عليه وفيه وجهان (الاول)

ولو قفوا على حقية الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيأ من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة واليه أشير بقوله تعالى (ولو أسمعهم لتولوا) أي لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعدما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلا وقوله تعالى (وهم معرضون) اما حال من ضمير تولوا أي لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم واما اعتراض تذييلي أي وهم قوم عادتهم الاعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحي قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصي الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم الا مصعب بن عمير وسويد ابن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضي الله عنه أنهم أهل الكتاب (يا أيها الذين آمنوا) تكرير النداء مع وصفهم بنعت الايمان لتنشيطهم الى الاقبال على الامتثال بما يرد بعده من الاوامر وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك (استجيبوا لله

التقدير انه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لا في حفظهم (الثاني) أنه لما ذكر يوسف قال فالله
خير حافظا أي ليوسف لانه كان يعلم أنه حي ﴿ قوله تعالى ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت
اليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾
اعلم ان المتاع ما يصلح لان يستمتع به وهو عام في كل شئ ويجوز أن يراد به ههنا الطعام الذي حملوه ويجوز أن
يراد به أوعية الطعام ثم قال وجدوا بضاعتهم ردت اليهم واختلف القراء في ردت فالاكثرون بضم الراء وقرأ
علقمة بكسر الراء قال صاحب الكشاف كسرة الدال المدغمة نقلت الى الراء كما في قيل وبيع وحكى قطرب
انهم قالوا في قولنا ضرب زيد ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها الى الضاد وأما قوله ما نبغي ففي كلمة
ما قولان (الاول) انها للنفي وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الاول) انهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم
واللطف وقالوا انا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب لما فعل
ذلك فقولهم ما نبغي أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذبا ولا ذكر شئ لم يكن (الثاني) انه بلغ في الاكرام
الى غاية ما وراءها شئ آخر فانه بعد أن بالغ في اكرامنا أمر ببضاعتنا فردت الينا (الثالث) المعنى انه رد
بضاعتنا الينا فنحن لا نبغي منك عند رجوعنا اليه بضاعة أخرى فان هذه التي معنا كافية لنا (والقول
الثاني) ان كلمة ما ههنا للاستفهام والمعنى لما رأوا انه رد اليهم بضاعتهم قالوا ما نبغي بعد هذا أي أعطانا
الطعام ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه فأي شئ نبغي وراء ذلك واعلم أنا اذا حملنا ما على الاستفهام
صار التقدير أي شئ نبغي فوق هذا الاكرام ان الرجل رد دراهمنا الينا فاذا ذهبنا اليه نمير أهلنا ونحفظ
أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخينا قال الاصمعي يقال ماره يميره ميرا اذا أتاه بميرة أي بطعام ومنه
يقال ما عنده خير ولا مير وقوله ونزداد كيل بعير معناه ان يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل
بعير فاذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل وأما اذا حملنا كلمة ما على النفي كان المعنى لا نبغي شيأ آخر
هذه بضاعتنا ردت الينا فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني ثم نفعل كذا وكذا وأما قوله ذلك كيل
يسير ففيه وجوه (الاول) قال مقاتل ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل
وهو اختيار الزجاج (والثاني) ذلك كيل يسير أي قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب
الحبس والتأخير (والثالث) أن يكون المراد ذلك الذي يدفع الينا دون أخينا شئ يسير قليل فابعث أخانا
معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة ﴿ قوله تعالى ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به
الا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة ومعناه
العهد الذي يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول لن أرسله معكم حتى تعطوني عهدا موثقا به وقوله من الله
أي عهدا موثقا به بسبب تأكده باشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه وقوله لتأتنني به دخلت اللام ههنا
لاجل انا بينا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به وقوله الا أن يحاط بكم فيه
بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف هذا الاستثناء متصل فقوله الا أن يحاط بكم مفعول له والكلام
المثبت الذي هو قوله لتأتنني به في تأويل المنفي فكان المعنى لا تمتنعون من الاتيان به لعلة من العلل الا لعلة
واحدة (البحث الثاني) قال الواحدي للمفسرين فيه قولان (أحدهما) ان قوله الا أن يحاط بكم معناه
الهلاك قال مجاهد الا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرا عندي والعرب تقول أحيط بفلان اذا قرب هلاكه
قال تعالى وأحيط بثمره أي أصابه ما أهلكه وقال تعالى وظنوا أنهم أحيط بهم وأصله ان من أحاط به العدو
وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه فقيل لكل من هلك قد أحيط به (والقول الثاني) ما ذكره قتادة
الا أن يحاط بكم الا أن تصيروا مغلوبين مقهورين فلا تقدرون على الرجوع ثم قال تعالى فلما آتوه موثقهم
قال الله على ما نقول وكيل يريد شهيد لان الشهيد وكيل بمعنى انه موكول اليه هذا العهد فان وفيتم به جازاكم
بأحسن الجزاء وان غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات ﴿ قوله تعالى ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب
واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شئ ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه
فليتوكل

والرسول) بحسن الطاعة (اذا دعاكم) أي الرسول اذ هو المباشر لدعوة الله تعالى (لما يحييكم) من العلوم الدينية التي هي مناط الحياة الابدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيقي أو هي ماء حياة القلب كما أن الجهل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لانهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما في قوله تعالى ولكم في القصاص حياة روى أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام ما منعك من اجابتي قال كنت في الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحي الي استجيبوا لله والرسول اذا دعاكم الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل لان اجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة وقيل كان ذلك الدعاء لامر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على انه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ

فليتوكل المتوكلون﴾ اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وفيه قولان (الاول) وهو قول جمهور المفسرين انه خاف من العين عليهم ولنا فيه مقامات (المقام الاول) اثبات أن العين حق والذى يدل عليه وجوه (الاول) اطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك (والثانى) ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله عليهم (والثالث) ماروى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى فقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت (والرابع) روى ان بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يارسول الله ان العين اليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم (والخامس) دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يارسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين (والسادس) قوله عليه الصلاة والسلام العين حق ولو كان شئ يسبق القدر لسبقت العين القدر (والسابع) قالت عائشة رضى الله عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذى أصيب بالعين ﴿المقام الثانى فى الكشف عن ماهيته﴾ فنقول ان أبا على الجبائى أنكر هذا المعنى انكارا بليغا ولم يذكر فى انكاره شبهة فضلا عن حجة وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الحافظ انما عتد من العين أجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسرى فيه كتأثير اللسع والسم والنار وان كان مخالفا فى جهة التأثير لهذه الاشياء قال القاضى وهذا ضعيف لانه لو كان الامر كما قال لوجب ان يؤثر فى الشخص الذى لا يستحسن كتأثيره فى المستحسن واعلم ان هذا الاعتراض ضعيف وذلك لانه اذا استحسن شيأ فقد يحب بقاءه كما اذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه وقد يكره بقاءه أيضا كما اذا أحس الحاسد بشئ حصل لعدوه فان كان الاول فانه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح فى داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جدا ويحصل فى الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة وان كان الثانى فانه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه والحزن أيضا يوجب انحصار الروح فى داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة فثبت ان عند الاستحسان القوى تسخن الروح جدا فيسخن شعاع العين بخلاف ما اذا لم يستحسن فانه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ولهذا السبب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن اصابته العين بالاغتسال (الوجه الثانى) قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخى انه لا يمتنع أن تكون العين حقا ويكون معناه أن صاحب العين اذا شاهد الشئ وأعجب به استحسانا كان المصلحة له فى تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشئ حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقا به فهذا المعنى غير ممتنع ثم لا يبعد أيضا انه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الاعجاب وسأل ربه تبقية ذلك فعنده تتغير المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل العين حق (الوجه الثالث) وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبنى على مقدمة وهى انه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق والذى يدل عليه ان اللوح الذى يكون قليل العرض اذا كان موضوعا على الارض قدر الانسان على المشى عليه ولو كان موضوعا فيما بين جدارين عاليين لعجز الانسان عن المشى عليه وما ذاك الا لان خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه فعلمنا ان التأثيرات النفسانية موجودة وأيضا ان الانسان اذا تصور كون فلان مؤذيا له حصل فى قلبه غضب ويسخن مزاجه جدا فمبدأ تلك السخونة ليس الا ذلك التصور النفسانى ولان مبدأ الحركات البدنية

عزمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفران أراد سعادته ويبدله بالامن خوفا وبالذكر نسيانا وما أشبه ذلك من الامور المعترضة المفوتة للفرصة وقرئ بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء واجراء الوصل مجرى الوقف (وأنه) أى الله عز وجل أو الشأن (اليه تحشرون) لا الى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا الى طاعته تعالى وطاعة رسوله وبالغوا فى الاستجابة لهما (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أى لا تختص اصابتها عن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كاقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ اما جواب الامر على معنى ان أصابتكم لا تصيبن الخ وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم واما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شذوذ لان النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على ارادة القول كقول من قال

حتى اذا جن الظلام واختلط * جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

واما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وان اختلف

ليس الا التصورات النفسانية فلما ثبت ان تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضا أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها الى سائر الابدان فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الابدان وأيضا جواهر النفوس مختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه فثبت ان هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الاقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك واذا ثبت هذا ثبت ان الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية باصابة العين كلام حق لا يمكن رده ﴿القول الثاني﴾ وهو قول أبي علي الجبائي ان أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم فقال لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الاعظم على ملكه فيحبسهم واعلم ان هذا الوجه محتمل لا انكار فيه الا أن القول الاول قد بينا انه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير اليه ونقل عن الحسن أنه قال خاف عليهم العين فقال لا تدخلوا من باب واحد ثم رجع الى علمه وقال وما أغني عنكم من الله من شئ وعرف ان العين ليست بشئ وكان قتادة يفسر الآية باصابة العين ويقول ليس في قوله وما أغني عنكم من الله من شئ ابطال له لان العين وان صح فالله قادر على دفع أثره ﴿القول الثالث﴾ انه عليه الصلاة والسلام كان عالما بان ملك مصر هو ولده يوسف الا ان الله تعالى ما أذن له في اظهار ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين الى يوسف في وقت الخلوة وهذا قول ابراهيم النخعي فاما قوله وما أغني عنكم من الله من شئ فاعلم ان الانسان مأمور بان يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا ينجي من القدر فان الانسان مأمور بأن يحذر عن الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ثم انه مع ذلك ينبغي أن يكون جازما بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود الا ما أراده الله فقوله عليه الصلاة والسلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة فهو اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة في هذا العالم وقوله وما أغني عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب والى التوحيد المحض والبراءة عن كل شئ سوى الله تعالى وقول القائل كيف السبيل الى الجمع بين هذين القولين فهذا السؤال غير مختص به وذلك لانه لا نزاع في انه لا بد من اقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصي والسيآت مع انا نعتقد ان السعيد من سعد في بطن أمه وان الشقي من شقي في بطن أمه فكذا ههنا انا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع ان الموت والحياة لا يحصلان الا بتقدير الله تعالى فكذا ههنا فظهر ان هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسئلة الجبر والقدر بل الحق ان العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة وبعد ذلك السعي البالغ والجد الجهيد فانه يعلم ان كل ما يدخل في الوجود فلا بد وان يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم انه تعالى أكد هذا المعنى فقال ان الحكم الا لله واعلم ان هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر وذلك لان الحكم عبارة عن الالزام والمنع من النقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم لانها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم انما سمي حكما لانه يقتضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول فبين تعالى ان الحكم بهذا التفسير ليس الا لله سبحانه وتعالى وذلك يدل على ان جميع الممكنات مستندة الى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه اما بغير واسطة واما بواسطة ثم قال عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ومعناه انه لما ثبت ان الكل من الله ثبت انه لا توكل الا على الله وان الرغبة ليست الا في رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم وثبت بالبرهان أنه لا حكم الا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله وذلك يوجب أنه لا توكل الا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا الى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد

المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهيا عن التعرض للظلم بعد الامر باتقاء الذنب فان وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن في منكم على الوجوه الاول للتبعيض وعلى الآخرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم (واعلموا أن الله شديد العقاب) ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه (واذكروا اذ أنتم قليل) أي وقت كونكم قليلا في العدد وايثار الجملة الاسمية للايذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف وقوله تعالى (مستضعفون) خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى (في الارض) أي في أرض مكة تحت أيدي قريش والخطاب للمهاجرين أو تحت أيدي فارس والروم والخطاب للعرب كافة فانهم كانوا أذلاء تحت أيدي الطائفتين وقوله تعالى تخافون أن يتخطفكم الناس خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد أو حال من المستكن في مستضعفون والمراد بالناس على الاول وهو الاظهر اما كفار قريش واما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثاني فارس والروم أي واذكروا وقت قلتكم وذلتكم وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافهم (فآواكم) الى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم (وأيدكم بنصره) على الكفار

الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شئ الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال المفسرون لما قال يعقوب وما أغني عنكم من الله من شئ صدقه الله في ذلك فقال وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شئ وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرا قدره الله وقال الزجاج ان العين لو قدر أن تصيبهم لاصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون وقال ابن الانباري لو سبق في علم الله ان العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم وهذه الكلمات متقاربة وحاصلها ان الحذر لا يدفع القدر ﴿البحث الثاني﴾ قوله من شئ يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية (أما الاول) فهو كقوله ما رأيت من أحد والتقدير ما رأيت أحدا فكذا ههنا تقدير الآية ان تفرقهم ما كان يغني من قضاء الله شيأ أي ذلك التفرق ما كان يخرج شيأ من تحت قضاء الله تعالى (وأما الثاني) فكقولك ما جاءني من أحد وتقديره ما جاءني أحد فكذا ههنا التقدير ما كان يغني عنهم من الله شئ مع قضائه أما قوله الا حاجة في نفس يعقوب قضاها فقال الزجاج انه استثناء منقطع والمعنى لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها يعني ان الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة في نفس يعقوب قضاها ثم ذكروا في تفسير تلك الحاجة وجوها (أحدها) خوفه عليهم من اصابة العين (وثانيها) خوفه عليهم من حسد أهل مصر (وثالثها) خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر (ورابعها) خوفه عليهم من أن لا يرجعوا اليه وكل هذه الوجوه متقاربة وأما قوله وانه لذو علم لما علمناه فقال الواحدي يحتمل أن تكون ما مصدرية والهاء عائدة الى يعقوب والتقدير وانه لذو علم من أجل تعليمنا اياه ويمكن أن تكون ما بمعنى الذي والهاء عائدة اليها والتأويل وانه لذو علم للشئ الذي علمناه يعني انا لما علمناه شيأ حصل له العلم بذلك الشئ وفي الآية قولان آخران (الاول) أن المراد بالعلم الحفظ أي انه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له (والثاني) لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو اشارة الى كونه عاملا بما علمه ثم قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون وفيه وجهان (الاول) ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب (والثاني) لا يعلمون ان يعقوب بهذه الصفة والعلم والمراد بأكثر الناس المشركون فانهم لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه الى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال اني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾ اعلم انهم لما أتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لاجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم وحيدا فأجلسه معه على مائدته ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتا وقال هذا لا ثاني له فاتركوه معي فآواه اليه ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه وقال اني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون اذا عرفت هذا فنقول قوله آوى اليه أخاه أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي اليه وقوله اني أنا أخوك فيه قولان قال وهب لم يرد انه أخوه من النسب ولكن أراد به اني أقوم لك مقام أخيك في الايناس لئلا تستوحش بالتفرد والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب لان ذلك أقوى في ازالة الوحشة وحصول الانس ولان الاصل في الكلام الحقيقة فلا وجه لصرفه عنها الى المجاز من غير ضرورة وأما قوله فلا تبتئس فقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس وقوله بما كانوا يعملون فيه وجوه (الاول) المراد بما كانوا يعملون من اقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا (الثاني) أن يوسف عليه السلام ما بقي في قلبه شئ من العداوة وصار صافيا مع اخوته فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيا معهم أيضا

أو بمظاهرة الانصار أو بامداد الملائكة (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم (لعلكم تشكرون) هذه النعم الجليلة (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الامانة لتضمنه اياه أي لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون أو في الغلول في الغنائم * روى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بني النضير على ان يسيروا الى اخوانهم باذرعات وأريحاء من الشام فأبى الا أن ينزلوا على حكم سعد ابن معاذ رضي الله عنه فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لما أن ماله وعياله كانا في أيديهم فبعثه اليهم فقالوا ما ترى هل ننزل على حكم سعد فأشار الى حلقه انه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله فقال ان من تمام

فقال فلا تبتئس بما كانوا يعملون أي لا تلتفت الى ما صنعوه فيما تقدم ولا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التي أقدموا عليها (الثالث) انهم انما فعلوا بيوسف ما فعلوه لانهم حسدوه على اقبال الاب عليه وتخصيصه بمزيد الاكرام فخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب ان الملك خصه بمزيد الاكرام فأمنه منه وقال لا تلتفت الى ذلك فان الله قد جمع بيني وبينك (الرابع) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب ان جدهما أبا أمهما كان يعبد الاصنام وان أم يوسف أمرت يوسف فسرق جونة كانت لابيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها اذا فقدها فقال له فلا تبتئس بما كانوا يعملون أي من التعيير لنا بما كان عليه جدنا والله أعلم * ثم قال تعالى فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه وقد مضى الكلام في الجهاز والرحل أما السقاية فقال صاحب الكشاف مشربة يسقى بها وهو الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به وهو بعيد لان الاناء الذي يشرب الملك الكبير منه لا يصح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضا وهذا أقرب ثم قال وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت من ذهب وقيل كانت مرصعة بالجواهر وهذا أيضا بعيد لان الآنية التي يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك والاولى أن يقال كان ذلك الاناء شيأ له قيمة أما الى هذا الحد الذي ذكروه فلا ثم قال تعالى ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون يقال اذنه أي أعلمه وفي الفرق بين اذن وبين أذن وجهان قال ابن الانباري أذن معناه أعلم اعلاما بعد اعلام لان فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز أن يكون اعلاما واحدا من قبل ان العرب تجعل فعل بمعنى أفعل في كثير من المواضع وقال سيبويه أذنت وأذنت معناه أعلمت لا فرق بينهما والتأذين معناه النداء والتصويت بالاعلام وأما قوله تعالى أيتها العير انكم لسارقون قال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير وقول من قال العير الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التي عليها الاحمال لانها تعير أي تذهب وتجيء وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وجمعها أفعل كسقف وسقف اذا عرفت هذا فنقول أيتها العير المراد أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي وقرأ ابن مسعود وجعل السقاية على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون (فان قيل) هل كان ذلك النداء بامر يوسف أو ما كان بامره فان كان بامره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان الثاني وهو انه ما كان ذلك بامره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة (قلنا) العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوها (الاول) انه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال له اني أريد أن أحبسك ههنا ولا سبيل اليه الا بهذه الحيلة فان رضيت بها فالامر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنبا (والثاني) أن المراد انكم لسارقون يوسف من أبيه الا انهم ما أظهروا هذا الكلام والمعاريض لا تكون الا كذلك (والثالث) ان ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذبا (الرابع) ليس في القرآن انهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والاقرب الى ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من أنفسهم لانهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد الا هم غلب على ظنونهم انهم هم الذين أخذوها ثم ان اخوة يوسف قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا قالوا نفقد صواع الملك قال صاحب الكشاف قرئ صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة قال بعضهم جمع صواع صيعان كغراب وغربان وجمع صاع أصواع كباب وأبواب وقال آخرون لا فرق بين الصاع والصواع والدليل عليه قراءة أبي هريرة قالوا نفقد صاع الملك وقال بعضهم الصواع اسم والسقاية وصف كقولهم كوز وسقاء فالكوز اسم والسقاء وصف ثم قال ولمن جاء به حمل بعير أي من الطعام وأنا به زعيم قال مجاهد الزعيم هو المؤذن الذي أذن وتفسير زعيم كفيل

توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال عليه الصلاة والسلام يجزئك الثلث أن تتصدق به (وتخونوا أماناتكم) فيما بينكم وهو مجزوم معطوف على الاول أو منصوب على الجواب بالواو (وأنتم تعلمون) أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لانها سبب الوقوع في الاثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليبلوكم في ذلك فلا يحملنكم حبهما على الخيانة كأبي لبابة (وان الله عنده أجر عظيم) لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم اليه (يا أيها الذين آمنوا) تكرير الخطاب والوصف بالايمان لاظهار كمال العناية بما بعده والايذان بأنه مما يقتضي الايمان مراعاته والمحافظة عليه كما في الخطابين السابقين (ان تتقوا الله) أي في كل ما تأتون وما تذرون (يجعل لكم) بسبب ذلك (فرقانا) هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين أو مخرجا من الشبهات أو نجاة عما تحذرون في الدارين أو ظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح (ويكفر عنكم سيئاتكم) أي يسترها (ويغفر لكم) ذنوبكم بالعفو

قال

قال الكلبي الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن روى أبو عبيدة عن الكسائي زعمت به تزعم زعما وزعامة أي كفلت به وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الزعيم غارم فان قيل هذه كفالة بشئ مجهول قلنا حمل بعير من الطعام كان معلوما عندهم فصحت الكفالة به الا أن هذه كفالة مال لرد سرقة وهو كفالة بما لم يجب لانه لا يحل للسارق أن يأخذ شيأ على رد السرقة ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ قال البصريون الواو في والله بدل من التاء والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الاسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل قال المفسرون حلفوا على أمرين (أحدهما) على انهم ما جاؤا لاجل الفساد في الارض لانه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالاكل ولا بارسال الدواب في مزارع الناس حتى روى انهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث في زرع وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات ومن كانت هذه صفته فالفساد في الارض لا يليق به (والثاني) انهم ما كانوا سارقين وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع وهو انهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم الى مصر ولم يستحلوا أخذها والسارق لا يفعل ذلك البتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام فما جزاؤه ان كنتم كاذبين فاجابوا وقالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه قال ابن عباس كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق في رحله أي ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم والمعنى ان استعباده هو جزاء ذلك الجرم قال الزجاج وفيه وجهان (أحدهما) أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن وجد في رحله خبره والمعنى جزاء السرقة هو الانسان الذي وجد في رحله السرقة ويكون قوله فهو جزاؤه زيادة في البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه (الثاني) أن يقال جزاؤه مبتدأ وقوله من وجد في رحله فهو جزاؤه جملة وهي في موضع خبر المبتدا والتقدير كأنه قيل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو الا أنه أقام المظهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان وأنشد النحويون

لا أرى الموت يسبق الموت شئ * نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

وأما قوله كذلك نجزي الظالمين أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين يريد اذا سرق استرق ثم قيل هذا من بقية كلام اخوة يوسف وقيل انهم لما قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه فقال أصحاب يوسف كذلك نجزي الظالمين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ اعلم أن اخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم المؤذن انه لا بد من تفتيش أمتعتكم فانصرف بهم الى يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لازالة التهمة والاوعية جمع الوعاء وهو كل ما اذا وضع فيه شئ أحاط به ثم استخرجها من وعاء أخيه وقرأ الحسن وعاء أخيه بضم الواو وهي لغة وقرأ سعيد بن جبير اعاء أخيه فقلب الواو همزة فان قيل لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه قلنا قالوا رجع ضمير المؤنث الى السقاية وضمير المذكر الى الصواع أو يقال الصواع يؤنث ويذكر فكان كل واحد منهما جائزا أو يقال لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعا عن قتادة أنه قال كان لا ينظر في وعاء الا استغفر الله تائبا مما قذفهم به حتى انه لما لم يبق الا أخوه قال ما أرى هذا قد أخذ شيأ فقالوا لا نذهب حتى تتفحص عن حاله أيضا فلما نظر وا في متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق فأخذوا برقبته وجروه الى دار يوسف * ثم قال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك وفيه بحثان (الاول) المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وذلك اشارة الى الحكم باسترقاق السارق أي مثل هذا

والتجاوز عنها وقيل السيآت الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لانها في أهل بدر وقد غفرها الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تعليل لما قبله وتنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه واحسان لا أنه مما يوجبه التقوى كما اذا وعد السيد عبده انعاما على عمل (واذ يمكر بك الذين كفروا) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى واذكروا اذ أنتم الخ مسوق لتذكير النعمة الخاصة به صلى الله عليه وسلم بعد تذكير النعمة العامة للكل أي واذكر وقت مكرهم بك (ليثبتوك) بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الاثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حراك به ولا براح وقرئ ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات (أو يقتلوك) أي بسيوفهم (أو يخرجوك) أي من مكة وذلك أنهم لما سمعوا باسلام الانصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره صلى الله عليه وسلم فدخل ابليس عليهم في صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا فقال أبو البختري رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه

الحكم الذى ذكره اخوة يوسف حكمنا ليوسف ﴿الثانى﴾ لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة وذلك فى حق الله تعالى محال الا اناذكرنا قانونا معتبرا فى هذا الباب وهو ان أمثال هذه الالفاظ تحمل على نهايات الاغراض لا على بدايات الاغراض وقررنا هذا الاصل فى تفسير قوله تعالى ان الله لا يستحيى فالكيد السعى فى الحيلة والخديعة ونهايته القاء الانسان من حيث لا يشعر فى أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه فالكيد فى حق الله تعالى محمول على هذا المعنى ثم اختلفوا فى المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم المراد أن اخوة يوسف سعوا فى ابطال أمر يوسف والله تعالى نصره وقوّاه وأعلى أمره وقال آخرون المراد من هذا الكيد هو انه تعالى ألقى فى قلوب اخوته أن حكموا بان جزاء السارق هو أن يسترق لا جرم لما ظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عند نفسه ثم قال تعالى ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك والمعنى انه كان حكم الملك فى السارق أن يضرب ويغرم ضعفى ما سرق فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه الا انه تعالى كاد له ما جرى على لسان اخوته ان جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا ان هذا الكلام توسل به الى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله الا أن يشاء الله ❊ ثم قال نرفع درجات من نشاء وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائى درجات بالتنوين غير مضاف والباقون بالاضافة ﴿المسئلة الثانية﴾ المراد من قوله نرفع درجات من نشاء هو انه تعالى يريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ويخصه بانواع العلوم وأقسام الفضائل والمراد ههنا هو انه تعالى رفع درجات يوسف على اخوته فى كل شئ واعلم أن هذه الآية تدل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لانه تعالى لما هدى يوسف الى هذه الحيلة والفكرة مدحه لاجل ذلك فقال نرفع درجات من نشاء وأيضا وصف ابراهيم عليه السلام بقوله نرفع درجات من نشاء عند ايراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب ووصف ههنا يوسف أيضا بقوله نرفع درجات من نشاء لما هداه الى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت ❊ ثم قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم والمعنى ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء الا أن يوسف كان زائدا عليهم فى العلم ❊ واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على انه تعالى عالم بذاته لا بالعلم فقالوا لو كان عالما بالعلم لكان ذا علم ولو كان كذلك لحصل فوقه عليم تمسكا بعموم هذه الآية وهذا باطل ❊ واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على اثبات العلم لله تعالى وهى قوله ان الله عنده علم الساعة وأنزله بعلمه ولا يحيطون بشئ من علمه وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه واذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التى تمسك الخصم بها على واقعة يوسف واخوته خاصة غاية ما فى الباب أنه يوجب تخصيص العموم الا أنه لابد من المصير اليه لان العالم مشتق من العلم والمشتق مركب والمشتق منه مفرد وحصول المركب بدون حصول المفرد محال فى بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا ۞ قوله تعالى ﴿قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون﴾ اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخى يوسف نكس اخوته رؤسهم وقالوا هذه الواقعة عجيبة ان راحيل ولدت ولدين لصين ثم قالوا يابنى راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم فقال بنيامين ما أكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخى وضيعتموه فى المفازة ثم تقولون لى هذا الكلام قالوا له فكيف خرج الصواع من رحلك فقال وضعه فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم واعلم أن ظاهر الآية يقتضى انهم قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه فان أخاه الذى هلك كان أيضا سارقا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا فى السرقة التى نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال (الاوّل) قال سعيد ابن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الاوثان فامرته أمه بان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة (والثانى) أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه الى الفقراء وقيل سرق عناقا من أبيه ودفعه الى مسكين وقيل دجاجة (والثالث) أن عمته كانت تحبه حبا شديدا

وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال وبئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبى عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه الى الغار (ويمكرون ويمكر الله) أى يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما لقوا (والله خير الماكرين) لا يعبأ بمكرهم عند مكره واسناد أمثال هذا اليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا مساغ له ابتداء لما فيه من ايهام ما لا يليق به سبحانه (واذا تتلى عليهم آياتنا) التى حقها أن يخر لها صم الجبال (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) قاله اللعين النضر بن الحرث واسناده الى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى

فارادت

فأرادت أن تمسكه عند نفسها وكان قد بقي عندها منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بانه سرقها وكان من حكمهم بان من سرق يسترق فتوسلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها (والرابع) انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة ثم قال تعالى فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم واختلفوا في ان الضمير في قوله فاسرها يوسف الى أي شئ يعود على قولين * قال الزجاج فاسرها اضمار على شريطة التفسير تفسيره أنتم شر مكانا وانما أنث لان قوله أنتم شر مكانا جملة أو كلمة لانهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال فاسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله أنتم شر مكانا وفي قراءة ابن مسعود فاسره بالتذكير يريد القول أو الكلام وطعن أبو علي الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين (الاول) قال الاضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين (أحدهما) أن يفسر بمفرد كقولنا نعم رجلا زيد ففي نعم ضمير فاعلها ورجلا تفسير لذلك الفاعل المضمر (والآخر) أن يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا وقل هو الله أحد والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والامر الله أحد ثم ان العوامل الداخلة على المبتدا والخبر تدخل عليه أيضا نحو ان كقوله انه من يأت ربه مجرما فانها لا تعمى الابصار اذا عرفت هذا فنقول نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي حصل منها الاضمار ولا يكون خارجا عن تلك الجملة ولا مباينا لها وههنا التفسير منفصل عن الجملة التي حصل منها الاضمار فوجب أن لا يحسن (والثاني) انه تعالى قال أنتم شر مكانا وذلك يدل على انه ذكر هذا الكلام ولو قلنا انه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله انه قال ذلك كذبا واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه (أما الاول) فلانه لا يلزم من حسن القسمين الاولين قبح قسم ثالث (وأما الثاني) فلانا نحمل ذلك على انه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال (والوجه الثالث) وهو أن الضمير في قوله فاسرها عائد الى الاجابة كأنهم قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسر يوسف اجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة الى وقت ثان ويجوز أيضا أن يكون اضمار المقالة والمعنى أسر يوسف مقالتهم والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق وبالعلم المعلوم يعني أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة ولم يبين لهم أنها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لاجل همه بها عوقب بالحبس وبقوله اذكرني عند ربك عوقب بالحبس الطويل وبقوله انكم لسارقون عوقب بقولهم فقد سرق أخ له من قبل ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال أنتم شر مكانا أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب ثم قلتم لابيكم ان الذئب أكله وأنتم كاذبون ثم بعتموه بعشرين درهما ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة ثم قال تعالى والله أعلم بما تصفون يريد أن سرقة يوسف كانت رضا لله وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة في سرقته لا يوجب شئ منها عود الذم واللوم اليه والمعنى والله أعلم بأن هذا الذي وصفتموه به هل يوجب عود مذمة اليه أم لا ﴿ قوله تعالى ﴿قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون﴾ اعلم أنه تعالى بين انهم بعد الذي ذكروه من قولهم ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل أحبوا موافقته والعدول الى طريقة الشفاعة فانهم وان كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق ان يستعبد الا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضا جائزا فقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا أي في السن ويجوز أن يكون في القدر والدين وانما ذكروا ذلك لان كونه ابنا لرجل كبير القدر يوجب العفو والصفح ثم قالوا فخذ أحدنا مكانه يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستعباد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء اليك * ثم قالوا انا نراك من المحسنين

يقولون بقوله ويأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا في أمره صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيأ من ذلك فما الذي كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الامرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لاسيما في باب البيان (ان هذا الا أساطير الاولين) أي ما يسطرونه من القصص (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) هذا أيضا من أباطيل ذلك اللعين روي أنه لما قال ان هذا الا أساطير الاولين قال له النبي صلى الله عليه وسلم ويلك انه كلام الله تعالى فقال ذلك والمعنى ان القرآن ان كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على انكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه والمراد منه التهكم واظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرئ الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لا فصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذي يدعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالاساطير (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب

وفيه وجوه (أحدها) انا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك (وثانيها) انا نراك من المحسنين الينا حيث
أكرمتنا وأعطيتنا البدل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ورددت الينا ثمن الطعام
(وثالثها) نقل أنه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيأ يشترون به الطعام وكانوا يبيعون
به أنفسهم منه فصار ذلك سببا لصيرورة أكثر أهل مصر عبيدا له ثم انه أعتق الكل فلعلهم قالوا انا نراك
من المحسنين الى عامة الناس بالاعتاق فكن محسنا أيضا الى هذا الانسان باعتاقه من هذه المحنة
فقال يوسف معاذ الله أي أعوذ بالله معاذا أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده أي أعوذ بالله أن آخذ
بريئا بذنب قال الزجاج موضع أن نصب والمعنى أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة من
انتصب الفعل عليه وقوله انا اذا لظالمون أي لقد تعديت وظلمت ان آذيت انسانا بجرم صدر عن غيره
(فان قيل) هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته
الاقدام على هذا التزوير والترويج وايذاء الناس من غير سبب لاسيما ويعلم أنه اذا حبس أخاه عند نفسه بهذه
التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير الى هذا الحد
(والجواب) لعله تعالى أمره بذلك تشديدا للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر
تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر ﴿ قوله تعالى ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال
كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض
حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ في الآية مسائل ﴿ المسألة الاولى ﴾ اعلم أنهم لما قالوا
خذ أحدنا مكانه وهو نهاية ما عكنهم بذله فقال يوسف في جوابه معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا
عنده فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده فعند هذا قال تعالى فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا وهو
مبالغة في يأسهم من رده وخلصوا نجيا أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون
ويجيلون الرأي فيما وقعوا فيه لانهم انما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد ان كانوا
متهمين في حق يوسف فلو لم يعيدوه الى أبيهم لحصلت محن كثيرة (أحدها) أنه لو لم يعودوا الى أبيهم وكان
شيخا كبيرا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة (وثانيها) ان أهل بيتهم كانوا محتاجين الى
الطعام أشد الحاجة (وثالثها) ان يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم
شديد ولو عادوا الى أبيهم بدون بنيامين لعظم جفاؤهم فان ظاهر الامر يوهم أنهم خانوه في هذا الابن كما
انهم خانوه في الابن الاول ولكان يوهم أيضا انهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولا شك ان هذا
الموضع موضع فكرة وحيرة وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبا للاصلح الاصوب فهذا هو المراد من قوله
فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدي روى عن ابن كثير استيأسوا وحتى اذا
استياس الرسل بغير همز وفي ييأس لغتان يئس وييأس مثل حسب ويحسب ومن قال استأيس قلب العين
الى موضع الفاء فصار استعفل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة قال صاحب الكشاف استيأسوا يئسوا
وزيادة السين والتاء للمبالغة كما في قوله استعصم وقوله خلصوا قال الواحدي يقال خلص الشئ يخلص
خلوصا اذا ذهب عنه الشائب من غيره ثم فيه وجهان (الاول) قال الزجاج خلصوا أي انفردوا وليس معهم
أخوهم (والثاني) قال الباقون تميزوا عن الاجانب وهذا هو الاظهر وأما قوله نجيا فقال صاحب الكشاف
النجي على معنيين يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا
وبمعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل النجوى بمعنى المتناجين فعلى هذا معنى خلصوا نجيا اعتزلوا وانفردوا
عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم نجيا أي مناجيا روى نجوى أي فوجا نجيا أي مناجيا لمناجاة
بعضهم بعضا وأحسن الوجوه أن يقال انهم تمحضوا تناجيا لان من كمل حصول أمر من الامور فيه وصف
بأنه صار عين ذلك الشئ فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم صاروا نفس التناجي
حقيقة * أما قوله تعالى قال كبيرهم فقيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل وقيل كبيرهم في العقل

لامهالهم والتوقف في اجابة دعائهم واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي عليه الصلاة
والسلام بين أظهرهم
خارج عن عادته تعالى
غير مستقيم في حكمه
وقضائه والمراد
باستغفارهم في قوله تعالى
(وما كان الله معذبهم وهم
يستغفرون) اما استغفار
من بقي منهم من المؤمنين
أو قولهم اللهم اغفر أو
فرضه على معنى لو
استغفروا لم يعذبوا كقوله
تعالى وما كان ربك ليهلك
القرى بظلم وأهلها
مصلحون (وما لهم أن
لا يعذبهم الله) بيان
لاستحقاقهم العذاب
بعد بيان أن المانع ليس
من قبلهم أي وما لهم مما
يمنع تعذيبهم متى زال ذلك
وكيف لا يعذبون (وهم
يصدون عن المسجد
الحرام) أي وحالهم ذلك
ومن صدهم عنه الجاء
رسول الله صلى الله عليه
وسلم الى الهجرة
واحصارهم عام الحديبية
(وما كانوا أولياءه) حال
من ضمير يصدون مفيدة
لكمال قبح ما صنعوا من
الصدقات مباشرتهم للصد
عنه مع عدم استحقاقهم
لولايته أمر في غاية القبح
وهو رد لما كانوا يقولون
نحن ولاة البيت والحرم
فنصد من نشاء وندخل
من نشاء (ان أولياؤه الا
المتقون) من الشرك
الذين لا يعبدون فيه غيره
تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنه لا ولاية لهم عليه وفيه اشعار بان منهم من يعلم ذلك ولكنه

وهو

وهو يهودا وهو الذى نهاهم عن قتل يوسف ثم حكى الله تعالى عن هذا الكبير أنه قال ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما قال يوسف عليه السلام معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده غضب يهودا وكان اذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل الا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض اخوته اكفونى أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فمسه فذهب غضبه وهم أن يصيح فركض يوسف عليه السلام رجله على الارض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال يا أيها العزيز فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا ان أبانا قد أخذ علينا موثقا عظيما من الله وأيضا نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة ﴿المسئلة الثانية﴾ لفظ ما فى قوله ما فرطتم فيه وجوه (الاول) أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم فى شان يوسف عليه السلام ولم تحفظوا عهد أبيكم (الثانى) أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم فى يوسف (الثالث) النصب عطفا على مفعول ألم تعلموا والتقدير ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل فى يوسف (الرابع) أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أى قدمتموه فى حق يوسف من الخيانة العظيمة ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين ثم قال فلن أبرح الارض أى فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى فى الانصراف اليه أو يحكم الله لى بالخروج منها أو بالانتصاف ممن أخذ أخى أو بخلاصه من يده بسبب من الاسباب وهو وهو خير الحاكمين لانه لا يحكم الا بالعدل والحق وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعا الى الله تعالى فى اظهار عذره بوجه من الوجوه ﴿ قوله تعالى ﴿ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وانا لصادقون﴾ واعلم أنهم لما تفكروا فى الأصوب ما هو ظهر لهم ان الاصوب هو الرجوع وأن يذكروا لابيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير الذى قال فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى قيل انه روبيل وبقى هو فى مصر وبعث سائر اخوته الى الاب ﴿فان قيل﴾ كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة لا سيما وهو قد أجاب بالجواب الشافى فقال الذى جعل الصواع فى رحلى هو الذى جعل البضاعة فى رحالكم ﴿والجواب﴾ عنه من وجوه ﴿الاول﴾ أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعا فى موضع ما كان يدخله أحد الا هم فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم انه هو الذى أخذ الصواع وأما قوله وضع الصواع فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها فى رحالهم وأما هذا الصواع فان أحدا لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصواع فى رحله فظهر الفرق فلهذا السبب غلب على ظنونهم انه سرق فشهدوا بناء على هذا الظن ثم بينوا انهم غير قاطعين بهذا الامر بقولهم وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴿والوجه الثانى﴾ فى الجواب ان تقدير الكلام ان ابنك سرق فى قول الملك وأصحابه ومثله كثير فى القرآن قال تعالى انك لانت الحليم الرشيد أى عند نفسك وقال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم أى عند نفسك وأما عندنا فلا فكذا ههنا ﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب ان ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشئ يسمى سرقة فان اطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز فى القرآن قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴿الوجه الرابع﴾ أن القوم ما كانوا أنبياء فى ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال انهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لا سيما وقد شاهدوا شيأ يوهم ذلك ﴿الوجه الخامس﴾ ان ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ ان ابنك سرق بالتشديد أى نسب الى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها الى التأويل لان القوم نسبوه الى السرقة الا أنا ذكرنا فى هذا الكتاب ان أمثال هذه القراآت لا تدفع السؤال لان الاشكال انما يندفع اذا قلنا القراءة الاولى باطلة والقراءة الحقة هى هذه القراءة أما اذا سلمنا أن

يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها (الا مكاء) أى صفيرا فعال من مكا يمكو اذا صفر وقرئ بالقصر كالبكى (وتصدية) أى تصفيقا تفعلة من الصدى أو من الصد على ابدال أحد حرفى التضعيف بالياء وقرئ صلاتهم بالنصب على أنه الخبر لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فانها لا تليق بمن هذه صلاته روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك اذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضا (فذوقوا العذاب) أى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود ائتنا بعذاب أليم (بما كنتم تكفرون) اعتقادا وعملا (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر أو فى أبى سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وانفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا

القراءة الاولى حقة كان الاشكال باقيا سواء صحت هذه القراءة الثانية أولم تصح فثبت انه لابد من الرجوع الى أحد الوجوه المذكورة أما قوله وما شهدنا الا بما علمنا فمناه ظاهر لانه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى وما شهدنا الا بما علمنا وذلك يقتضى كون الشهادة مغايرة للعلم ولانه عليه السلام قال اذا علمت مثل الشمس فاشهد وذلك أيضا يقتضى ماذكرناه وليست الشهادة أيضا عبارة عن قوله أشهد لان قوله أشهد اخبار عن الشهادة والاخبار عن الشهادة غير الشهادة اذا ثبت هذا فنقول الشهادة عبارة عن الحكم الذهنى وهو الذى يسميه المتكلمون بكلام النفس * وأما قوله وما كنا للغيب حافظين ففيه وجوه (الاول) انا قد رأينا انهم أخرجوا الصواع من رحله وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله (والثانى) قال عكرمة معناه لعل الصواع دس فى متاعه بالليل فان الغيب اسم لليل على بعض اللغات (والثالث) قال مجاهد والحسن وقتادة ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ولو علمنا ذلك ماذهبنا به الى الملك وما أعطيناك موثقا من الله فى رده اليك (والرابع) نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم فهب انه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بنى اسرائيل أن من سرق يسترق بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام انا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا فى هذه الواقعة وما كنا نعلم ان هذه الواقعة نقع فيها فقوله وما كنا للغيب حافظين اشارة الى هذا المعنى * فان قيل فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى فى اخفاء حكم الله تعالى على هذا القول * قلنا لعله كان ذلك الحكم مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر ذكره هذا الحكم عند الملك الذى ظنه كافرا ثم حكى الله تعالى عنهم انهم قالوا واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا فى ازالة التهمة عن أنفسهم فقالوا واسأل القرية التى كنا فيها والاكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ثم فيه قولان (الاول) المراد واسأل أهل القرية الا أنه حذف المضاف للايجاز والاختصار وهذا النوع من المجاز مشهور فى لغة العرب قال أبو على الفارسى ودافع جوازه فى اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات (والثانى) قال أبو بكر بن الانبارى المعنى اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فانها تجيبك وتذكر لك صحة ماذكرناه لانك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد ان ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ماذكرناه * وفيه وجه ثالث وهو أن الشئ اذا ظهر ظهورا تاما كاملا فقد يقال فيه سل السماء والارض وجميع الاشياء عنه والمراد انه بلغ فى الظهور الى الغاية التى ما بقى للشك فيه مجال أما قوله والعير التى أقبلنا فيها فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا سلهم عن هذه الواقعة ثم انهم لما بالغوا فى التأكيد والتقرير قالوا وانا لصادقون يعنى سواء نسبتنا الى التهمة أولم تنسبنا اليها فنحن صادقون وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لان هذا يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه بل الانسان اذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشئ فقد يقول بعده وأنا صادق فى ذلك يعنى فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة ❁ قوله تعالى ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم﴾ اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما فى واقعة يوسف فقال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل وذكر هذا الكلام بعينه فى هذه الواقعة الا أنه قال فى واقعة يوسف عليه السلام والله المستعان على ما تصفون وقال ههنا عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال بعضهم ان قوله بل سولت لكم أنفسكم أمرا ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما فى قوله فى واقعة يوسف عليه السلام حين قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا لكنه عنى سولت لكم أنفسكم اخراج بنيامين عنى والمصير به الى مصر طلبا للنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم على فى ارساله معكم ولم تعلموا ان قضاء الله انما جاء على خلاف تقديركم وقيل بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرا خيلت لكم أنفسكم انه سرق وما سرق ﴿المسئلة الثانية﴾

بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثارنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله (فسينفقونها) بتمامها ولعل الاول اخبار عن انفاقهم فى تلك الحال وهو انفاق يوم بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الاول لبيان الغرض من الانفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وانه لم يقع بعد (ثم تكون عليهم حسرة) ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة (ثم يغلبون) آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك (والذين كفروا) أى ثبتوا على الكفر وأصروا عليه (الى جهنم يحشرون) أى يساقون لا الى غيرها (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون فى عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرئ ليميز بالتشديد للمبالغة (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا) أى يضم بعضه الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم الى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين (فيجعله فى جهنم) كله (أولئك) اشارة الى الخبيث اذ هو

قيل

قيل ان روبيل لما عزم على الاقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع اخوته فقال اتركوني والا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما رجع القوم الى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال يابني لا تخرجوا من عندي مرة الا ونقص بعضكم ذهبتم مرة فنقص يوسف وفي الثانية نقص شمعون وفي هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين ثم بكى وقال عسى الله أن يأتيني بهم جميعا وانما حكم بهذا الحكم لوجوه (الاول) أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله (والثاني) لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف انه حي أو ظهرت له علامات ذلك وانما قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعا لانهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني عشر فضاع يوسف وبقي أحد عشر ولما أرسلهم الى مصر عادوا تسعة لان بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذي قال فلن أبرح الارض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي فلما كان الغائبون ثلاثة لا جرم قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ثم قال انه هو العليم الحكيم يعني هو العالم بحقائق الامور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والاحسان والرحمة والمصلحة ﴿قوله تعالى ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال انما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون﴾ واعلم ان يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد اليهم ﴿أما المقام الاول﴾ وهو أنه أعرض عنهم وفر منهم فهو قوله وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف واعلم انه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام وقال يا أسفى على يوسف وانما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه (الاول) ان الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح اذا وقع على القدح كان أوجع وقال متمم بن نويرة

وقد لامني عند القبور على البكا * رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لانه رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه فأجاب بأن الاسى يبعث الاسى وقال آخر

فلم تنسني أوفى المصيبات بعده * ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

(والوجه الثاني) ان بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الالم والوجد (والوجه الثالث) ان المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا وكان الاسف عليه أسفا على الكل (الرابع) ان هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الامور التي يمكن معرفتها والبحث عنها وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه وأما السبب الحقيقي فما كان معلوما له وأيضا انه عليه السلام كان يعلم ان هؤلاء في الحياة وأما يوسف فما كان يعلم انه حي أو ميت فلهذه الاسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله ﴿المسئلة الثانية﴾ من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله يا أسفى على يوسف قال لان هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وانه لا يجوز والعلماء بينوا انه ليس الامر كما ظنه هذا الجاهل وتقريره انه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه وهو المراد من قوله وابيضت عيناه من الحزن ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر مالا ينبغي وهو المراد من قوله وهو كظيم ثم انه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله انما أشكو بثي وحزني الى الله وكل ذلك يدل على انه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فانه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم

عبارة عن الفريق أو الى المنفقين وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم في الخبث (هم الخاسرون) الكاملون في الخسران لانهم خسروا أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) هم أبو سفيان وأصحابه أي قل لاجلهم (ان ينتهوا) عما هم فيه من معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالدخول في الاسلام (يغفر لهم ما قد سلف) من الذنوب وقرئ ان تنتهوا يغفر لكم ويغفر لكم على البناء للفاعل وهو الله تعالى (وان يعودوا) الى قتاله (فقد مضت سنة الاولين) الذين تحزبوا على الانبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك (وقاتلوهم) عطف على قل وقد عمم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الاولين من الوعيد (حتى لا تكون فتنة) أي لا يوجد منهم شرك (ويكون الدين كله لله) وتضمحل الاديان الباطلة اما باهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل (فان انتهوا) عن الكفر بقتالكم (فان الله بما يعملون بصير) فيجازيهم على انتهائهم عنه واسلامهم وقرئ بتاء الخطاب أي بما تعملون من الجهاد المخرج لهم الى الاسلام وتعليقه بانتهائهم للدلالة على انهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة (وان تولوا)

والثناء العظيم روى ان يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب قال نعم قال وكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت قال فهل له فيه أجر قال نعم أجر مائة شهيد *فان قيل روى عن محمد بن علي الباقر قال مر بيعقوب شيخ كبير فقال له أنت ابراهيم فقال أنا ابن ابنه والهموم غيرتني وذهبت بحسني وقوّتي فأوحى الله تعالى اليه حتى متى تشكوني الى عبادي وعزتي وجلالي لولم تشكني لابدلنك لحما خيرا من لحمك ودما خيرا من دمك فكان من بعد يقول انما أشكو بثي وحزني الى الله وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان ليعقوب أخ مواخ فقال له ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوس ظهري الحزن على بنيامين فأوحى الله تعالى اليه أما تستحي تشكوني الى غيري فقال انما أشكو بثي وحزني الى الله فقال يارب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهري وأذهبت بصري فاردد على ريحانتي يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعاما للمساكين فان أحب عبادي الى الانبياء والمساكين وكان يعقوب عليه السلام اذا أراد الغداء نادى مناديه من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب واذا كان صائما نادى مثله عند الافطار وروى انه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر فقال له رجل ما هذا الذي أراه بك قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله اليه أتشكوني يا يعقوب فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي *قلنا انا قد دللنا على انه لم يأت الا بالصبر والثبات وترك النياحة وروى ان ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له جئت لتقبضني قبل أن أرى حبيبي فقال لا ولكن جئت لاحزن لحزنك وأشجو لشجوك وأما البكاء فليس من المعاصي وروى أن النبي عليه الصلاة والسلام بكى على ولده ابراهيم عليه السلام وقال ان القلب ليحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وأيضا فاستيلاء الحزن على الانسان ليس باختياره فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف وأما التأوّه وارسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها انما كانت لاجل ان حسنات الابرار سيآت المقربين وأيضا ففيه دقيقة أخرى وهي ان الانسان اذا كان في موضع التحير والتردد لابد وأن يرجع الى الله تعالى فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حيا أم صار ميتا فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع الى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى الا في هذه الواقعة وكانت أحواله في هذه الواقعة مختلفة فربما صار في بعض الاوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى فان عن تذكر هذه الواقعة فكان ذكرها كلا سواها فلهذا السبب صارت هذه الواقعة بالنسبة اليه جارية مجرى الالقاء في النار للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح *فان قيل أليس ان الاولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول انا لله وانا اليه راجعون حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون *قلنا قال بعض المفسرين انه لم يعط الاسترجاع أمة الا هذه الامة فاكرمهم الله تعالى اذا أصابتهم مصيبة وهذا عندي ضعيف لان قوله انا لله اشارة الى انا مملوكون لله وهو الذي خلقنا وأوجدنا وقوله وانا اليه راجعون اشارة الى أنه لابد من الحشر والقيامة ومن المحال أن يقال ان أمة من الامم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه حصل في أوّل الامر بخلق الله تعالى وأنه لابد في العاقبة من رجوعه الى الله تعالى فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة ومن المحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك (المسئلة الثالثة) قوله يا أسفى على يوسف نداء الاسف وهو كقوله يا عجبا والتقدير كأنه ينادي الاسف ويقول هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة منها في تفسير قوله حاش لله والاسف الحزن على ما فات قال الليث اذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فانت أسف أي حزين ومتأسف أيضا قال الزجاج الاصل يا أسفي الا أن ياء الاضافة يجوز ابدالها بالالف لخفة الالف والفتحة * ثم قال تعالى وابيضت عيناه من الحزن وفيه وجوه (الاوّل) أنه لما قال يا أسفى على يوسف غلبه البكاء وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض

ولم ينتهوا عن ذلك (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم (نعم المولى) لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) لا يغلب من نصره (واعلموا أنما غنمتم) عن الكلبي أنها نزلت ببدر وقال الواقدي كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوّال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وما موصولة وعائدها محذوف أي الذي أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة اصابة الغنم من العدوّ ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائنا ما كان وقوله تعالى (من شئ) بيان للموصول محله النصب على انه حال من عائد الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن لا يشذ عنها شئ أي ما غنمتموه كائنا مما يقع عليه اسم الشئ حتى الخيط والمخيط خلا ان سلب المقتول للقاتل اذا نفله الامام وأن الاسارى يخير فيهم الامام وكذا الاراضي المغنومة وقوله تعالى (فان لله خمسه) مبتدأ خبره محذوف أي فحق أو واجب أن لله تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لانما الخ وقرئ بالكسر والاولى آكد وأقوى في الايجاب لما فيه من تكرر الاسناد كأنه قيل فلابد من ثبات الخمس ولا سبيل الى الاخلال به وقرئ خمسه بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما في قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه

ذلك

ذلك الماء وقوله وابيضت عيناه من الحزن كناية عن غلبة البكاء والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنا ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل فكان ماذكرناه أولى وهذا التفسير مع الدليل رواه الواحدي في البسيط عن ابن عباس رضي الله عنهما (والقول الثاني) أن المراد هو العمى قال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا قيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان في السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال ليت أمي لم تلدني ولم أك حزنا على أبي والقائلون بهذا التأويل قالوا الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى فالحزن كان سببا للعمى بهذه الواسطة وانما كان البكاء الدائم يوجب العمى لانه يورث كدورة في سوداء العين ومنهم من قال ما عمي لكنه صار بحيث يدرك ادراكا ضعيفا قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام الى حين لقائه وتلك المدة ثمانون عاما وما كان على وجه الارض عبد أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام * أما قوله تعالى من الحزن فاعلم أنه قرئ من الحزن برفع الحاء وسكون الزاي وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاي قال الواحدي واختلفوا في الحزن والحزن فقال قوم الحزن البكاء والحزن ضد الفرح وقال قوم هما لغتان يقال أصابه حزن شديد وحزن شديد وهو مذهب أكثر أهل اللغة وروى يونس عن أبي عمرو قال اذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاي كقوله وأعينهم تفيض من الدمع حزنا واذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله من الحزن وقوله أشكو بثي وحزني الى الله قال هو في موضع رفع بالابتداء * وأما قوله تعالى فهو كظيم فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء اذا شده على ملئه ويجوز أيضا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده واعلم أن أشرف أعضاء الانسان هذه الثلاثة فبين تعالى انها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا أسفى والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم * أما قوله تعالى قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت يقال ما زلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن الا مع الجحد قال ابن قتيبة يقال ما فتيت وما فتئت لغتان فتيا وفتوأ اذا نسيته وانقطعت عنه قال النحويون وحرف النفي ههنا مضمر على معنى قالوا ما تفتؤ أو لا تفتؤ وجاز حذفه لانه لو أريد الاثبات لكان باللام والنون نحو والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلا مضمرة وأنشدوا قول امرئ القيس * فقلت يمين الله أبرح قاعدا * والمعنى لا أبرح قاعدا ومثله كثير وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لا تزال تذكره وعن مجاهد لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين (المسئلة الثانية) حكى الواحدي عن أهل المعاني ان أصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب وقوله حرضت فلانا على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه وقال تعالى حرض المؤمنين على القتال اذا عرفت هذا فنقول وصف الرجل بانه حرض اما أن يكون لارادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لارادة أنه لما تناهى في الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد وأما الحرض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معا اذا عرفت هذا فنقول للمفسرين فيه عبارات (أحدها) الحرض والحارض هو الفاسد في جسمه وعقله (وثانيها) سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن الحرض فقال الفاسد الدنف (وثالثها) انه الذي يكون لا كالاحياء ولا كالاموات وذكر أبو روق أن أنس بن مالك قرأ حتى تكون حرضا بضم الحاء وتسكين الراء قال يعني مثل عود الاشنان وقوله أو تكون من الهالكين أي من الاموات ومعنى الآية أنهم قالوا لابيهم انك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك الى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا أنت الآن في بلاء شديد ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه

وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه بقوله تعالى (وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) واعادة اللام في ذي القربى دون غيرهم من أصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل لما روي عن عثمان وجبير ابن مطعم رضي الله عنهما أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء اخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم أرأيت اخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال صلى الله عليه وسلم انهم لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم سهم له عليه الصلاة والسلام وسهم للمذكورين من ذوي قرباه وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوي القربى وانما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على الاصناف الثلاثة ويؤيده ما روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه منع بني هاشم الخمس وقال انما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم

وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف * فان قيل لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعا * قلنا انهم بنوا هذا الامر على الظاهر * فان قيل القائلون بهذا الكلام وهو قوله تالله تفتؤ من هم * قلنا الاظهر ان هؤلاء ليسوا هم الاخوة الذين قد تولى عنهم بل هم الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاد أولاده وخدمه ثم حكى الله تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال انما أشكو بثي وحزني الى الله يعني ان هذا الذي أذكره لا أذكره معكم وانما أذكره في حضرة الله تعالى والانسان اذا بث شكواه الى الله تعالى كان في زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك والله هو الموفق والبث هو التفريق قال الله تعالى وبث فيهما من كل دابة فالحزن اذا ستره الانسان كان هما واذا ذكره لغيره كان بثا وقالوا البث أشد الحزن والحزن أشد الهم وذلك لانه متى أمكنه ان يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليا عليه وأما اذا عظم وعجز الانسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بثا وذلك يدل على أن الانسان صار عاجزا عنه وهو قد استولى على الانسان فقوله بثي وحزني الى الله أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل الا مع الله وقرأ الحسن وحزني بفتحتين وحزني بضمتين قيل دخل على يعقوب رجل وقال يا يعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سنا عاليا فقال الذي بي لكثرة غمومي فأوحى الله اليه يا يعقوب أتشكوني الى خلقي فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي فغفرها له وكان بعد ذلك اذا سئل قال انما أشكو بثي وحزني الى الله وروي أنه أوحى الله اليه انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقي الي الانبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ثم قال يعقوب عليه السلام وأعلم من الله ما لا تعلمون أي أعلم من رحمته واحسانه ما لا تعلمون وهو انه تعالى يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب فهو اشارة الى أنه كان يتوقع وصول يوسف اليه وذكروا السبب هذا التوقع أمورا (أحدها) ان ملك الموت أتاه فقال له يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف قال لا يا نبي الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه ههنا (وثانيها) انه علم أن رؤيا يوسف صادقة لان امارات الرشد والكمال كانت ظاهرة في حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ (وثالثها) لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق (ورابعها) قال السدي لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال يبعد أن يظهر في الكفار مثله (وخامسها) علم قطعا أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام في المقام الاول (والمقام الثاني) أنه رجع الى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف وهو قوله يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واعلم أنه عليه السلام لما طمع في وجدان يوسف بناء على الامارات المذكورة قال لبنيه تحسسوا من يوسف والتحسس طلب الشيء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر قال أبو بكر الانباري يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقيل ههنا من يوسف لانه أقام من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض والمعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف واستعلموا بعض أخبار يوسف فذكرت كلمة من لما فيها من الدلالة على التبعيض وقرئ تجسسوا بالجيم كما قرئ بهما في الحجرات ثم قال ولا تيأسوا من روح الله قال الاصمعي الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز فكل ما يهتز الانسان له ويلتذ بوجوده فهو روح وقال ابن عباس لا تيأسوا من روح الله يريد من رحمة الله وعن قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله وهذه الالفاظ متقاربة وقرأ الحسن وقتادة من روح الله بالضم أي من رحمته ثم قال انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون قال ابن عباس رضي الله عنهما ان المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان أن الاله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر فاذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول أحد هذه

ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغني لا يعطى من الصدقة شيئا وعن زيد بن علي مثله قال ليس لنا أن نبني منه قصورا ولا نركب منه البراذين وقيل سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولي الامر بعده وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف الى ما كان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين والباقي للفرق الثلاث وعند مالك رحمه الله الامر فيه مفوض الى اجتهاد الامام ان رأى قسمه بين هؤلاء وان رأى أعطاه بعضهم دون بعض وان رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى الى رتاج الكعبة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم الى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأن الخمس وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس سهمان عند أبي حنيفة رضي الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله قال القرطبي لما بين الله

الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا والله أعلم * وقد بقي من مباحث هذه الآية سؤالات (السؤال الاول) ان بلوغ يعقوب في حب يوسف الى هذا الحد العظيم لا يليق الا بمن كان غافلا عن الله فان من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شئ سوى الله تعالى وأيضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين فلما كان قلبه مستغرقا في حب ولده امتنع أن يقال انه كان مستغرقا في حب الله تعالى (والسؤال الثاني) ان عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب عليه أن يشتغل بذكر الله تعالى وبالتفويض اليه والتسليم لقضائه وأما قوله يا أسفى على يوسف فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الانبياء (السؤال الثالث) لا شك أن يعقوب كان من أكابر الانبياء وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الانبياء المشهورين في جميع الدنيا ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية بل لا بد وأن تبلغ في الشهرة الى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقي يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم وكان يوسف في مصر وكان يعقوب في بعض بلاد الشام قريبا من مصر فمع قرب المسافة يمتنع بقاء مثل هذه الواقعة خفية (السؤال الرابع) لم لم يبعث يوسف عليه السلام أحدا الى يعقوب ويعلمه أنه في الحياة وفي السلامة ولا يقال انه كان يخاف اخوته لانه بعد أن صار ملكا قاهرا كان يمكنه ارسال الرسول اليه واخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول (والسؤال الخامس) كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع في وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع انه كان بريئا عنها (السؤال السادس) كيف رغب في الصاق هذه التهمة به وفي حبسه عند نفسه مع أنه كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى (والجواب عن الاول) أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر ثم ان صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع الى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق (وعن الثاني) ان الدواعي الانسانية لا تزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول يا أسفى على يوسف وتارة كان يقول فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون * وأما بقية الاسئلة فالقاضي أجاب عنها بجواب كلي حسن فقال هذه الوقائع التي نقلت الينا اما أن يمكن تخريجها على الاحوال المعتادة أو لا يمكن فان كان الاول فلا اشكال وان كان الثاني فنقول كان ذلك الزمان زمان الانبياء عليهم السلام وخرق العادة في هذا الزمان غير مستبعد فلم يمتنع أن يقال ان بلدة يعقوب عليه السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام ولكن لم يصل خبر أحدهما الى الآخر على سبيل نقض العادة ﴿ قوله تعالى ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ اعلم أن المفسرين اتفقوا على ان ههنا محذوفا والتقدير أن يعقوب لما قال لبنيه اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا الى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له يا أيها العزيز * فان قيل اذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا الى الشكوى وطلبوا ايفاء الكيل * قلنا لان المتحسسين يتوسلون الى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا نجربه في ذكر هذه الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والا سكتنا فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا يا أيها العزيز والعزيز هو الملك القادر المنيع مسنا وأهلنا الضر وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم وجئنا ببضاعة مزجاة وفيه أبحاث (البحث الاول) معنى الازجاء في اللغة الدفع قليلا قليلا ومثله التزجية يقال الريح تزجي السحاب قال الله تعالى ألم تر أن الله يزجي سحابا وزجيت فلانا بالقول دافعته وفلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالحيلة (والبحث الثاني) انما وصفوا تلك البضاعة بانها مزجاة اما لنقصانها أو لرداءتها أو لهما جميعا والمفسرون ذكروا كل

تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى (ان كنتم آمنتم بالله) متعلق بمحذوف ينبئ عنه المذكور أي ان كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به الى الله تعالى فاقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لامره تعالى (وما أنزلنا) عطف على الاسم الجليل أي ان كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه (على عبدنا) وقرئ عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فان بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه (يوم الفرقان) يوم بدر سمي به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم (يوم التقى الجمعان) أي الفريقان من المؤمنين والكافرين وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحي والملائكة والفتح على أن المراد بالانزال مجرد الايصال والتيسير فينتظم الكل انتظاما حقيقيا وجعل الايمان بانزال هذه الاشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث ان الوحي ناطق بذلك وان الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة

هذه الاقسام قال الحسن البضاعة المزجاة القليلة وقال آخرون انها كانت رديئة واختلفوا في تلك الرداءة فقال ابن عباس رضي الله عنهما كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام وقيل خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة وقيل متاع الاعراب الصوف والسمن وقيل الحبة الخضراء وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل سويق المقل وقيل صوف المعز وقيل ان دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التي جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس (البحث الثالث) في بيان أنه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة وفيه وجوه (الاول) قال الزجاج هي من قولهم فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل والمعنى انا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الايام (الثاني) قال أبو عبيد انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها قال وهي من الازجاء والازجاء عند العرب السوق والدفع (الثالث) بضاعة مزجاة أي مؤخرة مدفوعة عن الانفاق لا ينفق مثلها الا من اضطر واحتاج اليها لفقد غيرها مما هو أجود منها (الرابع) قال الكلبي مزجاة لغة العجم وقيل هي من لغة القبط قال أبو بكر الانباري لا ينبغي أن يجعل لفظ عربي معروف الاشتقاق والتصريف منسوبا الى القبط (البحث الرابع) قرأ حمزة والكسائي مزجاة بالامالة لان أصلها الياء والباقون بالنصب والتفخيم واعلم أن حاصل الكلام في كون البضاعة مزجاة اما قلتها أو نقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بانها مزجاة قالوا له فأوف لنا الكيل والمراد أن يساهلهم اما بأن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الردىء مقام الجيد ثم قالوا وتصدق علينا والمراد المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالردىء كما يسعر بالجيد واختلف الناس في أنه هل كان ذلك طلبا منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة وأنكر الباقون ذلك وقالوا حال الانبياء وحال أولاد الانبياء ينافي طلب الصدقة لانهم يأنفون من الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع الى الله تعالى والاستعانة به عمن سواه وروى عن الحسن ومجاهد أنهما كرها أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي قالوا لان الله لا يتصدق انما يتصدق الذي يبتغي الثواب وانما يقول اللهم أعطني أو تفضل فعلى هذا التصدق هو اعطاء الصدقة والمتصدق المعطي وأجاز الليث أن يقال للسائل متصدق وأباه الاكثرون وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا اليه اغرورقت عيناه فعند ذلك قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وقيل دفعوا اليه كتاب يعقوب فيه من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلها بردا وسلاما عليه وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي الي فذهب به اخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من البكاء عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به اليك ثم رجعوا وقالوا انه قد سرق وانك حبسته عندك وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته علي والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف ثم حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه قيل انه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بأنه يوسف وقيل انه لما رأى اخوته تضرعوا اليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بانه يوسف وقوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف استفهام يفيد تعظيم الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت * واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وأما قوله وأخيه فالمراد ما فعلوه به من تعريضه للغم بسبب افراده

معروفة الى الجهات التي عينها الله تعالى (والله على كل شئ قدير) يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم (اذ أنتم بالعدوة الدنيا) بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادي وكذا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما أيضا (وهم بالعدوة القصوى) أي البعدى من المدينة وهي تأنيث الاقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من ذوات الواو لكنها جاءت على الاصل كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالا من القصيا (والركب) أي العير أو قوادها (أسفل منكم) أي في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على ان لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها الا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد) أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم

عن

عن أخيه لابيه وأمه وأيضا كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الايذاء انالوا في حقه ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل وأما قوله اذ أنتم جاهلون فهو يجري مجرى العذر كأنه قال أنتم انما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور يعني والآن لستم كذلك ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى ما غرك بربك الكريم قيل انما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جاريا مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يارب غرني كرمك فكذا ههنا انما ذكر ذلك الكلام ازالة للخجالة عنهم وتخفيفا للامر عليهم ثم ان اخوته قالوا أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف قرأ ابن كثير انك على لفظ الخبر وقرأ نافع أينك لانت يوسف بفتح الالف غير ممدودة وبالياء وأبو عمرو آينك بمد الالف وهو رواية قالون عن نافع والباقون أئنك بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام وقرأ أبي أوأنت يوسف فحصل من هذه القراآت أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر أما الاولون فقالوا ان يوسف لما قال لهم هل علمتم وتبسم فابصروا ثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف فقالوا له استفهاما أئنك لانت يوسف ويدل على صحة الاستفهام أنه قال أنا يوسف وانما أجابهم عما استفهموا عنه وأما من قرأ على الخبر فحجته ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان في فرقه علامة وكان ليعقوب واسحق مثلها شبه الشامة فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة فقالوا انك لانت يوسف ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام ثم حذف حرف الاستفهام وقوله قال أنا يوسف فيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر ان ﴿البحث الثاني﴾ انه انما صرح بالاسم تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر فكأنه قال أنا الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلني الى أعظم المناصب أنا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله والقاءه في البئر ثم صرت كما ترون ولهذا قال وهذا أخي مع انهم كانوا يعرفونه لان مقصوده أن يقول وهذا أيضا كان مظلوما كما كنت ثم انه صار منعما عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله قد من الله علينا قال ابن عباس رضي الله عنهما بكل عز في الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله انه من يتق ويصبر معناه من يتق معاصي الله ويصبر على أذى الناس فان الله لا يضيع أجر المحسنين والمعنى انه من يتق الله ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقيا ولو أنه أقدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذبا منه وذكر الكذب في مثل هذا المقام الذي يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصي لا يليق بالعقلاء ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الواحدي روى عن ابن كثير في طريق قنبل انه من يتقي باثبات الياء في الحالين ووجهه أن يجعل من بمنزلة الذي فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله ويصبر في موضع الرفع الا أنه حذف الرفع طلبا للتخفيف كما يخفف في عضد وسمع والباقون بحذف الياء في الحالين ۞ قوله تعالى ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لاخوته ان الله تعالى من عليه وان من يتق المعاصي ويصبر على أذى الناس فانه لا يضيعه الله صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمزية فقالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال الاصمعي يقال آثرك ايثارا أي فضلك الله وفلان آثر عند فلان اذا كان يؤثره بفضله وصلته والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائدا عليهم في الملك وأحوال الدنيا وان شاركوه في النبوة لانا بينا ان أحوال الدنيا لا يعبأ بها في جنب منصب النبوة وأما قوله وان كنا لخاطئين قيل الخاطئ هو الذي أتى بالخطيئة عمدا وفرق بين الخاطئ والمخطئ

لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا ان ما اتفق لهم من الفتح ليس الا صنعا من الله عز وجل خارقا للعادات فيزدادوا ايمانا وشكرا وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس (ولكن) جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدرا في الازل وقوله تعالى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة) بدل منه أو متعلق بمفعولا أي ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وايمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والايمان والمراد عن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة أو من حاله في علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرئ ليهلك بالفتح وحيي بفك الادغام حملا على المستقبل (وان الله لسميع عليم) أي بكفر من كفر وعقابه وايمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الامرين على القول والاعتقاد (اذ يريكهم الله في منامك قليلا) منصوب باذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا

فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الاحكام فلا يصيب انه مخطئ ولا يقال انه خاطئ وأكثر المفسرين على ان الذي اعتذروا منه هو اقدامهم على القائه في الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والاب وقال أبو علي الجبائي انهم لم يعتذروا اليه من ذلك لان ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبا فلا يعتذر منه وانما اعتذروا من حيث أنهم أخطؤا بعد ذلك بان لم يظهروا لابيهم ما فعلوه ليعلم أنه حي وأن الذئب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجوه (الاول) انا بينا أنه لا يجوز أن يقال انهم أقدموا على تلك الاعمال في زمن الصبا لانه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلا عاقلا يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي (والثاني) هب أن الامر على ما ذكره الجبائي الا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب عليهم الاعتذار عن ذلك الا انه يمكن أن يقال انه يحسن الاعتذار عنه والدليل عليه أن المذنب اذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى فعلمنا ان الانسان أيضا قد يتوب عند ما لا تكون التوبة واجبة عليه واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وفيه بحثان (البحث الاول) التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اذا زنت أمة أحدكم فليضربها الحد ولا يثرب بها أي ولا يعيرها بالزنا فقوله لا تثريب أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه ازالة الثرب كما ان التجليد ازالة الجلد قال عطاء الخراساني طلب الحوائج الى الشباب أسهل منها الى الشيوخ ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام لاخوته لا تثريب عليكم وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي (البحث الثاني) ان قوله اليوم متعلق بماذا وفيه قولان (الاول) أنه متعلق بقوله لا تثريب أي لا أثربكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الايام وفيه احتمال آخر وهو اني حكمت في هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقا لان قوله لا تثريب نفي للماهية ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع افراد الماهية فكان ذلك مفيدا للنفي المتناول لكل الاوقات والاحوال فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الاوقات والاحوال ثم انه لما بين لهم أنه أزال عنهم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال يغفر الله لكم والمراد منه الدعاء (والقول الثاني) ان قوله اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم كأنه لما نفى التثريب مطلقا بشرهم بأن الله غفر ذنبهم في هذا اليوم وذلك لانهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر لهم ذنبهم فلذلك قال اليوم يغفر الله لكم روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح وقال لقريش ما ترونني فاعلا بكم فقالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه قال لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك وروي أن اخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه انك تحضرنا في مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك لما صدر منا من الاساءة اليك فقال يوسف عليه السلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الي بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن باتيانكم وعظمت في العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم اخوتي وأني من حفدة ابراهيم عليه السلام ثم قال يوسف عليه السلام اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا قال المفسرون لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه قال المحققون انما عرف ان القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك لان العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى الا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فاذا ألقي عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوى فحينئذ يقوى بصره ويزول عنه ذلك النقصان فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فان القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى وقوله يأت بصيرا أي يصير بصيرا ويشهد له

على عدوهم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) أي لجبنتم وهبتم الاقدام (ولتنازعتم في الامر) أي أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات والفرار (ولكن الله سلم) أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع (انه عليم بذات الصدور) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر (واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا) منصوب بضمير مخاطب بالكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثاني وانما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن الى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة تثبيتا لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقللكم في أعينهم) حتى قال أبو جهل انما أصحاب محمد أكلة جزور قللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترؤا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم آيات تلك الوقعة فان البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا الى هذا الحد وانما ذلك بصد الله تعالى الابصار عن ابصار بعض دون بعض مع التساوي في الشرائط (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) كرر لاختلاف

فارتد بصيرا ويقال المراد يأت الىّ وهو بصير وانما أفرده بالذكر تعظيما له وقال فى الباقين وأتونى بأهلكم أجمعين قال الكلبى كان أهله نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة وروى أن يهودا حمل الكتاب وقال أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم اليه فافرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا

﴿قوله تعالى ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم﴾ يقال فصل فلان من عند فلان فصولا اذا خرج من عنده وفصل منى اليه كتابا اذا أنفذه اليه وفصل يكون لازما ومتعديا واذا كان لازما فمصدره الفصول واذا كان متعديا فمصدره الفصل قال المفسرون لما خرجت العير من مصر متوجهة الى كنعان قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ولم يكن هذا القول مع أولاده لانهم كانوا غائبين بدليل انه عليه السلام قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واختلفوا فى قدر المسافة فقيل مسيرة ثمانية أيام وقيل عشرة أيام وقيل ثمانون فرسخا واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة اليه فقال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام انه ليس فى الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال انى لأجد ريح يوسف وروى الواحدى باسناده عن أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أما قوله اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا فان نمروذ الجبار لما ألقى ابراهيم فى النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه فكسا ابراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحق وكساه اسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبة من فضة وعلقها فى عنقه فألقى فى الجب والقميص فى عنقه فذلك قوله اذهبوا بقميصى هذا والتحقيق أن يقال انه تعالى أوصل تلك الرائحة اليه على سبيل اظهار المعجزات لان وصول الرائحة اليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لاحدهما والاقرب انه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه فى هذا الكلام الى ما لا ينبغى فظهر أن الامر كما ذكر فكان معجزة له قال أهل المعانى ان الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى لأجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم وقوله لولا أن تفندون قال أبو بكر بن الانبارى أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وعن الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها فقوله لولا أن تفندون أى لولا أن تنسبونى الى الخرف ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده تالله انك لفى ضلالك القديم وفى الضلال ههنا وجوه (الاول) قال مقاتل يعنى بالضلال ههنا الشقاء يعنى شقاء الدنيا والمعنى انك لفى شقائك القديم بما تكابد من الاحزان على يوسف واحتج مقاتل بقوله انا اذن لفى ضلال وسعر يعنون لفى شقاء دنيانا وقال قتادة لفى ضلالك القديم أى لفى حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم ان أبانا لفى ضلال مبين ثم قال قتادة قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبى الله وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب وقوله فلما أن جاء البشير فى أن قولان (الاول) أنه لا موضع لها من الاعراب وقد تذكر تارة كما ههنا وقد تحذف كقوله فلما ذهب عن ابراهيم الروع والمذهبان جميعا موجودان فى أشعار العرب

الفعل المعلل به أولان المراد بالامرئة الانتقاء على الوجه المذكور وههنا اعزاز الاسلام وأهله واذلال الكفر وحزبه (والى الله ترجع الامور) كلها يصرفها كيفما يريد لا راد لامره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد (يا أيها الذين آمنوا) صدر الخطاب بحرف النداء والتنبيه اظهارا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده (اذا لقيتم فئة) أى حاربتم جماعة من الكفرة وانما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يحاربون الا الكفرة واللقاء مما غلب فى القتال (فاثبتوا) أى للقائهم فى مواطن الحرب (واذكروا الله كثيرا) أى فى تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى أن لا يشغله شئ عن ذكر الله تعالى وأن يلتجئ اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الاحوال (وأطيعوا الله ورسوله) فى كل ما تأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أمروا به ههنا اندراجا أوليا (ولا تنازعوا) باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد (فتفشلوا) جواب للنهى وقيل عطف عليه (وتذهب ريحكم) بالنصب عطف

(والثاني) قال البصريون هي مع ما في موضع رفع بالفعل المضمر تقديره فلما ظهر أن جاء البشير أي ظهر مجيء البشير فاضمر الرافع قال جمهور المفسرين البشير هو يهوذا قال أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت ان يوسف أكله الذئب فاذهب اليوم بالقميص فأفرحه كما أحزنته قوله ألقاه على وجهه أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو يقال ألقاه يعقوب على وجه نفسه فارتد بصيرا أي رجع بصيرا ومعنى الارتداد انقلاب الشيء الى حالة قد كان عليها وقوله فارتد بصيرا أي صيره الله بصيرا كما يقال طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه فقال بعضهم انه كان قد عمي بالكلية فالله تعالى جعله بصيرا في هذا الوقت وقال آخرون بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الاحزان فلما ألقوا القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك قوي بصره وزال النقصان عنه فعند هذا قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا لأن هذا المعنى هو الذي له تعلق بما تقدم وهو اشارة الى ما تقدم من قوله انما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون روي أنه سأل البشير وقال كيف يوسف قال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة ثم ان أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون اليه وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهما والأكثرون أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الاجابة (الثاني) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لأنها أوفق الأوقات للاجابة (الثالث) أراد أن يعرف انهم هل تابوا في الحقيقة أم لا وهل حصلت توبتهم مقرونة بالاخلاص التام أم لا (الرابع) استغفر لهم في الحال وقوله سأستغفر لكم معناه اني أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل فقد روي أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقيل قام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يده الى السماء وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عليه واغفر لأولادي ما فعلوه في حق يوسف عليه السلام فأوحى الله تعالى اليه قد غفرت لك ولهم أجمعين وروي أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء ما يغني عنا ان لم يغفر لنا فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال ان الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور * قوله تعالى ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم﴾ اعلم أنه روي أن يوسف عليه السلام وجه الى أبيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز اليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهودا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر قال لا هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام السلام عليك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ * أما قوله آوى اليه أبويه ففيه بحثان (البحث الأول) في المراد بقوله أبويه قولان (الأول) المراد أبوه وأمه وعلى هذا القول فقيل ان أمه كانت باقية حية الى ذلك الوقت وقيل انها كانت قد ماتت الا أن الله تعالى أحياها وأنشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقا لرؤيا يوسف عليه السلام (القول الثاني) أن المراد أبوه وخالته لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين وقيل بنيامين بالعبرانية ابن

من حيث انها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة في هبوبها وجريانها وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لا تكون الا بريح يبعثها الله تعالى وفي الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (واصبروا) على شدائد الحرب (ان الله مع الصابرين) بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من اصالتهم انما هي من حيث انهم المباشرون للصبر فهم متبوعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى انما هي من حيث الامداد والاعانة (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) بعد ما أمروا بما أمروا به من أحاسن الاعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير (بطرا) أي فخرا وأشرا (ورئاء الناس) ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسول أبي سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا الا اظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر في أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرائين بطرين وأمروا بالتقوى والاخلاص من حيث ان النهي عن الشيء مستلزم للأمر بضده (ويصدون عن سبيل الله)

الوجع ولما ماتت تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى باحدى الابوين لان الرابة تدعى أما لقيامها مقام الام أولان الخالة أم كما ان العم أب ومنه قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق (البحث الثانى) آوى اليه أبويه ضمهما اليه واعتنقهما فان قيل ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر قلنا كأنه حين استقبلهم نزل بهم فى بيت هناك أوخيمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه وقال لهم ادخلوا مصر * أما قوله ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ففيه أبحاث (البحث الاول) قال السدى انه قال هذا القول قبل دخولهم مصر لانه كان قد استقبلهم وهذا هو الذى قررناه وعن ابن عباس رضى الله عنهما المراد بقوله ادخلوا مصر أى أقيموا بها آمنين سمى الاقامة دخولا لاقتران أحدهما بالآخر (البحث الثانى) الاستثناء وهو قوله ان شاء الله فيه قولان (الاول) أنه عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله ونظيره قوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وقيل انه عائد الى الدخول على القول الذى ذكرناه أنه قال لهم هذا الكلام قبل ان دخلوا مصر (البحث الثالث) معنى قوله آمنين يعنى على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحدا وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل آمنين من القحط والشدة والفاقة وقيل آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف أما قوله ورفع أبويه على العرش قال أهل اللغة العرش السرير الرفيع قال تعالى ولها عرش عظيم والمراد بالعرش ههنا السرير الذى كان يجلس عليه يوسف وأما قوله وخروا له سجدا ففيه اشكال وذلك لان يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الابوة عظيم قال تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا فقرن حق الوالدين بحق نفسه * وأيضا انه كان شيخا والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ (والثالث) انه كان من أكابر الانبياء ويوسف وان كان نبيا الا أن يعقوب كان أعلى حالا منه (والرابع) أن جد يعقوب واجتهاده فى تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف فى خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال (والجواب) عنه من وجوه (الاول) وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء ان المراد بهذه الآية انهم خروا له أى لاجل وجدانه سجدا لله تعالى وحاصل الكلام ان ذلك السجود كان سجود الشكر فالمسجود له هو الله الا أن ذلك السجود انما كان لاجله والدليل على صحة هذا التأويل ان قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا مشعر بأنهم صعدوا على ذلك السرير ثم سجدوا له ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل فى التواضع * فان قالوا فهذا التأويل لا يطابق قوله يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قلنا بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين لاجلى أى انها سجدت لله لطلب مصلحتى وللسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال وعندى ان هذا التأويل متعين لانه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة (والوجه الثانى) فى الجواب أن يقال انهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه وهذا التأويل حسن فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان رضى الله تعالى عنه شعرا

ما كنت أعرف أن الامر منصرف * عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
أليس أول من صلى لقبلتكم * وأعرف الناس بالقرآن والسنن

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبلة وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة وقوله وخروا له سجدا أى جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه (الوجه الثالث فى الجواب) قد يسمى التواضع سجودا كقوله * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * وكان المراد ههنا التواضع الا أن هذا مشكل لانه تعالى قال وخروا له سجدا والخرور الى السجدة مشعر بالاتيان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بأن الخرور قد يعنى به المرور فقط قال تعالى لم يخروا عليها صما وعميانا يعنى لم يمروا (الوجه الرابع فى الجواب) أن

عطف على بطرا ان جعل مصدرا فى موضع الحال وكذا ان جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر (والله بما يعملون محيط) فيجازيهم عليه (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم) منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس اليهم (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) أى ألقى فى روعهم وخيل اليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم اياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر احدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلته والا لانتصب كقولك لا ضاربا زيدا عندنا (فلما تراءت الفئتان) أى تلاقى الفريقان (نكص على عقبيه) رجع القهقرى وبطل كيده وعاد ما خيل اليهم أنه مجيرهم سببا لهلاكهم (وقال انى برىء منكم انى أرى ما لا ترون انى أخاف الله) أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما رأى امداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الاحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى مجير كم من كنانة

نقول الضمير في قوله وخروا له غير عائد الى الابوين لا محالة والا لقال وخروا له ساجدين بل الضمير عائد الى اخوته والى سائر من كان يدخل عليه لاجل التهنئة والتقدير ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما وأما الاخوة وسائر الداخلين خروا له ساجدين* فان قالوا فهذا لا يلائم قوله يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل* قلنا ان تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر تعبير عن تعظيم الاكابر من الناس له ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان الى مصر لاجله في نهاية التعظيم له فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فاما أن يكون التعبير مساويا لاصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء (الوجه الخامس في الجواب) لعل الفعل الدال على التحية والاكرام في ذلك الوقت هو السجود وكان مقصودهم من السجود تعظيمه وهذا في غاية البعد لان المبالغة في التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب فلو كان الامر كما قلتم لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام (الوجه السادس فيه) أن يقال لعل اخوته حملتهم الانفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع وعلم يعقوب عليه السلام انهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران الفتن ولظهور الاحقاد القديمة بعد كمونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الابوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال الانفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير اذا نصب محتسبا فاذا أراد ترتيبه مكنه في اقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببا في أن لا يبقى في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في اقامة الحسبة فكذا ههنا (الوجه السابع) لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها الا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها الا هو ويوسف ما كان راضيا بذلك في قلبه الا أنه لما علم ان الله أمره بذلك سكت ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة قال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وفيه بحثان (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما انه لما رأى سجود أبويه واخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياى من قبل* وأقول هذا يقوى الجواب السابع كأنه يقول يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك الا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به فان رؤيا الانبياء حق كما ان رؤيا ابراهيم ذبح ولده صار سببا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببا لوجوب ذلك السجود فلهذا السبب حكى ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيأ* وأقول لا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له انك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه فاذا وجدته فاسجد له فكان الامر بذلك السجود من تمام التشديد والله أعلم بحقائق الامور (البحث الثاني) اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة وقيل سبعون وقيل أربعون وهو قول الاكثرين ولذلك يقولون ان تأويل الرؤيا انما صحت بعد أربعين سنة وقيل ثماني عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى في العبودية والسجن ثمانين سنة ثم وصل الى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الامور ثم قال وقد أحسن بى أى الى يقال أحسن به واليه قال كثير

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة * لدينا ولا مقلية ان تقلت

اذ أخرجنى من السجن ولم يذكر اخراجه من البئر لوجوه (الاول) انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم (الثاني) أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكا بل صيروه عبدا أما لما خرج من السجن صيروه ملكا فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا (الثالث) أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة له بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل الى أبيه واخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب الى المنفعة (الرابع) قال الواحدى

فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده في يد الحرث بن هشام فقال له الى أين أتخذلنا في هذه الحالة قال انى أرى ما لا ترون ودفع في صدر الحرث وانطلق فانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله انى أخاف الله أخافه أن يصيبنى بمكروه من الملائكة أو يهلكنى ويكون الوقت هو الوقت الموعود اذ رأى فيه ما لم يره قبله والاول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر (والله شديد العقاب) يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفا من جهة الله عز وجل (اذ يقول المنافقون) منصوب بزين أو بنكص أو بشديد العقاب (والذين في قلوبهم مرض) أى الذين لم تطمئن قلوبهم بالايمان بعد وبقى فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون في المدينة والعطف لتغاير الوصفين كما في قوله

يا لهف زيابة للحرث الـ * صابح فالغانم فالآيب

(غر هؤلاء) يعنون المؤمنين (دينهم) حتى تعرضوا لما لا طاقة لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر الى زهاء الالف (ومن يتوكل على الله) جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم (فان الله عزيز)

النعمة

النعمة في اخراجه من السجن أعظم لان دخوله في السجن كان بسبب ذنب هم به وهذا ينبغي أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس وهذا وان كان في محل العفو في حق غيره الا أنه ربما كان سببا للمؤاخذة في حقه لان حسنات الابرار سيآت المقربين * ثم قال وجاء بكم من البدو وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ في الآية قولان (الاول) جاء بكم من البدو أي من البادية وقال الواحدي البدو بسيط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمي المكان باسم المصدر فيقال بدو وحضر وكان يعقوب وولده بارض كنعان أهل مواش وبرية (والقول الثاني) قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول الى بدا وسكنها ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الانباري بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعا كثير فقال

وأنت التي حببت شعبا الى بدا * الي وأوطاني بلاد سواهما

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا اذا أتوا بدا كما يقال غار القوم غورا اذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لان البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا الى ههنا كلام قاله الواحدي في البسيط ﴿المسئلة الثانية﴾ تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى لان خروج العبد من السجن أضافه الى نفسه بقوله اذ أخرجني من السجن ومجيئهم من البدو أضافه الى نفسه سبحانه بقوله وجاء بكم من البدو وهذا صريح في أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد ان ذلك انما حصل باقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر ثم قال من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي قال صاحب الكشاف نزغ أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجري يقال نزغه ونسغه اذا نخسه * واعلم أن الجبائي والكعبي والقاضي احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا لانه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان ذلك أيضا من الرحمن لوجب أن لا ينسب الا اليه كما في النعم (والجواب) أن اضافته هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان عندكم الشيطان لا يتمكن من الكلام الخفي وقد أخبر الله عنه فقال وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فثبت أن ظاهر القرآن يقتضي اضافة هذا الفعل الى الشيطان مع أنه ليس كذلك وأيضا فان كان اقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فاقدام الشيطان على المعصية ان كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وان لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله في حق الانسان فثبت أن اقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضا بسبب نفسه لان أحدا لا يميل طبعه الى اختيار الجهل والفسق الذي يوجب وقوعه في ذم الدنيا وعقاب الآخرة ولما كان وقوعه في الكفر والفسق لا بد له من موقع وقد بطل القسمان لم يبق الا أن يقال ذلك من الله تعالى ثم الذي يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو صريح في أن الكل من الله تعالى ثم قال ان ربي لطيف لما يشاء والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه واخوته مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف فاذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وان كان في غاية البعد عن الحصول ثم قال انه هو العليم الحكيم أعني أن كونه لطيفا في أفعاله انما كان لاجل انه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها فيكون عالما بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب وحكيم أي محكم في فعله حاكم في قضائه حكيم في أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ روى أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به في خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح فلما أدخله خزائن القراطيس قال يا بني ما أغفلك عندك هذه

غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به وان قل (حكيم) يفعل بحكمته البالغة ما نستبعده العقول وتحار في فهمه ألباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه (ولو ترى) أي ولو رأيت فان لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما أن ان ترد الماضي مضارعا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار وكلمة اذ في قوله تعالى (اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) ظرف لترى والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد الى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى (يضربون وجوههم) خبره والجملة حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الاول حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما (وأدبارهم) أي وأستاههم أو ما أقبل منهم وما أدبر من الاعضاء (وذوقوا عذاب الحريق) على ارادة القول معطوفا على يضربون أو حالا من فاعله أي ويقولون أو قائلين ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن حدود البيان أي لرأيت أمرا فظيعا

القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال نهانى جبريل عليه السلام عنه قال سله عن السبب قال أنت أبسط اليه فسأله فقال جبريل عليه السلام أمرنى الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى اليه أن يدفنه فى الشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبى قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه كل أحد يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الاصلح أن يعملوا له صندوقا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه فى النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل الى مصر لتصل بركته الى كل احد وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ثم دفن يوسف هنالك الى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه (المسئلة الثانية) من فى قوله من الملك ومن تأويل الاحاديث للتبعيض لانه لم يؤت الا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل قال الاصم انما قال من الملك لانه كان دون ملك فوقه * واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة المؤثر الذى لا يتأثر وهو الاله تعالى وتقدس والمتأثر الذى لا يؤثر وهو عالم الاجسام فانها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والاعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير فى شئ أصلا وهذان القسمان متباعدان جدا ويتوسطهما قسم ثالث وهو الذى يؤثر ويتأثر وهو عالم الارواح فخاصية جوهر الارواح أنها تقبل الاثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ثم انها اذا أقبلت على عالم الاجسام تصرفت فيه وأثرت فيه فتعلق الروح بعالم الاجسام بالتصرف والتدبير فيه وتعلقه بعالم الالهيات بالعلم والمعرفة وقوله قد آتيتنى من الملك اشارة الى تعلق النفس بعالم الاجسام وقوله وعلمتنى من تأويل الاحاديث اشارة الى تعلقها بحضرة جلال الله ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين فى الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء امتنع أن يحصل منهما للانسان الا مقدار متناه فكان الحاصل فى الحقيقة بعضا من أبعاض الملك وبعضا من أبعاض العلم فلهذا السبب ذكر فيه كلمة من لانها دالة على التبعيض * ثم قال فاطر السموات والارض وفيه أبحاث (البحث الاول) فى تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة قال ابن عباس رضى الله عنهما ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم الى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها قال أهل اللغة أصل الفطر فى اللغة الشق يقال فطر ناب البعير اذا بدا وفطرت الشئ فانفطر أى شققته فانشق وتفطر الارض بالنبات والشجر بالورق اذا تصدعت هذا أصله فى اللغة ثم صار عبارة عن الايجاد لان ذلك الشئ حال عدمه كأنه فى ظلمة وخفاء فلما دخل فى الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشئ منه (البحث الثانى) أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشئ عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذى ذكرناه الا أن الحق انه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه (أحدها) أنه قال الحمد لله فاطر السموات والارض ثم بين تعالى أنه انما خلقها من الدخان حيث قال ثم استوى الى السماء وهى دخان فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد انه أحدث ذلك الشئ من العدم المحض (وثانيها) انه تعالى قال فطرة الله التى فطر الناس عليها مع انه تعالى انما خلق الناس من التراب قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (وثالثها) أن الشئ انما يكون حاصلا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز فانه انما يكون موجودا اذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودا وبايجاد تلك الصورة صار موجدا لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجدا للكوز لا يقتضى كونه موجدا لمادة الكوز فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدا للاجزاء التى منها تركبت السموات والارض وانما صار الينا كونه تعالى موجدا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن * واعلم أن قوله فاطر السموات والارض يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الارض عند من يقول الواو تفيد الترتيب ثم العقل يؤكده أيضا وذلك لان تعيين المحيط يوجب تعيين المركز أما حصول المركز وتعينه فانه لا يوجب تعين المحيط لانه يمكن أن

لايكاد يوصف (ذلك) اشارة الى ماذكر من الضرب والعذاب وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونهما فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره (بما قدمت أيديكم) أى ذلك الضرب والعذاب واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى ومحل أن فى قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أى والامر انه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه اليه اذ لولاه لامكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس بسديد لما أن امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج الى ذلك (كدأب آل فرعون) فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشئ

يحيط بالمركز الواحد محيطات لانهاية لها أما لايمكن أن يحصل للمحيط الواحد الامركز واحد فمنه وأيضا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والارض واحدة ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله الحمد لله الذي خلق السموات والارض ﴿البحث الثالث﴾ قال الزجاج نصبه من وجهين (أحدهما) على الصفة لقوله رب وهو نداء مضاف في موضع النصب (والثاني) يجوز أن ينصب على نداء ثان ثم قال أنت ولي في الدنيا والآخرة والمعنى أنت الذي تتولى اصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي وهذا يدل على أن الايمان والطاعة كله من الله تعالى اذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو وحينئذ يبطل عموم قوله أنت ولي في الدنيا والآخرة ثم قال توفني مسلما وألحقني بالصالحين وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله توفني مسلما وألحقني بالصالحين ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله الذي خلقني فهو يهدين فمن هنا الى قوله رب هب لي حكما ثناء على الله ثم قوله رب هب لي الى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا ﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا في أن قوله توفني مسلما هل هو طلب منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء يريد اذا توفيتني فتوفني على دين الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة * واعلم أن اللفظ صالح للامرين ولا يبعد في الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة (منها) أن كمال النفس الانسانية على ما بيناه في أن يكون عالما بالالهيات وفي أن يكون ملكا ومالكا متصرفا في الجسمانيات وذكرنا ان مراتب التفاوت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس الا لله وكل ما دون ذلك فهو ناقص والناقص اذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقي في القلق والم الطلب واذا كان الكمال المطلق ليس الا لله وما كان حصوله للانسان ممتنعا لزم أن يبقى الانسان أبدا في قلق الطلب وألم التعب فاذا عرف الانسان هذه الحالة عرف أنه لاسبيل له الى دفع هذا التعب عن النفس الا بالموت فحينئذ يتمنى الموت (والسبب الثاني لتمني الموت) ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا في مذمة الدنيا الا أن حاصل كلامهم يرجع الى أمور ثلاثة (أحدها) ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها (وثانيها) انها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات (وثالثها) ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل أنه لاسبيل الى تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ﴿والسبب الثالث﴾ وهو الاقوى عند المحققين رحمهم الله أجمعين ان هذه اللذات الجسمانية لاحقيقة لها وانما حاصلها دفع الآلام فلذة الاكل عبارة عن دفع ألم الجوع ولذة الوقاع عبارة عن دفع الالم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعية المني ولذة الامارة والرياسة عبارة عن دفع الالم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة واذا كان حاصل هذه اللذات ليس الا دفع الالم لاجرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الانسان الموت ليتخلص عن الاحتياج الى هذه الاحوال الخسيسة (والسبب الرابع) ان مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة الوقاع ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة * أما لذة الاكل ففيها عيوب (أحدها) ان هذه اللذات ليست قوية فان الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام (وثانيها) ان هذه اللذة لايمكن بقاؤها فان الانسان اذا أكل شبع واذا شبع

آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالاهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الامم المهلكة أي شأنهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الاخذ كدأب آل فرعون المشهورين بقباحة الاعمال وفظاعة العذاب والنكال (والذين من قبلهم) أي من قبل آل فرعون من الامم التي فعلوا من المعاصي ما فعلوا ولقوا من العقاب ما لقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأبهم الذي فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فان ذلك معلوم منه بقضية التشبيه وقوله تعالى (فأخذهم الله) تفسير لدأبهم الذي فعل بهم والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى بذنوبهم لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الاشارة الى أن لهم مع كفرهم ذنوبا أخر لها دخل في استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أي فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع ما فعلوا وفعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضي الله عنهما ان آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي الله

لم يبق شوقه للالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية (وثالثها) انها فى نفسها خسيسة فان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولاشك أنه شئ منفر مستقذر ثم لما يصل الى المعدة تظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضا منفر (ورابعها) أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها فان الروث فى مذاق الجعل كاللوزنيج فى مذاق الانسان وكما أن الانسان يكره تناول غذاء الجعل فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الانسان وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس (وخامسها) ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة والحاجة نقص وافر (وسادسها) أن الاكل يستحقر عند العقلاء قيل من كانت همته ما يدخل فى بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه فهذا هو الاشارة المختصرة فى معايب الاكل * وأما لذة النكاح فكل ماذكرناه فى الاكل حاصل ههنا مع أشياء أخرى وهى أن النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجة الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى طلب المال بطرق لانهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال * وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذى نذكره ههنا سبب واحد وهو أن كل احد يكره بالطبع أن يكون خادما مأمورا ويحب أن يكون مخدوما آمرا فاذا سعى الانسان فى أن يصير رئيسا آمرا كان ذلك دالا على مخالفة كل ما سواه فكانه ينازع كل الخلق فى ذلك وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون ابطاله ودفعه ولاشك ان كثرة الاسباب توجب قوة حصول الاثر واذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمتعذر ولو حصل فانه يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان بكل سبب من الاسباب وكان صاحبها عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها فى الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال واعلم ان العاقل اذا تأمل هذه المعانى علم قطعا انه لاصلاح له فى طلب هذه اللذات والسعى فى هذه الخيرات البتة ثم ان النفس خلقت مجبولة على طلبها والعشق الشديد عليها والرغبة التامة فى الوصول اليها وحينئذ ينعقد ههنا قياس وهو ان الانسان مادام يكون فى هذه الحياة الجسمانية فانه يكون طالبا لهذه اللذات ومادام يطلبها كان فى عين الآفات وفى لجة الحسرات وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضا مكروه فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية * والسبب فى الامور المرغبة فى الموت ان موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا يمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة أما سعادات الآخرة فهى أنواع كثيرة غير متناهية (قال الامام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه) وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه أنا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ولو فتحت الباب وبالغت فى عيوب هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وما وصلت الى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظبا فى أكثر الاوقات على ذكر هذا الذى ذكره يوسف عليه السلام وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين (المسئلة الثالثة) تمسك أصحابنا فى بيان ان الايمان من الله تعالى بقوله توفنى مسلما وتقريره ان تحصيل الاسلام وابقاءه اذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسدا وتقريره كأنه يقول افعل يامن لا يفعل والمعتزلة أبدا يشنعون علينا و يقولون اذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع انك لست فاعلا له فنحن نقول ههنا أيضا اذا كان تحصيل الايمان وابقاؤه من العبد لا من الله تعالى فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائى والكعبى معناه اطلب اللطف لى فى الاقامة على الاسلام الى أن أموت عليه فهذا الجواب ضعيف لان السؤال وقع على الاسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر وأيضا كل ما فى المقدور من الالطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالا (المسئلة الرابعة) لقائل أن يقول الانبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (والجواب) أحسن ماقيل فيه ان كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وقدره ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب فى هذا الباب وهذه الحالة

فكذبوه كذلك هؤلاء جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم اياه كما هو المعتبر فى مدلول الدأب اما لتغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصى منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى (ان الله قوى شديد العقاب) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من الاخذ وقوله تعالى (ذلك) الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفيده النظم الكريم من كون ما حل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضيه وهو المشار اليه لا نفس ما حل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فانه مع كونه معللا بما ذكر من كفرهم وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم حالهم وتوهم أن السبب ليس ماذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وابعاد عن الحق بمراحل

زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر فالمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى ﴿المسئلة الخامسة﴾ أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الانبياء عليهم السلام والصلاح أوّل درجات المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيره من المفسرين يعنى بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقنى بهم فى ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم* وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات وهو أن النفوس المفارقة اذا أشرقت بالانوار الالهية واللوامع القدسية فاذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذى فى كل واحدة منها الى الاخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة فتعظم تلك الانوار وتقوى تلك الاضواء ومثال تلك الاحوال المرايا الصقيلة الصافية اذا وضعت وضعا متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها الى الاخرى فهنالك يقوى الضوء ويكمل النور وينتهى فى الاشراق والبريق واللمعان الى حد لا تطيقه العيون والابصار الضعيفة فكذا ههنا ۞ قوله تعالى ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ اعلم ان قوله ذلك رفع بالابتداء وخبره من أنباء الغيب ونوحيه اليك خبر ثان وما كنت لديهم أى ما كنت عند اخوة يوسف اذ أجمعوا أمرهم أى عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام فى هذا اللفظ عند قوله فأجمعوا أمركم وقوله وهم يمكرون أى بيوسف واعلم ان المقصد من هذا اخبار عن الغيب فيكون معجزا بيان أنه اخبار عن الغيب ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولم يتلمذ لاحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فاتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال انه كان حاضرا معهم لابد وأن يكون معجزا وكيف لا يكون معجزا وقد سبق تقرير هذه المقدمة فى هذا الكتاب مرارا وقوله وما كنت لديهم أى وما كنت هنالك ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل أحد يعلم ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ۞ قوله تعالى ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾ اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذا ذكرها فربما آمنوا فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية وكأنه اشارة الى ما ذكره الله تعالى فى قوله انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء قال أبو بكر بن الانبارى جواب لو محذوف لان جواب لو لا يكون مقدما عليها فلا يجوز أن يقال قمت لو قمت وقال الفراء فى المصادر يقال حرص يحرص حرصا ولغة أخرى شاذة حرص يحرص حرصا ومعنى الحرص طلب الشئ بأقصى ما يمكن من الاجتهاد وقوله وما تسألهم عليه من أجر معناه ظاهر وقوله ان هو الا ذكر للعالمين أى هو تذكرة لهم فى دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ومعناه أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ثم لا تطلب منهم مالا ولا جعلا فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا وقوله تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون يعنى انه لا عجب اذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها* واعلم ان دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة وهى اما الاجرام الفلكية واما الاجرام العنصرية أما الاجرام الفلكية فهى قسمان اما الافلاك واما الكواكب أما الافلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته وقد يستدل بأحوال حركاتها اما بسبب ان حركاتها مسبوقة بالعدم فلابد من محرك قادر واما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها واما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الاجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها وتارة بألوانها وأضوائها وتارة بتأثيراتها فى حصول الاضواء والاظلال

وتهوين لامر الكفر بآيات الله واسقاط له عن رتبة ايجاب العقاب فى مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أى ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك (بان الله) أى بسبب أنه تعالى (لم يك) فى حد ذاته (مغيرا نعمة أنعمها) أى لم ينبغ له سبحانه ولم يصح فى حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها (على قوم) من الاقوام أى نعمة كانت جلت أو هانت (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الاعمال والاحوال التى كانوا عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو قريبة من الصلاح بالنسبة الى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لافاضة نعمة الامهال وسائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها الى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الامهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن حذفت النون تخفيفا لشبهها بالحروف اللينة (وأن الله سميع

والظلمات والنور وأما الدلائل المأخوذة من الاجرام العنصرية فاما ان تكون مأخوذة من بسائط وهى عجائب البر والبحر واما من المواليد وهى أقسام (أحدها) الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح (وثانيها) المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها (وثالثها) النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة (ورابعها) اختلاف أحوال الحيوانات فى اشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها (وخامسها) تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الانسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل ومن هذا الباب أيضا قصص الاولين وحكايات الاقدمين وان الملوك الذين استولوا على الارض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر ثم بقى الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوى على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الاعلى والعالم الاسفل والعقل البشرى لا يفى بالاحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الابهام قال صاحب الكشاف قرئ والارض بالرفع على انه مبتدأ ويمرون عليها خبره وقرأ السدى والارض بالنصب على تقدير أن يفسر قوله يمرون عليها بقولنا يطوفونها وفى مصحف عبد الله والارض يمشون عليها برفع الارض أما قوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون فالمعنى انهم كانوا مقرين بوجود الاله بدليل قوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله الا انهم كانوا يثبتون له شريكا فى المعبودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضا انه قال نزلت هذه الآية فى تلبية مشركى العرب لانهم كانوا يقولون لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وعنه أيضا ان أهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده ولا شريك معه واحتجت الكرامية بهذه الآية على ان الايمان عبارة عن الاقرار باللسان فقط لانه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع انهم مشركون وذلك يدل على ان الايمان عبارة عن مجرد الاقرار باللسان وجوابه معلوم اما قوله أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أى عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم أو تأتيهم الساعة بغتة أى فجأة وبغتة نصب على الحال يقال بغتهم الامر بغتا وبغتة اذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله وهم لا يشعرون كالتأكيد لقوله بغتة ﴿ قوله تعالى ﴿قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ قال المفسرون قل يا محمد لهم هذه الدعوة التى أدعوا اليها والطريقة التى أنا عليها سبيلى وسنتى ومنهاجى وسمى الدين سبيلا لانه الطريق الذى يؤدى الى الثواب ومثله قوله تعالى ادع الى سبيل ربك واعلم ان السبيل فى أصل اللغة الطريق وشبهوا المعتقدات بها لان الانسان يمر عليها الى الجنة أدعوا الى الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعنى الى سيرتى وطريقتى وسيرة أتباعى الدعوة الى الله لان كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه الى الله وهذا يدل على ان الدعاء الى الله تعالى انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين فان لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم اليه وقيل أيضا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله ادعوا الى الله ثم ابتدأ وقال على بصيرة أنا ومن اتبعنى وقوله وسبحان الله عطف على قوله هذه سبيلى أى قل هذه سبيلى وقل سبحان الله تنزيها لله عما يشركون وما أنا من المشركين الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا وكفؤا وولدا وهذه الآية تدل على ان حرفة الكلام وعلم الاصول حرفة الانبياء عليهم السلام وان الله ما بعثهم الى الخلق الا لاجلها ﴿ قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ اعلم انه قرأ حفص عن عاصم نوحى بالنون والباقون

عليم) عطف على أن الله الخ داخل معه فى حيز التعليل أى وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الاقوال والافعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من ابقاء النعمة وتغييرها وقرئ وان الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ما قبلها وقوله تعالى (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا كائنا كدأب آل فرعون أى كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الانسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى (كذبوا بآيات ربهم) تفسير له بتمامه وقوله تعالى (فأهلكناهم) اخبار بترتب العقوبة عليه لأنه من تمام تفسيره ولا ضير فى توسط قوله تعالى وأن الله سميع عليم بينهما كما مر نظيره فى سورة آل عمران حيث جوزوا انتصاب محل الكاف بأن تغنى مع ما بينهما من قوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا على تقدير عطف الجملة على ما قبلها وأما على تقدير كونها اعتراضا فلا غبار فى توسطها قطعا وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قوله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ما سيق له الاستئناف الاول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين

بالياء أفلا يعقلون قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورواية حفص عن عاصم تعقلون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغائب واعلم ان من جملة شبه منكري نبوّته عليه الصلاة والسلام ان الله لو أراد ارسال رسول لبعث ملكا فقال تعالى وما أرسلنا من قبلك الارجالا نوحي اليهم من أهل القرى فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا في حقك يا محمد والآية تدل على أن الله ما بعث رسولا الى الخلق من النسوان وأيضا لم يبعث رسولا من أهل البادية قال عليه الصلاة والسلام من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ثم قال أفلم يسيروا في الارض فينظروا الى مصارع الامم المكذبة وقوله ولدار الآخرة خير والمعنى دار الحالة الآخرة لان للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ومثله قوله صلاة الاولى أي صلاة الفريضة الاولى وأما بيان ان الآخرة خير من الاولى فقد ذكرناه لا ثله مرارا ۞ قوله تعالى ﴿حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف وكسر الذال والباقون بالتشديد ومعنى التخفيف من وجهين (أحدهما) ان الظن واقع بالقوم أي حتى اذا استيأس الرسل من ايمان القوم فظن القوم ان الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر فان قيل لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم قلنا ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فيكون الضمير عائدا الى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان (والوجه الثاني) أن يكون المعنى ان الرسل ظنوا انهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا وانما كان الامر كذلك لاجل ضعف البشرية الا انه بعيد لان المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الايمان فكيف يجوز مثله على الرسل وأما قراءة التشديد ففيها وجهان (الاوّل) أن الظن بمعنى اليقين أي وأيقنوا ان الامم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الايمان بعد ذلك فحينئذ دعوا عليهم فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم أي يتيقنون ذلك (والثاني) أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم فظن الرسل ان الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية روى ان ابن أبي مليكة نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال وظن الرسل أنهم كذبوا لانهم كانوا بشرا ألا ترى الى قوله حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فانكرته وقالت ما وعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ الا وقد علم انه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالانبياء حتى خافوا من ان يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة وأما قوله جاءهم نصرنا أي لما بلغ الحال الى الحد المذكور جاءهم نصرنا فنجي من نشاء قرأ عاصم وابن عامر فنجي من نشاء بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله واختاره أبو عبيدة لانه في المصحف بنون واحدة وروى عن الكسائي ادغام احدى النونين في الاخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء قال بعضهم هذا خطأ لان النون متحركة فلا تدغم في الساكن ولا يجوز ادغام النون في الجيم والباقون بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء على الاستقبال على معنى ونحن نفعل بهم ذلك واعلم ان هذا حكاية حال ألا ترى ان القصة فيما مضى وانما حكى فعل الحال كما ان قوله هذا من شيعته وهذا من عدوه اشارة الى الحاضر والقصة ماضية ۞ قوله تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ اعلم ان الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم الى الطرف المجهول والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بقصصهم أمور (الاوّل) ان الذي قدر على اعزاز يوسف بعد القائه في الجب واعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد ان كانوا يظنون به انه عبد لهم وجمعه مع والديه واخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة لقادر على اعزاز محمد

لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب في الجانبين عبارة عما يلازم معناه الاول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا مما نطق به قوله تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة الآية أي دأب هؤلاء وشأنهم الذي هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فأهلكناهم تفسير لدأبهم الذي فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته وأما دأب قريش فيستفاد منه بحكم التشبيه فلله در شأن التنزيل حيث اكتفى في كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين واضافة الآيات الى الرب المضاف الى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها من التكذيب والالتفات الى نون العظمة في أهلكنا جريا على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام في الفاء وفي قوله تعالى (بذنوبهم) كالذي مر وعطف قوله تعالى (وأغرقنا آل فرعون) على أهلكنا مع اندراجه تحته للايذان بكمال هول الاغراق وفظاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة (وكل) أي وكل من الفرق المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أي أنفسهم بالكفر والمعاصي حيث

صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته (الثانى) ان الاخبار عنه جار مجرى الاخبار عن الغيب فيكون معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (الثالث) أنه ذكر فى أوّل السورة نحن نقص عليك أحسن القصص ثم ذكر فى آخرها لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب تنبيها على ان حسن هذه القصة انما كان بسبب انه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام واخوته وابيه ومن الناس من قال المراد قصص الرسل لانه تقدم فى القرآن ذكر قصص سائر الرسل الا ان الاولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام * فان قيل لم قال عبرة لاولى الالباب مع ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوى عقول وأحلام وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك *قلنا ان جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل أونقول المراد من أولى الالباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها لان أولى الالباب لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق الا بما ذكرناه *واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات (الصفة الاولى) كونها عبرة لاولى الالباب وقد سبق تقريره (الصفة الثانية) قوله ما كان حديثا يفترى وفيه قولان (الاول) ان المراد الذى جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفترى لانه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت (والثانى) ان المراد انه ليس بكذب فى نفسه لانه لا يصح الكذب منه ثم انه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال ولكن تصديق الذى بين يديه وهو اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة وسائر الكتب الالهية ونصب تصديقا على تقدير ولكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله قاله الفراء والزجاج ثم قال ويجوز رفعه فى قياس النحو على معنى ولكن هو تصديق الذى بين يديه (والصفة الثالثة) قوله وتفصيل كل شئ وفيه قولان (الاوّل) المراد وتفصيل كل شئ من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه واخوته (والثانى) انه عائد الى كل القرآن كقوله ما فرطنا فى الكتاب من شئ فان جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن أليق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ويكون المراد ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين قال الواحدى على التفسيرين جميعا فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله ورحمتى وسعت كل شئ يريد كل شئ يجوز أن يدخل فيها وقوله وأوتيت من كل شئ (الصفة الرابعة والخامسة) كونها هدى فى الدنيا وسببا لحصول الرحمة فى القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه فى قوله هدى للمتقين والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب (قال المصنف رحمه الله تعالى) تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الاربعاء السابع من شعبان ختم بالخير والرضوان سنة احدى وستمائة وقد كنت ضيق الصدر جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والاحسان وذكرت هذه الابيات فى مرثيته على سبيل الايجاز

فلو كانت الاقدار منقادة لنا * فديناك من حماك بالروح والجسم
ولو كانت الاملاك تأخذ رشوة * خضعنا لها بارق فى الحكم والاسم
ولكنه حكم اذا حان حينه * سرى من مقر العرش فى لجة اليم
سأبكى عليك العمر بالدم دائما * ولم أنحرف عن ذاك فى الكيف والكم
سلام على قبر دفنت بتربه * وأتحفك الرحمن بالكرم الجم
وما صدنى عن جعل جفنى مدفنا * لجسمك الا انه أبدا يهمى
وأقسم ان مسوا رفاتى ورمتى * أحسوا بنار الحزن فى مكمن العظم
حياتى وموتى واحد بعد بعدكم * بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بما أمضى الاله بحكمه * لعلمى بانى لا يجاوزنى حكمى

عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الايمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم (ان شر الدواب) بعد ما شرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع فى بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم وقوله تعالى (عند الله) أى فى حكمه وقضائه (الذين كفروا) أى أصروا على الكفر ولجوا فيه جملوا شر الدواب لا شر الناس ايماء الى أنهم بمعزل من مجانستهم وانما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل وقوله تعالى (فهم لا يؤمنون) حكم مترتب على تماديهم فى الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جئ به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه فى حيز الصلة التى لا حكم فيها بالفعل وقوله تعالى (الذين عاهدت منهم) بدل من الموصول الاوّل أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للايذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن اعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم اذ هو المناط لقباحة ما نعى عليهم من النقض لا اعطاؤه عليه الصلاة والسلام اياهم عهده كانه قيل الذين أخذت منهم

وانا

وأنا أوصي من طالع كتابي واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدي ويخصني بقراءة الفاتحة ويدعو لمن قد مات في غربة بعيدا عن الاخوان والاب والام بالرحمة والمغفرة فاني كنت أيضا كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقي وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا آمين والحمد لله رب العالمين

﴿سورة الرعد أربعون وثلاث آيات مكية﴾

سوى قوله تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة وقوله ومن عنده علم الكتاب
قال الاصم هي مدنية بالاجماع سوى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال

﴿بسم الله الرحمن الرحيم المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ اعلم انا قد تكلمنا في هذه الالفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه انا الله أعلم وقال في رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن وقد أمالها أبو عمرو والكسائي وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله تلك اشارة الى آيات السورة المسماة بالمر ثم قال انها آيات الكتاب وهذا الكتاب الذي أعطاه محمدا أن ينزله عليه ويجعله باقيا على وجه الدهر وقوله والذي أنزل اليك من ربك مبتدأ وقوله الحق خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية في نفي القياس فقال الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله والا لكان من لم يحكم به كافرا لقوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وبالاجماع لا يكفر فثبت ان الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله واذا كان كذلك وجب ان لا يكون حقا لاجل ان قوله والذي أنزل اليك من ربك الحق يقتضي انه لا حق الا ما أنزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب أن لا يكون حقا واذا لم يكن حقا وجب أن يكون باطلا لقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال ومثبتوا القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضا من عند الله لانه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذي دل عليه القياس نازلا من عند الله ولما ذكر تعالى ان المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين ان أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد ﴿قوله تعالى﴾ ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر ان أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف الله مبتدأ والذي رفع السموات خبره بدليل قوله وهو الذي مد الارض ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله يدبر الامر يفصل الآيات خبرا بعد خبر وقال الواحدي العمد الاساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل اهاب وأهب وقال الفراء العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وأدم وأدم وقضيم وقضم وقضم والعماد والعمود ما يعمد به الشئ ومنه يقال فلان عمد قومه اذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الارض وبأحوال النبات أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى ان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذواتها لوجهين (الاول) ان الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز (والثاني) أن الخلاء لا نهاية له والاحياز المفترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصوله في جميع الاحياز ضرورة ان الاحياز بأسرها متشابهة فثبت ان حصول الاجرام الفلكية في احيازها وجهاتها ليس أمرا واجبا لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح ولا يجوز أن يقال انها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها والا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور الى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن بقاء الاجرام الفلكية في احيازها العالية لاجل ان مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر ويدل أيضا على

عهدهم وقيل هي للتبعيض لان المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم (ثم ينقضون عهدهم) عطف على عاهدت داخل معه في حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته في كل حال أي ينقضون عهدهم الذي أخذته منهم (في كل مرة) أي من مرات المعاهدة أي التي يتوقع فيها عدم النقض ويستقبح وجوده لا من مرات المحاربة كما قيل اذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور أصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا فائدة في تقييد النقض بالوقوع في كل مرة من مراتها بل لا صحة له قطعا لان النقض لا يتحقق الا في المرة الواردة على المعاهدة لا في المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هي المرات الواقعة اثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لان المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الامر الى أن يقال ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات محاربة الاعداء مع كونه في غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان (وهم لا يتقون) حال

ان الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز لانه لو كان حاصلا في حيز معين لامتنع أن يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا ان الاحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله في حيز معين لذاته فلابد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لاتنفك عن ذلك الاختصاص وما لايخلو عن الحادث فهو حادث فثبت أنه لو كان حاصلا في الحيز المعين لكان حادثا وذلك محال فثبت انه تعالى متعال عن الحيز والجهة وأيضا كل ما سماك فهو سماء فلو كان تعالى موجودا في جهة فوق جهة الكان من جملة السموات فدخل تحت قوله الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها فكل ما كان مختصا بجهة فوق جهة فهو محتاج الى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق ﴿ أما قوله ترونها ففيه أقوال (الاول) انه كلام مستأنف والمعنى رفع السموات بغير عمد ثم قال ترونها أي وأنتم ترونها أي مرفوعة بلا عماد (الثاني) قال الحسن في تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره رفع السموات ترونها بغير عمد واعلم انه اذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير الى التقديم والتأخير غير جائز (والثالث) أن قوله ترونها صفة للعمد والمعنى بغير عمد مرئية أي للسموات عمد ولكنا لانراها قالوا ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لاترونها وهذا التأويل في غاية السقوط لانه تعالى انما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الاله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجة لانه يقال ان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأي دلالة لثبوتها على وجود الاله وعندي فيه وجه آخر أحسن من الكل وهو ان العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على ان هذه الاجسام انما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج أن يقال انه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة الا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وابقاؤه اياها في الجو العالي وأنهم لايرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك ﴿ وأما قوله ثم استوى على العرش فاعلم انه ليس المراد منه كونه مستقرا على العرش لان المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشئ مشاهدا معلوما وان أحدا ما رأى انه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضا بتقدير أن يشاهد كونه مستقرا على العرش الا أن ذلك لايشعر بكمال حاله وغاية جلاله بل يدل على احتياجه الى المكان والحيز وأيضا فهذا يدل على انه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة وذلك يوجب التغير وأيضا الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على انه كان معوجا مضطربا ثم صار مستويا وكل ذلك على الله محال فثبت ان المراد استواؤه على عالم الاجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني ان من فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج اليه ﴿ وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر فهو قوله سبحانه وتعالى وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى (واعلم) ان هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة (الاول) قوله وسخر الشمس والقمر وحاصله يرجع الى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الاجرام وذلك لان الاجسام متماثلة فهذه الاجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لابد له من مخصص وأيضا ان كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلابد أيضا من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الاحياز وتسكن في البعض فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لابد فيه أيضا من مرجح (الوجه الثالث) وهو ان تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلابد من مقدر (والوجه الرابع) أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة الى الشمال وبعضها مائلة الى الجنوب وهذا أيضا لايتم الا بتدبير كامل وحكمة بالغة (النوع الثاني) من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله كل يجري لاجل مسمى وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى

(فاما تثقفنهم) شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فاذا كان حالهم كما ذكر فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (في الحرب) أي في تضاعيفها (فشرد بهم) أي ففرق عن مناصبك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب ما يوجب ان تنكل (من خلفهم) أي من وراءهم من الكفرة وفيه ايماء الى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرئ شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرئ من خلفهم أي افعل التشريد من ورائهم والمعنى واحد لان ايقاع التشريد في الوراء لايتحقق الا بتشريد من وراءهم (لعلهم يذكرون) يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر وقوله تعالى (واما تخافن من قوم خيانة) بيان لاحكام المشرفين الى نقض العهد اثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أي واما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض

واحد منها فى سنة أشهرا أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله كل يجرى لاجل مسمى هذا وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء ومتى كان الامر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك (والقول الثانى) أن المراد كونهما متحركين الى يوم القيامة وعند مجىء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك فى قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وجمع الشمس والقمر وهو كقوله سبحانه وتعالى ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال يدبر الامر وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والاولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالايجاد والاعدام وبالاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من أعلى العرش الى ماتحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله تعالى والدليل المذكور دل على ان اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شئ فانه لا يمكنه تدبير شئ آخر الا البارى سبحانه وتعالى فانه لا يشغله شان عن شان أما العاقل فانه اذا تأمل فى هذه الآية علم انه تعالى يدبر عالم الاجسام وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شان عن شان ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على انه تعالى فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه المحدثات والممكنات * ثم قال يفصل الآيات وفيه قولان (الاول) أنه تعالى بين الآيات الدالة على الهيته وعلمه وحكمته (والثانى) ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان (أحدهما) الموجودات الباقية الدائمة كالافلاك والشمس والقمر والكواكب وهذا النوع من الدلائل هو الذى تقدم ذكره (والثانى) الموجودات الحادثة المتغيرة وهى الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والهرم بعد الصحة وكون الاحمق فى أهنا العيش والعاقل الذكى فى أشد الاحوال فهذا النوع من الموجودات والاحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة * وقوله يفصل الآيات اشارة الى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل * ثم قال لعلكم بلقاء ربكم توقنون واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهى أيضا تدل على صحة القول بالحشر والنشر لان من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى * يروى أن رجلا قال لعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية فى الجو العالى وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ماتحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ومن الاصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى وقد مر تقريره فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا ﴿ قوله تعالى ﴿ وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ اعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض * واعلم أن الاستدلال بخلقة الارض وأحوالها من وجوه (الاول) أن الشئ اذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار مدة فقوله وهو الذى مد الارض اشارة الى أن الله سبحانه هو الذى جعل الارض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص والدليل عليه أن كون الارض أزيد مقدارا مما هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن فى نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر (الثانى) قال أبو بكر الاصم المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه فقوله وهو الذى مد الارض يشعر بأنه تعالى جعل حجم الارض حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاه لان الارض لو كانت أصغر حجما مما هى الآن عليه لما كمل الانتفاع به

(فانبذ اليهم) أى فاطرح اليهم عهدهم (على سواء) على طريق مستو قصد بأن تظاهرهم بالنقض وتخبرهم اخبارا مكشوفا بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كى لا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أى فانبذ اليهم ثابتا على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الاول حال من المنبوذ اليهم وعلى الثانى من الجانبين (ان الله لا يحب الخائنين) تعليل للامر بالنبذ اما باعتبار استلزامه النهى عن المناجزة التى هى خيانة فيكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها واما باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فيكون حثا له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانيا كأنه قيل واما تعلمن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قاتلهم ان الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم (ولا يحسبن الذين كفروا) أى أنفسهم حذف للتكرار وقوله تعالى (سبقوا) أى فاتوا وافلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثان ليحسبن والمراد اقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضا مما تتعلق به

(والثالث) قال قوم كانت الارض مدورة فمدها ودحاها من مكة من تحت البيت فذهبت كذا وكذا وقال آخرون كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها اذهبي كذا وكذا اعلم أن هذا القول انما يتم اذا قلنا الارض مسطحة لا كرة وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله والارض بعد ذلك دحاها وهذا القول مشكل من وجهين (الاول) انه ثبت بالدلائل ان الارض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه فان قالوا وقوله مد الارض ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدها قلنا لا نسلم أن الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل الا في علم الله ألا ترى أنه قال والجبال أوتادا فجعلها أوتادا مع ان العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا (والثاني) ان هذه الآية انما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع والشرط فيه أن يكون ذلك أمرا مشاهدا معلوما حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع فثبت أن التأويل الحق هو ما ذكرناه (والنوع الثاني) من الدلائل الاستدلال بأحوال الجبال واليه الاشارة بقوله وجعل فيها رواسي من فوقها ثابتة باقية في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها يقال رسا هذا الوتد وأرسيته والمراد ما ذكرناه واعلم أن الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه (الاول) ان طبيعة الارض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قالت الفلاسفة هذه الجبال انما تولدت لان البحار كانت في هذا الجانب من العالم فكانت تتولد في البحر طينا لزجا ثم يقوى تأثير الشمس فيها فينقلب حجرا كما يشاهد في كوز الفقاع ثم ان الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا وانما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لان أوج الشمس وحضيضها متحركان ففي الدهر الاقدم كان حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت أقرب الى الارض فكان التسخين أقوى وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال والآن لما انتقل الاوج الى جانب الشمال والحضيض الى جانب الجنوب انتقلت البحار الى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب وهو ضعيف من وجوه (الاول) ان حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلم حصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض (والثاني) وهو انا نشاهد في بعض الجبال كان تلك الاحجار موضوعة سافا فسافا فكان البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه (والثالث) أن أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل أوج الشمس الى الجانب الشمالي مضى قريب من تسعة آلاف سنة وبهذا المقدر أن الجبال في هذه المدة الطويلة كانت في التفتت فوجب أن لا يبقى من الاحجار شيء لكن ليس الامر كذلك فعلمنا أن السبب الذي ذكروه ضعيف (والوجه الثاني) من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذي الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والاملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت فكون الارض واحدة في الطبيعة وكون الجبل واحدا في الطبع وكون تأثير الشمس واحدا في الكل يدل دليلا ظاهرا على أن الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات (والوجه الثالث) من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الانهار على وجه الارض وذلك أن الحجر جسم صلب فاذا تصاعدت الابخرة من قعر الارض ووصلت الى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة ثم انها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الارض فمنفعة الجبال في تولد الانهار هو من هذا الوجه ولهذا السبب ففي أكثر الامر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الانهار مثل ما في هذه الآية ومثل قوله وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا (والنوع الثالث) من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقة النبات واليه

أمانيهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله وهمهم وحسبانهم وانما الذي يمكن أن يدور في خلدهم حسبان المناص فقط وقيل الفعل مسند الى أحد أو الى من خلفهم والمفعول الاول الموصول المتناول لهم أيضا وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهي مع ما في حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعضده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره في الحذف قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفا وقوله تعالى أفغير الله تأمروني أعبد الآية قاله الزجاج وقرئ بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة واضحة وقرئ ولا تحسب الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى (انهم لا يعجزون) أي لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم تعليل للنهي على طريقة الاستئناف وقرئ بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لازاحة ما عسى يحذر من عاقبة النبذ لما انه ايقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدي المؤمنين وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير اليه وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين

الاشارة بقوله ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين وفيه مسائل (المسألة الاولى) ان الحبة اذا وضعت في الارض وأثرت فيها نداوة الارض ربت وكبرت وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من الشق الاعلى الشجرة الصاعدة في الهواء ويخرج من الشق الاسفل العروق الغائصة في أسفل الارض وهذا من العجائب لان طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والافلاك والكواكب فيها واحد ثم انه خرج من الجانب الاعلى من تلك الحبة جرم صاعد الى الهواء ومن الجانب الاسفل منه جرم غائص في الارض ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان فعلمنا أن ذلك انما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية ثم ان الشجرة النابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشبا وبعضها يكون نورا وبعضها يكون ثمرة ثم ان تلك الثمرة أيضا يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع فالجوزله أربعة أنواع من القشور فالقشر الاعلى وتحته القشرة الخشبية وتحته القشرة المحيطة باللب وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبا وأيضا فقد يحصل في الثمرة الواحدة الطباع المختلفة فالاترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان فتولد هذه الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع وتأثيرات الانجم والافلاك لابد وأن يكون لاجل تدبير الحكيم القادر القديم (المسألة الثانية) المراد بزوجين اثنين صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو الطبيعة كالحار والبارد أو اللون كالابيض والاسود فان قيل الزوجان لابد وأن يكونا اثنين فما الفائدة في قوله زوجين اثنين قلنا قيل انه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص أما لما قال اثنين علمنا أن الله تعالى أول ما خلق خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد والحاصل ان الناس فيهم الآن كثرة الا أنهم لما ابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء فكذلك القول في جميع الاشجار والزرع والله أعلم (النوع الرابع) من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار واليه الاشارة بقوله يغشي الليل النهار والمقصود أن الانعام لا يكمل الا بالليل والنهار وتعاقبهما كما قال فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ومنه قوله يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا وقد سبق الاستقصاء في تقريره فيما سلف من هذا الكتاب قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم يغشي بالتشديد وفتح الغين والباقون بالتخفيف ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة قال ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون واعلم أنه تعالى في أكثر الامر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون أو ما يقرب منه بحسب المعنى والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلي الى الاختلافات الواقعة في الاشكال الكوكبية فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود فلهذا المعنى قال ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون كانه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد ولابد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال * واعلم أن الجواب عن هذا السؤال من وجهين (الاول) أن نقول هب أنكم أسندتم حوادث العالم السفلي الى الاحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية الا انا أقمنا الدليل القاطع على ان اختصاص كل واحد من الاجرام الفلكية وطبعه ووضعه وخاصيته لابد وأن يكون بتخصيص المقدر القديم والمدبر الحكيم فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى في هذا المقام لانه تعالى ابتدأ بذكر الدلائل السماوية وقد بينا أنها كيف تدل على وجود الصانع ثم انه تعالى أتبعها بالدلائل الارضية فان قال قائل لم لا يجوز أن تكون هذه الحوادث الارضية لاجل الاحوال الفلكية كان جوابنا أن نقول فهب ان الامر كذلك الا أنا دللنا فيما تقدم على افتقار الاجرام الفلكية الى الصانع الحكيم فحينئذ لا يكون هذا السؤال قادحا في غرضنا (والوجه الثاني من الجواب) أن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث السفلية لاجل الاتصالات الفلكية وذلك هو المذكور في الآية التي تأتي بعد هذه الآية ومن

وقرئ لا يعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد (وأعدوا لهم) توجيه الخطاب الى كافة المؤمنين لما أن المأمور به من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون ما في حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أي أعدوا لقتال الذين نبذ اليهم العهد وهيؤا لحرابهم أو لقتال الكفار على الاطلاق وهو الانسب بسياق النظم الكريم (ما استطعتم من قوة) من كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر ألا ان القوة الرمي قالها ثلاثا ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالذكر لانافته عن نظائره من القوى (ومن رباط الخيل) الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هي به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرئ ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للايذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة (ترهبون به) أي تخوفون وقرئ ترهبون بالتشديد وقرئ تخزون به والضمير لما استطعتم أو للاعداد وهو الانسب

تنزيهها عن مبادي الاعراض ويجب حملها على نهايات الاعراض فان الانسان اذا تعجب من الشئ أنكره فكان هذا محمولا على الانكار (المسئلة الثالثة) اختلف القراء في قوله أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد وأمثاله اذا كان على صورة الاستفهام في الاول والثاني فمنهم من يجمع بين الاستفهامين في الحرفين وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة الا أنه لا يمد وأبو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها وحمزة وعاصم بهمزتين في كل القرآن ومنهم من لا يجمع بين الاستفهامين ثم اختلفوا فنافع وابن عامر والكسائي يستفهم في الاول ويقرأ على الخبر في الثاني وابن عامر على الخبر في الاول والاستفهام في الثاني ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائي بهمزتين أما نافع فكذلك الا في الصافات وكذلك ابن عامر الا في الواقعة وكذلك الكسائي الا في العنكبوت والصافات (المسئلة الرابعة) قال الزجاج العامل في أئذا كنا ترابا محذوف تقديره أئذا كنا ترابا نبعث ودل ما بعده على المحذوف * قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب) اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن فيه واظهار ان الذي يقوله كلام لا أصل له فلهذا السبب حكى الله عنهم أنهم يستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة والمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم في قوله فأمطر علينا حجارة وفي قوله لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وانما قالوا ذلك طعنا منهم فيما ذكره الرسول وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الايمان بالثواب في الآخرة وبحصول النصر والظفر في الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ومنهم من فسر الحسنة ههنا بالامهال والتأخير وانما سموا العذاب سيئة لانه يسوءهم ويؤذيهم * أما قوله وقد خلت من قبلهم المثلات فاعلم ان العرب يقولون العقوبة مثلة ومثلة مثل صدقة وصدقة فالاولى لغة الحجاز والثانية لغة تميم فمن قال مثلة فجمعه مثلات ومن قال مثلة فجمعه مثلات ومثلات باسكان الثاء هكذا حكاه الواحدي عن الفراء والزجاج وقال ابن الانباري رحمه الله المثلة العقوبة المبينة في المعاقب شيأ وهو تغيير تبقى الصورة معه قبيحة وهو من قولهم مثل فلان بفلان اذا قبح صورته اما بقطع أذنه وأنفه أو سمل عينه أو بقر بطنه فهذا هو الاصل ثم يقال للعار الباقي والخزي اللازم مثلة قال الواحدي وأصل هذا الحرف من المثل الذي هو الشبه ولما كان الاصل أن يكون العقاب مشابها للمعاقب ومماثلا له لا جرم سمي بهذا الاسم قال صاحب الكشاف قرئ المثلات بضمتين لاتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية ويستعجلونك بالعذاب الذي لم نعاجلهم به وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالامم الخالية فلم يعتبروا بها وكان ينبغي أن يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتبارا بحال من سلف * أما قوله وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم فاعلم ان أصحابنا تمسكوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ووجه الاستدلال به ان قوله لذو مغفرة للناس على ظلمهم أي حال اشتغالهم بالظلم كما انه يقال رأيت الامير على أكله أي حال اشتغاله بالاكل فهذا يقتضي كونه تعالى غافرا للناس حال اشتغالهم بالظلم ومعلوم أن حال اشتغال الانسان بالظلم لا يكون تائبا فدل هذا على انه تعالى قد يغفر الذنب قبل الاشتغال بالتوبة ثم نقول ترك العمل بهذا الدليل في حق الكفرة فوجب أن يبقى معمولا به في حق أهل الكبيرة وهو المطلوب أو نقول انه تعالى لم يقتصر على قوله وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم بل ذكر معه قوله وان ربك لشديد العقاب فوجب أن يحمل الاول على أصحاب الكبائر وان يحمل الثاني على أحوال الكفار * فان قيل لم

ما بينهم (ما ألفت بين قلوبهم) استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة المطلب وصعوبة المأخذ أي تناهى التعادي فيما بينهم الى حد لو أنفق منفق في اصلاح ذات البين جميع ما في الارض من الاموال والذخائر لم يقدر على التأليف والاصلاح وذكر القلوب للاشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وان أمكن التأليف ظاهرا (ولكن الله ألف بينهم) قلبا وقالبا بقدرته الباهرة (انه عزيز) كامل القدرة والغلبة لا يستعصي عليه شئ مما يريده (حكيم) يعلم كيفية تسخير ما يريده وقيل الآية في الأوس والخزرج كان بينهم احن لا أمد لها ووقائع أفنت ساداتهم وأعاظمهم ودقت أعناقهم وجماجمهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالاسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصارا (يا أيها النبي) شروع في بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام في جميع أموره وأمور المؤمنين أو في الامور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة اثر بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام في مادة خاصة وتصدير الجملة بحرف النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء

لا

لايجوز أن يكون المراد لذو مغفرة لاهل الصغائر لاجل ان عقوبتهم مكفرة ثم نقول لم لايجوز أن يكون المراد ان ربك لذو مغفرة اذا تابوا وانه تعالى انما لايعجل العقاب امهالا لهم فى الاتيان بالتوبة فان تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب الى الآخرة بل نقول يجب حمل اللفظ عليه لان القوم لما طلبوا تعجيل العقاب فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولا على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول لم لايجوز أن يكون المراد وان ربك لذو مغفرة انه تعالى انما لايعجل العقوبة امهالا لهم فى الاتيان بالتوبة فان تابوا فهو ذو مغفرة وان عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب (والجواب) عن الاول أن تأخير العقاب لايسمى مغفرة والا لوجب أن يقال الكفار كلهم مغفور لهم لاجل أن الله تعالى أخر عقابهم الى الآخرة وعن الثانى انه تعالى تمدح بهذا والتمدح انما يحصل بالتفضل أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث انا بينا ان ظاهر الآية يقتضى حصول المغفرة حال الظلم وبينا ان حال حصول الظلم يمتنع حصول التوبة فسقطت هذه الاسئلة وصح ماذكرناه ﴿ قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار انهم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ماينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بان طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى هذه الآية * واعلم أن السبب فيه انهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لايكون معجزا البتة وانما المعجز مايكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام * واعلم أن من الناس من زعم انه لم يظهر معجز فى صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن قالوا ان هذا الكلام انما يصح اذا طعنوا فى كون القرآن معجزا مع انه ماظهر عليه نوع آخر من المعجزات لان بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا لولا أنزل عليه آية من ربه فهذا يدل على انه عليه الصلاة والسلام ما كان له معجز سوى القرآن * واعلم أن الجواب عنه من وجهين (الاول) لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التى شاهدوها منه صلى الله عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه واشباع الخلق الكثير من الطعام القليل فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الامور مثل فلق البحر وقلب العصا ثعبانا * فان قيل فما السبب فى ان الله تعالى منعهم وما أعطاهم * قلنا انه تعالى لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقى تحكما وظهور القرآن معجزة فما كان مع ذلك حاجة الى سائر المعجزات وأيضا فلعله تعالى علم انهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم وقد بين الله تعالى ذلك بقوله ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون بين انه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى انهم لاينتفعون به وأيضا ففتح هذا الباب يفضى الى مالانهاية له وهو انه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر فطلب منه معجزة أخرى وذلك يوجب سقوط دعوة الانبياء عليهم السلام وانه باطل (الوجه الثانى فى الجواب) لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات * ثم انه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال انما أنت منذر ولكل قوم هاد وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اتفق القراء على التنوين فى قوله هاد وحذف الياء فى الوصل واختلفوا فى الوقف فقرأ ابن كثير بالوقف على الياء والباقون بغير الياء وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف ﴿المسألة الثانية﴾ فى تفسير هذه الآية وجوه (الاول) المراد ان الرسول عليه الصلاة والسلام منذر لقومه مبين لهم ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع وانه تعالى سوى بين الكل فى اظهار المعجزة الا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لاجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة فلما كان الغالب فى زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ماهو أقرب الى طريقتهم ولما كان الغالب فى أيام عيسى عليه السلام الطب جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ولما كان الغالب فى

بخصوصها وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للاشعار بعليتها للحكم (حسبك الله) أى كافيك فى جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحراب (ومن اتبعك من المؤمنين) فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال

فحسبك والضحاك سيف مهند

وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافيهم أو فى محل الرفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال وقيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضى الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى اسلام عمر رضى الله عنه (يا أيها النبى) بعدما بين كفايته اياهم بالنصر والامداد أمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادى نصره وامداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لاظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به (حرض المؤمنين على القتال) أى بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الامور المرغبة التى أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم واصل التحريض الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت

تأمل فى هذه اللطائف ووقف عليها علم أن هذا الكتاب اشتمل على علوم الاولين والآخرين ﴿ قوله تعالى ﴿وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن المقصود من هذه الآية اقامة الدلالة على انه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث فى هذا العالم لاجل الاتصالات الفلكية والحركات الكوكبية وتقريره من وجهين (الاول) أنه حصل فى الارض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهى مع ذلك متجاورة فبعضها تكون سبخة وبعضها تكون رخوة وبعضها تكون صلبة وبعضها تكون منبتة وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طينا لزجا ثم انها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب فى تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها فى صفاتها بتقدير العليم القدير (والثانى) أن القطعة الواحدة من الارض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويا ثم ان تلك الثمار تجيء مختلفة فى الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى انك قد تأخذ عنقودا من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة الا حبة واحدة فانها بقيت حامضة يابسة ونحن نعلم بالضرورة ان نسبة الطباع والافلاك للكل على السوية بل نقول ههنا ما هو أعجب منه وهو أنه يوجد فى بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه فى غاية الحمرة والوجه الثانى فى غاية السواد مع ان ذلك الورد يكون فى غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال وصل تأثير الشمس الى أحد طرفيه دون الثانى وهذا يدل دلالة قطعية على ان الكل بتدبير الفاعل المختار لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل فهذا تمام الكلام فى تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فان هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر وبينا أن ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والافلاك والطبائع فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر سوى هذه الاشياء وعندها يتم الدليل ولا يبقى بعده للفكر مقام البتة فلهذا السبب قال ههنا ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون لانه لا دافع لهذه الحجة الا أن يقال ان هذه الحوادث السفلية حدثت لا لمؤثر البتة وذلك يقدح فى كمال العقل لان العلم بافتقار الحادث الى المحدث لما كان علما ضروريا كان عدم حصول هذا العلم قادحا فى كمال العقل فلهذا قال ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وقال فى الآية المتقدمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن نسأل الله العظيم أن يجعل الوقوف عليها سببا للفوز بالرحمة والغفران ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله وفى الارض قطع متجاورات قال أبو بكر الاصم أرض قريبة من أرض أخرى واحدة طيبة وأخرى سبخة وأخرى حرة وأخرى رملة وأخرى تكون حصباء وأخرى تكون حمراء وأخرى تكون سوداء وبالجملة فاختلاف بقاع الارض فى الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية أمر معلوم وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات والتقدير وجعل فيها رواسى وجعل فى الارض قطعا متجاورات وأما قوله وجنات من أعناب وزرع ونخيل فنقول الجنة البستان الذى يحصل فيه النخل والكرم والزرع وتحفه تلك الاشجار والدليل عليه قوله تعالى جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان كلها بالرفع عطفا على قوله وجنات والباقون بالجر عطفا على الاعناب وقرأ حفص عن عاصم فى رواية القواس صنوان بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على اصناء مثل اسم وأسماء فاذا كثرت فهو الصنى والصنى بكسر الصاد وفتحها والصنو أن يكون الاصل واحدا وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو وذكر ثعلب عن ابن الاعرابى الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الا ان عم الرجل صنو أبيه أى مثله اذا عرفت هذا فنقول اذا فسرنا الصنو بالتفسير الاول كان المعنى ان النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتان وأكثر ومنها ما لا يكون كذلك واذا فسرناه بالتفسير الثانى كان المعنى ان اشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة وقد لا تكون كذلك ثم قال تعالى تسقى بماء

ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا أى أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائده المحذوف أى أعدوا ما استطعتموه مرهبا به (عدو الله وعدوكم) وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة (وآخرين من دونهم) من غيرهم من الكفرة وقيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس (لا تعلمونهم) أى لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الانسب بقوله تعالى (الله يعلمهم) أى لا غيره فان أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضا (وما تنفقوا من شئ) لاعداد العتاد قل أو جل (فى سبيل الله) الذى أوضحه الجهاد (يوف اليكم) أى جزاؤه كاملا (وأنتم لا تظلمون) بترك الاثابة او بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الاعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه تعالى كما مر فى تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم (وان جنحوا) الجنوح الميل ومنه الجناح ويعدى باللام وبالى أى ان مالوا (للسلم) أى للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم

واحد قرأ عاصم وابن عامر يسقى بالياء على تقدير يسقى كله أو لتغليب المذكر على المؤنث والباقون بالتاء لقوله جنات قال أبو عمرو ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض فى الاكل قرأ حمزة والكسائى يفضل بالياء عطفا على قوله يدبر ويفصل ويغشى والباقون بالنون على تقدير ونحن نفضل وفى الاكل قولان حكاهما الواحدى حكى عن الزجاج ان الاكل الثمر الذى يؤكل وحكى عن غيره ان الاكل المهيأ للاكل وأقول هذا أولى لقوله تعالى فى صفة الجنة أكلها دائم وهو عام فى جميع المطعومات وابن كثير ونافع يقرآن الاكل ساكنة الكاف فى جميع القرآن والباقون بضم الكاف وهما لغتان * قوله تعالى ﴿وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج اليه فى معرفة المبدا ذكر بعده مسئلة المعاد فقال وان تعجب فعجب قولهم وفيه أقوال (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان تعجب من تكذيبهم اياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك انك من الصادقين فهذا عجب (والثانى) ان تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب ﴿والثالث﴾ تقدير الكلام ان تعجب يا محمد فقد عجبت فى موضع العجب لانهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السموات والارض وخالق الخلائق أجمعين وأنه هو الذى رفع السموات بغير عمد وهو الذى سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد وهو الذى أظهر فى العالم أنواع العجائب والغرائب فمن كانت قدرته وافية بهذه الاشياء العظيمة كيف لا تكون وافية باعادة الانسان بعد موته لان القادر على الاقوى الاكمل فأن يكون قادرا على الاقل الاضعف أولى فهذا تقرير موضع التعجب ثم انه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة أشياء (أولها) قوله أولئك الذين كفروا بربهم وهذا يدل على ان كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر وانما لزم من انكار البعث الكفر بربهم من حيث ان انكار البعث لا يتم الا بانكار القدرة والعلم والصدق أما انكار القدرة فكما اذا قيل ان اله العالم موجب بالذات لا فاعل بالاختيار فلا يقدر على الاعادة أو قيل انه وان كان قادرا لكنه ليس تام القدرة فلا يمكنه ايجاد الحيوان الا بواسطة الابوين وتأثيرات الطبائع والافلاك وأما انكار العلم فكما اذا قيل انه تعالى غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصى وأما انكار الصدق فكما اذا قيل انه وان أخبر عنه لكنه لا يفعل لان الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الاشياء كفرا ثبت ان انكار البعث كفر بالله ﴿الصفة الثانية﴾ قوله وأولئك الاغلال فى أعناقهم وفيه قولان (الاول) قال أبو بكر الاصم المراد بالاغلال كفرهم وذلتهم وانقيادهم للاصنام ونظيره قوله تعالى انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا قال الشاعر

* لهم عن الرشد أغلال وأقياد *

ويقال للرجل هذا غل فى عنقك للعمل الردىء معناه انه لازم لك وانك مجازى عليه بالعذاب قال القاضى هذا وان كان محتملا الا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى * وأقول يمكن نصرة قول الاصم بأن ظاهر الآية يقتضى حصول الاغلال فى أعناقهم فى الحال وذلك غير حاصل وأنتم تحملون اللفظ على أنه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على انه حاصل فى الحال الا أن المراد بالاغلال ما ذكرناه فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم أولى من قولنا (والقول الثانى) المراد انه تعالى يجعل الاغلال فى أعناقهم يوم القيامة والدليل عليه قوله تعالى اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴿والصفة الثالثة﴾ قوله تعالى وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والمراد منه التهديد بالعذاب المخلد المؤبد واحتج أصحابنا رحمهم الله تعالى على أن العذاب المخلد ليس الا للكفار بهذه الآية فقالوا قوله هم فيها خالدون يفيد أنهم هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم وذلك يدل على ان أهل الكبائر لا يخلدون فى النار ﴿المسئلة الثانية﴾ قال المتكلمون العجب هو الذى لا يعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال فكان المراد وان تعجب فعجب عندك ولقائل أن يقول قرأ بعضهم فى الآية الاخرى باضافة العجب الى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا ان أمثال هذه الالفاظ يجب

بشاهدة ما بكم من الاستعداد واعتاد العتاد (فاجنح لها) اى للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه قال

السلم تأخذ منها ما رضيت به * والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرئ فاجنح بضم النون (وتوكل على الله) ولا تخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد (انه) تعالى (هو السميع) فيسمع ما يقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع (العليم) فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسخها آية السيف (وان يريدوا أن يخدعوك) باظهار السلم وابطال الحراب (فان حسبك الله) أى فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم (هو الذى أيدك بنصره) تعليل لكفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئناف فان تأييده تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ما ذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سيأتى أى هو الذى أيدك بامداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى وما النصر الا من عند الله أو بالملائكة مع خرقه للعادات (وبالمؤمنين) من المهاجرين والانصار (وألف بين قلوبهم) مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا

أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما ﴿والوجه الثاني﴾ وهو أن المعنى انهم لا يجحدون كون القرآن معجزا فلا يضيق قلبك بسببه انما أنت منذر فما عليك الا أن تنذر الى أن يحصل الايمان في صدورهم ولست بقادر عليهم ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك الا الانذار وأما الهداية فمن الله تعالى واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا ههنا أقوالا (الاول) المنذر والهادي شئ واحد والتقدير انما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر (الثاني) المنذر محمد صلى الله عليه وسلم والهادي هو الله تعالى روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك (والثالث) المنذر النبي والهادي علي قال ابن عباس رضي الله عنهما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال أنا المنذر ثم أومأ الى منكب علي رضي الله عنه وقال أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي ﴿قوله تعالى ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في وجه النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما حكى عنهم انهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بين انه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم انهم هل طلبوا الآية الاخرى للاسترشاد وطلب البيان أو لاجل التعنت والعناد وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات أو يزداد اصرارهم واستكبارهم فلو علم تعالى انهم طلبوا ذلك لاجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة لاظهره الله تعالى وما منعهم عنه لكنه تعالى لما علم انهم لم يقولوا ذلك الا لاجل محض العناد لا جرم أنه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا وقوله قل انما الآيات عند الله (والثاني) ان وجه النظم انه تعالى لما قال وان تعجب فعجب قولهم في انكار البعث وذلك لانهم أنكروا البعث بسبب ان أجزاء أبدان الحيوانات عند تفرقها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبين تعالى انه انما لا يبقى الامتياز في حق من لا يكون عالما بجميع المعلومات أما في حق من كان عالما بجميع المعلومات فانه يبقى تلك الاجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض ثم احتج على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات بأنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام (الثالث) ان هذا متصل بقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة والمعنى انه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى انما ينزل العذاب بحسب ما يعلم كونه فيه مصلحة والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ لفظ ما في قوله ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد اما أن تكون موصولة واما أن تكون مصدرية فان كانت موصولة فالمعنى انه يعلم ما تحمله من الولد انه من أي الاقسام أهو ذكر أم أنثى وتام أو ناقص وحسن أو قبيح وطويل أو قصير وغير ذلك من الاحوال الحاضرة والمترقبة فيه ثم قال وما تغيض الارحام والغيض هو النقصان سواء كان لازما أو متعديا يقال غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى وغيض الماء والمراد من الآية وما تغيضه الارحام الا أنه حذف الضمير الراجع وقوله وما تزداد أي تأخذه زيادة تقول أخذت منه حقي وازددت منه كذا ومنه قوله تعالى وازدادوا تسعا ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه (الاول) عدد الولد فان الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة يروى ان شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه (الثاني) الولد قد يكون مخدجا وقد يكون تاما (الثالث) مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى والى أربع عند الشافعي والى خمس عند مالك وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرما (الرابع) الدم فانه تارة يقل وتارة يكثر (الخامس) ما ينقص بالسقط من غير أن يتم وما يزداد بالتمام (السادس) ما ينقص بظهور دم الحيض وذلك لانه اذا سال الدم في وقت الحمل ضعف

وقال الراغب كأنه في الاصل ازالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به قلت فالاوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذي هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بأن يقال اني أراك في هذا الامر حرضا أي محرضا فيه لتهيجه الى الاقدام وقرئ حرص بالصاد المهملة وهو واضح (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الامر بتحريضهم وقوله تعالى (وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا) مع انفهام مضمونه مما قبله لكون كل منهما عدة بتأييد الواحد على العشر لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد يجري بين الجمعين القليلين ما لا يجري بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لا يتفاوت في الصورتين وقوله تعالى (من الذين كفروا) بيان للالف وهذا القيد معتبر في المائتين أيضا وقد ترك ذكره تعويلا على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره هنالك (بأنهم قوم لا يفقهون) متعلق بيغلبوا أي بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون

الولد

الولد ونقص وبمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة جابرة لذلك النقصان قال ابن عباس رضي الله عنهما كلما سال الحيض في وقت الحمل يوما زاد في مدة الحمل يوما ليحصل به الجبر ويعتدل الامر (السابع) ان دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فاذا امتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت وخرجت وسالت من دواخل تلك العروق ثم اذا سالت تلك المواد امتلأت تلك العروق مرة أخرى هذا كله اذا قلنا ان كلمة ما موصولة أما اذا قلنا انها مصدرية فالمعنى انه تعالى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الارحام وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله وأما قوله تعالى وكل شيء عنده بمقدار فمعناه بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله انا كل شيء خلقناه بقدر وقوله في أول الفرقان وخلق كل شيء فقدره تقديرا واعلم ان قوله كل شيء عنده بمقدار يحتمل أن يكون المراد من العندية العلم ومعناه انه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الامر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات ويحتمل أن يكون المراد من العندية انه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية وعند حكماء الاسلام انه تعالى وضع أشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص وحركها بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات مخصوصة مقدرة ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وهو من ادل الدلائل على بطلان قول المعتزلة ثم قال تعالى عالم الغيب والشهادة قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد علم ما غاب عن خلقه وما شهدوه قال الواحدي فعلى هذا الغيب مصدر يريد به الغائب والشهادة أراد بها الشاهد واختلفوا في المراد بالغائب والشاهد قال بعضهم الغائب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقال آخرون الغائب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر وقال آخرون الغائب ما لا يعرفه الخلق والشاهد ما يعرفه الخلق ﴿ونقول المعلومات قسمان المعدومات والموجودات والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها ومنها معدومات لا يمتنع وجودها والموجودات أيضا قسمان موجودات يمتنع عدمها وموجودات لا يمتنع عدمها وكل واحد من هذه الاقسام الاربعة له أحكام وخواص والكل معلوم لله تعالى وحكى الشيخ الامام الوالد عن أبي القاسم الانصاري عن امام الحرمين رحمهم الله تعالى انه كان يقول لله تعالى معلومات لا نهاية لها وله في كل واحد من تلك المعلومات معلومات أخرى لا نهاية لها لان الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله انه يمكن وقوعه في احياز لا نهاية لها على البدل وموصوفا بصفات لا نهاية لها على البدل وهو تعالى عالم بكل الاحوال على التفصيل وكل هذه الاقسام داخل تحت قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ثم انه تعالى ذكر عقيبه قوله الكبير وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيرا بحسب الجثة والحجم والمقدار فوجب أن يكون كبيرا بحسب القدرة والمقادير الالهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المتنزه عن كل ما لا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزها في ذاته وصفاته وأفعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفا بالعلم الكامل والقدرة التامة ومنزها عن كل ما لا ينبغي وذلك يدل على كونه تعالى قادرا على البعث الذي أنكروه وعلى الآيات التي اقترحوها وعلى العذاب الذي استعجلوه وأنه انما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الالهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين وقرأ ابن كثير المتعالي باثبات الياء في الوقف والوصل على الاصل والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف ثم انه تعالى أكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لفظ سواء يطلب اثنين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان (الاول) أن سواء مصدر والمعنى ذو سواء كما تقول عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل (الثاني) أن يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى الاضمار الا أن سيبويه يستقبح أن يقول مستو زيد وعمرو لان أسماء الفاعلين اذا كانت نكرات لا يبدأ بها ولقائل أن يقول بل هذا الوجه أولى لان حمل الكلام عليه يغني عن التزام الاضمار الذي هو خلاف الاصل ﴿المسئلة الثانية﴾ في المستخفي والسارب قولان (الاول) يقال أخفيت الشيء أخفيه اخفاء فخفي واستخفى فلان من فلان أي توارى واستتر وقوله وسارب بالنهار قال الفراء والزجاج ظاهر

احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان واثارة ثائرة البغي والعدوان فلا يستحقون الا القهر والخذلان وأما ما قيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالمعاد فالسعادة عنده ليست الا هذه الحياة الدنيوية فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحراب واقتحام موارد الخطوب فيميل الى ما فيه السلامة فيفر فيغلب وأما من اعتقد أن لا سعادة في هذه الحياة الفانية وانما السعادة هي الحياة الباقية فلا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) لما كان الوعد السابق متضمنا لايجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة في ثلاثين راكبا فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد للاثنين وقيل كان فيهم قلة في الابتداء ثم لما كثروا نزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين في الاهتداء الى

بالنهار في سربه أي طريقه يقال خلا له سربه أي طريقه وقال الازهري تقول العرب سربت الابل تسرب سربا أي مضت في الارض ظاهرة حيث شاءت فاذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الانسان مستخفيا في الظلمات أو كان ظاهرا في الطرقات فعلم الله تعالى محيط بالكل قال ابن عباس رضي الله عنهما سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي (والقول الثاني) نقله الواحدي عن الاخفش وقطرب أنه قال المستخفي الظاهر والسارب المتواري ومنه يقال خفيت الشيء واخفيته أي أظهرته واختفيت الشيء استخرجته ويسمى النباش المستخفي والسارب المتواري ومنه يقال للداخل سربا وانسرب الوحش اذا دخل في السرب أي في كناسه قال الواحدي وهذا الوجه صحيح في اللغة الا أن الاختيار هو الوجه الاول لاطباق أكثر المفسرين عليه وأيضا فالليل يدل على الاستتار والنهار على الظهور والانتشار ﴿قوله تعالى ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ اعلم أن الضمير في له عائد الى من في قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به وقيل على اسم الله في عالم الغيب والشهادة والمعنى لله معقبات واما المعقبات فيجوز أن يكون أصل هذه الكلمة معتقبات فأدغمت التاء في القاف كقوله وجاء المعذرون من الاعراب والمراد المعتذرون ويجوز أن يكون من عقبه اذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شيء ما خلف يعقب ما قبله والمعنى في كلا الوجهين واحد اذا عرفت هذا فنقول في المراد بالمعقبات قولان (الاول) وهو المشهور والذي عليه الجمهور أن المراد منه الملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار روى عن عثمان رضي الله عنه انه قال يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال عليه الصلاة والسلام ملك عن يمينك يكتب الحسنات وهو أمين على الذي على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين اكتب فيقول لا لعله يتوب فاذا قال ثلاثا قال نعم اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله تعالى واستحياءه منا وملكان من بين يديك ومن خلفك فهو قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتك يحفظان عليك الصلاة على وملك على فيك لا يدع ان تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي تبدل ملائكة الليل بملائكة النهار فهم عشرون ملكا على كل آدمي وعنه صلى الله عليه وسلم يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر وهو المراد من قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا قيل تصعد ملائكة الليل وهي عشرة وتنزل ملائكة النهار وقال ابن جريج هو مثل قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد صاحب اليمين يكتب الحسنات والذي عن يساره يكتب السيآت وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته وفي الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ الملائكة ذكور فلم ذكر في جمعها جمع الاناث وهو المعقبات (والجواب) فيه قولان (الاول) قال الفراء المعقبات ذكران جمع ملائكة معقبة ثم جمعت معقبة معقبات كما قيل ابناوات سعد ورجالات بكر جمع الرجال والذي يدل على التذكير قوله يحفظونه (والثاني) وهو قول الاخفش انما أنثت لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر ﴿السؤال الثاني﴾ ما المراد من كون أولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه (والجواب) أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتمامها ولا يشذ من تلك الاعمال والاقوال من حفظهم شيء أصلا وقال بعضهم بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه لان السارب بالنهار اذا سعى في مهماته فانما يحذر من بين يديه ومن خلفه ﴿السؤال الثالث﴾

القتال لا الضعف في الدين كما قيل وقرئ ضعفا بضم الضاد وهي لغة فيه كالفقر والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح ما في الرأي والعقل وبالضم ما في البدن وقرئ ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا علمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت في الازل وقوله تعالى (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرئ تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية (وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) أي بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والالف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وانما ترك ذكره تعويلا على ما مر وبقوله تعالى (والله مع الصابرين) فانه اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله والمراد بالمعية معية نصره وتأييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة في الصورتين مجموع الامرين أعني نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر وما يشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لاصالتهم من حيث انهم المباشرون للصبر كما مر مرارا (ما كان لنبي) وقرئ للنبي على

ما المراد من قوله من أمر الله (والجواب) ذكر الفراء فيه قولين (الاول) انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه (والثاني) ان فيه اضمارا أي ذلك الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله به فحذف الاسم وأبقى خبره كما يكتب على الكيس ألفان والمراد الذي فيه ألفان (والقول الثالث) ذكره ابن الانباري ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته والدليل على انه لابد من المصير اليه أنه لاقدرة للملائكة ولا لاحد من الخلق على أن يحفظوا أحدا من أمر الله ومما قضاه عليه (السؤال الرابع) ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا (والجواب) أن هذا الكلام غير مستبعد وذلك لان المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول في كل ليلة ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الارواح وكذا القول في تدبير القمر والهيلاج والكدخداه على ما يقوله المنجمون وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ولذلك تراهم يقولون أخبرني الطباعي التام ومرادهم بالطباعي التام ان لكل انسان روحا فلكيا يتولى اصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته واذا كان هذا متفقا عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الاحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع وتمام التحقيق فيه أن الارواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة وبعضها شريرة وبعضها معزة وبعضها مذلة وبعضها قوية القهر والسلطان وبعضها ضعيفة سخيفة وكما أن الامر في الارواح البشرية كذلك فكذا القول في الارواح الفلكية ولا شك أن الارواح الفلكية في كل باب وكل صفة أقوى من الارواح البشرية وكل طائفة من الارواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة لانها تكون في تربية روح من الارواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية وتكون تلك الارواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكي ومتى كان الامر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معينا لها على مهماتها ومرشدا لها الى مصالحها وعاصما لها عن صنوف الآفات فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة واذا كان الامر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل فكيف يمكن استنكاره من الشريعة ثم في اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلطهم على بني آدم فوائد كثيرة سوى التي مر ذكرها من قبل (الاول) أن الشياطين يدعون الى الشرور والمعاصي وهؤلاء الملائكة يدعون الى الخيرات والطاعات (والثاني) قال مجاهد ما من عبد الا ومعه ملك يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته (الثالث) أنا نرى أن الانسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة ان وقوع تلك الداعية في قلبه كان سببا من أسباب مصالحه وخيراته وقد ينكشف أيضا بالآخرة انه كان سببا لوقوعه في آفة أو في معصية فيظهر ان الداعي الى الامر الاول كان مريدا للخير والراحة والى الامر الثاني كان مريدا للفساد والمحنة والاول هو الملك الهادي والثاني هو الشيطان المغوي (الرابع) أن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان الى الحذر من المعاصي أقرب لان من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الاقدام عليها كما يزجره عنها اذا حضره من يعظمه من البشر واذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الاعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل (السؤال الخامس) ما الفائدة في كتبة أعمال العباد (قلنا) ههنا مقامات (الاول) أن تفسير الكتبة بالمعنى المشهور من الكتبة قال المتكلمون الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان احدى الكفتين على الاخرى فانه اذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة وان كان بالضد فبالضد قال القاضي هذا بعيد لان الادلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنه من السعداء أو من الاشقياء فلا يتوقف حصول تلك المعرفة على الميزان ثم أجاب القاضي عن هذا الكلام وقال لا يمتنع أيضا ما روينا الامر يرجع الى حصول سروره عند الخلق العظيم انه من أولياء الله في الجنة وبالضد من ذلك في أعداء الله (والمقام الثاني) وهو قول حكماء الاسلام أن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعاني المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش

العهد والاول ابلغ لما فيه من بيان أن ما ذكر سنة مطردة فيما بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام أي ما صح وما استقام لنبي من الانبياء عليهم السلام (أن يكون له أسرى) وقرئ بتأنيث الفعل وأسارى أيضا (حتى يثخن في الارض) أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله من أثخنه المرض والجرح اذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح وأصله الثخانة التي هي الغلظ والكثافة وقرئ بالتشديد للمبالغة (تريدون عرض الدنيا) استئناف مسوق للعتاب أي تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرئ يريدون بالياء (والله يريد الآخرة) أي يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها أو يريد سبب نيل الآخرة من اعزاز دينه وقمع أعدائه وقرئ بجر الآخرة على اضمار المضاف كما في قوله

أكل امرئ تحسبين امرأ
ونار توقد بالليل نارا

(والله عزيز) يغلب أولياءه على أعدائه (حكيم) يعلم ما يليق بكل حال ويخصها بها كما أمر بالاثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى فاما منا بعد واما فداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم

دالة على تلك المعاني لاعيانها وذواتها كانت تلك الكتبة أقوى وأكمل اذا ثبت هذا فنقول ان الانسان اذا أتى بعمل من الاعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل في نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة فان كانت تلك الملكة ملكة سارة بالاعمال النافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت وان كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الاحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد الموت اذا ثبت هذا فنقول ان التكرير الكثير لما كان سببا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الاعمال المتكررة أثر في حصول تلك الملكة الراسخة وذلك الاثر وان كان غير محسوس الا أنه حاصل في الحقيقة واذا عرفت هذا ظهر انه لا يحصل للانسان لمحة ولا حركة ولا سكون الا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة أو آثار الشقاوة قل أو كثر فهذا هو المراد من كتبة الاعمال عند هؤلاء والله أعلم بحقائق الامور وهذا كله اذا فسرنا قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه بالملائكة (القول الثاني) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما واختاره أبو مسلم الاصفهاني ان المراد انه يستوي في علم الله تعالى السر والجهر والمستخفي بظلمة الليل والسارب بالنهار المستظهر بالمعاونين والانصار وهم الملوك والامراء فمن لجأ الى الليل فلن يفوت الله أمره ومن سار نهارا بالمعقبات وهم الاحراس والاعوان الذين يحفظونه لم ينجه احراسه من الله تعالى والمعقب العون لانه اذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره وهم وان ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه فانهم لا يقدرون على ذلك البتة والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والامراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ولا يعولوا في دفعها على الاعوان والانصار ولذلك قال تعالى بعده واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال * أما قوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بانزال الانتقام الا بأن يكون منهم المعاصي والفساد قال القاضي والظاهر لا يحتمل الا هذا المعنى لانه لا شئ مما يفعله تعالى سوى العقاب الا وقد يبتدئ به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لانه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنيا ويفضل في ذلك من شاء على من يشاء فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب ثم اختلفوا فبعضهم قال هذا الكلام راجع الى قوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة فبين تعالى انه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال الا والمعلوم منهم الاصرار على الكفر والمعصية حتى قالوا اذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في عقبهم من يؤمن فانه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم بل الكلام يجري على اطلاقه والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقتهم في اظهار عبودية الله تعالى فان الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعا من العذاب وقال بعضهم ان المؤمن الذي يكون مختلطا باولئك الاقوام فربما دخل في ذلك العذاب روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب واحتج أبو علي الجبائي والقاضي بهذه الآية في مسئلتين * (المسئلة الاولى) أنه تعالى لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم لانهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة الى العذاب * (المسئلة الثانية) قالوا الآية تدل على بطلان قول المجبرة انه تعالى يبتدئ العبد بالضلال والخذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب مع انه ما كان منه تغيير * والجواب ان ظاهر هذه الآية يدل على أن فعل الله في التغيير مؤخر عن فعل العبد الا أن قوله تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله يدل على ان فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى فوقع التعارض وأما قوله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له فقد احتج أصحابنا به على ان العبد غير مستقل في الفعل قالوا وذلك لانه اذا كفر العبد فلا شك أنه تعالى يحكم بكونه مستحقا للذم في الدنيا والعقاب في الآخرة فلو كان العبد مستقلا بتحصيل الايمان لكان قادرا على رد ما أراده الله تعالى وحينئذ يبطل قوله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له فثبت أن الآية السابقة وان أشعرت بمذهبهم الا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا قال

الضحاك

العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشارفيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك وقال عمر اضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه الصلاة والسلام ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يا رسول الله أخبرني فان وجدت بكاء بكيت والا تباكيت فقال أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضا ممن أشار بالاثخان (لولا كتاب من الله سبق) أي لولا حكم منه تعالى سبق اثباته في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطئ في اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما لم يصرح

الضحاك عن ابن عباس لم تغن المعقبات شيأ وقال عطاء عنه لا راد لعذابي ولا ناقض لحكمي وما لهم من دونه من وال أي ليس لهم من دون الله من يتولاهم ويمنع قضاء الله عنهم والمعنى ما لهم وال يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم ﴿قوله تعالى ﴿هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ اعلم أنه تعالى لما خوف العباد بانزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهي مشتملة على أمور ثلاثة وذلك لانها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته وأنها تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه * واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أمورا أربعة ﴿الاول﴾ البرق وهو قوله تعالى يريكم البرق خوفا وطمعا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف في انتصاب قوله خوفا وطمعا وجوه (الاول) لا يصح أن يكونا مفعولا لهما لانهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل الا على تقدير حذف المضاف أي ارادة خوف وطمع أو على معنى اخافة واطماعا (الثاني) يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير ذا خوف وذا طمع أو على معنى اخافا واطماعا (الثالث) أن يكونا حالا من المخاطبين أي خائفين وطامعين ﴿المسئلة الثانية﴾ في كون البرق خوفا وطمعا وجوه (الاول) ان عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث قال المتنبي

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجى الحيا منها ويخشى الصواعق

(الثاني) أنه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع (الثالث) ان كل شئ يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير في حق من يحتاج اليه في أوانه وشر في حق من يضره ذلك اما بحسب المكان أو بحسب الزمان ﴿المسئلة الثالثة﴾ اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه ان السحاب لا شك انه جسم مركب من أجزاء رطبة مائية ومن أجزاء هوائية ونارية ولا شك أن الغالب عليه الاجزاء المائية والماء جسم بارد رطب والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد * فان قيل لم لا يجوز أن يقال ان الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ثم ان ذلك الريح يمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق * والجواب ان كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه (الاول) أنه لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الامر كذلك فانه كثيرا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد (الثاني) ان السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النار بل نقول النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية (الثالث) من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة فهب أنه حصلت النار بسبب قوة المحاكة الحاصلة باجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الاحمر فثبت أن السبب الذي ذكروه ضعيف وان حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصا لا يمكن الا بقدرة القادر الحكيم ﴿النوع الثاني﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى وينشئ السحاب الثقال قال صاحب الكشاف السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لانك تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهي الثقال بالماء واعلم أن هذا أيضا من دلائل القدرة والحكمة وذلك لان هذه الاجزاء المائية اما أن يقال انها حدثت في جو الهواء أو يقال انها تصاعدت من وجه الارض فان كان الاول وجب أن يكون حدوثها باحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب وان كان الثاني وهو أن يقال ان تلك الاجزاء تصاعدت من الارض فلما وصلت الى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت الى الارض فنقول هذا باطل وذلك لان الامطار

لهم بالنهي وأما الفدية التي أخذوها واستحلالهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فان الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كما في الخمر مثلا لا ترفع حكم الاباحة السابقة على أنه قادح في تهويل ما نعي عليهم من أخذ الفداء (لمسكم) أي لاصابكم (فيما أخذتم) أي لاجل ما أخذتم من الفداء (عذاب عظيم) لا يقادر قدره (فكلوا مما غنمتم) روي أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والاظهر انها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فانها من جملة الغنائم ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه (حلالا) حال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلا حلالا وفائدته الترغيب في أكلها وقوله تعالى (طيبا) صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب (واتقوا الله) أي في مخالفة أمره ونهيه (ان الله غفور رحيم) فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الاذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم اذا اتقيتموه (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم) أي في ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم (من الاسرى) وقرئ من الاسارى (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء وقرئ أخذ على

مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة
وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانا طويلا وتارة قليلا فاختلاف الامطار فى هذه الصفات مع ان طبيعة
الارض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لابد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار وأيضا
فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع فى نزول الغيث أثرا عظيما ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة
فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة والخاصية (النوع الثالث) من الدلائل المذكورة فى هذه
الآية الرعد وهو قوله ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفيه أقوال (الاوّل) ان الرعد اسم ملك
من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس رضى الله عنهما
ان اليهود سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه
مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله قالوا فما الصوت الذى نسمع قال زجره السحاب وعن الحسن
أنه خلق من خلق الله ليس بملك فعلى هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح لله تعالى
وذلك الصوت أيضا يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا سمع الرعد
قال سبحان الذى سبحت له وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله ينشئ السحاب الثقال فينطق أحسن
النطق ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق واعلم أن هذا القول غير مستبعد وذلك لان عند
أهل السنة البنية ليست شرطا لحصول الحياة فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق
فى أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلا له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى ان السمندل يتولد
فى النار والضفادع تتولد فى الماء البارد والدودة العظيمة ربما تتولد فى الثلوج القديمة وأيضا فاذا لم يبعد تسبيح
الجبال فى زمن داود عليه السلام ولا تسبيح الحصى فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يستبعد تسبيح
السحاب وعلى هذا القول فهذا الشئ المسمى بالرعد ملك أو ليس بملك فيه قولان (أحدهما) أنه ليس بملك
لانه عطف عليه الملائكة فقال والملائكة من خيفته والمعطوف عليه مغاير للمعطوف (والثانى) وهو أنه
لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وانما حسن افراده بالذكر على سبيل التشريف كما فى قوله وملائكته
ورسله وجبريل وميكال وفى قوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح (القول الثانى) ان الرعد
اسم لهذا الصوت المخصوص ومع ذلك فان الرعد يسبح الله سبحانه لان التسبيح والتقديس وما يجرى
مجراهما ليس الا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى فلما كان حدوث هذا
الصوت دليلا على وجود موجود متعال عن النقص والامكان كان ذلك فى الحقيقة تسبيحا وهو معنى قوله
تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده (القول الثالث) أن المراد من كون الرعد مسبحا أن من يسمع الرعد
فانه يسبح الله تعالى فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح اليه (القول الرابع) من كلمات الصوفية الرعد
صعقات الملائكة والبرق زفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم * فان قيل وما حقيقة الرعد * قلنا استقصينا القول
فيه فى سورة البقرة فى قوله فيه ظلمات ورعد وبرق أما قوله والملائكة من خيفته فاعلم أن من المفسرين
من يقول عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد فانه سبحانه جعل له أعوانا ومعنى قوله والملائكة من خيفته أى
وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته قال ابن عباس رضى الله عنهما انهم خائفون من الله لا كخوف
ابن آدم فان أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شئ
واعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية انما تتم بقوى روحانية فلكية فللسحاب
روح معين من الارواح الفلكية يدبره وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية وهذا عين ما نقلناه
من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة وعين ما ذكره
المحققون من الحكماء فكيف يليق بالعاقل الانكار (النوع الرابع) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية
قوله ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء واعلم أنا قد ذكرنا معنى الصواعق فى سورة البقرة قال
المفسرون نزلت هذه الآية فى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخى لبيد بن ربيعة أتيا النبى صلى الله عليه
وسلم

البناء للفاعل روى أنها نزلت فى العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن
الحرث فقال يا محمد
تركتنى أتكفف قريشا
ما بقيت فقال له عليه
الصلاة والسلام فأين
الذهب الذى دفعته الى
أم الفضل وقت خروجك
من مكة وقلت لها
ما أدرى ما يصيبنى فى
وجهى هذا فان حدث
بى حدث فهو لك ولعبد
الله وعبيد الله والفضل
فقال العباس ما يدريك
فقال أخبرنى به ربى قال
العباس فأنا أشهد أنك
صادق وأن لا اله الا الله
وأنك عبده ورسوله
والله لم يطلع عليه أحد
الا الله ولقد دفعته اليها
فى سواد الليل ولقد كنت
مرتابا فى أمرك فأما اذ
أخبرتنى بذلك فلا ريب
قال العباس بعد حين
فأبدلنى الله خيرا من
ذلك لى الآن عشرون
عبدا وان أدناهم ليضرب
فى عشرين ألفا وأعطانى
زمزم ما أحب أن لى بها
جميع أموال أهل مكة
وأنا أنتظر المغفرة من
ربى يتأول به ما فى قوله
تعالى (ويغفر لكم والله
غفور رحيم) فانه وعد
بالمغفرة مؤكد بما بعده
من الاعتراض التذييلى
(وان يريدوا خيانتك)
أى نكث ما بايعوك عليه
من الاسلام وهذا كلام
مسوق من جهته تعالى
لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد له والوعيد لهم (فقد خانوا الله من قبل) بكفرهم ونقض ما أخذ على

وسلم يخاصمانه ويجادلانه ويريدان الفتك به فقال أربد بن ربيعة أخو لبيد بن ربيعة أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد ثم انه لما رجع أربد أرسل الله عليه صاعقة فأحرقته ورمى عامرا بغدة كغدة البعير فمات في بيت سلولية * واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جدا وذلك لانها نار تتولد من السحاب واذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر والحكماء بالغوا في وصف قوتها ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا على العادة لكنه ليس الامر كذلك فانها أقوى نيران هذا العالم فثبت أن اختصاصها بمزيد تلك القوة لابد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل الاربعة قال وهم يجادلون في الله والمراد انه تعالى بين دلائل كمال علمه في قوله يعلم ما تحمل كل أنثى وبين دلائل كمال القدرة في هذه الآيات ثم قال وهم يجادلون في الله يعني هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد الرد على الكافر الذي قال أخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد (وثانيها) أن يكون المراد الرد على جدالهم في انكار البعث وابطال الحشر والنشر (وثالثها) أن يكون المراد الرد عليهم في طلب سائر المعجزات (ورابعها) أن يكون المراد الرد عليهم في استنزال عذاب الاستئصال وفي هذه الواو قولان (الاول) أنها للحال والمعنى فيصيب بالصاعقة من يشاء في حال جداله في الله وذلك أن أربد لما جادل في الله أحرقته الصاعقة (والثاني) أنها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تمم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون في الله ثم قال تعالى وهو شديد المحال وفي لفظ المحال أقوال قال ابن قتيبة الميم زائدة وهو من الحول ونحوه ميم مكان وقال الازهري هذا غلط فان الكلمة اذا كانت على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية نحو مهاد وملاك ومداس ومدد واختلفوا في مأخذه على وجوه (الاول) قيل من قولهم محل فلان بفلان اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل لكذا اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فكان المعنى أنه سبحانه شديد المكر لاعدائه يهلكهم بطريق لا يتوقعونه (الثاني) أن المحال عبارة عن الشدة ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وماحلت فلانا محالا أي قاومته أينا أشد قال أبو مسلم ومحال فعال من المحل وهو الشدة والفظ فعال يقع على المجازاة والمقابلة فكأن المعنى أنه تعالى شديد المغالبة وللمفسرين ههنا عبارات فقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد العقوبة وقال الحسن شديد النقمة وقال ابن عباس شديد الحول (الثالث) قال ابن عرفة يقال ماحل عن أمره أي جادل فقوله شديد المحال أي شديد الجدال (الرابع) روى عن بعضهم شديد المحال أي شديد الحقد قالوا وهذا لا يصح لان الحقد لا يمكن في حق الله تعالى الا أنا قد ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه الالفاظ اذا وردت في حق الله تعالى فانها تحمل على نهايات الاعراض لا على مبادي الاعراض فالمراد بالحقد ههنا هو أنه تعالى يريد ايصال الشر اليه مع أنه يخفي عنه تلك الارادة * قوله تعالى ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال﴾ اعلم أن قوله له دعوة الحق أي لله دعوة الحق وفيه بحثان (البحث الاول) في أقوال المفسرين وهي أمور (أحدها) ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال دعوة الحق قول لا اله الا الله (وثانيها) قول الحسن ان الله هو الحق فدعاؤه هو الحق كأنه يومئ الى أن الانقطاع اليه في الدعاء هو الحق (وثالثها) أن عبادته هي الحق والصدق واعلم أن الحق هو الموجود والموجود قسمان قسم يقبل العدم وهو حق يمكن أن يصير باطلا وقسم لا يقبل العدم فلا يمكن أن يصير باطلا وذلك هو الحق الحقيقي واذا كان واجب الوجود لذاته موجودا لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقا هو هو وكان أحق الاعتقادات وأحق الاذكار بأن يكون حقا هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده فثبت بهذا أن وجوده هو الحق في الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق في الاعتقادات وذكره بالثناء والالهية والكمال هو الحق في الاذكار فلهذا قال له دعوة الحق (البحث الثاني) قال صاحب

كل عاقل من ميثاقه (فأمكن منهم) أى أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فان أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء وهو بعيد (والله عليم) فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب (حكيم) يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة (ان الذين آمنوا وهاجروا) هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله (وجاهدوا بأموالهم) بأن صرفوها الى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج (وأنفسهم) بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض في المهالك (في سبيل الله) متعلق بجاهدوا قيد لنوعي الجهاد ولعل تقديم الاموال على الانفس لما أن المجاهدة بالاموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (والذين آووا ونصروا) هم الانصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا اليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم (أولئك) اشارة الى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى (بعضهم) اما بدل منه وقوله تعالى (أولياء بعض) خبره واما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدأ الاول

على هذا المذهب * قلنا حاصله يرجع الى انه انما حصل المدح والذم وجب أن يكون العبد مستقلا بالفعل وهو منقوض لانه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع انه عالم منه أنه يموت على الكفر وقد ذكرنا ان خلاف المعلوم محال الوقوع فهذا تقرير هذا الوجه في هذه الآية (وأما الوجه الثاني) في التمسك بهذه الآية قوله قل الله خالق كل شئ ولا شك ان فعل العبد شئ فوجب أن يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ما تقدم (والوجه الثالث) في التمسك بهذه الآية قوله وهو الواحد القهار وليس يقال فيه انه تعالى واحد في أي المعاني ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب أن يكون المراد هو الواحد في الخالقية القهار لكل ما سواه وحينئذ يكون دليلا أيضا على صحة قولنا (المسئلة الثانية) زعم جهم ان الله تعالى لا يقع عليه اسم الشئ اعلم ان هذا النزاع ليس الا في اللفظ وهو ان هذا الاسم هل يقع عليه أم لا وزعم انه لا يقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لو كان شيأ لوجب كونه خالقا لنفسه لقوله تعالى الله خالق كل شئ ولما كان ذلك محالا وجب أن لا يقع عليه اسم الشئ ولا يقال هذا عام دخله التخصيص لان العام المخصوص انما يحسن اذا كان المخصوص أقل من الباقي وأخس منه كما اذا قال أكلت هذه الرمانة مع انه سقطت منها حبات ما أكلها وههنا ذات الله تعالى أعلى الموجودات وأشرفها فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذي يتناوله مع كون الحكم مخصوصا في حقه (والحجة الثانية) تمسك بقوله تعالى ليس كمثله شئ والمعنى ليس مثل مثله شئ ومعلوم أن كل حقيقة فانها مثل مثل نفسها فالباري تعالى مثل مثل نفسه مع انه تعالى نبه على ان مثل مثله ليس شئ فهذا تنصيص على انه تعالى غير مسمى باسم الشئ (والحجة الثالثة) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها دلت هذه الآية على انه لا يجوز أن يدعى الله الا بالاسماء الحسنى ولفظ الشئ يتناول أخس الموجودات فلا يكون هذا اللفظ مشعرا بمعنى حسن فوجب أن لا يكون هذا اللفظ من الاسماء الحسنى فوجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ والاصحاب تمسكوا في اطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله قل أي شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأجاب الخصم عنه بأن قوله قل أي شئ أكبر شهادة سؤال متروك الجواب وقوله قل الله شهيد بيني وبينكم كلام مبتدأ مستقل بنفسه لا تعلق له بما قبله (المسئلة الثالثة) تمسك المعتزلة بهذه الآية في انه تعالى عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة قالوا لانه لو حصل لله تعالى علم وقدرة وحياة لكانت هذه الصفات اما أن تحصل بخلق الله أو لا بخلقه (والاول) باطل والا لزم التسلسل (والثاني) باطل لان قوله الله خالق كل شئ يتناول الذات والصفات حكمنا بدخول التخصيص فيه في حق ذات الله تعالى فوجب أن يبقى فيما سوى الذات على الاصل وهو أن يكون تعالى خالقا لكل شئ سوى ذاته تعالى فلو كان لله علم وقدرة لوجب كونه تعالى خالقا لهما وهو محال وأيضا تمسكوا بهذه الآية في خلق القرآن قالوا الآية دالة على أنه تعالى خالق لكل الاشياء والقرآن ليس هو الله تعالى فوجب ان يكون مخلوقا وأن يكون داخلا تحت هذا العموم (والجواب) أقصى ما في الباب أن الصيغة عامة الا أنا نخصصها في حق صفات الله تعالى بسبب الدلائل العقلية ﴿قوله تعالى﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الالباب﴾ اعلم أنه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والايمان والكفر بالاعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للايمان والكفر مثلا آخر فقال أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ومن حق الماء ان يستقر في الاودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الاودية وصغرها ومن حق الماء اذا زاد على قدر الاودية أن ينبسط على الارض ومن حق الزبد الذي يحمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد في الاطراف ويبطل سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض أو ما يختلط بالماء من الاجسام الخفيفة ولما ذكر تعالى

العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم ﴿سورة براءة مدنية وهي مائة وثلاثون آية﴾ ولها أسماء أخر سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الاسماء يقضي بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الانفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الامان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر بقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روي عن ابن عيينة رضي الله عنه لا الاشتباه في استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم من الاختلاف في ذلك على أن ذلك ينزع الى القول بأن التسمية ليست من القرآن وانما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط اثباتها في المصاحف وتركها اشتهار أو رأي من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب في أن الصحيح من المذهب أنها

تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر الا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر الا بالنار وذلك لان كل واحد من الاجساد السبعة اذا أذيب بالنار لابتغاء حلية أو متاع آخر من الامتعة التي يحتاج اليها في مصالح البيت فانه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث ولا ينتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص فالحاصل ان الوادي اذا جرى طفا عليه زبد وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء والاجساد السبعة اذا أذيبت لاجل اتخاذ الحلي أولاجل اتخاذ سائر الامتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به فكذا ههنا أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والاحسان ماء وهو القرآن والاودية قلوب العباد وشبه القلوب بالاودية لان القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن كما ان الاودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء وكما أن كل واحد فانما يحصل فيه من مياه الامطار ما يليق بسعته أو ضيقه فكذلك ههنا كل قلب انما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه وكما أن الماء يعلوه زبد الاجساد السبعة المذابة يخالطها الخبث ثم ان ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الاجساد السبعة كذا ههنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات ثم انها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى العلم والدين والحكمة والمكاشفة في العاقبة فهذا هو تقرير هذا المثل ووجه انطباق المثل على الممثل به وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه ﴿المسئلة الثانية﴾ في المباحث اللفظية التي في هذه الآية في لفظ الاودية مباحث ﴿البحث الاول﴾ الاودية جمع واد وفي الوادي قولان (الاول) أنه عبارة عن الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذي يجري فيه السيل هذا قول عامة أهل اللغة (والقول الثاني) قال السهروردي يسمى الماء واد يا اذا سال قال ومنه سمي الودي ودياً لخروجه وسيلانه وعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالمسيل والاول هو القول المشهور الا أن على هذا التقدير يكون قوله سالت أودية مجازا فكان التقدير سالت مياه الاودية الا انه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ﴿البحث الثاني﴾ قال أبو علي الفارسي رحمه الله الاودية جمع واد ولا نعلم فاعلا جمع على أفعلة قال ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشئ الواحد كعالم وعليم وشاهد وشهيد وناصر ونصير ثم ان وزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب وطائر وأطيار ووزن فعيل يجمع على أفعلة كجريب وأجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع الفعيل فيقال واد وأودية ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال يتيم وأيتام وشريف وأشراف هذا ما قاله أبو علي الفارسي رحمه الله وقال غيره نظير واد وأودية ناد وأندية للمجالس ﴿البحث الثالث﴾ انما ذكر لفظ أودية على سبيل التنكير لان المطر لا يأتي الا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض أودية الارض دون بعض * أما قوله تعالى بقدرها ففيه بحثان ﴿الاول﴾ قال الواحدي القدر والقدر مبلغ الشئ يقال كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها أي كم تبلغ في الوزن فما يكون مساويا لها في الوزن فهو قدرها ﴿البحث الثاني﴾ سالت أودية بقدرها أي من الماء فان صغر الوادي قل الماء وان اتسع الوادي كثر الماء * أما قوله فاحتمل السيل زبدا رابيا ففيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ قال الفراء يقال أزبد الوادي ازبادا والزبد الاسم وقوله رابيا قال الزجاج طافيا عاليا فوق الماء وقال غيره زائدا بسبب انتفاخه يقال ربا يربو اذا زاد * أما قوله تعالى ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله فاعلم انه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار وفيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم يوقدون بالياء واختاره أبو عبيدة لقوله ينفع الناس وأيضا فليس ههنا مخاطب والباقون بالتاء على الخطاب وعلى هذا التقدير ففيه وجهان (الاول) انه خطاب للمذكورين في قوله قل أفاتخذتم من دونه أولياء (والثاني) أنه يجوز أن يكون خطابا عاما يراد به الكافة كأنه قال ومما توقدون عليه في النار أيها الموقدون ﴿البحث الثاني﴾ الايقاد على الشئ على قسمين (أحدهما) أن لا يكون ذلك الشئ في النار وهو كقوله تعالى فأوقد لي يا هامان على الطين (والثاني) أن يوقد على الشئ ويكون ذلك الشئ في النار فان من

آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأي أحد في الاثبات والترك وانما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف ولا مرية في عدم نزولها ههنا والا لامتنع أن يقع في الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو اما الاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل الى الاول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثاني لان عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم * (براءة) خبر مبتدا محذوف وتنوينه للتفخيم وقرئ بالنصب أي اسمعوا براءة ومن في قوله تعالى (من الله ورسوله) ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها لتفيدها زيادة تفخيم وتهويل أي هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة (الى الذين عاهدتم من المشركين) وانما لم يذكر ما تعلق به البراءة حسبما ذكر في قوله تعالى ان الله بريء من المشركين اكتفاء بما في حيز الصلة فانه منبئ عنه انباء ظاهرا واحترازا عن تكرير لفظة من وقيل هي مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره الى الذين الخ والذي تقتضيه جزالة النظم هو الاول لان هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله

(٢٦ - فخر خا)

الكشاف دعوة الحق فيه وجهان (أحدهما) أن تضاف الدعوة الى الحق الذى هو نقيض الباطل كما تضاف اليه الكلمة فى قوله كلمة الحق والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة وكونها خالية عن أمارات كونه باطلا وهذا من باب اضافة الشئ الى صفته (والثانى) أن تضاف الى الحق الذى هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذى يسمع فيجيب وعن الحسن الحق هو الله وكل دعاء اليه فهو دعوة الحق ثم قال تعالى والذين يدعون من دونه يعنى الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله لا يستجيبون لهم بشئ مما يطلبونه الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه فكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبهوا فى قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا أصابعه ولم تصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه وقرئ تدعون بالتاء كباسط كفيه بالتنوين ثم قال وما دعاء الكافرين الا فى ضلال أى الا فى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الآلهة لم تستطع اجابتهم ﴿قوله تعالى ﴿ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ اعلم أن فى المراد بهذا السجود قولين (الاول) أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الارض وعلى هذا الوجه ففيه وجهان (أحدهما) أن اللفظ وان كان عاما الا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعا بسهولة ونشاط ومن المسلمين من يسجد لله كرها لصعوبة ذلك عليه مع انه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى (والثانى) أن اللفظ عام والمراد منه أيضا العام وعلى هذا فى الآية اشكال لانه ليس كل من فى السموات والارض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله والمؤمنون من الجن والانس يسجدون لله تعالى وأما الكافرون فلا يسجدون (الجواب) عنه من وجهين (الاول) أن المراد من قوله ولله يسجد من فى السموات والارض أى ويجب على كل من فى السموات والارض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول (والثانى) وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية وكل من فى السموات ومن فى الارض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله (وأما القول الثانى فى تفسير الآية) فهو أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع وكل من فى السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة فى الكل وتحقيق القول فيه أن ما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذى تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه أو بالعكس الا بتأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كل ما سوى الحق سبحانه بايجاده وعدم كل ما سواه باعدامه فتأثيره نافذ فى جميع الممكنات فى طرفى الايجاد والاعدام وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد ونظير هذه الآية قوله بل له ما فى السموات والارض كل له قانتون وقوله وله أسلم من فى السموات والارض وأما قوله تعالى طوعا وكرها فالمراد أن بعض الحوادث مما يميل الطبع الى حصوله كالحياة والغنى وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعمى والحزن والزمانة وجميع أصناف المكروهات والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وايجاده ولا قدرة لاحد على الامتناع والمدافعة * ثم قال تعالى وظلالهم بالغدو والآصال وفيه قولان (الاول) قال المفسرون كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله وعند هذا قال ابن الانبارى لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وافهاما تسجد بها وتخشع كما جعل الله للجبال افهاما حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلى فيها كما قال فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (والقول الثانى) وهو أن المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس فهى منقادة مستسلمة فى طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر فى هذين

أى بعضهم أولياء بعض فى الميراث وقد كان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الاقارب حتى نسخ بقوله تعالى وأولوا الارحام الآية وقيل فى النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم النصر بعد نفى موالاتهم (والذين آمنوا ولم يهاجروا) كسائر المؤمنين (ما لكم من ولايتهم من شئ) أى من توليهم فى الميراث وان كانوا من أقرب أقاربكم (حتى يهاجروا) وقرئ بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة (وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (الا على قوم) منهم (بينكم وبينهم ميثاق) معاهدة فانه لا يجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم (والله بما تعملون بصير) فلا تخالفوا أمره كى لا يحل بكم عقابه (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) آخرهم أى فى الميراث أو فى الموازرة وهذا بمفهومه مفيد لنفى الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وايجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب (الا تفعلوه) أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن فتنة فى الارض) أى تحصل فتنة عظيمة فيها ضعف الايمان وظهور الكفر (وفساد كبير) فى الدارين

الوقتين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قل من رب السموات والارض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار﴾ اعلم انه تعالى لما بين ان كل من فى السموات والارض ساجد لله بمعنى كونه خاضعا له عاد الى الرد على عبدة الاصنام فقال قل من رب السموات والارض قل الله ولما كان هذا الجواب جوابا يقربه المسؤل ويعترف به ولا ينكره أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على انهم لا ينكرونه البتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال قل لهم فلم اتخذتم من دون الله أولياء وهى جمادات وهى لا تملك لانفسها نفعا ولا ضرا ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لانفسها ودفع المضرة عن أنفسها فبأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك أولى واذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها محض العبث والسفه ولما ذكر هذه الحجة الظاهرة بين أن الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالاعمى والعالم بها كالبصير والجهل بمثل هذه الحجة كالظلمات والعلم بها كالنور وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الاعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر وعمرو عن عاصم يستوى الظلمات والنور بالياء لانها مقدمة على اسم الجمع والباقون بالتاء واختاره أبو عبيدة ثم أكد هذا البيان فقال أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم يعنى هذه الاشياء التى زعموا انها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا انها تشارك الله فى الخالقية فوجب أن تشاركه فى الالهية بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الاصنام لم يصدر عنها فعل البتة ولا خلق ولا أثر واذا كان الامر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله فى الالهية محض السفه والجهل وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان أصحابنا استدلوا بهذه الآية فى مسئلة خلق الافعال من وجوه (الاول) أن المعتزلة زعموا أن الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التى يخلقها الله تعالى وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ومعلوم أن الله تعالى انما ذكر هذه الآية فى معرض الذم والانكار فدلت هذه الآية على أن العبد لا يخلق فعل نفسه قال القاضى نحن وان قلنا ان العبد يفعل ويحدث الا أنا لا نطلق القول بانه يخلق ولو أطلقناه لم نقل انه يخلق كخلق الله لان أحدنا يفعل بقدرة الله وانما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة والله تعالى منزه عن ذلك كله فثبت أن بتقدير كون العبد خالقا الا أنه لا يكون خلقه كخلق الله تعالى وأيضا فهذا الالزام لازم للمجبرة لانهم يقولون عين ما هو خلق الله تعالى فهو كسب العبد وفعل له وهذا عين الشرك لان الاله والعبد فى خلق تلك الافعال بمنزلة الشريكين اللذين لا مال لاحدهما الا وللآخر فيه حق وأيضا فهو تعالى انما ذكر هذا الكلام عيبا للكفار وذما لطريقتهم ولو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لما بقى لهذا الذم فائدة لان للكفار ان يقولوا على هذا التقدير ان الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولم ينسبنا الى الجهل والتقصير مع انه قد حصل فينا لا بفعلنا ولا باختيارنا (والجواب) عن السؤال الاول ان لفظ الخلق اما أن يكون عبارة عن الاخراج من العدم الى الوجود أو يكون عبارة عن التقدير وعلى الوجهين فبتقدير أن يكون العبد محدثا فانه لابد وأن يكون خالقا أما قوله والعبد وان كان خالقا الا أنه ليس خلقه كخلق الله ✽ قلنا الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين والاخراج من العدم الى الوجود ومعلوم أن الحركة الواقعة بقدرة العبد لما كانت مثلا للحركة الواقعة بقدرة الله تعالى كان أحد المخلوقين مثلا للمخلوق الثانى وحينئذ يصح أن يقال ان هذا الذى هو مخلوق العبد مثل لما هو مخلوق لله تعالى بل لا شك فى حصول المخالفة فى سائر الاعتبارات الا أن حصول المخالفة فى سائر الوجوه لا يقدح فى حصول المماثلة من هذا الوجه وهذا القدر يكفى فى الاستدلال وأما قوله هذا لازم على المجبرة حيث قالوا ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فنقول هذا غير لازم لان هذه الآية دالة على أنه لا يجوز أن يكون خلق العبد مثلا لخلق الله تعالى ونحن لا نثبت للعبد خلقا البتة فكيف يلزمنا ذلك وأما قوله لو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لما حسن ذم الكفار

وقرئ كثير (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة ورزق كريم) لا تبعة له ولا منة فيه فلا تكرار لما أن مساق الاول لايجاب التواصل بينهم (والذين آمنوا من بعد وهاجروا) بعد هجرتكم (وجاهدوا معكم) فى بعض مغازيكم (فأولئك منكم) أى من جملتكم أيها المهاجرون والانصار وهم الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا فى الايمان والهجرة وفى توجيه الخطاب اليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلهم ما لا يخفى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) آخر منهم فى التوارث من الاجانب (فى كتاب الله) أى فى حكمه أو فى اللوح أو فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الارحام (ان الله بكل شئ عليم) ومن جملته ما فى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة ✽ عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان

أراد تذويب الاجساد السبعة جعلها في النار فلهذا السبب قال ههنا ومما توقدون عليه في النار (البحث الثالث) في قوله ابتغاء حلية قال أهل المعاني الذي يوقد عليه لابتغاء الحلية الذهب والفضة والذي يوقد عليه لابتغاء الامتعة الحديد والنحاس والرصاص والاسرب يتخذ منها الاواني والاشياء التي ينتفع بها والمتاع كل ما يتمتع به وقوله زبد مثله أي زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل ثم قال تعالى كذلك يضرب الله الحق والباطل والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للحق والباطل ثم قال أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس قال الفراء الجفاء الرمي والاطراح يقال جفا الوادي غثاءه يجفوه جفاء اذا رماه والجفاء اسم للمجتمع منه المنضم بعضه الى بعض وموضع جفاء نصب على الحال والمعنى ان الزبد قد يعلو على وجه الماء ويربو وينتفخ الا أنه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافي من الماء ومن الاجساد السبعة فكذلك الشبهات والخيالات قد تقوى وتعظم الا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهرا لا يشوبه شئ من الشبهات وفي قراءة رؤبة بن العجاج جفالا وعن أبي حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لانه كان يأكل الفار أما قوله تعالى للذين استجابوا لربهم الحسنى ففيه وجهان (الاول) انه تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استأنف الكلام بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى ومحله الرفع بالابتداء وللذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى (الثاني) أنه متصل بما قبله والتقدير كانه قال الذي يبقى هو مثل المستجيب والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب ثم بين الوجه في كونه مثلا وهو انه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة ولمن لا يستجيب أنواع الحسرة والعقوبة وفيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الاشقياء أما أحوال السعداء فهي قوله للذين استجابوا لربهم الحسنى والمعنى ان الذين أجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم الحسنى قال ابن عباس الجنة وقال أهل المعاني الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر الزيادة ههنا لانه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى وهو قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وأما أحوال الاشقياء فهي قوله والذين لم يستجيبوا له فلهم أنواع أربعة من العذاب والعقوبة (فالنوع الاول) قوله لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به والافتداء جعل أحد الشيئين بدلا من الآخر ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره لافتدوا به أنفسهم أي جعلوه فداء أنفسهم من العذاب والكناية في به عائدة الى ما في قوله ما في الارض واعلم أن هذا المعنى حق لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فانما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الضرر والالم والتعب وكان مالكا لما يساوي عالم الاجساد والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه لان المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما يكون محبوبا بالذات (والنوع الثاني) من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم هو قوله أولئك لهم سوء الحساب قال الزجاج ذلك لان كفرهم أحبط أعمالهم وأقول ههنا حالتان فكل ما شغلك بالله وعبوديته ومحبته فهي الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية وكل ما شغلك بغير الله فهي الحالة الضارة المؤذية الخسيسة ولا شك ان هاتين الحالتين يقبلان الاشد والاضعف والاقل والازيد ولا شك ان المواظبة على الاعمال المناسبة لهذه الاحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت في المعقولات ان كثرة الافعال توجب حصول الملكات الراسخة ولا شك انه لما كانت كثرة الافعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الافعال حتى اللمحة واللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فانه يوجب أثرا ما في حصول تلك الحالة في النفس فهذا هو الحساب وعند التأمل في هذه الفصول يتبين للانسان صدق قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره اذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم في الاعراض عما سوى الله وفي الاقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولا جرم حصل لهم الحسنى * وأما

تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان عن الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة في الاخبار شيأ آخر وهو وصولها الى المعاهدين وانما الحقيق بأن يعتنى بافادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها اليهم فان حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارا وحق الاخبار بعد العلم بثبوتها لما هي له أن تكون صفات كما حقق في موضعه وقرئ من الله بكسر النون على أن الاصل في تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح في لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب في عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب من أهل مكة وغيرهم باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا الا بني ضمرة وبني كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد الى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤا وانما نسبت البراءة الى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم في حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للانباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأى المخاطبين لانها عبارة عن انهاء حكم الامان ورفع الخطر المترتب على العهود

الاشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء الحساب والمراد بسوء الحساب انهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى (والنوع الثالث) قوله تعالى ومأواهم جهنم وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاستعداد بخدمة حضرة المولى عاكفين على لذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك قال مأواهم جهنم ثم انه تعالى وصف هذا المأوى فقال وبئس المهاد ولا شك ان الامر كذلك ❊ ثم قال تعالى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى فهذه اشارة الى المثل المتقدم ذكره وهو ان العالم بالشئ كالبصير والجاهل به كالاعمى وليس أحدهما كالآخر لان الاعمى اذا أخذ يمشي من غير قائد فالظاهر انه يقع في البئر وفي المهالك وربما أفسد ما كان على طريقه من الامتعة النافعة أما البصير فانه يكون آمنا من الهلاك والاهلاك ثم قال انما يتذكر أولوا الالباب والمراد انه لا ينتفع بهذه الامثلة الا أرباب الالباب الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث الى سره ولبابه ❊ قوله عزوجل ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا فيه قولان (الاول) انها متعلقة بما قبلها وعلى هذا التقدير ففيه وجهان (الاول) انه يجوز أن يكون قوله الذين يوفون بعهد الله صفة لاولي الالباب (والثاني) أن يكون ذلك صفة لقوله أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق (والقول الثاني) أن يكون قوله الذين يوفون بعهد الله مبتدأ وأولئك لهم عقبى الدار خبره كقوله والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة ❊ واعلم أن هذه الآية من أولها الى آخرها جملة واحدة شرط وجزاء وشرطها مشتمل على قيود وجزاؤها يشتمل أيضا على قيود ❊ أما القيود المعتبرة في الشرط فهي تسعة (القيد الاول) قوله الذين يوفون بعهد الله وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى (والثاني) ان المراد بعهد الله كل أمر قام الدليل على صحته وهو من وجهين (أحدهما) الاشياء التي أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لا تقبل النسخ والتغيير (والآخر) التي أقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الاحكام والحاصل انه دخل تحت قوله يوفون بعهد الله كل ما قام الدليل عليه ويصح اطلاق لفظ العهد على الحجة بل الحق انه لا عهد أوكد من الحجة والدلالة على ذلك ان من حلف على الشئ فانما يلزمه الوفاء به اذا ثبت بالدليل جوازه لا بمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه أن يحنث نفسه اذا كان ذلك خيرا له فلا عهد أوكد من الزام الله تعالى اياه ذلك بدليل العقل أو بدليل السمع ولا يكون العبد موفيا بالعهد الا أن يأتي بكل تلك الاشياء كما أن الحالف على أشياء كثيرة لا يكون بارا في يمينه الا اذا فعل الكل ويدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات ويدخل فيه أداء الامانات وهذا القول هو المختار الصحيح في تأويل الآية (القيد الثاني) قوله ولا ينقضون الميثاق وفيه أقوال (الاول) وهو قول الاكثرين ان هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد فان الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد وهذا مثل أن يقول انه لما وجب وجوده لزم أن يمتنع عدمه فهذان المفهومان متغايران الا أنهما متلازمان فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه أن لا ينقض الميثاق واعلم أن الوفاء بالعهد من أجل مراتب السعادة قال عليه السلام لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة في القرآن (والقول الثاني) ان الميثاق ما وثقه المكلف على نفسه فالحاصل ان قوله الذين يوفون بعهد الله اشارة الى ما كلف الله العبد به ابتداء وقوله ولا ينقضون الميثاق اشارة الى ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختيار

السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عزوجل لانه أمر كسائر الاوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شئ أصلا واشتراك المسلمين في حكمها ووجوب العمل بموجبها انما هو على طريقة الامتثال بالامر لا على أن يكون لهم مدخل في اتمامها أو في ترتب أحكامها عليها وأما المعاهدة فحيث كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تحصل في نفسها ولا تترتب عليها أحكامها الا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وانما الصادر عنه في شأنها هو الاذن فيها وانما الذي يباشرها ويتولى أمرها المسلمون ولا يخفى أن البراءة انما تتعلق بالعهد لا بالاذن فيه فنسبت كل واحدة منهما الى من هو أصل فيها على أن في ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لامرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزي والخذلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وادراجه عليه الصلاة والسلام في النسبة الاولى واخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع واجلال قدره المنيع في كلا المقامين صلى الله عليه وسلم وايثار الجملة الاسمية

نفسه كالنذر بالطاعات والخيرات (والقول الثالث) ان المراد بالوفاء بالعهد عهد الربوبية والعبودية والمراد بالميثاق المواثيق المذكورة فى التوراة والانجيل وسائر الكتب الالهية على وجوب الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره * واعلم أن الوفاء بالعهد أمر مستحسن فى العقول والشرائع قال عليه السلام من عاهد الله فغدر كانت فيه خصلة من النفاق وعنه عليه السلام ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى عهدا ثم غدر ورجل استأجر أجيرا استوفى عمله وظلمه أجره ورجل باع حرا فاسترق الحر وأكل ثمنه وقيل كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد أن يذهب اليهم وينقض العهد فاذا رجل على فرس يقول وفاء بالعهد لا غدر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذن اليهم عهده ولا يحلها حتى ينقضى الامد وينبذ اليهم على سواء قال من هذا قالوا عمرو ابن عيينة فرجع معاوية (القيد الثالث) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل (وههنا سؤال) وهو أن الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الاتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فما الفائدة فى ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما (والجواب) من وجهين (الاول) انه ذكر ائلا يظن ظان ان ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا جرم أفرد ما بينه وبين العباد بالذكر (والثانى) انه تأكيد اذا عرفت هذا فنقول ذكروا فى تفسيره وجوها (الاول) أن المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام ثلاث يأتين يوم القيامة لها ذلق الرحم تقول أى رب قطعت والامانة تقول أى رب تركت والنعمة تقول أى رب كفرت (والقول الثانى) ان المراد صلة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤازرته ونصرته فى الجهاد (والقول الثالث) رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب اخوة الايمان كما قال انما المؤمنون اخوة ويدخل فى هذه الصلة امدادهم بايصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الامكان وعيادة المريض وشهود الجنائز وافشاء السلام على الناس والتبسم فى وجوههم وكف الاذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة وعن الفضيل بن عياض رحمه الله ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم قالوا من خراسان فقال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا أن العبد لو أحسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين * وأقول حاصل الكلام أن قوله الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل اشارة الى الشفقة على خلق الله (القيد الرابع) قوله ويخشون ربهم والمعنى انه وان أتى بكل ما قدر عليه فى تعظيم أمر الله وفى الشفقة على خلق الله الا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستوليا على قلبه وهذه الخشية نوعان (أحدهما) أن يكون خائفا من أن يقع زيادة أو نقصان أو خلل فى عباداته وطاعاته بحيث يوجب فساد العبادة أو يوجب نقصان ثوابها (والثانى) وهو خوف الجلال وذلك لان العبد اذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فانه وان كان فى عين طاعته الا أنه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة (القيد الخامس) قوله ويخافون سوء الحساب اعلم أن القيد الرابع اشارة الى الخشية من الله وهذا القيد الخامس اشارة الى الخوف والخشية وسوء الحساب وهذا يدل على أن المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة والالزم التكرار (القيد السادس) قوله تعالى والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الامراض والمضار والغموم والاحزان والصبر على ترك المشتهيات وبالجملة الصبر على ترك المعاصى وعلى أداء الطاعات ثم ان الانسان قد يقدم على الصبر لوجوه (أحدها) أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل (وثانيها) أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع (وثالثها) أن يصبر لئلا تحصل شماتة الاعداء (ورابعها) أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة فى الجزع فالانسان اذا أتى بالصبر لاحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلا فى كمال النفس وسعادة القلب أما اذا صبر على البلاء لعلمه بأن ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه بل لا بد أن تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضى بذلك لانه تصرف المالك فى

على الفعلية كأن يقال قد برئ الله ورسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها للتوسل الى تهويلها بالتنوين التفخيمى كما أشير اليه (فسيحوا) السياحة والسيح الذهاب فى الارض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس فى سيروا ونظائره وزيادة قوله عز وجل (فى الارض) لقصد التعميم لاقطارها من دار الاسلام وغيرها والمراد اباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الاهل والمال وتحصيل المهرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه اليهم مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضا للمبالغة فى الاعلام بالامهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد وايثار صيغة الامر مع تسنى افادة ذلك المعنى بطريق الاخبار أيضا كأن يقال مثلا فلكم أن تسيحوا أو نحو ذلك لاظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الامر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الجواب على أن الاول مترتب على نفسه والثانى بكلا متعاقبيه على عنوان

ماحكه

كونه من الله العزيز لا الترتيب الاول عليه والثاني على الاول كما في قوله تعالى قل سيروا في الارض فانظروا الخ كانه قيل

ملكه ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملكه أو يصبر لانه صار مستغرقا في مشاهدة المبلي فكان استغراقه في تجلي نور المبلي أذهله عن التألم بالبلاء وهذا أعلى مقامات الصديقين فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها أنه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه انه صبر لمجرد ثوابه وطلب رضا الله تعالى * واعلم أن قوله ابتغاء وجه ربهم فيه دقيقة وهي أن العاشق اذا ضربه معشوقه فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله ابتغاء وجه ربهم محمول على هذا المجاز يعني كما أن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر الى وجه معشوقه فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة و يرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحق وهذه دقيقة لطيفة (القيد السابع) قوله وأقاموا الصلاة واعلم أن الصلاة والزكاة وان كانتا داخلتين في الجملة الاولى الا أنه تعالى أفردها بالذكر تنبيها على كونها أشرف من سائر العبادات وقد سبق في هذا الكتاب تفسير اقامة الصلاة ولا يمتنع ادخال النوافل فيه أيضا (القيد الثامن) قوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الحسن المراد الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك أداء الزكاة فالاولى أداؤها سرا وان اتهم بترك الزكاة فالاولى أداؤها في العلانية وقيل السر ما يؤديه بنفسه والعلانية ما يؤديه الى الامام وقال آخرون بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التي يؤتى بها على صفة التطوع فقوله سرا يرجع الى التطوع وقوله علانية يرجع الى الزكاة الواجبة (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة انه تعالى رغب في الانفاق من كل ما كان رزقا وذلك يدل على أنه لا رزق الا الحلال اذ لو كان الحرام رزقا لكان قد رغب تعالى في انفاق الحرام وانه لا يجوز (القيد التاسع) قوله و يدرؤن بالحسنة السيئة وفيه وجهان (الاول) انهم اذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها (والثاني) أن المراد أنهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وعن ابن عمر رضي الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن الحسن هم الذين اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا ويروى أن شقيق بن ابراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكرا فقال من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه فقال اذا منعوا صبروا وان أعطوا شكروا فقال عبد الله طريقة كلابنا هكذا فقال وكيف ينبغي أن يكون فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا * واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة (القيد الاول) قوله أولئك لهم عقبى الدار أي عاقبة الدار وهي الجنة لانها هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها قال الواحدي العقبى كالعاقبة ويجوز أن تكون مصدرا كالشورى والقربى والرجعى وقد يجيء مثل هذا أيضا على فعلى كالنجوى والدعوى وعلى فعلى كالذكرى والضيزى ويجوز أن يكون اسما وهو ههنا مصدر مضاف الى الفاعل والمعنى أولئك لهم أن تعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة (القيد الثاني) قوله جنات عدن يدخلونها وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج جنات عدن بدل من عقبى والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن وذكرنا هنالك مذهب المفسرين ومذهب أهل اللغة (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو يدخلونها بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على اسناد الدخول اليهم (القيد الثالث) قوله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن علية صلح بضم اللام قال صاحب الكشاف والفتح أفصح (المسئلة الثانية) قال الزجاج موضع من رفع لاجل العطف على الواو في قوله يدخلونها ويجوز أن يكون نصبا كما تقول قد دخلوا وزيدا أي مع زيد (المسئلة الثالثة) في قوله ومن صلح قولان (الاول) قال ابن عباس يريد من صدق بما صدقوا به وان لم يعمل مثل أعمالهم وقال الزجاج بين تعالى أن الانساب لا تنفع اذا لم يحصل معها أعمال صالحة بل الآباء

هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا في تحصيل العدد والاسباب وبالغوا في اعداد العتاد من كل باب (أربعة أشهر واعلموا أنكم) بسياحتكم في أقطار الارض في العرض والطول وان ركبتم متن كل صعب وذلول (غير معجزي الله) أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن (وأن الله) وضع الاسم الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل أمر الاخزاء وهو الاذلال بما فيه فضيحة وعار (مخزي الكافرين) أى مخزيكم ومذلكم في الدنيا بالقتل والاسر وفي الآخرة بالعذاب وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالاشراك وللاشعار بأن علة الاخزاء هي كفرهم ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا والمراد بالاشهر الاربعة هي الاشهر الحرم التي علق القتال بانسلاخها فقيل هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرما

لحرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذي الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذي القعدة الى عشر من شهر ربيع الاول لان الحج في تلك السنة

والازواج والذريات لايدخلون الجنة الا بالاعمال الصالحة قال الواحدى والصحيح ماقال ابن عباس لان الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه فى الجنة وذلك يدل على انهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتى بالاعمال الصالحة ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن فى ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة فى الوعد به اذ كل من كان مصلحا فى عمله فهو يدخل الجنة واعلم أن هذه الحجة ضعيفة لان المقصود بشارة المطيع بكل مايزيده سرورا وبهجة فاذا بشر الله المكلف بأنه اذا دخل الجنة فانه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلاشك أنه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكرون الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى فى صفة أهل الجنة انهم يقولون ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله وأزواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وما روى عن سودة أنه لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يارسول الله أحشر فى زمرة نسائك كالدليل على ماذكرناه ﴿القيد الرابع﴾ قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم سلام عليكم بما صبرتم على أمر الله وقال أبو بكر الاصم من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون نعم ما أعقبكم الله بعد الدار الاولى واعلم أن دخول الملائكة ان حملناه على الوجه الاول فهو مرتبة عظيمة وذلك لان الله تعالى أخبر عن هؤلاء المطيعين أنهم يدخلون جنة الخلد ويجتمعون بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم على أحسن وجه ثم ان الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لاجل التحية والاكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقولهم فنعم عقبى الدار ولاشك أن هذا غير مايذكره المتكلمون من أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالاجلال والتعظيم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتى قبور الشهداء رأس كل حول فيقول السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار والخلفاء الاربعة هكذا كانوا يفعلون وأما ان حملناه على الوجه الثانى فتفسير الآية ان الملائكة طوائف منهم روحانيون ومنهم كروبيون فالعبد اذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسى وروح علوى يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص فعند الموت اذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الارواح السماوية مايناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لاتظهر الا فى مقام الصبر ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لاتتجلى الا من مقام الشكر وهكذا القول فى جميع المراتب ﴿المسئلة الثانية﴾ تمسك بعضهم بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال انه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والاكرام والتعظيم فكانوا به أجل مرتبة من البشر ولو كانوا أقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لاجل السلام والتحية موجبا علو درجاتهم وشرف مراتبهم ألا ترى أن من عاد من سفره الى بيته فاذا قيل فى معرض كمال مرتبته انه يزوره الامير والوزير والقاضى والمفتى فهذا يدل على ان درجة ذلك المزور أقل وأدنى من درجات الزائرين فكذلك ههنا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال الزجاج ههنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لان فى الكلام دليلا عليه وأما قوله بما صبرتم فنعم عقبى الدار ففيه وجهان ﴿أحدهما﴾ انه متعلق بالسلام والمعنى أنه انما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات وترك المحرمات ﴿والثانى﴾ أنه متعلق بمحذوف والتقدير ان هذه الكرامات التى ترونها وهذه الخيرات التى تشاهدونها انما حصلت بواسطة ذلك الصبر ﴿ قوله تعالى ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر

كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ثم صار فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك قوله عليه الصلاة والسلام ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضى الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا رضى الله عنه على العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام لو بعثت بها الى أبى بكر فقال صلى الله عليه وسلم لايؤدى عنى الا رجل منى وذلك لان عادة العرب أن لايتولى أمر العهد والنقض على القبيلة الا رجل منها فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال ياأيها الناس انى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لايقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وأن يتم الى كل ذى عهد عهده ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ أى اعلام منهما فعال بمعنى الافعال

ماترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الاشقياء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكروهة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وقد بينا أن عهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لانها أوكد من كل عهد وكل يمين اذ الايمان انما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها والمراد من نقض هذه العهود أن لا ينظر المرء فى الادلة أصلا فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه أو بأن ينظر فى الشبهة فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله من بعد ميثاقه أى من بعد أن وثق الله تلك الادلة وأحكمها لانه لا شئ أقوى مما دل الله على وجوبه فى أنه ينفع فعله ويضر تركه فان قيل اذا كان العهد لا يكون الا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله من بعد ميثاقه قلنا لا يمتنع أن يكون المراد بالعهد هو ما كلف الله العبد به والمراد بالميثاق الادلة المؤكدة لانه تعالى قد يؤكد العهد بدلائل أخرى سواء كانت تلك المؤكدات دلائل عقلية أو سمعية ثم قال تعالى ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل وذلك فى مقابلة قوله والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق ثم قال ويفسدون فى الارض وذلك الفساد هو الدعاء الى غير دين الله وقد يكون بالظلم فى النفوس والاموال وتخريب البلاد ثم انه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال أولئك لهم اللعنة واللعنة من الله الابعاد من خيرى الدنيا والآخرة الى ضدهما من عذاب ونقمة ولهم سوء الدار لان المراد جهنم وليس فيها الا ما يسوء الصائر اليها ﴿قوله تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع﴾ اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات فى الدنيا فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولا تعلق له بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن مضيقا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان قال الواحدى معنى القدر فى اللغة قطع الشئ على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان وقال المفسرون معنى يقدر ههنا يضيق ومثله قوله تعالى ومن قدر عليه رزقه أى ضيق ومعناه انه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شئ وأما قوله وفرحوا بالحياة الدنيا فهو راجع الى من بسط الله له رزقه وبين تعالى ان ذلك لا يوجب الفرح لان الحياة العاجلة بالنسبة الى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة الى ما لا نهاية له ﴿قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ اعلم أن الكفار قالوا يا محمد ان كنت رسولا فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام فأجاب عن هذا السؤال بقوله قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول ان الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ولكن الاضلال والهداية من الله فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة وهدى أقواما آخرين اليها حتى عرفوا بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوى النبوة واذا كان كذلك فلا فائدة فى تكثير الآيات والمعجزات (وثانيها) أنه كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم وذلك لان الآيات الباهرة المتكاثرة التى ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعا للتعجب والاستنكار فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل الى اهتدائكم وان أنزلت كل آية ويهدى من كان على خلاف صفتكم (وثالثها) انهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة فى ظهور الآيات والمعجزات فان الاضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات

كالعطاء بمعنى الاعطاء ورفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وانما قيل (الى الناس) أى كافة لان الاذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضا (يوم الحج الاكبر) هو يوم العيد لان فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولان الاعلام كان فيه ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام الحج عرفة ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر أو لان المراد بالحج ما يقع فى ذلك اليوم من أعماله فانه أكبر من باقى الاعمال أو لان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين (أن الله) أى بأن الله وقرئ بالكسر لما أن الاذان فيه معنى القول (برئ من المشركين) أى المعاهدين الناكثين (ورسوله) عطف على المستكن فى برئ أو على محل ان واسمها على قراءة الكسر وقرئ بالنصب عطفا على اسم ان أو لان الواو بمعنى مع أى برئ معه منهم وبالجر على الجوار وقيل على القسم (فان تبتم) من الشرك والغدر التفات من الغيبة الى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والفاء لترتيب مقدم الشرطية

الكثيرة ولم تحصل الهداية فاية لم يحصل الانتفاع بها ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فانه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله فى طلب الهدايات (ورابعها) قال أبو على الجبائى المعنى ان الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى الى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والاضلال عن الثواب ويهدى اليه من أناب أى يهدى الى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين ان الهدى هو الثواب من حيث انه عقبه بقوله من أناب أى تاب والهدى الذى يفعله بالمؤمن هو الثواب لانه يستحقه على ايمانه وذلك يدل على انه تعالى انما يضل عن الثواب بالعقاب لا عن الدين بالكفر على مذهب اليه من خالفنا هذا تمام كلام أبى على وقوله أناب أى أقبل الى الحق وحقيقته دخل فى توبة الخير ﴿قوله تعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ اعلم ان قوله الذين آمنوا بدل من قوله من أناب قال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت ﴿فان قيل أليس انه تعالى قال فى سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان ﴿والجواب من وجوه (الاول) انهم اذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصى فهناك وصفهم بالوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك واحد الامرين لا ينافى الآخر لان الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب ويوجد الوجل فى حال فكرهم فى المعاصى وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات (الثانى) ان المراد أن علمهم بكون القرآن معجزا يوجب حصول الطمأنينة لهم فى كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا من عند الله أما شكهم فى أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل فى قلوبهم (الثالث) أنه حصلت فى قلوبهم الطمأنينة فى ان الله تعالى صادق فى وعده ووعيده وان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق فى كل ما أخبر عنه الا أنه حصل الوجل والخوف فى قلوبهم انهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا ﴿واعلم ان لنا فى قوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ابحاثا دقيقة غامضة وهى من وجوه (الاول) ان الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يتأثر ومتأثر لا يؤثر وموجود يؤثر فى شئ ويتأثر عن شئ فالمؤثر الذى لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى والمتأثر الذى لا يؤثر هو الجسم فانه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية وليس له خاصية الا القبول فقط وأما الموجود الذى يؤثر تارة ويتأثر أخرى فهى الموجودات الروحانية وذلك لانها اذا توجهت الى الحضرة الالهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وايجاده واذا توجهت الى عالم الاجسام اشتاقت الى التصرف فيها لان عالم الارواح مدبر لعالم الاجسام واذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه الى مطالعة عالم الاجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد الى الاستيلاء عليها والتصرف فيها أما اذا توجه القلب الى مطالعة الحضرة الالهية حصل فيه أنوار الصمدية والاضواء الالهية فهناك يكون ساكنا فلهذا السبب قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب (الثانى) أن القلب كلما وصل الى شئ فانه يطلب الانتقال منه الى حالة أخرى أشرف منها لانه لا سعادة فى عالم الاجسام الا وفوقها مرتبة أخرى فى اللذة والغبطة أما اذا انتهى القلب والعقل الى الاستسعاد بالمعارف الالهية والاضواء الصمدية بقى واستقر فلم يقدر على الانتقال منه البتة لانه ليس هناك درجة أخرى فى السعادة أعلى منها وأكمل فلهذا المعنى قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب (والوجه الثالث) فى تفسير هذه الكلمة أن الاكسير اذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسى انقلب ذهبا باقيا على كر الدهور والازمان صابرا على الذوبان الحاصل بالنار فاكسير جلال الله تعالى اذا وقع فى القلب أولى أن يقلبه جوهرا باقيا صافيا نورانيا لا يقبل التغير والتبدل فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴿ثم قال تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى تفسير كلمة طوبى ثلاثة أقوال (الاول) انها اسم شجرة فى الجنة روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال طوبى

على الاذان بالبراءة المقيدة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم (فهو) أى فالتوب (خير لكم) فى الدارين (وان توليتم) عن التوبة أو ثبتم على التولى عن الاسلام والوفاء (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) غير سابقين ولا فائتين (وبشر الذين كفروا) تلوين للخطاب وصرف له عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لان البشارة (بعذاب أليم) وان كانت بطريق التهكم انما تليق بمن يقف على الاسرار الالهية (الا الذين عاهدتم من المشركين) استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة الى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى وأذان من الله ورسوله الخ لانه ليس بأجنبى بالكلية بل هو أمر باعلام تلك البراءة كأنه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الاول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الاول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر فى فسيحوا أى قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن

شجرة في الجنة غرسها الله بيده تنبت الحلي والحلل وأن أغصانها لترى من وراء سور الجنة وحكى أبو بكر الاصم رضي الله عنه ان أصل هذه الشجرة في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي دار كل مؤمن منها غصن (والقول الثاني) وهو قول أهل اللغة ان طوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت طيبا ثم اختلفوا على وجوه فقيل فرح وقرة عين لهم عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل نعم ما لهم عن عكرمة وقيل غبطة لهم عن الضحاك وقيل حسنى لهم عن قتادة وقيل خير وكرامة عن أبي بكر الاصم وقيل العيش الطيب لهم عن الزجاج واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ والحاصل أنه مبالغة في نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات وتفسيره ان أطيب الاشياء في كل الامور حاصل لهم (والقول الثالث) ان هذه اللفظة ليست عربية ثم اختلفوا فقال بعضهم طوبى اسم الجنة بالحبشية وقيل اسم الجنة بالهندية وقيل البستان بالهندية وهذا القول ضعيف لانه ليس في القرآن الا العربي لاسيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر ﴿المسئلة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف الذين آمنوا مبتدأ وطوبى لهم خبره ومعنى طوبى لك أي أصبت طيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك والقراءة في قوله وحسن مآب بالرفع والنصب تدلك على محلها وقرأ مكوزة الاعرابي طيبي لهم أما قوله وحسن مآب فالمراد حسن المرجع والمقر وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيبا في طاعته وتحذيرا عن المعصية ﴿قوله تعالى﴾ ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب﴾ اعلم أن الكاف في كذلك للتشبيه فقيل وجه التشبيه أرسلناك كما أرسلنا الانبياء قبلك في أمة قد خلت من قبلها أمم وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة وقيل كما أرسلنا الى أمم وأعطيناهم كتبا تتلى عليهم كذلك أعطيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره وقال صاحب الكشاف كذلك أرسلناك أي مثل ذلك الارسال أرسلناك يعني أرسلناك ارسالا له شأن وفضل على سائر الارسالات ثم فسر كيف أرسله فقال في أمة قد خلت من قبلها أمم أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم فهي آخر الامم وأنت آخر الانبياء أما قوله لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك فالمراد لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن أي وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذي رحمته وسعت كل شئ وما بهم من نعمة فمنه وكفروا بنعمته في ارسال مثلك اليهم وانزال هذا القرآن المعجز عليهم قل هو ربي الواحد المتعالي عن الشركاء لا اله الا هو عليه توكلت في نصرتي عليكم واليه متاب فيعينني على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل نزل قوله وهم يكفرون بالرحمن في عبد الله بن أمية المخزومي وكان يقول أما الله فنعرفه وأما الرحمن فلا نعرفه الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فقال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وكقوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن وقيل انه عليه الصلاة والسلام حين صالح قريشا من الحديبية كتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال المشركون ان كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فكتب كذلك ولما كتب في الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم قالوا أما الرحمن فلا نعرفه وكانوا يكتبون باسمك اللهم فقال عليه السلام اكتبوا كما تريدون واعلم أن قوله وهم يكفرون بالرحمن اذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا باطلاق هذا الاسم على الله تعالى لا أنهم كفروا بالله تعالى وقال آخرون بل كفروا بالله اما جحدا له واما لاثباتهم الشركاء معه قال القاضي وهذا القول أليق بالظاهر لان قوله تعالى وهم يكفرون بالرحمن يقتضي انهم كفروا بالله وهو المفهوم من الرحمن وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو دون اسمه ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الامر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد﴾ اعلم أنه روى أن أهل مكة قعدوا في فناء مكة فأتاهم الرسول صلى الله

الذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط وقرئ بالمعجمة أي لم ينقضوا عهدكم شيأ من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة (ولم يظاهروا) أي لم يعاونوا (عليكم أحدا) من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة في غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح (فأتموا اليهم عهدهم) أي أدوه اليهم كاملا (الى مدتهم) ولا تفاجؤهم بالقتال عند مضي الاجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن عباس رضي الله عنهما بقي لحي من بني كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم اليهم عهدهم (ان الله يحب المتقين) تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وان التسوية بين الوفي والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا (فاذا انسلخ) أي انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والاغلب اسناده الى الجلد والمعنى اذا انقضى (الاشهر الحرم) وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهللنا شهر كذا أي

عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومي سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها أو أحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أي من أماكنها أو قطعت به الارض أي شققت فجعلت أنهارا وعيونا أو كلم به الموتى لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك وحذف جواب لو لكونه معلوما وقال الزجاج المحذوف هو أنه لو أن قرآنا سيرت به الجبال وكذا وكذا لما آمنوا به كقوله ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى ثم قال تعالى بل لله الامر جميعا يعني ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وليس لاحد أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه * ثم قال تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ في قوله أفلم ييأس قولان (أحدهما) أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان (الاول) ييأس يعلم في لغة النخع وهذا قول أكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن وقتادة واحتجوا عليه بقول الشاعر

ألم ييأس الاقوام أني أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

وأنشد أبو عبيدة

أقول لهم بالشعب اذ يأسرونني * ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي ألم تعلموا وقال الكسائي ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت البتة (والوجه الثاني) ما روي أن عليا وابن عباس كانا يقرآن أفلم يتبين الذين آمنوا فقيل لابن عباس أفلم ييأس فقال أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس انه كان في الخط يتبين فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقرئ ييأس وهذا القول بعيد جدا لانه يقتضي كون القرآن محلا للتحريف والتصحيف وذلك يخرجه عن كونه حجة قال صاحب الكشاف ما هذا القول والله الا فرية بلا مرية (والقول الثاني) قال الزجاج المعنى أو ييئس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء لان الله لو شاء لهدى الناس جميعا وتقريره أن العلم بأن الشئ لا يكون يوجب اليأس من كونه والملازمة توجب حسن المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ اليأس لارادة العلم ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج أصحابنا بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره والمعنى أنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس والمعتزلة تارة يحملون هذه المشيئة على مشيئة الالجاء وتارة يحملون الهداية على الهداية الى طريق الجنة وفيهم من يجري الكلام على الظاهر ويقول انه تعالى ما شاء هداية جميع الناس لانه ما شاء هداية الاطفال والمجانين فلا يكون شائيا لهداية جميع الناس والكلام في هذه المسئلة قد سبق مرارا * أما قوله تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله الذين كفروا فيه قولان قيل أراد به جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار من القتل والسبي أوجب حصول الغم في قلب الكل وقيل أراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والالف واللام في لفظ الكفار للمعهود السابق وهو ذلك الجمع المعين ﴿المسئلة الثانية﴾ في الآية وجهان (الاول) ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير اليهم شرارها ويتعدى اليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم أو القيامة (والقول الثاني) ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب من مواشيهم أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة وكان الله قد وعده ذلك ثم قال ان الله لا يخلف الميعاد والغرض منه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه قال القاضي وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى في ميعاده وهذه الآية وان كانت واردة في حق الكفار الا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباسا منه الى مضى نصفه ثم نسلخه عن انفسنا جزأ فجزأ حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد

اذا ما سلخت الشهر أهللت مثله
كفى قاتلا سلخي الشهور واهلالي

وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتد من الايام والشهور والسنين فاذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الاشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدي المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها ما مر من الاشهر الاربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة الى وصفها بالحرمة تأكيدا لما ينبئ عنه اباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هي مع ما فهم من قوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم من تتمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الاول يكون المراد بالمشركين في قوله تعالى (فاقتلوا المشركين) الناكثين خاصة فلا يكون قتال الباقين مفهوما من عبارة النص بل من دلالته وعلى الثاني مفهوما من العبارة الا أنه يكون الانسلاخ وما نيط به من القتال حينئذ شيأ فشيأ لا دفعة واحدة كأنه قيل فاذا تم

السبب اذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق وجوابنا ان الخلف غير وتخصيص العموم غير ونحن لانقول بالخلف ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو ﴿قوله تعالى ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الارض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق ومالهم من الله من واق﴾ اعلم ان القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله تعالى انزل هذه الآية تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه فقال له ان أقوام سائر الانبياء استهزؤا بهم كما أن قومك يستهزؤن بك فأمليت للذين كفروا أى أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم فكيف كان عقابى لهم واعلم أنى سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من أولئك المتقدمين والاملاء الامهال وان يتركوا مدة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة على لهاف المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين مايجرى مجرى الحجاج ومايكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات واذا كان كذلك كان عالما بجميع أحوال النفوس وقادرا على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن ايصال الثواب اليها على كل الطاعات وايصال العقاب اليها على كل المعاصى وهذا هو المراد من قوله قائم على كل نفس بما كسبت وماذاك الا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى قائما بالقسط واعلم أنه لابد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على وجوه (الاول) التقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لاتنفع ولاتضر وهذا الجواب مضمر في قوله تعالى وجعلوا لله شركاء والتقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التى لاتضر ولاتنفع ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وماجاء جوابه لانه مضمر في قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله فكذا ههنا قال صاحب الكشاف يجوز أن يقدر ما يقع خبرا للمبتدا ويعطف عليه قوله وجعلوا والتقدير أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ولم يمجدوه وجعلوا له شركاء (والوجه الثانى) وهو الذى ذكره السيد صاحب حل العقد فقال نجعل الواو فى قوله وجعلوا واو الحال ونضمر للمبتدا خبرا يكون المبتدا معه جملة مقررة لامكان مايقارنها من الحال والتقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت موجود والحال انهم جعلوا له شركاء ثم أقيم الظاهر وهو قوله لله مقام المضمر تقريرا للالهية وتصريحا بها وهذا كما تقول جواد يعطى الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلى واعلم انه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال قل سموهم وانما يقال ذلك فى الامر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة الى أن لايذكر ولا يوضع له اسم فعند ذلك يقال سمه ان شئت يعنى انه أخس من ان يسمى ويذكر ولكنك ان شئت أن تضع له اسما فافعل فكأنه تعالى قال سموهم بالآلهة على سبيل التهديد والمعنى سواء سميتموهم بهذا الاسم أولم تسموهم به فانها فى الحقارة بحيث لاتستحق أن يلتفت العاقل اليها ثم زاد في الحجاج فقال أم تنبئونه بما لا يعلم فى الارض والمراد أتقدرون على أن تخبروه وتعلموه بأمر تعلمونه وهو لايعلمه وانما خص الارض بنفى الشريك عنها وان لم يكن شريك البتة لانهم ادعوا أن له شركاء فى الارض لا فى غيرها أم بظاهر من القول يعنى تموهون باظهار قول لاحقيقة له وهو كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم ثم انه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم فقال على وجه التحقير لما هم عليه بل زين للذين كفروا مكرهم قال الواحدى معنى بل ههنا كأنه يقول دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم وذلك لانه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد قولهم فكأنه يقول دع ذكر الدليل فانه لافائدة فيه لانه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل قال القاضى لاشبهة فى انه تعالى انما ذكر ذلك

ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الاشهر المعهودة الدائرة في كل سنة لا يساعده النظم الكريم وأما أنه يستدعي بقاء حرمة القتال فيها اذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداد به لا لانها نسخت بقوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة كما توهم فانه رجم بالغيب لانه ان أريد به ما فى سورة الانفال فانه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى قل للذين كفروا الخ أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة انما نزلت فى شوال سنة تسع وان أريد ما فى سورة البقرة فانه أيضا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ماقبله من قوله تعالى وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما ينزل بعده بل لان انعقاد الاجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة الى كون سنده منقولا الينا وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم (حيث وجدتموهم) من حل وحرم (وخذوهم) أى أسروهم والاخيذ الاسير (واحصروهم) أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب فى البلاد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام (واقعدوا لهم كل مرصد) أى فى كل ممر ومجتاز يجتازون منه فى أسفارهم

لاجل أن يذمهم به واذا كان كذلك امتنع أن يكون ذلك المزين هو الله بل لابد وأن يكون اما شياطين الانس واما شياطين الجن واعلم ان هذا التأويل ضعيف لوجوه (الاول) أنه لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الانس فالمزين فى قلب ذلك الشيطان ان كان شيطانا آخر لزم التسلسل وان كان هو الله فقد زال السؤال (والثانى) أن يقال القلوب لا يقدر عليها الا الله (والثالث) انا قد دللنا على أن ترجيح الداعى لا يحصل الا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل أما قوله وصدوا عن السبيل فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة والكسائى وصدوا بضم الصاد وفى حم المؤمن وصد عن السبيل على ما لم يسم فاعله يعنى أن الكفار صدهم غيرهم وعند أهل السنة ان الله صدهم وللمعتزلة فيه وجهان قيل الشيطان وقيل أنفسهم وبعضهم لبعض كما يقال فلان معجب وان لم يكن ثمة غيره وهو قول أبى مسلم والباقون وصدوا بفتح الصاد فى السورتين يعنى أن الكفار صدوا عن سبيل الله أى أعرضوا وقيل صرفوا غيرهم وهو لازم ومتعد وحجة القراءة الاولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول وحجة القراءة الثانية قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم قال ومن يضلل الله فماله من هاد اعلم ان أصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجوه (أولها) قوله بل زين للذين كفروا مكرهم وقد بينا بالدليل ان ذلك المزين هو الله (وثانيها) قوله وصدوا عن السبيل بضم الصاد وقد بينا ان ذلك الصاد هو الله (وثالثها) قوله ومن يضلل الله فماله من هاد وهو صريح فى المقصود وتصريح بأن ذلك المزين وذلك الصاد ليس الا الله (ورابعها) قوله تعالى لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق أخبر عنهم أنهم سيقعون فى عقاب الآخرة واخبار الله ممتنع التغير واذا امتنع وقوع التغير فى هذا الخبر امتنع صدور الايمان منه وكل هذه الوجوه قد لخصناها فى هذا الكتاب مرارا قال القاضى من يضلل الله أى عن ثواب الجنة لكفره وقوله فماله من هاد منبئ بذلك أن الثواب لا ينال الا بالطاعة خاصة فمن زاغ عنها لم يجد اليها سبيلا وقيل المراد بذلك من حكم بأنه ضال وسماه ضالا وقيل المراد من يضله الله عن الايمان بان يجده كذلك ثم قال والوجه الاول أقوى * واعلم أن الوجه الاول ضعيف جدا لان الكلام انما وقع فى شرح ايمانهم وكفرهم فى الدنيا ولم يجر ذكر ذهابهم الى الجنة البتة فصرف الكلام عن المذكور الى غير المذكور بعيد وأيضا فهب أنا نساعد على أن الامر كما ذكروه الا أنه تعالى لما أخبر أنهم لا يدخلون الجنة فقد حصل المقصود لان خلاف معلوم الله ومخبره محال ممتنع الوقوع واعلم أنه تعالى لما أخبر عنهم بتلك الامور المذكورة بين انه جمع لهم بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة الذى هو أشق وأنه لا دافع لهم عنه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة أما عذاب الدنيا فهو القتل والقتال واللعن والذم والاهانة وهل يدخل المصائب والامراض فى ذلك أم لا اختلفوا فيه قال بعضهم انها تدخل فيه وقال بعضهم انها لا تكون عقابا لان كل أحد نزلت به مصيبة فانه مأمور بالصبر عليها ولو كان عقابا لم يجب ذلك فالمراد على هذا القول من الآية القتل والسبى واغتنام الاموال واللعن وانما قال ولعذاب الآخرة أشق لانه أزيد ان شئت بسبب القوة والشدة وان شئت بسبب كثرة الانواع وان شئت بسبب أنه لا يختلط بها شئ من موجبات الراحة وان شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع ثم بين بقوله وما لهم من الله من واق أى ان أحدا لا يقيهم ما نزل بهم من عذاب الله قال الواحدى أكثر القراء وقفوا على القاف من غير اثبات ياء فى قوله واق وكذلك فى قوله ومن يضلل الله فماله من هاد وكذلك فى قوله وال وهو الوجه لانك تقول فى الوصل هذا هاد ووال وواق فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين فاذا وقفت انحذف التنوين فى الوقف فى الرفع والجر والياء كانت انحذفت فى الوصل فيصادف الوقف الحركة التى هى كسرة فى غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التى تقف عليها فيصير هاد ووال وواق وكان ابن كثير يقف بالياء فى هادى ووالى وواقى ووجهه ما حكى سيبويه أن بعض من يوثق به من العرب يقول هذا داعى فيقفون بالياء ۞ قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما

ذكر

وانتصابه على الظرفية أى أرصدهم وارقبوهم حتى لا يمروا به وفائدته على التفسير الثانى دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة (فان تابوا) عن الشرك بالايمان عما اضطروا بما ذكر من القتل والاسر والحصر (وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة) تصديقا لتوبتهم وايمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية (فخلوا سبيلهم) فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشئ مما ذكر (ان الله غفور رحيم) يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر ويثيبهم بايمانهم وطاعتهم وهو تعليل للامر بتخلية السبيل (وان أحد) شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادى التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين اثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لان ان لا تدخل الا على الفعل (من المشركين استجارك) بعد انقضاء الاجل المضروب أى سألك أن تؤمنه وتكون له جارا (فأجره) أى أمنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو اليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شئ آخر فى الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما عندها

لا بقوله تعالى استجارك لانه يؤدي الى اعمال حتى في المضمر وذلك مما لا يكاد يرتكب

في غير ضرورة الشعر كما في قوله

ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين وفي قوله مثل الجنة أقوال (الاول) قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليكم مثل الجنة (والثاني) قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا (والثالث) مثل الجنة مبتدأ وخبره تجري من تحتها الانهار كما تقول صفة زيد اسمر (والرابع) الخبر هو قوله أكلها دائم لانه الخارج عن العادة كأنه قال مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار كما تعلمون من حال جناتكم الا أن هذه أكلها دائم (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث (أولها) تجري من تحتها الانهار (وثانيها) أن أكلها دائم والمعنى أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة (وثالثها) ان ظلها دائم أيضا والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ثم انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين ان ذلك عقبى الذين اتقوا يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنة وعاقبة الكافرين النار وحاصل الكلام من هذه الآية ان ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام * واعلم أن قوله أكلها دائم فيه مسائل ثلاث (المسئلة الاولى) انه يدل على أن أكل الجنة لا تفنى كما يحكى عن جهم وأتباعه (المسئلة الثانية) أنه يدل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهي الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل وأتباعه (المسئلة الثالثة) قال القاضي هذه الآية تدل على ان الجنة لم تخلق بعد لانها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وأن ينقطع أكلها لقوله تعالى كل من عليها فان وكل شئ هالك الا وجهه لكن لا ينقطع أكلها لقوله تعالى أكلها دائم فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة ثم قال ولا ننكر أن يحصل الآن في السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ما روي في ذلك الا أن الذي نذهب اليه ان جنة الخلد خاصة انما تخلق بعد الاعادة (والجواب) أن دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله كل شئ هالك الا وجهه والاخرى قوله أكلها دائم وظلها فاذا أدخلنا التخصيص في أحد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص أحد هذين العمومين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة وهو قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين * قوله تعالى ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مآب﴾ اعلم أن في المراد بالكتاب قولين (الاول) انه القرآن والمراد أن أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص ومن الاحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة فان قيل الاحزاب ينكرون كل القرآن قلنا الاحزاب لا ينكرون كل ما في القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الانبياء والاحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الاشياء (والقول الثاني) أن المراد بالكتاب التوراة والانجيل وعلى هذا التقدير في الآية قولان (الاول) قال ابن عباس الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بأرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين قال القاضي وهذا الوجه أولى من الاول لانه لا شبهة في أن من أوتي القرآن فانهم يفرحون بالقرآن أما اذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن أن يقال ان الذين أوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به (والثاني) والذين آتيناهم الكتاب اليهود أعطوا التوراة والنصارى أعطوا الانجيل يفرحون بما أنزل في هذا القرآن لانه مصدق لما معهم ومن الاحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول مجاهد قال القاضي وهذا لا يصح لان قوله يفرحون بما أنزل اليك يعم جميع ما أنزل اليه ومعلوم أنهم لا يفرحون بكل ما أنزل اليه ويمكن أن يجاب فيقال ان قوله بما أنزل اليك لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظتي الكل

ذلا والله لا بالي أناس
في حتالك يا ابن ابي يزيد
كذا قيل الا أن تعلق
الاجارة بسماع كلام الله
تعالى بأحد الوجهين
يستلزم تعلق الاستجارة
أيضا بذلك أو بما في
معناه من أمور الدين وما
روي عن علي رضي الله
عنه أنه أتاه رجل من
المشركين فقال ان أراد
الرجل منا أن يأتي محمدا
بعد انقضاء هذا الاجل
لسماع كلام الله تعالى أو
لحاجة قتل قال لا لان الله
تعالى يقول وان أحد من
المشركين استجارك
فأجره الخ فالمراد بما فيه
من الحاجة هي الحاجة
المتعلقة بالدين لا ما يعمها
وغيرها من الحاجات
الدنيوية كما ينبئ عنه
قوله أن يأتي محمدا فان
من يأتيه عليه السلام
انما يأتيه للامور المتعلقة
بالدين (ثم أبلغه) بعد
استماعه له ان لم يؤمن
(مأمنه) أي مسكنه
الذي يأمن فيه وهو دار
قومه (ذلك) يعني الامر
بالاجارة وابلاغ المأمن
(بأنهم) بسبب أنهم (قوم
لا يعلمون) ما الاسلام وما
حقيقته أو قوم جهلة فلا
بد من اعطاء الامان حتى
يفهموا الحق ولا يبقى لهم
معذرة أصلا (كيف
يكون للمشركين عهد)

شروع في تحقيق حقيقة ما سبق من البراءة وأحكامها المتفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية الى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لان البراءة

والبعض عليه ولو كانت كلمة ما للعموم لكان ادخال لفظ الكل عليه تكريرا وادخال لفظ البعض عليه نقضا ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه في معرفة المبدا والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مآب وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به وفيه فوائد (أولها) أن كلمة انما للحصر ومعناه اني ما أمرت الا بعبادة الله تعالى وذلك يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهي الا بذلك (وثانيها) أن العبادة غاية التعظيم وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك (وثالثها) أن عبادة الله تعالى لا تمكن الا بعد معرفته ولا سبيل الى معرفته الا بالدليل فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته وما يجب ويجوز ويستحيل عليه (ورابعها) أن عبادة الله واجبة وهو يبطل قول نفاة التكليف ويبطل القول بالجبر المحض (وخامسها) قوله ولا أشرك به وهذا يدل على نفي الشركاء والانداد والاضداد بالكلية ويدخل فيه ابطال قول كل من أثبت معبودا سوى الله تعالى سواء قال ان ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الاصنام والاوثان والارواح العلوية أو يزدان وأهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله الثنوية (وسادسها) قوله اليه أدعو والمراد منه أنه كما وجب عليه الاتيان بهذه العبادة فكذلك يجب عليه الدعوة الى عبودية الله تعالى وهو اشارة الى نبوته (وسابعها) قوله واليه مآب وهو اشارة الى الحشر والنشر والبعث والقيامة فاذا تأمل الانسان في هذه الالفاظ القليلة ووقف عليها عرف انها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين ﴿ قوله تعالى ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى شبه انزاله حكما عربيا بما أنزل الى من تقدم من الانبياء أي كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم كذلك أنزلنا عليك القرآن والكناية في قوله أنزلناه تعود الى ما في قوله يفرحون بما أنزل اليك يعني القرآن ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله أنزلناه حكما عربيا فيه وجوه (الاول) حكمة عربية مترجمة بلسان العرب (الثاني) القرآن مشتمل على جميع أقسام التكاليف فالحكم لا يمكن الا بالقرآن فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة (الثالث) أنه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكما واعلم أن قوله حكما عربيا نصب على الحال والمعنى أنزلناه حال كونه حكما عربيا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قالت المعتزلة الآية دالة على حدوث القرآن من وجوه (الاول) انه تعالى وصفه بكونه منزلا وذلك لا يليق الا بالمحدث (الثاني) أنه وصفه بكونه عربيا والعربي هو الذي حصل بوضع العرب واصطلاحهم وما كان كذلك كان محدثا (الثالث) أن الآية دالة على انه انما كان حكما عربيا لان الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة وكل ما كان كذلك فهو محدث * والجواب ان كل هذه الوجوه دالة على ان المركب من الحروف والاصوات محدث ولا نزاع فيه والله أعلم ﴿المسئلة الرابعة﴾ روى أن المشركين كانوا يدعونه الى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب مثل أن يصلي الى قبلتهم بعد أن حوله الله عنها قال ابن عباس الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وقيل بل الغرض منه حث الرسول عليه الصلاة والسلام على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها ويتضمن ذلك أيضا تحذير جميع المكلفين لان من هو أرفع منزلة اذا حذر هذا التحذير فهم أحق بذلك وأولى ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعا من الشبهات في ابطال نبوته ﴿الشبهة الاولى﴾ قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وهذه الشبهة انما ذكرها الله تعالى في سورة أخرى ﴿والشبهة الثانية﴾ قولهم الرسول الذي يرسله الله الى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله لوما تأتينا بالملائكة وقوله لولا أنزل عليه ملك فأجاب الله تعالى عنه ههنا بقوله ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية يعني ان الانبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فاذا جاز ذلك في

انما هي في شأنهم والاستفهام انكاري لا بمعنى انكار الواقع كما في قوله تعالى وكيف تكفرون بالله الخ بل بمعنى انكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف في محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرا لكان صفة له أو بيكون عند من يجوز عمل الافعال الناقصة في الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لانه مصدر أو بيكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عند الله وللمشركين اما تبيين واما حال من عهد واما متعلق بيكون أو بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ولا يبالي بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الاخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما في صورة الكون التام وهو الاولى لان في انكار ثبوت العهد في نفسه من المبالغة ما ليس في انكار ثبوته للمشركين لان ثبوته الرابطي فرع ثبوته العيني فانتفاء الاصل يوجب انتفاء الفرع رأسا وفي توجيه الانكار الى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما ليس

حقهم فلم لا يجوز أيضا مثله في حقه ﴿الشبهة الثالثة﴾ عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة الزوجات وقالوا لو كان رسولا من عند الله لما كان مشتغلا بأمر النساء بل كان معرضا عنهن مشتغلا بالنسك والزهد فأجاب الله تعالى عنه بقوله ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وبالجملة فهذا الكلام يصلح أن يكون جوابا عن الشبهة المتقدمة ويصلح أن يكون جوابا عن هذه الشبهة فقد كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهيرة وسبعمائة سرية ولداود مائة امرأة ﴿والشبهة الرابعة﴾ قالوا لو كان رسولا من عند الله لكان أي شئ طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الامر كذلك علمنا أنه ليس برسول فأجاب الله عنه بقوله وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله وتقريره ان المعجزة الواحدة كافية في ازالة العذر والعلة وفي اظهار الحجة والبينة فأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله تعالى ان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها ولا اعتراض لاحد عليه في ذلك ﴿الشبهة الخامسة﴾ انه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه ثم ان ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الامور احتجوا بها على الطعن في نبوته وقالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فأجاب الله عنه بقوله لكل أجل كتاب يعني نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصرة للاولياء قضى الله بحصولها في أوقات معينة مخصوصة ولكل حادث وقت معين ولكل أجل كتاب فقبل حضور ذلك الوقت لا يحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لا يدل على كونه كاذبا ﴿الشبهة السادسة﴾ قالوا لو كان في دعوى الرسالة محقا لما نسخ الاحكام التي نص الله تعالى على ثبوتها في الشرائع المتقدمة نحو التوراة والانجيل لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة ونسخ أكثر أحكام التوراة والانجيل فوجب أن لا يكون نبيا حقا فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ويمكن أيضا أن يكون قوله لكل أجل كتاب كالمقدمة لتقرير هذا الجواب وذلك لانا نشاهد أنه تعالى يخلق حيوانا عجيب الخلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميته ويفرق أجزاءه وابعاضه فلما لم يمتنع أن يحيي أولا ثم يميت ثانيا فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الاوقات ثم ينسخه في سائر الاوقات فكان المراد من قوله لكل أجل كتاب ماذكرناه ثم انه تعالى لما قرر تلك المقدمة قال يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب والمعنى أنه يوجد تارة ويعدم أخرى ويحيي تارة ويميت أخرى ويغني تارة ويفقر أخرى فكذلك لا يبعد أن يشرع الحكم تارة ثم ينسخه أخرى بحسب ما اقتضته المشيئة الالهية عند أهل السنة أو بحسب ما اقتضته رعاية المصالح عند المعتزلة فهذا تمام التحقيق في تفسير هذه الآية ثم ههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله تعالى لكل أجل كتاب فيه أقوال (الاول) أن لكل شئ وقتا مقدرا فالآيات التي سألوها لها وقت معين حكم الله به وكتبه في اللوح المحفوظ فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكماتهم الفاسدة ولو أن الله أعطاهم ما التمسوا لكان فيه أعظم الفساد (الثاني) أن لكل حادث وقتا معينا قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ولا يتغير البتة عن ذلك الوقت (والثالث) أن هذا من المقلوب والمعنى أن لكل كتاب منزل من السماء أجلا ينزله فيه أي لكل كتاب وقت يعمل به فيه فوقت العمل بالتوراة والانجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر (والرابع) لكل أجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللانسان أحوال أولها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير شابا ثم شيخا وكذا القول في جميع الاحوال من الايمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح (الخامس) كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لا يعلمها الا الله تعالى فاذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولا يجوز حدوثه في غيره واعلم أن هذه الآية صريحة في أن الكل بقضاء الله وبقدره وأن الامور مرهونة بأوقاتها لان قوله لكل أجل كتاب معناه أن تحت كل أجل حادث معين ويستحيل أن يكون ذلك التعيين لاجل خاصية الوقت فان ذلك محال لان الاجزاء المفروضة في الاوقات المتعاقبة متساوية فوجب أن يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذي يحدث فيه بفعل الله تعالى واختياره وذلك يدل على ان الكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه الصلاة والسلام جف

في توجيهه الى ثبوته لان كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني أي على أي حال أوفي أي حال يوجد لهم عهد معتد به (عند الله وعند رسوله) يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه الى اتمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا ولا أخذا وأما أن يؤمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل الى اعتباره أصلا اذ لا دخل لعهدهم في ذلك الامن قطعا وان كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للايذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (الا الذين) استدراك من النفي المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أي لكن الذين (عاهدتم عند المسجد الحرام) وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكونه المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والاشعار بسببية وكادتها ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط وما اما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف أي فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم واما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أي أي زمان

القلم بما هو كائن الى يوم القيامة (المسئلة الثانية) يمحو الله ما يشاء ويثبت قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويثبت ساكنة الثاء خفيفة الباء من أثبت يثبت والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء من التثبيت وحجة من خفف ان ضد المحو الاثبات لا التثبيت ولان التشديد للتكثير وليس القصد بالمحو التكثير فكذلك ما يكون في مقابلته ومن شدد احتج بقوله وأشد تثبيتا وقوله فثبتوا (المسئلة الثالثة) المحو ذهاب أثر الكتابة يقال محاه يمحوه محوا اذا أذهب أثره وقوله ويثبت قال النحويون أراد ويثبته الا أنه استغنى بتعدية الفعل الاول عن تعدية الثاني وهو كقوله تعالى والحافظين فروجهم والحافظات (المسئلة الرابعة) في هذه الآية قولان (الاول) انها عامة في كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول في الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وهو مذهب عمر وابن مسعود والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون الى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقول الثاني) أن هذه الآية خاصة في بعض الاشياء دون البعض وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه (الاول) المراد من المحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر بدلا عن الاول (الثاني) أنه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة لانهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره وطعن أبو بكر الاصم فيه فقال انه تعالى وصف الكتاب بقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وقال أيضا فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره * أجاب القاضي عنه بأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمباح لا صغيرة ولا كبيرة وللاصم أن يجيب عن هذا الجواب فيقول انكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنب الصغير والكبيرة بالذنب الكبير وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين أما في أصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض لانه ان كان حقيرا فهو صغير وان كان غير ذلك فهو كبير وعلى هذا التقدير فقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها يتناول المباحات أيضا (الثالث) أنه تعالى أراد بالمحو أن من أذنب أثبت ذلك الذنب في ديوانه فاذا تاب عنه محي من ديوانه (الرابع) يمحو الله ما يشاء وهو من جاء أجله ويدع من لم يجئ أجله ويثبته (الخامس) أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فاذا مضت السنة محيت وأثبت كتاب آخر للمستقبل (السادس) يمحو نور القمر ويثبت نور الشمس (السابع) يمحو الدنيا ويثبت الآخرة (الثامن) انه في الارزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة وفيه حث على الانقطاع الى الله تعالى (التاسع) تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو وما حصل وحضر فهو الاثبات (العاشر) يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحد فهو المنفرد بالحكم كما يشاء وهو المستقل بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه واعلم أن هذا الباب فيه مجال عظيم * فان قال قائل ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الامر بأنف فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والاثبات * قلنا ذلك المحو والاثبات أيضا مما جف به القلم فلا يمحو الا ما سبق في علمه وقضائه محوه (المسئلة الخامسة) قالت الرافضة البداء جائز على الله تعالى وهو أن يعتقد شيأ ثم يظهر له أن الامر بخلاف ما اعتقده وتمسكوا فيه بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت * واعلم أن هذا باطل لان علم الله من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالا (المسئلة السادسة) أما أم الكتاب فالمراد أصل الكتاب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشئ أما له ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان (الاول) ان أم الكتاب هو اللوح المحفوظ وجميع حوادث العالم العلوي والعالم السفلي مثبت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان الله ولا شئ معه ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة قال المتكلمون الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل وعلى هذا التقدير فعند الله كتابان (أحدهما) الكتاب الذي يكتبه الملائكة على

الخلق

استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أي أي زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الاصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وأيا ما كان فحكم الامر بالاستقامة ينتهي بانتهاء مدة العهد لان استقامتهم الى وقت بقائها الاستقامة المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لا عهد ولا استقامة فصار عين الامر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم خلا أنه قد صرح ههنا بما لم يصرح به هنالك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الاتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء (ان الله يحب المتقين) تعليل للامر بالاستقامة واشعار بان القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر (كيف) تكرير لاستنكار ما مر من أن يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ما قيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما ترى لان ما يذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لانه شئ يستدعيه وانما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لهما وتمهيدا لتعداد العلل الموجبة لهما لاخلال تخلل ما في البين من الارتباط

الخالق وذلك الكتاب محل المحو والاثبات (والكتاب الثانى) هو اللوح المحفوظ وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع الاحوال العلوية والسفلية وهو الباقى روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى فى ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وللحكماء فى تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة (والقول الثانى) ان أم الكتاب هو علم الله تعالى فانه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وان تغيرت الا ان علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير فالمراد بأم الكتاب هو ذاك والله أعلم ❁ قوله تعالى ﴿وامانرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ اعلم أن المعنى وامانرينك بعض الذى نعدهم من العذاب أو نتوفينك قبل ذلك والمعنى سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراح والأداء ❁ قوله تعالى ﴿أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ اعلم أنه تعالى لما وعد رسوله بأن يريه بعض ما وعدوه أو يتوفاه قبل ذلك بين فى هذه الآية ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت وقوله أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها فيه أقوال (الاول) المراد أنا نأتى أرض الكفرة ننقصها من أطرافها وذلك لان المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهرا وجبرا فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والامارات على أن الله تعالى ينجز وعده ونظيره قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله سنريهم آياتنا فى الآفاق (والقول الثانى) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما ان قوله ننقصها من أطرافها المراد موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والاخيار وقال الواحدى وهذا القول وان احتمله اللفظ الا أن اللائق بهذا الموضع هو الوجه الاول ويمكن أن يقال هذا الوجه أيضا لا يليق بهذا الموضع وتقريره أن يقال أولم يروا ما يحدث فى الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الامر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد ان كانوا عزيزين ويجعلهم مقهورين بعد ان كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله وقيل ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ثم قال تعالى مؤكدا لهذا المعنى والله يحكم لا معقب لحكمه ومعناه لا راد لحكمه والمعقب هو الذى يعقبه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب ❁ فان قيل ما محل قوله لا معقب لحكمه ❁ قلنا هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه خاليا عن المدافع والمعارض والمنازع ثم قال وهو سريع الحساب قال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعنى ان حسابه للمجازاة بالخير والشر يكون سريعا قريبا لا يدفعه دافع أما قوله وقد مكر الذين من قبلهم يعنى أن كفار الامم الماضية قد مكروا برسلهم وأنبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى ثم قال فلله المكر جميعا قال الواحدى معناه أن مكر جميع الماكرين له ومنه أى هو حاصل بتخليقه وارادته لانه ثبت ان الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد وأيضا فذلك المكر لا يضر الا باذن الله تعالى ولا يؤثر الا بتقديره وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كأنه قيل له اذا كان حدوث المكر من الله تعالى وتأثيره فى الممكور به أيضا من الله وجب أن لا يكون الخوف الا من الله تعالى وأن لا يكون الرجاء الا من الله تعالى وذهب بعض الناس الى أن المعنى فلله جزاء المكر وذلك لانهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم قال الواحدى والاول أظهر القولين بدليل قوله يعلم ما تكسب كل نفس يريد أن أكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب

والتقريب وحذف الفعل المستنكر للايذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره لا لمجرد كونه معلوما كما فى قوله

وخبرتمانى انما الموت بالقرى ... فكيف وهاتا هضبة وكثيب

فانه علة مصححة لامرحه أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم (وان يظهروا عليكم) أى وحالهم أنهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم (لا يرقبوا فيكم) أى لا يراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نفى الرقوب من المبالغة ما ليس فى نفيهما (الا ولا ذمة) أى حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أو حقا يعاب على اغفاله مع ما سبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق يعنى ان وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فاذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال

علام تقبل منهم فدية وهم ... لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقيل الال من أسماء الله عز وجل أى لا يراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لانهم اذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شؤنهم

الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله تعالى قالت المعتزلة الآية الاولى ان دلت على قولكم فالآية الثانية وهي قوله يعلم ما تكسب كل نفس دالة على قولنا لان الكسب هو الفعل المشتمل على دفع مضرة أو جلب منفعة ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه أثر فوجب أن لا يكون للعبد كسب وجوابه ان مذهبنا ان مجموع القدرة مع الداعي مستلزم للفعل وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد فقال وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وسيعلم الكافر على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب الكشاف قرئ الكفار والكافرون والذين كفروا والكفر أي أهله وقرأ جناح بن حبيش وسيعلم الكافر من أعلمه أي سيخبر (المسئلة الثانية) المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر والمعنى انهم وان كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون لمن العاقبة الحميدة وذلك كالزجر والتهديد (والقول الثاني) وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون (والقول الثالث) وهو قول ابن عباس يريد أبا جهل والقول الاول هو الصواب ﴿ قوله تعالى ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن القوم انهم أنكروا كونه رسولا من عند الله ثم انه تعالى احتج عليهم بأمرين (الاول) شهادة الله على نبوته والمراد من تلك الشهادة انه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقا في ادعاء الرسالة وهذا أعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الامر كذلك أما المعجز فانه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله تعالى فكان اظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة (والثاني) قوله ومن عنده علم الكتاب وفيه قراءتان (احداهما) القراءة المشهورة ومن عنده يعني والذي عنده علم الكتاب (والثانية) ومن عنده علم الكتاب وكلمة من ههنا لابتداء الغاية أي ومن عند الله حصل علم الكتاب وأما على القراءة الاولى ففي تفسير الآية وجوه (الاول) أن المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري ويروى عن سعيد ابن جبير انه كان يبطل هذا الوجه ويقول السورة مكية فلا يجوز أن يراد به ابن سلام وأصحابه لانهم آمنوا في المدينة بعد الهجرة وأجيب عن هذا السؤال بأن قيل هذه السورة وان كانت مكية الا أن هذه الآية مدنية وأيضا فاثبات النبوة بقول الواحد والاثنين مع كونهما غير معصومين عن الكذب لا يجوز وهذا السؤال واقع (والقول الثاني) أراد بالكتاب القرآن أي ان الكتاب الذي جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر الا أنه لا يحصل العلم بكونه معجزا الا لمن علم ما في هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزا فقوله ومن عنده علم الكتاب أي ومن عنده علم القرآن وهو قول الاصم (القول الثالث) ومن عنده علم الكتاب المراد به الذي حصل عنده علم التوراة والانجيل يعني ان كل من كان عالما بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فاذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهدا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول حق من عند الله تعالى (القول الرابع) ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وهو قول الحسن وسعيد بن جبير والزجاج قال الحسن لا والله ما يعني الا الله والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وقال الزجاج الاشبه ان الله تعالى لا يستشهد على صحة حكمه بغيره وهذا القول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا في الجملة الا أنه خلاف الاصل لا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد به زيد الفقيه وأما قوله ان الله تعالى لا يستشهد بغيره على صدق حكمه فبعيد لانه لما جاز أن يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله والتين والزيتون فأي امتناع فيما ذكره الزجاج وأما القراءة الثانية وهي قوله ومن عنده علم الكتاب على من الجارة فالمعنى ومن لدنه علم الكتاب لان أحدا لا يعلم الكتاب الا من فضله واحسانه وتعليمه ثم على هذه القراءة ففيه أيضا قراءتان ومن عنده علم

الكتاب

الجملة والنافية بطريق الاستئناف وبين أنهم في حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء في شيء وأن ما يظهرونه مداهنة لا موادة فقيل (يرضونكم بأفواههم) حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالايمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالايمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الارضاء الى الافواه للايذان بان كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم (وتأبى قلوبهم) ما يفيده كلامهم (وأكثرهم فاسقون) خارجون عن الطاعة فان مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروأة رادعة ولا عقيدة وازعة ولا يتسترون كما يتعاطى بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجر أحدوثة السوء (اشتروا بآيات الله) بآياته الآمرة بالايفاء بالعهود والاستقامة في كل أمر أو بجميع آياته فيدخل فيها ما ذكر دخولا أوليا أي تركوها وأخذوا بدلها (ثمنا قليلا) أي شيأ حقيرا من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التي اتبعوها أو ما أنفقه أبو سفيان من الطعام وصرفه الى الاعراب (فصدوا) أي عدلوا ونكبوا من صد صدودا أو صرفوا غيرهم من صد صدا والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك (عن سبيله) أي الدين الحق الذي لا محيد عنه

الكتاب والمراد العلم الذى هو ضد الجهل أى هذا العلم انما حصل من عند الله والقراءة الثانية ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على مالم يسم فاعله والمعنى انه تعالى لما أمر نبيه أن يحتج عليهم بشهادة لله تعالى على ماذكرناه وكان لامعنى لشهادة الله تعالى على نبوته الا على اظهار القرآن على وفق دعواه ولا يعلم كون القرآن معجزا الا بعد الاحاطة بما فى القرآن وأسراره بين تعالى ان هذا العلم لا يحصل الا من عند الله والمعنى أن الوقوف على كون القرآن معجزا لا يحصل الا اذا شرف الله تعالى ذلك العبد بأن يعلمه علم القرآن والله تعالى أعلم بالصواب * تم تفسير هذه السورة يوم الاحد الثامن عشر من شعبان سنة احدى وستمائة وأنا ألتمس من كل من نظر فى كتابى هذا وانتفع به أن يخص ولدى محمدا بالرحمة والغفران وأن يذكرنى بالدعاء * وأقول فى مرثية ذلك الولد شعرا

أرى معالم هذا العالم الفانى * ممزوجة بخافات وأحزان

خيراته مثل أحلام مفزعة * وشره فى البرايا دائم دانى

﴿سورة ابراهيم عليه السلام خمسون وآيتان مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد﴾ اعلم أن الكلام فى أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد ومتى لم يكن فى السورة ما يتصل بالاحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء وانما يختلف الغرض فى ذلك اذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله الر كتاب معناه ان السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه اليك لغرض كذا وكذا فقوله الر مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله أنزلناه اليك صفة لذلك الخبر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت هذه الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلا من عند الله تعالى قالت المعتزلة النازل والمنزل لا يكون قديما وجوابنا ان الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهى محدثة بلا نزاع (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة اللام فى قوله لتخرج الناس لام الغرض والحكمة وهذا يدل على انه تعالى انما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض وذلك يدل على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح أجاب أصحابنا عنه بأن من فعل فعلا لاجل شئ آخر فهذا انما يفعله لو كان عاجزا عن تحصيل هذا المقصود الا بهذه الواسطة وذلك فى حق الله تعالى محال واذا ثبت بالدليل انه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ثبت أن كل ظاهر أشعر به فانه مؤول محمول على معنى آخر (المسئلة الثالثة) انما شبه الكفر بالظلمات لانه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الايمان بالنور لانه نهاية ما ينجلى به طريق هدايته (المسئلة الرابعة) قال القاضى هذه الآية فيها دلالة على ابطال القول بالجبر من جهات (أحدها) انه تعالى لو كان يخلق الكفر فى الكافر فكيف يصح اخراجه منه بالكتاب (وثانيها) انه تعالى أضاف الاخراج من الظلمات الى النور الى الرسول صلى الله عليه وسلم فان كان خالق ذلك الكفر هو الله تعالى فكيف يصح من الرسول عليه السلام اخراجهم منه وكان للكافر أن يقول انك تقول ان الله خالق الكفر فينا فكيف يصح منك أن تخرجنا منه فان قال لهم أنا أخرجكم من الظلمات التى هى كفر مستقبل لا واقع فلهم أن يقولوا ان كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الاخراج وان لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا اخراج (وثالثها) أنه صلى الله عليه وسلم انما يخرجهم من الكفر بالكتاب بأن يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالما قادرا حكيما ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ يقبلوا منه كل ما أداه اليهم من الشرائع وذلك لا يصح الا اذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم ويصح منهم أن يقدموا عليه ويتصرفوا فيه (والجواب) عن الكل أن نقول الفعل الصادر من العبد اما أن يصدر عنه حال استواء الداعى الى الفعل والترك أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر والاول باطل لان صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم وحصول

والاضافة لتشريف أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه (انهم ساء ما كانوا يعملون) أى بئس ما كانوا يعملونه أو عملهم المستمر والمخصوص بالذم محذوف وقد يجوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعدية والمفعول محذوف أى ساءهم الذى يعملونه أو عملهم وقوله عز وعلا (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة) نعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الاطلاق فلا تكرار وقيل هذا فى اليهود أو فى الاعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ما قيل من أنه تفسير لقوله تعالى يعملون أو دليل على ما هو مخصوص بالذم فيشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره (وأولئك) الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة (هم المعتدون) المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة (فان تابوا) أى عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للايذان بأن تقريعهم بما نعى عليهم من مساوى أعمالهم مزجرة عنها ومظنة للتوبة (وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة) أى التزموهما وعزموا على اقامتهما (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم وقوله تعالى (فى الدين) متعلق باخوانكم لما فيه من معنى الفعل أى لهم ما لكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الاخوان

الرجحان حال حصول الاستواء محال والثاني عين قولنا لانه يمتنع صدور الفعل عنه الا بعد حصول الرجحان فان كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال وان لم يكن منه بل من الله تعالى فحينئذ يكون المؤثر الاول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم ﴿المسئلة الخامسة﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم في أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى باذن ربهم فان معنى الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الا باذن ربهم والمراد بهذا الاذن اما الامر واما العلم واما المشيئة والخلق وحمل الاذن على الامر محال لان الاخراج من الجهل الى العلم لا يتوقف على الامر فانه سواء حصل الامر أو لم يحصل فان الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق وأيضا حمل الاذن على العلم محال لان العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات الى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع أن يقال ان حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق الا أن يكون المراد من الاذن المشيئة والتخليق وذلك يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الا بمشيئة الله وتخليقه * فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من الاذن الالطاف * قلنا لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول المراد بالاذن اما أن يكون أمرا يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أولا يقتضي ذلك فان كان الثاني لم يكن فيه أمر البتة فامتنع أن يقال انه مما حصل بسببه ولاجله فبقي الاول وهو أن المراد من الاذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وقد دللنا في الكتب العقلية على انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك الا الداعية الموجبة وهو عين قولنا والله أعلم ﴿المسئلة السادسة﴾ القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم والامام احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا انه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذي يخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان وذلك يدل على ان معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وجوابنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم يكون كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل بالدليل والله أعلم ﴿المسئلة السابعة﴾ الآية دالة على ان طرق الكفر والبدعة كثيرة وان طريق الخير ليس الا الواحد لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الجهل كثيرة وأما طريق العلم والايمان فليس الا الواحد ﴿المسئلة الثامنة﴾ في قوله تعالى الى صراط العزيز الحميد وجهان (الاول) انه بدل من قوله الى النور بتكرير العامل كقوله للذين استضعفوا لمن آمن منهم (الثاني) يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كانه قيل الى اي نور فقيل الى صراط العزيز الحميد ﴿المسئلة التاسعة﴾ قالت المعتزلة الفاعل انما يكون آتيا بالصواب والصلاح تاركا للقبيح والعبث اذا كان قادرا على كل المقدورات عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات فانه ان لم يكن قادرا على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز وان لم يكن عالما بكل المعلومات فربما فعل القبيح بسبب الجهل وان لم يكن غنيا عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة أما اذا كان قادرا على الكل عالما بالكل غنيا عن الكل امتنع منه الاقدام على فعل القبيح فقوله العزيز اشارة الى كمال القدرة وقوله الحميد اشارة الى كونه مستحقا للحمد في كل أفعاله وذلك انما يحصل اذا كان عالما بالكل غنيا عن الكل فثبت بما ذكرنا ان صراط الله انما كان موصوفا بكونه شريفا رفيعا عاليا لكونه صراطا مستقيما للاله الموصوف بكونه عزيزا حميدا فلهذا المعنى وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام ﴿المسئلة العاشرة﴾ انما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد لان الصحيح ان أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرا ثم بعد ذلك العلم بكونه عالما ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيا عن الحاجات والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني فلما كان العلم بكونه تعالى قادرا متقدما على العلم بكونه عالما بالكل غنيا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله

وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التي مرت من قبل مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الاولى سيقت اثر الامر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمرا بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من كون جوابها حكما بخلافه البتة (ونفصل الآيات) أي نبينها والمراد بها اما ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتي الكفر والايمان واما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجا أوليا (لقوم يعلمون) أي ما فيها من الاحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل في الاحكام المندرجة في تضاعيفها والمحافظة عليها (وان نكثوا) عطف على قوله تعالى فان تابوا أي وان لم يفعلوا ذلك بل نقضوا (أيمانهم من بعد عهدهم) الموثق بها وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وان يظهروا عليكم لا يرقبوا الآية أو ثبتوا على ما هم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل (وطعنوا في دينكم) قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الاحكام (فقاتلوا أئمة الكفر) أي فقاتلوهم وانما أوثر ما عليه النظم الكريم للايذان بانهم صاروا

ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ نافع وابن عامر الله مرفوعا بالابتداء وخبره ما بعده وقيل التقدير هو الله والباقون بالجر عطفا على قوله العزيز الحميد (وههنا بحث) وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا الى أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله تعالى وذهب قوم آخرون الى أنه لفظ مشتق والحق عندنا هو الاول ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاسم المشتق عبارة عن شئ ما حصل له المشتق منه فالاسود مفهومه شئ ما حصل له السواد والناطق مفهومه شئ ما حصل له النطق فلو كان قولنا الله اسما مشتقا من معنى لكان المفهوم منه انه شئ ما حصل له ذلك المشتق منه وهذا المفهوم كلى لا يمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه فلو كان قولنا الله لفظا مشتقا لكان مفهومه صالحا لوقوع الشركة فيه ولو كان الامر كذلك لما كان قولنا لا اله الا الله موجبا للتوحيد لان المستثنى هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما أجمعت الامة على ان قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم (الثانى) انه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والاسماء ذكرنا أولا قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا أن نعكس الامر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الالفاظ دالة على الصفات والنعوت (الثالث) ان ما سوى قولنا الله كلها دالة اما على الصفات السلبية كقولنا القدوس السلام أو على الصفات الاضافية كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا العالم القادر أو على ما يتركب من هذه الثلاثة فلو لم يكن قولنا الله اسما للذات المخصوصة لكان جميع أسماء الله تعالى ألفاظا دالة على صفاته ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة وذلك بعيد لانه يبعد أن لا يكون له من حيث انه هو اسم مخصوص (والرابع) قوله تعالى هل تعلم له سميا والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على ان قولنا الله اسم لذاته المخصوصة واذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم تذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور فاما أن يعكس فيقال هو الخالق المصور البارئ الله فذلك غير جائز واذا ثبت هذا فنقول الذين قرؤا الله الذى له ما فى السموات بالرفع أرادوا أن يجعلوا قوله الله مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبرا عنه وهذا هو الحق الصحيح فأما الذين قرؤا الله بالجر عطفا على العزيز الحميد فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال الله الخالق وأما ان يقال الخالق الله فهذا لا يحسن ❊ وعند هذا اختلفوا فى الجواب على وجوه (الاول) قال أبو عمرو بن العلاء القراءة بالخفض على التقديم والتأخير والتقدير صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات (والثانى) انه لا يبعد أن يذكر الصفة أولا ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وتحقيق القول فيه انا بينا ان الصراط انما يكون ممدوحا محمودا اذا كان صراطا للعالم القادر الغنى والله تعالى عبر عن هذه الامور الثلاثة بقوله العزيز الحميد ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت الشبهة فى ان ذلك العزيز من هو فعطف عليها قوله الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ازالة لتلك الشبهة (الثالث) قال صاحب الكشاف الله عطف بيان للعزيز الحميد وتحقيق هذا القول ما قررناه فيما تقدم (الرابع) قد ذكرنا فى أول هذا الكتاب ان قولنا الله فى أصل الوضع مشتق الا أنه بالعرف صار جاريا مجرى الاسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لاجل أنه جعل اسم علم وأما فى هذه الآية حيث جعل وصفا للعزيز الحميد فذلك لاجل انه حمل على كونه لفظا مشتقا فلا جرم بقى صفة (الخامس) ان الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزا حميدا فلما قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد بقى فى خاطر عبدة الاوثان انه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن فازال الله تعالى هذه الشبهة وقال الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض أى المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض يدل على انه تعالى غير مختص بجهة العلو البتة وذلك لان كل ما سماك وعلاك فهو سماء فلو حصل ذات الله تعالى فى

بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر أحقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر اما لاهمية قتلهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فان قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم وقرئ أئمة بتحقيق الهمزتين على الاصل والافصح اخراج الثانية بين بين وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند القراء (انهم لا أيمان لهم) أى على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدون نقضها محذورا وان أجروها على ألسنتهم وانما علق النفى بها كالنكث فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لانها العمدة فى المواثيق وجعل الجملة تعليلا للامر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعن لان حالهم فى أن لا أيمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النكث والطعن مع أنه لا حاجة الى بيانه خلاف الظاهر ولعل الاولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وان نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم اذ لا أيمان لهم حقيقة حتى لا ينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم الى أن يؤمنوا انهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر وقرئ بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى اعطاء الامان أى لا سبيل الى أن تعطوهم

جهة فوق لكان حاصلا فى السماء وهذه الآية دالة على أن كل ما فى السموات فهو ملكه فلزم كونه ملكا
لنفسه وهو محال فدلت هذه الآية على انه منزه عن الحصول فى جهة فوق (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا
بهذه الآية على انه تعالى خالق لاعمال العباد لانه قال له ما فى السموات وما فى الارض وأعمال العباد حاصلة
فى السموات والارض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة
فوجب كونها مقدورة لله تعالى واذا ثبت انها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى والا لكان
العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال واعلم ان قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض
يفيد الحصر والمعنى ان ما فى السموات وما فى الارض له لا لغيره وذلك يدل على انه لا مالك الا الله ولا حاكم
الا الله ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال وويل للكافرين من عذاب شديد والمعنى
انهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذى هو المالك للسموات والارض ولكل ما فيهما الى عبادة ما لا يملك ضرا
ولا نفعا ويخلق ولا يخلق ولا ادراك لها ولا فعل فالويل ثم الويل لمن كان كذلك وانما خص هؤلاء بالويل
لان المعنى يولولون من عذاب شديد ويضجون منه ويقولون ياويلاه ونظيره قوله تعالى دعوا هنالك ثبورا
ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذى يفيد أعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة
أنواع (الاول) قوله الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان شئت
جعلت الذين صفة الكافرين فى الآية المتقدمة وان شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله أولئك وان شئت
نصبته على الذم (المسئلة الثانية) الاستحباب طلب محبة الشئ وأقول ان الانسان قد يحب الشئ ولكنه
لا يحب كونه محبا لذلك الشئ مثل من يميل طبعه الى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبا لهما أما اذا أحب
الشئ وطلب كونه محبا له وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله الذين يستحبون الحياة الدنيا يدل على
كونهم فى نهاية المحبة للحياة الدنيوية ولا يكون الانسان كذلك الا اذا كان غافلا عن الحياة الاخروية وعن
معايب هذه الحياة العاجلة ومن كان كذلك كان فى نهاية الصفات المذمومة وذلك لان هذه الحياة موصوفة
بأنواع كثيرة من العيوب (فأحدها) ان بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والاسقام والغموم
والهموم والمخاوف والاحزان (وثانيها) ان هذه اللذات فى الحقيقة لا حاصل لها الا دفع الآلام بخلاف
اللذات الروحانية فانها فى أنفسها لذات وسعادات (وثالثها) ان سعادات هذه الحياة منغصة بسبب
الانقطاع والانقراض والانقضاء (ورابعها) أنها حقيرة قليلة وبالجملة فلا يحب هذه الحياة الا من كان غافلا
عن معايبها وكان غافلا عن فضائل الحياة الروحانية الاخروية ولذلك قال تعالى والآخرة خير وأبقى فهذه
الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه (المسئلة الثالثة) انما قال يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لان فيه
اضمارا والتقدير يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليبين بذلك
ان الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموما الا بعد أن يضاف اليه ايثارها على الآخرة فأما من أحبها
ليصل بها الى منافع النفس والى خيرات الآخرة فان ذلك لا يكون مذموما حتى اذا آثرها على آخرته بأن
اختار منها ما يضر فى آخرته فهذه المحبة هى المحبة المذمومة (النوع الثانى) من الصفات التى وصف الله
الكفار بها قوله تعالى ويصدون عن سبيل الله واعلم ان من كان موصوفا باستحباب الدنيا فهو ضال ومن
منع الغير من الوصول الى سبيل الله ودينه فهو مضل فالمرتبة الاولى اشارة الى كونهم ضالين وهذه المرتبة
الثانية وهى كونهم صادين عن سبيل الله اشارة الى كونهم مضلين (والنوع الثالث) من تلك الصفات قوله
ويبغونها عوجا واعلم ان الاضلال على مرتبتين (المرتبة الاولى) أنه يسعى فى صد الغير ومنعه من الوصول الى
المنهج القويم والصراط المستقيم (والمرتبة الثانية) أن يسعى فى القاء الشكوك والشبهات فى المذهب
الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل وهذا هو النهاية فى الضلال والاضلال واليه الاشارة
بقوله ويبغونها عوجا قال صاحب الكشاف الاصل فى الكلام أن يقال ويبغون لها عوجا فحذف الجار
وأوصل الفعل ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لاحوال هؤلاء الكفار قال فى صفتهم أولئك فى

أمانا بعد ذلك أبدا وأما العكس كما قيل فلا وجه له لاشعاره بان معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون اعطاء الامان من قبلهم
وذلك بين البطلان أو
بمعنى الاسلام ففى كونه
تعليلا للامر بالقتال
اشكال بل استحالة لانه
ان حمل على انتفاء
الاسلام مطلقا فهو بمعزل
عن العلية للقتال أو للامر
به كما قبل النكث
والطعن وان حمل على
انتفائه فيما سيأتى فلا
يلائم جعل الانتهاء غاية
للقتال فيما سيجىء فالوجه
أن يجعل تعليلا لما ذكر
من مضمون الشرط كانه
قيل ان نكثوا وطعنوا
وهو الظاهر من حالهم
لانه لا اسلام لهم حتى
يرتدعوا عن نقض جنس
ايمانهم وعن الطعن فى
دينكم (لعلهم ينتهون)
متعلق بقوله تعالى
فقاتلوهم أى قاتلوهم
ارادة أن ينتهوا أى ليكن
غرضكم من القتال
انتهاءهم عما هم عليه من
الكفر وسائر العظائم
التى يرتكبونها لا ايصال
الاذية بهم كما هو ديدن
المؤذين (ألا تقاتلون)
الهمزة الداخلة على انتفاء
مقاتلتهم للانكار والتوبيخ
تدل على تحضيضهم
على المقاتلة بطريق
حملهم على الاقرار
بانتفائها كانه أمر لا يمكن
أن يعترف به طائعا لكمال
شناعته فيلجؤن الى ذلك
ولا يقدرون على الاقرار به
فيختارون المقاتلة (قوما نكثوا أيمانهم) التى حلفوها عند المعاهدة على ان لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة (وهموا

ضلال بعيد وانما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه (الاول) انا بينا أن أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق فان شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد مثل السواد والبياض فكذا ههنا الضلال الذي يكون واقعا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فانه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال (والوجه الثاني) أن يكون المراد انه يبعد ردهم عن طريقة الضلال الى الهدى لانه قد تمكن ذلك في نفوسهم (والوجه الثالث) أن يكون المراد من الضلال الهلاك والتقدير أولئك في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه ﴿ قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر في أول السورة كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور كان هذا انعاما على الرسول من حيث انه فوض اليه هذا المنصب العظيم وانعاما أيضا على الخلق من حيث انه أرسل اليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم الى نور الايمان فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين أما بالنسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام فلانه تعالى بين أن سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث الى عامة الخلق فكان هذا الانعام في حقك أفضل وأكمل وأما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر انه ما بعث رسولا الى قوم الا بلسان أولئك القوم فانه متى كان الامر كذلك كان فهمهم لاسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل وعن الغلط والخطا أبعد فهذا هو وجه النظم ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج بعض الناس بهذه الآية على ان اللغات اصطلاحية لا توقيفية قال لان التوقيف لا يحصل الا بارسال الرسل وقد دلت هذه الآية على ان ارسال جميع الرسل لا يكون الا بلغة قومهم وذلك يقتضي تقدم حصول اللغات على ارسال الرسل واذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف فوجب حصولها بالاصطلاح ﴿المسئلة الثالثة﴾ زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية ان محمدا رسول الله لكن الى العرب لا الى سائر الطوائف وتمسكوا بهذه الآية من وجهين (الاول) ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا على العرب ومن لا يكون عربيا لم يكن القرآن حجة عليه (الثاني) قالوا ان قوله وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يقتضي أن يقال انه ليس له قوم سوى العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط والجواب لم لا يجوز أن يكون المراد من قومه أهل بلده وليس المراد من قومه أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدي كما وقع مع الانس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴿المسئلة الرابعة﴾ تمسك أصحابنا بقوله تعالى فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء على ان الضلال والهداية من الله تعالى والآية صريحة في هذا المعنى قال الاصحاب ومما يؤكد هذا المعنى ما روي ان أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما فقال عليه الصلاة والسلام ما هذا فقال بعضهم يا رسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيآت من أنفسنا ويقول عمر كلاهما من الله وتبع بعضهم أبا بكر وبعضهم عمر فتعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله أبو بكر وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه ثم أقبل على عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر في وجهه ثم قال أقضي بينكما كما قضى به اسرافيل بين جبريل وميكائيل قال جبريل مثل مقالتك يا عمر وقال ميكائيل مثل مقالتك يا أبا بكر فقضاء اسرافيل ان القدر كله خيره وشره من الله تعالى وهذا قضائي بينكما قالت المعتزلة هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها ويبانه من وجوه (الاول) انه تعالى قال وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم والمعنى انا انما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم فيكون ادراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل وهذا الكلام انما يصح لو كان مقصود الله تعالى من ارسال الرسل حصول الايمان

باخراج الرسول) من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة حسبما ذكر في قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا فيكون نعيا عليهم جناياتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا باخراجه من المدينة (وهم بدؤكم) بالمعاداة والمقاتلة (أول مرة) لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها الى المقاتلة أو بدؤا بقتال خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم لان اعانة بني بكر عليهم قتال معهم (أتخشونهم) أي أتخشون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم وبخهم أولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لا تترك مصادمته ويوبخ من فرط فيها (فالله أحق أن تخشوه) بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه (ان كنتم مؤمنين) فان قضية الايمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد ما لا يخفى (قاتلوهم) تجريد للامر بالقتال بعد التوبيخ على تركه ووعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم واخزائهم وتشجيع لهم (يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم) قتلا وأسرا (وينصركم عليهم) أي يجعلكم جميعا غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب والاخزاء

للكافرين فأما لو كان مقصوده الاضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائما لهذا المقصود (والثاني) انه عليه الصلاة والسلام اذا قال لهم ان الله يخلق الكفر والضلال فيكم فلهم ان يقولوا له فما الفائدة في بيانك وما المقصود من ارسالك وهل يمكننا أن نزيل كفرا خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل (الثالث) انه اذا كان الكفر حاصلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وجب أن يكون الرضا به واجبا لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وذلك لا يقوله عاقل (والرابع) انا قد دللنا على ان مقدمة هذه الآية وهي قوله لتخرج الناس من الظلمات الى النور يدل على مذهب العدل وأيضا مؤخرة الآية يدل عليه وهو قوله وهو العزيز الحكيم فكيف يكون حكيما من كان خالقا للكفر والقبائح ومريدا لها فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء على انه تعالى يخلق الكفر في العبد فوجب المصير الى التأويل وقد استقصينا ما في هذه التأويلات في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ولا بأس باعادة بعضها (فالاول) أن المراد بالاضلال هو الحكم بكونه كافرا ضالا كما يقال فلان يكفر فلانا ويضلله أي يحكم بكونه كافرا ضالا (والثاني) أن يكون الاضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة الى النار والهداية عبارة عن ارشادهم الى طريق الجنة (والثالث) انه تعالى لما ترك الضال على اضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله والمهتدي لما أعانه بالالطاف صار كأنه هو الذي هداه قال صاحب الكشاف المراد بالاضلال التخلية ومنع الالطاف وبالهداية التوفيق واللطف والجواب عن قولهم أولا ان قوله تعالى ليبين لهم لا يليق به أن يضلهم قلنا قال الفراء اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فان كان الفعل الثاني مشاكلا للاول نسقته عليه وان لم يكن مشاكلا له استأنفته ورفعته ونظيره قوله تعالى يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله فقوله ويأبى الله في موضع رفع لا يجوز الا ذلك لانه لا يحسن أن يقال يريدون أن يأبى الله فلما لم يمكن وضع الثاني موضع الاول بطل العطف ونظيره أيضا قوله لنبين لكم ونقر في الارحام ومن ذلك قولهم أردت أن أزورك فيمنعني المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه ومثله قول الشاعر * يريد أن يعربه فيعجمه * اذا عرفت هذا فنقول ههنا قال تعالى ليبين لهم ثم قال فيضل الله من يشاء ذكر فيضل بالرفع فدل على انه مذكور على سبيل الاستئناف وانه غير معطوف على ما قبله * وأقول تقرير هذا الكلام من حيث المعنى كأنه تعالى قال وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه ثم قال ومع ان الامر كذلك فانه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء والغرض منه التنبيه على ان تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية وانما كان الامر كذلك لاجل أن الهداية والضلال لا يحصلان الا من الله تعالى أما قوله ثانيا لو كان الضلال حاصلا بخلق الله تعالى لكان للكافر أن يقول له ما الفائدة في بيانك ودعوتك فنقول يعارضه ان الخصم يسلم ان هذه الآيات اخبار عن كونه ضالا فيقول له الكافر لما أخبر الملك عن كوني كافرا فان آمنت صار الملك كاذبا فهل أقدر على جعل الملك كاذبا وهل أقدر على جعل علمه جهلا واذا لم أقدر عليه فكيف يأمرني بهذا الايمان فثبت ان هذا السؤال الذي أورده الخصم علينا هو أيضا وارد عليه * وأما قوله ثالثا لزم أن يكون الرضا بالكفر واجبا لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب قلنا ويلزمك أيضا على مذهبك أنه يجب على العبد السعي في تكذيب الله وفي تجهيله وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا لانه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فازالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلا وخبره الصدق كذبا * وأما قوله رابعا ان مقدمة الآية وهي قوله تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور يدل على صحة الاعتزال فنقول قد ذكرنا ان قوله باذن ربهم يدل على صحة مذهب أهل السنة * وأما قوله خامسا انه تعالى وصف نفسه في آخر الآية بكونه حكيما وذلك ينافي كونه تعالى خالقا للكفر مريدا له فنقول وقد وصف نفسه بكونه عزيزا والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الايمان من الكافر مع انه لا يحصل أو أراد عدم الكفر منهم وقد حصل لما بقي عزيزا غالبا

فثبت

(ويشف صدور قوم مؤمنين) ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضي الله عنهما هم بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال عليه الصلاة والسلام أبشروا فان الفرج قريب (ويذهب غيظ قلوبهم) بما كابدوا من المكاره والمكايد ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون فكان اخباره عليه الصلاة والسلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة (ويتوب الله على من يشاء) كلام مستأنف ينبئ عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن اسلامهم وقرئ بالنصب باضمار أن ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الامر بحسب المعنى فان القتال كما هو سبب لفل شوكتهم والانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر في أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصي وللاختلاف في وجه السببية غير السبك والله تعالى أعلم (والله) ايثار اظهار الجلالة على الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة (عليم) لا يخفى عليه خافية (حكيم) لا يفعل ولا يأمر الا بما فيه حكمة ومصلحة (أم حسبتم) أم منقطعة جيء بها للدلالة

فثبت ان الوجوه التي ذكروها ضعيفة وأما التأويلات الثلاثة التي ذكروها فقد مر ابطالها في هذا الكتاب مرارا فلا فائدة في الاعادة ﴿ قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ وفي الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ اعلم انه تعالى لما بين انه انما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه في ذلك الارسال وفي تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيرا للرسول عليه الصلاة والسلام على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم السلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال ولقد أرسلنا موسى بآياتنا قال الاصم آيات موسى عليه السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل وانزال المن والسلوى وقال الجبائي أرسل الله تعالى موسى عليه السلام الى قومه من بني اسرائيل بآياته وهي دلالاته وكتبه المنزلة عليه وأمره أن يبين لهم الدين وقال أبو مسلم الاصفهاني انه تعالى قال في صفة محمد صلى الله عليه وسلم كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور وقال في حق موسى عليه السلام أن أخرج قومك من الظلمات الى النور والمقصود بيان ان المقصود من البعثة واحد في حق جميع الانبياء عليهم السلام وهو أن يسعوا في اخراج الخلق من ظلمات الضلالات الى أنوار الهدايات ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله أن أخرج قومك أي بأن أخرج قومك ثم قال أن ههنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي ويكون المعنى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج قومك كأن المعنى قلنا له أخرج قومك ومثله قوله وانطلق الملأ منهم أن امشوا أي امشوا والتأويل قيل لهم امشوا وتصلح أيضا أن تكون المخففة التي هي للخبر والمعنى أرسلناه بأن يخرج قومه الا أن الجار حذف ووصلت أن بلفظ الامر ونظيره قولك كتبت اليه أن قم وأمرته أن قم ثم ان الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه أما قوله وذكرهم بأيام الله فاعلم انه تعالى أمر موسى عليه السلام في هذا المقام بشيئين أحدهما أن يخرجهم من ظلمات الكفر والثاني أن يذكرهم بأيام الله وفيه مسئلتان ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قال الواحدي أيام جمع يوم واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس الى غروبها وكانت الايام في الاصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت احداهما بالسكون فأدغمت احداهما في الاخرى وغلبت الياء ﴿ المسئلة الثانية ﴾ أنه يعبر بالايام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها يقال فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفي المثل من ير يوما ير به معناه من رؤى في يوم مسرورا بمصرع غيره يرى في يوم آخر حزينا بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس اذا عرفت هذا فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الامم فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهي الايام التي كانت بنو اسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل انزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام ثم قال تعالى ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور والمعنى ان في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارا شكورا لان الحال اما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فان كان الاول كان المؤمن صبارا وان كان الثاني كان شكورا وهذا تنبيه على ان المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الامرين فان جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق ارادته كان مشغولا بالشكر وان جرى بما لا يلائم طبعه كان مشغولا بالصبر ﴿ فان قيل ان ذلك التذكير آيات للكل فلماذا خص الصبار الشكور بها ﴿ قلنا فيه وجوه ﴿ الاول ﴾ انهم لما كانوا هم المنتفعون

على الانتقال من التوبيخ السابق الى آخر والمراد فيها من همزة الاستفهام الانكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أحسبتم (أن تتركوا) على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب اما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو للمنافقين (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) الواو حالية ولما للنفي مع التوقع والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني اذ لو شمل رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا أى أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يتبين الخلص من المجاهدين منكم من غيرهم وما في لما من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومدارا للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت ارادة أكرم الاكرمين (ولم يتخذوا) عطف على جاهدوا داخل في حيز الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين (من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة وصاحب سر وهو الذي تطلعه على ما في ضميرك من الاسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ ان أبقى على حاله أو مفعول ثان له ان جعل بمعنى التصيير (والله خبير بما

بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات الا لهم كما في قوله هدى للمتقين وقوله انما أنت منذر من يخشاها (والثاني) لا يبعد أن يقال الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله الا لمن كان صابرا أو شاكرا أما الذي لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات واعلم أنه تعالى لما ذكر انه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه ذكرهم بها فقال واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب فقوله اذ أنجاكم ظرف للنعمة بمعنى الانعام أي اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت * بقي في الآية سؤالات ﴿الاول﴾ ذكر في سورة البقرة يذبحون وفي سورة الاعراف يقتلون وههنا ويذبحون مع الواو فما الفرق (والجواب) قال تعالى في سورة البقرة يذبحون بغير واو لانه تفسير لقوله سوء العذاب وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول أتاني القوم زيد وعمرو لانك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب فالاثام لما صار مفسرا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو أما في هذه السورة فقد أدخل الواو فيه لان المعنى انهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لانه تفسير لما قبله ﴿السؤال الثاني﴾ كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم (والجواب) من وجهين (أحدهما) ان تمكين الله اياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله (والثاني) وهو ان ذلك اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم والبلاء هو الابتلاء وذلك قد يكون بالنعمة تارة وبالمحنة أخرى قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه أولى لانه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ﴿السؤال الثالث﴾ هب أن تذبيح الابناء كان بلاء أما استحياء النساء كيف يكون بلاء (الجواب) كانوا يستخدمونهن بالاستحياء وفي الخلاص منه نعمة وأيضا ابقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد﴾ اعلم ان قوله واذ تأذن ربكم من جملة ما قال موسى لقومه كانه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن اذن ربكم ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كانه قيل واذ آذن ربكم ايذانا بليغا ينتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبهة والمعنى واذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم فأجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه واذ قال ربك لئن شكرتم واعلم أن المقصود من الآية بيان ان من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه * ولا بد ههنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عند الاشتغال بالشكر أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة وأما الزيادة في النعم فهي أقسام منها النعم الروحانية ومنها النعم الجسمانية أما النعم الروحانية فهي ان الشاكر يكون أبدا في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه ومن كثر احسانه الى الرجل أحبه الرجل لا محالة فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله واحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته فثبت ان الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية وأما مزيد النعم الجسمانية فلان الاستقراء دل على ان كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر وبالجملة فالشكر انما حسن موقعه لانه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور الى عالم القدس فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا وأما قوله ولئن كفرتم ان عذابي لشديد فالمراد منه الكفران لا الكفر لان الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس الا الكفران والسبب فيه ان كفران النعمة لا يحصل الا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله والجاهل بها جاهل بالله والجهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضا فههنا دقيقة أخرى وهي أن ما سوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده انما يحصل بايجاد الواجب لذاته وعدمه انما يحصل باعدام الواجب لذاته واذا كان كذلك فكل ما سوى

الحق

تعملون) أي بجميع أعمالكم وقرئ على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الخ أو حال متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم والحال انه يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها (ما كان للمشركين) أي ما صح وما استقام لهم على معنى نفي الوجود والتحقق لا نفي الجواز كما في قوله تعالى أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين أي ما وقع وما تحقق لهم (أن يعمروا) عمارة معتدا بها (مساجد الله) أي المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامرها أو لان كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد اذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم أن يعمروا شيأ من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ويأباه أنهم لا يتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على أنه مبني على كون النفي بمعنى نفي الجواز واللياقة دون نفي الوجود (شاهدين على أنفسهم بالكفر) أي باظهار آثار الشرك من نصب الاوثان حول البيت والعبادة لها فان ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وان أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضي الله عنه

الحق فهو منقاد للحق مطواع له وإذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه لأن حضور ذلك النور في قلبه يستخدم كل ما سواه بالطبع وإذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيسا فيستخدمه كل ما سواه ويستحقره كل ما يغايره فبهذا الطريق الذوقي يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات في الدنيا والآخرة وأما الإعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والمخافات في الدنيا والآخرة﴾ قوله تعالى ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات في الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران أما المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا لمنافع عائدة إلى المعبود والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله إن الله لغني وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته فإنه لو لم يكن واجب الوجود لذاته لافتقر رجحان وجوده على عدمه إلى مرجح فلم يكن غنيا وقد فرضناه غنيا هذا خلف فثبت أن كونه غنيا يوجب كونه واجب الوجود في ذاته وإذا ثبت أنه واجب الوجود لذاته كان أيضا واجب الوجود بحسب جميع كمالاته إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال لافتقر في حصول ذلك الكمال إلى سبب منفصل فحينئذ لا يكون غنيا وقد فرضناه غنيا هذا خلف فثبت أن ذاته كافية في حصول جميع كمالاته وإذا كان الأمر كذلك كان حميدا لذاته لأنه لا معنى للحميد إلا الذي استحق الحمد فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه أن كونه غنيا حميدا يقتضي أن لا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينتقص بكفران الكافرين فلهذا المعنى قال إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد وهذه المعاني من لطائف الأسرار واعلم أن قوله إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا سواء حمل على الكفر الذي يقابل الإيمان أو على الكفران الذي يقابل الشكر فالمعنى لا يتفاوت البتة فإنه تعالى غني عن العالمين في كمالاته وفي جميع نعوت كبريائه وجلاله ثم إنه تعالى قال ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطابا من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم واعلم أنه تعالى ذكر أقواما ثلاثة وهم قوم نوح وعاد وثمود ثم قال تعالى والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله وذكر صاحب الكشاف فيه احتمالين (الأول) أن يكون قوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضا (والثاني) أن يقال قوله والذين من بعدهم معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله لا يعلمهم إلا الله فيه قولان (الأول) أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله لأن المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل (والقول الثاني) أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم إلا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الأنساب إلى آدم عليه السلام كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس بين عدنان وبين إسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ونظيره هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا

ره وحال من الضمير في يعمروا أي محال أن يكون ما سموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها أو يحبطها من عبادة غيره تعالى فإنها ليست من العمارة في شيء وأما ما قيل من أن المعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فإن عدم استقامة الجمع بين المتنافيين إنما يستدعي انتفاء أحدهما لا بعينه لا انتفاء العمارة الذي هو المقصود روي أن المهاجرين والأنصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق علي رضي الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبي صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم وأغلظ له في القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال ولكم محاسن قالوا نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني فنزلت (أولئك) الذين يدعون عمارة المسجد وما يضاهيها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر (حبطت أعمالهم) التي يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا (وفي النار هم خالدون) لكفرهم ومعاصيهم وإيراد الجملة اسمية للمبالغة في الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستأنفة لتقرير النفي السابق

وقوله منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن ادد وقال تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال القاضي وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام الى هذا الوقت لانه ان أمكن ذلك لم يبعد أيضا تحصيل العلم بالانساب الموصولة فان قيل أي القولين أولى قلنا القول الثاني عندي أقرب لان قوله تعالى لا يعلمهم الا الله نفي العلم بهم وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم اذ لو كانت ذواتهم معلومة وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بذواتهم ولما كان ظاهر الآية دليلا على نفي العلم بذواتهم لا جرم كان الاقرب هو القول الثاني ثم انه تعالى حكى عن هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم انه لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات أتوا بأمور أولها قوله فردوا أيديهم في أفواههم وفي معناه قولان (الاول) ان المراد باليد والفم الجارحتان المعلومتان (والثاني) ان المراد بهما شيء غير هاتين الجارحتين وانما ذكرهما مجازا وتوسعا أما من قال بالقول الاول ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون الضمير في أيديهم وأفواههم عائدا الى الكفار وعلى هذا التقدير ففيه احتمالات (الاول) أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم ونظيره قوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما الله تعالى وهو اختيار القاضي (والثاني) انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه (والثالث) انهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث وهذا مروي عن الكلبي (والرابع) انهم أشاروا بأيديهم الى ألسنتهم والى ما تكلموا به من قولهم انا كفرنا بما أرسلتم به أي هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه وليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق ألا ترى الى قوله فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به (الوجه الثاني) أن يكون الضميران راجعين الى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان (الاول) أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم (الثاني) ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود الى ذلك الكلام البتة (الوجه الثالث) أن يكون الضمير في أيديهم يرجع الى الكفار وفي الافواه الى الرسل وفيه وجهان (الاول) ان الكفار لما سمعوا وعظ الانبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم الى أفواه الرسل تكذيبا لهم وردا عليهم (والثاني) أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الانبياء عليهم السلام منعا لهم من الكلام ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك أما على القول الثاني وهو أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه (الاول) قال أبو مسلم الاصفهاني المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لان اسماع الحجة انعام عظيم والانعام يسمى يدا يقال لفلان عندي يد اذا أولاه معروفا وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فالبينات التي كان الانبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد أيضا العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادي وجمع اليد في العدد القليل هو الايدي وفي العدد الكثير هو الايادي فثبت أن بيانات الانبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالايدي واذا كانت النصائح والعهود انما تظهر من الفم فاذا لم تقبل صارت مردودة الى حيث جاءت ونظيره قوله تعالى اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم فلما كان القبول تلقيا بالافواه عن الافواه كان الدفع ردا في الافواه فهذا تمام كلام أبي مسلم في تقرير هذا الوجه (الوجه الثاني) نقل محمد بن جرير عن بعضهم ان معنى قوله فردوا أيديهم في أفواههم انهم سكتوا عن الجواب يقال للرجل اذا أمسك عن الجواب رد يده في فيه وتقول العرب كلمت فلانا في حاجة فرد يده في فيه اذا سكت عنه فلم يجب ثم انه زيف هذا الوجه وقال

انهم

ارادة صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن ارادة جمع المساجد وادراج المسجد الحرام في ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فان الايجاب ليس كالسلب وقد قرئ بالافراد أيضا والمراد ههنا أيضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها ولياقتها أي انما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها (من آمن بالله) وحده (واليوم الآخر) بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحي (وأقام الصلوة وآتى الزكوة) على ما علم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فان أحد جزأي كلمتي الشهادة علم للكل أي انما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى ان بيوتي في أرضي المساجد وان

انهم أجابوا بالتكذيب لانهم قالوا انا كفرنا بما أرسلتم به (الوجه الثالث) المراد من الايدى نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الانبياء فقد عرضوا تلك النعم للازالة والابطال فقوله ردوا أيديهم فى أفواههم أى ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التى صدرت عن أفواههم ولا يبعد جعل فى على معنى الباء لان حروف الجر لا يمتنع اقامة بعضها مقام بعض (النوع الثانى) من الاشياء التى حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم انا كفرنا بما أرسلتم به والمعنى انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم فيه لانهم ما أقروا بأنهم ارسلوا واعلم ان المرتبة الاولى هو انهم سكتوا عن قبول قول الانبياء عليهم السلام وحاولوا اسكات الانبياء عن تلك الدعوى وهذه المرتبة الثانية انهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة (والنوع الثالث) قولهم وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قال صاحب الكشاف وقرئ تدعونا بادغام النون مريب موقع فى الريبة أوذى ريبة من أرابه والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن الى الامر فان قيل لما ذكروا فى المرتبة الثانية انهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين فى صحة قولهم قلنا كأنهم قالوا اما أن نكون كافرين برسالتكم أو ان لم ندع هذا الجزم واليقين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ {قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين} اعلم ان أولئك الكفار لما قالوا للرسل وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قالت رسلهم وهل تشكون فى الله وفى كونه فاطر السموات والارض وفاطر الانفسنا وأرواحنا وأرزاقنا وجميع مصالحنا وانا لا ندعوكم الا الى عبادة هذا الاله المنعم ولا نمنعكم الا عن الاعبادة غيره وهذه المعانى يشهد صريح العقل بصحتها فكيف قلتم وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب وهذا النظم فى غاية الحسن وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله أفى الله شك استفهام على سبيل الانكار فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار وهو قوله فاطر السموات والارض وقد ذكرنا فى هذا الكتاب ان وجود السموات والارض كيف يدل على احتياجه الى الصانع المختار الحكيم مرارا وأطوارا فلا نعيده ههنا (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف أدخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام ليس فى الشك انما هو فى ان وجود الله تعالى لا يحتمل الشك * وأقول من الناس من ذهب الى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ويدل على ان الفطرة الاولية شاهدة بذلك وجوه (الاول) قال بعض العقلاء ان من لطم على وجه صبى لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجود النبى * أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلان الصبى العاقل اذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول من الذى ضربنى وما ذاك الا أن شهادة فطرته تدل على ان اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لاجل فاعل فعلها ولاجل مختار أدخلها فى الوجود فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته الى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم الى الفاعل كان أولى * وأما دلالتها على وجوب التكليف فلان ذلك الصبى ينادى ويصيح ويقول لم ضربنى ذلك الضارب وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الافعال الانسانية داخلة تحت الامر والنهى ومندرجة تحت التكليف وان الانسان ما خلق حتى يفعل أى فعل شاء واشتهى * وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو ان ذلك الصبى يطلب الجزاء على تلك اللطمة ومادام يمكنه طلب ذلك الجزاء فانه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الاصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الاعمال كان أولى * وأما دلالتها على وجوب النبوة فلانهم يحتاجون الى انسان يبين لهم ان العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هى ولا معنى للنبى الا الانسان الذى يقدر هذه الامور ويبين لهم هذه الاحكام فثبت ان فطرة العقل حاكمة بأن الانسان لا بد له من هذه الامور الاربعة (الوجه الثانى) فى التنبيه على ان الاقرار بوجود

زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره وعنه عليه الصلاة والسلام من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ضوءه (ولم يخش) فى أمور الدين (الا الله) فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذ له فى الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك وأما الخوف الجبلى من الامور المخوفة فليس من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أن يكونوا من المهتدين) الى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وابراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية فى معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول الى مواقف الاهتداء والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فان المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات اذا كان أمرهم دائرا بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم

الصانع بديهي هو ان الفطرة شاهدة بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل الا عند وجود نقاش عالم و بان حكيم ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار النقش الى النقاش والبناء الى البانى فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم الى الفاعل المختار الحكيم كان أولى (الوجه الثالث) ان الانسان اذا وقع فى محنة شديدة و بلية قوية لا يبقى فى ظنه رجاء المعاونة من أحد فكأنه باصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع الى من يخلصه منها ويخرجها عن علائقها وحبائلها وما ذاك الا شهادة الفطرة بالافتقار الى الصانع المدبر (الوجه الرابع) ان الموجود اما أن يكون غنيا عن المؤثر أولا يكون فان كان غنيا عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته فانه لا معنى للواجب لذاته الا الموجود الذي لا حاجة به الى غيره وان لم يكن غنيا عن المؤثر فهو محتاج والمحتاج لا بد له من المحتاج اليه وذلك هو الصانع المختار (الوجه الخامس) ان الاعتراف بوجود الاله المختار المكلف و بوجود المعاد أحوط فوجب المصير اليه فهذه مراتب أربعة (أولها) ان الاقرار بوجود الاله أحوط لانه لو لم يكن موجودا فلا ضرر فى الاقرار بوجوده وان كان موجودا ففى انكاره أعظم المضار (وثانيها) الاقرار بكونه فاعلا مختارا لانه لو كان موجبا فلا ضرر فى الاقرار بكونه مختارا أما لو كان مختارا ففى انكار كونه مختارا أعظم المضار (وثالثها) الاقرار بانه كلف عباده لانه لو لم يكلف أحدا من عبيده شيأ فلا ضرر فى اعتقاد انه كلف العباد أما انه لو كلف ففى انكار تلك التكاليف أعظم المضار (ورابعها) الاقرار بوجود المعاد فانه ان كان الحق انه لا معاد فلا ضرر فى الاقرار بوجوده لانه لا يفوت الا هذه اللذات الجسمانية وهي حقيرة ومنقوصة وان كان الحق هو وجوب المعاد ففى انكاره أعظم المضار فظهر ان الاقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير اليه لان بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الامكان (المسئلة الثالثة) لما أقام الدلالة على وجود الاله بدليل كونه فاطر السموات والارض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين (الاول) قوله يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم قال صاحب الكشاف لو قال قائل ما معنى التبعيض فى قوله من ذنوبكم ثم أجاب فقال ما جاء هكذا الا فى خطاب الكافرين كقوله ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال فى خطاب المؤمنين هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم الى أن قال يغفر لكم ذنوبكم قال والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه ثم قال وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين فى المعاد وقيل انه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم و بين الله تعالى بخلاف ما بينهم و بين العباد من المظالم هذا كلام هذا الرجل وقال الواحدي فى البسيط قال أبو عبيدة من زائدة وأنكر سيبويه زيادتها فى الواجب واذا قلنا انها ليست زائدة فههنا وجهان (أحدهما) انه ذكر البعض ههنا وأريد به الجميع توسعا (والثانى) ان من ههنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة وقال القاضى ذكر الاصم ان كلمة من ههنا تفيد التبعيض والمعنى انكم اذا تبتم فانه يغفر لكم الذنوب التى هى من الكبائر فأما التى تكون من باب الصغائر فلا حاجة الى غفرانها لانها فى أنفسها مغفورة قال القاضى وقد أبعد فى هذا التأويل لان الكفار صغائرهم ككبائرهم فى أنها لا تغفر الا بالتوبة وانما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلا فلا يكون شئ من ذنوبه صغيرا ولا يكون شئ منها مغفورا ثم قال وفيه وجه آخر وهو ان الكافر قد ينسى بعض ذنوبه فى حال توبته وانابته فلا يكون المغفور منها الا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس فى هذه الكلمة (المسئلة الرابعة) أقول هذه الآية تدل على انه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة فى حق أهل الايمان والدليل عليه انه قال يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم وعد بغفران بعض الذنوب مطلقا من غير اشتراط التوبة فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لانعقاد الاجماع على انه تعالى لا يغفر

وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاعتذار بالله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) أى فى الفضيلة وعلو الدرجة (كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله) السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالاعيان فلا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله الخ ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو أجعلتموهما كايمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب اما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الايمان بجانب المشبه به واما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء فى الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثانى وبيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الاولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة الى زعم الكفرة لا يجدى كثير نفع لانه ان لم يشعر بعدم الحرمان فليس يشعر بالحرمان أيضا أما على الاول فهو توبيخ للمشركين ومداره على انكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظر عما هم

الكفر الا بالتوبة عنه والدخول فى الايمان فوجب أن يكون البعض الذى يغفر له من غير التوبة هو ما عدا الكفر من الذنوب * فان قيل لم لا يجوز أن يقال كلمة من صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول المراد من البعض ههنا هو الكل على ما قاله الواحدى أو نقول المراد منها ابدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدى أيضا أو نقول المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر فى الخطاب على ما قاله صاحب الكشاف أو نقول المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الاصم أو نقول المراد منه الذنوب التى يذكرها الكافر عند الدخول فى الايمان على ما قاله القاضى * فنقول هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله انها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد والعاقل لا يجوز المصير اليه من غير ضرورة فأما قول الواحدى المراد من كلمة من ههنا هو الكل فهو عين ما قاله أبو عبيدة لان حاصله ان قوله يغفر لكم من ذنوبكم هو أنه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبى عبيدة وحكى عن سيبويه انكاره وأما قوله المراد منه ابدال السيئة بالحسنة فليس فى اللغة ان كلمة من تفيد الابدال وأما قول صاحب الكشاف المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الجواب فاسدا وأما قول الاصم فقد سبق ابطاله وأما قول القاضى فجوابه ان الكافر اذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له فثبت ان جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا أنه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر وأما الكفر فهو أيضا من الذنوب وانه تعالى لا يغفره الا بالتوبة واذا ثبت انه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتى بالايمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله أعلم بحقيقة الحال ﴿النوع الثانى﴾ مما وعد الله تعالى به فى هذه الآية قوله ويؤخركم الى أجل مسمى وفيه وجهان (الاول) المعنى انكم ان آمنتم أخر الله موتكم الى أجل مسمى والا عاجلكم بعذاب الاستئصال (الثانى) قال ابن عباس المعنى يمتعكم فى الدنيا بالطيبات واللذات الى الموت فان قيل أليس انه تعالى قال فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف قال ههنا ويؤخركم الى أجل مسمى قلنا قد تكلمنا فى هذه المسئلة فى سورة الانعام فى قوله ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده * ثم حكى تعالى ان الرسل لما ذكروا هذه الاشياء لاولئك الكفار قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة أنواع من الشبه ﴿فالشبهة الاولى﴾ ان الاشخاص الانسانية متساوية فى تمام الماهية فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الاشخاص الى هذا الحد وهو أن يكون الواحد منهم رسولا من عند الله مطلعا على الغيب مخالطا لزمرة الملائكة والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الاحوال أيضا كانوا يقولون ان كنت قد فارقتنا فى هذه الاحوال العالية الالهية الشريفة فوجب أن تفارقنا فى الاحوال الخسيسة وهى الحاجة الى الاكل والشرب والحدث والوقاع وهذه الشبهة هى المراد من قولهم ان أنتم الا بشر مثلنا ﴿والشبهة الثانية﴾ التمسك بطريقة التقليد وهى أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الاوثان قالوا ويبعد ان أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم ويعرفوا بطلان هذا الدين وان الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه والعوام يتجاوزا فى هذا الباب كلاما آخر وذلك ان الرجل العالم اذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا ان كلامك انما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين أما المناظرة مع الميت فسهلة فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع وأولئك الكفار أيضا ذكروه وهذه الشبهة هى المراد من قوله تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴿والشبهة الثالثة﴾ أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلا وان كانوا سلموا على ان المعجز يدل على الصدق الا ان الذى جاءنا به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا انها أمور معتادة وانها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر والى هذا النوع من الشبهة الاشارة بقوله فأتونا بسلطان مبين فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم

عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالايمان والجهاد أو على انكار تشبيه وصفهم المذكورين فى حد ذاتهما مع الاغماض عن مقارنتهما الشرك بالايمان والجهاد وأما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين آنفا حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالايمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير اليه مما لا يساعده النظم التنزيلى ولو اعتبر ذلك لما احتيج الى تقرير انكار التشبيه وتأكيده بشئ آخر اذ لا شئ أظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما فى ذلك كالايمان والجهاد وشتان بينهما فان السقاية والعمارة وان كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وان خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الايمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الايمان والجهاد وذلك قوله عز وجل (لا يستوون عند الله) أى لا يساوى الفريق الاول الثانى من حيث اتصاف كل منهما بوصفهما ومن ضرورته عدم التساوى بين الوصفين الاولين وبين الآخرين لانه المدار فى التفاوت بين الموصوفين

ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الانبياء عليهم السلام جوابهم عنها (أما الشبهة الاولى) وهى قولهم ان أنتم الا بشر مثلنا فجوابه ان الانبياء سلموا أن الامر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية والانسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لان هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من عباده واذا كان الامر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة واعلم ان هذا المقام فيه بحث شريف دقيق وهو أن جماعة من حكماء الاسلام قالوا ان الانسان مالم يكن فى نفسه وبدنه مخصوصا بخواص شريفة علوية قدسية فانه يمتنع عقلا حصول صفة النبوة له وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة فقد زعموا ان حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الانسان عن سائر الناس بمزيد اشراق نفسانى وقوة قدسية وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية فانه تعالى بين ان حصول النبوة ليس الا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه والكلام فى هذا الباب غامض غائص دقيق والاولون أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعا منهم واقتصروا على قولهم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده بالنبوة لانه قد علم انه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات الا وهم موصوفون بالفضائل التى لاجلها استوجبوا ذلك التخصيص كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته (وأما الشبهة الثانية) وهى قولهم اطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقا لانه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم فجوابه عين الجواب المذكور عن الشبهة الاولى لان التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه ولا يبعد ان يخص بعض عبيده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها (وأما الشبهة الثالثة) وهى قولهم انا لا نرضى بهذه المعجزات التى أتيتم بها وانما نريد معجزات قاهرة قوية * فالجواب عنها قوله تعالى وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وشرح هذا الجواب ان المعجزة التى جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام فأما الاشياء التى طلبتموها فهى أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فان خلقها وأظهرها فله الفضل وان لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بدخول زائد على ظهور قدر الكفاية * ثم انه تعالى حكى عن الانبياء والرسل عليهم السلام انهم قالوا بعد ذلك وعلى الله فليتوكل المؤمنون والظاهر ان الانبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا فى السفاهة والتخويف والوعيد وعند هذا قالت الانبياء عليهم السلام لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى اليهم ان أولئك الكفرة لا يقدرون على ايصال الشر والآفة اليهم وان لم يكن حصل هذا الوحى فلا يبعد منهم ان لا يلتفتوا الى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالى بالاحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطماعهم عما سوى الله والذى يدل على ان المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا يعنى انه تعالى لما خصنا بهذه الدرجات الروحانية والمعارف الالهية الربانية فكيف يليق بنا أن لا نتوكل على الله بل اللائق بنا أن لا نتوكل الا عليه ولا نعول فى تحصيل المهمات الا عليه فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق سواء كان ملكا له أو ملكا أو روحا أو جسما وهذه الآية دالة على انه تعالى يعصم أولياءه المخلصين فى عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم ثم قالوا ولنصبرن على ما آذيتمونا فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم أعادوا قولهم وعلى الله فليتوكل المتوكلون والفائدة فيه أنهم أمروا أنفسهم بالتوكل على الله فى قوله ومالنا

واسناد عدم الاستواء الى الموصوفين لان الاهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفى ههنا والانكار فيما سلف الى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين انما هى الافضلية دون التساوى والتشابه للمبالغة فى الرد عليهم فان نفى التساوى والتشابه نفى للافضلية بالطريق الاولى والجملة استئناف لتقرير الانكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) حكم عليهم بأنهم مع ظلمهم بالاشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين الى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوى بينهم وقوله تعالى (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) استئناف لبيان مراتب فضلهم اثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعى الجهاد للايذان بأن ذلك من لوازم الجهاد لانه اعتبر بطريق التدارك أمر لم يعتبر فيما سلف أى هم باعتبار اتصافهم بهذه الاوصاف الجميلة (أعظم درجة عند الله) أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف

أن لا نتوكل على الله ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وذلك يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله الا اذا أتى بذلك الخير أولا * ورأيت في كلام الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى فصلا حسنا وحاصله ان الانسان اما أن يكون ناقصا أو كاملا أو خاليا عن الوصفين أما الناقص فاما أن يكون ناقصا في ذاته ولكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره واما أن يكون ناقصا ويكون مع ذلك ساعيا في تنقيص حال الغير فالاول هو الضال والثاني هو الضال المضل وأما الكامل فاما أن يكون كاملا ولا يقدر على تكميل الغير وهم الاولياء واما أن يكون كاملا ويقدر على تكميل الناقصين وهم الانبياء ولذلك قال عليه السلام علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الاكمال والاضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية لا جرم كانت مراتب الولاية والنبوة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان فالولي هو الانسان الكامل الذي لا يقوى على التكميل والنبي هو الانسان الكامل والمكمل ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل انسانين ناقصين وقد تكون أقوى من ذلك فيفي بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل الى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا الى طلب الآخرة وذلك مثل روح محمد صلى الله عليه وسلم فان وقت ظهوره كان العالم مملوأ من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الاوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج الى بيان فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سرت قوة روحه في الارواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك الى التوحيد ومن التجسيم الى التنزيه ومن الاستغراق في طلب الدنيا الى التوجه الى عالم الآخرة فمن هذا المقام ينكشف للانسان مقام النبوة والرسالة اذا عرفت هذا فنقول قوله وما لنا أن لا نتوكل على الله اشارة الى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم وقولهم في آخر الامر وعلى الله فليتوكل المتوكلون اشارة الى تأثير أرواحهم الكاملة في تكميل الارواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن فمن نظر في علم القرآن وكان غافلا عنها كان محروما من أسرار علوم القرآن والله أعلم * وفي الآية وجه آخر وهو ان قوله وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون المراد منه ان الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا علينا فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها وأما قوله في آخر الآية ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون المراد منه الامر بالتوكل على الله في دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لان قوله وعلى الله فليتوكل وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين وقيل أيضا الاول ذكر لاستحداث التوكل والثاني للسعي في ابقائه وادامته والله أعلم * قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا والمعنى ليكونن أحد الامرين لا محالة اما اخراجكم واما عودكم الى ملتنا والسبب فيه ان أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين فلهذه الاسباب قدروا على هذه السفاهة * فان قيل هذا يوهم انهم كانوا على ملتهم في أول الامر حتى يعودوا فيها * قلنا الجواب من وجوه (الاول) ان أولئك الانبياء عليهم السلام انما نشؤا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل وفي أول الامر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار بل كانوا في ظاهر الامر معهم من غير اظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الامر على دينهم فلهذا السبب قالوا أو لتعودن

بها كما أن من كان وان حاز جميع ما عداها من الكمالات التي من جملتها السقاية والعمارة (وأولئك) أي المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما في اسم الاشارة من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم في الرفعة (هم الفائزون) المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة الى فوزهم وأما على الثاني فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روي أن عليا قال للعباس رضي الله عنهما بعد اسلامه يا عم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست في أفضل من الهجرة أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما أراني الا تارك سقايتنا فقال عليه السلام أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وروي النعمان ابن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أسقي الحاج وقال آخر ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى

في ملتنا (الوجه الثاني) ان هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع انه ما كان الامر كما توهموه (والثالث) لعل الخطاب وان كان في الظاهر مع الرسل الا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال انهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار (الرابع) قال صاحب الكشاف العود بمعنى الصيرورة كثير في كلام العرب (الخامس) لعل أولئك الانبياء كانوا قبل ارسالهم على ملة من الملل ثم انه تعالى أوحى اليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الاقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الانبياء أن يعودوا الى تلك الملة (السادس) لا يبعد أن يكون المعنى أو لتعودن في ملتنا أي الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل والله أعلم * واعلم ان الكفار لما ذكروا هذا الكلام قال تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم قال صاحب الكشاف لنهلكن الظالمين حكاية تقتضي اضمار القول أو اجراء الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه وقرأ أبو حيوة ليهلكن الظالمين وليسكننكم بالياء اعتبارا الاوحى فان هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن والمراد بالارض أرض الظالمين وديارهم ونظيره قوله وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وأورثكم أرضهم وديارهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من آذى جاره أورثه الله داره واعلم ان هذه الآية تدل على ان من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه ثم قال تعالى ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فقوله ذلك اشارة الى ان ما قضى الله تعالى به من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم اثر ذلك الامر حق لمن خاف مقامي وفيه وجوه (الاول) المراد موقفي وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله تعالى الذي يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره قوله وأما من خاف مقام ربه وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان (الثاني) أن المقام مصدر كالقيامة يقال قام قياما ومقاما قال الفراء ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي اياه كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت (الثالث) ذلك لمن خاف مقامي أي اقامتي على العدل والصواب فانه تعالى لا يقضي الا بالحق ولا يحكم الا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف البتة (الرابع) ذلك لمن خاف مقامي أي مقام العائذ عندي وهو من باب اضافة المصدر الى المفعول (الخامس) ذلك لمن خاف مقامي أي لمن خافني وذكر المقام ههنا مثل ما يقال سلام الله على المجلس الفلاني العالي والمراد سلام الله على فلان فكذا ههنا ثم قال تعالى وخاف وعيد قال الواحدي الوعيد اسم من أوعد ايعادا وهو التهديد قال ابن عباس خاف ما أوعدت من العذاب واعلم انه تعالى ذكر أولا قوله ذلك لمن خاف مقامي ثم عطف عليه قوله وخاف وعيد فهذا يقتضي أن يكون الخوف من الله تعالى مغايرا للخوف من وعيد الله ونظيره ان حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله وهذا مقام شريف عال في أسرار الحكمة والتصديق * ثم قال تعالى واستفتحوا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) للاستفتاح ههنا معنيان (أحدهما) طلب الفتح بالنصرة فقوله واستفتحوا أي واستنصروا الله على أعدائهم فهو كقوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح (والثاني) الفتح الحكم والقضاء فقوله واستفتحوا أي واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق اذا عرفت هذا فنقول كلا القولين ذكره المفسرون أما على القول الاول فالمستفتحون هم الرسل وذلك لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس الآية وقال لوط رب انصرني على القوم المفسدين وأما على القول الثاني وهو طلب الحكومة والقضاء فالاولى أن يكون المستفتحون هم الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين

أجعلتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين في الفضيلة والرفعة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله إذ أجعلتموهما كالايمان والجهاد وانما لم يذكر الايمان في جانب المشبه مع كونه معتبرا فيه قطعا تعويلا على ظهور الامر واشعارا بأن مدار انكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الايمان وانما لم يترك ذكره في جانب المشبه به أيضا تقوية للانكار وتذكيرا لاسباب الرجحان ومبادي الافضلية وايذانا بكمال التلازم بين الايمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثاني وأما قوله تعالى والله لا يهدي القوم الظالمين فالمراد به عدم هدايته تعالى لهم الى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لا عدم الهداية مطلقا ولا الظلم عموما والقصر في قوله تعالى وأولئك هم الفائزون بالنسبة الى درجة الفريق الثاني أو الى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله أعلم (يبشرهم) وقرئ بالتخفيف (ربهم برحمة) عظيمة (منه ورضوان) كبير (وجنات) عالية (لهم فيها) في تلك الجنات (نعيم مقيم) نعم لا نفاد لها وفي التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للتبشير به وتربية له (خالدين فيها) أي في الجنات (أبدا) تأكيد

(المسئلة

{المسئلة الثانية} قال صاحب الكشاف قوله واستفتحوا معطوف على قوله أوحى اليهم وقرئ واستفتحوا بلفظ الامر وعطفه على قوله لنهلكن أى أوحى اليهم ربهم وقال لهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ثم قال تعالى وخاب كل جبار عنيد وفيه مسئلتان {المسئلة الاولى} ان قلنا المستفتحون هم الرسل كان المعنى ان الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا وابتهجوا وفازوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وان قلنا المستفتحون هم الكفرة فكان المعنى ان الكفار استفتحوا على الرسل ظنا منهم انهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل {المسئلة الثانية} الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته ومنه قوله تعالى ولم يكن جبارا عصيا قال أبو عبيدة عن الاحمر يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة وحكى الزجاج الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والتجبار والجبرياء قال الواحدي فهي ثمان لغات في مصدر الجبار وفي الحديث ان امرأة حضرت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أمرا فأبت عليه فقال دعوها فانها جبارة أى متكبرة وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقه قال النضر بن شميل العنود الخلاف والتباعد والترك وقال غيره أصله من العند وهو الناحية يقال فلان يمشي عندا أى ناحية فهو عاند وعند أخذ في ناحية معرضا وعاند فلان فلانا اذا جانبه وكان منه على ناحية اذا عرفت هذا فنقول كونه جبارا متكبرا اشارة الى الخلق النفساني وكونه عنيدا اشارة الى الاثر الصادر عن ذلك الخلق وهو كونه مجانبا عن الحق منحرفا عنه ولا شك أن الانسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق كان خائبا عن كل الخيرات خاسرا عن جميع أقسام السعادات واعلم انه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور {الاول} قوله من ورائه جهنم وفيه اشكال وهو أن المراد أمامه جهنم فكيف أطلق لفظ الوراء على القدام والامام * وأجابوا عنه من وجوه (الاول) أن لفظ وراء اسم لما يوارى عنك وقدام وخلف متوار عنك فصح اطلاق لفظ وراء على كل واحد منهما قال الشاعر

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد (الثانى) قال أبو عبيدة وابن السكيت الوراء من الاضداد يقع على الخلف والقدام والسبب فيه ان كل ما كان خلفا فانه يجوز أن ينقلب قداما وبالعكس فلا جرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ أى أمامهم ويقال الموت من وراء الانسان (الثالث) قال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر * وليس وراء الله للمرء مذهب * أى وليس بعد الله مذهب اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله وخاب كل جبار عنيد ثم قال من ورائه جهنم أى ومن بعد هذه الخيبة يدخل جهنم {الثانى} مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وفيه سؤالات {السؤال الاول} علام عطف ويسقى * الجواب على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد {السؤال الثانى} عذاب أهل النار من وجوه كثيرة فلم خص هذه الحالة بالذكر * الجواب يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت {السؤال الثالث} ما وجه قوله من ماء صديد * الجواب انه عطف بيان والتقدير انه لما قال ويسقى من ماء فكأنه قيل وما ذلك الماء فقال صديد والصديد ما يسيل من جلود أهل النار وقيل التقدير ويسقى من ماء كالصديد وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة وهو أيضا يكون في نفسه صديدا لان كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب {السؤال الرابع} ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه * الجواب التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا وأساغه اساغة * واعلم أن يكاد فيه قولان (أحدهما) أن نفيه اثبات واثباته نفى فقوله ولا يكاد يسيغه أى ويسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت أقوم أى قمت بعد ابطاء

للخلود زيادة توضيح المراد به اذ قد يراد به المكث الطويل (ان الله عنده أجر عظيم) لاقدر عنده لاجور الدنيا أو للاعمال التى فى مقابلته والجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد الى الآحاد كما فى قوله عز وجل وما للظالمين من أنصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت فى المهاجرين فانهم لما أمروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم فى ذلك وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهيا عن موالاتهم * وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا يطعم أحدكم طعم الايمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله حتى يحب فى الله أبعد الناس منه ويبغض فى الله أقرب الناس اليه (ان استحبوا الكفر) أى اختاروه (على الايمان) وأصروا عليه اصرارا لا يرجى معه الاقلاع عنه أصلا وتعليق النهى عن الموالاة بذلك لما أنها

قال تعالى فذبحوها وما كادوا يفعلون يعنى فعلوا بعد ابطاء والدليل على حصول الاساغة قوله تعالى يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولا يحصل الصهر الا بعد الاساغة وأيضا فان قوله يتجرعه يدل على انهم أساغوا الشئ بعد الشئ فكيف يصح أن يقال بعده انه يسيغه البتة (والقول الثانى) ان كاد للمقاربة فقوله لا يكاد لنفى المقاربة يعنى ولم يقارب أن يسيغه فكيف يحصل الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها * فان قيل فقد ذكرتم الدليل على حصول الاساغة فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه * قلنا عنه جوابان (أحدهما) أن المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع (الثانى) أن الدليل الذى ذكرتم انما دل على وصول بعض ذلك الشراب الى جوف الكافر الا أن ذلك ليس باساغة لان الاساغة فى اللغة اجراء الشراب فى الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أى لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفى المقاربة والله أعلم ﴿النوع الثالث﴾ مما ذكره الله تعالى فى وعيد هذا الكافر قوله ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت والمعنى ان موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات ومع ذلك فانه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده ﴿النوع الرابع﴾ قوله ومن ورائه عذاب غليظ وفيه وجهان (الاول) ان المراد من العذاب الغليظ كونه دائما غير منقطع (الثانى) انه فى كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله قال الفضيل هو قطع الانفاس وحبسها فى الاجساد والله أعلم

قوله تعالى ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة بين فى هذه الآية ان أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشئ منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لانهم لا يجدون فى القيامة الا العقاب الشديد وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعا باطلا وذلك هو الخسران الشديد وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى ارتفاع قوله مثل الذين وجوه (الاول) قال سيبويه التقدير وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم وقوله كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد (الثانى) قال الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله أعمالهم ومثله قوله تعالى الذى أحسن كل شئ خلقه أى خلق كل شئ وكذا قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة (الثالث) أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول (الرابع) أن تكون أعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل أعمالهم وقوله كرماد هو الخبر (الخامس) أن يكون المثل صلة وتقديره الذين كفروا أعمالهم ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر فكذا ههنا ان كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الاعمال معهم خبر ولا أثر ثم اختلفوا فى المراد بهذه الاعمال على وجوه (الاول) أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين واطعام الجائع وذلك لانها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم بالله والوجه فى خسرانهم انهم صيروها محبطة باطلة بسبب كفرهم ولولا كفرهم لانتفعوا بها (والقول الثانى) أن المراد من تلك الاعمال عبادتهم للاصنام وما تكلفوه من كفرهم الذى ظنوه ايمانا وطريقا الى الخلاص والوجه فى خسرانهم انهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لكى ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم (والقول الثالث) أن المراد من هذه الاعمال كلا القسمين لانهم اذا رأوا الاعمال التى كانت فى أنفسها خيرات قد بطلت والاعمال التى ظنوها خيرات وأفنوا فيها أعمارهم قد بطلت أيضا وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك انه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى ذلك

قبل ذلك ربما تؤدى بهم الى الاسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين (ومن يتولهم) اى واحدا منهم كما أشير اليه وافراد الضمير فى الفعل لمراعاة لفظ الموصول ولايذان باستقلال كل واحد منهم فى الاتصاف بالظلم لا أن المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى (منكم) للجنس لا للتبعيض (فأولئك) اى أولئك المتولون (هم الظالمون) بوضعهم الموالاة فى غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم (قل) تلوين للخطاب وأمر له عليه الصلاة والسلام بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والاخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الابناء والازواج ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم) لم يذكر الابناء والازواج فيما سلف لان موالاة الابناء والازواج غير معتادة بخلاف المحبة (وعشيرتكم) أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أى الصحبة وقيل من العشرة فانهم جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة وقرئ عشيراتكم وعشائركم (وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها وانما وصفت بذلك ايماء الى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين (وتجارة) اى أمتعة اشتريتموها

هو الضلال البعيد ﴿المسئلة الثالثة﴾ قرئ الرياح في يوم عاصف جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك يوم ماطر وليلة ساكرة وانما السكور لريحها قال الفراء وان شئت قلت في يوم ذي عصوف وان شئت قلت في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورا قبل ذلك وقرئ في يوم عاصف بالاضافة ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله لا يقدرون مما كسبوا على شئ أي لا يقدرون مما كسبوا على شئ منتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة وذلك لانه ضاع بالكلية وفسد وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسبا لافعاله ❊ واعلم أنه تعالى لما تمم هذا المثال قال ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ وجه النظم انه تعالى لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة بين ان ذلك البطلان والاحباط انما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله واعراضهم عن العبودية فان الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وانه تعالى ما خلق كل هذا العالم الا لداعية الحكمة والصواب ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ حمزة والكسائي خالق السموات والارض على اسم الفاعل على أنه خبر ان والسموات والارض على الاضافة كقوله فاطر السموات والارض فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والباقون خلق على فعل الماضي السموات والارض بالنصب لانه مفعول ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله بالحق نظير لقوله في سورة يونس ما خلق الله ذلك الا بالحق ولقوله في آل عمران ربنا ما خلقت هذا باطلا ولقوله في ص وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا أما أهل السنة فيقولون الا بالحق وهو دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته وأما المعتزلة فيقولون الا بالحق أي لم يخلق ذلك عبثا بل لغرض صحيح ثم قال تعالى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد والمعنى ان من كان قادرا على خلق السموات والارض بالحق فبأن يقدر على افناء قوم واماتتهم وعلى ايجاد آخرين واحيائهم كان أولى لان القادر على الاصعب الاعظم بأن يكون قادرا على الاسهل الاضعف أولى قال ابن عباس هذا الخطاب مع كفار مكة يريد أميتكم يا معشر الكفار وأخلق قوما خيرا منكم وأطوع منكم ثم قال وما ذلك على الله بعزيز أي ممتنع لما ذكرنا أن القادر على افناء كل العالم وايجاده بأن يكون قادرا على افناء أشخاص مخصوصين وايجاد أمثالهم أولى وأحرى والله أعلم ❊ قوله تعالى ﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر في هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم وهذا اشارة الى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء ومنه يقال للمكان الواسع البراز لظهوره وقيل في قوله وترى الارض بارزة أي ظاهرة لا يسترها شئ وامرأة برزة اذا كانت تظهر للناس ويقال برز فلان على أقرانه اذا فاقهم وسبقهم وأصله في الخيل اذا سبق أحدها قيل برز عليها كأنه خرج من غمارها فظهر اذا عرفت هذا فنقول ههنا أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قوله وبرزوا ورد بلفظ الماضي وان كان معناه الاستقبال لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿البحث الثاني﴾ قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا في حق الله تعالى محال فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه (الاول) انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون ان ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية (الثاني) انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (الثالث) وهو تأويل الحكماء ان النفس اذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله ﴿البحث الثالث﴾ قال أبو بكر الاصم قوله وبرزوا لله هو المراد من قوله في الآية السابقة ومن ورائه عذاب غليظ واعلم أن قوله وبرزوا لله قريب من قوله يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر وذلك لان البواطن تظهر في ذلك اليوم والاحوال الكامنة تنكشف

للتجارة والربح (تخشون كسادها) بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة في أيام الموسم (ومساكن ترضونها) أي منازل تعجبكم الاقامة فيها من الدور والبساتين والتعرض للصفات المذكورة للايذان بان اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناهي ما فيها من مبادي المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع مالها من فنون المحاسن بمعزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله عليه الصلاة والسلام كما في قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم (أحب اليكم من الله ورسوله) بالحب الاختياري المستتبع لاثره الذي هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلي الذي لا يخلو عنه البشر فانه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة (وجهاد في سبيله) نظم حبه في سلك حب الله عز وجل وحب رسوله صلى الله عليه وسلم تنويها لشأنه وتنبيها على أنه مما يجب أن يحب فضلا عن أن يكره وايذانا بأن محبته راجعة الى محبتهما فان الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لاجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما (فتربصوا) أي انتظروا (حتى يأتي الله بأمره) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هي عقوبة عاجلة أو آجلة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أي القوم

فان كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية وأحوالهم العلوية ووجوههم المشرقة وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لهم نور الجلال ويعظم فيهم اشراق عالم القدس فما أجل تلك الاحوال وان كانوا من الاشقياء برزوا لموقف العظمة ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين في خزي الخجالة ومذلة الفضيحة وموقف المهانة والفزع نعوذ بالله منها ثم حكى الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا والمعنى انه انما اتبعناكم لهذا اليوم ثم ان الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذل قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من عذاب الله من محيص ومن المعلوم ان اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزي الكامل التام فكان المقصود من ذكر هذه الآية استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها والله أعلم (المسألة الثانية) كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة في بعض المصاحف والسبب فيه انه كتب على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو ونظيره علماء بني اسرائيل (المسألة الثالثة) الضعفاء الاتباع والعوام والذين استكبروا هم السادة والكبراء قال ابن عباس المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى انا كنا لكم تبعا أي في الدنيا قال الفراء وأكثر أهل اللغة التبع جمع تابع مثل خادم وخدم وباقر وبقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج وجائز أن يكون مصدرا سمي به أي كنا ذوي تبع * واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال المراد منها التبعية في الكفر ويحتمل أن يكون المراد منها التبعية في أحوال الدنيا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا فان قيل فما الفرق بين من في قوله من عذاب الله وبينه في قوله من شيء قلنا كلاهما للتبعيض بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو عذاب الله أي بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم قالوا لو هدانا الله لهديناكم وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس معناه لو أرشدنا الله لارشدناكم قال الواحدي معناه انهم انما دعوهم الى الضلال لان الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم الى الضلال ولو هداهم لدعوهم الى الهدى قال صاحب الكشاف لعلهم قالوا ذلك مع انهم كذبوا فيه ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفا لاصول مشايخه فلا يقبل منه (الثاني) قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم الى الايمان وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بان قال لا يجوز حمل هذا على اللطف لان ذلك قد فعله الله تعالى (والثالث) أن يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا الى طريق الجنة لهديناكم والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذي ذكرناه أن هذا هو الذي التمسوه وطلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى ثم قال سواء علينا أجزعنا أم صبرنا أي مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ثم قالوا ما لنا من محيص أي منجى ومهرب والمحيص قد يكون مصدرا كالمغيب والمشيب ومكانا كالمبيت والمضيق ويقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي اني كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الانس فقال تعالى وقال الشيطان لما قضي الامر وفي المراد بقوله لما قضي الامر وجوه (الاول) قال المفسرون اذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار أخذ أهل النار في لوم ابليس وتقريعه فيقوم في النار فيما بينهم خطيبا ويقول ما أخبر الله عنه بقوله وقال الشيطان لما قضي الامر (الثاني) ان المراد من قوله قضي الامر لما انقضت المحاسبة والقول الاول أولى لان آخر أمر أهل القيامة

الفاسقين كافة فيدخل في زمرتهم هؤلاء دخولا أوليا أي لا يرشدهم الى ما هو خير لهم وفي الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه الا من تداركه لطف من ربه والله المستعان (لقد نصركم الله) الخطاب للمؤمنين خاصة (في مواطن كثيرة) من الحروب وهي مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة (ويوم حنين) عطف على محل في مواطن بحذف المضاف في أحدهما أي وموطن يوم حنين أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للايماء الى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الامر وقيل المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أي ونصركم يوم حنين (اذ أعجبتكم كثرتكم) بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن في المعطوف عليه كثرة ولا اعجاب اذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف اليه المعطوف أو منصوب باضمار اذكر وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا عشرة آلاف منهم من شهد فتح مكة من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن

استقرار

استقرار المطيعين في الجنة واستقرار الكافرين في النار ثم يدوم الامر بعد ذلك (والقول الثالث) وهو أن مذهبنا ان الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله لما قضي الامر ذلك الوقت لان في ذلك الوقت تنقطع الاحوال المتغيرة ولا يحصل بعده الا دوام ما حصل قبل ذلك وأما الشيطان فالمراد به ابليس لان لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وابليس رأس الشياطين ورئيسهم فحمل اللفظ عليه أولى لا سيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الخلق وقضى بينهم يقول الكافر قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو الا ابليس هو الذي أضلنا فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول أما قوله ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ففيه مباحث (الاول) المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم وتقرير الكلام ان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى (البحث الثاني) قوله وعد الحق من باب اضافة الشيء الى نفسه كقوله حب الحصيد ومسجد الجامع على قول الكوفيين والمعنى وعدكم الوعد الحق وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الامر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق ثم ذكر المصدر تأكيدا (البحث الثالث) في الآية اضمار من وجهين (الاول) أن التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر في وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى (الثاني) ان في قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضي مفعولا ثانيا وحذف ههنا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب * أما قوله وما كان لي عليكم من سلطان أي قدرة ومكنة وتسلط وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم اليها الا أن دعوتكم أي الا دعائي اياكم الى الضلالة بوسوستي وتزييني قال النحويون ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله الا أن دعوتكم من جنس قولهم ما تحيتهم الا الضرب وقال الواحدي انه استثناء منقطع أي لكن دعوتكم وعندي انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقي لان قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة يكون بالقهر والقسر وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسلط ثم ان ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه وعلى ازالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية ثم قال فلا تلوموني ولوموا أنفسكم يعني ما كان مني الا الدعاء والوسوسة وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي ولا تلتفتوا الي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب وفي الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء (الاول) انه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أنه يقال فلا تلوموني ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه (الثاني) ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج أعضائه وعلى ازالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام (الثالث) ان هذه الآية تدل على أن الانسان لا يجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير وعند هذا يظهر أنه لا يجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم * أجاب بعض الاصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به * وأجاب الخصم عنه بأنه لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر انكاره وأيضا فلا فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد ألا ترى ان قوله ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم كلام حق وقوله وما كان لي عليكم من سلطان قول حق بدليل قوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على أن الشيطان الاصلي هو النفس وذلك لان الشيطان بين انه ما أتى الا بالوسوسة فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتة فدل هذا

ضاهم من أمداد سائر العرب وكانوا الجم الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين أعجب سلمة بن سلامة الأنصاري لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا الذراري فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون يا حماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمة الاعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل (فلم تغن عنكم شيأ) والاغناء اعطاء ما يدفع به الحاجة أي لم تعطكم تلك الكثرة ما تدفعون به حاجتكم شيأ من الاغناء (وضاقت عليه الارض بما رحبت) أي برحبها وسعتها على أن ما مصدرية والباء بمعنى مع أي لا تجدون فيها مفرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكان (ثم وليتم مدبرين) روي أنه بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث آخذا بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه

على أن الشيطان الاصلي هو النفس فان قال قائل بينوا لنا حقيقة الوسوسة قلنا الفعل انما يصدر عن الانسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتيبا لازما طبيعيا وبيانه أن أعضاء الانسان بحكم السلامة الاصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك والاقدام والاحجام فالم يحصل في القلب ميل الى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فانه يمتنع صدور الفعل وذلك الميل هو الارادة الجازمة والقصد الجازم ثم ان تلك الارادة الجازمة لا تحصل الا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر فان لم يحصل فيه هذا الاعتقاد لم يحصل الميل لا الى الفعل ولا الى الترك فالحاصل أن الانسان اذا أحس بشئ ترتب عليه شعوره بكونه ملائما له أو بكونه منافرا له أو بكونه غير ملائم ولا منافر فان حصل الشعور بكونه ملائما له ترتب عليه الميل الجازم الى الفعل وان حصل الشعور بكونه منافرا له ترتب عليه الميل الجازم الى الترك وان لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا الى ذلك الشئ ولا الى ضده بل بقي الانسان كما كان وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل اذا عرفت هذا فنقول صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه وصدور الميل عن تصور كونه خيرا أو تصور كونه شرا أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل وحصول تصور كونه خيرا أو تصور كونه شرا عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه فلم يبق للشيطان مدخل في شئ من هذه المقامات الا في أن يذكره شيأ بأن يلقي اليه حديثه مثل أن الانسان كان غافلا عن صورة امرأة فيلقي الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لا قدرة له الا في هذا المقام وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنه قال وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني يعني ما كان مني الا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت مني وما كان لي فيها أثر البتة ❊ بقي في هذا المقام سؤالان (السؤال الاول) كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الانسان والقاء الوسوسة اليه (والجواب) للناس في الملائكة والشياطين قولان (القول الاول) أن ما سوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة المتحيز والحال في المتحيز والذي لا يكون متحيزا ولا حالا فيه وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل البتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به وهذا هو المسمى بالارواح فهذه الارواح ان كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وان كانت خبيثة داعية الى الشرور وعالم الاجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين اذا عرفت هذا فنقول فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسما يحتاج الى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبول على الشر والنفس الانسانية أيضا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير أن يلقي شئ من تلك الارواح أنواعا من الوساوس والاباطيل الى جوهر النفس الانسانية وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالا ثانيا وهو أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع فهي طوائف وكل طائفة منها في تدبير روح من الارواح السماوية بعينها فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الاخلاق كريمة الافعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الامر وهي تكون منتسبة الى روح معين من الارواح السماوية وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة وعدم المبالاة بأمر من الامور وهي تكون منتسبة الى روح آخر من الارواح السماوية وهذه الارواح البشرية كالاولاد لذلك الروح السماوي وكالنتائج الحاصلة وكالفروع المتفرعة عليها وذلك الروح السماوي هو الذي يتولى ارشادها الى مصالحها وهو الذي يخصها بالالهامات حالتي النوم واليقظة والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوي بالطباع التام ولا شك أن لذلك الروح السماوي الذي هو الاصل والينبوع شعبا كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الانسان وهي لاجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضا على الاعمال اللائقة بها والافعال المناسبة لطبائعها ثم انها ان كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الاعانة مسماة بالالهام وان كانت شريرة خبيثة قبيحة الاعمال كانت شياطين وكانت تلك الاعانة مسماة بالوسوسة وذكر بعض العلماء أيضا فيه احتمالا ثالثا وهو أن

الواحدة شهادة صدق على أنه عليه الصلاة والسلام كان في الشجاعة ورباطة الجأش بالغا الغايات القاصية وما كان ذلك الا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يا رب ائتني بما وعدتني وقال للعباس وكان صيتا صح بالناس فنادى الانصار فخذا فخذا ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أي رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن اليها اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضا (وعلى المؤمنين) عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت أي المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم أو على الكل وهو الانسب ولا ضير في تحقق أصل السكينة في الثابتين من قبل والتعرض لوصف الايمان للاشعار بعلية الانزال (وأنزل جنودا لم تروها) أي بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبي صلى الله عليه وسلم الى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمي الوطيس فأخذ كفا من

النفوس

النفوس البشرية والارواح الانسانية اذا فارقت أبدانها قويت فى تلك الصفات التى اكتسبتها فى تلك الابدان وكملت فيها فاذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة فى بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم ان كان هذا المعنى فى أبواب الخير والبركات كان ذلك الهاما وان كان فى باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعا على القول باثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز والقول بالارواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا اثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم وأما القول الثانى وهو أن الملائكة والشياطين لابد وأن تكون أجساما فنقول ان على هذا التقدير يمتنع أن يقال انها أجسام كثيفة بل لابد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيبا عجيبا وهى أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الاجرام اللطيفة فى عمق الاجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى أن الروح الانسانية جسم لطيف ثم انه نفذ فى داخل عمق البدن فاذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الاجسام اللطيفة فى داخل هذا البدن أليس ان جرم النار يسرى فى جرم الفحم وماء الورد يسرى فى ورق الورد ودهن السمسم يجرى فى جسم السمسم فكذا ههنا فظهر بما قررنا أن القول باثبات الجن والشياطين أمر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل وان الاصرار على الانكار ليس الا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة ولما ثبت أن القول بالشياطين ممكن فى الجملة فنقول الاحق والاولى أن يقال الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب كما قال الله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم ﴿السؤال الثانى﴾ لم قال الشيطان فلا تلومونى ولوموا أنفسكم وهو أيضا ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة * والجواب أراد بذلك فلا تلومونى على ما فعلتم ولوموا انفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن عباس يريد بمغيثكم ولا منقذكم قال ابن الاعرابى الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث يقال صرخ فلان اذا استغاث وقال واغوثاه وأصرخته أغثته ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ حمزة بمصرخى بكسر الياء قال الواحدى وهى قراءة الاعمش ويحيى بن وثاب قال الفراء ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن أن الباء فى قوله بمصرخى خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لان الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال ومما نرى أنهم وهموا فيه قوله نوله ما تولى ونصله جهنم بجزم الهاء ظنوا والله أعلم أن الجزم فى الهاء وهو خطأ لان الهاء فى موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه ومن النحويين من تكلف فى ذكر وجه لصحته الا أن الاكثرين قالوا انه لحن والله أعلم ثم قال تعالى حكاية عنه انى كفرت بما أشركتمونى من قبل وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ما فى قوله انى كفرت بما أشركتمونى من قبل فيه قولان (الاول) انها مصدرية والمعنى كفرت باشراككم اياى مع الله تعالى فى الطاعة والمعنى انه جحد ما كان يعتقده أولئك الاتباع من كون ابليس شريكا لله تعالى فى تدبير هذا العالم وكفر به أو يكون المعنى انهم كانوا يطيعون الشيطان فى أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله فى أعمال الخير وهذا هو المراد بالاشراك (والثانى) وهو قول الفراء ان المعنى ان ابليس قال انى كفرت بالله الذى أشركتمونى به من قبل كفركم والمعنى أنه كان كفره قبل كفر أولئك الاتباع ويكون المراد بقوله ما فى هذا الموضع من والقول هو الاول لان الكلام انما ينتظم بالتفسير الاول ويمكن أن يقال أيضا الكلام منتظم على التفسير الثانى والتقدير كأنه يقول لا تأثير لوسوستى فى كفركم بدليل انى كفرت قبل ان وقعتم

التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم أحد الا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام انهزموا ورب الكعبة واختلفوا فى عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وفى قتالهم أيضا فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا الا يوم بدر وانما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك والقاء الرعب فى قلوب المشركين قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر والسبى (وذلك) أى ما فعل بهم مما ذكر (جزاء الكافرين) لكفرهم فى الدنيا (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه أى يوفقه للاسلام (والله غفور) يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى (رحيم) يتفضل عليهم ويثيبهم روى أن ناسا منهم جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وقالوا يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس

فى الكفر وما كان كفرى بسبب وسوسة أخرى والالزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع فى الكفر شئ آخر سوى الوسوسة وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام أما قوله ان الظالمين لهم عذاب أليم فالاظهر انه كلام الله عز وجل وأن كلام ابليس تم قبل هذا الكلام ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك من بقية كلام ابليس قطعا لاطماع أولئك الكفار عن الاعانة والاغاثة والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما بالغ فى شرح أحوال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار وكونها دائمة أشير اليه بقوله خالدين فيها والتعظيم حصل من وجهين (أحدهما) أن تلك المنافع انما حصلت باذن الله تعالى وأمره (والثانى) قوله تحيتهم فيها سلام لان بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب الرحيم يحييهم أيضا بهذه الكلمة كما قال سلام قولا من رب رحيم واعلم أن السلام مشتق من السلامة والاظهر أن المراد انهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها أوفنون آلامها وأسقامها وأنواع غمومها وهمومها وما أصدق ما قالوا فان السلامة من محن عالم الاجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم لاسيما اذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وأدخل الذين آمنوا على معنى وأدخلهم أنا وعلى هذه القراءة فقوله باذن ربهم متعلق بما بعده أى تحيتهم فيها سلام باذن ربهم يعنى أن الملائكة يحيونهم باذن ربهم ﴿قوله تعالى ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثالا يبين الحال فى حكم هذين القسمين وهو هذا المثل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها (فالصفة الاولى) لتلك الشجرة كونها طيبة وذلك يحتمل أمورا (أحدها) كونها طيبة المنظر والصورة والشكل (وثانيها) كونها طيبة الرائحة (وثالثها) كونها طيبة الثمرة يعنى أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة (ورابعها) كونها طيبة بحسب المنفعة يعنى انها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ويجب حمل قوله شجرة طيبة على مجموع هذه الوجوه لان اجتماعها يحصل كمال الطيب (والصفة الثانية) قوله أصلها ثابت أى راسخ باق آمن من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لان الشئ الطيب اذا كان فى معرض الانقراض والانقضاء فهو وان كان يحصل الفرح بسبب وجدانه الا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه أما اذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضى فانه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به (والصفة الثالثة) قوله وفرعها فى السماء وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين (الاول) أن ارتفاع الاغصان وقوتها فى التصاعد يدل على ثبات الاصل ورسوخ العروق (والثانى) انها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الارض وقاذورات الابنية فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب (والصفة الرابعة) قوله تؤتى أكلها كل حين باذن ربها والمراد ان الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة وهى ان ثمراتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الاوقات ولا تكون مثل الاشجار التى يكون ثمارها حاضرا فى بعض الاوقات دون بعض فهذا شرح هذه الشجرة التى ذكرها الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة فى تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فانه لا يجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل فى الفوز بها اذا عرفت هذا فنقول معرفة الله تعالى والاستغراق فى محبته وفى خدمته وطاعته تشبه هذه

وأخذ من الابل والغنم ما لا يحصى فقال عليه الصلاة والسلام ان عندى ما ترون ان خير القول أصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم واما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيأ فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤنا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيأ فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيأ فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه الصلاة والسلام انا لا ندرى لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء أنهم قد رضوا (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة أوهم ذوو نجس لخبث باطنهم أولان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أولانهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم * عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرئ نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد فى كبد كأنه قيل انما المشركون جنس نجس أوضرب نجس

الشجرة

الشجرة فى هذه الصفات الاربع (أما الصفة الاولى) وهى كونها طيبة فهى حاصلة بل نقول لا طيب ولا لذيذ فى الحقيقة الا هذه المعرفة وذلك لان اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة انما حصلت لان ادراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن فلاجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية ليس الا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق فى الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جدا بل نقول اللذة الحاصلة من ادراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالا من اللذة الحاصلة بسبب اشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه (أحدها) أن المدركات المحسوسة انما تصير مدركا بسبب ان سطح الحاس يلاقى سطح المحسوس فقط فأما أن يقال ان جوهر المحسوس نفذ فى جوهر الحاس فليس الامر كذلك لان الاجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الاشراق صار سار يافى جوهر النفس متحدا به وكان النفس عند حصول ذلك الاشراق تصير غير النفس التى كانت قبل حصول ذلك الاشراق فهذا فرق عظيم بين البابين (والوجه الثانى) فى الفرق أن فى الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله وصفات جلاله واكرامه فوجب أن تكون نسبة احدى اللذتين الى الاخرى كنسبة أحد المدركين الى الآخر (الوجه الثالث) فى الفرق ان اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كما حصلت زالت فى الحال لانها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير أما كمال الحق وجلاله فانه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضا ممتنع التغير فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيها للعقل السليم على سائرها (وأما الصفة الثانية) وهى كون هذه الشجرة ثابتة الاصل فهذه الصفة فى شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل وذلك لان عروق هذه الشجرة راسخة فى جوهر النفس القدسية وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء وأيضا مدد هذا الرسوخ انما هو من تجلى جلال الله تعالى وهذا التجلى من لوازم كونه سبحانه فى ذاته نور النور ومبدأ الظهور وذلك مما يمتنع عقلا زواله لانه سبحانه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال فى حقه تعالى فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الاصل ليست الا هذه الشجرة (الصفة الثالثة لهذه الشجرة) كونها بحيث يكون فرعها فى السماء واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة فى هواء العالم الالهى وأغصان صاعدة فى هواء العالم الجسمانى * أما النوع الاول فهى أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه الصلاة والسلام التعظيم لامر الله ويدخل فيه التأمل فى دلائل معرفة الله تعالى فى عالم الارواح وفى عالم الاجسام وفى أحوال عالم الافلاك والكواكب وفى أحوال العالم السفلى ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق الى الله والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء فى ذكر هذه الاقسام غير مطموع فيه لانها أحوال غير متناهية وأما النوع الثانى فهى أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه الصلاة والسلام والشفقة على خلق الله ويدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب والسعى فى ايصال الخير اليهم ودفع الشر عنهم ومقابلة الاساءة بالاحسان وهذه الاقسام أيضا غير متناهية وهى فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فان الانسان كلما كان أكثر توغلا فى معرفة الله تعالى كانت هذه الاحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل (وأما الصفة الرابعة) فهى قوله تعالى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الاشجار الجسمانية لان شجرة المعرفة موجبة لهذه الاحوال ومؤثرة فى حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة فى أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال فاعتبروا يا أولى الابصار وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ونطقه بالصدق والصواب كما قال كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم وقال عليه السلام

وأكثر ما جاء تابعا لرجس (فلا يقربوا المسجد الحرام) تفريع على نجاستهم وانما نهى عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهى عن الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل (بعد عامهم هذا) فان تقييد النهى بذلك يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام أى لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويدل عليه قول على رضى الله عنه حين نادى ببراءة ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعى يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك (وان خفتم عيلة) أى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه اليكم من الارفاق والمكاسب وقرئ عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حال عائلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه أو من تفضله بوجه آخر

قولوا الحق ولو على أنفسكم وهذا الانسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة فى أرض قلبه أقوى وأكمل كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر وربما توغل فى هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيأ لاحظ الحق فيه وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيأ الا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها وأيضا فما ذكرناه اشارة الى الالهامات النفسانية والملكات الروحانية التى تحصل فى جواهر الارواح ثم لا يزال يصعد منها فى كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل كثمرة هذه الشجرة * وأما قوله باذن ربها ففيه دقيقة عجيبة وذلك لان عند حصول هذه الاحوال السنية والدرجات العالية قد يفرح الانسان بها من حيث هى هى وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هى هى وانما يفرح بها من حيث انها من المولى وعند ذلك فيكون فرحه فى الحقيقة بالمولى لا بهذه الاحوال ولذلك قال بعض المحققين من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفانى ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول فقد ظهر بهذا التقرير الذى شرحناه والبيان الذى فصلناه ان هذا المثال الذى ذكره الله تعالى فى هذا الكتاب مثال هاد الى عالم القدس وحضرة الجلال وسرادقات الكبرياء فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة انه سميع مجيب وذكر بعضهم فى تقرير هذا المثال كلاما لا بأس به فقال انما مثل الله سبحانه وتعالى الايمان بالشجرة لان الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وأغصان عالية كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء معرفة فى القلب وقول باللسان وعمل بالابدان والله أعلم (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف فى نصب قوله كلمة طيبة وجهان (الاول) انه منصوب بمضمر والتقدير جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا (الثانى) قال ويجوز أن ينتصب مثلا وكلمة بضرب أى ضرب كلمة طيبة مثلا بمعنى جعلها مثلا وقوله كشجرة طيبة خبر مبتدا محذوف والتقدير هى كشجرة طيبة (الثالث) قال صاحب حل العقد أظن ان الاوجه أن يجعل قوله كلمة عطف بيان والكاف فى قوله كشجرة فى محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس الكلمة الطيبة هى قول لا اله الا الله والشجرة الطيبة هى النخلة فى قول الاكثرين وقال صاحب الكشاف انها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وأراد شجرة طيبة الثمرة الا أنه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها أصلها أى أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت وفرعها أى أعلاها فى السماء والمراد الهواء لان كل ما سماك وعلاك فهو سماء تؤتى أى هذه الشجرة أكلها أى ثمرها وما يؤكل منها كل حين واختلفوا فى تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة أشهر لان بين حملها الى صرامها ستة أشهر جاء رجل الى ابن عباس فقال نذرت ان لا أكلم أخى حتى حين فقال الحين ستة أشهر وتلا قوله تعالى تؤتى أكلها كل حين وقال مجاهد وابن زيد سنة لان الشجرة من العام الى العام تحمل الثمرة وقال سعيد بن المسيب شهران لان مدة اطعام النخلة شهران وقال الزجاج جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون الى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الازمان كلها طالت أم قصرت والمراد من قوله تؤتى أكلها كل حين انه ينتفع بها فى كل وقت وفى كل ساعة ليلا أو نهارا أو شتاء أو صيفا قالوا والسبب فيه ان النخلة اذا تركوا عليها الثمر من السنة الى السنة انتفعوا بها فى جميع أوقات السنة * وأقول هؤلاء وان أصابوا فى البحث عن مفردات ألفاظ الآية الا أنهم بعدوا عن ادراك المقصود لانه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة ولا حاجة بنا الى ان تلك الشجرة هى النخلة أم غيرها فانا نعلم بالضرورة ان الشجرة الموصوفة بالصفات الاربع المذكورة شجرة شريفة ينبغى لكل عاقل أن يسعى فى تحصيلها وتملكها وادخارها لنفسه سواء كان لها وجود فى الدنيا أولم يكن لان هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل واختلافهم فى تفسير الحين أيضا من هذا الباب والله أعلم بالامور * ثم قال ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون والمعنى ان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى وذلك لان المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم فاذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم

فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا الى مكة الطعام وما يعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من أقطار الارض (ان شاء) أن يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها وانما قيد ذلك بها لتنقطع الآمال الى الله تعالى ولان الاغناء ليس مطردا بحسب الافراد والاحوال والاوقات (ان الله عليم) بمصالحكم (حكيم) فيما يعطى ويمنع (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أمرهم بقتال أهل الكتابين اثر أمرهم بقتال المشركين ومنعهم من أن يحوموا حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ونبههم فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الاغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم الى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للامر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك فى سلك المشركين فان اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فان علمهم باحوال الآخرة كلا علم فايمانهم المبنى عليه ليس بايمان به (ولا يحرمون ما حرم الله

التام والوصول الى المطلوب وأما قوله تعالى ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فاعلم ان الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله فانه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم انه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة (أولها) انها تكون خبيثة فمنهم من قال انها الثوم لانه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة وقيل انها الكراث وقيل انها شجرة الحنظل لكثرة مافيها من المضار وقيل انها شجرة الشوك واعلم ان هذا التفصيل لا حاجة اليه فان الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وان لم تكن موجودة الا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا في المطلوب ﴿والصفة الثانية﴾ قوله اجتثت من فوق الارض وهذه الصفة في مقابلة قوله أصلها ثابت ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وقوله من فوق الارض معناه ليس لها أصل ولا عرق فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة ﴿والصفة الثالثة﴾ قوله مالها من قرار وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية والمعنى انه ليس لها استقرار يقال قر الشئ قرارا كقولك ثبت ثباتا شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت واعلم ان هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال وذلك لانه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة وخالية عن كل المنافع أما كونها موصوفة بالمضار فاليه الاشارة بقوله خبيثة وأما كونها خالية عن كل المنافع فاليه الاشارة بقوله اجتثت من فوق الارض مالها من قرار والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرى ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ان صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتا وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر ان ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم وثبات ثوابه عليهم والمقصود بيان ان الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله يثبت الله أي على الثواب والكرامة وقوله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا ثم قال ويضل الله الظالمين يعني كما ان الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو القول المشهور ان هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته اياه على الحق وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال حين يقال له في القبر من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من الباء في قوله بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما ثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو انه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا اله الا الله وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل قال ابن عباس من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه اياها وانما فسر الآخرة ههنا بالقبر لان الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة وقوله ويضل الله الظالمين يعني ان الكفار اذا سئلوا في قبورهم قالوا لا ندري وانما قال ذلك لان الله أضله وقوله ويفعل الله مايشاء يعني ان شاء هدى وان شاء أضل ولا اعتراض عليه في فعله البتة ۞ قوله تعالى ﴿ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار﴾ اعلم أنه تعالى عاد الى وصف أحوال الكفار في هذه الآية فقال ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا نزل في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة وبعث فيهم محمدا صلى الله

ورسوله) أي ماثبت تحريمه بالوحي متلوا أو غير متلو وقيل المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه أي يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا (ولا يدينون دين الحق) الثابت الذي هو ناسخ لسائر الأديان وهو دين الاسلام وقيل دين الله (من الذين أوتوا الكتاب) من التوراة والانجيل فمن بيانية لاتبعيضية حتى يكون بعضهم على خلافه مانعت (حتى يعطوا) أي يقبلوا أن يعطوا (الجزية) أي ماتقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه أي قضاه أولانهم يجزون بها من منّ عليهم بالاعفاء عن القتل (عن يد) حال من الضمير في يعطوا أي عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى منقادين أومن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن يد قاهرة عليهم أي بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن انعام عليهم فان ابقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أي نقدا مسلمة عن يد الى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الاعطاء بل قبوله كما أشير اليه (وهم صاغرون) أي أذلاء وذلك بأن يأتي بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها وهي

عليه وسلم فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ثم انه تعالى حكى عنهم أنواعا من الاعمال القبيحة ﴿النوع الاول﴾ قوله بدلوا نعمت الله كفرا وفيه وجوه (الاول) يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله كفرا لانه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعم أتوا بالكفر فكانهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا (والثاني) أنهم بدلوا نفس نعمة الله كفرا لانهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقي الكفر معهم بدلا من النعمة (الثالث) أنه تعالى أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الايمان ﴿والنوع الثاني﴾ ما حكى الله تعالى عنهم قوله وأحلوا قومهم دار البوار وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور ومنه قوله تعالى وكنتم قوما بورا وأراد بدار البوار جهنم بدليل انه فسرها بجهنم فقال جهنم يصلونها وبئس القرار أي المقر وهو مصدر سمي به ﴿النوع الثالث﴾ من أعمالهم القبيحة قوله وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انه تعالى لما حكى عنهم انهم بدلوا نعمة الله كفرا ذكر انهم بعد أن كفروا بالله جعلوا له أندادا والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول والمراد من الانداد الاشباه والشركاء وهذا الشرك يحتمل وجوها (أحدها) انهم جعلوا للاصنام حظا فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا (وثانيها) انهم شركوا بين الاصنام وبين خالق العالم في المعبودية (وثالثها) انهم كانوا يصرحون باثبات الشركاء لله وهو قولهم في الحج لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضلوا بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل غيره يضل (المسئلة الثالثة) اللام في قوله ليضلوا عن سبيله لام العاقبة لان عبادة الاوثان سبب يؤدي الى الضلال ويحتمل أن تكون لام كي أي الذين اتخذوا الوثن كي يضلوا غيرهم هذا اذا قرئ بالضم فانه يحتمل الوجهين واذا قرئ بالنصب فلا يحتمل الا لام العاقبة لانهم لم يريدوا اضلال أنفسهم وتحقيق القول في لام العاقبة ان المقصود من الشئ لا يحصل الا في آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل وكل ما حصل في العاقبة كان شبيها بالامر المقصود في هذا المعنى والمشابهة أحد الامور المصححة لحسن المجاز فلهذا السبب حسن ذكر اللام في العاقبة ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال قل تمتعوا فان مصيركم الى النار والمراد أن حال الكافر في الدنيا كيف كانت فانها بالنسبة الى ما سيصل اليه من العقاب في الآخرة تمتع ونعيم فلهذا المعنى قال قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وأيضا ان هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم انهم بدلوا نعمة الله كفرا فأولئك كانوا في الدنيا في نعم كثيرة فلا جرم حسن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وهذا الامر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقوله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار ۞ قوله تعالى ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ اعلم انه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي لعبادي بسكون الياء والباقون بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك الى النصب ﴿المسئلة الثانية﴾ في قوله يقيموا وجهان (الاول) يجوز أن يكون جوابا للامر محذوف هو المقول تقديره قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا (الثاني) يجوز أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه لام الامر أي ليقيموا كقولك قل لزيد ليضرب عمرا وانما جاز حذف اللام لان قوله قل عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز ﴿المسئلة الثالثة﴾ أن الانسان بعد الفراغ عن الايمان لا قدرة له على التصرف في شئ الا في نفسه أو في ماله اما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود في الصلاة وأما المال فيجب صرفه الى البذل في طاعة الله تعالى فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة وهي الايمان والصلاة والزكاة وتمام ما يجب أن يقال في هذه الامور الثلاثة ذكرناه في قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴿المسئلة الرابعة﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن الرزق لا يكون حراما لان الآية دلت على أن الانفاق من الرزق ممدوح ولا شئ من الانفاق من الحرام بممدوح فينتج ان الرزق ليس بحرام وقد

تؤخذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه من أهل الكتاب مطلقا ومن مشركي العجم لا من مشركي العرب وعند أبي يوسف رضي الله عنه لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من الاعجمي كتابيا كان أو مشركا وعند الشافعي رضي الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربيا أو عجميا ولا تؤخذ من أهل الاوثان مطلقا وذهب مالك والاوزاعي الى أنها تؤخذ من جميع الكفار وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم لقوله عليه الصلاة والسلام في آخر ما نقل من الحديث غير ناكحي نسائهم وآكلي ذبائحهم ووقت الاخذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والاسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما وعلى الغني ثمانية وأربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أو زمن أو صبي أو امرأة وعند الشافعي رضي الله عنه تؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار غنيا كان أو فقيرا

مرتقرير هذا الكلام مرارا (المسئلة الخامسة) في انتصاب قوله سرا وعلانية وجوه (أحدها) أن يكون على الحال أي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين (وثانيها) على الظرف أي وقت سر وعلانية (وثالثها) على المصدر أي انفاق سر وانفاق علانية والمراد اخفاء التطوع واعلان الواجب واعلم أنه تعالى لما أمر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة قال من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال قال أبو عبيدة البيع ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر من خاللت خلالا ومخالة وهي المصادقة قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق في مثل هذا اليوم الذي لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة * فان قيل كيف نفى المخالة في هاتين الآيتين مع انه تعالى أثبتها في قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين * قلنا الآية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار ﴾ اعلم انه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته وفي حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة لا جرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل (أولها) خلق السموات (وثانيها) خلق الارض واليهما الاشارة بقوله تعالى الله الذي خلق السموات والارض (وثالثها) قوله وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم (ورابعها) قوله وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره (وخامسها) قوله وسخر لكم الانهار (وسادسها وسابعها) قوله وسخر لكم الشمس والقمر دائبين (وثامنها وتاسعها) قوله وسخر لكم الليل والنهار (وعاشرها) قوله وآتاكم من كل ما سألتموه وهذه الدلائل العشرة قد مر ذكرها في هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مرارا وأطوارا ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد فاعلم ان قوله تعالى الله مبتدأ وقوله الذي خلق خبره ثم انه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والارض وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن السماء والارض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم وانما بدأ بذكرهما ههنا لانهما هما الاصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الادلة المذكورة بعد ذلك فانه قال بعده وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وفيه مباحث (الاول) لولا السماء لم يصح انزال الماء منها ولولا الارض لم يوجد ما يستقر الماء فيه فظهر انه لابد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب (البحث الثاني) قوله وأنزل من السماء ماء وفيه قولان (الاول) أن الماء نزل من السحاب وسمي السحاب سماء اشتقاقا من السمو وهو الارتفاع (والثاني) انه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد لان الانسان ربما كان واقفا على قلة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فاذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرا عليهم واذا كان هذا أمرا مشاهدا بالبصر كان النزاع فيه باطلا (البحث الثالث) قال قوم انه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة وذلك لان في هذا المعنى مصلحة للمكلفين لانهم اذا علموا أن هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب فالمنافع العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى ان تتحمل المشاق في طلبها واذا كان المرء يترك الراحة واللذة طلبا لهذه الخيرات الحقيرة فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب هذا قول المتكلمين وقال قوم آخرون انه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء والمسئلة كلامية محضة وقد ذكرناها في سورة البقرة (البحث الرابع) قال أبو مسلم لفظ الثمرات يقع في الاغلب على

كان له كتب أو لم يكن (وقالت اليهود) جملة مبتدأة سيقت لتقرير ما من عدم ايمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك في سلك المشركين (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر وقرئ بغير تنوين على انه اسم أعجمي كعازر وعزار غير منصرف للعجمة والتعريف وأما تعليله بالتقاء الساكنين أو بحمل الابن وصفا على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة * عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال ان الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح في الارض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام الا أنه ابنه قال الامام الكلبي لما قتل بختنصر علماءهم جميعا وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم

ما يحصل على الاشجار ويقع أيضا على الزروع والنبات كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده
(البحث الخامس) قال تعالى فأخرج به من الثمرات رزقا لكم والمراد انه تعالى انما أخرج هذه الآية لاجل
أن تكون رزقا لنا والمقصود انه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات ايصال الخير والمنفعة الى المكلفين لان
الاحسان لا يكون احسانا الا اذا قصد المحسن بفعله ايصال النفع الى المحسن اليه (البحث السادس) قال
صاحب الكشاف قوله من الثمرات بيان للرزق اى أخرج به رزقا هو ثمرات ويجوز أن يكون من الثمرات
مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول أو نصبا على المصدر من أخرج لانه في معنى رزق والتقدير ورزق من
الثمرات رزقا لكم (فأما الحجة الرابعة) وهى قوله وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بامره ونظيره قوله تعالى ومن
آياته الجوار في البحر كالاعلام ففيها مباحث (البحث الاول) ان الانتفاع بما ينبت من الارض انما يكمل
بوجود الفلك الجارى في البحر وذلك لانه تعالى خص كل طرف من أطراف الارض بنوع آخر من أنعمه حتى
ان نعمة هذا الطرف اذا نقلت الى الجانب الآخر من الارض وبالعكس كثر الربح في التجارات ثم ان هذا
النقل لا يمكن الا بسفن البر وهى الجمال أو بسفن البحر وهى الفلك المذكورة في هذه الآية فان قيل ما معنى
وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد قلنا أما على قولنا ان فعل العبد خلق الله تعالى فلا
سؤال وأما على مذهب المعتزلة فقد أجاب القاضى عنه فقال لولا انه تعالى خلق الاشجار الصلبة التى منها
يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا أنه تعالى خلق
الماء على صفة السيلان التى باعتبارها يصح جرى السفينة ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية
فيها ولولا انه وسع الانهار وجعل فيها من العمق ما يجوز جرى السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار
لاجل انه تعالى هو الخالق لهذه الاحوال وهو المدبر لهذه الامور والمسخر لها حسنت اضافة السفن اليه
(البحث الثانى) انه تعالى اضاف ذلك التسخير الى أمره لان الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وانما يقال
فيه انه أمر بكذا تعظيما لشأنه ومنهم من حمله على ظاهر قوله انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن
فيكون وتحقيق هذا الوجه راجع الى ما ذكرناه (البحث الثالث) الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز
والمعنى أنه لما كان يجرى على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كانه حيوان مسخر له (الحجة الخامسة) قوله
تعالى وسخر لكم الانهار واعلم ان ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات لا جرم ذكر تعالى انعامه على الخلق بتفجير
الانهار والعيون حتى ينبعث الماء منها الى مواضع الزرع والنبات وأيضا ماء البحر لا يصلح للشرب والصالح
لهذا المهم هو مياه الانهار (الحجة السادسة والسابعة) قوله وسخر لكم الشمس والقمر دائبين واعلم ان
الانتفاع بالشمس والقمر عظيم وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله وجعل القمر فيهن نورا وجعل
الشمس سراجا ومنها قوله الشمس والقمر بحسبان ومنها قوله وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ومنها قوله هو
الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقوله دائبين معنى الدؤب في اللغة مرور الشئ في العمل على عادة
مطردة يقال دأب يدأب دأبا ودؤبا وقد ذكرنا هذا في قوله قال تزرعون سبع سنين دأبا قال المفسرون قوله
دائبين معناه يدأبان في سيرهما وانارتهما وتأثيرهما في ازالة الظلمة وفى اصلاح النبات والحيوان فان
الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الاربعة ولولاها لاختلت
مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب (الحجة الثامنة
والتاسعة) قوله وسخر لكم الليل والنهار واعلم ان منافعهما مذكورة في القرآن كقوله تعالى وجعلنا الليل
لباسا وجعلنا النهار معاشا وقوله وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا قال المتكلمون تسخير
الليل والنهار مجاز لانهما عرضان والاعراض لا تسخر (والحجة العاشرة) قوله وآتاكم من كل ما سألتموه
ثم انه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك انه لم يقتصر عليها بل أعطى عباده من المنافع
والمرادات ما لا يأتى على بعضها التعديد والاحصاء فقال وآتاكم من كل ما سألتموه والمفعول محذوف تقديره
من كل مسؤل شيأ وقرئ من كل بالتنوين وما سألتموه نفى ومحله نصب على الحال أى آتاكم من جميع ذلك

بقتله فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة
ويكون آية بعدما أماته
مائة عام يقال انه أتاه
ملك باناء فيه ماء فسقاه
فمثلت في صدره فلما أتاهم
فقال لهم انى عزير كذبوه
فقالوا ان كنت كما تزعم
فأمل علينا التوراة
ففعل فقالوا ان الله تعالى
لم يقذف التوراة فى قلب
رجل الا لانه ابنه تعالى
الله عن ذلك علوا كبيرا
* وعن ابن عباس رضى
الله تعالى عنهما أن اليهود
أضاعوا التوراة وعملوا
بغير الحق فأنساهم الله
تعالى التوراة ونسخها
من صدورهم ورفع
التابوت فتضرع عزير
الى الله تعالى وابتهل اليه
فعاد حفظ التوراة الى
قلبه فأنذر قومه به ثم ان
التابوت نزل فعرضوا
ما تلاه عزير على ما فيه
فوجدوه مثله فقالوا
ما قالوا (وقالت النصارى
المسيح ابن الله) هو أيضا
قول بعضهم وانما قالوه
استحالة لان يكون ولد
بغير أب أو لان يفعل
ما فعله من ابراء الاكمه
والابرص واحياء الموتى
من لم يكن الها (ذلك)
اشارة الى ما صدر عنهم
من العظيمتين وما فيه
من معنى البعد للدلالة
على بعد درجة المشار اليه
فى الشناعة والفظاعة
(قولهم بأفواههم) اما
تأكيد لنسبة القول المذكور اليهم ونفى التجوز عنها أو اشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل

الموجود في الافواه من غير أن يكون له مصداق في الخارج (يضاهئون) أي في الكفر والشناعة وقرئ بغير همز

غير سائليه ويجوز أن تكون ما موصولة والتقدير آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم الا به فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ثم انه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها قال الواحدي النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال أنعم الله عليه ينعم انعاما ونعمة أقيم الاسم مقام الانعام كقوله أنفقت عليه انفاقا ونفقة بمعنى واحد ولذلك لا يجمع لانه في معنى المصدر ومعنى قوله لا تحصوها أي لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها واعلم ان الانسان اذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع فعليه ان يتأمل في شئ واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين (المثال الاول) ان الاطباء ذكروا ان الاعصاب قسمان منها دماغية ومنها نخاعية اما الدماغية فانها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الارواح السبعة ثم مما لاشك فيه ان كل واحد من الارواح السبعة تنقسم الى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضا الى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر الى الاعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلت اما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية ثم ان تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدا ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة فاذا نظر الانسان في هذا المعنى عرف ان لله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعا انه لا سبيل له الى الوقوف عليها او الاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والاوردة وفي كل واحد من الاعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحرا لا ساحل له واذا اعتبرت هذا في بدن الانسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه فان عجائب عالم الارواح أكثر من عجائب عالم الاجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الافلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف ان عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلا واحدا ثم بذلك العقل يتأمل الانسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الاشياء لما أدرك منها الا القليل فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين (المثال الثاني) انك اذا اخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر الى ما قبلها والى ما بعدها أما الامور التي قبلها فاعرف ان تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل الا اذا كان هذا العالم بكليته قائما على الوجه الاصوب لان الحنطة لابد منها وانها لا تنبت الا بمعونة الفصول الاربعة وتركيب الطبائع وظهور الرياح والامطار ولا يحصل شئ منها الا بعد دوران الافلاك واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد ان تكون الحنطة لابد من آلات الطحن والخبز وهي لا تحصل الا عند تولد الحديد في أرحام الجبال ثم ان الآلات الحديدية لا يمكن اصلاحها الا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها ولابد من انتهائها الى آلة حديدية هي أول هذه الآلات فتأمل انها كيف تكونت على الاشكال المخصوصة ثم اذا حصلت تلك الآلات فانظر انه لابد من اجتماع العناصر الاربعة وهي الارض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة وأما النظر فيما بعد حصولها فتأمل في تركيب بدن الحيوان وهو انه تعالى كيف خلق هذه الابدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة وانه كيف يتضرر الحيوان بالاكل وفي أي الاعضاء تحدث تلك المضار ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الاشياء الا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية فظاهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته الا بمعرفة جملة هذه الامور والعقول قاصرة عن ادراك ذرة من هذه المباحث فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ثم انه تعالى قال ان الانسان لظلوم كفار وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والمراد من الانسان ههنا الجنس يعني أن عادة هذا الجنس هو هذا الذي ذكرناه وههنا بحثان

(قول الذين كفروا) أي يشابه قولهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا (من قبل) أي من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله لا قدماؤهم كما قيل اذ لا تعدد في القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولي الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية وقيل الضمير للنصارى أي يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير الخ لانهم أقدم منهم وهو أيضا كما ترى فانه يستدعي اختصاص الرد والابطال بقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم بقول النصارى (قاتلهم الله) دعاء عليهم جميعا بالاهلاك فان من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم (أنى يؤفكون) كيف يصرفون من الحق الى الباطل والحال أنه لا سبيل اليه أصلا (اتخذوا) زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى (أحبارهم) وهم علماء اليهود واختلف في واحده قال الاصمعي لا أدري أهو حبر أم حبر وقال أبو الهيثم بالفتح لا غير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا أو مسلما بعد

﴿البحث الاول﴾ ان الانسان مجبول على النسيان وعلى الملالة فاذا وجد نعمة نسيها فى الحال وظلمها بترك شكرها وان لم ينسها فانه فى الحال عليها فيقع فى كفران النعمة وأيضا أن نعم الله كثيرة فتى حاول التأمل فى بعضها اغفل عن الباقى ﴿البحث الثانى﴾ انه تعالى قال فى هذا الموضع ان الانسان لظلوم كفار وقال فى سورة النحل ان الله لغفور رحيم ولما تأملت فيه لاحت لى فيه دقيقة كأنه يقول اذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذى أخذتها وأنا الذى أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولى وصفان عند اعطائها وهما كونى غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت كفارا فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك الا بالتوفير ولا أجازى جفاءك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة ۞ قوله تعالى ﴿واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم﴾ اعلم انه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة انه لا معبود الا الله سبحانه وانه لا يجوز عبادة غيره تعالى البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغته فى انكار عبادة الاوثان * واعلم انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله أشياء (أحدها) قوله رب اجعل هذا البلد آمنا والمراد مكة آمنا اذا أمن * فان قيل أى فرق بين قوله اجعل هذا البلد آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا * قلنا سأل فى الاول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها فلا يخافون وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا وقد تقدم تفسيره فى سورة البقرة (وثانيها) قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قرئ واجنبنى وفيه ثلاث لغات جنبه وأجنبه وجنبه قال الفراء أهل الحجاز يقولون جنبنى يجنبنى بالتخفيف وأهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأصله جعل الشئ عن غيره على جانب وناحية ﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يقول الاشكال على هذه الآية من وجوه (أحدها) ان ابراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنا وما قبل الله دعاءه لان جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة (وثانيها) ان الانبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن البتة واذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادة الاصنام (وثالثها) انه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الاصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه لان كفار قريش كانوا من أولاده مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فان قالوا انهم ما كانوا أبناء ابراهيم وانما كانوا أبناء أبنائه والدعاء مخصوص بالابناء فنقول فاذا كان المراد من أولئك الابناء أبناءه من صلبه وهم ما كانوا الا اسمعيل واسحق وهما كانا من أكابر الانبياء وقد علم أن الانبياء لا يعبدون الصنم فقد عاد السؤال فى أنه ما الفائدة فى ذلك الدعاء (والجواب) عن السؤال الاول من وجهين (الاول) أنه نقل انه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء والمراد منه جعل تلك البلدة آمنة من الخراب (والثانى) أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله واسئل القرية أى أهل القرية وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين (أحدهما) ما اختصت به مكة من حصول مزيد الامن وهو أن الخائف كان اذا التجأ الى مكة أمن وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا ومن ذلك أمن الوحش فانهم يقربون من الناس اذا كانوا بمكة ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة فهذا النوع من الامن حاصل فى مكة فوجب حمل الدعاء عليه (والوجه الثانى) أن يكون المراد من قوله اجعل هذا البلد آمنا أى بالامر والحكم بجعله آمنا وذلك الامر والحكم حاصل لا محالة (والجواب عن السؤال الثانى) قال الزجاج معناه ثبتنى على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أى ثبتنا على الاسلام ولقائل أن يقول السؤال باق لانه لما كان من المعلوم انه تعالى يثبت الانبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الاصنام فما الفائدة فى هذا السؤال والصحيح عندى فى الجواب وجهان (الاول) انه عليه السلام وان كان يعلم انه تعالى يعصمه من عبادة الاصنام الا انه ذكر ذلك هضما للنفس واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله فى كل المطالب (والثانى) أن الصوفية يقولون ان الشرك نوعان شرك جلى

أن كان من أهل الكتاب (ورهبانهم) رهبانهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع أى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل (أربابا من دون الله) بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى يا أبت لا تعبد الشيطان وقوله تعالى بل كانوا يعبدون الجن قال عدى بن حاتم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب وكان اذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال يا عدى اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى الى قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قلت يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم قال الربيع قلت لابى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال انهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الاحبار فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله (والمسيح بن مريم) عطف على رهبانهم أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ما قالوا انه ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص

وهو الذى يقول به المشركون وشرك خفى وهو تعليق القلب بالوسائط و بالاسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسائط ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام المراد منه أنه يعصمه عن هذا الشرك الخفى والله أعلم بمراده (والجواب) عن السؤال الثالث من وجوه (الاوّل) قال صاحب الكشاف قوله وبنى أراد بنيه من صلبه والفائدة فى هذا الدعاء عين الفائدة التى ذكرناها فى قوله واجنبنى (والثانى) قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته مجابة فيهم (الثالث) قال مجاهد لم يعبد أحد من ولد ابراهيم عليه السلام صنما والصنم هو التمثال المصوّر وما ليس بمصوّر فهو وثن وكفار قريش ما عبدوا التمثال وانما كانوا يعبدون أحجارا مخصوصة وأشجارا مخصوصة وهذا الجواب ليس بقوى لانه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء الا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم فى ذلك (الرابع) أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى لنوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح (والخامس) لعله وان كان عمم فى الدعاء الا أن الله تعالى أجاب دعاءه فى حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الانبياء عليهم السلام ونظيره قوله تعالى فى حق ابراهيم عليه السلام قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج أصحابنا بقوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام على ان الكفر والايمان من الله تعالى وتقرير الدليل أن ابراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الايمان ليس الا من الله تعالى وقول المعتزلة انه محمول على الالطاف فاسد لانه عدول عن الظاهر ولانا قد ذكرنا وجوها كثيرة فى افساد هذا التأويل ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال رب انهنّ أضللن كثيرا من الناس واتفق كل الفرق على ان قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيأ البتة الا أنه لما حصل الاضلال عند عبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أى افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال فمن تبعنى فانه منى يعنى من تبعنى فى دينى واعتقادى فانه منى أى جار مجرى بعضى لفرط اختصاصه بى وقربه منى ومن عصانى فى غير الدين فانك غفور رحيم واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن ابراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة فى حق أصحاب الكبائر من أمته والدليل عليه أن قوله ومن عصانى فانك غفور رحيم صريح فى طلب المغفرة والرحمة لاولئك العصاة فنقول أولئك العصاة اما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك (والاوّل) باطل من وجهين (الاوّل) انه عليه السلام بين فى مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام وأيضا قوله فمن تبعنى فانه منى يدل بمفهومه على ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته (والثانى) ان الامة مجمعة على أن الشفاعة فى اسقاط عقاب الكفر غير جائزة ولما بطل هذا ثبت أن قوله ومن عصانى فانك غفور رحيم شفاعة فى العصاة الذين لا يكونون من الكفار واذا ثبت هذا فنقول تلك المعصية اما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة والاوّل والثانى باطلان لان قوله ومن عصانى اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر وأيضا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه فثبت أن هذه الآية شفاعة فى اسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق ابراهيم عليه السلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لوجوه (الاول) انه لا قائل بالفرق (والثانى) وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لابراهيم عليه السلام مع انه غير حاصل لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك نقصانا فى حق محمد عليه الصلاة والسلام (والثالث) أن محمدا صلى الله عليه وسلم مأمور بالاقتداء بابراهيم عليه السلام لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا فهذا وجه قريب فى اثبات الشفاعة لمحمد صلى

الاتخاذ به يشير الى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع أن اتخاذهم له عليه الصلاة والسلام ربا معبودا أقوى من مجرد الاطاعة فى أمر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا لانه مختص بالنصارى ونسبته عليه الصلاة والسلام الى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للايذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة (وما أمروا) أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابيهم (الا ليعبدوا الها واحدا) عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فان ذلك مخل بعبادته تعالى فان جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما اطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة اطاعة لله عز وجل أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والاحبار والرهبان الا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى ذلك كون ربوبية الاحبار والرهبان بطريق الاطاعة فان تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق الا بتخصيص الطاعة أيضا به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا

الله عليه وسلم وفى اسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر والله أعلم اذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين قال السدى معناه ومن عصانى ثم تاب وقيل ان هذا الدعاء انما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك وقيل من عصانى باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعنى انك قادر على أن تغفر له وترحمه بان تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة * واعلم ان هذه الوجوه ضعيفة * أما الاول وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه * وأما الثانى وهو قوله ان هذه الشفاعة انما كانت قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول هذا أيضا بعيد لانا بينا ان مقدمة هذه الآية تدل على انه لا يجوز أن يكون مراد ابراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة فى اسقاط عقاب الكفر * وأما الثالث وهو قوله المراد من كونه غفورا رحيما أن ينقله من الكفر الى الايمان فهو أيضا بعيد لان المغفرة والرحمة مشعرة باسقاط العقاب ولا اشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر الى صفة الايمان والله أعلم * وأما الرابع وهو أن تحمل المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الاماتة فنقول هذا باطل لان كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن أهل الاسلام متفقون على انهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع أنه طلب فى دعائه أمورا سبعة (الاول) طلب من الله نعمة الامان وهو قوله رب اجعل هذا البلد آمنا والابتداء بطلب نعمة الامن فى هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شئ من مصالح الدين والدنيا الا به وسئل بعض العلماء الامن أفضل أم الصحة فقال الامن أفضل والدليل عليه ان شاة لو انكسرت رجلها فانها تصح بعد زمان ثم انها تقبل على الرعى والاكل ولو أنها ربطت فى موضع وربط بالقرب منها ذئب فانها تمسك عن العلف ولا تتناوله الى أن تموت وذلك يدل على ان الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد (والمطلوب الثانى) أن يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبنى وبنىّ أن نعبد الاصنام (والمطلوب الثالث) قوله ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فقوله من ذريتى أى بعض ذريتى وهو اسمعيل ومن ولد منه بواد هو وادى مكة غير ذى زرع أى ليس فيه شئ من زرع كقوله قرآنا عربيا غير ذى عوج بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم وذكروا فى تسميته بالمحرم وجوها (الاوّل) ان الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه (الثانى) أنه كان لم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذى حقه أى يجتنب (الثالث) سمى محرما لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه (الرابع) انه حرم على الطوفان أى منع منه كما سمى عتيقا لانه أعتق منه فلم يستعل عليه (الخامس) أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل (السادس) حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة من الملائكة وهو مثل البيت المعمور الذى بناه آدم فرفع الى السماء السابعة (السابع) حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والاقذار وغيرها روى أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت اسمعيل عليه السلام فقالت سارة كنت أرجو أن يهب الله لى ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتى وقالت لابراهيم بعدهما منى فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع ثم رجع فقالت هاجر الى من تكلنا فقال الى الله ثم دعا الله تعالى بقوله ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد الى آخر الآية ثم انها عطشت وعطش الصبى فانتهت

العبادة به سبحانه (لا اله الا هو) صفة ثانية لالها أو استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) عن الاشراك به فى العبادة والطاعة (يريدون أن يطفئوا نور الله) اطفاء النار عبارة عن ازالة لهبها الموجبة لزوال نورها لا عن ازالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من اطفاء نار لا يراد بها الا النور كالمصباح ازالة نورها جعل اطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق ازالة النور وان كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار امكان الازالة فى نورها والمراد بنور الله سبحانه اما حججه النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والاولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والاولاد والشرائع التى من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة (بأفواههم) بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند اليه حسبما حكى عنهم وقيل المراد به نبوّة النبى صلى الله عليه وسلم هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم مثبت فى الآفاق بنفخه (ويأبى الله) أى لا يريد (الا أن يتم نوره) باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الاسلام واغما صح

بالصبي الى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أم اسمعيل لولا انها عجلت لكانت زمزم عينا معينا ثم ان ابراهيم عليه السلام عاد بعد كبر اسمعيل واشتغل هو مع اسمعيل برفع قواعد البيت قال القاضي أكثر الامور المذكورة في هذه الحكاية بعيدة لانه لا يجوز لابراهيم عليه السلام أن ينقل ولده الى حيث لا طعام ولا ماء مع أنه كان يمكنه أن ينقلهما الى بلدة أخرى من بلاد الشام لاجل قول سارة الا اذا قلنا ان الله أعلمه أنه يحصل هناك ماء وطعام * وأقول أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون ارهاصا لاسمعيل عليه السلام لان ذلك عندنا جائز خلافا للمعتزلة وعند المعتزلة انه معجزة لابراهيم عليه السلام ثم قال ربنا ليقيموا الصلاة واللام متعلقة باسكنت أي أسكنت قوما من ذريتي وهم اسمعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة * ثم قال واجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وفيه مباحث (البحث الاول) قال الاصمعي هوى يهوي هوا بالفتح اذا سقط من علو الى سفل وقيل تهوي اليهم تريدهم وقيل تسرع اليهم وقيل تنحط اليهم وتنحدر اليهم وتنزل يقال هوى الحجر من رأس الجبل يهوي اذا انحدر أو انصب وهوى الرجل اذا انحدر من رأس الجبل (البحث الثاني) ان هذا الدعاء جامع للدين والدنيا أما الدين فلانه يدخل فيه ميل الناس الى الذهاب الى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى وأما الدنيا فلانه يدخل فيه ميل الناس الى نقل المعاشات اليهم بسبب التجارات فلاجل هذا الميل يتسع عيشهم ويكثر طعامهم ولباسهم (البحث الثالث) كلمة من في قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم تفيد التبعيض والمعنى فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة اليهم قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون * ثم قال وارزقهم من الثمرات وفيه بحثان (البحث الاول) أنه لم يقل وارزقهم الثمرات بل قال وارزقهم من الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم (البحث الثاني) يحتمل أن يكون المراد بايصال الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات وانما يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل تلك الثمار منها ثم قال لعلهم يشكرون وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين أنه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة الصلوات وأداء الواجبات (المطلوب الرابع) قوله ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر أنه لا يعلم عواقب الاحوال ونهايات الامور في المستقبل وأنه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن والمعنى أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا وقيل ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع الى من تكلنا فقال الى الله أكلكم قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذن لا نخشى ثم قال وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء وفيه قولان (أحدهما) أنه كلام الله عز وجل تصديقا لابراهيم عليه السلام كقوله وكذلك يفعلون (والثاني) أنه من كلام ابراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الذي هو عالم الغيب من شئ في كل مكان ولفظ من يفيد الاستغراق كانه قيل وما يخفى عليه شئ ما * ثم قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق وفيه مباحث (البحث الاول) اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى انما أعطى ابراهيم عليه السلام هذين الولدين أعني اسمعيل واسحق على الكبر والشيخوخة فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقيل لما ولد اسمعيل كان سن ابراهيم تسعا وتسعين سنة ولما ولد اسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة وقيل ولد له اسمعيل لاربع وستين سنة وولد اسحق لتسعين سنة وعن سعيد بن جبير لم يولد لابراهيم الا بعد مائة وسبع عشرة سنة وانما ذكر قوله على الكبر لان المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم من حيث ان هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم ولان

الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفي كما أشير اليه لوقوعه في مقابلة قوله تعالى يريدون وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الارادة أي لا يريد شيأ من الاشياء الا اتمام نوره فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء وفي اظهار النور في مقام الاضمار مضافا الى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف واشعار بعلة الحكم (ولو كره الكافرون) جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة وكلتاهما في موقع الحال أي لا يريد الله الا اتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أي على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى في الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لان الشئ اذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما في ان ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادة تحقيق لهذا مرارا (هو الذي أرسل رسوله) ملتبسا (بالهدى) أي القرآن الذي هو هدى للمتقين (ودين الحق) الثابت وهو دين الاسلام (ليظهره) أي رسوله (على الدين كله) أي على أهل الاديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الاديان بنسخها اياها حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام في

الولادة فى تلك السن العالية كانت آية لابراهيم * فان قيل ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عند ما أسكن اسمعيل وهاجر أمه فى ذلك الوادى وفى ذلك الوقت ما ولد له اسحق فكيف يمكنه أن يقول الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق * قلنا قال القاضى هذا الدليل يقتضى أن ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الكلام فى زمان آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء ويمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه (البحث الثانى) على فى قوله على الكبر بمعنى مع كقول الشاعر

انى على ما ترين من كبرى * أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو فى موضع الحال ومعناه وهب لى فى حال الكبر (البحث الثالث) فى المناسبة بين قوله ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء وبين قوله الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق وذلك هو كأنه كان فى قلبه أن يطلب من الله اعانتهما واعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب بل قال ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن أى انك تعلم ما فى قلوبنا وضمائرنا ثم قال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق وذلك يدل ظاهرا على انهما يبقيان بعد موته وانه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على ان الاشتغال بالثناء عند الحاجة الى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه السلام حاكيا عن ربه أنه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ثم قال ان ربى لسميع الدعاء واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الايضاح والتصريح قال ان ربى لسميع الدعاء أى هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح وقوله سميع الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده (المطلوب الخامس) قوله رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا ان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام اجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام يدل على ان ترك المنهيات لا يحصل الا من الله وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى يدل على ان فعل المأمورات لا يحصل الا من الله وذلك تصريح بأن ابراهيم عليه السلام كان مصرا على أن الكل من الله (المسئلة الثانية) تقدير الآية رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى أى واجعل بعض ذريتى كذلك لان كلمة من فى قوله ومن ذريتى للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض لانه علم باعلام الله تعالى أنه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله لا ينال عهدى الظالمين (المطلوب السادس) أنه عليه السلام لما دعا الله فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال ربنا وتقبل دعاء وقال ابن عباس يريد عبادتى بدليل قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون من دون الله (المطلوب السابع) قوله ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وانه كان قاطعا بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعا بحصوله والجواب المقصود منه الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته (المسئلة الثانية) ان قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين فالجواب عنه من وجوه (الاول) ان المنع منه لا يعلم الا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعا فظن كونه جائزا (الثانى) أراد بوالديه آدم وحواء (الثالث) كان ذلك بشرط الاسلام ولقائل أن يقول لو كان الامر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلا ولو لم يكن باطلا لبطل قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لأستغفرن لك وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولهذا السبب خص أباه بالذكر فى قوله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والله أعلم وفى قوله يوم يقوم الحساب قولان (الاول) يقوم أى يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل والدليل عليه قولهم قامت الحرب على ساقها ونظيره قوله ترجلت الشمس أى أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل (الثانى) أن يسند الى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز

قوله عزوجل (ولو كره المشركون) كما فى ما سبق ذلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله (يا أيها الذين آمنوا) شروع فى بيان حال الاحبار والرهبان فى اغوائهم لارذالهم اثر بيان سوء حال الاتباع فى اتخاذهم لهم أربابا يطيعونهم فى الاوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون (ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الاحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها وانما عبر عن ذلك بالاكل بناء على أنه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيرا للسامعين عنهم (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) عن دين الاسلام أو عن المسلك المقرر فى التوراة والانجيل الى ما افتروه وحرفوه بأخذ الرشا أو يصدون عنه بانفسهم بأكلهم الاموال بالباطل (والذين يكنزون الذهب والفضة) أى يجمعونهما ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والموصول عبارة اما عن الكثير من الاحبار والرهبان فيكون مبالغة فى الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشا والبراطيل فى الاباطيل واما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الانسب بقوله عزوجل

مثل

مثل قوله واسأل القرية أي أهلها والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ اعلم أنه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله أن يصونه عن الشرك وطلب منه ان يوفقه للاعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود يوم القيامة وما يدل على صفة يوم القيامة أما الذي يدل على وجود القيامة فهو قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون فالمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم أن يكون اما غافلا عن ذلك الظالم أو عاجزا عن الانتقام أو كان راضيا بذلك الظلم ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالا على الله امتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم * فان قيل كيف يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة * والجواب من وجوه (الاول) المراد به التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكقوله يا أيها الذين آمنوا آمنوا (والثاني) ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم ولما كان امتناع هذه الغفلة معلوما لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالا (والثالث) ان المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير (الرابع) أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر الا أنه يكون في الحقيقة خطابا مع الامة وعن سفيان بن عيينة أنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ثم بين تعالى انه انما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات ﴿الصفة الاولى﴾ انه يشخص فيه الابصار يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة ﴿والصفة الثانية﴾ قوله مهطعين وفي تفسير الاهطاع أقوال أربعة (أحدها) قال أبو عبيدة هو الاسراع يقال أهطع البعير في سيره واستهطع اذا أسرع وعلى هذا الوجه فالمعنى ان الغالب من حال من يبقى بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا فبين الله تعالى ان حالهم بخلاف هذا المعتاد فانهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين أي مسرعين نحو ذلك البلاء (القول الثاني في الاهطاع) قال أحمد بن يحيى المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع (والثالث) المهطع الساكت (والرابع) قال الليث يقال للرجل اذا قر وذل أهطع ﴿الصفة الثالثة﴾ قوله مقنعي رؤسهم والاقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع فقوله مقنعي رؤسهم أي رافعي رؤسهم والمعنى ان المعتاد فيمن يشاهد البلاء انه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه فبين تعالى ان حالهم بخلاف هذا المعتاد وانهم يرفعون رؤسهم ﴿الصفة الرابعة﴾ قوله لا يرتد اليهم طرفهم والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص فقوله تشخص فيه الابصار لا يفيد كون هذا الشخوص دائما وقوله لا يرتد اليهم طرفهم يفيد دوام هذا الشخوص وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم ﴿الصفة الخامسة﴾ قوله وأفئدتهم هواء الهواء الخلاء الذي لم تشغله الاجرام ثم جعل وصفا فقيل قلب فلان هواء اذا كان خاليا لا قوة فيه والمراد بيان ان قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والافكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور لكثرة ما فيه من الحزن اذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا في وقت حصولها فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بانه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق والسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل بل يحصل عند اجابة الداعي والقيام من القبور والاول أولى للدليل الذي ذكرناه والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال﴾ اعلم ان قوله يوم يأتيهم العذاب فيه ابحاث ﴿البحث الاول﴾ قال صاحب الكشاف يوم يأتيهم العذاب مفعول ثان لقوله وأنذر وهو يوم القيامة

(ولا ينفقونها في سبيل الله) فيكون نظمهم في قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم اسوة لهم في استحقاق البشارة بالعذاب الاليم فالمراد بالانفاق في سبيل الله الزكاة لما روى أنه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تعالى لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم ولقوله عليه الصلاة والسلام ما أدى زكاته فليس بكنز أي بكنز أوعد عليه فان الوعيد عليه مع عدم الانفاق فيما أمر الله بالانفاق فيه وأما قوله عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه فالمراد بها ما لم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره (فبشرهم بعذاب أليم) خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط ويجوز أن يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم (يوم) منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك أي يعذبون أو باذكر (يحمى عليها في نار جهنم) أي يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها وأصله تحمى النار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل الى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من

(البحث الثانى) الالف واللام فى لفظ العذاب للمعهود السابق يعنى وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (البحث الثالث) الانذار هو التخويف بذكر المضار والمفسرون مجمعون على أن قوله يوم يأتيهم العذاب هو يوم القيامة وحمله أبو مسلم على انه حال المعاينة والظاهر يشهد بخلافه لانه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتى فيه وانهم يسألون الرجعة ويقال لهم أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ولا يليق ذلك الا بيوم القيامة وحجة أبى مسلم ان هذه الآية شبيهة بقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار فى ذلك اليوم فقال فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل واختلفوا فى المراد بقوله أخرنا الى أجل قريب فقال بعضهم طلبوا الرجعة الى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه وقال بعضهم بل طلبوا الرجوع الى حال التكليف بدليل قولهم نجب دعوتك ونتبع الرسل وأما على قول أبى مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيبا لهم أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ومعناه ما ذكره الله تعالى فى آية أخرى وهو قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت الى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من انكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لان التقريع بهذا الجنس أقوى ومعنى ما لكم من زوال لا شبهة فى انهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت أو عن شباب الى هرم أو عن فقر الى غنى ثم انه تعالى زادهم تقريعا آخر بقوله وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم يعنى سكنتم فى مساكن الذين كفروا قبلكم وهم قوم نوح وعاد وثمود وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية لان من شاهد هذه الاحوال وجب عليه أن يعتبر فاذا لم يعتبر كان مستوجبا للذم والتقريع ثم قال وتبين لكم كيف فعلنا بهم وظهر لكم ان عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال ٭ فان قيل ولماذا قيل وتبين لكم كيف فعلنا بهم ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لاجل تكذيبهم ٭ قلنا انهم علموا ان أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم انهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون انه لا فائدة فى طلب الدنيا والواجب الجد والاجتهاد فى طلب الدين والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفا وجلا فيكون ذلك زجرا له هذا اذا قرئ بالتاء أما اذا قرئ بالنون فلا شبهة فيه لان التقدير كأنه تعالى قال أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم وليس كل ما بين لهم تبينوه أما قوله وضربنا لكم الامثال فالمراد ما أورده الله فى القرآن مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك فى كتاب الله كثير والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال وقد مكروا مكرهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أن الضمير فى قوله وقد مكروا الى ماذا يعود على وجوه (الاول) ان يكون الضمير عائدا الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات (والثانى) ان يكون المراد به قوم محمد صلى الله عليه وسلم والدليل عليه قوله وأنذر الناس يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وقوله مكرهم أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم (الثالث) ان المراد من هذا المكر ما نقل ان نمروذ حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا وربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الاربعة من التابوت عصيا أربعا وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم انه جلس مع حاجبه فى ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمروذ فرأى السماء بحالها فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت الى الارض فهذا هو المراد من مكرهم قال القاضى وهذا بعيد جدا لان الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة فى تأويل الآية البتة (المسئلة الثانية) قوله وعند الله مكرهم فيه

وجهان

صيغة التأنيث الى التذكير كما تقول رفعت القصة الى الامير فان طرحت القصة قلت رفع الى الامير وانما قيل عليها والمدلول شيآن لان المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله عنه أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام فى قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للاموال والكنوز فان الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لانهما قانون التمول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) لان جمعهم لها وامساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية أو لانهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم أو لانها أشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الاعضاء الرئيسة التى هى الدماغ والقلب والكبد أو لانها أصول الجهات الاربعة التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه (هذا ما كنزتم) على ارادة القول (لانفسكم) لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى وبال كنزكم أو ما تكنزونه وقرئ بضم النون (ان عدة الشهور) أى عددها (عند الله) أى فى حكمه وهو معمول لها لانها مصدر (اثنا عشر)

وجهان (الاول) أن يكون المكر مضافا الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه (والثانى) أن يكون المكر مضافا الى المفعول والمعنى وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به وهو عذابهم الذى يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون * أما قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال فاعلم انه قرأ الكسائى وحده لتزول بفتح اللام الاولى ورفع اللام الاخرى منه والباقون بكسر الاولى ونصب الثانية أما القراءة الاولى فمعناها ان مكرهم كان معدا لأن تزول منه الجبال وليس المقصود من هذا الكلام الاخبار عن وقوعه بل التعظيم والتهويل وهو كقوله تكاد السموات يتفطرن منه وأما القراءة الثانية فالمعنى ان لفظة ان فى قوله وان كان مكرهم بمعنى ما واللام المكسورة بعدها يعنى بها الجحد ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى وما كان الله ليطلعكم على الغيب ما كان الله ليذر المؤمنين والجبال ههنا مثل لامر النبى صلى الله عليه وسلم ولامر دين الاسلام وأعلامه ودلالته على معنى ان ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لان الله تعالى وعد نبيه اظهار دينه على كل الاديان ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله أى قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم والمعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أى وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التى هى دين محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل شريعته وقرأ على وعمر وان كان مكرهم ۞ قوله تعالى ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام﴾ اعلم انه تعالى قال فى الآية الاولى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون وقال فى هذه الآية فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله والمقصود منه التنبيه على انه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للظلومين من الظالمين لزم اما كونه غافلا واما كونه مخلفا فى الوعد ولما تقرر فى العقول السليمة ان كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلا وقوله مخلف وعده رسله يعنى قوله انا لننصر رسلنا وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلى فان قيل هلا قيل مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول قلنا ليعلم انه لا يخلف الوعد أصلا ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته وقرئ مخلف وعده رسله بجر الرسل ونصب الوعد والتقدير مخلف رسله وعده وهذه القراءة فى الضعف كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال ان الله عزيز أى غالب لا يماكر ذو انتقام لاوليائه ۞ قوله تعالى ﴿يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الاصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب﴾ اعلم ان الله تعالى لما قال عزيز ذو انتقام بين وقت انتقامه فقال يوم تبدل الارض غير الارض وعظم من حال ذلك اليوم لانه لا أمر أعظم فى العقول والنفوس من تغيير السموات والارض وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكر الزجاج فى نصب يوم وجهين اما على الظرف لانتقام أو على البدل من قوله يوم يأتيهم العذاب ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم ان التبديل يحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى (والثانى) أن تفنى الذات الاولى وتحدث ذات أخرى والدليل على ان ذكر لفظ التبدل لارادة التغير فى الصفة جائز أنه يقال بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ويقال بدلت قميصى جبة أى نقلت العين من صفة الى صفة أخرى ويقال تبدل زيد اذا تغيرت أحواله وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل فى الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه قوله بدلناهم جلودا غيرها وقوله بدلناهم بجنتيهم جنتين اذا عرفت ان اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففى الآية قولان (الاول) ان المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض الا أنها تغيرت فى صفاتها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يبدل الله

خبر لان (شهرا) تمييز مؤكد كما فى قولك عندى من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية اذ عليها يدور فلك الاحكام الشرعية (فى كتاب الله) فى اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه وهو صفة اثنا عشر شهرا مشتاق كتاب الله وقوله عز وجل (يوم خلق السموات والارض) متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى ان هذا أمر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله تعالى الاجرام والحركات والازمنة (منها) أى من تلك الشهور الاثنى عشر (أربعة حرم) هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع الا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان والمعنى رجع أمر الاشهر الى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذى الحجة بعدما كانوا أزالوه عن محله بالنسىء الذى أحدثوه فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة (ذلك) أى تحريم الاشهر الاربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار اليه هو

الارض غير الارض فيبسطها ويمدها مد الاديم العكاظي فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقوله والسموات أي تبدل السموات غير السموات وهو كقوله عليه الصلاة والسلام لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده والمعنى ولا ذو عهد في عهده بكافر وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها وكونها أبوابا وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان (والقول الثاني) ان المراد تبديل الذات قال ابن مسعود تبدل بارض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة فهذا شرح هذين القولين ومن الناس من رجح القول الاول قال لان قوله يوم تبدل الارض المراد هذه الارض والتبدل صفة مضافة اليها وعند حصول الصفة لابد وأن يكون الموصوف موجودا فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الارض وجب كون هذه الارض باقية عند حصول ذلك التبدل ولا يمكن أن تكون هذه الارض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل والا لامتنع حصول التبدل فوجب أن يكون الباقي هو الذات فثبت ان هذه الآية تقتضى كون الذات باقية والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون ان عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والاجسام وانما يعدم صفاتها وأحوالها واعلم أنه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم ويجعل السموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وقوله كلا ان كتاب الفجار لفي سجين والله أعلم* أما قوله تعالى وبرزوا لله الواحد القهار فنقول أما البروز لله فقد فسرناه في قوله تعالى وبرزوا لله جميعا وانما ذكر الواحد القهار ههنا لان الملك اذا كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لاحد الى غيره فكان الامر في غاية الصعوبة ونظيره قوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم فقال وترى المجرمين يومئذ واعلم أنه تعالى ذكر من صفات عجزهم وذلتهم أمورا (فالصفة الاولى) كونهم مقرنين في الاصفاد يقال قرنت الشئ بالشئ اذا شددته به ووصلته والقرآن اسم للحبل الذي يشد به شيآن وجاء ههنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والاصفاد جمع صفد وهو القيد اذا عرفت هذا فنقول في قوله مقرنين ثلاثة أوجه (أحدها) قال الكلبي مقرنين كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء هو معنى قوله واذا النفوس زوجت أي قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين* وأقول حظ البحث العقلي منه ان الانسان اذا فارق الدنيا فاما ان يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها الى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته أو ما فعل ذلك بل تركها متوغلة في اللذات الجسدانية مقبلة على الاحوال الوهمية والخيالية فان كان الاول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الالهية والسعادة بالعناية الصمدانية وان كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الاسف والحزن والبلاء الشديد بسبب الميل الى عالم الجسم وهذا هو المراد بقوله واذا النفوس زوجت وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة والحوادث الفاسدة وهو المراد من قول عطاء ان كل كافر مع شيطانه يكون مقرونا في الاصفاد (والقول الثاني في تفسير قوله مقرنين في الاصفاد) هو قرن بعض الكفار ببعض والمراد ان تلك النفوس الشقية والارواح المكدرة الظلمانية لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها الى بعض وتنادى ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى فانحدار كل واحدة منها الى الاخرى في تلك الظلمات والخسارات هو المراد بقوله مقرنين في الاصفاد (والقول الثالث) قال زيد بن ارقم قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاغلال وحظ العقل من ذلك ان الملكات الحاصلة في جوهر النفس انما تحصل بتكرير الافعال الصادرة من الجوارح والاعضاء فاذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة صارت في المثال كان أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها وأما قوله في الاصفاد ففيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك متعلقا بمقرنين والمعنى يقرنون بالاصفاد (والثاني) أن لا يكون متعلقا به والمعنى انهم مقرنون مقيدون وحظ العقل معلوم مما سلفت الاشارة اليه (الصفة الثانية) قوله تعالى سرابيلهم من قطران السرابيل جمع سربال وهو القميص والقطران فيه ثلاث لغات قطران وقطران وقطران بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وبفتح القاف

(الدين القيم) المستقيم دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهم وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى انه لو لقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه وسموا رجبا الاصم ومنصل الاسنة حتى أحدثوا النسيء فغيروا (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصي فيهن فانه أعظم وزرا كارتكابها في الحرم وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الاشهر الحرم الا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الاول أنه عليه الصلاة والسلام حصر طائفا وغزا هوازن بحنين في شوال وذى القعدة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أي جميعا وهو مصدر كف عن الشئ فان الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال (واعلموا أن الله مع المتقين) أي معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال وانما وضع المظهر موضعه مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه وايذانا بانه المدار في النصر وقيل هي بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم (انما النسيء) هو مصدر نسأه اذا أخره نسأ ونساء ونسيئا كمسه مسا ومساسا ومسيسا وقرئ بهن جميعا وقرئ بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء

وكسر الطاء وهو شئ يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ ويطلى به الابل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلى كالسرابيل وهى القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين * وأقول حظ العقل من هذا ان جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال وهذا البدن جار مجرى السربال والقميص له وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم فانما يحصل بسبب هذا البدن فاهذا البدن لذع وحرقة فى جوهر النفس لان الشهوة والحرص والغضب انما تتسارع الى جوهر الروح بسببه وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذى يخفى لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة فشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر وقرأ بعضهم من قطرآن والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآنى المتناهى حره قال أبو بكر بن الانبارى وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والاغلال التى كانت عليهم (الصفة الثالثة) قوله تعالى وتغشى وجوههم النار ونظيره قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقوله يوم يسحبون فى النار على وجوههم واعلم ان موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس وأثر هذه الاحوال انما تظهر فى الوجه فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة وقال فى الوجه وتغشى وجوههم النار يعنى تتغشى ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال ليجزى الله كل نفس ما كسبت قال الواحدى المراد منه أنفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لاهل الايمان وأقول يمكن اجراء اللفظ على عمومه لان لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزى كل شخص بما يليق بعمله وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور ولما كان كسب المؤمنين الايمان والطاعة كان اللائق بهم هو الثواب وأيضا انه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى ثم قال تعالى ان الله سريع الحساب والمراد أنه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذى يستحقونه وحظ العقل منه أن الاخلاق الظلمانية هى المبادى لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الاخلاق فى النفس على قدر صدور تلك الاعمال منهم فى الحياة الدنيا فان الملكات النفسانية انما تحصل فى جوهر النفس بسبب الافعال المتكررة وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الافعال فى كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب ثم قال تعالى هذا بلاغ للناس أى هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس أى كفاية فى الموعظة ثم اختلفوا فقيل ان قوله هذا اشارة الى كل القرآن وقيل بل اشارة الى كل هذه السورة وقيل بل اشارة الى المذكور من قوله ولا تحسبن الى قوله سريع الحساب وأما قوله ولينذروا به فهو معطوف على محذوف أى لينتصحوا ولينذروا به أى بهذا البلاغ * ثم قال وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب وفيه مسائل (المسألة الاولى) قد ذكرنا فى هذا الكتاب مرارا ان النفس الانسانية لها شعبتان القوة النظرية وكمال حالها فى معرفة الموجودات بأقسامها وأجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة التى يتجلى فيها اقدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وافعاله والشعبة الثانية القوة العملية وسعادتها فى أن تصير موصوفة بالاخلاق الفاضلة التى تصير مبادى لصدور الافعال الكاملة عنها ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته اذا عرفت هذا فنقول قوله وليعلموا أنما هو اله واحد اشارة الى ما يجرى مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله وليذكر أولوا الالباب اشارة الى ما يجرى مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فان الفائدة فى هذا التذكر انما هو الاعراض عن الاعمال الباطلة والاقبال على الاعمال الصالحة وهذه الخاتمة كالدليل القاطع فى انه لا سعادة للانسان الا فى هاتين الجهتين

الاولى فيها كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة أى انما تأخير حرمة شهر الى شهر آخر (زيادة فى الكفر) لانه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم الى كفرهم (يضل به الذين كفروا) ضلالا على ضلالهم القديم وقرئ على البناء للفاعل من الافعال على أن الفعل لله سبحانه أى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه وهو المعنى على القراءة الاولى أيضا وقيل المضلون حينئذ رؤساؤهم والموصول عبارة عن اتباعهم وقرئ يضل بفتح الياء والضاد من ضلل يضلل ونضل بنون العظمة (يحلونه) أى الشهر المؤخر (عاما) من الاعوام ويحرمون مكانه شهرا آخر مما ليس بحرام (ويحرمونه) أى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار احلالهم له فى العام الماضى أو لاسنادهم له الى آلهتهم كما سيجىء (عاما) آخر اذا لم يتعلق بتغييره غرض من اغراضهم قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة

(المسئلة الثانية) هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والاقبال على العمل الصالح والوجه فيه ان المرء اذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل فوصل الى معرفة التوحيد والنبوّة واشتغل بالأعمال الصالحة (المسئلة الثالثة) قال القاضى أوّل هذه السورة وآخرها يدل على ان العبد مستقل بفعله ان شاء أطاع وان شاء عصى أما أوّل السورة فهو قوله تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور فانا قد ذكرنا هنالك ان هذا يدل على أن المقصود من انزال الكتاب ارشاد الخلق كلهم الى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية وأما آخر السورة فلان قوله وليذكر أولوا الالباب يدل على أنه تعالى انما أنزل هذه السورة وانما ذكر هذه النصائح والمواعظ لاجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية فظهر ان أوّل هذه السورة وآخرها متطابقان فى افادة هذا المعنى واعلم أن الجواب المستقصى عنه مذكور فى أوّل السورة فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة الرابعة) هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للانسان ولا منقبة له الا بسبب عقله لانه تعالى بين أنه انما أنزل هذه الكتب وانما بعث الرسل لتذكير أولى الالباب فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى الالباب لما كان الامر كذلك (قال المصنف رحمه الله تعالى ورضى عنه) تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة فى أواخر شعبان سنة احدى وستمائة ختم بالخير والغفران فى صحراء بغداد ونسأل الله الخلاص من الغموم والاحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران انه الملك المنان الرحيم الديان بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم

﴿سورة الحجر تسعون وتسع آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون﴾ اعلم ان قوله تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذى وعد الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا مفيدا للبيان أما قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وعاصم ربما خفيفة الباء والباقون مشددة قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها وأقول فى هذه اللفظة لغات وذلك لان الراء من رب ورد مضمومة ومفتوحة أما اذا كانت مضمومة فالباء قد وردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما وتارة بدونها وأيضا تارة مع التاء وتارة بدونها وأنشدوا

أسمىّ ما يدريك أن رب فتية * باكرت لذتهم بأذكر مترع

ورب بتسكين الباء وأنشدوا بيت الهذلى

أزهير ان يشب القذال فاننى * رب هيضل مرس كففت بهيضل

والهيضل جماعة متسلحة وأيضا هذه الكلمة قد تجىء حالتى تشديد الباء وتخفيفها مع حرف ما كقولك ربما وربما وتارة مع التاء وحرف ما كقولك ربتما وربتما هذا كله اذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة فيقال رب ورب وربما وربتما حكاه قطرب قال أبو على من الحروف ما دخل عليه حرف التأنيث نحو ثم وثمت ورب وربت ولا ولات فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدى فى البسيط (المسئلة الثانية) رب حرف جر عند سيبويه ويلحقها ما على وجهين (أحدهما) أن تكون نكرة بمعنى شئ وذلك كقوله

رب ما تكره النفوس من الامـ * ـر له فرجة كحل العقال

فما فى هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير اليه من الصفة فان المعنى رب شئ تكرهه النفوس واذا عاد الضمير اليه كان اسما ولم يكن حرفا كما ان قوله تعالى أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين لما عاد

فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة وان قال حلال عقدوا الاوتار وشدوا الازجة وأغاروا وقيل هو جنادة ابن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فاحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال قائلهم ومنا ناسئ الشهر القلمس وعن ابن عباس رضى الله عنهما أوّل من سن النسئ عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف والجملتان تفسير للضلال أو حال من الموصول والعامل عامله (ليواطئوا) أى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) من الاشهر الاربعة واللام متعلقة بالفعل الثانى أو بما دل عليه مجموع الفعلين (فيحلوا ما حرم الله) بخصوصه من الاشهر المعينة (زين لهم سوء أعمالهم) وقرئ على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا فاستمروا على ذلك

الضمير اليه علمنا بذلك انه اسم ومما يدل على ان ما قد تكون اسما اذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها فى قول الشاعر

يارب من يبغض أزوادنا * رحن على بغضائه واغتدين

فكما دخلت رب على كلمة من وكانت نكرة فكذلك تدخل على كلمة ما فهذا ضرب (والضرب الآخر) أن تدخل ما كافة كما فى هذه الآية والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون انها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذى كان له واذا حصل هذا الكف فحينئذ تهيأ للدخول على ما لم تكن تدخل عليه الاترى ان رب انما تدخل على الاسم المفرد نحو رب رجل يقول ذاك ولا تدخل على الفعل فلما دخلت ما عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية والله أعلم (المسئلة الثالثة) اتفقوا على ان رب موضوعة للتقليل وهى فى التقليل نظيرة كم فى التكثير فاذا قال الرجل ربما زارنا فلان دل ربما على تقليل الزيارة قال الزجاج ومن قال ان رب يعنى بها الكثرة فهو ضد ما يعرفه أهل اللغة وعلى هذا التقدير فههنا سؤال وهو ان تمنى الكافر الاسلام مقطوع به وكلمة رب تفيد الظن وأيضا ان ذلك التمنى يكثر ويتصل فلا يليق به لفظة ربما مع أنها تفيد التقليل والجواب عنه من وجوه (الاول) ان من عادة العرب انهم اذا أرادوا التكثير ذكروا لفظا وضع للتقليل واذا أرادوا اليقين ذكروا لفظا وضع للشك والمقصود منه اظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض فيقولون ربما ندمت على ما فعلت ولعلك تندم على فعلك وان كان العلم حاصلا بكثرة الندم ووجوده بغير شك ومنه قول القائل * قد أترك القرن مصفرا أنامله * (والوجه الثانى فى الجواب) ان هذا التقليل أبلغ فى التهديد ومعناه انه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا العمل فكيف كثيره (والوجه الثالث فى الجواب) انه يشغلهم العذاب عن تمنى ذلك الا فى القليل (المسئلة الرابعة) اتفقوا على ان كلمة رب مختصة بالدخول على الماضى كما يقال ربما قصدنى عبد الله ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها وقال بعضهم ليس الامر كذلك والدليل عليه قول الشاعر ربما تكره النفوس من الامر وهذا الاستدلال ضعيف لانا بينا ان كلمة رب فى هذا البيت داخلة على الاسم وكلامنا فى انها اذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضيا فأين أحدهما من الآخر الا أنى أقول قول هؤلاء الادباء انه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلى وانما الرجوع فيه الى النقل والاستعمال ولو أنهم وجدوا بيتا مشتملا على هذا الاستعمال لقالوا انه جائز صحيح وكلام الله أقوى وأجل وأشرف فلم لم يتمسكوا بوروده فى هذه الآية على جوازه وصحته ثم نقول ان الادباء أجابوا عن هذا السؤال من وجهين (الاول) قالوا ان المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه فكأنه قيل ربما ودوا (الثانى) أن كلمة ما فى قوله ربما يود الذين كفروا اسم ويود صفة له والتقدير رب شئ يوده الذين كفروا قال الزجاج ومن زعم أن الآية على اضمار كان وتقديره ربما كان يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيبويه ألا ترى ان كان لا تضمر عنده ولم يجز عبد الله المقتول وأنت تريد كان عبد الله المقتول (المسئلة الخامسة) فى تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فان كل أحد حمل قوله ربما يود الذين كفروا على محمل آخر والاصح ما قاله الزجاج فانه قال الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما وهذا الوجه هو الاصح وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوها قال الضحاك المراد منه ما يكون عند الموت فان الكافر اذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلما وقيل ان هذه الحالة تحصل اذا اسودت وجوههم وقيل بل عند دخولهم النار ونزول العذاب فانهم يقولون أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل وروى أبو موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لهم ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا فى النار فيتفضل الله تعالى بفضل رحمته فيأمر باخراج كل من كان من أهل القبلة من النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وعلى هذا القول أكثر المفسرين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ما يزال الله يرحم

(والله لا يهدى القوم الكافرين) هداية موصلة الى المطلوب البتة وانما يهديهم الى ما يوصل اليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا فى تيه الضلال (يا أيها الذين آمنوا) رجوع الى حث المؤمنين وتحريد عزائمهم على قتال الكفرة اثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك (ما لكم) استفهام فيه معنى الانكار والتوبيخ (اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم) تباطأتم وتقاعستم أصله تثاقلتم وقد قرئ كذلك أى أى شئ حصل أو حاصل لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا أى اخرجوا الى الغزو فى سبيل الله متثاقلين على أن الفعل ماض لفظا مضارع معنى كأنه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار المقدر فى لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى ما لكم متثاقلين حين قيل لكم انفروا وقرئ أثاقلتم على الاستفهام الانكارى التوبيخى فالعامل فى الظرف حينئذ انما هو الاول (الى الارض) متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والاخلاد أى اثاقلتم مائلين الى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى أخلد الى الارض واتبع هواه أو الى الاقامة بأرضكم ودياركم وكان

المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الانبياء والملائكة حتى انه تعالى فى آخر الامر يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة قال فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قال القاضى هذه الروايات مبنية على انه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار وعلى ان شفاعة الرسول مقبولة فى اسقاط العقاب وهذان الاصلان عنده مردودان فعند هذا حمل هذا الخبر على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو انه تعالى يؤخر ادخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة انه تعالى لا يدخلهم الجنة ثم انه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهنالك يودون لو كانوا مسلمين قال فبهذه الطريق تصحح هذه الاخبار والله أعلم فان قيل اذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الاحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذى يقل ثوابه درجة المؤمن الذى يكثر ثوابه والمتمنى لما لم يجده يكون فى الغصة وتألم القلب وهذا يقتضى أن يكون أكثر المؤمنين فى الغصة وتألم القلب قلنا أحوال أهل الآخرة لا تقاس بأحوال أهل الدنيا فالله سبحانه أرضى كل أحد بما هو فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال ونزعنا ما فى صدورهم من غل والله أعلم ✽ أما قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون ففيه مسائل

(المسئلة الاولى) المعنى دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولا خلاق لهم فى الآخرة وقوله ويلههم الامل يقال لهيت عن الشئ ألهى لهيا وجاء فى الحديث ان ابن الزبير كان اذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه قال الكسائى والاصمعى كل شئ تركته فقد لهيت عنه وأنشد

صرمت حبالك فاله عنها زينب ✽ ولقد أطلت عتابها لو تعتب

فقوله فاله عنها أى اتركها وأعرض عنها قال المفسرون شغلهم الامل عند الاخذ بحظهم عن الايمان والطاعة فسوف يعلمون (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى قد يصد عن الايمان ويفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة فى الدين والدليل عليه انه تعالى قال لرسوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فحكم بأن اقبالهم على التمتع واستغراقهم فى طول الامل يلهيهم عن الايمان والطاعة ثم انه تعالى أذن لهم فيها وذلك يدل على المقصود قالت المعتزلة ليس هذا اذنا وتجويزا بل هذا تهديد ووعيد قلنا ظاهر قوله ذرهم اذن أقصى ما فى الباب انه تعالى نبه على ان اقبالهم على هذه الاعمال يضرهم فى دينهم وهذا عين ما ذكرناه من انه تعالى أذن فى شئ مع انه نص على كون ذلك الشئ مفسدة لهم فى الدين (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدى اليه طول الامل ليس من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين والاخبار فى ذم الامل كثيرة فمنها ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان الحرص على المال وطول الامل وعنه صلى الله عليه وسلم انه نقط ثلاث نقط وقال هذا ابن آدم وهذا الامل وهذا الاجل ودون الامل تسع وتسعون منية فان أخذته احداهن والا فالهرم من ورائه وعن على رضى الله عنه انه قال انما أخشى عليكم اثنين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق والله أعلم ✽ قوله تعالى ﴿وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم فى الهلاك والعذاب وانما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم فى الكتاب معجلا والذين تأخروا كان وقت هلاكهم فى الكتاب مؤخرا وذلك نهاية فى الزجر والتحذير (المسئلة الثانية) قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذى كان الله ينزله بالمكذبين المعاندين كما بينه فى قوم نوح وقوم هود وغيرهم وقال آخرون المراد بهذا الهلاك الموت قال القاضى والاقرب ما تقدم لانه فى الزجر أبلغ فبين تعالى ان هذا الامهال لا ينبغى أن يغتر به العاقل لان العذاب مدخر وان لكل أمة وقتا معينا فى نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم

ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها الا ورى بغيرها الا فى غزوة تبوك فانه عليه الصلاة والسلام بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها (أرضيتم بالحيوة الدنيا) وغرورها (من الآخرة) أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم (فما متاع الحيوة الدنيا) أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها (فى الآخرة) أى فى جنب الآخرة (الا قليل) أى مستحقر لا يؤبه له وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها (الا تنفروا) أى ان لا تنفروا الى ما استنفرتم اليه (يعذبكم) أى الله عز وجل (عذابا أليما) أى يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه (ويستبدل) بكم بعد اهلاككم (قوما غيركم) وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أى قوما مطيعين مستأثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من

آخرون

آخرون المراد بهذا الهلاك مجموع الامرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت لان كل واحد منهما يشارك الآخر في كونه هلاكا فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذي يدخل فيه القسمان معا (المسئلة الثالثة) قال الفراء لو لم تكن الواو مذكورة في قوله ولها كتاب كان صوابا كما في آية أخرى وهي قوله وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وهو كما تقول ما رأيت أحدا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب * أما قوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي من في قوله من أمة زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد وقال آخرون انها ليست بزائدة لانها تفيد التبعيض أي هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك في افادة عموم النفي آكد (المسئلة الثانية) قال صاحب النظم معنى سبق اذا كان واقعا على شخص كان معناه انه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمرا أي جازه وخلفه وراءه ومعناه انه قصر عنه وما بلغه واذا كان واقعا على زمان كان بالعكس في ذلك كقولك سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل اتيانه ولم يبلغه فقوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون معناه انه لا يحصل ذلك الاجل قبل ذلك الوقت ولا بعده بل انما يحصل في ذلك الوقت بعينه والسبب فيه ان اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذي قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع لا عن مرجح ولا عن مخصص فان رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح محال وانما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لان اله العالم خصصه به بعينه واذا كان كذلك فقدرة الاله وارادته قد اقتضتا ذلك التخصيص وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه ولما كان تغير صفات الله تعالى أعني القدرة والارادة والعلم والحكمة ممتنعا كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعا اذا عرفت هذا فنقول هذا الدليل بعينه قائم في أفعال العباد أعني ان الصادر من زيد هو الايمان والطاعة ومن عمرو هو الكفر والمعصية فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما فان قالوا هذا انما لزم لو كان المقتضي لحدوث الكفر والايمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيئته * أما اذا قلنا المقتضي لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما سقط ذلك قلنا قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما ان كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيئة الموجبتين لذلك الفعل هو الذي قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الالزام وان لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن لمرجح فقد عاد الامر الى انه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل وان كان لمخصص فذلك المخصص ان كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل وان كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث الى أن فعل العبد انما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى وحينئذ يعود الالزام (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان كل من مات أو قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله فمخطئ فان قالوا هذا الاستدلال انما يتم اذا حملنا قوله وما أهلكنا على الموت أما اذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم قلنا قوله وما أهلكنا اما أن يدخل تحته الموت أو لا يدخل فان دخل فالاستدلال ظاهر لازم وان لم يدخل فنقول ان ما لاجله وجب في عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم في الموت فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك والله أعلم * قوله تعالى ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد الكفار ذكر بعده شبههم في انكار نبوته (فالشبهة الاولى) انهم كانوا يحكمون عليه بالجنون وفيه احتمالان (الاول) انه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا انها جنون والدليل عليه قوله ويقولون انه لمجنون وما هو الا ذكر للعالمين وأيضا قوله أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة (والثاني) انهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله تعالى فالرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل وقوله انك لمجنون في هذه الآية يحتمل الوجهين أما قوله يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ففيه وجهان

أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس وفيه من الدلالة على شدة السخط ما لا يخفى (ولا تضروه شيئا) أي لا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه أصلا فانه الغني عن كل شئ في كل شئ وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لا محالة (والله على كل شئ قدير) فيقدر على اهلاككم والاتيان بقوم آخرين (الا تنصروه فقد نصره الله) أي ان لم تنصروه فسينصره الله الذي قد نصره في وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو ان لم تنصروه فقد أوجب له النصرة حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره (اذ أخرجه الذين كفروا) أي تسببوا لخروجه حيث أذن له عليه الصلاة والسلام في ذلك حين هموا باخراجه (ثاني اثنين) حال من ضميره عليه الصلاة والسلام وقرئ بسكون الياء على لغة من يجري الناقص مجرى المقصور في الاعراب أي أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بان يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقد مر في قوله تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة من سورة

(الاول) انهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون وكما قال قوم شعيب انك لأنت الحليم الرشيد وكما قال تعالى فبشرهم بعذاب أليم لان البشارة بالعذاب ممتنعة (والثانى) يا أيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده وعند أصحابه وأتباعه ثم حكى عنهم انهم قالوا فى تقرير شبههم لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين وفيه مسئلتان (الاولى) المراد لو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة لان المرسل الحكيم اذا حاول تحصيل أمر وله طريق يفضى الى تحصيل ذلك المقصود قطعا وطريق آخر قد يفضى وقد لا يفضى ويكون فى محل الشكوك والشبهات فان كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود فانه يحاول تحصيله بالطريق الاول لا بالطريق الثانى وانزال الملائكة الذين يصدقونك ويقررون قولك طريق يفضى الى حصول هذا المقصود قطعا والطريق الذى تقرر به صحة نبوتك طريق فى محل الشكوك والشبهات فلو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لوجب فى حكمة الله تعالى انزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك وحيث لم تفعل ذلك علمنا انك لست من النبوة فى شئ فهذا تقرير هذه الشبهة ونظيرها قوله تعالى فى سورة الانعام وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر وفيه احتمال آخر وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب ان لم يؤمنوا به فالقوم طالبوه بنزول ذلك العذاب وقالوا له لوما تأتينا بالملائكة الذين ينزلون عليك بنزلون علينا بذلك العذاب الموعود وهذا هو المراد بقوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله ماننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين فنقول ان كان المراد من قولهم لوما تأتينا بالملائكة هو الوجه الاول كان تقرير هذا الجواب أن انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وعند حصول الفائدة وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار انه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم وعلى هذا التقرير فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى وقال المفسرون المراد بالحق ههنا الموت والمعنى أنهم لا ينزلون الا بالموت والا بعذاب الاستئصال ولم يبق بعد نزولهم انظار ولا امهال ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الامة فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة وأما ان كان المراد من قوله تعالى لوما تأتينا بالملائكة استعجالهم فى نزول العذاب الذى كان الرسول عليه السلام يوعدهم به فتقرير الجواب ان الملائكة لا تنزل الا بعذاب الاستئصال وحكمنا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نفعل بهم ذلك وأن نمهلهم لما علمنا من ايمان بعضهم ومن ايمان أولاد الباقين (المسئلة الثانية) قال الفراء والزجاج لولا ولوما لغتان معناهما هلا ويستعملان فى الخبر والاستفهام فالخبر مثل قولك لولا أنت لفعلت كذا ومنه قوله تعالى لولا أنتم لكنا مؤمنين والاستفهام كقولهم لولا أنزل عليه ملك وكهذه الآية وقال الفراء لوما الميم فيه بدل عن اللام فى لولا ومثله استولى على الشئ واستومى عليه وحكى الاصمعى خاللته وخالمته اذا صادقته وهو خلى وخلمى أى صديقى (المسئلة الثالثة) قوله ماننزل الملائكة الا بالحق قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم ماننزل بالنون وبكسر الزاى والتشديد والملائكة بالنصب لوقوع الانزال عليها والمنزل هو الله تعالى وقرأ أبو بكر عن عاصم ماتنزل على فعل ما لم يسم فاعله والملائكة بالرفع والباقون ماتنزل الملائكة على اسناد فعل النزول الى الملائكة والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله وما كانوا اذا منظرين يعنى لو نزلت الملائكة لم ينظروا أى لم يمهلوا فان التكليف يزول عند نزول الملائكة قال صاحب النظم لفظ اذن مركبة من كلمتين من اذ وهو اسم بمنزلة حين ألا ترى أنك تقول أتيتك اذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليها أن فصار اذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار اذن ومجئ لفظة اذن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا منظرين اذ كان ما طلبوا وهذا تأويل حسن *

قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان القوم انما قالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر لاجل انهم سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول ان الله تعالى نزل الذكر على ثم انه تعالى حقق قوله فى هذه الآية فقال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فأما قوله انا نحن نزلنا الذ

فهذه

المائدة وجعله عليه الصلاة والسلام ثانيه مما مشى الصديق أمامه ودخوله فى الغار أولا لكنسه وتسوية البساط كما ذكر فى الاخبار تعلل مستغنى عنه (اذ هما فى الغار) بدل من اذ أخرجه بدل البعض اذ المراد به زمان متسع والغار ثقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا (اذ يقول) بدل ثان أو ظرف لثانى (لصاحبه) أى الصديق (لا تحزن ان الله معنا) بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شئ من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية فى الامر المباشر * روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى ولذلك قالوا من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لانكاره كلام

فهذه الصيغة وان كانت للجمع الا أن هذا من كلام الملوك عند اظهار التعظيم فان الواحد منهم اذا فعل فعلا أو قال قولا قال انا فعلنا كذا وقلنا كذا فكذا ههنا ﴿المسئلة الثانية﴾ الضمير في قوله له لحافظون الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الذكر يعني وانا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴿فان قيل﴾ فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه ﴿والجواب﴾ ان جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من أول كل سورة لان الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضا أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة (والقول الثاني) ان الكناية في قوله له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء وقوى ابن الانباري هذا القول فقال لما ذكر الله الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه لكونه أمرا معلوما كما في قوله تعالى انا أنزلناه في ليلة القدر فان هذه الكناية عائدة الى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وانما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا الا أن القول الاول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ اذا قلنا الكناية عائدة الى القرآن فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم حفظه بأن جعله معجزا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لانهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزا كاحاطة السور بالمدينة لانه يحصنها ويحفظها وقال آخرون انه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته وقال آخرون أعجز الخلق عن ابطاله وافساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق الى آخر بقاء التكليف وقال آخرون المراد بالحفظ هو أن أحدا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى حتى ان الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا فهذا هو المراد من قوله وانا له لحافظون * واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ فانه لا كتاب الا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير اما في الكثير منه أو في القليل وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف مع ان دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على ابطاله وافساده من أعظم المعجزات وأيضا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظا عن التغيير والتحريف وانقضى الآن قريبا من ستمائة سنة فكان هذا اخبارا عن الغيب فكان ذلك أيضا معجزا قاهرا ﴿المسئلة الرابعة﴾ احتج القاضي بقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون على فساد قول بعض الامامية في أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال لانه لو كان الامر كذلك لما بقي القرآن محفوظا وهذا الاستدلال ضعيف لانه يجري مجرى اثبات الشيء بنفسه فالامامية الذين يقولون ان القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان لعلهم يقولون ان هذه الآية من جملة الزوائد التي ألحقت بالقرآن فثبت أن اثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجري مجرى اثبات الشيء بنفسه وانه باطل والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الاولين وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين﴾ اعلم أن القوم لما أساؤا في الادب وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون فالله تعالى ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء هكذا كانت ولك أسوة في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجميع الانبياء عليهم السلام فهذا هو الكلام في نظم الآية وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الارسال

الله سبحانه وتعالى (فأنزل الله سكينته) أمنته التي تسكن عندها القلوب (عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد بها ما لا يحوم حوله شائبة الخوف أصلا أو على صاحبه اذ هو المنزعج وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان على طمأنينة من أمره (وأيده بجنود لم تروها) عطف على نصره الله والجنود هم الملائكة هم النازلون يوم بدر والاحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه في الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعني الشرك أو دعوة الكفر فان ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد الانجاء بل بالقتل والاسر ونحو ذلك (وكلمة الله) أي التوحيد أو دعوة الاسلام (هي العليا) لا يدانيها شيء وتغيير الاسلوب للدلالة على انها في نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرئ بالنصب عطفا على كلمة الذين (والله عزيز) لا يغالب (حكيم) في حكمه وتدبيره (انفروا) تجريد للامر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والانكار على المساهلة فيه وقوله تعالى (خفافا وثقالا) حالان من ضمير المخاطبين أي على أي حال كان من يسر وعسر حاصلين بأي سبب كان من الصحة والمرض

عليه وقوله في شيع الاولين أي في أمم الاولين وأتباعهم قال الفراء الشيع الاتباع واحدهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه والشيعة الامة سموا بذلك لان بعضهم شايع بعضا وشاكله وذكرنا الكلام في هذا الحرف عند قوله أو يلبسكم شيعا قال الفراء وقوله في شيع الاولين من اضافة الصفة الى الموصوف كقوله حق اليقين وقوله بجانب الغربي وقوله وذلك دين القيمة * أما قوله وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن أي عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم * واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور (الاول) انهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات (والثاني) أن الرسول يدعوهم الى ترك ما ألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة وذلك شاق شديد على الطباع (والثالث) أن الرسول متبوع مخدوم والاقوام يجب عليهم طاعته وخدمته وذلك أيضا في غاية المشقة (والرابع) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون فقيرا ولا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة (والخامس) خذلان الله لهم والقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم وهذا هو السبب الاصلي فلهذه الاسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الانبياء عليهم السلام في هذه الاعمال القبيحة والافعال المنكرة * أما قوله تعالى كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) السلك ادخال الشئ في الشئ كادخال الخيط في المخيط والرمح في المطعون وقيل في قوله ما سلككم في سقر أي أدخلكم في جهنم وذكر أبو عبيدة وأبو عبيد سلكته وأسلكته بمعنى واحد (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين قالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا اليه لا يقال انه تعالى قال وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقوله يستهزؤن يدل على الاستهزاء فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين هو انه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بانبياء الله تعالى ورسله في قلوب المجرمين لانا نقول ان كان الضمير في قوله كذلك نسلكه عائدا الى الاستهزاء وجب ان يكون الضمير في قوله لا يؤمنون به عائدا أيضا الى الاستهزاء لانهما ضميران تعاقبا وتلاصقا فوجب عودهما الى شئ واحد فوجب أن لا يكونوا مؤمنين بذلك الاستهزاء وذلك يوجب التناقض لان الكافر لابد وأن يكون مؤمنا بكفره والذي لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به وأيضا فلو كان تعالى هو الذي يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفار ولكان على هذا التقدير يمتنع ان يذمهم في الدنيا وان يعاقبهم في الآخرة عليه فثبت انه لا يمكن حمل هذه الآية على هذا الوجه فنقول التأويل الصحيح ان الضمير في قوله تعالى كذلك نسلكه عائد الى الذكر الذي هو القرآن فانه تعالى قال قبل هذه الآية انا نحن نزلنا الذكر وقال بعده كذلك نسلكه أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هو انه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه ويبين انهم لجهلهم واصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الاحوال عنادا وجهلا فكان هذا موجبا لحوق الذم الشديد بهم ويدل على صحة هذا التأويل وجهان (الاول) ان الضمير في قوله لا يؤمنون به عائد الى القرآن بالاجماع فوجب أن يكون الضمير في قوله كذلك نسلكه عائدا اليه أيضا لانهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما الى شئ واحد (والثاني) ان قوله كذلك معناه مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيها لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه ولم يجر لعمل من أعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية الا قوله انا نحن نزلنا الذكر فوجب أن يكون هذا معطوفا عليه ومشبها به ومتى كان الامر كذلك كان الضمير في قوله نسلكه عائدا الى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم (والجواب) لا يجوز أن يكون الضمير في قوله

نسلكه

أو الغنى والفقر أو قلة العيال وكثرتهم أو غير ذلك مما ينتظم مساعدة الاسباب وعدمها بعد الامكان والقدرة في الجملة وما ذكر في تفسيرهما من قولهم خفافا القلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبانا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ليس لتخصيص الامرين المتقابلين بالارادة من غير مقارنة للباقي وعن ابن أم مكتوم انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلي ان أنفر قال عليه الصلاة والسلام نعم حتى نزل ليس على الاعمى حرج * وعن ابن عباس رضي الله عنهما نسخت بقوله عز وجل ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) ايجاب للجهاد بهما ان أمكن وبأحدهما عند امكانه واعواز الآخر حتى ان من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزي مكانه من حاله على عكس حاله الى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو ايجاب للقسم الاول فقط (ذلكم) أي ما ذكر من النفير والجهاد وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الشرف (خير لكم) أي خير عظيم في نفسه أو خير مما يبتغي بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالاموال والاولاد (ان كنتم

نسلكه عائدا الى الذكر ويدل عليه وجوه (الاول) أن قوله كذلك نسلكه مذكور بحرف النون والمراد منه اظهار نهاية التعظيم والجلالة ومثل هذا التعظيم انما يحسن ذكره اذا فعل فعلا يظهر له أثر قوى كامل بحيث صار المنازع والمدافع له مغلوبا مقهورا فأما اذا فعل فعلا ولم يظهر له أثر البتة صار المنازع والمدافع غالبا قاهرا فان ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحا فى هذا المقام والامر ههنا كذلك لانه تعالى سلك اسماع القرآن وتحفظه وتعليمه فى قلب الكافر لاجل أن يؤمن به ثم انه لم يلتفت اليه ولم يؤمن به فصار فعل الله تعالى كالهدر الضائع وصار الكافر والشيطان كالغالب الدافع واذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة فى قوله نسلكه غير لائق بهذا المقام فثبت بهذا الوجه ان التأويل الذى ذكروه فاسد (والوجه الثانى) انه لو كان المراد ما ذكروه لوجب أن يقال كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ولا يؤمنون به أى ومع هذا السعى العظيم فى تحصيل ايمانهم لا يؤمنون أما لما لم يذكروا و فعلمنا أن قوله لا يؤمنون به كالتفسير والبيان لقوله نسلكه فى قلوب المجرمين وهذا انما يصح اذا كان المراد انا نسلك الكفر والضلال فى قلوبهم (الوجه الثالث) أن قوله انا نحن نزلنا الذكر بعيد وقوله يستهزؤن قريب وعود الضمير الى أقرب المذكورات هو الواجب أما قوله لو كان الضمير فى قوله نسلكه عائدا الى الاستهزاء لكان فى قوله لا يؤمنون به عائدا اليه وحينئذ يلزم التناقض قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان مقتضى الدليل عود الضمير الى أقرب المذكورات ولا مانع من اعتبار هذا الدليل فى الضمير الاول وحصل المانع من اعتباره فى الضمير الثانى فلا جرم قلنا الضمير الاول عائد الى الاستهزاء والضمير الثانى عائد الى الذكر وتفريق الضمائر المتعاقبة على الاشياء المختلفة ليس بقليل فى القرآن أليس أن الجبائى والكعبى والقاضى قالوا فى قوله تعالى هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون فقالوا هذه الضمائر من أول الآية الى قوله جعلا له شركاء عائدة الى آدم وحواء وأما فى قوله جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون عائدة الى غيرهما فهذا ما اتفقوا عليه فى تفاسيرهم واذا ثبت هذا ظهر أنه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها الى شئ واحد بل الامر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا والله أعلم (والوجه الثانى) فى الجواب قال بعض الادباء من أصحابنا قوله لا يؤمنون به تفسير للكناية فى قوله نسلكه والتقدير كذلك نسلك فى قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به والمعنى نجعل فى قلوبهم أن لا يؤمنوا به (والوجه الثالث) وهو انا بينا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الايمان والكفر يمتنع ان يكون بالعبد وذلك لان كل أحد انما يريد الايمان والصدق والعلم والحق وان أحدا لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب فلما كان كل أحد لا يقصد الا الايمان والحق ثم انه لا يحصل ذلك وانما يحصل الكفر والباطل علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه فان قالوا انما حصل ذلك الكفر لانه ظن انه هو الايمان فنقول فعلى هذا التقدير انما رضى بتحصيل ذلك الجهل لاجل جهل آخر سابق عليه فينقل الكلام الى ذلك الجهل السابق فان كان ذلك لاجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال والا وجب انتهاء كل الجهالات الى جهل أول سابق حصل فى قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى وذلك هو الذى قلناه ان المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به والمعنى نجعل فى قلوبهم أن لا يؤمنوا به وهو انه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها وأيضا قدماء المفسرين مثل ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها والتأويل الذى ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقل به أحد من المتقدمين فكان مردودا وروى القاضى عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة فى قلوب المجرمين ثم قال القاضى ان القسوة لا تحصل الا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند فلا يصح اضافته الى الله تعالى فيقال للقاضى ان هذا يجرى مجرى المكابرة وذلك لان الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى انه كلما

تعلمون) أى تعلمون الخير علمتم أنه خير أو ان كنتم تعلمون أنه خير اذ لا احتمال لغير الصدق فى أخبار الله تعالى فبادروا اليه

(لو كان) صرف للخطاب عنهم وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديدا لما صدر عنهم من الهنات قولا وفعلا على طريق المباثة وبيانا لدناءة همهم وسائر رذائلهم أى لو كان ما دعوا اليه (عرضا قريبا) العرض ما عرض لك من منافع الدنيا أى لو كان ذلك غنما سهل المأخذ قريب المنال (وسفرا قاصدا) ذا قصد بين القريب والبعيد (لاتبعوك) فى النفير طمعا فى الفوز بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الامرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة الشاطة الشاقة التى تقطع بمشقة وقرئ بكسر العين والشين (وسيحلفون) أى المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى (بالله) اما متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أى سيحلفون بالله اعتذارا عند قفولك قائلين (لو استطعنا) أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أى لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما

جميعا حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى (لخرجنا معكم) ساد مسد جوابى القسم والشرط جميعا أما

رآه تغير لونه واصفر وجهه وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات اليه والاصغاء لقوله فحصول هذه الاحوال فى قلبه أمر اضطرارى لا يمكنه دفعها عن نفسه فكيف يقال انها حصلت بفعله واختياره فان قالوا انه يمكنه ترك هذه الاحوال والرجوع الى الانقياد والقبول فنقول هذا مغالطة محضة لانك ان أردت انه مع حصول هذه النفرة الشديدة فى القلب والنبوة العظيمة فى النفس يمكنه أن يعود الى الانقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة وان أردت أن عند زوال هذه الاحوال النفسانية يمكنه العود الى القبول والتسليم فهذا حق الا انه لا يمكنه ازالة هذه الدواعى والصوارف عن القلب فانه ان كان الفاعل لها هو الانسان لافتقر فى تحصيل هذه الدواعى والصوارف الى دواعى سابقة عليها ولزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال وان كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح انه تعالى هو الذى يسلك هذه الدواعى والصوارف فى القلوب وذلك عين ما ذكرناه والله أعلم * أما قوله تعالى وقد خلت سنة الاولين ففيه قولان (الاول) أنه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل فى القرون الماضية (الثانى) وهو قول الزجاج وقد مضت سنة الله فى الاولين بأن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم وهذا أليق بظاهر اللفظ ﴿قوله تعالى ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ اعلم ان هذا الكلام هو المذكور فى سورة الانعام فى قوله ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين والحاصل ان القوم لما طلبوا نزول ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام فى كونه رسولا من عند الله تعالى بين الله تعالى فى هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين يظن انا نراهم فنحن فى الحقيقة لا نراهم والحاصل انه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة فى نزول الملائكة فلهذا السبب ما أنزلهم * فان قيل كيف يجوز من الجماعة العظيمة ان يصيروا شاكين فى وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة فى النهار الواضح ولو جاز حصول الشك فى ذلك كانت السفسطة لازمة ولا يبقى حينئذ اعتماد على الحس والمشاهدة * أجاب القاضى عنه أنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون وانما وصفهم بأنهم يقولون هذا القول وقد يجوز أن يقدم الانسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة ثم سأل نفسه وقال أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك فى المشاهدات وأجاب بأنه يصح ذلك اذا جمعهم عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة أو غلبة خصم وأيضا فهذه الحكاية انما وقعت عن قوم مخصوصين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة وهذا السؤال ما كان الا من رؤساء القوم وكانوا قليلى العدد واقدام العدد القليل على ما يجرى مجرى المكابرة جائز (المسألة الثانية) قوله تعالى فظلوا فيه يعرجون يقال ظل فلان نهاره يفعل كذا اذا فعله بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل الا لكل عمل بالنهار كما لا يقولون بات يبيت الا بالليل والمصدر الظلول وقوله فيه يعرجون يقال عرج يعرج عروجا ومنه المعارج وهى المصاعد التى يصعد فيها وللمفسرين فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن قوله فظلوا فيه يعرجون من صفة المشركين قال ابن عباس رضى الله عنهما لو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون الى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه والى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا فى تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجحدهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله (القول الثانى) ان هذا العروج للملائكة والمعنى انه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبوابا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرفوا ذلك عن وجهه ولقالوا ان السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الاباطيل التى لا حقيقة لها وقوله لقالوا انما سكرت أبصارنا فيه مسألتان (المسألة الاولى) قرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف والباقون مشددة الكاف قال الواحدى سكرت غشيت وسدت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا وأصله من السكر وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء فكأن هذه الابصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجرى

والتشديد

على الثانى فظاهر وأما على الاول فلان قولهم لو استطعنا فى قوة بالله لو استطعنا لانه بيان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق له والاخبار بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرئ لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما فى قوله عز وجل فتمنوا الموت (يهلكون أنفسهم) بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب اهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع أو حال من فاعله أى مهلكين أنفسهم أو من فاعل لخرجنا جىء به على طريقة الاخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا أى لخرجنا معكم مهلكين أنفسنا كما فى قولك حلف ليفعلن مكان لافعلن (والله يعلم انهم لكاذبون) اى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا (عفا الله عنك) صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة والسلام ما وقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف معتذرين بعدم الاستطاعة واذنه اعتمادا على أيمانهم ومواثيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الاولى والافضل الذى هو التأنى والتوقف الى انجلاء الامر وانكشاف الحال وقوله عز وجل (لم أذنت

والتشديد يوجب زيادة وتكثيرا وقال أبو عمرو بن العلاء هو مأخوذ من سكر الشراب يعني أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فإذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى وقال أبو عبيدة سكرت أبصارنا أي غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها وعلى هذا القول أصله من السكون يقال سكرت الريح سكرا إذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس

جذلت على ليلة ساهره * فليست بطلق ولا ساكره

ويقال سكرت عينه سكرا إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى سكرت أبصارنا أي سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج وقال أبو علي الفارسي سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجاري فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه في الجرية والسكر في الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء في حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه في الصحو فهذه أقوال أربعة في تفسير سكرت وهي في الحقيقة متقاربة والله أعلم (المسألة الثانية) قال الجبائي من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى يروهم الشيء على خلاف ما هو عليه لم يصح إيمانه بالأنبياء والرسل وذلك لأنهم إذا جوزوا ذلك فلعل هذا الذي يرى أنه محمد بن عبد الله ليس هو ذلك الرجل وإنما هو شيطان ولعل هذه المعجزات التي نشاهدها ليس لها حقائق بل هي تكون من باب الإراءة الباطلة من ذلك الساحر وإذا حصل هذا التجويز بطل الكل والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين قال الليث البرج واحد من بروج الفلك والبروج جمع وهي اثنا عشر برجا ونظيره قوله تعالى تبارك الذي جعل في السماء بروجا وقال والسماء ذات البروج ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على ما هو متفق عليه بين أرباب الأحكام وإذا كان الأمر كذلك فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة في الماهية والأبعاض المختلفة في الحقيقة وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الأجزاء والأبعاض بحسب الاختيار والحكمة فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار وهو المطلوب وأما قوله وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك في تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فلا نعيد ههنا إلا القدر الذي لا بد منه قوله وزيناها أي بالشمس والقمر والنجوم للناظرين أي للمعتبرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله وحفظناها من كل شيطان رجيم فإن قيل ما معنى وحفظناها من كل شيطان رجيم والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأي حاجة إلى حفظ السماء منه قلنا لما منعه من القرب منها فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول معنى الرجم في اللغة الرمي بالحجارة ثم قيل للقتل رجم تشبيها له بالرجم بالحجارة والرجم أيضا السب والشتم لأنه رمي بالقول القبيح ومنه قوله لأرجمنك أي لأسبنك والرجم اسم لكل ما يرمى به ومنه قوله وجعلناها رجوما للشياطين أي مرامي لهم والرجم القول بالظن ومنه قوله رجما بالغيب لأنه يرميه بذلك الظن والرجم أيضا اللعن والطرد وقوله الشيطان الرجيم قد فسروه بكل هذه الوجوه قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت الشياطين لا تحجب عن السموات فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها إلى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمي بشهاب وقوله إلا من

لهم) أي لأي سبب أذنت لهم في التخلف حين اعتلوا به لهم بيان لما أشير إليه بالعفو من ترك الأولى وإشارة إلى أنه ينبغي أن تكون أموره عليه الصلاة والسلام منوطة بأسباب قوية موجبة لها أو مصححة وأن ما أبرزوه في معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالأيمان كان بمعزل من كونه سببا للإذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالإذن لاختلافهما في المعنى فإن الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين وتوجه الإنكار إلى الإذن باعتبار شموله للكل لا باعتبار تعلقه بكل فرد فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أي فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن أو من جهتهما معا حسبما عن لهم هنالك (وتعلم الكاذبين) في ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الأولى الأفضل وتحضيض له عليه الصلاة والسلام عليه فإن كلمة حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى إلى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم أذنت لاستلزامه أن يكون إذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللا أو مغيا بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام إليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت حتى

يخلى الامر كما هو وقضية الحازم قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشئ اذنه

استرق السمع لا يمكن حمل لفظة الا ههنا على الاستثناء بدليل ان اقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم الا انهم ممنوعون من دخولها وانما يحاولون القرب منها فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق فوجب أن يكون معناه لكن من استرق السمع قال الزجاج موضع من نصب على هذا التقدير قال وجائز أن يكون في موضع خفض والتقدير الا ممن قال ابن عباس في قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك لان المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله ومنهم من يخبله فيصير غولا يضل الناس في البرارى وقوله فأتبعه ذكرنا معناه في سورة الاعراف في قصة بلعم بن باعورا في قوله فأتبعه الشيطان معناه لحقه والشهاب شعلة نار ساطع ثم يسمى الكوكب شهابا والسنان شهابا لاجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار واعلم أن في هذا الموضع أبحاثا دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن ونذكر منها ههنا اشكالا واحدا وهو أن القائل أن يقول اذا جوّزتم في الجملة أن يصعد الشيطان الى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم ثم انها تنزل وتلقى تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا لان كل غيب يخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق لا يقال ان الله تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم لانا نقول هذا العجز لا يمكن اثباته الا بعد القطع بكون محمد رسولا وكون القرآن حقا والقطع بهذا لا يمكن الا بواسطة المعجز وكون الاخبار عن الغيب معجزا لا يثبت الا بعد ابطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال ٭ ويمكن أن يجاب عنه بانا نثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوّته نقطع بان الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزا وبهذا الطريق يندفع الدور والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهي أنواع ﴿ النوع الاوّل ﴾ قوله تعالى والارض مددناها قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء وفيه احتمال آخر وذلك لان الارض جسم والجسم هو الذي يكون ممتدا في الجهات الثلاثة وهي الطول والعرض والثخن واذا كان كذلك فتمدد جسم الارض في هذه الجهات الثلاثة مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فانه يجب ان يكون متناهيا واذا كان كذلك كان تمدد جسم الارض مختصا بمقدار معين مع أن الازيد عليه معقول والانتقاص عنه أيضا معقول واذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الازيد والانقص اختصاصا بامر جائز وذلك يجب أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهو الله سبحانه وتعالى ٭ فان قيل هل يدل قوله والارض مددناها على انها بسيطة ٭ قلنا نعم لان الارض بتقدير كونها كرة فهي كرة في غاية العظمة والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها اذا نظر اليها فانها ترى كالسطح المستوى واذا كان كذلك زال ما ذكروه من الاشكال والدليل عليه قوله تعالى والجبال أوتادا سماها أوتادا مع انه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا ههنا ﴿ النوع الثاني ﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى وألقينا فيها رواسى وهي الجبال الثوابت واحدها راسى والجمع راسية وجمع الجمع رواسى وهو كقوله تعالى وألقى في الارض رواسى أن تميد بكم وفي تفسيره وجهان ﴿ الاوّل ﴾ قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت باهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل باهلها فان قيل أتقولون انه تعالى خلق الارض بدون الجبال فمالت باهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون ان الله خلق الارض والجبال معا ٭ قلنا كلا الوجهين محتمل ﴿ والوجه الثاني ﴾ في تفسير قوله وألقينا فيها رواسى يجوز أن يكون المراد انه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال ﴿ النوع الثالث ﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شئ

للمنافقين وأخذه الفداء من الاسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الاسلوب بأن عبر عن الفريق الاوّل بالموصول الذي صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام للايذان بأن ما ظهر من الاولين صدق حادث في أمر خاص غير مصحح لانظامهم في سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلي فظهور صدقه انما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فامر حادث لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا واسناده الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا الى المعلومين بناء الفعل للمفعول مع اسناد التبين الى الاولين لما أن المقصود ههنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف

موزون

موزون وفيه بحثان (الاول) أن الضمير في قوله وأنبتنا فيها يحتمل أن يكون راجعا الى الارض وأن يكون راجعا الى الجبال الرواسي الا أن رجوعه الى الارض أولى لان أنواع النبات المنتفع بها انما تتولد في الاراضي فأما الفواكه الجبلية فقليلة النفع ومنهم من قال رجوع ذلك الضمير الى الجبال أولى لان المعادن انما تتولد في الجبال والاشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات (البحث الثاني) اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه (الاول) أن يكون المراد انه متقدر بقدر الحاجة قال القاضي وهذا الوجه أقرب لانه تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج اليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى في الارض ذلك المقدار ولذلك أتبعه بقوله وجعلنا لكم فيها معايش لان ذلك الرزق الذي يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين (الاول) بحسب الاكل والانتفاع بعينه (والثاني) أن ينتفع بالتجارة فيه والقائلون بهذا القول قالوا الوزن انما يراد لمعرفة المقدار فكان اطلاق لفظ الوزن لارادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على المسبب قالوا ويتأكد ذلك أيضا بقوله تعالى وكل شئ عنده بمقدار وقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم (والوجه الثاني) في تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الاسباب والله تعالى انما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم فلابد وأن يحصل من الارض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الانواع (والوجه الثالث) في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون فلان موزون الحركات أي حركاته حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة وهذا الكلام كلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا عن اللغو والسخف فكان المراد منه انه موزون بميزان الحكمة والعقل وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب فقوله وأنبتنا فيها من كل شئ موزون أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة (الوجه الرابع) في تفسير هذا اللفظ أن الشئ الذي ينبت من الارض نوعان المعادن والنبات أما المعادن فهي بأسرها موزونة وهي الاجساد السبعة والاحجار والاملاح والزاجات وغيرها وأما النبات فيرجع عاقبتها الى الوزن لان الحبوب توزن وكذلك الفواكه في الاكثر والله أعلم وقوله تعالى وجعلنا لكم فيها معايش فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكرنا الكلام في المعايش في سورة الاعراف وقوله ومن لستم له برازقين فيه قولان (القول الاول) انه معطوف على محل لكم والتقدير وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (والقول الثاني) انه عطف على قوله معايش والتقدير وجعلنا لكم معايش ومن لستم له برازقين وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة (الاول) ان كلمة من مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله ومن لستم له برازقين العقلاء وهم العيال والمماليك والخدم والعبيد وتقرير الكلام ان الناس يظنون في أكثر الامر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم والمملوك والمالك فانه لولا أنه تعالى خلق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق (والاحتمال الثاني) وهو قول الكلبي قال المراد بقوله ومن لستم له برازقين الوحش والطير * فان قيل كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل * قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) أن صيغة من قد وردت في غير العقلاء والدليل عليه قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع (والثاني) انه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فكأنها عند الحاجة تطلب أرزاقها من خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل ألا ترى أنه قال يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ذكرها بصيغة جمع العقلاء وقال في الاصنام فانهم عدو لي وقال كل في فلك يسبحون فكذا ههنا لا يبعد اطلاق اللفظة

الاولين حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه واسناد التبين الى الاولين وتعلق العلم بالآخرين مع أن مدار الاستناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير اليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومدار حكمهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفي تصدير فاتحة الخطاب بشارة العفو دون ما يوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولي الالباب * قال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الادب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وان معناه أخطأت وبئسما فعلت هب أنه كناية أليس ايثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب والتخفيف في العتاب وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من مشافهة بالسوء أو يسوغ انشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح الى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة

المختصة بالعقلاء على الوحش والطير لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت في بعض الحكايات انه قلت المياه في الاودية والجبال واشتد الحر في عام من الاعوام فحكى عن بعضهم انه رأى بعض الوحش رافعا رأسه الى السماء عند اشتداد عطشه قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الاودية منها (والاحتمال الثالث) ان نحمل قوله ومن لستم له برازقين على الاماء والعبيد وعلى الوحش والطير وانما أطلق عليها صيغة من تغليبا لجانب العقلاء على غيرهم (المسئلة الثانية) قوله ومن لستم له برازقين لا يجوز أن يكون مجرورا عطفا على الضمير المجرور في لكم لانه لا يعطف على الضمير المجرور ولا يقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ تساءلون به والارحام بالخفض وقد ذكرنا هذه المسئلة هنالك والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ اعلم انه تعالى لما بين انه أنبت في الارض كل شئ موزون وجعل فيها معايش أتبعه بذكر ما هو كالسبب لذلك فقال وان من شئ الا عندنا خزائنه وهذا هو النوع الرابع من الدلائل المذكورة في هذه السورة على تقرير التوحيد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي رحمه الله الخزائن جمع الخزانة وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشئ أي يحفظ والخزانة أيضا عمل الخازن ويقال خزن الشئ يخزنه اذا أحرزه في خزانة وعامة المفسرين على أن المراد بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه هو المطر وذلك لانه هو السبب للارزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش فلما ذكر تعالى انه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده أي في أمره وحكمه وتدبيره وقوله وما ننزله الا بقدر معلوم قال ابن عباس رحمهما الله يريد قدر الكفاية وقال الحكم ما من عام بأكثر مطرا من عام آخر ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون وربما كان في البحر يعني ان الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم غير انه يصرفه الى من يشاء حيث شاء كما شاء ولقائل أن يقول لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى فان قوله تعالى وما ننزله الا بقدر معلوم لا يدل على أنه تعالى ينزله في جميع الاعوام على قدر واحد واذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل وأقول أيضا تخصيص قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه بالمطر تحكم محض لان قوله وان من شئ يتناول جميع الاشياء الا ما خصه الدليل وهو الموجود القديم الواجب لذاته وقوله الا عندنا خزائنه اشارة الى كون تلك الاشياء مقدورة له تعالى وحاصل الامر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له ومملوكة يخرجها من العدم الى الوجود كيف شاء الا أنه تعالى وان كانت مقدوراته غير متناهية الا ان الذي يخرجه منها الى الوجود يجب أن يكون متناهيا لان دخول ما لا نهاية له في الوجود محال فقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه اشارة الى كون مقدوراته غير متناهية وقوله وما ننزله الا بقدر معلوم اشارة الى أن كل ما يدخل منها في الوجود فهو متناه ومتى كان الخارج منها الى الوجود متناهيا كان لا محالة مختصا في الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه وكان مختصا بحيز معين مع جواز حصوله في سائر الاحياز بدلا عن ذلك الحيز وكان مختصا بصفات معينة مع انه كان يجوز في العقل حصول سائر الصفات بدلا عن تلك الصفات واذا كان كذلك كان اختصاص تلك الاشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين والصفات المعينة بدلا عن أضدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهذا هو المراد من قوله وما ننزله الا بقدر معلوم والمعنى انه لولا القادر المختار الذي خصص تلك الاشياء بتلك الاحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة والمراد من الانزال الاحداث والانشاء والابداع كقوله تعالى وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وقوله وأنزلنا الحديد والله أعلم (المسئلة الثانية) تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في اثبات أن المعدوم شئ قال لان قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه يقتضي أن يكون لجميع الاشياء خزائن وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات من

حيث

عنه قوله تعالى ولكن كره الله انبعاثهم الآية نعم كان الاولى تأخير الاذن حتى يظهر كذبهم آثر ذي أثير ويفتضحوا على رؤس الاشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الامن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالاكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين اذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) تنبيه على أنه كان ينبغي أن يستدل باستئذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في (أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) وان الخلص منهم يبادرون اليه من غير توقف على الاذن فضلا عن أن يستأذنوك في التخلف وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنة للتأني في أمرهم بل دليلا على نفاقهم وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى أن يجاهدوا كراهة أن يجاهدوا ثم قيل المحذوف هو التخلف والمعنى لا يستأذنك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد فيتوجه

حيث انها موجودة لانا بينا أن المراد من قوله تعالى وما ننزله الا بقدر معلوم الاحداث والابداع والانشاء والتكوين وهذا يقتضى أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله متقدما على حدوثها ودخولها فى الوجود واذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى بمعنى انها كانت ثابتة من حيث انها حقائق وماهيات ثم انه تعالى أنزل بعضها أى أخرج بعضها من العدم الى الوجود وللقائل أن يجيب عن ذلك بقوله لا شك ان لفظ الخزائن انما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على ايجاد تلك الاشياء وتكوينها واخراجها من العدم الى الوجود وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال والمباحث الدقيقة باقية والله أعلم * أما قوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى وصف الرياح بانها لواقح أقوال (الاول) قال ابن عباس الرياح لواقح للشجر وللسحاب وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى الماء فيها فحملت فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب قال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء وتمجه فى السحاب ثم انه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير القاحها السحاب وأما تفسير القاحها الشجر فما ذكروه فان قيل كيف قال لواقح وهى ملقحة والجواب ماذهب اليه أبو عبيدة ان لواقح ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثى أخاه

ليبك يزيد بائس ذو ضراعة * وأشعث مما طوحته الطوائح

أراد المطوحات وقرر ابن الانبارى ذلك فقال تقول العرب أبقل النبت فهو باقل يريدون فهو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح عبارة عن ملقح (والوجه الثانى فى الجواب) قال الزجاج يجوز أن يقال لها لواقح وان ألقحت غيرها لان معناها النسبة وهو كما يقال درهم وازن أى ذو وزن ورامح وسائف أى ذو رمح وذو سيف قال الواحدى هذا الجواب ليس بمغن لانه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشئ لان اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة الى اللقحة فصح هذا الجواب والله أعلم (والوجه الثالث فى الجواب) ان الريح فى نفسها لاقح وتقريره بطريقين (الاول) ان الريح حاملة للسحاب والدليل عليه قوله سبحانه وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا أى حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء (والطريق الثانى) قال الزجاج يجوز أن يقال للريح لقحت اذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بالخير وهذا كما تقول العرب قد لقحت الحرب وقد نتجت ولدا أنكد يشبهون ما تشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا والله أعلم (المسئلة الثانية) الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد ان لم يكن متحركا لا بد له من سبب وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيأ من لوازم ذاته والا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال فلم يبق الا أن يقال انه يتحرك بتحريك الفاعل المختار والاحوال التى تذكرها الفلاسفة فى سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها فى هذا الكتاب مرارا فأبطلناها وبينا انه لا يمكن أن يكون شئ منها سببا لحدوث الرياح فبقى أن يكون محركها هو الله سبحانه * وأما قوله وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ففيه مباحث (الاول) ان ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من السحاب وبتقدير أن يقال انه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء (وثانيها) انه ليس السبب فى حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب الى الارض لغرض الاحسان الى العباد كما قال ههنا فأسقيناكموه قال الازهرى تقول العرب لكل ما كان فى بطون الانعام من السماء أو نهر يجرى أسقيته أى جعلته شربا له وجعلت له منه مسقى فاذا كانت السقيا لسقيه قالوا سقاه ولم يقولوا أسقاه والذى يؤكد هذا اختلاف القراء فى قوله نسقيكم مما فى بطونه فقرؤا باللغتين ولم يختلفوا فى قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا وفى قوله والذى هو يطعمنى ويسقين قال أبو على سقيته حتى روى وأسقيته نهرا أى جعلته شربا له

النفى الى القيد وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وان كان فى نفسه أمرا خفيا لا يوقف عليه بادى الامر لكن عامة أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جعل أمرا ظاهرا مقررا وقيل هو الجهاد أى لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان فى الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان فى الشئ لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو سلم وقوعه فالاستئذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستئذان لعلة الرغبة ولو سلم فالذى نفى عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم لم يستأذنوا فى الجهاد لكراهتهم له بل انما استأذنوا فى التخلف (والله عليم بالمتقين) شهادة لهم بالانتظام فى سلك المتقين وعدة لهم باجزل الثواب وتقرير لمضمون ما سبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك واشعار بأن ماصدر عنهم معلل بالتقوى (انما يستأذنك) أى فى التخلف مطلقا على الاول أو لكراهة الجهاد على الثانى (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) تخصيص الايمان بهما فى الموضعين للايذان بأن الباعث على الجهاد وبذل النفس والمال انما هو الايمان بهما اذ به يقتضى للمؤمنين استبدال الحياة الابدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد (وارتابت

وقوله فأسقيناكموه أي جعلناه سقيا لكم وربما قالوا في أسقى سقى كقول لبيد يصف سحابا

أقول وصوبه مني بعيد * يحط السيب من قلل الجبال
سقى قومي بني مجد وأسقى * نميرا والقبائل من هلال

فقوله سقى قومي ليس يريد به ما يروي عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقيا لبلادهم يخصبون بها وبعيد أن يسأل لقومه ما يروي العطاش ولغيرهم ما يخصبون به وأما سقيا السقية فلا يقال فيها أسقاه وأما قول ذي الرمة

وأسقيه حتى كاد مما أبثه * تكلمني أحجاره وملاعبه

فمعنى أسقيه أدعو له بالسقاء وأقول سقاه الله وقوله وما أنتم له بخازنين يعني به ذلك الماء المنزل من السماء يعني لستم له بحافظين ﴿قوله تعالى ﴿وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم﴾ اعلم ان هذا هو النوع السادس من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الاحياء والاماتة لهذه الحيوانات على وجود الاله القادر المختار أما قوله وانا لنحن نحيي ونميت ففيه قولان منهم من حمله على القدر المشترك بين احياء النبات والحيوان ومنهم من يقول وصف النبات بالاحياء مجاز فوجب تخصيصه باحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية انه لا قدرة على خلق الحياة الا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلا قاطعا على وجود الاله الفاعل المختار وقوله وانا لنحن نحيي ونميت يفيد الحصر أي لا قدرة على الاحياء ولا على الاماتة الا لنا وقوله ونحن الوارثون معناه انه اذا مات جميع الخلائق فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيها بالارث فكان وارثا من هذا الوجه وأما قوله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ففيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد المتخلفين عن طاعة الله (الثاني) أراد بالمستقدمين الصف الاول من أهل الصلاة وبالمستأخرين الصف الآخر روي انه صلى الله عليه وسلم رغب في الصف الاول في الصلاة فازدحم الناس عليه فانزل الله تعالى هذه الآية والمعنى انا نجزيهم على قدر نياتهم (الثالث) قال الضحاك ومقاتل يعني في صف القتال (الرابع) قال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوم يتقدمون الى الصف الاول لئلا يروها وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها واذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فانزل الله تعالى هذه الآية (الخامس) قيل المستقدمون هم الاموات والمستأخرون هم الاحياء وقيل المستقدمون هم الامم السالفة والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق واعلم انه تعالى لما قال وانا لنحن نحيي ونميت أتبعه بقوله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين تنبيها على انه لا يخفى على الله شئ من أحوالهم فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة وأما قوله وان ربك هو يحشرهم فالمراد منه التنبيه على ان الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب وقوله انه حكيم عليم معناه ان الحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم ان هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فانه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب ﴿المسألة الثانية﴾ ثبت بالدلائل القاطعة انه يمتنع القول بوجود حوادث لا أول لها واذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث الى حادث أول هو أول الحوادث واذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس الى انسان هو أول الناس واذا كان كذلك فذلك الانسان الاول غير مخلوق من الابوين فيكون مخلوقا لا محالة بقدرة الله تعالى فقوله ولقد خلقنا الانسان اشارة الى ذلك الانسان الاول والمفسرون

قلوبهم) عطف على الصلة وايثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره (فهم) حال كونهم (في ريبهم) وشكهم المستقر في قلوبهم (يترددون) أي يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه به مما لا يخفى حسن موقعه (ولو أرادوا الخروج) يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا الاستعداد فقيل تكذيبا لهم لو أرادوه (لاعدوا له) أي للخروج في وقته (عدة) أي أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر وقرئ عده بحذف التاء والاضافة الى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال

وأخلفوك عد الامر الذي وعدوا *

أي عدته وقرئ عده بكسر العين وعده بالاضافة (ولكن كره الله انبعاثهم) أي نهوضهم للخروج قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فان انتفاء ارادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج فكانه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق في معنى لا يمنع الوقوع بين طرفي لكن بعد تحقق الاختلاف نفيا واثباتا في اللفظ كقولك ما أحسن الى زيد ولكن أساء والاظهر أن يكون استدراكا من نفس المقدم على نهج ما في

اجمعوا

أجمعوا على ان المراد منه هو آدم عليه السلام ونقل في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر عليه السلام انه قال قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر * وأقول هذا لا يقدح في حدوث العالم بل الامر كيف كان فلا بد من الانتهاء الى انسان أول هو أول الناس واما أن ذلك الانسان هو أبونا آدم فلا طريق الى اثباته الا من جهة السمع واعلم أن الجسم محدث فوجب القطع بان آدم عليه السلام وغيره من الاجسام يكون مخلوقا عن عدم محض وأيضا دل قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب على ان آدم مخلوق من تراب ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين وهي قوله انى خالق بشرا من طين وجاء في هذه الآية ان آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون والاقرب أنه تعالى خلقه أولا من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أي جنس من الاجسام كان بل هو قادر على خلقه ابتداء وانما خلقه على هذا الوجه اما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن لان خلق الانسان من هذه الامور أعجب من خلق الشئ من شكله وجنسه (المسئلة الثالثة) في الصلصال قولان (قيل) الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ واذا طبخ فهو فخار قالوا اذا توهمت في صوته مدا فهو صليل واذا توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة قال المفسرون خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة فصار صلصالا كالخزف ولا يدرى أحد ما يراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الانسان يخف فكانت الريح اذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالا (والقول الثاني) الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل اذا أنتن وتغير وهذا القول عندي ضعيف لانه تعالى قال من صلصال من حمأ مسنون وكونه حمأ مسنونا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على ان هذا الصلصال انما تولد من الحمإ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالا مغايرا لكونه حمأ مسنونا ولو كان كونه صلصالا عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالا وبين كونه حمأ مسنونا تفاوت وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة والجمع الحمأ وهو الطين الاسود المنتن وقال أبو عبيدة والاكثرون حمأة بوزن كمأة وقوله مسنون فيه أقوال (الاول) قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله مسنون أي متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء فهو مسنون أي تغير والدليل عليه قوله تعالى لم يتسنه أي لم يتغير (الثاني) المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر على الحجر اذا حككته عليه والذي يخرج من بينهما يقال له السنين ويسمى المسن مسنا لان الحديد يسن عليه (والثالث) قال الزجاج هذا اللفظ مأخوذ من أنه موضوع على سنن الطريق لانه متى كان كذلك فقد تغير (الرابع) قال أبو عبيدة المسنون المصبوب والسن الصب يقال سن الماء على وجهه سنا (الخامس) قال سيبويه المسنون المصور على صورة ومثال من سنة الوجه وهي صورته (السادس) روي عن ابن عباس أنه قال المسنون الطين الرطب وهذا يعود الى قول أبي عبيدة لانه اذا كان رطبا يسيل وينبسط على الارض فيكون مسنونا بمعنى أنه مصبوب أما قوله تعالى والجان خلقناه فاختلفوا في أن الجان من هو فقال عطاء عن ابن عباس يريد ابليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة وقال ابن عباس في رواية أخرى الجان هو أبو الجن وهو قول الاكثرين وسمي جانا لتواريه عن الاعين كما سمي الجنين جنينا لهذا السبب والجنين متوار في بطن أمه ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك جن الشئ اذا ستره فالجان المذكور ههنا يحتمل أنه سمي جانا لانه يستر نفسه عن أعين بني آدم أو يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول كما يقال في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية واختلفوا في الجن فقال بعضهم انهم جنس غير الشياطين والاصح ان الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمنا فانه لا يسمى بالشيطان وكل من كان منهم كافرا يسمى بهذا الاسم والدليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاستتار فكل من كان كذلك كان من الجن وقوله تعالى خلقناه من قبل قال ابن عباس يريد من قبل خلق آدم وقوله من نار السموم معنى السموم في اللغة الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون

الاقيسة الاستثنائية والمعنى لو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفاسد التي ستبين (فثبطهم) أي حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له (وقيل اقعدوا مع القاعدين) تمثيل لالقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالامر بالقعود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أو هو اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم في القعود والمراد بالقاعدين اما المعذورون أو غيرهم وأيا ما كان فغير خال عن الذم (لو خرجوا فيكم) بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم (ما زادوكم) أي ما أورثوكم شيأ من الاشياء (الا خبالا) أي فسادا وشرا فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذاك (ولاوضعوا خلالكم) أي ولاسرعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وافساد ذات البين من وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته أنا أي حملته على الاسراع والمعنى لاوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة في الاسراع بالنمائم لان الراكب أسرع من الماشي وقرئ ولارقصوا من رقصت الناقة أسرعت وأرقصتها أنا وقرئ ولاوفضوا أي أسرعوا (يبغونكم الفتنة) يحاولون أن يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم والقاء الرعب في قلوبكم

بالليل وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفح وأوار على ما ورد في الخبر أنها لفح جهنم قيل سميت سموما لأنها بلطفها تدخل في مسام البدن وهي الخروق الخفية التي تكون في جلد الانسان يبرز منها عرقه وبخار باطنه قال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق الله منها الجان وتلا هذه الآية فان قيل كيف يعقل خلق الجان من النار قلنا هذا على مذهبنا ظاهر لان البنية عندنا ليست شرطا لامكان حصول الحياة فالله تعالى قادر على خلق الحياة والعلم في الجوهر الفرد فكذلك يكون قادرا على خلق الحياة والعقل في الجسم الناري واستدل بعضهم على أن الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال لان الشمس في غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم بل المعتمد في نفي الحياة عن الكواكب الاجماع * قوله تعالى ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الانسان الأول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه الا ابليس فانه أبى وتمرد وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) ما تفسير كونه بشرا فالمراد منه كونه جسما كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالا من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره وأما قوله فاذا سويته ففيه قولان (الاول) فاذا سويت شكله بالصورة الانسانية والخلقة البشرية (والثاني) فاذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الامشاج كما قال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج * وأما قوله ونفخت فيه من روحي ففيه مباحث (الاول) ان النفخ اجراء الريح في تجاويف جسم آخر وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح والا لما صح وصفها بالنفخ الا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى قل الروح من أمر ربي وانما أضاف الله سبحانه روح آدم الى نفسه تشريفا له وتكريما وقوله فقعوا له ساجدين فيه مباحث (أحدها) ان ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة (وثانيها) أن المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الارض من الناس من لا يجوز أن يقال ان أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة الاعراف في صفة الملائكة ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون فقوله وله يسجدون يفيد الحصر وذلك يدل على أنهم لا يسجدون الا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم عليه السلام أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال ان قوله تعالى فقعوا له ساجدين يفيد العموم الا أن الخاص مقدم على العام (وثالثها) أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له لان قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي وقوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون قال الخليل وسيبويه قوله كلهم أجمعون توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم بعد هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله الا ابليس أجمعوا على أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة وقوله أبى أن يكون مع الساجدين استئناف وتقديره أن قائلا قال هلا سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه أما قوله قال

وافساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا أو استئناف (وفيكم سماعون لهم) أي نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله اليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أي يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا في كثرة العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد اخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين اليهم مستتبعا لخلل كلي كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه العتاب على الاذن في قعودهم مع تقرره لا محالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير اذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الامر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعي فيما بينهم بالاراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش الى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة (والله عليم بالظالمين) علما محيطا بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يأتي منهم فيما سيأتي ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم ولعله

يا ابليس ما لك الا تكون مع الساجدين فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله قال يا ابليس أي قال الله تعالى له يا ابليس وهذا يقتضي أنه تعالى تكلم معه فعند هذا قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله الا أن هذا ضعيف لان ابليس قال في الجواب لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضي ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وان ابليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم ولعل الجواب عنه ان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كان على سبيل الاكرام والاعظام فأما اذا كان على سبيل الاهانة والاذلال فلا وقوله لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ففيه بحثان (الاول) اللام في قوله لاسجد لتأكيد النفي ومعناه لا يصح مني أن أسجد لبشر (البحث الثاني) معنى هذا الكلام أن كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا لطيفا فكأنه يقول البشر جسماني كثيف وأنا روحاني لطيف والجسماني الكثيف أدون حالا من الروحاني اللطيف والادون كيف يكون مسجودا للاعلى وأيضا ان آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون فهذا الاصل في غاية الدناءة وأصل ابليس هو النار وهي أشرف العناصر فكان أصل ابليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون ابليس أشرف من آدم والاشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للادون فالكلام الاول اشارة الى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية وهو فرق حاصل في الحال والكلام الثاني اشارة الى الفرق الحاصل بحسب العنصر والاصل فهذا مجموع شبهة ابليس وقوله تعالى قال فاخرج منها فانك رجيم فهذا ليس جوابا عن تلك الشبهة على سبيل التصريح ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه وتقريره أن الذي قاله الله تعالى نص والذي قاله ابليس قياس ومن عارض النص بالقياس كان رجيما ملعونا وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الاعراف وقوله فاخرج منها قيل المراد من جنة عدن وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الاعراف وقوله وان عليك اللعنة الى يوم الدين قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله مالك يوم الدين * فان قيل كلمة الى تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل الا الى يوم القيامة وعند قيام القيامة يزول اللعن أجابوا عنه من وجوه (الاول) المراد منه التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم مادامت السموات والارض في التأبيد (والثاني) انك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والارض الى يوم الدين من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ﴿ قوله تعالى ﴿قال رب فانظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فانظرني متعلق بما تقدم والتقدير اذا جعلتني رجيما ملعونا الى يوم الدين فانظرني فطلب الابقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة الى وقت قيام القيامة لان قوله الى يوم يبعثون المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة وقوله قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم اعلم أن ابليس استنظر الى يوم البعث والقيامة وغرضه منه أن لا يموت لانه اذا كان لا يموت قبل يوم القيامة وظاهر ان بعد قيام القيامة لا يموت أحد فحينئذ يلزم منه أن لا يموت البتة ثم انه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم واختلفوا في المراد منه على وجوه (أحدها) أن المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الاولى حين يموت كل الخلائق وانما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم لان من المعلوم أنه يموت كل الخلائق فيه وقيل انما سماه الله تعالى بهذا الاسم لان العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو وقال ان الله عنده علم الساعة (وثانيها) أن المراد من يوم الوقت

شامل للفريقين السماعين والقاعدين (لقد ابتغوا الفتنة) تشتيت شملك وتفريق أصحابك منك (من قبل) أي يوم أحد حين انصرف عبد الله ابن أبي ابن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضا بعد ما خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم الى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع وعن ابن جريج رضي الله عنه وقف الرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين (وقلبوا لك الامور) تقليب الامر تصريفه من وجه الى وجه وترديده لاجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف في وجوه الحيل حول قلب أي اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في ابطال أمرك وقرئ بالتخفيف (حتى جاء الحق) أي النصر والتأييد الالهي (وظهر أمر الله) غلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) والحال أنهم كارهون لذلك على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ما ثبطهم الله تعالى لاجله وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وازاحة أعذارهم تداركا لما عسى يفوت بالمبادرة الى الاذن وايذانا بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهوينا للخطب (ومنهم

المعلوم هو الذي ذكره ابليس وهو قوله الى يوم يبعثون وانما سماه تعالى بيوم الوقت المعلوم لان ابليس لما عينه وأشار اليه بعينه صار ذلك كالمعلوم فان قيل لما أجابه الله تعالى الى مطلوبه لزم أن لا يموت الى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضا فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية قلنا يحمل قوله الى يوم يبعثون الى ما يكون قريبا منه والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام الى الوجه الاول (وثالثها) أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه الا الله تعالى وليس المراد منه يوم القيامة فان قيل انه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت لان فيه اغراء بالمعاصي وذلك لا يجوز على الله تعالى أجيب عنه بأن هذا الالزام انما يتوجه اذا كان وقت قيام القيامة معلوما للمكلف فأما اذا علم أنه تعالى أمهله الى وقت قيام القيامة الا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الاغراء بالمعاصي وأجيب عن هذا الجواب بأنه وان لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين الا أنه علم في الجملة ان من وقت خلقة آدم عليه الصلاة والسلام الى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة ﴿أما قوله تعالى قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين ففيه بحثان (الاول) الباء في بما أغويتني للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن والمعنى أقسم باغوائك اياي لأزينن لهم ونظيره قوله تعالى فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهي من صفات الذات وفي قوله بما أغويتني أقسم باغواء الله وهو من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح اما بصفات الافعال فقد اختلفوا فيه ونقل الواحدي عن قوم آخرين انهم قالوا الباء ههنا بمعنى السبب أي بسبب كوني غاويا لأزينن كقول القائل أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار وبطاعته ليدخلن الجنة (البحث الثاني) اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على انه تعالى قد يريد خلق الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه (الاول) ان ابليس استمهل وطلب البقاء الى قيام القيامة مع أنه صرح بأنه انما يطلب هذا الامهال والابقاء لاغواء بني آدم واضلالهم وأنه تعالى أمهله وأجابه الى هذا المطلوب ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل ولما مكنه من الاغواء والاضلال والوسوسة (الثاني) ان أكابر الانبياء والاولياء مجدون ومجتهدون في ارشاد الخلق الى الدين الحق وان ابليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الاضلال والاغواء فلو كان مراد الله تعالى هو الارشاد والهداية لكان من الواجب ابقاء المرشدين والمحققين واهلاك المضلين والمغوين وحيث فعل بالضد منه علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر (الثالث) انه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون الى يوم الدين كان ذلك اغراء له بالكفر والقبيح لانه اذا أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترئ حينئذ على أنواع المعاصي والكفر (الرابع) أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل الا زيادة الكفر والمعصية وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لانواع العذاب الشديد كان هذا الامهال سببا لمزيد عذابه وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه (الخامس) أنه صرح بأن الله أغواه فقال رب بما أغويتني وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال هذا كلام ابليس وهو ليس بحجة وأيضا فهو معارض بقول ابليس فبعزتك لأغوينهم أجمعين فأضاف الاغواء الى نفسه لانا نقول (أما الجواب عن الاول) فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فان الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقا فيما قال (وأما الجواب عن الثاني) فهو أنه قال في هذه الآية رب بما أغويتني لأزينن لهم فالمراد ههنا من قوله لأزينن لهم هو المراد من قوله في تلك الآية لأغوينهم أجمعين الا أنه بين في هذه الآية انه انما أمكنه أن يزين لهم الاباطيل لاجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا (السؤال السادس) أنه قال رب بما أغويتني وهذا اعتراف بان الله تعالى أغواه فنقول اما أن يقال انه كان قد عرف بان الله تعالى أغواه او ما عرف ذلك فان كان قد عرف بأن الله تعالى

من يقول ائذن لي) في القعود (ولا تفتني) أي لا توقعني في الفتنة وهي المعصية والاثم يريد اني متخلف لامحالة أذنت أولم تأذن فائذن لي حتى لا أقع في المعصية بالمخالفة أولا تلقني في الهلكة فاني ان خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم من يقوم بمصالحهم وقيل قال الجد بن قيس قد علمت الانصار أني مشتهر بالنساء فلا تفتني ببنات الاصفر يعني نساء الروم ولكن أعينك بمالي فاتركني وقرئ ولا تفتني من أفتنه بمعنى فتنه (ألا في الفتنة) أي في عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغني عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به (سقطوا) لا في شئ مغاير لها فضلا عن أن يكون مهربا ومخلصا عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالاذن المبني عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرئ بافراد الفعل محافظة على لفظ من وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف ايذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة انما هي التخلف بغير اذن وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين

أغواه امتنع كونه غاويا لانه انما يعرف أن الله تعالى أغواه اذا عرف أن الذى هو عليه جهل وباطل ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة وأما ان قلنا بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه ان يقول رب بما أغويتنى فهذا مجموع السؤالات الواردة فى هذه الآية (أما الاشكال الاول) فللمعتزلة فيه طريقان (الاول) وهو طريق الجبائى أنه تعالى انما أمهل ابليس تلك المدة الطويلة لانه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته فبتقدير أن لا يوجد ابليس ولا وسوسته فان ذلك الكافر والعاصى كان يأتى بذلك الكفر والمعصية فلما كان الامر كذلك لاجرم أمهله هذه المدة (الطريق الثانى) وهو طريق أبى هاشم أنه لا يبعد أن يقال انه تعالى علم أن أقواما يقعون بسبب وسوسته فى الكفر والمعصية الا ان وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية بل الكافر والعاصى بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية أقصى ما فى الباب أن يقال الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها الا ان على هذا التقدير تصير وسوسته سببا لزيادة المشقة فى أداء الطاعات وذلك لا يمنع الحكيم من فعله كما ان انزال المشاق وانزال المتشابهات صار سببا لزيد الشبهات ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا ههنا وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثانى (وأما السؤال الثالث) وهو ان اعلامه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصى والاكثار منها فجوابه ان هذا انما يلزم اذا كان علم ابليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة فى المعاصى أما اذا علم الله تعالى من حاله ان ذلك لا يوجب التفاوت البتة فالسؤال زائل وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع (وأما السؤال الخامس) وهو ان ابليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين فقد أجابوا عنه بانه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى (أحدها) المراد بما خيبتنى من رحمتك لاخيبنهم بالدعاء الى معصيتك (وثانيها) المراد كما أضللتنى عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضا عنه بالدعاء الى المعصية (وثالثها) أن يكون المراد بالاغواء الاول الخيبة وبالثانى الاضلال (ورابعها) ان المراد باغواء الله تعالى اياه هو أنه أمره بالسجود لآدم فأفضى ذلك الى غيه يعنى انه حصل ذلك الغى عقيبه باختيار ابليس فاما أن يقال ان ذلك الامر صار موجبا لذاته لحصول ذلك الغى فمعلوم أنه ليس الامر كذلك هذا جملة كلام القوم فى هذا الباب وكله ضعيف أما قوله انه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة ابليس فنقول هذا باطل ويدل عليه القرآن والبرهان أما القرآن فقوله تعالى فأزلهما الشيطان فأضاف تلك الزلة الى الشيطان وقال فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى فأضاف الاخراج اليه وقال موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان كل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان فى تلك الافعال أثرا وأما البرهان فلان بدائه العقول شاهدة بانه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبدا فى القبائح وينفره عن الخيرات مثل شخص كان حاله بالضد منه والعلم بهذا التفاوت ضرورى وأما قوله ان وجوده يصير سببا لزيادة المشقة فى الطاعة فنقول تأثير زيادة المشقة انما هو فى كثرة الثواب على أحد التقديرين وفى الالقاء فى العذاب الشديد على التقدير الثانى وهو التقدير الاكثر الاغلب وكل من راعى المصالح فان رعاية هذا التقدير الثانى أولى عنده من رعاية التقدير الاول لان دفع الضرر العظيم أولى من السعى فى طلب النفع الزائد الذى لا حاجة الى حصوله أصلا ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة وأما قوله المراد من قوله رب بما أغويتنى الخيبة عن الرحمة أو الاضلال عن طريق الجنة فنقول كل هذا بعيد لانه هو الذى خيب نفسه عن الرحمة وهو الذى أضل نفسه عن طريق الجنة لانه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن اضافته الى الله تعالى فثبت ان الاشكالات لازمة وان أجوبتهم ضعيفة والله أعلم * أما قوله الا عبادك منهم المخلصين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن ابليس استثنى المخلصين لانه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه وذكرت فى مجلس التذكير ان الذى حمل ابليس على ذكر هذا الاستثناء أن لا يصير كاذبا فى دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب فى غاية الخساسة (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو المخلصين بكسر اللام فى كل

وقوله عز وجل (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أو محيطة بهم الآن تنزيلا للشئ سيقع عن قريب منزلة الواقع أو وضعا لاسباب الشئ موضعه فان مبادى احاطة النار بهم من الكفر والمعاصى محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها ما فروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادى المتشكلة بصور الاعمال والاخلاق هى النار بعينها ولكن لا يظهر ذلك فى هذه النشأة وانما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقية فى النشأة الآخرة والمراد بالكافرين اما المنافقون وايثار وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والاشعار بأنهم معظم أسباب الاحاطة المذكورة واما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا أوليا (ان تصبك) فى بعض مغازيك (حسنة) من الظفر والغنيمة (تسؤهم) تلك الحسنة أى تورثهم مساءة لفرط حسدهم وعداوتهم لك (وان تصبك) فى بعضها (مصيبة) من نوع شدة (يقولوا) متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم (قد أخذنا أمرنا) أى تلافينا ما يهمنا من الامر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود

القرآن والباقون بفتح اللام وجه القراءة الاولى انهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الايمان والتوحيد ومن فتح اللام فمعناه الذين أخلصهم الله بالهداية والايمان والتوفيق والعصمة وهذه القراءة تدل على أن الاخلاص والايمان ليس الا من الله تعالى ﴿المسئلة الثالثة﴾ الاخلاص جعل الشئ خالصا عن شائبة الغير فنقول كل من أتى بعمل فاما أن يكون قد أتى به لله فقط أو لغير الله فقط أو لمجموع الامرين وعلى هذا التقدير الثالث فاما أن يكون طلب رضوان الله راجحا أو مرجوحا أو معادلا والتقدير الرابع أن يأتي به لا لغرض أصلا وهذا محال لان الفعل بدون الداعية محال (أما الاول) فهو الاخلاص في حق الله تعالى لانا الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير فهذا هو الاخلاص (وأما الثاني) وهو الاخلاص في حق غير الله فظاهر أن هذا لا يكون اخلاصا في حق الله تعالى (وأما الثالث) وهو أن يشتمل على الجهتين الا أن جانب الله يكون راجحا فهذا يرجى أن يكون من المخلصين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد خالصا عن الشوب (وأما الرابع والخامس) فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى والحاصل ان القسم الاول اخلاص في حق الله تعالى قطعا والقسم الثاني يرجى من فضل الله أن يجعله من قسم الاخلاص وأما سائر الاقسام فهو خارج عن الاخلاص قطعا والله أعلم * أما قوله تعالى قال هذا صراط على مستقيم ففيه وجوه (الاول) ان ابليس لما قال الا عبادك منهم المخلصين فلفظ المخلص يدل على الاخلاص فقوله هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق على والى أى أنه يؤدى الى كرامتي وثوابي وقال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال آخرون هذا صراط من مر عليه فكأنه مر على وعلى رضواني وكرامتي وهو كما يقال طريقك على (الثاني) الاخلاص طريق العبودية فقوله هذا صراط على مستقيم أى هذا الطريق في العبودية طريق على مستقيم (الثالث) قال بعضهم لما ذكر ابليس أنه يغوى بني آدم الا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته فقال تعالى هذا صراط على أى تفويض الامور الى ارادتي ومشيئتي طريق على مستقيم (الرابع) معناه هذا صراط على تقريره وتأكيده وهو مستقيم حق وصدق وقرأ يعقوب صراط على بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله صراط أى هو على بمعنى انه رفيع مستقيم لا عوج فيه قال الواحدي معناه أن طريق التفويض الى الله تعالى والايمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم ﴿قوله تعالى ﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ اعلم ان ابليس لما قال لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا الكلام ان له سلطانا على عباد الله الذين يكونون من المخلصين فبين تعالى في هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين بل من اتبع منهم ابليس باختياره صار متبعا له ولكن حصول تلك المتابعة أيضا ليس لاجل ان ابليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها والحاصل في هذا القول ان ابليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه فيه وذكر انه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس أنه قال وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي وقال تعالى في آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون قال الجبائي هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وازالة عقولهم كما يقوله العامة وربما نسبوا ذلك الى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه وفي الآية قول آخر وهو أن ابليس لما قال الا عبادك منهم المخلصين ذكر أنه لا يقدر على اغواء المخلصين صدقه الله في هذا الاستثناء فقال ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فلهذا قال الكلبي العباد المذكورون في هذه الآية هم الذين استثناهم ابليس واعلم أن على القول الاول يمكن أن يكون قوله الا من اتبعك استثناء لان المعنى ان عبادي ليس لك عليهم

سلطان

عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولا وفعلا (من قبل) أى من قبل اصابة المصيبة في وقت تداركه يشيرون بذلك الى أن المعاملة المذكورة انما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الاسلام لا بعد اصابة المصيبة (ويتولوا) عن مجالس الاجتماع والتحدث الى أهاليهم أو يعرضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم (وهم فرحون) بما صنعوا من أخذ الامر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام والجملة حال من الضمير في يتولوا ويتولوا الا في الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور واسناد المساءة الى الحسنة والمسرة الى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وان تصبك مصيبة تسرهم للايذان باختلاف حاليهم حالتي عروض المساءة والمسرة بأنهم في الاولى مضطرون وفي الثانية مختارون (قل) بيانا لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد (لن يصيبنا) أبدا وقرئ هل يصيبنا وهل يصيبنا من فيعل لا من فعل لانه واوي يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب (الا ما كتب الله لنا) أى أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الاخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية الى النعيم الدائم (هو مولانا) ناصرنا ومتولي أمورنا (وعلى الله) وحده (فليتوكل المؤمنون)

سلطان الامن اتبعك من الغاوين فان لك عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين لك فى الامر والنهى وأما على القول الثانى فيمتنع أن يكون استثناء بل تكون لفظة الا بمعنى لكن وقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين قال ابن عباس يريد ابليس وأشياعه ومن اتبعه من الغاوين * ثم قال تعالى لها سبعة أبواب وفيه قولان (الاول) انها سبع طبقات بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات ويدل على كونها كذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار (والقول الثانى) ان قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام ولكل قسم باب معين وعن ابن جريج أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية قال الضحاك (الطبقة الاولى) فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون (والثانية) لليهود (والثالثة) للنصارى (والرابعة) للصابئين (والخامسة) للمجوس (والسادسة) للمشركين (والسابعة) للمنافقين وقوله لكل باب منهم جزء مقسوم فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر جزء مقسوم والباقون جزء بتخفيف الزاى وقرأ الزهرى جز بالتشديد كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى كقولك خب فى خبء ثم وقف عليه بالتشديد (المسئلة الثانية) الجزء بعض الشئ والجمع الاجزاء وجزأته جعلته أجزاء والمعنى انه تعالى يجزئ أتباع ابليس أجزاء بمعنى انه يجعلهم أقساما وفرقا ويدخل فى كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة فلاجرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة والله أعلم * قوله تعالى (ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) اعلم انه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ان المتقين قولان (الاول) قال الجبائى وجمهور المعتزلة القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصى قالوا لانه اسم مدح فلا يتناول الا من يكون كذلك (والقول الثانى) وهو قول جمهور الصحابة والتابعين وهو المنقول عن ابن عباس ان المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به وأقول هذا القول هو الحق الصحيح والذى يدل عليه هو ان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما ان الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا وقاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب والقتل فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى والذى يقوى هذا الكلام أن الآتى بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من أفراد الماهية فانه يجب كونه مشتملا على تلك الماهية فالآتى بالتقوى يجب ان يكون متقيا فثبت ان الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقيا ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على ان ظاهر الامر لا يفيد التكرار اذا ثبت هذا فنقول ظاهر قوله ان المتقين فى جنات وعيون يقتضى حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن شئ واحد الا ان الامة مجمعة على ان التقوى عن الكفر شرط فى حصول هذا الحكم وأيضا فان هذه الآية وردت عقيب قول ابليس الا عبادك منهم المخلصين وعقيب قول الله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فلاجل هذه الدلائل اعتبرنا الايمان فى هذا الحكم فوجب أن لا يزاد فيه قيد آخر لان تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الاصل والظاهر فثبت ان قوله ان المتقين فى جنات وعيون يتناول جميع القائلين بلا اله الا الله محمد رسول الله قولا واعتقادا سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين وكلام ظاهر (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى جنات وعيون أما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله ولمن خاف يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى فى قوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير

السببية والاصل ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم أدخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما فى قوله تعالى وإياى فارهبون والجملة ان كانت من تمام الكلام المأمور به فاظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لاظهار التبرك والتلذذ به وان كانت مسوقة من قبله تعالى أمر المؤمنين بالتوكل اثر أمره عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالامر ظاهر وكذا اعادة الامر فى قوله عز وجل (قل هل تربصون بنا) لانقطاع حكم الامر الاول بالثانى وان كان أمرا لغائب وأما على الوجه الاول فهى لابراز كمال العناية بشأن المأمور به والاشعار بما بينه وبين ما أمر به أولا من الفرق فى السياق والتربص والتمكث مع انتظار مجيء شئ خيرا كان أو شرا والباء للتعدية واحدى التاءين محذوفة أى ما تنتظرون بنا (الا احدى الحسنيين) أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب الاول وكشف لحقيقة الحال باعلام أن ما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر

آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الانهار فان قيل أتقولون ان كل واحد من المتقين يختص بعيون أو تجرى تلك العيون من بعض الى بعض قيل لا يمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يكون يجرى من بعضهم الى بعض لانهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله ادخلوها بسلام آمنين يحتمل أن القائل لقوله ادخلوها هو الله تعالى وان يكون ذلك القائل بعض الملائكة * وفيه سؤال لانه تعالى حكم قبل هذه الآية بانهم في جنات وعيون واذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم ادخلوها * والجواب عنه من وجهين (الاول) لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها ادخلوها بسلام (الثانى) لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة الى أخرى قيل لهم ادخلوها وقوله ادخلوها بسلام آمنين المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة والامن من زوالها ثم قال تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ من قولهم أغل في جوفه وتغلغل اى ان كان لاحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن على عليه السلام أنه قال أرجو أن أكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم وحكى عن الحرث بن الاعور انه كان جالسا عند على عليه السلام اذ دخل زكريا بن طلحة فقال له على مرحبا بك يا ابن أخى أما والله انى لارجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم ونزعنا ما في صدورهم من غل فقال الحرث كلا بل الله أعدل من ان يجمعك وطلحة في مكان واحد قال عليه السلام فلمن هذه الآية لا أم لك يا أعور وروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وقوله اخوانا نصب على الحال وليس المراد الاخوة في النسب بل المراد الاخوة في المودة والمخالصة كما قال الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقوله على سرر متقابلين السرير معروف والجمع اسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال سرر وسرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فان جمعه فعل وفعل نحو سرر وسرر وجدد وجدد قال المفضل بعض تميم وكلب يفتحون لانهم يستثقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد وقال بعض أهل المعانى السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور وقال الليث وسرير العيش مستقره الذى اطمأن اليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية وقوله متقابلين التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك ان المواجهة أشرف الاحوال وقوله لا يمسهم فيها نصب النصب الاعياء والتعب أى لا ينالهم فيها تعب وما هم منها بمخرجين والمراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان واعلم ان للثواب أربع شرائط وهى أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة (أما القيد الاول) وهو كونها منفعة فاليه الاشارة بقوله ان المتقين في جنات وعيون (وأما القيد الثانى) وهو كونها مقرونة بالتعظيم فاليه الاشارة بقوله ادخلوها بسلام آمنين لان الله سبحانه اذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الاجلال (وأما القيد الثالث) وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر فاعلم ان المضار اما أن تكون روحانية واما ان تكون جسمانية أما المضار الروحانية فهى الحقد والحسد والغل والغضب وأما المضار الجسمانية فكالاعياء والتعب فقوله ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين اشارة الى نفى المضار الروحانية وقوله لا يمسهم فيها نصب اشارة الى نفى المضار الجسمانية (وأما القيد الرابع) وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فاليه الاشارة بقوله وما هم منها بمخرجين فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الاربعة المعتبرة في ماهية الثواب ولحكماء الاسلام في هذه الآية مقال فانهم قالوا المراد من قوله ونزعنا ما في صدورهم من غل اشارة الى ان الارواح القدسية النطقية نقية مطهرة

والغنيمة (ونحن نتربص بكم) احدى السوأيين من العواقب اما (ان يصيبكم الله بعذاب من عنده) كما أصاب من قبلكم من الامم المهلكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوبا (أو) بعذاب (بأيدينا) وهو القتل على الكفر (فتربصوا) الفاء فصيحة أى اذا كان الامر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا (انا معكم متربصون) ما هو عاقبتكم فاذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون الا ما يسرنا ولا نشاهد الا ما يسوءكم (قل أنفقوا أموالكم في سبيل الله (طوعا أو كرها) مصدران وقعا موقع الفاعل أى طائعين أو كارهين وهو أمر في معنى الخبر كقوله تعالى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم والمعنى أنفقتم طوعا أو كرها (لن يتقبل منكم) ونظم الكلام في سلك الامر للمبالغة في بيان تساوى الامرين في عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الاخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الاثابة عليه وقوله عز وجل (انكم كنتم قوما فاسقين) أى عاتين متمردين تعليل لرد انفاقهم (وما منعهم أن تقبل منهم) وقرئ بالتحتانية (نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله) استثناء من أعم الاشياء

عن علائق القوى الشهوانية والغضبية مبرأة عن حوادث الوهم والخيال وقوله اخوانا على سرر متقابلين معناه ان تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الاجسام ونوازع الخيال والاوهام ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الانوار الالهية وتلألأت بتلك الاضواء الصمدية فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المرايا المتقابلة المتحاذية فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله اخوانا على سرر متقابلين والله اعلم ﴿قوله تعالى ﴿نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم﴾ فى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) أثبتت الهمزة الساكنة فى نبئ صورة وما أثبتت فى قوله دفء وجزء لان ماقبلها ساكن فهى تحذف كثيرا وتلقى حركتها على الساكن قبلها فنبئ فى الخط على تحقيق الهمزة وليس قبل همزة نبئ ساكن فاجروها على قياس الاصل (المسئلة الثانية) اعلم ان عباد الله قسمان منهم من يكون متقيا ومنهم من لا يكون كذلك فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين فى الآية المتقدمة ذكر أحوال غير المتقين فى هذه الآية فقال نبئ عبادى واعلم أنه ثبت فى أصول الفقه ان ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم فههنا وصفهم بكونهم عباد الله ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورا رحيما فهذا يدل على ان كل من اعترف بالعبودية ظهر فى حقه كون الله غفورا رحيما ومن أنكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الاليم * وفى الآية لطائف (احداها) أنه أضاف العباد الى نفسه بقوله عبادى وهذا تشريف عظيم ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذى أسرى بعبده (وثانيها) أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة (أولها) قوله انى (وثانيها) قوله أنا (وثالثها) ادخال حرف الالف واللام على قوله الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الاليم (وثالثها) أنه أمر رسوله أن يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة (ورابعها) انه لما قال نبئ عبادى كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتى وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن قتادة قال بلغنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ماتورع من حرام ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه أى قتلها وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون والنار بين أيديكم فنزل قوله نبئ عبادى انى أنا الغفور الرحيم والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما بالغ فى تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الاشقياء والسعداء أتبعه بذكر قصص الانبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا فى الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الانبياء ومحذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الاشقياء فبدأ أولا بقصة ابراهيم عليه السلام والضمير فى قوله ونبئهم راجع الى قوله عبادى والتقدير ونبئ عبادى عن ضيف ابراهيم يقال أنبأت القوم انباء ونبأتهم تنبئة اذا أخبرتهم وذكر تعالى فى الآية ان ضيف ابراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضا بانه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال وكل ذلك يقوى ماذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين وان عذابه عذاب أليم فى حق الكفار (المسئلة الثانية) الضيف فى الاصل مصدر ضاف يضيف اذا أتى انسانا لطلب القرى ثم سمى به ولذلك وحد فى اللفظ وهم جماعة فان قيل كيف سماهم ضيفا مع امتناعهم عن الاكل قلنا لما ظن ابراهيم انهم انما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك وقيل أيضا ان من يدخل دار الانسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل وقوله تعالى اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما أى نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما فقال ابراهيم

أى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شئ من الاشياء الا كفرهم وقرئ يقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى (ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) أى لا يأتونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم متثاقلين (ولا ينفقون الا وهم كارهون) لانهم لا يرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا فقوله تعالى طوعا أى من غير الزام من جهته عليه الصلاة والسلام لا رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) فان ذلك استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل (انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة (ويحلفون بالله انهم لمنكم) فى الدين والاسلام (وما هم منكم) فى ذلك (ولكنهم قوم يفرقون) يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية ويؤيدونه بالايمان الفاجرة (لو يجدون ملجأ)

استئناف مقرر لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم الى الانتماء اليهم انما هو للتقية اضطرارا حتى انهم لو وجدوا اغير

انا منكم وجلون أى خائفون وكان خوفه لامتناعهم من الاكل وقيل لانهم دخلوا عليه بغير اذن وبغير وقت وقرأ الحسن لا توجل بضم التاء من أوجله يوجله اذا أخافه وقرئ لا تاجل ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء فى سورة هود * وقوله قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم فيه ابحاث (الاول) قرأ حمزة انا نبشرك بفتح النون وتخفيف الباء والباقون نبشرك بالتشديد (البحث الثانى) قوله انا نبشرك استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل والمعنى انك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل (البحث الثالث) قوله انا نبشرك بغلام عليم بشروه بأمرين أحدهما ان الولد ذكر والآخر أنه يصير عليما واختلفوا فى تفسير العليم فقيل بشروه بنبوته بعده وقيل بشروه بأنه عليم بالدين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال أبشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون فعلى ههنا للحال أى حالة الكبر وقوله فبم تبشرون فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لفظة ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال بأى أعجوبة تبشرونى * فان قيل فى الآية اشكالان (الاول) أنه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه فى زمان الكبر وانكار قدرة الله تعالى فى هذا الموضع كفر (الثانى) كيف قال فبم تبشرون مع انهم قد بينوا ما بشروه به وما فائدة هذا الاستفهام قال القاضى أحسن ما قيل فى الجواب عن ذلك أنه اراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب فى هذا الاستفهام ان العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وانما يحصل فى حال الشباب فان قيل فاذا كان معنى الكلام ما ذكرتم فلم قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قلنا انهم بينوا ان الله تعالى بشره بالولد مع ابقائه على صفة الشيخوخة وقولهم فلا تكن من القانطين لا يدل على أنه كان كذلك بدليل أنه صرح فى جوابهم بما يدل على انه ليس كذلك فقال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفيه جواب آخر وهو أن الانسان اذا كان عظيم الرغبة فى شئ وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه فاذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة من ذلك الفرح فى ذلك الوقت وقيل أيضا انه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلبا للالتذاذ بسماع تلك البشارة وطلبا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله ولكن ليطمئن قلبى وقيل أيضا استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم (المسئلة الثانية) قرأ نافع تبشرون بكسر النون خفيفة فى كل القرآن وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها والباقون بفتح النون خفيفة اما الكسر والتشديد فتقديره تبشروننى أدغمت نون الجمع فى نون الاضافة وأما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استثقالا لاجتماع المثلين وطلبا للتخفيف قال أبو حاتم حذف نافع الياء مع النون قال واسقاط الحرفين لا يجوز وأجيب عنه بأنه أسقط حرفا واحدا وهى النون التى هى علامة للرفع وعلى أن حذف الحرفين جائز قال تعالى فى موضع ولا تك وفى موضع ولا تكن فاما فتح النون فعلى غير الاضافة والنون علامة الرفع وهى مفتوحة أبدا وقوله بشرناك بالحق قال ابن عباس يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى أن يخرج من صلب ابراهيم اسحق عليه السلام ويخرج من صلب اسحق مثل ما أخرج من صلب آدم فانه تعالى بشره بأنه يخرج من صلب اسحق أكثر الانبياء فقوله بالحق اشارة الى هذا المعنى وقوله فلا تكن من القانطين نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيرا ان نهى الانسان عن الشئ لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا الكلام حق لان القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل الا عند الجهل بأمور (أحدها) أن يجهل كونه تعالى قادرا عليه (وثانيها) أن يجهل كونه تعالى عالما باحتياج ذلك العبد اليه (وثالثها) أن يجهل كونه تعالى منزها عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الامور سبب للضلال فلهذا المعنى قال ومن يقنط من رحمة ربه

ذلك ملجأ أى مكانا حصينا يلجؤن اليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة وايثار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم الوجدان فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصا فى افادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام فان معنى قولك لو تحسن الى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الاحسان لا أنه بسبب انتفاء استمرار الاحسان فان الشكر يتوقف على وجود الاحسان لا على استمراره كما حقق فى موضعه (أو مغارات) أى غيرانا وكهوفا يخفون فيها أنفسهم وقرئ بضم الميم من أغار الرجل اذا دخل الغور وقيل هو متعد من غار اذا دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من أغار الثعلب اذا أسرع بمعنى مهارب ومفار (أو مدخلا) أى نفقا يندسون فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرئ مدخلا من الدخول ومدخلا من الادخال أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم وقرئ متدخلا ومندخلا من التدخل والاندخال (لولوا) أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرئ لوألوا أى لالتجأوا (اليه) أى الى أحد ما ذكر (وهم يجمحون) أى يسرعون بحيث لا يردهم شئ من الفرس الجموح وهو الذى

الا الضالون ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي يقنط بكسر النون ولا تقنطوا كذلك والباقون بفتح النون وهما لغتان قنط يقنط نحو ضرب يضرب وقنط يقنط نحو علم يعلم وحكى أبو عبيدة قنط يقنط بضم النون قال أبو علي الفارسي قنط يقنط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من أعلى اللغات يدل على ذلك اجتماعهم في قوله من بعد ما قنطوا وحكاية أبي عبيدة تدل أيضا على أن قنط بفتح النون أكثر لان المضارع من فعل يجيء على يفعل ويفعل مثل فسق يفسق ويفسق ولا يجيء مضارع فعل على يفعل والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله فما خطبكم سؤال عما لاجله أرسلهم الله تعالى والخطب والشان والامر سواء الا ان لفظ الخطب أدل على عظم الحال فان قيل ان الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك فما خطبكم أيها المرسلون قلنا فيه وجوه (الاول) قال الاصم معناه ما الامر الذي توجهتم له سوى البشرى (الثاني) قال القاضي انه علم أنه لو كان كمال المقصود ايصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافيا فلما رأى جمعا من الملائكة علم ان لهم غرضا آخر سوى ايصال البشارة فلا جرم قال فما خطبكم أيها المرسلون (الثالث) يمكن أن يقال انهم انما قالوا انا نبشرك بغلام عليم في معرض ازالة الخوف والوجل ألا ترى ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم ولو كان تمام المقصود من المجيء هو ذكر تلك البشارة لكانوا في أول ما دخلوا عليه ذكروا تلك البشارة فلما لم يكن الامر كذلك علم ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق انه ما كان مجيئهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألهم عن ذلك الغرض فقال فما خطبكم أيها المرسلون ثم حكى تعالى عن الملائكة انهم قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين وانما اقتصروا على هذا القدر لعلم ابراهيم عليه السلام بان الملائكة اذا أرسلوا الى المجرمين كان ذلك لاهلاكهم واستئصالهم وأيضا فقولهم الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين يدل على أن المراد بذلك الارسال اهلاك القوم أما قوله تعالى الا آل لوط فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه فان قيل قوله الا آل لوط هل هو استثناء منقطع أو متصل قلنا قال صاحب الكشاف ان كان هذا الاستثناء استثناء من قوم كان منقطعا لان القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ما كانوا مجرمين فاختلف الجنسان فوجب أن يكون الاستثناء منقطعا وان كان استثناء من الضمير في مجرمين كان متصلا كأنه قيل الى قوم قد أجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم كما قال فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ثم قال صاحب الكشاف ويختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين وذلك لان آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الارسال لان على هذا التقدير الملائكة أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة وما أرسلوا الى آل لوط أصلا وأما في المتصل فالملائكة أرسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء وأما قوله انا لمنجوهم أجمعين فاعلم أنه قرأ حمزة والكسائي منجوهم خفيفة والباقون مشددة وهما لغتان أما قوله تعالى الا امرأته قال صاحب الكشاف هذا استثناء من الضمير المجرور في قوله لمنجوهم وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء لان الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه كما لو قيل أهلكناهم الا آل لوط الا امرأته وكما لو قال المطلق لامرأته أنت طالق ثلاثا الا اثنتين الا واحدة وكما اذا قال المقر لفلان على عشرة دراهم الا ثلاثة الا درهما فأما في هذه الآية فقد اختلف الحكمان لان قوله الا آل لوط متعلق بقوله أرسلنا أو بقوله مجرمين وقوله الا امرأته قد تعلق بقوله منجوهم فكيف يكون هذا استثناء من استثناء وأما قوله قدرنا انها لمن الغابرين ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن معنى التقدير في اللغة جعل الشيء على مقدار غيره يقال قدر هذا الشيء بهذا أي اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أي جعلها على مقدار الكفاية ثم يفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه أي جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر وقيل في معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا وقيل قضينا والكل متقارب ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم قدرنا بتخفيف الدال ههنا وفي النمل وقرأ

لا يثنيه اللجام وفيه اشعار بكمال عتوهم وطغيانهم وقرئ يجمزون بمعنى يجمعون ويشتدون ومنه الجمازة (ومنهم من يلمزك) بكسر الميم وقرئ بضمها أي يعيبك سرا وقرئ يلمزك ويلامزك مبالغة (في الصدقات) أي في شأنها وقسمتها (فان أعطوا منها) بيان لفساد لمزهم وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أي ان أعطوا منها قدر ما يريدون (رضوا) بما وقع من القسمة واستحسنوها (وان لم يعطوا منها) ذلك المقدار (اذا هم يسخطون) أي يفاجؤن السخط واذا نائب مناب فاء الجزاء قيل نزلت الآية في أبي الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل وقيل في ابن ذي الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمي رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام ويلك ان لم أعدل فمن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم والاول هو الاظهر (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أي ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبي النفوس به وان قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه (وقالوا حسبنا الله) أي كفانا

الباقون فيهما بالتشديد قال الواحدى يقال قدرت الشئ وقدرته ومنه قراءة ابن كثير نحن قدرنا بينكم الموت خفيفا وقراءة الكسائى والذى قدر فهدى ثم قال والمشددة فى هذا المعنى أكثر استعمالا لقوله تعالى وقدر فيها أقواتها وقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا ﴿المسئلة الثالثة﴾ لقائل أن يقول لم أسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع أنه لله تعالى ولم لم يقولوا قدر الله تعالى (والجواب) انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لا هم وانما يريدون بذكر هذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا ههنا والله أعلم ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله انها لمن الغابرين فى موضع مفعول التقدير قضينا أنها تتخلف وتبقى مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون ولا تكون ممن يبقى مع لوط فتصل الى النجاة والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وانا لصادقون﴾ اعلم ان الملائكة لما بشروا ابراهيم بالولد واخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك الى لوط والى آله وأن لوطا وقومه ما عرفوا أنهم ملائكة الله فلهذا قال لهم انكم قوم منكرون وفى تأويله وجوه (الاول) انه انما وصفهم بأنه منكرون لانه عليه الصلاة والسلام ما عرفهم فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف أنهم دخلوا عليه لاجل شر يوصلونه اليه فقال هذه الكلمة (والثانى) أنهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف أن يهجم قومه عليه بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة (والثالث) أن النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون أى لا أعرفكم ولا أعرف انكم من أى الاقوام ولاى غرض دخلتم على فعند هذه الكلمة قالت الملائكة بل جئناك بما كانوا فيه يمترون أى بالعذاب الذى كانوا يشكون فى نزوله ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم وأتيناك بالحق قال الكلبى بالعذاب وقيل باليقين والامر الثابت الذى لا شك فيه وهو عذاب أولئك الاقوام ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم وانا لصادقون ﴿ قوله تعالى ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ قرئ فأسر بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى وروى صاحب الكشاف عن صاحب الاقليد فسر من السير والقطع آخر الليل قال الشاعر

افتحى الباب وانظرى فى النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

وقوله واتبع أدبارهم معناه اتبع آثار بناتك وأهلك وقوله ولا يلتفت منكم أحد الفائدة فيه أشياء (أحدها) لئلا يتخلف منكم أحد فيناله العذاب (وثانيها) لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء (وثالثها) معناه الاسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شئ (ورابعها) لو بقى منه متاع فى ذلك الموضع فلا يرجعن بسببه البتة وقوله وامضوا حيث تؤمرون قال ابن عباس يعنى الشام قال المفضل حيث يقول لكم جبريل وذلك لان جبريل عليه السلام أمرهم أن يمضوا الى قرية معينة أهلها ما عملوا مثل عمل قوم لوط وقوله وقضينا اليه عدى قضينا بالى لانه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل وأوحيناه اليه مقضيا مبتوتا ونظيره قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل وقوله ثم اقضوا الى ثم انه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله أن دابر هؤلاء مقطوع وفى ابهامه أولا وتفسيره ثانيا تفخيم للامر وتعظيم له وقرأ الاعمش ان بالكسر على الاستئناف كان قائلا قال أخبرنا عن ذلك الامر فقال ان دابر هؤلاء وفى قراءة ابن مسعود وقلنا ان دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعنى يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله مصبحين اى حال ظهور الصبح ﴿ قوله تعالى ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان فى ذلك لآية للمؤمنين﴾ اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاؤه الا أن القصة تدل على أنهم جاؤا دار لوط قيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن

فضله وصنعه بنا وماقسمه لنا (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) بعد هذا حسبنا نرجو ونؤمل (انا الى الله راغبون) فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيرا لهم (انما الصدقات) شروع فى تحقيق حقية ما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارف ورد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لاطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الانواع المختلفة (للفقراء والمساكين) أى مخصوصة بهؤلاء الاصناف الثمانية الآتية لا تتجاوزهم الى غيرهم كأنه قيل انما هى لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقة بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له أدنى شئ والمسكين من لا شئ له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس ولكل منهما وجه يدل عليه (والعاملين عليها) الساعين فى جمعها وتحصيلها (والمؤلفة قلوبهم) هم أصناف فمنهم أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم باجزال العطاء كعيينة بن حصن والاقرع بن حابس

أشتم رخبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط أخبرتهم بذلك وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين (الاول) قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون يقال فضحه يفضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار والمعنى ان الضيف يجب اكرامه فاذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك اهانة بي ثم أكد ذلك بقوله واتقوا الله ولا تخزون فأجابوه بقولهم أولم ننهك عن العالمين والمعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس اذا قصدناه بالفاحشة (والكلام الثاني) مما قاله لوط قوله هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين قيل المراد بناته من صلبه وقيل المراد نساء قومه لان رسول الامة يكون كالاب لهم وهو كقوله تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وفي قراءة أبي وهو أب لهم والكلام في هذه المباحث قد مر بالاستقصاء في سورة هود عليه السلام أما قوله لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) العمر والعمر واحد وسمي الرجل عمرا تفاؤلا أن يبقى ومنه قول ابن أحمر * ذهب الشباب وأخلق العمر * وعمر الرجل يعمر عمرا وعمرا فاذا أقسموا به قالوا لعمرك وعمرك فتحوا العين لا غير قال الزجاج لان الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمري ولعمرك فالتزموا الاخف (المسئلة الثانية) في قوله لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون قولان (الاول) ان المراد أن الملائكة قالت للوط عليه السلام لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون أي في غوايتهم يعمهون أي يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك (والثاني) ان الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى قال النحويون ارتفع قوله لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمي وحذف الخبر لان في الكلام دليلا عليه وباب القسم يحذف منه الفعل نحو بالله لافعلن والمعنى أحلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف ثم قال تعالى فأخذتهم الصيحة أي صيحة جبريل عليه السلام قال أهل المعاني ليس في الآية دلالة على أن تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فان ثبت ذلك بدليل قوي قيل به والا فليس في الآية دلالة الا على أنه جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله مشرقين يقال شرق الشارق يشرق شروقا لكل ما طلع من جانب الشرق ومنه قولهم ما ذر شارق أي طلع طالع فقوله مشرقين أي داخلين في الشروق يقال أشرق الرجل اذا دخل في الشروق وهو بزوغ الشمس * واعلم أن الآية تدل على انه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب (أحدها) الصيحة الهائلة المنكرة (وثانيها) أنه جعل عاليها سافلها (وثالثها) انه أمطر عليهم حجارة من سجيل وكل هذه الاحوال قد مر تفسيرها في سورة هود ثم قال تعالى ان في ذلك لآيات للمتوسمين يقال توسمت في فلان خيرا أي رأيت فيه أثرا منه وتفرسته فيه واختلفت عبارات المفسرين في تفسير المتوسمين قيل المتفرسين وقيل الناظرين وقيل المتفكرين وقيل المعتبرين وقيل المتبصرين قال الزجاج حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشئ وصفته وعلامته والمتوسم الناظر في السمة الدالة تقول توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته فيه ثم قال وانها لبسبيل مقيم الضمير في قوله وانها عائد الى مدينة قوم لوط وقد سبق ذكرها في قوله وجاء أهل المدينة وقوله لبسبيل مقيم أي هذه القرى وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف والذين يمرون من الحجاز الى الشام يشاهدونها ثم قال ان في ذلك لآية للمؤمنين أي كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف أن ذلك انما كان لاجل أن الله تعالى انتقم لانبيائه من أولئك الجهال أما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وان كان أصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين﴾ اعلم أن هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة (فأولها) قصة آدم وابليس (وثانيها) قصة ابراهيم ولوط (وثالثها) هذه القصة وأصحاب الايكة هم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض فكذبوا شعيبا فأهلكهم الله تعالى

والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب باعطائهم اسلام نظرائهم ولعل الصنف الاول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس الذي هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشئ منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة وقد سقط سهم هؤلاء بالاجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الاسلام فلما أعزه الله عز وعلا وأعلى كلمته استغنى عن ذلك (وفي الرقاب) أي وللصرف في فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشئ منها على أداء نجومهم وقيل بأن يفدى الاسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأياما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما في الوجهين الاولين أو بعدم ثبوته رأسا كما في الوجه الاخير أو للاشعار برسوخهم في استحقاق الصدقة لما أن في للظرفية المنبئة عن احاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها (والغارمين) أي الذين تداينوا لانفسهم في غير معصية اذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك عند الشافعي رضي الله عنه من غرم لاصلاح ذات البين واطفاء النائرة بين القبيلتين وان كانوا أغنياء (وفي سبيل الله) أي فقراء الغزاة والحجيج والمنقطع بهم (وابن السبيل) أي المسافر المنقطع

بعذاب يوم الظلة وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والايكة الشجر الملتف يقال أيكة وايك كشجرة وشجر قال ابن عباس الايك هو شجر المقل وقال الكلبي الأيكة الغيضة وقال الزجاج هؤلاء أهل موضع كان ذا شجر قال الواحدي ومعنى ان واللام للتوكيد وان ههنا هي المخففة من الثقيلة وقوله فانتقمنا منهم قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله وانهما فيه قولان (الاوّل) المراد قرى قوم لوط عليه السلام والايكة (والقول الثاني) الضمير للايكة ومدين لان شعيبا عليه السلام كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله لبامام مبين أي بطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به قال الفراء والزجاج انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع قال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذي يريده وقوله مبين يحتمل انه مبين في نفسه ويحتمل أنه مبين لغيره لان الطريق يهدي الى المقصد ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ هذا هو القصة الرابعة وهي قصة صالح قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وقوله المرسلين المراد منه صالح وحده ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل وقوله وآتيناهم آياتنا يريد الناقة وكان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها عند خروجها وكثرة لبنها وأضاف الآيات اليهم وان كانت الناقة آية لصالح لانها آيات رسولهم وقوله فكانوا عنها معرضين يدل على أن النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم وقوله وكانوا ينحتون من الجبال قد ذكرنا كيفية ذلك النحت في سورة الاعراف وقوله آمنين يريد من عذاب الله وقال الفراء آمنين أن يقع سقفهم عليهم وقوله فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون أي ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الاموال والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار فكأنه قيل الاهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم فأجاب عنه باني انما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة فاذا تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة اهلاكهم وتطهير وجه الارض منهم وهذا النظم حسن الا أنه انما يستقيم على قول المعتزلة قال الجبائي دلت الآية على أنه تعالى ما خلق السموات والارض وما بينهما الا حقا ويكون الحق لا يكون الباطل لان كل ما فعل باطلا وأريد بفعله كون الباطل لا يكون حقا ولا يكون مخلوقا بالحق وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والارض من الكفر والمعاصي باطل واعلم ان أصحابنا قالوا هذه الآية تدل على أنه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد لانها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والارض ولكل ما بينهما ولا شك أن أفعال العباد بينهما فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه وفي الآية وجه آخر في النظم وهو أن المقصود من ذكر هذه القصص تصبير الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فانه اذا سمع أن الامم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله تعالى بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد صلى الله عليه وسلم ثم انه تعالى لما بين انه أنزل العذاب على الامم السالفة فعند هذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وان الساعة لآتية وان الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق والعدل والانصاف فكيف يليق بحكمته اهمال أمرك ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك في الصفح عن سيآتهم فقال فاصفح الصفح الجميل أي فاعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء وقيل هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد لان المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا ثم قال ان ربك هو الخلاق العليم ومعناه انه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك واذا كان كذلك فانما خلقهم مع هذا التفاوت ومع العلم بذلك

عن ماله وتكرير الظرف في الآخرين للايذان بزيادة فضلهما في الاستحقاق أولما ذكر من ايرادهما بعنوان غير صحيح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته الى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لان اللام لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لاثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضي الله عنهم وعند الشافعي لا يجوز الا أن يصرف الى ثلاثة من تلك الاصناف (فريضة من الله) مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية أي فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أي فرض الله ذلك فريضة أو حال من الضمير المستكن في قوله للفقراء أي انما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أي مفروضة (والله عليم) بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم (حكيم) لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة من الامور الحسنة التي من جملتها سوق الحقوق الى مستحقيها (ومنهم الذين يؤذون النبي) نزلت في فرقة من المنافقين قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغي فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول انما محمد أذن سامعة وذلك قوله عز وجل

التفاوت أما على قول أهل السنة فلمحض المشيئة والارادة وأما على قول المعتزلة فلاجل المصلحة والحكمة والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾ اعلم انه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بها لان الانسان اذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصفح والتجاوز وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان قوله آتيناك سبعا يحتمل أن يكون سبعا من الآيات وأن يكون سبعا من السور وأن يكون سبعا من الفوائد وليس في اللفظ ما يدل على التعيين وأما المثاني فهو صيغة جمع واحده مثناة والمثناة كل شيء يثنى أي يجعل اثنين من قولك ثنيت الشيء اذا عطفته أو ضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثاني الوادي معاطفه اذا عرفت هذا فنقول سبعا من المثاني مفهومه سبعة أشياء من جنس الاشياء التي تثنى ولا شك أن هذا القدر مجمل ولا سبيل الى تعيينه الا بدليل منفصل وللناس فيه أقوال (الاول) وهو قول أكثر المفسرين انه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع المثاني رواه أبو هريرة والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات وأما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه (الاول) انها تثنى في كل صلاة بمعنى انها تقرأ في كل ركعة (والثاني) قال الزجاج سميت مثاني لانها يثنى بعدها ما يقرأ معها (الثالث) سميت آيات الفاتحة مثاني لانها قسمت قسمين اثنين والدليل عليه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين والحديث مشهور (الرابع) سميت مثاني لانها قسمان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء (الخامس) سميت الفاتحة بالمثاني لانها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ومرة بالمدينة (السادس) سميت بالمثاني لان كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وفي قراءة عمر غير المغضوب عليهم وغير الضالين (السابع) قال الزجاج سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه * واعلم انا اذا حملنا قوله سبعا من المثاني على سورة الفاتحة فههنا أحكام (الاول) نقل القاضي عن أبي بكر الاصم أنه قال كان ابن مسعود لا يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى أنها ليست من القرآن * وأقول لعل حجته فيه أن السبع المثاني لما ثبت أنه هو الفاتحة ثم انه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب أن يكون السبع المثاني غير القرآن الا أن هذا يشكل بقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وكذلك قوله وملائكته وجبريل وميكال وللخصم أن يجيب بانه لا يبعد أن يذكر الكل ثم يعطف عليه ذكر بعض أجزائه وأقسامه لكونه أشرف الاقسام أما اذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور أولا مغايرا للمذكور ثانيا وههنا ذكر السبع المثاني ثم عطف عليه القرآن العظيم فوجب حصول المغايرة والجواب الصحيح أن بعض الشيء مغاير لمجموعه فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف والله أعلم (الحكم الثاني) انه لما كان المراد بقوله سبعا من المثاني هو الفاتحة دل على ان هذه السورة أفضل سور القرآن من وجهين (أحدهما) أن افرادها بالذكر مع كونها جزأ من أجزاء القرآن لا بد وأن يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة (والثاني) انه تعالى لما أنزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها واذا ثبت هذا فنقول لما رأينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب على قراءتها في جميع الصلوات طول عمره وما أقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على انه يجب على المكلف أن يقرأها في صلاته وأن لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وأن يحترز عن هذا الابدال فان فيه خطرا عظيما والله أعلم ﴿القول الثاني﴾ في تفسير قوله سبعا من المثاني انها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي

(ويقولون هو أذن) أي يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به وانما قالوه لانه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا (قل أذن خير لكم) من قبيل رجل صدق في الدلالة على المبالغة في الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الاذن ويجوز أن يكون المراد أذنا في الخير والحق وفيما ينبغي سماعه وقبوله لا في غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه أي هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرئ أذن بسكون الذال فيهما وقرئ أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان وقوله عز وجل (يؤمن بالله) تفسير لكونه أذن خير لهم أي يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الادلة الموجبة له وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى (ويؤمن للمؤمنين) أي يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص واللام مزيدة للتفرقة بين الايمان المشهور وبين الايمان بمعنى التسليم والتصديق كما في قوله تعالى أنؤمن لك الخ وقوله تعالى فما آمن لموسى الخ (ورحمة) عطف على أذن خير أي وهو رحمة بطريق اطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة (للذين آمنوا

البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة معا قالوا وسميت هذه السور مثانى لان الفرائض والحدود والامثال والعبر ثنيت فيها وأنكر الربيع هذا القول وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية وما نزل شئ منها في مكة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها وأجاب قوم عن هذا الاشكال بأن الله تعالى أنزل القرآن كله الى السماء الدنيا ثم أنزله على نبيه منها نجوما فلما أنزله الى السماء الدنيا وحكم بانزاله عليه فهو من جملة ما آتاه وان لم ينزل عليه بعد ولقائل أن يقول انه تعالى قال ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهذا الكلام انما يصدق اذا وصل ذلك الشئ الى محمد صلى الله عليه وسلم فاما الذى أنزله الى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد الى محمد عليه الصلاة والسلام فهذا الكلام لا يصدق فيه وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بانزاله على محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك جاريا مجرى ما نزل عليه فهذا أيضا ضعيف لان اقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر ﴿والقول الثالث﴾ فى تفسير السبع المثانى انها هى السور التى هى دون الطوال والمئين وفوق المفصل واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المئين مكان الانجيل وأعطانى المثانى مكان الزبور وفضلنى ربى بالمفصل قال الواحدى والقول فى تسمية هذه السور مثانى كالقول فى تسمية الطوال مثانى ✽ وأقول ان صح هذا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا غبار عليه وان لم يصح فهذا القول مشكل لانا بينا أن المسمى بالسبع المثانى يجب أن يكون أفضل من سائر السور وأجمعوا على ان هذه السور التى سموها بالمثانى ليست أفضل من غيرها فيمتنع حمل السبع المثانى على تلك السور ﴿والقول الرابع﴾ ان السبع المثانى هو القرآن كله وهو منقول عن ابن عباس فى بعض الروايات وقول طاوس قالوا ودليل هذا القول قوله تعالى كتابا متشابها مثانى فوصف كل القرآن بكونه مثانى ثم اختلف القائلون بهذا القول فى أنه ما المراد بالسبع وما المراد بالمثانى أما السبع فذكروا فيه وجوها (أحدها) ان القرآن سبعة أسباع (وثانيها) أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر وأحوال العالم والقصص والتكاليف (وثالثها) أنه مشتمل على الامر والنهى والخبر والاستخبار والنداء والقسم والامثال وأما وصف كل القرآن بالمثانى فلانه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف وهذا القول ضعيف أيضا لانه لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن لكان قوله والقرآن العظيم عطفا للشئ على نفسه وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه انما حسن ادخال حرف العطف فيه لاختلاف اللفظين كقول الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام ✽ وليث الكتيبة فى المزدحم

واعلم أن هذا وان كان جائزا لاجل وروده فى هذا البيت الا أنهم أجمعوا على أن الاصل خلافه ﴿والقول الخامس﴾ يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة لانها سبع آيات ويكون المراد بالمثانى كل القرآن ويكون التقدير ولقد آتيناك سبع آيات هى الفاتحة وهى من جملة المثانى الذى هو القرآن وهذا القول عين الاول والتفاوت ليس الا بقليل والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ لفظة من فى قوله سبعا من المثانى قال الزجاج فيها وجهان (أحدهما) أن تكون للتبعيض من القرآن أى ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التى يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز أن تكون من صلة والمعنى آتيناك سبعا هى المثانى كما قال فاجتنبوا الرجس من الاوثان المعنى اجتنبوا الاوثان لا أن بعضها رجس والله أعلم ✽ أما قوله تعالى لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم فاعلم انه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو أنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه اليها رغبة فيها وفى مد العين أقوال (الاول) كانه قيل له انك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات الى الدنيا ومنه الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال أبو بكر من أوتى القرآن فرأى ان أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وقيل وافت من بعض البلاد سبع

منكم) أى للذين أظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم واسناد الايمان اليهم بصيغة الفعل بعد نسبته الى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للايذان بان ايمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرئ بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة (والذين يؤذون رسول الله) بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه اشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى فان يتوبوا يك خيرا لهم (لهم) بما يجترؤن عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه بناء الحكم على الموصول (عذاب أليم) وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الاسناد باثبات العذاب الاليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول ما لا يخفى من المبالغة وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا الى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة الى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (يحلفون بالله لكم) الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن

قوافل

قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولانفقناها فى سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه القوافل السبع (القول الثانى) قال ابن عباس لاتمدن عينيك أى لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقرر الواحدى هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشئ اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا وروى أنه نظر الى نعم بنى المصطلق وقد عبست فى أبوالها وأبعارها فتقنع فى ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست فى أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى أحسن ما تكون (والقول الثالث) قال بعضهم ولا تمدن عينيك أى لا تحسدن أحدا على ما أوتى من الدنيا قال القاضى هذا بعيد لان الحسد من كل أحد قبيح لانه ارادة لزوال نعم الغير عنه وذلك يجرى مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه وذلك من كل أحد قبيح فكيف يحسن تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم به * وأما قوله تعالى أزواجا منهم قال ابن قتيبة أى أصنافا من الكفار والزوج فى اللغة الصنف ثم قال ولا تحزن عليهم ان لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الاسلام وينتعش بهم المؤمنون والحاصل أن قوله ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم نهى له عن الالتفات الى أموالهم وقوله ولا تحزن عليهم نهى له عن الالتفات اليهم وان يحصل لهم فى قلبه قدر ووزن ثم قال واخفض جناحك للمؤمنين الخفض معناه فى اللغة نقيض الرفع ومنه قوله تعالى فى صفة القيامة خافضة رافعة أى انها تخفض أهل المعاصى وترفع أهل الطاعات فالخفض معناه الوضع وجناح الانسان يده قال الليث يدا الانسان جناحاه ومنه قوله واضمم اليك جناحك من الرهب وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين ونظيره قوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وقال فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم * قوله تعالى ﴿وقل انى أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد فى الدنيا وخفض الجناح للمؤمنين أمره بأن يقول للقوم انى أنا النذير المبين فيدخل تحت كونه نذيرا كونه مبلغا لجميع التكاليف لان كل ما كان واجبا ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حراما ترتب على فعله عقاب فكان الاخبار بحصول هذا العقاب داخلا تحت لفظ النذير ويدخل تحته أيضا كونه شارحا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار ثم أردفه بكونه مبينا ومعناه كونه آتيا فى كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية ثم قال بعده كما أنزلنا على المقتسمين وفيه بحثان (البحث الاول) اختلفوا فى أن المقتسمين من هم وفيه أقوال (الاول) قال ابن عباس هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب عددهم من أربعين وقال مقاتل بن سليمان كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لا تغتروا بالخارج منا والمدعى للنبوة فانه مجنون وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر فأنزل الله تعالى بهم خزيا فماتوا شر ميتة والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين (والقول الثانى) وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات ان المقتسمين هم اليهود والنصارى واختلفوا فى أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين فقيل لانهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقى وقال عكرمة لانهم اقتسموا القرآن استهزاء به فقال بعضهم سورة كذا لى وقال بعضهم سورة كذا لى وقال مقاتل بن حيان اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين (والقول الثالث) فى تفسير المقتسمين قال ابن زيد هم قوم صالح تقاسموا لنبيتنه وأهله فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم فعلى هذا الاقتسام من القسم لا من القسمة وهو اختيار ابن قتيبة (البحث الثانى) أن قوله كما أنزلنا على المقتسمين يقتضى تشبيه شئ بذلك فما ذلك الشئ والجواب عنه من

ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالايمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أى يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل اليكم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار (ليرضوكم) بذلك وافراد ارضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم ارضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بان ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة الى ارضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم انما لم يكذبهم رفقا بهم وسترا لعيوبهم لا عن رضا بما فعلوه كما أشير اليه (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى أحق بالارضاء ولا يتسنى ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام فى باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا واما ما أتوا به من الايمان الفاجرة فانما يرضى به من انحصر طريق علمه فى الاخبار الى أن يجئ الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أى يحلفون لكم لارضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالارضاء منكم أى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يعنيهم وافراد الضمير فى يرضوه اما للايذان بان رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاؤه عليه الصلاة والسلام ارضاء له تعالى لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله واما لانه

البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة معا قالوا وسميت هذه السور مثانى لان الفرائض والحدود والامثال والعبر ثنيت فيها وأنكر الربيع هذا القول وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية وما نزل شئ منها فى مكة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها وأجاب قوم عن هذا الاشكال بأن الله تعالى أنزل القرآن كله الى السماء الدنيا ثم أنزله على نبيه منها نجوما فلما أنزله الى السماء الدنيا وحكم بانزاله عليه فهو من جملة ما آتاه وان لم ينزل عليه بعد ولقائل أن يقول انه تعالى قال ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهذا الكلام انما يصدق اذا وصل ذلك الشئ الى محمد صلى الله عليه وسلم فاما الذى أنزله الى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد الى محمد عليه الصلاة والسلام فهذا الكلام لا يصدق فيه وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بانزاله على محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك جاريا مجرى ما نزل عليه فهذا أيضا ضعيف لان اقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر (والقول الثالث) فى تفسير السبع المثانى انها هى السور التى هى دون الطوال والمئين وفوق المفصل واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المئين مكان الانجيل وأعطانى المثانى مكان الزبور وفضلنى ربى بالمفصل قال الواحدى والقول فى تسمية هذه السور مثانى كالقول فى تسمية الطوال مثانى * وأقول ان صح هذا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا غبار عليه وان لم يصح فهذا القول مشكل لانا بينا أن المسمى بالسبع المثانى يجب أن يكون أفضل من سائر السور وأجمعوا على ان هذه السور التى سموها بالمثانى ليست أفضل من غيرها فيمتنع حمل السبع المثانى على تلك السور (والقول الرابع) ان السبع المثانى هو القرآن كله وهو منقول عن ابن عباس فى بعض الروايات وقول طاوس قالوا ودليل هذا القول قوله تعالى كتابا متشابها مثانى فوصف كل القرآن بكونه مثانى ثم اختلف القائلون بهذا القول فى أنه ما المراد بالسبع وما المراد بالمثانى أما السبع فذكروا فيه وجوها (أحدها) ان القرآن سبعة أسباع (وثانيها) أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر وأحوال العالم والقصص والتكاليف (وثالثها) أنه مشتمل على الامر والنهى والخبر والاستخبار والنداء والقسم والامثال وأما وصف كل القرآن بالمثانى فلانه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف وهذا القول ضعيف أيضا لانه لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن لكان قوله والقرآن العظيم عطفا للشئ على نفسه وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه انما حسن ادخال حرف العطف فيه لاختلاف اللفظين كقول الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

واعلم أن هذا وان كان جائزا لاجل وروده فى هذا البيت الا أنهم أجمعوا على أن الاصل خلافه (والقول الخامس) يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة لانها سبع آيات ويكون المراد بالمثانى كل القرآن ويكون التقدير ولقد آتيناك سبع آيات هى الفاتحة وهى من جملة المثانى الذى هو القرآن وهذا القول عين الاول والتفاوت ليس الا بقليل والله أعلم (المسئلة الثانية) لفظة من فى قوله سبعا من المثانى قال الزجاج فيها وجهان (أحدهما) أن تكون للتبعيض من القرآن أى ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التى يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز أن تكون من صلة والمعنى آتيناك سبعا هى المثانى كما قال فاجتنبوا الرجس من الاوثان المعنى اجتنبوا الاوثان لا أن بعضها رجس والله أعلم * أما قوله تعالى لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم فاعلم أنه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو أنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه اليها رغبة فيها وفى مد العين أقوال (الاول) كأنه قيل له انك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات الى الدنيا ومنه الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال أبو بكر من أوتى القرآن فرأى ان أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وقيل وافت من بعض البلاد سبع

منكم) أى للذين أظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك استارهم واسناد الايمان اليهم بصيغة الفعل بعد نسبته الى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للايذان بان ايمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرئ بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة (والذين يؤذون رسول الله) بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه اشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى فان يتوبوا يك خيرا لهم (لهم) بما يجترؤن عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه بناء الحكم على الموصول (عذاب أليم) وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الاسناد باثبات العذاب الاليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول ما لا يخفى من المبالغة وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا الى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة الى جنابه عز وجل

قوافل لليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولانفقناها في سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع ﴿القول الثاني﴾ قال ابن عباس لاتمدن عينيك أي لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقرر الواحدي هذا المعنى فقال انما يكون ماداعينيه الى الشئ اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان صلى الله عليه وسلم لاينظر الى مايستحسن من متاع الدنيا وروى أنه نظر الى نعم بني المصطلق وقد عبست في أبوالها وأبعارها فتقنع في ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست في أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ماتكون ﴿والقول الثالث﴾ قال بعضهم ولاتمدن عينيك أي لاتحسدن أحدا على ماأوتي من الدنيا قال القاضي هذا بعيد لان الحسد من كل أحد قبيح لانه ارادة لزوال نعم الغير عنه وذلك يجري مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه وذلك من كل أحد قبيح فكيف يحسن تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم به ＊وأما قوله تعالى أزواجا منهم قال ابن قتيبة أي أصنافا من الكفار والزوج في اللغة الصنف ثم قال ولاتحزن عليهم ان لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الاسلام وينتعش بهم المؤمنون والحاصل أن قوله ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم نهي له عن الالتفات الى أموالهم وقوله ولاتحزن عليهم نهي له عن الالتفات اليهم وان يحصل لهم في قلبه قدر ووزن ثم قال واخفض جناحك للمؤمنين الخفض معناه في اللغة نقيض الرفع ومنه قوله تعالى في صفة القيامة خافضة رافعة أي انها تخفض أهل المعاصي وترفع أهل الطاعات فالخفض معناه الوضع وجناح الانسان يده قال الليث يدا الانسان جناحاه ومنه قوله واضمم اليك جناحك من الرهب وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين ونظيره قوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وقال في صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم ＊قوله تعالى ﴿وقل اني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد في الدنيا وخفض الجناح للمؤمنين أمره بأن يقول للقوم اني أنا النذير المبين فيدخل تحت كونه نذيرا كونه مبلغا لجميع التكاليف لان كل ما كان واجبا ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حراما ترتب على فعله عقاب فكان الاخبار بحصول هذا العقاب داخلا تحت لفظ النذير ويدخل تحته أيضا كونه شارحا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار ثم أردفه بكونه مبينا ومعناه كونه آتيا في كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية ثم قال بعده كما أنزلنا على المقتسمين وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ اختلفوا في أن المقتسمين من هم وفيه أقوال (الاول) قال ابن عباس هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب عددهم من أربعين وقال مقاتل بن سليمان كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لاتغتروا بالخارج منا والمدعي للنبوة فانه مجنون وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أوكاهن أوشاعر فأنزل الله تعالى بهم خزيا فماتوا شرميتة والمعنى أنذرتكم مثل مانزل بالمقتسمين ﴿والقول الثاني﴾ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات ان المقتسمين هم اليهود والنصارى واختلفوا في أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين فقيل لانهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي وقال عكرمة لانهم اقتسموا القرآن استهزاء به فقال بعضهم سورة كذا لي وقال بعضهم سورة كذا لي وقال مقاتل بن حيان اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين ﴿والقول الثالث﴾ في تفسير المقتسمين قال ابن زيد هم قوم صالح تقاسموا لنبيتنه وأهله فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم فعلى هذا الاقتسام من القسم لامن القسمة وهو اختيار ابن قتيبة ﴿البحث الثاني﴾ أن قوله كما أنزلنا على المقتسمين يقتضي تشبيه شئ بذلك فما ذلك الشئ والجواب عنه من

ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالايمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل اليكم مما يورث أذاة النبي صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل في هذا الاعتذار (ليرضوكم) بذلك وافراد ارضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم ارضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بان ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة الى ارضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم انما لم يكذبهم رفقا بهم وسترا لعيوبهم لاعن رضا بما فعلوه كما أشير اليه (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي أحق بالارضاء ولا يتسنى ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام في باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا واما ما أتوا به من الايمان الفاجرة فانما يرضى به من انحصر طريق علمه في الاخبار الى أن يجيء الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أي يحلفون لكم لارضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالارضاء منكم أي يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لايعنيهم وافراد الضمير في يرضوه اما للايذان بان رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاؤه عليه الصلاة والسلام ارضاء له تعالى لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله واما لانه

ربك في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة والله أعلم * تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم

﴿سورة النحل مكية غير ثلاث آيات في آخرها وحكى الاصم عن بعضهم ان كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدني وماسواه فمكي وعن قتادة بالعكس واعلم ان هذه السورة تسمى سورة النعم وهي مائة وعشرون وثمان آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون﴾ فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن معرفة تفسير هذه الآية مرتبة على سؤالات ثلاثة (فالسؤال الاول) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل في يوم بدر وتارة بعذاب يوم القيامة وهو الذي يحصل عند قيام الساعة ثم ان القوم لما لم يشاهدوا شيأ من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الاتيان بذلك العذاب وقالوا اللهم ائتنا به وروى أنه لما نزل قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ماتعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل قوله اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الايام قالوا يامحمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل قوله أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم فنزل قوله فلا تستعجلوه والحاصل انه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيأ نسبوه الى الكذب فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله أتى أمر الله فلا تستعجلوه وفي تقرير هذا الجواب وجهان (الاول) انه وان لم يأت ذلك العذاب الا أنه كان واجب الوقوع والشئ اذا كان بهذه الحالة والصفة فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاغاثة وقرب حصولها جاءك الغوث فلا تجزع (والوجه الثاني) وهو أن يقال ان أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع فأما المحكوم به فانما لم يقع لانه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود والحاصل كأنه قيل أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الازل الى الابد فصح قولنا أتى أمر الله الا أن المحكوم به والمأمور به انما لم يحصل لانه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت (السؤال الثاني) قالت الكفار هب انا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من أنه تعالى حكم بانزال العذاب علينا اما في الدنيا واما في الآخرة الا انا نعبد هذه الاصنام فانها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الاصنام فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله سبحانه وتعالى عما يشركون فنزه نفسه عن شركة الشركاء والاضداد والانداد وأن يكون لاحد من الارواح والاجسام أن يشفع عنده الا باذنه وما في قوله عما يشركون يجوز أن تكون مصدرية والتقدير سبحانه وتعالى عن اشراكهم ويجوز أن تكون بمعنى الذي أي سبحانه وتعالى عن هذه الاصنام التي جعلوها شركاء لله لانها جمادات خسيسة فأي مناسبة بينها وبين أدون الموجودات فضلا عن أن يحكم بكونها شركاء لمدبر الارض والسموات (السؤال الثالث) هب انه تعالى قضى على بعض عبيده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الاسرار التي لا يعلمها الا الله وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته فأجاب الله تعالى عنه بقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون وتقرير هذا الجواب انه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ الى سائر الخلق ان اله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين أنهم ان فعلوا ذلك

يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئهم اياهم بما في قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم لا اطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنها تخبرهم بها أو المراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحهم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضميران الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالي بالتفكيك عند ظهور الامر بعود المعنى اليه أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم قال أبو مسلم كان اظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فانهم كانوا اذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شئ ويقول انه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزؤن به ولذلك قيل (قل استهزؤا) أي افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد (ان الله مخرج) أي من القوة الى الفعل أو من الكمون الى البروز (ما تحذرون)

فازوا بخيرى الدنيا والآخرة وان تمردوا وقعوا فى شر الدنيا والآخرة فبهذا الطريق صار مخصوصا بهذه المعارف من دون سائر الخلق وظهر بهذا الترتيب الذى لخصناه أن هذه الآيات منتظمة على أحسن الوجوه والله أعلم وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى ينزل بالياء وكسر الزاى وتشديدها والملائكة بالنصب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل بضم الياء وكسر الزاى وتخفيفها والاول من التفعيل والثانى من الافعال وهما لغتان ﴿المسئلة الثانية﴾ روى عن عطاء عن ابن عباس قال يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدى وتسمية الواحد باسم الجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا مقدما جائز كقوله تعالى انا أرسلنا نوحا الى قومه وانا أنزلناه وانا نحن نزلنا الذكر وفى حق الناس كقوله الذين قال لهم الناس وفيه قول آخر سيأتى شرحه بعد ذلك وقوله بالروح من أمره فيه قولان (الاول) أن المراد من الروح الوحى وهو كلام الله ونظيره قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقوله يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده قال أهل التحقيق الجسد موات كثيف مظلم فاذا اتصل به الروح صار حيا لطيفا نورانيا فظهرت آثار النور فى الحواس الخمس ثم الروح أيضا ظلمانية جاهلة فاذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية كما قال تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ثم العقل أيضا ليس بكامل النورانية والصفاء والاشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالم الارواح والاجساد وعالم الدنيا والآخرة ثم ان هذه المعارف الشريفة الالهية لا تكمل ولا تصفو الا بنور الوحى والقرآن اذا عرفت هذا فنقول القرآن والوحى به تكمل المعارف الالهية والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل والعقل به يكمل جوهر الروح والروح به يكمل حال الجسد وعند هذا يظهر أن الروح الاصلى الحقيقى هو الوحى والقرآن لان به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة ونوم الغفلة وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية الى أوج الملكية فظهر أن اطلاق لفظ الروح على الوحى فى غاية المناسبة والمشاكلة ومما يقوى ذلك انه تعالى أطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام فى قوله نزل به الروح الامين على قلبك وعلى عيسى عليه السلام فى قوله روح الله وانما حسن هذا الاطلاق لانه حصل بسبب وجودهما حياة القلب وهى الهداية والمعارف فلما حسن اطلاق اسم الروح عليهما لهذا المعنى فلان يحسن اطلاق لفظ الروح على الوحى والتنزيل كان ذلك أولى ﴿والقول الثانى﴾ فى هذه الآية وهو قول أبى عبيدة ان الروح ههنا جبريل عليه السلام والباء فى قوله بالروح بمعنى مع كقولهم خرج فلان بثيابه أى مع ثيابه وركب الامير بسلاحه أى مع سلاحه فيكون المعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل والاول أقرب وتقرير هذا الوجه أنه سبحانه وتعالى ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جبريل وحده بل فى أكثر الاحوال كان ينزل مع جبريل أفواجا من الملائكة ألا ترى ان فى يوم بدر وفى كثير من الغزوات كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة وكان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ملك الجبال وتارة ملك البحار وتارة رضوان وتارة غيرهم وقوله من أمره يعنى ان ذلك التنزيل والنزول لا يكون الا بأمر الله تعالى ونظيره قوله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك وقوله لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وقوله وهم من خشيته مشفقون وقوله يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وقوله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فكل هذه الآيات دالة على أنهم لا يقدمون على عمل من الاعمال الا بأمر الله تعالى واذنه وقوله على من يشاء من عباده يريد الانبياء الذين خصهم الله تعالى برسالته وقوله أن انذروا قال الزجاج أن بدل من الروح والمعنى ينزل الملائكة بأن أنذروا أى أعلموا الخلائق أنه لا اله الا أنا والانذار هو الاعلام مع التخويف ﴿المسئلة الثالثة﴾ فى الآية فوائد ﴿الفائدة الاولى﴾ أن وصول الوحى من الله تعالى الى الانبياء لا يكون الا بواسطة الملائكة ومما يقوى ذلك أنه تعالى قال فى آخر سورة البقرة والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فبدأ بذكر الله سبحانه ثم أتبعه بذكر الملائكة لانهم هم الذين يتلقون الوحى من الله ابتداء من غير واسطة وذلك الوحى هو الكتب ثم ان الملائكة

أى ما تحذرونه من انزال السورة ومن مخازيكم ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملا الناس والتأكيد لرد انكارهم بذلك لا لدفع ترددهم فى وقوع المحذور اذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة (ولئن سألتهم) عما قالوا (ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزؤن بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصورها هيهات هيهات فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبى الله لا والله ما كنا فى شئ من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شئ مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر (قل) غير ملتفت الى اعتذارهم ناعيا عليهم جناياتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخا لهم على اخطائهم موقع الاستهزاء (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك الا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته (لا تعتذروا) لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فانه معلوم الكذب بين البطلان (قد كفرتم) أظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله عليه

يوصلون ذلك الوحي الى الانبياء فلاجرم كان الترتيب الصحيح هو الابتداء بذكر الله تعالى ثم بذكر الملائكة ثم بذكر الكتب وفي الدرجة الرابعة بذكر الرسل اذا عرفت هذا فنقول اذا أوحى الله تعالى الى الملك فعلم ذلك الملك بأن ذلك الوحي وحي الله علم ضروري أو استدلالي وبتقدير أن يكون استدلاليا فكيف الطريق اليه وأيضا الملك اذا بلغ ذلك الوحي الى الرسول فعلم الرسول بكونه صادقا لا شيطانا رجيما ضروري أو استدلالي فان كان استدلاليا فكيف الطريق اليه فهذه مقامات ضيقة وتمام العلم بها لا يحصل الا بالبحث عن حقيقة الملك وكيفية وحي الله اليه وكيفية تبليغ الملك ذلك الوحي الى الرسول فاما اذا أجريناه هذه الامور على الكلمات المألوفة صعب المرام وزال النظام وذلك لان آيات القرآن ناطقة بأن هذا الوحي والتنزيل انما حصل من الملائكة ونقول هب ان آيات القرآن لم تدل على ذلك الا أن احتمال كون الامر كذلك قائم في بديهة العقل واذا عرفت هذا فنقول لا نعلم كون جبريل عليه السلام صادقا معصوما عن الكذب والتلبيس الا بالدلائل السمعية وصحة الدلائل السمعية موقوفة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وصدقه يتوقف على ان هذا القرآن معجز من قبل الله تعالى لا من قبل شيطان خبيث والعلم بذلك يتوقف على العلم أن جبريل صادق محق مبرأ عن التلبيس وعن أفعال الشيطان وحينئذ يلزم الدور فهذا مقام صعب أما اذا عرفنا حقيقة النبوة وعرفنا حقيقة الوحي زالت هذه الشبهة بالكلية والله أعلم (المسئلة الرابعة) هذه الآية تدل على أن الروح المشار اليها بقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره ليس الا المجرد قوله لا اله الا أنا فاتقون وهذا كلام حق لان مراتب السعادات البشرية أربعة أولها النفسانية وثانيها البدنية وفي المرتبة الثالثة الصفات البدنية التي لا تكون من اللوازم وفي المرتبة الرابعة الامور المنفصلة عن البدن (أما المرتبة الاولى) وهي الكمالات النفسانية فاعلم أن النفس لها قوتان (احداهما) استعدادها لقبول صور الموجودات من عالم الغيب وهذه القوة هي القوة المسماة بالقوة النظرية وسعادة هذه القوة في حصول المعارف وأشرف المعارف وأجلها معرفة أنه لا اله الا هو واليه الاشارة بقوله أن انذروا أنه لا اله الا أنا والقوة الثانية للنفس استعدادها للتصرف في أجسام هذا العالم وهذه القوة هي القوة المسماة بالقوة العملية وسعادة هذه القوة في الاتيان بالاعمال الصالحة وأشرف الاعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى واليه الاشارة بقوله فاتقون ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لاجرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية وهي قوله لا اله الا أنا على كمالات القوة العملية وهي قوله فاتقون (وأما المرتبة الثانية) وهي السعادات البدنية فهي أيضا قسمان الصحة الجسدانية وكمالات القوى الحيوانية أعني القوى السبع عشرة البدنية (وأما المرتبة الثالثة) وهي السعادات المتعلقة بالصفات العرضية البدنية فهي أيضا قسمان سعادة الاصول والفروع أعني كمال حال الآباء وكمال حال الاولاد (وأما المرتبة الرابعة) وهي أخس المراتب فهي السعادات الحاصلة بسبب الامور المنفصلة وهي المال والجاه فثبت ان أشرف مراتب السعادات هي الاحوال النفسانية وهي محصورة في كمالات القوة النظرية والعملية فلهذا السبب ذكر الله ههنا أعلى حال هاتين القوتين فقال أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون ﴿قوله تعالى ﴿خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين فيما سبق أن معرفة الحق لذاته وهي المراد من قوله أنه لا اله الا أنا ومعرفة الخير لاجل العمل به وهي المراد من قوله فاتقون روح الارواح ومطلع السعادات ومنبع الخيرات والكرامات أتبعه بذكر الدلائل على وجود الصانع الاله تعالى وكمال قدرته وحكمته واعلم أنا بينا أن دلائل الالهيات اما التمسك بطريقة الامكان في الذوات أو في الصفات أو التمسك بطريقة الحدوث في الذوات أو في الصفات أو بمجموع الامكان والحدوث في الذوات أو الصفات فهذه طرق ستة والطريق المذكور في كتب الله تعالى المنزلة هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغيرات الاحوال ثم هذا الطريق يقع على وجهين (أحدهما) أن يتمسك بالاظهر فالاظهر مترقيا الى الاخفى فالاخفى وهذا الطريق هو المذكور في اول سورة البقرة فانه تعالى قال اعبدوا ربكم الذي خلقكم فجعل تعالى تغير أحوال نفس كل واحد دليلا على

وسلم والطعن فيه (بعد إيمانكم) بعد اظهاركم له (ان نعف عن طائفة منكم) لتوبتهم واخلاصهم أو تجنبهم عن الايذاء والاستهزاء وقرئ ان يعف على اسناد الفعل الى الله سبحانه وقرئ على البناء للمفعول مسندا الى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيثه أيضا ذهابا الى المعنى كأنه قيل ان ترحم طائفة (نعذب) بنون العظمة وقرئ بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندا الى ما بعده (طائفة بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على الاجرام وهم غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذي عفي عنه رجل واحد هو يحيى بن حمير الاشجعي لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم اني لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين الا عرف مصرعه غيره (المنافقون والمنافقات) التعرض لاحوال الاناث للايذان بكمال عراقتهم في الكفر والنفاق (بعضهم من بعض) أي متشابهون في النفاق والبعد عن الايمان كأبعاض الشئ الواحد بالشخص وقيل أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في حلفهم بالله انهم لمنكم وتقريرا لقوله تعالى وما هم

احتياجه

احتياجه الى الخالق ثم ذكر عقيبه الاستدلال باحوال الآباء والامهات واليه الاشارة بقوله والذين من قبلكم ثم ذكر عقيبه الاستدلال باحوال الارض وهى قوله الذى جعل لكم الارض فراشا لان الارض أقرب الينا من السماء ثم ذكر فى المرتبة الرابعة قوله والسماء بناء ثم ذكر فى المرتبة الخامسة الاحوال المتولدة من تركيب السماء بالارض فقال وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم (الثانى من الدلائل القرآنية) أن يحتج الله تعالى بالاشرف فالاشرف نازلا الى الادون فالادون وهذا الطريق هو المذكور فى هذه السورة وذلك لانه تعالى ابتدأ فى الاحتجاج على وجود الاله المختار بذكر الاجرام العالية الفلكية ثم ثنى بذكر الاستدلال باحوال الانسان ثم ثلث بذكر الاستدلال باحوال الحيوانات ثم ربع بذكر الاستدلال باحوال النبات ثم خمس بذكر الاستدلال باحوال العناصر الاربعة وهذا الترتيب فى غاية الحسن اذا عرفت هذه المقدمة فنقول النوع الاول من الدلائل المذكورة على وجود الاله الحكيم الاستدلال باحوال السموات والارض فقال خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون وقد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض أن لفظ الخلق من كم وجه يدل على الاحتياج الى الخالق الحكيم ولا بأس بان نعيد تلك الوجوه ههنا فنقول الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص وهذا المعنى حاصل فى السموات من وجوه (الاول) أن كل جسم متناه فجسم السماء متناه وكل ما كان متناهيا فى الحجم والقدر كان اختصاصه بذلك القدر المعين دون الازيد والانقص أمرا جائزا وكل جائز فلا بد له من مقدر ومخصص وكل ما كان مفتقرا الى الغير فهو محدث (الثانى) وهو أن الحركة الازلية ممتنعة لان الحركة تقتضى المسبوقية بالغير والازل ينافيه فالجمع بين الحركة والازل محال اذا ثبت هذا فنقول اما أن يقال ان الاجرام والاجسام كانت معدومة فى الازل ثم حدثت أو يقال انها وان كانت موجودة فى الازل الا انها كانت ساكنة ثم تحركت وعلى التقديرين فلحركتها أول فحدوث الحركة من ذلك المبدا دون ما قبله أو ما بعده خلق وتقدير فوجب افتقاره الى مقدر وخالق ومخصص له (الثالث) أن جسم الفلك مركب من أجزاء بعضها حصلت فى عمق جرم الفلك وبعضها فى سطحه والذى حصل فى العمق كان يعقل حصوله فى السطح وبالعكس واذا ثبت هذا كان اختصاص كل جزء بموضعه المعين أمرا جائزا فيفتقر الى المخصص والمقدر وبقية الوجوه مذكورة فى أول سورة الانعام واعلم أنه سبحانه لما احتج بالخلق والتقدير على حدوث السموات والارض قال بعده تعالى عما يشركون والمراد أن القائلين بقدم السموات والارض كانهم أثبتوا لله شريكا فى كونه قديما أزليا فنزه نفسه عن ذلك وبين انه لا قديم الا هو وبهذا البيان ظهر أن الفائدة المطلوبة من قوله سبحانه وتعالى عما يشركون فى أول السورة غير الفائدة المطلوبة من ذكر هذه الكلمة ههنا لان المطلوب هنالك ابطال قول من يقول ان الاصنام تشفع للكفار فى دفع العقاب عنهم والمقصود ههنا ابطال قول من يقول الاجسام قديمة والسموات والارض أزلية فنزه الله سبحانه نفسه عن أن يشاركه غيره فى الازلية والقدم والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين﴾ اعلم أن أشرف الاجسام بعد الافلاك والكواكب هو الانسان فلما ذكر الله تعالى الاستدلال على وجود الاله الحكيم باجرام الافلاك أتبعه بذكر الاستدلال على هذا المطلوب بالانسان واعلم أن الانسان مركب من بدن ونفس فقوله تعالى خلق الانسان من نطفة اشارة الى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم وقوله فاذا هو خصيم مبين اشارة الى الاستدلال باحوال نفسه على وجود الصانع الحكيم (أما الطريق الاول) فتقريره أن نقول لا شك أن النطفة جسم متشابه الاجزاء بحسب الحس والمشاهدة الا أن من الاطباء من يقول انه مختلف الاجزاء فى الحقيقة وذلك لانه انما يتولد من فضلة الهضم الرابع فان الغذاء يحصل له فى المعدة هضم أول وفى الكبد هضم ثان وفى العروق هضم ثالث وعند وصوله الى جواهر الاعضاء هضم رابع ففى هذا الوقت وصل بعض أجزاء الغذاء الى العظم وظهر فيه أثر من الطبيعة العظمية وكذا القول فى اللحم والعصب والعروق وغيرها ثم عند استيلاء الحرارة على البدن عند

منكم وقوله تعالى (يأمرون بالمنكر) أى بالكفر والمعاصى (وينهون عن المعروف) أى عن الايمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون
ماسبق ومفصح عن
مضادة حالهم لحال
المؤمنين أو خبر ثان
(ويقبضون أيديهم)
أى عن المبرات والانفاق
فى سبيل الله فان قبض
اليد كناية عن الشح
(نسوا الله) أغفلوا ذكره
(فنسيهم) فتركهم من
رحمته وفضله وخذلهم
والتعبير عنه بالنسيان
للمشاكلة (ان المنافقين
هم الفاسقون) الكاملون
فى التمرد والفسق الذى
هو الخروج عن الطاعة
والانسلاخ عن كل خير
والاظهار فى موقع الاضمار
لزيادة التقرير كما فى قوله
تعالى (وعد الله المنافقين
والمنافقات والكفار) أى
المجاهرين (نار جهنم
خالدين فيها) مقدرين
الخلود فيها (هى حسبهم)
عقابا وجزاء وفيه دليل
على عظم عقابها وعذابها
(ولعنهم الله) أى
أبعدهم من رحمته وأهانهم
وفى اظهار الاسم الجليل
من الايذان بشدة
السخط مالا يخفى (ولهم
عذاب مقيم) أى نوع
من العذاب غير عذاب
النار دائم لا ينقطع أبدا
أو لهم عذاب مقيم معهم
فى الدنيا لا ينفك عنهم
وهو ما يقاسونه من تعب
النفاق الذى هم منه فى
وليه دائمة لا يأمنون
ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع على أسرارهم (كالذين من قبلكم) التفات من الغيبة الى

الخطاب لتشديد والكاف في محل الرفع على الخبرية أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الامم المهلكة أو في حيز النصب بفعل مقدر أي فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم (كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا) تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم (فاستمتعوا) تمتعوا وفي صيغة الاستفعال ما ليس في صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة في التمتع (بخلاقهم) بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير وهو ما قدر لصاحبه (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع) الكاف في محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف أي استمتاعا كاستمتاع (الذين من قبلكم بخلاقهم) ذم الاولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر في العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم اياهم واقتفائهم أثرهم (وخضتم) أي دخلتم في الباطل (كالذي خاضوا) أي كالذين باسقاط النون أو كالفوج الذي أو كالخوض الذي خاضوه (أولئك) اشارة الى المتصفين بالاوصاف المعدودة من المشبهين والمشبه بهم لا الى الفريق الاخير فقط فان ذلك يقتضي أن يكون حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم مفهومين ضمنا

هيجان الشهوة يحصل ذوبان من جملة الاعضاء وذلك هو النطفة وعلى هذا التقدير تكون النطفة جسما مختلف الاجزاء والطبائع اذا عرفت هذا فنقول النطفة في نفسها اما أن تكون جسما متشابه الاجزاء في الطبيعة والماهية أو مختلف الاجزاء فيها فان كان الحق هو الاول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهر النطفة ودم الطمث لان الطبيعة تأثيرها بالذات والايجاب لا بالتدبير والاختيار والقوة الطبيعية اذا عملت في مادة متشابهة الاجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة وعلى هذا الحرف عولوا في قولهم البسائط يجب أن تكون أشكالها الطبيعية في الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة لوجب أن يكون شكلها الكرة وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا أن المقتضى لحدوث الابدان الحيوانية ليس هو الطبيعة بل فاعل مختار هو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار (وأما القسم الثاني) وهو أن يقال النطفة جسم مركب من أجزاء مختلفة في الطبيعة والماهية فنقول بتقدير أن يكون الامر كذلك فانه يجب أن يكون تولد البدن منها بتدبير فاعل مختار حكيم وبيانه من وجوه (الاول) أن النطفة رطوبة سريعة الاستحالة واذا كان كذلك كانت الاجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في الاسفل والجزء الذي هو مادة القلب قد يحصل في الفوق واذا كان الامر كذلك وجب أن لا تكون أعضاء الحيوان على هذا الترتيب المعين أمرا دائما ولا أكثريا وحيث كان الامر كذلك علمنا أن حدوث هذه الاعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم (والوجه الثاني) أن النطفة بتقدير انها جسم مركب من أجزاء مختلفة الطبائع الا أنه يجب أن ينتهي تحليل تركيبها الى أجزاء يكون كل واحد منها في نفسه جسما بسيطا واذا كان الامر كذلك فلو كان المدبر لها قوة طبيعية لكان كل واحد من تلك البسائط يجب أن يكون شكله هو الكرة فكان يلزم أن يكون الحيوان على شكل كرات مضمومة بعضها الى بعض وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا أن مدبر أبدان الحيوانات ليس هي الطبائع ولا تأثيرات الانجم والافلاك لان تلك التأثيرات متشابهة فعلمنا أن مدبر أبدان الحيوانات فاعل مختار حكيم وهو المطلوب هذا هو الاستدلال بابدان الحيوانات على وجود الاله المختار وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى خلق الانسان من نطفة وأما الاستدلال على وجود الصانع المختار الحكيم باحوال النفس الانسانية فهو المراد من قوله فاذا هو خصيم مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في بيان وجه الاستدلال وتقريره ان النفوس الانسانية في أول الفطرة أقل فهما وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجئ الى الام ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والغذاء الذي لا يوافقه واما ولد الانسان فانه حال انفصاله عن بطن الام لا يميز البتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع فظهر ان الانسان في أول الحدوث أنقص حالا وأقل فطنة من سائر الحيوانات ثم ان الانسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على مساحة السموات والارض ويقوى على معرفة ذات الله وصفاته وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الارواح والاجسام والفلكيات والعنصريات ويقوى على ايراد الشبهات القوية في دين الله تعالى والخصومات الشديدة في كل المطالب فانتقال نفس الانسان من تلك البلادة المفرطة الى هذه الكياسة المفرطة لابد وأن يكون بتدبير اله مختار حكيم ينقل الارواح من نقصانها الى كمالاتها ومن جهالاتها الى معارفها بحسب الحكمة والاختيار فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين واذا عرفت هذه الدقيقة أمكنك التنبيه لوجوه كثيرة (المسئلة الثانية) أنه تعالى انما يخلق الانسان من النطفة بواسطة تغيرات كثيرة مذكورة في القرآن العزيز منها قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين الا انه تعالى اختصرها هنا لاجل ان ذلك الاستقصاء مذكور في سائر الآيات وقوله فاذا هو خصيم مبين فيه بحثان (الاول) قال الواحدي الخصيم بمعنى المخاصم قال أهل اللغة خصيمك الذي يخاصمك وفعيل بمعنى مفاعل معروف كالنسيب بمعنى المناسب والعشير بمعنى المعاشر والاكيل

والشريب

والشريب ويجوز أن يكون خصيم فاعلا من خصم يخصم بمعنى اختصم ومنه قراءة حمزة تأخذهم وهم يخصمون (البحث الثانى) لقوله فاذا هو خصيم مبين وجهان (أحدهما) فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه منازع للخصوم بعد ان كان نطفة قذرة وجمادا لاحس له ولا حركة والمقصود منه ان الانتقال من تلك الحالة الخسيسة الى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل الا بتدبير مدبر حكيم عليم (والثانى) فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهى رميم والغرض منه وصف الانسان بالافراط فى الوقاحة والجهل والتمادى فى كفران النعمة والوجه الاول أوفق لان هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم فى الكفر والكفران ۞ قوله تعالى ﴿والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة وهى الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب ثم هذه الحيوانات قسمان منها ما ينتفع الانسان بها ومنها ما لا يكون كذلك والقسم الاول أشرف من الثانى لانه لما كان الانسان أشرف الحيوانات وجب فى كل حيوان يكون انتفاع الانسان به أكمل وأكثر أن يكون أكمل وأشرف من غيره ثم نقول والحيوان الذى ينتفع الانسان به اما أن ينتفع به فى ضروريات معيشته مثل الاكل واللبس أو لا يكون كذلك وانما ينتفع به فى أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها والقسم الاول أشرف من الثانى وهذا القسم هو الانعام فلهذا السبب بدأ الله بذكره فى هذه الآية فقال والانعام خلقها لكم واعلم أن الانعام عبارة عن الازواج الثمانية وهى الضأن والمعز والابل والبقر وقد يقال أيضا الانعام ثلاثة الابل والبقر والغنم قال صاحب الكشاف وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الابل وقوله والانعام منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى والقمر قدرناه منازل ويجوز أن يعطف على الانسان أى خلق الانسان والانعام قال الواحدى تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ وقال لكم فيها دفء ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ وقال فيها دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها والدليل عليه انه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال (المسئلة الثانية) انه تعالى لما ذكر انه خلق الانعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك المنافع واعلم أن منافع النعم منها ضرورية ومنها غير ضرورية والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية فالمنفعة الاولى قوله لكم فيها دفء وقد ذكر هذا المعنى فى آية أخرى فقال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها والدفء عند أهل اللغة ما يستدفأ به من الاكسية قال الاصمعى ويكون الدفء بمعنى السخونة يقال اقعد فى دفء هذا الحائط أى فى كنه وقرئ دف بطرح الهمزة والقاء حركتها على الفاء والمنفعة الثانية قوله ومنافع قالوا المراد نسلها ودرها وانما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان النسل والدر قد ينتفع به فى الاكل وقد ينتفع به فى البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل والمنفعة الثالثة قوله ومنها تأكلون فان قيل قوله ومنها تأكلون يفيد الحصر وليس الامر كذلك فانه قد يؤكل من غيرها وأيضا منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللبس فلم أخر منفعته فى الذكر قلنا الجواب عن الاول ان الاكل منها هو الاصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فيشبه غير المعتاد وكالجارى مجرى التفكه ويحتمل أيضا ان غالب أطعمتكم منها لانكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التى تأكلونها منها وأيضا تكتسبون باكراء الابل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها وتشترون بها جميع أطعمتكم والجواب عن السؤال الثانى ان الملبوس أكثر بقاء من المطعوم فلهذا قدمه عليه فى الذكر (واعلم) ان هذه المنافع الثلاثة هى المنافع الضرورية الحاصلة من الانعام وأما المنافع الحاصلة من الانعام التى هى ليست بضرورية فامور

لامرية او يؤدى الى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة اذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الافعال الذميمة (حبطت أعمالهم) ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به التعبير عنهم باسم الاشارة فان غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التى كانوا يستحقون بها أجورا حسنة لو قارنت الايمان أى ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر (فى الدنيا والآخرة) بطريق المثوبة والكرامة أما فى الآخرة فظاهر وأما فى الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج (وأولئك) أى الموصوفون بحبوط الاعمال فى الدارين (هم الخاسرون) الكاملون فى الخسران فى الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طرا فانه قد ذهبت رؤس أموالهم التى هى أعمالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو انها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانا وايراد اسم الاشارة فى الموضعين للاشعار بعلية الاوصاف المشار اليها للحبوط والخسران (ألم يأتهم) أى

﴿المنفعة الاولى﴾ قوله تعالى ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون الاراحة رد الابل بالعشى الى مراحها حيث تأوى اليه ليلا ويقال سرح القوم ابلهم سرحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال أهل اللغة هذه الاراحة أكثر ما تكون أيام الربيع اذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما يكون النعم فى ذلك الوقت واعلم ان وجه التجمل بها ان الراعى اذا روّحها بالعشى وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الاراحة والتسريح الافنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها فان قيل لم قدمت الاراحة على التسريح قلنا لان الجمال فى الاراحة أكثر لانها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ثم اجتمعت فى الحظائر حاضرة لاهلها بخلاف التسريح فانها عند خروجها الى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ فى التفرق والانتشار فظهر ان الجمال فى الاراحة أكثر منه فى التسريح ﴿والمنفعة الثانية﴾ قوله وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم وفيه مسئلتان ﴿الاولى﴾ الاثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس قال ابن عباس يريد من مكة الى المدينة أو الى اليمن أو الى الشام أو الى مصر قال الواحدى هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لشق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هذه البلاد وقرئ بشق الانفس بكسر الشين وفتحها وأكثر القراء على كسر الشين والشق المشقة والشق نصف الشئ وحمل اللفظ ههنا على كلا المعنيين جائز فان حملناه على المشقة كان المعنى لم تكونوا بالغيه الا بالمشقة وان حملناه على نصف الشئ كان المعنى لم تكونوا بالغيه الا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم ويرجع عند التحقيق الى المشقة ومن الناس من قال المراد من قوله والانعام خلقها الابل فقط بدليل انه وصفها فى آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه وهذا الوصف لا يليق الا بالابل قلنا المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصلة فى الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه ان قوله ولكم فيها جمال حاصل فى البقر والغنم مثل حصوله فى الابل والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على ان الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الجمال ومثبتو الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد فى ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا ولما بطل القول بالكرامات فى هذه الصورة بطل القول بها فى سائر الصور لانه لا قائل بالفرق وجوابه أنا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التى ينتفع الانسان بها فى المنافع الضرورية والحاجات الاصلية ذكر بعده منافع الحيوانات التى ينتفع بها الانسان فى المنافع التى ليست بضرورية فقال والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله والخيل والبغال والحمير عطف على الانعام أى وخلق الانعام لكذا وكذا وخلق هذه الاشياء للركوب وقوله وزينة أى وخلقها زينة ونظيره قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا المعنى وحفظناها حفظا قال الزجاج نصب قوله وزينة على أنه مفعول له والمعنى وخلقها للزينة ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية فقالوا منفعة الاكل اعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره الله تعالى علمنا أنه يحرم أكله ويمكن أيضا أن يقوى هذا الاستدلال من وجه آخر فيقال انه تعالى قال فى صفة الانعام ومنها تأكلون وهذه الكلمة تفيد الحصر فيقتضى أن لا يجوز الاكل من غير الانعام فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر ثم انه تعالى بعد هذا الكلام ذكر الخيل والبغال والحمير وذكر انها مخلوقة للركوب فهذا يقتضى ان منفعة الاكل مخصوصة بالانعام وغير حاصلة فى هذه الاشياء ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو ان قوله لتركبوها يقتضى ان تمام المقصود من خلق هذه الاشياء الثلاثة هو الركوب والزينة

المنافقين (نبأ الذين من قبلهم) أى خبرهم الذى له شأن وهو ما فعلوا وما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير (قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) قريات قوم لوط ائتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير الى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات) استئناف لبيان نبئهم (فما كان الله ليظلمهم) الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك وايثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أى ما صح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله عز وجل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجىء لهذا

والزينة ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب بل كان حل أكلها أيضا مقصودا وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود بل يصير بعض المقصود وأجاب الواحدي بجواب في غاية الحسن فقال لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذه الحيوانات لكان تحريم أكلها معلوما في مكة لاجل أن هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة وهذا جواب حسن متين ﴿المسئلة الثالثة﴾ القائلون بأن أفعال الله تعالى معللة بالمصالح والحكم احتجوا بظاهر هذه الآية فانه يقتضي ان هذه الحيوانات مخلوقة لاجل المنفعة الفلانية ونظيره قوله كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والكلام فيه معلوم ﴿المسئلة الرابعة﴾ لقائل أن يقول لما كان معنى الآية انه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها ولتجعلوها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة وجوابه انه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى ان التزين بها أحد الامور المعتبرة في المقصود وذلك غير جائز لان التزين بالشئ يورث العجب والتيه والتكبر وهذه أخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول اني خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعاني بل قال خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الاعياء والمشقة وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الامر ولكنه غير مقصود بالذات فهذا هو الفائدة في اختيار هذه العبارة * واعلم أنه تعالى لما ذكر أولا أحوال الحيوانات التي ينتفع الانسان بها انتفاعا ضروريا وثانيا أحوال الحيوانات التي ينتفع الانسان بها انتفاعا غير ضروري بقي القسم الثالث من الحيوانات وهي الاشياء التي لا ينتفع الانسان بها في الغالب فذكرها على سبيل الاجمال فقال ويخلق ما لا تعلمون وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان في شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال ان على يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور وفي الكعبة أيضا سبعون ألفا ثم لا يعودون اليه الى أن تقوم الساعة ﴿ قوله تعالى ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد قال وعلى الله قصد السبيل أي انما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الواحدي القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك اذا عرفت هذا ففي الآية حذف والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل ثم قال ومنها جائر أي عادل مائل ومعنى الجور في اللغة الميل عن الحق والكناية في قوله ومنها جائر تعود على السبيل وهي مؤنثة في لغة الحجاز يعني ومن السبيل ما هو جائر غير قاصد للحق وهو أنواع الكفر والضلال والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه يجب على الله تعالى الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت ودلت الآية أيضا على انه تعالى لا يضل أحدا ولا يغويه ولا يصده عنه وذلك لانه تعالى لو كان فاعلا للضلال لقال وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو قال وعليه الجائر فلما لم يقل كذلك بل قال في قصد السبيل انه عليه ولم يقل في جور السبيل انه عليه بل قال ومنها جائر دل على انه تعالى لا يضل عن الدين أحدا * أجاب أصحابنا أن المراد على الله بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح فاما أن يبين كيفية الاغواء والاضلال فذلك غير واجب فهذا هو المراد والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله ولو شاء لهداكم أجمعين يدل على انه تعالى ما شاء هداية

مزيد بيان في قوله سبحانه ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا اثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم الى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك عن الاتصالية للايذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أي جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر (ويقيمون الصلوة) فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ما سبق من قوله تعالى نسوا الله (ويؤتون الزكوة) بمقابلة قوله تعالى ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) أي في كل أمر ونهي وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة (أولئك) اشارة الى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم في الفضل أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة (سيرحمهم الله) أي يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة فان السين مؤكدة للوقوع كما في قولك

الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء شئ غيره قوله ولو شاء لهداكم معناه لو شاء هدايتكم لهداكم وذلك يفيد انه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم وذلك يدل على المقصود * وأجاب الاصم عنه بأن المراد لو شاء أن يلجئكم الى الايمان لهداكم وهذا يدل على ان مشيئة الالجاء لم تحصل وأجاب الجبائى بان المعنى ولو شاء لهداكم الى الجنة والى نيل الثواب لكنه لا يفعل ذلك الا بمن يستحقه ولم يرد به الهدى الى الايمان لانه مقدور جميع المكلفين وأجاب بعضهم فقال المراد ولو شاء لهداكم الى الجنة ابتداء على سبيل التفضل الا أنه تعالى عرفكم للمنزلة العظيمة بما نصب من الادلة و بين فمن تمسك بها فاز بتلك المنازل ومن عدل عنها فاتته وصار الى العذاب والله أعلم واعلم أن هذه الكلمات قد ذكرناها مرارا وأطوارا مع الجواب فلا فائدة فى الاعادة ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ اعلم أن أشرف أجسام العالم السفلى بعد الحيوان النبات فلما قرر الله تعالى الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات أتبعه فى هذه الآية بذكر الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات * واعلم أن الماء المنزل من السماء هو المطر وأما ان المطر نازل من السحاب أو من السماء فقد ذكرناه فى هذا الكتاب مرارا والحاصل أن ماء المطر قسمان ﴿أحدهما﴾ هو الذى جعله الله تعالى شرابا لنا ولكل حى وهو المراد بقوله لكم منه شراب وقد بين الله تعالى فى آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴿فان قيل﴾ أفتقولون ان شرب الخلق ليس الا من المطر أو تقولون قد يكون منه وقد يكون من غيره وهو الماء الموجود فى قعر الارض ﴿أجاب﴾ القاضى بأنه تعالى بين أن المطر شرابنا ولم ينف أن نشرب من غيره ولقائل أن يقول ظاهر الآية يدل على الحصر لان قوله لكم منه شراب يفيد الحصر لان معناه منه لا من غيره اذا ثبت هذا فنقول لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر يسكن هناك والدليل عليه قوله تعالى فى سورة المؤمنين وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض ولا يمتنع أيضا فى غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر ﴿والقسم الثانى﴾ من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سببا لتكوين النبات واليه الاشارة بقوله ومنه شجر فيه تسيمون الى آخر الآية وفيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ ظاهر هذه الآية يقتضى أن اسامة الشجر ممكنة وهذا انما يصح لو كان المراد من الشجر الكلأ والعشب وههنا قولان (الاول) قال الزجاج كل ما نبت على الارض فهو شجر وأنشد * يطعمها اللحم اذا عز الشجر * يعنى أنهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة فى هذه الآية المراد من الشجر الكلأ وفى حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ ولقائل أن يقول انه تعالى قال والنجم والشجر يسجدان والمراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق هكذا قال المفسرون و بالجملة فلما عطف الشجر على النجم دل على التغاير بينهما ويمكن أن يجاب عنه بأن عطف الجنس على النوع و بالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر مشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض وتشاجرت الرماح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ فوجب جواز اطلاق لفظ الشجر عليه (القول الثانى) ان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى ما ذكرناه فى القول الاول ﴿البحث الثانى﴾ قوله فيه تسيمون أى فى الشجر ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هى تسوم سوما اذا رعت حيث شاءت فهى سوام وسائمة قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهى العلامة وتأويلها انها تؤثر فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم للارسال فى المرعى وتمام الكلام فى هذا اللفظ قد ذكرناه فى سورة آل عمران فى قوله تعالى والخيل المسومة * أما قوله تعالى ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ففيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ هو أن النبات الذى ينبته الله من ماء السماء قسمان (أحدهما) معد لرعى الانعام واسامة الحيوانات وهو المراد من قوله فيه

سأنتقم منك (ان الله عزيز) تعليل للوعد أى قوى قادر على اعزاز أوليائه وقهر أعدائه (حكيم) يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية الى ايصال الحقوق من النعمة والنقمة الى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعيد المنافقين كما أن ما سبق فى شأن المنافقين من قوله تعالى فنسيهم وعيد لهم متضمن لوعد المؤمنين فان منع لطفه تعالى عنهم لطف فى حق المؤمنين (وعد الله المؤمنين والمؤمنات) تفصيل لآثار رحمته الاخروية اثر ذكر رحمته الدنيوية والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان لحصول ما تعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر ما مر من الامر بالمعروف وغير ذلك للايذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أى وعدهم وعدا شاملا لكل أحد منهم على اختلاف طبقاتهم فى مراتب الفضل كيفا وكما (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) فان كل أحد منهم فائز بها لا محالة (ومساكن طيبة) أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش فى الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الاحمر (فى جنات عدن) هى أبهى أماكن الجنات وأسناها * عن النبى صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم

تسيمون (والثانى) ما كان مخلوقا لاكل الانسان وهو المراد من قوله ينبت لكم به الزرع والزيتون * فان قيل انه تعالى بدأ فى هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للانسان وفى آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الانسان ثم بما يرعاه سائر الحيوانات فقال كلوا وارعوا أنعامكم فما الفائدة فيه * قلنا أما الترتيب المذكور فى هذه الآية فتنبيه على مكارم الاخلاق وهو أن يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه وأما الترتيب المذكور فى الآية الاخرى فالمقصود منه ما هو المذكور فى قوله عليه السلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول (البحث الثانى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر ننبت بالنون على التفخيم والباقون بالياء قال الواحدى والياء أشبه بما تقدم (البحث الثالث) اعلم أن الانسان خلق محتاجا الى الغذاء والغذاء اما أن يكون من الحيوان أو من النبات والغذاء الحيوانى أشرف من الغذاء النباتى لان تولد أعضاء الانسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لان المشابهة هناك أكمل وأتم والغذاء الحيوانى انما يحصل من اسامة الحيوانات والسعى فى تنميتها بواسطة الرعى وهذا هو الذى ذكره الله تعالى فى الاسامة وأما الغذاء النباتى فقسمان حبوب وفواكه أما الحبوب فاليها الاشارة بلفظ الزرع وأما الفواكه فاشرفها الزيتون والنخيل والاعناب أما الزيتون فلانه فاكهة من وجه وادام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن ومنافع الادهان كثيرة فى الاكل والطلى واشتعال السرج وأما امتياز النخيل والاعناب عن سائر الفواكه فظاهر معلوم وكما انه تعالى لما ذكر الحيوانات التى ينتفع الناس بها على التفصيل ثم قال فى صفة البقية ويخلق ما لا تعلمون فكذلك ههنا لما ذكر الانواع المنتفع بها من النبات قال فى صفة البقية ومن كل الثمرات تنبيها على ان تفصيل القول فى أجناسها وانواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره فى مجلدات فالاولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل ثم قال ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وههنا بحثان (الاول) فى شرح كون هذه الاشياء آيات دالة على وجود الله تعالى فنقول ان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضت على هذه الحالة مقدار معين من الوقت نفذت فى داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان اذا عرفت هذا فنقول نسبة الطبائع السفلية الى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية الى الكل متشابهة ومع تشابه نسب هذه الاشياء ترى هذه الاجسام مختلفة فى الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة فدل صريح العقل على ان ذلك ليس الا لاجل فاعل قادر حكيم رحيم فهذا تقرير هذه الدلالة (البحث الثانى) انه تعالى ختم هذه الآية بقوله لقوم يتفكرون والسبب فيه انه تعالى ذكر انه أنزل من السماء ماء فأنبت به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ولقائل ان يقول لا نسلم انه تعالى هو الذى أنبتها ولم لا يجوز أن يقال ان هذه الاشياء انما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الاربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب واذا عرفت هذا السؤال فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاما وافيا بافادة هذا المطلوب بل يكون مقام الفكر والتأمل باقيا فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله لقوم يتفكرون * قوله تعالى ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الله تعالى أجاب فى هذه الآية عن السؤال الذى ذكرناه من وجهين (الاول) أن نقول هب ان حدوث الحوادث فى هذا العالم السفلى مستندة الى الاتصالات الفلكية والتشكلات الكوكبية الا أنه لابد لحركاتها واتصالاتها من أسباب وأسباب تلك الحركات اما ذواتها واما أمور مغايرة لها والاول باطل

ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضى الله عنهما ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لا يدخله الا نبى أو صديق أو شهيد وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الاقامة والخلود فمرجع العطف الى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولا بأنه من جنس ما هو أشرف الاماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الانهار الجارية ليميل اليها طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لا يكاد يخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين ثم وصفه بأنه دار اقامة وثبات فى جوار العليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال (ورضوان من الله) اى وشئ يسير من رضوانه تعالى (أكبر) اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لانه متحقق فى ضمن كل موعود ولانه مستمر فى الدارين * روى أنه تعالى يقول لاهل الجنة هل رضيتم

لوجهين (الاول) ان الاجسام متماثلة فلو كان جسم علة لصفة لكان كل جسم واجب الاتصاف بتلك الصفة وهو محال (والثاني) ان ذات الجسم لو كانت علة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ولو كان كذلك لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغير أصلا وذلك يوجب كونه ساكنا ويمنع من كونه متحركا فثبت أن القول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب كونه ساكنا لذاته وما أفضى ثبوته الى عدمه كان باطلا فثبت أن الجسم يمتنع أن يكون متحركا لكونه جسما فبقى أن يكون متحركا لغيره وذلك الغير اما أن يكون ساريا فيه أو مباينا عنه والاول باطل لان البحث المذكور عائد في ان ذلك الجسم بعينه لم اختص بتلك القوة بعينها دون سائر الاجسام فثبت أن محرك أجسام الافلاك والكواكب أمور مباينة عنها وذلك المباين ان كان جسما أو جسمانيا عاد التقسيم الاول فيه وان لم يكن جسما ولا جسمانيا فاما ان يكون موجبا بالذات أو فاعلا مختارا والاول باطل لان نسبة ذلك الموجب بالذات الى جميع الاجسام على السوية فلم يكن بعض الاجسام بقبول بعض الآثار المعينة أولى من بعض ولما بطل هذا ثبت ان محرك الافلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر المنزه عن كونه جسما أو جسمانيا وذلك هو الله تعالى فالحاصل انا لو حكمنا باسناد حوادث العالم السفلي الى الحركات الفلكية والكوكبية فهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن اسنادها الى أفلاك أخرى والا لزم التسلسل وهو محال فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو الله تعالى واذا كانت الحوادث السفلية مستندة الى الحركات الفلكية وثبت أن الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه فكان هذا اعترافا بأن الكل من الله تعالى وباحداثه وتخليقه وهذا هو المراد من قوله وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر يعني ان كانت تلك الحوادث السفلية لاجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر فهذه الاشياء لا بد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعا للتسلسل ولما تم هذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون يعني ان كل من كان عاقلا علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في آخر الامر الى الفاعل المختار القدير فهذا تقرير أحد الجوابين (والجواب) الثاني عن ذلك السؤال أن نقول نحن نقيم الدلالة على انه لا يجوز أن يكون حدوث النبات والحيوان لاجل تأثير الطباع والافلاك والانجم وذلك لان تأثير الطبائع والافلاك والانجم والشمس والقمر بالنسبة الى الكل واحد ثم نرى أنه اذا تولد العنب كان قشره على طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع بل نقول انا نرى في الورد ما يكون أحد وجهي الورقة الواحدة منه في غاية الصفرة والوجه الثاني من تلك الورقة في غاية الحمرة وتلك الورقة تكون في غاية الرقة واللطافة ونعلم بالضرورة أن نسبة الانجم والافلاك الى وجهي تلك الورقة الرقيقة نسبة واحدة والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل الا فعلا واحدا ألا ترى انهم قالوا الشكل البسيط هو الكرة لان تأثير الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة يجب أن يكون متشابها والشكل الذي يتشابه جميع جوانبه هو الكرة وأيضا اذا وضعنا الشمع فاذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب وجب أن يحصل مثل هذا الاثر في جميع الجوانب لان الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها الى كل الجوانب اذا ثبت هذا فنقول ظهر ان نسبة الشمس والقمر والانجم والافلاك والطبائع الى وجهي تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة وثبت ان الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الاثر متشابها وثبت ان الاثر غير متشابه لان أحد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة والجانب الثاني في غاية الحمرة فهذا يفيد القطع بأن المؤثر في حصول هذه الصفات والالوان والاحوال ليس هو الطبيعة بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى وهذا هو المراد من قوله وما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه واعلم أنه لما كان مدار هذه الحجة على ان المؤثر الموجب بالذات وبالطبيعة يجب أن يكون نسبته الى الكل نسبة واحدة فلما دل الحس في هذه الاجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر أحوالها ظهر ان المؤثر فيها ليس موجبا بالذات بل فاعلا مختارا فهذا تمام تقرير هذه الدلائل وثبت ان ختم الآية الاولى بقوله لقوم يتفكرون

فيقولون مالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأي شيء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا (ذلك) اشارة الى ما سبق ذكره وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته في العظم والفخامة (هو الفوز العظيم) دون ما يعده الناس فوزا من حظوظ الدنيا فانها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة الى أدنى شيء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء ونعما قال من قال

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها
تبقى علينا ويأتي رزقها رغدا
ما كان من حق حر أن يذل بها
فكيف وهي متاع يضمحل غدا

(يا أيها النبي جاهد الكفار) أي المجاهرين منهم بالسيف (والمنافقين) بالحجة واقامة الحدود (واغلظ عليهم) في ذلك ولا تأخذك بهم رأفة قال عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح (ومأواهم جهنم) جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم اثر بيان عاجله وقيل حالية (وبئس المصير) الاجر (فاصبر) تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف (يحلفون بالله ما قالوا) استئناف لبيان ما صدر

يتفكرون والآية الثانية بقوله لقوم يعقلون والآية الثالثة بقوله لقوم يذكرون هو الذى نبه على هذه الفوائد النفيسة والدلائل الظاهرة والحمد لله على ألطافه فى الدين والدنيا (المسئلة الثانية) قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم كلها بالرفع على الابتداء وأخبره وقوله مسخرات وقرأ حفص عن عاصم والنجوم بالرفع على أن يكون قوله والنجوم ابتداء وانما حملها على هذا لئلا يتكرر لفظ التسخير اذ العرب لا تقول سخرت هذا الشئ مسخرا وجوابه أن المعنى أنه تعالى سخرلنا هذه الاشياء حال كونها مسخرة تحت قدرته وارادته وهذا هو الكلام الصحيح والتقدير أنه تعالى سخر للناس هذه الاشياء وجعلها موافقة لمصالحهم حال كونها مسخرة تحت قدرة الله تعالى وأمره واذنه وعلى هذا التقدير فالتكرير الخالى عن الفائدة غير لازم والله أعلم * بقى فى الآية سؤالات (الاول) التسخير عبارة عن القهر والقسر ولا يليق ذلك الا بمن هو قادر يجوز أن يقهر فكيف يصح ذلك فى الليل والنهار وفى الجمادات والشمس والقمر (والجواب) من وجهين (الاول) أنه تعالى لما دبر هذه الاشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطواع فلهذا المعنى أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير (وعن الوجه الثانى فى الجواب) وهو لا يستقيم الا على مذهب أصحاب علم الهيئة وذلك لانهم يقولون الحركة الطبيعية للشمس والقمر هى الحركة من المغرب الى المشرق والله تعالى يحرك هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الاعظم من المشرق الى المغرب فكانت هذه الحركة قسرية فلهذا السبب ورد فيها لفظ التسخير (السؤال الثانى) اذا كان لا يحصل النهار والليل وجود الا بسبب حركات الشمس كان ذكر النهار والليل مغنيا عن ذكر الشمس (والجواب) ان حدوث النهار والليل ليس بسبب حركة الشمس بل حدوثهما بسبب حركة الفلك الاعظم الذى دللنا على ان حركته ليست الا بتحريك الله سبحانه وأما حركة الشمس فانها علة لحدوث السنة لا لحدوث اليوم (السؤال الثالث) ما معنى قوله مسخرات بأمره والمؤثر فى التسخير هو القدرة لا الامر (والجواب) ان هذه الآية مبنية على أن الافلاك والكواكب جمادات أم لا وأكثر المسلمين على أنها جمادات فلا جرم حملوا الامر فى هذه الآية على الخلق والتقدير ولفظ الامر بمعنى الشأن والفعل كثير قال تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ومن الناس من يقول انها ليست جمادات فههنا يحمل الامر على الاذن والتكليف والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ اعلم أنه تعالى لما احتج على اثبات الاله فى المرتبة الاولى بأجرام السموات وفى المرتبة الثانية ببدن الانسان ونفسه وفى المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات وفى المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ذكر فى المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء واعلم أن علماء الهيئة قالوا ثلاثة أرباع كرة الارض غائصة فى الماء وذلك هو البحر المحيط وهو كلية عنصر الماء وحصل فى هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال بعده والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذى سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار ومعنى تسخير الله تعالى اياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها اما بالركوب أو بالغوص * واعلم أن منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها فى هذه الآية ثلاثة أنواع (المنفعة الاولى) قوله تعالى لتأكلوا منه لحما طريا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن الاعرابى لحم طرى غير مهموز وقد طرو يطرو طراوة وقال الفراء طرا الطرى طراء ممدودا وطراوة كما يقال شقى يشقى شقاء وشقاوة واعلم أن فى ذكر الطرى مزيد فائدة وذلك لانه لو كان السمك كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى فانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذى لحمه فى غاية العذوبة علم أنه انما حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد (المسئلة الثانية) قال أبو حنيفة رحمه الله لو حلف لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث قالوا لان لحم السمك ليس بلحم وقال آخرون انه يحنث لانه تعالى نص على كونه لحما فى هذه الآية وليس فوق بيان الله بيان * روى أن أبا حنيفة رحمه الله لما قال بهذا القول وسمعه سفيان

عنهم من الجرائم الموجبة لما أمر من الامر بالجهاد والغلظة عليهم ومأواهم جهنم * روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان ما يقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر ابن قيس الانصارى للجلاس أجل والله ان محمدا الصادق وأنت شر من الحمار فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزل وايثار صيغة الاستقبال فى يحلفون لاستحضار الصورة وللدلالة على تكرير الحلف وصيغة الجمع فى قالوا مع أن القائل هو الجلاس للايذان بأن بقيتهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل (ولقد قالوا كلمة الكفر) هى ما حكى آنفا والجملة مع ما عطف عليها اعتراض (وكفروا بعد اسلامهم) أى وأظهروا ما فى قلوبهم من الكفر بعد اظهارهم الاسلام (وهموا بما لم ينالوا) هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته اذا تسنم العقبة بالليل وكان

الثوري فأنكر عليه ذلك واحتج عليه بهذه الآية وسأله عن رجل حلف لا يصلي على البساط فصلى على الأرض هل يحنث أم لا قال سفيان لا يحنث فقال السائل أليس ان الله تعالى قال والله جعل لكم الأرض بساطا قال فعرف سفيان أن ذلك كان بتلقين أبي حنيفة ولقائل أن يقول هذا الكلام ليس بقوي لأن أقصى ما في الباب أنا تركنا العمل بظاهر القرآن في لفظ البساط للدليل الذي قام عليه فكيف يلزمنا ترك العمل بظاهر القرآن في آية أخرى والفرق بين الصورتين من وجهين (الأول) أنه لما حلف لا يصلي على البساط فلو أدخلنا الأرض تحت لفظ البساط لزمنا أن نمنعه من الصلاة لأنه ان صلى على الأرض المفروشة بالبساط لزمه الحنث لا محالة ولو صلى على الأرض التي تكون مفروشة لزمه الحنث أيضا على تقدير أن يدخل الأرض تحت لفظ البساط فهذا يقتضي منعه من الصلاة وذلك مما لا سبيل اليه بخلاف ما اذا أدخلنا لحم السمك تحت لفظ اللحم لأنه ليس فيه منعه من أكل اللحم على الاطلاق فظهر الفرق (الثاني) أنا نعلم بالضرورة من عرف أهل اللغة أن وقوع اسم البساط على الأرض الخالية مجاز أما وقوع اسم اللحم على لحم السمك فلم يعرف انه مجاز فظهر الفرق والله أعلم وحجة أبي حنيفة رحمه الله أن مبنى الأيمان على العادة وعادة الناس اذا ذكروا اللحم على الاطلاق أن لا يفهم منه لحم السمك بدليل انه اذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار والجواب انا رأيناكم في كتاب الأيمان تارة تعتبرون اللفظ وتارة تعتبرون العرف وما رأينا لكم ذكرتم ضابطا بين القسمين والدليل عليه أنه اذا قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بلحم العصفور كان حقيقا بالانكار عليه مع انكم تقولون انه يحنث بأكل لحم العصفور فثبت أن العرف مضطرب والرجوع الى نص القرآن متعين والله أعلم ﴿المنفعة الثانية من منافع البحر﴾ قوله تعالى وتستخرجوا منه حلية تلبسونها والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم ولأن اقدامهن على التزين بها انما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا في مسئلة أنه لا يجب الزكاة في الحلي المباح بحديث عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا زكاة في الحلي فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلي لفظ مفرد محلى بالألف واللام وقد بينا في أصول الفقه ان هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق والحلي الذي هو المعهود السابق هو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في هذه الآية وهو قوله وتستخرجوا منه حلية تلبسونها فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة في اللآلئ وحينئذ يسقط الاستدلال به والله أعلم ﴿المنفعة الثالثة﴾ قوله تعالى وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله قال أهل اللغة مخر السفينة شقها الماء بصدرها وعن الفراء أنه صوت جري الفلك بالرياح اذا عرفت هذا فقول ابن عباس مواخر أي جواري انما حسن التفسير به لأنها لا تشق الماء الا اذا كانت جارية وقوله تعالى ولتبتغوا من فضله يعني لتركبوه للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله واذا وجدتم فضل الله تعالى واحسانه فلعلكم تقدمون على شكره تعالى والله أعلم * قوله تعالى ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الأرض ﴿فالنعمة الأولى﴾ قوله وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الأولى﴾ قوله أن تميد بكم يعني لئلا تميد بكم على قول الكوفيين وكراهة أن تميد بكم على قول البصريين وذكرنا هذا عند قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا والميد الحركة والاضطراب يمينا وشمالا يقال ماد يميد ميدا ﴿المسئلة الثانية﴾ المشهور عن الجمهور في تفسير هذه الآية أن قالوا ان السفينة اذا ألقيت على وجه الماء فانها تميد من جانب الى جانب وتضطرب فاذا وضعت الأجرام الثقيلة في تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال ولقائل أن يقول هذا يشكل من وجوه (الأول) أن هذا التعليل اما أن يذكر مع تسليم كون الأرض

والماء

أخفاف الابل وبقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي ابن سلول وان لم يرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما نقموا) أي وما أنكروا وما عابوا أو وما وجدوا ما يورث نقمتهم (الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في غاية ما يكون من ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أي وما أنكروا شيأ من الأشياء الا اغناء الله تعالى اياهم أو وما أنكروا ما أنكروا لعلة من العلل الا لاغناء الله اياهم (فان يتوبوا) عما هم عليه من الكفر والنفاق (يك خيرا لهم) في الدارين قيل لما تلاها رسول الله صلى الله عليه

والماء ثقيلة بالطبع أو مع المنع من هذا الاصل ومع القول بان حركات هذه الاجسام بطباعها أو ليست بطباعها بل هى واقعة بتخليق الفاعل المختار أما على التقدير الاول فهذا التعليل مشكل لان على هذا الاصل لاشك أن الارض أثقل من الماء والاثقل من الماء يغوص فى الماء ولا يبقى طافيا عليه واذا لم يبق طافيا عليه امتنع أن يقال انها تميد وتميل وتضطرب وهذا بخلاف السفينة لانها متخذة من الخشب وفى داخل الخشب تجويفات مملوءة من الهواء فلهذا السبب تبقى الخشبة طافية على الماء فحينئذ تضطرب وتميد وتميل على وجه الماء فاذا أرسيت بالاجسام الثقيلة استقرت وسكنت فظهر الفرق وأما على التقدير الثانى وهو أن يقال ليس للارض ولا للماء طبائع توجب الثقل والرسوب والارض انما تنزل لان الله تعالى أجرى عادته بجعلها كذلك وانما صار الماء محيطا بالارض لمجرد اجراء العادة وليس ههنا طبيعة للارض ولا للماء توجب حالة مخصوصة فنقول فعلى هذا التقدير علة سكون الارض هى أن الله تعالى يخلق فيها السكون وعلة كونها مائدة مضطربة هى أن الله تعالى يخلق فيها الحركة وعلى هذا التقدير فانه يفسد القول بأن الارض كانت مائدة مائلة فخلق الله الجبال وأرساها عليها لتبقى ساكنة لان هذا انما يصح اذا كانت طبيعة الارض توجب الميدان وطبيعة الجبال توجب الارساء والثبات ونحن انما نتكلم الآن على تقدير نفى الطبائع الموجبة لهذه الاحوال فثبت أن هذا التعليل مشكل على كل التقديرات (السؤال الثانى) هو أن ارساء الارض بالجبال انما يعقل لاجل أن تبقى الارض على وجه الماء من غير أن تميد وتميل من جانب الى جانب وهذا انما يعقل اذا كان الماء الذى استقرت الارض على وجهه واقفا فنقول فما المقتضى لسكون ذلك الماء ووقوفه فى حيزه المخصوص فان قلت المقتضى لسكونه فى ذلك الحيز المخصوص هو أن طبيعته المخصوصة توجب وقوفه فى ذلك الحيز المعين فلم لا تقول مثله فى الارض وهو أن الطبيعة المخصوصة التى للارض توجب وقوفها فى ذلك الحيز المعين وذلك يفسد القول بأن الارض انما وقفت بسبب أن الله تعالى أرساها بالجبال فان قلت المقتضى لسكون الماء فى حيزه المعين هو أن الله تعالى سكن الماء بقدرته فى ذلك الحيز المخصوص فلم لا تقول مثله فى سكون الارض وحينئذ يفسد هذا التعليل أيضا (السؤال الثالث) أن مجموع الارض جسم عظيم فبتقدير أن تميد كليته وتضطرب على وجه البحر المحيط لم تظهر تلك الحالة للناس * فان قيل أليس ان الارض تحركها البخارات المحتقنة فى داخلها عند الزلازل وتظهر تلك الحركات للناس فلم تنكرون على من يقول انه لولا الجبال لتحركت الارض الا أنه تعالى لما أرساها بالجبال الثقال لم تقو الرياح على تحريكها * قلنا تلك البخارات انما احتقنت فى داخل قطعة صغيرة من الارض فلما حصلت الحركة فى تلك القطعة الصغيرة ظهرت تلك الحركة قال القائلون بهذا القول ان ظهور الحركة فى تلك القطعة المعينة من الارض يجرى مجرى اختلاج يحصل فى عضو معين من بدن الانسان أما لو حركت كلية الارض لم تظهر تلك الحركة ألا ترى ان الساكن فى السفينة لا يحس بحركة كلية السفينة وان كانت واقعة على أسرع الوجوه وأقواها فكذا ههنا فهذا ما فى هذا الموضع من المباحث الدقيقة العميقة * والذى عندى فى هذا الموضع المشكل أن يقال ثبت بالدلائل اليقينية ان الارض كرة وثبت أن هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة اذا ثبت هذا فنقول لو فرضنا ان هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الارض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة أدنى سبب لان الجرم البسيط المستدير اما أن يجب كونه متحركا بالاستدارة على نفسه وان لم يجب ذلك عقلا الا أنه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الارض هذه الجبال وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة فكل واحد من هذه الجبال انما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جاريا مجرى الوتد الذى يمنع كرة الارض من الاستدارة فكان تخليق هذه الجبال على وجه الارض كالاوتاد المغروزة فى الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة فكانت مانعة للارض من الميد والميل والاضطراب بمعنى أنها

عامر فناب الجلاس وحسنت توبته (وان يتولوا) أى استمروا على ما كانوا عليه من التولى والاعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بالقتل والاسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات (والآخرة) بالنار وغيرها من أفانين العقاب (وما لهم فى الارض) مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان ما نفى بقوله عز وجل (من ولى ولا نصير) ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة (ومنهم) بيان لقبائح بعض آخر منهم (من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الحج وقرئ بالنون الخفيفة فيهما قيل نزلت فى ثعلبة بن حاطب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة والسلام يا ثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لاعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله

منعت الارض من الحركة المستديرة فهذا ما وصل اليه بحثي في هذا الباب والله أعلم بمراده ﴿النعمة الثانية﴾ من النعم التي أظهرها الله تعالى على وجه الارض هي أنه تعالى أجرى الانهار على وجه الارض واعلم أنه حصل ههنا بحثان ﴿البحث الاول﴾ ان قوله وأنهارا معطوف على قوله وألقى في الارض رواسي والتقدير وألقى رواسي وأنهارا وخلق الانهار لا يبعد أن يسمى بالالقاء فيقال ألقى الله في الارض أنهارا كما قال وألقى فيها رواسي والالقاء معناه الجعل ألا ترى أنه تعالى قال في آية أخرى وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها والالقاء يقارب الانزال لان الالقاء يدل على طرح الشئ من الاعلى الى الاسفل الا أن المراد من هذا الالقاء الجعل والخلق قال تعالى وألقيت عليك محبة مني ﴿البحث الثاني﴾ أنه ثبت في العلوم العقلية ان أكثر الانهار انما تتفجر منابعها في الجبال فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والانهار ﴿النعمة الثالثة﴾ قوله تعالى وسبلا لعلكم تهتدون وهي أيضا معطوفة على قوله وألقى في الارض رواسي والتقدير وألقى في الارض سبلا ومعناه أنه تعالى أظهرها وبينها لاجل أن تهتدوا بها في أسفاركم ونظيره قوله تعالى في آية أخرى وسلك لكم فيها سبلا وقوله لعلكم تهتدون أي لكي تهتدوا واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الارض سبلا معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها الى مقصوده فقال وعلامات وهي أيضا معطوفة على قوله في الارض رواسي والتقدير وألقى في الارض رواسي وألقى فيها أنهارا وسبلا وألقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الاشياء التي بها يهتدى وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق قال الاخفش تم الكلام عند قوله وعلامات وقوله وبالنجم هم يهتدون كلام منفصل عن الاول والمراد بالنجم الجنس كقولك كثر الدرهم في أيدي الناس وعن السدي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي وقرأ الحسن وبالنجم بضمتين وبضمة فسكون وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفا ✽ فان قيل قوله أن تميد بكم خطاب للحاضرين وقوله وبالنجم هم يهتدون خطاب للغائبين فما السبب فيه ✽ قلنا ان قريشا كانت تكثر أسفارها لطلب المال ومن كثرت أسفاره كان علمه بالمنافع الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم فقوله وبالنجم هم يهتدون اشارة الى قريش للسبب الذي ذكرناه والله أعلم واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله وبالنجم هم يهتدون مختص بالبحر لانه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين ان من يسيرون فيه يهتدون بالنجم ومنهم من قال بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى لانه أعم في كونه نعمة ولان الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معا ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلا على أن المسافر اذا عميت عليه القبلة فانه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التي في الارض وهي الجبال والرياح وذلك صحيح لانه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات في معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها في معرفة طلب القبلة واعلم أن اشتباه القبلة اما أن يكون بعلامات لائحة أو لا يكون فان كانت لائحة وجب أن يجب الاجتهاد ويتوجه الى حيث غلب على الظن أنه هو القبلة فان تبين الخطأ وجب الاعادة لانه كان مقصرا فيما وجب عليه وان لم تظهر العلامات فههنا طريقان (أحدهما) أن يكون مخيرا في الصلاة الى أي جهة شاء لان الجهات لما تساوت وامتنع الترجيح لم يبق الا التخيير (والطريق الثاني) أن يصلي الى جميع الجهات فحينئذ يعلم بيقين أنه خرج عن العهدة وهذا كما يقوله الفقهاء فيمن نسي صلاة لا يعرفها بعينها أن الواجب عليه في القضاء أن يأتي بالصلوات الخمس ليكون على يقين من قضاء ما لزمه ومنهم من يقول الواجب منها واحدة فقط وهذا غلط لانه لما لزمه أن يفعل الكل كان الكل واجبا وان كان سبب وجوب كل هذه الصلوات فوت الصلاة الواحدة والله أعلم ❁ قوله تعالى ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾ في الآية مسائل (المسئلة

صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه الفرائض فقال ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية وقال ارجعا حتى أرى رأيي وذلك قوله عز وجل (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أي منعوا حق الله منه (وتولوا) أي أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه يا ويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام ان الله منعني أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فقبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها الى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في خلافة عثمان رضي الله عنه وقيل نزلت فيه وفي سهل بن الحرث وجد ابن قيس ومعتب بن قشير والاول هو الاشهر (وهم معرضون) جملة معترضة أي وهم قوم عادتهم الاعراض أو حالية أي تولوا باجرامهم وهم معرضون بقلوبهم (فأعقبهم) أي جعل الله عاقبة فعلهم ذلك (نفاقا) راسخا (في قلوبهم الى يوم يلقونه) الى يوم موتهم الذي

يلقون الله تعالى عنده أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة وقيل فأورثهم البخل نفاقا متمكنا في قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل

(المسألة الاولى) اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود الاله القادر الحكيم على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل فكذلك أيضا كانت شرحا وتفصيلا لانواع نعم الله تعالى وأقسام احسانه أتبعه بذكر ابطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة والبينات الزاهرة القاهرة على وجود اله قادر حكيم وثبت أنه هو المولى لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما اذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون والمعنى أفمن يخلق هذه الاشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شئ أفلا تذكرون فان هذا القدر لا يحتاج الى تدبر وتفكر ونظر ويكفي فيه ان تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق الا بالمنعم الاعظم وأنتم ترون في الشاهد انسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الاصنام جمادات محضة وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها (المسألة الثانية) المراد بقوله من لا يخلق الاصنام وانها جمادات فلا يليق بها لفظة من لانها لاولي العلم وأجيب عنه من وجوه (الاول) ان الكفار لما سموها آلهة وعبدوها لا جرم أجريت مجرى أولي العلم ألا ترى الى قوله على أثره والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون (والوجه الثاني) في الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق (والثالث) أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف من لا علم عنده كقوله ألهم أرجل يمشون بها يعني ان الآلهة التي تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا فان قيل قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه الزام عبدة الاوثان حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق في التسمية بالاله وفي الاشتغال بعبادتها فكان حق الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق * والجواب المراد منه أن من يخلق هذه الاشياء العظيمة ويعطي هذه المنافع الجليلة كيف يسوي بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية باسم الاله وفي الاشتغال بعبادتها والاقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق (المسألة الثالثة) احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على أن العبد غير خالق لافعال نفسه فقال انه تعالى ميز نفسه عن سائر الاشياء التي كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لان قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق الغرض منه بيان كونه ممتازا عن الانداد بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والمعبودية بسبب كونه خالقا فهذا يقتضي أن العبد لو كان خالقا لبعض الاشياء لوجب كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا أن العبد لا يقدر على الخلق والايجاد قالت المعتزلة الجواب عنه من وجوه (الاول) أن المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والارض والانسان والحيوان والنبات والبحار والنجوم والجبال كمن لا يقدر على خلق شئ أصلا فهذا يقتضي أن من كان خالقا لهذه الاشياء فانه يكون الها ولم يلزم منه أن من يقدر على أفعال نفسه أن يكون الها (والثاني) ان معنى الآية ان من كان خالقا كان أفضل ممن لا يكون خالقا فوجب امتناع التسوية بينهما في الالهية والمعبودية وهذا القدر لا يدل على ان كل من كان خالقا فانه يجب أن يكون الها والدليل عليه قوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها ومعناه ان الذي حصل له رجل يمشي بها يكون أفضل من الذي حصل له رجل لا يقدر أن يمشي بها وهذا يوجب أن يكون الانسان أفضل من الصنم والافضل لا يليق به عبادة الاخس فهذا هو المقصود من هذه الآية ثم انها لا تدل على ان من حصل له رجل يمشي بها أن يكون الها فكذلك ههنا المقصود من هذه الآية بيان أن الخالق أفضل من غير الخالق فيمتنع التسوية بينهما في الالهية والمعبودية ولا يلزم منه ان بمجرد حصول صفة الخالقية يكون الها (والوجه الثالث) في الجواب ان كثيرا من المعتزلة لا يطلقون لفظ الخالق على العبد قال الكعبي في تفسيره انا لا نقول انا نخلق أفعالنا قال ومن أطلق ذلك فقد أخطأ الا في مواضع ذكرها الله تعالى كقوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير وقوله

(بما أخلفوا الله ما وعدوه) أي بسبب اخلافهم ما وعدوه تعالى من التصديق والصلاح (وبما كانوا يكذبون) أي بكونهم مستمرين على الكذب في جميع المقالات التي من جملتها وعدهم المذكور وتخصيص الكذب به يؤدي الى تخلية الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل عن المزية فان تسبب الاعقاب المذكور بالاخلاف والكذب يقضي باسناده الى الله عز وجل اذ لا معنى لكونهما سببين لاعقاب البخل النفاق والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب اعقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولي والاعراض وفيها ما لا دخل له في الترتب المذكور كالمعاهدة أزيح ما في ذلك من الابهام بتعيين ما هو المدار في ذلك والله تعالى أعلم وقرئ بتشديد الذال (ألم يعلموا) أي المنافقون أو من عاهد الله وقرئ بالتاء الفوقانية خطابا بالمؤمنين فالهمزة على الاول للانكار والتوبيخ والتهديد أي ألم يعلموا (أن الله يعلم سرهم ونجواهم) أي ما أسروه في أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما

فتبارك الله أحسن الخالقين واعلم أن أصحاب أبي هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد حتى ان أبا عبد الله البصري بالغ وقال اطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز لان الخلق عبارة عن التقدير وذلك عبارة عن الظن والحسبان وهو في حق العبد حاصل وفي حق الله تعالى محال واعلم ان هذه الاجوبة قوية والاستدلال بهذه الآية على صحة مذهبنا ليس بقوي والله أعلم أما قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين بالآية المتقدمة ان الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ بين بهذه الآية ان العبد لا يمكنه الاتيان بعبادة الله تعالى وشكر نعمه والقيام بحقوق كرمه على سبيل الكمال والتمام بل العبد وان أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعمة الله تعالى فانه يكون مقصرا وذلك لان الاشتغال بشكر النعم مشروط بعلمه بتلك النعم على سبيل التفصيل والتحصيل فان ما لا يكون متصورا ولا مفهوما ولا معلوما امتنع الاشتغال بشكره الا ان العلم بنعم الله تعالى على التفصيل غير حاصل للعبد لان نعم الله تعالى كثيرة وأقسامها وشعبها واسعة عظيمة وعقول الخلق قاصرة عن الاحاطة عباديها فضلا عن غاياتها فثبت انها غير معلومة على سبيل التفصيل وما كان كذلك امتنع الاشتغال بشكره على الوجه الذي يكون ذلك الشكر لائقا بتلك النعم فهذا هو المفهوم من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها يعني انكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال واذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال وذلك يدل على ان شكر الخلق قاصر عن نعم الحق وعلى ان طاعات الخلق قاصرة عن ربوبية الحق وعلى ان معارف الخلق قاصرة عن كنه جلال الحق ومما يدل قطعا على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى ان كل جزء من أجزاء البدن الانساني لو ظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الانسان ولتمنى ان ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ثم انه تعالى يدبر أحوال بدن الانسان على الوجه الاكمل الاصلح مع ان الانسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه ولا بدفع مفاسده فليكن هذا المثال حاضرا في ذهنك ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهيأة لانتفاعك بها تعلم ان عقول الخلق تفنى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الانسان فضلا عن سائر وجوه الفضل والاحسان فان قيل فلما قررتم ان الاشتغال بالشكر موقوف على حصول العلم بأقسام النعم ودللتم على ان حصول العلم بأقسام النعم محال أو غير واقع فكيف أمر الله الخلق بالقيام بشكر النعم قلنا الطريق اليه أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها او مجملها فهذا هو الطريق الذي به يمكن الخروج عن عهدة الشكر والله أعلم (المسئلة الثانية) قال بعضهم انه ليس لله على الكافر نعمة وقال الاكثرون لله على الكافر والمؤمن نعم كثيرة والدليل عليه ان الانعام بخلق السموات والارض والانعام بخلق الانسان من النطفة والانعام بخلق الانعام وبخلق الخيل والبغال والحمير وبخلق أصناف النعم من الزرع والزيتون والنخيل والاعناب وبتسخير البحر ليأكل الانسان منه لحما طريا ويستخرج منه حلية يلبسها كل ذلك مشترك فيه بين المؤمن والكافر ثم أكد تعالى ذلك بقوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وذلك يدل على ان كل هذه الاشياء نعم من الله تعالى في حق الكل وهذا يدل على ان نعم الله واصلة الى الكفار والله أعلم أما قوله ان الله لغفور رحيم اعلم انه تعالى قال في سورة ابراهيم وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار وقال ههنا ان الله لغفور رحيم والمعنى انه لما بين ان الانسان لا يمكنه القيام باداء الشكر على سبيل التفصيل قال ان الله لغفور رحيم أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب تقصيركم أما قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ففيه وجهان (الاول) ان الكفار كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى يسرون ضروبا من الكفر في مكايد الرسول عليه الصلاة والسلام فجعل هذا زجرا لهم عنها (والثاني) انه تعالى زيف في الآية الاولى عبادة الاصنام بسبب انه لا قدرة لها على الخلق والانعام وزيف في هذه الآية أيضا عبادتها بسبب ان الاله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية وهذه الاصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصلا فكيف تحسن عبادتها * أما قوله والذين يدعون من دون الله

لا

لاخير فيه ومن تقديم السر على النجوى سيظهر في قوله سبحانه وستردون الى عالم الغيب والشهادة (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شيء من الاشياء حتى اجترؤا على ما اجترؤا عليه من العظائم واظهار اسم الجلالة في الموقع من لالقاء الروعة وتربية المهابة وفي ايراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى وعلى الثاني لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم (الذين يلمزون) نصب أو رفع على الذم ويجوز جره على البدلية من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ بضم الميم وهي لغة أي يعيبون (المطوعين) أي المتطوعين المتبرعين (من المؤمنين) حال من المطوعين وقوله تعالى (في الصدقات) متعلق بيلمزون * روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك له حتى

لا يخلقون شيأ وهم يخلقون فاعلم انه تعالى وصف هذه الاصنام بصفات كثيرة (فالصفة الاولى) انهم لا يخلقون شيأ وهم يخلقون قرأ حفص عن عاصم يسرون ويعلنون ويدعون كلها بالياء على الحكاية عن الغائب وقرأ أبو بكر عن عاصم يدعون بالياء خاصة على المغايبة وتسرون وتعلنون بالتاء على الخطاب والباقون كلها بالتاء على الخطاب عطفا على ما قبله * فان قيل أليس ان قوله في أول الآية أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيأ وقوله ههنا لا يخلقون شيأ يدل على نفس هذا المعنى فكان هذا محض التكرير * وجوابه ان المذكور في أول الآية انهم لا يخلقون شيأ والمذكور ههنا انهم لا يخلقون شيأ وانهم مخلوقون لغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولا انها لا تخلق شيأ ثم بين ثانيا انها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة لغيرها (والصفة الثانية) قوله أموات غير أحياء والمعنى انها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي غير جائز عليها الموت كالحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى وأمر هذه الاصنام على العكس من ذلك * فان قيل لما قال أموات علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله غير أحياء * والجواب من وجهين (الاول) ان الاله هو الحي الذي لا يحصل عقيب حياته موت وهذه الاصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة (والثاني) أن هذا الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبي فقد يحسن ان يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه منه الاعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة وأنه انما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع في نهاية الجهالة وانه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة (الصفة الثالثة) قوله وما يشعرون أيان يبعثون والضمير في قوله وما يشعرون عائد الى الاصنام وفي الضمير في قوله يبعثون قولان (أحدهما) انه عائد الى العابدين للاصنام يعني ان الاصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم (والثاني) انه عائد الى الاصنام يعني ان هذه الاصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس ان الله يبعث الاصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها الى النار * فان قيل الاصنام جمادات والجمادات لا توصف بانها أموات ولا توصف بانهم لا يشعرون كذا وكذا * والجواب عنه من وجوه (الاول) ان الجماد قد يوصف بكونه ميتا قال تعالى يخرج الحي من الميت (الثاني) ان القوم لما وصفوا تلك الاصنام بالالهية والمعبودية قيل لهم ليس الامر كذلك بل هي أموات ولا يعرفون شيأ فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم (والثالث) أن يكون المراد بقوله والذين يدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله انهم أموات لا بد لهم من الموت غير أحياء أي غير باقية حياتهم وما يشعرون أيان يبعثون أي لا علم لهم بوقت بعثهم والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين﴾ اعلم أنه تعالى لما زيف فيما تقدم طريقة عبدة الاوثان والاصنام وبين فساد مذهبهم بالدلائل القاهرة قال الهكم اله واحد ثم ذكر تعالى ما لاجله أصر الكفار على القول بالشرك وانكار التوحيد فقال فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون والمعنى ان الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم اذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعونه فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل ويرجعون من الباطل الى الحق أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فانهم لا يرغبون في حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع الى قول غيرهم فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال ثم قال تعالى لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون والمعنى انه تعالى يعلم ان اصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لاجل شبهة تصوروها أو اشكال تخيلوه بل ذلك لاجل التقليد والنفرة عن الرجوع الى الحق والشغف بنصرة مذاهب الاسلاف والتكبر والنخوة فلهذا قال انه لا يحب المستكبرين وهذا الوعيد

صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الانصاري بصاع من تمر فقال بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم الا رياء وان كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت (والذين لا يجدون الا جهدهم) عطف على المطوعين أي ويلمزون الذين لا يجدون الا طاقتهم وقرئ بفتح الجيم وهو مصدر جهد في الامر اذا بالغ فيه وقيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة (فيسخرون منهم) عطف على يلمزون أي يهزؤن بهم والمراد بهم الفريق الاخير (سخر الله منهم) اخبار بمجازاته تعالى اياهم على ما فعلوا من السخرية والتعبير عنها بذلك للمشاكلة (ولهم) أي ثابت لهم (عذاب أليم) التنوين للتهويل والتفخيم وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار (استغفر لهم أولا تستغفر لهم) اخبار باستواء الامرين الاستغفار لهم وتركه في استحالة المغفرة وتصويره بصورة الامر للمبالغة في بيان استوائهما كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك

يتناول كل المتكبرين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاوّلين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ اعلم انه تعالى لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة في ابطال مذاهب عبدة الاصنام ذكر بعد ذلك شبهات منكري النبوّة مع الجواب عنها ﴿فالشبهة الاولى﴾ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما احتج على صحة نبوّة نفسه بكون القرآن معجزة طعنوا في القرآن وقالوا انه أساطير الاوّلين وليس هو من جنس المعجزات وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا في أن ذلك السائل من كان قيل هو من كلام بعضهم لبعض وقيل هو قول المسلمين لهم وقيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول كيف يكون تنزيل ربهم أساطير الاوّلين وجوابه من وجوه (الاوّل) انه مذكور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون وقوله يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون وقوله يا أيها الساحر ادع لنا ربك (الثاني) أن يكون التقدير هذا الذي تذكرون انه منزل من ربكم هو أساطير الاوّلين (الثالث) يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزله الله لكنه أساطير الاوّلين ليس فيه شئ من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق واعلم انه تعالى لما حكى شبههم قال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة واللام في ليحملوا لام العاقبة وذلك لانهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الاوّلين لاجل أن يحملوا الاوزار ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا وقوله كاملة معناه انه تعالى لا يخفف من عقابهم شيأ بل يوصل ذلك العقاب بكليته اليهم وأقول هذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى وقوله ومن أوزار الذين يضلونهم معناه ويحصل للرؤساء مثل أوزار الاتباع والسبب فيه ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أيما داع دعا الى الهدى فاتبع كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من أجورهم شئ وأيما داع دعا الى ضلالة فاتبع كان عليه مثل وزر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شئ واعلم أنه ليس المراد منه أنه تعالى يوصل العقاب الذي يستحقه الاتباع الى الرؤساء وذلك لان هذا لا يليق بعدل الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وقوله ولا تزر وازرة وزر أخرى بل المعنى ان الرئيس اذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه حتى ان ذلك العقاب يكون مساويا بالكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع قال الواحدي ولفظة من في قوله ومن أوزار الذين يضلونهم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لخف عن الاتباع بعض أوزارهم وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام من غير أن ينقص من أوزارهم شئ ولكنها للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقوله بغير علم يعني ان هؤلاء الرؤساء انما يقدمون على هذا الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الاضلال ثم انه تعالى ختم الكلام بقوله ألا ساء ما يزرون والمقصود المبالغة في الزجر فان قيل انه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فيه قلنا السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين (الاول) أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم بكل القرآن وتارة بعشر سور وتارة بسورة واحدة وتارة بحديث واحد وعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا (الثاني) انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهو قوله اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا وابطلها بقوله قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض ومعناه أن القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض فلما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم ان

أخرى ليظهر له جلية الامر كما مر في قوله عزوجل قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار اثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه * روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظة على ما هو الاصل من أن مراتب الاعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها ان الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هي أكمل الاعداد لجمعها معانيها ولان الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة اذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهي مع الواحد سبعة فكانت كاملة اذ لا مرتبة بعد التمام الا الكمال ثم السبعون غاية الكمال اذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات (ذلك) اشارة الى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار

أى ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل (بأنهم) أى بسبب أنهم (كفروا بالله ورسوله) كفرا متجاوزا عن الحد

الخزى اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون﴾ اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة فى وصف وعيد أولئك الكفار وفى المراد بالذين من قبلهم قولان (الاول) وهو قول الاكثر من المفسرين ان المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان ورام منه الصعود الى السماء ليقاتل أهلها فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء (والقول الثانى) وهو الاصح أن هذا عام فى جميع المبطلين الذين يحاولون الحاق الضرر والمكر بالمحقين * أما قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ ان الاتيان والحركة على الله محال فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والاساس ﴿المسئلة الثانية﴾ فى قوله فأتى الله بنيانهم من القواعد قولان (الاول) أن هذا محض التمثيل والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم فى تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فانهدم ذلك البناء وضعفت تلك الاساطين فسقط السقف عليهم ونظيره قولهم من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه (والقول الثانى) أن المراد منه ما دل عليه الظاهر وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته والاول أقرب الى المعنى * أما قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم ففيه سؤال وهو ان السقف لا يخر الا من فوقهم فما معنى هذا الكلام * وجوابه من وجهين (الاول) أن يكون المقصود التأكيد (والثانى) ربما خر السقف ولا يكون تحته أحد * فلما قال فخر عليهم السقف من فوقهم دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام ان الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها وقوله وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ان حملنا هذا الكلام على محض التمثيل فالامر ظاهر والمعنى انهم اعتمدوا على منصوباتهم ثم تولد البلاء منها بأعيانها وان حملناه على الظاهر فالمعنى أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة لانه اذا كان كذلك كان أعظم فى الزجر لمن سلك مثل سبيلهم ثم بين تعالى أن عذابهم لا يكون مقصورا على هذا القدر بل الله تعالى يخزيهم يوم القيامة والخزى هو العذاب مع الهوان وفسر تعالى ذلك الهوان بأنه تعالى يقول لهم أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم وفيه ابحاث (الاول) قال الزجاج قوله أين شركائى معناه أين شركائى فى زعمكم واعتقادكم ونظيره قوله أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون وقال أيضا وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون وانما حسنت هذه الاضافة لانه يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب وهذا كما يقال لمن يحمل خشبة خذ طرفك وآخذ طرفى فأضيف الطرف اليه ﴿البحث الثانى﴾ قوله تشاقون فيهم أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم وقيل المشاقة عبارة عن كون أحد الخصمين فى شق وكون الآخر فى الشق الآخر ﴿البحث الثالث﴾ قرأ نافع تشاقون بكسر النون على الاضافة والباقون بفتح النون على الجمع ثم قال تعالى قال الذين أوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفيه بحثان ﴿الاول﴾ قال الذين أوتوا العلم قال ابن عباس يريد الملائكة وقال آخرون هم المؤمنون يقولون حين يرون خزى الكفار يوم القيامة ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين والفائدة فيه أن الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين فى الدنيا فاذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة فى معرض اهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره فى ايذائه أكمل وحصول الشماتة به أقوى ﴿البحث الثانى﴾ المرجئة احتجوا بهذه الآية على أن العذاب مختص بالكافر قالوا لان قوله تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين يدل على أن ماهية الخزى والسوء فى يوم القيامة مختصة بالكافر وذلك ينفى حصول هذه الماهية فى حق غيرهم وتأكد هذا بقول موسى عليه السلام انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكفار من وجه آخر فقال الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قرأ حمزة يتوفاهم الملائكة بالياء لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء للفظ * ثم قال فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء وفيه قولان (الاول) أنه تعالى حكى عنهم القاء السلم عند القرب من الموت قال ابن عباس أسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت وقوله ما كنا نعمل من سوء أى قالوا ما كنا نعمل من سوء

كما يلوح به وصفهم بالفسق فى قوله عز وجل (والله لا يهدى القوم الفاسقين) فان الفسق فى كل شئ عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة الى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل اليه فهى متحققة لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فان مغفرة الكافر انما هى بالاقلاع عن الكفر والاقبال الى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره لهم وهو عدم يأسه من ايمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغى والضلال اذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبى الآية (فرح المخلفون) أى الذين خلفهم النبى صلى الله عليه وسلم بالاذن لهم فى القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله بتثبيطها باهم لما علم فى ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم (بمقعدهم) متعلق بفرح أى بقعودهم وتخلفهم عن الغزو (خلاف رسول الله) أى خلافه وبعد

والمراد من هذا السوء الشرك فقالت الملائكة ردا عليهم وتكذيبا بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون من التكذيب والشرك ومعنى بلى رد لقولهم ما كنا نعمل من سوء وفيه قولان (الاول) انه تعالى حكى عنهم القاء السلم عند القرب من الموت (والقول الثانى) انه تم الكلام عند قوله ظالمى أنفسهم ثم عاد الكلام الى حكاية كلام المشركين يوم القيامة والمعنى انهم يوم القيامة ألقوا السلم وقالوا ما كنا نعمل فى الدنيا من سوء ثم ههنا اختلفوا فالذين جوّزوا الكذب على أهل القيامة قالوا هذا القول منهم على سبيل الكذب وانما أقدموا على هذا الكذب لغاية الخوف والذين قالوا ان الكذب لا يجوز عليهم قالوا معنى الآية ما كنا نعمل من سوء عند أنفسنا أو فى اعتقادنا وأما بيان أن الكذب على أهل القيامة هل يجوز أم لا فقد ذكرناه فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم انهم قالوا ما كنا نعمل من سوء قال بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون ولا يبعد أن يكون قائل هذا القول هو الله تعالى أو بعض الملائكة ردا عليهم وتكذيبا لهم ومعنى بلى الرد لقولهم ما كنا نعمل من سوء وقوله ان الله عليم بما كنتم تعملون يعنى أنه عالم بما كنتم عليه فى الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب فانه يجازيكم على الكفر الذى علمه منكم ﴿ثم صرح بذكر العقاب فقال﴾ ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ وهذا يدل على تفاوت منازلهم فى العقاب فيكون عقاب بعضهم أعظم من عقاب بعض وانما صرح تعالى بذكر الخلود ليكون الغم والحزن أعظم ﴿ثم قال﴾ ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الانبياء وتفسير التكبر قد مر فى هذا الكتاب غير مرة والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أحوال الاقوام الذين اذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاوّلين وذكر انهم يحملون أوزارهم ومن أوزار أتباعهم وذكر أن الملائكة تتوفاهم ظالمى أنفسهم وذكر انهم فى الآخرة يلقون السلم وذكر انه تعالى يقول لهم ادخلوا أبواب جهنم أتبعه بذكر وصف المؤمنين الذين اذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا وذكر ما أعده لهم فى الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء مذكورا مع وعيد أولئك وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال القاضى يدخل تحت التقوى أن يكون تاركا لكل المحرمات فاعلا لكل الواجبات ومن جمع بين هذين الامرين فهو مؤمن كامل الايمان وقال أصحابنا يريد الذين اتقوا الشرك وأيقنوا أنه لا اله الا الله محمد رسول الله * وأقول هذا أولى مما قاله القاضى لانا بينا أنه يكفى فى صدق قوله فلان قاتل أو ضارب كونه آتيا بقتل واحد وضرب واحد ولا يتوقف صدق هذا الكلام على كونه آتيا بجميع أنواع القتل وجميع أنواع الضرب فعلى هذا قوله وقيل للذين اتقوا يتناول كل من أتى بنوع واحد من أنواع التقوى الا أنا أجمعنا على أنه لا بد من التقوى عن الكفر والشرك فوجب أن لا نزيد على هذا القيد لانه لما كان تقييد المطلق خلاف الاصل كان تقييد المقيد أكثر مخالفة للاصل وأيضا فلانه تعالى انما ذكر هؤلاء فى مقابلة أولئك الذين كفروا وأشركوا فوجب أن يكون المراد من اتقى عن ذلك الكفر والشرك والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول انه قال فى الآية الاولى قالوا أساطير الاوّلين وفى هذه الآية قالوا خيرا فلم رفع الاوّل ونصب هذا * أجاب صاحب الكشاف عنه بأن قال المقصود منه الفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد يعنى ان هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الاوّلين وليس من الانزال فى شئ ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال المفسرون هذا كان فى أيام الموسم يأتى الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون انه ساحر وكاهن وكذاب فيأتى المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه فيقولون خيرا والمعنى أنزل خيرا ويحتمل أن يكون المراد الذى قالوه من الجواب موصوف بأنه خير وقولهم خير جامع

خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحى أى بعدهم ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم اذ لا فائدة فى تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على أنه مفعول له والعامل اما فرح أى فرحوا لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود واما مقعدهم أى فرحوا بقعودهم لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام بالقعود أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) لا ايثارا للدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق فان ايثار أحد الامرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وانما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا الى الغزو ايذانا بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله

لكونه

صلى الله عليه وسلم (وقالوا) أى لاخوانهم تثبيتا لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين

لكونه حقا وصوابا ولكونهم معترفين بصحته ولزومه فهو بالضد من قول الذين لا يؤمنون بالآخرة ان ذلك أساطير الاولين على وجه التكذيب (المسئلة الرابعة) قوله للذين أحسنوا وما بعده بدل من قوله خيرا وهو حكاية لقول الذين اتقوا أى قالوا هذا القول ويجوز أيضا أن يكون قوله للذين أحسنوا اخبارا عن الله والتقدير ان المتقين لما قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ثم انه تعالى أكد قولهم وقال للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وفى المراد بقوله للذين أحسنوا قولان أما الذين يقولون ان أهل لا اله الا الله يخرجون من النار فانهم يحملونه على قول لا اله الا الله مع الاعتقاد الحق وأما المعتزلة الذين يقولون ان فساق أهل الصلاة لا يخرجون من النار يحملون قوله أحسنوا على من أتى بالايمان وجميع الواجبات واحترز عن كل المحرمات وأما قوله فى هذه الدنيا ففيه قولان (أحدهما) انه متعلق بقوله أحسنوا والتقدير للذين اتقوا بعمل الحسنة فى الدنيا فلهم فى الآخرة حسنة وتلك الحسنة هى الثواب العظيم وقيل تلك الحسنة هو ان ثوابها يضاعف بعشر مرات وبسبعمائة والى ما لا نهاية له (والقول الثانى) ان قوله فى هذه الدنيا متعلق بقوله حسنة والتقدير للذين أحسنوا أن تحصل لهم الحسنة فى الدنيا وهذا القول اولى لانه قال بعده ولدار الآخرة خير وعلى هذا التقدير ففى تفسير هذه الحسنة الحاصلة فى الدنيا وجوه (الاول) يحتمل أن يكون المراد ما يستحقونه من المدح والتعظيم والثناء والرفعة وجميع ذلك جزاء على ما عملوه (والثانى) يحتمل أن يكون المراد به الظفر على أعداء الدين بالحجة وبالغلبة لهم وباستغنام اموالهم وفتح بلادهم كما جرى يوم بدر وعند فتح مكة وقد أجلوهم عنها وأخرجوهم الى الهجرة واخلاء الوطن ومفارقة الاهل والولد وكل ذلك مما يعظم موقعه (والثالث) يحتمل أن يكون المراد أنهم لما أحسنوا بمعنى انهم أتوا بالطاعات فتح الله عليهم أبواب المكاشفات والمشاهدات والالطاف كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وأما قوله ولدار الآخرة خير فقد بينا فى سورة الانعام فى قوله وللدار الآخرة خير للذين يتقون بالدلائل القطعية العقلية حصول هذا الخير ثم قال ولنعم دار المتقين أى لنعم دار المتقين دار الآخرة فحذفت لسبق ذكرها هذا اذا لم تجعل هذه الآية متصلة بما بعدها فان وصلتها بما بعدها قلت ولنعم دار المتقين جنات عدن فترفع جنات على انها اسم لنعم كما تقول نعم الدار دار ينزلها زيد* أما قوله جنات عدن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنها ان كانت موصولة بما قبلها فقد ذكرنا وجه ارتفاعها وأما ان كانت مقطوعة فقال الزجاج جنات عدن مرفوعة باضمار هى كأنك لما قلت ولنعم دار المتقين قيل أى دار هى هذه الممدوحة فقلت هى جنات عدن وان شئت قلت جنات عدن رفع بالابتداء ويدخلونها خبره وان شئت قلت نعم دار المتقين خبره والتقدير جنات عدن نعم دار المتقين (المسئلة الثانية) قوله جنات يدل على القصور والبساتين وقوله عدن يدل على الدوام وقوله تجرى من تحتها الانهار يدل على انه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الانهار جارية من تحتهم ثم انه تعالى قال لهم فيها ما يشاؤن وفيه بحثان (الاول) ان هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات وهذا أبلغ فى قوله فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان فى قوله لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى (الثانى) قوله لهم ما فيها ما يشاؤن يعنى هذه الحالة لا تحصل الا فى الجنة لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا ثم قال تعالى كذلك يجزى الله المتقين أى هكذا يكون جزاء التقوى ثم انه تعالى عاد الى وصف المتقين فقال الذين تتوفاهم الملائكة طيبين وهذا مذكور فى مقابلة قوله الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم وقوله الذين تتوفاهم الملائكة صفة للمتقين فى قوله كذلك يجزى الله المتقين وقوله طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس والطهارة ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على

تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف واظهارا لبعض العلل الداعية لهم الى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهى الغير عن ذلك (لا تنفروا فى الحر) فانه لا يستطاع شدته (قل) ردا عليهم وتجهيلا لهم (نار جهنم) التى ستدخلونها بما فعلتم (أشد حرا) مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بايثار القعود على النفير (لو كانوا يفقهون) اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه وجواب لو اما مقدر أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هى أو أن مآلهم اليها لما فعلوا ما فعلوا أو لتأثروا بهذا الالزام واما غير منوى على أن لو لمجرد التمنى المنبئ عن امتناع تحقق مدخولها أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقه كما فى قوله عز وجل قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون

(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) اخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى اليه أعمالهم السيئة

أن هذا التوفي هو قبض الارواح وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر ثم بين تعالى أنه يقال لهم عند هذه الحالة ادخلوا الجنة فاحتج الحسن بهذا على أن المراد بذلك التوفي وفاة الحشر لانه لا يقال عند قبض الارواح في الدنيا ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ومن ذهب الى القول الاول وهم الاكثرون يقولون ان الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة أي هي خاصة لكم كأنكم فيها ﴿ قوله تعالى ﴿هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الثانية لمنكري النبوة فانهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون في التصديق بنبوتك الا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك ويحتمل أن يقال ان القوم لما طعنوا في القرآن بأن قالوا انه أساطير الاولين وذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم ثم اتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا وصدقا وصوابا عاد الى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيانات التي ذكرناها بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الاقوال الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال * واعلم أن على كلا التقديرين فقد قال تعالى كذلك فعل الذين من قبلهم أي كلام هؤلاء وأفعالهم يشبه كلام الكفار المتقدمين وأفعالهم ثم قال وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون والتقدير كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم الهلاك المعجل وما ظلمهم الله بذلك فانه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بأن كفروا وكذبوا الرسل فاستوجبوا ما نزل بهم ثم قال فأصابهم سيآت ما عملوا والمراد أصابهم عقاب سيآت ما عملوا وحاق بهم أي نزل بهم على وجه أحاط بجوانبهم ما كانوا به يستهزؤن أي عقاب استهزائهم ﴿ قوله تعالى ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لمنكري النبوة وتقريرها انهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة فقالوا لو شاء الله الايمان لحصل الايمان سواء جئت أو لم تجئ ولو شاء الله الكفر فانه يحصل الكفر سواء جئت أو لم تجئ واذا كان الامر كذلك فالكل من الله تعالى ولا فائدة في مجيئك وارسالك فكان القول بالنبوة باطلا وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن هذه الشبهة هي عين ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الانعام في قوله سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم واستدلال المعتزلة به مثل استدلالهم بتلك الآية والكلام فيه استدلالا واعتراضا عين ما تقدم هنالك فلا فائدة في الاعادة ولا بأس بأن نذكر منه القليل فنقول الجواب عن هذه الشبهة هي انهم قالوا لما كان الكل من الله تعالى كان بعثة الانبياء عبثا فنقول هذا اعتراض على الله تعالى فان قولهم اذا لم يكن في بعثة الرسول مزيد فائدة في حصول الايمان ودفع الكفر كانت بعثة الانبياء غير جائزة من الله تعالى فهذا القول جار مجرى طلب العلة في أحكام الله تعالى وفي أفعاله وذلك باطل بل لله تعالى أن يحكم في ملكه وملكوته ما يشاء ويفعل ما يريد ولا يجوز أن يقال له لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك والدليل على أن الانكار انما توجه الى هذا المعنى انه تعالى صرح في آخر هذه الآية بهذا المعنى فقال ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فبين تعالى أن سنته في عبيده ارسال الرسل اليهم وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت ثم قال فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة والمعنى انه تعالى وان أمر الكل بالايمان ونهى الكل عن الكفر الا أنه تعالى هدى البعض وأضل البعض فهذه سنة قديمة لله تعالى مع العباد وهي أنه يأمر الكل بالايمان وينهاهم عن الكفر ثم يخلق الايمان في البعض والكفر في البعض

التي من جملتها ماذكر من الفرح والفاء السببية ما سبق للاخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفسهما اذ لا يتصور السببية في الاول أصلا وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية أي ضحكا قليلا وبكاء كثيرا أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا واخراجه في صورة الامر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فان أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به خلا أن المقصود افادته في الاول هو وصف القلة فقط وفي الثاني وصف الكثرة مع الموصوف * يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام (جزاء بما كانوا يكسبون) من فنون المعاصي والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددي مادام في الدنيا وجزاء مفعول له للفعل الثاني أي ليبكوا جزاء أو مصدر حذف ناصبه أي يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصي المذكورة (فان رجعك الله) الفاء لتفريع الامر الآتي على ما بين من أمرهم والفعل من الرجع المتعدي دون

ولما

ولما كانت سنة الله تعالى في هذا المعنى سنة قديمة في حق كل الانبياء وكل الامم والملل وانما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه الها منزها عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين كان ايراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجبا للجهل والضلال والبعد عن الله فثبت أن الله تعالى انما حكم على هؤلاء باستحقاق الخزى واللعن لا لانهم كذبوا في قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ بل لانهم اعتقدوا أن كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الانبياء والرسل وهذا باطل فلا جرم استحقوا على هذا الاعتقاد مزيد الذم واللعن فهذا هو الجواب الصحيح الذي يعول عليه في هذا الباب وأما من تقدمنا من المتكلمين والمفسرين فقد ذكروا فيه وجها آخر فقالوا ان المشركين ذكروا هذا الكلام على جهة الاستهزاء كما قال قوم شعيب عليه السلام له انك لأنت الحليم الرشيد ولو قالوا ذلك معتقدين لكانوا مؤمنين والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى لما حكى هذه الشبهة قال كذلك فعل الذين من قبلهم أي هؤلاء الكفار أبدا كانوا متمسكين بهذه الشبهة ثم قال فهل على الرسل الا البلاغ المبين أما المعتزلة فقالوا معناه ان الله تعالى ما منع أحدا من الايمان وما أوقعه في الكفر والرسل ليس عليهم الا التبليغ فلما بلغوا التكاليف وثبت أنه تعالى ما منع أحدا عن الحق كانت هذه الشبهة ساقطة أما أصحابنا فقالوا معناه أنه تعالى أمر الرسل بالتبليغ فهذا التبليغ واجب عليهم فأما أن الايمان هل يحصل أم لا يحصل فذلك لا تعلق للرسول به ولكنه تعالى يهدي من يشاء باحسانه ويضل من يشاء بخذلانه (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا في بيان أن الهدى والضلال من الله بقوله ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وهذا يدل على أنه تعالى كان أبدا في جميع الملل والامم آمرا بالايمان وناهيا عن الكفر ثم قال فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة يعني فمنهم من هداه الله الى الايمان والصدق والحق ومنهم من أضله عن الحق وأعماه عن الصدق وأوقعه في الكفر والضلال وهذا يدل على أن أمر الله تعالى لا يوافق ارادته بل قد يأمر بالشئ ولا يريده وينهى عن الشئ ويريده كما هو مذهبنا والحاصل أن المعتزلة يقولون الامر والارادة متطابقان أما العلم والارادة فقد يختلفان ولفظ هذه الآية صريح في قولنا وهو أن الامر بالايمان عام في حق الكل أما ارادة الايمان فخاصة بالبعض دون البعض * أجاب الجبائي بان المراد فمنهم من هدى الله لنيل ثوابه وجنته ومنهم من حقت عليه الضلالة أي العقاب قال وفي قوله حقت عليه دلالة على انها العذاب دون كلمة الكفر لان الكفر والمعصية لا يجوز وصفهما بانه حق وأيضا قال تعالى بعده فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين وهذه العاقبة هي آثار الهلاك لمن تقدم من الامم الذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب وذلك يدل على أن المراد بالضلال المذكور هو عذاب الاستئصال * وأجاب الكعبي عنه بان قال قوله فمنهم من هدى الله أي من اهتدى فكان في حكم الله مهتديا ومنهم من حقت عليه الضلالة يريد من ظهرت ضلالته كما يقال للظالم حق ظلمك وتبين ويجوز أن يكون المراد حق عليهم من الله أن يضلهم اذا ضلوا كقوله ويضل الله الظالمين * واعلم أنا بينا في آيات كثيرة بالدلائل العقلية القاطعة أن الهدى والاضلال لا يكونان الا من الله تعالى فلا فائدة في الاعادة وهذه الوجوه المتعسفة والتأويلات المستكرهة قد بينا ضعفها وسقوطها مرارا فلا حاجة الى الاعادة والله أعلم (المسئلة الرابعة) في الطاغوت قولان (أحدهما) أن المراد به اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله فسمى الكل طاغوتا ولا يمتنع أن يكون المراد اجتنبوا طاعة الشيطان في دعائه لكم (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ومنهم من حقت عليه الضلالة يدل على مذهبنا لانه تعالى لما أخبر عنه أنه حقت عليه الضلالة امتنع أن لا يصدر منه الضلالة والا لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان عدم الضلالة منهم محالا ووجود الضلالة منهم واجبا فلا جرم دلت الآية على صحة مذهبنا من هذه الوجوه الكثيرة والله أعلم ونظائر هذه الآية كثيرة منها قوله فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وقوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وقوله لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ثم قال تعالى فسيروا

الرجوع اللازم أي فان ردك الله تعالى (الى طائفة منهم) أي الى المنافقين من المتخلفين في المدينة فان تخلف بعضهم انما كان لعذر عائق مع الاسلام أو الى من بقي من المنافقين المتخلفين بان ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بان لم يستأذن البعض عن قتادة أنهم كانوا اثني عشر رجلا قيل فيهم ما قيل (فاستأذنوك للخروج) معك الى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل) اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك (لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) من الاعداء وهو اخبار في معنى النهي للمبالغة وقد وقع كذلك (انكم) تعليل لما سلف أي لانكم (رضيتم بالقعود) أي عن الغزو وفرحتم بذلك (أول مرة) هي غزوة تبوك (فاقعدوا) الفاء لتفريع الامر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أي اذا رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد (مع الخالفين) أي المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما وقرئ الخلفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزهم في قرن الخالفين عقوبة لهم أي عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف الى المؤنث هو الاكثر الدائر على الالسنة فانك لا تكاد تسمع قائلا يقول هي كبرى امرأة أو أولى امرأة (ولا تصل

في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين والمعنى سيروا في الارض معتبرين لتعرفوا أن العذاب نازل بكم كما نزل بهم ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة فانه لا يهتدي فقال ان تحرص على هداهم أي ان تطلب بجهدك ذلك فان الله لا يهدي من يضل وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي يهدي بفتح الياء وكسر الدال والباقون لا يهدى بضم الياء وفتح الدال أما القراءة الاولى ففيها وجهان (الاول) فان الله لا يرشد أحدا أضله وبهذا فسره ابن عباس رضي الله عنهما (والثاني) أن يهدي بمعنى يهتدي قال الفراء العرب تقول قد هدى الرجل يريدون قد اهتدى والمعنى ان الله اذا أضل أحدا لم يصر ذلك مهتديا وأما القراءة المشهورة فالوجه فيها أن الله لا يهدى من يضله أي من يضل فالراجع الى الموصول الذي هو من محذوف مقدر وهذا كقوله من يضلل الله فلا هادي له وكقوله فمن يهديه من بعد الله أي من بعد اضلال الله اياه ثم قال تعالى وما لهم من ناصرين أي وليس لهم أحد ينصرهم أي يعينهم على مطلوبهم في الدنيا والآخرة وأقول أول هذه الآيات موهم لمذهب المعتزلة وآخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة الدالة على قولنا وأكثر الآيات كذلك مشتملة على وجهين والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وفيه مسئلتان ﴿الاولى﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الرابعة لمنكري النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل فكان القول بالنبوة باطلا (أما المقام الاول) فتقريره أن الانسان ليس الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه لان الشيء اذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فالذي يعود يجب أن يكون شيأ مغايرا للاول فلا يكون عينه (وأما المقام الثاني) وهو أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة وتقريره من وجهين (الاول) أن محمدا كان داعيا الى تقرير القول بالمعاد فاذا بطل ذلك ثبت أنه كان داعيا الى القول الباطل ومن كان كذلك لم يكن رسولا صادقا (الثاني) أنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب في الثواب والترهيب عن العقاب واذا بطل ذلك بطلت نبوته اذا عرفت هذا فنقول قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بان الشيء اذا فني وصار عدما محضا ونفيا صرفا فانه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيأ آخر غيره وهذا القسم واليمين اشارة الى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بان عوده بعينه بعد عدمه محال في بديهة العقل وأقسموا بالله جهد أيمانهم على أنهم يجدون من قلوبهم وجود هذا العلم الضروري وأما بيان أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة فلم يذكروه على سبيل التصريح لانه كلام جلي متبادر الى العقول فتركوه لهذا العذر ثم انه تعالى بين أن القول بالبعث ممكن ويدل عليه وجهان (الاول) أنه وعد حق على الله تعالى فوجب تحققه ثم بين السبب الذي لاجله كان وعدا حقا على الله تعالى وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي وبين المحق والمبطل وبين الظالم والمظلوم وهو قوله ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وهذه الطريقة قد بالغنا في شرحها وتقريرها في سورة يونس (والوجه الثاني في بيان امكان الحشر والنشر) ان كونه تعالى موجدا للاشياء ومكونا لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة وهو تعالى انما يكونها بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا لمشيئته مانع فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون واذا كان كذلك فكما أنه تعالى قدر على الايجاد في الابتداء وجب أن يكون قادرا عليه في الاعادة فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق والقوم انما طعنوا في صحة النبوة بناء على الطعن في هذا الاصل فلما بطل هذا الطعن بطل أيضا طعنهم في النبوة والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم حكاية عن الذين أشركوا وقوله بلى اثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم وقوله وعدا عليه حقا مصدر مؤكد أي وعد بالبعث وعدا حقا لا خلف

على أحد منهم مات) صفة لاحد وانما جيء بصيغة الماضي تنبيها على تحقق الوقوع لا محالة (أبدا) متعلق بالنهي أي لا تدع ولا تستغفر لهم أبدا (ولا تقم على قبره) أي لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء * روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام أهلكك حب اليهود فقال يا رسول الله بعثت اليك لتستغفر لي لا لتؤنبني وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل اليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أو صلى نزلت * وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبي ووضعناه ليصلي عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أتصلي على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم عليه الصلاة والسلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله ما لبث الا يسيرا حتى نزل ولا تصل الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وانما لم ينه عن التكفين بقميصه فيه

فيه لان قوله يبعثهم دل على قوله وعدا بالبعث وقوله ليبين لهم الذي يختلفون فيه من أمور البعث أي بلى يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقسموا فيه ثم قال تعالى انما أمرنا الشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لقائل أن يقول قوله كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود كان هذا أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال (والجواب) أن هذا تمثيل لنفي الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون وليس خطابا للمعدوم لان ما أراده الله تعالى فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والارض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله تعالى قولنا مبتدأ وأن نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي اذا أردنا حدوث شئ فليس الا أن نقول له احدث فيحدث عقيب ذلك من غير توقف ﴿المسئلة الثالثة﴾ قرأ ابن عامر والكسائي فيكون بنصب النون والباقون بالرفع قال الفراء القراءة بالرفع ووجهها أن يجعل قوله أن نقول له كلاما تاما ثم يخبر عنه بانه سيكون كما يقال ان زيدا يكفيه ان أمر فيفعل فترفع قولك فيفعل على أن تجعله كلاما مبتدأ وأما القراءة بالنصب فوجهه أن تجعله عطفا على أن نقول والمعنى أن نقول كن فيكون هذا قول جميع النحويين قال الزجاج ويجوز أن يكون نصبا على جواب كن قال أبو علي لفظة كن وان كانت على لفظة الامر فليس القصد به ههنا الامر انما هو والله أعلم الاخبار عن كون الشئ وحدوثه واذا كان الامر كذلك فحينئذ يبطل قوله انه نصب على جواب كن والله أعلم ﴿المسئلة الرابعة﴾ احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على قدم القرآن فقالوا قوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون يدل على انه تعالى اذا أراد احداث شئ قال له كن فيكون فلو كان قوله كن حادثا لافتقر احداثه الى أن يقول له كن وذلك يوجب التسلسل وهو محال فثبت ان كلام الله قديم واعلم ان هذا الدليل عندي ليس في غاية القوة وبيانه من وجوه (الاول) ان كلمة اذا لا تفيد التكرار والدليل عليه ان الرجل اذا قال لامرأته اذا دخلت الدار فانت طالق فدخلت الدار مرة طلقت طلقة واحدة فلو دخلت ثانيا لم تطلق طلقة ثانية فعلمنا ان كلمة اذا لا تفيد التكرار واذا كان كذلك ثبت أنه لا يلزم في كل ما يحدثه الله تعالى أن يقول له كن فلم يلزم التسلسل (والثاني) ان هذا الدليل ان صح لزم القول بقدم لفظة كن وهذا معلوم البطلان بالضرورة لان لفظة كن مركبة من الكاف والنون وعند حضور الكاف لم تكن النون حاضرة وعند مجيء النون تتولى الكاف وذلك يدل على ان كلمة كن يمتنع كونها قديمة وانما الذي يدعي أصحابنا كونه قديما صفة مغايرة للفظة كن فالذي تدل عليه الآية لا يقول به أصحابنا والذي يقولون به لا تدل عليه الآية فسقط التمسك به (والثالث) ان الرجل اذا قال ان فلانا لا يقدم على قول ولا على فعل الا ويستعين فيه بالله تعالى فان عاقلا لا يقول ان استعانته بالله فعل من أفعاله فيلزم أن يكون كل استعانة مسبوقة باستعانة أخرى الى غير النهاية لان هذا الكلام بحسب العرف باطل فكذلك ما قالوه (الوجه الرابع) ان هذه الآية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه (الاول) ان قوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه يقتضي كون القول واقعا بالارادة وما كان كذلك فهو محدث (والثاني) انه علق القول بكلمة اذا ولا شك ان لفظة اذا تدخل للاستقبال (والثالث) ان قوله أن نقول له لا خلاف ان ذلك ينبئ عن الاستقبال (والرابع) ان قوله كن فيكون يدل على ان حدوث الكون حاصل عقيب قوله كن فتكون كلمة كن متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد والمتقدم على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثا (والوجه الخامس) انه معارض بقوله تعالى وكان أمر الله مفعولا وكان أمر الله قدرا مقدورا الله نزل أحسن الحديث فليأتوا بحديث مثله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة فان قيل فهب ان هذه الآية لا تدل على قدم الكلام ولكنكم ذكرتم انها تدل على حدوث الكلام فما الجواب عنه * قلنا نصرف هذه الدلائل الى الكلام المسموع الذي هو مركب من الحروف والاصوات ونحن نقول بكونه محدثا مخلوقا والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة

صلى الله عليه وسلم لان الضنة بالقميص كانت مظنة الاخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذي كان ألبسه العباس رضي الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور (انهم كفروا بالله ورسوله) تعليل للنهي على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره انما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل في حقهم لانهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم (وماتوا وهم فاسقون) أي متمردون في الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم) تكرير لما سبق وتقرير لمضمونه بالاخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا في حق فريق غير الفريق الاول وتقديم الاموال في أمثال هذه المواقع على الاولاد مع كونهم أعز منها اما لعموم مساس الحاجة اليها بحسب الذات وبحسب الافراد والاوقات فانها مما لا بد منه لكل أحد من الآباء والامهات والاولاد في كل وقت وحين حتى أن من له أولاد ولا مال له فهو وأولاده في ضيق ونكال وأما الاولاد فانما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الابوة واما لان المال مناط لبقاء النفس والاولاد لبقاء النوع واما لانها أقدم في الوجود من الاولاد لان الاجزاء المنوية انما تحصل من الاغذية كما سيأتي في سورة الكهف (انما يريد الله) بما متعهم به من الاموال والاولاد

ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا في الغي والجهل والضلال وفي مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وضربهم وانزال العقوبات بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا عن تلك الديار والمساكن فذكر تعالى في هذه الآية حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات في الدنيا والأجر في الآخرة من حيث هاجروا وصبروا وتوكلوا على الله وذلك ترغيب لغيرهم في طاعة الله تعالى قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير موليين لقريش فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام أما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت لكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله فلما رآه أبو بكر قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله النار لأطاعه فكيف ظنك به وقد خلقها وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام فتركوا عذابهم ثم هاجروا فنزلت هذه الآية وبين الله تعالى بهذه الآية عظم محل الهجرة ومحل المهاجرين فالوجه فيه ظاهر لان بسبب هجرتهم ظهرت قوة الاسلام كما أن بنصرة الانصار قويت شوكتهم ودل تعالى بقوله والذين هاجروا في الله ان الهجرة اذا لم تكن لله لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى بلد وقوله من بعد ما ظلموا معناه انهم كانوا مظلومين في أيدي الكفار لانهم كانوا يعذبونهم ثم قال لنبوئنهم في الدنيا حسنة وفيه وجوه (الاول) ان قوله حسنة صفة للمصدر من قوله لنبوئنهم في الدنيا والتقدير لنبوئنهم تبوئة حسنة وفي قراءة علي رضي الله عنه لنبوئنهم اثواءة حسنة (الثاني) لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وعن عمر أنه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أكبر (والقول الثالث) لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم وهذا قول الحسن والشعبي وقتادة والتقدير لنبوئنهم في الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة يعني المدينة ثم قال تعالى ولأجر الآخرة أكبر وأعظم وأشرف لو كانوا يعلمون والضمير الى من يعود فيه قولان (الاول) أنه عائد الى الكفار أي لو علموا ان الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم (والثاني) أنه راجع الى المهاجرين أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم ثم قال الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وفي محل الذين وجوه (الاول) انه بدل من قوله والذين هاجروا (والثاني) أن يكون التقدير هم الذين صبروا (والثالث) أن يكون التقدير أعني الذين صبروا وكلا الوجهين مدح والمعنى أنهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس في سبيل الله وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل أما الصبر فالسعي في قهر النفس وأما التوكل فالانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية الى الحق فالاول هو مبدأ السلوك الى الله تعالى والثاني آخر هذا الطريق ونهايته والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري النبوة كانوا يقولون الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر بل لو أراد بعثة رسول الينا لكان يبعث ملكا وقد ذكرنا تقرير هذه الشبهة في سورة الانعام فلا نعيده ههنا ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم وقالوا لولا أنزل عليه ملك وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقالوا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم وقال أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم وقالوا لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله وما أرسلنا من قبلك

(ان يعذبهم بها في الدنيا) بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد في شأنها (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أي فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبر في العواقب (واذا أنزلت سورة) من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها (ان آمنوا بالله) أن مفسرة لما في الانزال من معنى القول والوحي أو مصدرية حذف عنها الجار أي بان آمنوا (وجاهدوا مع رسوله) لاعزاز دينه واعلاء كلمته (استأذنك أولوا الطول منهم) أي ذووا الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدنا ومالا (وقالوا) عطف تفسيري لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعني القعود (ذرنا نكن مع القاعدين) أي الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر (رضوا) استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الامرين وان لم يردوا الاول صريحا (بأن يكونوا مع الخوالف) مع النساء اللاتي شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لا خير فيه (وطبع على قلوبهم) بسبب ذلك (فهم لا يفقهون) ما في الايمان بالله وطاعته في أوامره ونواهيه واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام والجهاد من السعادة وما في أضداد ذلك من الشقاوة (لكن الرسول والذين آمنوا معه) بالله وبما جاء من عنده تعالى وفيه ايذان بأنهم

الارجالا يوحى اليهم والمعنى ان عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولا الا من البشر فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك أيضا طعن قديم فلا يلتفت اليه ﴿المسئلة الثانية﴾ دلت الآية على انه تعالى ما أرسل أحدا من النساء ودلت أيضا على انه ما أرسل ملكا لكن ظاهر قوله جاعل الملائكة رسلا يدل على ان الملائكة رسل الله الى سائر الملائكة فكان ظاهر هذه الآية دالا على انه ما أرسل رسولا من الملائكة الى الناس قال القاضي وزعم أبو علي الجبائي انه لم يبعث الى الانبياء عليهم السلام الا من هو بصورة الرجال من الملائكة ثم قال القاضي لعله أراد ان الملك الذي يرسل الى الانبياء عليهم السلام بحضرة أممهم لانه اذا كان كذلك فلا بد من أن يكون أيضا بصورة الرجال كما روى ان جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وفي صورة سراقة وانما قلنا ذلك لان المعلوم من حال الملائكة ان عند ابلاغ الرسالة من الله تعالى الى الرسول قد يبقون على صورتهم الاصلية الملكية وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين وعليه تأولوا قوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام أتبعه بقوله فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في المراد بأهل الذكر وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنه يريد أهل التوراة والذكر هو التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر يعني التوراة (الثاني) قال الزجاج فاسئلوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى فانهم يعرفون ان الانبياء كلهم بشر (والثالث) أهل الذكر أهل العلم بأخبار الماضين اذ العالم بالشئ يكون ذاكرا له (والرابع) قال الزجاج معناه سألوا كل من لم يذكر بعلم وتحقيق * وأقول الظاهر ان هذه الشبهة وهي قولهم الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر انما تمسك بها كفار مكة ثم انهم كانوا مقرين بان اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله بان يرجعوا في هذه المسئلة الى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها فان اليهودي والنصراني لابد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف الناس في انه هل يجوز للمجتهد تقليد المجتهد منهم من حكم بالجواز واحتج بهذه الآية فقال لما لم يكن أحد المجتهدين عالما وجب عليه الرجوع الى المجتهد الآخر الذي يكون عالما لقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون فان لم يجب فلا أقل من الجواز ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا المكلف اذا نزلت به واقعة فان كان عالما بحكمها لم يجز له القياس وان لم يكن عالما بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالما بها لظاهر هذه الآية ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم لاجل انه يمكنه استنباط ذلك الحكم بواسطة القياس فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية فوجب أن لا يجوز والله أعلم وجوابه انه ثبت جواز العمل بالقياس باجماع الصحابة والاجماع أقوى من هذا الدليل والله أعلم * ثم قال تعالى بالبينات والزبر وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكروا في الجالب لهذه الباء وجوها (الاول) ان التقدير وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا يوحى اليهم وأنكر الفراء ذلك وقال ان صلة ما قبل الا لا يتأخر الى ما بعد الا والدليل عليه ان المستثنى عنه هو مجموع ما قبل الا مع صلته فما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه امتنع ادخال الاستثناء عليه (الثاني) ان التقدير وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم بالبينات والزبر وعلى هذا التقدير فقوله بالبينات والزبر متعلق بالمستثنى (الثالث) ان الجالب لهذه الباء محذوف والتقدير أرسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء قال ونظيره ما مررت الا أخوك بزيد ما مررت الا أخوك ثم يقول مررت بزيد (الرابع) أن يقال الذكر بمعنى العلم والتقدير فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ان كنتم لا تعلمون (الخامس) أن يكون التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله تعالى بالبينات والزبر لفظة جامعة لكل ما تكامل به الرسالة لان مدار أمرها على المعجزات الدالة على صدق من يدعي الرسالة وهي البينات وعلى التكاليف التي يبلغها الرسول من الله تعالى الى العباد

ليسوا من الايمان بالله في شئ وان لم يعرضوا عنه صريحا اعراضهم عن الجهاد باستئذانهم في القعود (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أي ان تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد اليه ونهض له من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقدا وأقاموا أمر الجهاد بكلا نوعيه كقوله تعالى فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين (وأولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم) بواسطة نعوتهم المزبورة (الخيرات) أي منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في العقبى وقيل الحور كقوله عز قائلا فيهن خيرات حسان وهي جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل وتكرير اسم الاشارة تنويه لشأنهم وربء لمكانهم (أعد الله لهم) استئناف لبيان كونهم مفلحين أي هيأ لهم في الآخرة (جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد (ذلك) اشارة الى ما فهم من اعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى (الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) شروع في بيان أحوال منافقي الاعراب اثر بيان منافقي أهل المدينة

وهى الزبر* ثم قال تعالى وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم وفيه مسائل (المسألة الاولى) ظاهر هذا الكلام يقتضى ان هذا الذكر مفتقر الى بيان رسول الله عليه الصلاة والسلام والمفتقر الى البيان مجمل فظاهر هذا النص يقتضى ان القرآن كله مجمل فلهذا المعنى قال بعضهم متى وقع التعارض بين القرآن و بين الخبر وجب تقديم الخبر لان القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية والخبر مبين له بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل والجواب ان القرآن منه محكم ومنه متشابه والمحكم يجب كونه مبينا فثبت ان القرآن ليس كله مجملا بل فيه ما يكون مجملا فقوله لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على المجملات (المسألة الثانية) ظاهر هذه الآية يقتضى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول بيان كل ما أنزله الله تعالى على المكلفين من الاحكام لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس ولما دلت هذه الآية على ان المبين لكل التكاليف والاحكام هو الرسول صلى الله عليه وسلم علمنا ان القياس ليس بحجة وأجيب عنه بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم* ثم قال تعالى أفأمن الذين مكروا السيئات المكر فى اللغة عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ولا بد ههنا من اضمار والتقدير المكرات السيئات والمراد أهل مكة ومن حول المدينة قال الكلبى المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى والاقرب ان المراد سعيهم فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سبيل الخفية ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم أمورا أربعة (الاول) ان يخسف الله بهم الارض كما خسف بقارون (والثانى) ان يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون والمراد أن يأتيهم العذاب من السماء من حيث يفجؤهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط (والثالث) ان يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين وفى تفسير هذا التقلب وجوه (الاول) انه يأخذهم بالعقوبة فى أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما أنه قادر على اهلاكهم فى الحضر وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد (وثانيها) تفسير هذا اللفظ بانه يأخذهم بالليل والنهار فى أحوال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وحقيقته فى حال تصرفهم فى الامور التى يتصرف فيها أمثالهم (وثالثها) أن يكون المعنى أو يأخذهم فى حال ما ينقلبون فى قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل قسرا كما قال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها (والنوع الرابع) من الاشياء التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية على سبيل التهديد قوله تعالى أو يأخذهم على تخوف وفى تفسير التخوف قولان (الاول) التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشئ وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التى تليها فيكون هذا أخذا ورد عليهم بعد أن مر بهم قبل ذلك زمانا طويلا فى الخوف والوحشة (والقول الثانى) ان التخوف هو التنقص قال ابن الاعرابى يقال تخوفت الشئ وتخيفته اذا تنقصته وعن عمر انه قال على المنبر ما تقولون فى هذه الآية فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك فى اشعارها قال نعم قال شاعرنا وأنشد

تخوف الرحل منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم اذا عرفت هذا فنقول هذا التنقص يحتمل أن يكون المراد منه ما يقع فى اطراف بلادهم كما قال تعالى أولا يرون انا نأتى الارض ننقصها من أطرافها والمعنى انه تعالى لا يعاجلهم بالعذاب ولكن ينقص من أطراف بلادهم الى القرى التى تجاورهم حتى يخلص الامر اليهم فحينئذ يهلكهم و يحتمل أن يكون المراد انه ينقص

أموالهم

والمعذرون من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرئ المعذرون من الاعذار وهو الاجتهاد فى العذر والاحتشاد فيه قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا لجهدا فأذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام سيغنينى الله تعالى عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه وعن قتادة اعتذروا بالكذب وقرئ المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن اذ التاء لا تدغم فى العين ادغامها فى الطاء والزاء والصاد فى المطوعين وأزكى وأصدق وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذورون والمعذرون أى الذين لم يفرطوا فى العذر (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) وهم منافقو الاعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعاء الايمان والطاعة (سيصيب الذين كفروا منهم) أى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره (عذاب أليم) بالقتل والاسر فى الدنيا والنار فى الآخرة (ليس على الضعفاء ولا على

أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتي الفناء على الكل فهذا تفسير هذه الامور الاربعة والحاصل انه تعالى خوفهم بخسف يحصل في الارض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة واحدة حال ما لا يكونون عالمين بعلاماتها ودلائلها أو بآفات تحدث قليلا قليلا الى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم ختم الآية بقوله فان ربكم لرؤف رحيم والمعنى انه يمهل في أكثر الامر لانه رؤف رحيم فلا يعاجل بالعذاب

قوله تعالى ﴿أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم انه تعالى لما خوف المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم ان مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاقسام الاربعة ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ حمزة والكسائي أولم تروا بالتاء على الخطاب وكذلك في سورة العنكبوت أولم تروا أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده بالتاء على الخطاب والباقون بالياء فيهما كناية عن الذين مكروا السيآت وأيضا ان ما قبله غيبة وهو قوله ان يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب أو يأخذهم فكذا قوله أولم يروا وقرأ أبو عمرو وحده تتفيؤ بالتاء والباقون بالياء وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله أولم يروا الى ما خلق الله لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد به الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر الى الشئ وتأمل لاحواله وقوله الى ما خلق الله من شئ قال أهل المعاني أراد من شئ له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ولفظ الآية يشعر بهذا القيد لان قوله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل يدل على ان ذلك الشئ كثيف يقع له ظل على الارض وقوله يتفيؤ ظلاله اخبار عن قوله شئ وليس بوصف له ويتفيأ يتفعل من الفئ يقال فاء الظل يفئ فيأ اذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس وأصل الفئ الرجوع ومنه فئ المولى وذكرنا ذلك في قوله تعالى فان فاؤا فان الله غفور رحيم وكذلك فئ المسلمين لما يعود على المسلمين من مال من خالف دينهم ومنه قوله تعالى ما أفاء الله على رسوله منهم وأصل هذا كله من الرجوع اذا عرفت هذا فنقول اذا عدى فاء فانه يعدى اما بزيادة الهمزة أو بتضعيف العين أما التعدية بزيادة الهمزة فكقوله ما أفاء الله وأما بتضعيف العين فكقوله فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ قال الازهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشي بعد ما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس كما قال الشاعر

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه * ولا الفئ من برد العشي تذوق

قال ثعلب أخبرت عن أبي عبيدة ان رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فئ وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ومنهم من أنكر ذلك فان أبا زيد أنشد للنابغة الجعدي

فسلام الاله يغدو عليهم * وفيوء الفردوس ذات الظلال

فهذا الشعر قد أوقع فيه لفظ الفئ على ما لم تنسخه الشمس لان ما في الجنة من الظل ما حصل بعد أن كان زائلا بسبب نور الشمس وتقول العرب في جمع فئ أفياء وهي للعدد القليل وفيوء للكثير كالنفوس والعيون وقوله ظلاله أضاف الظلال الى مفرد ومعناه الاضافة الى ذوي الظلال وانما حسن هذا لان الذي عاد اليه الضمير وان كان واحدا في اللفظ وهو قوله الى ما خلق الله الا أنه كثير في المعنى ونظيره قوله تعالى لتستووا على ظهوره فاضاف الظهور وهو جمع الى ضمير مفرد لانه يعود الى واحد أريد به الكثرة وهو قوله ما تركبون هذا كله كلام الواحدي وهو بحث حسن * أما قوله عن اليمين والشمائل ففيه بحثان ﴿الاول﴾ في المراد باليمين والشمائل قولان (الاول) ان يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب والسبب في تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين ان أقوى جانبي الانسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية فلما

المرضى) كالهرمى والزمنى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) لفقرهم كمزينة وجهينة وبني عذرة (حرج) اثم في التخلف اذا نصحوا الله ورسوله) وهو عبارة عن الايمان بهما والطاعة لهما في السر والعلن وتوليهما في السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه (ما على المحسنين من سبيل) استئناف مقرر لمضمون ما سبق أي ليس عليهم جناح ولا الى معاتبتهم سبيل ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله ورسوله في سلك المحسنين أو تعليل لنفي الحرج عنهم أي ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم (والله غفور رحيم) تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشير الى أن بهم حاجة الى المغفرة وان كان تخلفهم بعذر (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سيأتي انما السبيل الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبد الله بن مغفل وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انذرتنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة

كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق الى المغرب لاجرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله اذا عرفت هذا فنقول ان الشمس عند طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربي فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربي وقع الاظلال في الجانب الشرقي فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال من اليمين الى الشمال وبالعكس وعلى هذا التقدير فالاظلال في أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ الاظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض (القول الثاني) ان البلدة التي يكون عرضها أقل من مقدار الميل فان في الصيف تحصل الشمس على يسارها وحينئذ يقع الاظلال على يمينهم فهذا هو المراد من انتقال الاظلال عن الايمان الى الشمائل وبالعكس هذا ما حصلته في هذا الباب وكلام المفسرين فيه غير ملخص (البحث الثاني) لقائل أن يقول ما السبب في ان ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع وأجيب عنه بأشياء (أحدها) أنه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر (وثانيها) قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحدة من ذوات الاظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله ما خلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما بيناه فيحتمل كلا الامرين (وثالثها) أن العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم (ورابعها) انا اذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الاظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع والله أعلم (المسئلة الرابعة) أما قوله سجدا لله ففيه احتمالات (الاول) أن يكون المراد من السجود الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد السوء في زمانه أي اخضع له قال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * أي متواضعة اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى دبر النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية بحيث يقع أضواؤها على هذا العالم السفلي على وجوه مخصوصة ثم انا نشاهد ان تلك الاضواء وتلك الاظلال لا تقع في هذا العالم الاعلى وفق تدبير الله تعالى وتقديره فنشاهد ان الشمس اذا طلعت وقعت للاجسام الكثيفة اظلال ممتدة في الجانب الغربي من الارض ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ازدادت تلك الاظلال تقلصا وانتقاصا الى الجانب الشرقي الى أن تصل الشمس الى وسط الفلك فاذا انحدرت الى الجانب الغربي ابتدأت الاظلال بالوقوع في الجانب الشرقي وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمددا وتزايدا في الجانب الشرقي وكما انا نشاهد هذه الحالة في اليوم الواحد فكذلك نشاهد أحوال الاظلال مختلفة في التيامن والتياسر في طول السنة بسبب اختلاف أحوال الشمس في الحركة من الجنوب الى الشمال وبالعكس فلما شاهدنا أحوال هذه الاظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الارض وغربها وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره ورأينا أنها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين علمنا انها منقادة لقدرة الله خاضعة لتقديره وتدبيره فكانت السجدة عبارة عن هذه الحالة فان قيل لم لا يجوز أن يقال اختلاف حال هذه الاظلال معلل باختلاف سير النير الاعظم الذي هو الشمس لا لاجل تقدير الله تعالى وتدبيره قلنا قد دللنا على أن الجسم لا يكون متحركا لذاته اذ لو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة لبقي هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ولو بقي ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ولو كان الامر كذلك لكان هذا سكونا لا حركة فالقول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنا لذاته وانه محال وما أفضى ثبوته الى نفيه كان باطلا فعلمنا أن الجسم يمتنع كونه متحركا لذاته وأيضا فقد دللنا على أن الاجسام متماثلة في تمام الماهية فاختصاص جرم الشمس بالقوة المعينة والخاصية المعينة لابد وأن يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم اذا ثبت هذا فنقول هب ان اختلاف أحوال

الاظلال

نعزمعك فقال عليه السلام لا أجد فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد ونعمان وقيل أبو موسى الاشعري وأصحابه رضي الله تعالى عنه (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) حال من الكاف في أتوك باضمار قد وما عامة لما سألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة وفي ايثار لا أجد على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (تولوا) جواب اذا (وأعينهم تفيض) أي تسيل بشدة (من الدمع) أي دمعا فان من البيانية مع مجرورها في حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها لافادته ان العين بعينها صارت دمعا فياضا والجملة حالية وقوله عز اسمه (حزنا) نصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ما قبله أي تفيض للحزن فان الحزن يسند الى العين مجازا كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنا فتكون هذه الجملة حالا من الضمير في تفيض (الا يجدوا) على حذف لام متعلقة بحزنا أو تفيض أي لئلا يجدوا (ما ينفقون) في شراء ما يحتاجون اليه ان لم يجدوه عندك (انما السبيل) بالمعاتبة (على الذين يستأذنونك) في التخلف (وهم أغنياء)

الاظلال انما كان لاجل حركات الشمس الا أنا لما دللنا على ان محرك الشمس بالحركة الخاصة ليس الا الله سبحانه كان هذا دليلا على أن اختلاف أحوال الاظلال لم يقع الا بتدبير الله تعالى وتخليقه فثبت أن المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع ونظيره قوله والنجم والشجر يسجدان وقوله وظلالهم بالغدو والآصال تقدم بيانه وشرحه (والقول الثاني في تفسير هذا السجود) ان هذه الاظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد قال أبو العلاء المعري في صفة واد

بعرف يطيل الجنح فيه سجوده * وللارض زي الراهب المتعبد

فلما كانت الاظلال تشبه بشكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد له بئس ما صنعت وقال مجاهد ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شئ يسجد لله سواء كان ذلك ساجدا أم لا واعلم أن الوجه الاول أقرب الى الحقائق العقلية والثاني أقرب الى الشبهات الظاهرة (المسئلة الخامسة) قوله سجدا حال من الظلال وقوله وهم داخرون أي صاغرون يقال دخر يدخر دخورا أي صغر يصغر صغارا وهو الذي يفعل ما تأمره شاء أم أبى وذلك لان هذه الاشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله وهم داخرون حال أيضا من الظلال * فان قيل الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون قلنا لانه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء * أما قوله تعالى ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا أن السجود على نوعين سجود هو عبادة كسجود المسلمين لله تعالى وسجود هو عبارة عن الانقياد لله تعالى والخضوع ويرجع حاصل هذا السجود الى أنها في نفسها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما وانه لا يترجح أحد الطرفين على الآخر الا لمرجح اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد بالسجود المذكور في هذه الآية السجود بالمعنى الثاني وهو التواضع والانقياد والدليل عليه ان اللائق بالدابة ليس الا هذا السجود ومنهم من قال المراد بالسجود ههنا هو المعنى الاول لان اللائق بالملائكة هو السجود بهذا المعنى لان السجود بالمعنى الثاني حاصل في كل الحيوانات والنباتات والجمادات ومنهم من قال السجود لفظ مشترك بين المعنيين وحمل اللفظ المشترك لافادة مجموع معنييه جائز فحمل لفظ السجود في هذه الآية على الامرين معا أما في حق الدابة فبمعنى التواضع وأما في حق الملائكة فبمعنى سجود المسلمين لله تعالى وهذا القول ضعيف لانه ثبت ان استعمال اللفظ المشترك لافادة جميع مفهوماته معا غير جائز (المسئلة الثانية) قوله من دابة قال الاخفش يريد من الدواب وأخبر بالواحد كما تقول ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله وقال ابن عباس يريد كل ما دب على الارض (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول ما الوجه في تخصيص الدواب والملائكة بالذكر فنقول فيه وجوه (الاول) أنه تعالى بين في آية الظلال ان الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى وبين بهذه الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى لان أخسها الدواب وأشرفها الملائكة فلما بين في أخسها وفي أشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلا على أنها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى (والوجه الثاني) قال حكماء الاسلام الدابة اشتقاقها من الدبيب والدبيب عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم لكل حيوان جسماني يتحرك ويدب فلما ميز الله تعالى الملائكة عن الدابة علمنا أنها ليست مما يدب بل هي أرواح محضة مجردة ويمكن الجواب عنه بأن الجناح للطيران مغاير للدبيب بدليل قوله تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه والله أعلم * أما قوله تعالى وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة وهي دلالة قاهرة قاطعة على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب لان قوله وهم لا يستكبرون يدل على أنهم منقادون لصانعهم وخالقهم وأنهم ما خالفوه في أمر من الامور ونظيره قوله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك وقوله لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأما قوله ويفعلون ما يؤمرون فهذا أيضا يدل على انهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب فان قالوا هب ان هذه الآية تدل

واجدون لاهبة الغزو مع سلامتهم (رضوا) استئناف تعليلي لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بأن يكونوا مع الخوالف) الذين شأنهم الضعة والدناءة (وطبع الله على قلوبهم) أي خذلهم فغفلوا عن وخامة العاقبة (فهم) بسبب ذلك (لا يعلمون) أبدا غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلا كما لم يعلموا بخساسة شأنه عاجلا (يعتذرون اليكم) استئناف لبيان ما يتصدون له عند القفول اليهم * روي أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع عليه السلام اليهم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانهم كانوا يعتذرون اليهم أيضا لا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أي يعتذرون اليكم في التخلف (اذا رجعتم) من الغزو منتهين (اليهم) وانما لم يقل الى المدينة ايذانا بان مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع الى المدينة فلعل منهم من بادر الى الاعتذار قبل الرجوع اليها (قل) تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه فيما سبق لاصحابه أيضا لما أن الجواب وظيفته عليه السلام وأما اعتذارهم فكان شاملا للمسلمين شمول الرجوع لهم (لا تعتذروا) أي لا تفعلوا الاعتذار كقوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون أو لا تعتذروا

على انهم فعلوا كل ما أمروا به فلم قلتم انها تدل على انهم تركوا كل ما نهوا عنه قلنا لان كل من نهى عن شئ فقد أمر بتركه وحينئذ يدخل فى اللفظ واذا ثبت بهذه الآية كون الملائكة معصومين من كل الذنوب وثبت ان ابليس ما كان معصوما من الذنوب بل كان كافرا لزم القطع بأن ابليس ما كان من الملائكة (والوجه الثانى) فى بيان هذا المقصود انه تعالى قال فى صفة الملائكة وهم لا يستكبرون ثم قال لابليس أستكبرت أم كنت من العالين وقال أيضا له اخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فثبت أن الملائكة لا يستكبرون وثبت أن ابليس تكبر واستكبر فوجب أن لا يكون من الملائكة وأيضا لما ثبت بهذه الآية وجوب عصمة الملائكة ثبت أن القصة الخبيثة التى يذكرونها فى حق هاروت وماروت كلام باطل فان الله تعالى وهو أصدق القائلين لما شهد فى هذه الآية على عصمة الملائكة وبراءتهم عن كل ذنب وجب القطع بأن تلك القصة كاذبة باطلة والله أعلم واحتج الطاعنون فى عصمة الملائكة بهذه الآية فقالوا انه تعالى وصفهم بالخوف ولولا انهم يجوزون على أنفسهم الاقدام على الكبائر والذنوب والا لم يحصل الخوف والجواب من وجهين (الاول) أنه تعالى حذرهم من العقاب فقال ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم وهم لهذا الخوف يتركون الذنب (والثانى) وهو الاصح ان ذلك الخوف خوف الاجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والدليل على صحته قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وهذا يدل على انه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم كان الخوف منه أعظم وهذا الخوف لا يكون الا خوف الاجلال والكبرياء والله أعلم (المسئلة الثانية) قالت المشبهة قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم هذا يدل على ان الاله تعالى فوقهم بالذات واعلم أنا بالغنا فى الجواب عن هذه الشبهة فى تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده والذى نزيده ههنا ان قوله يخافون ربهم من فوقهم معناه يخافون ربهم من أن ينزل عليهم العذاب من فوقهم واذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى سقط قولهم وأيضا يجب حمل هذه الفوقية على الفوقية بالقدرة والقهر كقوله وانا فوقهم قاهرون والذى يقوى هذا الوجه انه تعالى لما قال يخافون ربهم من فوقهم وجب أن يكون المقتضى لهذا الخوف هو كون ربهم فوقهم لما ثبت فى أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف يشعر بكون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف اذا ثبت هذا فنقول هذا التعليل انما يصح لو كان المراد بالفوقية الفوقية بالقهر والقدرة لانها هى الموجبة للخوف أما الفوقية بالجهة والمكان فهى لا توجب الخوف بدليل ان حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع انه أخس عبيده فسقطت هذه الشبهة (المسئلة الثالثة) دلت هذه الآية على ان الملائكة مكلفون من قبل الله تعالى وان الامر والنهى متوجه عليهم كسائر المكلفين ومتى كانوا كذلك وجب أن يكونوا قادرين على الخير والشر (المسئلة الرابعة) تمسك قوم بهذه الآية فى بيان أن الملك أفضل من البشر من وجوه (الاول) انه تعالى قال ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وذكرنا ان تخصيص هذين النوعين بالذكر انما يحسن اذا كان أحد الطرفين أخس المراتب وكان الطرف الثانى أشرفها حتى يكون ذكرهذين الطرفين منبها على الباقى واذا كان كذلك وجب أن يكون الملائكة أشرف خلق الله تعالى (الثانى) ان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل على أنه ليس فى قلوبهم تكبر وترفع وقوله ويفعلون ما يؤمرون يدل على ان أعمالهم خالية عن الذنب والمعصية فمجموع هذين الكلامين يدل على أن بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الاخلاق الفاسدة والافعال الباطلة وأما البشر فليسوا كذلك ويدل عليه القرآن والخبر أما القرآن فقوله تعالى قتل الانسان ما أكفره وهذا الحكم عام فى الانسان وأقل مراتبه أن تكون طبيعة الانسان مقتضية لهذه الاحوال الذميمة وأما الخبر فقوله عليه الصلاة والسلام ما منا الا وقد عصى أوهم بالمعصية غير يحيى بن زكريا ومن المعلوم بالضرورة ان المبرأ عن المعصية والهم بها أفضل ممن عصى أوهم بها (الوجه الثالث) أنه لا شك ان الله تعالى خلق الملائكة قبل البشر بأدوار متطاولة وأزمان ممتدة ثم انه وصفهم بالطاعة والخضوع والخشوع طول هذه المدة وطول العمر مع الطاعة يوجب مزيد الفضيلة لوجهين (الاول) قوله عليه السلام الشيخ فى قومه

بما عندكم من المعاذير وأما التعرض لعنوان كذبها فلا نساعده قوله تعالى (لن نؤمن لكم) أى لن نصدقكم فى ذلك أبدا فانه استئناف تعليلى للنهى مبنى على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق فى الاعتذار كأنهم قالوا لم لا نعتذر فقيل لانا لا نصدقكم أبدا فيكون عبثا اذ لا يترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل (قد نبأنا الله من أخباركم) تعليل لانتفاء التصديق أى أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه فى ضمائركم وهيأتموه للابراز فى معرض الاعتذار من الاكاذيب وجمع ضمير المتكلم فى الموضعين للمبالغة فى حسم أطماعهم من التصديق رأسا ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلا فان تصديق البعض لهم ربما يطمعهم فى تصديق الرسول أيضا صلى الله عليه وسلم بواسطة المصدقين وللايذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة (وسيرى الله عملكم) فيما سيأتى أتنيبون اليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استتابة وامهال للتوبة وتقديم مفعول الرؤية على ما عطف على فاعله من قوله تعالى (ورسوله) للايذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللاشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل

كالنبي فى أمته فضل الشيخ على الشاب وما ذاك الا لانه لما كان عمره أطول فالظاهر ان طاعته أكثر فكان أفضل (والثانى) انه صلى الله عليه وسلم قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فلما كان شروع الملائكة فى الطاعات قبل شروع البشر فيها لزم أن يقال انهم هم الذين سنوا هذه السنة الحسنة وهى طاعة الخالق القديم الرحيم والبشر انما جاؤا بعدهم واستنوا بسنتهم فوجب بمقتضى هذا الخبر ان كل ما حصل للبشر من الثواب فقد حصل مثله للملائكة ولهم ثواب القدر الزائد من الطاعة فوجب كونهم أفضل من غيرهم (الوجه الرابع) فى دلالة الآية على هذا المعنى قوله يخافون ربهم من فوقهم وقد بينا بالدليل ان هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة وظاهر الآية يدل على انه لا شئ فوقهم فى الشرف والرتبة الا الله تعالى وذلك يدل على كونهم أفضل المخلوقات والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون وله ما فى السموات والارض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية الاولى ان كل ما سوى الله سواء كان من عالم الارواح أو من عالم الاجسام فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه فى هذه الآية بالنهى عن الشرك وبالامر بأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وانه غنى عن الكل فقال لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لقائل أن يقول ان الالهين لا بد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى قوله الهين اثنين وجوابه من وجوه (أحدها) قال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين (وثانيها) وهو الاقرب عندى ان الشئ اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة فى التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح اذا عرفت هذا فالقول بوجود الالهين قول مستقبح فى العقول ولهذا المعنى فان أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين فى الوجوب والقدم وصفات الكمال فقوله لا تتخذوا الهين اثنين المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح (وثالثها) ان قوله الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهى وقع عن اثبات الاله أو عن اثبات التعدد أو عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين ثبت أن قوله لا تتخذوا الهين نهى عن اثبات التعدد فقط (ورابعها) ان الاثنينية منافية للالهية وتقريره من وجوه (الاول) أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجبا لذاته لكانا مشتركين فى الوجوب الذاتى ومتباينين بالتعين وما به المشاركة غير ما به المباينة فكل واحد منهما مركب من جزأين وكل مركب فهو ممكن فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفى القول بكونهما واجبى الوجود (الثانى) انا لو فرضنا الهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثانى لان الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلا ولا التفاوت أصلا واذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثانى واذا ثبت هذا امتنع كون احدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية واذا ثبت هذا فاما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد واحد منهما البتة فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون الها فثبت أن كونهما اثنين ينفى كون كل واحد منهما الها (الثالث) انا لو فرضنا الهين اثنين لكان اما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر فان قدر فذاك الاله والآخر ضعيف وان لم يقدر فهو ضعيف (والرابع) وهو ان أحدهما اما أن يقوى على مخالفة الآخر أو لا يقوى عليه فان لم يقو عليه فهو ضعيف وان قوى عليه فذاك الآخر ان لم يقو على الدفع فهو ضعيف وان قوى عليه فالاول المغلوب ضعيف فثبت أن الاثنينية والالهية متضادتان فقوله لا تتخذوا الهين اثنين المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الالهية وبين الاثنينية

بأعمالهم (ثم تردون) يوم القيامة (الى عالم الغيب والشهادة) للجزاء بما ظهر منكم من الاعمال ووضع المظهر موضع المضمر بتشديد الوعيد فان علمه سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة واحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم (فينبئكم) عند ردكم اليه ووقوفكم بين يديه (بما كنتم تعملون) أى بما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الاعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو بعملكم المستمر على أنها مصدرية والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به وايثارها عليها لمراعاة ما سبق من قوله تعالى قد نبأنا الله الخ فان المنبأ به الاخبار المتعلقة بأعمالهم وللايذان بانهم ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة اعمالهم وانما يعلمونها يومئذ (سيحلفون بالله لكم) تأكيد لمعاذيرهم الكاذبة وتقرير لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الاكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له (اذا انقلبتم) أى انصرفتم من الغزو (اليهم) ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الايذان بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبى عليه الصلاة والسلام به من قوله تعالى

والله أعلم واعلم انه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال انما هو اله واحد والمعنى انه لما دلت الدلائل السابقة على
انه لابد للعالم من الاله وثبت أن القول بوجود الالهين محال ثبت انه لا اله الا الواحد الاحد الحق الصمد ثم قال
بعده فاياى فارهبوا وهذا رجوع من الغيبة الى الحضور والتقدير انه لما ثبت ان الاله واحد وثبت ان المتكلم
بهذا الكلام اله فحينئذ ثبت انه لا اله للعالم الا المتكلم بهذا الكلام فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة الى
الحضور ويقول فاياى فارهبون وفيه دقيقة أخرى وهى أن قوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو ان لا يرهب
الخلق الا منه وان لا يرغبوا الا فى فضله واحسانه وذلك لان الموجود اما قديم واما محدث أما القديم الذى هو
الاله فهو واحد وأما ما سواه فمحدث وانما حدث بتخليق ذلك القديم وبايجاده واذا كان كذلك فلا رغبة
الا اليه ولا رهبة الا منه فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات ثم قال بعده وله ما فى
السموات والارض وهذا حق لانه لما كان الاله واحدا والواجب لذاته واحدا كان كل ما سواه حاصلا بتخليقه
وتكوينه وايجاده فثبت بهذا البرهان صحة قوله وله ما فى السموات والارض واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن
أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان أفعال العباد من جملة ما فى السموات والارض فوجب أن تكون أفعال
العباد لله تعالى وليس المراد من كونها لله تعالى انها مفعولة لاجله ولغرض طاعته لان فيها المباحات
والمحظورات التى يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة لا لغرض الطاعة فوجب أن يكون المراد من قولنا انها لله
انها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب * ثم قال بعده وله الدين واصبا الدين ههنا الطاعة والواصب الدائم
يقال وصب الشئ يصب وصوبا اذا دام قال تعالى ولهم عذاب واصب ويقال واظب على الشئ وواصب عليه
اذا داوم ومفازة واصبة أى بعيدة لا غاية لها ويقال للعليل واصب لكون ذلك المرض لازما له قال ابن قتيبة
ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه فان طاعته واجبة
أبدا واعلم ان قوله واصبا حال والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الفعل وأقول الدين قد يعنى به الانقياد
يقال يا من دانت له الرقاب أى انقادت فقوله وله الدين واصبا أى انقياد كل ما سواه له لازم أبدا لان انقياد
غيره له معلل بان غيره ممكن لذاته والممكن لذاته يلزمه أن يكون محتاجا الى السبب فى طرفى الوجود والعدم
والماهيات يلزمها الامكان لزوما ذاتيا والامكان يلزمه الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا ينتج ان الماهيات
يلزمها الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى اتصافا دائما واجبا لازما
ممتنع التغير * وأقول فى الآية دقيقة أخرى وهى ان العقلاء اتفقوا على أن الممكن حال حدوثه محتاج الى
السبب المرجح واختلفوا فى الممكن حال بقائه هل هو محتاج الى السبب قال المحققون انه محتاج لان علة
الحاجة هى الامكان والامكان من لوازم الماهية فيكون حاصلا للماهية حال حدوثها وحال بقائها فتكون
علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقائه فوجب أن تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها اذا
عرفت هذا فقوله وله ما فى السموات والارض معناه ان كل ما سوى الحق فانه محتاج فى انقلابه من العدم الى
الوجود أو من الوجود الى العدم الى مرجح ومخصص وقوله وله الدين واصبا معناه ان هذا الانقياد وهذا
الاحتياج حاصل دائما أبدا وهو اشارة الى ما ذكرناه من ان الممكن حال بقائه لا يستغنى عن المرجح
والمخصص وهذه دقائق من أسرار العلوم الالهية مودعة فى هذه الالفاظ الفائضة من عالم الوحى والنبوة
* ثم قال تعالى أفغير الله تتقون والمعنى انكم بعد ما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج
اليه فى وقت حدوثه ويحتاج اليه أيضا فى وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بهذه الاصول كيف يعقل أن يكون
للانسان رغبة فى غير الله تعالى أو رهبة عن غير الله تعالى فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب أفغير الله
تتقون * ثم قال وما بكم من نعمة فمن الله وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انه لما بين بالآية الاولى ان الواجب
على العاقل أن لا يتقى غير الله بين فى هذه الآية انه يجب عليه أن لا يشكر أحدا الا الله تعالى لان الشكر
انما يلزم على النعمة وكل نعمة حصلت للانسان فهى من الله تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله فثبت
بهذا ان العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يتقى أحدا الا الله وأن لا يشكر أحدا الا الله تعالى ﴿المسئلة

(الثانية)

لا تعتذروا الخ بل هو أمر مبتدأ (لتعرضوا) وتصفحوا (عنهم) صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله تعالى
لترضوا عنهم (فأعرضوا عنهم) لكن لا اعراض رضا كما هو طلبتهم بل اعراض اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل (انهم رجس) فانه صريح فى أن المراد بالاعراض عنهم اما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحانى واما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لان المقصود بها التطهير بالحمل على الانابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فلا يتعرض لهم بها وقوله عز وعلا (ومأواهم جهنم) اما من تمام التعليل فان كونهم من أهل النار من دواعى الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب واما تعليل مستقل أى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم فى ذلك (جزاء) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أى يجزون جزاء أو لمضمون الجملة السابقة فانها مفيدة لمعنى المجازاة قطعا كانه قيل يجزون جزاء (بما كانوا يكسبون) فى الدنيا من فنون السيآت أو على أنه مفعول له (يحلفون لكم) بدل مما سبق وعدم ذكر المحلوف به لظهوره أى يحلفون به تعالى (لترضوا
عنهم) بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم (فان ترضوا عنهم) حسبما راموا وساعدتموهم فى ذلك (فان

الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الايمان حصل بخلق الله تعالى فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله ينتج ان الايمان من الله وانما قلنا ان الايمان نعمة لان المسلمين مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان وأيضا فالنعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به وأعظم الاشياء في النفع هو الايمان فثبت ان الايمان نعمة واذا ثبت هذا فنقول وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله وهذه اللفظة تفيد العموم وأيضا مما يدل على ان كل نعمة فهي من الله أن كل ما كان موجودا فهو اما واجب لذاته واما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس الا الله تعالى والممكن لذاته لا يوجد الا لمرجح وذلك المرجح ان كان واجبا لذاته كان حصول ذلك الممكن بايجاد الله تعالى وان كان ممكنا لذاته عاد التقسيم الاول فيه ولا يذهب الى التسلسل بل ينتهي الى ايجاد الواجب لذاته فثبت بهذا البيان ان كل نعمة فهي من الله تعالى (المسألة الثالثة) النعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية فهي اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به وأما النعم الدنيوية فهي اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر والتحديد كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها والاشارة الى تفصيل تلك الانواع قد ذكرناها مرارا فلا نعيدها (المسألة الرابعة) انما دخلت الفاء في قوله فمن الله لان الباء في قوله بكم متصلة بفعل مضمر والمعنى ما يكن بكم أو ما حل بكم من نعمة فمن الله ثم قال تعالى ثم اذا مسكم الضر قال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة فاليه تجأرون أي ترفعون أصواتكم بالاستغاثة وتتضرعون اليه بالدعاء يقال جأر يجأر جؤارا وهو الصوت الشديد كصوت البقرة وقال الاعشى يصف راهبا

يراوح من صلوات المليك * طورا سجودا وطورا جؤارا

والمعنى انه تعالى بين ان جميع النعم من الله تعالى ثم اذا اتفق لاحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فالى الله يجأر أي لا يستغيث احدا الا الله تعالى لعلمه بانه لا مفزع للخلق الا هو فكانه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة في حال الرخاء والسلامة ثم قال بعده ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون بين تعالى ان عند كشف الضر وسلامة الاحوال يفترقون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع الا الى الله تعالى وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره وهذا جهل وضلال لانه لما شهدت فطرته الاصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع الا الى الواحد ولا مستغاث الا الواحد فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد فاما انه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث الا الله تعالى وعند زوال البلاء يثبت الاضداد والشركاء فهذا جهل عظيم وضلال كامل ونظيره هذه الآية قوله تعالى فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ثم قال تعالى ليكفروا بما آتيناهم وفي هذه اللام وجهان (الاول) انها لام كي والمعنى انهم أشركوا بالله غيره في كشف ذلك الضر عنهم وغرضهم من ذلك الاشراك أن ينكروا كون ذلك الانعام من الله تعالى ألا ترى أن العليل اذا اشتد وجعه تضرع الى الله تعالى في ازالة ذلك الوجع فاذا زال أحال زواله على الدواء الفلاني والعلاج الفلاني وهذا أكثر احوال الخلق وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله في اليوم الذي كنت أكتب هذه الاوراق وهو اليوم الاول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة وهدة عظيمة وقت الصبح ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع فلما سكنت وطاب الهواء وحسن أنواع الوقت نسوا في الحال تلك الزلزلة وعادوا الى ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة وكأن هذه الحالة التي شرحها الله تعالى في هذه الآية تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الانسان (والوجه الثاني) ان هذه اللام لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا يعني أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت الا هذا الكفر واعلم أن المراد بقوله بما آتيناهم فيه قولان (الاول) أنه عبارة عن كشف الضر وازالة المكروه (والثاني) قال بعضهم المراد به القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والشرائع واعلم انه تعالى

الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أي فان رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا لان الله ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم عند سخطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك والمراد به نهي المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فان الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن وقيل انما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى قيل هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين منافقا فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقيل جاء عبد الله بن أبي يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا (الاعراب) هي صيغة الجمع وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد فان العرب هو هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادي أم القرى وأما الاعراب فلا يطلق الا على من يسكن البوادي ولهذا نسب الى الاعراب على لفظه فقيل أعرابي وقال أهل اللغة رجل عربي وجمعه العرب كما يقال مجوسي ويهودي ثم يحذف ياء النسب في الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابي ويجمع على

توعدهم بعد ذلك فقال فتمتعوا وهذا اللفظ أمر والمراد منه التهديد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وقوله قل آمنوا به أولا تؤمنوا ثم قال تعالى فسوف تعلمون أى عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾ اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه شرح فى هذه الآية تفاصيل أقوالهم وبين فسادها وسخافتها ﴿فالنوع الأول﴾ من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لما لا يعلمون نصيبا وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الأولى﴾ الضمير فى قوله لما لا يعلمون إلى ماذا يعود فيه قولان (الأول) أنه عائد إلى المشركين المذكورين فى قوله إذا فريق منكم بربهم يشركون والمعنى أن المشركين لا يعلمون (والثانى) أنه عائد إلى الأصنام أى لا يعلم الأصنام ما يفعل عبادها قال بعضهم الأول أولى لوجوه (أحدها) أن نفى العلم عن الحى حقيقة وعن الجماد مجاز (وثانيها) أن الضمير فى قوله ويجعلون عائد إلى المشركين فكذلك فى قوله لما لا يعلمون يجب أن يكون عائدا إليهم (وثالثها) أن قوله لما لا يعلمون جمع بالواو والنون وهو بالعقلاء أليق منه بالأصنام التى هى جمادات ومنهم من قال بل القول الثانى أولى لوجوه (الأول) أنا إذا قلنا إنه عائد إلى المشركين افتقرنا إلى إضمار فإن التقدير ويجعلون لما لا يعلمون إلها أو لما لا يعلمون كونه نافعا ضارا وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام لم نفتقر إلى الإضمار لأن التقدير ويجعلون لما لا علم لها ولا فهم (والثانى) أنه لو كان العلم مضافا إلى المشركين لفسد المعنى لأن من المحال أن يجعلوا نصيبا من رزقهم لما لا يعلمونه فهذا ما قيل فى ترجيح أحد هذين القولين على الآخر واعلم أنا إذا قلنا بالقول الأول افتقرنا فيه إلى الإضمار وذلك يحتمل وجوها (أحدها) ويجعلون لما لا يعلمون له حقا ولا يعلمون فى طاعته نفعا ولا فى الإعراض عنه ضررا قال مجاهد يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه ينفعهم ويضرهم نصيبا (وثانيها) ويجعلون لما لا يعلمون إلهيتها (وثالثها) ويجعلون لما لا يعلمون السبب فى صيرورتها معبودة (ورابعها) المراد استحقار الأصنام حتى كأنها لقلتها لا تعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ فى تفسير ذلك النصيب احتمالات (الأول) المراد منه أنهم جعلوا لله نصيبا من الحرث والأنعام يتقربون إلى الله تعالى به ونصيبا إلى الأصنام يتقربون به إليها وقد شرحنا ذلك فى آخر سورة الأنعام (والثانى) أن المراد من هذا النصيب البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وهو قول الحسن (والثالث) ربما اعتقدوا فى بعض الأشياء أنه إنما حصل بإعانة بعض تلك الأصنام كما أن المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة فيقولون لزحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات وللمشترى أشياء أخرى فكذا ههنا واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين هذا المذهب قال تالله لتسألن وهذا فى هؤلاء الأقوام خاصة بمنزلة قوله فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه أنه يسألهم وهذا تهديد منه شديد لأن المراد أنه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد وفى وقت هذا السؤال احتمالان (الأول) أنه يقع ذلك السؤال عند القرب من الموت ومعاينة ملائكة العذاب وقيل عند عذاب القبر (والثانى) أنه يقع ذلك فى الآخرة وهذا أولى لأنه تعالى قد أخبر بما يجرى هنالك من ضروب التوبيخ عند المسئلة فهو إلى الوعيد أقرب ﴿النوع الثانى من كلماتهم الفاسدة﴾ أنهم يجعلون لله البنات ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله * أقول أظن أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء فى الاستتار فأطلقوا عليهم لفظ البنات وأيضا قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث فهذا ما يغلب على الظن فى سبب إقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال سبحانه وفيه وجوه (الأول) أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد إليه (والثانى) تعجيب الخلق من هذا

الجهل

الاعراب والاعاريب أى أصحاب البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشئهم فى معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما فى قوله تعالى وكان الانسان كفورا اذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبرا (وأجدر أن لا يعلموا) أى أحق وأخلق بأن لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) لبعدهم عن مجلسه صلى الله عليه وسلم وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعاينة ما ينزل عليه من الشرائع فى تضاعيف الكتاب والسنة (والله عليم) بأحوال كل من أهل الوبر والمدر (حكيم) فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب (ومن الاعراب) شروع فى بيان تشعب جنس الاعراب الى فريقين وعدم انحصارهم فى الفريق المذكور كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما وحمل الاعراب على الفريق المذكور خاصة وان ساعده كون من يحكى حاله بعضا منهم وهم الذين بصدد الانفاق من أهل النفاق دون فقرائهم أو أعراب أسد وغطفان وتميم كما قيل لكن لا يساعده ما سيأتى من قوله تعالى ومن الاعراب من يؤمن الخ فان

الجهل القبيح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى (والثالث) قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول ثم قال تعالى ولهم ما يشتهون أجاز الفراء فى ما وجهين (الاول) أن يكون فى محل النصب على معنى ويجعلون لانفسهم ما يشتهون (والثانى) أن يكون رفعا على الابتداء كانه تم الكلام عند قوله سبحانه ثم ابتدأ فقال ولهم ما يشتهون يعنى البنين وهى كقوله أم له البنات ولكم البنون ثم اختار الوجه الثانى وقال لو كان نصبا لقال ولانفسهم ما يشتهون لانك تقول جعلت لنفسك كذا وكذا ولا تقول جعلت لك وأبى الزجاج اجازة الوجه الاول وقال ما فى موضع رفع لا غير والتقدير ولهم الشئ الذى يشتهونه ولا يجوز النصب لان العرب تقول جعل لنفسه ما تشتهى ولا تقول جعل له ما يشتهى وهو يعنى نفسه ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فما لا يرتضيه لنفسه كيف ينسبه لله تعالى فقال واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور الا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ومعلوم ان السرور كما يوجب تغير البشرة فكذلك الحزن يوجبه فوجب أن يكون لفظة التبشير حقيقة فى القسمين ويتأكد هذا بقوله فبشرهم بعذاب أليم ومنهم من قال المراد بالتبشير ههنا الاخبار والقول الاول أدخل فى التحقيق أما قوله ظل وجهه مسودا فالمعنى انه يصير متغيرا تغير مغتم ويقال لمن لقى مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا وأقول انما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم وذلك لان الانسان اذا قوى فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب ووصل الى الاطراف ولا سيما الى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد واذا وصل الروح الى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار وأما اذا قوى غم الانسان احتقن الروح فى باطن القلب ولم يبق منه أثر قوى فى ظاهر الوجه فلا جرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الارضية والكثافة فثبت ان من لوازم الفرح استنارة الوجه واشراقه ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده فلهذا السبب جعل بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية ولهذا المعنى قال ظل وجهه مسودا وهو كظيم أى ممتلئ غما وحزنا ثم قال تعالى يتوارى من القوم من سوء أى يختفى ويتغيب من سوء ما بشر به قال المفسرون كان الرجل فى الجاهلية اذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عن القوم الى أن يعلم ما يولد له فان كان ذكرا ابتهج به وان كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياما يدبر فيها انه ماذا يصنع بها وهو قوله أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب والمعنى أيحبسه والامساك ههنا بمعنى الحبس كقوله أمسك عليك زوجك وانما قال أيمسكه ذكره بضمير الذكران لان هذا الضمير عائد على ما فى قوله ما بشر به والهون الهوان قال النضر بن شميل يقال انا أهون عليه هونا وهوانا وأهنته هونا وهوانا وذكرنا هذا فى سورة الانعام عند قوله عذاب الهون وفى ان هذا الهون صفة من قولان (الاول) انه صفة المولودة ومعناه أن يمسكها على هون منه لها (والثانى) قال عطاء عن ابن عباس انه صفة للاب ومعناه انه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه ثم قال أم يدسه فى التراب والدس اخفاء الشئ فى الشئ يروى أن العرب كانوا يحفرون حفيرة ويجعلونها فيها حتى تموت وروى عن قيس بن عاصم أنه قال يا رسول الله انى واريت ثمانى بنات فى الجاهلية فقال عليه السلام أعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يا نبى الله انى ذو ابل فقال أهد عن كل واحدة منهن هديا وروى أن رجلا قال يا رسول ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى أن تزينها فأخرجتها الى فانتهيت بها الى واد بعيد القعر فألقيتها فيه فقالت يا أبت قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال عليه السلام ما كان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار واعلم أنهم كانوا مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها الى أن تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة ثم انه تعالى قال ألا ساء ما يحكمون وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى أعظم

أولئك ليسوا من هؤلاء قطعا وانما هم من الجنس أى ومن جنس الاعراب الذى نعت بنعت بعض أفراده (من يتخذ ما ينفق) من المال أى يعد ما يصرفه فى سبيل الله ويتصدق به صورة (مغرما) أى غرامة وخسرانا لازما اذ لا ينفقه احتسابا ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنما وانما ينفقه رياء وتقية فهى غرامة محضة وما فى صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ انما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات النفقة أعنى كونها غرامة (ويتربص بكم الدوائر) أصل الدائرة ما يحيط بالشئ والمراد بها ما لا محيص عنه من مصائب الدهر أى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه فيتخلص مما ابتلى به (عليهم دائرة السوء) دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه غلت أيديهم بعد قول اليهود ما قالوا والسوء مصدر ثم أطلق على كل ضرر وشر وأضيفت اليه الدائرة ذما كما يقال رجل سوء لان من دارت عليه يذمها وهى من باب اضافة الموصوف الى صفته فوصفت فى الاصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت الى صفتها كقوله عز وجل ما كان أبوك امرأ سوء وقيل معنى الدائرة يقتضى معنى السوء فانما هى اضافة بيان وتأكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا رأسه وقرئ بالضم وهو العذاب كما قيل

الغايات فأولها أنه يسود وجهه وثانيها أنه يختفى عن القوم من شدة نفرته عن البنت وثالثها أن الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب شدة نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أن النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا ازدياد عليه اذا ثبت هذا فالشئ الذى بلغ الاستنكاف منه الى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لاله العالم المقدس العالى عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ﴿المسألة الثانية﴾ قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان الجبر لانهم يضيفون الى الله تعالى من الظلم والفواحش ما اذا أضيف الى أحدهم أجهد نفسه فى البراءة منه والتباعد عنه فحكمه فى ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين ثم قال بل أعظم لان اضافة البنات اليه اضافة قبيح واحد وذلك أسهل من اضافة كل القبائح والفواحش الى الله تعالى فيقال للقاضى انه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى أردفه الله تعالى بذكر هذا الوجه الاقناعى والا فليس كل ما قبح منا فى العرف قبح من الله تعالى ألا ترى لو أن رجلا زين اماءه وعبيده وبالغ فى تحسين صورهن ثم بالغ فى تقوية الشهوة فيهم وفيهن ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمانع فان هذا بالاتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق فعلمنا ان التعويل على هذه الوجوه المبنية على العرف انما يحسن اذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله فلا جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الاقناعية أما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية القاطعة ان خالقها هو الله تعالى فكيف يمكن الحاق أحد البابين بالآخر لولا شدة التعصب والله أعلم ثم قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهى احتياجهم الى الولد وكراهتهم الاناث خوف الفقر والعار ولله المثل الاعلى أى الصفة العالية المقدسة وهى كونه تعالى منزها عن الولد فان قيل كيف جاء ولله المثل الاعلى مع قوله فلا تضربوا لله الامثال قلنا المثل الذى يذكره الله حق وصدق والذى يذكره غيره فهو الباطل والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وانهم مفرطون تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم وفى الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة من وجهين (الاول) انه قال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم فأضاف الظلم الى كل الناس ولا شك أن الظلم من المعاصى فهذا يقتضى كون كل انسان آتيا بالذنب والمعصية والانبياء عليهم السلام من الناس فوجب كونهم آتين بالذنب والمعصية (والثانى) أنه تعالى قال ما ترك على ظهرها من دابة وهذا يقتضى أن كل من كان على ظهر الارض فهو آت بالظلم والذنب حتى يلزم من افناء كل من كان ظالما افناء كل الناس أما اذا قلنا الانبياء عليهم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب افناؤهم وحينئذ لا يلزم من افناء كل الظالمين افناء كل الناس وأن لا يبقى على ظهر الارض دابة ولما لزم علمنا أن كل البشر ظالمون سواء كانوا من الانبياء أو لم يكونوا كذلك * والجواب ثبت بالدليل أن كل الناس ليسوا ظالمين لانه تعالى قال ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات أى فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ولو كان المقتصد والسابق ظالما لفسد ذلك التقسيم فعلمنا أن المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز أن يقال كل الخلق ظالمون واذا ثبت هذا فنقول الناس المذكورون فى قوله ولو يؤاخذ الله الناس اما كل العصاة المستحقين للعقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال والله أعلم ﴿المسألة

(الثانية)

له سيئة (والله سميع) لما يقولونه عند الانفاق مما لا خير فيه (عليم) بما يضمرونه من الامور الفاسدة التى هى من جملتها ان يتربصوا بكم الدوائر وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى (ومن الاعراب) أى من جنسهم على الاطلاق (من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ) أى يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار (ما ينفق) أى ينفقه فى سبيل الله تعالى (قربات) أى ذرائع اليها والايذان بما بينهما من كمال الاختصاص جعل كأنه نفس القربات والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها وهى ثانى مفعولى يتخذ وقوله تعالى (عند الله) صفتها أو ظرف ليتخذ (وصلوات الرسول) أى وسائل اليها فانه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلى عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال اللهم صل على آل أبى أوفى فان ذلك منصبه فله أن يتفضل به على من يشاء والتعرض لوصف الايمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الاخير مع أن مساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ما ينفقانه حالا ومآلا وان ذكر اتخاذه ذريعة الى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بايمانهم وبيان اتصافهم

الثانية) من الناس من احتج بهذه الآية على أن الاصل فى المضار الحرمة فقال لو كان الضرر مشروعا لكان اما أن يكون مشروعا على وجه يكون جزاء على جرم صادر منهم أولا على هذا الوجه والقسمان باطلان فوجب أن لا يكون مشروعا أصلا * أما بيان فساد القسم الاول فلقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة والاستدلال به من وجهين (الاول) أن كلمة لو وضعت لانتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة يقتضى أنه تعالى ما آخذهم بظلمهم وأنه ترك على ظهرها من دابة (والثانى) أنه لما دلت الآية على أن لازمة أخذ الله الناس بظلمهم هو أن لا يترك على ظهرها دابة ثم انا نشاهد انه تعالى ترك على ظهرها دواب كثيرين فوجب القطع بأنه تعالى لا يؤاخذ الناس بظلمهم فثبت بهذا أنه لا يجوز أن تكون المضار مشروعة على وجه تقع أجزية عن الجرائم (وأما القسم الثانى) وهو أن يكون مشروعا ابتداء لا على وجه يقع أجزية عن جرم سابق فهذا باطل بالاجماع فثبت ان مقتضى هذه الآية تحريم المضار مطلقا ويتأكد هذا أيضا بآيات أخرى كقوله تعالى ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها وكقوله وما جعل عليكم فى الدين من حرج وكقوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وكقوله عليه السلام لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام وكقوله ملعون من ضر مسلما فثبت بمجموع هذه الآيات والاخبار أن الاصل فى المضار الحرمة فنقول اذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من كل الوجوه فان وجدنا نصا خاصا يدل على كونه مشروعا قضينا به تقديما للخاص على العام والا قضينا عليه بالحرمة بناء على هذا الاصل الذى قررناه ومنهم من قال هذه القاعدة تدل على أن كل ما يريده الانسان وجب أن يكون مشروعا فى حقه لان المنع منه ضرر والضرر غير مشروع بمقتضى هذا الاصل وكل ما يكرهه الانسان وجب أن يحرم لان وجوده ضرر والضرر غير مشروع فثبت أن هذا الاصل يتناول جميع الوقائع الممكنة الى يوم القيامة ثم نقول القياس الذى يتمسك به فى اثبات الاحكام اما أن يكون على وفق هذه القاعدة أو على خلافها والاول باطل لان هذا الاصل يغنى عنه والثانى باطل لان النص راجح على القياس والله أعلم (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن الظلم والمعاصى ليست فعلا لله تعالى بل تكون أفعالا للعباد لانه تعالى أضاف ظلم العباد اليهم وما أضافه الى نفسه فقال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم وأيضا فلو كان خلقا لله تعالى لكانت مؤاخذتهم بها ظلما من الله تعالى ولما منع الله تعالى العباد من الظلم فى هذه الآية فبأن يكون منزها عن الظلم كان أولى قالوا ويدل أيضا على أن أعمالهم مؤثرة فى وجوب الثواب والعقاب ان قوله بظلمهم الباء فيه تدل على العلية كما فى قوله ذلك بأنهم شاقوا الله واعلم أن الكلام فى هذه المسائل قد ذكرناه مرارا فلا نعيده والله أعلم (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على أن اقدام الناس على الظلم يوجب اهلاك جميع الدواب وذلك غير جائز لان الدابة لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز اهلاكها بسبب ظلم الناس والجواب عنه من وجوه (الاول) انا لا نسلم أن قوله ما ترك على ظهرها من دابة يتناول جميع الدواب * وأجاب أبو على الجبائى عنه أن المراد لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لعجل هلاكهم وحينئذ لا يبقى لهم نسل ثم من المعلوم أنه لا أحد الا وفى أحد آبائه من يستحق العذاب واذا هلكوا فقد بطل نسلهم فكان يلزمه أن لا يبقى فى العالم أحد من الناس واذا بطلوا وجب أن لا يبقى أحد من الدواب أيضا لان الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم فهذا وجه لطيف حسن (والوجه الثانى) ان الهلاك اذا ورد على الظلمة ورد أيضا على سائر الناس والدواب فكان ذلك الهلاك فى حق الظلمة عذابا وفى حق غيرهم امتحانا وقد وقعت هذه الواقعة فى زمان نوح عليه السلام (والوجه الثالث) أنه تعالى لو آخذهم لانقطع القطر وفى انقطاعه انقطاع النبت فكان لا تبقى على ظهرها دابة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال لا والله بل ان الحبارى فى وكرها لتموت بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم فهذه الوجوه الثلاثة من الجواب مفرعة على تسليم أن لفظة الدابة يتناول جميع الدواب * والجواب الثانى ان المراد من قوله ما ترك على ظهرها من دابة أى ما ترك على ظهرها من

بمزيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول الامر وأما الفريق الاول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحا (ألا انها قربة لهم) شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع ما مر من تعدده بأحد الوجهين والتنكير للتفخيم المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لا يكتنه كنهها وفى ايراد الجملة اسمية وتصديرها بحرفى التنبيه والتحقيق من الجزالة ما لا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لانها الغاية القصوى وصلوات الرسول من ذرائعها وقوله تعالى (سيدخلهم الله فى رحمته) وعد لهم باحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا والله سميع عليم وعيد للاولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى (ان الله غفور رحيم) تعليل لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقى قيل هذا فى عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مقرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجهينة وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أسلم وغفار وشئ من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان (والسابقون الاولون من المهاجرين)

كافر فالمراد بالدابة الكافر والدليل عليه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل والله أعلم (المسئلة الخامسة) الكناية فى قوله عليها عائدة الى الارض ولم يسبق لها ذكر الا أن ذكر الدابة يدل على الارض فان الدابة انما تدب عليها وكثيرا ما يكنى عن الارض وان لم يتقدم ذكرها لانهم يقولون ما عليها مثل فلان وما عليها أكرم من فلان يعنون على الارض ثم قال تعالى ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ليتوالدوا وفى تفسير هذا الاجل قولان (الاول) وهو قول عطاء عن ابن عباس انه يريد أجل القيامة (والقول الثانى) ان المراد منتهى العمر وجه القول الاول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة ووجه القول الثانى ان المشركين يؤاخذون بالعقوبة اذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا (النوع الثالث) من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله ويجعلون لله ما يكرهون واعلم أن المراد من قوله ما يكرهون أى البنات التى يكرهونها لانفسهم ومعنى قوله يجعلون يصفون الله بذلك ويحكمون به له كقولك جعلت زيدا على الناس أى حكمت بهذا الحكم وذكرنا معنى الجعل عند قوله ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ثم قال تعالى وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى قال الفراء والزجاج موضع أن نصب لان قوله أن لهم الحسنى بدل من الكذب وتقدير الكلام وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى وفى تفسير الحسنى ههنا قولان (الاول) المراد منه البنون يعنى أنهم قالوا لله البنات ولنا البنون (والثانى) انهم مع قولهم باثبات البنات لله تعالى يصفون أنفسهم بانهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول وأنهم على الدين الحق والمذهب الحسن (الثالث) انهم حكموا لانفسهم بالجنة والثواب من الله تعالى فان قيل كيف يحكمون بذلك وهم كانوا منكرين للقيامة قلنا كلهم ما كانوا منكرين للقيامة فقد قيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة ولذلك فانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه وأيضا فبتقدير أنهم كانوا منكرين للقيامة فلعلهم قالوا ان كان محمد صادقا فى قوله بالبعث والنشور فانه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذى نحن عليه ومن الناس من قال الاولى أن يحمل الحسنى على هذا الوجه بدليل انه تعالى قال بعده لا جرم أن لهم النار فرد عليهم قولهم واثبت لهم النار فدل هذا على أنهم حكموا لانفسهم بالجنة قال الزجاج لارد لقولهم والمعنى ليس الامر كما وصفوا جرم فعلهم أى كسب ذلك القول لهم النار فعلى هذا اللفظ أن فى محل النصب بوقوع الكسب عليه وقال قطرب أن فى موضع رفع والمعنى وجب أن لهم النار وكيف كان الاعراب فالمعنى هو انه يحق لهم النار ويجب ويثبت وقوله وأنهم مفرطون قرأ نافع وقتيبة عن الكسائى مفرطون بكسر الراء والباقون مفرطون بفتح الراء أما قراءة نافع فقال الفراء المعنى أنهم كانوا مفرطين على أنفسهم فى الذنوب وقيل أفرطوا فى الافتراء على الله تعالى وقال أبو على الفارسى كأنه من أفرط أى صار ذا فرط مثل أجرب أى صار ذا جرب والمعنى أنهم ذوو فرط الى النار كأنهم قد أرسلوا من يهئ لهم مواضع فيها واما قراءة قوله مفرطون بفتح الراء ففيه قولان (الاول) المعنى انهم متروكون فى النار قال الكسائى يقال ما أفرطت من القوم أحدا أى ما تركت وقال الفراء تقول العرب أفرطت منهم ناسا أى خلفتهم وأنسيتهم (والقول الثانى) مفرطون أى معجلون قال الواحدى رحمه الله وهو الاختيار ووجهه ما قال أبو زيد وغيره فرط الرجل أصحابه يفرطهم فرطا وفروطا اذا تقدمهم الى الماء ليصلح الدلاء والارسان وأفرط القوم الفارط وفرطوه اذا قدموه ومعنى قوله مفرطون على هذا التقدير كأنهم قدموا الى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم ثم بين تعالى ان مثل هذا الصنع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين عليهم السلام فقال تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم وهذا يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم قالت المعتزلة الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجوه (الاول) أنه اذا كان خالق أعمالهم هو الله تعالى فلا فائدة فى التزيين (والثانى)

بيان لفضائل أشراف المسلمين اثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو الذين أسلموا قبل الهجرة (والانصار) أهل بيعة العقبة الاولى وكانوا سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين رجلا والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير وقرئ بالرفع عطفا على والسابقون (والذين اتبعوهم باحسان) أى متلبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والانصار ومن بيانية (رضى الله عنهم) خبر للمبتدا أى رضى عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم (ورضوا عنه) بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طرا (وأعد لهم) فى الآخرة (جنات تجرى تحتها الانهار) وقرئ من تحتها كما فى سائر المواقع (خالدين فيها أبدا) من غير انتهاء (ذلك الفضل العظيم) الذى لا فوز وراءه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب الفضل وعظم الدرجة من مؤمنى الاعراب (وممن حولكم من الاعراب) شروع فى بيان أحوال منافقى أهل المدينة ومن حولها من الاعراب بعد بيان حال أهل البادية

(والثاني) أن ذلك التزيين لما كان بخلق الله تعالى لم يجز ذم الشيطان بسببه (والثالث) أن التزيين هو الذي يدعو الانسان الى الفعل واذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله تعالى كان ضروريا فلم يكن التزيين داعيا (والرابع) ان على قولهم الخالق لذلك العمل أجدر أن يكون وليا لهم من الداعي اليه (والخامس) أنه تعالى أضاف التزيين الى الشيطان ولو كان ذلك المزين هو الله تعالى لكانت اضافته الى الشيطان كذبا وجوابه ان كان مزين القبائح في أعين الكفار هو الشيطان فمزين تلك الوساوس في عين الشيطان ان كان شيطانا آخر لزم التسلسل وان كان هو الله تعالى فهو المطلوب ثم قال تعالى فهو وليهم اليوم وفيه احتمالان (الاول) أن المراد منه كفار مكة وبقوله فهو وليهم اليوم أي الشيطان يتولى اغواءهم وصرفهم عنك كما فعل بكفار الامم قبلك فيكون على هذا التقدير رجع عن أخبار الامم الماضية الى الاخبار عن كفار مكة (الثاني) انه أراد باليوم يوم القيامة يقول فهو ولي أولئك الذين كفروا وزين لهم أعمالهم يوم القيامة وأطلق اسم اليوم على يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم والمقصود من قوله فهو وليهم اليوم هو انه لا ولي لهم ذلك اليوم ولا ناصر وذلك لانهم اذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم ورأوا انه لا مخلص له منه كما لا مخلص لهم منه جاز أن يوبخوا بان يقال لهم هذا وليكم اليوم على وجه السخرية ثم ذكر تعالى أن مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الله الحجة وأزاح العلة فقال وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ المعنى انا ما أنزلنا عليك القرآن الا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الاشياء التي اختلفوا فيها والمختلفون هم أهل الملل والاهواء وما اختلفوا فيه هو الدين مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر واثبات المعاد ونفيه ومثل الاحكام مثل أنهم حرموا أشياء تحل كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحللوا أشياء تحرم كالميتة ﴿المسئلة الثانية﴾ اللام في قوله لتبين تدل على ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض ونظيره آيات كثيرة منها قوله كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وجوابه أنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال صاحب الكشاف قوله هدى ورحمة معطوفان على محل قوله لتبين الا أنهما انتصبا على أنه مفعول لهما لانهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام في قوله لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعلا لذلك الفاعل ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال الكلبي وصف القرآن بكونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون لا ينفي كونه كذلك في حق الكل كما أن قوله تعالى في أول سورة البقرة هدى للمتقين لا ينفي كونه هدى لكل الناس كما ذكره في قوله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه فانتفعوا به كما في قوله انما أنت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصود الاعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والمقصود الاعظم من هذه الاصول الاربعة تقرير الالهيات فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار عاد الى تقرير الالهيات وقد ذكرنا في أول هذه السورة انه تعالى لما أراد ذكر دلائل الالهيات ابتدأ بالاجرام الفلكية وثنى بالانسان وثلث بالحيوان وربع بالنبات وخمس بذكر أحوال البحر والارض فههنا في هذه الآية لما عاد الى تقرير دلائل الالهيات بدأ أولا بذكر الفلكيات فقال والله أنزل من السماء ماء فأحيي به الارض بعد موتها والمعنى أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سببا لحياة الارض والمراد بحياة الارض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد أن كان لا يثمر وينفع بعد أن كان لا ينفع وتقرير هذه الدلائل قد ذكرناه مرارا كثيرة ثم قال ان في ذلك لآية لقوم يسمعون سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع ﴿والنوع

منهم أي ممن حول بلدتكم (منافقون) وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها (ومن أهل المدينة) عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى (مردوا على النفاق) اما جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مسوقة لبيان غلوهم في النفاق اثر بيان اتصافهم به واما صفة للمبتدا المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره واما صفة لمحذوف أقيمت هي مقامه وهو مبتدا خبره من أهل المدينة كما في قوله ۞ انا ابن جلا وطلاع الثنايا ۞ والجملة عطف على الجملة السابقة أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أي تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه اذا درب به وضرى حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل الا في الشر فالتمرد على الوجهين الاولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الاخير خاص بمنافقي أهل المدينة وهو الاظهر والانسب بذكر منافقي أهل البادية أولا ثم ذكر منافقي الاعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقي أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه (لا تعلمهم) بيان لتمردهم أي لا تعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعني أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتنوق في مراعاة التقية والتحامي عن مواقع التهم الى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت

الثاني) من الدلائل المذكورة في هذه الآيات الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه وقد ذكرنا معنى العبرة في قوله لعبرة لأولي الابصار وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي نسقيكم بضم النون والباقون بالفتح أما من فتح النون فحجته ظاهرة تقول سقيته حتى روي أسقيه قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا وقال والذي هو يطعمني ويسقين وقال وسقوا ماء حميما ومن ضم النون فهو من قولك أسقاه اذا جعل له شرابا كقوله وأسقيناكم ماء فراتا وقوله فأسقيناكموه والمعنى ههنا انا جعلناه في كثرته وادامته كالسقيا واختار أبو عبيد الضم قال لانه شرب دائم وأكثر ما يقال في هذا المقام أسقيت (المسألة الثانية) قوله مما في بطونه الضمير عائد الى الانعام فكان الواجب أن يقال مما في بطونها وذكر النحويون فيه وجوها (الاول) أن لفظ الانعام لفظ مفرد وضع لافادة جمع كالرهط والقوم والبقر والنعم فهو بحسب اللفظ لفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو التذكير وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو التأنيث فلهذا السبب قال ههنا في بطونه وقال في سورة المؤمنين في بطونها (الثاني) قوله في بطونه أي في بطون ما ذكرنا وهذا جواب الكسائي قال المبرد هذا شائع في القرآن قال تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي يعني هذا الشئ الطالع ربي وقال ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره أي ذكر هذا الشئ واعلم أن هذا انما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقي أما الذي يكون تأنيثه حقيقيا فلا يجوز فانه لا يجوز في مستقيم الكلام أن يقال جاريتك ذهب ولا غلامك ذهبت على تقدير أن تحمله على النسمة (الثالث) أن فيه اضمارا والتقدير نسقيكم مما في بطونه اللبن اذ ليس كلها ذات لبن (المسألة الثالثة) الفرث سرجين الكرش وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال اذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثا وأعلاه دما وأوسطه لبنا فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو فذاك هو قوله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا لا يشوبه الدم ولا الفرث ولقائل أن يقول الدم واللبن لا يتولدان البتة في الكرش والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد في كرشها لا دما ولا لبنا ولو كان تولد الدم واللبن في الكرش لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الاحوال والشئ الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير اليه بل الحق أن الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وذلك هو الهضم الثاني ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية أما الصفراء فتذهب الى المرارة والسوداء الى الطحال والماء الى الكلية ومنها الى المثانة وأما ذلك الدم فانه يدخل في الاوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددي الرخو الابيض من صورة الدم الى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن فان قيل فهذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن قلنا الحكمة الالهية اقتضت تدبير كل شئ على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارا يابسا ومزاج الانثى يجب أن يكون باردا رطبا والحكمة فيه أن الولد انما يتكون في داخل بدن الانثى فوجب أن تكون الانثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين (الاول) أن الولد انما يتولد من الرطوبات فوجب أن يحصل في بدن الانثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد (والثاني) أن الولد اذا كبر وجب أن يكون بدن الام قابلا للتمدد حتى يتسع لذلك الولد فاذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الام كان بدنها قابلا للتمدد فيتسع للولد فثبت بما ذكرنا أنه تعالى خص بدن الانثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة ثم ان الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الام فعند انفصال الجنين تنصب الى الثدي والضرع لتصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير اذا

عليه من علو الكعب وسمو الطبقة في كمال الفطنة وصدق الفراسة وفي تعليق نفي العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة في ذلك وايماء الى أن ما هم فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحمل عدم علمه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمه عليه الصلاة والسلام بعد تحقيق هذا البيان على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل (نحن نعلمهم) تقرير لما سبق من مهارتهم في فن النفاق أي لا يقف على سرائرهم المركوزة في ضمائرهم الا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بابطان الكفر واظهار الاخلاص وفي تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم ما مر في تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه (سنعذبهم) وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد (مرتين) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب

عرفت هذا فاعلم أن السبب الذي لاجله يتولد اللبن من الدم في حق الانثى غير حاصل في حق الذكر فظهر الفرق اذا عرفت هذا التصوير فنقول المفسرون قالوا المراد من قوله من بين فرث ودم هو أن هذه الثلاثة تتولد في موضع واحد فالفرث يكون في أسفل الكرش والدم يكون في أعلاه واللبن يكون في الوسط وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة ولان الدم لو كان يتولد في أعلى المعدة والكرش كان يجب اذا قاءأن يقيء الدم وذلك باطل قطعا وأما نحن فنقول المراد من الآية هو أن اللبن انما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم انما يتولد من الاجزاء اللطيفة التي في الفرث وهو الاشياء المأكولة الحاصلة في الكرش وهذا اللبن متولد من الاجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولا ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيا فصفاه الله تعالى عن تلك الاجزاء الكثيفة الغليظة وخلق فيه الصفات التي باعتبارها صارت لبنا موافقا لبدن الطفل فهذا ما حصلناه في هذا المقام والله أعلم (المسئلة الرابعة) اعلم أن حدوث اللبن في الثدى واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم وبيانه من وجوه (الاول) أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح هذا المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى بقاء الغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ واذا حصلت الحاجة الى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى بحسب الحاجة وتقدير المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم (الثاني) أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الاجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول أو المشروب ولا تجذب الاجزاء الكثيفة وخلق في الامعاء قوة تجذب تلك الاجزاء الكثيفة التي هي الثفل ولا تجذب الاجزاء اللطيفة البتة ولو كان الامر بالعكس لاختلت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب (الثالث) أنه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة حتى ان تلك الاجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دما ثم انه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن وتخصيص كل واحد من هذه الاعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن الا بتقدير الحكيم العليم (الرابع) ان في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الام ينصب من ذلك الدم نصيب وافر اليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده فاذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الى جانب الثدى ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له فاذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا الى الرحم ولا الى الثدى بل ينصب على مجموع بدن المتغذي فانصباب ذلك الدم في كل وقت الى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة والحكمة لا يتأتى الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم (والخامس) أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدى ثقوبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا فحينئذ لا يخرج منها الا ما كان في غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل والحكمة في احداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدى أن يكون ذلك كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس في الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبدن الصبي سائغا للشاربين (السادس) أنه تعالى ألهم ذلك الصبي الى المص فان الام كلما ألقمت حلمة الثدى في فم الصبي فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص فلولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدى (السابع) انا بينا أنه تعالى انما خلق اللبن من فضلة الام وانما خلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان فالشاة لما تناولت العشب

الاول والثاني اما القتل واما عذاب القبر أو الاول هو القتل والثاني عذاب القبر أو الاول أخذ الزكاة لما انهم يعدونها مغرما بحتا والثاني نهك الابدان واتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما في قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد أخرى (ثم يردون) يوم القيامة (الى عذاب عظيم) هو عذاب النار وفي تغيير السبك باسناد عذابهم السابق الى نون العظمة حسب اسناد ما قبله من العلم واسناد ردهم الى العذاب اللاحق الى أنفسهم ايذان باختلافهما حالا وان الاول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وان اختلفت طبقات عذابهم (وآخرون) بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمور الدين وهو عطف على منافقون أى وممن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون (اعترفوا بذنوبهم) التي هي تخلفهم عن الغزو وايثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ما صدر عنهم من الاعمال السيئة كما فعله من اعتاد اخفاء ما فيه وابراز

والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الاجزاء ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم ثم ان اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة فما فيه من الدهن يكون حارا رطبا وما فيه من المائية يكون باردا رطبا وما فيه من الجبنية يكون باردا يابسا وهذه الطبائع ما كانت حاصلة في ذلك العشب الذي تناولته الشاة فظهر بهذا أن هذه الاجسام لا تزال تنقلب من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة مع أنه لا يناسب بعضها بعضا ولا يشاكل بعضها بعضا وعند ذلك يظهر أن هذه الاحوال انما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الاعلى والاسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين أما قوله سائغا للشاربين فمعناه جاريا في حلوقهم لذيذا هنيئا يقال ساغ الشراب في الحلق وأساغه صاحبه ومنه قوله ولا يكاد يسيغه ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذي يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا فقلب ذلك الطين نباتا وعشبا ثم اذا أكله الحيوان دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك العشب دما ثم دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن فهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع والله أعلم * ثم قال تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا اعلم أنه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية بعض منافع النبات وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فان قيل بم تعلق قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب قلنا بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أي من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله تتخذون منه سكرا بيان وكشف عن كنه الاسقاء ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الواحدي الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة أخرى ﴿المسئلة الثالثة﴾ في تفسير السكر وجوه (الاول) السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا وأما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والاعناب كالرب والخل والدبس والتمر والزبيب * فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله في معرض الانعام * أجابوا عنه من وجوه (الاول) أن هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كان الخمر فيه غير محرمة (الثاني) أنه لا حاجة الى التزام هذا النسخ وذلك لانه تعالى ذكر ما في هذه الاشياء من المنافع وخاطب المشركين بها والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم ثم انه تعالى نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها وذلك لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب أن لا يكون السكر رزقا حسنا ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة وهذا انما يكون كذلك اذا كانت محرمة ﴿القول الثاني﴾ ان السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله الى حد السكر ويحتج بأن هذه الآية تدل على أن السكر حلال لانه تعالى ذكره في معرض الانعام والمنة ودل الحديث على أن الخمر حرام قال عليه الصلاة والسلام الخمر حرام لعينها وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئا غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ ﴿والقول الثالث﴾ ان السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر

* جعلت أعراض الكرام سكرا *

أي جعلت ذمهم طعاما لك قال الزجاج هذا بالخمر أشبه منه بالطعام والمعنى انك جعلت تتخمر بأعراض الكرام والمعنى أنه جعل شغفه بغيبة الناس وتمزيق أعراضهم جاريا مجرى شرب الخمر * واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر قال ان في ذلك لآية لقوم يعقلون والمعنى ان من كان عاقلا علم بالضرورة ان هذه الاحوال

لا

وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد عندما بلغهم ما نزل في المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل انهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم وقال عليه الصلاة والسلام وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت (خلطوا عملا صالحا) هو ما سبق منهم من الاعمال الصالحة والخروج الى المغازي السابقة وغيرها وما لحق من الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتندمهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف لا يناسب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء في قوله تعالى (وآخر سيئا) فان قولك خلطت الماء باللبن يقتضي ايراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه ايقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا والآخر بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين

لا يقدر عليه الا الله سبحانه وتعالى فيحتج بحصولها على وجود الاله القادر الحكيم والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ان اخراج الالبان من النعم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دلائل قاهرة وبينات باهرة على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما فكذلك اخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله وأوحى ربك الى النحل يقال وحى وأوحى وهو الالهام والمراد من الالهام انه تعالى قرر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى تعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه (الاول) انها تبنى البيوت المسدسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت الا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار (والثانى) انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة أما اذا كانت تلك البيوت مسدسة فانه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة فاهتداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب (والثالث) ان النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران وذلك أيضا من الاعاجيب (والرابع) انها اذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهى وآلات الموسيقا وبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى وكرها وهذا أيضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة وكان حصول هذه الانواع من الكياسة ليس الا على سبيل الالهام وهى حالة شبيهة بالوحى لا جرم قال تعالى فى حقها وأوحى ربك الى النحل * واعلم أن الوحى قد ورد فى حق الانبياء لقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا وفى حق الاولياء أيضا قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى وأوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات كما فى قوله وأوحى ربك الى النحل ولكل واحد من هذه الاقسام معنى خاص والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء ثم قال تعالى أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف أن اتخذى هى أن المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول وقرئ بيوتا بكسر الباء ومن الشجر ومما يعرشون أى يبنون ويسقفون وفيه لغتان قرئ بهما ضم الراء وكسرها مثل يعكفون ويعكفون * واعلم أن النحل نوعان (أحدهما) ما يسكن فى الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس (والنوع الثانى) التى تسكن بيوت الناس وتكون فى تعهدات الناس فالاول هو المراد بقوله أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر والثانى هو المراد بقوله ومما يعرشون وهو خلايا النحل * فان قيل ما معنى من فى قوله أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر * قلنا أريد به معنى البعضية وأن لا تبنى بيوتها فى كل جبل وشجر بل فى مساكن توافق مصالحها وتليق بها ﴿المسئلة الثانية﴾ ظاهر قوله تعالى أن اتخذى من الجبال بيوتا أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهى وقال آخرون ليس الامر كذلك بل المراد منه انه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال والكلام المستقصى فى هذه المسئلة مذكور فى تفسير قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ثم قال تعالى ثم كلى من كل الثمرات لفظة من ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية ورأيت فى كتب الطب أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه وهو انه يحدث فى

على الآخر مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيئ ما صدر عنهم من الاعمال السيئة أولا وآخرا وعن الكلبى التوبة والاثم وقيل الواو بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم (عسى الله أن يتوب عليهم) أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم (ان الله غفور رحيم) يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما يفيده كلمة عسى من وجوب القبول فانها للاطماع الذى هو من أكرم الاكرمين ايجاب وأى ايجاب (خذ من أموالهم صدقة) روى انهم لما أطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه الصلاة والسلام ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيأ فنزلت فليست هى الصدقة المفروضة لكونها مأمورا بها ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الاجمال وانما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل (تطهرهم) أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للامر وقرئ بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الاول محذوف ثقة بما بعده وقرئ تطهرهم من أطهره بمعنى طهره (وتزكيهم

الهواء طل لطيف في الليالي و يقع ذلك طل على أوراق الاشجار فقد تكون تلك الاجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الاوراق والازهار وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة (أما القسم الثاني) فهو مثل الترنجبين فانه طل ينزل من الهواء و يجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان وذلك محسوس (وأما القسم الاول) فهو الذى ألهم الله تعالى هذه النحل حتى انها تلتقط تلك الذرات من الازهار وأوراق الاشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذى بها فاذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيأ من تلك الاجزاء وذهبت بها الى بيوتها ووضعتها هنالك لانها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها فاذا اجتمع في بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذاك هو العسل ومن الناس من يقول ان النحل تأكل من الازهار الطيبة والاوراق العطرة أشياء ثم انه تعالى يقلب تلك الاجسام في داخل بدنها عسلا ثم انها تقئ مرة أخرى فذاك هو العسل والقول الاول أقرب الى العقل وأشد مناسبة الى الاستقراء فان طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ولا شك انه طل يحدث في الهواء و يقع على أطراف الاشجار والازهار فكذا ههنا وأيضا فنحن نشاهد ان هذا النحل انما يتغذى بالعسل ولذلك فانا اذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لاجل أن تغتذى بها فعلمنا انها انما تغتذى بالعسل وانها انما تقع على الاشجار والازهار لانها تغتذى بتلك الاجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ثم كلى من كل الثمرات كلمة من ههنا تكون لابتداء الغاية ولا تكون للتبعيض على هذا القول ثم قال تعالى فاسلكى سبل ربك والمعنى ثم كلى كل ثمرة تشتهينها فاذا أكلتها فاسلكى سبل ربك في الطرق التى ألهمك وأفهمك في عمل العسل أو يكون المراد فاسلكى في طلب تلك الثمرات سبل ربك أما قوله ذللا ففيه قولان (الاول) انه حال من السبل لان الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله هو الذى جعل لكم الارض ذلولا (الثاني) انه حال من الضمير في فاسلكى أى وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة * ثم قال تعالى يخرج من بطونها وفيه بحثان (الاول) ان هذا رجوع من الخطاب الى الغيبة والسبب فيه ان المقصود من ذكر هذه الاحوال أن يحتج الانسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لاحوال العالم العلوى والسفلى فكانه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الانسان وقال انا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب لاجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه (البحث الثاني) انه قد ذكرنا ان من الناس من يقول العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع على أطراف الاشجار وعلى الاوراق والازهار فيلقطها الزنبور بفمه فاذا ذهبنا الى هذا الوجه كان المراد من قوله يخرج من بطونها أى من أفواهها وكل تجويف في داخل البدن فانه يسمى بطنا ألا ترى أنهم يقولون بطون الدماغ وعنوا انها تجاويف الدماغ وكذا ههنا يخرج من بطونها أى من أفواهها وأما قول أهل الظاهر وهو أن النحلة تأكل الاوراق والثمرات ثم تقئ فذلك هو العسل فالكلام ظاهر ثم قال شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس اعلم انه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة (فالصفة الاولى) كونه شرابا والامر كذلك لانه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الاشربة (والصفة الثانية) قوله مختلف ألوانه والمعنى ان منه أحمر وأبيض وأصفر ونظيره قوله تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود والمقصود منه ابطال القول بالطبع لان هذا الجسم مع كونه متساوى الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة دل ذلك على أن حدوث تلك الالوان بتدبير الفاعل المختار لا لاجل ايجاب الطبيعة (والصفة الثالثة) قوله فيه شفاء للناس وفيه قولان (الاول) وهو الصحيح انه صفة للعسل فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء و يهيج المرار قلنا انه تعالى لم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الادواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء والذى يدل على انه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين الا وتمامه وكماله انما يحصل بالعجن بالعسل وأيضا فالاشربة المتخذة منه في الامراض البلغمية عظيمة النفع (والقول الثاني) وهو قول مجاهد ان المراد ان القرآن شفاء للناس وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله يخرج من بطونها

بها) باثبات الياء وهو خبر لمبتدا محذوف والجملة حال من الضمير في الامر أو في جوابه أى وأنت تزكيهم بها أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم الى مراتب المخلصين أو أموالهم أو تبالغ في تطهيرهم هذا على قراءة الجزم في تطهرهم وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا اذا جعلت الجملة الاولى حالا من ضمير المخاطب أو صفة لصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الاولى حالا وصفة من غير حاجة الى تقدير المبتدا التوجيه دخول الواو في الجملة الحالية (وصل عليهم) أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم (ان صلاتك) وقرئ صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم (سكن لهم) تسكن نفوسهم اليها وتطمئن قلوبهم بها و يثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم والجملة تعليل للامر بالصلاة عليهم (والله سميع) يسمع ما صدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء (عليم) بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ومن الاخلاص في التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءك لهم عليم بما تقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الاول تذييل لما سبق من الآيتين محقق لما فيهما (ألم يعلموا) وقرئ بالتاء والضمير اما للتائبين فهو تحقيق لما سبق من قبول توبتهم وتطهير

شراب مختلف ألوانه ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أى فى هذا القرآن حصل ماهو شفاء للناس من الكفر والبدعة مثل هذا الذى فى قصة النحل وعن ابن مسعود ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور واعلم أن هذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان (الاول) ان الضمير فى قوله فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات وماذاك الا قوله شراب مختلف ألوانه وأما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب (والثانى) ماروى أبو سعيد الخدرى أنه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان أخى يشتكى بطنه فقال اسقه عسلا فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فلم يغن عنه شيأ فقال عليه الصلاة والسلام اذهب واسقه عسلا فذهب فسقاه فكأنما نشط من عقال فقال صدق الله وكذب بطن أخيك وحملوا قوله صدق الله وكذب بطن أخيك على قوله فيه شفاء للناس وذلك انما يصح لو كان هذا صفة للعسل فان قال قائل ما المراد بقوله عليه الصلاة والسلام صدق الله وكذب بطن أخيك قلنا لعله عليه الصلاة والسلام علم بنور الوحى أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه فى الحال مع أنه عليه الصلاة والسلام كان عالما بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك كان هذا جاريا مجرى الكذب فلهذا السبب أطلق عليه هذا اللفظ ثم انه تعالى ختم الآية بقوله ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه (الاول) اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الاحوال التى ذكرناها (والثانى) اهتداؤها الى جمع تلك الاجزاء العسلية من أطراف الاشجار والاوراق (والثالث) خلق الله تعالى تلك الاجزاء النافعة فى جو الهواء ثم القاؤها على أطراف الاشجار والاوراق ثم الهام النحل الى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على أن اله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيأ ان الله عليم قدير﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لما ذكر تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس فمنها ماهو مذكور فى هذه الآية وهو اشارة الى مراتب عمر الانسان والعقلاء ضبطوها فى أربع مراتب (أولها) سن النشو والنماء (وثانيها) سن الوقوف وهو سن الشباب (وثالثها) سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة (ورابعها) سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب الى بعض على ان ذلك الناقل هو الله تعالى والاطباء الطبائعيون قالوا المقتضى لهذا الانتقال هو طبيعة الانسان * وأنا أحكى كلامهم على الوجه الملخص وأبين ضعفه وفساده وحينئذ يبقى ان ذلك الناقل هو الله سبحانه وعند ذلك يصح بالدليل العقلى ماذكره الله تعالى فى هذه الآية قال الطبائعيون ان بدن الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى والدم جوهران حاران رطبان والحرارة اذا عملت فى الجسم الرطب قللت رطوبته وافادته نوع يبس وهذا مشاهد معلوم قالوا فلا يزال ما فى هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما فيه من الرطوبة حتى تتصلب الاعضاء ويظهر فيه الانعقاد ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الاعضاء فاذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الام ومع ذلك فالرطوبات زائدة والدليل عليه انك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الام لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف ثم ان ما فى البدن من الحرارة يعمل فى تلك الرطوبات ويقللها قالوا ويحصل للبدن ثلاثة أحوال ﴿الحالة الاولى﴾ أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته وحينئذ تكون الاعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته الى ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة ﴿الحالة الثانية﴾ ان تصير رطوبات البدن أقل ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الاصلية الا انها لا تكون زائدة على هذا القدر وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين وعند تمامه يتم الاربعون ﴿والحالة الثالثة﴾ أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية وعند ذلك يظهر النقصان ثم هذا النقصان قد يكون خفيا وهو سن الكهولة وتمامه الى ستين سنة وقد يكون ظاهرا وهو سن الشيخوخة وتمامه الى

الصدقة وتزكيتهم لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وان أسند الاخذ والتطهير والتزكية اليه عليه الصلاة والسلام أى ألم يعلم أولئك التائبون (ان الله هو يقبل التوبة) الصحيحة الخالصة (عن عباده) المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن والمراد بهم اما أولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للاشعار بعلية العبادة لقبولها واما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا (ويأخذ الصدقات) اى يقبل صدقاتهم على أن اللام عوض عن المضاف اليه أو جنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندراجا أوليا أى هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات وما يتعلق بها من التطهير والتزكية وان كنت أنت المباشر لها ظاهرا وفيه من تقرير ما ذكر ورفع شأن النبى صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ما لا يخفى (وان الله هو التواب الرحيم) تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه واما لغير التائبين من المؤمنين فقد روى أنهم

مائة وعشرين سنة فهذا هو الذي حصله الاطباء في هذا الباب ※ وعندي ان هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه (الاول) انا نقول ان في أول ما كان المني منيا وكان الدم دما كانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب ثم انها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وابانتها من حد الدموية والمنوية الى ان صارت عظما وغضروفا وعصبا ورباطا وعند ما تولدت الاعضاء وكمل البدن قلت الرطوبات فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أزيد من تحليلها قبل تولد البدن ومعلوم أنه ليس الامر كذلك لان قبل تولد البدن انتقل جسم المني والدم الى ان صار عظما وعصبا وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الاعضاء بسبب تأثير الحرارة في الرطوبة لوجب أن يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن ولما لم يكن الامر كذلك علمنا ان تولد البدن انما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها وأنه ما كان تولد البدن لاجل ما قالوه من تأثير الحرارة في الرطوبة (والوجه الثاني في ابطال هذا الكلام) أن نقول ان الحرارة الغريزية الحاصلة في بدن الانسان الكامل اما أن تكون هي عين ما كان حاصلا في جوهر النطفة أو صارت أزيد مما كانت والاول باطل لان الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شك ان جرم النطفة كان قليلا صغيرا فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية الا ذلك القدر كان في غاية القلة ولم يظهر منه في هذا البدن أثر أصلا وأما الثاني ففيه تسليم ان الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن واذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة وثبت أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة فوجب ان يبقى البدن الحيواني أبدا في التزايد والتكامل وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان ازدياد حال البدن الحيواني وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة بل بسبب تدبير الفاعل المختار (والوجه الثالث) وهو الذي أوردناه على الاطباء في كتابنا الكبير في الطب فقلنا هب ان الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم ان الحرارة الغريزية يجب أن تصير أقل مما كانت وأن ينتقل الانسان من سن الشباب الى سن النقصان قالوا السبب فيه أنه اذا حصل هذا الاستواء فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر في تخفيف الرطوبة الغريزية فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لا تفي بحفظ الحرارة الغريزية واذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية أيضا لان الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية فاذا قل الغذاء ضعف المغتذي فالحاصل ان الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية ويلزم من ضعف احداهما ضعف الاخرى الى أن تنتهي الى حيث لا يبقى من الرطوبة الغريزية شئ وحينئذ تنطفئ الحرارة الغريزية ويحصل الموت هذا منتهى ما قالوه في هذا الباب وهو ضعيف لانا نقول ان الحرارة الغريزية اذا أثرت في تخفيف الرطوبة الغريزية وقلتم افلم لا يجوز أن يقال ان القوة الغاذية تورد بدلها فعند هذا قالوا القوة الغاذية انما تقوى على ايراد بدلها لو كانت الحرارة الغريزية قوية فاما عند ضعفها فلا فنقول فههنا لزم الدور لان الرطوبة الغريزية انما تقل وتنتقص لو لم تكن القوة الغاذية وافية بايراد بدلها وانما تعجز القوة الغاذية عن هذا الايراد اذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة وانما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة أن لو قلت الرطوبة الغريزية وانما تحصل هذه القلة اذا عجزت الغاذية عن ايراد البدل فثبت ان على القول الذي قالوه يلزم الدور وانه باطل فثبت ان تعليل انتقال الانسان من سن الى سن بما ذكروه من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحالات المذكورة فكان القول به باطلا ولما بطل هذا القول وجب القطع باسناد هذه الاحوال الى الاله القادر المختار الحكيم الرحيم الذي يدبر أبدان الحيوانات على الوجه الموافق لمصالحها وذلك هو المطلوب وقد كنت أقرأ يوما من الايام سورة والمرسلات فلما وصلت الى قوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين فقلت لا شك

قالوا لما تيب على الاولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت أي ألم يعلموا ما للتائبين من الخصال الداعية الى التكرمة والتقريب والانتظام في سلك المؤمنين والتلقي بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم في التوبة والصدقة وقوله تعالى (وقل اعملوا) زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح الذي من جملته التوبة وللاولين في الثبات على ما هم عليه أي قل لهم بعد ما بان لهم شأن التوبة اعملوا ما تشاؤن من الاعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل (فسيرى الله عملكم) أي خيرا كان أو شرا تعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد (ورسوله) عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للاشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (والمؤمنون) في الخبر لو أن رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله الى الناس كائنا ما كان والمعنى أن أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم ان كان المراد بالرؤية معناها الحقيقي فالامر ظاهر وان أريد بها مآلها من الجزاء خيرا أو شرا فهو خاص بالدنيوي من اظهار المدح والثناء والذكر الجميل والاعزاز ونحو ذلك من الاجزية وأضدادها

ان

ان المراد بهؤلاء المكذبين هم الذين نسبوا تكون الابدان الحيوانية الى الطبائع وتأثير الحرارة فى الرطوبة وأنا أومن صميم قلبى يارب العزة بأن هذه التدبيرات ليست من الطبائع بل من خالق العالم الذى هو أحكم الحاكمين وأكرم الاكرمين اذا عرفت هذا فقد صح بالدليل العقلى صدق قوله والله خلقكم لانه ثبت أن خالق أبدان الناس وسائر الحيوانات ليس هو الطبائع بل هو الله سبحانه وتعالى وقوله ثم يتوفاكم قد بينا أن السبب الذى ذكروه فى صيرورة الموت فاسد باطل وأنه يلزم عليه القول بالدور ولما بطل ذلك ثبت أن الحياة والموت انما حصلا بتخليق الله وبتقديره وقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر قد بينا بالدليل ان الطبائع لا يجوز أن تكون علة لانتقال الانسان من الكمال الى النقصان ومن القوة الى الضعف فلزم القطع بان انتقال الانسان من الشباب الى الشيخوخة ومن الصحة الى الهرم ومن العقل الكامل الى ان صار خرفا فلا ليس بمقتضى الطبيعة بل بفعل الفاعل المختار واذا ثبت ماذكرنا ظهر ان الذى دل عليه لفظ القرآن قد ثبت صحته بقاطع القرآن ثم قال تعالى ان الله عليم قدير وهذا كالاصل الذى عليه تفريع كل ماذكرناه وذلك لان الطبيعة جاهلة لا تميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة فهذه الانفعالات فى هذا الانسان لا يمكن اسنادها اليها أما اله العالم ومدبره وخالقه فهو الكامل فى العلم الكامل فى القدرة فلاجل كمال علمه يعلم مقادير المصالح والمفاسد ولاجل كمال قدرته يقدر على تحصيل المصالح ودفع المفاسد فلا جرم أمكن اسناد تخليق الحيوانات الى اله العالم فلا يمكن اسناده الى الطبائع والله أعلم (المسئلة الثانية فى تفسير ألفاظ الآية) قال المفسرون والله خلقكم ولم تكونوا شيأ ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو أردؤه وأضعفه يقال رذل الشئ يرذل رذالة وأرذله غيره ومنه قوله الا الذين هم أراذلنا ومنه قوله واتبعك الارذلون وقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر هل يتناول المسلم أو هو مختص بالكافر فيه قولان (الاول) أنه يتناوله قيل انه العمر الطويل وعلى هذا الوجه نقل عن على عليه السلام أنه قال أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقال قتادة تسعون سنة وقال السدى انه الخرف والقول الاول أولى لان الخرف معناه زوال العقل فقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيأ يدل على انه تعالى انما رده الى أرذل العمر لاجل أن يزيل عقله فلو كان المراد من أرذل العمر هو زوال العقل لصار الشئ عين الغاية المطلوبة منه وانه باطل (والقول الثانى) ان هذا ليس فى المسلمين والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يجوز أن يقال فى حقه انه يرد الى أرذل العمر والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى أسفل سافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر وقوله ان الله عليم قال ابن عباس يريد بما صنع أولياؤه وأعداؤه قدير على ما يريد (المسئلة الثالثة) هذه الآية كما تدل على وجود اله العالم الفاعل المختار فهى أيضا تدل على صحة البعث والقيامة وذلك لان الانسان كان عدما محضا فأوجده الله ثم أعدمه مرة ثانية فدل هذا على انه لما كان معدوما فى المرة الاولى وكان عوده الى العدم فى المرة الثانية جائزا فكذلك لما صار موجودا ثم عدم وجب أن يكون عوده الى الوجود فى المرة الثانية جائزا وأيضا كان ميتا حين كان نطفة ثم صار حيا ثم مات فلما كان الموت الاول جائزا كان عود الموت جائزا فكذلك لما كانت الحياة الاولى جائزة وجب أن يكون عود الحياة جائزا فى المرة الثانية وأيضا الانسان فى أول طفوليته جاهل لا يعرف شيأ ثم صار عالما عاقلا فاهما فلما بلغ أرذل العمر عاد الى ما كان عليه فى زمان الطفولية وهو عدم العقل والفهم فعدم العقل والفهم فى المرة الاولى عاد بعينه فى آخر العمر فكذلك العقل الذى حصل ثم زال وجب أن يكون جائز العود فى المرة الثانية واذا ثبتت هذه الجملة ثبت ان الذى مات وعدم فانه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى ومتى كان الامر كذلك ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾ اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الانسان وذلك انا نرى أكيس الناس

(وستردون) أى بعد الموت (الى عالم الغيب والشهادة) فى وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الامر وتربية المهابة مالا يخفى ووجه تقديم الغيب فى الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان وقيل ان الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلولات فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب ما يسرونه من الاعمال والشهادة ما يظهرونه كقوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون فالتقديم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا لايهام أن علمه سبحانه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ وتحققه فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الامور البارزة والكامنة واما للايذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك فى القلب فتعلق علمه تعالى به فى حالته الاولى متقدم على تعلقه به فى حالته الثانية (فينبئكم) عقيب الرد الذى هو عبارة عن الامر الممتد الى يوم القيامة (عيا

وأكثرهم عقلا وفهما يفنى عمره فى طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلا وفهما تنفتح عليه أبواب الدنيا وكل شئ خطر بباله ودار فى خياله فانه يحصل له فى الحال ولو كان السبب جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا وقال الشافعى رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

واعلم أن هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل فى الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك فى بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما حضرت الاطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده وما كان يمكنه تناول شئ منها وكان الواحد منا صحيح المزاج قوى البنية كامل القوة وما كان يجد مل ء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل على هذا الفقير فى المال الا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك فى الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه منه * أما قوله فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ففيه قولان (الاول) أن المراد من هذا الكلام تقرير ما سبق فى الآية المتقدمة من أن السعادة والنحوسة لا يحصلان الا من الله تعالى والمعنى أن الموالى والمماليك أنا رازقهم جميعا فهم فى رزقى سواء فلا يحسبن الموالى أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيأ من الرزق وانما ذلك رزقى أجريته اليهم على أيديهم وحاصل القول فيه أن المقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى وأن المالك لا يرزق العبد بل الرازق للعبد وللمولى هو الله تعالى وتحقيق القول أنه ربما كان العبد أكمل عقلا وأقوى جسما وأكثر وقوفا على المصالح والمفاسد من المولى وذلك يدل على أن ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال تعز من تشاء وتذل من تشاء (والقول الثانى) أن المراد من هذه الآية الرد على من أثبت شريكا لله تعالى ثم على هذا القول ففيه وجهان (الاول) أن يكون هذا ردا على عبدة الاوثان والاصنام كانه قيل انه تعالى فضل الملوك على مماليكهم فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه فلما لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء فى الملك فكيف تجعلون هذه الجمادات معى سواء فى المعبودية (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى نصارى نجران حين قالوا ان عيسى بن مريم ابن الله فالمعنى انكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون سواء فكيف جعلتم عبدى ولدا لى وشريكا فى الالهية ثم قال تعالى فهم فيه سواء معنى الفاء فى قوله فهم حتى والمعنى فما الذين فضلوا بجاعلى رزقهم لعبيدهم حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء فى الملك ثم قال أفبنعمة الله يجحدون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر تجحدون بالتاء على الخطاب لقوله خلقكم وفضل بعضكم والباقون بالياء لقوله فهم فيه سواء واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقرب الخبر عنه وأيضا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى (المسئلة الثانية) لا شبهة فى أن المراد من قوله أفبنعمة الله يجحدون الانكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم فان قيل كيف يصيرون جاحدين بنعمة الله عليهم بسبب عبادة الاصنام قلنا فيه وجهان (الاول) أنه لما كان المعطى لكل الخيرات هو الله تعالى فمن أثبت لله شريكا فقد أضاف اليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى وأيضا فان أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم الى الطبائع والى النجوم وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى (والوجه الثانى) قال الزجاج المراد أنه تعالى لما قرر هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال أفبنعمة الله فى تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات يجحدون (المسئلة الثانية) الباء فى قوله أفبنعمة الله يجوز أن تكون زائدة لان الجحود لا يعدى بالباء كما تقول خذ

كنتم تعملون) قبل ذلك فى الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو وعد ووعيد (وآخرون) عطف على آخرون قبله أى ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الاعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين (مرجون) وقرئ مرجؤن من أرجيته وأرجأته أى أخرته ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بقبول التوبة (لامر الله) فى شأنهم قال ابن عباس رضى الله عنهما هم كعب ابن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السوارى واظهار الغم والجزع والندم على ما فعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أصحابه عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس فى شأنهم على اختلاف فمن قائل هلكوا وقائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لامره تعالى (اما يعذبهم) ان بقوا على ما هم عليه من الحال وقيل ان أصروا على النفاق وليس بذاك فان المذكورين ليسوا من المنافقين (واما يتوب عليهم) ان خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة فى محل النصب على الحالية أى منهم هؤلاء اما معذبين واما متوبا عليهم وقيل آخرون مبتدأ ومرجون

الخطام

الطام وبالطام وتملقت زيد او بزيد و يجوز أن يراد بالجحود الكفر فعدى بالباء لكونه بمعنى الكفر والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ اعلم أن هذا نوع آخر من أحوال الناس ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وليكون ذلك تنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم فقوله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قال بعضهم المراد أنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم وهذا ضعيف لان قوله جعل لكم من أنفسكم أزواجا خطاب مع الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل بل هذا الحكم عام في جميع الذكور والاناث والمعنى أنه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم مثل قوله فاقتلوا أنفسكم وقوله فسلموا على أنفسكم أى بعضكم على بعض ونظير هذه الآية قوله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا قال الاطباء وأهل الطبيعة التفاوت بين الذكر والانثى انما كان لاجل أن كل من كان أسخن مزاجا فهو الذكر وكل من كان أكثر بردا ورطوبة فهو المرأة ثم قالوا المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة وان انصب الى الخصية اليمنى ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد ذكرا فى طبيعة الاناث وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى فى طبيعة الذكور واعلم أن حاصل هذا الكلام أن الذكورة علتها الحرارة واليبوسة والانوثة علتها البرودة والرطوبة وهذه العلة فى غاية الضعف فقد رأينا فى النساء من كان مزاجه فى غاية السخونة وفى الرجال من كان مزاجه فى غاية البرودة ولو كان الموجب للذكورة والانوثة ذلك لامتنع ذلك فثبت أن خالق الذكر والانثى هو الاله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذى ذكرنا صحة قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ثم قال تعالى وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة قال الواحدى أصل الحفدة من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل يقال حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا اذا أسرع ومنه فى دعاء القنوت واليك نسعى ونحفد والحفدة جمع الحافد والحافد كل من يخف فى خدمتك ويسرع فى العمل بطاعتك يقال فى جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد فمعنى الحفدة فى اللغة الاعوان والخدام ثم يجب أن يكون المراد من الحفدة فى هذه الآية الاعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة لانه تعالى قال وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة فالاعوان الذين لا يكونون من قبل المرأة لا يدخلون تحت هذه الآية اذا عرفت هذا فنقول قيل هم الاختان وقيل هم الاصهار وقيل ولد الولد والاولى دخول الكل فيه لما بينا أن اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك الذى ذكرناه ثم قال تعالى ورزقكم من الطيبات لما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أو كانت من الحيوان ثم قال أفبالباطل يؤمنون قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا وبنعمة الله هم يكفرون أى بأن يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركوا اضافتها الى الله تعالى وفى الآية قول آخر وهو أنه تعالى لما قال ورزقكم من الطيبات قال بعده أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون والمراد منه انهم يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة ويبيحون لانفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب يعنى لم يحكموا بتلك الاحكام الباطلة وبانعام الله فى تحليل الطيبات وتحريم الخبيثات يجحدون ويكفرون والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح أنواعا كثيرة فى دلائل التوحيد وتلك الانواع كما انها دلائل على صحة التوحيد فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجليلة الشريفة ثم أتبعها فى هذه الآية

صفته وهذه الجملة خبره (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما فعل بهم من الارجاء وما بعده وقرئ والله غفور رحيم (والذين اتخذوا مسجدا) عطف على ما سبق أى ومنهم الذين أو نصب على الذم وقرئ بغير واو لانها قصة على حيالها (ضرارا) أى مضارة للمؤمنين وانتصابه على أنه مفعول له أو مفعول ثان لاتخذوا أو على انه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية أى يضارون بذلك ضرارا أو على انه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا من ضمير اتخذوا أى مضارين للمؤمنين * روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتهم اخوتهم بنو غنم ابن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضا اذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا وابعثوا ما استطعتم من قوة وسلاح فانى ذاهب الى قيصر وآت بجنود ومخرج

بالرد على عبدة الاصنام فقال ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ ولا يستطيعون أما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فيعنى به الغيث الذى يأتى من جهة السماء وأما الذى يأتى من جانب الارض فهو النبات والثمار التى تخرج منها وقوله من السموات والارض من صفة النكرة التى هى قوله رزقا كأنه قيل لا يملك لهم رزقا من الغيث والنبات وقوله شيأ قال الاخفش جعل قوله شيأ بدلا من قوله رزقا والمعنى لا يملكون رزقا لا قليلا ولا كثيرا ثم قال ولا يستطيعون والفائدة فى هذه اللفظة أن من لا يملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة أن يتملكه بطريق من الطرق فبين تعالى أن هذه الاصنام لا تملك وليس لها أيضا استطاعة تحصيل الملك فان قيل انه تعالى قال ويعبدون من دون الله مالا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير أولى العلم ثم قال ولا يستطيعون والجمع بالواو والنون مختص بأولى العلم فكيف الجمع بين الامرين والجواب أنه عبر عنها بلفظ ما اعتبارا لما هو الحقيقة فى نفس الامر وذكر الجمع بالواو والنون اعتبارا لما يعتقدون فيها انها آلهة ثم قال تعالى فلا تضربوا لله الامثال وفيه وجوه (الاول) قال المفسرون يعنى لا تشبهوه بخلقه (الثانى) قال الزجاج أى لا تجعلوا لله مثلا لانه واحد لا مثل له (الثالث) أقول يحتمل أن يكون المراد أن عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هذه الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم والدليل عليه العرف فان أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الاكابر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى لهم اتركوا عبادة هذه الاصنام والكواكب ولا تضربوا لله الامثال التى ذكرتموها وكونوا مخلصين فى عبادة الاله الحكيم القدير ثم قال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون وفيه وجهان (الاول) ان الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام وأنتم لا تعلمون ذلك ولو علمتموه لتركتم عبادتها (الثانى) ان الله تعالى لما نهاكم عن عبادة هذه الاصنام فاتركوا عبادتها واتركوا دليلكم الذى عولتم عليه وهو قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك أدخل فى التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك لان هذا قياس والقياس يجب تركه عند ورود النص فلهذا قال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿ثم قال تعالى ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ اعلم أنه تعالى أكد ابطال مذهب عبدة الاصنام بهذا المثال وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى تفسير هذا المثل قولان (الاول) أن المراد انا لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ وفرضنا حرا كريما غنيا كثير الانفاق سرا وجهرا فصريح العقل يشهد بانه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة والبشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التى لا تملك ولا تقدر البتة (والقول الثانى) أن المراد بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ هو الكافر فانه من حيث انه بقى محروما عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو المؤمن فانه مشتغل بالتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله فبين تعالى أنهما لا يستويان فى المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى واعلم أن القول الاول أقرب لان ما قبل هذه الآية وما بعدها انما ورد فى اثبات التوحيد وفى الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلفوا فى المراد بقوله عبدا مملوكا لا يقدر على شئ فقيل المراد به الصنم لانه عبد بدليل قوله ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا وأما أنه مملوك ولا يقدر على شئ فظاهر والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا عابد الصنم لان الله تعالى رزقه المال وهو ينفق من ذلك المال على نفسه وعلى أتباعه سرا وجهرا اذا ثبت هذا فنقول هما لا يستويان فى بديهة العقل بل صريح العقل يشهد بأن ذلك القادر أكمل حالا وأفضل مرتبة من ذلك العاجز فههنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم أفضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساويا للرب العالمين فى العبودية

(والقول

محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنيناه مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام انى على جناح سفر وحال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعن ابن عدى وعامر بن السكن ووحشى فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين (وكفرا) تقوية للكفر الذى يضمرونه (وتفريقا بين المؤمنين) الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم (وارصادا) اعدادا وانتظارا وترقبا (لمن حارب الله ورسوله) وهو الراهب الفاسق أى لاجله حتى يجئ فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قبل) متعلق باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك أو يحارب أى حاربهما قبل اتخاذ هذا

(والقول الثاني) أن المراد بقوله عبدا مملوكا عبد معين وقيل هو عبد لعثمان بن عفان وحملوا قوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا على عثمان خاصة (والقول الثالث) انه عام في كل عبد بهذه الصفة وفي كل حر بهذه الصفة وهذا القول هو الاظهر لانه هو الموافق لما أراده الله تعالى في هذه الآية والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيأ فان قالوا ظاهر الآية يدل على أن عبدا من العبيد لا يقدر على شئ فلم قلتم ان كل عبد كذلك فنقول الذي يدل عليه وجهان (الاول) انه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم وكونه عبدا وصف مشعر بالذل والمقهورية وقوله لا يقدر على شئ حكم مذكور عقيبه فهذا يقتضي أن العلة لعدم القدرة على شئ هو كونه عبدا وبهذا الطريق يثبت العموم (الثاني) أنه تعالى قال بعده ومن رزقناه منا رزقا حسنا فميز هذا القسم الثاني عن القسم الاول وهو العبد بهذه الصفة وهو أنه يرزقه رزقا فوجب أن لا يحصل هذا الوصف للعبد حتى يحصل الامتياز بين القسم الثاني وبين القسم الاول ولو ملك العبد لكان الله قد آتاه رزقا حسنا لان الملك الحلال رزق حسن سواء كان قليلا أو كثيرا فثبت بهذين الوجهين ان ظاهر الآية يقتضي أن العبد لا يقدر على شئ ولا يملك شيأ ثم اختلفوا فروي عن ابن عباس وغيره التشدد في ذلك حتى قال لا يملك الطلاق أيضا وأكثر الفقهاء قالوا يملك الطلاق انما لا يملك المال ولا ماله تعلق بالمال واختلفوا في أن المالك اذا ملكه شيأ فهل يملكه أم لا وظاهر الآية ينفيه ✲ بقي في الآية سؤالات ﴿الاول﴾ لم قال مملوكا لا يقدر على شئ وكل عبد فهو مملوك وغير قادر على التصرف ✲ قلنا أما ذكر المملوك فليحصل الامتياز بينه وبين الحر لان الحر قد يقال انه عبد لله وأما قوله لا يقدر على شئ فقد يحصل الامتياز له بينه وبين المكاتب وبين العبد المأذون لانهما يقدران على التصرف ﴿السؤال الثاني﴾ من في قوله ومن رزقناه ما هي ✲ قلنا الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل وحرا رزقناه ليطابق عبدا ولا يمتنع أن تكون موصولة ﴿السؤال الثالث﴾ لم قال يستوون على الجمع ✲ قلنا معناه هل يستوي الاحرار والعبيد ✲ ثم قال الحمد لله وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد (والثاني) المعنى أن كل الحمد لله وليس شئ من الحمد للاصنام لانها لا نعمة لها على أحد وقوله بل أكثرهم لا يعلمون يعني انهم لا يعلمون أن كل الحمد لله وليس شئ منه للاصنام (الثالث) قال القاضي في التفسير قال للرسول عليه الصلاة والسلام قل الحمد لله ويحتمل أن يكون خطابا لمن رزقه الله رزقا حسنا أن يقول الحمد لله على أن ميزه في هذه القدرة عن ذلك العبد الضعيف (الرابع) يحتمل أن يكون المراد انه تعالى لما ذكر هذا المثل وكان هذا مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال بعده الحمد لله يعني الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور هذه البينة ✲ ثم قال بل أكثرهم لا يعلمون يعني انها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضلال والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ اعلم أنه تعالى أبطل قول عبدة الاوثان والاصنام بهذا المثل الثاني وتقريره انه كما تقرر في أوائل العقول أن الابكم العاجز لا يكون مساويا في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساويا لرب العالمين في المعبودية كان أولى ثم نقول في الآية مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ انه تعالى وصف الرجل الاول بصفات ﴿الصفة الاولى﴾ الابكم وفي تفسيره أقوال نقلها الواحدي (الاول) قال أبو زيد رجل أبكم وهو العيي المفحم وقد بكم بكما وبكامة وقال أيضا الابكم الاقطع اللسان وهو الذي لا يحسن الكلام (الثاني) روى ثعلب عن ابن الاعرابي الابكم الذي لا يعقل (الثالث) قال الزجاج الابكم المطبق الذي لا يسمع ولا يبصر ﴿الصفة الثانية﴾ قوله لا يقدر على شئ وهو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ﴿والصفة الثالثة﴾ قوله كل على مولاه أي هذا الابكم العاجز كل على مولاه قال أهل المعاني أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم يقطع وكل لسانه اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله كل

المسجد (وليحلفن ان أردنا) أي ما أردنا ببنائه هذا المسجد (الا الحسنى) الا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو الا الارادة الحسنى (والله يشهد انهم لكاذبون) في حلفهم ذلك (لا تقم) للصلاة (فيه) في ذلك المسجد حسبما دعوك اليه (أبدا لمسجد أسس) أي بني أصله (على التقوى) يعني مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وعن أبي سعيد رضي الله عنه سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الارض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام اما للابتداء أو للقسم المحذوف أي والله لمسجد وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى (من أول يوم) أي من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى (أحق أن تقوم فيه) أي للصلاة وذكر الله تعالى خبره وقوله تعالى (فيه رجال) جملة مستأنفة مبينة لاحقيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدا أو حال من الضمير في فيه وعلى كل حال

على مولاه أى غليظ وثقيل على مولاه (الصفة الرابعة) قوله أينما يوجهه لا يأت بخير أى أينما يرسله ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك فى وجه معين من الطريق يقال وجهته الى موضع كذا فتوجه اليه وقوله لا يأت بخير معناه لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم ثم قال تعالى هل يستوى هو أى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع ومن يأمر بالعدل واعلم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفا بالنطق والا لم يكن آمرا ويجب أن يكون قادرا لان الامر مشعر بعلو المرتبة وذلك لا يحصل الا مع كونه قادرا ويجب أن يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما وكونه آمرا يناقض كون الاول أبكم وكونه قادرا يناقض وصف الاول بأنه لا يقدر على شئ وبأنه كل على مولاه وكونه عالما يناقض وصف الاول بأنه لا يأت بخير ثم قال وهو على صراط مستقيم معناه كونه عادلا مبرأ عن الجور والعبث اذا ثبت هذا فنقول ظاهر فى بديهة العقل ان الاول والثانى لا يستويان فكذا ههنا والله أعلم (المسئلة الثانية) فى المراد بهذا المثل أقوال كما فى المثل المتقدم (فالاول) قال مجاهد كل هذا مثل اله الخلق وما يدعى من دونه من الباطل وأما الابكم فمثل الصنم لانه لا ينطق البتة وكذلك لا يقدر على شئ وأيضا كل على عابديه لانه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه وأيضا الى أى مهم توجه الصنم لم يأت بخير وأما الذى يأمر بالعدل فهو الله سبحانه (والقول الثانى) أن المراد من هذا الابكم هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم (والقول الثالث) أن المقصود منه كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول أولى من القول الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بانه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا فالمقصود تشبيه صورة بصورة فى أمر من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى وأما القول الثانى فضعيف أيضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل أينما حصل التفاوت فى الصفات المذكورة حصل المقصود والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شئ قدير والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الآية الاولى مثل الكفار بالابكم العاجز ومثل نفسه بالذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ومعلوم أنه يمتنع أن يكون آمرا بالعدل وأن يكون على صراط مستقيم الا اذا كان كاملا فى العلم والقدرة ذكر فى هذه الآية بيان كونه كاملا فى العلم والقدرة أما بيان كمال العلم فهو قوله ولله غيب السموات والارض والمعنى علم الله غيب السموات والارض وأيضا فقوله ولله غيب السموات والارض يفيد الحصر معناه ان العلم بهذه الغيوب ليس الا لله وأما بيان كمال القدرة فقوله وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب والساعة هى الوقت الذى يقوم فيه القيامة سميت ساعة لانها تفجأ الانسان فى ساعة فيموت الخلق بصيحة واحدة وقوله الا كلمح البصر اللمح النظر بسرعة يقال لمحه ببصره لمحا ولمحانا والمعنى وما أمر قيام القيامة فى السرعة الا كطرف العين والمراد منه تقرير كمال القدرة وقوله أو هو أقرب معناه ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التى منها تألف سطح الحدقة ولا شك أن تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذى يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة فى آن واحد من تلك الآنات فلهذا قال أو هو أقرب الا أنه لما كان أسرع الاحوال والحوادث فى عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره ثم قال أو هو أقرب تنبيها على ما ذكرناه ولا شبهة فى أنه ليس المراد طريقة الشك بل المراد بل هو أقرب وقال

ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه والمراد بكونه أحق نفس كونه حقيقا به اذ لا استحقاق فى مسجد الضرار رأسا وانما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله فى نفسه أو الافضلية فى الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم البانى ومن يشايعه فى الاعتقاد وهو الانسب بما سيأتى (يحبون أن يتطهروا) من المعاصى والخصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها (والله يحب المطهرين) أى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضى الله تعالى عنه يا رسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون فى الرخاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا النبى عليه الصلاة والسلام فيه رجال يحبون أن يتطهروا وقرئ أن يتطهروا بالادغام وقيل هو عام فى التطهر

الزجاج المراد به الابهام عن المخاطبين أنه تعالى يأتي بالساعة اما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع قال القاضي هذا لا يصح لان اقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال انه تعالى يأتي بها في زمان بل الواجب أن يخلقها دفعة واحدة في وقت واحد ويفارق ما ذكرناه في ابتداء خلق السموات والارض لان تلك الحال حال تكليف فلم يمتنع أن يخلقهما كذلك لما فيه من مصلحة الملائكة واعلم أن هذا الاعتراض انما يستقيم على مذهب القاضي أما على قولنا في أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فليس له قوة والله أعلم ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فقال والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي امهاتكم بكسر الهمزة والباقون بضمها (المسئلة الثانية) أمهاتكم أصله أماتكم الا أنه زيد الهاء فيه كما زيد في أراق فقيل اهراق وشذت زيادتها في الواحدة في قوله * أمهتي خندف والياس أبي * (المسئلة الثالثة) الانسان خلق في مبدأ الفطرة خاليا عن معرفة الاشياء ثم قال وجعل لكم السمع والابصار والافئدة والمعنى أن النفس الانسانية لما كانت في أول الخلقة خالية عن المعارف والعلوم بالله فالله تعالى أعطاه هذه الحواس ليستفيد بها المعارف والعلوم وتمام الكلام في هذا الباب يستدعي مزيد تقرير فنقول التصورات والتصديقات اما أن تكون كسبية واما أن تكون بديهية والكسبيات انما يمكن تحصيلها بواسطة تركيبات البديهيات فلا بد من سبق هذه العلوم البديهية وحينئذ السائل أن يسأل فيقول هذه العلوم البديهية اما أن يقال انها كانت حاصلة منذ خلقنا أو ما كانت حاصلة والاول باطل لانا بالضرورة نعلم أنا حين كنا جنينا في رحم الام ما كنا نعرف أن النفي والاثبات لا يجتمعان وما كنا نعرف أن الكل أعظم من الجزء (وأما القسم الثاني) فانه يقتضي أن هذه العلوم البديهية حصلت في نفوسنا بعد انها ما كانت حاصلة فحينئذ لا يمكن حصولها الا بكسب وطلب وكل ما كان كسبيا فهو مسبوق بعلوم أخرى فهذه العلوم البديهية تصير كسبية ويجب أن تكون مسبوقة بعلوم أخرى الى غير نهاية وكل ذلك محال وهذا سؤال قوي مشكل * وجوابه أن نقول الحق ان هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة في نفوسنا ثم انها حدثت وحصلت أما قوله فيلزم أن تكون كسبية قلنا هذه المقدمة ممنوعة بل نقول انها انما حدثت في نفوسنا بعد عدمها بواسطة اعانة الحواس التي هي السمع والبصر وتقريره أن النفس كانت في مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم الا أنه تعالى خلق السمع والبصر فاذا أبصر الطفل شيأ مرة بعد أخرى ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر وكذلك اذا سمع شيأ مرة بعد أخرى ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول في سائر الحواس فيصير حصول الحواس سببا لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل ثم ان تلك الماهيات على قسمين (أحد القسمين) ما يكون نفس حضوره موجبا تاما في جزم الذهن باسناد بعضها الى بعض بالنفي أو الاثبات مثل أنه اذا حضر في الذهن أن الواحد ما هو وان نصف الاثنين ما هو كان حضور هذين التصورين في الذهن علة تامة في جزم الذهن بان الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين وهذا القسم هو عين العلوم البديهية (والقسم الثاني) ما لا يكون كذلك وهو العلوم النظرية مثل أنه اذا حضر في الذهن ان الجسم ما هو وأن المحدث ما هو فان مجرد هذين التصورين في الذهن لا يكفي في جزم الذهن بأن الجسم محدث بل لا بد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة والحاصل أن العلوم الكسبية انما يمكن اكتسابها بواسطة العلوم البديهية وحدوث هذه العلوم البديهية انما كان عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها وحدوث هذه التصورات انما كان بسبب اعانة هذه الحواس على جزئياتها فظهر أن السبب الاول لحدوث هذه المعارف في النفوس والعقول هو أنه تعالى أعطى هذه الحواس فلهذا السبب قال تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ليصير حصول هذه الحواس سببا لانتقال نفوسكم من الجهل الى العلم بالطريق الذي ذكرناه وهذه ابحاث شريفة عقلية محضة مدرجة في هذه الآيات وقال المفسرون وجعل لكم السمع لتسمعوا مواعظ الله والابصار لتبصروا دلائل الله والافئدة لتعقلوا عظمة الله والافئدة جمع فؤاد نحو أغربة

عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء أثر البول وعن الحسن رضي الله عنه والتطهر عن الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أفمن أسس بنيانه) على بناء الفعل للفاعل والنصب وقرئ على البناء للمفعول والرفع وقرئ أسس بنيانه على الاضافة جمع أساس واساس بالفتح والكسر جمع اس وقرئ أساس بنيانه جمع اس أيضا وأس بنيانه وهي جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر أي أبعد ما علم حالهم من أسس بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان) أي على قاعدة محكمة هي التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التي هي التوقي عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وقرئ تقوى بالتنوين على ان الالف للالحاق دون التأنيث (خير أمن أسس بنيانه) ترك الاضمار للايذان باختلاف البنائين ذاتا مع اختلافهما وصفا واضافة (على شفا جرف هار) الشفا الحرف والشفير والجرف ما جرفه السيل أي استأصله واحتفر ما تحته فبقي واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع المشرف الى السقوط من هار يهور ويهار أو هار يهير قدمت لامه على عينه فصار كغاز ورام وقيل حذفت عينه

وغراب قال الزجاج ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد وما قيل فيه فئدان كما قيل غراب وغربان * وأقول انما الفؤاد انما جمع على بناء جمع القلة تنبيها على أن السمع والبصر كثيران وأن الفؤاد قليل لان الفؤاد انما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالافعال البهيمية والصفات السبعية فكأن فؤادهم ليس بفؤاد فلهذا السبب ذكر في جمعه صيغة جمع القلة * فان قيل قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار عطف على قوله أخرجكم وهذا يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرا عن الاخراج عن البطن ومعلوم انه ليس كذلك * والجواب أن حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا اذا حملنا السمع على الاستماع والابصار على الرؤية زال السؤال والله أعلم * أما قوله ألم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ألم تروا بالتاء والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره من الكفار ﴿المسئلة الثانية﴾ هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته فانه لولا انه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه لما أمكن ذلك فانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل ما يعمله السابح في الماء وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا وأما قوله تعالى ما يمسكهن الا الله فالمعنى ان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك في ذلك الجو هو الله تعالى ثم من الظاهر ان بقاءه في الجو معلقا فعله وحاصل باختياره فثبت ان خالق فعل العبد هو الله تعالى قال القاضى انما أضاف الله تعالى هذا الامساك الى نفسه لانه تعالى هو الذى أعطى الآلات التى لاجلها يمكن الطير من تلك الافعال فلما كان تعالى هو المسبب لذلك لا جرم صحت هذه الاضافة الى الله تعالى والجواب ان هذا ترك للظاهر بغير دليل وانه لا يجوز لاسيما والدلائل العقلية دلت على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ثم قال تعالى في آخر الآية ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وخص هذه الآيات بالمؤمنين لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين﴾ اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد وأقسام النعم والفضل والسكن المسكن أنشد الفراء

جاء الشتاء ولما أتخذ سكنا * ياويح كفى من حفر القراميص

والسكن ما سكنت اليه وما سكنت فيه قال صاحب الكشاف السكن فعل بمعنى مفعول وهو ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف واعلم أن البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين (أحدهما) البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله بل الانسان ينتقل اليه (والقسم الثانى) القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان الى مكان واعلم أن المراد الانطاع وقد تعمل العرب البيوت من الادم وهى جلود الانعام أى يخف عليكم حملها فى أسفاركم قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يوم ظعنكم بفتح العين والباقون ساكنة العين قال الواحدى وهما لغتان كالشعر والشعر والنهر والنهر واعلم أن الظعن سير البادية لنجعة أو حضور ماء أو طلب مرتع وقد يقال لكل شاخص لسفر ظاعن وهو ضد الخافض وقوله ويوم اقامتكم بمعنى لا يثقل عليكم فى الحالين وقوله ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز وقوله أثاثا الاثاث أنواع متاع البيت من الفرش والاكسية قال الفراء ولا واحد له كما أن المتاع لا واحد له قال ولو جمعت فقلت آثثة فى القليل وأثث فى الكثير لم يبعد وقال أبو زيد واحدها أثاثة قال ابن عباس فى قوله أثاثا يريد طنافس وبسطا وثيابا وكسوة قال الخليل وأصله من قولهم أث النبات والشعر اذا كثر وقوله متاعا أى ما يتمتعون به وقوله الى

حين

اعتباطا أى بغيره ويجب نخرى وجوه الاعراب على لامه (فانهار به فى نار جهنم) مثل ما بنوا عليه أمر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر ثم رشح بانهياره فى النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله الى الرضوان ومقتضياته التى أدناها الجنة وتأسيس هذا على ما هو بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم اليها لامحالة وقرئ جرف بسكون الراء (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لانفسهم أو الواضعين للاشياء فى غير مواضعها أى لا يرشدهم الى ما فيه نجاتهم وصلاحهم ارشادا موجبا له لامحالة وأما الدلالة على ما يرشدهم اليه ان استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه (لا يزال بنيانهم الذى بنوا) البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه بالموصول الذى صلته فعله للايذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللاشعار بعلة الحكم أى لا يزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما (ريبة فى قلوبهم) أى سبب ريبة وشك فى الدين كأنه نفس الريبة أما حال بنيانه فظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يتظاهرون فيه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى

حين يريد الى حين البلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد الحين وقيل الى يوم القيامة فان قيل عطف المتاع على الاثاث والعطف يقتضى المغايرة وما الفرق بين الاثاث والمتاع قلنا الاقرب أن الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل ويزين به ﴿قوله تعالى ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ اعلم أن الانسان اما أن يكون مقيما أو مسافرا والمسافر اما أن يكون غنيا يمكنه استصحاب الخيام والفساطيط أولا يمكنه ذلك فهذه أقسام ثلاثة ﴿أما القسم الاول﴾ فاليه الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴿وأما القسم الثانى﴾ فاليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا ﴿وأما القسم الثالث﴾ فاليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وذلك لان المسافر اذا لم يكن له خيمة يستظل بها فانه لابد وأن يستظل بشئ آخر كالجدران والاشجار وقد يستظل بالغمام كما قال وظللنا عليكم الغمام ثم قال وجعل لكم من الجبال أكنانا واحد الاكنان كن على قياس أحمال وحمل ولكن المراد كل شئ وقى شيأ ويقال استكن وأكن اذا صار فى كن واعلم أن بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظل ودفع الحر شديدة فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه المعانى فى معرض النعمة العظيمة وأيضا البلاد المعتدلة والاوقات المعتدلة نادرة جدا والغالب اما غلبة الحر أو غلبة البرد وعلى كل التقديرات فلابد للانسان من مسكن يأوى اليه فكان الانعام بتحصيله عظيما ولما ذكر تعالى أمر المسكن ذكر بعده أمر الملبوس فقال وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم السرابيل القمص واحدها سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره والذى يدل على صحة هذا القول أنه جعل السرابيل على قسمين (أحدهما) ما يكون واقيا من الحر والبرد (والثانى) ما يتقى به عن البأس والحروب وذلك هو الجوشن وغيره وذلك يدل على أن كل واحد من القسمين من السرابيل فان قيل لم ذكر الحر ولم يذكر البرد أجابوا عنه من وجوه (الاول) قال عطاء الخراسانى المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفتهم بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر ولذلك قال وننزل من السماء من جبال فيها من برد لمعرفتهم بذلك وما أنزل من الثلج أعظم ولكنهم كانوا لا يعرفونه ﴿والوجه الثانى فى الجواب﴾ قال المبرد ان ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر * قلت ثبت فى العلوم العقلية ان العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر فان الانسان متى خطر بباله الحر خطر بباله أيضا البرد وكذا القول فى النور والظلمة والسواد والبياض فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعا للشعور بالآخر كان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر ﴿والوجه الثالث﴾ قال الزجاج ما وقى من الحر وقى من البرد فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر * فان قيل هذا بالضد أولى لان دفع الحر يكفى فيه السرابيل التى هى القمص من دون تكلف زيادة وأما البرد فانه لا يندفع الا بتكلف زائد * قلنا القميص الواحد لما كان دافعا للحر كان الاستكثار من القمص دافعا للبرد فصح ما ذكرناه وقوله وسرابيل تقيكم بأسكم يعنى دروع الحديد ومعنى البأس الشدة ويريد ههنا شدة الطعن والضرب والرمى واعلم أنه تعالى لما عدد أقسام نعمة الدنيا قال كذلك يتم نعمته عليكم أى مثل ما خلق هذه الاشياء لكم وأنعم بها عليكم فانه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم لعلكم تسلمون قال ابن عباس لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه ونقل عن ابن عباس أنه قرأ لعلكم تسلمون بفتح التاء والمعنى انا أعطيناكم هذه السرابيلات لتسلموا عن بأس الحرب وقيل أعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتسلموا من عذاب الله ثم قال تعالى فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين أى فان تولوا يا محمد وأعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة فى الكفر فعلى أنفسهم جنوا ذلك وليس عليك الا ما فعلت من التبليغ التام ثم انه تعالى ذمهم بأنهم يعرفون نعمة الله

بعضهم الى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة فى أمرهم حيث ضعفت قلوبهم ووهى اعتقادهم بخفاء أمرهم على المؤمنين لانهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطهم بالمؤمنين وساءت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا مرتابين فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبى معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدى وحبيب والمبرد لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا فى قلوبهم (الا أن تقطع) من التفعل بحذف احدى التاءين أى الا أن تتقطع (قلوبهم) قطعا وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية ادراك واضمار قطعا وهو استثناء من أعم الاوقات أو أعم الاحوال ومحله النصب على الظرفية أى لا يزال بنيانهم ريبة فى كل الاوقات أو كل الاحوال الا وقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها وأما ما دامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم و يجوز أن يكون المراد حقيقة

ثم ينكرونها وذلك نهاية في كفران النعمة فان قيل ما معنى ثم قلنا الدلالة على أن انكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة أن يعترف لا ان ينكر وفي المراد بهذه النعمة وجوه (الاول) قال القاضي المراد بها جميع ما ذكره الله تعالى في الآيات المتقدمة من جميع أنواع النعم ومعنى انهم أنكروه هو أنهم ما أفردوه تعالى بالشكر والعبادة بل شكروا على تلك النعم غير الله تعالى ولانهم قالوا انما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الاصنام (والثاني) أن المراد أنهم عرفوا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرونها ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (الثالث) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها أي لا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى ثم قال تعالى وأكثرهم الكافرون * فان قيل ما معنى قوله وأكثرهم الكافرون مع أنه كان كلهم كافرين * قلنا الجواب من وجوه (الاول) انما قال وأكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل معتوها فأراد بالاكثر البالغين الاصحاء (الثاني) أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وحينئذ نقول انما قال وأكثرهم لانه كان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله (الثالث) انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم ان أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة فقال ويوم نبعث من كل أمة شهيدا وذلك يدل على ان أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الانكار وبذلك الكفر والمراد بهؤلاء الشهداء الانبياء كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا فيه وجوه (أحدها) لا يؤذن لهم في الاعتذار لقوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون (وثانيها) لا يؤذن لهم في كثرة الكلام (وثالثها) لا يؤذن لهم في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف (ورابعها) لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود (وخامسها) لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى ثم قال ولا هم يستعتبون الاستعتاب طلب العتاب والرجل انما يطلب العتاب من خصمه اذا كان على جزم أنه اذا عاتبه رجع الى الرضا فاذا لم يطلب العتاب منه دل على أنه راسخ في غضبه وسطوته ثم انه تعالى أكد هذا الوعيد فقال واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم والمعنى ان هؤلاء المشركين اذا رأوا العذاب ووصلوا اليه فعند ذلك لا يخفف عنهم العذاب ولا هم أيضا ينظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون لان التوبة هنالك غير موجودة وتحقيقه ما يقوله المتكلمون من ان العذاب يجب أن يكون خالصا عن شوائب النفع وهو المراد من قوله لا يخفف عنهم العذاب ويجب أن يكون العذاب دائما وهو المراد من قوله ولا هم ينظرون ۞ قوله تعالى ﴿واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ اعلم ان هذا أيضا من بقية وعيد المشركين وفي الشركاء قولان (الاول) أنه تعالى يبعث الاصنام التي كان يعبدها المشركون والمقصود من اعادتها ان المشركين يشاهدونها في غاية الذلة والحقارة وأيضا انها تكذب المشركين وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم وانما وصفهم الله بكونهم شركاء لوجهين (الاول) ان الكفار كانوا يسمونها بانها شركاء الله (والثاني) ان الكفار جعلوا لهم نصيبا من أموالهم (والقول الثاني) ان المراد بالشركاء الشياطين الذين دعوا الكفار الى الكفر وهو قول الحسن وانما ذهب الى هذا القول لانه تعالى حكى عن أولئك الشركاء أنهم ألقوا الى الذين أشركوا انهم لكاذبون والاصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول فوجب أن يكون المراد من الشركاء الشياطين حتى يصح منهم هذا القول وهذا بعيد لانه تعالى قادر على خلق الحياة في تلك الاصنام وعلى خلق العقل والنطق فيها وحينئذ يصح منها هذا

القول

تقطع بها عند قتلهم أو في القبور أو في النار وقرئ تقطع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم أي الا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل وقرئ على البناء للمجهول من الثلاثي مذكرا ومؤنثا وقرئ الى أن تقطع قلوبهم والى أن تقطع قلوبهم على الخطاب وقرئ ولو قطعت قلوبهم على اسناد الفعل مجهولا الى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وقيل الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم (والله عليم) بجميع الاشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم (حكيم) في جميع أفعاله التي من زمرتها أمره الوارد في حقهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته اثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى واثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة

القول ثم حكى تعالى عن المشركين أنهم اذا رأوا تلك الشركاء قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فان قيل فما فائدتهم في هذا القول * قلنا فيه وجهان (الاول) قال أبو مسلم الاصفهاني مقصود المشركين احالة هذا الذنب على هذه الاصنام وظنوا ان ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم فعند هذا تكذبهم تلك الاصنام قال القاضي هذا بعيد لان الكفار يعلمون علما ضروريا في الآخرة ان العذاب سينزل بهم وانه لا نصرة ولا فدية ولا شفاعة (والقول الثاني) ان المشركين يقولون هذا الكلام تعجبا من حضور تلك الاصنام مع أنه لا ذنب لها واعترافا بانهم كانوا مخطئين في عبادتها ثم حكى تعالى ان الاصنام يكذبونهم فقال فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون والمعنى انه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الاصنام حتى تقول هذا القول وقوله انكم لكاذبون بدل من القول والتقدير فألقوا اليهم انكم لكاذبون * فان قيل ان المشركين ما قالوا الا أنهم لما أشاروا الى الاصنام قالوا ان هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك وقد كانوا صادقين في كل ذلك فكيف قالت الاصنام انكم لكاذبون * قلنا فيه وجوه والاصح أن يقال المراد من قولهم هؤلاء شركاؤنا هو ان هؤلاء الذين كنا نقول انهم شركاء لله في المعبودية فالاصنام كذبوهم في اثبات هذه الشركة وقيل المراد انكم لكاذبون في قولكم انا نستحق العبادة ويدل عليه قوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ثم قال تعالى وألقوا الى الله يومئذ السلم قال الكلبي استسلم العابد والمعبود وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والانداد وضل عنهم ما كانوا يفترون وفيه وجهان وقيل ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان من ان لله شريكا وصاحبة وولدا وقيل بطل ما كانوا يأملون من ان آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى ❁ قوله تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله وفي تفسير قوله وصدوا عن سبيل الله وجهان قيل معناه الصد عن المسجد الحرام والاصح انه يتناول جملة الايمان بالله والرسول وبالشرائع لان اللفظ عام فلا معنى للتخصيص وقوله زدناهم عذابا فوق العذاب فالمعنى انهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الايمان فهم في الحقيقة ازدادوا كفرا على كفر فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابا على عذاب وأيضا أتباعهم انما اقتدوا بهم في الكفر فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ولقوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة فقال ابن عباس المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار وقال بعضهم زدناهم عذابا بحيات وعقارب كأمثال البخت فيستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة فقرة في كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم قال تعالى بما كانوا يفسدون أي هذه الزيادة من العذاب انما حصلت معللة بذلك الصد وهذا يدل على ان من دعا غيره الى الكفر والضلال فقد عظم عذابه فكذلك اذا دعا الى الدين واليقين فقد عظم قدره عند الله تعالى والله أعلم ❁ قوله تعالى ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ اعلم ان هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصي واعلم أن الامة عبارة عن القرن والجماعة اذا ثبت هذا فنقول في الآية قولان (الاول) ان المراد ان كل نبي شاهد على أمته (والثاني) أن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا فلا بد وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيدا عليهم أما الشهيد على الذين كانوا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الرسول بدليل قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وثبت أيضا أنه لا بد في كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد فحصل من هذا ان عصرا من الاعصار لا يخلو من شهيد على الناس وذلك الشهيد لا بد وان يكون غير جائز الخطا والا لافتقر الى شهيد آخر ويمتد ذلك الى غير النهاية وذلك باطل فثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم

ولم يجعل الامر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الانفس والاموال وسيلة اليها ايذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم انه لم يقل بالجنة بل قيل (بأن لهم الجنة) مبالغة في تقرر وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك اذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء حقيقة لانها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها فليس بشئ لان مناط دلالة ما عليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فان ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التي يستحيل وجودها في الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها لا الوعد بها (يقاتلون في سبيل الله) استئناف لكن لا لبيان ما لاجله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم في سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لهما في ذلك بل لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم

وذلك يقتضي أن يكون اجماع الامة حجة قال أبو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهي الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد انه من أنفسهم وهذه الاعضاء لا شك انها من أنفسهم أجاب القاضي عنه من وجوه (الاول) انه تعالى قال شهيدا عليهم أي على الامة فيجب أن يكون غيرهم (الثاني) انه قال من كل أمة فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد الاعضاء لا يصح وصفها بانها من الامة وأما حمل هؤلاء الشهداء على الانبياء فبعيد وذلك لان كونهم أنبياء مبعوثين الى الخلق أمر معلوم بالضرورة فلا فائدة في حمل هذه الآية عليه * ثم قال تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ وجه تعلق هذا الكلام بما قبله انه تعالى لما قال وجئنا بك شهيدا على هؤلاء بين أنه أزاح علتهم فيما كلفوا فلا حجة لهم ولا معذرة ﴿المسئلة الثانية﴾ من الناس من قال القرآن تبيان لكل شئ وذلك لان العلوم اما دينية أو غير دينية أما العلوم التي ليست دينية فلا تعلق لها بهذه الآية لان من المعلوم بالضرورة ان الله تعالى انما مدح القرآن بكونه مشتملا على علوم الدين فأما ما لا يكون من علوم الدين فلا الالتفات اليه وأما علوم الدين فاما الاصول واما الفروع أما علم الاصول فهو بتمامه موجود في القرآن وأما علم الفروع فالاصل براءة الذمة الا ما ورد على سبيل التفصيل في هذا الكتاب وذلك يدل على انه لا تكليف من الله تعالى الا ما ورد في هذا القرآن واذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلا وكان القرآن وافيا ببيان كل الاحكام وأما الفقهاء فانهم قالوا القرآن انما كان تبيانا لكل شئ لانه يدل على ان الاجماع وخبر الواحد والقياس حجة فاذا ثبت حكم من الاحكام بأحد هذه الاصول كان ذلك الحكم ثابتا بالقرآن وهذه المسئلة قد سبق ذكرها بالاستقصاء في سورة الاعراف والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ روى الواحدي باسناده عن الزجاج انه قال تبيانا في معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقاء وروى ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين انهم قالوا لم يأت من المصادر على تفعال الا حرفان تبيان وتلقاء واذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت في كل مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار وقلت في كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ واعلم انه تعالى لما استقصى في شرح الوعد والوعيد والترغيب والترهيب أتبعه بقوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان فجمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضا ونفلا وما يتصل بالاخلاق والآداب عموما وخصوصا وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى في بيان فضائل هذه الآية﴾ روى عن ابن عباس ان عثمان بن مظعون الجمحي قال ما أسلمت أولا الا حياء من محمد عليه الصلاة والسلام ولم يتقرر الاسلام في قلبي فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدثني اذ رأيت بصره شخص الى السماء ثم خفضه عن يمينه ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال بينما أنا احدثك اذا بجبريل نزل عن يميني فقال يا محمد ان الله يأمر بالعدل والاحسان العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان القيام بالفرائض وايتاء ذي القربى أي صلة ذي القرابة وينهى عن الفحشاء الزنا والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة والبغي الاستطالة قال عثمان فوقع الايمان في قلبي فأتيت أبا طالب فأخبرته فقال يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ولئن كان صادقا أو كاذبا فانه ما يأمركم الا بمكارم الاخلاق فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من عمه اللين قال يا عماه أتأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك وجهد عليه فأبى أن يسلم فنزل قوله انك لا تهدي من أحببت وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحب الا أمر الله تعالى به في هذه الآية وليس من خلق سيئ الا نهى الله تعالى عنه في هذه الآية وروى القاضي في تفسيره عن ابن ماجه عن علي عليه السلام انه قال أمر الله تعالى نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر ممن القوم فقالوا من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشهادتين والى ان ينصروه فان قريشا كذبوه فقال مقرون بن عمرو الام تدعونا

وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون في سبيل الله وهو بذل منهم لانفسهم وأموالهم الى جهة الله سبحانه وتعريض لهما للهلاك وقوله تعالى (فيقتلون ويقتلون) بيان لكون القتال في سبيل الله بذلا للنفس وان المقاتل في سبيله باذل لها وان كانت سالمة غانمة فان الاسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فانه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وان لم يصدر منهم أحدهما أيضا كما اذا وجد المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فانه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس وقرئ بتقديم المبني للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب وايذانا بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله تعالى بل بكونه أحب اليهم من السلامة كما قيل في حقهم

لا يفرحون اذا نالت رماحهم * قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا * لا يقع الطعن الا في نحورهم * وما لهم عن حياض الموت تهليل انتها

أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية فقال مقرون بن عمرو دعوت والله الى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على الوليد فاستعاده ثم قال ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شئ فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته والله أعلم (المسألة الثانية في تفسير هذه الآية) أكثر الناس في تفسير هذه الآية قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان أداء الفرائض وقال في رواية أخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا أحببت ان يزداد ايمانا وان كان كافرا أحببت أن يصير أخاك في الاسلام وقال في رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان الاخلاص فيه وقال آخرون يعني بالعدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وقوله وايتاء ذي القربى يريد صلة الرحم بالمال فان لم يكن فبالدعاء روى أبو مسلم عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل البيت ليكونون فجارا فتنمى أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا أرحامهم وقوله وينهى عن الفحشاء قيل الزنا وقيل البخل وقيل كل الذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة وسواء كانت في القول أو في الفعل وأما المنكر فقيل انه الكفر بالله تعالى وقيل المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة فأما البغي فقيل الكبر والظلم وقيل أن تبغي على أخيك واعلم ان في المأمورات كثرة وفي المنهيات أيضا كثرة وانما يحسن تفسير لفظ معين لشئ معين اذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة أما اذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسدا فاذا فسرنا العدل بشئ والاحسان بشئ آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب ذلك المعنى ولفظ الاحسان يناسب هذا المعنى فلما لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم ولم يكن جعل بعض تلك المعاني تفسيرا لبعض تلك الالفاظ أولى من العكس فثبت ان هذه الوجوه التي ذكرناها ليست قوية في تفسير هذه الآية وأقول ظاهر هذه الآية يدل على انه تعالى أمر بثلاثة أشياء وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ونهى عن ثلاثة أشياء وهي الفحشاء والمنكر والبغي فوجب أن يكون العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ثلاثة أشياء متغايرة ووجب أن تكون الفحشاء والمنكر والبغي ثلاثة أشياء متغايرة لان العطف يوجب المغايرة فنقول أما العدل فهو عبارة عن الامر المتوسط بين طرفي الافراط والتفريط وذلك أمر واجب الرعاية في جميع الاشياء ولا بد من تفصيل القول فيه فنقول الاحوال التي وقع التكليف بها اما الاعتقادات واما أعمال الجوارح أما الاعتقادات فالعدل في كلها واجب الرعاية (فأحدها) قال ابن عباس ان المراد بالعدل هو قول لا اله الا الله وتحقيق القول فيه ان نفي الاله تعطيل محض واثبات أكثر من اله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان والعدل هو اثبات الاله الواحد وهو قول لا اله الا الله (وثانيها) ان القول بان الاله ليس بموجود ولا شئ تعطيل محض والقول أنه جسم وجوهر ومركب من الاعضاء ومختص بالمكان تشبيه محض والعدل اثبات اله موجود متحقق بشرط أن يكون منزها عن الجسمية والجوهرية والاعضاء والاجزاء والمكان (وثالثها) ان القول بأن الاله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض والعدل هو اثبات ان الاله عالم قادر حي مع الاعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة (ورابعها) ان القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض والقول بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان والعدل أن يقال ان العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه (وخامسها) القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شئ من الذنوب مساهلة عظيمة والقول بأنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم والعدل انه يخرج من النار كل من قال واعتقد انه لا اله الا الله فهذه أمثلة ذكرناها في رعاية معنى العدل في الاعتقادات وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح فنذكر ستة أمثلة منها

وقيل في يقاتلون الخ معنى الامر كما في قوله تعالى تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم (وعدا عليه) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا (حقا) نعت لوعدا والظرف حال منه لانه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى (في التوراة والانجيل والقرآن) متعلق بمحذوف وقع صفة لوعدا أي وعدا مثبتا في التوراة والانجيل كما هو مثبت في القرآن (ومن أوفى بعهده من الله) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فان اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغني عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وان كان على انكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها قطعا فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما انه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (فاستبشروا) التفات الى الخطاب تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور والاستبشار اظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد وأوقد والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ما قبله أي فاذا كان كذلك

(أحدها) ان قوما من نفاة التكاليف يقولون لا يجب على العبد الاشتغال بشئ من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شئ من المعاصي وليس لله عليه تكليف أصلا وقال قوم من الهند ومن المانوية انه يجب على الانسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع اليه حتى ان المانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن أكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل فهذان الطريقان مذمومان والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم (وثانيها) ان التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جدا والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جدا والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم قيل كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة وفي شرع عيسى عليه السلام العفو أما في شرعنا فان شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة وان شاء استوفى الدية وان شاء عفا وأيضا شرع موسى يقتضي الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض والعدل ما حكم به شرعنا وهو انه يحرم وطؤها احترازا عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا يجب اخراجها عن الدار (وثالثها) انه تعالى قال وكذلك جعلناكم أمة وسطا يعني متباعدين عن طرفي الافراط والتفريط في كل الامور وقال والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قال تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ولما أخذ قوم في المساهلة قال أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا والمراد من الكل رعاية العدل والوسط (ورابعها) ان شريعتنا أمرت بالختان والحكمة فيه ان رأس ذلك العضو جسم شديد الحس ولاجله عظم الالتذاذ عند الوقاع فلو بقيت تلك الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الاحساس فيعظم الالتذاذ أما اذا قطعت تلك الجلدة بقي ذلك العضو عاريا فيلاقي الثياب وسائر الاجسام فيتصلب وينتقص حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه فكأن الشريعة انما أمرت بالختان سعيا في تقليل تلك اللذة حتى يصير ميل الانسان الى قضاء شهوة الجماع الى حد الاعتدال وأن لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع فالاخصاء وقطع الآلات على ما تذهب اليه المانوية مذموم لانه افراط وابقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة والعدل الوسط هو الاتيان بالختان فظهر بهذه الامثلة ان العدل واجب الرعاية في جميع الاحوال ومن الكلمات المشهورة قولهم وبالعدل قامت السموات والارض ومعناه ان مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة بل كان بعضها أزيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر لاستولى الغالب على المغلوب وهي المغلوب وتنقلب الطبائع كلها الى طبيعة الجرم الغالب ولو كان بعد الشمس من الارض أقل مما هو الآن لعظمت السخونة في هذا العالم واحترق كل ما في هذا العالم ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها فان الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم فظهر بهذا السبب الذي ذكرناه صدق قولهم وبالعدل قامت السموات والارض فهذه اشارة مختصرة الى شرح حقيقة العدل وأما الاحسان فاعلم أن الزيادة على العدل قد تكون احسانا وقد تكون اساءة مثاله ان العدل في الطاعات هو أداء الواجبات اما الزيادة على الواجبات فهي أيضا طاعات وذلك من باب الاحسان وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الاحسان والدليل عليه ان جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان قال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فان قالوا لم سمي هذا المعنى بالاحسان قلنا كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن الى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن الى نفسه والحاصل ان العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات والاحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية وبحسب الدواعي والصوارف بحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية فهذا هو الاحسان واعلم ان الاحسان

فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وانما قيل (ببيعكم) مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه الى الجنة لان المراد ترغيبهم في الجهاد الذي عبر عنه بالبيع وانما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لان ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب انما يكون فيما يتم من قبلهم وقوله تعالى (الذي بايعتم به) لزيادة تقرير بيعهم وللاشعار بكونه مغايرا لسائر البياعات فانه بيع للفاني بالباقي ولان كلا البدلين له سبحانه وتعالى عن الحسن رضي الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها * روي أن الانصار لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال عليه الصلاة والسلام أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي وهو يقرؤها قال كلام من قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو واستشهد (وذلك) أي الجنة التي جعلت ثمنا بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم (هو الفوز العظيم) الذي لا فوز أعظم منه وما في ذلك

بالتفسير الذى ذكرناه دخل فيه التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله ومن الظاهر ان الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة وأشرفها وأجلها صلة الرحم لا جرم انه سبحانه أفرده بالذكر فقال وايتاء ذى القربى فهذا تفصيل القول فى هذه الثلاثة التى أمر الله تعالى بها * وأما الثلاثة التى نهى الله عنها وهى الفحشاء والمنكر والبغى فنقول انه تعالى أودع فى النفس البشرية قوى أربعة وهى الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة أعنى العقلية الملكية لا يحتاج الانسان الى تأديبها وتهذيبها لانها من جواهر الملائكة ومن نتائج الارواح القدسية العلوية انما المحتاج الى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الاول أما القوة الشهوانية فهى انما ترغب فى تحصيل اللذات الشهوانية وهذا النوع مخصوص باسم الفحش ألا ترى أنه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال انه كان فاحشة وساء سبيلا فقوله تعالى وينهى عن الفحشاء المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن اذن الشريعة وأما القوة الغضبية السبعية فهى أبدا تسعى فى ايصال الشر والبلاء والايذاء الى سائر الناس ولا شك ان الناس ينكرون تلك الحالة فالمنكر عبارة عن الافراط الحاصل فى آثار القوة الغضبية وأما القوة الوهمية الشيطانية فهى أبدا تسعى فى الاستعلاء على الناس والترفع واظهار الرياسة والتقدم وذلك هو المراد من البغى فانه لا معنى للبغى الا التطاول على الناس والترفع عليهم فظهر بما ذكرنا أن هذه الالفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة ومن العجائب فى هذا الباب ان العقلاء قالوا أخس هذه القوى الثلاثة هى الشهوانية وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية والله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التى هى نتيجة القوة الشهوانية ثم بالمنكر الذى هو نتيجة القوة الغضبية ثم بالبغى الذى هو نتيجة القوة الوهمية فهذا ما وصل اليه عقلى وخاطرى فى تفسير هذه الالفاظ فان يك صوابا فمن الرحمن وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمد لله على ما خصنا بهذا النوع من الفضل والاحسان انه الملك الديان ثم قال تعالى يعظكم لعلكم تذكرون والمراد بقوله تعالى يعظكم أمره تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة لعلكم تذكرون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه تعالى لما قال فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ أردفه بهذه الآية مشتملة على الامر بهذه الثلاثة والنهى عن هذه الثلاثة كان ذلك تنبيها على أن المراد بكون القرآن تبيانا لكل شئ هو هذه التكاليف الستة وهى فى الحقيقة كذلك لان جوهر النفس من زمرة الملائكة ومن نتائج الارواح العالية القدسية الا أنه دخل فى هذا العالم خاليا عاريا عن التعلقات فتلك الثلاثة التى أمر الله بها هى التى ترقيها بالمعارف الالهية والاعمال الصالحة وتلك المعارف والاعمال هى التى ترقيها الى عالم الغيب وسرادقات القدس ومجاورة الملائكة المقربين فى جوار رب العالمين وتلك الثلاثة التى نهى الله عنها هى التى تصدها عن تلك السعادات وتمنعها عن الفوز بتلك الخيرات فلما أمر الله تعالى بتلك الثلاثة ونهى عن هذه الثلاثة فقد نبه على كل ما يحتاج اليه المسافرون من عالم الدنيا الى مبدا عرصة القيامة (المسئلة الثانية) قال الكعبى الآية تدل على انه تعالى لا يخلق الجور والفحشاء وذلك من وجوه (الاول) أنه تعالى كيف ينهاهم عما يخترعه فيهم وكيف ينهى عما يريد تحصيله فيهم ولو كان الامر كما قالوا لكان كأنه تعالى قال ان الله يأمركم أن تفعلوا خلاف ما خلقه فيكم وينهاكم عن أفعال خلقها فيكم ومعلوم ان ذلك باطل فى بديهة العقل (والثانى) أنه تعالى لما أمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فلو انه تعالى أمر بتلك الثلاثة ثم انه ما فعلها لدخل تحت قوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وتحت قوله لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (الثالث) أن قوله لعلكم تذكرون ليس المراد منه الترجى والتمنى فان ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه انه تعالى يعظكم لارادة أن تتذكروا طاعته وذلك يدل على انه تعالى يريد الايمان من الكل (الرابع) انه تعالى لو صرح وقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ولكنه يمنع منه ويصد عنه ولا يمكن العبد منه ثم قال وينهى عن الفحشاء

من معنى البعد اشارة الى بعد منزلة المشار اليه وسمو رتبته فى الكمال ويجوز أن يكون ذلك اشارة الى البيع الذى أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوزا فى نفسه فالجملة على الاول تذييل للآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى فاستبشروا مقرر لمضمونه (التائبون) رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضا وان لم يجاهدوا كقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى (العابدون) وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى (الحامدون) لنعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء (السائحون) الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام سياحة أمتى الصوم شبه بها لانه عائق عن الشهوات أو لانه رياضة نفسانية يتوصل بها الى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب العلم (الراكعون الساجدون) فى الصلاة (الآمرون بالمعروف) بالايمان والطاعة (والناهون عن المنكر) عن الشرك

والمنكر والبغي ولكنه يوجد كل هذه الثلاثة في العبد شاء أم أبى وأراده منه ومنعه من تركه ومن الاحتراز عنه لحكم كل أحد عليه بالركاكة وفساد النظم والتركيب وذلك يدل على كونه سبحانه متعاليا عن فعل القبائح واعلم أن هذا النوع من الاستدلال كثير وقد مر الجواب عنه والمعتمد في دفع هذه المشاغبات التعويل على سؤال الداعي وسؤال العلم والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ اتفق المتكلمون من أهل السنة ومن المعتزلة على أن تذكر الاشياء من فعل الله لا من فعل العبد والدليل عليه هو أن التذكر عبارة عن طلب التذكر فحال الطلب اما أن يكون له به شعور أو لا يكون له به شعور فان كان له شعور فذلك الذكر حاصل والحاصل لا يطلب تحصيله وان لم يكن له به شعور فكيف يطلبه بعينه لان توجيه الطلب اليه بعينه حال مالا يكون هو بعينه متصورا محال اذا ثبت هذا فنقول قوله لعلكم تذكرون معناه ان المقصود من هذا الوعظ أن يقدموا على تحصيل ذلك التذكر فاذا لم يكن التذكر فعلا له فكيف طلب منه تحصيله وهذا هو الذي يحتج به أصحابنا على أن قوله تعالى لعلكم تذكرون لا يدل على أنه تعالى يريده منه ذلك والله تعالى أعلم ❁ قوله تعالى ﴿وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة انما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ اعلم أنه تعالى لما جمع كل المأمورات والمنهيات في الآية الاولى على سبيل الاجمال ذكر في هذه الآية بعض تلك الاقسام فبدأ تعالى بالامر بالوفاء بالعهد وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكروا في تفسير قوله بعهد الله وجوها (الاول) قال صاحب الكشاف عهد الله هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام لقوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم أي ولا تنقضوا ايمان البيعة بعد توكيدها أي بعد توثيقها باسم الله (الثاني) أن المراد منه كل عهد يلتزمه الانسان باختياره قال ابن عباس والوعد من العهد وقال ميمون بن مهران من عاهدته وف بعهده مسلما كان أو كافرا فانما العهد لله تعالى (الثالث) قال الاصم المراد منه الجهاد وما فرض الله في الاموال من حق (الرابع) عهد الله هو اليمين بالله وقال هذا القائل انما يجب الوفاء باليمين اذا لم يكن الصلاح في خلافه لانه عليه الصلاة والسلام قال من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر (الخامس) قال القاضي العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ومعلوم ان أدلة العقل والسمع أوكد في لزوم الوفاء بما يدلان على وجوبه من اليمين ولذلك لا يصح في هذين الدليلين التغير والاختلاف ويصح ذلك في اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء وللقائل أن يقول انه تعالى قال وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم فهذا يجب أن يكون مختصا بالعهود التي يلتزمها الانسان باختيار نفسه لان قوله اذا عاهدتم يدل على هذا المعنى وحينئذ لا يبقى المعنى الذي ذكره القاضي معتبرا ولانه تعالى قال في آخر الآية وقد جعلتم الله عليكم كفيلا وهذا يدل على أن الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول وأيضا يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين لانا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها تكرارا لان الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان لان الامر بالفعل يستلزم النهي عن الترك الا اذا قيل ان الوفاء بالعهد عام فدخل تحته اليمين ثم انه تعالى خص اليمين بالذكر تنبيها على انه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية وعند هذا نقول الاولى أن يحمل هذا العهد على ما يلتزمه الانسان باختياره ويدخل فيه المبايعة على الايمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات والاشياء التي أكدها بالحلف واليمين وفي قوله ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها مباحث (الاول) قال الزجاج يقال وكدت وأكدت لغتان جيدتان والاصل الواو والهمزة بدل منها ﴿البحث الثاني﴾ قال أصحاب ابي حنيفة رحمه الله يمين اللغو هي يمين الغموس والدليل عليه أنه تعالى قال ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فنهى في هذه الآية عن نقض الايمان فوجب أن يكون كل يمين قابلا للبر والحنث ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب أن لا تكون من الايمان واحتج الواحدي بهذه الآية على أن يمين اللغو هي قول

والمعاصي والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى (والحافظون لحدود الله) أي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملا وحملا للناس عليه فانه لا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين (وبشر المؤمنين) أي الموصوفين بالنعوت المذكورة ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الامر هو الايمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للايذان بخروجه عن حد البيان وفي تخصيص الخطاب بالاولين اظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية (ما كان للنبي والذين آمنوا) بالله وحده أي ماصح لهم في حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام (أن يستغفروا للمشركين) به سبحانه (ولو كانوا) أي المشركون (أولى قربى) أي ذوي قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفا مطردا كما بين في قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره * روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة يا عم قل كلمة أحاج لك بها عند الله فأبى فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج الى الابواء

العرب لا والله و بلى والله قال انما قال تعالى بعد توكيدها للفرق بين الايمان المؤكدة بالعزم و بالعقد و بين لغو اليمين ﴿ البحث الثالث ﴾ قوله ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها عام دخله التخصيص لانا بينا أن الخبر دل على انه متى كان الصلاح فى نقض الايمان جاز نقضها ثم قال وقد جعلتم الله عليكم كفيلا هذه واو الحال أى لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلا عليكم بالوفاء وذلك ان من حلف بالله تعالى فكأنه قد جعل الله كفيلا بالوفاء بسبب ذلك الحلف ثم قال ان الله يعلم ما تفعلون وفيه ترغيب و ترهيب والمراد فيجازيكم على ما تفعلون ان خيرا فخير وان شرا فشر ثم انه تعالى أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض وقال ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ فى المشبه به قولان (الاول) انها امرأة من قريش يقال لها رايطة وقيل ريطة وقيل تلقب جعراء وكانت حمقاء تغزل الغزل هى و جوار يها فاذا غزلت وأبرمت أمرتهن فنقضن ما غزلن (والقول الثانى) أن المراد بالمثل الوصف دون التعيين لان القصد بالامثال صرف المكلف عنه اذا كان قبيحا والدعاء اليه اذا كان حسنا وذلك يتم به من دون التعيين ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قوله من بعد قوة أى من بعد قوة الغزل بابرامها وفتلها ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ قوله أنكاثا قال الازهرى واحده نكث وهو الغزل من الصوف والشعر يبرم وينسج فاذا أخلقت النسيجة قطعتها ونكثت خيوطها المبرمة ونفشت تلك الخيوط وخلطت بالصوف ثم غزلت ثانية والنكث المصدر ومنه يقال نكث فلان عهده اذا نقضه بعد احكامه كما ينكث خيط الصوف بعد ابرامه ﴿ المسئلة الرابعة ﴾ فى انتصاب قوله أنكاثا وجوه (الاول) قال الزجاج انكاثا منصوب لانه بمعنى المصدر لان معنى نكثت نقضت ومعنى نقضت نكثت وهذا غلط منه لان الانكاث جمع نكث وهو اسم لا مصدر فكيف يكون قوله أنكاثا بمعنى المصدر (الثانى) قال الواحدى أنكاثا مفعول ثان كما تقول كسره أقطاعا وفرقه أجزاء على معنى جعله اقطاعا وأجزاء فكذا ههنا قوله نقضت غزلها أنكاثا أى جعلت غزلها أنكاثا (الثالث) أن قوله أنكاثا حال مؤكدة ﴿ المسئلة الخامسة ﴾ قال ابن قتيبة هذه الآية متصلة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فانكم ان فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التى غزلت غزلا وأحكمته فلما استحكم نقضته فجعلته أنكاثا ثم قال تعالى تتخذون أيمانكم دخلا بينكم قال الواحدى الدخل والدغل الغش والخيانة قال الزجاج كل ما دخله عيب قيل هو مدخول وفيه دخل وقال غيره الدخل ما أدخل فى الشئ على فساد ثم قال ان تكون امة هى أربى من امة أربى أى أكثر من ربا الشئ يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون فى العدد وفى القوة وفى الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الاولين و يحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك وقوله أن تكون معناه انكم تتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب أن تكون أمة أربى من أمة فى العدد والقوة والشرف فقوله تتخذون أيمانكم دخلا بينكم استفهام على سبيل الانكار والمعنى أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب ان أمة أزيد فى القوة والكثرة من أمة أخرى ثم قال تعالى انما يبلوكم الله به أى بما يأمركم وينهاكم وقد تقدم ذكر الامر والنهى وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فيتميز المحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون ﴾ اعلم أنه تعالى لما كلف القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه أتبعه ببيان انه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الايمان ولكنه سبحانه بحكم الالهية يضل من يشاء ويهدى من يشاء أما المعتزلة فانهم حملوا ذلك على الالجاء أى لو أراد أن يلجئهم الى الايمان أو الى الكفر لقدر عليه الا أن ذلك يبطل التكليف فلا جرم ما ألجأهم اليه وفوض الامر الى اختيارهم فى هذه التكاليف وأما قول أصحابنا فيه فهو ظاهر وهذه المناظرة قد تكررت مرارا كثيرة وروى الواحدى ان عزيرا قال يارب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدى من تشاء فقال يا عزير أعرض عن هذا فأعاده ثانيا فقال أعرض عن هذا فأعاده ثالثا فقال أعرض عن هذا والا محوت اسمك من النبوة قالت المعتزلة

فزار قبر أمه ثم قام مستعبرا فقال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى وأنزل على الآيتين (من بعد ما تبين لهم) أى للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (أنهم) أى المشركين (أصحاب الجحيم) بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحى بأنهم يموتون على ذلك (وما كان استغفار ابراهيم لابيه) بقوله واغفر لابى أى بأن توفقه للايمان وتهديه اليه كما يلوح به تعليله بقوله انه كان من الضالين والجملة استئناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر من المخالفة وقرئ وما استغفر ابراهيم لابيه وقرئ وما يستغفر ابراهيم على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى (الا عن موعدة) استثناء مفرغ من أعم العلل أى لم يكن استغفاره عليه السلام لابيه آزر ناشئا عن شئ من الاشياء الا عن موعدة (وعدها) ابراهيم عليه الصلاة والسلام (اياه) أى أباه وقد قرئ كذلك بقوله لأستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربى بناء على رجاء ايمانه لعدم تبين حقيقة أمره والا لما وعدها اياه كأنه قيل وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره كما ينبئ عنه قوله تعالى (فلما تبين له) أى لابراهيم بأن أوحى اليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن ابدا وقيل بأن مات على الكفر والاول

وممايدل على ان المراد من هذه المشيئة مشيئة الالجاء انه تعالى قال بعده ولتسئلن عما كنتم تعملون فلو كانت أعمال العباد بخلق الله تعالى لكان سؤالهم عنها عبثا والجواب عنه قد سبق مرارا والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ان ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ اعلم أنه تعالى لما حذر فى الآية الاولى عن نقض العهود والايمان على الاطلاق حذر فى هذه الآية فقال ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والالزم التكرير الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها ولهذا المعنى قال المفسرون المراد من هذه الآية نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده لان هذا الوعيد وهو قوله فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وشرائعه وقوله فتزل قدم بعد ثبوتها مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية ومحنة بعد نعمة فان من نقض عهد الاسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع فى مثل هذه الضلالة ويدل على هذا قوله تعالى وتذوقوا السوء أى العذاب بما صددتم أى بصدكم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم أى ذلك السوء الذى تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد ثم أكد هذا التحذير فقال ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا يريد عرض الدنيا وان كان كثيرا الا أن ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون يعنى انكم وان وجدتم على نقض عهد الاسلام خيرا من خيرات الدنيا فلا تلتفتوا اليه لان الذى أعده الله تعالى على البقاء على الاسلام خير وأفضل وأكمل مما تجدونه فى الدنيا على نقض عهد الاسلام ان كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة ثم ذكر الدليل القاطع على ان ما عند الله خير مما تجدونه من طيبات الدنيا فقال ما عندكم ينفد وما عند الله باق وفيه بحثان ﴿الاول﴾ الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية والباقى خير من المنقطع والدليل عليه ان هذا المنقطع اما أن يقال انه كان خيرا عاليا شريفا أو كان خيرا دنيا خسيسا فان قلنا انه كان خيرا عاليا شريفا فالعلم بانه سينقطع يجعله منغصا حال حصوله وأما حال حصول ذلك الانقطاع فانها تعظم الحسرة والحزن وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها وأما ان قلنا ان تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فههنا من الظاهر ان ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع فثبت بهذا ان قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق برهان قاطع على ان خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا ﴿البحث الثانى﴾ ان قوله وما عند الله باق يدل على ان نعيم أهل الجنة باق لا ينقطع وقال جهم بن صفوان انه منقطع والآية حجة عليه * واعلم أن المؤمن اذا آمن بالله فقد التزم شرائع الاسلام والايمان وحينئذ يجب عليه أمران ﴿أحدهما﴾ أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته ﴿والثانى﴾ أن يأتى بكل ما هو من شرائع الاسلام ولوازمه اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الاول وهو الصبر على ما التزموه فقال ولنجزين الذين صبروا أى على ما التزموه من شرائع الاسلام بأحسن ما كانوا يعملون أى نجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك أنه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لا على فعل المباحات فلهذا قال ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الثانى وهو الاتيان بكل ما كان من شرائع الاسلام فقال من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وفى الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ لفظة من فى قوله من عمل صالحا تفيد العموم فما الفائدة فى ذكر الذكر والانثى * والجواب ان هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة

هو الانسب بقوله تعالى (انه عدو لله) فان وصفه بالعداوة مما أباه حالة الموت (تبرأ منه) أى تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب وفيه من المبالغة ما ليس فى تركه ونظائره (ان ابراهيم لأواه) لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب (حليم) صبور على الاذية والمحنة وهو استئناف لبيان ما كان يدعوه عليه الصلاة والسلام الى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه ايذان بأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليما فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتى به فى ذلك وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو فى كمال رقة القلب والحلم فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتنابا وتبرؤا وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محظور لما استثنى من الائتساء به فى قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك فقد حقق فى سورة مريم باذن الله تعالى (وما كان الله ليضل قوما) أى ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجرى عليهم أحكامه (بعد اذ هداهم) للاسلام (حتى يبين لهم) بالوحى صريحا أو دلالة (ما يتقون) أى ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما

فى

في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا تالاتأكيد وازالة لوهم التخصيص ﴿السؤال الثاني﴾ هل تدل هذه الآية على ان الايمان مغاير للعمل الصالح * والجواب نعم لانه تعالى جعل الايمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب وشرط الشئ مغاير لذلك الشئ ﴿السؤال الثالث﴾ ظاهر الآية يقتضي ان العمل الصالح انما يفيد الاثر بشرط الايمان فظاهر قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره يدل على ان العمل الصالح يفيد الاثر سواء كان مع الايمان أو كان مع عدمه * والجواب ان افادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالايمان أما افادته لاثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فانه لا يتوقف على الايمان ﴿السؤال الرابع﴾ هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة * والجواب فيه ثلاثة أقوال (الاول) قال القاضي الاقرب انها تحصل في الدنيا بدليل انه تعالى أعقبه بقوله ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ولا شبهة في ان المراد منه ما يكون في الآخرة ولقائل أن يقول لا يبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة ما يحصل في الآخرة ثم انه مع ذلك وعدهم الله على انه انما يجزيهم على ما هو أحسن أعمالهم فهذا الامتناع فيه فان قيل بتقدير أن تكون هذه الحياة الطيبة انما تحصل في الدنيا فما هي * والجواب ذكروا فيه وجوها قيل هو الرزق الحلال الطيب وقيل عبادة الله مع أكل الحلال وقيل القناعة وقيل رزق يوم بيوم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه قنعني بما رزقتني وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا قال الواحدي وقول من يقول انه القناعة حسن مختار لانه لا يطيب عيش أحد في الدنيا الا عيش القانع وأما الحريص فانه يكون أبدا في الكد والعناء * واعلم ان عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه (الاول) انه لما عرف ان رزقه انما حصل بتدبير الله تعالى وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل الا الصواب كان راضيا بكل ما قضاه وقدره وعلم ان مصلحته في ذلك أما الجاهل فلا يعرف هذه الاصول فكان أبدا في الحزن والشقاء (وثانيها) أن المؤمن أبدا يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب فعند وقوعها لا يستعظمها بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه (وثالثها) ان قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى والقلب اذا كان مملوأ من هذه المعارف لم يتسع للاحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا أما قلب الجاهل فانه خال عن معرفة الله تعالى فلا جرم يصير مملوأ من الاحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا (ورابعها) ان المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها أما الجاهل فانه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها (وخامسها) ان المؤمن يعلم ان خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة التقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره اليه واعلم ان ما كان واجب التغير فانه عند وصوله اليه لا تنقلب حقيقته ولا تتبدل ماهيته فعند وصوله اليه يكون أيضا واجب التغير فعند ذلك لا يطبع العاقل قلبه عليه ولا يقيم له في قلبه وزنا بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه فعند فوته وزواله يحترق قلبه ويعظم البلاء عنده فهذه وجوه كافية في بيان ان عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر هذا كله اذا فسرنا الحياة الطيبة بانها في الدنيا ﴿والقول الثاني﴾ وهو قول السدي ان هذه الحياة الطيبة انما تحصل في القبر (والقول الثالث) وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ان هذه الحياة الطيبة لا تحصل الا في الآخرة والدليل عليه قوله تعالى يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه فبين ان هذا الكدح باق الى أن يصل الى ربه وذلك ما قلناه وأما بيان ان الحياة الطيبة في الجنة فلانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا مرض وملك بلا زوال وسعادة بلا شقاء فثبت أن الحياة الطيبة ليست الا تلك الحياة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وقد سبق تفسيره والله أعلم ❁ قوله تعالى ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من

قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل (ان الله بكل شئ عليم) تعليل لما سبق أي أنه تعالى عليم بجميع الاشياء التي من جملتها حاجتهم الى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فبين لهم ذلك كما فعل ههنا (ان الله له ملك السموات والارض) من غير شريك له فيه (يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) لما منعهم من الاستغفار للمشركين وان كانوا أولي قربى وضمن ذلك التبرؤ منهم رأسا بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولي أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا ولاية الا منه تعالى ليتوجهوا اليه بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين الا اياه (لقد تاب الله على النبي) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو العفو عن اذنه للمنافقين في التخلف عنه (والمهاجرين والانصار) قيل هو في حق زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة وانه ما من مؤمن الا وهو محتاج اليها حتى النبي صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه في بعض الاحوال من ترك الاولى (الذين اتبعوه) ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره (في ساعة العسرة) أي في وقتها

الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ اعلم أنه تعالى لما قال قبل هذه الآية ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون أرشد الى العمل الذي به تخلص أعماله عن الوساوس فقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الشيطان ساع في القاء الوسوسة في القلب حتى في حق الانبياء بدليل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من القاء الوسوسة بدليل قوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله فاذا قرأت القرآن خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به الكل لان الرسول لما كان محتاجا الى الاستعاذة عند القراءة فغير الرسول أولى بها ﴿المسئلة الثالثة﴾ الفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر هذه الآية يدل على ان الاستعاذة بعد قراءة القرآن واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين قال الواحدي وهو قول أبي هريرة ومالك وداود قالوا والفائدة فيه انه اذا قرأ القرآن استحق به ثوابا عظيما فان لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة في قلبه وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة أما اذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوساوس وبقي الثواب مصونا عن الاحباط أما الاكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة وقالوا معنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد القراءة ومثله اذا أكلت فقل بسم الله واذا سافرت فتأهب ونظيره قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا أي اذا أردتم القيام الى الصلاة فاغسلوا وأيضا لما ثبت ان الشيطان ألقى الوسوسة في أثناء قراءة الرسول بدليل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ومن الظاهر انه تعالى انما أمر الرسول بالاستعاذة عند القراءة لدفع تلك الوساوس فهذا المقصود انما يحصل عند تقديم الاستعاذة ﴿المسئلة الرابعة﴾ مذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت القراءة في الصلاة أو غيرها وسائر الفقهاء اتفقوا على أنه ليس كذلك لانه لا خلاف بينهم انه ان لم يتعوذ قبل القراءة في الصلاة فصلاته ماضية وكذلك حال القراءة في غير الصلاة لكن حال القراءة في الصلاة آكد ﴿المسئلة الخامسة﴾ المراد بالشيطان في هذه الآية قيل ابليس والاقرب انه للجنس لان لجميع المردة من الشياطين حظا في الوسوسة واعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الناس فأزال الله تعالى هذا الوهم وبين انه لا قدرة له البتة الا على الوسوسة فقال انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر في قلب الانسان كونه ضعيفا وانه لا يمكنه التحفظ عن وسوسة الشيطان الا بعصمة الله تعالى ولهذا المعنى قال المحققون لا حول عن معصية الله تعالى الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله تعالى والتفويض الحاصل على هذا الوجه هو المراد من قوله وعلى ربهم يتوكلون ثم قال انما سلطانه على الذين يتولونه قال ابن عباس يطيعونه يقال توليته أي أطعته وتوليت عنه أي أعرضت عنه والذين هم به مشركون الضمير في قوله به الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه راجع الى ربهم (والثاني) انه راجع الى الشيطان والمعنى بسببه وهذا كما تقول للرجل اذا تكلم بكلمة مؤدية الى الكفر كفرت بهذه الكلمة أي من أجلها فكذلك قوله والذين هم به مشركون أي من أجله ومن أجل حمله اياهم على الشرك بالله صاروا مشركين ﴿قوله تعالى ﴿واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ اعلم أنه تعالى شرع من هذا الموضع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما كان اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش

والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة الى أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفي عسرة من الماء حتى نحروا الابل واعتصروا فروثها وفي شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والانصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام في مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة في بيان الحاجة الى التوبة فان ذلك حيث لم يغنهم عنها فلان لا يستغني عنها غيرهم أولى وأحرى (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) بيان لتناهي الشدة وبلوغها الى ما لا غاية وراءها وهو اشراف بعضهم على أن يميلوا الى التخلف عن النبي عليه الصلاة والسلام وفي كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم الراجع اليه الضمير في منهم وقرئ بتأنيث الفعل وقرئ من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعني المتخلفين من المؤمنين كأبي لبابة واضرابه (ثم تاب عليهم) تكرير للتأكيد وتنبيه على انه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم (انه بهم رؤف رحيم)

والله ما محمد الا يسخر بأصحابه اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه فأنزل الله تعالى قوله واذا بدلنا آية مكان آية ومعنى التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف أي هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قوله انما أنت مفتر أي اذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا صلى الله عليه وسلم الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ وقوله بل أكثرهم لا يعلمون أي لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وأن ذلك لمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بضد تلك الشربة وقوله قل نزله روح القدس من ربك تفسير روح القدس مر ذكره في سورة البقرة وقال صاحب الكشاف روح القدس جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم ومن في قوله من ربك صلة للقرآن أي ان جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا أي ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل الا ما هو حكمة وصواب وهدى وبشرى مفعول لهما معطوف على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم (المسئلة الثانية) قد ذكرنا أن مذهب أبي مسلم الاصفهاني ان النسخ غير واقع في هذه الشريعة فقال المراد ههنا اذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل انه حول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة قال المشركون أنت مفتر في هذا التبديل وأما سائر المفسرين فقالوا النسخ واقع في هذه الشريعة والكلام فيه على الاستقصاء مذكور في سائر السور (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله القرآن لا ينسخ بالسنة واحتج على صحته بقوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية وهذا يقتضي أن الآية لا تصير منسوخة الا بآية أخرى وهذا ضعيف لان هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى ولا دلالة فيها على انه تعالى لا يبدل آية الا بآية وأيضا جبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية وأيضا فالسنة قد تكون مثبتة للآية وأيضا فهذا حكاية كلام الكفار فكيف يصح التعلق به والله أعلم ۞ قوله تعالى

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ اعلم أن المراد من هذه الآية حكاية شبهة أخرى من شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم كانوا يقولون ان محمدا انما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لانه يستفيدها من انسان آخر ويتعلمها منه واختلفوا في هذا البشر الذي نسب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم الى التعلم منه قيل هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة ابن ربيعة وقيل عبد لبني الحضرمي صاحب كتب وكان اسمه جبرا وكانت قريش تقول عبد بني الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسي وبالجملة فلا فائدة في تعديد هذه الاسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم أنه انما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه ثم انه تعالى أجاب عنه بأن قال لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ومعنى الالحاد في اللغة الميل يقول لحد وألحد اذا مال عن القصد ومنه يقال للعادل عن الحق ملحد وقرأ حمزة والكسائي يلحدون بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء وكسر الحاء قال الواحدي والاولى ضم الياء لانه لغة القرآن والدليل عليه قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم والالحاد قد يكون بمعنى الامالة ومنه يقال ألحدت له لحدا اذا حفرته في جانب القبر مائلا عن الاستواء وقبر ملحد وملحود ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها لم يمله عن دين الى دين آخر وفسر الالحاد في هذه الآية بالقولين قال الفراء يميلون من الميل وقال الزجاج يميلون من الامالة أي لسان

استئناف تعليلي فان صفة الرأفة والرحمة من دواعي التوبة والعفو ويجوز كون الاول عبارة عن ازالة الضرر والثاني عن ايصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أي وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم عن أمر أبي لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك ولا ردت ولم يقطع في شأنهم بشئ الى ان نزل فيهم الوحي وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقرئ خلفوا أي خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم وقرئ على المخالفين والاول هو الانسب لان قوله تعالى (حتى اذا ضاقت عليهم الارض) غاية للتخليف ولا يناسبه الا المعنى الاول أي خلفوا وأخر أمرهم الى أن ضاقت عليهم الارض (بما رحبت) أي برحبها وسعتها لاعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار (وضاقت عليهم أنفسهم) أي اذا رجعوا الى أنفسهم لا يطمئنون بشئ لعدم الانس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) أي علموا أنه لا ملجأ من سخطه تعالى الا الى استغفاره (ثم تاب عليهم) أي وفقهم للتوبة (ليتوبوا) أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة

الذى يملون القول اليه أعجمى وأما قوله أعجمى فقال أبو الفتح الموصلى تركيب ع ج م وضع فى كلام العرب للابهام والاخفاء وضد البيان والايضاح ومنه قولهم رجل أعجم وامرأة عجماء اذا كانا لا يفصحان وعجم الذنب سمى بذلك لاستتاره واختفائه والعجماء البهيمة لانها لا توضح ما فى نفسها وسموا صلاتى الظهر والعصر عجماوين لان القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر فأما قولهم أعجمت الكتاب فمعناه أزلت عجمته وأفعلت قد يأتى والمراد منها السلب كقولهم أشكيت فلانا اذا أزلت ما يشكوه فهذا هو الاصل فى هذه الكلمة ثم ان العرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم أعجم وأعجميا قال الفراء وأحمد بن يحيى الاعجم الذى فى لسانه عجمة وان كان من العرب والاعجمى والعجمى الذى أصله من العجم قال أبو على الفارسى الاعجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ألا ترى انهم قالوا زياد الاعجم لانه كانت فى لسانه عجمة مع انه كان عربيا وأما معنى العربى واشتقاقه فقد ذكرناه عند قوله الاعراب أشد كفرا ونفاقا وقال الفراء والزجاج فى هذه الآية يقال عرب لسانه عرابة وعروبة هذا تفسير ألفاظ الآية وأما تقرير وجه الجواب فاعلم أنه انما يظهر اذا قلنا القرآن انما كان معجزا لما فيه من الفصاحة العائدة الى اللفظ وكأنه قيل هب انه يتعلم المعانى من ذلك الاعجمى الا أن القرآن انما كان معجزا لما فى ألفاظه من الفصاحة فبتقدير أن تكونوا صادقين فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يتعلم تلك المعانى من ذلك الرجل الا أنه لا يقدح ذلك فى المقصود اذ القرآن انما كان معجزا لفصاحته وما ذكرتموه لا يقدح فى ذلك المقصود ولما ذكر الله تعالى هذا الجواب أردفه بالتهديد والوعيد فقال ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله أما تفسير أصحابنا لهذه الآية فظاهر وقال القاضى أقوى ما قيل فى ذلك انه لا يهديهم الى طريق الجنة ولذلك قال بعده ولهم عذاب أليم والمراد انهم لما تركوا الايمان بالله لا يهديهم الله الى الجنة بل يسوقهم الى النار ثم انه تعالى بين كونهم كاذبين فى ذلك القول فقال انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك الكاذبون وفيه مسائل (الاولى) المقصود منه انه تعالى بين فى الآية السابقة ان الذى قالوه بتقدير أن يصح لم يقدح فى المقصود ثم انه تعالى بين فى هذه الآية أن الذى قالوه لم يصح وهم كذبوا فيه والدليل على كونهم كاذبين فى ذلك القول وجوه (الاول) انهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون ومتى كان الامر كذلك كانوا أعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وكلام العدو ضرب من الهذيان ولا شهادة لمتهم (والثانى) ان أمر التعلم لا يتأتى فى جلسة واحدة ولا يتم فى الخفية بل التعلم انما يتم اذا اختلف المتعلم الى المعلم أزمنة متطاولة ومددا متباعدة ولو كان الامر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق ان محمدا عليه الصلاة والسلام يتعلم العلوم من فلان وفلان (الثالث) ان العلوم الموجودة فى القرآن كثيرة وتعلمها لا يتأتى الا اذا كان المعلم فى غاية الفضل والتحقيق فلو حصل فيهم انسان بلغ فى التعليم والتحقيق الى هذا الحد لكان مشارا اليه بالاصابع فى التحقيق والتدقيق فى الدنيا فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان * واعلم أن الطعن فى نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمثال هذه الكلمات الركيكة يدل على أن الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ظاهرة باهرة فان الخصوم كانوا عاجزين عن الطعن فيها ولاجل غاية عجزهم عدلوا الى هذه الكلمات الركيكة (المسئلة الثانية) فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش والدليل عليه ان كلمة انما للحصر والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما الا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى والا من كان كافرا وهذا تهديد فى النهاية * فان قيل قوله لا يؤمنون بآيات الله فعل وقوله وأولئك هم الكاذبون اسم وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية قبيح فما السبب فى حصوله ههنا * قلنا الفعل قد يكون لازما وقد يكون مفارقا والدليل عليه قوله تعالى ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ذكره بلفظ الفعل تنبيها على ان ذلك السجن لا يدوم وقال فرعون لموسى عليه السلام لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين ذكره بصيغة الاسم تنبيها على الدوام وقال أصحابنا انه تعالى قال وعصى آدم ربه فغوى ولا يجوز أن يقال ان آدم

بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم (ان الله هو التواب) المبالغ فى قبول التوبة كما وكيفا وان كثرت الجنايات وعظمت (الرحيم) المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لافانين العقاب * روى أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به عليه الصلاة والسلام * عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لاحدهم حائط كان خيرا من مائة ألف درهم فقال يا حائطاه ما خلفنى الا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت فى سبيل الله ولم يكن لآخر الا أهله فقال يا أهلاه ما بطأنى ولا خلفنى الا الفتن بك فلا جرم والله لاكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فتأبط زاده ولحق به عليه الصلاة والسلام قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها وعن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سواده كن أبا ذر فقال الناس هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل وبسطت له الحصير وقربت اليه الرطب

عاص وغاو لان صيغة الفعل لا تفيد الدوام وصيغة الاسم تفيده اذا عرفت هذه المقدمة فنقول قوله انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ذكر ذلك تنبيها على أن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر ثم قال وأولئك هم الكاذبون تنبيها على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة وهذا كما تقول كذبت وأنت كاذب فيكون قولك وأنت كاذب زيادة في الوصف بالكذب ومعناه ان عادتك أن تكون كاذبا ﴿المسئلة الثالثة﴾ ظاهر الآية يدل على أن الكاذب المفتري الذي لا يؤمن بآيات الله والامر كذلك لانه لا معنى للكفر الا انكار الالهية ونبوة الانبياء وهذا الانكار مشتمل على الكذب والافتراء وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له هل يكذب المؤمن قال لا ثم قرأ هذه الآية والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ اعلم أنه تعالى لما عظم تهديد الكافرين ذكر في هذه الآية تفصيلا في بيان من يكفر بلسانه لا بقلبه ومن يكفر بلسانه وقلبه معا وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله من كفر بالله من بعد ايمانه مبتدأ خبره غير مذكور فلهذا السبب اختلف المفسرون وذكروا فيه وجوها (الاول) ان يكون قوله من كفر بدلا من قوله الذين لا يؤمنون بآيات الله والتقدير انما يفتري من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء وعلى هذا التقدير فقوله وأولئك هم الكاذبون اعتراض وقع بين البدل والمبدل منه (والثاني) يجوز أيضا أن يكون بدلا من الخبر الذي هو الكاذبون والتقدير وأولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه (والثالث) يجوز أن ينتصب على الذم والتقدير وأولئك هم الكاذبون أعني من كفر بالله من بعد ايمانه وهو أحسن الوجوه عندي وأبعدها عن التعسف (والرابع) أن يكون قوله من كفر بالله من بعد ايمانه شرطا مبتدأ ويحذف جوابه لان جواب الشرط المذكور بعده يدل على جوابه كأنه قيل من كفر بالله من بعد ايمانه فعليهم غضب من الله الا من أكره ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ﴿المسئلة الثانية﴾ أجمعوا على انه لا يجب عليه التكلم بالكفر ويدل عليه وجوه (أحدها) أنا روينا أن بلالا صبر على ذلك العذاب وكان يقول أحد أحد روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه مع أنه كان بقلبه مصرا على الايمان منهم عمار وأبواه ياسر وسمية وصهيب وبلال وخباب وسالم عذبوا فأما سمية فقيل ربطت بين بعيرين ووخزت في قبلها بحربة وقالوا انك أسلمت من أجل الرجال وقتلت وقتل ياسر وهما أول قتيلين قتلا في الاسلام وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن اسلامهما وهاجرا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله الا من أكره ليس باستثناء لان المكره ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر لكن المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما مثله يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشاكلة ﴿المسئلة الرابعة﴾ يجب ههنا بيان الاكراه الذي عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل ومثل الضرب الشديد والايلامات القوية قال مجاهد أول من أظهر الاسلام سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية أما الرسول عليه الصلاة والسلام فمنعه أبو طالب وأما أبو بكر فمنعه قومه وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ثم أجلسوا في الشمس فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ثم طعن الحربة في فرجها وقال الآخرون ما نالوا منهم غير بلال فانهم جعلوا يعذبونه فيقول أحد أحد حتى ملوا فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف

ماهذا الخبر فقام ورحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى الطريق فاذا راكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكأنه ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له ومنهم من بقي لم يلحق به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثة قال كعب رضي الله عنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد علي كالمغضب بعد ما ذكرني وقال ياليت شعري ما خلف كعبا فقيل له ما خلفه الا حسن برديه والنظر في عطفيه فقال عليه الصلاة والسلام ما أعلم الا فضلا واسلاما ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة اذا أنا بنداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفني ربي وضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وتتابعت البشارة فلبست ثوبي وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس في المسجد حوله المسلمون فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول الى حتى صافحني وقال لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة رضي الله عنه وقال

ودفعوه الى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه قال عمار كلنا تكلم بالذى أراد واغير بلال فهانت عليه نفسه فتركوه قال خباب لقد أوقدوا لى نارا ما أطفأها الا ودك ظهرى ﴿المسئلة الخامسة﴾ أجمعوا على أنه عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرئ قلبه من الرضا به وأن يقتصر على التعريضات مثل أن يقول ان محمدا كذاب ويعنى عند الكفار أو يعنى به محمدا آخر أو يذكره على نية الاستفهام بمعنى الانكار وههنا بحثان ﴿الاوّل﴾ أنه اذا أعجله من أكرهه عن احضار هذه النية أو لانه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملوما وعفو الله متوقع ﴿البحث الثانى﴾ لو ضيق المكره الامر عليه وشرح له كل أقسام التعريضات وطلب منه أن يصرح بأنه ما أراد شيأ منها وما أراد الا ذلك المعنى فههنا يتعين اما التزام الكذب واما تعريض النفس للقتل فمن الناس من قال يباح له الكذب هنا ومنهم من يقول ليس له ذلك وهو الذى اختاره القاضى قال لان الكذب انما يقبح لكونه كذبا فوجب أن يقبح على كل حال ولو جاز أن يخرج عن القبح لرعاية بعض المصالح لم يمتنع أن يفعل الله الكذب لرعاية بعض المصالح وحينئذ لا يبقى وثوق بوعد الله تعالى ولا بوعيده لاحتمال أنه فعل ذلك الكذب لرعاية بعض المصالح التى لا يعرفها الا الله تعالى ﴿المسئلة السادسة﴾ أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر ويدل عليه وجوه (أحدها) انا روينا أن بلالا صبر على ذلك العذاب وكان يقول أحد أحد ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم بئس ما صنعت بل عظمه عليه فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر (وثانيها) ما روى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد فقال رسول الله فقال ما تقول فىّ قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال ما تقول فىّ قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاوّل فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيأ له وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين (الاوّل) أنه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة (والثانى) أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل (وثالثها) أن بذل النفس فى تقرير الحق أشق فوجب أن يكون أكثر ثوابا لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحمزها أى أشقها (ورابعها) أن الذى أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر أما الذى تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه الا أن لسانه فى الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة فوجب أن يكون حال الاوّل أفضل والله أعلم ﴿المسئلة السابعة﴾ اعلم أن للاكراه مراتب ﴿أحدها﴾ أن يجب الفعل المكره عليه مثل ما اذا أكرهه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة فاذا أكرهه عليه بالسيف فههنا يجب الاكل وذلك لان صون الروح عن الفوات واجب ولا سبيل اليه فى هذه الصورة الا بهذا الاكل وليس فى هذا الاكل ضرر على حيوان ولا فيه اهانة لحق الله تعالى فوجب أن يجب لقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴿المرتبة الثانية﴾ أن يصير ذلك الفعل مباحا ولا يصير واجبا ومثاله ما اذا أكرهه على التلفظ بكلمة الكفر فههنا يباح له ولكنه لا يجب كما قررناه ﴿المرتبة الثالثة﴾ أن لا يجب ولا يباح بل يحرم وهذا مثل ما اذا أكرهه انسان على قتل انسان آخر أو على قطع عضو من أعضائه فههنا يبقى الفعل على الحرمة الاصلية وهل يسقط القصاص عن المكره أم لا قال الشافعى رحمه الله فى أحد قوليه يجب القصاص ويدل عليه وجهان (الاوّل) أنه قتله عمدا عدوانا فيجب عليه القصاص لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى (والثانى) أجمعنا على أن المكره اذا قصد قتله فانه يحل له أن يدفعه عن نفسه ولو بالقتل فلما كان توهم اقدامه على القتل يوجب اهدار دمه فلأن يكون عند صدور القتل منه حقيقة يصير دمه مهدرا كان أولى والله أعلم ﴿المسئلة الثامنة﴾ من الافعال ما يقبل الاكراه عليه كالقتل والتكلم بكلمة الكفر ومنه ما لا يقبل الاكراه عليه قيل وهو الزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة فحيث دخل الزنا فى الوجود علم أنه وقع بالاختيار لا على سبيل الاكراه ﴿المسئلة التاسعة﴾ قال الشافعى رحمه الله طلاق المكره لا يقع وقال أبو حنيفة رحمه الله يقع وحجة الشافعى رحمه الله قوله لا اكراه فى الدين ولا يمكن أن يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى

آثاره

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه (يا أيها الذين آمنوا) خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك خاصة (اتقوا الله) فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المغازى دخولا أوليا (وكونوا مع الصادقين) فى ايمانهم وعهودهم أو فى دين الله نية وقولا وعملا أو فى كل شأن من الشؤن فيدخل ما ذكر أولا فى توبتهم وانابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم * وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والانصار وانتظموا فى سلكهم فى الصدق وسائر المحاسن وقرئ من الصادقين (ما كان لاهل المدينة) ما صح وما استقام لهم (ومن حولهم من الاعراب) كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم (أن يتخلفوا عن رسول الله)

آثاره والمعنى أنه لا أثر له ولا عبرة به وأيضا قوله عليه الصلاة والسلام رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وأيضا قوله عليه السلام لا طلاق في اغلاق أي اكراه فان قالوا طلقها فقد دخل تحت قوله فان طلقها فلا تحل له فالجواب لما تعارضت الدلائل وجب أن يبقى ما كان على ما كان على ما هو قولنا والله أعلم ﴿المسئلة العاشرة﴾ قوله وقلبه مطمئن بالايمان يدل على أن محل الايمان هو القلب والذي محله القلب اما الاعتقاد واما كلام النفس فوجب أن يكون الايمان عبارة اما عن المعرفة واما عن التصديق بكلام النفس والله أعلم ثم قال تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا أي فتحه ووسعه لقبول الكفر وانتصب صدرا على أنه مفعول لشرح والتقدير ولكن من شرح بالكفر صدره وحذف الضمير لانه لا يشكل بصدر غيره اذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة ثم قال فعليهم غضب من الله والمعنى أنه تعالى حكم عليهم بالعذاب ثم وصف ذلك العذاب فقال ولهم عذاب عظيم ثم قال تعالى ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة أي رجحوا الدنيا على الآخرة والمعنى أن ذلك الارتداد وذلك الاقدام على الكفر لاجل أنه تعالى ما هداهم الى الايمان وما عصمهم عن الكفر قال القاضي المراد أن الله لا يهديهم الى الجنة فيقال له هذا ضعيف لان قوله وأن الله لا يهدي القوم الكافرين معطوف على قوله ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فوجب أن يكون قوله وأن الله لا يهدي القوم الكافرين علة وسببا موجبا لاقدامهم على ذلك الارتداد وعدم الهداية يوم القيامة الى الجنة ليس سببا لذلك الارتداد ولا علة له بل مسببا عنه ومعلولا له فبطل هذا التأويل ثم أكد بيان أنه تعالى صرفهم عن الايمان فقال أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم قال القاضي الطبع ليس يمنع من الايمان ويدل عليه وجوه (الاول) أنه تعالى ذكر ذلك في معرض الذم لهم ولو كانوا عاجزين عن الايمان به لما استحقوا الذم بتركه (والثاني) أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب في هذا الطبع ومعلوم من حال السمع والبصر أن مع فقدهما قد يصح أن يكون مؤمنا فضلا عن طبع يلحقهما في القلب (والثالث) وصفهم بالغفلة ومن منع من الشئ لا يوصف بأنه غافل عنه فثبت أن المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى الطبع والختم وأقول هذه الكلمات مع التقريرات الكثيرة ومع الجوابات القوية مذكورة في أول سورة البقرة وفي سائر الآيات فلا فائدة في الاعادة ثم قال وأولئك هم الغافلون قال ابن عباس أي عما يراد بهم في الآخرة ثم قال لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون * واعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن الله تعالى وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستة (الصفة الاولى) أنهم استوجبوا غضب الله (والصفة الثانية) أنهم استحقوا العذاب الاليم (والصفة الثالثة) أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (والصفة الرابعة) أنه تعالى حرمهم من الهداية (والصفة الخامسة) أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم (والصفة السادسة) أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون في دفعها فثبت أنه حصل في حقهم هذه الصفات الستة التي كل واحد منها من أعظم الاحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم أنه تعالى انما أدخل الانسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب قال لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون أي هم الخاسرون لا غيرهم والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من أكره على الكفر فذكر بسبب الخوف كلمة الكفر وحال من لم يذكرها ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن فقال ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ ابن عامر فتنوا بفتح الفاء على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء على فعل ما لم يسم فاعله أما وجه القراءة الاولى فأمور

عند توجهه عليه الصلاة والسلام الى الغزو (ولا يرغبوا) نصب وقد جوز الجزم (بأنفسهم عن نفسه) أى لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده من الاهوال والخطوب والكلام في معنى النهي وان كان على صورة الخبر (ذلك) اشارة الى ما دل عليه الكلام من وجوب المشايعة (بأنهم) بسبب أنهم (لا يصيبهم ظمأ) أى عطش يسير (ولا نصب) ولا تعب ما (ولا مخمصة) أى مجاعة ما لا ما يستباح عنده المحرمات من مراتبها فان الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلان لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة الى تأكيد النفي بتكرير كلمة لا ويجوز ان يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فان الظمأ أكثر وقوعا من النصب الذي هو أكثر وقوعا من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لا حينئذ ليس لتأكيد النفي بل للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به (في سبيل الله) واعلاء كلمته (ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار) أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوسا أو مكانا يداس (ولا ينالون من عدو نيلا) مصدر كالقتل والاسر والنهب أو مفعول أى شيأ ينال من قبلهم (الا كتب لهم به) أى بكل

(الاول) أن يكون المراد أن أكابر المشركين وهم الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فان الله يقبل توبتهم (والثانى) ان فتن وأفتن بمعنى واحد كما يقال مان وأمان بمعنى واحد (والثالث) أن أولئك الضعفاء لما ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا أنفسهم وانما جعل ذلك فتنة لان الرخصة فى اظهار كلمة الكفر مانزلت فى ذلك الوقت وأما وجه القراءة بفعل مالم يسم فاعله فظاهر لان أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى انهم اذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فان الله تعالى يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله من بعد ما فتنوا يحتمل أن يكون المراد بالفتنة هو أنهم عذبوا ويحتمل أن يكون المراد هو أنهم خوّفوا بالتعذيب ويحتمل أن يكون المراد ان أولئك المسلمين ارتدوا قال الحسن هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة فعرضت لهم فتنة فارتدوا وشكوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انهم أسلموا وهاجروا فنزلت هذه الآية فيهم وقيل نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ارتد فلما كان يوم الفتح أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انه أسلم وحسن اسلامه وهذه الرواية انما تصح لو جعلنا هذه السورة مدنية أو جعلنا هذه الآية منها مدنية ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك الضعفاء المعذبين تكلموا بكلمة الكفر على سبيل التقية فقوله من بعد ما فتنوا يحتمل كل واحد من هذه الوجوه الاربعة وليس فى اللفظ ما يدل على التعيين اذا عرفت هذا فنقول ان كانت هذه الآية نازلة فيمن أظهر الكفر فالمراد ان ذلك مما لا اثم له فيه وأن حاله اذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكره وان كانت واردة فيمن ارتد فالمراد أن التوبة والقيام بما يجب عليه يزيل ذلك العقاب ويحصل له الغفران والرحمة فالهاء فى قوله من بعدها تعود الى الاعمال المذكورة فيما قبل وهى الهجرة والجهاد والصبر أما قوله يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ففيه ابحاث ﴿الاول﴾ قال الزجاج يوم منصوب على وجهين (أحدهما) أن يكون المعنى ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتى يعنى أنه تعالى يعطى الرحمة والغفران فى ذلك اليوم الذى يعظم احتياج الانسان فيه الى الرحمة والغفران (والثانى) أن يكون التقدير وذكرهم أو اذكر يوم كذا وكذا لان معنى القرآن العظة والانذار والتذكير ﴿والبحث الثانى﴾ لقائل أن يقول النفس لا تكون لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها (والجواب) النفس قد يراد به بدن الحى وقد يراد به ذات الشئ وحقيقته فالنفس الاولى هى الجثة والبدن والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه شأن غيره قال تعالى لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن بعضهم تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه يقول يارب نفسى نفسى حتى ان ابراهيم الخليل عليه السلام يفعل ذلك ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء أضلونا السبيلا وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ثم قال تعالى وتوفى كل نفس ما عملت فيه محذوف والمعنى توفى كل نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان وقوله وهم لا يظلمون قال الواحدى معناه لا ينقصون قال القاضى هذه الآية من أقوى ما يدل على ما نذهب اليه فى الوعيد لانها تدل على انه تعالى يوصل الى كل أحد حقه من غير نقصان ولو أنه تعالى أزال عقاب المذنب بسبب الشفاعة لم يصح ذلك (والجواب) لانزاع أن ظواهر العمومات يدل على قولكم الا أن مذهبنا ان التمسك بظواهر العمومات لا يفيد القطع وأيضا فظواهر الوعيد معارضة بظواهر الوعد ثم بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ان جانب الوعد راجح على جانب الوعيد من وجوه كثيرة والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهو الوقوع فى الجوع والخوف كما ذكره فى هذه الآية ﴿المسئلة الثانية﴾ المثل قد يضرب بشئ موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشئ موجودا أو لم يكن وقد يضرب بشئ موجود معين فهذه القرية التى ضرب الله

واحد من الامور المعدودة (عمل صالح) وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين ما فعلوه من الامور لا يمنع دخول الباء فان اختلاف العنوان كاف فى ذلك (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) على احسانهم تعليل لما سلف من الكتب والمراد بالمحسنين اما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الاحسان وللاشعار بعلية المأخذ للحكم واما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا (ولا ينفقون نفقة صغيرة) ولو تمرة أو علاقة سوط (ولا كبيرة) كما أنفق عثمان رضى الله عنه والترتيب باعتبار ما ذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفى كما فى قوله عز وجل (ولا يقطعون) أى لا يجتازون فى مسيرهم (واديا) وهو فى الاصل كل منفرج من الجبال والآكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من ودى اذا سال ثم شاع فى الارض على الاطلاق (الا كتب لهم) أى أثبت لهم ذلك الذى فعلوه من الانفاق والقطع (ليجزيهم الله) بذلك (أحسن ما كانوا يعملون) أحسن جزاء أعمالهم

بهاهذا المثل يحتمل أن تكون شيأ مفروضا و يحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أوغيرها والا كثرون من المفسرين على أنها مكة والاقرب أنها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (المسئلة الثالثة) ذكر الله تعالى لهذه القرية صفات (الصفة الاولى) كونها آمنة أى ذات أمن لا يغار عليهم كما قال أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس من حولهم والامر فى مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض أما أهل مكة فانهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم و يخصونهم بالتعظيم والتكريم واعلم أنه يجوز وصف القرية بالامن وان كان ذلك لاهلها لاجل أنها مكان الامن وظرف له والظروف من الازمنة والامكنة توصف بما حلها كما يقال طيب وحار و بارد (والصفة الثانية) قوله مطمئنة قال الواحدى معناه انه قارة ساكنة فاهلها لا يحتاجون الى الانتقال عنها لخوف أوضيق أقول ان كان المراد من كونها مطمئنة انهم لا يحتاجون الى الانتقال عنها بسبب الخوف فهذا هومعنى كونها آمنة وان كان المراد انهم لا يحتاجون الى الانتقال عنها بسبب الضيق فهذا هو معنى قوله يأتيها رزقها رغدا من كل مكان وعلى كلا التقديرين فانه يلزم التكرار والجواب أن العقلاء قالوا

ثلاثة ليس لها نهاية ... الامن والصحة والكفاية

فقوله آمنة اشارة الى الامن وقوله مطمئنة اشارة الى الصحة لان هواء ذلك البلد لما كان ملائما لامزجتهم اطمأنوا اليه واستقروا فيه وقوله يأتيها رزقها رغدا من كل مكان اشارة الى الكفاية قال المفسرون وقوله من كل مكان السبب فيه اجابة دعوة ابراهيم عليه السلام وهو قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات ثم انه تعالى لما وصف القرية بهذه الصفات الثلاثة قال فكفرت بأنعم الله الانعم جمع نعمة مثل أشد وشدة أقول ههنا سؤال وهو أن الانعم جمع قلة فكان المعنى أن أهل تلك القرية كفرت بانواع قليلة من النعم فعذبها الله وكان اللائق أن يقال انهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب فما السبب فى ذكر جمع القلة والجواب المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى يعنى أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بايجاب العذاب وهذا مثل أهل مكة لانهم كانوا فى الامن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به و بالغوا فى ايذائه فلا جرم سلط الله عليهم البلاء قال المفسرون عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز والقد أما الخوف فهو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث اليهم السرايا فيغيرون عليهم ونقل أن ابن الراوندى قال لابن الاعرابى الاديب هل يذاق اللباس قال ابن الاعرابى لا بأس ولا لباس يا أيها النسناس هب انك تشك أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا وكان مقصود ابن الراوندى الطعن فى هذه الآية وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس فكان الواجب أن يقال فكساهم الله لباس الجوع أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع وأقول جوابه من وجوه (الاول) أن الاحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان (أحدهما) أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع (والثانى) أن ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس فالحاصل أنه حصل فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف (والوجه الثانى) ان التقدير ان الله عرفها لباس الجوع والخوف الا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها ... وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف هوما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال فكما تقول تعرفت سوء أثر الخوف والجوع على فلان كذلك يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان (والوجه الثالث) أن يحمل لفظ اللباس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع

أو جزاء أحسن أعمالهم (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ما صح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعا فان ذلك مخل بأمر المعاش (فلولا نفر) فهلا نفر (من كل فرقة) أى طائفة كثيرة (منهم) كأهل بلدة أوقبيلة عظيمة (طائفة) أى جماعة قليلة (ليتفقهوا فى الدين) أى يتكلفوا الفقاهة فيه و يتجشموا مشاق تحصيلها (ولينذروا قومهم) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك ارشاد القوم وانذارهم (اذا رجعوا اليهم) وتخصيصه بالذكر لانه أهم وفيه دليل على أن التفقه فى الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والاقامة لا الترفع على العباد والتبسط فى البلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان (لعلهم يحذرون) ارادة أن يحذروا عما ينذرون واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لان عموم كل فرقة يقتضى أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة الى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا و يحذروا فلولم يعتبر الاخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك وقد قيل للآية وجه آخر وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل فى المتخلفين سارعوا الى النفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمروا

والخوف ثم قال تعالى بما كانوا يصنعون قال ابن عباس يريد بفعلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم حين كذبوه وأخرجوه من مكة وهموا بقتله قال الفراء ولم يقل بما صنعت ومثله في القرآن كثير ومنه قوله تعالى فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ولم يقل قائلة وتحقيق الكلام انه تعالى وصف القرية بأنها مطمئنة يأتيها رزقها رغداً فكفرت بأنعم الله فكل هذه الصفات وان أجريت بحسب اللفظ على القرية الا أن المراد في الحقيقة أهلها فلا جرم قال في آخر الآية بما كانوا يصنعون والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر المثل ذكر الممثل فقال ولقد جاءهم يعني أهل مكة رسول منهم يعني من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه فكذبوه فأخذهم العذاب قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني الجوع الذي كان بمكة وقيل القتل يوم بدر وأقول قول ابن عباس أولى لانه تعالى قال بعده فكلوا مما رزقكم الله ان كنتم اياه تعبدون يعني ان ذلك الجوع انما كان بسبب كفركم فاتركوا الكفر حتى تأكلوا فلهذا السبب قال فكلوا مما رزقكم الله قال ابن عباس رحمهما الله فكلوا يا معشر المسلمين مما رزقكم الله يريد من الغنائم وقال الكلبي ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النسوان والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في حمل الطعام اليهم فحمل اليهم الطعام فقال الله تعالى فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً والقول ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ويدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل الآية يعني انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم ۞ قوله تعالى ﴿انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم﴾ اعلم أن هذه الآية الى آخرها مذكورة في سورة البقرة مفسرة هنالك ولا فائدة في الاعادة وأقول انه تعالى حصر المحرمات في هذه الاشياء الاربعة في هذه السورة لان لفظة انما تفيد الحصر وحصرها أيضاً في هذه الاربعة في سورة الانعام في قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم وهاتان السورتان مكيتان وحصرها أيضاً في هذه الاربعة في سورة البقرة لان هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة وحصرها أيضاً في سورة المائدة فانه تعالى قال في أول هذه السورة أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم فأباح الكل الا ما يتلى عليهم وأجمعوا على أن المراد بقوله ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في تلك السورة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فذكر تلك الاربعة المذكورة في تلك السور الثلاثة ثم قال والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وهذه الاشياء داخلة في الميتة ثم قال وما ذبح على النصب وهو أحد الاقسام الداخلة تحت قوله وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الاربع سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم في هذه الاربع الا ما خصه الاجماع والدلائل القاطعة كان في محل أن يخشى عليه لان هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الاربع كان شرعاً ثابتاً في أول أمر مكة وآخرها وأول أمر المدينة وآخرها وانه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الاربع قطعاً للاعذار وازالة للشبهة والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الاربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الاربع تارة وفي النقصان عنها أخرى فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضاً في المحللات وذلك لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى فالله تعالى بين ان المحرمات هي هذه الاربعة وبين أن الاشياء التي يقولون

أن ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذي هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فالضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفي رجعوا للطوائف أي ولينذر البواقي قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما أمر عليه الصلاة والسلام أولاً بانذار عشيرته فان الاقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالي المدينة كبني قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة الى العراق وغيره (وليجدوا فيكم غلظة) أي شدة وصبراً على القتال وقرئ بفتح الغين لغلظة وبضمها وهما لغتان فيها (واعلموا ان الله مع المتقين) بالعصمة والنصرة والمراد بهم اما المخاطبون ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الايمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين واما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع

ان

ان هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا الكذب وأقول انه تعالى لما بين هذا الحصر في هذه السور الاربع ثم ذكر في هذه الآية أن الزيادة عليها والنقصان عنها كذب وافتراء على الله تعالى وموجب للوعيد الشديد علمنا أنه لا مزيد على هذا الحصر والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ في انتصاب الكذب في قوله لما تصف ألسنتكم الكذب وجهان (الاول) قال الكسائي والزجاج ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا كذا وكذا فان قالوا حمل الآية عليه يؤدي الى التكرار لان قوله تعالى لتفتروا على الله الكذب عين ذلك والجواب أن قوله لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان كذب على الله تعالى فاعاد قوله لتفتروا على الله الكذب ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثيرة وهو أنه تعالى يذكر كلاما ثم يعيده بعينه مع فائدة زائدة (الثاني) أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله تعالى تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام وبليغه كأن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته وهذا مبالغة في وصف كلامهم بكونه كذبا ونظيره قول أبي العلاء المعري

سرى برق المعرة بعد وهن ✽ فبات برامة يصف الكلالا

والمعنى ان سرى ذلك البرق يصف الكلال فكذا ههنا والله أعلم ثم قال تعالى لتفتروا على الله الكذب المعنى أنهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل الى الله تعالى ويقولون انه أمرنا بذلك وأظن ان هذا اللام ليس لام الغرض لان ذلك الافتراء ما كان غرضا لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا قال الواحدي وقوله لتفتروا على الله الكذب بدل من قوله لما تصف ألسنتكم الكذب لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى ففسر وصفهم الكذب بالافتراء على الله تعالى ثم أوعد المفترين وقال ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال متاع قليل وقال الزجاج المعنى متاعهم متاع قليل وقال ابن عباس بل متاع كل الدنيا متاع قليل ثم يردون الى عذاب أليم وهو قوله ولهم عذاب أليم ۞ قوله تعالى ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ اعلم انه تعالى لما بين ما يحل وما يحرم لاهل الاسلام أتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات فقال وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وهو الذي سبق ذكره في سورة الانعام ثم قال تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وتفسيره هو المذكور في قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ۞ قوله تعالى ﴿ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ اعلم أن المقصود بيان أن الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة ولفظ السوء يتناول كل ما لا ينبغي وهو الكفر والمعاصي وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة أما الكفر فلان أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا فانه ما لم يعتقد كون ذلك المذهب حقا وصدقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فما لم تصر الشهوة غالبة للعقل والعلم لم تصدر عنه تلك المعصية فثبت أن كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة فقال تعالى انا قد بالغنا في تهديد أولئك الكفار الذين يحللون ويحرمون بمقتضى الشهوة والفرية على الله تعالى ثم انا بعد ذلك نقول ان ربك في حق الذين عملوا السوء بسبب الجهالة ثم تابوا من بعد ذلك أي من بعد تلك السيئة وقيل من بعد تلك الجهالة ثم انهم بعد التوبة عن تلك السيئات أصلحوا أي آمنوا وأطاعوا الله ثم أعاد قوله ان ربك من بعدها على سبيل التأكيد ثم قال لغفور رحيم والمعنى انه لغفور رحيم لذلك السوء الذي صدر عنهم بسبب الجهالة وحاصل الكلام أن الانسان وان كان قد أقدم على الكفر والمعاصي دهرا دهيرا وأمدا مديدا فاذا تاب عنه وآمن وأتى بالاعمال الصالحة فان الله غفور رحيم يقبل توبته ويخلصه من العذاب ۞ قوله تعالى ﴿ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى

في قوله تعالى ان الله معنا (واذا ما أنزلت سورة) من سور القرآن (فمنهم) أي من المنافقين (من يقول) لاخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الايمان (أيكم زادته هذه) السورة (ايمانا) وقرئ بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور أي أيكم زادت زادته هذه الخ وايراد الزيادة مع انه لا ايمان فيهم أصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا (فأما الذين آمنوا) جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا أي فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده (فزادتهم ايمانا) بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق (وهم يستبشرون) بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية (وأما الذين في قلوبهم مرض) أي كفر وسوء عقيدة (فزادتهم رجسا الى رجسهم) أي كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها وعقائد باطلة وأخلاقا ذميمة كذلك (وماتوا وهم كافرون) واستحكم ذلك الى أن يموتوا عليه (أولا يرون) الهمزة للانكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أي الا ينظرون ولا يرون (أنهم) أي

صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ اعلم أنه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء منها قولهم باثبات الشركاء والانداد لله تعالى ومنها طعنهم في نبوة الانبياء والرسل عليهم السلام وقولهم لو أرسل الله رسولا لكان ذلك الرسول من الملائكة ومنها قولهم بتحليل أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أباحها الله تعالى فلما بالغ في ابطال مذاهبهم في هذه الاقوال وكان ابراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الاصوليين وهو الذي دعا الناس الى التوحيد وابطال الشرك والى الشرائع والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به لاجرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك واعلم أنه تعالى وصف ابراهيم عليه السلام بصفات ﴿الصفة الاولى﴾ أنه كان أمة وفي تفسيره وجوه (الاول) أنه كان وحده أمة من الامم لكماله في صفات الخير كقوله

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

(الثاني) قال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده (الثالث) أن يكون أمة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة فالامة هو الذي يؤتم به ودليله قوله اني جاعلك للناس اماما (الرابع) أنه عليه السلام هو السبب الذي لاجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الامة سماه الله تعالى بالامة اطلاقا لاسم المسبب على السبب وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الارض الا زمن ابراهيم عليه السلام فانه كان وحده ﴿الصفة الثانية﴾ كونه قانتا لله والقانت هو القائم بما أمره الله تعالى به قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه كونه مطيعا لله ﴿الصفة الثالثة﴾ كونه حنيفا والحنيف المائل الى ملة الاسلام ميلا لا يزول عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما انه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى وهذه صفة الحنيفية ﴿الصفة الرابعة﴾ قوله ولم يك من المشركين معناه انه كان من الموحدين في الصغر والكبر والذي يقرر كونه كذلك ان أكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الاصول فذكر دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربي الذي يحيي ويميت ثم أبطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى أن ألقوه في النار ثم طلب من الله أن يريه كيفية احياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة ومن وقف على علم القرآن علم أن ابراهيم عليه السلام كان غارقا في بحر التوحيد ﴿الصفة الخامسة﴾ قوله شاكرا لانعمه روي أنه عليه السلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فاظهروا أن بهم علة الجذام فقال الآن يجب علي مؤاكلتكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء * فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعم الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه * قلنا المراد انه كان شاكرا لجميع نعم الله ان كانت قليلة فكيف الكثيرة ﴿الصفة السادسة﴾ قوله اجتباه أي اصطفاه للنبوة والاجتباء هو أن تأخذ الشئ بالكلية وهو افتعال من جبيت وأصله جمع الماء في الحوض والجابية هي الحوض ﴿الصفة السابعة﴾ قوله وهداه الى صراط مستقيم أي في الدعوة الى الله والترغيب في الدين الحق والتنفير عن الدين الباطل نظيره قوله تعالى وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ﴿الصفة الثامنة﴾ قوله وآتيناه في الدنيا حسنة قال قتادة ان الله حببه الى كل الخلق فكل أهل الاديان يقرون به أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق الكلام أن الله أجاب دعاءه في قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين وقال آخرون هو قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل الصدق والوفاء والعبادة ﴿الصفة التاسعة﴾ قوله وانه في الآخرة لمن الصالحين فان قيل لم قال وانه في الآخرة لمن

الصالحين

أي يبتلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدي رب العزة فيؤدي الى الايمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لاسيما القوارع الزائدة للايمان الناعية عليهم ما فيهم من القبائح المخزية لهم (ثم لا يتوبون) عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى (ولاهم يذكرون) والمعنى أولا يرون افتتانهم الموجب لايمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولاهم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة وقرئ بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجب أي ألا تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التي هي افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى ثم لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون (واذا ما أنزلت سورة) بيان لاحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي كما أن الاول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه (نظر بعضهم الى بعض) تغامزوا بالعيون انكارا لها أو سخرية بها

الصالحين ولم يقل وانه فى الآخرة فى أعلى مقامات الصالحين قلنا لانه تعالى حكى عنه أنه قال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين فقال ههنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى أن يكون فى أعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية أخرى وهى قوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء واعلم أنه تعالى لما وصف ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وفيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ قال قوم ان النبى صلى الله عليه وسلم كان على شريعة ابراهيم عليه السلام وليس له شرع هو به منفرد بل المقصود من بعثته عليه السلام احياء شرع ابراهيم عليه السلام وعول فى اثبات مذهبه على هذه الآية وهذا القول ضعيف لانه تعالى وصف ابراهيم عليه السلام فى هذه الآية بأنه ما كان من المشركين فلما قال واتبع ملة ابراهيم كان المراد ذلك ❊ فان قيل النبى صلى الله عليه وسلم انما نفى الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية واذا كان كذلك لم يكن متابعا له فيمتنع حمل قوله أن اتبع على هذا المعنى فوجب حمله على الشرائع التى يصح حصول المتابعة فيها ❊ قلنا يحتمل أن يكون المراد الامر بمتابعته فى كيفية الدعوة الى التوحيد وهو أن يدعو اليه بطريق الرفق والسهولة وايراد الدلائل مرة بعد أخرى بانواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة فى القرآن ﴿البحث الثانى﴾ قال صاحب الكشاف لفظة ثم فى قوله ثم أوحينا اليك تدل على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجلال محله والايذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتى من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته من قبل أن هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة عن سائر المدائح التى مدحه الله بها ❊ قوله تعالى ﴿انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بمتابعة ابراهيم عليه السلام وكان محمد عليه السلام اختار يوم الجمعة فهذه المتابعة انما تحصل اذا قلنا ان ابراهيم عليه السلام كان قد اختار فى شرعه يوم الجمعة وعند هذا السائل أن يقول فلم اختار اليهود يوم السبت فأجاب الله تعالى عنه بقوله انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وفى الآية قولان (الاول) روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أمرهم موسى بالجمعة وقال تفرغوا لله فى كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيأ من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه أى على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم فى السبت كان اختلافا على نبيهم فى ذلك اليوم أى لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لان اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله اختلفوا فيه بهذا بل الصحيح ما قدمناه ❊ فان قال قائل هل فى العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت وذلك لان أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم فى ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين من يوم الاحد وتم فى يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك الاعمال فعينوا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين هو يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدا لنا فهذان الوجهان معقولان فما الوجه فى جعل يوم الجمعة عيدا لنا ❊ قلنا يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه والله أعلم ﴿القول الثانى فى اختلاف السبت﴾ أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا فى تحريمه على كلمة واحدة ثم قال تعالى وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون والمعنى أنه تعالى سيحكم يوم القيامة للمحقين

أو غيظا لما فيها من مخازيهم (هل يراكم من أحد) أى قائلين يراكم أحد من المسلمين لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من أحد ان قمتم من المجلس وايراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة فان المرء بشأنه أكثر اهتماما منه بشأن أصحابه كما فى قوله تعالى وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا وقيل المعنى واذا ما أنزلت سورة فى عيوب المنافقين (ثم انصرفوا) عطف على نظر بعضهم والتراخى باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعا عن محفل الوحى خوفا من الافتضاح أو غير ذلك (صرف الله قلوبهم) أى عن الايمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة اخبارية أو دعائية (بأنهم) أى بسبب أنهم (قوم لا يفقهون) لسوء الفهم أو لعدم التدبر (لقد جاءكم) الخطاب للعرب (رسول) أى رسول عظيم الشأن (من أنفسكم) من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرئ بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم (عزيز عليه ما عنتم) أى شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب

بالثواب وللمبطلين بالعقاب ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه السلام بين الشيء الذى أمره بمتابعته فيه فقال ادع الى سبيل ربك بالحكمة واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الاحسن وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل فى آية أخرى فقال ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض وجب أن تكون طرقا متغايرة متباينة وما رأيت للمفسرين فيه كلاما ملخصا مضبوطا واعلم أن الدعوة الى المذهب والمقالة لابد وأن تكون مبنية على حجة وبينة والمقصود من ذكر الحجة اما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد فى قلوب المستمعين واما أن يكون المقصود الزام الخصم وافحامه أما القسم الاول فينقسم أيضا الى قسمين لان تلك الحجة اما ان تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض واما أن لا تكون كذلك بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والاقناع الكامل فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج فى هذه الاقسام الثلاثة (أولها) الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمى بالحكمة وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات وهى التى قال الله فى صفتها ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (وثانيها) الامارات الظنية والدلائل الاقناعية وهى الموعظة الحسنة (وثالثها) الدلائل التى يكون المقصود من ذكرها الزام الخصوم وافحامهم وذلك هو الجدل ثم هذا الجدل على قسمين (أحدهما) أن يكون دليلا مركبا من مقدمات مسلمة فى المشهور عند الجمهور أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الاحسن ﴿والقسم الثانى﴾ أن يكون ذلك الدليل مركبا من مقدمات باطلة فاسدة الا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل انما اللائق بهم هو القسم الاول وذلك هو المراد بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج فى هذه الاقسام الثلاثة المذكورة فى هذه الآية اذا عرفت هذا فنقول أهل العلم ثلاث طوائف الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن الا بالدلائل القطعية اليقينية وهى الحكمة والقسم الثانى الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التى تفيد الافحام والالزام وهذان القسمان هما الطرفان فالاول هو طرف الكمال والثانى طرف النقصان وأما القسم الثالث فهو الواسطة وهم الذين ما بلغوا فى الكمال الى حد الحكماء المحققين وفى النقصان والرذالة الى حد المشاغبين المخاصمين بل هم أقوام بقوا على الفطرة الاصلية والسلامة الخلقية وما بلغوا الى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن الا بالموعظة الحسنة وأدناها المجادلة وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة وفيهم الكثرة والغلبة وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة فقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة معناه ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالحكمة وهى البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهى الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الاحسن الاكمل ومن لطائف هذه الآية أنه قال ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين لان الدعوة ان كانت بالدلائل القطعية فهى الحكمة وان كانت بالدلائل الظنية فهى الموعظة الحسنة أما الجدل فليس من باب الدعوة بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الالزام والافحام فلهذا السبب لم يقل ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيها على أنه لا يحصل الدعوة وانما الغرض منه شيء آخر والله أعلم واعلم أن هذه المباحث تدل على أنه

وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة (حريص عليكم) فى ايمانكم وصلاح حالكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) قدم الابلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل (فان تولوا) تلوين للخطاب وتوجيه له الى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية له أى ان أعرضوا عن الايمان بك (فقل حسبى الله) فانه يكفيك ويعينك عليهم (لا اله الا هو) استئناف مقرر لمضمون ما قبله (عليه توكلت) فلا أرجو ولا أخاف الا منه (وهو رب العرش العظيم) أى الملك العظيم أو الجسم الاعظم المحيط الذى تنزل منه الاحكام والمقادير وقرئ العظيم بالرفع وعن أبى ان آخر ما نزل هاتان الآيتان * وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل القرآن على الا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فانهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة

﴿سورة يونس عليه السلام مكية وآيها مائة وتسع آيات﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر) بتفخيم الراء المفتوحة وقرئ بالامالة اجراء للاصلية مجرى المنقلبة عن الياء وقرئ بين بين وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا

تعالى أدرج فى هذه الآية هذه الاسرار العالية الشريفة مع أن أكثر الخلق كانوا غافلين عنها فظهر أن هذا الكتاب الكريم لا يهتدى الى ما فيه من الاسرار الا من كان من خواص أولى الابصار ثم قال تعالى ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين والمعنى انك مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين والذى عندى فى هذا الباب ان جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية فبعضها نفوس مشرقة صافية قليلة التعلق بالجسمانيات كثيرة الانجذاب الى عالم الروحانيات وبعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات عديمة الالتفات الى الروحانيات ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها فلهذا قال تعالى اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع فى حصول الهداية للكل فانه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة وباشراق النفوس المشرقة الصافية فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة كما قال فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله والله أعلم ❁ قوله تعالى ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الواحدى هذه الآية فيها ثلاثة أقوال (أحدها) وهو الذى عليه العامة ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثلوا به قال والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عما أراد وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى وعلى هذا قالوا ان سورة النحل كلها مكية الا هذه الآيات الثلاث (والقول الثانى) ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وفى هذه الآية أمر الله بأن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا (والقول الثالث) ان المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال ابن سيرين ان أخذ منك رجل شيأ فخذ منه مثله ❁ وأقول ان حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن اليه وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى أن يقال المراد انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق الى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم وبالاعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعى بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك المحق اذا شاهد تلك السفاهات وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين فى هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذى يجب حمل الآية عليه ❁ فان قيل فهل تقدحون فيما روى أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية ❁ قلنا لا حاجة الى القدح فى تلك الرواية لانا نقول تلك الواقعة داخلة فى عموم هذه الآية فيمكن التمسك فى تلك الواقعة بعموم هذه الآية انما الذى ينازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة لان ذلك يوجب سوء الترتيب فى كلام الله تعالى ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم انه تعالى أمر برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب ﴿المرتبة الاولى﴾ قوله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به يعنى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله ورحمته وفى قوله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على أن الاولى له أن لا يفعل كما انك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه ان الاولى بك أن لا تأكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على ان الاولى تركه ﴿المرتبة الثانية﴾

محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها لا جعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر ❁ والاشارة اليها قبل جريان ذكرها لما انها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت فى حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وكلمة (تلك) اشارة اليها اما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التى هى الحروف المذكورة منزلة ذكرها فأشير اليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ واما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالاشارة اليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الامر بذكرها أو بقراءتها وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله تعالى (آيات الكتاب) وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الاول والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات

الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا تصريح بان الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانفاع أفضل من الايلام ﴿المرتبة الثالثة﴾ وهو ورود الامر بالجزم بالترك وهو قوله واصبر لانه فى المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير وأولى وفى هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر ولما كان الصبر فى هذا المقام شاقا شديدا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال وما صبرك الا بالله أى بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلى الاصلى المفيد فى حصول الصبر وفى حصول جميع أنواع الطاعات ولما ذكر هذا السبب الكلى الاصلى ذكر بعده ما هو السبب الجزئى القريب فقال ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون وذلك لان اقدام الانسان على الانتقام وعلى انزال الضرر بالغير لا يكون الا عند هيجان الغضب وشدة الغضب لا تحصل الا لاحد أمرين (أحدهما) فوات نفع كان حاصلا فى الماضى واليه الاشارة بقوله ولا تحزن عليهم قيل معناه ولا تحزن على قتلى أحد ومعناه ولا تحزن بسبب فوت أولئك الاصدقاء ويرجع حاصله الى فوت النفع والسبب الثانى لشدة الغضب توقع ضرر فى المستقبل واليه الاشارة بقوله ولا تك فى ضيق مما يمكرون ومن وقف على هذه اللطائف عرف أنه لا يمكن كلام أدخل فى الحسن والضبط من هذا الكلام * بقى فى لفظ الآية مباحث ﴿البحث الاول﴾ قرأ ابن كثير ولا تك فى ضيق بكسر الضاد وفى النمل مثله والباقون بفتح الضاد فى الحرفين * أما الوجه فى القراءة المشهورة فأمور قال أبو عبيدة الضيق بالكسر فى قلة المعاش والمساكن وما كان فى القلب فانه الضيق وقال أبو عمرو الضيق بالكسر الشدة والضيق بفتح الضاد الغم وقال القتيبى ضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين وبهذا الطريق قلنا انه تصح قراءة ابن كثير ﴿البحث الثانى﴾ قرئ ولا تكن فى ضيق ﴿البحث الثالث﴾ هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق فيك الا أن الفائدة فى قوله ولا تك فى ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى والله أعلم ﴿المرتبة الرابعة﴾ قوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وهذا يجرى مجرى التهديد لان فى المرتبة الاولى رغب فى ترك الانتقام على سبيل الرمز وفى المرتبة الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة أمر بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد فى فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون فى ترك أصل الانتقام فان أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين ومن وقف على هذا الترتيب عرف أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فمرتبة ولما قال الله لرسوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ذكر هذه المراتب الاربعة تنبيها على أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعة على هذا الوجه وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل ان هذا الكتاب الكريم بحر لا ساحل له ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله ان الله مع الذين اتقوا معيته بالرحمة والفضل والرتبة وقوله الذين اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله وذلك يدل على أن كمال السعادة للانسان فى هذين الامرين أعنى التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وعبر عنه بعض المشايخ فقال كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وقال الحكماء كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وعن هرم بن حيان انه قيل له عند القرب من الوفاة أوص فقال انما الوصية من المال ولا مال لى ولكنى أوصيكم بخواتيم سورة النحل ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوة الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وأكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالنسخ ولا أرى فيه فائدة والله أعلم بالصواب ﴿قال المصنف رحمه الله﴾ تم

الكاملة والمراد بالكتاب اما جميع القرآن العظيم وان لم ينزل الكل حينئذ اما باعتبار تعينه وتحققه فى علم الله عز وعلا أوفى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة الى السماء الدنيا كما هو المشهور فان فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبأم القرآن فى عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصى اذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة واما جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهم بين الناس اذ ذاك فانه كما يطلق على المجموع الشخصى يطلق على مجموع ما نزل فى كل عصر ألا ترى الى ما روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول أيهم أكثر أخذا للقرآن فاذا أشير له الى أحدهما قدمه فى اللحد فان ما يفهمه الناس من القرآن فى ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت فى أخذه انما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة لتحقق المجموع الشخصى فى علم الله سبحانه أوفى اللوح ولا لنزوله جملة الى السماء الدنيا (الحكيم) ذى الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه او من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا

تفسير

تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة بزمان معتدل وقال رحمه الله الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعانى فى غيب الغيب محصونة والاسرار فيما وراء العز مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله ذى الاكرام والجلال والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه وسلم

﴿سورة بنى اسرائيل عددها مائة آية وعشر آيات عن ابن عباس أنها مكية غير قوله وان كادوا ليستفزونك من الارض الى قوله واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا فانها مدنيات نزلت حين جاء وفد ثقيف﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال النحويون سبحان اسم علم للتسبيح يقال سبحت الله تسبيحا وسبحانا فالتسبيح هو المصدر وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك كفرت اليمين تكفيرا وكفرانا وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء قال صاحب النظم السبح فى اللغة التباعد يدل عليه قوله تعالى ان لك فى النهار سبحا أى تباعدا فمعنى سبح الله تعالى أى بعده ونزهه عما لا ينبغى وتمام المباحث العقلية فى لفظ التسبيح قد ذكرناها فى أول سورة الحديد وقد جاء فى لفظ التسبيح معان أخرى (أحدها) أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ومنه قوله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين أى من المصلين والسبحة الصلاة النافلة وانما قيل للمصلى مسبح لانه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لا ينبغى (وثانيها) ورد التسبيح بمعنى الاستثناء فى قوله تعالى قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون أى تستثنون وتأويله أيضا يعود الى تعظيم الله تعالى فى الاستثناء بمشيئته (وثالثها) جاء فى الحديث لأحرقت سبحات وجهه ما أدركت من شئ قيل معناه نور وجهه وقيل سبحات وجهه نور وجهه الذى اذا رآه الرائى قال سبحان الله وقوله أسرى قال أهل اللغة أسرى وسرى لغتان وقوله بعبده أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام وسمعت الشيخ الامام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال سمعت الشيخ الامام أبا القاسم سليمان الانصارى قال لما وصل محمد صلوات الله عليه الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى المعارج أوحى الله تعالى اليه يا محمد بم أشرفك قال يارب بأن تنسبنى الى نفسك بالعبودية فأنزل الله فيه سبحان الذى أسرى بعبده وقوله ليلا نصب على الظرف فان قيل الاسراء لا يكون الا بالليل فما معنى ذكر الليل قلنا أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وأنه أسرى به فى بعض الليل من مكة الى الشام مسيرة أربعين ليلة وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية واختلفوا فى ذلك الليل قال مقاتل كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ونقل صاحب الكشاف عن أنس والحسن أنه كان ذلك قبل البعثة وقوله من المسجد الحرام اختلفوا فى المكان الذى أسرى به منه فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل بالبراق وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس الحرم كله مسجد وهذا قول الاكثرين وقوله الى المسجد الاقصى اتفقوا على أن المراد منه بيت المقدس وسمى بالاقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله الذى باركنا حوله قيل بالثمار والازهار وقيل بسبب أنه مقر الانبياء ومهبط الملائكة * واعلم أن كلمة الى لانتهاء الغاية فمدلول قوله الى المسجد الاقصى أنه وصل الى حد ذلك المسجد فأما أنه دخل ذلك المسجد أم لا فليس فى اللفظ دلالة عليه وقوله لنريه من آياتنا يعنى ما رأى فى تلك الليلة من العجائب والآيات التى تدل على قدرة الله تعالى فان قالوا قوله لنريه من آياتنا يدل على أنه تعالى ما أراه الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات

ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان امرها أو الامر بذكرها أو بقراءتها وينبغى أن يكون المشار اليه حينئذ كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لانه عين السورة فلا يكون للاضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف اليه حكمة فلا يتأتى ما قصد من مدح المضاف بما للمضاف اليه من صفات الكمال ولان فى بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس فى بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الاطلاق وان كان كله بأحد الوجهين المذكورين لكن صحة اطلاقه على بعضه أيضا مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وان كان اتصاف الكل بأحد الاعتبارين بما ذكر من نعوت الكمال الا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما اتصف به الكل مما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضا من القرآن الكريم اذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف (أكان للناس عجبا) الهمزة لانكار تعجبهم ولتعجيب السامعين منه لكونه فى غير محله والمراد بالناس كفار مكة وانما

والارض فيلزم أن يكون معراج ابراهيم عليه السلام أفضل من معراج محمد صلى الله عليه وسلم قلنا الذي رآه ابراهيم ملكوت السموات والارض والذي رآه محمد صلى الله عليه وسلم بعض آيات الله تعالى ولا شك أن آيات الله أفضل ثم قال انه هو السميع البصير أي ان الذي أسرى بعبده هو السميع لاقوال محمد البصير بافعاله العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء مقرونة بالصدق والصفاء فلهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات وقيل المراد سميع لما يقولون للرسول في هذا الامر بصير بما يعملون في هذه الواقعة (المسئلة الثانية) اختلف في كيفية ذلك الاسراء فالاكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقلون قالوا انه ما أسرى الا بروحه حكى عن محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا وانه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أسرى بروحه وحكى هذا القول أيضا عن عائشة رضي الله عنها وعن معاوية رضي الله عنه واعلم أن الكلام في هذا الباب يقع في مقامين (أحدهما) في اثبات الجواز العقلي (والثاني) في الوقوع (أما المقام الاول) وهو اثبات الجواز العقلي فنقول الحركة الواقعة في السرعة الى هذا الحد ممكنة في نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات وذلك يدل على أن حصول الحركة في هذا الحد من السرعة غير ممتنع فنفتقر ههنا الى بيان مقدمتين (المقدمة الاولى) في اثبات أن الحركة الواقعة الى هذا الحد ممكنة في نفسها ويدل عليه وجوه (الاول) أن الفلك الاعظم يتحرك من أول الليل الى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت في الهندسة أن نسبة القطر الواحد الى الدور نسبة الواحد الى ثلاثة وسبع فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر الى نصف الدور نسبة الواحد الى ثلاث وسبع وبتقدير أن يقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع من مكة الى ما فوق الفلك الاعظم فهو لم يتحرك الا بمقدار نصف القطر فلما حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالامكان فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة الى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه واذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالامكان والله أعلم (الوجه الثاني) وهو أنه ثبت في الهندسة أن قرص الشمس يساوي كرة الارض مائة وستين وكذا مرة ثم انا نشاهد أن طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة الى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه (الوجه الثالث) أنه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم الى ما فوق العرش فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش الى مركز العالم فان كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم في الليلة الواحدة ممتنعا في العقول كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش الى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعا ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنا في نبوة جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة الى هذا الحد يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام في اللحظة من العرش الى مكة ولما كان ذلك باطلا كان ما ذكروه أيضا باطلا فان قالوا ونحن لا نقول ان جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان الى مكان وانما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد صلى الله عليه وسلم حتى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرا متجليا في ذات جبريل عليه الصلاة والسلام * قلنا تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء فاما جمهور المسلمين فهم مقرون بان جبريل عليه الصلاة والسلام جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الافلاك الى مكة واذا كان كذلك كان الالزام المذكور قويا وروى أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا الى أبي بكر وقالوا له ان صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر ان كان قد قال ذلك فهو صادق ثم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل فكلما ذكر واحدا قال أبو بكر صدقت فلما تم الكلام قال أبو بكر أشهد أنك رسول الله حقا فقال له الرسول

لتحقيق ما فيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب في زعمهم ثم تبيين خطئهم واظهار بطلان زعمهم بايراد الانكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجبا وقيل بعجبا على التوسع المشهور في الظروف وقيل بالمصدر اذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبني على دلالة كان الناقصة على الحدث (أن أوحينا) اسم كان قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدار الانكار والتعجيب وتشويقا الى المؤخر ولان في الاسم ضرب تفصيل ففي مراعاة الاصل نوع اخلال بتجاوب أطراف الكلام وقرئ برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لان أن مع الفعل في تأويل المصدر المضاف الى المعرفة البتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل أي أحدث للناس عجب لان أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلا من عجب لكن لا على توجيه الانكار والتعجيب الى حدوثه
بل الى كونه عجبا فان كون الابدال في حكم تنحية المبدل منه ليس معناه اهداره بالمرة وانما قيل للناس لا عند الناس للدلالة

وانا

وأنا أشهد أنك الصديق حقا وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا (الوجه الرابع) ان أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود ابليس ويسلمون أنه هو الذي يتولى القاء الوسوسة في قلوب بني آدم ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق الى المغرب لاجل القاء الوساوس في قلوب بني آدم فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق ابليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الانبياء كان أولى وهذا الالزام قوي على من يسلم أن ابليس جسم ينتقل من مكان الى مكان أما الذين يقولون انه من الارواح الخبيثة الشريرة وانه ليس بجسم ولا جسماني فهذا الالزام غير وارد عليهم الا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف منتقل فان قالوا هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لانهم أجسام لطيفة ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها أما الانسان فانه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه قلنا نحن انما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة الى هذا الحد ممكن في نفس الامر وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضا ممكنة الحصول في جسم البدن الانساني فذاك مقام آخر سيأتي تقريره ان شاء الله تعالى (الوجه الخامس) انه جاء في القرآن ان الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام الى المواضع البعيدة في الاوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام غدوها شهر ورواحها شهر بل نقول الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان الى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة وذلك أيضا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة (الوجه السادس) ان القرآن يدل على ان الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن الى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك واذا كان ممكنا في حق بعض الناس علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود (الوجه السابع) ان من الناس من يقول الحيوان انما يبصر المبصرات لاجل ان الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر ثم انا اذا فتحنا العين ونظرنا الى زحل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا الى زحل في تلك اللحظة اللطيفة وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات فثبت بهذه الوجوه ان حصول الحركة المنتهية في السرعة الى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه (المقدمة الثانية) في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون حصولها في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممتنعا والذي يدل عليه انا بينا بالدلائل القطعية ان الاجسام متماثلة في تمام ماهياتها فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الاجسام وجب امكان حصولها في سائر الاجسام وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله عليه وسلم أمر ممكن الوجود في نفسه واذا ثبت هذا فنقول ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات وثبت ان حصول الحركة البالغة في السرعة الى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن فوجب كونه تعالى قادرا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات ان القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب الا ان هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام بل هو حاصل في جميع المعجزات فانقلاب العصا ثعبانا تبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب وخروج الناقة العظيمة من الجبل الاصم واظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب وكذا القول في جميع المعجزات فان كان مجرد التعجب يوجب الانكار والدفع لزم الجزم بفساد القول باثبات المعجزات واثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وان كان مجرد التعجب لا يوجب الانكار والابطال فكذا ههنا فهذا تمام القول في بيان ان القول بالمعراج ممكن غير ممتنع والله أعلم (المقام الثاني) في البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق الذي يدل على انه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة الى المسجد الاقصى القرآن والخبر أما القرآن فهو هذه الآية وتقرير الدليل ان العبد اسم

على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى (الى رجل منهم) أي الى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشرا رسولا أو من أفنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه * أما الاول فلان بعث الملك انما يكون عند كون المبعوث اليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهي منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذي تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحاني والجسماني ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب وأما الثاني فلما أن مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم في الاتصاف بما ذكر من النعوت الجليلة والصفات الجليلة والسبق في احراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولا ريب لاحد منهم في أنه عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأن في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات

النائية وأما التقدم في الرياسات الدنيوية ٣٨٠ والسبق في نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له في ذلك قطعا بل له اخلال به غالبا

لمجموع الجسد والروح فوجب أن يكون الاسراء حاصلا لمجموع الجسد والروح واعلم أن هذا الاستدلال موقوف على أن الانسان هو الروح وحده أو الجسد وحده أو مجموع الجسد والروح أما القائلون بأن الانسان هو الروح وحده فقد احتجوا عليه بوجوه (أحدها) ان الانسان شئ واحد باق من أول عمره الى آخره والاجزاء البدنية في التبدل والتغير والانتقال والباقي غير متبدل فالانسان مغاير لهذا البدن (وثانيها) ان الانسان قد يكون عارفا بذاته المخصوصة حال ما يكون غافلا عن جميع أجزائه البدنية والمعلوم مغاير للمغفول عنه فالانسان مغاير لهذا البدن (وثالثها) ان الانسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدي ورجلي ودماغي وقلبي وكذا القول في سائر الاعضاء فيضيف كلها الى ذاته المخصوصة والمضاف غير المضاف اليه فذاته المخصوصة يجب أن تكون مغايرة لكل هذه الاعضاء فان قالوا أليس انه يضيف ذاته الى نفسه فيقول ذاتي ونفسي فيلزمكم ان تكون نفسه مغايرة لذاته وهذا محال قلنا نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ماذكرتموه بل انما نتمسك بمحض العقل فان صريح العقل يدل على أن الانسان موجود واحد وذلك الشئ الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين ويسمع بآلة الاذن فالانسان شئ واحد وهذه الاعضاء آلات له في هذه الافعال وذلك يدل على أن الانسان شئ مغاير لهذه الاعضاء والآلات فثبت بهذه الوجوه ان الانسان شئ مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد اذا ثبت هذا فنقول سبحان الذي أسرى بعبده المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق في الآية دلالة على حصول الاسراء بالجسد فان قالوا فالاسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة فلا يليق به أن يقال سبحان الذي أسرى بعبده قلنا هذا أيضا بعيد لانه لا يبعد أن يقال انه حصل لروحه من أنواع المكاشفات والمشاهدات مالم يحصل لغيره البتة فلا جرم كان هذا الكلام لائقا به فهذا تقرير وجه السؤال على الاستدلال بهذه الآية في اثبات المعراج بالروح والجسد معا (والجواب) ان لفظ العبد لا يتناول الا مجموع الروح والجسد والدليل عليه قوله تعالى أرأيت الذي ينهى عبدا اذا صلى ولا شك أن المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد وقال أيضا في سورة الجن وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا والمراد مجموع الروح والجسد فكذا ههنا وأما الخبر فهو الحديث المروي في الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة الى بيت المقدس ثم منه الى السموات * واحتج المنكرون له بوجوه (أحدها) بالوجوه العقلية وهي ثلاثة (أولها) أن الحركة البالغة في السرعة الى هذا الحد غير معقولة (وثانيها) ان صعود الجرم الثقيل الى السموات غير معقول (وثالثها) أن صعوده الى السموات يوجب انخراق الافلاك وذلك محال (والشبهة الثانية) ان هذا المعنى لو صح لكان أعظم من سائر المعجزات وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه في ادعاء النبوة فاما ان يحصل ذلك في وقت لا يراه أحد ولا يشاهده أحد فانه يكون ذلك عبثا وذلك لا يليق بالحكيم (والشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس وما تلك الرؤيا الا حديث المعراج وانما كان فتنة للناس لان كثيرا ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر به فكان حديث المعراج سببا لفتنة الناس فثبت ان ذلك رؤيا رآه في المنام (الشبهة الرابعة) أن حديث المعراج اشتمل على أشياء بعيدة منها ما روي من شق بطنه وتطهيره بماء زمزم وهو بعيد لان الذي يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تأثير لذلك في تطهير القلب عن العقائد الباطلة والاخلاق المذمومة ومنها ما روي من ركوب البراق وهو بعيد لانه تعالى لما سيره من هذا العالم الى عالم الافلاك فأي حاجة الى البراق ومنها ما روي أنه تعالى أوجب خمسين صلاة ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم بزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام الى ان عاد الخمسون الى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام قال القاضي وهذا يقتضي نسخ الحكم قبل حضوره وانه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال فثبت ان ذلك الحديث مشتمل على ما لا يجوز قبوله فكان مردودا * والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلا نعيدها (والجواب عن الشبهة الثانية) ما ذكره الله تعالى وهو قوله لنريه من آياتنا وهذا كلام مجمل وفي تفصيله وشرحه وجوه (الاول) ان خيرات الجنة عظيمة وأهوال النار شديدة فلو أنه عليه الصلاة

قال عليه الصلاة والسلام لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء (أن أنذر الناس) أن مصدرية لجواز كون صلاتها أمرا كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك وذلك لان الخبر والانشاء في الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الامر والنهي صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضي والاستقبال ووجوب كون الصلة في الموصول الاسمي خبرية انما هو للتوصل بها الى وصف المعارف بالجمل لا لقصور في دلالة الانشاء على المصدر أو مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشان والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لاما أريد بالاول وهو النكتة في ايثار الاظهار على الاضمار وكون الثاني عين الاول عند اعادة المعرفة ليس على الاطلاق (وبشر الذين آمنوا) بما أوحيناه وصدقوه (أن لهم) أي بان لهم (قدم صدق) أي سابقة ومنزلة رفيعة (عند ربهم) وانما عبر عنها بالقدم لان بها يحصل السبق والوصول

والسلام

والسلام ماشاهدهما فى الدنيا ثم شاهدهما فى ابتداء يوم القيامة فرعمارغب فى خيرات الجنة أوخاف من أهوال النار أما لماشاهدهما فى الدنيا فى ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما فى قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما وحينئذ يتفرغ للشفاعة (الثانى) لايمتنع أن تكون مشاهدته ليلة المعراج للانبياء والملائكة صارت سببا التكامل مصلحته أومصلحتهم (الثالث) انه لايبعد انه اذا صعد الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسى والعرش صارت مشاهدة أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة فى عينه فتحصل له زيادة قوة فى القلب باعتبارها يكون فى شروعه فى الدعوة الى الله تعالى أكمل وقلة التفاته الى أعداء الله تعالى أقوى يبين ذلك أن من عاين قدرة الله تعالى فى هذا الباب لايكون حاله فى قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره فى الجهاد وغيره الا أضعاف مايكون عليه حال من لم يعاين واعلم ان قوله لنريه من آياتنا كالدلالة على ان فائدة ذلك الاسراء مختصة به وعائدة اليه على سبيل التعيين (والجواب عن الشبهة الثالثة) انا عند الانتهاء الى تفسير تلك الآية فى هذه السورة نبين ان تلك الرؤيا رؤيا عيان لارؤيا منام (والجواب عن الشبهة الرابعة) لااعتراض على الله تعالى فى أفعاله فهو يفعل مايشاء ويحكم مايريد والله أعلم (المسئلة الرابعة) أما العروج الى السموات والى مافوق العرش فهذه الآية لاتدل عليه ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى لتركبن طبقا عن طبق وتفسيرهما مذكور فى موضعه وأما دلالة الحديث فكما سلف والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان الكلام فى الآية التى قبل هذه الآية وفيها انتقل من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة لان قوله سبحان الذى أسرى فيه ذكر الله على سبيل الغيبة وقوله باركنا حوله لنريه من آياتنا فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور وقوله انه هو السميع البصير يدل على الغيبة وقوله وآتينا موسى الكتاب الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكر الله تعالى فى الآية الاولى اكرامه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أسرى به وذكر فى هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذى آتاه فقال وآتينا موسى الكتاب يعنى التوراة وجعلناه هدى لبنى اسرائيل أى يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والدين الحق وقوله ألا تتخذوا من دونى وكيلا وفيه ابحاث ﴿البحث الاول﴾ قرأ أبو عمرو ألا يتخذوا بالياء خبرا عن بنى اسرائيل والباقون بالتاء على الخطاب أى قلنا لهم لاتتخذوا ﴿البحث الثانى﴾ قال أبو على الفارسى ان قوله ألا تتخذوا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون أن ناصبة للفعل فيكون المعنى وجعلناه هدى لئلا تتخذوا (وثانيها) أن تكون أن بمعنى أى التى للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب فى قراءة العامة كما انصرف منها الى الخطاب والامر فى قوله وانطلق الملأ منهم أن امشوا فكذلك انصرف من الغيبة الى النهى فى قوله ألا تتخذوا (وثالثها) أن تكون أن زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فقلنا لاتتخذوا من دونى وكيلا ﴿البحث الثالث﴾ قوله وكيلا أى ربا تكلون أموركم اليه أقول حاصل الكلام فى الآية أنه تعالى ذكر تشريف محمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء ثم ذكر عقيبه تشريف موسى عليه الصلاة والسلام بانزال التوراة عليه ثم وصف التوراة بكونها هدى ثم بين ان التوراة انما كان هدى لاشتماله على النهى عن اتخاذ غير الله وكيلا وذلك هو التوحيد فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لامعراج أعلى ولادرجة أشرف ولامنقبة أعظم من أن يصير المرء غرقا فى بحر التوحيد وأن لايعول فى أمر من الامور الا على الله فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر فى دلائل تنزيه الله تعالى وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله ثم قال ذرية من حملنا مع نوح وفى نصب ذرية وجهان (الاول) أن يكون نصبا على النداء يعنى ياذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لانه قال هذا نداء قال الواحدى وانما يصح هذا على قراءة

الى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لانها تعطى بها وقيل مقام صدق والوجه ان الوصول الى المقام انما يحصل بالقدم واضافتها الى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها والتنبيه على أن مدار نيل مانالوه من المراتب العلية هو صدقهم فان التصديق لاينفك عن الصدق (قال الكافرون) هم المتعجبون وايرادهم ههنا بعنوان الكفر مما لاحاجة الى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التى دخل عليها همزة الانكار أو لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشئ فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد (ان هذا) يعنون به ماأوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوى على الانذار والتبشير (لسحر مبين) أى ظاهر وقرئ لساحر على أن الاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ ماهذا الا سحر مبين وهذا اعتراف من حيث لايشعرون بان ماعاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تماديا فى العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج (ان ربكم) كلام مستأنف سيق لاظهار بطلان تعجبهم المذكور وما بنوا عليه من المقالة الباطلة عقيب الاشارة اليه بالانكار

من قرأ بالتاء كانه قيل لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح فى السفينة قال قتادة الناس كلهم ذرية نوح لانه كان معه فى السفينة ثلاثة بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك فكان قوله يا ذرية من حملنا مع نوح قائما مقام قوله يا أيها الناس (الوجه الثانى) فى نصب قوله ذرية ان الاتخاذ فعل يتعدى الى مفعولين كقوله واتخذ الله ابراهيم خليلا والتقدير لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ثم انه تعالى أثنى على نوح فقال انه كان عبدا شكورا أى كان كثير الشكر روى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى واذا شرب قال الحمد لله الذى أسقانى ولو شاء أظمأنى واذا اكتسى قال الحمد لله الذى كسانى ولو شاء أعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى واذا اقضى حاجته قال الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ولو شاء حبسه وروى أنه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من آمن به فان وجده محتاجا آثره به فان قيل قوله انه كان عبدا شكورا ما وجه ملاءمته لما قبله قلنا التقدير كأنه قال لا تتخذوا من دونى وكيلا ولا تشركوا بى لان نوحا عليه الصلاة والسلام كان عبدا شكورا وانما يكون العبد شكورا لو كان موحدا لا يرى حصول شئ من النعم الا من فضل الله وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام كما أن آباءكم اقتدوا به والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر انعامه على بنى اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبانه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا فى الفساد فقال وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) القضاء فى اللغة عبارة عن قطع الاشياء عن احكام ومنه قوله فقضاهن سبع سموات وقول الشاعر * وعليهما مسرودتان قضاهما * داود فقوله وقضينا أى أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا اليهم ولفظ الى صلة للايحاء لان معنى قضينا أوحينا اليهم كذا وقوله لتفسدن يريد المعاصى وخلاف أحكام التوراة وقوله فى الارض يعنى أرض مصر وقوله ولتعلن علوا كبيرا يعنى أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيما لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم ثم قال فاذا جاء وعد أولاهما يعنى أولى المرتين بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد والمعنى انه اذا جاء وعد الفساد فى المرة الاولى أرسلنا عليكم قوما أولى بأس شديد ونجدة وشدة والبأس القتال ومنه قوله تعالى وحين البأس ومعنى بعثنا عليكم أرسلنا عليكم وخلينا بينكم وبينهم خاذلين اياكم واختلفوا فى أن هؤلاء العباد من هم قيل ان بنى اسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الانبياء وسفكوا الدماء وذلك أول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هنالك فى الذل الى ان قيض الله ملكا آخر غزا أهل بابل واتفق أن تزوج بامرأة من بنى اسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بنى اسرائيل الى بيت المقدس ففعل وبعد مدة قامت فيهم الانبياء ورجعوا الى أحسن ما كانوا فهو قوله ثم رددنا لكم الكرة عليهم (والقول الثانى) ان المراد من قوله بعثنا عليكم عبادا لنا ان الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى أهلكهم وأبادهم وقوله ثم رددنا لكم الكرة هو أنه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة (والقول الثالث) أن قوله بعثنا عليكم عبادا لنا هو انه تعالى ألقى الرعب من بنى اسرائيل فى قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا فى قتلهم وافنائهم واهلاكهم واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم ثم قال تعالى فجاسوا خلال الديار قال الليث الجوس والجوسان التردد خلال الديار والبيوت فى الفساد والخلال هو الانفراج بين الشيئين والديار ديار بيت المقدس واختلفت عبارات المفسرين فى تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال أبو عبيدة طلبوا من فيها وقال ابن قتيبة

عاثوا

والتعجب وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه وصحة ما أنكروه بالتنبيه الاجمالى على بعض ما يدل عليها من شؤن الخلق والتقدير وأحوال التكوين والتدبير ويرشدهم الى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير القوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون وقوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض الى قوله تعالى ومن يدبر الامر فيقولون الله أى ان ربكم ومالك أمركم الذى تعجبون من أن يرسل اليكم رجلا منكم بالانذار والتبشير وتعدون ما أوحى اليه من الكتاب الحكيم سحرا هو (الله الذى خلق السموات والارض) وما فيهما من أصول الكائنات (فى ستة أيام) أى فى ستة أوقات أو فى مقدار ستة أيام معهودة فان نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الارض مما لا يتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الاحوال والاطوار وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد استأثر بعلم ما يستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الايذان بأنها أجرام مختلفة

ثاؤا وأفسدوا وقالوا الزجاج طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه قال الواحدي الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه ثم قال تعالى وكان وعدا مفعولا أي كان قضاء الله بذلك قضاء جزما حتما لا يقبل النقض والنسخ ثم قال تعالى ثم رددنا لكم الكرة أي أهلكنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم وجعلناكم أكثر نفيرا النفير العدد من الرجال وأصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه والنفير والنافر واحد كالقدير والقادر وذكرنا معنى نفر عند قوله فلولا نفر من كل فرقة وقوله انفروا خفافا ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في مسئلة القضاء والقدر من وجوه (الاول) انه تعالى قال وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا وهذا القضاء أقل احتمالاته الحكم الجزم والخبر الحتم فثبت انه تعالى أخبر عنهم انهم سيقدمون على الفساد والمعاصي خبرا جزما حتما لا يقبل النسخ لان القضاء معناه الحكم الجزم على ما شرحناه ثم انه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال وكان وعدا مفعولا اذا ثبت هذا فنقول عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وانقلاب حكمه الجازم باطلا وانقلاب علمه الحق جهلا وكل ذلك محال فكان عدم اقدامهم على ذلك الفساد محالا فكان اقدامهم عليه واجبا ضروريا لا يقبل النسخ والرفع مع انهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله وذلك يدل على قولنا ان الله قد يأمر بشئ ويصد عنه وقد ينهى عن شئ ويقضي بتحصيله فهذا أحد وجوه الاستدلال بهذه الآية ﴿الوجه الثاني﴾ في الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد والمراد أولئك الذين تسلطوا على بني اسرائيل بالقتل والنهب والاسر فبين تعالى أنه هو الذي بعثهم على بني اسرائيل ولا شك ان قتل بني اسرائيل ونهب أموالهم وأسر أولادهم كان مشتملا على الظلم الكثير والمعاصي العظيمة ثم انه تعالى أضاف كل ذلك الى نفسه بقوله ثم بعثنا عليكم وذلك يدل على أن الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى * أجاب الجبائي عنه من وجهين (الاول) المراد من بعثنا عليكم هو انه تعالى أمر أولئك الاقوام بغزو بني اسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد فأضيف ذلك الفعل الى الله تعالى من حيث الامر (والثاني) أن يكون المراد خلينا بينهم وبين بني اسرائيل وما ألقينا الخوف من بني اسرائيل في قلوبهم وحاصل الكلام ان المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع واعلم أن الجواب الاول ضعيف لان الذين قصدوا تخريب بيت المقدس واحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال انهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى والجواب الثاني أيضا ضعيف لان البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه والقاء الدواعي القوية في القلب وأما التخلية فعبارة عن عدم المنع والاول فعل والثاني ترك فتفسير البعث بالتخلية تفسير لاحد الضدين بالآخر وانه لا يجوز فثبت صحة ما ذكرناه والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم انه تعالى حكى عنهم انهم لما عصوا سلط عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر انهم ان أطاعوا فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا الى أنفسهم وقد تقرر في العقول ان الاحسان الى النفس حسن مطلوب وأن الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الواحدي لا بد ههنا من اضمار والتقدير وقلنا ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم والمعنى ان أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم الى أنفسكم من حيث ان ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات وان أسأتم بفعل المحرمات أسأتم الى أنفسكم من حيث ان بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم أبواب العقوبات ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال النحويون انما قال وان أسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها أو فعليها مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بان ربك أوحى لها أي اليها ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله تعالى غالبة على غضبه

الطباع متباينة الآثار والاحكام (ثم استوى على العرش) العرش هو الجسم المحيط بسائر الاجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الاوامر والتدابير منه تنزل وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام (يدبر الامر) التدبير النظر في أدبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الاتم الاكمل والمراد بالامر أمر ملكوت السموات والارض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيأ فشيأ على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات في الذوات والصفات والازمنة والاوقات أي يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذي ما نحن فيه من أمر البعث والوحي فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيئ أسباب كل منها حدوثا وبقاء في أوقاتها المعينة ويرتب مباديها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة والجملة في محل النصب على أنها حال من ضمير

استوى وقد يجوز كونها خبرا ثانيا لان أو مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على

بدليل أنه لما حكى عنهم الاحسان أعاده مرتين فقال ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال وان أسأتم فلها ولولا أن جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال تعالى فاذا جاء وعد الآخرة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المفسرون معناه وعد المرة الاخيرة وهذه المرة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام قال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس * أقول التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الاقوام (المسئلة الثانية) جواب قوله فاذا جاء محذوف تقديره فاذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وانما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله بعثنا عليكم عبادا لنا ثم قال ليسوؤا وجوهكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يقال ساءه يسوءه أي أحزنه وانما عزا الاساءة الى الوجوه لان آثار الاعراض النفسانية الحاصلة في القلب انما تظهر على الوجه فان حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والاشراق والاسفار في الوجه وان حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد في الوجه فلهذا السبب عزيت الاساءة الى الوجوه في هذه الآية ونظير هذا المعنى كثير في القرآن (المسئلة الثانية) قرأ العامة ليسوؤا على صيغة المغايبة قال الواحدي وهي موافقة للمعنى وللفظ أما المعنى فهو ان المبعوثين هم الذين يسوؤنهم في الحقيقة لانهم هم الذين يقتلون ويأسرون وأما اللفظ فلانه يوافق قوله وليدخلوا المسجد وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة ليسوء على اسناد الفعل الى الواحد وذلك الواحد يحتمل ان يكون أحد أشياء ثلاثة اما اسم الله سبحانه لان الذي تقدم هو قوله ثم رددنا وأمددنا وكل ذلك ضمير عائد الى الله تعالى واما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله بعثنا والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم وقال الزجاج ليسوء الوعد وجوهكم وقرأ الكسائي بالنون وهذا على اسناد الفعل الى الله تعالى كقوله بعثنا عليكم وأمددنا ثم قال تعالى وليتبروا ما علوا تتبيرا يقال تبر الشئ تبرا اذا هلك وتبره أهلكه قال الزجاج كل شئ جعلته مكسرا ومفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون وقوله ولا تزد الظالمين الا تبارا وقوله ما علوا يحتمل ما غلبوا عليه وظفروا به ويحتمل ويتبروا ما داموا غالبين أي ما دام سلطانهم جاريا على بني اسرائيل وقوله تتبيرا ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وازالة الشك في صدقه كقوله وكلم الله موسى تكليما أي حقا والمعنى وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه ثم قال تعالى عسى ربكم أن يرحمكم والمعنى لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني اسرائيل ثم قال وان عدتم عدنا يعني ان بعثنا عليكم من بعثنا ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم فان عدتم مرة أخرى الى المعصية عدنا الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى قال القفال وانما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وان عدتم عدنا أي وان هم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا والحصير فعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل أي وجعلنا جهنم حاصرة لهم ويحتمل ان يكون بمعنى مفعول أي جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى أن عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا أنه قد يتفلت بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص عنه اما بالموت واما بطريق آخر وأما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان

العرش المنبئ عن اجراء أحكام الملك وعلى كل حال فايثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل (ما من شفيع) بيان لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبير ونفي للشفاعة على أبلغ الوجوه فان نفي جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفي الشفاعة على أتم الوجوه كما في قوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله وهذا بعد قوله تعالى يدبر الامر جار مجرى قوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه عقيب قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ وقوله تعالى (الا من بعد اذنه) استثناء مفرغ من أعم الاوقات أي ما من شفيع يشفع لاحد في وقت من الاوقات الا بعد اذنه المبني على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الاخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى (ذلكم) اشارة الى المعلوم بتلك العظمة أي ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال التي عليها يدور

للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا ﴿ قوله تعالى ﴿ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين وهو الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وايتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم كان ذلك تنبيها على ان طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة لا جرم أثنى على القرآن فقال ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم واعلم أن قوله تعالى دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا يدل على كون هذا الدين مستقيما وقوله في هذه الآية للتي هي أقوم يدل على ان هذا الدين أقوم من سائر الاديان * وأقول قولنا هذا الشئ أقوم من ذاك انما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة ثم كان حصول معنى الاستقامة في احدى الصورتين أكثر وأكمل من حصوله في الصورة الثانية وهذا محال لان المراد من كونه مستقيما كونه حقا وصدقا ودخول التفاوت في كون الشئ حقا وصدقا محال فكان وصفه بأنه أقوم مجازا الا أن لفظ الافعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أي الله كبير وقولنا الاشج والناقص أعدلا بنى مروان أي عادلا بنى مروان أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف والله أعلم ﴿البحث الثاني﴾ قوله للتي هي أقوم نعت لموصوف محذوف والتقدير يهدى للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله ادفع بالتي هي أحسن أي بالخصلة التي هي أحسن أما قوله ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات (أولها) أنه يهدى للتي هي أقوم وقد مر تفسيره ﴿والصفة الثانية﴾ أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالاجر الكبير وذلك لان الصفة الاولى لما دلت على كون القرآن هاديا الى الاعتقاد الاصوب والعمل الاصلح وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر وذلك هو الاجر الكبير لان الطريق الاقوم لا بد وأن يفيد الربح الاكبر والنفع الاعظم ﴿والصفة الثالثة﴾ قوله وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما وذلك لان الاعتقاد الاصوب والعمل الاصلح كما يوجب لفاعله النفع الاكمل الاعظم فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الاعظم الاكمل واعلم أن قوله وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة عطف على قوله ان لهم أجرا كبيرا والمعنى انه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم ونظيره قوله بشرت زيدا أنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع فان قيل كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب قلنا هذا مذكور على سبيل التهكم أو يقال انه من باب اطلاق اسم الضدين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فان قيل هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة فكيف يليق بهذا الموضع قوله وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما * قلنا عنه جوابان (أحدهما) ان أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين (والثاني) أن بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم في هذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا﴾ وفي الآية مباحث ﴿البحث الاول﴾ اعلم ان وجه النظم هو ان الانسان بعد ان انزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع الى بياناته ويقدم على ما لا فائدة فيه فقال ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير ﴿البحث الثاني﴾ اختلفوا في المراد من دعاء الانسان بالشر على أقوال (الاول) المراد منه النضر بن الحرث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته فكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد ان محمدا كاذب فيما يقول (والقول الثاني) المراد انه في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله ولو استجيب له في الشر كما استجاب له في الخير لهلك وروى أن النبي صلى

استحقاق الالوهية (الله) وقوله تعالى (ربكم) بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الاشارة وهذا بعد بيان أن ربكم الله الذي خلق السموات والارض الخ لزيادة التقرير والمبالغة في التذكير ولتفريع الامر بالعبادة عليه بقوله تعالى فاعبدوه أي وحدوه من غير أن تشركوا به شيأ من ملك أو نبي فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله اليكم (أفلا تذكرون) أي أتعلمون أن الامر كما فصل أفلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدعوا عنه (اليه) لا الى أحد سواه استقلالا أو اشتراكا (مرجعكم) أي بالبعث كما ينبئ عنه قوله تعالى (جميعا) فانه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا في المعنى أي اليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان قوله عز وجل اليه مرجعكم وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أي وعد الله وأيا ما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لان ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرئ بصيغة الفعل (حقا) مصدر آخر مؤكد لما دل عليه الاول (انه يبدأ الخلق) وقرئ يبدئ (ثم يعيده) وهو استئناف عال به وجوب المرجع اليه سبحانه وتعالى

الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة اسيرا فاقبل يئن بالليل فقالت له مالك تئن فشكا ألم القد فأرخت له من كتافه فلما نامت أخرج يده وهرب فلما أصبح النبي عليه الصلاة والسلام دعا به فاعلم بشأنه فقال عليه الصلاة والسلام اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني سألت الله أن يجعل دعائي على من لا يستحق عذابا من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما تغضبون فلترد سودة يدها (والقول الثالث) أقول يحتمل أن يكون المراد أن الانسان قد يبالغ في الدعاء طلبا للشيء يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها (البحث الرابع) القياس اثبات الواو في قوله ويدع الا أنه حذف في المصحف من الكتابة لانه لا يظهر في اللفظ أما لم تحذف في المعنى لأنها في موضع الرفع ونظيره سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المناد فما تغن النذر ولو كان بالواو والياء لكان صوابا هذا كلام الفراء وأقول ان هذا يدل على انه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الياء والواو في أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله ثم قال تعالى وكان الانسان عجولا وفي هذا الانسان قولان (الاول) آدم عليه السلام وذلك لانه لما انتهت الروح الى سرته نظر الى جسده فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر فهو قوله وكان الانسان عجولا (والقول الثاني) انه محمول على الجنس لان أحدا من الناس لا يعرى عن عجلة ولو تركها لكان تركها أصلح له في الدين والدنيا وأقول بتقدير أن يكون المراد هو القول الأول كان المقصود عائدا الى القول الثاني لانا اذا حملنا الانسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى ان آدم الذي كان أصل البشر لما كان موصوفا بهذه العجلة وجب أن تكون هذه صفة لازمة للكل فكان المقصود عائدا الى القول الثاني والله أعلم

﴿ قوله تعالى ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ في الآية مسائل (المسألة الاولى) في تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل الى الخلق من نعم الدين وهو القرآن أتبعه ببيان ما أوصل اليهم من نعم الدنيا فقال وجعلنا الليل والنهار آيتين وكما أن القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه فكذلك الدهر مركب من النهار والليل فالمحكم كالنهار والمتشابه كالليل وكما أن المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الوقت والزمان لا يكمل الانتفاع به الا بالنهار والليل (والوجه الثاني في تقرير النظم) أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وذلك الاقوم ليس الا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة لا جرم أردفه بذكر دلائل التوحيد وهو عجائب العالم العلوي والسفلي (الوجه الثالث) انه لما وصف الانسان بكونه عجولا أي منتقلا من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة بين أن كل أحوال هذا العالم كذلك وهو الانتقال من النور الى الظلمة وبالضد وانتقال نور القمر من الزيادة الى النقصان وبالضد والله أعلم (المسألة الثانية) في قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين قولان (الاول) أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار والمعنى أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا أما في الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما بل لابد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل والنهار فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش ثم قال تعالى فمحونا آية الليل وعلى هذا القول تكون الاضافة في آية الليل والنهار للتبيين والتقدير فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة ونظيره قولنا نفس الشيء وذاته فكذلك آية الليل هي نفس الليل ويقال أيضا دخلت بلاد خراسان أي دخلت البلاد التي هي خراسان فكذلك ههنا (القول الثاني)

ان

فان غاية البدء والاعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرئ بالفتح أي لأنه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله أي وعد الله وعدا بدء الخلق ثم اعادته ومرفوعا بما نصب حقا أي حق حقا بدء الخلق الخ (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أي بالعدل وهو حال من فاعل يجزي أي ملتبسا بالعدل أو متعلق بيجزي أي ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم وانما أجمل ذلك ايذانا بأنه لا يفي به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند ايمانهم ومباشرتهم للأعمال الصالحة وهو الأنسب بقوله عز وجل (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فان معناه ويجزي الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الاسناد بجعل الجملة الظرفية خبرا للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للايذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام في سلك العلة الغائية للخلق بدأ واعادة وانما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الأصلي من ذلك فهو الاثابة (هو الذي جعل الشمس ضياء) تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته

أن يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل وهي القمر وفي تفسير محو القمر قولان (الاول) المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان في النور فيبدو في أول الامر في صورة الهلال ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدرا كاملا ثم يأخذ في الانتقاص قليلا قليلا وذلك هو المحو الى أن يعود الى المحاق (والقول الثاني) المراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه يروى ان الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء ومعنى المحو في اللغة اذهاب الاثر تقول محوته أمحوه وانمحى وامتحى اذا ذهب أثره وأقول حمل المحو في هذه الآية على الوجه الاول أولى وذلك لان اللام في قوله لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب متعلق بما هو مذكور قبل وهو محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل انما يؤثر في ابتغاء فضل الله اذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه لان سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر وأهل التجارب بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه مثل أحوال البحار في المد والجزر ومثل أحوال التجربات على ما تذكره الاطباء في كتبهم وأيضا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الاهلة كما قال ولتعلموا عدد السنين والحساب فثبت ان حمل المحو على ما ذكرناه أولى وأقول أيضا لو حملنا المحو على الكلف الحاصل في وجه القمر فهو أيضا برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين في المبدا والمعاد أما دلالته على صحة قولهم في المبدا فلأن جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة فوجب أن يكون متشابه الصفات فحصول الاحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على أنه ليس بسبب الطبيعة بل لاجل أن الفاعل المختار خصص بعض أجزائه بالنور القوى وبعض أجزائه بالنور الضعيف وذلك يدل على ان مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات وأحسن ما ذكره الفلاسفة في الاعتذار عنه انه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء مثل ارتكاز الكواكب في أجرام الافلاك فلما كانت تلك الاجرام أقل ضوأ من جرم القمر لا جرم شوهدت تلك الاجرام في وجه القمر كالكلف في وجه الانسان وهذا لا يفيد مقصود الخصم لان جرم القمر لما كان متشابه الاجزاء فلم ارتكزت تلك الاجرام الظلمانية في بعض أجزاء القمر دون سائر الاجزاء وبمثل هذا الطريق يتمسك في أحوال الكواكب وذلك لان الفلك جرم بسيط متشابه الاجزاء فلم يكن حصول جرم الكواكب في بعض جوانبه أولى من حصوله في سائر الجوانب وذلك يدل على ان اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لاجل تخصيص الفاعل المختار وكل هذه الدلائل انما يراد من تقريرها وايرادها التنبيه على أن المؤثر في العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات والله أعلم * أما قوله وجعلنا آية النهار مبصرة ففيه وجهان (الاول) ان معنى كونها مبصرة أي مضيئة وذلك لان الاضاءة سبب لحصول الابصار فاطلق اسم الابصار على الاضاءة اطلاقا لاسم المسبب على السبب (والثاني) قال أبو عبيدة يقال قد أبصر النهار اذا صار الناس يبصرون فيه كقوله رجل مخبث اذا كان أصحابه خبثاء ورجل مضعف اذا كانت ذراريه ضعافا فكذا قوله والنهار مبصرا أي أهله بصراء واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة منافع الليل والنهار قال وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقال أيضا جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ثم قال تعالى ولتبتغوا فضلا من ربكم أي لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم ولتعلموا عدد السنين والحساب واعلم أن الحساب مبني على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهي الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربع لا يحصل الا التكرار كما انهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس بعدها الا التكرار والله أعلم ثم قال وكل شئ فصلناه تفصيلا والمعنى أنه تعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن

وحكمته بآثار صنعه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من ابداع السموات والارض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير اليه اشارة اجمالية وارشاد الى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بارسال الرسول وانزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوي الردى أولى وأحرى والجعل ان جعل بمعنى الانشاء والابداع فضياء حال من مفعوله أي خلقها حال كونها ذات ضياء على حذف المضاف أو ضياء محضا للمبالغة وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثاني أي جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما في قولهم ضيق فم الركية ووسع أسفلها والضياء مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط وياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرئ ضئاء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين (والقمر نورا) الكلام فيه كالكلام في الشمس والضياء أقوى من النور وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه اشعار بأن نوره مستفاد من الشمس

(وقدره) أي قدر له وهيأ (منازل) أي قدر مسيره في منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا

وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وبيانا كاملا فلا جرم قال وكل شيء فصلناه تفصيلا أي كل شيء بكم اليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم فقد فصلناه وشرحناه وهو كقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تدمر كل شيء بأمر ربها وانما ذكر المصدر وهو قوله تفصيلا لاجل تأكيد الكلام وتقريره كأنه قال وفصلناه حقا وفصلناه على الوجه الذي لا مزيد عليه والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيبا﴾ اعلم أن في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في كيفية النظم وجوه (الاول) أنه تعالى لما قال وكل شيء فصلناه تفصيلا كان معناه أن كل ما يحتاج اليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكورا وكل ما يحتاج اليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب فقد صار مذكورا واذا كان الامر كذلك فقد أزيحت الاعذار وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيبا (الوجه الثاني) انه تعالى لما بين انه أوصل الى الخلق أصناف الاشياء النافعة لهم في الدين والدنيا مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بأعظم وجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن أعماله وأقواله (الوجه الثالث في تقرير النظم) أنه تعالى لما بين انه ما خلق الخلق الا ليشتغلوا بعبادته كما قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار كان المعنى اني انما خلقت هذه الاشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي واذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته أنه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة أو تمرد وعصى وبغى فهذا هو الوجه في تقرير النظم ﴿المسئلة الثانية﴾ في تفسير لفظ الطائر قولان (الاول) أن العرب اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهل يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سمى الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس قالوا انا تطيرنا بكم الى قوله قالوا طائركم معكم فقوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه أي كل انسان ألزمناه عمله في عنقه وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد ألزمناه طيره في عنقه (القول الثاني) قال أبو عبيدة الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه بل لا بد وأن يصل الى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فبهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه كناية عن ان كل ما قدره الله تعالى ومضى في علمه حصوله فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واعلم أن هذا من أدل الدلائل على أن كل ما قدره الله تعالى للانسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم وتقريره من وجهين (الاول) ان تقدير الآية وكل انسان ألزمناه عمله في عنقه فبين تعالى أن ذلك العمل لازم له وما كان لازما للشيء كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود (والوجه الثاني) انه تعالى أضاف ذلك الالزام الى نفسه لان قوله ألزمناه تصريح بأن ذلك الالزام انما صدر منه ونظيره قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى وهذه الآية دالة على انه لا يظهر في الابد الا ما حكم الله به في الازل واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله في عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ويقال قلدتك كذا وطوقتك كذا أي صرفته اليك وألزمته اياك ومنه قلده

التقدير باسم عشيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة في تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما

وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين فاذا كان في آخر منازله دق واستقوس ثم يستتر ليلتين أو ليلة اذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت اليها العرب الانواء المستمطرة وهي السرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزباني الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الاخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت (لتعلموا) اما بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما في تلك المنازل (عدد السنين) التي يتعلق بها غرض علمي لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية (والحساب) أي حساب الاوقات من الاشهر والايام والليالي وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالاوقات لما أنه لم يعتبر في السنين

السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق ومنه يقال فلان يقلد فلانا أي جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه قال أهل المعاني وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء بهذا المعنى لان الذي يكون عليه اما أن يكون خيرا يزينه أو شرا يشينه وما يزين يكون كالطوق والحلي والذي يشين فهو كالغل فهنا عمله ان كان من الخيرات كان زينة له وان كان من المعاصي كان كالغل على رقبته ثم قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا قال الحسن يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة قوله ونخرج له أي من قبره يجوز أن يكون معناه نخرج له ذلك لانه لم ير كتابه في الدنيا فاذا بعث أظهر له ذلك وأخرج من الستر وقرأ يعقوب ويخرج له يوم القيامة كتابا أي يخرج له الطائر أي عمله كتابا منشورا كقوله تعالى واذا الصحف نشرت وقرأ ابن عامر يلقاه من قولهم لقيت فلانا الشئ أي استقبلته به قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا وهو منقول بالتشديد من لقيت الشئ ولقانيه زيد ثم قال تعالى اقرأ كتابك والتقدير يقال له وهذا القائل هو الله تعالى على ألسنة الملائكة اقرأ كتابك قال الحسن يقرؤه أميا كان أو غير أمي وقال بكر بن عبد الله يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها وسيآته في جوف صحيفته وهو يقرؤها حتى اذا ظن انها قد أوبقته قال الله تعالى اذهب فقد غفرتها لك فيما بيني وبينك فيعظم سروره ويصير من الذين قال في حقهم وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ثم يقول هاؤم اقرؤا كتابيه وأما قوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أي محاسبا قال الحسن عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك قال السدي يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا والله أعلم ﴿المسألة الرابعة﴾ قال حكماء الاسلام هذه الآية في غاية الشرف وفيها أسرار عجيبة في أبحاث ﴿فالبحث الاول﴾ انه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذي يطير اليه وذلك لانه تعالى قدر لكل أحد في الازل مقدارا من الخير والشر فذلك الحكم الذي سبق في علمه الازلي وحكمه الازلي لا بد وان يصل اليه فذلك الحكم كأنه طائر يطير اليه من الازل الى ذلك الوقت فاذا حضر ذلك الوقت وصل اليه ذلك الطائر وصولا لا خلاص له البتة ولا انحراف عنه البتة واذا علم الانسان في كل قول وفعل ولمحة وفكرة انه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله اليه على منهج معين وطريق معين وانه لا بد وأن يصل اليه ذلك الطائر فعند ذلك عرف ان الكفاية الابدية لا تتم الا بالعناية الازلية ﴿والبحث الثاني﴾ ان هذه التقديرات انما تقدرت بالزام الله تعالى وذلك باعتبار انه تعالى جعل لكل حادث حادثا متقدما عليه لحصول الحادث المتأخر فلما كان وضع هذه السلسلة من الله لا جرم كان الكل من الله وعند هذا يتخيل الانسان طيورا لا نهاية لها ولا غاية لاعدادها فانه تعالى طيرها من وكر الازل وظلمات عالم الغيب وانها صارت وطارت طيرانا لا بداية له ولا غاية له وكان كل واحد منها متوجها الى ذلك الانسان المعين في الوقت المعين بالصفة المعينة وهذا هو المراد من قوله ألزمناه طائره في عنقه ﴿البحث الثالث﴾ ان التجربة تدل على ان تكرار الاعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسانية الراسخة في جوهر النفس ألا ترى ان من واظب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظا ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له اذا عرفت هذا فنقول لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب أن يحصل لكل واحد من تلك الاعمال أثر ما في جوهر النفس فانا لما رأينا ان عند توالي القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة في الحجر علمنا أن لكل واحد من تلك القطرات أثرا ما في حصول ذلك الثقب وان كان ضعيفا قليلا وان كانت الكتابة أيضا في عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها معرفات لالفاظ مخصوصة فعلى هذا دلالة تلك النقوش على تلك المعاني المخصوصة دلالة كائنة جوهرية واجبة الثبوت ممتنعة الزوال

أن الحساب احصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثني عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعدد مجرد احصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شئ كذلك ولما لم يعتبر في السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامي مراتب الاعداد وحكم مستقل أضيف اليها العدد وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتباري لا يجدي في تحصل المعدود نفعا وحيث اعتبر في الاوقات المحسوبة تحصل ما ذكر من المراتب التي لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبئ عن ذلك والسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب وانما الذي يتعلق به العدد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها طائفة من الساعات فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث انها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر في المعدودة معنى مغاير لمراتب الاعداد كما اعتبر في الاوقات المحسوبة وتحققه

معها شيء غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعدما على العكس لان العلم المتعلق

كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح واذا عرفت هاتين المقدمتين فنقول ان كل عمل يصدر من الانسان كثيرا كان أو قليلا قويا كان أو ضعيفا فانه يحصل منه لامحالة في جوهر النفس الانسانية أثر مخصوص فان كان ذلك الاثر أثرا لجذب جوهر الروح من الخلق الى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات وان كان ذلك الاثر أثرا لجذب الروح من حضرة الحق الى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان الا ان تلك الآثار تخفى مادام الروح متعلقا بالبدن لان اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الاحوال وتجليها وظهورها فاذا انقطع تعلق الروح عن تدبير البدن فهنالك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته ومعنى كون هذه الحالة قيامة ان النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذا الجسد السفلي فاذا انقطع ذلك التعلق قامت النفس وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوي فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامة ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء وقيل له فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقوله ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا معناه ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتابا مشتملا على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الاحوال الدنيوية ويكون هذا الكتاب في هذا الوقت منشورا لان الروح حين كانت في البدن كانت هذه الاحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية أما بعد انقطاع التعلق الجسداني ظهرت هذه الاحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد ان كانت مطوية وظاهرة بعد ان كانت مخفية وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة اقرأ كتابك ثم يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فان تلك الآثار ان كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لامحالة وان كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لامحالة فهذا تفسير هذه الآية بحسب الاحوال الروحانية واعلم ان الحق ان الاحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لامرية فيها واحتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر أيضا والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الاقرار بالكل والله أعلم بحقائق الامور ﴿قوله تعالى ﴿من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انه تعالى لما قال في الآية الاولى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ومعناه ان كل أحد مختص بعمل نفسه عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب الى الاذهان وأبعد عن الغلط فقال من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها يعني ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ولا يتعدى منه الى غيره ويتأكد هذا بقوله وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى قال الكعبي الآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد أما المجبور على أحد الطرفين الممنوع من الطرف الثاني فهذا لا يليق به ﴿المسئلة الثانية﴾ انه تعالى أعاد تقرير ان كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله ولا تزر وازرة وزر أخرى قال الزجاج يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا ووزرة ومعناه أثم يأثم اثما قال وفي تأويل الآية وجهان (الاول) ان المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وأيضا غيره لا يؤاخذ بذنبه بل كل أحد مختص بذنب نفسه (والثاني) انه لا ينبغي ان يعمل الانسان بالاثم لان غيره عمله كما قال الكفار انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون واعلم ان الناس تمسكوا بهذه الآية في اثبات أحكام كثيرة ﴿الحكم الاول﴾ قال الجبائي في الآية دلالة على انه تعالى لا يعذب الاطفال بكفر آبائهم والا لكان الطفل مؤاخذا بذنب أبيه وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية ﴿الحكم الثاني﴾ روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الميت ليعذب ببكاء أهله فعائشة طعنت في صحة هذا الخبر واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فان تعذيب الميت بسبب بكاء أهله أخذ للانسان بجرم غيره وذلك خلاف هذه الآية

بعدد السنين علم اجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا وان لم تتحد الجهة أولان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه تحصيل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذي اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب (ما خلق الله ذلك) أي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكي من الاحوال وفيه ايذان بأن معنى جعلهما على تلك الاحوال والهيئات ليس الا خلقهما كذلك كما أشير اليه ولا يقدح في ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فان المراد جعله نورا انما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل (الا بالحق) استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل أو المفعول أي ما خلق ذلك ملتبسا بشيء من الاشياء الا ملتبسا بالحق مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعي فيه ذلك وهو ما أشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والاوقات المنوط به أمورهم معاملاتهم وعباداتهم (يفصل الآيات) أي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيه الآيات المذكورة دخولا أوليا أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرئ بنون العظمة (لقوم (الحكم

(الحكم الثالث) قال القاضي دلت هذه الآية على ان الوزر والاثم ليس من فعل الله تعالى وبيانه من وجوه (أحدها) انه لو كان كذلك لامتنع أن يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذه بوزر غيره (وثانيها) انه كان يجب ارتفاع الوزر أصلا لان الوزر انما يصح أن يوصف بذلك اذا كان مختارا يمكنه التحرز ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بهذا (الحكم الرابع) ان جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة وقالوا ان ذلك يقتضي مؤاخذة الانسان بسبب فعل الغير وذلك على مضادة هذه الآية وأجيب عنه بان المخطئ ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل فكيف يصير غيره مؤاخذا بسبب ذلك الفعل بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال أصحابنا وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع والدليل عليه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وجه الاستدلال ان الوجوب لا تقرر ماهيته الا بترتيب العقاب على الترك ولا عقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية فوجب أن لا يتحقق الوجوب قبل الشرع ثم أكدوا هذه الآية بقوله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وبقوله ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ولقائل أن يقول هذا الاستدلال ضعيف وبيانه من وجهين (الاول) أن نقول لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي البتة وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه (أحدها) انه اذا جاء الشرع وادعى كونه نبيا من عند الله تعالى وأظهر المعجزة فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزاته أو لا يجب فان لم يجب فقد بطل القول بالنبوة وان وجب فاما ان يجب بالعقل أو بالشرع فان وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي وان وجب بالشرع فهو باطل لان ذلك الشرع اما أن يكون هو ذلك المدعي أو غيره والاول باطل لانه يرجع حاصل الكلام الى أن ذلك الرجل يقول الدليل على انه يجب قبول قولي اني أقول انه يجب قبول قولي وهذا اثبات للشئ بنفسه وان كان ذلك الشارع غيره كان الكلام فيه كما في الاول ولزم اما الدور أو التسلسل وهما محالان (وثانيها) ان الشرع اذا جاء وأوجب بعض الافعال وحرم بعضها فلا معنى للايجاب والتحريم الا أن يقول لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول اما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب البتة وهذا باطل فذاك باطل وان وجب عليه الاحتراز عن العقاب فاما أن يجب بالعقل أو بالسمع فان وجب بالعقل فهو المقصود وان وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب الا بسبب ترتيب العقاب عليه وحينئذ يعود التقسيم الاول ويلزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى ان يعفو عن العقاب على ترك الواجب واذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب فلم يبق الا أن يقال ان ماهية الواجب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب وهذا الخوف حاصل بمحض العقل فثبت ان ماهية الوجوب انما تحصل بسبب هذا الخوف وثبت ان هذا الخوف حاصل بمجرد العقل فلزم ان يقال الوجوب حاصل بمحض العقل فان قالوا ماهية الوجوب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم قلنا انه تعالى اذا عفا فقد سقط الذم فعلى هذا ماهية الوجوب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل فثبت بهذه الوجوه ان الوجوب العقلي لا يمكن دفعه واذا ثبت هذا فنقول في الآية قولان (الاول) ان نجري الآية على ظاهرها ونقول العقل هو رسول الله الى الخلق بل هو الرسول الذي لولاه لما تقررت رسالة أحد من الانبياء فالعقل هو الرسول الاصلي فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل (والثاني) ان نخصص عموم الآية فنقول المراد وما كنا معذبين في الاعمال التي لا سبيل الى معرفة وجوبها الا بالشرع الا بعد مجيء الشرع وتخصيص العموم وان كان عدولا عن الظاهر الا انه يجب المصير اليه عند قيام الدلائل وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة على انا لو نفينا الوجوب العقلي لزمنا نفي الوجوب الشرعي والله أعلم واعلم ان الذي نرتضيه ونذهب اليه ان مجرد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به وترك ما يتضرر به أما مجرد العقل لا يدل على انه يجب على الله تعالى شئ وذلك لانا مجبولون على طلب النفع

المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لانهم المنتفعون به (ان في اختلاف الليل والنهار) تنبيه آخر اجمالي على ما ذكر أي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الارض أو في تفاوتهما في أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب الامكنة أما في الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما في أنفسهما فان كرية الارض تقتضي أن يكون بعض الاوقات في بعض الاماكن ليلا وفي مقابله نهارا (وما خلق الله في السموات والارض) من أصناف المصنوعات (لآيات) عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته وبالغ حكمته التي من جملة مقتضياتها ما أنكروه من ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزال الكتاب والبعث والجزاء (لقوم يتقون) خصهم بذلك لان الداعي الى النظر والتدبر انما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة

والاحتراز عن الضرر فلا جرم كان العقل وحده كافيا فى الوجوب فى حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعل أو ترك فعل والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ فى الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله أمرنا مترفيها فى تفسير هذا الامر قولان (الاول) أن المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية لا يدل على انه تعالى بماذا يأمرهم فقال الاكثرون معناه انه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات ثم انهم يخالفون ذلك الامر ويفسقون وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على انه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا ان هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ماذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذا ههنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى أو فخالفنى فان هذا لا يفهم منه انى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شئ غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما أن كونها معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور فلا أدرى لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت ان الحق ماذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق (القول الثانى) فى تفسير قوله أمرنا مترفيها أى أكثرنا فساقها قال الواحدى العرب تقول أمر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم وآمرهم أيضا بالمد روى الجرمى عن أبى زيد أمر الله القوم وآمرهم أى كثرهم واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله صلى الله عليه وسلم خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون أمر الله المهرة أى كثر ولدها ومن الناس من أنكر أن يكون أمر بمعنى كثر وقالوا أمر القوم اذا كثروا وآمرهم الله بالمد أى كثرهم وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام مهرة مأمورة على ان المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة وأما المترف فمعناه فى اللغة المتنعم الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ففسقوا فيها أى خرجوا عما أمرهم الله فحق عليها القول يريد استوجبت العذاب وهذا كالتفسير لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا وقوله ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون فلما حكم تعالى فى هذه الآيات انه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله فلا جرم ذكر ههنا انه يأمرهم فاذا خالفوا الامر فعند ذلك استوجبوا الاهلاك المعبر عنه بقوله فحق عليها القول وقوله فدمرناها تدميرا أى أهلكناها اهلاك الاستئصال والدمار هلاك على سبيل الاستئصال ﴿ المسئلة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه (الاول) ان ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد ايصال الضرر اليهم ابتداء ثم توسل الى اهلاكهم بهذا الطريق (الثانى) ان ظاهر الآية يدل على انه تعالى انما خص المترفين بذلك الامر لعلمه بأنهم يفسقون وذلك يدل على انه تعالى أراد منهم الفسق (والثالث) انه تعالى قال فحق عليها القول بالتعذيب والكفر ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وذلك محال والمفضى الى المحال محال قال الكعبى ان سائر الآيات دلت على انه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والاهلاك لقوله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقوله وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون فكل هذه الآيات تدل على انه تعالى لا يبتدئ بالاضرار وأيضا ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض فثبت ان الآيات التى تلوناها محكمة وكذا الآية التى

(ان الذين لا يرجون لقاءنا) بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل اليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابا وعقابا وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه اما الرجوع اليه تعالى بالبعث أو لقاء الحساب كما فى قوله عز وعلا انى ظننت أنى ملاق حسابيه وأياما كان ففيه مع الالتفات الى ضمير الجلالة من تهويل الامر ما لا يخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم لعدم الامل وعدم الخوف فان عدمهما لا يستدعى عدم اعتقاد وقوع المأمول والمخوف أى لا يتوقعون الرجوع الينا أو لقاء حسابنا المؤدى اما الى حسن الثواب أو الى سوء العذاب فلا يأملون الاول واليه أشير بقوله عز وجل (ورضوا بالحياة الدنيا) فانه منبئ عن ايثار الادنى الخسيس على الاعلى النفيس كقوله تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ولا يخافون الثانى واليه أشير بقوله تعالى (واطمأنوا بها) أى سكنوا فيها سكون من لا براح له منها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم ما يسوءهم من عذابنا وقيل

نحن

نحن في تفسيرها فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي واعلم أن أحسن الناس كلاما في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة القفال فانه ذكر فيه وجهين (الاول) قال انه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحدا بما يعلمه منه ما لم يعمل به أي لا يجعل علمه حجة على من علم أنه ان أمره عصاه بل يأمره فاذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها معناه واذا أردنا امضاء ما سبق من القضاء باهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالايمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق باهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها والحاصل أن المعنى واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون الا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الاهلاك بمجرد ذلك العلم بل أمرنا مترفيها ففسقوا فاذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به (والوجه الثاني) في التأويل أن نقول واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي وانما خص المترفين بذلك الامر لان المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب فاذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل الى الحق فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا ثم قال القفال وهذان التأويلان راجعان الى أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الاعذار الذي يقع منه اليأس من ايمانهم كما قال في قوم نوح ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وقال انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن وقال في غيرهم فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل فاخبر تعالى أولا أنه لا يظهر العذاب الا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم أخبرنا ثانيا في هذه الآية أنه اذا بعث الرسول أيضا فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ فان بقوا مصرين على الذنوب فهنالك ينزل عليهم عذاب الاستئصال وهذا التأويل الذي ذكره القفال في تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لاحد من شيوخ المعتزلة مثله وأجاب الجبائي بأن قال ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد اهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا ذلك لانه ظلم وهو على الله محال بل المراد من الارادة قرب تلك الحالة فكان التقدير واذا قرب وقت اهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل اذا أراد المريض أن يموت ازدادت أمراضه شدة واذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة وليس المراد أن المريض يريد أن يموت والتاجر يريد أن يفتقر وانما يعنون أنه سيصير كذلك فكذا ههنا واعلم أن جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية لا شك أن كلها عدول عن ظاهر اللفظ وأما الوجه الثاني والثالث فقد بقي سليما عن الطعن والله أعلم (المسئلة الثالثة) المشهور عند القراء السبعة أمرنا مترفيها بالخفة في غير ممدودة الالف وروي برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس آمرنا بالمد وعن أبي عمرو أمّرنا بالتشديد فالمد على التكثير يقال أمر القوم بكسر الميم اذا كثروا وآمرهم الله بالمد أي كثرهم الله والتشديد على التسليط أي سلطنا مترفيها ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر والله أعلم * أما قوله تعالى وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح فاعلم أن المراد أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح وهم عاد وثمود وغيرهم ثم انه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابا للغير وردعا وزجرا للكل فقال وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا وفيه بحثان (الاول) أنه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شئ من أحوال الخلق وثبت أنه قادر على كل الممكنات فكان قادرا على ايصال الجزاء الى كل أحد بقدر استحقاقه وأيضا أنه منزه عن العبث والظلم ومجموع هذه الصفات الثلاث أعني العلم التام والقدرة الكاملة والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لاهل الطاعة وخوف عظيم لاهل الكفر والمعصية (البحث الثاني) قال الفراء لو ألغيت الباء من قولك بربك جاز وانما يجوز دخول الباء في المرفوع اذا كان يمدح به

منها وعما فيها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنيئة الفانية واطمأنوا بها أي سكنوا اليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم وايثار الباء على كلمة الى المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للايذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فانها منبئة عما ذكر من ترك الاعلى وأخذ الادنى واختيار صيغة الماضي في الصلتين الاخيرتين للدلالة على التحقق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل في الاولى للايذان باستمرار عدم الرجاء (والذين هم عن آياتنا) المفصلة في صحائف الاكوان حسبما أشير الى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها في الدلالة على حقية ما لا يرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان ما رضوا به واطمأنوا اليه من الحياة الدنيا (غافلون) لا يتفكرون فيها أصلا وان نبهوا على ذلك وذكروا بأنواع

القوارع لانهماكهم فيما يصدهم عنها من الاحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به الى

صاحبه أو يذم كقولك كفاك به وأكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما وجاد بثوبك ثوبا أما اذا لم يكن مدحا أو ذما لم يجز دخولها فلا يجوز أن يقال قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال القفال رحمه الله هذه الآية داخلة في معنى قوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ومعناه أن الكمال في الدنيا قسمان فمنهم من يريد بالذي يعمله الدنيا ومنافعها والرياسة فيها فهذا يأنف من الانقياد للانبياء عليهم الصلاة والسلام والدخول في طاعتهم والاجابة لدعوتهم اشفاقا من زوال الرياسة عنه فهذا قد جعل طائر نفسه شؤما لانه في قبضة الله تعالى فيؤتيه الله في الدنيا منها قدرا الا كما يشاء ذلك الانسان بل كما يشاء الله الا أن عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذموما ملوما مدحورا منفيا مطرودا من رحمة الله تعالى وفي لفظ هذه الآية فوائد ﴿الفائدة الاولى﴾ أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالاهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله ثم جعلنا له جهنم يصلاها اشارة الى المضرة العظيمة وقوله مذموما اشارة الى الاهانة والذم وقوله مدحورا اشارة الى البعد والطرد عن رحمة الله وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص ﴿الفائدة الثانية﴾ أن من الجهال من اذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لاجل كرامته على الله تعالى وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى لان الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير الى عذاب الله واهانته فهذا الانسان أعماله تشبه طائر السوء في لزومها له وكونها سائقة له الى أشد العذاب ﴿الفائدة الثالثة﴾ قوله تعالى لمن نريد يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين وهذا أيضا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا فانه ربما فاتتهم الدنيا فهم الاخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿وأما القسم الثاني﴾ وهو قوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فشرط تعالى فيه شروطا ثلاثة (أحدها) أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة فانه ان لم يحصل هذه الارادة وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى ولقوله عليه الصلاة والسلام انما الاعمال بالنيات ولان المقصود من الاعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته وهذا لا يحصل الا ان نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته ﴿والشرط الثاني﴾ قوله وسعى لها سعيها وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به الى الفوز بثواب الآخرة من الاعمال التي بها ينال ثواب الآخرة ولا يكون كذلك الا اذا كان من باب القرب والطاعات وكثير من الناس يتقربون الى الله بأعمال باطلة فان الكفار يتقربون الى الله تعالى بعبادة الاوثان ولهم فيها تأويلان (أحدهما) يقولون اله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة ثم ان الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق الا أنه لما كان فاسدا في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به ﴿والتأويل الثاني لهم﴾ أنهم قالوا نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الانبياء والاولياء ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله تعالى وهذا الطريق أيضا فاسد وأيضا نقل عن الهند أنهم يتقربون الى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى ويبالغون في تعظيم الله تعالى الا أنه لما كان الطريق فاسدا لا جرم لم ينتفع به وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى

بمحل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي ايذانا بمغايرة الوصف الاخير للاوصاف الاول واستقلاله باستتباع العذاب هذا وأما ما قيل من أن العطف اما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك في الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم الآخرة أصلا وأما لتغاير الفريقين والمراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل فكلام ناء عن السداد فتأمل (أولئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (مأواهم) أي مسكنهم ومقرهم الذي لا براح لهم منه (النار) لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها (بما كانوا يكسبون) من الاعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه من أصناف المعاصي والسيآت أو بكسبهم اياها والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددي والباء متعلقة بمضمون الجملة الاخيرة الواقعة خبرا عن اسم الاشارة وهو مع خبره خبر لان في قوله تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا الخ (ان الذين آمنوا) أي فعلوا الايمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التي غفل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك

بهداهم

عناهيم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب ﴿والشرط الثالث﴾ قوله تعالى وهو مؤمن وهذا الشرط معتبر لان الشرط فى كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الايمان فاذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط ثم انه تعالى أخبر أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعى مشكورا والعمل مبرورا واعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة اعتقاد كونه محسنا فى تلك الاعمال والثناء عليه بالقول والاتيان بافعال تدل على كونه معظما عند ذلك الشاكر والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الامور الثلاثة فانه تعالى عالم بكونهم محسنين فى تلك الاعمال وانه تعالى يثنى عليهم بكلامه وأنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى واذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلا كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل الله تعالى ورأيت فى كتب المعتزلة أن جعفر بن حرب حضر عنده واحد من أهل السنة وقال الدليل على أن الايمان حصل بخلق الله تعالى انا نشكر الله على الايمان ولو لم يكن الايمان حاصلا بايجاده لامتنع أن نشكره عليه لان مدح الانسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح قال الله تعالى ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فعجز الحاضرون عن الجواب فدخل ثمامة بن الاشرس وقال انما نمدح الله تعالى ونشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل وانزال الكتب وايضاح الدلائل والله تعالى يشكرنا على فعل الايمان قال الله تعالى فأولئك كان سعيهم مشكورا قال فضحك جعفر بن حرب وقال صعبت المسئلة فسهلت واعلم ان قولنا مجموع القدرة مع الداعى يوجب الفعل كلام واضح لانه تعالى هو الذى أعطى الموجب التام لحصول الايمان فكان هو المستحق للشكر ولما حصل الايمان للعبد وكان الايمان موجبا للسعادة التامة صار العبد أيضا مشكورا ولا منافاة بين الامرين ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن كل من أتى بفعل فاما أن يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا أو تحصيل خيرات الآخرة أو يقصد به مجموعهما أولم يقصد به واحدا منهما هذا هو التقسيم الصحيح اما ان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين فى هذه الآية أما القسم الثالث فهو ينقسم الى ثلاثة أقسام لانه اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا أو يكون الطلبان متعادلين أما القسم الاول وهو أن يكون طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه بحث يحتمل أن يقال انه غير مقبول لما روى ان النبي صلى الله عليه وسلم حكى عن رب العزة انه قال أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه وأيضا فطلب رضوان الله اما أن يقال انه كان سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل أوداعيا اليه واما أن يقال ما كان كذلك فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا حصل مسندا الى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعى اليه ذلك المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب كونه مغايرا لكل واحد من جزأيه فهذا القسم ملحق بالقسم الذى كان الداعى اليه مغايرا لطلب رضوان الله تعالى فوجب أن يكون مقبولا ويمكن أن يقال لما كان طلب الآخرة راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أوكان طلب الدنيا راجحا فهذا قد اتفقوا على انه غير مقبول الا أنه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة وأما القسم الرابع وهو أن يقال انه أقدم على ذلك الفعل من غير داع فهذا بناء على ان صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعى أم لا فالذين يقولون انه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا انه لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا أثر له فى الباطن وهو محرم فى الظاهر لانه عبث والله أعلم ثم قال تعالى كلا أى كل واحد من الفريقين والتنوين عوض من المضاف اليه نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك أى انه تعالى عد الفريقين بالاموال و يوسع عليهما

اندراجا أولا (وعملوا الصالحات) أى الاعمال الصالحة فى أنفسها اللائقة بالايمان وانما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الاسماء (يهديهم ربهم) أوثر الالتفات تشريفا لهم باضافة الرب واشعارا بعلة الهداية (بايمانهم) أى يهديهم بسبب ايمانهم الى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما أداهم اليه من أعمالهم السيئة ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح وفى النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لا يكفى فى الوصول الى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم انه لا نزاع فى أن المراد بالايمان الذى جعل سببا لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالاعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منهما الا ان ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالى عن العمل الصالح يفضى الى الجنة فى الجملة ولا يخلد صاحبه فى النار فان منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة وأما أن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه

فى الرزق مثل الاموال والاولاد وغيرهما من أسباب العز والزينة فى الدنيا لان عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمنا كان أو كافرا لان الكل مخلوقون فى دار العمل فوجب ازاحة العذر وازالة العلة عن الكل وايصال متاع الدنيا الى الكل على القدر الذى يقتضيه الصلاح فبين تعالى ان عطاءه ليس بمحظور أى غير ممنوع يقال حظره يحظره وكل من حال بينك وبين شئ فقد حظره عليك ثم قال تعالى انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وفيه قولان (الاول) المعنى انظر الى عطائنا المباح الى الفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه الى مؤمن وقبضناه عن مؤمن آخر وأوصلناه الى كافر وقبضناه عن كافر آخر وقد بين تعالى وجه الحكمة فى هذا التفاوت فقال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وقال فى آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ثم قال وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا والمعنى ان تفاضل الخلق فى درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم فى درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فان نسبة التفاضل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته فى طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته فى طلب فضيلة الآخرة أولى (القول الثانى) ان المراد ان الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا والمعنى ان المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين ونظيره قوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴿قوله تعالى ﴿لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا﴾ فى الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ فى بيان وجه النظم فنقول انه تعالى لما بين ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة (أولها) ارادة الآخرة (وثانيها) أن يعمل عملا ويسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة (وثالثها) أن يكون مؤمنا لا جرم فصل فى هذه الآية تلك المجملات فبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان وأشرف أجزاء الايمان هو التوحيد ونفى الشركاء والاضداد فقال لا تجعل مع الله الها آخر ثم ذكر عقيبه سائر الاعمال التى يكون المقدم عليها والمشتغل بها ساعيا سعيا يليق بطلب الآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم ﴿المسألة الثانية﴾ قال المفسرون هذا فى الظاهر خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكن فى المعنى عام لجميع المكلفين كقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ويحتمل أيضا أن يكون الخطاب للانسان كأنه قيل أيها الانسان لا تجعل مع الله الها آخر وهذا الاحتمال عندى أولى لانه تعالى عطف عليه قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه الى قوله اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما وهذا لا يليق بالنبى عليه الصلاة والسلام لان أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا ان المخاطب بهذا هو نوع الانسان ﴿المسألة الثالثة﴾ معنى الآية ان من أشرك بالله كان مذموما مخذولا والذى يدل على ان الامر كذلك وجوه (الاول) ان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان (الثانى) انه لما ثبت بالدليل انه لا اله ولا مدبر ولا مقدر الا الواحد الاحد فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم الى غير الله تعالى مع ان الحق ان كلها من الله فحينئذ يستحق الذم لان الخالق تعالى استحق الشكر باعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله فقد قابل احسان الله تعالى بالاساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وانما قلنا انه يستحق الخذلان لانه لما أثبت شريكا لله تعالى استحق أن يفوض أمره الى ذلك الشريك فلما كان ذلك الشريك معدوما بقى بلا ناصر ولا حافظ ولا معين وذلك عين الخذلان (الثالث) ان الكمال فى الوحدة والنقصان فى الكثرة فمن أثبت الشريك فقد وقع فى جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان واعلم انه لما دل لفظ الآية على ان المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحا منصورا والله أعلم ﴿المسألة الرابعة﴾ القعود المذكور فى قوله فتقعد مذموما مخذولا فيه وجوه (الاول) ان معناه المكث أى فتمكث فى الناس مذموما مخذولا وهذه اللفظة

قطعا كيف لا وقوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون مناد بخلافه فان المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضا يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب (تجرى من تحتهم الانهار) أى بين أيديهم كقوله سبحانه وهذه الانهار تجرى من تحتى أو تجرى وهم على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لان أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كون الهدى اليه ما يريدونه فى الجنة كما قيل وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى الى الثواب والجنة وقوله تجرى من تحتهم الانهار جار مجرى التفسير والبيان فان التمسك بحبل السعادة فى حكم الوصول اليها وقيل يهديهم الى ادراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (فى جنات النعيم) خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الانهار أو متعلق بتجرى أو بيهدى فالمراد بالهدى اليها ما منازلهم فى الجنة أو ما يريدونه فيها (دعواهم) أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل (فيها) متعلق به وقوله تعالى (سبحانك اللهم)

مستعملة في لسان العرب والفرس في هذا المعنى فاذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب هو قاعد بأسوأ حال معناه المكث سواء كان قائما أو جالسا (الثاني) ان من شأن المذموم المخذول ان يقعد نادما متفكرا على ما فرط منه (الثالث) ان المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى في تحصيلها والسعي انما يتأتى بالقيام وأما العاجز عن تحصيلها فانه لا يسعى بل يبقى جالسا قاعدا عن الطلب فلما كان القيام على الرجل أحد الامور التي بها يتم الفوز بالخيرات وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة لا جرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات والقعود كناية عن العجز والضعف (المسئلة الخامسة) قال الواحدي قوله فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصابه باضمار ان كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل ان نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء التي هي حرف العطف وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء في ان الثاني مسبب عن الاول ألا ترى أن المعنى ان انقطعت جفوتك كذلك تقدير الآية ان جعلت مع الله الها آخر قعدت مذموما مخذولا ﴿قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه﴾ اعلم انه لما ذكر في الآية الاولى ما هو الركن الاعظم في الايمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائطه وهي أنواع (النوع الاول) أن يكون الانسان مشتغلا بعبادة الله تعالى وان يكون محترزا عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو المراد من قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وفيه بحثان (الاول) القضاء معناه الحكم الجزم البت الذي لا يقبل النسخ والدليل عليه ان الواحد منا اذا أمر غيره بشئ فانه لا يقال انه قضى عليه اما اذا أمره أمرا جزما وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع فههنا يقال قضى عليه ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع الى اتمام الشئ وانقطاعه وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس انه قال في هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع هكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير وهي قراءة علي وعبد الله واعلم ان هذا القول بعيد جدا لانه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين (البحث الثاني) قد ذكرنا ان هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق وذلك لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن يصدر عنه نهاية الانعام ونهاية الانعام عبارة عن اعطاء الوجود والحياة والقدرة والشهوة والعقل وقد ثبت بالدلائل أن المعطي لهذه الاشياء هو الله تعالى لا غيره واذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره لا جرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غيره فثبت بالدليل العقلي صحة قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ﴿قوله تعالى ﴿وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ثم أتبعه بالامر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى وبين الامر ببر الوالدين من وجوه (الاول) أن السبب الحقيقي لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهري هو الابوان فأمر بتعظيم السبب الحقيقي ثم أتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهري (الوجه الثاني) ان الموجود اما قديم واما محدث ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الاله القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وأحق الخلق بصرف الشفقة اليه هو الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله (الوجه الثالث) ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون أحد من المخلوقين منعما عليك وشكره أيضا واجب

خبره أي دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لا يجوز اظهاره والمعنى اللهم انا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه عند ما عاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف (وتحيتهم فيها) التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة أي ما يحيي به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة اياهم كما في قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام أو تحية الله عز وجل لهم كما في قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم (سلام) أي سلامة عن كل مكروه (وآخر دعواهم) أي خاتمة دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) أي أن يقولوا ذلك نعتاله عز وجل بصفات الاكرام اثر نعته تعالى بصفات الجلال أي دعاؤهم منحصر فيما ذكر اذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه في سلك الدعاء وأن هي المخففة من أن المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما في قوله * أن هالك كل من يحفى وينتعل * وقرئ أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل الى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع أن التحية ليست بأجنبية على

اقوله عليه الصلاة والسلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه (أحدها) ان الولد قطعة من الوالدين قال عليه الصلاة والسلام فاطمة بضعة مني (وثانيها) ان شفقة الابوين على الولد عظيمة وجدهما في ايصال الخير الى الولد كالامر الطبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه كالامر الطبيعي ومتى كانت الدواعي الى ايصال الخير متوفرة والصوارف عنه زائلة لاجرم كثر ايصال الخير فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من انسان الى انسان (وثالثها) ان الانسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز يكون في انعام الابوين فاصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة اليه وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة الى الوالدين في ذلك الوقت ومن المعلوم ان الانعام اذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما (ورابعها) ان ايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الاغراض وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فقط فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت انه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله و بالوالدين احسانا والسبب فيه ما بينا ان أعظم النعم بعد انعام الاله الخالق نعمة الوالدين (فان قيل) الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لنفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات والمخافات فأي انعام للابوين على الولد حكى ان واحدا من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه و يقول هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابي العلاء المعري ماذا نكتب على قبرك قال اكتبوا عليه

هذا جناه أبي علي ومما جنيت على أحد

وقال في ترك التزوج والولد

وتركت أولادي وهم في نعمة الـ ✲ ـعدم التي سبقت نعيم العاجل

ولوانهم ولدوا لعانوا شدة ✲ ترمي بهم في موبقات الآجل

وقيل للاسكندر أستاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال الاستاذ أعظم منة لانه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي أرتعني في نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه وأخرجني الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المشهورة المأثورة خير الآباء من علمك (والجواب) هب انهما في أول الامر طلبا لذة الوقاع الا ان الاهتمام بايصال الخيرات وفي دفع الآفات من أول دخوله في الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس انه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات فسقطت هذه الشبهات والله أعلم (المسألة الثانية) قوله و بالوالدين احسانا قال أهل اللغة تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا الا الله وان تحسنوا أو يقال وقضى ألا تعبدوا الا اياه وأحسنوا بالوالدين احسانا قال صاحب الكشاف ولا يجوز أن تتعلق الباء في و بالوالدين بالاحسان لان المصدر لا تتقدم عليه صلته ثم لم يذكر دليلا على ان المصدر لا يجوز ان تتقدم عليه صلته وقال الواحدي في البسيط الباء في و بالوالدين من صلة الاحسان وقدمت عليه كما تقول بزيد فامرر وهذا المثال الذي ذكره الواحدي غير مطابق لان المطلوب تقديم صلة المصدر عليه والمثال المذكور ليس كذلك (المسألة الثالثة) قال القفال لفظ الاحسان قد يوصل بحرف الباء تارة و بحرف الى أخرى وكذلك الاساءة يقال أحسنت به واليه وأسأت به واليه قال الله تعالى وقد أحسن بي وقال القائل

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ✲ لدينا ولا مقلية ان تقلت

وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين (أحدها) انه تعالى قال في الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم انه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على ان هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد

الاطلاق ودعوى كون ترتيب الوقوع أيضا كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز باصناف الكرامات أو حياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى وأثنوا عليه بأباها اضافة الآخر الى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما في قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون الخ ايذانا بان لا تكليف في الجنة أي ما عبادتهم الا أن يسبحوه ويحمدوه وليس ذلك بعبادة انما يلهمونه وينطقون به تلذذا ولا يساعده تعيين الخاتمة (ولو يعجل الله للناس) هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى لانكارهم البعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء أشير الى بعض من عظائم معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وايرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور اذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أي لو يعجل الله لهم (الشر) الذي كانوا يستعجلون به فانهم كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى (استعجالهم بالخير) نصب على أنه مصدر تشبيهي وضع

سعادة الآخرة (وثانيها) انه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة (وثالثها) انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام (ورابعها) انه قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم والمعنى وقضى ربك ان تحسنوا الى الوالدين احسانا عظيما كاملا وذلك لانه لما كان احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفي الامثال المشهورة ان البادي بالبر لا يكافأ ثم قال تعالى اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ اما لفظة مركبة من لفظتين ان وما أما كلمة ان فهي للشرط وأما كلمة ما فهي أيضا للشرط كقوله تعالى ما ننسخ من آية فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط الا أن علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد لان الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل أن يقول ان نون التأكيد انما يليق بالموضع الذي يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره واثباته على أقوى الوجوه الا ان هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع لان قول القائل الشئ اما كذا واما كذا فالمطلوب منه ترديد الحكم بين ذينك الشيئين المذكورين وهذا الموضع لا يليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق الجمع بين كلمة اما وبين نون التأكيد وجوابه ان المراد ان هذا الحكم المتقرر المتأكد اما ان يقع واما ان لا يقع والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ الاكثرون اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما وعلى هذا التقدير فقوله يبلغن فعل وفاعله هو قوله أحدهما وقوله أو كلاهما عطف عليه كقولك ضرب زيد أو عمرو ولو أسند قوله يبلغن الى قوله كلاهما جاز لتقدم الفعل تقول قال رجل وقال رجلان وقالت الرجال وقرأ حمزة والكسائي يبلغان وعلى هذه القراءة فقوله أحدهما بدل من ألف الضمير الراجع الى الوالدين وكلاهما عطف على أحدهما فاعلا أو بدلا فان قيل لو قيل اما يبلغان كلاهما كان كلاهما توكيدا لا بدلا فلم زعمتم انه بدل قلنا لانه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا للاثنين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله في كونه بدلا فان قيل لم لا يجوز أن يقال قوله أحدهما بدل وقوله أو كلاهما توكيد ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل قلنا العطف يقتضى المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال أبو الهيثم الرازي وأبو الفتح الموصلي وأبو علي الجرجاني ان كلا اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجى ورضى وهي كلمة وضعت على هذه الخلقة يؤكد بها الاثنان خاصة ولا تكون الا مضافة والدليل عليه انها لو كانت تثنية لوجب أن يقال في النصب والخفض مررت بكلي الرجلين بكسر الياء كما يقال بين يدي الرجل ومن ثلثي الليل و ياصاحبي السجن وطرفي النهار ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انها ليست تثنية بل هي لفظة مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما ان لفظة كل اسم واحد موضوع للجماعة فاذن أخبرت عن لفظه كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وكذلك اذا أخبرت عن كلا أخبرت عن واحد فقلت كلا أخويك كان قائما قال الله تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها ولم يقل آتتا والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما معناه انهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا كلف الانسان في حق الوالدين بخمسة أشياء (النوع الاول) قوله تعالى فلا تقل لهما أف وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج فيه سبع لغات كسر الفاء وضمها وفتحها وكل هذه الثلاثة بتنوين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفي بالياء قال الاخفش كأنه أضاف هذا القول الى نفسه فقال قولي هذا وذكر ابن الانباري من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ماذكره الزجاج اف بكسر الالف وفتح الفاء وأفه بضم الالف وادخال الهاء وأف بضم الالف وتسكين الفاء (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين ونافع وحفص بكسر الفاء والتنوين والباقون بكسر الفاء من غير

موضع ههنا رناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال في جانب المشبه كاعتبار التعجيل في جانب المشبه به واشعارا بسرعة اجابته تعالى لهم حتى كأن استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ماحذف تعويلا على دلالة الباقي عليه (لقضى اليهم أجلهم) لادي اليهم الاجل الذي عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين وفي ايثار صيغة المبني للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الايذان بتعين الفاعل وقرئ على البناء للفاعل كما قرئ لقضينا واختيار صيغة الاستقبال في الشرط وان كان المعنى على المضي لافادة أن عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل فان المضارع المنفي الواقع موقع الماضي ليس بنص في افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما حقق في موضعه واعلم أن مدار الافادة في الشرطية أن يكون التالي أمرا مغايرا للمقدم في نفسه مترتبا عليه في الوجود كما في قوله عز وجل لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم فان العنت أي الوقوع في المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتب عليها في الوجود أو يكون فردا كاملا من أفراده ممتازا عن البقية بأمر يخصه كما في الاجوبة المحذوفة في

التنوين وكلها لغات وعلى هذا الخلاف فى سورة الانبياء أف لكم وفى الاحقاف أف لكما * وأقول البحث المشكل ههنا انا لما نقلنا عشرة أنواع من اللغات فى هذه اللفظة فما السبب فى أنهم تركوا أكثر تلك اللغات فى قراءة هذه اللفظة واقتصروا على وجوه قليلة منها ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكروا فى تفسير هذه اللفظة وجوها (الاول) قال الفراء تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها معناه يقول أف أف (الثانى) قال الاصمعى الاف وسخ الاذن والتف وسخ الظفر يقال ذلك عند استقذار الشئ ثم كثر حتى استعملوه عند كل ما يتأذون به (الثالث) قال بعضهم أف معناه قلة وهو مأخوذ من الافيف وهو الشئ القليل وتف اتباع له كقولهم شيطان ليطان خبيث نبيث (الرابع) روى ثعلب عن ابن الاعرابى الاف الضجر (الخامس) قال القتبى أصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك أف ثم انهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل اليهم (السادس) قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله ولا تقل لهما أف أى لا تتقذرهما كما انهما لم يتقذراك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية أخرى عن مجاهد انه اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف ﴿المسئلة الرابعة﴾ قول القائل لا تقل لفلان أف مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وان خف وقل واختلف الاصوليون فى أن دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الايذاء دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس قال بعضهم انها دلالة لفظية لان أهل العرف اذا قالوا لا تقل لفلان أف عنوا به انه لا يتعرض له بنوع من أنواع الايذاء والايحاش وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيرا ولا قطميرا فى انه بحسب العرف يدل على انه لا يملك شيأ (والقول الثانى) ان هذا اللفظ انما يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء بحسب القياس الجلى وتقريره ان الشرع اذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة أخرى فاذا أردنا الحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يكون ثبوت ذلك الحكم فى محل السكوت أولى من ثبوته فى محل الذكر مثل هذه الصورة فان اللفظ انما دل على المنع من التأفيف والضرب أولى بالمنع من التأفيف (وثانيها) أن يكون الحكم فى محل السكوت مساويا للحكم فى محل الذكر وهذا هو الذى يسميه الاصوليون القياس فى معنى الاصل وضربوا لهذا مثلا وهو قوله عليه السلام من أعتق نصيبا له من عبد قوّم عليه الباقى فان الحكم فى الامة والعبد متساويان (وثالثها) أن يكون الحكم فى محل السكوت أخفى من الحكم فى محل الذكر وهو أكثر القياسات اذا عرفت هذا فنقول المنع من التأفيف انما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلى الذى يكون من باب الاستدلال بالادنى على الاعلى والدليل عليه ان التأفيف غير الضرب فالمنع من التأفيف لا يكون منعا من الضرب وأيضا المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلا لان الملك الكبير اذا أخذ ملكا عظيما كان عدوا له فقد يقول للجلاد اياك وان تستخفف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته واذا كان هذا معقولا فى الجملة علمنا ان المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضا للمنع من الضرب عقلا فى الجملة الا أنا علمنا فى هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة فى تعظيم الوالدين بدليل قوله وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالادنى على الاعلى والله أعلم ﴿النوع الثانى﴾ من الاشياء التى كلف الله تعالى العباد بها فى حق الابوين قوله ولا تنهرهما يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى وأما السائل فلا تنهر * فان قيل المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الاولى فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثا أما لو فرضنا انه قدم المنع من الانتهار ثم اتبعه بالمنع من التأفيف كان مفيدا حسنا لانه يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف فما السبب فى رعاية هذا الترتيب * قلنا المراد من قوله فلا تقل لهما أف المنع من اظهار الضجر بالقليل أو الكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له ﴿النوع الثالث﴾ قوله تعالى

ونظائرها أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة اذا فسر الجواب بالاستئصال فانه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لا مزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر بل هو اما نفسه أو جزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية اذ لم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون فى ترتبه عليه وجودا أو عدما مزيد فائدة مصححة لجعله تاليا له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هو ارادته المستتبعة للقضاء المذكور وجودا وعدما كما فى قوله تعالى لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب أى لو يريد مؤاخذتهم فان تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقية فليس فى بيان ترتبه عليه وجودا أو عدما مزيد فائدة وانما الفائدة فى بيان ترتبه على ارادتها حسبما ذكر وأيضا فى

تعالى

ترتيب التالي على ارادة المقدم ما ليس في ترتيبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الامر والدلالة على أن

تعالى وقل لهما قولا كريما واعلم انه تعالى لما منع الانسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش والنهي عن القول المؤذي لا يكون أمرا بالقول الطيب لا جرم أردفه بان أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال وقل لهما قولا كريما والمراد منه ان يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أن يقول له يا أبتاه يا أماه وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ وعن عطاء أن يقول هو ان تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد اليهما نظرك وذلك لان هذين الفعلين ينافيان القول الكريم * فان قيل ان ابراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلما وكرما وادبا فكيف قال لابيه يا آزر على قراءة من قرأ واذ قال ابراهيم لابيه آزر بالضم اني أراك وقومك في ضلال مبين فخاطبه بالاسم وهو ايذاء ثم نسبه ونسب قومه الى الضلال وهو أعظم أنواع الايذاء * قلنا ان قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا يدل على ان حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى على حق الابوين (النوع الرابع) قوله واخفض لهما جناح الذل من الرحمة والمقصود منه المبالغة في التواضع وذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين (الاول) ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك (والثاني) أن الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه واذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحيه فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه * فان قيل كيف أضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له قلنا فيه وجهان (الاول) انه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما ان المراد هناك حاتم الجواد فكذلك ههنا المراد واخفض لهما جناحك الذليل أي المذلول (والثاني) ان مدار الاستعارة على الخيالات فههنا تخيل للذل جناحا واثبت لذلك الجناح خفضا تكميلا لامر هذه الاستعارة كما قال لبيد

* اذ أصبحت بيد الشمال زمامها * فأثبت للشمال يدا ووضع زمامها في يد الشمال فكذا ههنا وقوله من الرحمة معناه ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما (والنوع الخامس) قوله وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا وفيه مباحث (البحث الاول) قال القفال رحمه الله تعالى انه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الاقوال بل أضاف اليه تعليم الافعال وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول رب ارحمهما ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا ثم يقول كما ربياني صغيرا يعني رب افعل بهما هذا النوع من الاحسان كما احسنا الي في تربيتهما اياي والتربية هي التنمية وهي من قولهم ربا الشيء اذا انتفخ ومنه قوله تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت (البحث الثاني) اختلف المفسرون في هذه الآية على ثلاثة أقوال (الاول) انها منسوخة بقوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين فلا ينبغي للمسلم أن يستغفر لوالديه اذا كانا مشركين ولا يقول رب ارحمهما (والقول الثاني) ان هذه الآية غير منسوخة ولكنها مخصوصة في حق المشركين وهذا أولى من القول الاول لان التخصيص أولى من النسخ (والقول الثالث) انه لا نسخ ولا تخصيص لان الوالدين اذا كانا كافرين فله ان يدعو لهما بالهداية والارشاد وان يطلب الرحمة لهما بعد حصول الايمان (البحث الثالث) ظاهر الامر للوجوب فقوله وقل رب ارحمهما أمر وظاهر الامر لا يفيد التكرار فيكفي في العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة سئل سفيان كم يدعو الانسان لوالديه أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة فقال نرجو أن يجزئه اذا دعا لهما في أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قال يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه فكانوا يرون أن التشهد يجزئ عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكما أن الله تعالى قال واذكروا الله في أيام معدودات فهم يكررون في أدبار الصلوات ثم قال تعالى ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين والمعنى انا قد أمرناكم في هذه الآية باخلاص العبادة لله تعالى وبالاحسان بالوالدين

الامور منوطة بارادته تعالى المبنية على الحكم البالغة (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) بنون العظمة الدالة على التشديد في الوعيد وهو عطف على مقدر تنبئ عنه الشرطية كأنه قيل لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه الحكمة فنتركهم امهالا واستدراجا (في طغيانهم) الذي هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة (يعمهون) أي يترددون ويتحيرون وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما في حيز الصلة واشعار بعليته للترك والاستدراج (واذا مس الانسان الضر) أي أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد اصابة يسيرة (دعانا) لكشفه وازالته (لجنبه) حال من فاعل دعا بشهادة ما عطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما في قوله تعالى يخرون للاذقان أي دعانا كائنا على جنبه أي مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) أي في جميع الاحوال ما ذكر وما لم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الانسان عنها عادة أو دعانا في جميع

ولا يخفى على الله ما تضمرونه فى أنفسكم من الاخلاص فى الطاعة وعدم الاخلاص فيها فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما فى نفوسكم بل هو أعلم بتلك الاحوال منكم بها لان علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الاحاطة بالكل فأما علم الله فمنزه عن كل هذه الاحوال واذا كان الامر كذلك كان عالما بكل ما فى قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الاخلاص ثم قال تعالى ان تكونوا صالحين أى ان كنتم براء عن جهات الفساد فى أحوال قلوبكم كنتم أوابين أى رجاعين الى الله منقطعين اليه فى كل الاعمال وسنة الله وحكمه فى الاوابين انه غفور لهم يكفر عنهم سيآتهم والاواب هو الذى من عادته وديدنه الرجوع الى الله تعالى والالتجاء الى فضله ولا يلتجئ الى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادا يزعمون أنه يشفع لهم ولفظ الاواب على وزن فعال وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم قتال وضراب والمقصود من هذه الآية ان الآية الاولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم ان الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال ربكم أعلم بما فى نفوسكم يعنى انه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فان كانت تلك الهفوة ليست لاجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت فى محل الغفران والله أعلم

﴿ قوله تعالى ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من أعمال الخير والطاعة المذكورة فى هذه الآيات وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله وآت خطاب مع من فيه قولان (الاول) انه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم فأمره الله أن يؤتى أقاربه الحقوق التى وجبت لهم فى الفيء والغنيمة وأوجب عليه أيضا اخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضا من هذين المالين ﴿ والقول الثانى ﴾ انه خطاب للكل والدليل عليه انه معطوف على قوله وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه والمعنى انك بعد فراغك من بر الوالدين يجب أن تشتغل ببر سائر الاقارب الاقرب فالاقرب ثم باصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل واعلم أن قوله تعالى وآت ذا القربى حقه مجمل وليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو وعند الشافعى رحمه الله انه لا يجب الانفاق الا على الولد والوالدين وقال قوم يجب الانفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على ان من لم يكن من المحارم كابناء العم فلا حق لهم الا المودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة فى السراء والضراء أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما فى سورة التوبة فى تفسير آية الزكاة ويجب أن يدفع الى المسكين ما يفى بقوته وقوت عياله وأن يدفع الى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته الى أن يبلغ مقصده ثم قال تعالى ولا تبذر تبذيرا والتبذير فى اللغة افساد المال وانفاقه فى السرف قال عثمان بن الاسود كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه الى أبى قبيس وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين وأنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقيل له لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد فقال أوفى الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين فقال ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين والمراد من هذه الاخوة التشبه بهم فى هذا الفعل القبيح وذلك لان العرب يسمون الملازم للشئ أخاله فيقولون فلان أخو الكرم والجود وأخو السفر اذا كان مواظبا على هذه الاعمال وقيل قوله اخوان الشياطين أى قرناءهم فى الدنيا والآخرة كما قال ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم أى قرناءهم من الشياطين ثم انه تعالى بين صفة الشيطان فقال وكان الشيطان لربه كفورا ومعنى كون الشيطان كفورا لربه هو انه يستعمل بدنه فى المعاصى والافساد فى الارض والاضلال للناس وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالا أو جاها فصرفه الى غير مرضاة الله تعالى كان كفورا لنعمة الله تعالى والمقصود ان المبذرين اخوان الشياطين بمعنى كونهم موافقين للشياطين فى الصفة والفعل ثم الشيطان كفور لربه فيلزم

كون

أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضطجعا عاجزا عن القعود وقاعدا غير قادر على النهوض وقائما لا يستطيع الحراك (فلما كشفنا عنه ضره) الذى مسه غب ما دعانا حسبما ينبئ عنه الفاء (مر) أى مضى واستمر على طريقته التى كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه (كأن لم يدعنا) أى كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا

والجملة التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر أى مر مشبها بمن لم يدعنا (الى ضر) أى الى كشف ضر (مسه) وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفات (كذلك) نصب على المصدرية وذلك اشارة الى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب (زين للمسرفين) أى للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة واسرافهم لما أن الله تعالى انما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها الى مصارفها ويستعملوها

كون المبذر أيضا كفورا لربه وقال بعض العلماء خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح أعمالهم في هذا الباب ثم قال تعالى وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها والمعنى انك ان أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة فقل لهم قولا ميسورا أى سهلا لينا وقوله ابتغاء رحمة من ربك ترجوها كناية عن الفقر لان فاقد المال يطلب رحمة الله واحسانه فلما كان فقد المال سببا لهذا الطلب ولهذا الابتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى والمعنى ان عند حصول الفقر والقلة لا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن بل تعدهم بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال أو تقول لهم الله يسهل وفى تفسير القول الميسور وجوه (الاول) القول الميسور هو الرد بالطريق الاحسن (والثانى) القول الميسور اللين السهل قال الكسائى يسرت أيسر له القول أى لينته له (والثالث) قال بعضهم القول الميسور مثل قوله قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى قالوا الميسور هو المعروف لان القول المتعارف لا يحوج الى تكلف والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ اعلم أنه تعالى لما أمره بالانفاق فى الآية المتقدمة علمه فى هذه الآية أدب الانفاق واعلم أنه تعالى شرح وصف عباد المؤمنين فى الانفاق فى سورة الفرقان فقال والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فههنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أى لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة عن الانبساط ولا تبسطها كل البسط أى ولا تتوسع فى الانفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى فى يدك شئ وحاصل الكلام أن الحكماء ذكروا فى كتب الاخلاق ان لكل خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان فالبخل افراط فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ثم قال تعالى فتقعد ملوما محسورا أما تفسير تقعد فقد سبق فى الآية المتقدمة وأما كونه ملوما فلانه يلوم نفسه وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية وابقاء الاهل والولد فى الضر والمحنة وأما كونه محسورا فقال الفراء تقول العرب للبعير هو محسور اذا انقطع سيره وحسرت الدابة اذا سيرتها حتى ينقطع سيرها ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى وقال القفال المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته عن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كانه مطية يحمل الانسان ويبلغه الى آخر الشهر أو السنة كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك اذا أنفق الانسان مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر بقى فى وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم فى مهمات معاشه ثم قال تعالى ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر والمقصود أنه عرف رسوله صلى الله عليه وسلم كونه ربا والرب هو الذى يربى المربوب ويقوم باصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض والقدر فى اللغة التضييق ومنه قوله تعالى ومن قدر عليه رزقه وقوله تعالى وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أى ضيق وانما وسع على البعض لان ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ثم قال تعالى انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعنى أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل انسان فى أن لا يعطيه الا ذلك القدر فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية المصالح ﴿ قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا﴾

فيما خلقت له من العلوم والأعمال الصالحة فلما صرفوها الى مالا ينبغى وهى رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا اسرافا ظاهرا والتزيين اما من جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل (ما كانوا يعملون) من الاعراض عن الذكر والدعاء والانهماك فى الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث ان فى كل منهما املاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الانقاذ من الشر المقدر فى الاولى ومن الضر المقرر فى الاخرى (ولقد أهلكنا القرون) أى القرون الخالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن فى قوله تعالى (من قبلكم) متعلقة بأهلكنا أى أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لاهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة فى تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى (لما ظلموا) ظرف للاهلاك أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادى فى الغى والضلال من غير تأخير وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم) حال من ضمير ظلموا باضمار قد وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة على افراطهم فى الظلم وتناهيهم فى المكابرة أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها

هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة في هذه الآيات وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في تقرير النظم وجوه (الاوّل) أنه تعالى لما بين في الآية الاولى أنه هو المتكفل بأرزاق العباد حيث قال ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أتبعه بقوله ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم (الثاني) أنه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين في الآية المتقدمة علم في هذه الآية كيفية البر بالاولاد ولهذا قال بعضهم ان الذين يسمون بالابرار انما سموا بذلك لانهم بروا الآباء والابناء وانما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من أنواع البر بالاولاد وانما وجب البر بالاولاد لانهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين ﴿الوجه الثالث﴾ أن امتناع الاولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم لان الآباء اذا علموا ذلك قلت رغبتهم في تربية الاولاد فيلزم خراب العالم من الوجه الذي قررناه فثبت أن عمارة العالم انما تحصل اذا حصلت المبرة بين الآباء والاولاد من الجانبين ﴿الوجه الرابع﴾ أن قتل الاولاد ان كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله وان كان لاجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم فالاول ضد التعظيم لامر الله تعالى والثاني ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم والله أعلم ﴿الوجه الخامس﴾ أن قرابة الاولاد قرابة الجزئية والبعضية وهي من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة ﴿المسئلة الثانية﴾ العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة وأيضا كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون الى انكاحها من غير الاكفاء وفي ذلك عار شديد فقال تعالى ولا تقتلوا أولادكم وهذا اللفظ عام للذكور والاناث والمعنى أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الاناث وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضا في العاجزين من البنين ثم قال تعالى نحن نرزقهم واياكم يعني الارزاق بيد الله تعالى فكما أنه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء ﴿المسئلة الثالثة﴾ الجمهور قرؤا ان قتلهم كان خطأ كبيرا أي اثما كبيرا يقال خطئ يخطأ خطأ مثل أثم يأثم اثما قال تعالى انا كنا خاطئين أي آثمين وقرأ ابن عامر خطأ بالفتح يقال أخطأ يخطئ اخطاء وخطأ اذا أتى بما لا ينبغي من غير قصد ويكون الخطأ اسما للمصدر والمعنى على هذه القراءة ان قتلهم ليس بصواب قال القفال رحمه الله وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء ممدودة ولعلهما لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس ﴿ قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر بالاشياء الخمسة التي تقدم ذكرها وحاصلها يرجع الى شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله أتبعها بذكر النهي عن أشياء (أولها) أنه تعالى نهى عن الزنا فقال ولا تقربوا الزنا قال القفال اذا قيل للانسان لا تقرب هذا فهذا آكد من أن يقال له لا تفعله ثم انه تعالى علل هذا النهي بكونه فاحشة وساء سبيلا واعلم أن الناس قد اختلفوا في أنه تعالى اذا أمر بشئ أو نهى عن شئ فهل يصح أن يقال انه تعالى انما أمر بذلك الشئ أو نهى عنه لوجه عائد اليه أم لا فقال القائلون بتحسين العقل وتقبيحه الامر كذلك وقال المنكرون لتحسين العقل وتقبيحه ليس الامر كذلك احتج القائلون بتحسين العقل وتقبيحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا انه تعالى نهى عن الزنا وعلل ذلك النهي بكونه فاحشة فيمتنع أن يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهيا عنه والا لزم تعليل الشئ بنفسه وهو محال فوجب أن يقال كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زنا وذلك يدل على أن الاشياء تحسن وتقبح لوجوه عائدة اليها في أنفسها ويدل أيضا على أن نهي الله تعالى عنها معلل بوقوعها في أنفسها على تلك الوجوه وهذا الاستدلال قريب والاولى أن يقال ان كون الشئ في نفسه مصلحة أو مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع فان تناول الغذاء الموافق مصلحة والضرب المؤلم مفسدة وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع واذا ثبت هذا فنقول تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهري وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة

ـين لامجال للتكذيب وقد جوز أن يكون قوله تعالى وجاءتهم عطفا على ظلموا فلا محل له من الاعراب عند سيبويه عند غيره محله الجر لانه معطوف على ما هو مجرور باضافة الظرف اليه ليس الظلم منحصرا في التكذيب حتى يحتاج الى الاعتذار بان الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي كما في قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له الخ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى (وما كانوا ليؤمنوا) على أبلغ وجه وآكده فان اللام لتأكيد النفي أي وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى اياهم لعلمه بان الالطاف لا تنجع فيهم والجملة على الاول عطف على ظلموا لانه اخبار باحداث التكذيب وهذا بالاصرار عليه وعلى الثاني عطف على ما عطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل وما يجري مجرى مصدره التشبيهي أعني قوله تعالى (كذلك) فان الجزاء المشار اليه عبارة عن مصدره أي مثل ذلك الجزاء الفظيع أي الاهلاك الشديد الذي هو الاستئصال بالمرة (نجزي القوم المجرمين) أي كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لاهل مكة لاشتراكهم لاولئك الهالكين في الجرائم والجرائر التي هي تكذيب

عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها اذا عرفت هذا فنقول الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد (أولها) اختلاط الانساب واشتباهها فلا يعرف الانسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده وذلك يوجب ضياع الاولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم (وثانيها) أنه اذا لم يوجد سبب شرعي لاجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص الا التواثب والتقاتل وذلك يفضي الى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب اقدام المرأة الواحدة على الزنا (وثالثها) أن المرأة اذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر مستقيم وحينئذ لا تحصل الالفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج ولذلك فان المرأة اذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق (ورابعها) أنه اذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت وحينئذ لا يبقى بين نوع الانسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب (وخامسها) أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل واعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الاولاد والعبيد وهذه المهمات لا تتم الا اذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال وذلك لا يحصل الا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية (وسادسها) أن الوطء يوجب الذل الشديد والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع ولولا أن الوطء يوجب الذل والا لما كان الامر كذلك وأيضا فان جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء الا في المواضع المستورة وفي الاوقات التي لا يطلع عليهم أحد وان جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن ولولا أن الوطء ذل والا لما كان كذلك واذا ثبت هذا فنقول لما كان الوطء ذلا كان السعي في تقليله موافقا للعقول فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل وأيضا ما فيه من الذل يصير مجبورا بالمنافع الحاصلة في النكاح أما الزنا فانه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبورا بشئ من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاث كونه فاحشة ومقتا في آية أخرى وساء سبيلا أما كونه فاحشة فهو اشارة الى اشتماله على فساد الانساب الموجب لخراب العالم والى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضا يوجب خراب العالم وأما المقت فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الانسان عليها في شئ من مهماته ومصالحه وأما أنه ساء سبيلا فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الانسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالاناث وأيضا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورا بشئ من المنافع فقد ذكرنا في قبح الزنا ستة أوجه والله تعالى ذكر ألفاظا ثلاثة فحملنا كل واحد من هذه الالفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة والله أعلم بمراده ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا﴾ هذا هو النوع الثاني مما نهى الله عنه في هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول ان أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل فما السبب في أن الله تعالى بدأ أولا بذكر النهي عن الزنا وثانيا بذكر النهي عن القتل وجوابه أنا بينا أن فتح باب الزنا يمنع من دخول الانسان في الوجود والقتل عبارة عن ابطال الانسان بعد دخوله في الوجود ودخوله في الوجود مقدم على ابطاله واعدامه بعد وجوده فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا أولا ثم ذكر القتل ثانيا (المسئلة الثانية) اعلم أن الاصل في القتل هو الحرمة الغليظة والحل انما يثبت بسبب عارضي فلما كان الامر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقا بناء على حكم الاصل ثم استثنى عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الاسباب العرضية فقال الا بالحق فنفتقر ههنا الى

الرسول والاصرار عليه وتقرير لمضمون ما سبق من قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير وقرئ بالياء على الالتفات الى الغيبة وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب ايذانا بأنهم أعلام في الاجرام ويأباه كل الاباء قوله عز وجل (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم) فانه صريح في أنه ابتداء تعرض لامورهم وأن ما بين فيه انما هو مبادي أحوالهم لاختبار كيفيات أعمالهم على وجه يشعر باستمالتهم نحو الايمان والطاعة فمحال أن يكون ذلك اثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم ببت القول باهلاكهم لكمال اجرامهم والمعنى ثم استخلفناكم في الارض من بعد اهلاك أولئك القرون التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها استخلاف من يختبر (لننظر) أي لنعامل معاملة من ينظر (كيف تعملون) فهي استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر فان ما فيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أي أي عمل أو على الحالية أي على أي حال تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله عز وعلا ليبلوكم أيكم أحسن عملا ففيه اشعار بأن المراد بالذات والمقصود الاصلي من الاستخلاف انما هو ظهور الكيفيات الحسنة للاعمال الصالحة وأما

بيان أن الاصل فى القتل التحريم والذى يدل عليه وجوه (الاول) أن القتل ضرر والاصل فى المضار الحرمة لقوله ما جعل عليكم فى الدين من حرج ولا يريد بكم العسر ولا ضرر ولا ضرار (الثانى) قوله عليه الصلاة والسلام الآدمى بنيان الرب ملعون من هدم بنيان الرب (الثالث) أن الآدمى خلق للاشتغال بالعبادة لقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولقوله عليه السلام حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ والاشتغال بالعبادة لا يتم الا عند عدم القتل (الرابع) أن القتل افساد فوجب أن يحرم لقوله تعالى ولا تفسدوا (الخامس) أنه اذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل اباحته فقد أجمعوا على أن جانب الحرمة راجح ولولا أن مقتضى الاصل هو التحريم والا لكان ذلك ترجيحا لا لمرجح وهو محال (السادس) انا اذا لم نعرف فى الانسان صفة من الصفات الا مجرد كونه انسانا عاقلا حكمنا فيه بتحريم قتله وما لم نعرف شيأ زائدا على كونه انسانا لم نحكم فيه بحل دمه ولولا أن أصل الانسانية يقتضى حرمة القتل والا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه أن الاصل فى القتل هو التحريم وان حله لا يثبت الا بأسباب عرضية واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى حكم بان الاصل فى القتل هو التحريم فقال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق فقوله ولا تقتلوا نهى وتحريم وقوله حرم الله اعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد ثم استثنى عنه الاسباب العرضية الاتفاقية فقال الا بالحق ثم ههنا طريقان (الاول) ان مجرد قوله الا بالحق مجمل لانه ليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو وكيف هو ثم انه تعالى قال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا أى فى استيفاء القصاص من القاتل وهذا الكلام يصلح جعله بيانا لذلك المجمل وتقريره كانه تعالى قال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق وذلك الحق هو أن من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فى استيفاء القصاص واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط فصار تقدير الآية ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا عند القصاص وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصا صريحا فى تحريم القتل الا بهذا السبب الواحد فوجب أن يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة (والطريق الثانى) أن نقول دلت السنة على أن ذلك الحق هو أحد أمور ثلاثة وهو قوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس بغير حق واعلم أن هذا الخبر من باب الآحاد فان قلنا ان قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا تفسير لقوله الا بالحق كانت الآية صريحة فى أنه لا يحل القتل الا بهذا السبب الواحد فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصا لهذه الآية ويصير ذلك فرعا لقولنا انه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد وأما ان قلنا أن قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ليس تفسيرا لقوله الا بالحق فحينئذ يصير هذا الخبر مفسرا للحق المذكور فى الآية وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعا على مسئلة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد فلتكن هذه الدقيقة معلومة والله أعلم (المسئلة الثالثة) ظاهر هذه الآية أنه لا سبب لحل القتل الا قتل المظلوم وظاهر الخبر يقتضى ضم شيئين آخرين اليه وهو الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ودلت آية أخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر قال تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقال واقتلوهم حيث وجدتموهم والفقهاء تكلموا واختلفوا فى أشياء أخرى فمنها أن تارك الصلاة هل يقتل أم لا فعند الشافعى رحمه الله يقتل وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يقتل (وثانيها) أن فعل اللواط هل يوجب القتل أم لا فعند الشافعى يوجب وعند أبى حنيفة لا يوجب (وثالثها) أن الساحر اذا قال قتلت بسحرى فلانا فعند الشافعى يوجب القتل وعند أبى حنيفة لا يوجب (ورابعها) أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعى يوجب وعند أبى حنيفة لا يوجب (وخامسها) أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا اختلفوا فيه فى زمان أبى بكر (وسادسها) أن اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجب حجة القائلين بانه لا يجوز القتل فى هذه الصور هو أن الآية صريحة فى منع

الاعمال السيئة فيمنزل من أن تصدر عنهم لاسيما بعد ما سمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلا عن أن ينظم ظهورها فى سلك الملة القائمة للاستخلاف وقيل منصوب على أنه مفعول به أى أى عمل تعملون أخيرا أم شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلالة على أن المعتبر فى الجزاء جهات الاعمال وكيفياتها لا ذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أى شئ (واذا تتلى عليهم) التفات من خطابهم الى الغيبة اعراضا عنهم وتوجيها للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة (آياتنا) الدالة على حقية التوحيد وبطلان الشرك والاضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الايمان به والترهيب عن تكذيبه (بينات) حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وايراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا الى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم بيناته للفاعل للاشعار بعدم الحاجة لتعيين التالى وللايذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى (قال الذين

القتل على الاطلاق الا بسبب واحد وهو قتل المظلوم ففيما عداهـذا السبب الواحد وجب البقاء على أصل الحرمة ثم قالوا وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة الموجبة لحرمة الدم على الاطلاق فترك العمل بهذه الدلائل لا يكون الا لمعارض وذلك المعارض اما أن يكون نصا متواترا أو نصا من باب الآحاد أو يكون قياسا أما النص المتواتر فمفقود والا لما بقى الخلاف وأما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة الى هذه النصوص المتواترة الكثيرة وأما القياس فلا يعارض النص فثبت بمقتضى هذا الاصل القوى القاهر أن الاصل فى الدماء الحرمة الا فى الصور المعدودة والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فيه بحثان (الاول) أن هذه الآية تدل على أنه أثبت لولى الدم سلطانا فأما بيان أن هذه السلطنة تحصل فيماذا فليس فى قوله فقد جعلنا لوليه سلطانا دلالة عليه ثم ههنا طريقان (الاول) انه تعالى لما قال بعده فلا يسرف فى القتل عرف أن تلك السلطنة انما حصلت فى استيفاء القتل وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا ينبغى أن يسرف الظالم فى ذلك القتل لان ذلك المقتول منصور بواسطة اثبات هذه السلطنة لوليه (والثانى) أن تلك السلطنة مجملة ثم صارت مفسرة بالآية والخبر أما الآية فقوله تعالى فى سورة البقرة يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الى قوله فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان وقد بينا فى تفسير هذه الآية أنها تدل على أن الواجب هو كون المكلف مخيرا بين القصاص وبين الدية وأما الخبر فهو قوله عليه السلام يوم الفتح من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين ان أحبوا اقتلوا وان أحبوا أخذوا الدية وعلى هذا الطريق فقوله فلا يسرف فى القتل معناه انه لما حصلت له سلطنة استيفاء القصاص ان شاء وسلطنة استيفاء الدية ان شاء قال بعده فلا يسرف فى القتل معناه ان الاولى أن لا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بأخذ الدية أو يميل الى العفو وبالجملة فلفظة فى محمولة على الباء والمعنى فلا يصير مسرفا بسبب اقدامه على القتل ويصير معناه الترغيب فى العفو والاكتفاء بالدية كما قال وان تعفوا أقرب للتقوى (البحث الثانى) ان فى قوله ومن قتل مظلوما ذكر كونه مظلوما بصيغة التنكير وصيغة التنكير على ما عرف تدل على الكمال فالانسان المقتول ما لم يكن كاملا فى وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص قال الشافعى رحمه الله قد دللنا على أن المسلم اذا قتل الذمى لم يدخل تحت هذه الآية بدليل أن الذمى مشرك والمشرك يحل دمه انما قلنا انه مشرك لقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء حكم بان ما سوى الشرك مغفور فى حق البعض فلو كان كفر اليهودى والنصرانى شيأ مغايرا للشرك لوجب أن يصير مغفورا فى حق بعض الناس بمقتضى هذه الآية فلما لم يصر مغفورا فى حق أحد دل على أن كفرهم شرك ولانه تعالى قال لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة فهذا التثليث الذى قال به هؤلاء اما أن يكون تثليثا فى الصفات وهو باطل لان ذلك هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة فلا يمكن جعله تثليثا للكفر واما أن يكون تثليثا فى الذوات وذلك هو الحق ولا شك أن القائل به مشرك فثبت أن الذمى مشرك وانما قلنا ان المشرك يجب قتله لقوله تعالى اقتلوا المشركين ومقتضى هذا الدليل اباحة دم الذمى فان لم تثبت الاباحة فلا أقل من حصول شبهة الاباحة واذا ثبت هذا فنقول ثبت أنه ليس كاملا فى المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وأما الحر اذا قتل عبدا فهو داخل تحت هذه الآية الا أنا بينا أن قوله كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية أخص من قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا والخاص مقدم على العام فثبت أن هذه الآية لا يجوز التمسك بها فى مسئلة أن موجب العمد هو القصاص ولا فى مسئلة انه يجب قتل المسلم بالذمى ولا فى مسئلة انه يجب قتل الحر بالعبد والله أعلم أما قوله تعالى فلا يسرف فى القتل ففيه مباحث (البحث الاول) فيه وجوه (الاول) المراد هو أن يقتل القاتل وغير القاتل وذلك لان الواحد منهم اذا قتل واحدا من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه

لا يرجون لقاءنا) وضع الموصول موضع الضمير اشعارا بعلية ما فى حيز الصلة لا عظيمة الحكمة عنهم وانهم انما اجترؤا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لانكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذما لهم بذلك أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما لم يذكر ايذانا بتعينه (ائت بقرآن غير هذا) أشاروا بهذا الى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا الى نفسها فقط قصدا الى اخراج الكل من البين أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب والجزاء وما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد على عبادتها (أو بدله) بتغيير ترتيبه بان تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وانما قالوه كيدا وطمعا فى المساعدة ليتوسلوا به الى الالزام والاستهزاء به (قل) لهم (ما يكون لى) أى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكننى أصلا (أن أبدله من تلقاء نفسى) أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفا وقرئ بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للايذان بأن استحالة ما اقترحوه أولا من الظهور بحيث لا حاجة الى بيانها وان التصدى لذلك مع كونه ضائعا ربما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء اذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولان ما يدل على

وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده (الثانى) هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل (والثالث) هو أن لا يكتفى بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع أعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة هذه المعانى مشتركة فى كونها اسرافا (البحث الثانى) قرأ الاكثرون فلا يسرف بالياء وفيه وجهان (الاول) التقدير فلا ينبغى أن يسرف الولى فى القتل (الثانى) ان الضمير للقاتل الظالم ابتداء أى فلا ينبغى أن يسرف ذلك الظالم واسرافه عبارة عن اقدامه على ذلك القتل الظلم وقرأ حمزة والكسائى فلا تسرف بالتاء على الخطاب وهذه القراءة تحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب للمبتدئ القاتل ظلما كانه قيل له لا تسرف أيها الانسان وذلك الاسراف هو اقدامه على ذلك القتل الذى هو ظلم محض والمعنى لا تفعل فانك ان قتلته مظلوما استوفى القصاص منك (والآخر) أن يكون الخطاب للولى فيكون التقدير لا تسرف فى القتل أيها الولى أى اكتف باستيفاء القصاص ولا تطلب الزيادة وأما قوله انه كان منصورا ففيه ثلاثة أوجه (الاول) كانه قيل للظالم المبتدئ بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك فان ذلك المقتول يكون منصورا فى الدنيا والآخرة أما نصرته فى الدنيا فبقتل قاتله وأما فى الآخرة فبكثرة الثواب له وكثرة العقاب لقاتله (والقول الثانى) ان هذا الولى يكون منصورا فى قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر فانه يكون منصورا فيه ولا ينبغى أن يطمع فى الزيادة منه لان من يكون منصورا من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة (والقول الثالث) ان هذا القاتل الظالم ينبغى أن يكتفى باستيفاء القصاص وان لا يطلب الزيادة واعلم ان على القول الاول والثانى ظهر ان المقتول وولى دمه يكونان منصورين من عند الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال قلت لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وايم الله ليظهرن عليكم ابن أبى سفيان لان الله تعالى يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وقال الحسن والله ما نصر معاوية على على رضى الله عنه الا بقول الله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده﴾ اعلم ان هذا هو النوع الثالث من الاشياء التى نهى الله عنها فى هذه الآيات واعلم انا ذكرنا أن الزنا يوجب اختلاط الانساب وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الاولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وذلك يوجب المنع من دخول الناس فى الوجود وأما القتل فهو عبارة عن اعدام الناس بعد دخولهم فى الوجود فثبت ان النهى عن الزنا والنهى عن القتل يرجع حاصله الى النهى عن اتلاف النفوس فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال لان أعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم فقال ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ونظيره قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف وفى تفسير قوله الا بالتى هى أحسن وجهان (الاول) الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره (الثانى) المراد هو أن تأكل معه اذا احتجت اليه وروى مجاهد عن ابن عباس قال اذا احتاج أكل بالمعروف فاذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه واعلم ان الولى انما تبقى ولايته على اليتيم الى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح كما بينه الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم والمراد بالاشد بلوغه الى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ فأما اذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه والله أعلم وبلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ اعلم أنه تعالى أمر بخمسة أشياء أولا ثم أتبعه بالنهى عن ثلاثة أشياء وهو النهى عن الزنا وعن القتل الا بالحق وعن قربان مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ثم أتبعه بهذه الاوامر الثلاثة (فالاول) قوله وأوفوا بالعهد واعلم ان كل عقد تقدم لاجل توثيق

استحالة الثانى يدل على استحالة الاول بالطريق الاولى (ان أتبع) أى ما أتبع فى شئ مما آتى وأذر (الا ما يوحى الى) من غير تغيير له فى شئ أصلا على معنى قصر حاله عليه السلام على اتباع ما يوحى اليه لا قصر اتباعه على ما يوحى اليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل الا اتباع ما يوحى الى وقد مر تحقيق المقام فى سورة الانعام وهو تعليل لصدر الكلام فان من شأنه اتباع الوحى على ما هو عليه لا يستبد بشئ دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآن كلامه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيد التبديل فى الجواب بقوله من تلقاء نفسى وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم بقوله تعالى (انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فانه تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى أى أخاف ان عصيته تعالى بتعاطى ما ليس لى من التبديل من تلقاء نفسى والاعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذى لا يرجونه وفيه اشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره

عليه السلام التهويل أمر العصيان واظهار كمال نزاهته عليه السلام عنه وايراد اليوم بالتنوين التفخيمي ووصفه بالعظام لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والاتيان بقرآن آخر من جهة الوحي بتفسير قوله تعالى ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي بأنه لا يتسهل لي أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحي ما أتبع الا ما يوحى الي من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلي لانه يرده التعليل المذكور لالان المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فان استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لاسيما بموجب اقتراح الكفرة مما لاريب في كونه معصية بل لانه ليس فيه معصية الافتراء مع أنها المقصودة بالذكر في التعليل ألاترى الى ما بعده من الآيتين الكريمتين فانه صريح في أن مقترحهم الاتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الافتراء وأن زعمهم في الاصل أيضا كذلك وقوله عز وجل (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) تحقيق لحقية القرآن وكونه من عند الله تعالى اثر بيان بطلان ما اقترحوا

الامر وتوكيده فهو عهد فقوله وأوفوا بالعهد نظير لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود فدخل في قوله أوفوا بالعقود كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة وعقد اليمين والنذر وعقد الصلح وعقد النكاح وحاصل القول فيه أن مقتضى هذه الآية ان كل عقد وعهد جرى بين انسانين فانه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد الا اذا دل دليل منفصل على انه لا يجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها ويؤكده هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون وقوله وأحل الله البيع وقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم وقوله وأشهدوا اذا تبايعتم وقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيبة من نفسه وقوله اذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يدا بيد وقوله من اشترى شيأ لم يره فهو بالخيار اذا رآه فجميع هذه الآيات والاخبار دالة على ان الاصل في البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام اذا ثبت هذا فنقول ان وجدنا نصا أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديما للخاص على العام والا قضينا بالصحة في الكل وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها واطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس في العمل لانه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان وتصير الشريعة مضبوطة معلومة ثم قال تعالى ان العهد كان مسؤلا وفيه وجوه (أحدها) أن يراد صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله واسأل القرية (وثانيها) ان العهد كان مسؤلا أي مطلوبا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به (وثالثها) أن يكون هذا تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأي ذنب قتلت وكقوله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره ﴿النوع الثاني﴾ من الاوامر المذكورة في هذه الآية قوله وأوفوا الكيل اذا كلتم والمقصود منه اتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد في نقصانه في قوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿النوع الثالث﴾ من الاوامر المذكورة في هذه الآية قوله وزنوا بالقسطاس المستقيم فالآية المتقدمة في اتمام الكيل وهذه الآية في اتمام الوزن ونظيره قوله تعالى وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان وقوله ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز منه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء وقد يكون الانسان غافلا لا يهتدي الى حفظ ماله فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعيا في ابقاء الاموال على الملاك ومنعا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير والقسطاس في معنى الميزان الا أنه في العرف أكبر منه ولهذا اشتهر في السنة العامة انه القبان وقيل انه بلسان الروم أو السرياني والاصح انه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لا يميل الى أحد الجانبين وأجمعوا على جواز اللغتين فيه ضم القاف وكسرها فالكسر قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والباقون بالضم ثم قال تعالى ذلك خير أي الايفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة وأحسن تأويلا والتأويل ما يؤل اليه الامر كما قال في موضع آخر خير مردا خير عقبى خير أملا وانما حكم الله تعالى بأن عاقبة هذا الامر أحسن العواقب لانه في الدنيا اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء في الزمان القليل وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهر واعند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم في المدة القليلة وأما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب

 الاتيان به واستحالته عقلا ودلالة وانما صدر بالامر المستقل مع كونه داخلا تحت الامر السابق اظهارا

الاليم ﴿ قوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ﴾ في الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ اعلم انه تعالى لما شرح الاوامر الثلاثة عاد بعده الى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء (أولها) قوله ولا تقف ما ليس لك به علم قوله تقف مأخوذ من قولهم قفوت أثر فلان أقفو قفوا وقفوا اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لانها تقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار اقدام الناس ويستدلون بها على أحوال الانسان وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمى القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان كأنه شئ يتبعه ويقفوه فقوله ولا تقف أي ولا تتبع ولا تقتف ما لا علم لك به من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بما لا يكون معلوما وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الانواع وفيه وجوه (الاول) المراد نهى المشركين عن المذاهب التى كانوا يعتقدونها في الالهيات والنبوات بسبب تقليد اسلافهم لانه تعالى نسبهم في تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقال في انكارهم البعث بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون وحكى عنهم انهم قالوا ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وقال ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وقال ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام الآية وقال هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن (والقول الثانى) نقل عن محمد بن الحنفية ان المراد منه شهادة الزور وقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك (والقول الثالث) المراد منه النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالاكاذيب وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه (والقول الرابع) المراد منه النهى عن الكذب قال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم (والقول الخامس) ان القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه قول يقال خلفه وهو في معنى الغيبة وهو ذكر الرجل في غيبته بما يسوءه وفي بعض الاخبار من قفا مسلما بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال واعلم ان اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد والله أعلم ﴿ المسئلة الثانية ﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا القياس لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم فالحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم أجيب عنه من وجوه (الاول) ان الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة في صور كثيرة (أحدها) ان العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز (وثانيها) العمل بالشهادة عمل بالظن وانه جائز (وثالثها) الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد الا الظن وانه جائز (ورابعها) قيم المتلفات وأروش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن وانه جائز (وخامسها) الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وانه جائز (وسادسها) كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم وبناء الحكم عليه جائز (وسابعها) قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من اهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم (وثامنها) الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ثم نبنى على هذا الظن أحكاما كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين وغيرهما (وتاسعها) جميع الاعمال المعتبرة في الدنيا من الاسفار وطلب الارباح والمعاملات الى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون جائز (وعاشرها) قال عليه الصلاة والسلام نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر في هذه الانواع العشرة فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن (والجواب الثانى) ان الظن قد يسمى بالعلم والدليل عليه قوله تعالى اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ومن المعلوم انه انما يمكن العلم بايمانهن بناء على اقرارهن وذلك لا يفيد الا الظن فههنا الله تعالى سمى الظن علما (والجواب الثالث) ان الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس وكان ذلك الدليل دليلا على انه متى حصل ظن ان حكم الله في هذه الصورة يساوى حكمه في محل النص فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك

اكمال الاعتناء بشأنه وايذانا باستقلاله ◦ فهو ما وأسلو با فانه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما سيأتي وما سبق مجرد اخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبئ عنه الجزاء لا غير ذلك كما قيل فان مفعول المشيئة انما يحذف اذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن في تعلقها به غرابة كما في قوله

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته

حيث لم يحذف لفقدان الشرط الاخير ولان المستلزم للجزاء أعني عدم تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم انما هو مشيئته تعالى له لا مشيئته لغير القرآن والمعنى ان الامر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لى منه شئ قط ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم لا بأن شاء عدم تلاوتي له من تلقاء نفسي بل بأن لم ينزله على ولم يأمرني بتلاوته كما ينبئ عنه ايثار التلاوة على القراءة ما تلوته عليكم (ولا أدراكم به) أى ولا أعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والادراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئة عدم التلاوة ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئة التلاوة قطعا فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما وانتفاء عدم مشيئة التلاوة انما يكون بتحقق مشيئة التلاوة فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره وانما قيدنا الادراء بكونه بواسطته

ذلك الظن فههنا الظن وقع في طريق الحكم فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن * أجاب نفاة القياس عن السؤال الاول فقالوا قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم عام دخله التخصيص في الصور العشرة المذكورة فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة ثم نقول الفرق بين هذه الصور العشر وبين محل النزاع أن هذه الصور العشر مشتركة في ان تلك الاحكام أحكام مختصة بأشخاص معينين في أوقات معينة فان الواقعة التي يرجع فيها الانسان المعين الى المفتي المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين وكذلك القول في الشهادة وفي طلب القبلة وفي سائر الصور والتنصيص على وقائع الاشخاص المعينين في الاوقات المعينة يجري مجرى التنصيص على ما لا نهاية له وذلك متعذر فلهذه الضرورة اكتفينا بالظن أما الاحكام المثبتة بالاقيسة فهي أحكام كلية معتبرة في وقائع كلية وهي مضبوطة قليلة والتنصيص عليها ممكن ولذلك فان الفقهاء الذين استخرجوا تلك الاحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها في كتبهم اذا عرفت هذا فنقول التنصيص على الاحكام في الصور العشر التي ذكرتموها غير ممكن فلا جرم اكتفى الشارع فيها بالظن أما المسائل المثبتة بالطرق القياسية فالتنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق (وأما الجواب الثاني) وهو قولهم الظن قد يسمى علما فنقول هذا باطل فانه يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم وهذا معلوم وغير مظنون وذلك يدل على حصول المغايرة ثم الذي يدل عليه قوله تعالى قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن نفي العلم واثبات للظن وذلك يدل على حصول المغايرة وأما قوله تعالى فان علمتموهن مؤمنات فالمؤمن هو المقر وذلك الاقرار هو العلم (وأما الجواب الثالث) فهو أيضا ضعيف لان ذلك الكلام انما يتم لو ثبت ان القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لان تلك الحجة اما ان تكون عقلية او نقلية والاول باطل لان القياس الذي يفيد الظن لا يجب عقلا أن يكون حجة والدليل عليه أنه لا نزاع أن يصح من الشرع أن يقول نهيتكم عن الرجوع الى القياس ولو كان كونه حجة أمرا عقليا محضا لامتنع ذلك والثاني أيضا باطل لان الدليل النقلي في كون القياس حجة انما يكون قطعيا لو كان منقولا نقلا متواترا وكانت دلالته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل الى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف وحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يحصل في هذه المسألة دليل سمعي قاطع فثبت انه لم يوجد في اثبات كون القياس حجة دليل قاطع البتة فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لا مظنون فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وأحسن ما يمكن أن يقال في الجواب عنه ان التمسك بهذه الآية التي عولتم عليها تمسك بعام مخصوص والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد الا الظن فلو دلت هذه الآية على ان التمسك بالظن غير جائز لدلت على ان التمسك بهذه الآية غير جائز فالقول بكون هذه الآية حجة يفضي ثبوته الى نفيه فكان متناقضا فسقط الاستدلال به والله أعلم وللمجيب أن يجيب فيقول نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم ان التمسك بآيات القرآن حجة في الشريعة ويمكن أن يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر والله أعلم (المسألة الثالثة) قوله ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فيه بحثان (الاول) ان العلوم اما مستفادة من الحواس أو من العقول أما القسم الاول فاليه الاشارة بذكر السمع والبصر فان الانسان اذا سمع شيأ أو رآه فانه يرويه ويخبر عنه وأما القسم الثاني فهو العلوم المستفادة من العقل وهي قسمان البديهية والكسبية والى العلوم العقلية الاشارة بذكر الفؤاد (البحث الثاني) ظاهر الآية يدل على ان هذه الجوارح مسؤلة وفيه وجوه (الاول) ان المراد ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان فهو كقوله تعالى واسأل القرية والمراد أهلها يقال له لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ولم نظرت الى ما لا يحل لك النظر اليه ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه (والوجه الثاني) ان تقرير الآية أن أولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفي الطاعة أو في المعصية وكذلك القول في بقية الاعضاء وذلك لان هذه الحواس آلات

عليه الصلاة والسلام لان عدم الاعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط الذي هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام فلا يجوز نظمه في سلك الجزاء وفي اسناد عدم الادراء اليه تعالى المنبئ عن استناد الادراء اليه تعالى ايذان بأن لا دخل له عليه السلام في ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرئ ولا أدرأتكم ولا أدراكم بالهمزة فيهما على لغة من يقول أعطأت وأرضأت في أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤنني بالجدال وقرئ ولا أنذرتكم به وقرئ لأدراكم بلام الجواب أي لو شاء الله ما تلوته عليكم أنا ولأعلمكم به على لسان غيري على معنى انه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيري البتة أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء فخصني بهذه الكرامة (فقد لبثت فيكم عمرا) تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفا لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى اياه بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام في تلك المدة الطويلة من الامور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحي وعمرا نصب على التشبيه بظرف

النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملتها النفس فى الخيرات استوجبت الثواب وان استعملتها فى المعاصى استحقت العقاب (والوجه الثالث) انه ثبت بالقرآن انه تعالى يخلق الحياة فى الاعضاء ثم انها تشهد على الانسان والدليل عليه قوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق فى هذه الاعضاء ثم انه تعالى يوجه السؤال عليها ﴿ قوله تعالى ﴿ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثانى من الاشياء التى نهى الله عنها فى هذه الآيات وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ المرح شدة الفرح يقال مرح يمرح مرحا فهو مرح والمراد من الآية النهى على أن يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج لا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال أيضا فيها ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الاخفش ولو قرئ مرحا بالكسر كان أحسن فى القراءة قال الزجاج مرحا مصدر ومرحا اسم الفاعل وكلاهما جائز الا أن المصدر أحسن ههنا وأوكد تقول جاء زيد ركضا وراكضا فركضا أوكد لانه يدل على توكيد الفعل ثم انه تعالى أكد النهى عن الخيلاء والتكبر فقال انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا والمراد من الخرق ههنا نقب الارض ثم ذكروا فيه وجوها (الاول) أن المشى انما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل انك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الارض ونقبها وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل الى رؤس الجبال والمراد التنبيه على كونه ضعيفا عاجزا فلا يليق به التكبر (الثانى) المراد منه ان تحتك الارض التى لا تقدر على خرقها وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول اليها فأنت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد وأنت أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى * ثم قال تعالى كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الاكثرون قرؤا سيئه بضم الهاء والهمزة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو سيئة منصوبة أما وجه قراءة الاكثرين فظاهر من وجهين (الاول) قال الحسن انه تعالى ذكر قبل هذا أشياء أمر ببعضها ونهى عن بعضها فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لا يجوز أما اذا قرأناه بالاضافة كان المعنى ان ما كان من تلك الاشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عند الله واستقام الكلام (والوجه الثانى) انا لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة لوجب أن يقال انها مكروهة وليس الامر كذلك لانه تعالى قال مكروها أما اذا قرأناه بصيغة الاضافة كان المعنى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وحينئذ يستقيم الكلام أما قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو ففيها وجوه (الاول) أن الكلام تم عند قوله ذلك خير وأحسن تأويلا ثم ابتدأ وقال ولا تقف ما ليس لك به علم ولا تمش فى الارض مرحا ثم قال كل ذلك كان سيئه والمراد هذه الاشياء الاخيرة التى نهى الله عنها (والثانى) أن المراد بقوله كل ذلك أى كل ما نهى الله عنه فيما تقدم وأما قوله مكروها فذكروا فى تصحيحه على هذه القراءة وجوها (الاول) التقدير كل ذلك كان سيئة وكان مكروها (الثانى) قال صاحب الكشاف السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه الا ترى أنك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا تفرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث (الثالث) فيه تقديم وتأخير والتقدير كل ذلك كان مكروها وسيئة عند ربك (الرابع) أنه محمول على المعنى لان السيئة هى الذنب وهو مذكر ﴿المسئلة الثانية﴾ قال القاضى دلت هذه الآية على ان هذه الاعمال مكروهة عند الله تعالى والمكروه لا يكون مرادا له فهذه الاعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول كل ما دخل فى الوجود فهو مراد لله تعالى واذا ثبت انها ليست بارادة الله تعالى وجب أن لا تكون مخلوقة

الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالى طرا وتحيطون بما لدى خبرا (من قبله) أى من قبل نزول القرآن لا أتعاطى شيأ مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع (أفلا تعقلون) أى ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم فانه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذى لا محيد عنه أن من له أدنى مسكة من العقل اذا تأمل فى أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء فى شأن من الشؤن ولا مراجعة اليهم فى فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء فى المفاوضة والحوار ولا خوض معهم فى انشاء الخطب والاشعار ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح فائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق وعلا نظمه كل منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع أصناف العلوم كاشف عن أسرار الغيب من وراء أستار الكمون ناطق بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها فى أحكامها المجملة والمفصلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه فى أنه وحى منزل من عند الله هذا هو

له

له لانها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكانت مرادة له لا يقال المراد من كونها مكروهة ان الله تعالى نهى عنها وأيضا معنى كونها مكروهة ان الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لا يمنع ان الله تعالى أراد وجودها لان الجواب عن الاول انه عدول عن الظاهر وأيضا فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهيا عنها فلو حملنا المكروه على النهي لزم التكرار والجواب عن الثاني أنه تعالى انما ذكر هذه الآية في معرض الزجر عن هذه الافعال ولا يليق بهذا الموضع أن يقال انه تعالى يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال والجواب أن المراد من المكروه المنهي عنه ولا بأس بالتكرير لاجل التأكيد والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال القاضي دلت هذه الآية على انه تعالى كما أنه موصوف بكونه مريدا فكذلك أيضا موصوف بكونه كارها وقال أصحابنا الكراهية في حقه تعالى محمولة اما على النهي أو على ارادة العدم والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما﴾ اعلم أنه تعالى جمع في هذه الآية خمسة وعشرين نوعا من التكاليف فأولها قوله ولا تجعل مع الله الها آخر وقوله وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه مشتمل على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهي عن عبادة غير الله فكان المجموع ثلاثة وقوله وبالوالدين احسانا هو الرابع ثم ذكر في شرح ذلك الاحسان خمسة أخرى وهي قوله فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما فيكون المجموع تسعة ثم قال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وهو ثلاثة فيكون المجموع اثني عشر ثم قال ولا تبذر تبذيرا فيصير ثلاثة عشر ثم قال واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا وهو الرابع عشر ثم قال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك الى آخر الآية وهو الخامس عشر ثم قال ولا تقتلوا أولادكم وهو السادس عشر ثم قال ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق وهو السابع عشر ثم قال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وهو الثامن عشر ثم قال فلا يسرف في القتل وهو التاسع عشر ثم قال وأوفوا بالعهد وهو العشرون ثم قال وأوفوا الكيل اذا كلتم وهو الحادي والعشرون ثم قال وزنوا بالقسطاس المستقيم وهو الثاني والعشرون ثم قال ولا تقف ما ليس لك به علم وهو الثالث والعشرون ثم قال ولا تمش في الارض مرحا وهو الرابع والعشرون ثم قال ولا تجعل مع الله الها آخر وهو الخامس والعشرون فهذه خمسة وعشرون نوعا من التكاليف بعضها أوامر وبعضها نواه جمعها الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله ولا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا وخاتمتها قوله ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا اذا عرفت هذا فنقول ههنا فوائد (الفائدة الاولى) قوله ذلك اشارة الى كل ما تقدم ذكره من التكاليف وسماها حكمة وانما سماها بهذا الاسم لوجوه (أحدها) ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة والعقول تدل على صحتها فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بأنه يكون داعيا الى دين الرحمن وتمام تقريره ما ذكره في سورة الشعراء في قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم (وثانيها) ان الاحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الاديان والملل ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار (وثالثها) أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لاجل العمل به فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الانسان عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان هذه الاشياء المذكورة في هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس ان هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ (والفائدة الثانية) من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالامر بالتوحيد والنهي عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون

الذي اتفقت عليه كلمة الجمهور ولكن الانسب بناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي وامتناع الاستبداد بالرأي من غير تعرض هناك ولا ههنا لكون القرآن في نفسه أمرا خارجا عن طوق البشر ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غير قادر على الاتيان بمثله ان يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرة في تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه في حق أحد كائنا من كان كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحي لا أتعرض لاحد قط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلا عما فيه كذب أو افتراء ألا تلاحظون فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد في هذا العهد البعيد مستحيل أن يفتري على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالاوامر والنواهي الموجبة لسلب الاموال وسفك الدماء ونحو ذلك وأن ما أتى به وحي مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) استفهام انكاري معناه الجحد أي لا أحد أظلم منه

ذكر التوحيد وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد تنبيها على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم انه تعالى ذكر في الآية الاولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذموما مخذولا وذكر في الآية الاخيرة ان الشرك يوجب أن يلقى صاحبه في جهنم ملوما مدحورا فاللوم والخذلان يحصل في الدنيا والقاؤه في جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا أن نذكر الفرق بين المذموم المخذول وبين الملوم المدحور فنقول أما الفرق بين المذموم وبين الملوم فهو أن كونه مذموما معناه أن يذكر له ان الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما واذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل وما الذي حملك عليه وما استفدت من هذا العمل الا الحاق الضرر بنفسك وهذا هو اللوم فثبت أن أول الامر هو أن يصير مذموما وآخره أن يصير ملوما وأما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه أي ضعفت وأما المدحور فهو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة قال تعالى ويخلد فيه مهانا فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته والاستخفاف به فثبت أن أول الامر أن يصير مخذولا وآخره أن يصير مدحورا والله أعلم بمراده وأما قوله ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا﴾ فاعلم أنه تعالى لما نبه على فساد طريقة من أثبت لله شريكا ونظيرا نبه على طريقة من أثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة وهي انهم اعتقدوا أن الولد قسمان فأشرف القسمين البنون وأخسهما البنات ثم انهم أثبتوا البنين لانفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذي لانهاية له والجلال الذي لاغاية له وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقوله ألكم الذكر وله الانثى وقوله أفأصفاكم يقال أصفاه بالشئ اذا آثره به ويقال للضياع التي يستخصها السلطان بخاصته الصوافي قال أبو عبيدة في قوله أفأصفاكم أخصكم وقال المفضل أخلصكم قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الانكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لاجواب لصاحبه الا بما فيه أعظم الفضيحة ثم قال تعالى انكم لتقولون قولا عظيما وبيان هذا التعظيم من وجهين (الاول) ان اثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركبا من الاجزاء والابعاض وذلك يقدح في كونه قديما واجب الوجود لذاته وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام (والثاني) ان بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لانفسكم وأخس القسمين لله وهذا أيضا جهل عظيم ﴿قوله تعالى ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا﴾ اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشئ من جهة الى جهة نحو تصريف الرياح وتصريف الامور هذا هو الاصل في اللغة ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين لان من حاول بيان شئ فانه يصرف كلامه من نوع الى نوع آخر ومن مثال الى مثال آخر ليكمل الايضاح ويقوى البيان فقوله ولقد صرفنا أي بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه (أحدها) ولقد صرفنا في هذا القرآن ضروبا من كل مثل (وثانيها) أن تكون لفظة في زائدة كقوله وأصلح لي في ذريتي أي أصلح لي ذريتي أما قوله ليذكروا ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ الجمهور ليذكروا بفتح الذال والكاف وتشديدهما والمعنى ليتذكروا فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما وقرأ حمزة والكسائي ليذكروا ساكنة الذال مضمومة الكاف وفي سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدي والتذكر ههنا أشبه من الذكر لان المراد منه التدبر والتفكر وليس المراد منه الذكر الذي يحصل بعد النسيان ثم قال وأما قراءة حمزة والكسائي ففيها وجهان (الاول) ان الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه والمعنى وافهموا ما فيه (والثاني) أن يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن

ليذكروه

على معنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب مفيد الانكار أن يكون أحد أظلم منه من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها فانه اذا قيل من أفضل من فلان أولا أعلم منه يفهم منه حتما أنه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم وزيادة قوله تعالى كذبا مع أن الافتراء لا يكون الا كذلك للايذان بأن ما أضافوه اليه ضمنا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب في نفسه فرب افتراء يكون كذبه في الاسناد فقط كما اذا أسند ذنب زيد الى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام في التفادي عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه (أو كذب بآياته) فكفر بها وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أي واذا كان الامر كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون ذلك في شأني وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم (انه) الضمير للشأن ووقع اسما لان والخبر

ليذكروه بألسنتهم فان الذكر باللسان قد يؤدى الى تأثر القلب بمعناه (المسئلة الثانية) قال الجبائى قوله ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا يدل على انه تعالى انما أنزل هذا القرآن وانما أكثر فيه من ذكر الدلائل لانه تعالى أراد منهم فهمها والايمان بها وهذا يدل على انه تعالى يفعل أفعاله لاغراض حكمية ويدل على انه تعالى أراد الايمان من الكل سواء آمنوا أو كفروا والله أعلم ثم قال تعالى وما يزيدهم الا نفورا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الاصم شبههم بالدواب النافرة أى ما ازدادوا من الحق الا بعدا وهو كقوله فزادتهم رجسا (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى ما أراد الايمان من الكفار وقالوا انه تعالى عالم بان تصريف القرآن لا يزيدهم الا نفورا فلو أراد الايمان منهم لما أنزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونبوة عنه لان الحكيم اذا أراد تحصيل أمر من الامور وعلم أن الفعل الفلانى يصير سببا لمزيد النفرة والنبوة عنه فانه عندما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحترز عما يوجب مزيد النفرة والنبوة فلما أخبر تعالى ان هذا التصريف يزيدهم نفورا علمنا انه ما أراد الايمان منهم والله أعلم أما قوله تعالى قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسيره وجهان (الاول) أن المراد من قوله اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا هو انا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضا وحاصله يرجع الى دليل التمانع وقد شرحناه فى سورة الانبياء فى تفسير قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فلا فائدة فى الاعادة (والوجه الثانى) ان الكفار كانوا يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فقال الله لو كانت هذه الاصنام كما تقولون من انها تقربكم الى الله زلفى لطلبت لانفسها أيضا قربة الى الله تعالى وسبيلا اليه ولطلبت لانفسها المراتب العالية والدرجات الشريفة من الاحوال الرفيعة فلما لم تقدر أن تتخذ لانفسها سبيلا الى الله فكيف يعقل أن تقربكم الى الله (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير كما يقولون وعما يقولون ويسبح بالياء فى هذه الثلاثة والمعنى كما يقول المشركون من اثبات الآلهة من دونه فهو مثل قوله قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون وقرأ حمزة والكسائى كلها بالتاء وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم فى الاول بالتاء على الخطاب وفى الثانى والثالث بالياء على الحكاية وقرأ حفص عن عاصم الاولين بالياء والاخير بالتاء وقرأ أبو عمرو الاول والاخير بالتاء والاوسط بالياء ثم قال تعالى سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لما أقام الدليل القاطع على كونه منزها عن الشركاء وعلى أن القول باثبات الآلهة قول باطل أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال سبحانه وقد ذكرنا ان التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ثم قال وتعالى والمراد من هذا التعالى الارتفاع وهو العلو وظاهر أن المراد من هذا التعالى ليس هو التعالى فى المكان والجهة لان التعالى عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالى بالمكان والجهة فعلمنا أن لفظ التعالى فى حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة (المسئلة الثانية) جعل العلو مصدر التعالى فقال تعالى علوا كبيرا وكان يجب أن يقال تعالى تعاليا كبيرا الا أن نظيره قوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا فان قيل ما الفائدة فى وصف ذلك العلو بالكبير قلنا لان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت فى القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغنى والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير ثم قال تعالى تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم أن الحى المكلف يسبح لله بوجهين (الاول) بالقول كقوله باللسان سبحان الله (والثانى) بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته فاما الذى لا يكون مكلفا مثل البهائم ومن لا يكون حيا مثل الجمادات فهى انما تسبح لله تعالى بالطريق الثانى لان التسبيح بالطريق الاول لا يحصل الا مع الفهم والعلم والادراك والنطق وكل ذلك فى الجماد محال فلم يبق حصول التسبيح فى حقه الا بالطريق الثانى واعلم أنا جوزنا فى الجماد أن يكون عالما متكلما لعجزنا عن

ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن هذا أى (لا يفلح المجرمون) أى لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين فيندرج فيه المفترى والمكذب اندراجا أوليا (ويعبدون من دون الله) حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جناياتهم الاولى معطوفة على قوله تعالى واذا تتلى عليهم الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الاصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم (ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى ما ليس من شأنه الضر والنفع من الاصنام التى هى جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفى الضر لان أدنى أحكام العبادة دفع الضر الذى هو أول المنافع والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الاصنام على الضرر لم يوجد لاحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم ان

الاستدلال بكونه تعالى عالما قادرا على كونه حيا وحينئذ ينسد علينا باب العلم بكونه حيا وذلك كفر فانه يقال اذا جاز فى الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع انها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشئ عالما قادرا متكلما كونه حيا فلم يلزم من كونه تعالى عالما قادرا كونه حيا وذلك جهل وكفر لان من المعلوم بالضرورة ان من ليس بحى لم يكن عالما قادرا متكلما هذا هو القول الذى أطبق العلماء المحققون عليه ومن الناس من قال ان الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح الله تعالى واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لانه تعالى قال ولكن لا تفقهون تسبيحهم فهذا يقتضى أن تسبيح هذه الاشياء غير معلوم لنا ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح الله تعالى وان تسبيحها غير معلوم لنا فوجب أن يكون التسبيح المذكور فى هذه الآية مغاير الكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكمته والجواب عنه من وجوه (الاول) انك اذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الاجزاء التى لا تتجزأ وكل واحد من تلك الاجزاء دليل تام مستقل على وجود الاله ولكل واحد من تلك الاجزاء التى لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص الا بتخصيص مخصص قادر حكيم اذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الاله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضا دليل تام على وجود الاله تعالى ثم عدد تلك الاجزاء غير معلوم وأحوال تلك الصفات غير معلومة فلهذا المعنى قال تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم (والوجه الثانى) هو أن الكفار وان كانوا يقرون بألسنتهم باثبات اله العالم الا أنهم ما كانوا يتفكرون فى أنواع الدلائل ولهذا المعنى قال تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فكان المراد من قوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم هذا المعنى (والوجه الثالث) ان القوم وان كانوا مقرين بألسنتهم باثبات اله العالم الا انهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته ولذلك فانهم استبعدوا كونه تعالى قادرا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك وأيضا فانه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن فتسبيح السموات والارض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه بل نقول ان القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد فكان المراد من قوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم ذلك ومما يدل على أن الامر كما ذكرناه قوله انه كان حليما غفورا فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر منهم وهذا انما يكون جرما اذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ثم انهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرما ولا ذنبا واذا لم يكن ذلك جرما ولا ذنبا لم يكن قوله انه كان حليما غفورا لائقا بهذا الموضع فهذا وجه قوى فى نصرة القول الذى اخترناه واعلم أن القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها أضافوا الى كل حيوان نوعا آخر من التسبيح وقالوا انها اذا ذبحت لم تسبح مع انهم يقولون ان الجمادات تسبح الله فاذا كان كونه جمادا لا يمنع من كونه مسبحا فكيف صار ذبح الحيوان مانعا له من التسبيح وقالوا أيضا ان غصن الشجرة اذا كسر لم يسبح واذا كان كونه جمادا لم يمنع من كونه مسبحا فكسره كيف يمنع من ذلك فعلم أن هذه الكلمات ضعيفة والله أعلم (المسألة الثانية) قوله تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن تصريح باضافة التسبيح الى السموات والارض والى المكلفين الحاصلين فيهن وقد دللنا على أن التسبيح المضاف الى الجمادات ليس الا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى واطلاق لفظ

(ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله) عن النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات قيل انهم كانوا يعتقدون ان المتولى لكل اقليم روح معين من أرواح الافلاك فعينوا لذلك الروح صنما معينا من الاصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عند الاله الاعظم مشتغلا بعبوديته وقيل انهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها قصدا الى عبادة الكواكب وقيل انهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الاصنام ثم تقربوا اليها وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يشفعون لهم عند الله تعالى (قل) تبكيتا لهم (أتنبئون الله بما لا يعلم) أى أتخبرونه بما لا وجود له أصلا وهو كون الاصنام شفعاءهم عند الله تعالى اذ لولاه لعلمه علام الغيوب وفيه تقريع لهم وتهكم بهم وبما يدعونه من المحال الذى لا يكاد يدخل تحت الصحة والامكان وقرئ أتنبئون بالتخفيف وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) حال من العائد المحذوف فى يعلم مؤكدة

التسبيح على هذا المعنى مجاز وأما التسبيح الصادر عن المكلفين وهو قولهم سبحان الله فهذا حقيقة فيلزم أن يكون قوله تسبح لفظا واحدا قد استعمل في الحقيقة والمجاز معا وانه باطل على ماثبت دليله في أصول الفقه فالاولى ان يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازي في حق الجمادات لا في حق العقلاء لئلا يلزم ذلك المحذور والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم في الآية المتقدمة في المسائل الالهية تكلم في هذه الآية فيما يتعلق بتقرير النبوة وفي الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ في قوله واذا قرأت القرآن قولان ﴿ الاول ﴾ ان هذه الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن على الناس روى انه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار وعن أسماء أنه صلى الله عليه وسلم كان جالسا ومعه أبو بكر اذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول * مذمما أتينا * ودينه قلينا * وأمره عصينا * فقال أبو بكر يا رسول الله معها فهر أخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت فما رأت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت ان قريشا قد علمت أني ابنة سيدها وان صاحبك هجاني فقال أبو بكر لا ورب هذا البيت ما هجاك وروى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون الى حديثه فقال النضر يوما ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحرك بشئ وقال أبو سفيان اني لا أرى بعض ما يقوله حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب ابن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهي قوله في سورة الكهف انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وفي النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفي حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وهو المراد من قوله تعالى جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا (وفيه سؤال) وهو أنه كان يجب أن يقال حجابا ساترا (والجواب عنه) من وجوه (الاول) ان ذلك الحجاب حجاب يخلقه الله تعالى في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وذلك الحجاب شئ لا يراه أحد فكان مستورا من هذا الوجه احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في أنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة ويكون المرئي حاضرا مع انه لا يراه ذلك الانسان لاجل ان الله تعالى خلق في عينيه مانعا يمنعه عن رؤيته بهذه الآية قالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان حاضرا وكانت حواس الكفار سليمة ثم انهم ما كانوا يرونه وأخبر الله تعالى ان ذلك انما كان لاجل انه جعل بينه وبينهم حجابا مستورا والحجاب المستور لا معنى له الا المعنى الذي خلقه الله تعالى في عيونهم وكان ذلك المعنى مانعا لهم من أن يروه ويبصروه (والوجه الثاني) في الجواب أنه كما يجوز أن يقال لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر فكذلك لا يبعد أن يقال مستورا معناه ذو ستر والدليل عليه قولهم مرطوب أي ذو رطوبة ولا يقال رطبته ويقال مكان مهول أي فيه هول ولا يقال هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول ويقال جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها (والوجه الثالث) في الجواب قال الاخفش المستور ههنا بمعنى الساتر فان الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال انك لمشؤم علينا وميمون وانما هو شائم ويامن لانه من قولهم شأمهم ويمنهم هذا قول الاخفش وتابعه عليه قوم الا ان كثيرا منهم طعن في هذا القول والحق هو الجواب الاول ﴿ والقول الثاني ﴾ ان معنى الحجاب الطبع الذي على قلوبهم والطبع المنع الذي منعهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذي خلقه الله في قلوبهم ثم قال تعالى

تنفي لان مالا يوجد فيه ... فهو منتف عادة (سبحانه وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى وقرئ تشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الاول هو اعتراض تذييلي من جهته سبحانه وتعالى (وما كان الناس الا أمة واحدة) بيان لان التوحيد والاسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعا وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافا للجمهور وشقا لعصا الجماعة وأما حمل اتحادهم على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والاصرار فمما لا احتمال له أي وما كان الناس كافة من أول الامر الا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام الى أن قتل قابيل هابيل وقيل الى زمن ادريس عليه السلام وقيل الى زمن نوح عليه السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا الى أن ظهر فيما بينهم الكفر وقيل من لدن ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى أن أظهر عمرو بن لحي عبادة الاصنام فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الانسب بايراد الآية الكريمة اثر حكاية ما حكي عنهم من الجنايات

وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وهذه الآية مذكورة بعينها في سورة الانعام وذكرنا استدلال أصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس باعادة بعضها قال الاصحاب دلت هذه الآية على انه تعالى جعل قلوبهم في الاكنة والاكنة جمع كنان وهو ما ستر الشئ مثل كنان النبل وقوله أن يفقهوه أي لئلا يفقهوه وجعل في آذانهم وقرا ومعلوم انهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين فعلمنا ان المراد منه منعهم عن الايمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه قالت المعتزلة ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه أخرى (الاول) قال الجبائي كانوا يطلبون موضعه في الليالي لينتهوا اليه ويؤذوه ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فامنه الله تعالى من شرهم وذكر له أنه جعل بينه وبينهم حجابا لا يمكنهم الوصول اليه معه وبين أنه جعل في قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته ويجوز أن يكون ذلك مرضا شاغلا يمنعهم عن المصير اليه والتفرغ له لانه حصل هناك كن للقلب ووقر في الاذن (الثاني) قال الكعبي ان القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد صلى الله عليه وسلم صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر وانما نسب الله تعالى ذلك الحجاب الى نفسه لانه لما خلاهم مع أنفسهم وما منعهم عن ذلك الاعراض صارت تلك التخلية كأنها هي السبب لوقوعهم في تلك الحالة وهذا مثل ان السيد اذا لم يراقب أحوال عبده فاذا ساءت سيرته فالسيد يقول أنا الذي ألقيتك في هذه الحالة بسبب اني خليتك مع رأيك وما راقبت أحوالك (الثالث) قال القفال انه تعالى لما خذلهم بمعنى أنه لم يفعل الالطاف الداعية لهم الى الايمان صح أن يقال انه فعل الحجاب الساتر واعلم أن هذه الوجوه مع كلمات أخرى ذكرناها في سورة الانعام وأجبنا عنها فلا فائدة في الاعادة ثم قال تعالى واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا اعلم أن المراد أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين لانهم اذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيأ واذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس وذكر الزجاج في قوله ولوا على أدبارهم نفورا وجهين (الاول) المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا (والثاني) أن يكون نفورا جمع نافر مثل شهود وشاهد وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد ثم قال تعالى نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك أي نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب وبه في موضع الحال كما تقول مستمعين بالهزؤ واذ يستمعون نصب بأعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون واذ هم نجوى أي وبما يتناجون به اذ هم ذوو نجوى اذ يقول الظالمون بدل من قوله واذ هم نجوى ان تتبعون الا رجلا مسحورا وفيه مباحث (الاول) قال المفسرون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل علي عليه السلام ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة الى الله تعالى يقولون بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا فان قيل انهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح أن يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا قلنا معناه انكم ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا والمسحور الذي قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء هذا هو القول الصحيح وقال بعضهم المسحور هو الذي أفسد يقال طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها وقال أبو عبيدة يريد بشرا ذا سحر أي ذا رئة قال ابن قتيبة ولا أدري ما الذي حمله على هذا التفسير المستكره مع ان السلف فسروه بالوجوه الواضحة وقال مجاهد مسحورا أي مخدوعا لان السحر حيلة وخديعة وذلك لان المشركين كانوا يقولون ان محمدا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات فلذلك قالوا انه مسحور أي مخدوع وأيضا كانوا يقولون ان الشيطان يتخيل له فيظن أنه ملك فقالوا انه

وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك (فاختلفوا) بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لأن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فان الكلام ليس في ذلك الاختلاف اذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بابقاء المحق واهلاك المبطل والفاء التعقيبية لا تنافي امتداد زمان الاتفاق اذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لا عقيب حدوث الاتفاق (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم الى يوم القيامة فانه يوم الفصل (لقضي بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) بتمييز الحق من الباطل بابقاء المحق واهلاك المبطل وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وللدلالة على الاستمرار (ويقولون) حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى ويعبدون وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) أرادوا آية من الآيات التي اقترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التمادي في المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه السلام من جنس الآيات واقترحوا غيرها مع انه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم الى الانقياد

مخدوع من قبل الشيطان ثم قال انظر كيف ضربوا لك الامثال أى كل أحد شبهك بشئ آخر فقالوا انه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلا الى الهدى والحق ﴿قوله تعالى ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا فى الالهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ذكر فى هذه الآية شبهات القوم فى انكار المعاد والبعث والقيامة وقد ذكرنا كثيرا أن مدار القرآن على المسائل الاربعة وهى الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر وأيضا ان القوم وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه مسحورا فاسد العقل فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعى ان الانسان بعد ما يصير عظاما ورفاتا فانه يعود حيا عاقلا كما كان فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل قال الواحدى رحمه الله الرفت كسر الشئ بيدك تقول رفته أرفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالى والرفات الاجزاء المتفتتة من كل شئ يكسر ويقال رفت عظام الجزور رفتا اذا كسرها ويقال للتبن الرفت لانه دقاق الزرع قال الاخفش رفت رفتا فهو مرفوت نحو حطم حطما فهو محطوم والرفات والحطام الاسم كالجذاذ والرضاض والفتات فهذا ما يتعلق باللغة ﴿أما تقرير شبهة القوم فهى ان الانسان اذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم فاختلطت تلك الاجزاء بسائر أجزاء العالم أما الاجزاء المائية فى البدن فتختلط بمياه العالم وأما الاجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم وأما الاجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم وأما الاجزاء النارية فتختلط بنار العالم واذا صار الامر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها بأعيانها مرة أخرى فهذا هو تقرير الشبهة ﴿والجواب عنها ان هذا الاشكال لا يتم الا بالقدح فى كمال علم الله وفى كمال قدرته أما اذا سلمنا كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الاجزاء وان اختلطت بأجزاء العالم الا أنها متمايزة فى علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادرا على كل الممكنات كان قادرا على اعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل الى تلك الاجزاء بأعيانها فثبت انا متى سلمنا كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية أما قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا فالمعنى ان القوم استبعدوا أن يردهم الى حال الحياة بعد ان صاروا عظاما ورفاتا وهى وان كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الاجسام بعد الموت الى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاما ورفاتا مثل أن تصير حجارة أو حديدا فان المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة وذلك ان العظام قد كان جزأ من بدن الحى أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت فان الله تعالى يعيد الحياة اليها ويجعلها حيا عاقلا كما كان والدليل على صحة ذلك ان تلك الاجسام قابلة للحياة والعقل اذ لو لم يكن هذا القبول حاصلا لما حصل العقل والحياة لها فى أول الامر واله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصى وقادر على كل الممكنات واذا ثبت أن عود الحياة الى تلك الاجزاء ممكن فى نفسه وثبت أن اله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات كان عود الحياة الى تلك الاجزاء ممكنا قطعا سواء صارت عظاما ورفاتا أو صارت شيأ أبعد من العظم فى قبول الحياة وهى أن تصير حجارة أو حديدا فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلى القاطع وقوله كونوا حجارة أو حديدا ليس المراد منه الامر بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل للرجل أتطمع فى وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى فان قيل ما المراد بقوله أو خلقا مما يكبر فى صدوركم قلنا المراد أن كون الحجر والحديد قابلا للحياة أمر مستبعد فقيل لهم فافرضوا شيأ آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلا للحياة وعلى هذا الوجه فلا حاجة الى أن

والقبول لو كانوا من أرباب العقول (فقل) لهم فى الجواب (انما الغيب لله) اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فان الغيب والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم ايمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا وقوف لى عليه (فانتظروا) نزوله (انى معكم من المنتظرين) أى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف عن انزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الامر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى (واذا أذقنا الناس رحمة) صحة وسعة (من بعد ضراء مستهم) أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم واسناد المساس الى الضراء بعد اسناد الاذاقة الى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون فى آياته تعالى ويعادون رسوله عليه الصلاة والسلام ويكيدونه وذلك قوله تعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) أى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها واذا الاولى شرطية والثانية جوابها كأنه قيل فاجؤا وقوع المكر منهم وتنكير مكر

يتعين ذلك الشئ لان المراد أن أبدان الناس وان انتهت بعد موتها الى أى صفة فرضت وأى حالة قدرت وان كانت فى غاية البعد عن قبول الحياة فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها واذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلا حاجة الى تعيين ذلك الشئ وقال ابن عباس المراد منه الموت يعنى لو صارت أبدانكم نفس الموت فان الله تعالى يعيد الحياة اليها واعلم أن هذا الكلام انما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل أن يقال لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فان الله يفقرك فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة أما فى نفس الامر فهذا محال لان أبدان الناس أجسام والموت عرض والجسم لا ينقلب عرضا ثم بتقدير أن ينقلب عرضا فالموت لا يقبل الحياة لان أحد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر وقال مجاهد يعنى السماء والارض ثم قال فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة والمعنى انه لما قال لهم كونوا حجارة أو حديدا أو شيأ أبعد فى قبول الحياة من هذين الشيئين فان اعادة الحياة اليه ممكنة فعند ذلك قالوا من هذا الذى يقدر على اعادة الحياة اليه قال تعالى قل يا محمد الذى فطركم أول مرة يعنى أن القول بصحة الاعادة فرع على تسليم ان خالق الحيوانات هو الله تعالى واذا ثبت ذلك فنقول ان تلك الاجسام قابلة للحياة والعقل واله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرا على الاعادة وهذا كلام تام و برهان قوى ثم قال تعالى فسينغضون اليك رؤسهم قال الفراء يقال أنغض فلان رأسه ينغضه انغاضا اذا حركه الى فوق والى أسفل وسمى الظليم نغضا لانه يحرك رأسه وقال أبو الهيثم يقال للرجل اذا أخبر بشئ فحرك رأسه انكارا له قد أنغض رأسه فقوله فسينغضون اليك رؤسهم يعنى يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد ثم قال تعالى و يقولون متى هو واعلم أن هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التى حكيناها ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا فى نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الاول فانه لما ثبت بالدليل العقلى كونه ممكن الوجود فى نفسه وجب الاعتراف بامكانه فاما انه متى يوجد فذاك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدلائل السمعية فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى معرفته واعلم أنه تعالى بين فى القرآن أنه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين فقال ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربى وقال ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلا جرم قال تعالى قل عسى أن يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله واجب معناه أنه قريب فان قالوا كيف يكون قريبا وقد انقرض سبعمائة سنة ولم يظهر قلنا اذا كان ما مضى أكثر مما بقى كان الباقى قريبا قليلا ثم قال تعالى يوم يدعوكم وفيه قولان (الاول) أنه خطاب مع الكفار بدليل أن ما قبل هذه الآية كله خطاب مع الكفار ثم نقول انتصب يوما على البدل من قوله قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أى بالنداء الذى يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال يوم ينادى المناد من مكان قريب يقال ان اسرافيل ينادى أيتها الاجساد البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى كما كنت بقدرة الله تعالى و باذنه وتكوينه وقال تعالى يوم يدع الداع الى شئ نكر وقوله فتستجيبون بحمده أى تجيبون والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا اليه وهى الاجابة الا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى أوكد من الاجابة وقوله بحمده قال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم و ينفضون التراب عن رؤسهم و يقولون سبحانك وبحمدك فهو قوله فتستجيبون بحمده وقال قتادة بمعرفته وطاعته وتوجيه هذا القول انهم لما أجابوا بالتسبيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكنهم لا ينفعهم ذلك فى ذلك اليوم فلهذا قال المفسرون حمدوا حين لا ينفعهم الحمد وقال أهل المعانى تستجيبون بحمده أى تستجيبون حامدين كما يقال جاء بغضبه أى جاء غضبان وركب الامير بسيفه أى وسيفه معه وقال صاحب الكشاف بحمده حال منهم أى حامدين وهذا مبالغة فى انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بعمل يشق عليه ستأتى به وأنت حامد شاكر أى ستنتهى الى حالة تحمد الله وتشكره على ان اكتفى منك بذلك العمل وهذا يذكر فى معرض التهديد ثم قال وتظنون ان لبثتم الا قليلا قال ابن عباس يريد به النفختين الاولى والثانية فانه يزال عنهم

للتفخيم وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام (قل الله أسرع مكرا) أى أعجل عقوبة أى عذابه أسرع وصولا اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجودا أو ذكرا (ان رسلنا) الذين يحفظون أعمالكم والاضافة للتشريف (يكتبون ما تمكرون) أى مكركم أو ما تمكرونه وهو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا فى اخفائه غير خاف على الحفظة فضلا عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى والجملة تعليل من جهته تعالى لاسرعية مكره سبحانه غير داخل فى الكلام الملقن كقوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا فان كتابة الرسل لما تمكرون من مبادى بطلان مكرهم وتخلف أثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم للتشديد فى التوبيخ وقرئ على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليلا لما ذكر أولا للامر (هو الذى يسيركم) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على ما مر آنفا من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم من السراء والضراء أى يمكنكم من السير تمكينا مستمرا عند الملابسة به وقبلها (فى البر) مشاة وركبانا وقرئ ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل

العذاب فى ذلك الوقت والدليل عليه قوله فى سورة يس من بعثنا من مرقدنا فظنهم بأن هذا اللبث قليل عائدا الى لبثهم فيما بين النفختين وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم فى عرصة القيامة لانه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول فى النار استقصروا مدة لبثهم فى برزخ القيامة (القول الثانى) ان الكلام مع الكفار تم عند قوله عسى أن يكون قريبا وأما قوله يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده فهو خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لان هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لانهم يستجيبون لله بحمده ويحمدونه على احسانه اليهم والقول الاول هو المشهور والثانى ظاهر الاحتمال ﴿قوله تعالى ﴿وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا وربك أعلم بمن فى السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا﴾ اعلم ان قوله قل لعبادى فيه قولان (الاول) ان المراد به المؤمنون وذلك لان لفظ العباد فى أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول وقال فادخلى فى عبادى وقال عينا يشرب بها عباد الله اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية فى ابطال الشرك وهو قوله لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا وذكر الحجة اليقينية فى صحة المعاد وهو قوله قل الذى فطركم أول مرة قال فى هذه الآية وقل يا محمد لعبادى اذا أردتم ايراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الاحسن وهو أن لا يكون ذكر الحجة مخلوطا بالشتم والسب ونظير هذه الآية قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقوله ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وذلك لان ذكر الحجة لو اختلط به شئ من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود اما اذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الاحسن الخالى عن الشتم والايذاء أثر فى القلب تأثيرا شديدا فهذا هو المراد من قوله وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ثم انه تعالى نبه على وجه المنفعة فى هذا الطريق فقال ان الشيطان ينزغ بينهم جامعا للفريقين أى متى صارت الحجة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سببا لثوران الفتنة ثم قال ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا والمعنى ان العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الانسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وقال كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برئ منك انى أخاف الله رب العالمين وقال واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم الى قوله انى برئ منكم ثم قال تعالى ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم واعلم انا انما نتكلم الآن على تقدير أن قوله تعالى قل لعبادى المراد به المؤمنون وعلى هذا التقدير فقوله ربكم أعلم بكم خطاب مع المؤمنين والمعنى ان يشأ يرحمكم والمراد بتلك الرحمة الانجاء من كفار مكة وأذاهم أو ان يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ثم قال وما أرسلناك يا محمد عليهم وكيلا أى حافظا وكفيلا فاشتغل أنت بالدعوة ولا شئ عليك من كفرهم فان شاء الله هدايتهم هداهم والا فلا (القول الثانى) ان المراد من قوله وقل لعبادى الكفار وذلك لان المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد فى مثل هذا الموضع ان يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك سببا لجذب قلوبهم وميل طباعهم الى قبول الدين الحق فكأنه تعالى قال يا محمد قل لعبادى الذين أقروا بكونهم عبادا لى يقولوا التى هى أحسن وذلك لانا نقبل النظر فى الدلائل والبينات نعلم بالضرورة ان وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والاضداد أحسن من اثبات الشركاء والاضداد ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد الموت أحسن من وصفه بالعجز عن ذلك وعرفهم أنه لا ينبغى لهم أن يصروا على تلك المذاهب الباطلة تعصبا للاسلاف لان الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان والشيطان عدو فلا ينبغى أن يلتفت الى قوله ثم قال لهم ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم بأن يوفقكم للايمان

ثم تنتشرون (والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك) أى السفن فانه جمع ذلك على زنة أسد جمع أسد لا على وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبئ عنه ايثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث (وجرين) أى السفن (بهم) بالذين فيها والالتفات الى الغيبة للايذان بما لهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوى أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعى منه الانكار والتقبيح وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك اذا كان بعضكم فيها اذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون فى البر فالضمير الغائب عائد الى ذلك المضاف المقدر كما فى قوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه أى أو كذى ظلمات يغشاه موج (بريح طيبة) لينة الهبوب موافقة لمقصدهم (وفرحوا بها) بتلك الريح الطيبة وموافقتها (جاءتها) جواب اذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فان الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئا لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الاولى وقيل للفلك والاول أظهر لاستلزامه للثانى من غير عكس لان الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئا بالنسبة الى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم

والهداية والمعرفة وان يشأ يعذبكم على الكفر فيعذبكم الا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق ولا تصروا على الباطل والجهل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الابدية والخيرات السرمدية ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وما أرسلناك عليهم وكيلا أي لا تشدد الامر عليهم ولا تغلظ لهم في القول والمقصود من كل هذه الكلمات اظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فان ذلك هو الذي يؤثر في القلب ويفيد حصول المقصود ثم قال وربك أعلم بمن في السموات والارض والمعنى انه لما قال قبل ذلك ربكم أعلم بكم قال بعده وربك أعلم بمن في السموات والارض بمعنى أن علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الارضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن يؤتي محمدا القرآن ولم يبعد أن يفضله على جميع الخلق * فان قيل ما السبب في تخصيص داود عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بالذكر * قلنا فيه وجوه (الاول) أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعني أن داود كان ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على ان التفضيل الذي ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال (والوجه الثاني) ان السبب في تخصيصه بالذكر انه تعالى كتب في الزبور ان محمدا خاتم النبيين وان أمته خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد وأمته فان قيل هلا عرف كما في قوله ولقد كتبنا في الزبور قلنا التنكير ههنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب فكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابا (الوجه الثالث) ان السبب فيه ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وقرأ حمزة زبورا بضم الزاي وذكرنا وجه ذلك في آخر سورة النساء

❁ قوله تعالى ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا﴾ اعلم ان المقصود من هذه الآية الرد على المشركين وقد ذكرنا ان المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة ثم انهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية فقال قل ادعوا الذين زعمتم من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال في صفتهم أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة اذا ثبت هذا فنقول ان قوما عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم وقيل انها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية قال ابن عباس كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه لفظ زعم فهو كذب ثم انه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء ان الاله المعبود هو الذي يقدر على ازالة الضرر وايصال المنفعة وهذه الاشياء التي يعبدونها وهي الملائكة والجن والمسيح وعزير لا يقدرون على كشف الضر ولا على تحصيل النفع فوجب القطع بانها ليست آلهة ولقائل أن يقول هذا الدليل انما يتم اذا دللتم على ان الملائكة لا قدرة لها على كشف الضر ولا على تحصيل النفع فما الدليل على ان الامر كذلك حتى يتم دليلكم فان قلتم لانا نرى ان أولئك الكفار كانوا يتضرعون اليها فلا تحصل الاجابة قلنا معارضة لذلك قد نرى أيضا المسلمين يتضرعون الى الله تعالى فلا تحصل الاجابة والمسلمون يقولون ان القدر الحاصل من كشف الضر وتحصيل النفع انما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة وأولئك الكفار يقولون انه يحصل من الملائكة لا من الله تعالى وعلى هذا التقدير فالدليل غير تام * والجواب أن الدليل تام كامل وذلك لان الكفار كانوا مقرين بان الملائكة عباد الله وخالق

الملائكة

الامواج الموجب لجيئها من كل مكان ولان التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر

(ريح عاصف) أي ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة الى الفارق وقيل الريح قد يذكر (وجاءهم الموج) في الفلك (من كل مكان) أي من أمكنة مجيء الموج عادة ولا بعد في مجيئه من جميع الجوانب أيضا اذ لا يجب أن يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له (وظنوا أنهم أحيط بهم) أي هلكوا فان ذلك مثل في الهلاك أصله احاطة العدو بالحي أو سدت عليهم مسالك الخلاص (دعوا الله) بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئناف مبني على سؤال ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله (مخلصين له الدين) من غير أن يشركوا به شيأ من آلهتهم لا مخلصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضا فانهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين (لئن أنجيتنا) اللام موطئة للقسم على ارادة القول أي قائلين والله لئن أنجيتنا (من هذه) الورطة (لنكونن) البتة بعد ذلك أبدا (من الشاكرين) انعمك التي من جملتها هذه النعمة المسؤلة وقيل الجملة مفعول دعوا لان الدعاء

الملائكة وخالق العالم لابد وأن يكون أقدر من الملائكة وأقوى منهم وأكمل حالا منهم واذا ثبت هذا فنقول كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه بل المتفق عليه ان قدرتهم بالنسبة الى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة واذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة لان كون الله مستحقا للعبادة معلوم وكون الملائكة كذلك مجهول والاخذ بالمعلوم أولى وأما أصحابنا المتكلمون من أهل السنة والجماعة فلهم في هذا الباب طريقة أخرى وهو أنهم يقيمون الحجة العقلية على أنه لا موجد الا الله تعالى ولا مخرج لشئ من العدم الى الوجود الا الله تعالى واذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع الا الله تعالى فوجب القطع بأنه لا معبود الا الله تعالى وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لانهم لما جوزوا كون العبد موجدا لافعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة لا قدرة لها على الاحياء والاماتة وخلق الجسم واذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا والتحويل عبارة عن النقل من حال الى حال ومكان الى مكان يقال حوله فتحول ثم قال تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة وفيه قولان (الاول) قال الفراء قوله يدعون فعل الآدميين العابدين وقوله يبتغون فعل المعبودين ومعناه ان أولئك المعبودين يبتغون الى ربهم الوسيلة فانه لا نزاع أن الملائكة يرجعون الى الله في طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه واذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة والله تعالى أغنى الاغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى فان قالوا لا نسلم ان الملائكة محتاجون الى رحمة الله وخائفون من عذابه فنقول هؤلاء الملائكة اما أن يقال انها واجبة الوجود لذواتها أو يقال ممكنة الوجود لذواتها * والاول باطل لان جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون اليه * وأما الثاني فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين في ذواتها وفي كمالاتها الى الله تعالى فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة (والقول الثاني) ان قوله أولئك الذين يدعون هم الانبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الانبياء لا يعبدون الا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة الا اليه فأنتم بالاقتداء بهم أحق فلا تعبدوا غير الله تعالى واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأن قالوا الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه فثبت أن هذا غير لائق بالملائكة وانما هو لائق بالانبياء قلنا الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم أما قوله ان عذاب ربك كان محذورا فالمراد أن من حقه أن يحذر فان لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه ۞ قوله تعالى ﴿وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ اعلم أنه تعالى لما قال ان عذاب ربك كان محذورا بين أن كل قرية مع أهلها فلابد وأن يرجع حالها الى أحد أمرين اما الاهلاك واما التعذيب قال مقاتل اما الصالحة فبالموت واما الطالحة فبالعذاب وقيل المراد من قوله وان من قرية قرى الكفار ولابد وأن تكون عاقبتها أحد أمرين اما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الاهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الاموال وأخذ الجزية ثم بين تعالى ان هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال كان ذلك في الكتاب مسطورا ومعناه ظاهر ۞ قوله تعالى ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين وأتبعه بالوعيد أتبعه بذكر مسئلة النبوة وذلك لان كفار قريش اقترحوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم اظهار معجزات عظيمة قاهرة كما حكى الله عنهم أنهم قالوا فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقال

من قبيل القول والاول هو الاولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفي قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال لنشكرن (فلما أنجاهم) مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الاجابة (اذا هم يبغون في الارض) أى فاجؤا الفساد فيها وسارعوا اليه مترامين في ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العبث من قولهم بغى الجرح اذا ترامى في الفساد وزيادة في الارض للدلالة على شمول بغيهم لاقطارها وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (بغير الحق) تأكيد لما يفيده البغي أو معناه أنه بغير الحق عندهم أيضا بأن يكون ذلك ظلما ظاهرا لا يخفى قبحه على أحد كما في قوله تعالى ويقتلون النبيين بغير الحق وأما ما قيل من أنه للاحتراز عن البغي بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم واحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لابتنائه على كون البغي بمعنى افساد صورة الشئ وابطال منفعته دون ما ذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين (يا أيها الناس) توجيه للخطاب الى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد (انما بغيكم) الذي تتعاطونه وهو

آخرون المراد ما طلبوه بقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا وعن سعيد بن جبير ان القوم قالوا انك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيى الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون وفى تفسير هذا الجواب وجوه (الاول) المعنى أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال لكن انزال عذاب الاستئصال على هذه الامة غير جائز لان الله تعالى أعلم ان فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى الى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة روى ابن عباس أن أهل مكة سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الاراضى فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط أنهم ان كفروا أهلكتهم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا أريد ذلك بل تتأنى بهم فنزلت هذه الآية (الوجه الثانى) فى تفسير هذا الجواب انا لا نظهر هذه المعجزات لان آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأنتم مقلدون لهم فلو رأيتموها أنتم لم تؤمنوا بها أيضا (الوجه الثالث) ان الاوّلين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها فعلم الله منكم أيضا انكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان اظهارها عبثا والعبث لا يفعله الحكيم ثم قال تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وفيه أبحاث (الاول) المعنى ان الآية التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى (البحث الثانى) قوله تعالى مبصرة وفيه وجهان (الاول) قال الفراء مبصرة أى مضيئة قال تعالى والنهار مبصرا أى مضيئا (الثانى) مبصرة أى ذات ابصار أى فيها ابصار لمن تأملها يبصر بها رشده ويستدل بها على صدق ذلك الرسول (البحث الثالث) قوله فظلموا بها أى ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها وقال ابن قتيبة ظلموا بها أى جحدوا بأنها من الله تعالى ثم قال تعالى وما نرسل بالآيات الا تخويفا قيل لا آية الا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب اما من العذاب المعجل أو من عذاب الآخرة * فان قيل المقصود الاعظم من اظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعى فكيف حصر المقصود من اظهارها فى التخويف * قلنا المقصود أن مدعى النبوة اذا أظهر الآية فاذا سمع الخلق أنه أظهر آية فهم لا يعلمون أن تلك الآية معجزة أو مخرقة الا أنهم يجوّزون كونها معجزة وبتقدير أن تكون معجزة فلو لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقوا العقاب الشديد فهذا هو الخوف الذى يحملهم على التفكر والتأمل فى تلك المعجزات فالمراد من قوله وما نرسل بالآيات الا تخويفا هذا الذى ذكرناه والله أعلم * واعلم أن القوم لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات القاهرة وأجاب الله تعالى بان اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التى اقترحناها منك كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصره ويؤيده فقال واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وفيه قولان (الاول) المعنى أن حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم فى قبضته وقدرته ومتى كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره والمقصود كأنه تعالى يقول له ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا قال الحسن حال بينهم وبين أن يقتلوه كما قال تعالى والله يعصمك من الناس (والقول الثانى) أن المراد بالناس أهل مكة واحاطة الله بهم هو أنه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى واذ بشرناك بان الله أحاط بأهل مكة بمعنى انه يغلبهم ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم ونظيره قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقال قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى قوله أحاط بالناس لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهو واجب الوقوع فكان من هذا الاعتبار كالواقع فلا جرم قال أحاط بالناس وروى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش مع أبى بكر كان يدعو ويقول اللهم انى أسألك عهدك ووعدك لى ثم خرج وعليه الدرع

(متاع الحياة الدنيا) بيان لكون ما فيه من المنفعة العاجلة شيأ غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لا نفس البغى لانه يؤدى الى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا بخبر عن الموصول الا بعد تمام صلته وأنت خبير بانه ليس فى تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وفيه ما مر بعينه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لا يدل على البغى بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضا بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لان الاستئناف لبيان سوء عاقبة ما حكى عنهم من البغى المفسر بالافساد المفرط اللائق بحالهم فأى مناسبة بينه وبين البغى بمعنى الطلب وجعل الاول أيضا بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على أنه مفعول له أى لاجل متاع الحياة الدنيا والعامل

يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر ثم قال تعالى وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس وفى هذه الرؤيا أقوال (الاول) ان الله أرى محمدا فى المنام مصارع كفار قريش فحين ورد ماء بدر قال والله كأنى أنظر الى مصارع القوم ثم أخذ يقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقول الثانى) ان المراد رؤياه التى رآها أنه يدخل مكة وأخبر بذلك أصحابه فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم وقال عمر لابى بكر أليس قد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انا ندخل البيت ونطوف به فقال أبو بكر انه لم يخبرنا انا نفعل ذلك فى هذه السنة فسنفعل ذلك فى سنة أخرى فلما جاء العام المقبل دخلها وأنزل الله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق اعترضوا على هذين القولين فقالوا هذه السورة مكية وهاتان الواقعتان مدنيتان وهذا السؤال ضعيف لان هاتين الواقعتين مدنيتان أما رؤيتهما فى المنام فلا يبعد حصولها فى مكة (والقول الثالث) قال سعيد بن المسيب رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء والاشكال المذكور عائد فيه لان هذه الآية مكية وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة منبر ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبرا يتداوله بنو أمية (والقول الرابع) وهو الاصح وهو قول أكثر المفسرين أن المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الاسراء واختلفوا فى معنى هذه الرؤيا فقال الاكثرون لا فرق بين الرؤية والرؤيا فى اللغة يقال رأيت بعينى رؤية ورؤيا وقال الاقلون هذا يدل على أن قصة الاسراء انما حصلت فى المنام وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه فى أول هذه السورة وقوله الا فتنة للناس معناه انه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كان امتحانا ثم قال تعالى والشجرة الملعونة فى القرآن وهذا على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن الا فتنة للناس وقيل المعنى والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك واختلفوا فى هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة فى القرآن فى قوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وكانت هذه الفتنة فى ذكر هذه الشجرة من وجهين (الاول) أن أبا جهل قال زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول بأن فى النار شجرا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر (والثانى) قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون فى النار شجرا انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات فان قيل ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة قلنا فيه وجوه (الاول) المراد لعن الكفار الذين يأكلونها (الثانى) العرب تقول لكل طعام مكروه ضار انه ملعون (والثالث) ان اللعن فى أصل اللغة هو التبعيد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة فى القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة (القول الثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما الشجرة بنو أمية يعنى الحكم ابن أبى العاص قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام أن ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه على أبى بكر وعمر وقد خلا فى بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك عليه واتهم عمر فى افشاء سره ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع اليهم فنفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الواحدى هذه القصة كانت بالمدينة والسورة مكية فيبعد هذا التفسير الا أن يقال هذه الآية مدنية ولم يقل به أحد ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنه الله (والقول الثالث) ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا فان قال قائل ان القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الاتيان بالمعجزات القاهرة فاجاب أنه لا مصلحة فى اظهارها لانها لو ظهرت ولم تؤمنوا أنزل الله عليكم عذاب الاستئصال وذلك غير جائز وأى تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التى صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة التى صارت فتنة للناس قلنا التقدير كأنه قيل انهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم انك لم تظهرها صار عدم

ما ذكر من الاستقرار وفيه أن الحال بما ذكر نفس البغى لا كونه على أنفسهم ٤٢٥ وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أى يبغون لاجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالانفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير انما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه ما مر من ابتنائه على ما لا يليق بالمقام من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى انما بغيكم على أبناء جنسكم لاجل متاع الحياة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الاول وقرئ متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة للمصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى الا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ فالمراد بأنفسهم على الوجه الاول أبناء جنسهم وانما عبر عنهم بذلك هزا لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك ايثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لان كون بغيهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام ويجعل كونه متاعا مقصود الافادة على أن عنوان

واستخفه وصوته دعاؤه الى معصية الله تعالى وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب ومعنى صيغة الامر ههنا التهديد كما يقال اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك (وثالثها) واجلب عليهم بخيلك ورجلك وفي قوله وأجلب وجوه (الاول) قال الفراء انه من الجلبة وهي الصياح يرعبا قالوا الجلب كما قالوا الغلبة والغلب والشفقة والشفق وقال الليث وأبو عبيدة أجلبوا وجلبوا من الصياح (الثاني) قال الزجاج في فعل وأفعل أجلب على العدو اجلابا اذا جمع عليه الخيول (الثالث) قال ابن السكيت يقال هم يجلبون عليه بمعنى انهم يعينون عليه (والرابع) روى ثعلب عن ابن الاعرابي أجلب الرجل على الرجل اذا توعده الشر وجمع عليه الجمع فقوله وأجلب عليهم معناه على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك وعلى قول الزجاج اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك وتكون الباء في قوله بخيلك زائدة على هذا القول وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الاجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على اغوائهم بخيله ورجله وهذا أيضا يقرب من قول ابن الاعرابي واختلفوا في تفسير الخيل والرجل فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال كل راكب أو راجل في معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وجنوده ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله تعالى فعلى هذا التقدير خيله ورجله كل من شاركه في الدعاء الى المعصية (والقول الثاني) يحتمل أن يكون لابليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل (والقول الثالث) أن المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك وهذا الوجه أقرب والخيل تقع على الفرسان قال عليه الصلاة والسلام يا خيل الله اركبي وقد تقع على الافراس خاصة والمراد ههنا الاول والرجل جمع راجل كما قالوا تاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم قال أبو زيد يقال رجل ورجل بمعنى واحد ومثله حدث وحدث وندس وندس قال ابن الانباري أخبرنا ثعلب عن الفراء قال يقال رجل ورجل ورجلان بمعنى واحد (والنوع الرابع) من الاشياء التي ذكرها الله تعالى لابليس قوله وشاركهم في الاموال والاولاد نقول أما المشاركة في الاموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة وهكذا قاله القاضي وهو ضبط حسن وأما المفسرون فقد ذكروا وجوها قال قتادة المشاركة في الاموال هي أن جعلوا بحيرة وسائبة وقال عكرمة هي عبارة عن تبتيكهم آذان الانعام وقيل هي ان جعلوا من أموالهم شيأ لغير الله تعالى كما قال تعالى فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا والاصوب ما قاله القاضي وأما المشاركة في الاولاد فذكروا فيه وجوها (أحدها) أنها الدعاء الى الزنا وزيف الاصم ذلك بان قال انه لا ذم على الولد ويمكن أن يجاب عنه بان المراد وشاركهم في طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء الى الزنا (وثانيها) أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى (وثالثها) أن يرغبوا أولادهم في الاديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما (ورابعها) اقدامهم على قتل الاولاد ووأدهم (وخامسها) ترغيبهم في حفظ الاشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم في القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة والضابط أن يقال ان كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي ذلك الى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه (والنوع الخامس) من الاشياء التي ذكرها الله تعالى لابليس في هذه الآية قوله وعدهم واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق ومعلوم أن الترغيب في الشئ لا يمكن الا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر البتة في فعله ومع ذلك فانه يفيد المنافع العظيمة والتنفير عن الشئ لا يمكن الا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة اذا ثبت هذا فنقول ان الشيطان اذا دعا الى المعصية فلا بد وأن يقرر أولا أنه لا مضرة في فعله البتة وذلك انما يمكن اذا قال لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة البتة في فعل هذه المعاصي واذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده ان هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة

سوق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشان البديعة المثال المنتظمة لغرابتها في سلك الامثال في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الارض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر اصلا بعد ما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وازينت الارض بالوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به ما دخله الكاف في قوله عز وجل (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) بل ما يفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب (مما يأكل الناس والانعام) من البقول والزروع والحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) جعلت الارض في تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التي قد أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها (وازينت) أصله تزينت فأدغم وقرئ على الاصل وقرئ وأزينت كاغيلت من غير اعلال والمعنى صارت ذات زينة وازينت كابياضت (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) متمكنون من حصدها ورفع

للانسان

للانسان في هذه الدنيا الا به فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر

خذوا بنصيب من سرور ولذة ﴿ فكل وان طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة الى المعصية وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولا عنده أنه لا فائدة فيه وتقريره من وجهين (الاول) أن يقول لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب (والثانى) أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثا محضا فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الانسان أنه لا فائدة فيها واذا فرغ عن هذا المقام قال انها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار فهذه مجامع تلبيس الشيطان فقوله وعدهم يتناول كل هذه الاقسام قال المفسرون قوله وعدهم أى بأنه لا جنة ولا نار وقال آخرون وعدهم بتسويف التوبة وقال آخرون وعدهم بالامانى الباطلة مثل قوله لآدم ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقال آخرون وعدهم بشفاعة الاصنام عند الله تعالى وبالانساب الشريفة وايثار العاجل على الآجل وبالجملة فهذه الاقسام كثيرة وكلها داخلة في الضبط الذى ذكرناه وان أردت الاستقصاء في هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتب احياء علوم الدين للشيخ الغزالى رحمه الله تعالى حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس ابليس واعلم أن الله تعالى لما قال وعدهم أردفه بما يكون زاجرا عن قبول وعده فقال وما يعدهم الشيطان الا غرورا والسبب فيه أنه انما يدعو الى أحد أمور ثلاثة قضاء الشهوة وامضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة ولا يدعو البتة الى معرفة الله تعالى ولا الى خدمته وتلك الاشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة (أحدها) انها فى الحقيقة ليست لذات بل هى خلاص عن الآلام (وثانيها) أنها وان كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها (وثالثها) انها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض (ورابعها) انها لا تحصل الا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة (وخامسها) ان لذات البطن والفرج لا تتم الا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة (وسادسها) انها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت فلما كانت هذه المطالب وان كانت لذيذة بحسب الظاهر الا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخافات الجسيمة كان الترغيب فيها تغريرا ولهذا الذى قال تعالى وما يعدهم الشيطان الا غرورا واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وفيه قولان (الاول) ان المراد كل عباد الله من المكلفين وهذا قول أبى على الجبائى قال والدليل عليه انه تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله الا من اتبعك ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لابليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له الا على قدر الوسوسة وأكد ذلك بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم وأيضا فلو قدر على هذه الاعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم ثم قال وانما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الاخلاط الفاسدة ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف عليه فيحدث ذلك المرض (والقول الثانى) ان المراد بقوله ان عبادى أهل الفضل والعلم والايمان لما بينا فيما تقدم ان لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الايمان والدليل عليه أنه قال في آية أخرى انما سلطانه على الذين يتولونه ثم قال وكفى بربك وكيلا وفيه بحثان (الاول) انه تعالى لما مكن ابليس من أن يأتى بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد في قلب الانسان قال وكفى بربك وكيلا ومعناه ان الشيطان وان كان قادرا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من اضلاله واغوائه (البحث الثانى) هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وان الانسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة لانه لو كان الاقدام على الحق والاحجام عن الباطل انما يحصل للانسان من نفسه لوجب أن يقال وكفى الانسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان فلما لم يقل ذلك بل قال وكفى بربك علمنا ان الكل من الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة

غلتها (أتاها أمرنا) جواب اذا أى ضرب زرعها ما يجتاحه من الآفات والعاهات (ليلا أو نهارا فجعلناها) أى زرعها وسائر ما عليها (حصيدا) أى شبيها بما حصد من أصله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرئ بتذكير الفعل (بالامس) أى فيما قبل بزمان قريب فان الامس مثل في ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نفصل الآيات) أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها (لقوم يتفكرون) في تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم لانهم المنتفعون بها ويجوز أن يراد بالآيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى ايجادا واعداما فانها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا (والله يدعو الى دار السلام) ترغيب للناس في الحياة الاخروية الباقية اثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعو الناس جميعا الى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وانما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابلها من كونها معرضا للآفات أو الى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية بهذا الاسم

الله ولاقوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ❊ بقي في الآية سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ ان ابليس هل كان عالما بان الذي تكلم معه بقوله واستفزز من استطعت منهم هو اله العالم أولم يعلم ذلك فان علم ذلك ثم انه تعالى قال فان جهنم جزاؤكم جزاءموفورا فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعاله من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة وان لم يعلم ان هذا القائل هو اله العالم فكيف قال أرأيتك هذا الذي كرمت على ﴿والجواب﴾ لعله كان شاكا في الكل أوكان يقول في كل قسم مايخطر بباله على سبيل الظن ﴿والسؤال الثاني﴾ ما الحكمة في أنه تعالى أنظره الى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة والحكيم اذا أراد أمرا وعلم أن شيأ من الاشياء يمنع من حصوله فانه لايسعى في تحصيل ذلك المانع ﴿والجواب﴾ أما مذهبنا فظاهر في هذا الباب وأما المعتزلة فلهم قولان قال الجبائي علم الله تعالى ان الذين كفروا عند وسوسة ابليس يكفرون بتقدير أن لايوجد ابليس واذا كان كذلك لم يكن في وجوده مزيد مفسدة وقال أبو هاشم لايبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة الا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب وهذان الوجهان قد ذكرناهما في سورة الاعراف والحجر وبالغنا في الكشف عنهما والله أعلم

❊قوله تعالى ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أونرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن نعيدكم فيه تارة أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح فنغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ اعلم أنه تعالى عاد الى ذكر الدلائل على قدرته وحكمته ورحمته وقد ذكرنا ان المقصود الاعظم في هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد فاذا امتد الكلام في فصل من الفصول عاد الكلام بعده الى ذكر دلائل التوحيد والمذكور ههنا الوجوه المستنبطة من الانعامات في أحوال ركوب البحر ﴿فالنوع الاول﴾ كيفية حركة الفلك على وجه البحر وهو قوله ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر والازجاء سوق الشئ حالا بعد حال وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله ببضاعة مزجاة والمعنى ربكم الذي يسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله في طلب التجارة انه كان بكم رحيما والخطاب في قوله ربكم وفي قوله انه كان بكم عام في حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها ﴿والنوع الثاني﴾ قوله واذا مسكم الضر في البحر والمراد من الضر الخوف الشديد كخوف الغرق ضل من تدعون الا اياه والمراد ان الانسان في تلك الحالة لايتضرع الى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك وانما يتضرع الى الله تعالى فلما نجاكم من الغرق والبحر وأخرجكم الى البر أعرضتم عن الايمان والاخلاص وكان الانسان كفورا للنعم الله بسبب ان عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره ﴿والنوع الثالث﴾ قوله أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر قال الليث الخسف والخسوف هو دخول الشئ في الشئ يقال عين خاسفة وهي التي غابت حدقتها في الرأس وعين من الماء خاسفة أي غائرة الماء وخسفت الشمس أي احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب أودخلت في جحر فقوله أن نخسف بكم جانب البر أي نغيبكم في جانب البر وهو الارض وانما قال جانب البر لانه ذكر البحر في الآية الاولى فهو جانب والبر جانب فاخبر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء فهو قادر أيضا على أن يغيبهم في الارض فالغرق تغييب تحت الماء كما ان الخسف تغييب تحت التراب وتقرير الكلام انه تعالى ذكر في الآية الاولى انهم كانوا خائفين من هول البحر فلما نجاهم منه أمنوا فقال هب انكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر فانه تعالى قادر على ان يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أومن جانب الفوق أما من جانب التحت فبالخسف وأما من جانب الفوق فبامطار الحجارة عليهم وهو المراد من قوله أونرسل عليكم حاصبا فكما لايتضرعون الا الى الله تعالى عند ركوب البحر فكذلك يجب أن لايتضرعوا الا اليه في كل الاحوال ومعنى الحصب في اللغة الرمي يقال حصبت أحصب حصبا اذا رميت والحصب المرمي ومنه قوله تعالى حصب جهنم أي يلقون فيها ومعنى قوله حاصبا أي عذابا يحصبهم أي يرميهم بحجارة ويقال للريح التي تحمل

الكريم للتنبيه على ذلك أوالى دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض (ويهدي من يشاء) هدايته منهم (الى صراط مستقيم) موصل اليها وهو الاسلام والتزود بالتقوى وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على ان الامر غير الارادة وان من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده (للذين أحسنوا) أي أعمالهم أي عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (الحسنى) أي المثوبة الحسنى (وزيادة) أي ومايزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه ويزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وأكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء (ولايرهق وجوههم) أي لايغشاها (قتر) غبرة فيها سواد (ولاذلة) أي أثر هوان وكسوف بال والمعنى لايرهقهم مايرهق أهل النار أولايرهقهم مايوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير أي شئ منهما والجملة مستأنفة لبيان أمنهم من المكاره اثر بيان فوزهم بالمطالب والثاني وان اقتضي الاول الا أنه ذكر اذكارا

التراب والحصباء حاصب والسحاب الذي يرمي بالثلج والبرد يسمى حاصبا لانه يرمي بهما رميا وقال الزجاج الحاصب التراب الذي فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر وقوله ثم لا تجدوا لكم وكيلا يعني لا تجدوا ناصرا ينصركم ويصونكم من عذاب الله ثم قال أم أمنتم ان نعيدكم فيه أي في البحر تارة أخرى وقوله فنرسل عليكم قاصفا من الريح القاصف الكاسر يقال قصف الشئ يقصفه قصفا اذا كسره بشدة والقاصف من الريح التي تكسر الشجر وأراد ههنا ريحا شديدة تقصف الفلك وتغرقهم وقوله فنغرقكم بما كفرتم أي بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا قال الزجاج أي لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم بان يصرفه عنكم وتبيع بمعنى تابع * واعلم ان هذه الآية مشتملة على ألفاظ خمسة وهي قوله ان نخسف أو نرسل أو نعيدكم فنرسل فنغرقكم قرأ ابن كثير وأبو عمرو جميع هذه الخمسة بالنون والباقون بالياء فمن قرأ بالياء فلان ماقبله على الواحد الغائب وهو قوله الا اياه فلما نجاكم ومن قرأ بالنون فلان هذا النحو من الكلام قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لان المعنى واحد ألا ترى أنه قد جاء وجعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلا فانتقل من الجمع الى الافراد وكذلك ههنا يجوز أن ينتقل من الغيبة الى الخطاب والمعنى واحد والكل جائز والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناه في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ اعلم ان المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الانسان وهي الاشياء التي بها فضل الانسان على غيره وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أربعة أنواع ﴿النوع الاول﴾ قوله ولقد كرمنا بني آدم واعلم ان الانسان جوهر مركب من النفس والبدن فالنفس الانسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي وبدنه أشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي وتقرير هذه الفضيلة في النفس الانسانية هي أن النفس الانسانية قواها الاصلية ثلاث وهي الاغتذاء والنمو والتوليد والنفس الحيوانية لها قوتان الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة والحركة بالاختيار فهذه القوى الخمسة أعني الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الانسانية ثم ان النفس الانسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الاشياء كما هي وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على اسرار عالمي الخلق والامر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الارواح والاجسام كما هي وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والارواح المجردة الالهية فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل الى تلك القوى الخمسة النباتية والحيوانية واذا كان الامر كذلك ظهر أن النفس الانسانية أشرف النفوس الموجودة في هذا العالم وان أردت ان تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية فتأمل ما كتبناه في هذا الكتاب في تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض فانا ذكرنا هنالك عشرين وجها في بيان ان القوة العقلية أجل وأعلى من القوة الجسمية فلا فائدة في الاعادة وأما بيان ان البدن الانساني أشرف أجسام هذا العالم فالمفسرون انما ذكروا في تفسير قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم هذا النوع من الفضائل وذكروا أشياء (أحدها) روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ولقد كرمنا بني آدم قال كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيديه وقيل ان الرشيد أحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء في التفسير عن جدك في قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فرد الملاعق وأكل بأصابعه (وثانيها) قال الضحاك بالنطق والتمييز وتحقيق الكلام ان من عرف شيأ فاما ان يعجز عن تعريف غيره كونه عارفا بذلك الشئ أو يقدر على هذا التعريف (أما القسم الاول) فهو حال جملة الحيوانات سوى الانسان فانه اذا حصل في باطنها ألم أو لذة فانها تعجز عن تعريف غيرها تلك الاحوال تعريفا تاما وافيا (وأما القسم الثاني) فهو الانسان فانه يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه ووقف عليه وأحاط به فكونه قادرا على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقا وبهذا البيان ظهر ان الانسان الاخرس داخل في هذا الوصف لانه وان عجز عن تعريف غيره ما في قلبه بطريق اللسان فانه يمكنه ذلك بطريق الاشارة وبطريق الكتابة وغيرهما ولا يدخل

عما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن ولان في الفاعل ضرب تفصيل كما في قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقوله عز وجل وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم أي أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) بلا زوال دائمون بلا انتقال (والذين كسبوا السيآت) أي الشرك والمعاصي وهو مبتدأ بتقدير المضاف خبره قوله تعالى (جزاء سيئة بمثلها) أي جزاء الذين كسبوا السيآت أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة وتغيير السبك حيث لم يقل وللذين كسبوا السيآت السوأى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنافي والتباين وايراد الكسب للايذان بأن ذلك انما هو لسوء صنيعهم وبسبب جناياتهم على أنفسهم أو الموصول معطوف على الموصول الاول كأنه قيل وللذين كسبوا

واستخفه وصوته دعاؤه الى معصية الله تعالى وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب ومعنى صيغة الامر ههنا التهديد كما يقال اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك (وثالثها) وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وفي قوله وأجلب وجوه (الاول) قال الفراء انه من الجلبة وهي الصياح ربما قالوا الجلب كما قالوا الغلبة والغلب والشفقة والشفق وقال الليث وأبو عبيدة أجلبوا وجلبوا من الصياح (الثاني) قال الزجاج في فعل وأفعل أجلب على العدو اجلابا اذا جمع عليه الخيول (الثالث) قال ابن السكيت يقال هم يجلبون عليه بمعنى انهم يعينون عليه (والرابع) روى ثعلب عن ابن الاعرابي أجلب الرجل على الرجل اذا توعده الشر وجمع عليه الجمع فقوله وأجلب عليهم معناه على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك وعلى قول الزجاج اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك وتكون الباء في قوله بخيلك زائدة على هذا القول وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الاجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على اغوائهم بخيله ورجله وهذا أيضا يقرب من قول ابن الاعرابي واختلفوا في تفسير الخيل والرجل فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال كل راكب أو راجل في معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وجنوده ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله تعالى فعلى هذا التقدير خيله ورجله كل من شاركه في الدعاء الى المعصية (والقول الثاني) يحتمل أن يكون لابليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل (والقول الثالث) أن المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك وهذا الوجه أقرب والخيل تقع على الفرسان قال عليه الصلاة والسلام يا خيل الله اركبي وقد تقع على الافراس خاصة والمراد ههنا الاول والرجل جمع راجل كما قالوا تاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم قال أبو زيد يقال رجل ورجل بمعنى واحد ومثله حدث وحدث وندس وندس قال ابن الانباري أخبرنا ثعلب عن الفراء قال يقال رجل ورجل ورجلان بمعنى واحد (والنوع الرابع) من الاشياء التي ذكرها الله تعالى لابليس قوله وشاركهم في الاموال والاولاد نقول أما المشاركة في الاموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة وهكذا قاله القاضي وهو ضبط حسن وأما المفسرون فقد ذكروا وجوها قال قتادة المشاركة في الاموال هي أن جعلوا بحيرة وسائبة وقال عكرمة هي عبارة عن تبتيكهم آذان الانعام وقيل هي ان جعلوا من أموالهم شيأ لغير الله تعالى كما قال تعالى فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا والاصوب ما قاله القاضي وأما المشاركة في الاولاد فذكروا فيه وجوها (أحدها) أنها الدعاء الى الزنا وزيف الاصم ذلك بان قال انه لا ذم على الولد ويمكن أن يجاب عنه بان المراد وشاركهم في طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء الى الزنا (وثانيها) أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى (وثالثها) أن يرغبوا أولادهم في الاديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما (ورابعها) اقدامهم على قتل الاولاد ووأدهم (وخامسها) ترغيبهم في حفظ الاشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم في القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة والضابط أن يقال ان كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي ذلك الى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه (والنوع الخامس) من الاشياء التي ذكرها الله تعالى لابليس في هذه الآية قوله وعدهم واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق ومعلوم أن الترغيب في الشيء لا يمكن الا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر البتة في فعله ومع ذلك فانه يفيد المنافع العظيمة والتنفير عن الشيء لا يمكن الا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة اذا ثبت هذا فنقول ان الشيطان اذا دعا الى المعصية فلا بد وأن يقرر أولا أنه لا مضرة في فعله البتة وذلك انما يمكن اذا قال لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة البتة في فعل هذه المعاصي واذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة للانسان

المثال المنتظمة لغرابتها في سلك الامثال في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الارض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر اصلا بعدما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وازينت الارض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به ما دخله الكاف في قوله عز وجل (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) بل ما يفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب (مما يأكل الناس والانعام) من البقول والزروع والحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) جعلت الارض في تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التي قد أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها (وازينت) أصله تزينت فأدغم وقرئ على الاصل وقرئ وأزينت كأغيلت من غير اعلال والمعنى صارت ذات زينة وازيانت كابياضت (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) متمكنون من حصدها ورفع

للانسان فى هذه الدنيا الا به فتفوية نها غبن وخسران كما قال الشاعر

خذوا بنصيب من سرور ولذة ❋ فكل وان طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة الى المعصية وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولا عنده أنه لا فائدة فيه وتقريره من وجهين (الاول) أن يقول لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب (والثانى) أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثا محضا فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الانسان أنه لا فائدة فيها واذا فرغ من هذا المقام قال انها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار فهذه مجامع تلبيس الشيطان فقوله وعدهم يتناول كل هذه الاقسام قال المفسرون قوله وعدهم أى بأنه لا جنة ولا نار وقال آخرون وعدهم بتسويف التوبة وقال آخرون وعدهم بالامانى الباطلة مثل قوله لآدم ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقال آخرون وعدهم بشفاعة الاصنام عند الله تعالى وبالانساب الشريفة وايثار العاجل على الآجل وبالجملة فهذه الاقسام كثيرة وكلها داخلة فى الضبط الذى ذكرناه وان أردت الاستقصاء فى هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتب احياء علوم الدين للشيخ الغزالى رحمه الله تعالى حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس ابليس واعلم أن الله تعالى لما قال وعدهم أردفه بما يكون زاجرا عن قبول وعده فقال وما يعدهم الشيطان الا غرورا والسبب فيه أنه انما يدعو الى أحد أمور ثلاثة قضاء الشهوة وامضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة ولا يدعو البتة الى معرفة الله تعالى ولا الى خدمته وتلك الاشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة (أحدها) انها فى الحقيقة ليست لذات بل هى خلاص عن الآلام (وثانيها) أنها وان كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها (وثالثها) انها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض (ورابعها) انها لا تحصل الا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة (وخامسها) ان لذات البطن والفرج لا تتم الا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة (وسادسها) انها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت فلما كانت هذه المطالب وان كانت لذيذة بحسب الظاهر الا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخافات الجسيمة كان الترغيب فيها تغريرا ولهذا المعنى قال تعالى وما يعدهم الشيطان الا غرورا واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وفيه قولان (الاول) ان المراد كل عباد الله من المكلفين وهذا قول أبى على الجبائى قال والدليل عليه انه تعالى استثنى منه فى آيات كثيرة من يتبعه بقوله الا من اتبعك ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لابليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له الا على قدر الوسوسة وأكد ذلك بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم وأيضا فلو قدر على هذه الاعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم ثم قال وانما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الاخلاط الفاسدة ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف عليه فيحدث ذلك المرض (والقول الثانى) ان المراد بقوله ان عبادى أهل الفضل والعلم والايمان لما بينا فيما تقدم ان لفظ العباد فى القرآن مخصوص بأهل الايمان والدليل عليه أنه قال فى آية أخرى انما سلطانه على الذين يتولونه ثم قال وكفى بربك وكيلا وفيه بحثان (الاول) انه تعالى لما مكن ابليس من أن يأتى بأقصى ما يقدر عليه فى باب الوسوسة وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد فى قلب الانسان قال وكفى بربك وكيلا ومعناه ان الشيطان وان كان قادرا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من اضلاله واغوائه (البحث الثانى) هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وان الانسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة لانه لو كان الاقدام على الحق والاحجام عن الباطل انما يحصل للانسان من نفسه لوجب أن يقال وكفى الانسان نفسه فى الاحتراز عن الشيطان فلما لم يقل ذلك بل قال وكفى بربك علمنا ان الكل من الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة

غلتها (أتاها أمرنا) جواب اذا أى ضرب زرعها ما يجتاحه من الآفات والعاهات (ليلا أو نهارا فجعلناها) أى زرعها وسائر ما عليها (حصيدا) أى شبيها بما حصد من أصله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرئ بتذكير الفعل (بالامس) أى فيما قبل بزمان قريب فان الامس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نفصل الآيات) أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم لانهم المنتفعون بها ويجوز أن يراد بالآيات ما ذكر فى أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى ايجادا واعداما فانها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا (والله يدعو الى دار السلام) ترغيب للناس فى الحياة الاخروية الباقية اثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعو الناس جميعا الى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وانما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابلها من كونها معرضا للآفات أو الى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية بهذا الاسم

فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسي أي ألزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) تأكيد للضمير المنتقل اليه من عامله المسد مسده (وشركاؤكم) عطف عليه وقرئ بالنصب على أن الواو بمعنى مع (فزيلنا) من زلت الشئ عن مكانه أزيله أى أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرئ فزايلنا بمعناه نحو كلمته وكالمته وهو معطوف على نقول وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة ايذانا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا (بينهم) وقطعنا اقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء فخابت آمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وان كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين انما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عباداتهم كما فى قوله تعالى أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا فالوا وحينئذ فى قوله تعالى

الملائكة الذين عنده هكذا أورده الواحدى فى البسيط وأما القائلون بأن الملك أفضل من البشر على الاطلاق فقد عولوا على هذه الآية وهو فى الحقيقة تمسك بدليل الخطاب لان تقرير الدليل أن يقال ان تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال فى القليل بالضد وذلك تمسك بدليل الخطاب والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الانسان فى الدنيا ذكر أحوال درجاته فى الآخرة فى هذه الآية وفيها مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرئ يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول وقرأ الحسن يدعو كل أناس قال الفراء وأهل العربية لا يعرفون وجها لهذه القراءة المنقولة عن الحسن ولعله قرأ يدعى بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوى أنه قرأ يدعو ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله يوم ندعو نصب باضمار اذكر ولا يجوز أن يقال العامل فيه قوله وفضلناهم لانه فعل ماض ويمكن أن يجاب عنه فيقال المراد ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله بامامهم الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبى امام أمته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام ههنا أقوالا (الاول) امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ويكون المعنى أنه ينادى يوم القيامة يا أمة ابراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى يا أتباع فرعون يا أتباع نمروذ يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر وعلى هذا القول فالباء فى قوله بامامهم فيه وجهان (الاول) أن يكون التقدير ندعو كل أناس بامامهم تبعا وشيعة لامامهم كما تقول أدعوك باسمك (والثانى) أن يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف فى موضع الحال كأنه قيل ندعو كل أناس مختلطين بامامهم أى يدعون وامامهم فيهم نحو ركب بجنوده ﴿والقول الثانى﴾ وهو قول الضحاك وابن زيد بامامهم أى بكتابهم الذى أنزل عليهم وعلى هذا التقدير ينادى فى القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الانجيل (والقول الثالث) قال الحسن بكتابهم الذى فيه أعمالهم وهو قول الربيع وأبى العالية والدليل على ان هذا الكتاب يسمى اماما قوله تعالى وكل شئ أحصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما وتقدير الباء على هذا القول بمعنى مع أى ندعو كل أناس ومعهم كتابهم كقولك ادفعه اليه برمته أى ومعه رمته (القول الرابع) قال صاحب الكشاف ومن بدع التفاسير أن الامام جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم وأن الحكمة فى الدعاء بالامهات دون الآباء رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا ثم قال صاحب الكشاف وليت شعرى أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته (والقول الخامس) أقول فى اللفظ احتمال آخر وهو أن أنواع الاخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولى على كل انسان نوع من تلك الاخلاق فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود أو شهوة الضياع ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد وفى جانب الاخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه الفقه أو الشجاعة أو الكرم أو طلب العلم والزهد اذا عرفت هذا فنقول الداعى الى الافعال الظاهرة من تلك الاخلاق الباطنة فذلك الخلق الباطن كالامام له والملك المطاع والرئيس المتبوع فيوم القيامة انما يظهر الثواب والعقاب بناء على الافعال الناشئة من تلك الاخلاق فهذا هو المراد من قوله يوم ندعو كل أناس بامامهم فهذا الاحتمال خطر بالبال والله أعلم بمراده * ثم قال تعالى فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا قال صاحب الكشاف انما قال أولئك لان من أوتى فى معنى الجمع والفتيل القشرة التى فى شق النواة وسمى بهذا الاسم لانه اذا اراد الانسان استخراجه انفتل وهذا يضرب مثلا للشئ الحقير التافه ومثله القطمير والنقير فى ضرب المثل به والمعنى لا ينتقصون من الثواب بمقدار فتيل ونظيره قوله ولا يظلمون شيأ فلا يخاف ظلما ولا هضما وروى مجاهد عن ابن عباس انه قال الفتيل هو الوسخ الذى يظهر بفتل الانسان ابهامه

بسبابته

بسيبايته وهو فعيل من القتل بمعنى مفتول فان قيل لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرؤنه أيضا قلنا الفرق ان أصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازى الشديدة فيستولى الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه وأبينها ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه فظهر الفرق والله أعلم * ثم قال تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا وفيه مسئلتان (الاولى) قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائى ومن كان فى هذه أعمى بالامالة والكسر فهو فى الآخرة أعمى بالفتح وقرآ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى رواية بالامالة فيهما قال أبو على الفارسى الوجه فى تصحيح قراءة أبى عمرو أن المراد بالاعمى فى الكلمة الاولى كونه فى نفسه أعمى وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الامالة وأما فى الكلمة الثانية فالمراد من الاعمى افعل التفضيل فكانت بمعنى افعل من وبهذا التقدير لا تكون لفظة أعمى تامة فلم تقبل الامالة والحاصل أن ادخال الامالة فى الاولى دل على أنه ليس المراد أفعل التفضيل وتركها فى الثانية يدل على أن المراد منها أفعل التفضيل والله أعلم (المسئلة الثانية) لا شك أنه ليس المراد من قوله تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى عمى البصر بل المراد منه عمى القلب أما قوله فهو فى الآخرة أعمى ففيه قولان (الاول) أن المراد منه أيضا عمى القلب وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الاول) قال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرأ ما قبلها فقرأ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر الى قوله تفضيلا قال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قد رأى وعاين فهو فى أمر الآخرة التى لم يرولم يعاين أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا الوجه فقوله فى هذه اشارة الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة (وثانيها) روى أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى فى خلق السموات والارض والبحار والجبال والناس والدواب فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضل سبيلا وأبعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله فمن كان فى هذه اشارة الى الدنيا وعلى هذين القولين فالمراد من كان فى الدنيا أعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل فبأن يكون فى الآخرة أعمى القلب عن معرفة أحوال الآخرة أولى فالعمى فى المرتين حصل فى الدنيا (وثالثها) قال الحسن من كان فى الدنيا ضالا كافرا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا لانه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل توبته وفى الدنيا يهتدى الى التخلص عن أبواب الآفات وفى الآخرة لا يهتدى الى ذلك البتة (ورابعها) انه لا يمكن حمل العمى الثانى على الجهل بالله لان أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة أى ومن كان فى هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله فهو فى الآخرة أعمى عن طريق الجنة (وخامسها) أن الذين حصل لهم عمى القلب فى الدنيا انما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها فهذه الرغبة تزداد فى الآخرة وتعظم هنالك حسرتهم على فوات الدنيا وليس معهم شئ من أنوار معرفة الله تعالى فيبقون فى ظلمة شديدة وحسرة عظيمة فذلك هو المراد من العمى (القول الثانى) أن يحمل العمى الثانى على عمى العين والبصر فمن كان فى هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين والبصر كما قال ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم والله أعلم * قوله تعالى ﴿وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾ اعلم انه تعالى لما عدد فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه واتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء

(وقال شركاؤهم) حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها او بدونه عند غيره لا عاطفة كما فى التفسير الاول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التنزيل بهذا المعنى على الامر بلزوم المكان ما فى ترتيبه عليه بالمعنى الاول من النكتة المذكورة ليصار لاجل رعايتها الى تغيير الترتيب الخارجى فان المباعدة بعد المحاورة حتما وأما قطع الاقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضا وانما الحاصل عند المحاورة أقصاها كما أشير اليه فلا اعتداد بها فى تقديمه من التغيير لا سيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فرعاية تلك النكتة كافية فى استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضا والمراد بالشركاء قيل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأييد لرجوع الضمير الى الكل وقولهم (ما كنتم ايانا تعبدون) عبارة عن تبريهم من عبادتهم وأنهم انما عبدوا فى الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم لانها الآمرة لهم بالاشراك دونهم كقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم الآية وقيل الاصنام ينطقها الله الذى أنطق كل شئ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها (فكفى بالله شهيدا بيننا

أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس في رواية عطاء نزلت هذه الآية في وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فكرروا ذلك الالتماس وقالوا انا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم فان كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه فأنزل الله هذه الآية وروى صاحب الكشاف أنهم جاؤا بكاتبهم فكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله الى ثقيف لا يعشرون ولا يحشرون فقالوا ولا يجبون فسكت رسول الله ثم قالوا للكاتب اكتب ولا يجبون والكاتب ينظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه وقال أسعرتم قلب نبينا يا معشر قريش أسعر الله قلوبكم نارا فقالوا لسنا نكلمك انما نكلم محمدا فنزلت هذه الآية واعلم أن هذه القصة انما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا ان هذه الآيات مدنية وروى أن قريشا قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت هذه الآية وقال الحسن الكفار أخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا كف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها فلو كان ذلك حقا كان فلان وفلان بهذا الامر أحق منك فوقع في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن شتم آلهتهم وعلى هذا التقدير فهذه الآية مكية وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك حتى تستلم بآلهتنا فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية فنزلت هذه الآية (المسئلة الثالثة) قال الزجاج معنى الكلام كادوا يفتنونك ودخلت ان واللام للتأكيد وان مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين وأصل الفتنة الاختبار يقال فتن الصائغ الذهب اذا أدخله النار وأذابه لتميز جيده من رديئه ثم استعملوه في كل من أزال الشيء عن حده وجهته فقالوا فتنه فقوله وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك أي يزيلونك ويصرفونك عن الذي أوحينا اليك يعني القرآن والمعنى عن حكمه وذلك لان في اعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن وقوله لتفتري علينا غيره أي غير ما أوحينا اليك وهو قولهم قل الله أمرني بذلك واذا لاتخذوك خليلا أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا وأظهروا للناس انك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ثم قال ولولا أن ثبتناك أي على الحق بعصمتنا اياك لقد كدت تركن اليهم أي تميل اليهم شيئا قليلا وقوله شيئا عبارة عن المصدر أي ركنا قليلا قال ابن عباس يريد حيث سكت عن جوابهم قال قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين ثم توعده في ذلك أشد التوعد فقال اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة والضعف عبارة عن أن يضم الى الشيء مثله فان الرجل اذا قال لوكيله أعط فلانا شيأ فأعطاه درهما فقال أضعفه كان المعنى ضم الى ذلك الدرهم مثله اذا عرفت هذا فنقول انما حسن اضمار العذاب في قوله ضعف الحياة وضعف الممات لما تقدم في القرآن من وصف العذاب بالضعف في قوله ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار وقال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وحاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون اليه همتك لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة والسبب في تضعيف هذا العذاب ان أقسام نعم الله تعالى في حق الانبياء عليهم السلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين * فان قيل قال عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى

و بينكم) فانه العليم الخبير (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) أي عن عبادتكم لنا وتركنا للظهور وللايذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء والافعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فان ارتضاءهم باشراكهم مما لاريب فيه وان لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وان مخففة من ان واللام فارقة (هنالك) أي في ذلك المقام الدهش أو في ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان (تبلو) أي تختبر وتذوق (كل نفس) مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية (ما أسلفت) من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعا لآثاره من نفع أو ضر وخير أو شر وأما ما علمت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب في البرزخ فأمر مجمل وقرئ نبلو بنون العظمة ونصب كل وابدال ما منه أي نعاملها معاملة من يبلوها ويتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت من العمل ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أي العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض وقرئ تتلو أي تتبع لأن عملها هو الذي يهديها الى طريق الجنة أو الى طريق النار أو تقرأ في صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر (وردوا)

يوم القيامة فوجب هذا الحديث أنه عليه السلام لو رضي بما قالوه لكان وزره مثل وزر كل أحد من أولئك الكفار وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائدا على الضعف * قلنا اثبات الضعف لا يدل على نفي الزائد عليه الا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى ثم لا تجد لك علينا نصيرا يعني اذا أذقناك العذاب المضاعف لم تجد أحدا يخلصك من عذابنا وعقابنا والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه (الاول) أن الآية دلت على أنه عليه السلام قرب من أن يفتري على الله والفرية على الله من أعظم الذنوب (والثاني) انها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه لقرب من أن يركن الى دينهم ويميل الى مذهبهم (والثالث) انه لولا سبق جرم وجناية والا فلا حاجة الى ذكر هذا الوعيد الشديد (والجواب) عن الاول ان كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية انه قرب وقوعه في الفتنة وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة فانا اذا قلنا كاد الامير أن يضرب فلانا لا يفهم منه انه ضربه والجواب عن الثاني ان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا علي لهلك عمر معناه ان وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر فكذلك ههنا قوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه انه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان حصول ذلك التثبيت مانعا من حصول ذلك الركون * والجواب عن الثالث أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الاقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ومنها قوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومنها قوله ولا تطع الكافرين والمنافقين والله أعلم ﴿المسئلة الرابعة﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم بانه لا عصمة عن المعاصي الا بتوفيق الله تعالى بقوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا قالوا انه تعالى بين انه لولا تثبيت الله تعالى له لمال الى طريقة الكفار ولا شك ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان أقوى من غيره في قوة الدين وصفاء اليقين فلما بين الله تعالى ان بقاءه معصوما عن الكفر والضلال لم يحصل الا باعانة الله تعالى واغاثته كان حصول هذا المعنى في حق غيره أولى قالت المعتزلة المراد بهذا التثبيت الالطاف الصارفة له عن ذلك وهي ما خطر بباله من ذكر وعده ووعيده ومن ذكر ان كونه نبيا من عند الله تعالى يمنع من ذلك والجواب لا شك ان هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع في ذلك العمل المحذور فنقول لو لم يوجد المقتضي للاقدام على ذلك العمل المحذور في حق الرسول لما كان الى ايجاد هذا المانع حاجة وحيث وقعت الحاجة الى تحصيل هذا المانع علمنا ان المقتضي قد حصل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم وان هذا المانع الذي فعله الله تعالى منع ذلك المقتضي من العمل وهذا لا يتم الا اذا قلنا ان القدرة مع الداعي توجب الفعل فاذا حصلت داعية أخرى معارضة للداعية الاولى اختل المؤثر فامتنع الفعل ونحن لا نريد الا اثبات هذا المعنى والله أعلم ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال القفال رحمه الله قد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة ويمكن أيضا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه لان من المعلوم ان المشركين كانوا يسعون في ابطال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يقدرون عليه فتارة كانوا يقولون ان عبدت آلهتنا عبدنا الهك فأنزل الله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون وقوله ودوا لو تدهن فيدهنون وعرضوا عليه الاموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى قوله ولا تمدن عينيك ودعوه الى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب وذلك انهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه فبين تعالى انه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم وعلى هذا الطريق فلا حاجة في تفسير هذه الآيات الى شئ من تلك الروايات والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ في هذه الآية قولان (الاول) قال قتادة هم أهل مكة هموا باخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكن الله منعهم من اخراجه حتى أمره الله بالخروج ثم انه

الضمير للذين أشركوا أو على أنه معطوف على زيلنا وما عطف عليه وقوله عز وجل هنالك تبلو الخ اعتراض في أثناء الحكاية مقرر لمضمونها (الى الله) أي الى جزائه وعقابه (مولاهم) ربهم (الحق) أي المتحقق الصادق ربوبيته لا ما اتخذوه ربا باطلا وقرئ الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد (وضل عنهم) وضاع أي ظهر ضياعه وضلاله لا أنه كان قبل ذلك غير ضال أو ضل في اعتقادهم أيضا (ما كانوا يفترون) من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير في ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلو وأن العدول الى الماضي للدلالة على التحقق والتقرر وأن ايثار صيغة الجمع للايذان بأن ردهم الى الله يكون على طريقة الاجتماع لا يلائمه التعرض لوصف الحقية في قوله تعالى مولاهم الحق فانه للتعريض بالمردودين حسبما أشير اليه ولئن اكتفي فيه بالتعريض ببعضهم أو جعل الحق على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عز وجل وضل عنهم ما كانوا يفترون مما لا مجال فيه للتدارك قطعا فان ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكل

قل لبثهم بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد (والقول الثاني) قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا انه لا يمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله مانعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة قيل بذي الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله فنزلت هذه الآية فرجع فالقول الاول اختيار الزجاج وهو الوجه لان السورة مكية فان صح القول الثاني كانت الآية مدنية والارض في قوله ليستفزونك من الارض على القول الاول مكة وعلى القول الثاني المدينة وكثر في التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله أو ينفوا من الارض يعني من مواضعهم وقوله فلن أبرح الارض يعني الارض التي كان قصدها لطلب الميرة فان قيل قال الله تعالى وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك يعني مكة والمراد أهلها فذكر أنهم أخرجوه وقال في هذه الآية وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على قول من قال الارض في هذه الآية مكة قلنا انهم هموا باخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بأمر الله تعالى فزال التناقض ثم قال تعالى واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعن عاصم خلفك بفتح الخاء وسكون اللام والباقون خلافك زعم الاخفش ان خلافك في معنى خلفك وروى ذلك يونس عن عيسى وهذا كقوله بمقعدهم خلاف رسول الله وقال الشاعر

عفت الديار خلافهم فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا

قال صاحب الكشاف قرئ لا يلبثون وفي قراءة أبي لا يلبثوا على اعمال اذن فان قيل ما وجه القراءتين قلنا أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كادوا والفعل في خبر كادوا واقع موقع الاسم وأما قراءة أبي ففيها الجملة برأسها التي هي قوله اذا لا يلبثون عطف على جملة قوله وان كادوا ليستفزونك ثم قال تعالى سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا يعني ان كل قوم أخرجوا نبيهم من ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم فقوله سنة نصب على المصدر المؤكد أي سننا ذلك سنة فيمن قد أرسلنا قبلك ثم قال ولا تجد لسنتنا تحويلا والمعنى ان ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لاحد أن يقلب تلك العادة وتمام الكلام في هذا الباب ان اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة ليس أمرا ثابتا له لذاته والا لزم أن يدوم أبدا على تلك الحالة وأن لا يتميز الشيء عما يماثله في تلك الصفات بل انما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص وذلك التخصيص هو انه تعالى يريد تحصيله في ذلك الوقت ثم تتعلق قدرته بتحصيله في ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله في ذلك الوقت ثم نقول هذه الصفات الثلاثة التي هي المؤثرة في حصول ذلك الاختصاص ان كانت حادثة افتقر حدوثها الى تخصيص آخر ولزم التسلسل وهو محال وان كانت قديمة فالقديم يمتنع تغييره لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة في ذلك الاختصاص ممتنعا كان التغير في تلك الاشياء المقدرة ممتنعا فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴿قوله تعالى ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما قرر الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الامر بالطاعات وأشرف الطاعات بعد الايمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها (الثاني) انه تعالى لما قال وان كادوا ليستفزونك من الارض أمره تعالى بالاقبال على عبادته لكي ينصره عليهم فكأنه قيل له لا تبال بسعيهم في اخراجك من بلدتك ولا تلتفت اليهم واشتغل بعبادة الله تعالى

وداوم

رأياه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم (قل) أي لاولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم وبين ما يؤدي اليه أعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الاشراك (من يرزقكم من السماء والارض) أي منهما جميعا فان الارزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أي من أهل السماء والارض (أمن يملك السمع والابصار) أم منقطعة وما فيها من كلمة بل للاضراب عن الاستفهام الاول لكن لا على طريقة الابطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه الى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود أي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء يصيبهما (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) أي ومن يحيي ويميت أو ومن ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان (ومن يدبر الامر) أي ومن يلي تدبير أمر العالم جميعا وهو تعميم بعد تخصيص بعض ما اندرج تحته من الامور الظاهرة بالذكر (فسيقولون) بلا تلعثم ولا تأخير

وداوم على أداء الصلوات فانه تعالى يدفع مكرهم وشرهم عنك ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالبا على أديانهم ونظيره قوله في سورة طه فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وقال ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴿والوجه الثالث﴾ في تقرير النظم ان اليهود لما قالوا له اذهب الى الشام فانه مسكن الانبياء عزم صلى الله عليه وسلم على الذهاب اليه فكأنه قيل له المعبود واحد في كل البلاد وما النصرة والدولة الا بتأييده ونصرته فداوم على الصلوات وارجع الى مقرك ومسكنك واذا دخلته ورجعت اليه فقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي في هذا البلد سلطانا نصيرا في تقرير دينك واظهار شرعك والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف أهل اللغة والمفسرون في معنى دلوك الشمس على قولين (أحدهما) ان دلوكها غروبها وهذا القول مروى عن جماعة من الصحابة فنقل الواحدى في البسيط عن علي عليه السلام انه قال دلوك الشمس غروبها وروى زر بن حبيش ان عبد الله بن مسعود قال دلوك الشمس غروبها وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين (والقول الثاني) ان دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو اختيار الاكثرين من الصحابة والتابعين واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه (الحجة الاولى) روى الواحدى في البسيط عن جابر أنه قال طعم عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم خرجوا حين زالت الشمس فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا حين دلكت الشمس (الحجة الثانية) روى صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر (الحجة الثالثة) قال أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا أفلت دالكة لانها في الحالتين زائلة هكذا قاله الازهرى وقال القفال أصل الدلوك الميل يقال مالت الشمس للزوال ويقال مالت للغروب اذا عرفت هذا فنقول وجب أن يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لانه تعالى علق اقامة الصلاة بالدلوك والدلوك عبارة عن الميل والزوال فوجب أن يقال انه أول ما حصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء وجب أن يتعلق به وجوب الصلاة وذلك يدل على ان المراد من الدلوك في هذه الآية ميلها عن كبد السماء وهذه حجة قوية في هذا الباب استنبطتها بناء على ما اتفق عليه أهل اللغة ان الدلوك عبارة عن الميل والزوال والله أعلم (الحجة الرابعة) قال الازهرى الاولى حمل الدلوك على الزوال في نصف النهار والمعنى أقم الصلاة أى أدمها من وقت زوال الشمس الى غسق الليل وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم قال وقرآن الفجر فاذا حملنا الدلوك على الزوال دخلت الصلوات الخمس في هذه الآية وان حملناه على الغروب لم يدخل فيه الا ثلاث صلوات وهي المغرب والعشاء والفجر وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى فوجب أن يكون المراد من الدلوك الزوال واحتج الفراء على قوله الدلوك هو الغروب بقول الشاعر

هذا مقام قدمي رباح ✻ وقفت حتى دلكت براح

وبراح اسم الشمس أى حتى غابت واحتج ابن قتيبة بقول ذى الرمة

مصابيح ليست باللواتي يقودها ✻ نجوم ولا أفلاكهن الدوالك

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لان عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير وهذا المعنى حاصل في الغروب فكان الغروب نوعا من أنواع الدلوك فكان وقوع لفظ الدلوك على الغروب لا ينافي وقوعه على الزوال كما ان وقوع لفظ الحيوان على الانسان لا ينافي وقوعه على الفرس ومنهم من احتج أيضا على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لان الانسان يدلك عينيه عند النظر اليها وهذا انما يصح في الوقت الذى يمكن النظر اليها ومعلوم أنها عند كونها في وسط السماء لا يمكن النظر اليها أما عند قربها من الغروب يمكن النظر

(الله) اذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ما ذكر من الافاعيل لا غيره (فقل) عند ذلك تبكيتا لهم (أفلا تتقون) الهمزة لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع كما في أتضرب أباك لا بمعنى انكار الوقوع كما في أأضرب أبي والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسكم عذابه الذى ذكرلكم بما تتعاطونه من اشراككم به ما لا يشاركه في شئ مما ذكر من خواص الالهية (فذلكم) فذلكة لما تقدم أى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله) خبره وقوله تعالى (ربكم) أى مالككم ومتولي أموركم على الاطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (الحق) صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق ألوهيته تحققا لا ريب فيه (فماذا) يجوز أن يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الاشارة وان يكون ذا موصولا بمعنى الذى أى ما الذى (بعد الحق) أى غيره بطريق الاستعارة واظهار الحق اما لان المراد به غير الاول واما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق (الا الضلال) الذى لا يختاره أحد فحيث ثبت أن عبادته من هو

اليها عند ما ينظر الانسان اليها فى ذلك الوقت يدلك عينيه فثبت أن لفظ الدلوك مختص بالغروب والجواب ان الحاجة الى ذلك التبيين عند كونها فى وسط السماء أتم فهذا الذى ذكرته بأن يدل على أن الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء أولى والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال الواحدى اللام فى قوله لدلوك الشمس لام الاجل والسبب وذلك لان الصلاة انما تجب بزوال الشمس فيجب على المصلى اقامتها لاجل دلوك الشمس (المسئلة الرابعة) قوله الى غسق الليل غسق الليل سواده وظلمته قال الكسائى غسق الليل غسوقا والغسق الاسم بفتح السين وقال النضر بن شميل غسق الليل دخول أوله وأتيته حين غسق الليل أى حين يختلط ويسد المناظر وأصل هذا الحرف من السيلان يقال غسقت العين تغسق وهو هملان العين بالماء والغاسق السائل ومن هذا يقال لما يسيل من أهل النار الغساق فمعنى غسق الليل أى انصب بظلامه وذلك أن الظلمة كأنها تنصب على العالم وأما قول المفسرين قال ابن جريج قلت لعطاء ما غسق الليل قال أوله حين يدخل وسأل نافع بن الازرق ابن عباس ما الغسق قال دخول الليل بظلمته وقال الازهرى غسق الليل عند غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها يقال غسقت العين اذا امتلأت دمعا وغسقت الجراحة اذا امتلأت دما قال لانا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت الصلوات الاربع فيه وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ولو حملنا الغسق على ظهور أول الظلمة لم يدخل فيه الا الظهر والعصر والمغرب فوجب أن يكون الاول أولى * واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث شريف فان فسرنا الغسق بظهور أول الظلمة كان الغسق عبارة عن أول المغرب وعلى هذا التقدير يكون المذكور فى الآية ثلاثة أوقات وقت الزوال ووقت أول المغرب ووقت الفجر وهذا يقتضى أن يكون الزوال وقتا للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركا بين هاتين الصلاتين وأن يكون أول المغرب وقتا للمغرب والعشاء فيكون هذا الوقت مشتركا أيضا بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقا الا أنه دل الدليل على أن الجمع فى الحضر من غير عذر لا يجوز فوجب أن يكون الجمع جائزا بعذر السفر وعذر المطر وغيره أما ان فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول الظلمة المتراكمة انما تحصل عند غيبوبة الشفق الابيض وكلمة الى لانتهاء الغاية والحكم الممدود الى غاية يكون مشروعا قبل حصول تلك الغاية فوجب جواز اقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الابيض وهذا انما يصح اذا قلنا انها تجب عند غيبوبة الشفق الاحمر والله أعلم (المسئلة الخامسة) قوله وقرآن الفجر أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح وانتصابه بالعطف على الصلاة فى قوله أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر * وفيه فوائد (الاولى) أن هذه الآية تدل على أن الصلاة لا تتم الا بالقراءة (الفائدة الثانية) انه تعالى أضاف القرآن الى الفجر والتقدير أقم قرآن الفجر فوجب أن تتعلق القراءة بحصول الفجر وفى أول طلوع الصبح قد حصل الفجر لان الفجر سمى فجرا لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح وظاهر الامر للوجوب فيقتضى هذا اللفظ وجوب اقامة صلاة الفجر من أول طلوعه الا أنا أجمعنا على أن هذا الوجوب غير حاصل فوجب أن يبقى الندب لان الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك فاذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب أن يرتفع المنع من الترك وأن يبقى أصل الرجحان حتى تنقل مخالفة الدليل فثبت أن هذه الآية تقتضى أن اقامة الفجر فى أول الوقت أفضل وهذا يدل على صحة مذهب الشافعى فى أن التغليس أفضل من التنوير والله أعلم (الفائدة الثالثة) أن الفقهاء بينوا ان السنة أن تكون القراءة فى هذه الصلاة أطول من القراءة فى سائر الصلوات فالمقصود من قوله وقرآن الفجر الحث على أن تطويل القراءة فى هذه الصلاة مطلوب لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره (الفائدة الرابعة) انه وصف قرآن الفجر بكونه مشهودا قال الجمهور معناه ان ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فى صلاة الصبح خلف الامام تنزل ملائكة النهار عليهم وهم فى صلاة الغداة وقبل أن تعرج ملائكة الليل فاذا فرغ الامام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يارب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول

منعوت بما ذكر من النعوت الجليلة حق ظهر أن ما عداها من عبادة الاصنام ضلال محض اذ لا واسطة بينهما وانما سميت ضلالا مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ما هو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الاول فالمراد بالضلال هو الاصنام لا عبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته الا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وانما سمى بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى وضل عنهم ما كانوا يفترون على التفسير الثانى (فأنى تصرفون) استفهام انكارى بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الانكار الى نفس الفعل لان كل موجود لابد من أن يكون وجوده على حال من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الانكار على ما قبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لا محيد عنه وهو التوحيد الى الضلال عن السبيل المستبين وهو الاشراك

ملائكة النهار ربنا أتيناعبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا انى قد غفرت لهم * وأقول هذا أيضا دليل قوى فى ان التغليس أفضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الصبح ففى ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار فبهذا الطريق تحضر فى هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار أما اذا ابتدأ بهذه الصلاة فى وقت التنوير فهناك ما بقيت الظلمة فلم يبق فى ذلك الوقت أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فثبت ان قوله تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا دليل قوى على ان التغليس أفضل وعندى فى تفسير قوله تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا احتمال آخر وذلك لانه كلما كانت الحوادث الحادثة أعظم وأكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى أكمل فالانسان اذا شرع فى أداء صلاة الصبح من أول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية فى العالم فاذا امتدت القراءة ففى أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود وعلى هذا التقدير فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ثم انه مع ذلك يشاهد فى أثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة الى الضوء ومن الموت الى الحياة ومن السكون الى الحركة ومن العدم الى الوجود وهذه الحالة حالة عجيبة تشهد العقول والارواح بأنه لا يقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة الغير المتناهية وحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة وينفتح على العقل والروح أبواب المكاشفات الروحانية الالهية فتصير الصلاة التى هى عبارة عن أعمال الجوارح مشهودا عليها بهذه المكاشفات الالهية المقدسة ولذلك فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم اذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح فى أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة الى النور ومن السكون الى الحركة فانه يجد فى قلبه روحا وراحة ومزيدا فى نور المعرفة وقوة اليقين فهذا هو المراد من قوله ان قرآن الفجر كان مشهودا وظهر ان هذا الاعتبار لا يحصل الا عند أداء صلاة الفجر على سبيل التغليس فهذا ما خطر بالبال والله أعلم بمراده وفى الآية احتمال ثالث وهو أن يكون المراد من قوله ان قرآن الفجر كان مشهودا الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة ويكون المعنى كونها مشهودا بالجماعة الكثيرة ومزيد التحقيق فيه أنا بينا أن تأثير هذه الصلاة فى تصفية القلب وفى تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات فاذا حضر جمع من المسلمين فى المسجد لاداء هذه العبادة استنار قلب كل واحد منهم ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته فى ذلك الوقت من قلب كل واحد الى قلب الآخر فتصير أرواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة اذا وقعت عليها أنوار الشمس فانه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا الى الاخرى فكذا فى هذه الصورة ولهذا السبب فان كل من له ذوق سليم وأدى هذه الصلاة فى هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فسحة ونورا وراحة (الفائدة الخامسة) قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا يحتمل أن يكون السبب فى كونه مشهودا هو أن الانسان لما نام طول الليل فصار كالغافل فى هذه المدة عن مراقبة أحوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله وصارت هذه الالواح كألواح سطرت فيها نقوش فاسدة ثم غسلت وأزيلت تلك النقوش عنها ففى أول وقت القيام من المنام صارت ألواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة فاذا تسارع الانسان فى ذلك الوقت الى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والاقدام على الافعال الدالة على تعظيم الله تعالى انتقش فى لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة ثم ان حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة وهى النقوش المتولدة من الميل الى الدنيا وشهواتها فبهذا الطريق يترشح الميل الى معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته ويضعف الميل الى الدنيا وشهواتها اذا عرفت هذا فنقول هذه الحكمة انما تحصل اذا شرع الانسان فى الصلاة من أول قيامه من النوم عند التغليس وذلك يدل على المقصود واعلم أن أكثر الخلق وقعوا فى أمراض القلوب

ايثار صيغة المبنى للمفعول ايذان بأن الانصراف من الحق الى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بارادته وانما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق الا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق (حقت كلمت ربك) وحكمه وقضاؤه (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى الكفر وخرجوا من أقصى حدوده (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب (قل هل من شركائكم) احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به سبحانه وتعالى وانما لم يعطف على ما قبله ايذانا باستقلاله فى اثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والالزام وقد جعلت هلية الاعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت فى سلكه حيث قيل (من يبدأ الخلق ثم يعيده) ايذانا بتلازمهما وجودا

وعلما يستلزم الاعتراف به الاعتراف بها وان صدهم عن ذلك ما بهم من المكابرة والعناد ثم أمر عليه الصلاة

وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوءة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود الى الصحة الا بعلاجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الامر الا أن الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فان لم يقدر على ازالته فانه يسعى في تقليله وتخفيفه اذا عرفت هذا فنقول مرض حب الدنيا مستول على الخلق ولا علاج له الا بالدعوة الى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لاجرم الانبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم مما ينفع في ازالة هذا المرض من الوجه الذي قررناه فوجب أن يكون مشروعا والله أعلم باسرار كلامه أما قوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك فاعلم أنه تعالى لما أمر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والاشارة أردفه بالحث على صلاة الليل وفيه مباحث (الاول) التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله فتهجد به أي بالقرآن كما قال قم الليل الا قليلا الى قوله ورتل القرآن ترتيلا (البحث الثاني) قال الواحدي الهجود في اللغة النوم وهو معروف كثير في الشعر يقال اهجدته وهجدته أي انمته ومنه قول لبيد * هجدنا فقد طال السرى * كأنه قال نومنا فان السرى قد طال علينا حتى غلبنا النوم وروى أبو عبيد عن أبي عبيدة الهاجد النائم والهاجد المصلي بالليل وروى ثعلب عن ابن الاعرابي مثل هذا القول كأنه قال هجد الرجل اذا صلى من الليل وهجد اذا نام بالليل فعند هؤلاء هذا اللفظ من الاضداد وأما الازهري فانه توسط في تفسير هذا اللفظ وقال المعروف في كلام العرب ان الهاجد هو النائم ثم رأينا أن في الشرع يقال لمن قام من النوم الى الصلاة انه متهجد فوجب أن يحمل هذا على انه سمي متهجدا لالقائه الهجود عن نفسه كما قيل للعابد متحنث لالقائه الحنث عن نفسه وهو الاثم ويقال فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب أي يلقي الحرج والاثم والحوب عن نفسه وأقول فيه احتمال آخر وهو ان الانسان انما يترك لذة النوم ويتحمل مشقة القيام الى الصلاة ليطيب رقاده وهجوده عند الموت فلما كان غرضه من ترك هذا الهجود ان يصل الى الهجود اللذيذ عند الموت كان هذا القيام طلبا لذلك الهجود فسمي تهجدا لهذا السبب (وفيه وجه ثالث) وهو ما روي ان الحجاج بن عمرو المازني قال أيحسب أحدكم اذا قام من الليل فصلى حتى يصبح انه قد تهجد انما التهجد الصلاة بعد الرقاد ثم صلاة أخرى بعد رقدة ثم صلاة أخرى بعد رقدة هكذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عرفت هذا فنقول كلما صلى الانسان طلب هجودا ورقادا فلا يبعد أنه سمي تهجدا لهذا السبب (البحث الثالث) قوله من في قوله ومن الليل لابد له من متعلق والفاء في قوله فتهجد لابد له من معطوف عليه والتقدير قم من الليل أي في بعض الليل فتهجد به وقوله به أي بالقرآن والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن (البحث الرابع) معنى النافلة في اللغة ما كان زيادة على الاصل ذكرناه في قوله تعالى يسئلونك عن الانفال ومعناها أيضا في هذه الآية الزيادة وفي تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على ان صلاة الليل هل كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم أم لا فمن الناس من قال انها كانت واجبة عليه ثم نسخت فصارت نافلة أي تطوعا وزيادة على الفرائض وذكر مجاهد والسدي في تفسير كونها نافلة وجها حسنا قالا انه تعالى غفر للنبي صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكل طاعة يأتي بها سوى المكتوبة فانه لا يكون تأثيرها في كفارة الذنوب البتة بل يكون تأثيرها في زيادة الدرجات وكثرة الثواب وكان المقصود من تلك العبادة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلاف الامة فان لهم ذنوبا محتاجة الى الكفارات فهذه الطاعة محتاجون اليها لتكفير الذنوب والسيئات فثبت أن هذه الطاعات انما تكون زوائد ونوافل في حق النبي صلى الله عليه وسلم لا في حق غيره فلهذا السبب قال نافلة لك يعني انها زوائد ونوافل في حقك لا في حق غيرك وتقريره ما ذكرناه وأما الذين قالوا ان صلاة الليل كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم قالوا معنى كونها نافلة له على التخصيص أنها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصصت بها من بين أمتك ويمكن نصره

والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي هو يفعلهما لا غير كائنا ما كان لا بأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم في ذلك كما قيل لان القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وان كان مستلزما له اذ ليس المسؤل عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله تعالى قل من رب السموات والارض قل الله حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذي أريد منهم ويكون عليه الصلاة والسلام نائبا عنهم في ذلك بل انما هو وجود من يفعل البدء والاعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لا غير نعم أمر عليه الصلاة والسلام بان يضمنه مقالته ايذانا بتعينه وتحققه واشعارا بأنهم لا يجترؤن على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لا مكابرة ولجاجا فتدبر واعادة الجملة في الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما في الجواب السابق لمزيد التأكيد والتحقيق (فأنى تؤفكون) الافك الصرف والقلب عن الشيء وقد يخص بالقلب عن الرأي وهو الانسب بالمقام أي كيف تقلبون من الحق الى الباطل والكلام فيه كما ذكر في تصرفون (قل هل من شركائكم) احتجاج آخر على ما ذكر جيء به الزاما لهم غب الزام وافحاما اثر افحام وفصله عما قبله لما

هذا

هذا القول بأن قوله فتهجد أمر وصيغة الامر للوجوب فوجب كون هذا التهجد واجبا فلو حملنا قوله نافلة لك على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الاصل فوجب أن يكون معنى كونها نافلة له ماذكرناه من كون وجوبها زائدا على وجوب الصلوات الخمس والله أعلم (البحث الخامس) قوله أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر وان كان ظاهر الامر فيه مختصا بالرسول صلى الله عليه وسلم الا أنه في المعنى عام في حق الامة والدليل عليه انه قال ومن الليل فتهجد به نافلة لك فبين ان الامر بالتهجد مخصوص بالرسول وهذا يدل على ان الامر بالصلوات الخمس غير مخصوص بالرسول عليه الصلاة والسلام والا لم يكن لتقييد الامر بالتهجد بهذا القيد فائدة أصلا والله أعلم ثم قال تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعاني لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شئ ثم حرمه كان عارا والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدا في شئ ثم لا يعطيه ذلك وقوله مقاما محمودا فيه بحثان (البحث الاول) في انتصاب قوله محمودا وجهان (الاول) أن يكون انتصابه على الحال من قوله يبعثك أي يبعثك محمودا (والثاني) أن يكون نعتا للمقام وهو ظاهر (البحث الثاني) في تفسير المقام المحمود أقوال (الاول) انه الشفاعة قال الواحدي أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية هو المقام الذي أشفع فيه لامتي وأقول اللفظ مشعر به وذلك لان الانسان انما يصير محمودا اذا حمده حامد والحمد انما يكون على الانعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاما أنعم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه على قوم فحمدوه على ذلك الانعام وذلك الانعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع لان ذلك كان حاصلا في الحال وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا تطميع وتطميع الانسان في الشئ الذي حصل له وعنده في الحال محال فوجب أن يكون ذلك الانعام الذي لاجله يصير محمودا انعاما سيصل منه بعد ذلك الى الناس وما ذاك الا شفاعته عند الله فدل هذا على ان لفظ الآية وهو قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا يدل على هذا المعنى وأيضا التنكير في قوله مقاما محمودا يدل على انه يحصل للنبي عليه الصلاة والسلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ومن المعلوم ان حمد الانسان على سعيه في التخليص عن العقاب أعظم من حمده في السعي في زيادة من الثواب لا حاجة به اليها لان احتياج الانسان الى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه الى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة به الى تحصيلها واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا هو الشفاعة في اسقاط العقاب على ما هو مذهب أهل السنة ولما ثبت ان لفظ الآية مشعر بهذا المعنى اشعارا قويا ثم وردت الاخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى وجب حمل اللفظ عليه ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الاولون والآخرون واتفق الناس على ان المراد منه الشفاعة (والقول الثاني) قال حذيفة يجمع الناس في صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فهذا هو المراد من قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وأقول القول الاول أولى لان سعيه في الشفاعة يفيده اقدام الناس على حمده فيصير محمودا وأما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد الا الثواب أما الحمد فلا فان قالوا لم لا يجوز أن يقال انه تعالى يحمده على هذا القول قلنا لان الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الانعام فقط فان ورد لفظ الحمد في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز (القول الثالث) المراد مقام تحمد عاقبته وهذا أيضا ضعيف للوجه الذي ذكرناه في القول الثاني (القول الرابع) قال الواحدي روي عن ابن مسعود انه قال يقعد الله محمدا على العرش وعن مجاهد انه قال يجلسه معه على العرش ثم قال الواحدي وهذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه (الاول) ان البعث ضد الاجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث ويقال بعث الله الميت أي أقامه من قبره فتفسير البعث بالاجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد (والثاني)

ذكر من الدلالة على استقلاله (من يهدي الى الحق) أي بوجه من الوجوه فان أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته الى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وارسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والالزام فان العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية وهدى كما يستعمل بكلمة الى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند الى الله تعالى حيث قيل (قل الله يهدي للحق) أي هو يهدي له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الادلة والحجج وارسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام في الامر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر (أفمن يهدي الى الحق) وهو الله عز وجل (أحق أن يتبع أمن لا يهدي) بكسر الهاء أصله يهتدي فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرئ بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرئ بفتح الهاء نقلا لحركة التاء اليها أي لا يهتدي بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وانما نفي عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفي الهداية لما أن نفيها

انه تعالى قال مقاما محمودا ولم يقل مقعدا والمقام موضع القيام لاموضع القعود (والثالث) لو كان تعالى جالسا على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدودا متناهيا ومن كان كذلك فهو محدث (والرابع) يقال ان جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير اعزاز لان هؤلاء الجهال والحمقى يقولون في كل أهل الجنة انهم يزورون الله تعالى وانهم يجلسون معه وانه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا فيها في الدنيا واذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة (والخامس) انه اذا قيل السلطان بعث فلانا فهم منه انه أرسله الى قوم لاصلاح مهماتهم ولا يفهم منه انه أجلسه مع نفسه فثبت ان هذا القول كلام رذل سقط لا يميل اليه الا انسان قليل العقل عديم الدين والله أعلم * ثم قال تعالى وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وفيه مباحث (البحث الاول) انا ذكرنا في تفسير قوله وان كادوا ليستفزونك من الارض قولين (أحدهما) المراد منه سعي كفار مكة في اخراجه منها (والثاني) المراد منه أن اليهود قالوا له الاولى لك أن تخرج من المدينة الى الشام ثم انه تعالى قال له أقم الصلاة واشتغل بعبادة الله تعالى ولا تلتفت الى هؤلاء الجهال فانه تعالى ناصرك ومعينك ثم عاد بعد هذا الكلام الى شرح تلك الواقعة فان فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا اخراجه من مكة كان معنى هذه الآية انه تعالى أمره بالهجرة الى المدينة وقال له وقل رب أدخلني مدخل صدق وهو المدينة وأخرجني مخرج صدق وهو مكة وهذا قول الحسن وقتادة وان فسرنا تلك الآية بان المراد منها ان اليهود حملوه على الخروج من المدينة والذهاب الى الشام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ثم أمره الله تعالى بأن يرجع اليها كان المراد أنه عليه الصلاة والسلام عند العود الى المدينة قال رب أدخلني مدخل صدق وهو المدينة وأخرجني مخرج صدق يعني أخرجني منها الى مكة مخرج صدق أي افتحها لي (والقول الثاني) في تفسير هذه الآية وهو أكمل مما سبق أن المراد وقل رب أدخلني في الصلاة وأخرجني منها مع الصدق والاخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم شكرك (والقول الثالث) وهو أكمل مما سبق أن المراد وقل رب أدخلني في القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك وأخرجني منها بعد الفراغ منها اخراجا لا يبقى علي منها تبعة وبقية (والقول الرابع) وهو أعلى مما سبق وقل رب أدخلني في بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وقدسك ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل الى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل في آثار حدوث المحدثات الى الاستغراق في معرفة الاحد الفرد المنزه عن التكثيرات والتغيرات (والقول الخامس) أدخلني في كل ما تدخلني فيه مع الصدق في عبوديتك والاستغراق بمعرفتك وأخرجني عن كل ما تخرجني عنه مع الصدق في العبودية والمعرفة والمحبة والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلا في كل دخول وخروج وحركة وسكون (والقول السادس) أدخلني القبر مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق (البحث الثاني) مدخل بضم الميم مصدر كالادخال يقال أدخلته مدخلا كما قال وقل رب أنزلني منزلا مباركا ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره * ثم قال تعالى واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا أي حجة بينة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وبالجملة فقد سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه بأنه يعصمه من الناس فقال والله يعصمك من الناس وقال الا ان حزب الله هم المفلحون وقال ليظهره على الدين كله ولما سأل الله النصرة بين الله له أنه أجاب دعاءه فقال وقل جاء الحق وهو دينه وشرعه وزهق الباطل وهو كل ما سواه من الاديان والشرائع وزهق بطل واضمحل وأصله من زهقت نفسه تزهق أي هلكت وعن ابن مسعود انه دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب على وجهه وقوله ان الباطل كان زهوقا يعني ان الباطل وان اتفقت له دولة وصولة الا أنها لا تبقى بل تزول على أسرع الوجوه والله أعلم

مستتبع لنفيه غالبا فان من اهتدى الى الحق لايخلو عن هداية غيره في الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لايدري والفاء لترتيب الاستفهام على ماسبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبئ عن الجواب بالعدم فان ذلك مما يضطرهم الى الجواب الحق لا لتوجيه الاستفهام الى الترتيب كما يقع في بعض المواقع فان ذلك مختص بالانكاري كما في قوله تعالى أفمن اتبع رضوان الله الخ ونحوه والهمزة متأخرة في الاعتبار وانما تقدمها في الذكر لاظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أي لاخرت حتما ألا ترى الى قوله تعالى فأي الفريقين أحق بالامن اثر تقدير مايلجئ المشركين الى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ لا يهدي بمعنى لا يهتدي لمجيئه لازما أو لا يهدي غيره وصيغة التفضيل اما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكي والتقدير أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدي أم من لا يهدي أحق الخ واما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان وأياما كان فالاستفهام للالزام وأن يتبع في حيز النصب أو الجر بعد

* قوله

﴿ قوله تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسا قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ اعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الالهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث واثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالامر بالصلاة ونبه على ما فيها من الاسرار وانما ذكر كل ذلك فى القرآن أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ولفظة من ههنا ليست للتبعيض بل هى للجنس كقوله فاجتنبوا الرجس من الاوثان والمعنى وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء فجميع القرآن شفاء للمؤمنين واعلم أن القرآن شفاء من الامراض الروحانية وشفاء أيضا من الامراض الجسمانية أما كونه شفاء من الامراض الروحانية فظاهر وذلك لان الامراض الروحانية نوعان الاعتقادات الباطلة والاخلاق المذمومة أما الاعتقاد الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة فى الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب وابطال المذاهب الباطلة فيها ولما كان أقوى الامراض الروحانية هو الخطأ فى هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحانى وأما الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والارشاد الى الاخلاق الفاضلة الكاملة والاعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت أن القرآن شفاء من جميع الامراض الروحانية وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلان التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بان لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لا يفهم منها شئ آثارا عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع فى الدين والدنيا كان أولى ويتأكد ما ذكرنا بما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى * وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الارواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والاخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضها ما يفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء وبعضها ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والاخلاق الفاضلة التى بها يصل الانسان الى جوار رب العالمين والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة ولما كان ازالة المرض مقدمة على السعى فى تكميل موجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى فى هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سببا للخسار والضلال فى حق الظالمين والمراد به المشركون وانما كان كذلك لان سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا وحقدا وحسدا وهذه الاخلاق الذميمة تدعوهم الى الاعمال الباطلة وتزيد فى تقوية تلك الاخلاق الفاسدة فى جواهر نفوسهم ثم لا يزال الخلق الخبيث النفسانى يحمل على الاعمال الفاسدة والاتيان بتلك الاعمال يقوى تلك الاخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين فى درجات الخزى والضلال والفساد والنكال ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وفيه مباحث ﴿ الاول ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أن الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد بل المراد أن نوع الانسان من شأنه انه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله تعالى متمردا عن طاعة الله كما قال ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ﴿ البحث الثانى ﴾ قوله أعرض أى ولى ظهره أى عرضه الى ناحية ونأى بجانبه أى تباعد ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب أى يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لان ذلك عادة

حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع (الا أن يهدى) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا يهتدى أو لا يهدى غيره فى حال من الاحوال الا حال هدايته تعالى له الى الاهتداء أو الى هداية الغير وهذا حال أشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا أن ينقل اليه أو الا أن ينقله الله تعالى من حاله الى أن يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرئ الا أن يهدى من التفعيل للمبالغة (فما لكم) أى أى شئ لكم فى اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام للانكار التوبيخى وفيه تعجيب من حالهم وقوله تعالى (كيف تحكمون) أى بما يقضى صريح العقل ببطلانه انكار لحكمهم الباطل وتعجيب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الانكارين على ما ظهر من وجوب اتباع الهادى الى الحق ان قلت التبكيت بالاستفهام السابق انما يظهر فى حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله * قلت حكمهم باستحقاقه تعالى

بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم

المتكبرين وفي قوله نأى قراآت (احداها) نأى وهي قراءة العامة بفتح النون والهمزة وفي حم السجدة مثله وهي اللغة الغالبة والنأي البعد يقال نأى أي بعد (وثانيها) قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى ويجوز أن يكون من نأى بمعنى نهض (وثالثها) قراءة حمزة والكسائي باما لة الفتحتين وذلك لانهم أمالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون اتباعا للكسرة مثل رأى (ورابعها) قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ونصير عن الكسائي وحمزة نأى بفتح النون وكسر الهمز على الاصل في فتح النون وامالة الهمزة ثم قال تعالى واذا مسه الشر كان يؤسا أي اذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤسا شديد اليأس من رحمة الله ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون والحاصل أنه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن الى قوله ربي أهانن وكذلك قوله ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا ثم قال تعالى قل كل يعمل على شاكلته قال الزجاج الشاكلة الطريقة والمذهب والدليل عليه أنه يقال هذا طريق ذوشواكل أي يتشعب منه طرق كثيرة ثم الذي يقوى عندي أن المراد من الآية ذلك قوله تعالى فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا وفيه وجه آخر وهو ان المراد ان كل أحد يفعل على وفق ماشاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فان كانت نفسه نفسا مشرقة خيرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة وان كانت نفسه نفسا كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة * وأقول العقلاء اختلفوا في أن النفوس الناطقة البشرية هل هي مختلفة بالماهية أم لا منهم من قال انها مختلفة بالماهية وان اختلاف أفعالها وأحوالها لاجل اختلاف جواهرها وماهياتها ومنهم من قال انها متساوية في الماهية واختلاف أفعالها لاجل اختلاف أمزجتها والمختار عندي هو القسم الاول والقرآن مشعر بذلك وذلك لانه تعالى بين في الآية المتقدمة ان القرآن بالنسبة الى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة الى أقوام آخرين يفيد الخسار والخزي ثم أتبعه بقوله قل كل يعمل على شاكلته ومعناه ان اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتسود وجهه وهذا الكلام انما يتم المقصود منه اذا كانت الارواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال * قوله تعالى ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾ اعلم أنه تعالى لما ختم الآية المتقدمة بقوله قل كل يعمل على شاكلته وذكرنا أن المراد منه مشاكلة الارواح للافعال الصادرة عنها وجب البحث ههنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة روى ان اليهود قالوا لقريش اسألوا محمدا عن ثلاث فان أخبركم باثنين وأمسك عن الثالثة فهو نبي اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه الصلاة والسلام غدا أخبركم ولم يقل ان شاء الله فانقطع عنه الوحي أربعين يوما ثم نزل الوحي بعده ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وبين ان عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال وما أوتيتم من العلم الا قليلا ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه (أولها) ان الروح ليس أعظم شأنا ولا أعلى مكانا من الله تعالى فاذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح (وثانيها) ان اليهود قالوا ان أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي وهذا كلام بعيد

له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون (وما يتبع أكثرهم) كلام مبتدأ غير داخل في حيز الامر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادي الى الحق الناعي عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم الى طريق العلم أصلا أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم (الاظنا) واهيا من غير التفات الى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها من أحكامها الباطلة فيحصل التبكيت والالزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا يقارنه وبالقصر ما أشير اليه من أن لا يكون لهم في أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات اليه ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الاشعار بان بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا فيحصل بالنسبة اليهم التأثر من

عن

عن العقل لان قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ليست الا حكاية من الحكايات وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلا على النبوة وأيضا فالحكاية التى يذكرها اما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته فان كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها وان كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة فى ذكر هذه الحكاية وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلا على صحة النبوة (وثالثها) أن مسئلة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين فلو قال الرسول صلى الله عليه وسلم انى لا أعرفها لاورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فان الجهل بمثل هذه المسئلة يفيد تحقير أى انسان كان فكيف الرسول الذى هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء (ورابعها) أنه تعالى قال فى حقه الرحمن علم القرآن وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال وقل رب زدنى علما وقال فى صفة القرآن ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين وكان عليه الصلاة والسلام يقول أرنا الاشياء كما هى فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول أنا لا أعرف هذه المسئلة مع انها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق بل المختار عندنا أنهم سألوه عن الروح وانه صلى الله عليه وسلم أجاب عنه على أحسن الوجوه وتقريره ان المذكور فى الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة (أحدها) أن يقال ماهية الروح أهو متحيز أو حال فى المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال فى المتحيز (وثانيها) أن يقال الروح قديمة أو حادثة (وثالثها) أن يقال الارواح هل تبقى بعد موت الاجسام أو تفنى (ورابعها) أن يقال ما حقيقة سعادة الارواح وشقاوتها وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وقوله يسألونك عن الروح ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سألوا أو عن غيرها الا أنه تعالى ذكر له فى الجواب عن هذا السؤال قوله قل الروح من أمر ربى وهذا الجواب لا يليق الا بمسئلتين من المسائل التى ذكرناها (احداهما) السؤال عن ماهية الروح (والثانية) عن قدمها وحدوثها (أما البحث الاول) فهم قالوا ما حقيقة الروح وماهيته أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والاخلاط أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الاجسام أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه الاجسام والاعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الاجسام ولهذه الاعراض وذلك لان هذه الاجسام أشياء تحدث من امتزاج الاخلاط والعناصر وأما الروح فانه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث الا بمحدث قوله كن فيكون فقالوا لم كان شيأ مغايرا لهذه الاجسام ولهذه الاعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره فى افادة الحياة لهذا الجسد ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فان أكثر حقائق الاشياء وماهياتها مجهولة فانا نعلم ان السكنجبين له خاصية تقتضى قطع الصفراء فأما اذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة فذاك غير معلوم فثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها فكذلك ههنا وهذا هو المراد من قوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وأما البحث الثانى) فهو أن لفظ الامر قد جاء بمعنى الفعل قال تعالى وما أمر فرعون برشيد وقال فلما جاء أمرنا أى فعلنا فقوله قل الروح من أمر ربى أى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة فقال بل هى حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا يعنى أن الارواح فى مبدا الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف فهى لا تزال تكون فى التغيير من حال الى حال وفى التبديل من نقصان الى كمال والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث فقوله قل الروح من أمر ربى يدل على أنهم سألوه أن الروح هل هى حادثة فأجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه وهو المراد من قوله قل الروح من أمر ربى ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد من قوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا ما نقوله فى هذا الباب والله أعلم (المسئلة الثانية) فى ذكر سائر الاقوال المقولة فى نفس الروح المذكورة فى هذه الآية اعلم أن الناس ذكروا أقوالا أخرى

البرهان المزبور وان لم يظهروه وكونهم أشد كفرا وأكثر عذابا من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم اذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والادراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ما يتبع أكثرهم مدة عمرهم الا ظنا ولا يتركونه أبدا فان حرف النفى الداخل على المضارع يفيد استمرار النفى بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الاذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم فى ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتى هذا وقد قيل المعنى وما يتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى الا ظنا غير مستند الى برهان عندهم وقيل وما يتبع أكثرهم فى قولهم للاصنام انها آلهة الا ظنا والمراد بالاكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير فى أكثرهم للناس فلا حاجة الى التكلف (ان الظن لا يغنى من الحق) من العلم اليقينى والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع (شيأ) من الاغناء ويجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه والجملة استئناف لبيان شأن الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم فى الاصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد (ان الله عليم بما يفعلون) وعيد لهم على أفعالهم

سوى ما تقدم ذكره (فالقول الاول) أن المراد من هذا الروح هو القرآن قالوا وذلك لان الله تعالى سمى القرآن فى كثير من الآيات روحا واللائق بالروح المسؤل عنه فى هذا الموضع ليس الا القرآن فلا بد من تقرير مقامين (المقام الاول) تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره وأيضا السبب فى تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الارواح والعقول لان به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله والارواح انما تحيا بهذه المعارف وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه فى تفسير قوله ينزل الملائكة بالروح من أمره (وأما بيان المقام الثانى) وهو أن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لانه تقدمه قوله وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين والذى تأخر عنه قوله ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك الى قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فلما كان ما قبل هذه الآية فى وصف القرآن وما بعدها كذلك وجب أيضا أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة وذلك لان القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا انه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة فأجابهم الله تعالى بانه ليس من جنس كلام البشر وانما هو كلام ظهر بامر الله ووحيه وتنزيله فقال قل الروح من أمر ربى أى القرآن انما ظهر بامر ربى وليس من جنس كلام البشر (القول الثانى) ان الروح المسؤل عنه فى هذه الآية ملك من ملائكة السموات وهو أعظمهم قدرا وقوة وهو المراد من قوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا ونقلوا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال هو ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة قالوا ولم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش ولو شاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل * ولقائل أن يقول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) أن هذا التفصيل لما عرفه على فالنبى أولى أن يكون قد عرفه فلم لم يخبرهم به وأيضا ان عليا ما كان ينزل عليه الوحى فهذا التفصيل ما عرفه الا من النبى صلى الله عليه وسلم فلم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الشرح والبيان لعلى ولم يذكره لغيره (الثانى) أن ذلك الملك ان كان حيوانا واحدا وعاقلا واحدا لم يكن فى تكثير تلك اللغات فائدة وان كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيوانا آخر لم يكن ذلك ملكا واحدا بل يكون ذلك مجموع ملائكة (والثالث) ان هذا شئ مجهول الوجود فكيف يسئل عنه أما الروح الذى هو سبب الحياة فهو شئ تتوفر دواعى العقلاء على معرفته فصرف هذا السؤال اليه أولى (والقول الثالث) وهو قول الحسن وقتادة ان هذا الروح جبريل والدليل عليه انه تعالى سمى جبريل بالروح فى قوله نزل به الروح الامين على قلبك وفى قوله فأرسلنا اليها روحنا ويؤكد هذا انه تعالى قال قل الروح من أمر ربى وقال جبريل وما نتنزل الا بامر ربك فسألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحى اليه (والقول الرابع) قال مجاهد الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ولهم أيد وأرجل ورؤس وقال أبو صالح يشبهون الناس وليسوا بالناس ولم أجد فى القرآن ولا فى الاخبار الصحيحة شيأ يمكن التمسك به فى اثبات هذا القول وأيضا فهذا شئ مجهول فيبعد صرف هذا السؤال اليه فحاصل ما ذكرناه فى تفسير الروح المذكورة فى هذه الآية هذه الاقوال الخمسة والله أعلم بالصواب (المسئلة الثالثة) فى شرح مذاهب الناس فى حقيقة الانسان اعلم أن العلم الضرورى حاصل بأن ههنا شيأ اليه يشير الانسان بقوله انا واذا قال الانسان علمت وفهمت وأبصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت فالمشار اليه لكل أحد بقوله انا اما أن يكون جسما أو عرضا أو مجموع الجسم والعرض أو شيأ مغايرا للجسم والعرض أو ما تركب من الجسم والعرض أو من ذلك الشئ الثالث فهذا ضبط معقول (أما القسم الاول) وهو أن يقال ان الانسان جسم فذلك الجسم اما أن يكون هو هذه البنية أو جسما داخلا فى هذه البنية أو جسما خارجا عنها أما القائلون بان الانسان

عبارة

القبيحة فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا وقرئ تفعلون بالالتفات الى الخطاب لتشديد الوعيد (وما كان هذا القرآن) شروع فى بيان ردهم للقرآن الكريم اثر بيان ردهم للادلة العقلية المندرجة فى تضاعيفه أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التى من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (أن يفترى من دون الله) أى افتراء من الخلق أى مفترى منهم سمى بالمصدر مبالغة (ولكن تصديق الذى بين يديه) من الكتب الالهية المشهود على صدقها أى مصدقا لها كيف لا وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بانه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرئ بالرفع على تقدير المبتدا أى ولكن هو تصديق الخ (وتفصيل الكتاب) عطف عليه نصبا ورفعا أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع (لا ريب فيه) خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك أى منتفيا عنه الريب أو حال من الكتاب وان كان مضافا اليه فانه مفعول فى المعنى أو استئناف لا محل له من الاعراب

عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس فهم جمهور المتكلمين وهؤلاء يقولون الانسان لا يحتاج تعريفه الى ذكر حد أو رسم بل الواجب أن يقال الانسان هو الجسم المبني بهذه البنية المحسوسة واعلم أن هذا القول عندنا باطل وتقريره انهم قالوا الانسان هو هذا الجسم المحسوس فاذا أبطلنا كون الانسان عبارة عن هذا الجسم وأبطلنا كون الانسان محسوسا فقد بطل كلامهم بالكلية والذي يدل على انه لا يمكن أن يكون الانسان عبارة عن هذا الجسم وجوه (الحجة الاولى) ان العلم البديهي حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزال والعلم الضروري حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعي بان الانسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة (الحجة الثانية) ان الانسان حال ما يكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص فانه في تلك الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه وعن أعضائه وأبعاضه مجموعها ومفصلها وهو في تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة بدليل انه في تلك الحالة قد يقول غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وأبصرت وجهك وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو في تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وأبعاضه والمعلوم غير ما هو غير معلوم فالانسان يجب أن يكون مغايرا لجملة هذا البدن ولكل واحد من أعضائه وأبعاضه (الحجة الثالثة) ان كل أحد يحكم عقله باضافة كل واحد من هذه الاعضاء الى نفسه فيقول رأسي وعيني ويدي ورجلي ولساني وقلبي والمضاف غير المضاف اليه فوجب أن يكون الشئ الذي هو الانسان مغايرا لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الاعضاء فان قالوا قد يقول نفسي وذاتي فيضيف النفس والذات الى نفسه فيلزم أن يكون الشئ وذاته مغايرا لنفسه وهو محال قلنا قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشئ وذاته الحقيقة المخصوصة التي يشير اليها كل أحد بقوله انا فاذا قال نفسي وذاتي فان كان المراد البدن فعندنا أنه مغاير لجوهر الانسان أما اذا أريد بالنفس والذات الحقيقة المخصوصة المشار اليها بقوله انا فلا نسلم أن الانسان يمكنه أن يضيف ذلك الشئ الى نفسه بقوله انساني وذلك لانه عين ذاته فكيف يضيفه مرة أخرى الى ذاته (الحجة الرابعة) ان كل دليل يدل على ان الانسان يمتنع أن يكون جسما فهو أيضا يدل على انه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم وسيأتي تقرير تلك الدلائل (الحجة الخامسة) ان الانسان قد يكون حيا حال ما يكون البدن ميتا فوجب كون الانسان مغايرا لهذا البدن والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فهذا النص صريح في أن أولئك المقتولين أحياء والحس يدل على ان هذا الجسد ميت (الحجة السادسة) ان قوله تعالى النار يعرضون عليها غدوا وعشيا وقوله أغرقوا فادخلوا نارا يدل على أن الانسان يحيا بعد الموت وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته كل هذه النصوص تدل على ان الانسان يبقى بعد موت الجسد وبديهة العقل والفطرة شاهدان بان هذا الجسد ميت ولو جوزنا كونه حيا جاز مثله في جميع الجمادات وذلك عين السفسطة واذا ثبت ان الانسان حي وكان الجسد ميتا لزم أن الانسان شئ غير هذا الجسد (الحجة السابعة) قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة طويلة له حتى اذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ويقول يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال من حله وغير حله فالغنى لغيري والتبعة علي فاحذروا مثل ما حل بي وجه الاستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بان حال ما يكون الجسد محمولا على النعش بقي هناك شئ ينادي ويقول يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حله وغير حله ومعلوم ان الذي كان الاهل أهلا له وكان جامعا للمال من الحرام والحلال والذي بقي في رقبته الوبال ليس الا ذلك الانسان فهذا تصريح بان في الوقت الذي كان الجسد ميتا محمولا كان ذلك الانسان حيا باقيا فاهما وذلك تصريح بان الانسان شئ مغاير لهذا الجسد

(من رب العالمين) خبر آخر أي كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما ولا ريب فيه اعتراض كما في قولك زيد لا شك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير في فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه (أم يقولون افتراه) أي بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزة لانكار الواقع واستبعاده (قل) تبكيتا لهم واظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرنا مني في النظم والعبارة وقرئ بسورة مثله على الاضافة أي بسورة كتاب مثله (وادعوا) للمظاهرة والمعاونة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات والملمات ومداركم الذين تلجؤن الى آرائهم في كل ما تأتون وما تذرون (من دون الله) متعلق بادعوا ودون جار مجرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله في قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله أي ادعوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فانه لا يقدر عليه أحد واخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم في عدوة المضادة والمشاقة لابيان

ولهذا الهيكل (الحجة الثامنة) قوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية والخطاب بقوله ارجعي انما هو متوجه عليها حال الموت فدل هذا على ان الشئ الذي يرجع الى الله بعد موت الجسد يكون حيا راضيا عن الله ويكون راضيا عنه الله والذي يكون راضيا ليس الا الانسان فهذا يدل على ان الانسان بقي حيا بعد موت الجسد والحي غير الميت فالانسان مغاير لهذا الجسد (الحجة التاسعة) قوله تعالى حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق أثبت كونهم مردودين الى الله الذي هو مولاهم حال كون الجسد ميتا فوجب أن يكون ذلك المردود الى الله مغايرا لذلك الجسد الميت (الحجة العاشرة) نرى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون الى زياراتهم ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثا والدعاء لهم عبثا ولكان الذهاب الى زيارتهم عبثا فالاطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الاصلية السليمة شاهدة بأن الانسان شئ غير هذا الجسد وأن ذلك الشئ لا يموت بل يموت هذا الجسد (الحجة الحادية عشرة) أن كثيرا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام ويقول له اذهب الى الموضع الفلاني فان فيه ذهبا دفنته لك وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة اذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت ولولا أن الانسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك ولما دل هذا الدليل على أن الانسان يبقى بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت كان الانسان مغايرا لهذا الجسد الميت (الحجة الثانية عشرة) ان الانسان اذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تقطع يداه أو رجلاه أو تقلع عيناه أو تقطع أذناه الى غيرها من الاعضاء فان ذلك الانسان يجد من قلبه وعقله انه هو عين ذلك الانسان ولم يقع في عين ذلك الانسان تفاوت حتى انه يقول انا ذلك الانسان الذي كنت موجودا قبل ذلك الا أنه يقول انهم قطعوا يدي ورجلي وذلك برهان يقيني على أن ذلك الانسان شئ مغاير لهذه الاعضاء والابعاض وذلك يبطل قول من يقول الانسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة (الحجة الثالثة عشرة) ان القرآن والاحاديث يدلان على أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم في صورة القردة والخنازير فنقول ذلك الانسان هل بقي حال ذلك المسخ أو لم يبق فان لم يبق كان هذا اماتة لذلك الانسان وخلقا لذلك الخنزير وليس هذا من المسخ في شئ وان قلنا ان ذلك الانسان بقي حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير ذلك الانسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق فوجب أن يكون ذلك الانسان شيئا مغايرا لتلك البنية (الحجة الرابعة عشرة) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي وكان يرى ابليس في صورة الشيخ النجدي فههنا بنية الانسان وهيكله وشكله حاصل مع أن حقيقة الانسان غير حاصلة وهذا يدل على أن الانسان ليس عبارة عن هذه البنية وهذا الهيكل والفرق بين هذه الحجة والتي قبلها انه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل (الحجة الخامسة عشرة) أن الزاني يزني بفرجه فيضرب على ظهره فوجب أن يكون الانسان شيئا آخر سوى الفرج وسوى الظهر ويقال ان ذلك الشئ يستعمل الفرج في عمل والظهر في عمل آخر فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشئ الا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو (الحجة السادسة عشرة) انى اذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا ولا تفعل كذا فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهي ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه ولا شيأ من أعضائه بعينه فوجب أن يكون المأمور والمنهي والمخاطب شيأ مغايرا لهذه الاعضاء وذلك يدل على ان ذلك المأمور والمنهي غير هذا الجسد فان قالوا لم لا يجوز أن يقال المأمور والمنهي جملة هذا البدن لا شئ من أعضائه وابعاضه قلنا توجه التكليف على الجملة انما يصح لو كانت الجملة فاهمة عالمة فنقول لو كانت الجملة فاهمة عالمة فاما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة والاول يقتضي قيام العرض بالمحال الكثيرة

استبداده تعالى بالقدرة على ما كانوه فان ذلك مما يرهم أنهم لو دعوه تعالى لاجابهم اليه (ان كنتم صادقين) أى فى أنى افتريته فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو أيضا مستلزم لقدرتكم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) اضراب وانتقال عن اظهار بطلان ما قالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى الى اظهاره وبيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فانه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله أى سارعوا الى تكذيبه آثر ذى اثير من غير أن يتدبروا فيه ويقفوا على ما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للايذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه الا بعنوان عدم العلم به وبان تكذيبهم به انما هو بسبب عدم علمهم به لما أن ادارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما فى حيز الصلة له (ولما يأتهم تأويله) عطف على الصلة أو حال من الموصول أى ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن

وهو محال والثاني يقتضي أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالما فاهما مدركا على سبيل الاستقلال وقد بينا أن العلم الضروري حاصل بان الجزء المعين من البدن ليس عالما فاهما مدركا بالاستقلال فسقط هذا السؤال (الحجة السابعة عشرة) ان الانسان يجب أن يكون عالما والعلم لا يحصل الا في القلب فيلزم أن يكون الانسان عبارة عن الشئ الموجود في القلب واذا ثبت هذا بطل القول بان الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة انما قلنا ان الانسان يجب أن يكون عالما لانه فاعل مختار والفاعل المختار هو الذي يفعل بواسطة القلب والاختيار وهما مشروطان بالعلم لان ما لا يكون مقصودا امتنع القصد الى تكوينه فثبت أن الانسان يجب أن يكون عالما بالاشياء وانما قلنا ان العلم لا يوجد الا في القلب للبرهان والقرآن أما البرهان فلانا نجد العلم الضروري بانا نجد علومنا من ناحية القلب وأما القرآن فآيات نحو قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله كتب في قلوبهم الايمان وقوله نزل به الروح الامين على قلبك واذا ثبت أن الانسان يجب أن يكون عالما وثبت أن العلم ليس الا في القلب ثبت أن الانسان شئ في القلب أو شئ له تعلق بالقلب وعلى التقديرين فانه يبطل قول من يقول الانسان هو هذا الجسد وهذا الهيكل * وأما البحث الثاني وهو بيان أن الانسان غير محسوس فهو أن حقيقة الانسان شئ مغاير للسطح واللون وكل ما هو مرئي فهو اما السطح واما اللون وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس أن حقيقة الانسان غير مرئية ولا محسوسة وهذا برهان يقيني (المسئلة الرابعة) في شرح مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود في داخل البدن اعلم أن الاجسام الموجودة في هذا العالم السفلي اما أن تكون أحد العناصر الاربعة أو ما يكون متولدا من امتزاجها ويمتنع أن يحصل في البدن الانساني جسم عنصري خالص بل لا بد وأن يكون الحاصل جسما متولدا من امتزاجات هذه الاربعة فنقول أما الجسم الذي تغلب عليه الارضية فهو الاعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا الانسان شئ مغاير لهذا الجسد بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الاعضاء وذلك لان هذه الاعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية فلا جرم لم يقل أحد من العقلاء بأن الانسان عبارة عن أحد هذه الاعضاء وأما الجسم الذي تغلب عليه المائية فهو الاخلاط الاربعة ولم يقل أحد في شئ منها انه الانسان الا في الدم فان منهم من قال انه هو الروح بدليل أنه اذا خرج لزم الموت أما الجسم الذي تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الارواح وهي نوعان (أحدهما) أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة اما في القلب واما في الدماغ وقالوا انها هي الروح وانها هي الانسان ثم اختلفوا فمنهم من يقول الانسان هو الروح الذي في القلب ومنهم من يقول انه جزء لا يتجزأ في الدماغ ومنهم من يقول الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الارواح القلبية والدماغية وتلك الاجزاء النارية وهي المسماة بالحرارة الغريزية هي الانسان ومن الناس من يقول الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة الجوهر على طبيعة ضوء الشمس وهي لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق فاذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله فاذا سويته نفذت تلك الاجسام الشريفة السماوية الالهية في داخل أعضاء البدن نفاذ النار في الفحم ونفاذ دهن السمسم في السمسم ونفاذ ماء الورد في جسم الورد ونفاذ تلك الاجسام السماوية في جوهر البدن هو المراد بقوله ونفخت فيه من روحي ثم ان البدن ما دام يبقى سليما قابلا لنفاذ تلك الاجسام الشريفة بقي حيا فاذا تولدت في البدن أخلاط غليظة منعت تلك الاخلاط الغليظة من سريان تلك الاجسام الشريفة فيها فانفصلت عن هذا البدن فحينئذ يعرض الموت فهذا مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فانه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الالهية من أحوال الحياة والموت فهذا تفصيل مذاهب القائلين بان الانسان جسم موجود في داخل البدن وأما أن الانسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحدا ذهب الى هذا القول (أما القسم الثاني) وهو أن يقال الانسان عرض حال في البدن فهذا لا يقول به عاقل لان من المعلوم بالضرورة ان الانسان جوهر لانه موصوف بالعلم والقدرة والتدبير والتصرف ومن كان كذلك كان جوهرا والجوهر لا يكون عرضا بل

علو شأنه والتعبير عن ذلك باتيان التأويل للاشعار بأن تأويله متوجه الى الاذهان منساق اليها بنفسه أولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى ان القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الاخبار بالغيب وهم قد فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا في معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الامور المستقبلة ونفي اتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفي الاحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فان الشناعة في تكذيب الشئ قبل علمه المتوقع اتيانه أفحش منها في تكذيبه قبل علمه مطلقا والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا الى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما ان المتوقع قد وقع بعد وأنهم استمروا عند ذلك أيضا على ما هم عليه أولا فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشئ من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدي بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدي الوارد في سورة البقرة يرده أنها مدنية وهذه مكية وانما الذي يدل عليه ما سيتلى عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم الخ وقوله تعالى (كذلك) الخ وصف لحالهم المحكي وبيان لما يؤدي

الذى يمكن أن يقول به كل عاقل هو أن الانسان يشترط أن يكون موصوفا باعراض مخصوصة وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال (القول الاول) ان العناصر الاربعة اذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحد منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هى المزاج ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هى الانسانية وبعضها هى الفرسية فالانسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص هذا قول جمهور الاطباء ومنكرى بقاء النفس وقول أبى الحسين البصرى من المعتزلة (والقول الثانى) ان الانسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا ليس ههنا الا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الاعراض المخصوصة وهى الحياة والعلم والقدرة وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة (والقول الثالث) أن الانسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة والانسان انما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه الا أن هذا مشكل فان الملائكة قد يتشبهون بصور الناس فههنا صورة الانسان حاصلة مع عدم الانسانية وفى صورة المسخ معنى الانسانية حاصل مع ان هذه الصورة غير حاصلة فقد بطل اعتبار هذا الشكل فى حصول معنى الانسانية طردا وعكسا (أما القسم الثالث) وهو أن يقال الانسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية فهو قول أكثر الالهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معادا روحانيا وثوابا وعقابا روحانيا وذهب اليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبى القاسم الراغب الاصفهانى والشيخ أبى حامد الغزالى رحمهما الله تعالى ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمى ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد ومن الكرامية جماعة واعلم أن القائلين باثبات النفس فريقان (الاول) وهم المحققون منهم من قال الانسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص وهذا البدن وعلى هذا التقدير فالانسان غير موجود فى داخل العالم ولا فى خارجه وغير متصل فى داخل العالم ولا فى خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن اله العالم لا تعلق له بالعالم الا على سبيل التصرف والتدبير (والفريق الثانى) الذين قالوا النفس اذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الانسان فاذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن فهذه جملة مذاهب الناس فى الانسان وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول انها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وأن تلك الاجسام تكون سارية فى البدن ومادام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن فاذا انفصلت تلك الاجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن (المسئلة الخامسة) فى دلائل مثبتى النفس من ناحية العقل احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها اقناعية فلنذكر الوجوه القطعية (الحجة الاولى) لاشك ان الانسان جوهر فاما أن يكون جوهرا متحيزا أو غير متحيز والاول باطل فتعين الثانى والذى يدل على أنه يمتنع أن يكون جوهرا متحيزا أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزا غير تلك الذات ولو كان كذلك لكان كل ما علم الانسان ذاته المخصوصة وجب أن يعلم كونه متحيزا بمقدار مخصوص وليس الامر كذلك فوجب أن لا يكون الانسان جوهرا متحيزا فنفتقر فى تقرير هذا الدليل الى مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) لو كان الانسان جوهرا متحيزا لكان كونه متحيزا عين ذاته المخصوصة والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة اما أن يكون متحيزا أو لا يكون والقسمان باطلان فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل انما قلنا انه يمتنع أن يكون محل التحيز لانه يلزم كون الشئ الواحد متحيزا مرتين ولانه يلزم اجتماع المثلين ولانه ليس جعل أحدهما ذاتا والآخر صفة أولى من العكس ولان التحيز الثانى ان كان عين الذات فهو المقصود وان كان صفة لزم التسلسل وهو محال وانما قلنا انه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لان حقيقة التحيز هو الذهاب فى الجهات والامتداد فيها والشئ

الـه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبنى على بادئ الرأى والمجازفة من غير تدبر وتأمل (كذب الذين من قبلهم) أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وهم الذين من قبلهم من المكذبين وانما وضع المظهر موضع المضمر للايذان بكون التكذيب ظلما أو بعليته لاصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين فى زمرتهم جرما و وعيدا دخولا أوليا وقوله عز وجل (ومنهم) الخ وصف لحالهم بعد اتيان التأويل المتوقع اذ حينئذ يمكن تنويعهم الى المؤمن وغير المؤمن ضرورة امتناع الايمان بشئ من غير علم به واشتراك الكل فى التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه أى ومن هؤلاء المكذبين (من يؤمن به) عند الاحاطة بعلمه واتيان تأويله وظهور حقيته بعد ما سعوا فى المعارضة ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ما شاهدوا وقوع ما أخبر به كما أخبر به مرارا ومعنى الايمان به اما الاعتقاد بحقيته فقط أى يصدق [illegible] به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند ويكابر

الذى

الذى لا يكون متحيزا لم يكن له اختصاص بالجهات وحصوله فيها ليس بتحيز محال فثبت بهذا أنه لو كان الانسان جوهرا متحيزا لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة ﴿المقدمة الثانية﴾ لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولا لزم اجتماع النفي والاثبات فى الشئ الواحد وهو محال ﴿المقدمة الثالثة﴾ انا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد فى الجهات الثلاثة وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان فان الانسان حال كونه مشتغلا بشئ من المهمات مثل أن يقول لعبده لم فعلت كذا ولم خالفت أمرى وانى أبالغ فى تأديبك وضربك فعندما يقول لم خالفت أمرى يكون عالما بذاته المخصوصة اذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم ان ذلك الانسان خالفه ولامتنع أن يخبر عن نفسه بأنه على عزم أن يؤدبه ويضربه ففى هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع انه فى تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد فى الجهات والحصول فى الحيز فثبت بما ذكرنا انه لو كان ذات الانسان جوهرا متحيزا لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة ولو كان كذلك لكان كلما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت أنه ليس كذلك فيلزم أن يقال ذات الانسان ليس جوهرا متحيزا وذلك هو المطلوب فان قالوا هذا معارض بأنه لو كان ذات الانسان جوهرا مجردا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرا مجردا وليس الامر كذلك قلنا الفرق ظاهر لان كونه مجردا معناه أنه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لان السلب ليس عين الثبوت واذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وأن لا يكون ذلك السلب معلوما بخلاف كونه متحيزا فانا قد دللنا على أن على تقدير كون الانسان جوهرا متحيزا يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولا فظهر الفرق ﴿الحجة الثانية﴾ النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه فهذه الحجة مبنية على مقدمات ﴿المقدمة الاولى﴾ هى قولنا النفس واحدة ولنا ههنا مقامان تارة ندعى العلم البديهى فيه وأخرى نقيم البرهان على صحته ﴿أما المقام الاول﴾ وهو ادعاء البديهية فنقول المراد من النفس هو الشئ الذى يشير اليه كل أحد بقوله أنا وكل أحد يعلم بالضرورة أنه اذا أشار الى ذاته المخصوصة بقوله أنا كان ذلك المشار اليه واحدا غير متعدد ❊ فان قيل لم لا يجوز أن يكون المشار اليه لكل أحد بقوله أنا وان كان واحدا الا أن ذلك الواحد يكون مركبا من أشياء كثيرة ❊ قلنا انه لا حاجة لنا فى هذا المقام الى دفع هذا السؤال بل نقول المشار اليه بقول أنا معلوم بالضرورة أنه شئ واحد فأما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء كثيرة أو هو واحد فى نفسه واحد فى حقيقته فهذا لا حاجة اليه فى هذا المقام ﴿وأما المقام الثانى﴾ وهو مقام الاستدلال فالذى يدل على وحدة النفس وجوه ﴿الحجة الاولى﴾ ان الغضب حالة نفسانية تحدث عند ارادة دفع المنافر والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطا بالشعور بكون الشئ ملايما ومنافرا فالقوة الغضبية التى هى قوة دافعة للمنافر ان لم يكن لها شعور بكونه منافرا امتنع انبعاثها لدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لان القصد الى الجذب تارة والى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشئ فالشئ المحكوم عليه بكونه دافعا للمنافر على سبيل الاختيار لابد وأن يكون له شعور بكونه منافرا فالذى يغضب لابد وأن يكون هو بعينه مدركا فثبت بهذا البرهان اليقينى مباينة حاصلة فى ذوات متباينة ﴿الحجة الثانية﴾ انا اذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلا بفعله الخاص امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعا للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به واذا ثبت هذا فنقول لو كان محل الادراك والفكر جوهرا ومحل الغضب جوهرا آخر ومحل الشهوة جوهرا ثالثا وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعا للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثانى باطل فان اشتغال الانسان بالشهوة وانصبابه اليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه اليه وبالعكس فعلمنا أن هذه الامور الثلاثة ليست مبادى مستقلة بل هى صفات مختلفة لجوهر واحد فلا جرم كان اشتغال

وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم الى أنهم يعلمون الحق على التفسير الاول كما أشير اليه فيما سلف واما الايمان الحقيقى أى سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثانى الى أنهم سيتبعون الحق كما مر (ومنهم من لا يؤمن به) أى لا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهرا لفرط غباوته المانعة عن الاحاطة بعلمه كما ينبغى وان كان فوق مرتبة عدم الاحاطة به أصلا أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن مخالطة الظنون والاوهام التى ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من الاحاطة واتيان التأويل كاف فى مقابلة ما سبق من عدم الاحاطة بالمرة وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل وما يتبع أكثرهم الا ظنا على التفسير الاول أو لا يؤمن به فيما سيأتى بل يموت على كفره معاندا كان أو شاكا وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثانى من غير اذعان للحق وانقياد له (وربك أعلم بالمفسدين) أى بكلا الفريقين على الوجه الاول لا بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما فى أصل الافساد المستدعى لاشتراكهما فى الوعيد أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثانى من المعاندين والشاكين (وان كذبوك) أى ان تموا على

ذلك الجوهر بأحد هذه الافعال عائقاله عن الاشتغال بالفعل الآخر (الحجة الثالثة) انا اذا أدركنا أشياء فقد يكون الادراك سببا لحصول الشهوة وقد يصير سببا لحصول الغضب فلو كان الجوهر المدرك مغايرا للذي يغضب والذي يشتهي فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهي من ذلك الادراك أثر ولا خبر فوجب أن لا يترتب على ذلك الادراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا أن صاحب الادراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه (الحجة الرابعة) ان حقيقة الحيوان انه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالارادة فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالارادة الا عند حصول الداعي ولا معنى للداعي الا الشعور بخير يرغب في جذبه أو شر يرغب في دفعه وهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالارادة هو بعينه مدركا للخير والشر والملذ والمؤذي والنافع والضار فثبت بما ذكرنا أن النفس الانسانية شئ واحد وثبت ان ذلك الشئ هو المبصر والسامع والشام والذائق واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهي والغاضب وهو الموصوف بجميع الادراكات لكل المدركات وهو الموصوف بجميع الافعال الاختيارية والحركات الارادية (وأما المقدمة الثانية) في بيان انه لما كانت النفس شيأ واحدا وجب أن لا تكون النفس في هذا البدن ولا شيأ من أجزائه فنقول أما بيان انه متى كان الامر كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكر والعلم بان هذه القوى غير سارية في جملة أجزاء البدن علم بديهي بل هو من أقوى العلوم البديهية وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزأ من أجزاء هذا البدن فانا نعلم بالضرورة أنه ليس في البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالابصار والسماع والفكر والذكر بل الذي يتبادر الى الخاطر أن الابصار مخصوص بالعين لا بسائر الاعضاء والسماع مخصوص بالاذن لا بسائر الاعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الاعضاء وكذلك القول في سائر الادراكات وسائر الافعال فأما ان يقال انه حصل في البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الادراكات وبكل الافعال فالعلم الضروري حاصل بأنه ليس الامر كذلك فثبت بما ذكرنا ان النفس الانسانية شئ واحد موصوف بجملة هذه الادراكات وبجملة هذه الافعال وثبت بالبديهة أن جملة البدن ليست كذلك وثبت أيضا ان شيأ من أجزاء البدن ليس كذلك فحينئذ يحصل اليقين بان النفس شئ مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب ولنقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول انا نعلم بالضرورة انا اذا أبصرنا شيأ عرفناه واذا عرفناه اشتهيناه واذا اشتهيناه حركنا أبداننا الى القرب منه فوجب القطع بان الذي أبصره هو الذي عرفه وان الذي عرفه هو الذي اشتهى وان الذي اشتهى هو الذي حرك الى القرب منه فيلزم القطع بان المبصر لذلك الشئ والعارف به والمشتهي والمحرك الى القرب منه شئ واحد اذ لو كان المبصر شيأ والعارف شيأ ثانيا والمشتهي شيأ ثالثا والمحرك شيأ رابعا لكان الذي أبصر لم يعرف والذي عرف لم يشته والذي اشتهى لم يتحرك ومن المعلوم ان كون الشئ مبصرا لشئ لا يقتضي صيرورة شئ آخر عالما بذلك الشئ وكذلك القول في سائر المراتب وأيضا فانا نعلم بالضرورة أن الرائي للمرئيات لما رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الاعضاء الى القرب منها ونعلم أيضا بالضرورة ان الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره وأيضا العقلاء قالوا الحيوان لابد أن يكون حساسا متحركا بالارادة فانه ان لم يحس بشئ لم يشعر بكونه ملائما أو بكونه منافرا واذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريدا للجذب أو الدفع فثبت أن الشئ الذي يكون متحركا بالارادة فانه بعينه يجب أن يكون حساسا فثبت ان المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الادراكات وان المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شئ واحد وأيضا فلانا اذا تكلمنا بكلام نقصد تفهيم الغير معاني تلك الكلمات ثم لما عقلناه أردنا تعريف غيرنا تلك المعاني ولما حصلت هذه الارادة في قلوبنا حاولنا ادخال تلك الحروف والاصوات في الوجود لنتوسل بها الى تعريف غيرنا تلك المعاني اذا ثبت هذا فنقول ان كان محل العلم والارادة ومحل تلك الحروف والاصوات جسما واحدا لزم أن يقال ان محل العلوم

تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد الزام الحجة بالتحدي (فقل لي عملي ولكم عملكم) أي تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى فان عصوك فقل اني بريء والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا وتوحيد العمل المضاف اليهم باعتبار الاتحاد النوعي ولمراعاة كمال المقابلة (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) تأكيد لما أفاده لام الاختصاص من عدم تعدي جزاء العمل الى غير عامله أي لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم ولما فيه من ايهام المتاركة وعدم التعرض لهم قيل انه منسوخ بآية السيف (ومنهم من يستمعون اليك) بيان لكونهم مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل الى ايمانهم وابقاء جمع الضمير الراجع الى كلمة من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتي محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للايماء الى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة أي ومنهم ناس يستمعون اليك عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع (أفأنت تسمع الصم) همزة الاستفهام انكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب انكار الاسماع على الاستماع كما هو رأي سيبويه والجمهور على أن محل تقديم

العلوم والارادات هو الحنجرة واللهاة واللسان ومعلوم أنه ليس كذلك وان قلنا محل العلوم والارادات هو
القلب لزم أيضا أن يكون محل الصوت هو القلب وذلك أيضا باطل بالضرورة وان قلنا محل الكلام هو
الحنجرة واللهاة واللسان ومحل العلوم والارادات هو القلب ومحل القدرة هو الاعصاب والاوتار والعضلات
كنا قد وزعنا هذه الامور على هذه الاعضاء المختلفة لكنا أبطلنا ذلك وبينا ان المدرك لجميع المدركات
والمحرك لجميع الاعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيأ واحدا فلم يبق الا أن يقال في الادراك
والقدرة على التحريك شئ سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن وان هذه الاعضاء جارية مجرى
الآلات والادوات فكما أن الانسان يفعل أفعالا مختلفة بواسطة آلات مختلفة فكذلك النفس تبصر
بالعين وتسمع بالاذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب فهذه الاعضاء آلات النفس وأدوات لها والنفس
جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبير وهذا البرهان برهان شريف يقيني في
ثبوت هذا المطلوب والله أعلم (المقدمة الثالثة) لو كان الانسان عبارة عن هذا الجسد لكان اما أن يقوم
بكل واحد من الاجزاء حياة وعلم وقدرة على حدة واما أن يقوم بمجموع الاجزاء حياة وعلم وقدرة
والقسمان باطلان فبطل القول بكون الانسان عبارة عن هذا الجسد * أما بطلان القسم الاول فلأنه
يقتضي كون كل واحد من أجزاء الجسد حيا عالما قادرا على سبيل الاستقلال فوجب أن لا يكون
الانسان الواحد حيوانا واحدا بل أحياء عالمين قادرين وحينئذ لا يبقى فرق بين الانسان الواحد وبين
أشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لأني
أجد ذاتي ذاتا واحدة لا حيوانات كثيرين وأيضا فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد
حيوانا واحدا على حدة فحينئذ لا يكون لكل واحد منها خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع أن يريد هذا أن
يتحرك الى هذا الجانب ويريد الجزء الآخر أن يتحرك الى الجانب الآخر فحينئذ يقع التدافع بين أجزاء
بدن الانسان الواحد كما يقع بين شخصين وفساد ذلك معلوم بالبديهة * وأما بطلان القسم الثاني فلأنه
يقتضي قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وذلك معلوم البطلان بالضرورة ولانه لو جاز حلول الصفة
الواحدة في المحال الكثيرة لم يبعد أيضا حصول الجسم الواحد في الاحياز الكثيرة ولان بتقدير ان تحصل
الصفة الواحدة في المحال المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الاجزاء حيا عاقلا عالما فينجر الامر
الى كون هذه الجثة الواحدة أناسا كثيرين ولما ظهر فساد القسمين ثبت ان الانسان ليس هو هذه الجثة فان
قالوا لم لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد ثم ان تلك الحياة تقتضي صيرورة جملة الاجزاء أحياء
قلنا هذا باطل لانه لا معنى للحياة الا الحيية ولا معنى للعلم الا العالمية وبتقدير ان نساعد على ان الحياة معنى
يوجب الحيية والعلم معنى يوجب العالمية الا أنا نقول ان حصل في مجموع جثة مجموع حياة واحدة وعالمية
واحدة فقد حصلت الصفة الواحدة في المحال الكثيرة وهو محال وان حصل في كل جزء وجثة حياة على
حدة وعالمية على حدة عاد ما ذكرنا من كون الانسان الواحد أناسا كثيرين وهو محال (المقدمة الرابعة)
انا لما تأملنا في أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم وذلك يدل على ان النفس ليست
جسما وتقرير هذه المنافاة من وجوه (الاول) ان كل جسم حصلت فيه صورة فانه لا يقبل صورة أخرى من
جنس الصورة الاولى الا بعد زوال الصورة الاولى زوالا تاما مثاله ان الشمع اذا حصل فيه شكل التثليث
امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير الا بعد زوال الشكل الاول عنه ثم انا وجدنا الحال في تصور
النفس صور المعقولات بالضد من ذلك فان النفس التي لم تقبل صورة عقلية البتة يبعد قبولها لشئ من
الصور العقلية فاذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية أسهل ثم ان النفس لا تزال تقبل صورة
بعد صورة من غير أن تضعف البتة بل كلما كان قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك
أسهل وأسرع ولهذا السبب يزداد الانسان فهما وادراكا كلما ازداد تخرجا وارتياضا في العلوم فثبت أن
قبول النفس للصورة العقلية على خلاف قبول الجسم للصور وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم (والثاني)

الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرر في موضعه بل لانكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على
الفعل المذكور لادائه
الى اختلال المعنى لانه اما
صلة أو صفة وأياما كان
فالعطف عليه يستدعي
دخول المعطوف في حيزه
وتوجه الانكار اليه من
تلك الحيثية ولا ريب في
فساده بل بطريق
العطف على مقدر مفهوم
من فحوى النظم كأنه قيل
أيستمعون اليك فأنت
تسمعهم لا انكارا
لاستماعهم فانه أمر محقق
بل انكار لوقوع الاستماع
عقيب ذلك وترتبه عليه
حسب العادة الكلية بل
نفيا لامكانه أيضا كما
ينبئ عنه وضع الصم
موضع ضميرهم ووصفهم
بعدم العقل بقوله تعالى
(ولو كانوا لا يعقلون) أي
ولو انضم الى صممهم عدم
عقولهم لان الاصم
العاقل ربما تفرس اذا
وصل الى صماخه صوت
وأما اذا اجتمع فقدان
السمع والعقل جميعا فقد
تم الامر (ومنهم من ينظر
اليك) ويعاين دلائل
نبوتك الواضحة
(أفأنت) أي أعقيب
ذلك أنت تهديهم وانما
قيل (تهدي العمي)
تربية لانكار هدايتهم
وابرازا لوقوعها في معرض
الاستحالة وقد أكد ذلك
حيث قيل (ولو كانوا
لا يبصرون) أي ولو انضم
الى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود من الابصار الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك هي البصيرة ولذلك يحدث الاعمى المستبصر

أن المواظبة على الافكار الدقيقة لها أثر فى النفس وأثر فى البدن أما أثرها فى النفس فهو تأثيرها فى اخراج النفس من القوة الى الفعل فى التعقلات والادراكات وكلما كانت الافكار أكثر كان حصول هذه الاحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها وأما أثرها فى البدن فهو انها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت الى الماليخوليا وسوق الموت فثبت بما ذكرنا أن هذه الافكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته فلو كانت النفس هى البدن لصار الشئ الواحد سببا لكماله ونقصانه معا ولحياته وموته معا وانه محال (والثالث) انا اذا شاهدنا انه ربما كان بدن الانسان ضعيفا نحيفا فاذا لاح له نور من الانوار القدسية وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب حصل لذلك الانسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية ولم يعبأ بحضور أكابر السلاطين ولم يقم لهم وزنا ولولا أن النفس شئ سوى البدن لما كان الامر كذلك (الرابع) أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الالهية وكلما أمعن الانسان فى الاكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقى محروما عن آثار النطق والعقل والفهم والمعرفة ولولا أن النفس غير البدن لما كان الامر كذلك (الخامس) انا نرى ان النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فانها تبصر بالعين وتسمع بالاذن وتأخذ باليد وتمشى بالرجل أما اذا آل الامر الى العقل والادراك فانها مستقلة بذاتها فى هذا الفعل من غير اعانة شئ من الآلات ولذلك فان الانسان لا يمكنه أن يبصر شيأ اذا غمض عينيه وأن لا يسمع صوتا اذا سد أذنيه اما لا يمكنه البتة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالما به فعلمنا ان النفس غنية بذاتها فى العلوم والمعارف عن شئ من الآلات البدنية فهذه الوجوه الخمسة أمارات قوية فى أن النفس ليست بجسم وفى المسئلة الاولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها فى كتبنا الحكمية فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة السادسة) فى اثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية (الحجة الاولى) قوله تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ومعلوم أن احدا من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد فدل ذلك على أن النفس التى ينساها الانسان عند فرط الجهل شئ آخر غير هذا البدن (الحجة الثانية) قوله تعالى أخرجوا أنفسكم وهذا صريح أن النفس غير البدن وقد استقصينا فى تفسير هذه فليرجع اليه (الحجة الثالثة) أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الى قوله فكسونا العظام لحما ولاشك ان جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الاحوال الجسمانية ثم انه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال ثم انشأناه خلقا آخر وهذا تصريح بان ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الاحوال الجسمانية وذلك يدل على أن الروح شئ مغاير للبدن فان قالوا هذه الآية حجة عليكم لانه تعالى قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وكلمة من للتبعيض وهذا يدل على أن الانسان بعض من أبعاض الطين قلنا كلمة من أصلها لابتداء الغاية كقولك خرجت من البصرة الى الكوفة فقوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الانسان حاصلا من هذه السلالة ونحن نقول بموجبه لانه تعالى يسوى المزاج أولا ثم ينفخ فيه الروح فيكون ابتداء تخليقه من السلالة (الحجة الرابعة) قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ميز تعالى بين التسوية وبين نفخ الروح فالتسوية عبارة عن تخليق الابعاض والاعضاء وتعديل المزاج والاشباح فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الاعضاء ثم أضاف الروح الى نفسه بقوله من روحى دل ذلك على ان جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد (الحجة الخامسة) قوله تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها وهذه الآية صريحة فى وجود شئ موصوف بالادراك والتحريك معا لان الالهام عبارة عن الادراك وأما الفجور والتقوى فهو فعل وهذه الآية صريحة فى ان الانسان شئ واحد وهو موصوف بالادراك والتحريك وموصوف أيضا بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلابد من اثبات جوهر آخر يكون موصوفا بكل هذه

ويتفطن مالا يدركه البصير الاحمق فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو فى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى تسمع الصم تهدى العمى عليه وكل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها فى الفحوى كلتاهما فى موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفأنت تهدى العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو وان الوصليتين من التأكيد وقد مر الكلام فى قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره مرارا (ان الله لا يظلم الناس) اشارة الى أن ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم الى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الادراك ليس لامر مستند الى الله عز وجل من خلقهم مؤفى المشاعر ونحو ذلك بل انما هو من قبلهم أى لا ينقصهم (شيأ) مما نيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكمالاتهم الاولوية والاخروية من مبادى ادراكاتهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والارشاد الى الحق بارسال الرسل وانزال الكتب

الامور

الامور ﴿المسألة السادسة﴾ قوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا فهذا تصريح بأن الانسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الالهية والامور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضو من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير أجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات واعلم ان الاحاديث الواردة في صفة الارواح قبل تعلقها بالاجساد و بعد انفصالها من الاجساد كثيرة وكل ذلك يدل على ان النفس شيء غير هذا الجسد والتعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة و يروي هذه الاخبار الكثيرة ثم يقول توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب والله أعلم ﴿المسألة السابعة﴾ في دلالة الآية التي نحن في تفسيرها على صحة ماذكرناه أن الروح لو كانت جسما منتقلا من حالة الى حالة ومن صفة الى صفة لكان مساويا للبدن في كونه متولدا من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد ان كانت موصوفة بصفات أخرى فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحا مثل ماذكر في كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة فلما لم يقل ذلك بل قال انه من أمر ربي بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود الا بعد أن الله تعالى قال له كن فيكون دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الاجسام بل هو جوهر قدسي مجرد واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضات وأرباب المكاشفات والمشاهدات مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب قال الواسطي خلق الله الارواح من بين الجمال والبهاء فلولا أنه ستره السجد لها كل كافر وأما بيان أن تعلقه الاول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره الى جملة الاعضاء فقد شرحناه في تفسير قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين واحتج المنكرون بوجوه (الاول) لو كانت مساوية لذات الله في كونه ليس بجسم ولا عرض لكانت مساوية له في تمام الماهية وذلك محال (الثاني) قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره وهذا تصريح بأن الانسان شيء مخلوق من النطفة وأنه يموت ويدخل القبر ثم انه تعالى يخرجه من القبر ولو لم يكن الانسان عبارة عن هذه الجثة والا لم تكن الاحوال المذكورة في هذه الآية صحيحة (الثالث) قوله ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله الى قوله يرزقون فرحين وهذا يدل على ان الروح جسم لان الارزاق والفرح من صفات الاجسام ﴿الجواب عن الاول﴾ أن المساواة في أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز مساواة في صفة سلبية والمساواة في الصفة السلبية لا توجب المماثلة واعلم ان جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجودا ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وجب أن يكون مثلا للاله أو جزأ للاله وذلك جهل فاحش وغلط قبيح وتحقيقه ماذكرناه في أن المساواة في السلوب لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات وان كل ماهيتين مختلفتين فلابد أن يشتركا في سلب كل ما عداهما عنهما فاذا تكن هذه الدقيقة معلومة فانها مغلطة عظيمة للجهال ﴿والجواب عن الثاني﴾ أنه لما كان الانسان في العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة اطلق عليه اسم الانسان في العرف ﴿والجواب عن الثالث﴾ أن الرزق المذكور في الآية محمول على ما يقوي حالهم و يكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته بل نقول هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لان أبدانهم قد بليت تحت التراب والله تعالى يقول ان أرواحهم تأوي الى قناديل معلقة تحت العرش وهذا يدل على أن الروح غير البدن وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب * ولنرجع الى علم التفسير ثم قال تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا وعلى قولنا فقد ذكرنا فيه احتمالين أما المفسرون فقالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فقال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شأنك يا محمد ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزل قوله ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام الى آخره وماذكروه ليس بلازم لان الشيء قد يكون قليلا بالنسبة الى شيء كثيرا بالنسبة الى شيء آخر فالعلوم الحاصلة عند الناس

بل يوفيهم ذلك من غير اخلال بشيء أصلا (ولكن الناس) وقرئ بالتخفيف ورفع الناس ووضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أي لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له واعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب (أنفسهم يظلمون) أي ينقصون ما ينقصون مما يخلون به من مبادي كمالهم وذرائع اهتدائهم وانما لم يذكر لما أن مرمى الغرض انما هو قصر الظلم على أنفسهم لا بيان ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وابطالا بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل أنفسهم اما تأكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين في قصر الظالمية عليهم واما مفعول ليظلمون حسبما وقع في سائر المواقع وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما في قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأي من يراه موجبا له فلعل ايثار قصرها دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة في بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الامرين عند اتحاد الفاعل

قليلة جدا بالنسبة الى علم الله و بالنسبة الى حقائق الاشياء ولكنها كثيرة بالنسبة الى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية ﴿قوله تعالى ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا﴾ وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية الاولى انه ما آتاهم من العلم الا قليلا بين فى هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضا لقدر عليه وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان أمرا مخالفا للعادة الا انه تعالى قادر عليه ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج الكعبى بهذه الآية على أن القرآن مخلوق فقال والذى يقدر على ازالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديما بل يجب أن يكون محدثا وهذا الاستدلال بعيد لان المراد بهذا الاذهاب ازالة العلم به عن القلوب وازالة النقوش الدالة عليه عن المصحف وذلك لا يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثا وقوله ثم لا تجد لك به علينا وكيلا أى لا تجد من تتوكل عليه فى رد شئ منه ثم قال الا رحمة من ربك أى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله ببقاء القرآن على انه تعالى منّ على جميع العلماء بنوعين من المنة (أحدهما) تسهيل ذلك العلم عليه (الثانى) ابقاء حفظه عليه وقوله ان فضله كان عليك كبيرا فيه قولان (الاول) المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك (الثانى) المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك أيضا بابقاء العلم والقرآن عليك ﴿قوله تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم انا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله بالغنا فى بيان اعجاز القرآن وللناس فيه قولان منهم من قال القرآن معجز فى نفسه ومنهم من قال انه ليس فى نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته مع ان تلك الدواعى كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة والمختار عندنا فى هذا الباب أن نقول القرآن فى نفسه اما أن يكون معجزا أولا يكون فان كان معجزا فقد حصل المطلوب وان لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على الاتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع وعلى هذا التقدير كان الاتيان بمعارضته واجبا لازما فعدم الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا فهذا هو الطريق الذى نختاره فى هذا الباب ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول هب أنه قد ظهر عجز الانسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته وأيضا فلم لا يجوز أن يقال ان هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد صلى الله عليه وسلم وخصوه به على سبيل السعى فى اضلال الخلق فعلى هذا انما تعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم اذا عرفتم ان محمدا صادق فى قوله انه ليس من كلام الجن بل هو من كلام الله تعالى فحينئذ يلزم الدور وليس لاحد أن يقول كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لانا نقول ان هذه الآية دلت على وقوع التحدى مع الجن وانما يحسن هذا التحدى لو كانوا فصحاء بلغاء ومتى كان الامر كذلك كان الاحتمال المذكور قائما أجاب العلماء عن الاول بان عجز البشر عن معارضته يكفى فى اثبات كونه معجزا وعن الثانى ان ذلك لو وقع لوجب فى حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه وعلى انه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالاجوبة الشافية الكافية فى آخر سورة الشعراء فى قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم وقد شرحنا كيفية هذه الاجوبة هناك فلا فائدة فى الاعادة ﴿المسئلة الثالثة﴾ قالت المعتزلة الآية دالة على ان القرآن مخلوق لان التحدى بالقديم محال وهذه المسئلة قد ذكرناها أيضا بالاستقصاء فى سورة البقرة فلا فائدة فى الاعادة ﴿ثم قال تعالى ﴿ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل﴾ وهذا الكلام يحتمل وجوها (أحدها) انه وقع التحدى بكل القرآن كما فى هذه الآية ووقع التحدى أيضا بعشر سور منه كما فى قوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ووقع التحدى

بالسورة

والمفعول وأشدها انكارا عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبها حذرا منه عند كل أحد هو المظلومية لا الظالمية على أن قصر الاولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه اذا لم يظلم أحد من الناس الا نفسه يلزم ان لا يظلمه الا نفسه اذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد الا نفسه فاكتفى بالقصر الاول عن الثانى مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيا واثباتا فان حرف النفى اذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفى لا نفى الاستمرار ألا ترى أن قولك ما زيدا ضربت يدل على اختصاص النفى لا على نفى الاختصاص وسياق الآية الكريمة لالزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارع المنفى للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى ان الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيأ من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلما مستمرا فان مباشرتهم المستمرة للسيآت الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لانفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق (ويوم يحشرهم) منصوب بمضمر وقرئ بالنون على الالتفات أى اذكرهم أو أنذرهم يوم يحشرهم (كأن لم يلبثوا) أى كأنهم

بالسورة الواحدة كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة مثله ووقع التحدى بكلام من سورة واحدة كما فى قوله فليأتوا بحديث مثله فقوله ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل يحتمل أن يكون المراد منه التحدى كما شرحناه ثم انهم مع ظهور عجزهم فى جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم (وثانيها) أن يكون المراد من قوله ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل انا أخبرناهم بان الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود كيف ابتلاهم بانواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مرارا وأطوارا ثم ان هؤلاء الاقوام يعنى أهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر (وثالثها) أن يكون المراد أنه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفى الشركاء والاضداد فى هذا القرآن مرارا كثيرة وذكر شبهات منكرى النبوّة والمعاد مرارا وأطوارا وأجاب عنها ثم أردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوّة والمعاد ثم ان هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مصرين على الشرك وانكار النبوّة ﴿ ثم قال تعالى ﴿فأبى أكثر الناس الا كفورا﴾ يريد أكثر أهل مكة الا كفورا أى جحودا للحق وذلك انهم أنكروا ما لا حاجة الى اظهاره * فان قيل كيف جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولا يجوز أن يقال ضربت الا زيدا * قلنا لفظ أبى يفيد النفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا ﴿ قوله تعالى ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا﴾ اعلم انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم فحينئذ تم الدليل على كونه نبيا صادقا لانا نقول ان محمدا ادعى النبوّة وظهر المعجز على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبى صادق فهذا يدل على ان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها لانا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهى الامر فيه الى مقطع وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزا آخر ولا ينتهى الامر فيه الى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين لانه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزا التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس ان رؤساء أهل مكة أرسلوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد ان أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعا أى نهرا وعيونا نزرع فيها فقال لا أقدر عليه فقال قائل منهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا فقال لا أقدر عليه فقيل أو يكون لك بيت من زخرف أى من ذهب فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه فقيل له أما تستطيع ان تأتى قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع قالوا فاذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أى قطعا بالعذاب وقوله كما زعمت اشارة الى قوله اذا السماء انشقت اذا السماء انفطرت فقال عبد الله بن أمية المخزومى وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والذى يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر اليك فتأتى باربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس ﴿ (المسئلة الثانية) اعلم انهم اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنواعا من المعجزات (أولها) قولهم حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا قرأ عاصم وحمزة والكسائى تفجر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره أبو حاتم قال لان الينبوع واحد والباقون بالتشديد واختاره أبو عبيد ولم يختلفوا فى الثانية مشددة لاجل الانهار لانها جمع يقال فجرت الماء فجرا وفجرته تفجيرا فمن ثقل أراد به كثرة الانفجار من الينبوع وهو وان كان واحدا فلكثرة الانفجار فيه يحسن أن يثقل كما تقول ضرب زيد اذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وان كان الفاعل واحدا ومن خفف فلأن الينبوع واحد وقوله ينبوعا يعنى عينا ينبع الماء منه تقول نبع الماء ينبع نبعا ونبوعا ونبعانا ذكره الفراء قال القوم أزل عنا جبال مكة وفجر لنا الينبوع ليسهل علينا أمر الزراعة والحراثة

لم يلبثوا (الا ساعة من النهار) أى شيأ قليلا منه فانها مثل فى غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة فى موقع الحال من ضمير المفعول أى يحشرهم مشبهين فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها الا ذلك القدر اليسير فان من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث فى البرزخ الا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة الى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم بقولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الاشكال والصور فان قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا (يتعارفون بينهم) بيانا وتقريرا له لان التعارف مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الاول يكون استئنافا أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك أول ما خرجوا من القبور اذ هم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الاهوال المذهلة واعتراء الاحوال المعضلة المغيرة للصور والاشكال المبدلة لها من حال الى حال (قد

(وثانيها) قولهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا والتقدير كأنهم قالوا هب انك لا تفجر هذه الانهار لاجلنا ففجرها من أجلك (وثالثها) قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن عامر كسفا بفتح السين ههنا وفى سائر القرآن بسكونها وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ههنا وفى الروم بفتح السين وفى باقى القرآن بسكونها وقرأ حفص فى سائر القرآن بالفتح الا فى الروم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى فى الروم بفتح السين وفى سائر القرآن بسكون السين قال الواحدى رحمه الله كسفا فيه وجهان من القراءة سكون السين وفتحها قال أبو زيد يقال كسفت الثوب أكسفه كسفا اذا قطعته قطعا وقال الليث الكسف قطع العرقوب والكسفة القطعة وقال الفراء سمعت اعرابيا يقول ابزاز اعطنى كسفة يريد قطعة فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوها (أحدها) قال الفراء ان يكون جمع كسفة مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر (وثانيها) قال أبو على اذا كان المصدر الكسف فالكسف الشئ المقطوع كما تقول فى الطحن والطحن والسقى والسقى ويؤكد هذا قوله وان يروا كسفا من السماء ساقطا (وثالثها) قال الزجاج من قرأ كسفا كأنه قال أو يسقطها طبقا علينا واشتقاقه من كسفت الشئ اذا غطيته وأما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر وهو نصب على الحال فى القراءتين جميعا كانه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله كما زعمت فيه وجوه (الاول) قال عكرمة كما زعمت يا محمد انك نبى فأسقط السماء علينا (والثانى) قال آخرون كما زعمت ان ربك ان شاء فعل (الثالث) يمكن أن يكون المراد ما ذكره الله تعالى فى هذه السورة فى قوله أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصبا فقيل اجعل السماء قطعا متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا (ورابعها) قولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وفى لفظ القبيل وجوه (الاول) القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا أنه لا يجوز عليه المقابلة ويقرب منه قوله وحشرنا عليهم كل شئ قبلا (والقول الثانى) ما قاله ابن عباس يريد فوجا بعد فوج قال الليث وكل جند من الجن والانس قبيل وذكرنا ذلك فى قوله انه يراكم هو وقبيله (القول الثالث) ان قوله قبيلا معناه ههنا ضامنا وكفيلا قال الزجاج يقال قبلت به أقبل كقولك كفلت به أكفل وعلى هذا القول فهو واحد أريد به الجمع كقوله تعالى وحسن أولئك رفيقا (والقول الرابع) قال أبو على معناه المعاينة والدليل عليه قوله تعالى لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا (وخامسها) قولهم أو يكون لك بيت من زخرف قال مجاهد كنا لا ندرى ما الزخرف حتى رأيت فى قراءة عبد الله أو يكون لك بيت من ذهب قال الزجاج الزخرف الزينة يدل عليه قوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت أى أخذت كمال زينتها ولا شئ فى تحسين البيت وتزيينه كالذهب (وسادسها) قولهم أو ترقى فى السماء قال الفراء يقال رقيت وأنا أرقى رقيا ورقيا وأنشد

أنت الذى كلفتنى رقى الدرج * على الكلال والمشيب والعرج

وقوله فى السماء أى فى معارج السماء فحذف المضاف يقال رقى السلم ورقى الدرجة ثم قالوا ولن نؤمن لرقيك أى لن نؤمن لاجل رقيك حتى تنزل علينا كتابا من السماء فيه تصديقك قال عبد الله بن أمية لن نؤمن حتى تضع على السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك ان الامر كما تقول * ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا وفيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ انه تعالى حكى من قول الكفار قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله قل سبحان ربى وكل ذلك كلام القوم وانا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتا فى النظم فصح بهذا صحة ما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿والجواب﴾ ان هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال ﴿البحث الثانى﴾ هذه الآيات من أدل الدلائل على ان المجئ والذهاب على الله محال لان كلمة سبحان للتنزيه عما لا ينبغى وقوله سبحان ربى تنزيه لله تعالى عن شئ لا يليق به أو نسب

خسر الذين كذبوا بلقاء الله) شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على ارادة القول والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقام اضمار لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لما أصابهم والمراد بلقاء الله ان كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا فى تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفر بالايمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى (وما كانوا مهتدين) ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وان كان سوء اللقاء فالخسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا الى طريق النجاة (واما نرينك) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى نبصرنك بأن نظهر لك (بعض الذى نعدهم) أى وعدناهم من العذاب ونعجله فى حياتك فتراه والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز الى العدو قبل ان تعش الموعود قد أراه يوم بدر (أو نتوفينك)

اليه

اليه مما تقدم ذكره وليس فيما تقدم ذكره شئ لايليق بالله الا قولهم أو تأتى بالله فدل هذا على ان قوله سبحان ربى تنزيه لله عن الاتيان والمجىء وذلك يدل على فساد قول المشبهة فى ان الله تعالى يجىء ويذهب فان قالوا لم لايجوز أن يكون المراد تنزيه الله تعالى عن أن يتحكم عليه المتحكمون فى اقتراح الاشياء قلنا القوم لم يتحكموا على الله وانما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا صادقا فاطلب من الله أن يشرفك بهذه المعجزات فالقوم تحكموا على الرسول وما تحكموا على الله فلا يليق حمل قوله سبحان ربى على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم أو تأتى بالله (البحث الثالث) تقرير هذا الجواب أن يقال اما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الاتيان من عند نفسى بهذه الاشياء أو طلبتم منى أن أطلب من الله تعالى اظهارها على يدى لتدل على كونى رسولا حقا من عند الله والاول باطل لانى بشر والبشر لاقدرة له على هذه الاشياء (والثانى) أيضا باطل لانى قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهى القرآن والدلالة على كونها معجزة فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة اليه ولا ضرورة فكان طلبها يجرى مجرى التعنت والتحكم وأنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكم على الله فسقط هذا السؤال فثبت ان قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا جواب كاف فى هذا الباب وحاصل الكلام أنه سبحانه بين بقوله سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا كونهم على الضلال فى الالهيات وفى النبوات أما فى الالهيات فيدل على ضلالهم قوله سبحان ربى أى سبحانه عن أن يكون له اتيان ومجىء وذهاب وأما فى النبوات فيدل على ضلالهم قوله هل كنت الا بشرا رسولا وتقريره ماذكرناه ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ اعلم انه تعالى لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها حكى عنهم شبهة أخرى وهى ان القوم استبعدوا أن يبعث الله الى الخلق رسولا من البشر بل اعتقدوا ان الله تعالى لو أرسل رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى وتقرير هذا الجواب أن بتقدير أن يبعث الله ملكا رسولا الى الخلق فالخلق انما يؤمنون بكونه رسولا من عند الله لاجل قيام المعجز الدال على صدقه وذلك المعجز هو الذى يهديهم الى معرفة ذلك الملك فى ادعاء رسالة الله تعالى فالمراد من قوله تعالى اذ جاءهم الهدى هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الاقرار برسالته فثبت أن يكون قولهم بان الرسول لابد وأن يكون من الملائكة تحكما فاسدا وتعنتا باطلا (الوجه الثانى) من الاجوبة التى ذكرها الله فى هذه الآية عن هذه الشبهة هو ان أهل الارض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لان الجنس الى الجنس أميل أما لو كان أهل الارض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر وهو المراد من قوله لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (الوجه الثالث) من الاجوبة المذكورة فى هذه الآية قوله قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وتقريره ان الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواى كان ذلك شهادة من الله تعالى على كونى صادقا ومن شهد الله على صدقه فهو صادق فبعد ذلك قول القائل بان الرسول يجب أن يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه ولما ذكر الله تعالى هذه الاجوبة الثلاثة أردفها بما يجرى مجرى التهديد والوعيد فقال انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعنى يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لايذكرون هذه الشبهات الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿ومن يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾ اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم فى انكار النبوة وأردفها بالوعيد الاجمالى وهو قوله انه كان بعباده خبيرا بصيرا ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل أما

قبل ذلك (فالينا مرجعكم) أى كيفما دارت الحال اريناك بعض ماوعدناهم أولا فالينا مرجعهم فى الدنيا والآخرة فننجز ماوعدناهم البتة وقيل المذكور جواب للشرط الثانى كانه قيل فالينا مرجعهم فنريكه فى الآخرة وجواب الاول محذوف لظهوره أى فذاك (ثم الله شهيد على مايفعلون) من الافعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة اما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى اياهم واما اقامتها وأداؤها بانطاق الجوارح واظهار اسم الجلالة لادخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرئ ثمة أى هناك (ولكل أمة) من الامم الخالية (رسول) يبعث اليهم بشريعة خاصة مناسبة لاحوالهم ليدعوهم الى الحق (فاذا جاء رسولهم) فبلغهم ماأرسل به فكذبوه وخالفوه (قضى بينهم) أى بين كل امة ورسولها (بالقسط) بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (وهم لايظلمون) فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لانه من نتائج أعمالهم أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان كقوله عز وجل وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم

قوله من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه فالمقصود تسلية الرسول وهو ان الذين سبق لهم حكم الله بالايمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال ان ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال واحتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم في الهدى والضلال والمعتزلة حملوا هذا الاضلال تارة على الاضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الالطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع وهذه المباحث قد ذكرناها مرارا فلا فائدة في الاعادة أما قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما فان قيل كيف يمكنهم المشي على وجوههم قلنا الجواب من وجهين (الاول) انهم يسحبون على وجوههم قال تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم (الثاني) روى أبو هريرة قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الابرار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم وأما قوله عميا وبكما وصما فاعلم ان واحدا قال لابن عباس رضي الله عنه أليس انه تعالى يقول ورأى المجرمون النار وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال دعوا هنالك ثبورا وقال يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقال حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات انهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال ههنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه (الاول) قال ابن عباس عميا لا يرون شيأ يسرهم صما لا يسمعون شيأ يسرهم بكما لا ينطقون بحجة (الثاني) قال في رواية عطاء عميا عن النظر الى ما جعله الله لاوليائه بكما عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى على أوليائه (الثالث) قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون (الرابع) انهم يكونون رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا على ان يطالعوا كتبهم ولا ان يسمعوا الزام حجة الله عليهم الا انهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله عميا وبكما وصما (والجواب) ان الآيات السابقة تدل على انهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون اما قوله تعالى مأواهم جهنم فظاهر * واما قوله كلما خبت زدناهم سعيرا ففيه مباحث (البحث الاول) قال الواحدي الخبو سكون النار يقال خبت النار تخبو اذا سكن لهبها ومعنى خبت سكنت وطفئت يقال في مصدره الخبو واخباها المخبئ اخباء أي أخمدها ثم قال زدناهم سعيرا قال ابن قتيبة زدناهم سعيرا أي تلهبا (البحث الثاني) لقائل أن يقول انه تعالى لا يخفف عنهم العذاب وقوله كلما خبت يدل على ان العذاب يخف في ذلك الوقت قلنا كلما خبت يقتضي سكون لهب النار أما لا يدل هذا على أنه يخف العذاب في ذلك الوقت (البحث الثالث) قوله كلما خبت زدناهم سعيرا ظاهره يقتضي وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد من الحالة الاولى واذا كان كذلك كانت الحالة الاولى بالنسبة الى الحالة الثانية تخفيفا (والجواب) الزيادة حصلت في الحالة الاولى أخف من حصولها في الحالة الثانية فكان العذاب شديدا ويحتمل أن يقال لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في أوقاته غير مشعور به نعوذ بالله منه ولما ذكر تعالى أنواع هذا الوعيد قال ذلك جزاؤهم بانهم كفروا والباء في قوله بانهم كفروا باء السببية وهو حجة لمن يقول العمل علة الجزاء والله أعلم * قوله تعالى ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا﴾ اعلم انه تعالى لما أجاب عن شبهات منكري النبوة عاد الى حكاية شبهة منكري الحشر والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهة هي ان الانسان بعد أن يصير رفاتا ورميما يبعد أن يعود هو بعينه وأجاب الله تعالى عنه بان من قدر على خلق السموات والارض لم يبعد أن يقدر على اعادتهم باعيانهم وفي قوله قادر على أن يخلق مثلهم قولان (الاول) المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقول المتكلمون ان الاعادة مثل

الابتداء

(ويقولون متى هذا الوعد) استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والانكار حسبما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما في سورة الملك (ان كنتم صادقين) أي في أنه يأتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتمادا على ما تقدم حسبما حذف في مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان الاستعجال في قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بعجلة ان كنتم صادقين ولما فيه من الاشعار بكون اتيانه بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم قيل (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) أي لا أقدر على شئ منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لاظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز وما وقع في سورة الاعراف من تقديم النفع للاشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى اني لا أملك شيأ من شؤني ردا وايرادا مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شؤنكم حتى أتسبب في اتيان عذابكم الموعود (الا ما شاء الله) استثناء منقطع أي ولكن ما شاء الله كائن وجعله على الاتصال على معنى الا ما شاء الله أن أملكه يأباه مقام التبرؤ

الابتداء (القول الثانى) المراد قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويترك ونذ كرهذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله ويأت بخلق جديد وقوله ويستبدل قوما غيركم قال الواحدى والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكوران البعث والقيامة أمر ممكن الوجود فى نفسه أردفه بان لوقوعه ودخوله فى الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله وجعل لهم أجلا لاريب فيه ثم قال تعالى فأبى الظالمون الا كفورا أى بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والنفور والجحود ۞ قوله تعالى ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا﴾ وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان الكفار لما قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا طلبوا اجراء الانهار والعيون فى بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم فبين الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولما أقدموا على ايصال النفع الى أحد وعلى هذا التقدير فلا فائدة فى اسعافهم بهذا المطلوب الذى التمسوه فهذا هو الكلام فى وجه النظم والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله لو أنتم فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان ﴿أما البحث النحوى﴾ فهو ان كلمة لو من شأنها أن تختص بالفعل لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذى يدل على الآثار والاحوال والمنتفى هو الاحوال والآثار لا الذوات فثبت ان كلمة لو مختصة بالافعال وأنشدوا قول المتلمس

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى ＊ نصبت لهم فوق العرانين مأتما

والمعنى لو أراد غير أخوالى ﴿وأما البحث المتعلق بعلم البيان﴾ فهو ان التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله أنتم تملكون فيه دلالة على انهم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل ﴿المسئلة الثالثة﴾ خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشئ ثم قال تعالى وكان الانسان قتورا أى بخيلا يقال قتر يقتر قترا وأقتر اقتارا وقتر تقتيرا اذا قصر فى الانفاق ＊فان قيل فقد دخل فى الانسان الجواد الكريم ＊فالجواب من وجوه (الاول) ان الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد أن يحب ما به يدفع الحاجة وان يمسكه لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت ان الاصل فى الانسان البخل (الثانى) ان الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ما أنفق الا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل (الثالث) ان المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ۞ قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لاظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر وانى لاظنك يافرعون مثبورا فاراد ان يستفزهم من الارض فاغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان المقصود من هذا الكلام أيضا الجواب عن قولهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة فقال تعالى انا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الاشياء التى طلبتموها بل أقوى منها وأعظم فلو حصل فى علمنا ان جعلها فى زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا فى حق موسى فدل هذا على انا اعلم نفعلها فى زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة فى فعلها ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم انه تعالى ذكر فى القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام (أحدها) ان الله تعالى أزال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحا (وثانيها) انقلاب العصا حية (وثالثها) تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها (ورابعها) اليد البيضاء وخمسة اخر وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (والعاشر) شق البحر وهو قوله واذ فرقنا بكم البحر (والحادى عشر) الحجر وهو قوله أن اضرب بعصاك الحجر (والثانى عشر) اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة (والثالث عشر) انزال المن والسلوى عليه وعلى

من أن يكون له عليه السلام دخل فى اتيان الوعد فان ذلك يستدعى بيان كون المتنازع فيه مما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل ما عبارة عن بعض الاحوال المعهودة المنوطة بالافعال الاختيارية المفوضة الى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسى شيأ من الضر والنفع الا ما شاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على أفعالى الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على الاكل والشرب عدما ووجودا تعسف ظاهر وقوله تعالى (لكل أمة أجل) بيان لما أبهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به أمرا منجزا غير متوقف على شئ غير مجئ الرسول وتكذيب الامة أى لكل أمة أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى الى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله (اذا جاء أجلهم) ان جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان أريد به ما امتد اليه من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هنالك يتحقق مجيئه بتمامه والضمير ان جعل للامم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئها اياها بعينها من بين الامم بواسطة اكتساب الاجل بالاضافة عموما يفيده معنى

قومه (والرابع عشر والخامس عشر) قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات (والسادس عشر) الطمس على أموالهم من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روى ان عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فاخرجه فنفضه فاذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لانا بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول انما يتمسك في هذه المسئلة بهذه الآية ثم نقول أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما ولما لم تكن تلك الاحوال مستندة الى حجة ظنية فضلا عن حجة يقينية لاجرم تركت تلك الروايات وفي تفسير قوله تعالى تسع آيات بينات أقوال أجودها ما روى صفوان بن عسال أنه قال ان يهوديا قال لصاحبه اذهب بنا الى هذا النبي نسأله في تسع آيات فذهبا الى النبي صلى الله عليه وسلم وسألاه عنها فقال هن ان لا تشركوا بالله شيأ ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود ان لا تعتدوا في السبت فقام اليهود يان فقبلا يديه ورجليه وقالوا نشهد انك نبي ولولا نخاف القتل والا اتبعناك ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله فاسئل بني اسرائيل اذ جاءهم فيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ فيه وجوه ﴿الوجه الاول﴾ انه اعتراض دخل في الكلام والتقدير ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات اذ جاء بني اسرائيل فاسألهم وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني اسرائيل ان يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد ﴿والوجه الثاني﴾ أن يكون قوله فاسئل بني اسرائيل أي سلهم عن فرعون وقل له ارسل معي بني اسرائيل ﴿والوجه الثالث﴾ سل بني اسرائيل أي سلهم أن يوافقوك والتمس منهم الايمان الصالح وعلى هذا التأويل فالتقدير فقلنا لهم سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك ﴿البحث الثاني﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يسأل بني اسرائيل معناه الذين كانوا موجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا في زمانه الا ان الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية ثم أخبر تعالى ان فرعون قال لموسى اني لاظنك يا موسى مسحورا وفي لفظ المسحور وجوه (الاول) قال الفراء انه بمعنى الساحر كالمشؤم والميمون وذكرنا هذا في قوله حجابا مستورا (الثاني) أنه مفعول من السحر أي ان الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب (الثالث) قال محمد بن جرير الطبري معناه أعطيت علم السحر فهذه العجائب التي تأتي بها من ذلك السحر ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض وفيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ قرأ الكسائي علمت بضم التاء أي علمت انها من عند الله فان علمت وأقررت والا هلكت والباقون بالفتح وضم التاء قراءة على وفتحها قراءة ابن عباس وكان علي رضي الله عنه يقول والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فاحتج بقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم على ان فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام قال الزجاج الاجود في القراءة الفتح لان علم فرعون بانها آيات نازلة من عند الله أوكد في الحجة فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفسه وأجاب الناصرون لقراءة علي عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا قوله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم يدل على انهم استيقنوا شيأ ما فأما انهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس في الا

الجمعية كأنه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجيء كل واحدة من تلك الامم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار في موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة كمال التعيين أي اذا جاءها أجلها الخاص بها (فلا يستأخرون) عن ذلك الاجل (ساعة) أي شيأ قليلا من الزمان فانها مثل في غاية القلة منه أي لا يتأخرون عنه أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له (ولا يستقدمون) أي لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه في نفسه كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا كما في قوله سبحانه وتعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم في عدم قبول التوبة في سلك من سوفها الى حضور الموت ايذانا بتساوي وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر في سورة الاعراف وقد جوز أن يراد بمجيء الاجل دنوه بحيث يمكن التقدم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس في تقييد عدم الاستئخار بدنوه

ما

مايدل عليه وأجابوا عن الوجه الثانى بأن فرعون قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال موسى لقد علمت فكأنه نفى ذلك وقال لقد علمت صحة ما أتيت به علما صحيحا علم العقلاء واعلم ان هذه الآيات من عند الله ولا تشك فى ذلك بسبب سفاهتك (البحث الثانى) التقدير ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله
* والعيش بعد أولئك الاقوام * وقوله بصائر أى حججا بينة كأنها بصائر العقول وتحقيق الكلام ان المعجزة فعل خارق للعادة فعله فاعله لغرض تصديق المدعى ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين لانها كانت أفعالا خارقة للعادة وصرائح العقول تشهد بان قلب العصا حية معجزة عظيمة لا يقدر عليه الا الله ثم ان تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت فاصناف تلك الافعال لا يقدر عليها أحد الا الله وكذا القول فى فرق البحر واظلال الجبل فثبت ان تلك الاشياء ما أنزلها الا رب السموات (الصفة الثانية) انه تعالى انما خلقها لتدل على صدق موسى فى دعواه النبوة وهذا هو المراد من قوله ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض حال كونها بصائر أى دالة على صدق موسى فى دعواه وهذه الدقائق لا يمكن فهمها من القرآن الا بعد اتقان علم الاصول وأقول بعد أن يصير غير علم الاصول العقلى ظاهرا فى تفسير كلام الله ثم حكى تعالى ان موسى قال لفرعون وانى لاظنك يا فرعون مثبورا واعلم ان فرعون قال لموسى وانى لاظنك ياموسى مسحورا فعارضه موسى وقال له وانى لاظنك يا فرعون مثبورا قال الفراء المثبور الملعون المحبوس عن الخير والعرب تقول ما ثبرك عن هذا أى ما منعك منه وما صرفك وقال أبو زيد يقال ثبرت فلانا عن الشئ أثبره أى رددته عنه وقال مجاهد وقتادة هالكا وقال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مثبور اذا هلك والثبور الهلاك ومن معروف الكلام فلان يدعو بالويل والثبور عند مصيبة تناله وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا واعلم ان فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورا أجابه موسى بأنك مثبور يعنى هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل فى أنها من عند الله وفى أنه تعالى انما أظهرها لاجل تصديقى وأنت تنكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور ثم قال تعالى فأراد أن يستفزهم من الارض يعنى أراد فرعون أن يخرجهم يعنى موسى وقومه بنى اسرائيل وتفسير معنى الاستفزاز تقدم فى هذه السورة من الارض يعنى أرض مصر قال الزجاج لا يبعد أن يكون المراد من استفزازهم اخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية ثم قال فأغرقناه ومن معه جميعا المعنى ما ذكره الله تعالى فى قوله ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال لبنى اسرائيل اسكنوا هذه الارض خالصة لكم خالية من عدوكم قال تعالى فاذا جاء وعد الآخرة يريد القيامة جئنا بكم لفيفا من ههنا وههنا واللفيف الجمع العظيم من اخلاط شتى من الشريف والدنىء والمطيع والعاصى والقوى والضعيف وكل شئ خلطته بشئ آخر فقد لففته ومنه قيل لففت الجيوش اذا ضربت بعضها ببعض وقوله التفت الزحوف ومنه التفت الساق بالساق والمعنى جئنا بكم من قبوركم الى المحشر اخلاطا يعنى جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر ﴿ قوله تعالى ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أولا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ان القرآن معجز قاهر دال على الصدق فى قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن ثم حكى عن الكفار انهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ثم أجاب الله بانه لا حاجة الى اظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة منها ان قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله فكذا ههنا ثم انه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التى اقترحوها ثم كفروا بها وجب انزال عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز فى

مزيد فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لان المقصود الاهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأما ما فى قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون فالاهم اذ ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكر هنالك (قل) لهم غب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل فيما بين الامم على الاطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف الا على مجئ أجله المعلوم ايذانا بكمال دنوه وتنزيلا له منزلة اتيانه حقيقة (أرأيتم) أى أخبرونى (ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) أى وقت بيات واشتغال بالنوم (أو نهارا) أى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الاجل بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عين لسائر الامم المهلكة وقوله عز وجل (ماذا يستعجل منه المجرمون) جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك ان أتيتك ماذا تطعمنى والمجرمون موضوع موضع

الحكمة لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذى لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنا ولما تم هذا الجواب عاد الى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال وبالحق أنزلناه وبالحق نزل والمعنى انه ما أردنا بانزاله الا تقرير الحق والصدق وكما أردناه هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل وفى هذه الآية فوائد (الفائدة الاولى) ان الحق هو الثابت الذى لا يزول كما ان الباطل هو الزائل الذاهب وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ومشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النسخ والنقض والتحريف وأيضا هذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فكان هذا الكتاب حقا من كل الوجوه (الفائدة الثانية) ان قوله وبالحق أنزلناه يفيد الحصر ومعناه أنه ما أنزل لمقصود آخر سوى اظهار الحق وقالت المعتزلة وهذا يدل على انه ما قصد بانزاله اضلال أحد من الخلق ولا اغواءه ولا منعه عن دين الله (الفائدة الثالثة) قوله وبالحق أنزلناه وبالحق نزل يدل على ان الانزال غير النزول فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق وان يكون التكوين غير المكون على ما ذهب اليه قوم (الفائدة الرابعة) قال أبو على الفارسى الباء فى قوله وبالحق أنزلناه بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلاحه والمعنى أنزلنا القرآن مع الحق وقوله وبالحق نزل فيه احتمالان (أحدهما) أن يكون التقدير نزل بالحق كما تقول نزلت بزيد وعلى هذا التقدير الحق محمد صلى الله عليه وسلم لان القرآن نزل به أى عليه (الثانى) أن تكون بمعنى مع كما قلنا فى قوله وبالحق أنزلناه ثم قال تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شئ عليك من كفرهم فانى ما أرسلناك الا مبشرا للمطيعين ونذيرا للجاحدين فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ * ثم قال تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وفيه مباحث (البحث الاول) ان القوم قالوا هب أن هذا القرآن معجز الا انه بتقدير أن يكون الامر كذلك فكان من الواجب أن ينزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الاعجاز فجعلوا اتيان الرسول بهذا القرآن متفرقا شبهة فى أنه يتفكر فى فصل فصل ويقرؤه على الناس فأجاب الله عنه بأنه انما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الاحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل (البحث الثانى) قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث بالفتح والضم على مهل وتؤدة أى لا على فورة قال الفراء يقال مكث ومكث يمكث والفتح قراءة عاصم فى قوله فمكث غير بعيد (البحث الثالث) الاختيار عند الائمة فرقناه بالتخفيف وفسره أبو عمرو بيناه قال أبو عبيد التخفيف أعجب الى لان تفسيره بيناه ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى الا انه أنزل متفرقا فالفرق يتضمن التبيين ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الاعرابى انه قال فرقت أفرق بين الكلام وفرقت بين الاجسام ويدل عليه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق ثم قال ونزلناه تنزيلا أى على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال قل آمنوا به أولا تؤمنوا يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والانكار أى أنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الاعذار فاختاروا ما تريدون ثم قال تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله أى من قبل نزول القرآن قال مجاهد هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خروا سجدا منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام ثم قال يخرون للاذقان سجدا وفيه أقوال (القول الاول) قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكلما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من الجبهة الى الارض الذقن (والقول الثانى) أن الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته

المضمر تأكيد الانكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال فان حق المجرم أن يهلك فزعا من اتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية متعلقة بأرأيتم والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى أى شئ تستعجلون منه سبحانه والشئ لا يمكن استعجاله بعد اتيانه والمراد به المبالغة فى انكار استعجاله باخراجه عن حيز الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد اتيانه بناء على تنزيل تقرر اتيانه ودنوه منزلة اتيانه حقيقة كما أشير اليه وهذا الانكار بمنزلة النهى فى قوله عز وعلا أتى أمر الله فلا تستعجلوه خلا أن التنزيل هناك صريح وهنالك ضمنى كما فى قول من قال لغريمه الذى يتقاضاه حقه أرأيت ان أعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة فى انكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الاعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة نفسه وقوله عز وجل (أثم اذا ما وقع آمنتم به) انكار لايمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة داخل مع ما قبله من انكار استعجالهم به بعد اتيانه حكما تحت القول المأمور به أى أبعد ما وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الايمان انكارا لتأخيره الى هذا الحد وايذانا باستتباعه الندم والحسرة ليقلعوا عما هم عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت

على

على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم (والقول الثالث) ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض فى معرض السجود كالمغشى عليه ومتى كان الامر كذلك كان خروره على الذقن فى موضع السجود فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ثم بقى فى الآية سؤالان (السؤال الاول) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون (والجواب) المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى انهم يسقطون (السؤال الثانى) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان (والجواب) العرب تقول اذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن والله أعلم ثم قال تعالى ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا والمعنى أنهم يقولون فى سجودهم سبحان ربنا أى ينزهونه ويعظمونه ان كان وعد ربنا لمفعولا أى بانزال القرآن وبعث محمد وهذا يدل على ان هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لان الوعد ببعثة محمد سبق فى كتابهم فهم كانوا ينتظرون انجاز ذلك الوعد ثم قال ويخرون للاذقان يبكون والفائدة فى هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفى حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدل عليه قوله ويزيدهم خشوعا ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم وقوله يبكون معناه الحال ويزيدهم خشوعا أى تواضعا واعلم ان المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبايمانهم وامتناعهم منه وانهم وان لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم ❁ قوله تعالى ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا﴾ قال صاحب الكشاف المراد بهما الاسم لا المسمى والواو للتخيير يعنى ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أى سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا اما هذا واما هذا والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد لما فى أى والتقدير أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم فله الاسماء الحسنى والضمير فى قوله فله ليس براجع الى أحد الاسمين المذكورين ولكن الى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى أياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت أسماؤه فقد حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى حسن أسماء الله كونها مفيدة لمعانى التحميد والتقديس وقد سبق الاستقصاء فى هذا الباب فى آخر سورة الاعراف فى تفسير قوله ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها واحتج الجبائى بهذه الآية فقال لو كان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح أن يقال ياظالم وحينئذ يبطل ما ثبت فى هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة (والجواب) انا لا نسلم انه لو كان خالقا لافعال العباد لصح وصفه بانه ظالم وجائر كما انه لا يلزم من كونه خالقا للحركة والسكون والسواد والبياض أن يقال يامتحرك وياساكن ويا أسود ويا أبيض فان قالوا فيلزم جواز أن يقال ياخالق الظلم والجور قلنا فيلزمكم أن تقولوا ياخالق العذرات والديدان والخنافس وكما أنكم تقولون ان ذلك حق فى نفس الامر ولكن الادب أن يقال ياخالق السموات والارض فكذا قولنا ههنا ثم قال تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وفيه مباحث (البحث الاول) قوله ولا تجهر بصلاتك فيه أقوال (الاول) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعها المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمع المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك وابتغ بين ذلك سبيلا (القول الثانى) روى أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان أبو بكر يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر لم تخفى صوتك فقال أناجى ربى وقد علم حاجتى وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا (القول الثالث) معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار

فتقديم الظرف للقصر وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بأرأيتم وجواب الشرط محذوف أى تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى أثم اذا ما وقع الخ والاستفهامية الاولى اعتراض والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ثم جىء بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى الاول كالتمهيد له وجىء باذا مؤكدا بما ترشيحا لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا الا بعد ان لم ينفعهم الايمان البتة وقوله تعالى (آلآن) استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن مسوق لتقرير مضمون ما سبق على ارادة القول أى قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به انكارا للتأخير وتوبيخا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الانذار به ولا للتأمل والتدبر فى شأنه ولا لشئ آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرئ آلان بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقوله تعالى (وقد كنتم به تستعجلون) أى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم

والتعسير وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى (ثم قيل) الخ تأكيد للتوبيخ

(والقول الرابع) ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضى الله عنها وأبى هريرة ومجاهد قالت عائشة رضى الله عنها هى فى الدعاء وروى هذا مرفوعا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية انما ذلك فى الدعاء والمسئلة لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها فالجهر بالدعاء منهى عنه والمبالغة فى الاسرار غير جائزة والمستحب من ذلك التوسط وهو ان يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال لم يخافت من أسمع أذنيه (والقول الخامس) قال الحسن لا تراء بعلانيتها ولا تسئ بسريتها (البحث الثانى) الصلاة عبارة عن مجموع الافعال والاذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت فالمراد ههنا من الصلوات بعض أجزاء ماهية الصلاة وهو الاذكار والقرآن وهو من باب اطلاق اسم الكل لارادة الجزء (البحث الثالث) يقال خفت صوته يخفت خفتا وخفوتا اذا ضعف وسكن وصوت خفيت أى خفيض ومنه يقال للرجل اذا مات قد خفت أى انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل وخفت الرجل يخافت بقراءته اذا لم يبين قراءته برفع الصوت وقد تخافت القوم اذا تساروا بينهم * وأقول ثبت فى كتب الاخلاق ان كلا طرفى الامور ذميم والعدل هو رعاية الوسط ولهذا المعنى مدح الله هذه الامة بقوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقال فى مدح المؤمنين والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله رسوله فقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فكذا ههنا نهى عن الطرفين وهو الجهر والمخافتة وأمر بالتوسط بينهما فقال وابتغ بين ذلك سبيلا ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله ادعوا ربكم تضرعا وخفية وهو بعيد واعلم أنه تعالى لما أمر أن لا يذكر ولا ينادى الا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهى السلوب ثلاثة أنواع من الصفات (النوع الاول) من الصفات أنه لم يتخذ ولدا والسبب فيه وجوه (الاول) ان الولد هو الشئ المتولد من جزء من أجزاء شئ آخر فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد (الثانى) ان كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده (الثالث) ان الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام فى كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق (والنوع الثانى) من الصفات السلبية قوله ولم يكن له شريك فى الملك والسبب فى اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر (والنوع الثالث) قوله ولم يكن له ولى من الذل والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولى من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الانعام أو منعه منه أما اذا كان منزها عن الولد وعن الشريك وكان منزها عن أن يكون له ولى يلى أمره كان مستوجبا لاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاجل أقسام الشكر ثم قال تعالى وكبره تكبيرا ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقرونا بالتكبير ويحتمل أنواعا من المعانى (أولها) تكبيره فى ذاته وهو أن يعتقد انه واجب الوجود لذاته وأنه غنى عن كل ما سواه (وثانيها) تكبيره فى صفاته وذلك من ثلاثة أوجه (أولها) أن يعتقد ان كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص (وثانيها) أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات (وثالثها) أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال (النوع الثالث) من تكبير الله تكبيره فى أفعاله وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر فقال أهل السنة انا نحمد الله ونكبره ونعظمه عن أن يجرى فى سلطانه شئ لا على وفق حكمه وارادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وارادته وقالت المعتزلة انا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلا لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضى التنزيه والتقديس عنها وعن ارادتها وسمعت ان الاستاذ أبا اسحق

والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ما قدر قبل آلآن (للذين ظلموا) أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الايمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم (ذوقوا عذاب الخلد) المؤلم على الدوام (هل تجزون) اليوم (الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها ما مر من الاستعجال (ويستنبؤنك) أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار (أحق هو) أحق خبر قدم على المبتدا الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبؤنك وقرئ ألحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق (قل) لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضيا عما قصدوا بانيا للامر على أساس الحكمة (اى وربى) اى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (انه) أى العذاب الموعود (لحق) لثابت البتة أكد

الاسفراينى

الاسفرايني كان جالسا في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الاستاذ أبو اسحق سبحان من لا يجري في ملكه الا ما يشاء (النوع الرابع) تكبير الله في أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الامر والنهي والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لاحد عليه في شئ من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء (النوع الخامس) تكبير الله في أسمائه وهو أن لا يذكر الا بأسمائه الحسنى ولا يوصف الا بصفاته المقدسة العالية المنزهة (النوع السادس) من التكبير وهو أن الانسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف ان عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله ولسانه لا يفي بشكره وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيا بكنه مجده وعزته وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت انه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل (قال المصنف رحمه الله تعالى) تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم في بلدة غزنين سنة احدى وستمائة والحمد لله والصلاة على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما •

﴿سورة الكهف مائة واحدى عشرة آية مكية قال ابن عباس انها مكية غير آيتين منها فيهما ذكر عيينة بن حصن الفزاري وعن قتادة انها مكية وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت هي سورة الكهف﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) أما الكلام في حقائق قولنا الحمد لله فقد سبق والذي أقوله ههنا ان التسبيح أينما جاء فانما جاء مقدما على التحميد ألا ترى انه يقال سبحان الله والحمد لله اذا عرفت هذا فنقول انه جل جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال سبحان الذي أسرى بعبده ليلا وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وفيه فوائد (الفائدة الاولى) أن التسبيح أول الامر لانه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي وهو اشارة الى كونه كاملا في ذاته والتحميد عبارة عن كونه مكملا لغيره ولا شك أن أول الامر هو كونه كاملا في ذاته ونهاية الامر كونه مكملا لغيره فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا سبحان الله ثم نذكر بعده الحمد لله تنبيها على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية اذا عرفت هذا فنقول ذكر عند الاسراء لفظ التسبيح وعند انزال الكتاب لفظ التحميد وهذا تنبيه على ان الاسراء به أول درجات كماله وانزال الكتاب غاية درجات كماله والامر في الحقيقة كذلك لان الاسراء به الى المعراج يقتضي حصول الكمال له وانزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملا للارواح البشرية وناقلا لها من حضيض البهيمية الى أعلى درجات الملكية ولا شك أن هذا الثاني أكمل وهذا تنبيه على ان أعلى مقامات العباد مقام أن يصير عالما في ذاته معلما لغيره ولهذا روي في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيما في السموات (الفائدة الثانية) ان الاسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت الى فوق وانزال الكتاب عليه عبارة عن انزال نور الوحي عليه من فوق الى تحت ولا شك أن هذا الثاني أكمل (الفائدة الثالثة) ان منافع الاسراء به كانت مقصورة عليه ألا ترى أنه تعالى قال هنالك لنريه من آياتنا ومنافع انزال الكتاب عليه متعدية ألا ترى أنه قال لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة (المسئلة الثانية) المشبهة استدلوا بلفظ الاسراء في السورة المتقدمة وبلفظ الانزال في هذه السورة على أنه تعالى مختص بجهة فوق والجواب عنه مذكور

الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لا محالة وهو اما معطوف على جواب القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور (ولو أن لكل نفس ظلمت) بالشرك أو التعدي على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا (ما في الارض) أى ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة عما كثرت (لافتدت به) أى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه (وأسروا) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم في صورة الافراد أيضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق ما يتوخى من فرض كون جميع ما في الارض لكل واحدة من النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه (الندامة) على ما فعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا (لما رأوا العذاب) أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال ما لم يكونوا يحتسبون فلم

يقدروا على أن ينطقوا بشيء فلما بغى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ما تقدم عليه وقيل أسرها

بالتمام في سورة الاعراف في تفسير قوله تعالى ثم استوى على العرش (المسئلة الثالثة) انزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا أما كونه نعمة عليه فلانه تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات وتصيير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت فلا شك ان ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع أمته أن يحمدوا الله عليه فعلمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال ولم يجعل له عوجا قيما وفيه أبحاث (البحث الاول) أنا قد ذكرنا أن الشيء يجب أن يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير اذا عرفت هذا فنقول في قوله ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره لان القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير ونظيره قوله في أول سورة البقرة في صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق واكمال حالهم فقوله ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله لا ريب فيه وقوله قيما قائم مقام قوله هدى للمتقين وهذه أسرار لطيفة (البحث الثاني) قال أهل اللغة العوج في المعاني كالعوج في الاعيان والمراد منه وجوه (أحدها) نفي التناقض عن آياته كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (وثانيها) ان كل ما ذكر الله من التوحيد والنبوة والاحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولا خلل في شيء منها البتة (وثالثها) ان الانسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجها الى عالم الآخرة والى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بني على طريق عالم القيامة حتى ان المسافر اذا نزل فيه اشتغل بالمهمات التي يجب رعايتها في هذا السفر ثم يرتحل منه متوجها الى عالم الآخرة فكل ما دعاه من الدنيا الى الآخرة ومن الجسمانيات الى الروحانيات ومن الخلق الى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية الى الاستنارة بالانوار الصمدانية فثبت أنه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى ولم يجعل له عوجا (الصفة الثانية) للكتاب وهي قوله قيما قال ابن عباس يريد مستقيما وهذا عندي مشكل لانه لا معنى لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وانه باطل بل الحق ما ذكرناه وان المراد من كونه قيما انه سبب لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم (البحث الثالث) قال الواحدي جميع أهل اللغة والتفسير قالوا هذا من التقديم والتأخير والتقدير أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا وأقول قد بينا ما يدل على فساد هذا الكلام لانا بينا أن قوله ولم يجعل له عوجا يدل على كونه كاملا في ذاته وقوله قيما يدل على كونه مكملا لغيره وكونه كاملا في ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملا لغيره فثبت بالبرهان العقلي ان الترتيب الصحيح هو الذي ذكره الله تعالى وهو قوله ولم يجعل له عوجا قيما فظهر أن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب اليه (البحث الرابع) اختلف النحويون في انتصاب قوله قيما وذكروا فيه وجوها (الاول) قال صاحب الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله أنزل فهو داخل في حيز الصلة فجعله حالا من الكتاب يوجب الفصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا وجعله قيما (الوجه الثاني) قال الاصفهاني الذي نرى فيه أن يقال قوله ولم يجعل له

رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الامر أشد من أن يعتريهم هنالك شيء غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة أخلصوها لان اسرارها اخلاصها أو لان سر الشيء خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل أظهروا الندامة من قولهم سر الشيء وأسره اذا أظهره حين عيل صبره وفني تجلده (وقضي بينهم) أي أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من الاصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به (بالقسط) بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدي وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لا يساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا (وهم) أي الظالمون (لا يظلمون) فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية (ألا ان لله ما في السموات والارض) أي ما وجد فيهما داخلا في حقيقتهما أو خارجا عنهما

عوجا

عوجا حال وقوله قيما حال أخرى وهما حالان متواليان والتقدير أنزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجا قيما (الوجه الثالث) قال السيد صاحب حل العقد يمكن أن يكون قوله قيما بدلا من قوله ولم يجعل له عوجا لأن معنى لم يجعل له عوجا أنه جعله مستقيما فكأنه قيل أنزل على عبده الكتاب وجعله قيما (الوجه الرابع) أن يكون حالا من الضمير في قوله ولم يجعل له عوجا أي حال كونه قائما بمصالح العباد وأحكام الدين واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بهذه الصفات المذكورة أردفه ببيان ما لاجله أنزله فقال لينذر بأسا شديدا من لدنه وأنذر متعد الى مفعولين كقوله انا أنذرناكم عذابا قريبا الا أنه اقتصر ههنا على أحدهما وأصله لينذر الذين كفروا بأسا شديدا كما قال في ضده ويبشر المؤمنين والبأس مأخوذ من قوله تعالى بعذاب بئيس وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسا وبآسة وقوله من لدنه أي صادرا من عنده قال الزجاج وفي لدن لغات يقال لدن ولدى ولد والمعنى واحد قال وهي لا تتمكن تمكن عند لأنك تقول هذا القول صواب عندي ولا تقول صواب لدني وتقول عندي مال عظيم والمال غائب عنك ولدني لما يليك لا غير وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بسكون الدال مع اشمام الضم وكسر النون والهاء وهي لغة بني كلاب ثم قال تعالى ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا واعلم أن المقصود من ارسال الرسل انذار المذنبين وبشارة المطيعين ولما كان دفع الضرر أهم عند العقول من ايصال النفع لاجرم قدم الانذار على التبشير في اللفظ قال صاحب الكشاف وقرئ ويبشر بالتخفيف والتثقيل وقوله ماكثين فيه أبدا يعني خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله ان لهم أجرا قال القاضي الآية دالة على صحة قولنا في مسائل (أحدها) ان القرآن مخلوق وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى وصفه بالانزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فان القديم لا يجوز عليه التغير (الثاني) وصفه بكونه كتابا والكتب هو الجمع وهو سمي كتابا لكونه مجموعا من الحروف والكلمات وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث (الثالث) انه تعالى أثبت الحمد لنفسه على انزال الكتاب والحمد انما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة (الرابع) انه وصف الكتاب بانه غير معوج وبانه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك فثبت انه محدث مخلوق (وثانيها) مسئلة خلق الاعمال فان هذه الآيات تدل على قولنا في هذه المسئلة من وجوه (الاول) نفس الامر بالحمد لانه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب اذ الانتفاع به انما يحصل اذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه وهو انما يفعل ذلك لو كان مستقلا بنفسه أما اذا لم يكن مستقلا بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر في اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيما أثر في استقامة فعله أما اذا كان العبد قادرا على الفعل مختارا فيه بقي لعوج الكتاب واستقامته أثر في فعله (والثاني) أنه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سببا لكفر البعض وأنزل الباقي ليؤمن البعض الآخر فمن أين ان الكتاب قيم لا عوج فيه لانه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك (والثالث) قوله لينذر وفيه دلالة على انه تعالى أراد منه صلى الله عليه وسلم انذار الكل وتبشير الكل وبتقدير أن يكون خالق الكفر والايمان هو الله تعالى لم يبق للانذار والتبشير معنى لانه تعالى اذا خلق الايمان فيه حصل شاء أو لم يشأ واذا خلق الكفر فيه حصل شاء أو لم يشأ فبقي الانذار والتبشير على الكفر والايمان جاريا مجرى الانذار والتبشير على كونه طويلا وقصيرا وأسود وأبيض مما لا قدرة له عليه (والرابع) وصفه المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات فان كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل لهم البتة (الخامس) ايجابه لهم الاجر الحسن على ما عملوا فان كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا ايجاب ولا استحقاق ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال قوله لينذر يدل على انه تعالى انما يفعل أفعاله لاغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول ان فعله غير معلل بالغرض واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت في هذا الكتاب فلا فائدة في الاعادة ۞ قوله تعالى ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أن قوله تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا

متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء ايجادا واعداما واثابة وعقابا (الا ان وعد الله) اظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو اما بمعنى الموعود أي جميع ما وعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه وما ذكر في أثنائه من حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدري أي وعده بجميع ما ذكر فمعنى قوله تعالى (حق) على الاول ثابت واقع لا محالة وعلى الثاني مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (ولكن أكثرهم) لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة المعتادة (لا يعلمون) ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون (هو يحيي ويميت) في الدنيا من غير دخل لاحد في ذلك (واليه ترجعون) في الآخرة بالبعث والحشر (يا أيها الناس) التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلي عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وايذان بأن

جميع ذلكم مسوق لهدايتهم ومنافعهم (قد جاءتكم موعظة) هي والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر

معطوف على قوله لينذر بأساً شديداً من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل من استحق العذاب والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً وعادة القرآن جارية بأنه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال فكذا ههنا العطف يدل على ان أقبح أنواع الكفر والمعصية اثبات الولد لله تعالى (المسئلة الثانية) الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف (أحدها) كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله (وثانيها) النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله (وثالثها) اليهود الذين قالوا عزير ابن الله والكلام في ان اثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه في سورة الانعام في تفسير قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم وتمامه مذكور في سورة مريم ثم انه تعالى أنكر على القائلين باثبات الولد لله تعالى من وجهين (الاول) قوله مالهم به من علم ولا لآبائهم فان قيل اتخاذ الله ولداً محال في نفسه فكيف قيل مالهم به من علم قلنا انتفاء العلم بالشئ قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون لانه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على ان القول في الدين بغير علم باطل والقول بالقياس الظني قول في الدين بغير علم فيكون باطلاً وتمام تقريره مذكور في قوله ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله ولا لآبائهم أي ولا أحد من أسلافهم وهذا مبالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة (النوع الثاني) مما ذكره الله في ابطاله قوله كبرت كلمة تخرج من أفواههم وفيه مباحث (البحث الاول) قرئ كبرت كلمة بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية قال الواحدي ومعنى التمييز انك اذا قلت كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتوهم انها كبرت كذباً أو جهلاً أو افتراء فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فحصل فيه الاضمار أما من رفع فلم يضمر شيأ كما تقول عظم فلان ولذلك قال النحويون والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة (البحث الثاني) قوله كبرت أي كبرت الكلمة والمراد من هذه الكلمة ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله قالوا اتخذ الله ولداً فصارت مضمرة في كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة (البحث الثالث) احتج النظام في اثبات قوله ان الكلام جسم بهذه الآية قال انه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة والحركة لا تصح الا على الاجسام والجواب ان الحروف والاصوات انما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق فلما كان خروج النفس سبباً لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة (البحث الرابع) قوله تخرج من أفواههم يدل على ان هذا الكلام مستكره جداً عند العقل كأنه يقول هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكأنه شئ يجري به لسانهم على سبيل التقليد لانهم مع انها قولهم عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها ثم قال تعالى ان يقولون الا كذباً ومعناه ظاهر * واعلم أن الناس قد اختلفوا في حقيقة الكذب فعندنا انه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا ومن الناس من قال شرط كونه كذباً أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق وهذا القيد عندنا باطل والدليل عليه هذه الآية فانه تعالى وصف قولهم باثبات الولد لله بكونه كذباً مع ان الكثير منهم يقول ذلك ولا يعلم كونه باطلاً فعلمنا ان كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقاً أو لم يعلم * ثم قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً وفيه مباحث (البحث الاول) المقصود منه أن يقال للرسول لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فانا بعثناك منذراً ومبشراً فأما تحصيل الايمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه (البحث الثاني) قال الليث بخع الرجل نفسه اذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشئ وقال الاخفش والفراء أصل البخع الجهد يقال بخعت لك نفسي أي جهدتها وفي حديث عائشة رضي الله عنها انها ذكرت عمر فقالت بخع الارض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك وقال الكسائي بخعت الارض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة

والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من في قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أي موعظة كائنة من مواعظ ربكم وفي التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى (وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) أي كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن أحوال الاعمال حسناتها وسيآتها مرغب في الاولى ورادع عن الاخرى ومبين للمعارف الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والانفس وفي تجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان والتنكير في الكل للتفخيم (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بان

يغتنموا ما في مجئ القرآن العظيم من الفضل والرحمة (بفضل الله وبرحمته) المراد بهما ما في مجئ القرآن من

وبخع

وبخع الرجل نفسه اذا نهكها وعلى هذا معنى باخع نفسك أي ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا قاتل نفسك ومهلكها والاصل ما ذكرناه هكذا قال الواحدي (البحث الثالث) قوله على آثارهم أي من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وأصل هذا ان الانسان اذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم انها تنمحي وتبطل بالكلية فاذا كان موته قريبا من موت الاول كان موته حاصلا حال بقاء آثار الاول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان (البحث الرابع) قوله ان لم يؤمنوا بهذا الحديث المراد بالحديث القرآن قال القاضي وهذا يقتضي وصف القرآن بانه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول انه قديم وجوابه انه محمول على الالفاظ وهي حادثة (البحث الخامس) قوله أسفا الاسف المبالغة في الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله غضبان أسفا في سورة الاعراف وعند قوله يا أسفا على يوسف وفي انتصابه وجوه (الاول) أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على انه يأسف (الثاني) يجوز أن يكون مفعولا له أي للاسف كقولك جئتك ابتغاء الخير (والثالث) قال الزجاج أسفا منصوب لانه مصدر في موضع الحال (البحث السادس) الفاء في قوله فلعلك جواب الشرط وهو قوله ان لم يؤمنوا قدم عليه ومعناه التأخير * قوله تعالى ﴿انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضي وجه النظم كانه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فانت أيضا يا محمد ينبغي ان لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق (المسئلة الثانية) اختلفوا في تفسير هذه الزينة فقال بعضهم النبات والشجر وضم بعضهم اليه الذهب والفضة والمعادن وضم بعضهم اليه سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس بالارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان وقال القاضي الاولى انه لا يدخل في هذه الزينة المكلف لانه تعالى قال انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم فمن يبلوه يجب أن لا يدخل في ذلك فأما سائر النبات والحيوان فانهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به وقوله زينة لها أي للارض ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الارض زينة للارض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب أما قوله لنبلوهم أيهم أحسن عملا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذهب هشام بن الحكم الى أنه تعالى لا يعلم الحوادث الا عند دخولها في الوجود فعلى هذا الابتلاء والامتحان على الله جائز واحتج عليه بأنه تعالى لو كان عالما بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع والا لزم انقلاب علمه جهلا وذلك محال والمفضي الى المحال محال ولو كان ذلك واجبا فالذي علم وقوعه يجب كونه فاعلا له ولا قدرة له على الترك والذي علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل وعلى هذا يلزم أن لا يكون الله قادرا على شئ أصلا بل يكون موجبا بالذات وأيضا فيلزم أن لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك لان ما علم الله وقوعه امتنع من العبد ترك وما علم الله عدمه امتنع منه فعله فالقول بكونه تعالى عالما بالاشياء قبل وقوعها يقدح في الربوبية وفي العبودية وذلك باطل فثبت أنه تعالى انما يعلم الاشياء عند وقوعها وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه تعالى وعند هذا قال يجري قوله تعالى لنبلوهم أيهم أحسن عملا على ظاهره * وأما جمهور علماء الاسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا انه تعالى من الازل الى الابد عالم بجميع الجزئيات فالابتلاء والامتحان محالان عليه وأينما وردت هذه الالفاظ فالمراد انه تعالى يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان وقد ذكرنا هذه المسئلة مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) قال القاضي معنى قوله لنبلوهم أيهم أحسن عملا هو انه يبلوهم ليبصرهم أيهم أطوع لله وأشد استمرارا على خدمته لان من هذا حاله هو الذي يفوز بالجنة فبين تعالى انه كلف لاجل ذلك لا لاجل أن يعصى فدل ذلك على بطلان قول من يقول خلق

الفضل والرحمة وأما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء في رحمته للايذان باستقلالها في استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل (فبذلك فليفرحوا) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثاني عليه والفاء الاولى جزائية والثانية للدلالة على السببية والاصل ان فرحوا بشئ فبذلك ليفرحوا لا بشئ آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد في اسم الاشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أي جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أي فبمجيئها فليفرحوا وقرئ فلتفرحوا وقرأ أبي فافرحوا وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقيل فضله الاسلام ورحمته ما وعد عليه (هو) أي ما ذكر من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وقرئ

بعضهم للنار (المسئلة الثالثة) اللام في قوله لنبلوهم تدل ظاهرا على ان أفعال الله معللة بالاغراض عند المعتزلة وأصحابنا قالوا هذا محال لان التعليل بالغرض انما يصح في حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض الا بتلك الواسطة وهذا يقتضي العجز الا بتلك الواسطة وهذا يقتضي العجز وهو على الله محال (المسئلة الرابعة) قال الزجاج أيهم رفع بالابتداء الا أن لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملا أم ذاك ثم قال تعالى وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا والمعنى انه تعالى بين انه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما أبدا لانه يزهد فيها بقوله وانا لجاعلون ما عليها الآية ونظيره قوله كل من عليها فان وقوله فيذرها قاعا الآية وقوله واذا الارض مدت الآية والمعنى أنه لابد من المجازاة بعد فناء ما على الارض وتخصيص الابطال والاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات دلت على ان الارض أيضا لا تبقى وهو قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال أبو عبيدة الصعيد المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذي لا نبات فيه وقد ذكرنا تفسير الصعيد في آية التيمم وأما الجرز فقال الفراء الجرز الارض التي لا نبات عليها يقال جرزت الارض فهي مجروزة وجرزها الجراد والشاء والابل اذا أكلت ما عليها وامرأة جروز اذا كانت أكولا وسيف جراز اذا كان مستأصلا ونظيره قوله تعالى نسوق الماء الى الارض الجرز ﴿قوله تعالى ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى أم حسبت أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط فلا تحسبن ذلك فان آياتنا كلها عجب فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض ثم يزين الارض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر في النوم هذا هو الوجه في تقرير النظم والله أعلم (المسئلة الثانية) قد ذكرنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه في مجلسه اذا قام فقال أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما الى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود سلوه عن ثلاث عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان من أمرهم فان حديثهم عجب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح وما هو فان أخبركم فهو نبي والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله اياه على حزنه عليهم وفيها خبر أولئك الفتية وخبر الرجل الطواف (المسئلة الثالثة) الكهف الغار الواسع في الجبل فاذا صغر فهو الغار وفي الرقيم أقوال (الاول) روى عكرمة عن ابن عباس انه قال كل القرآن أعلمه الا أربعة غسلين وحنانا والاواه والرقيم (الثاني) روى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الرقيم فقال زعم كعب

تجمعون أي فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطبون (قل أرأيتم) أي أخبروني (ما أنزل الله لكم من رزق) ما منصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على ان المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلا لانه مقدر في السماء محصل هو او ما يتوقف عليه وجودا أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب في الانضاج والتلوين (فجعلتم منه) أي جعلتم بعضه (حراما) أي حكمتم بأنه حرام (وحلالا) أي وجعلتم بعضه حلالا أي حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه أنعام وحرث حجر الآية وقولهم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قل) تكريرا لتأكيد الامر بالاستخبار أي أخبروني (آلله أذن لكم) في ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى (أم على الله تفترون) أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال

انها

أنها القرية التي خرجوا منها وهو قول السدي (الثالث) قال سعيد بن جبير ومجاهد الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وشد ذلك اللوح على باب الكهف وهذا قول جميع أهل المعاني والعربية قالوا الرقيم الكتاب والاصل فيه المرقوم ثم نقل الى فعيل والرقم الكتابة ومنه قوله تعالى كتاب مرقوم أي مكتوب قال الفراء الرقيم لوح كان فيه أسماؤهم وصفاتهم ونظن انه انما سمي رقيما لان أسماءهم كانت مرقومة فيه وقيل الناس رقوا حديثهم نقرا في جانب الجبل وقوله كانوا من آياتنا عجبا المراد أحسبت أن واقعتهم كانت عجيبة في أحوال مخلوقاتنا فلا تحسب ذلك فان تلك الواقعة ليست عجيبة في جانب مخلوقاتنا والعجب ههنا مصدر سمي المفعول به والتقدير كانوا معجوبا منهم فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر ثم قال تعالى اذ أوى الفتية الى الكهف لا يجوز أن يكون اذ ههنا متعلقا بما قبله على تقدير أم حسبت اذ أوى الفتية لانه كان بين النبي وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذي أووا فيه الى الكهف بل يتعلق بمحذوف والتقدير اذكر اذ أوى ومعنى أوى الفتية في الكهف صاروا اليه وجعلوه مأواهم قال فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والامن من الاعداء وقوله من لدنك يدل على عظمة تلك الرحمة وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده وهيئ لنا أي أصلح من قولك هيأت الامر فتهيأ من أمرنا رشدا الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان (الاول) التقدير وهيئ لنا أمرا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين (الثاني) اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا ثم قال تعالى فضربنا على آذانهم قال المفسرون معناه أنمناهم وتقدير الكلام انه تعالى ضرب على آذانهم حجابا يمنع من أن تصل الى أسماعهم الاصوات الموقظة والتقدير ضربنا عليهم حجابا الا أنه حذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم انه تعالى بين انه انما ضرب على آذانهم في الكهف وهو ظرف المكان وقوله سنين عددا ظرف الزمان وفي قوله عددا بحثان (الاول) قال الزجاج ذكر العدد ههنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شئ مما يعد اذا ذكر فيه العدد ووصف به أريد كثرته لانه اذا قل فهم مقداره بدون التعديد أما اذا كثر فهناك يحتاج الى التعديد فاذا قلت أقمت أياما عددا أردت به الكثرة (البحث الثاني) في انتصاب قوله عددا وجهان (أحدهما) نعت لسنين المعنى سنين ذات العدد أي معدودة هذا قول الفراء وقول الزجاج وعلى هذا يجوز في الآية ضربان من التقدير (أحدهما) حذف المضاف (والثاني) تسمية المفعول باسم المصدر قال الزجاج ويجوز أن ينتصب على المصدر المعنى تعد عددا ثم قال تعالى ثم بعثناهم يريد من بعد نومهم يعني أيقظناهم بعد نومهم وقوله لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا فيه مسائل (المسألة الاولى) قوله ثم بعثناهم لنعلم اللام لام الغرض فيدل على أن أفعال الله معللة بالاغراض وقد سبق الكلام فيه (المسألة الثانية) ظاهر اللفظ يقتضي انه تعالى انما بعثهم ليحصل له هذا العلم وعند هذا رجع الى أنه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها أم لا فقال هشام لا يعلمها الا عند حدوثها واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق ونظائر هذه الآية كثيرة في القرآن منها ما سبق في هذه السورة ومنها قوله في سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفي آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم (المسألة الثالثة) أي رفع بالابتداء وأحصى خبره وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله لنعلم في لفظة أي بل بقيت على ارتفاعها ونظيره قوله اذهب فاعلم أيهم قام قال تعالى سلهم أيهم بذلك زعيم وقوله ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا وقرئ ليعلم على فعل ما لم يسم فاعله وفي هذه القراءة فائدتان (احداهما) ان على هذا التقدير لا يلزم اثبات العلم المتجدد لله بل المقصود انا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق (والثانية) ان على هذا التقدير يجب ظهور النصب في لفظة أي لكن لقائل أن يقول الاشكال بعد باق لان ارتفاع لفظة أي بالابتداء لا باسناد يعلم اليه ولمجيب أن يجيب

من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ما يفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول في موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا للاظهار كمال قبح ما افتعلوا وكونه كذبا في اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل (يوم القيامة) ظرف لنفس الظن أي أي شئ ظنهم في ذلك اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الامور التي ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الاحوال لكمال وضوح أمره في التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أي أي شئ ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون انهم لا يسئلون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا ولاجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا انهم لفي أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصي ومن أظلم ممن افترى على

فيقول انه لايمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لان لان العوامل النحوية علامات ومعرفات ولايمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشئ الواحد والله أعلم (المسئلة الرابعة) اختلفوا في الحزبين فنقل عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك فالملوك حزب وأصحاب الكهف حزب (والقول الثاني) قال مجاهد الحزبان من هذه الفتية لان أصحاب الكهف لما تيقظوا اختلفوا في أنهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول (القول الثالث) قال الفراء ان طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم (المسئلة الخامسة) قال أبو علي الفارسي قوله أحصى ليس من باب أفعل التفضيل لان هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس فاما قولهم ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب وأفلس من ابن المدلق فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه بل الصواب أن أحصى فعل ماض وهو خبر المبتدأ والمبتدأ والخبر مفعول نعلم وأمدا مفعول به لاحصى وما في قوله تعالى لما لبثوا مصدرية والتقدير أحصى أمدا للبثهم وحاصل الكلام لنعلم أي الحزبين أحصى أمد ذلك اللبث ونظيره قوله أحصاه الله وقوله وأحصى كل شئ عددا (المسئلة السادسة) احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر ونذكر هذه المسئلة ههنا على سبيل الاستقصاء فنقول قبل الخوض في الدليل على جواز الكرامات نفتقر الى تقديم مقدمتين (المقدمة الاولى) في بيان أن الولي ما هو فنقول هنا وجهان (الاول) أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية (الثاني) أن يكون فعيلا بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالي عن كل أنواع المعاصي ويديم توفيقه على الطاعات واعلم أن هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى الله ولي الذين آمنوا وقوله وهو يتولى الصالحين وقوله تعالى أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وقوله ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم وقوله انما وليكم الله ورسوله وأقول الولي هو القريب في اللغة فاذا كان العبد قريبا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة اخلاصه وكان الرب قريبا منه برحمته وفضله واحسانه فهناك حصلت الولاية (المقدمة الثانية) اذا ظهر فعل خارق للعادة على الانسان فذلك اما أن يكون مقرونا بالدعوى أولا مع الدعوى والقسم الاول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى اما أن تكون دعوى الالهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين فهذه أربعة أقسام (القسم الاول) ادعاء الالهية وجوز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نقل أن فرعون كان يدعي الالهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده وكما نقل ذلك أيضا في حق الدجال قال أصحابنا وانما جاز ذلك لان شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضي الى التلبيس (والقسم الثاني) وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لانه اما أن يكون ذلك المدعي صادقا أو كاذبا فان كان صادقا وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الانبياء وان كان كاذبا لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير أن تظهر وجب حصول المعارضة (وأما القسم الثالث) وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الاولياء اختلفوا في أنه هل يجوز أن يدعي الكرامات ثم انها تحصل على وفق دعواه أم لا (وأما القسم الرابع) وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده وعند المعتزلة لا يجوز (وأما القسم الثاني) وهو أن تظهر خوارق العادات على يد انسان من غير شئ من الدعاوى فذلك الانسان اما أن يكون صالحا مرضيا عند الله واما أن يكون خبيثا مذنبا والاول هو القول بكرامات الاولياء وقد اتفق أصحابنا على جوازه وأنكرها المعتزلة الا أبا الحسين البصري وصاحبه محمود الخوارزمي (وأما القسم الثالث) وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله تعالى فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام في هاتين المقدمتين اذا عرفت

الله كذبا وقرئ على لفظ الماضي أي أي ظن ظنوا يوم القيامة وايراد صيغة الماضي لانه كائن فكانه قد كان (ان الله لذو فضل) أي عظيم لا يكتنه كنهه (على الناس) أي جميعا حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل وبين لهم الاسرار التي لا تستقل العقول في ادراكها وأرشدهم الى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد (ولكن أكثرهم لا يشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لا يدرك الا به وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق مقرر لمضمونه (وما تكون في شأن) أي في أمر من شأنت شأنه أي قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول (وما تتلو منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أي تلاوة كائنة من الشأن اذ هي معظم شؤنه عليه السلام أو للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أو لله عز وجل ومن ابتدائية والتي في قوله تعالى (من قرآن) مزيدة لتأكيد النفي أو ابتدائية على الوجه الاول وبيانية أو تبعيضية على الثاني والثالث (ولا تعملون من

ذلك

ذلك فنقول الذي يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات (الحجة الاولى) قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها (الحجة الثانية) قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وانه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال وتحسبهم أيقاظا وهم رقود الى قوله وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ومن الناس من تمسك في هذه المسئلة بقوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وقد بينا أن ذلك الذي كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال أجاب القاضي عنه بان قال لابد من أن يكون فيهم أو في ذلك الزمان نبي يصير ذلك علما له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات * قلنا انه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء لان اقدامهم على النوم امر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لان الناس لا يصدقونه في هذه الواقعة لانهم لا يعرفون كونهم صادقين في هذه الدعوى الا اذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء فلم يبق الا أن تجعل كرامة للاولياء واحسانا اليهم * أما الاخبار فكثيرة (الخبر الاول) ما أخرج في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم عليه السلام وصبي في زمن جريج الناسك وصبي آخر أما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج فكان رجلا عابدا ببني اسرائيل وكانت له أم فكان يوما يصلي اذا اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلى فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى قال ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه قالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية هناك فقالت لهم أنا أفتن جريجا حتى يزني فأتته فلم تقدر على شئ وكان هناك راع يأوي بالليل الى اصل صومعته فلما أعياها راودت الراعي عن نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام قال أبو هريرة كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له أمه في ذلك فقال ان الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وان هذه قيل انها زنت ولم تزن وقيل انها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله (الخبر الثاني) وهو خبر الغار وهو مشهور في الصحاح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار فقالوا والله لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما فنأى بي في طلب شجرة يوما فلم أبرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما فقمت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجا لا يستطيعون الخروج منه ثم قال الآخر كانت لي ابنة عم وكانت أحب الناس الي فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني وأعطيتها مالا عظيما على أن تخلي بيني وبين نفسها فلما قدرت عليها قالت لا يجوز لك أن تفك الخاتم الا بحقه فتحرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم

عمل) تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعي في كل من المقامين ما يليق به حيث ذكر أولا من الاعمال ما فيه فخامة وجلالة وثانيا ما يتناول الجليل والحقير (الا كنا عليكم شهودا) استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة أي ما تلابسون بشئ منها في حال من الاحوال الا حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له (اذ تفيضون فيه) أي تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضي أيضا أوثر في الاستثناء صيغة الماضي وفي الظرف كلمة اذ التي تفيد المضارع معنى الماضي (وما يعزب عن ربك) أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل وفي التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف ما لا يخفى وقرئ بكسر الزاي (من مثقال ذرة) كلمة من مزيدة لتأكيد النفي أي ما يعزب عنه ما يساوي في الثقل نملة صغيرة أو هباء (في الارض ولا في السماء) أي في دائرة الوجود والامكان فان العامة لا تعرف سواهما ممكنا ليس في أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام في حال أهلها والمقصود اقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) كلام

قال الثالث اللهم انى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منه الاموال فجاءنى بعد حين وقال ياعبد الله أدّ الىّ أجرتى فقلت له كل ماترى من أجرتك من الابل والغنم والرقيق فقال ياعبد الله أتستهزئ بى فقلت انى لا أستهزئ بك فأخذ ذلك كله اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون وهذا حديث حسن صحيح متفق عليه (الخبر الثالث) قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابرّه ولم يفرق بين شئ وشئ فيما يقسم به على الله (الخبر الرابع) روى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت اليه البقرة فقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما (الخبر الخامس) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يسمع رعدا أو صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال فعدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان بن فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال أما اذ قلت فانى أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسى وأهلى ثلثا وأجعل للمساكين وابن السبيل ثلثا وأنفق عليها ثلثا (أما الآثار) فلنبدأ بما نقل أنه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم بما ظهر عن سائر الصحابة * أما أبو بكر رضى الله عنه فمن كراماته انه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يارسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا الباب قد انفتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب * وأما عمر رضى الله عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته (أحدها) ماروى انه بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر ياسارية الجبل الجبل قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فكتبت تاريخ تلك الكلمة فقدم رسول مقدم الجيش فقال ياأمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح ياسارية الجبل الجبل فأسندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لاجرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم (الثانى) روى أن نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة وكان لا يجرى حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة الى عمر فكتب عمر على خزفة أيها النيل ان كنت تجرى بأمر الله فاجر وان كنت تجرى بأمرك فلا حاجة بنا اليك فألقيت تلك الخزفة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك (الثالث) وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر الدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وماحدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك (الرابع) وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة يانار اسكنى باذن الله فألقوها فى النار فانطفأت فى الحال (الخامس) روى أن رسول ملك الروم جاء الى عمر فطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر رضى الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فعجب الرسول من ذلك وقال ان أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال فى نفسه انى وجدته خاليا فأقتله وأخلص الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله من الارض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيأ فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم * وأقول هذه الوقائع رويت بالآحاد وههنا ماهو معلوم بالتواتر وهو انه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول ولو نظرت فى كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لاحد من أول عهد آدم الى الآن ماتيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات

برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كانه قيل لا يعزب عن ربك شئ مالكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ويعزب بمعنى يبين ويصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ (ألا ان أولياء الله) بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل ما يأتون وما يذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع ما فى السماء والارض وكون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعد ما أشير الى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم (لا خوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه (ولا هم

ولاشك أن هذا من أعظم الكرامات ❊ وأما عثمان رضى الله عنه فروى أنس قال سرت فى الطريق فرفعت عينى الى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالى أرا كم تدخلون على وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة (الثانى) انه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (الثالث) ان جهجاها الغفارى انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته فوقعت الاكلة فى ركبته ❊ وأما على كرم الله وجهه فيروى أن واحدا من محبيه سرق وكان عبدا أسود فأتى به الى على فقال له أسرقت قال نعم فقطع يده فانصرف من عند على عليه السلام فلقيه سلمان الفارسى وابن الكرا فقال ابن الكرا من قطع يدك فقال أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برأت باذن الله تعالى وجميل صنعه ❊ أما سائر الصحابة فأحوالهم فى هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيأ قليلا (الاول) روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ركبت البحر فانكسرت سفينتى التى كنت فيها فركبت لوحا من ألواحها فطرحنى اللوح فى خيسة فيها اسد فخرج الاسد الى يريدنى فقلت يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم ودلنى على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعنى ورجع (الثانى) روى ثابت عن أنس ان أسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وفى يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا فى ضوئها فلما انفرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى فى ضوئها حتى بلغ منزله (الثالث) قالوا لخالد بن الوليد ان فى عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقى رجلا على فرس ومعه زق خمر فقال ما هذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى أصحابه فقال أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال هذا والله دعاء خالد بن الوليد (الرابع) الواقعة المشهورة وهى ان خالد بن الوليد أكل كفا من السم على اسم الله وما ضره (الخامس) روى ان ابن عمر كان فى بعض أسفاره فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ (السادس) روى ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها ❊ وأما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرامات فمن وجوه (الحجة الاولى) ان العبد ولى الله قال الله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والرب ولى العبد قال تعالى الله ولى الذين آمنوا وقال وهو يتولى الصالحين وقال انما وليكم الله ورسوله وقال أنت مولانا وقال ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا فثبت ان الرب ولى العبد وأن العبد ولى الرب وأيضا الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب قال تعالى يحبهم ويحبونه وقال والذين آمنوا أشد حبا لله وقال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين واذا ثبت هذا فنقول العبد اذا بلغ فى الطاعة الى حيث يفعل كل ما أمره الله وكل ما فيه رضاه وترك كل ما نهى الله وزجر عنه فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد بل هو أولى لان العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى ولهذا قال تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم (الحجة الثانية) لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل ان الله ليس أهلا لان يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل ان المؤمن ليس أهلا لان يعطيه الله هذه العطية (والاول) قدح فى قدرة الله وهو كفر (والثانى) باطل فان معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على

يحزنون) من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لأنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولأنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصار الجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لا يعتريهم ذلك لان مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لا ريب فى حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ما عدا ذلك من الامور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل (الذين آمنوا) أى بكل ما جاء من عند الله تعالى (وكانوا يتقون) أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغة الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول

ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد في مفازة أو تسخير حية أو أسد فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفا في مفازة فأي بعد فيه (الحجة الثالثة) قال النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن رب العزة ما تقرب عبد الى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا وقلبا ويدا ورجلا بي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وهذا الخبر يدل على انه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله ولا في بصرهم ولا في سائر أعضائهم اذ لو بقي هناك نصيب لغير الله لما قال أنا سمعه وبصره اذا ثبت هذا فنقول لا شك ان هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل الله برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة ماء في مفازة (الحجة الرابعة) قال عليه السلام حاكيا عن رب العزة من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فجعل ايذاء الولي قائما مقام ايذائه وهذا قريب من قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقال وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا وقال ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة فجعل بيعة محمد صلى الله عليه وسلم بيعة مع الله ورضا محمد صلى الله عليه وسلم رضا الله وايذاء محمد صلى الله عليه وسلم ايذاء الله فلا جرم كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات الى أبلغ الغايات فكذا ههنا لما قال من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة دل ذلك على انه تعالى جعل ايذاء الولي قائما مقام ايذاء نفسه ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة مرضت فلم تعدني استسقيتك فما سقيتني استطعمتك فما أطعمتني فيقول يا رب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندي وكذا في السقي والاطعام فدلت هذه الاخبار على ان أولياء الله يبلغون الى هذه الدرجات فأي بعد في أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر له كلبا أو وردا (الحجة الخامسة) انا نشاهد في العرف ان من خصه الملك بالخدمة الخاصة وأذن له في الدخول عليه في مجلس الانس فقد يخصه أيضا بأن يقدره على ما لا يقدر عليه غيره بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فانه يتبعه هذه المناصب فجعل القرب أصلا والمنصب تبعا وأعظم الملوك هو رب العالمين فاذا شرف عبدا بأن أوصله الى عتبات خدمته ودرجات كرامته وأوقفه على أسرار معرفته ورفع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه فأي بعد في أن يظهر بعض تلك الكرامات في هذا العالم مع ان كل هذا العالم بالنسبة الى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض (الحجة السادسة) لا شك أن المتولي للافعال هو الروح لا البدن ولا شك أن معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ما قررناه في تفسير قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقال عليه السلام أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني ولهذا المعنى نرى ان كل من كان أكثر علما بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلبا وأقل ضعفا ولهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية وذلك لان عليا كرم الله وجهه في ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الاجساد وأشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الارواح الملكية وتلألأت فيه أضواء عالم القدس والعظمة فلا جرم حصل له من القدرة ما قدر بها على ما لم يقدر عليه غيره وكذلك العبد اذا واظب على الطاعات بلغ المقام الذي يقول الله كنت له سمعا وبصرا فاذا صار نور جلال الله سمعا له سمع القريب والبعيد واذا صار ذلك النور بصرا له رأى القريب والبعيد واذا صار ذلك النور يدا له قدر على التصرف في الصعب والسهل والبعيد والقريب (الحجة السابعة) وهي مبنية على القوانين العقلية الحكمية وهي انا قد بينا أن جوهر الروح ليس من جنس الاجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع المقدسين المطهرين الا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق في تدبيره صار في ذلك الاستغراق الى حيث نسي الوطن الاول والمسكن المتقدم وصار بالكلية متشبها بهذا الجسم الفاسد فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر على شيء من الافعال أما اذا استأنست بمعرفة الله ومحبته

الرفع على انه خبر لمبتدإ محذوف كانه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على انه وصف مادح للاولياء ولا يقدح في ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعني تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهي التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذي عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليهما السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل ولا تعملون من عمل خلا أن لهم في شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الابية اقصاها ما انتهى اليه همم الانبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الاشباح عن الاستغراق في عالم الارواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية

وقال

وقل انغماسها في تدبير هذا البدن وأشرقت عليها أنوار الارواح السماوية العرشية المقدسة وفاضت عليها من تلك الانوار قويت على التصرف في أجسام هذا العالم مثل قوة الارواح الفلكية على هذه الاعمال وذلك هو الكرامات وفيه دقيقة أخرى وهي أن مذهبنا أن الارواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة وفيها النورانية والكدرة وفيها الحرة والنذلة والارواح الفلكية أيضا كذلك ألا ترى الى جبريل كيف قال الله في وصفه انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وقال في قوم آخرين من الملائكة وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيأ فكذا ههنا فاذا اتفق في نفس من النفوس كونها قوية القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة ثم انضاف اليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف في هيولى عالم الكون والفساد باعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية أضواء حضرة الجلال والعزة ولنقبض ههنا عنان البيان فان وراءها أسرارا دقيقة وأحوالا عميقة من لم يصل اليها لم يصدق بها ونسأل الله الاعانة على ادراك الخيرات واحتج المنكرون للكرامات بوجوه (الشبهة الاولى) وهي التي عليها يعولون وبها يصولون ان ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلا على النبوة فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة لان حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلا وذلك باطل (والشبهة الثانية) تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه لن يتقرب المتقربون الي بمثل أداء ما افترضت عليهم قالوا هذا يدل على ان التقرب الى الله باداء الفرائض أعظم من التقرب اليه بأداء النوافل ثم ان المتقرب اليه بأداء الفرائض لا يحصل له شئ من الكرامات فالمتقرب اليه باداء النوافل أولى أن لا يحصل له ذلك (الشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله تعالى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على الوجه طعن في هذه الآية وأيضا ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال ان الولي ينتقل من بلد نفسه الى الحج في يوم واحد (الشبهة الرابعة) قالوا هذا الولي الذي تظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما فهل نطالبه بالبينة أم لا فان طالبناه بالبينة كان عبثا لان ظهور الكرامات عليه يدل على انه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني وان لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام البينة على المدعي فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل (الشبهة الخامسة) اذا جاز ظهور الكرامة على بعض الاولياء جاز ظهورها على الباقين فاذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقا للعادة وذلك يقدح في المعجزة والكرامة (والجواب) عن الشبهة الاولى ان الناس اختلفوا في أنه هل يجوز للولي دعوى الولاية فقال قوم من المحققين ان ذلك لا يجوز فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات ان المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية والسبب في هذا الفرق ان الانبياء عليهم السلام انما بعثوا الى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به واذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر واذا ادعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم فاقدام الانبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه اظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر الى الايمان أما ثبوت الولاية للولي فليس الجهل بها كفرا ولا معرفتها ايمانا فكان دعوى الولاية طلبا لشهوة النفس فعلمنا أن النبي يجب عليه اظهار دعوى النبوة والولي لا يجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق أما الذين قالوا يجوز للولي دعوى الولاية فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه (الاول) أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الانسان مبرأ عن المعصية ثم ان اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقا في دعوى النبوة وان اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقا في دعوى الولاية وبهذا الطريق لا يكون ظهور الكرامة على الاولياء طعنا في معجزات الانبياء عليهم السلام (الثاني) ان النبي صلى الله عليه وسلم يدعي المعجزة ويقطع بها والولي اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجزة يجب

المؤيدة بالقوة القدسية فلذلك أمر الولاية هو التقوى المذكور رفا أولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ماقيل من انهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولا يخالفه ماقيل من انهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أي بسمتهم وأخباتهم وسكينتهم ولا ماقيل من انهم المتحابون في الله لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يارسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس فانما ذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب في الله سبحانه من الاحكام الدنيوية اللازمة للايمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه

ظهورها اما الكرامة لا يجب ظهورها (الثالث) أنه يجب نفي المعارضة عن المعجز ولا يجب نفيها عن الكرامة (الرابع) انا لا نجوز ظهور الكرامة على الولي عند ادعاء الولاية الا اذا أقر عند تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبي ومتى كان الامر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبي ومؤكدة لرسالته وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعنا في نبوة النبي بل يصير مقويا لها (والجواب) عن الشبهة الثانية ان التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل أما الولي فانما يكون وليا اذا كان آتيا بالفرائض والنوافل ولا شك انه يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق (والجواب) عن الشبهة الثالثة ان قوله تعالى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم وهذا هو الجواب عن الشبهة الرابعة وهي التمسك بقوله عليه السلام البينة على المدعي (والجواب) عن الشبهة الخامسة ان المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى وقليل من عبادي الشكور وكما قال ابليس ولا تجد أكثرهم شاكرين واذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم من الكرامات في الاوقات النادرة قادحا في كونها على خلاف العادة (المسئلة السابعة) في الفرق بين الكرامات والاستدراج اعلم أن من أراد شيأ فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيها عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة بل قد يكون ذلك اكراما للعبد وقد يكون استدراجا له ولهذا الاستدراج أسماء كثيرة في القرآن (أحدها) الاستدراج قال الله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعدا من الله وتحقيقه انه ثبت في العلوم العقلية ان تكرار الافعال سبب لحصول الملكة الراسخة فاذا مال قلب العبد الى الدنيا ثم أعطاه الله مراده فحينئذ يصل الطالب الى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة وحصول اللذة يزيد في الميل وحصول الميل يوجب مزيد السعي ولا يزال يتأدى كل واحد منهما الى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة ومعلوم ان الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف فلا جرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة الى أن يتكامل فهذا هو الاستدراج (وثانيها) المكر قال تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وقال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (وثالثها) الكيد قال تعالى يخادعون الله وهو خادعهم وقال يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم (ورابعها) الاملاء قال تعالى ولا تحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما (وخامسها) الاهلاك قال تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم وقال في فرعون واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فظهر بهذه الآيات ان الايصال الى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات * بقي علينا أن نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات فنقول ان صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فانه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج وأما صاحب الاستدراج فانه يستأنس بذلك الذي يظهر عليه ويظن أنه انما وجد تلك الكرامة لانه كان مستحقا لها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة فاذا ظهر شئ من هذه الاحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على انها كانت استدراجا لا كرامة فلهذا المعنى قال المحققون أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله انما وقع في مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء والذي يدل على ان الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه (الحجة الاولى) ان هذا الغرور انما يحصل اذا اعتقد الرجل انه مستحق لهذه الكرامة لان بتقدير أن لا يكون مستحقا لها امتنع حصول الفرح بها بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولى وفضله أكبر من فرحه بنفسه فثبت أن الفرح بالكرامة أكثر من فرحه بنفسه وثبت

مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هنالك من أحكامه ما فعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الاقوال والافعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الاخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوافقهم في الدين من أرحامهم وأما ما ذكر من انه ينبطهم الانبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشي وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل قوله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل (لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة) تفسيرا لتوليه تعالى اياهم ولا ريب في أن اعتبار القيد الاخير في مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل الا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله

ان

ان الفرح بالكرامة لا يحصل الا اذا اعتقد انه أهل ومستحق لها وهذا عين الجهل لان الملائكة قالوا لا علم لنا الا ما علمتنا وقال تعالى وما قدروا الله حق قدره وأيضا قد ثبت بالبرهان اليقيني انه لا حق لاحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق ﴿الحجة الثانية﴾ ان الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه فالفرح بالكرامة بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب عن الحق والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور ﴿الحجة الثالثة﴾ ان من اعتقد في نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل * رأيت في بعض الكتب انه قرأ المقرئ في مجلس الاستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك فان بقي عملك في نظرك فهو مدفوع وان لم يبق معك فهو مرفوع مقبول ﴿الحجة الرابعة﴾ ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتواضع في حضرة الله فاذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق ثبوته يؤديه الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها ولا فخر يعني لا أفتخر بهذه الكرامات وانما أفتخر بالمكرم والمعطي ﴿الحجة الخامسة﴾ ان ظاهر الكرامات في حق ابليس وفي حق بلعام كان عظيما ثم قيل لابليس وكان من الكافرين وقيل لبلعام فمثله كمثل الكلب وقيل لعلماء بني اسرائيل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا وقيل أيضا في حقهم وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فبين ان وقوعهم في الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما أوتوا من العلم والزهد ﴿الحجة السادسة﴾ ان الكرامة غير المكرم وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل ولهذا المعنى قال الخليل صلوات الله عليه أما اليك فلا فالاستغناء بالفقير فقر والتقوي بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والاقبال بالكلية على الحق اخلاص فثبت ان الفقير اذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته أما اذا كان لا يشاهد في الكرامات الا المكرم ولا في الاعزاز الا المعز ولا في الخلق الا الخالق فهناك يحق الوصول ﴿الحجة السابعة﴾ ان الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات ابليس وفرعون قال ابليس أنا خير منه وقال فرعون أليس لي ملك مصر وكل من ادعى الالهية أو النبوة بالكذب فليس له غرض الا تزيين النفس وتقوية الحرص والعجب ولهذا قال عليه السلام ثلاث مهلكات وختمها بقوله واعجاب المرء بنفسه ﴿الحجة الثامنة﴾ انه تعالى قال خذ ما آتيتك وكن من الشاكرين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالاشتغال بخدمة المعطي لا بالفرح بالعطية ﴿الحجة التاسعة﴾ ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبدا نبيا ترك الملك ولا شك ان وجدان الملك الذي يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات ثم انه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك الملك واختار العبودية لانه اذا كان عبدا كان افتخاره بمولاه واذا كان ملكا كان افتخاره بعبيده فلما اختار العبودية لا جرم جعل السنة التي في التحيات التي رواها ابن مسعود وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وقيل في المعراج سبحان الذي أسرى بعبده ﴿الحجة العاشرة﴾ أن محب المولى غير ومحب ما للمولى غير فمن أحب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على انه ما كان محبا للمولى بل كان محبا النصيب نفسه ونصيب النفس انما يطلب للنفس فهذا الشخص ما أحب الا نفسه وما كان المولى محبوبا له بل جعل المولى وسيلة الى تحصيل ذلك المطلوب والصنم الاكبر هو النفس كما قال تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه فهذا الانسان عابد للصنم الاكبر حتى ان المحققين قالوا لا مضرة في عبادة شئ من الاصنام مثل المضرة الحاصلة في عبادة النفس ولا خوف من عبادة الاصنام كالخوف من الفرح بالكرامات ﴿الحجة الحادية عشرة﴾ قوله تعالى

ولا يعلمون لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولي بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره في عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذي يقتضيه نظمه الكريم أن الاول تفسير للاولياء حسبما شرح والثاني بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرهم في الدارين وتقديم الاول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الاهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الاولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدي اليهما من الاسباب والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان في موقع الحال منه والعامل ما في الخبر من معنى الاستقرار أي لهم البشرى حال كونها في الحياة الدنيا وحال كونها في

ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه وهذا يدل على أن من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شئ من هذه الافعال والاحوال (المسئلة الثامنة) في أن الولى هل يعرف كونه وليا قال الاستاذ أبو بكر بن فورك لا يجوز وقال الاستاذ أبو على الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيرى يجوز وحجة المانعين وجوه (الحجة الاولى) لو عرف الرجل كونه وليا لحصل له الامن بدليل قوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لكن حصول الامن غير جائز ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون واليأس أيضا غير جائز لقوله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ولقوله تعالى ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون والمعنى فيه ان الامن لا يحصل الا عند اعتقاد العجز واليأس لا يحصل الا عند اعتقاد البخل واعتقاد العجز والبخل في حق الله كفر فلا جرم كان حصول الامن والقنوط كفرا (والثانى) ان الطاعات وان كثرت الا أن قهر الحق أعظم ومع كون القهر غالبا لا يحصل الامن (الثالث) ان الامن يقتضى زوال العبودية وترك الخدمة والعبودية توجب العداوة والامن يقتضى ترك الخوف (الرابع) انه تعالى وصف المخلصين بقوله ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين قيل رغبا في ثوابنا ورهبا من عقابنا وقيل رغبا في فضلنا ورهبا من عدلنا وقيل رغبا في وصالنا ورهبا من فراقنا والاحسن أن يقال رغبا فينا ورهبا منا (الحجة الثانية) على ان الولى لا يعرف كونه وليا ان الولى انما يصير وليا لاجل ان الحق يحبه لا لاجل انه يحب الحق وكذلك القول في العدو ثم ان محبة الحق وعداوته سران لا يطلع عليهما أحد فطاعات العباد ومعاصيهم لا تؤثر في محبة الحق وعداوته لان الطاعات والمعاصى محدثة وصفات الحق قديمة غير متناهية والمحدث المتناهى لا يصير غالبا للقديم غير المتناهى وعلى هذا التقدير فربما كان العبد في الحال في عين المعصية الا أن نصيبه من الازل عين المحبة وربما كان العبد في الحال في عين الطاعة ولكن نصيبه من الازل عين العداوة وتمام التحقيق أن محبته وعداوته صفة وصفة الحق غير معللة ومن كانت محبته لا لعلة فانه يمتنع أن يصير عدوا لعلة المعصية ومن كانت عداوته لا لعلة يمتنع أن يصير محبا لعلة الطاعة ولما كانت محبة الحق وعداته سرين لا يطلع عليهما لا جرم قال عيسى عليه السلام تعلم ما في نفسى ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب (الحجة الثالثة) على أن الولى لا يعرف كونه وليا ان الحكم بكونه وليا وبكونه من أهل الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة والدليل عليه قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ولم يقل من عمل حسنة فله عشر أمثالها وهذا يدل على ان استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل والذى يؤكد ذلك أنه لو مضى عمره في الكفر ثم أسلم في آخر الامر كان من أهل الثواب وبالضد وهذا يدل على ان العبرة بالخاتمة لا بأول العمل ولهذا قال تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فثبت ان العبرة في الولاية والعداوة وكونه من أهل الثواب أو من أهل العقاب بالخاتمة فظهر ان الخاتمة غير معلومة لاحد فوجب القطع بان الولى لا يعلم كونه وليا أما الذين قالوا ان الولى قد يعرف كونه وليا فقد احتجوا على صحة قولهم بان الولاية لها ركنان (أحدهما) كونه في الظاهر منقادا للشريعة (الثانى) كونه في الباطن مستغرقا في نور الحقيقة فاذا حصل الامران وعرف الانسان حصولهما عرف لا محالة كونه وليا أما الانقياد في الظاهر للشريعة فظاهر وأما استغراق الباطن في نور الحقيقة فهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله وأن لا يكون له استقرار مع شئ سوى الله (والجواب) ان تداخل الاغلاط في هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر والتجربة خطر والجزم غرور ودون الوصول الى عالم الربوبية أستار تارة من النيران وأخرى من الانوار والله العالم بحقائق الاسرار ولنرجع الى التفسير ۞ قوله تعالى ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ اعلم أنه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال نحن نقص عليك نبأهم بالحق أى على وجه

الصدق

الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم في الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس ۞ عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به ۞ أما البشرى في الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين في غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لا يساعده جلالة شأن التنزيل الكريم (لا تبديل لكلمات الله) لا تغيير لأقواله التى

الصدق انهم فتية آمنوا بربهم كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله ثم قال تعالى في صفاتهم وربطنا على قلوبهم أي ألهمناها الصبر وثبتناها اذ قاموا وفي هذا القيام أقوال (الاول) قال مجاهد كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم أكبر القوم اني لاجد في نفسي شيأ ما أظن ان أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد في نفسي ان ربي رب السموات والارض (القول الثاني) انهم قاموا بين يدي ملكهم دقيانوس الجبار وقالوا ربنا رب السموات والارض وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والانداد (والقول الثالث) وهو قول عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم وهذا بعيد لان الله استأنف قصتهم بقوله نحن نقص عليك وقوله لقد قلنا اذا شططا معنى الشطط في اللغة مجاوزة الحد قال الفراء يقال قد أشط في السوم اذا جاوز الحد ولم يسمع الا أشط يشط اشطاطا وشططا وحكى الزجاج وغيره شط الرجل وأشط اذا جاوز الحد ومنه قوله ولا تشطط وأصل هذا من قولهم شطت الدار اذا بعدت فالشطط البعد عن الحق وهو ههنا منصوب على المصدر والمعنى لقد قلنا اذا قولا شططا أما قوله هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة هذا من قول أصحاب الكهف ويعنون الذين كانوا في زمان دقيانوس عبدوا الاصنام لولا يأتون هلا يأتون عليهم بسلطان بين بحجة بينة ومعنى عليهم أي على عبادة الآلهة ومعنى الكلام ان عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية فقال انه تعالى استدل على عدم الشركاء والاضداد بعدم الدليل عليها فثبت ان الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية ثم قال فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا يعني ان الحكم بثبوت الشيء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد ﴿ قوله تعالى ﴿واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾ اعلم أن المراد انه قال بعضهم لبعض واذ اعتزلتموهم واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادة الله فأووا الى الكهف قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت كذا فافعل كذا ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم ينشر لكم ربكم من رحمته أي يبسطها عليكم ويهيئ لكم من أمركم مرفقا قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء والباقون مرفقا بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائي ينكر في مرفق الانسان الذي في اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزه في الامر وفي اليد وقيل هما لغتان الا أن الفتح أقيس والكسر أكثر وقيل المرفق ما ارتفقت به والمرفق بالفتح المرافق * ثم قال تعالى وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ ابن عامر تزور ساكنة الزاي المعجمة مشددة الراء مثل تحمر وقرأ عاصم وحمزة والكسائي تزاور بالالف والتخفيف والباقون تزاور بالتشديد والالف والكل بمعنى والتزاور هو الميل والانحراف ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق وأما التشديد فأصله تتزاور سكنت التاء الثانية وأدغمت في الزاي وأما التخفيف فهو تفاعل من الزور وأما تزور فهو من الازورار (البحث الثاني) قوله وترى الشمس أي انت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه أنك لو رأيته لرأيته على هذه الصورة (البحث الثالث) قوله ذات اليمين أي جهة اليمين وأصلها ان ذات صفة أقيمت مقام الموصوف لانها تأنيث ذو في قولهم رجل ذو مال وامرأة ذات مال والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين وأما قوله واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ففيه بحثان (البحث الاول) قال الكسائي قرضت المكان أي عدلت عنه وقال أبو عبيدة

من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا ويثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والاخروية بل عدم الخلف بينها وبين ما دل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر (ذلك) اشارة الى ما ذكر من ان لهم البشرى في الدارين (هو الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض (ولا يحزنك قولهم) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الاذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم اثر بيان أن له ولاتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرئ ولا يحزنك من أحزنه وهو في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الحزن كانه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتفوهون به في شأنك مما لا خير

القرض فى أشياء فمنها القطع وكذلك السير فى البلاد أى اذا قطعها تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب انما قرضته فقوله تقرضهم ذات الشمال أى تعدل عن سمت رؤسهم الى جهة الشمال ﴿البحث الثانى﴾ للمفسرين ههنا قولان (القول الاول) ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل الى داخل الكهف وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل اليه والمقصود ان الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس والا لفسدت أجسامهم فهى مصونة عن العفونة والفساد (والقول الثانى) انه ليس المراد ذلك وانما المراد ان الشمس اذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع وكذا القول حال غروبها وكان ذلك فعلا خارقا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله ذلك من آيات الله قال ولو كان الامر كما ذكره أصحاب القول الاول لكان ذلك أمرا معتادا مألوفا فلم يكن ذلك من آيات الله وأما اذا حملنا الآية على هذا الوجه الثانى كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله واعلم انه تعالى أخبر بعد ذلك انهم كانوا فى متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء قال وهم فى فجوة منه أى من الكهف والفجوة متسع فى مكان قال أبو عبيدة وجمعها فجوات ومنه الحديث فاذا وجد فجوة نص ثم قال تعالى ذلك من آيات الله وفيه قولان الذين قالوا انه منع وصول ضوء الشمس بقدرته قالوا المراد من قوله ذلك أى ذلك التزاور والميل والذين لم يقولوا به قالوا المراد بقوله ذلك أى ذلك الحفظ الذى حفظهم الله فى ذلك الغار تلك المدة الطويلة من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ثم بين تعالى أنه كما أن بقاءهم هذه المدة الطويلة مصونا عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه فكذلك رجوعهم أولا عن الكفر ورغبتهم فى الايمان كان باعانة الله ولطفه فقال من يهدى الله فهو المهتدى مثل أصحاب الكهف ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا كدقيانوس الكافر وأصحابه ومناظرات أهل الجبر والقدر فى هذه الآية معلومة ﴿ قوله تعالى ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا﴾ اعلم ان معنى قوله وتحسبهم على ما ذكرناه فى قوله وترى الشمس أى لو رأيتهم لحسبتهم أيقاظا وهو جمع يقظ ويقظان قاله الاخفش وأبو عبيدة والزجاج وأنشد والرؤبة ※ ووجدوا اخوانهم أيقاظا ※ ومثله قوله نجد ونجدان وانجاد وهم رقود أى نائمون وهو مصدر سمى المفعول به كما يقال قوم ركوع وقعود وسجود يوصف الجمع بالمصدر ومن قال انه جمع راقد فقد أبعد لانه لم يجمع فاعل على فعول قال الواحدى وانما يحسبون أيقاظا لان أعينهم مفتحة وهم نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم أيقاظ والدليل عليه قوله تعالى ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال واختلفوا فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة رضى الله عنه ان لهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون على أيمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء وأقول هذه التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لا يدل عليه وما جاء به خبر صحيح فكيف يعرف وقال ابن عباس رضى الله عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولا تبليهم وأقول هذا عجيب لانه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب وقوله ذات منصوبة على الظرف لان المعنى نقلبهم فى ناحية اليمين أو على ناحية اليمين كما قلنا فى قوله تزاور عن كهفهم ذات اليمين وقوله وكلبهم باسط ذراعيه قال ابن عباس وأكثر المفسرين قالوا انهم هربوا ليلا من ملكهم فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه وقال كعب مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا جانبى أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم وقال عبيد بن عمير كان ذلك كلب صيدهم ومعنى باسط ذراعيه أى يلقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه الحديث فى الصلاة انه نهى عن افتراش السبع وقال لا تفترش ذراعيك افتراش السبع قوله بالوصيد يعنى فناء الكهف قال الزجاج

فيه وانما وجه النهي الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهي عن التأثير نهي عن التأثر بأصله ونفي له بالمرة وقد يوجه النهي الى اللازم والمراد هو النهي عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وتخصيص النهي عن الحزن بالايراد مع شمول النفي السابق للحزن أيضا لما انه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الاوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى (ان العزة) تعليل للنهي على طريقة الاستئناف أى الغلبة والقهر (لله جميعا) أى فى مملكته وسلطانه لا يملك أحد شيأ منها أصلا لا هم ولا غيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرئ بفتح أن على صريح التعليل أى لان العزة لله (هو السميع العليم) يسمع ما يقولون فى حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) أى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من

الوصيد

الوصيد فناء البيت وفناء الدار وجمعه وصائد ووصد وقال يونس والاخفش والفراء الوصيد والاصيد لغتان مثل الوكاف والاكاف وقال السدى الوصيد الباب والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد ان الكلب منه بموضع العتبة من البيت ثم قال لو اطلعت عليهم أى أشرفت عليهم يقال اطلعت عليهم أى أشرفت عليهم ويقال أطلعت فلانا على الشئ فاطلع وقوله لوليت منهم فرارا قال الزجاج قوله فرارا منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم فررت ولملئت منهم رعبا أى فزعا وخوفا قيل فى التفسير طالت شعورهم وأظفارهم وبقيت أعينهم مفتوحة وهم نيام فلهذا السبب لو رآهم الرائى لهرب منهم مرعوبا وقيل انه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعا شديدا فأما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به وهذا هو الاصح وقوله ولملئت منهم رعبا قرأ نافع وابن كثير لملئت بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام وروى عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد الا أن فى التشديد مبالغة قال الاخفش الخفيفة أجود فى كلام العرب يقال ملأتنى رعبا ولا يكادون يعرفون ملأتنى ويدل على هذا أكثر استعمالهم كقوله

* فيملأ بيتنا أقطا وسمنا * وقول الآخر

ومن مالئ عينيه من شئ غيره * اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقال الآخر * لا تملا الدلو وعرق فيها * وقال الآخر * امتلأ الحوض وقال قطنى * وقد جاء التثقيل أيضا وأنشدوا للمخبل السعدى

واذ فتك النعمان بالناس محرما * فملئ من عوف بن كعب سلاسله

وقرأ ابن عامر والكسائى رعبا بضم العين فى جميع القرآن والباقون بالاسكان ﴿ قوله تعالى ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا﴾ اعلم ان التقدير وكما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم فضربنا على آذانهم وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم أى أحييناهم من تلك النومة التى تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساءل تنازع واختلاف فى مدة لبثهم فان قيل هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا قلنا لا يبعد ذلك لانهم اذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته ثم قال تعالى قال قائل منهم كم لبثتم أى كم مقدار لبثنا فى هذا الكهف قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله فى آخر النهار فلذلك قالوا لبثنا يوما فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم ثم قال تعالى قالوا ربكم أعلم بما لبثتم قال ابن عباس هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى لانه لما نظر الى أشعارهم وأظفارهم وبشرة وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعلم أن مثل ذلك التغير لا يحصل الا فى الايام الطويلة ثم قال فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم بورقكم ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ مكسورة الواو ساكنة الراء وقرأ ابن كثير بورقكم بكسر الراء وادغام القاف فى الكاف وعن ابن محيصن انه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم القاف فى الكاف وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ماروى ان عرفجة اتخذ أنفا من ورق وفيه لغات ورق وورق وورق مثل كبد وكبد وكبد ذكره الفراء والزجاج قال الفراء وكسر الواو أردؤها ويقال أيضا للورق الرقة قال الازهرى أصله ورق مثل صلة وعدة قال المفسرون كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم يعنى بالمدينة التى يقال لها اليوم طرسوس وهذه الآية تدل على ان السعى فى امساك الزاد أمر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل وقوله فلينظر أيها أزكى طعاما قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم أزكى طعاما يريدون أيها أبعد عن الغصب وقيل أيها أطيب وألذ وقيل أيها أرخص

تمهيدا لما لحق من قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وبرهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما اما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى (ان يتبعون الا الظن) أى ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه واما استفهامية أى وأى شئ يتبعون أى لا يتبعون شيأ ما يتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها الخ وقرئ تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأى شئ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين

قال الزجاج قوله أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما نصب على التمييز وقوله وليتلطف أي يكون ذلك في سر وكتمان يعني دخول المدينة وشراء الطعام ولا يشعرن بكم أحدا أي لا يخبرن بمكانكم أحدا من أهل المدينة انهم ان يظهروا عليكم أي يطلعوا ويشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم من قولهم ظهرت على فلان اذا علوته وظهرت على السطح اذا صرت فوقه ومنه قوله تعالى فأصبحوا ظاهرين أي عالين وكذلك قوله ليظهره على الدين كله أي ليعليه وقوله يرجموكم يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله أن ترجمون وأصله الرمي قال الزجاج أي يقتلوكم بالرجم والرجم أخبث أنواع القتل وقوله أو يعيدوكم في ملتهم أي يردوكم الى دينهم ولن تفلحوا اذا أبدا أي ان رجعتم الى دينهم لن تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة قال الزجاج قوله اذا أبدا يدل على الشرط أي ولن تفلحوا ان رجعتم الى ملتهم أبدا قال القاضي ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين بأن يردوا الى الكفر فان قيل أليس انهم لو أكرهوا على الكفر حتى انهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا قلنا يحتمل أن يكون المراد انهم لو ردوا هؤلاء المسلمين الى الكفر على سبيل الاكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فانه يميل قلبهم الى ذلك الكفر ويصيروا كافرين في الحقيقة فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾ اعلم ان المعنى كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وأنمناهم وقلبناهم وبعثناهم لما فيه من الحكم الظاهرة فكذلك أعثرنا عليهم أي أطلعنا غيرهم على أحوالهم يقال عثرت على كذا أي علمته وقالوا ان أصل هذا ان من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثار سببا لحصول العلم والتبين فاطلق اسم السبب على المسبب واختلفوا في السبب الذي لاجله عرف الناس واقعة أصحاب الكهف على وجهين (الاول) انه طالت شعورهم وأظفارهم طولا مخالفا للعادة وظهرت في بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على ان مدتهم قد طالت طولا خارجا عن العادة (والثاني) ان ذلك الرجل لما ذهب الى السوق ليشتري الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم وانها كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر فلعلك وجدت كنزا واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل الى ملك البلد فقال الملك من أين وجدت هذه الدراهم فقال بعت بها أمس شيأ من التمر وخرجنا فرارا من الملك دقيانوس فعرف ذلك الملك انه ما وجد كنزا وان الله بعثه بعد موته ثم قال تعالى ليعلموا أن وعد الله حق يعني انما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم ان وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر روى ان ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث الا أنه كان مع كفره منصفا فجعل الله أمر الفتية دليلا للملك وقيل بل اختلفت الامة في ذلك الزمان فقال بعضهم الجسد والروح يبعثان جميعا وقال آخرون الروح تبعث وأما الجسد فتأكله الارض ثم ان ذلك الملك كان يتضرع الى الله ان يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق في هذه المسئلة فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب أهل الكهف فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للاجساد لان انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث فقوله اذ يتنازعون بينهم متعلق بأعثرنا أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم واختلفوا في المراد بهذا التنازع فقيل كانوا يتنازعون في صحة البعث فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته وقالوا كما قدر الله على حفظ أجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين فكذلك يقدر على حشر الاجساد بعد موتها وقيل ان الملك وقومه لما رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عاد القوم الى كهفهم فأماتهم الله فعند هذا اختلف الناس فقال قوم انهم نيام كالكرة الاولى وقال آخرون بل الآن ماتوا (والقول الثالث) ان بعضهم

قال

لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق (وان هم الا يخرصون) يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه ويحزرون ويقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقريرا لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال والا فلكم مفعوله الثاني أو هو حال كما في الوجه الاول والمفعول الثاني لتسكنوا فيه أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية كما أن الحال الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما في الاولى والتقدير هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجيء نظيره في قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله الآية فحذف في كل واحد من الجانبين

قال الاولى أن يسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم أحد ولا يقف على أحوالهم انسان وقال آخرون بل الاولى أن يبنى على باب الكهف مسجد وهذا القول يدل على ان أولئك الاقوام كانوا عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة (والقول الرابع) ان الكفار قالوا انهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنيانا والمسلمون قالوا كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجدا (والقول الخامس) انهم تنازعوا في قدر مكثهم (والسادس) انهم تنازعوا في عددهم وأسمائهم ثم قال تعالى ربهم أعلم بهم وهذا فيه وجهان (أحدهما) انه من كلام المتنازعين كأنهم لما تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا الى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم (الثاني) ان هذا من كلام الله تعالى ذكره رد الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ثم قال تعالى قال الذين غلبوا على أمرهم قيل المراد به الملك المسلم وقيل أولياء أصحاب الكهف وقيل رؤساء البلد لنتخذن عليهم مسجدا نعبد الله فيه ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد ثم قال تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم الضمير في قوله سيقولون عائد الى المتنازعين روى ان السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه (الاول) ان الواو في قوله وثامنهم هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف ومنه قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وانهم قالوا قولا متقررا متحققا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس (الوجه الثاني) قالوا انه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب أن يحصل به فائدة زائدة صونا للفظ عن التعطيل وكل من أثبت هذه الفائدة الزائدة قال المراد منها تخصيص هذا القول بالاثبات والتصحيح (الوجه الثالث) أنه تعالى أتبع القولين الاولين بقوله رجما بالغيب وتخصيص الشئ بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وأن يكون القول الثالث مخالفا لهما في كونهما رجما بالظن (والوجه الرابع) انه تعالى لما حكى قولهم و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فاتباع القولين الاولين بكونهما رجما بالغيب واتباع هذا القول الثالث بقوله قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل يدل على ان هذا القول ممتاز عن القولين الاولين بمزيد القوة والصحة (والوجه الخامس) أنه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكل من قال من المسلمين قولا في هذا الباب قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول * كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول كانوا سبعة وأسماؤهم هذا يمليخا مكسلمينا مسلثينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوس ودبرنوس وسادنوس وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في مهماته والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم (الوجه السادس) انه تعالى لما قال و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل والظاهر أنه تعالى لما حكى الاقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل لانه يبعد انه تعالى ذكر الاقوال الباطلة ولم يذكر ما هو الحق فثبت ان جملة الاقوال الحقة والباطلة ليست الا هذه الثلاثة ثم خص الاولين بانهما رجم بالغيب فوجب أن يكون الحق هو هذا الثالث (الوجه السابع) انه تعالى قال لرسوله فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا فمنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم في هذا الباب وهذا انما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة وأيضا انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل و يبعد أن يحصل العلم بذلك لغير النبي ولا

اذكر في الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك وإسناد الابصار الى النهار مجازي كالذي في نهاره صائم (ان في ذلك) أي في جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته (لآيات) عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر (لقوم يسمعون) أي هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لانهم المنتفعون بها (قالوا) شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه (اتخذ الله ولدا) أي تبناه (سبحانه) تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغني) على الاطلاق عن كل شئ في كل شئ وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل (له ما في السموات وما في الارض) أي من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ما سواه وقوله تعالى (ان عندكم من سلطان) أي حجة (بهذا) أي بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن في قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد

يحصل للنبي فعلمنا ان العلم بهذه الواقعة حصل للنبي عليه الصلاة والسلام والظاهر أنه لم يحصل ذلك العلم الا بهذا الوحي لان الاصل فيما سواه العدم وأن يكون الامر كذلك فكان الحق هو قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم واعلم ان هذه الوجوه وان كان بعضها أضعف من بعض الا أنه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام والله أعلم * بقي في الآية مباحث ﴿البحث الاول﴾ في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه ﴿البحث الثاني﴾ خص القول الاول بسين الاستقبال وهو قوله سيقولون والسبب فيه ان حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه ﴿البحث الثالث﴾ الرجم هو الرمي والغيب ما غاب عن الانسان فقوله رجما بالغيب معناه ان يرمي ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة يقال فلان يرمي بالكلام رميا أي يتكلم من غير تدبر ﴿البحث الرابع﴾ ذكروا في فائدة الواو في قوله وثامنهم كلبهم وجوها (الاول) ما ذكرنا أنه يدل على ان هذا القول أولى من سائر الاقوال (وثانيها) ان السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد قال تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة واذا كان كذلك فاذا وصلوا الى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف فقالوا وثمانية فجاء هذا الكلام على هذا القانون قالوا ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات وهي قوله والناهون عن المنكر لان هذا هو العدد الثامن من الاعداد المتقدمة وقوله حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله ثيبات وأبكارا لان قوله وأبكارا هو العدد الثامن مما تقدم والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية ومعناه ما ذكرناه قال القفال وهذا ليس بشئ والدليل عليه قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو في النعت الثامن ثم قال تعالى قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل وهذا هو الحق لان العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التي حدثت في الماضي والمستقبل لا تحصل الا عند الله تعالى والا عند من أخبره الله عنها وقال ابن عباس أنا من أولئك القليل قال القاضي ان كان قد عرفه ببيان الرسول صح وان كان قد تعلق فيه بحرف الواو فضعيف ويمكن أن يقال الوجوه السبعة المذكورة وان كانت لا تفيد الجزم الا أنها تفيد الظن واعلم انه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين عن المراء والاستفتاء أما النهي عن المراء فقوله فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا والمراد من المراء الظاهر أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف وترك القطع ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وأما النهي عن الاستفتاء فقوله ولا تستفت فيهم منهم احدا وذلك لانه لما ثبت انه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم واعلم ان نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا لان قوله رجما بالغيب وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لانهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين الا ترى الى قوله * وما هو عنها بالحديث المرجم * أي المظنون هكذا قاله صاحب الكشاف وذلك يدل على أن القول بالظن مذموم عند الله ثم انه تعالى لما ذم هذه الطريقة رتب عليه المنع من استفتاء هؤلاء الظانين فدل ذلك على ان الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله وجواب مثبتي القياس عنه قد ذكرناه مرارا ﴿قوله تعالى ﴿ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ اعلم أن في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال المفسرون ان القوم لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة قال عليه الصلاة والسلام أجيبكم عنها غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي خمسة عشر يوما وفي رواية أخرى أربعين يوما ثم نزلت هذه الآية اعترض القاضي على هذا الكلام من وجهين (الاول) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عالما بانه اذا أخبر عن انه سيفعل الفعل الفلاني غدا فربما جاءته الوفاة قبل الغد وربما عاقه عائق آخر عن الاقدام على ذلك الفعل غدا واذا كان كل هذه الامور محتملا فلو لم يقل ان شاء الله ربما خرج الكلام مخالفا لما عليه

النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق اما بسلطان لانه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما في عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل ان عندكم في هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة في الالزام والافحام وتأكيد ما في قوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة وأن العقائد لابد لها من برهان قطعي وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم (ان الذين يفترون على الله الكذب) أي في كل أمر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا (لا يفلحون) أي لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج في ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه (متاع في الدنيا) كلام مستأنف سيق لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على

الوجود وذلك يوجب التنفير عنه وعن كلامه عليه الصلاة والسلام أما اذا قال ان شاء الله كان محترزا عن هذا المحذور واذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشيء ولم يقل فيه ان شاء الله (الثاني) ان هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب ويمكن أن يجاب عن الاول انه لا نزاع ان الاولى أن يقول ان شاء الله الا أنه ربما اتفق له انه نسي هذا الكلام لسبب من الاسباب فكان ذلك من باب ترك الاولى والافضل وأن يجاب عن الثاني ان اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحدا منها (المسئلة الثانية) قوله الا أن يشاء الله ليس فيه بيان انه شاء الله ماذا وفيه قولان (الاول) التقدير ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله أن يأذن لك في ذلك القول والمعنى انه ليس لك أن تخبر عن نفسك انك تفعل الفعل الفلاني الا اذا أذن الله لك في ذلك الاخبار (القول الثاني) أن يكون التقدير ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن تقول ان شاء الله والسبب في انه لا بد من ذكر هذا القول هو ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد ولم يبعد أيضا لو بقي حيا أن يعوقه عن ذلك الفعل شيء من العوائق فاذا كان لم يقل ان شاء الله صار كاذبا في ذلك الوعد والكذب منفر وذلك لا يليق بالانبياء عليهم السلام فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول ان شاء الله حتى ان بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود لم يصر كاذبا فلم يحصل التنفير (المسئلة الثالثة) اعلم أن مذهب المعتزلة ان الله تعالى يريد الايمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون ارادة العبد غالبة وارادة الله تعالى مغلوبة وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الايمان من المؤمن وعلى هذا التقدير فارادة الله تعالى غالبة وارادة العبد مغلوبة اذا عرفت هذا فنقول اذا قال العبد لأفعلن كذا غدا الا أن يشاء الله والله انما يدفع عنه الكذب اذا كانت ارادة الله غالبة على ارادة العبد فان على هذا القول يكون التقدير ان العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني الا اذا كانت ارادة الله بخلافه فانا على هذا التقدير لا أفعل لان ارادة الله غالبة على ارادتي فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل أما بتقدير أن تكون ارادة الله تعالى مغلوبة فانها لا تصلح عذرا في هذا الباب لان المغلوب لا يمنع الغالب اذا ثبت هذا فنقول أجمعت الامة على انه اذا قال والله لأفعلن كذا ثم قال ان شاء الله دافعا للحنث فلا يكون دافعا للحنث الا اذا كانت ارادة الله غالبة فلما حصل دفع الحنث بالاجماع وجب القطع بكون ارادة الله تعالى غالبة وانه لا يحصل في الوجود الا ما أراده الله وأصحابنا أكدوا هذا الكلام في صورة معينة وهو أن الرجل اذا كان له على انسان دين وكان ذلك المديون قادرا على أداء الدين فقال والله لاقضين هذا الدين غدا ثم قال ان شاء الله فاذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث وعلى قول المعتزلة انه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله ان شاء الله تعلق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب أن يحنث ولما أجمعوا على أنه لا يحنث علمنا أن ذلك انما كان لان الله تعالى ما شاء ذلك الفعل مع ان ذلك الفعل قد أمر الله به ورغب فيه وزجر عن الاخلال به وثبت انه تعالى قد ينهى عن الشيء ويريده وقد يأمر بالشيء ولا يريده وهو المطلوب * فان قيل هب ان الامر كما ذكرتم الا أن كثيرا من الفقهاء قالوا اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق ان شاء الله لم يقع الطلاق فما السبب فيه * قلنا السبب هو انه لما علق وقوع الطلاق على مشيئة الله لم يقع الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا أولا حصول هذه المشيئة لكن مشيئة الله تعالى غيب فلا سبيل الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة قد وقع وحصل وهو الطلاق فعلى هذا الطريق لا نعرف حصول المشيئة الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا وقوع المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور والدور باطل فلهذا السبب قالوا الطلاق غير واقع (المسئلة الرابعة) احتج القائلون بأن المعدوم شيء بقوله ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله قالوا الشيء الذي سيفعله الفاعل غدا سماه الله تعالى في الحال بأنه شيء لقوله ولا تقولن لشيء ومعلوم ان الشيء الذي سيفعله الفاعل غدا فهو معدوم في الحال فوجب تسمية المعدوم

الاطلاق أوفى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير الى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا (ثم الينا مرجعهم) أي بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فيبقون في الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم في الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل انه افتراؤهم ولا يخفى ان المتاع انما يطلق على ما يكون متبوعا عند النفس مرغوبا فيه في نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار أجزاء حكم ما يؤدي اليه من رياستهم عليه مما لا وجه له فالوجه ما ذكر أولا وليس ببعيد ما قيل ان المحذوف هو الخبر أي لهم متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة في الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل (واتل عليهم) أي على المشركين من

بأنه شئ والواجب ان هذا الاستدلال لا يفيد الا أن المعدوم مسمى بكونه شيأ وعندنا أن السبب فيه أن الذى سيصير شيأ يجوز تسميته بكونه شيأ فى الحال كما أنه قال أتى أمر الله والمراد سيأتى أمر الله أما قوله واذكر ربك اذا نسيت ففيه وجهان (الاول) أنه كلام متعلق بما قبله والتقدير انه اذا نسى أن يقول ان شاء الله فليذكره اذا تذكره وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس رضى الله عنهما ولو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى فى دفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو اسبوع أو يوم وعن طاوس أنه يقدر على الاستثناء فى مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب الناقة الغزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له فى الاحكام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بقوله واذكر ربك اذا نسيت لان الظاهر أن المراد من قوله واذكر ربك اذا نسيت هو الذى تقدم ذكره فى قوله الا أن يشاء الله وقوله واذكر ربك غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الاوقات فوجب أن يجب عليه هذا الذكر فى أى وقت حصل هذا التذكر وكل من قال وجب هذا الذكر قال انه انما وجب لدفع الحنث وذلك يفيد المطلوب * واعلم أن استدلال ابن عباس رضى الله عنهما ظاهر فى أن الاستثناء لا يجب أن يكون متصلا أما الفقهاء فقالوا انا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان * يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة رحمه الله هذا يرجع عليك فانك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى به واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع الى تخصيص النص بالقياس وفيه ما فيه وأيضا فلو قال ان شاء الله على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحد فهو معتبر ودافع للحنث بالاجماع مع أن المحذور الذى ذكرتم حاصل فيه فثبت أن الذى عولوا عليه ليس بقوى والاولى أن يحتجوا فى وجوب كون الاستثناء متصلا بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال وأوفوا بالعهد فالآتى بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا هذا الدليل فيما اذا كان متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن لفظ الاستثناء وحده لا يفيد شيأ فهو جار مجرى نصف اللفظة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا انه لم يلزم شئ بخلاف ما اذا كان الاستثناء متصلا فانه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم (والقول الثانى) أن قوله واذكر ربك اذا نسيت لا تعلق له بما قبله بل هو كلام مستأنف وعلى هذا القول ففيه وجوه (أحدها) واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء والمراد منه الترغيب فى الاهتمام بذكر هذه الكلمة (وثانيها) واذكر ربك اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى (وثالثها) حمله بعضهم على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد لان تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القضية وجعله كلاما مستأنفا يوجب صيرورة الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز * ثم قال تعالى وقل عسى أن يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا وفيه وجوه (الاول) ان ترك قوله ان شاء الله ليس بحسن وذكره أحسن من تركه وقوله لاقرب من هذا رشدا المراد منه ذكر هذه الجملة (الثانى) اذا وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول عسى أن يهدينى ربى لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به (والثالث) أن قوله لاقرب من هذا رشدا اشارة الى نبأ أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة انى نبى من عند الله صادق القول فى ادعاء النبوة ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأما قوله تعالى ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا فاعلم أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف * وفى قوله ولبثوا فى كهفهم قولان (الاول) ان هذا حكاية كلام القوم والدليل عليه أنه تعالى قال سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم وكذا الى أن قال

أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد (نبأ نوح) أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس الا بطريق الوحى وفيه من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى (اذ قال) معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأيا ما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ما جرى بينه وبين قومه واللام فى قوله تعالى (لقومه) للتبليغ (يا قوم ان كان كبر) أى عظم وشق (عليكم مقامى) أى نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه أى خاف ربه أو قيامى ومكثى

ولبثوا

ولبثوا في كهفهم أي أن أولئك الاقوام قالوا ذلك ويؤكده أنه تعالى قال بعده قل الله أعلم بما لبثوا وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده أيضا ماروى في مصحف عبد الله وقالوا ولبثوا في كهفهم (والقول الثاني) أن قوله ولبثوا في كهفهم هو كلام الله تعالى فانه أخبر عن كمية تلك المدة وأما قوله سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم فهو كلام قد تقدم وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا وقوله قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض لا يوجب أن ما قبله حكاية وذلك لانه تعالى أراد قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض فارجعوا الى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائي ثلثمائة سنين بغير تنوين والباقون بالتنوين وذلك لان قوله سنين عطف بيان لقوله ثلثمائة لانه لما قال ولبثوا في كهفهم ثلثمائة لم يعرف أنها أيام أم شهور أم سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان هذا عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير أي لبثوا سنين ثلثمائة وأما وجه قراءة حمزة فهو أن الواجب في الاضافة ثلثمائة سنة الا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله بالاخسرين أعمالا (المسئلة الثالثة) قوله وازدادوا تسعا المعنى وازدادوا تسع سنين فان قالوا لم لم يقل ثلثمائة وتسع سنين وما الفائدة في قوله وازدادوا تسعا قلنا قال بعضهم كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين ثم قال قل الله أعلم بما لبثوا معناه أنه تعالى أعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيه وانما كان أولى بأن يكون عالما به لانه موجد للسموات والارض ومدبر للعالم واذا كان كذلك كان عالما بغيب السموات والارض فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة ثم قال تعالى أبصر به وأسمع وهذه كلمة تذكر في التعجب والمعنى ما أبصره وما أسمعه وقد بالغنا في تفسير كلمة التعجب في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى فما أصبرهم على النار ثم قال تعالى ما لهم من دونه من ولي وفيه وجوه (الاول) ما لاصحاب الكهف من دون الله من ولي فانه هو الذي يتولى حفظهم في ذلك النوم الطويل (الثاني) ليس لهؤلاء المختلفين في مدة لبث أهل الكهف ولي من دون الله يتولى أمرهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم فاذا كانوا محتاجين الى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير اعلامه (الثالث) ان بعض القوم لما ذكروا في هذا الباب أقوالا على خلاف قول الله فقد استوجبوا العقاب فبين الله أنه ليس لهم من دونه ولي يمنع الله من انزال العقاب عليهم ثم قال ولا يشرك في حكمه أحدا والمعنى أنه تعالى لما حكم أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لاحد أن يقول قولا بخلافه والاصل أن الاثنين اذا كانا شريكين فان الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذلك مانعا لكل واحد منهما من امضاء الامر على وفق ما يريده وحاصله يرجع الى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى ولا يشرك في حكمه أحدا وقرأ ابن عامر ولا تشرك بالتاء والجزم على النهي والخطاب عطفا على قوله ولا تقولن لشئ أو على قوله واذكر ربك اذا نسيت والمعنى ولا تسأل أحدا عما أخبرك الله به من عدة أصحاب الكهف واقتصر على حكمه وبيانه ولا تشرك أحدا في طلب معرفة تلك الواقعة وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر والمعنى أنه تعالى لا يفعل ذلك (المسئلة الرابعة) اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف وفي مكانهم أما الزمان الذي حصلوا فيه فقيل انهم كانوا قبل موسى عليه السلام وان موسى ذكرهم في التوراة ولهذا السبب فان اليهود سألوا عنهم وقيل انهم دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبر المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الوقت الذي بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم وقيل انهم دخلوا الكهف بعد المسيح وحكى القفال هذا القول عن محمد بن اسحق وقال قوم انهم لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة وأما مكان هذا الكهف فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف الى الروم قال فوجه ملك الروم معي أقواما الى الموضع الذي يقال انهم فيه قال وان الرجل الموكل بذلك

بين ظهرانيكم مدة طويلة أو قيامي (وتذكيري بآيات الله) فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم (فعلى الله توكلت) جواب للشرط أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز أن يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فأجمعوا أمركم) عطف على الجواب والفاء لترتيب الامر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أو هو الجواب وما سبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسي أجمعت الامر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعد ما كان متفرقا وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا واذا عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعا (وشركاءكم) بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما يدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على أمركم بحذف المضاف أي أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أي وادعوا شركاءكم وقد قرئ كذلك وقرئ فاجمعوا من الجمع أي فاعزموا على أمركم الذي تريدون بي من السعي في اهلاكي واحتشدوا

الموضع أفزعني من الدخول عليهم قال فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم قال وعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره ثم قال القفال والذي عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف أو موضع آخر والذي أخبر الله عنه وجب القطع به ولا عبرة بقول أهل الروم ان ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف وذكر في الكشاف عن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس رضي الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله من هو خير منك فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا فقال لابن عباس لا أنتهي حتى أعلم حالهم فبعث أناسا فقال لهم اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم ﴿ وأقول العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال وانما يستفاد ذلك من نص وذلك مفقود فثبت أنه لا سبيل اليه ﴿المسئلة الخامسة﴾ اعلم أن مدار القول باثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة (أحدها) انه تعالى قادر على كل الممكنات (والثاني) انه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات (وثالثها) ان كل ما كان ممكن الحصول في بعض الاوقات كان ممكن الحصول في سائر الاوقات فاذا ثبتت هذه الاصول الثلاثة ثبت القول بامكان البعث والقيامة فكذلك ههنا ثبت انه تعالى عالم قادر على الكل وثبت أن بقاء الانسان حيا في النوم مدة يوم ممكن فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب أن يكون ممكنا بمعنى أن اله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة وأما الفلاسفة فانهم يقولون أيضا لا يبعد وقوع أشكال فلكية غريبة توجب في هيولى عالم الكون والفساد حصول أحوال غريبة نادرة ﴿ وأقول هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة في هذا العالم فسورة بني اسرائيل اشتملت على الاسراء بجسد محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى الشأم وهو حالة عجيبة وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم في النوم مدة ثلثمائة سنة وأزيد وهو أيضا حالة عجيبة وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الاب وهو أيضا حالة عجيبة والمعتمد في بيان امكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة في هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التي ذكرناها ومما يدل على أن هذا المعنى من الممكنات أن أبا علي بن سينا ذكر في باب الزمان من كتاب الشفاء أن ارسطاطاليس الحكيم ذكر أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف ثم قال أبو علي ويدل التاريخ على انهم كانوا قبل أصحاب الكهف ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا﴾ اعلم أن من هذه الآية الى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة وذلك ان أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه وأطنب في جملة هذه الآيات في بيان أن الذي اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل ثم انه تعالى جعل الاصل في هذا الباب شيأ واحدا وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله اليه وعلى العمل به وأن لا يلتفت الى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك (وفي الآية مسئلة) وهي أن قوله اتل يتناول القراءة ويتناول الاتباع أيضا فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذي أوحي اليك والزم العمل به ثم قال لا مبدل لكلماته أي يمتنع تطرق التغيير والتبديل اليه وهذه الآية يمكن التمسك بها في اثبات ان تخصيص النص بالقياس غير جائز لان قوله اتل ما أوحي اليك من كتاب ربك معناه الزم العمل بمقتضى هذا الكتاب وذلك يقتضي وجوب العمل بمقتضى ظاهره ﴿ فان قيل فيجب أن لا يتطرق النسخ اليه قلنا هذا هو مذهب أبي مسلم الاصفهاني فليس ببعيد وأيضا فالنسخ في الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت في وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلا أما قوله وان تجد من دونه ملتحدا اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ قال أهل اللغة هو من لحد وألحد اذا مال ومنه قوله تعالى لسان الذي يلحدون اليه والملحد المائل عن الدين والمعنى وان تجد من دونه ملجأ في البيان والرشاد ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون

فيه على اى وجه عملتكم (ثم لا يكن امركم) ذلك (عليكم غمة) اى مستورا من غمه اذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهرونني به فان الستر انما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه وحيث استحال ذلك في حق لم يكن للستر وجه وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخي في الرتبة واظهار الامر في موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيه امقام الامر بالاظهار الذي يستلزمه النهي عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة الغم كالكربة والكرب وثم للتراخي الزماني والمعنى لا يكن حالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكي من ثقل مقامي وتذكيري ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل (ثم اقضوا الي ولا تنظرون) أي أدوا الي أي احكموا ذلك الامر الذي تريدون بي ولا تمهلوني كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أو أدوا الي ما هو حق عليكم عندكم من اهلاكي كما يقضي الرجل غريمه فان توسيط ما يحصل بعد الاهلاك بين الامر بالعزم على مباديه وبين الامر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه

ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا وقالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك فاذا حضرنا لم يحضروا وتعين لهم وقتا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية فبين فيها انه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولا تلتفت الى أقوال أولئك الكفار ولا تقم لهم في نظرك وزنا سواء غابوا أو حضروا وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الانعام وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ففي تلك الآية نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم فقوله واصبر نفسك أصل الصبر الحبس ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المصبورة وهي البهيمة تحبس فترمى أما قوله مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن عامر بالغدوة بضم الغين والباقون بالغداة وكلاهما لغة ﴿المسئلة الثانية﴾ في قوله بالغداة والعشي وجوه (الاول) المراد كونهم مواظبين على هذا العمل في كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشي الا شتم الناس (الثاني) أن المراد صلاة الفجر والعصر (الثالث) المراد أن الغداة هي الوقت الذي ينتقل الانسان فيه من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشي هو الوقت الذي ينتقل الانسان فيه من اليقظة الى النوم ومن الحياة الى الموت والانسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه ثم قال ولا تعد عيناك عنهم يقال عداه اذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره وجاء القوم عدا زيد وانما عدي بلفظة عن لانها تفيد المباعدة فكانه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من أعداه وعداه نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله * فعد عما ترى اذ لا ارتجاع له * والمقصود من الآية انه تعالى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يزدري فقراء المؤمنين وان تنبو عيناه عنهم لاجل رغبته في مجالسة الاغنياء وحسن صورتهم وقوله تريد زينة الحياة الدنيا نصب في موضع الحال يعني انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا ولما بالغ في أمره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات الى أقوال الاغنياء والمتكبرين فقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى هو الذي يخلق الجهل والغفلة في قلوب الجهال لان قوله أغفلنا يدل على هذا المعنى قالت المعتزلة المراد بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا انا وجدنا قلبه غافلا وليس المراد خلق الغفلة فيه والدليل عليه ما روى عن عمرو بن معديكرب الزبيدي انه قال لبني سليم قاتلناكم فما أجبناكم وسألناكم فما أبخلناكم وهجوناكم فما أفحمناكم أي ما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين ثم نقول حمل اللفظ على هذا المعنى أولى ويدل عليه وجوه (الاول) انه لو كان كذلك لما استحق الذم (الثاني) انه تعالى قال بعد هذه الآية فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ولو كان تعالى خالق الغفلة في قلبه لما صح ذلك (الثالث) لو كان المراد هو أنه تعالى جعل قلبه غافلا لوجب أن يقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه لان على هذا التقدير يكون ذلك من أفعال المطاوعة وهي انما تعطف بالفاء لا بالواو يقال كسرته فانكسر ودفعته فاندفع ولا يقال وانكسر واندفع (الرابع) قوله تعالى واتبع هواه ولو كان تعالى أغفل في الحقيقة قلبه لم يجز أن يضاف ذلك الى اتباعه هواه والجواب قوله المراد من قوله أغفلنا أي وجدناه غافلا وليس المراد تحصيل الغفلة فيه قلنا الجواب عنه من وجهين ﴿الاول﴾ أن الاشتراك خلاف الاصل فوجب أن يعتقد أن وزن الافعال حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر وجعله حقيقة في التكوين مجازا في الوجدان أولى من العكس وبيانه من وجوه (أحدها) ان مجيء بناء الافعال بمعنى التكوين أكثر من مجيئه بمعنى الوجدان والكثرة دليل الرجحان (وثانيها) ان مبادرة الفهم من هذا البناء الى التكوين أكثر من مبادرته الى

وقرئ أفضوا بالفاء أي انتهوا الى بشركم أوابرزوا الى من أفضى اذا خرج الى الفضاء (فان توليتم) الفاء لترتيب التولي على ما سبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث التولي المخصوص أي ان أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري اثر ما شاهدتم مني من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التي من جملتها دعوتي اياكم جميعا الى تحقيق ما تريدون بي من السوء غير مبال بكم وبما يأتي منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم باني على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز (فما سألتكم) بمقابلة وعظي وتذكيري (من أجر) تؤدونه الى حتى يؤدي ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياي بالطمع والسؤال واما الثقل دفع المسؤل عليكم أو حتى يضرني توليكم المؤدي الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولي ببيان عدم ما يصححه والثاني لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى ان توليتم فاعلموا أن ليس في مصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل (ان أجري الا على الله) ينتظم المعنيين جميعا خلا أنه على الاول تأكيد وعلى الثاني تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم أي ما ثوابي على العظة والتذكير الا عليه تعالى يثيبني به آمنتم أو توليتم (وأمرت

الوجدان ومبادرة الفهم دليل الرجحان (وثالثها) انا ان جعلناه حقيقة فى التكوين أمكن جعله مجازا فى الوجدان لان العلم بالشئ تابع لحصول المعلوم فجعل اللفظ حقيقة فى المتبوع ومجازا فى التبع موافق للمعقول أما لو جعلناه حقيقة فى الوجدان مجازا فى الايجاد لزم جعله حقيقة فى التبع مجازا فى الاصل وانه عكس المعقول فثبت أن الاصل جعل هذا البناء حقيقة فى الايجاد لا فى الوجدان (الوجه الثانى) فى الجواب عن السؤال انا نسلم كون اللفظ مشتركا بالنسبة الى الايجاد والى الوجدان الا أنا نقول يجب حمل قوله أغفلنا على ايجاد الغفلة وذلك لان الدليل العقلى دل على أنه يمتنع كون العبد موجدا للغفلة فى نفسه والدليل عليه انه اذا حاول ايجاد الغفلة فاما أن يحاول ايجاد مطلق الغفلة أو يحاول ايجاد الغفلة عن شئ معين والاول باطل والا لم يكن بان تحصل له الغفلة عن هذا الشئ أولى بأن تحصل له الغفلة عن شئ آخر لان الطبيعة المشتركة فيما بين الانواع الكثيرة تكون نسبتها الى كل تلك الانواع على السوية أما الثانى فهو أيضا باطل لان الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات الا لكونها منتسبة الى ذلك الشئ المعين بعينه فعلى هذا لا يمكنه أن يقصد الى ايجاد الغفلة عن كذا الا اذا تصور أن تلك الغفلة غفلة عن كذا ولا يمكنه ان يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا الا اذا تصور كذا لان العلم بنسبة أمر الى أمر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين فثبت انه لا يمكنه القصد الى ايجاد الغفلة عن كذا الا مع الشعور بكذا لكن الغفلة عن كذا ضد الشعور بكذا فثبت أن العبد لا يمكنه ايجاد هذه الغفلة الا عند اجتماع الضدين وذلك محال والموقوف على المحال محال فثبت ان العبد غير قادر على ايجاد الغفلة فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها فى العباد هو الله وهذه نكتة قاطعة فى اثبات هذا المطلوب وعند هذا ظهر ان المراد بقوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه هو ايجاد الغفلة لا وجدانها أما حديث المدح والذم فقد عارضناه مرارا وأطوارا بالعلم والداعى أما قوله تعالى بعد هذه الآية فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالبحث عنه سيأتى ان شاء الله تعالى أما قوله ولا تطع من أغفلنا قلبه لو كان المراد ايجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء لا ذكر الواو فنقول هذا انما يلزم لو كان خلق الغفلة فى القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى كما ان الكسر من لوازمه حصول الانكسار وليس الامر كذلك لانه لا يلزم من حصول الغفلة عن الله حصول متابعة الهوى لاحتمال ان يصير غافلا عن ذكر الله ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفا لا يشافى مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال وذكر القفال فى تأويل الآية على مذهب المعتزلة وجوها أخرى (فأحدها) انه تعالى لما صب عليهم الدنيا صبا وادى ذلك الى رسوخ الغفلة فى قلوبهم صح على هذا التأويل انه تعالى حصل الغفلة فى قلوبهم كما فى قوله تعالى فلم يزدهم دعائى الا فرارا (والوجه الثانى) أن معنى قوله أغفلنا أى تركناه غافلا فلم نسمه بسمة أهل الطهارة والتقوى وهو من قولهم بعير غفل أى لا سمة عليه (وثالثها) ان المراد من قوله أغفلنا قلبه أى خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه فيقال فى الوجه الاول ان فتح باب الذات الدنيا عليه هل يؤثر فى حصول الغفلة فى قلبه أو لا يؤثر فان أثر كان أثر ايصال اللذات اليه سببا لحصول الغفلة فى قلبه وذلك عين القول بانه تعالى فعل ما يوجب حصول الغفلة فى قلبه وان كان لا تأثير له فى حصول هذه الغفلة بطل اسناده اليه وقد يقال فى الوجه الثانى ان قوله أغفلنا قلبه بمنزلة قوله سودنا قلبه وبيضنا وجهه ولا يفيد الا ما ذكرناه ويقال فى الوجه الثالث ان كان لتلك التخلية أثر فى حصول تلك الغفلة فقد صح قولنا والا بطل استناد تلك الغفلة الى الله تعالى (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه يدل على أن شر أحوال الانسان أن يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعى الى الاشتغال بالخلق وتحقيق القول ان ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله وما سوى الله فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا

أن أكون من المسلمين) المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى (فكذبوه) فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه ومن معه فى الفلك) من المسلمين وكانوا ثمانين (وجعلناهم خلائف) من الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام (ثم بعثنا) أى أرسلنا (من بعده) أى من بعد نوح عليه السلام (رسلا) التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير (الى قومهم) أى الى أقوامهم لكن لا بأن

السبب

السبب اذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة فالاعراض عن الحق هو المراد بقوله أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله واتبع هواه ﴿المسئلة الثالثة﴾ قيل فرطا أي مجاوزا للحد من قولهم فرس فرط اذا كان متقدما للخيل قال الليث الفرط الامر الذي يفرط فيه يقال كل أمر فلان فرط وأنشد شعرا

لقد كلفتني شططا * وأمرا خائبا فرطا

أي مضيعا فقوله وكان أمره فرطا معناه ان الامر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو أمر دينه يكون مخصوصا بايقاع التفريط والتقصير فيه وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه واغتماله لدنياه فبين تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم انهم مقصرون في مهماتهم معرضون عما وجب عليهم من التدبر في الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة والحاصل انه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والاعراض عن غير ذكر الله فقال مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ووصف هؤلاء الاغنياء بالاعراض عن ذكر الله تعالى والاقبال على غير الله وهو قوله أغفلنا قلبه واتبع هواه ثم أمر رسوله بمجالسة أولئك والمباعدة عن هؤلاء روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال كنت جالسا في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماذا كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نسمع فقال عليه السلام الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم ثم جلس وسطنا وقال أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسين ألف سنة

﴿ قوله تعالى ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما أمر رسوله بان لا يلتفت الى أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال بعده وقل الحق من ربكم أي قل لهؤلاء ان هذا الدين الحق انما أتى من عند الله فان قبلتموه عاد النفع اليكم وان لم تقبلوه عاد الضرر اليكم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة (الوجه الثاني) في تقرير النظم يمكن أن يكون المراد ان الحق ما جاء من عند الله والحق الذي جاءني من عنده أن أصبر نفسي مع هؤلاء الفقراء ولا أطردهم ولا ألتفت الى الرؤساء وأهل الدنيا (والوجه الثالث) في تقرير النظم أن يكون المراد هو ان الحق الذي جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وان الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحا لاجل أن يدخل في الايمان جمع من الكفار * فان قيل أليس أن العقل يقتضي ترجيح الاهم على المهم فطرد أولئك الفقراء لا يوجب الا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل اما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر وهذا ضرر عظيم * قلنا اما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر فسلم الا أن من ترك الايمان لاجل الحذر من مجالسة الفقراء فايمانه ليس بايمان بل هو نفاق قبيح فوجب على العاقل أن لا يلتفت الى ايمان من هذا حاله وصفته ﴿المسئلة الثانية﴾ قالت المعتزلة قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر صريح في ان الامر في الايمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض الى العبد واختياره فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن ولقد سألني بعضهم عن هذه الآية فقلت هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لان الآية صريحة في أن حصول الايمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الايمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل أيضا يدل له فان الفعل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد اليه وبدون الاختيار له اذا عرفت هذا فنقول حصول ذلك القصد والاختيار ان كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزم أن يكون كل قصد واختيار مسبوقا بقصد آخر الى غير النهاية وهو محال فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات الى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة فعند حصول ذلك القصد الضروري

أرسلنا كل رسول منهم الى أقوام الكل أو الى قوم ما أي قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص (فجاؤهم) أي جاء كل رسول قومه المخصوصين به (بالبينات) أي المعجزات الواضحة الدالة على صدق ما قالوا والباء اما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاؤا أي ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتي كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هي فيما بين ضميري جاؤهم كما أشير اليه (فما كانوا ليؤمنوا) بيان لاستمرار عدم ايمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار ايمانهم كما مر مثله في هذه السورة الكريمة غير مرة أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الاقوام في وقت من الاوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم في الكفر والعناد ثم ان كان المحكي آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما أشير اليه في قوله عز وجل (بما كذبوا به من قبل) تكذيبهم من حين مجيء الرسل الى زمان الاصرار والعناد وانما لم

والاختيار الضروري يوجب الفعل فالانسان شاء أو لم يشأ ان لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل واذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة فالانسان مضطر في صورة مختار ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى هذا المعنى في باب التوكل من كتاب احياء علوم الدين فقال فان قلت اني أجد في نفسي وجدانا ضروريا اني ان شئت الفعل قدرت على الفعل وان شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بي لا بغيري وأجاب عنه وقال هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك انك ان شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة وان لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل بل العقل يشهد بانه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة واذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار في هذا المقام فحصول المشيئة في القلب أمر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضا أمر لازم وهذا يدل على ان الكل من الله تعالى ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فيه فوائد ﴿الفائدة الاولى﴾ الآية تدل على أن صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعي محال ﴿الفائدة الثانية﴾ أن صيغة الامر لا لمعنى الطلب في كتاب الله كثيرة ثم نقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير ﴿الفائدة الثالثة﴾ انها تدل على انه تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود عليهم وضرر الكفر يعود عليهم كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها واعلم انه تعالى لما وصف الكفر والايمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والاعمال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والعمل الصالح أما الوعيد فقوله تعالى انا أعتدنا للظالمين نارا يقول اعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة في غير موضعها والانفة في غير محلها فعبد ما استحسن بهواه وانف عن قبول الحق لاجل أن الدين قبلوه فقراء ومساكين فهذا كله ظلم ووضع للشئ في غير موضعه فأخبر تعالى أنه أعد لهؤلاء الاقوام نارا وهي الجحيم ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين (الصفة الاولى) قوله أحاط بهم سرادقها والسرادق هو الحجزة التي تكون حول الفسطاط فاثبت للنار شيأ شبيها بذلك يحيط بهم من جميع الجهات والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هي محيطة بهم من كل الجوانب وقال بعضهم المراد من هذا السرادق الدخان الذي وصفه الله في قوله انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب وقالوا هذه الاحاطة بهم انما تكون قبل دخولهم النار فيغشاهم هذا الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط (والصفة الثانية) لهذه النار قوله وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل قيل في حديث مرفوع انه دردي الزيت وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل بيت المال وأخرج نفاية كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل قال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لانهم اذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل أن يستغيثوا من حرجهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم أن أفيضوا علينا من الماء وقال في آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حرجهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص وقوله تعالى يغاثوا بماء كالمهل وارد على سبيل الاستهزاء كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * ثم قال تعالى بئس الشراب أي ان الماء الذي هو كالمهل بئس الشراب لان المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احتراق الاجسام مبلغا عظيما ثم قال تعالى وساءت مرتفقا قال قائلون ساءت النار منزلا ومجتمعا للرفقة لان أهل النار يجتمعون رفقاء كاهل الجنة قال تعالى في صفة أهل الجنة وحسن أولئك رفيقا وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين والمعنى بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة وقال آخرون مرتفقا أي متكأ وسمي المرفق مرفقا لانه يتكأ عليه فالاتكاء

بجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بانه بين بنفسه غني عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التي كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذي تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكي جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجئ الرسل الى آخره وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول الثاني عبارة عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذي أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجئ رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجئ الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم احد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقي بدلالة النص

انما

انما يكون للاستراحة والمرتفق موضع الاستراحة والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدل على أن العمل الصالح مغاير للايمان لان العطف يوجب المغايرة ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ظاهره يقتضى أنه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله أجرا وعند أصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد وعند المعتزلة لذات الفعل وهو باطل لان نعم الله كثيرة وهى موجبة للشكر والعبودية فلا يصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لان أداء الواجب لا يوجب شيأ آخر ﴿المسئلة الثالثة﴾ نظير قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ قول الشاعر

ان الخليفة ان الله سربله ✽ سربال ملك به ترجى الخواتيم

كرر ان تأكيدا للاعمال والجزاء عليها ﴿المسئلة الرابعة﴾ أولئك خبر ان وانا لا نضيع اعتراض ولك أن تجعل انا لا نضيع وأولئك خبرين معا ولك أن تجعل أولئك كلاما مستأنفا بيانا للاجر المبهم واعلم أنه تعالى لما أثبت الاجر المبهم أردفه بالتفصيل من وجوه (أولها) صفة مكانهم وهو قوله أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار والعدن فى اللغة عبارة عن الاقامة فيجوز أن يكون المعنى أولئك لهم جنات اقامة كما يقال هذه دار اقامة ويجوز أن يكون العدن اسما لموضع معين من الجنة وهو وسطها وأشرف أماكنها وقد استقصينا فيه فيما تقدم وقوله جنات لفظ جمع فيمكن أن يكون المراد ما قاله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ويمكن أن يكون المراد ان نصيب كل واحد من المكلفين جنة على حدة وذكر ان من صفات تلك الجنات ان الانهار تجرى من تحتها وذلك لان أفضل المساكن فى الدنيا البساتين التى تجرى فيها الانهار (وثانيها) ان لباس أهل الدنيا اما لباس التحلى واما لباس التستر أما لباس التحلى فقال تعالى فى صفته يحلون فيها من أساور من ذهب والمعنى انه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة وقال بعضهم على كل واحد منهم ثلاثة أسورة سوار من ذهب لاجل هذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وأما لباس التستر فقوله ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق والمراد من سندس الآخرة واستبرق الآخرة والاول هو الديباج الرقيق وهو الخز والثانى هو الديباج الصفيق وقيل أصله فارسى معرب وهو استبره أى غليظ ✽ فان قيل ما السبب فى أنه تعالى قال فى الحلى يحلون على فعل ما لم يسم فاعله وقال فى السندس والاستبرق ويلبسون فأضاف اللبس اليهم ✽ قلنا يحتمل أن يكون اللبس اشارة الى ما استوجبوه بعملهم وأن يكون الحلى اشارة الى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم (وثالثها) كيفية جلوسهم فقال فى صفتهم متكئين فيها على الارائك قالوا الارائك جمع أريكة وهى سرير فى حجلة أما السرير وحده فلا يسمى أريكة ولما وصف الله تعالى هذه الاقسام قال نعم الثواب وحسنت مرتفقا والمراد أن يكون هذا فى مقابلة ما تقدم ذكره من قوله وساءت مرتفقا ﴿ قوله تعالى ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما

فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح ولا يخفى فيه من التعسف وقيل الباء للسببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى ان ذلك يؤدى الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفى ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الاذهان ما لا يخفى من التعسف (كذلك) أى مثل ذلك الطبع المحكم (نطبع) بنون العظمة وقرئ بالياء على أن الضمير لله سبحانه (على قلوب المعتدين) المتجاوزين عن الحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال

كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبى ﴾ اعلم أن المقصود من هذا ان الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى ان ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا أما الذى يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور فى الآية فقال واضرب لهم مثلا رجلين أى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين فى بنى اسرائيل أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله تعالى قال قائل منهم انى كان لى قرين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر أرضا فقال المؤمن اللهم انى أشترى منك أرضا فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارا بألف فقال المؤمن اللهم انى أشترى منك دارا فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال المؤمن اللهم انى جعلت ألفا صداقا للحور العين ثم اشترى أخوه خدما وضياعا بألف فقال المؤمن اللهم انى اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به ثم أصابه حاجة فجلس لاخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله وقوله تعالى جعلنا لاحدهما جنتين فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات ﴿الصفة الاولى﴾ كونها جنة وسمى البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الاشجار وأصل الكلمة من الستر والتغطية ﴿والصفة الثانية﴾ قوله وحففناهما بنخل أى وجعلنا النخل محيطا بالجنتين نظيره قوله تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش أى واقفين حول العرش محيطين به والحفاف جانب الشئ والاحفة جمع فمعنى قول القائل حف به القوم أى صاروا فى أحفته وهى جوانبه قال الشاعر

له لحظات فى حفافى سريره * اذا كرها فيها عقاب ونائل

قال صاحب الكشاف حفوه اذا طافوا به وحففته بهم أى جعلتهم حافين حوله وهو متعد الى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا كقوله غشيته وغشيته به قال وهذه الصفة مما تؤثرها الدهاقين فى كرومهم وهى أن يجعلوها محفوفة بالاشجار المثمرة وهو أيضا حسن فى المنظر ﴿الصفة الثالثة﴾ قوله وجعلنا بينهما زرعا والمقصود منه أمور (أحدها) أن تكون تلك الارض جامعة للاقوات والفواكه (وثانيها) أن تكون تلك الارض متسعة الاطراف متباعدة الاكناف ومع ذلك فانها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض (وثالثها) أن مثل هذه الارض تأتى فى كل وقت بمنفعة أخرى وهى ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة ﴿الصفة الرابعة﴾ قوله تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان واذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف فى الاحوال الثلاثة كقولك جاءنى كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءنى كلتا أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك واذا أضيفا الى المضمر كانا فى الرفع بالالف وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف فى الاحوال الثلاثة أيضا وقوله آتت أكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل أتتا على المعنى لجاز وقوله ولم تظلم منه شيأ أى لم تنقص والظلم النقصان يقول الرجل ظلمنى حقى أى نقصنى ﴿الصفة الخامسة﴾ قوله تعالى وفجرنا خلالهما نهرا أى كان النهر يجرى فى داخل تلك الجنتين وفى قراءة يعقوب وفجرنا مخففة وفى قراءة الباقين وفجرنا مشددة والتخفيف هو الاصل لانه نهر واحد والتشديد على المبالغة لان النهر يمتد فيكون كأنهار وخلالهما أى وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولأوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم أى دخلت بين القوم ﴿الصفة السادسة﴾ قوله تعالى وكان له ثمر قرأ عاصم بفتح الثاء والميم فى الموضعين وهو جمع ثمار وثمرة وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم فى الحرفين والباقون بضم الثاء والميم فى الحرفين ذكر أهل اللغة انه بالضم أنواع الاموال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب كان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن كلدة

ولقد رأيت معاشرا * قد أثمروا مالا وولدا

من بعد رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة (من بعدهم) أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (موسى وهرون) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير اليه اشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام (الى فرعون وملئه) أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم فى اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل فى النوازل الملمة والملمات (بآياتنا) أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الاعراف (فاستكبروا) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ (وكانوا قوما مجرمين) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترؤا على ما اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن

وقال النابغة مهلا فداء لك الاقوام كلهم * ما أثمروه من مال ومن ولد

وقوله وكان له ثمر أى أنواع من المال من ثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة أى كان له مع الجنتين أشياء من النقود ولما ذكر الله تعالى هذه الصفات قال بعده فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا والمعنى ان المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء الى الايمان بالله و بالبعث والمحاورة مراجعة الكلام من قولهم حاورا اذا رجع قال تعالى انه ظن أن لن يحور بلى فذكر تعالى ان عند هذه المحاورة قال الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه و ينفرون معه وحاصل الكلام ان الكافر ترفع على المؤمن بجاهه وماله ثم انه أراد أن يظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال ودخل جنته وأراها اياه على الحالة الموجبة للبهجة والسرور وأخبره بصنوف ما عليكه من المال فان قيل لم أفرد الجنة بعد التثنية قلنا المراد انه ليس له جنة ولا نصيب فى الجنة التى وعد المتقون المؤمنون وهذا الذى ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ولم يقصد الجنتين ولا واحدا منهما ثم قال تعالى وهو ظالم لنفسه وهو اعتراض وقع فى أثناء الكلام والمراد التنبيه على انه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها الى الكفران والجحود لقدرته تعالى على البعث كان واضعا لتلك النعم فى غير موضعها ثم حكى تعالى عن الكافر انه قال وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة فجمع بين هذين فالاول قطعه بان تلك الاشياء لا تهلك ولا تبيد أبدا مع انها متغيرة متبدلة فان قيل هب انه شك فى القيامة فكيف قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا مع ان الحس يدل على ان أحوال الدنيا باسرها ذاهبة باطلة غير باقية قلنا المراد انها لا تبيد مدة حياته ووجوده ثم قال ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا أى مرجعا وعاقبة وانتصابه على التمييز ونظيره قوله تعالى ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقوله لأوتين مالا وولدا والسبب فى وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لما أعطاه المال فى الدنيا ظن انه انما أعطاه ذلك لكونه مستحقا له والاستحقاق باق بعد الموت فوجب حصول العطاء والمقدمة الاولى كاذبة فان فتح باب الدنيا على الانسان يكون فى أكثر الامر للاستدراج والتملية قرأ نافع وابن كثير خيرا منهما والمقصود عود الكناية الى الجنتين والباقون منها والمقصود عود الكناية الى الجنة التى دخلها ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا وفيه بحثان (البحث الاول) أن الانسان الاول قال وما أظن الساعة قائمة وهذا الثانى كفره حيث قال أكفرت بالذى خلقك من تراب وهذا يدل على ان الشاك فى حصول البعث كافر (البحث الثانى) هذا الاستدلال يحتمل وجهين (الاول) يرجع الى الطريقة المذكورة فى القرآن وهو أنه تعالى لما قدر على الابتداء وجب أن يقدر على الاعادة فقوله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا اشارة الى خلق الانسان فى الابتداء (الوجه الثانى) انه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثا وانما خلقك للعبودية واذا خلقك لهذا المعنى وجب ان يحصل للطيع ثواب وللمذنب عقاب وتقريره ماذكرناه فى سورة يس و يدل على هذا الوجه قوله ثم سواك رجلا أى هيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز فى العقل مع هذه الحالة اهمال أمرك ثم قال المؤمن لكنا هو الله ربى وفيه بحثان (البحث الاول) قال أهل اللغة لكنا أصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فاجتمعت النونان فادغمت نون لكن فى النون التى بعدها ومثله * وتقليننى لكن اياك لا أقلى * أى لكن أنا لا أقليك وهو فى قوله هو الله ربى ضمير الشأن وقوله الله ربى جملة من المبتدا والخبر واقعة فى معرض الخبر لقوله هو فان قيل قوله لكنا استدراك لماذا قلنا لقوله أكفرت كأنه قال لأخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر (والبحث الثانى) قرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمى ونافع فى رواية لكنا هو الله ربى فى الوصل بالالف وفى قراءة الباقين لكن هو الله ربى بغير ألف والمعنى واحد ثم قال المؤمن ولا أشرك بربى أحدا ذكر القفال فيه وجوها (أحدها) انى لا أرى الفقر والغنى الا منه فأحمده اذا أعطى وأصبر اذا ابتلى ولا أتكبر عند ما ينعم على ولا أرى كثرة المال والاعوان من

قبول الآيات لا يساعده قوله عز وعلا (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين) فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجىء الحق الذى هو سحر أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبئ عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم ان هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أو فائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرئ لساحر (قال موسى) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى (أتقولون للحق) الذى هو أبعد شئ من السحر الذى هو الباطل البحت (لما جاءكم) أى حين مجيئه اياكم ووقوفكم عليه أو من أول الامر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وايذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ما تقولون من انه سحر يعنى به أنه مما

نفسي وذلك لان الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا في اعطاء العز والغنى (وثانيها) لعل ذلك الكافر مع كونه منكر البعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء (وثالثها) أن هذا الكافر لما عجز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساويا بالخلق في هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله فأمره أن يقول هذين الكلامين (الاول) قوله ما شاء الله وفيه وجهان (الاول) ان تكون ما شرطية ويكون الجزاء محذوفا والتقدير أي شئ شاء الله كان (والثاني) أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على انها خبر مبتدا محذوف وتقديره الامر ما شاء الله واحتج أصحابنا بهذا على ان كل ما أراده الله وقع وكل ما لم يرده لم يقع وهذا يدل على انه ما أراد الله الايمان من الكافر وهو صريح في ابطال قول المعتزلة أجاب الكعبي عنه بأن تأويل قولهم ما شاء مما تولى فعله لا مما هو فعل العباد كما قالوا لا مرد لامر الله لم يرد ما أمر به العباد ثم قال لا يمتنع ان يحصل في سلطانه ما لا يريده كما يحصل فيه ما نهى عنه واعلم ان الذي ذكر الكعبي ليس جوابا عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص وقياس الارادة على الامر باطل لان هذا النص دال على أنه لا يوجد الا ما أراده الله وليس في النصوص ما يدل على أنه لا يدخل في الوجود الا ما أمر به فظهر الفرق وأجاب القفال عنه بان قال هلا اذ دخلت بستانك قلت ما شاء الله كقول الانسان هذه الاشياء الموجودة في هذا البستان ما شاء الله ومثله قوله سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم أي هم ثلاثة وقوله وقولوا حطة أي قولوا هذه حطة واذا كان كذلك كان المراد من هذا الشئ الموجود في البستان شئ شاء الله تكوينه وعلى هذا التقدير لم يلزم أن يقال كل ما شاء الله وقع لان هذا الحكم غير عام في الكل بل مختص بالاشياء المشاهدة في البستان وهذا التأويل الذي ذكره القفال أحسن بكثير مما ذكره الجبائي والكعبي * وأقول انه على جوابه لا يدفع الاشكال عن المعتزلة لان عمارة ذلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديد فلا يصح أيضا على قول المعتزلة أن يقال هذا واقع بمشيئة الله اللهم الا أن نقول المراد أن هذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى الا أن هذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل (والكلام الثاني) الذي أمر المؤمن الكافر بان يقوله هو قوله لا قوة الا بالله أي لا قوة لاحد على أمر من الامور الا باعانة الله واقداره والمقصود انه قال المؤمن للكافر هلا قلت عند دخول جنتك الامر ما شاء الله والكائن ما قدره الله اعترافا بانها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فان أمرها بيده ان شاء تركها وان شاء خربها وهلا قلت لا قوة الا بالله اقرارا بان ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة الله وتأييده لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده الا بالله ثم ان المؤمن لما علم الكافر الايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا من قرأ أقل بالنصب فقد جعل أنا فصلا وأقل مفعولا ثانيا ومن قرأ أقل بالرفع جعل قوله أنا مبتدأ وقوله أقل خبر والجملة مفعولا ثانيا لترني واعلم أن ذكر الولد ههنا يدل على ان المراد بالنفر المذكور في قوله وأعز نفرا الاعوان والاولاد كأنه يقول له ان كنت تراني أقل مالا وولدا وأنصارا في الدنيا الفانية فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك اما في الدنيا واما في الآخرة ويرسل على جنتك حسبانا من السماء أي عذابا وتخريبا والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب أي مقدارا قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها قال الزجاج عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك وقيل حسبانا أي مرامي الواحد منها حسبانة وهي الصواعق فتصبح صعيدا زلقا أي فتصبح جنتك أرضا ملساء لا نبات فيها والصعيد وجه الارض زلقا أي تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقا ثم قال أو يصبح ماؤها غورا أي يغوص ويسفل في الارض فلن تستطيع له طلبا أي فيصير بحيث لا تقدر على رده الى موضعه قال أهل اللغة في قوله ماؤها غورا أي غائرا وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال فلان زور وصوم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ويقال نساء نوح أي نوائح ثم أخبر الله تعالى انه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال وأحيط بثمره وهو عبارة عن اهلاكه بالكلية وأصله من احاطة العدو لانه اذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل اهلاك

لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه ونظيره الذكر في قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أي أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل (أسحر هذا) انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الاول فظاهر وأما على الثاني فوجهه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب تما وما في هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أي أسحر هذا الذي أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بأنه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (ولا يفلح

ومنه

ومنه قوله الا أن يحاط بكم ومنه قولهم أتى عليه اذا أهلكه من أتى عليهم العدو اذا جاءهم مستعليا عليهم ثم قال تعالى فاصبح يقلب كفيه وهو كناية عن الندم والحسرة فان من عظمت حسرته يصفق احدى يديه على الاخرى وقد يمسح احداهما على الاخرى وانما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنة التى وعظه أخوه فيها وعذله وهى خاوية على عروشها أى ساقطة على عروشها فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ويمكن أن يراد من العروش السقوف وهى سقطت على الجدران وحاصل الكلام ان هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها ثم قال تعالى ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا المعنى أن المؤمن لما قال لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا فهذا الكافر تذكر كلامه وقال ياليتنى لم أشرك بربى أحدا *فان قيل هذا الكلام يوهم انه انما هلكت جنته بشؤم شركه وليس الامر كذلك لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال النبى صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا فلما قال ياليتنى لم أشرك بربى أحدا فقد ندم على الشرك ورغب فى التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا فلم قال بعده ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا (والجواب) عن السؤال الاول انه لما عظمت حسرته لاجل أنه أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضا فى كل عمره عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقى الحرمان عن الدنيا والدين عليه فلهذا السبب عظمت حسرته (والجواب) عن السؤال الثانى انه انما ندم على الشرك لاعتقاده انه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب فى التوحيد والرد عن الشرك لاجل طلب الدنيا فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولا عند الله ثم قال تعالى ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وفيه بحثان (البحث الاول) قرأ حمزة والكسائى ولم يكن له فئة بالياء لان قوله فئة جمع فاذا تقدم على الكناية جاز التذكير ولانه رعاية للمعنى والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لان الكناية عائدة الى اللفظة وهى الفئة (البحث الثانى) المراد من قوله ينصرونه من دون الله هو انه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله أى هو الله تعالى وحده القادر على نصرته ولا يقدر أحد غيره أن ينصره ثم قال تعالى هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا وفيه مسائل (المسألة الاولى) اختلف القراء فى ثلاث مواضع من هذه الآية (أولها) فى لفظ الولاية ففى قراءة حمزة والكسائى بكسر الواو وفى قراءة الباقين بالفتح وحكى عن أبى عمرو بن العلاء انه قال كسر الواو لحن قال صاحب الكشاف الولاية بالفتح النصرة والتولى وبالكسر السلطان والملك (وثانيها) قرأ أبو عمرو والكسائى قوله الحق بالرفع والتقدير هنالك الولاية الحق لله وقرأ الباقون بالجر صفة لله (وثالثها) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائى وابن عامر عقبا بضم القاف وقرأ عاصم وحمزة عقبا بتسكين القاف (المسألة الثانية) هنالك الولاية لله فيه وجوه (الاول) انه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر علمنا ان النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر وعرفنا ان الامر هكذا يكون فى حق كل مؤمن وكافر فقال هنالك الولاية لله الحق أى فى مثل ذلك الوقت وفى مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالى أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار اليهم فقوله هنالك اشارة الى الموضع والوقت الذى يريد الله اظهار كرامة أوليائه واذلال أعدائه (والوجه الثانى فى التأويل) أن يكون المعنى فى مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويلتجئ اليه كل محتاج مضطر يعنى ان قوله ياليتنى لم أشرك بربى أحدا كلمة ألجئ اليها ذلك الكافر فقالها جزعا مما ساقه اليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها (والوجه الثالث) المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفى صدورهم من أعدائهم يعنى انه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فى قوله فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويعضده قوله هو خير ثوابا وخير عقبا أى لاوليائه (والوجه الرابع) ان قوله هنالك اشارة الى الدار الآخرة أى فى تلك الدار الآخرة الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم لله ثم قال تعالى هو خير ثوابا أى فى الآخرة لمن آمن به والتجأ اليه وخير عقبا أى هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه وقد ذكرنا انه قرئ عقبا

الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قوله من قال جاء الشتاء ولست أملك عدة وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق انه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلان ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى ما لا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين باذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه

بضم القاف وسكونها وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة ﴿قوله تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا﴾ اعلم أن المقصود اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال واضرب لهم أى لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين مثل الحياة الدنيا ثم ذكر المثل فقال كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض وحينئذ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ثم اذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيما وهو النبت المتكسر المتفتت ومنه قوله هشمت انفه وهشمت الثريد وانشد

عمرو الذى هشم الثريد لاهله ✽ ورجال مكة مسنتون عجاف

واذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الاجزاء الى سائر الجوانب وكان الله على كل شئ مقتدرا بتكوينه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا وأحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن تنتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به والباء فى قوله فاختلط به نبات الارض فيه وجوه (الاول) التقدير فاختلط بعض أنواع النبات بسائر الانواع بسبب هذا الماء وذلك لان عند نزول المطر يقوى النبات ويختلط بعضه بالبعض ويشتبك بعضه بالبعض ويصير فى المنظر فى غاية الحسن والزينة (والثانى) فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفا وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض ووجه صحته ان كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه ﴿قوله تعالى ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ لما بين تعالى ان الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين تعالى ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا والمقصود ادخال هذا الجزء تحت ذلك الكل وسنعقد منه قياس الانتاج وهو ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ينتج انتاجا بديهيا ان المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض ومن المقتضى البديهى ان ما كان كذلك فانه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له فى نظره وزنا فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال والاولاد ثم ذكر ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا وتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقى خير من المنقرض المنقضى وهذا معلوم بالضرورة لاسيما اذا ثبت ان خيرات الدنيا خسيسة حقيرة وان خيرات الآخرة عالية رفيعة لان خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة فى تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض فى بيان ان الادراكات العقلية أفضل من الحسية واذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هى السعادات الاخروية فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية والله أعلم والمفسرون ذكروا فى الباقيات الصالحات أقوالا (قيل) انها قولنا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وللشيخ الغزالى رحمه الله فى تفسير هذه الكلمات وجه لطيف فقال روى ان من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر مرات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين قال وتحقيق القول فيه ان أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق فى معرفة الله وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه سبحانه منزها عن كل مالا ينبغى فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بان الحق سبحانه مع كونه منزها عن كل مالا ينبغى فهو المبدأ لافادة كل ما ينبغى ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعف درجات المعرفة فلا جرم قلنا تضاعف الثواب فاذا قال مع ذلك ولا اله الا الله فقد أقر بان الذى تنزه عن كل مالا ينبغى فهو المبدأ لكل ما ينبغى

ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثانيا فلان قوله عز وجل (قالوا أجئتنا) الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا (لتلفتنا) أى لتصرفنا فان الفتل واللفت أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من عبادة الاصنام ولا ريب فى أن ذلك انما يقتضى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى

وابس

وليس في الوجود موجود هكذا الا الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال والله أكبر ومعناه انه أكبر وأعظم من أن يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة لاجرم صارت درجات الثواب أربعة (والقول الثاني) ان الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس (والقول الثالث) انها الطيب من القول كما قال تعالى وهدوا الى الطيب من القول (والقول الرابع) أن كل عمل وقول دعاك الى الاشتغال بمعرفة الله وبمحبته وخدمته فهو الباقيات الصالحات وكل عمل وقول دعاك الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج عن ذلك وذلك ان كل ما سوى الحق سبحانه فهو فان لذاته هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات اليه عملا باطلا وسعيا ضائعا أما الحق لذاته فهو الباقي لا يقبل الزوال لاجرم كان الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وطاعته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولا يفنى ثم قال تعالى خير عند ربك ثوابا وخير أملا أى كل عمل أريد به وجه الله فلا شك ان ما يتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الامل يكون خيرا وأفضل لان صاحب تلك الاعمال يؤمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة ﴿ قوله تعالى ﴿ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ اعلم أنه تعالى لما بين خساسة الدنيا وشرف القيامة أردفه باحوال القيامة فقال ويوم نسير الجبال والمقصود منه الرد على المشركين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الاموال والاعوان واختلفوا في الناصب لقوله ويوم نسير الجبال على وجوه (أحدها) أن يكون التقدير واذكر لهم يوم نسير الجبال عطفا على قوله واضرب لهم مثل الحياة الدنيا (الثاني) انه يكون التقدير ويوم نسير الجبال حصل كذا وكذا يقال لهم لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة لان القول مضمر في هذا الموضع فكان المعنى انه يقال لهم هذا في هذا الموضع (الثالث) أن يكون التقدير خير أملا في يوم نسير الجبال والاول أظهر اذا عرفت هذا فنقول انه ذكر في الآية من أحوال القيامة أنواعا ﴿النوع الاول﴾ قوله ويوم نسير الجبال وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير على فعل ما لم يسم فاعله الجبال بالرفع باسناد تسير اليها اعتبارا بقوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون نسير باسناد فعل التسيير الى نفسه الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا والمعنى واحد لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله سبحانه ونقل صاحب الكشاف قراءة أخرى وهي تسير الجبال باسناد تسير الى الجبال ﴿البحث الثاني﴾ قوله ويوم نسير الجبال ليس في لفظ الآية ما يدل على انها الى أين تسير فيحتمل أن يقال انه تعالى يسيرها الى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك الموضع لخلقه والحق ان المراد انه تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا ﴿والنوع الثاني من أحوال القيامة﴾ قوله تعالى وترى الارض بارزة وفي تفسيره وجوه (أحدها) انه لم يبق على وجهها شئ من العمارات ولا شئ من الجبال ولا شئ من الاشجار فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (وثانيها) ان المراد من كونها بارزة انها أبرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فهي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف ودليله قوله تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقوله وأخرجت الارض أثقالها وقوله وبرزوا لله جميعا (وثالثها) ان وجوه الارض كانت مستورة بالجبال والبحار فلما أفنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد أن كانت مستورة ﴿والنوع الثالث من أحوال القيامة﴾ قوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم أحدا أى لم نترك من الاولين والآخرين أحدا الا وجمعناهم لذلك اليوم ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ومعنى لم نغادر لم نترك يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر

(في الارض) أي أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار في لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير في لكما لتحملها اياه (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لاحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسندا الى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) توحيد الفعل لان الامر من وظائف فرعون أى قال للملأ يأمرهم بترتيب مبادي الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول (ائتوني بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار (فلما جاء السحرة) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لامر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة في كل مقام أى فأتوا به فلما جاؤا (قال لهم موسى) لكن لا في ابتداء مجيئهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حكى عنهم في السور الاخر من قولهم اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين ونحو ذلك (ألقوا ما أنتم ملقون) أى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر (فلما

ترك الوفاء ومنه الغدير لانه ماتركته السيول ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لانها تجعلها خلفها ولما ذكر
الله حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم فقال وعرضوا على ربك صفا وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ فى تفسير
الصف وجوه (أحدها) انه تعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضا
قال القفال ويشبه أن يكون الصف راجعا الى الظهور والبروز ومنه اشتق الصفصف للصحراء (وثانيها) لا يبعد
أن يكون الخلق صفوفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التى يكون بعضها خلف
بعض وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفا صفوفا كقوله يخرجكم طفلا أى أطفالا (وثالثها) صفا أى قياما
كما قال تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف قالوا قياما ﴿المسئلة الثانية﴾ قالت المشبهة قوله تعالى وجاء ربك
والملك صفا صفا يدل على انه تعالى يحضر فى ذلك المكان وتعرض عليه أهل القيامة صفا وكذلك قوله تعالى
لقد جئتمونا يدل على انه تعالى يحضر فى ذلك المكان وأجيب عنه بانه تعالى جعل وقوفهم فى الموضع الذى
يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضا عليه لا على انه تعالى يحضر فى مكان وعرضوا عليه ليراهم
بعد أن لم يكن يراهم ثم قال تعالى لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة وليس المراد حصول المساواة من كل
الوجوه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد انه قال للمشركين المنكرين للبعث
المفتخرين فى الدنيا على فقراء المؤمنين بالاموال والانصار لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة عراة حفاة بغير
أموال ولا أعوان ونظيره قوله تعالى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم
وقال تعالى أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا الى قوله ويأتينا فردا ثم قال تعالى بل
زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا أى كنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار تنكرون البعث والقيامة
فالآن قد تركتم الاموال والانصار فى الدنيا وشاهدتم أن البعث والقيامة حق ثم قال تعالى ووضع الكتاب
والمراد انه يوضع فى هذا اليوم كتاب كل انسان فى يده اما فى اليمين أو فى الشمال والمراد الجنس وهو صحف
الاعمال وترى المجرمين مشفقين مما فيه أى خائفين مما فى الكتاب من أعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور
ذلك لاهل الموقف فيفتضحون وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق
ويقولون ياويلتنا ينادون هلكتهم التى هلكوها خاصة من بين الهلكات مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة
ولا كبيرة الا أحصاها وهى عبارة عن الاحاطة يعنى لا يترك شيأ من المعاصى سواء كانت صغيرة أو كبيرة
الا وهى مذكورة فى هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون
وقوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وادخال تاء التأنيث فى الصغيرة والكبيرة على تقدير ان المراد الفعلة
الصغيرة والكبيرة الا أحصاها الا ضبطها وحصرها قال بعض العلماء ضجوا من الصغائر قبل الكبائر لان
تلك الصغائر هى التى جرتهم الى الكبائر فاحترزوا من الصغائر جدا وجدا ما عملوا حاضرا فى الصحف
عتيدا أو جزاء ما عملوا ولا يظلم ربك أحدا معناه انه لا يكتب عليه ما لم يفعل ولا يزيد فى عقابه المستحق ولا
يعذب أحدا بجرم غيره بقى فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الجبائى هذه الآية تدل على فساد قول
المجبرة فى مسائل (أحدها) أنه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالما (وثانيها) أنه لا يعذب
الاطفال بغير ذنب (وثالثها) بطلان قولهم لله أن يفعل ما يشاء ويعذب من غير جرم لان الخلق خلقه اذ لو
كان كذلك لما كان لنفى الظلم عنه معنى لان بتقدير انه اذا فعل أى شئ أراد لم يكن ظلما منه لم يكن لقوله
ولا يظلم فائدة فيقال له أما الجواب عن الاولين فهو المعارضة بالعلم والداعى وأما الجواب عن هذا
الثالث فهو أنه تعالى قال ما كان لله أن يتخذ من ولد ولم يدل هذا على أن اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا ههنا
﴿المسئلة الثانية﴾ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب الناس فى القيامة على ثلاثة يوسف
وأيوب وسليمان فيدعو بالملوك ويقول له ما شغلك عنى فيقول جعلتنى عبدا لآدمى فلم تفرغنى فيدعو
يوسف عليه السلام ويقول هذا كان عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك عن عبادتى فيؤمر به الى النار ثم يدعو بالمبتلى
فاذا قال شغلتنى بالبلاء دعا بأيوب عليه السلام فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك عن

ألقوا) ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكترث بهم وبما صنعوا
(ما جئتم به السحر) ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر (ان الله سيبطله) أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثرا صلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه أى لا يثبته لا يكومله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله

عبادتي فيؤمر به الى النار ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله من الغنى والسعة فيقول ماذا عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى بسليمان عليه السلام فيقول هذا عبدي سليمان آتيته أكثر ما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به (المسئلة الثالثة) دلت الآية على اثبات صغائر وكبائر في الذنوب وهذا متفق عليه بين المسلمين الا أنهم اختلفوا في تفسيره فقالت المعتزلة الكبيرة ما يزيد عقابه على ثواب فاعله والصغيرة ما ينقص عقابه عن ثواب فاعله واعلم أن هذا الحد انما يصح لو ثبت أن الفعل يوجب ثوابا وعقابا وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها في سورة البقرة في ابطال القول بالاحباط والتكفير بل الحق عندنا أن الطاعات محصورة في نوعين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فكل ما كان أقوى في كونه جهلا بالله كان أعظم في كونه كبيرة وكل ما كان أقوى في كونه اضرارا بالغير كان أكثر في كونه ذنبا ومعصية فهذا هو الضبط ﴿ قوله تعالى ﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين فأنا أشرف منه في الاصل والنسب فكيف أسجد وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع انا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيها على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة ابليس ثم انه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها في قوله أفتتخذونه وذريته أولياء فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر وذكر القاضي وجها آخر فقال انه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب وكان تعالى يريد أن يذكر ههنا انه ينادي المشركين ويقول لهم أين شركائي الذين زعمتم وكان قد علم تعالى أن ابليس هو الذي يحمل الانسان على اثبات هؤلاء الشركاء لا جرم قدم قصته في هذه الآية اتماما لذلك الغرض ثم قال القاضي وهذه القصة وان كان تعالى قد كررها في سور كثيرة الا أن في كل موضع منها فائدة مجددة (المسئلة الثانية) انه تعالى بين في هذه الآية أن ابليس كان من الجن وللناس في هذه المسئلة ثلاثة أقوال (الاول) انه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن ولهم فيه وجوه (الاول) أن قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وجعلوا لله شركاء الجن (والثاني) أن الجن سموا جنا للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون في الجن (الثالث) انه كان خازن الجنة ونسب الى الجنة كقولهم كوفي وبصري وعن سعيد بن جبير انه كان من الجنانين الذين يعملون في الجنان حي من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذ خلقوا رواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير (والقول الثاني) انه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من نار وهو أبوهم (والقول الثالث) قول من قال كان من الملائكة فمسخ وغير وهذه المسئلة قد أحكمناها في سورة البقرة وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلا في هذه الآية وهو قوله أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب أن لا يكون ابليس من الملائكة بقي أن يقال ان الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن ابليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك الامر وأيضا لو لم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء ثم قال تعالى ففسق

والكل اعتراض تذييلي وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له (ويحق الله الحق) عطف على قوله سيبطله أي يثبته ويقويه واظهار الاسم الجليل في المقامين الاخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة (بكلماته) بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم (فما آمن لموسى) معطوف على مقدر فصل في مواقع أخر أي فألقى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون الخ وانما لم يذكر تعويلا على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بأن قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما في قوله عز وجل فاتبعوا أمر فرعون وما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر في ذلك أن الاتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث أي فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة (الا ذرية من قومه) أي الا أولاد من أولاد قومه بني اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته

عن أمر ربه وفي ظاهره اشكال لان الفاسق لا يفسق عن أمر ربه فلهذا السبب ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الفراء ففسق عن أمر ربه أي خرج عن طاعته والعرب تقول فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة

يهوين في نجد وغورا غائرا * فواسقا عن قصدها جوائرا

(الثاني) حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه قال لما أمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الامر والمعنى أنه لولا ذلك الامر السابق لما حصل الفسق فلاجل هذا المعنى حسن أن يقال فسق عن أمر ربه (الثالث) قال قطرب فسق عن أمر ربه رده كقوله واسئل القرية واسئل العير قال تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذا الكلام ان ابليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون هو أشرف من آدم فكأنه تعالى قال لاولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم انكم في هذا القول اقتديتم بابليس في تكبره على آدم فلما علمتم أن ابليس عدو لكم فكيف تقتدون به في هذه الطريقة المذمومة هذا هو تقرير الكلام * فان قيل ان هذا الكلام لا يتم الا باثبات مقدمات (فأولها) اثبات ابليس (وثانيها) اثبات ذرية ابليس (وثالثها) اثبات عداوة بين ابليس وذريته وبين أولاد آدم (ورابعها) أن هذا القول الذي قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بابليس وكل هذه المقدمات الاربعة لا سبيل الى اثباتها الا بقول النبي صلى الله عليه وسلم فالجاهل بصدق النبي جاهل بها اذا عرفت هذا فنقول المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبيا صادقا أو ما عرفوا ذلك فان عرفوا كونه نبيا صادقا قبلوا قوله في كل ما يقوله فكل ما نهاهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن قوله انتهوا عنه وحينئذ فلا حاجة الى قصة ابليس وان لم يعرفوا كونه نبيا جهلوا كل هذه المقدمات الاربعة ولم يعرفوا صحتها فحينئذ لا يكون في ايرادها عليهم فائدة * والجواب ان المشركين كانوا قد سمعوا قصة ابليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا أن ابليس انما تكبر على آدم بسبب نسبه فاذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجرا لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع (المسئلة الثانية) قال الجبائي في هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه في العباد اذ لو أراده وخلقه فيهم ثم عاقبهم عليه لكان ضرر ابليس أقل من ضرر الله عليهم فكيف يوبخهم بقوله بئس للظالمين بدلا تعالى الله عنه علوا كبيرا بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من ابليس بل الضرر كله من الله (والجواب) المعارضة بالداعي والعلم (المسئلة الثالثة) انما قال للكفار المفتخرين بانسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين أفتتخذونه وذريته أولياء من دون الله لان الداعي لهم الى ترك دين محمد صلى الله عليه وسلم هو النخوة واظهار العجب فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لابليس حتى ان من كان غرضه في اظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتد بابليس وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى بئس للظالمين بدلا أي بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته * ثم قال ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في أن الضمير في قوله ما أشهدتهم الى من يعود فيه وجوه (أحدها) وهو الذي ذهب اليه الاكثرون أن المعنى ما أشهدت الذين اتخذتموهم أولياء خلق السموات والارض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله اقتلوا أنفسكم يعني ما أشهدتهم لاعتضد بهم والدليل عليه قوله وما كنت متخذ المضلين عضدا أي وما كنت متخذهم فوضع الظاهر موضع المضمر بيانا لاضلالهم وقوله عضدا أي أعوانا (وثانيها) وهو أقرب عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل قوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا

في ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه في الفساد وعلوه في الشر والتسلط على العباد أو لان المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أي على خوف من فرعون ومن أشراف بني اسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أن يفتنهم) أي يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول خوف فان اعمال المصدر المنكر كثير كما في قوله عز وجل أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما أو مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لانه الآمر بالتعذيب (وان فرعون لعال في الارض) لغالب في أرض مصر (وانه لمن المسرفين) في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الانبياء والجملتان اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ماسبق (وقال موسى) لما رأى تخوف المؤمنين منه (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله) أي صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) وبه ثقوا ولا تخافوا أحدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر (ان كنتم مسلمين) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق

على هذا الاقتراح الفاسد ونظيره ان من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فانك تقول له لست بسلطان البلد ولا ذرية المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة فلم تقدم عليها والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات وفي هذه الآية المذكورة الاقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار (وثالثها) أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الازل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته في الازل والشقى من حكم الله بشقاوته في الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل كأنه تعالى قال ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل بل ربما صار الامر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به ﴿المسئلة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف قرئ وما كنت بالفتح والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم وما ينبغى لك أن تعتز بهم وقرأ على رضوان الله عليه متخذا المضلين بالتنوين على الاصل وقرأ الحسن عضدا بسكون الضاد ونقل ضمتها الى العين وقرئ عضدا بالفتح وسكون الضاد وعضدا بضمتين وعضدا بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد من عضده اذا قواه وأعانه * واعلم أنه تعالى لما قرر أن القول الذى قالوه فى الافتخار على الفقراء اقتداء بابليس عاد بعده الى التهويل بأحوال يوم القيامة فقال ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم وفيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قرأ حمزة نقول بالنون عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وأولياء من دونى وما أشهدتهم خلق السموات والارض وما كنت متخذ المضلين عضدا والباقون قرؤا بالياء ﴿البحث الثانى﴾ واذكر يوم نقول عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا ﴿البحث الثالث﴾ المعنى واذكر لهم يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة اذ يقول الله لهم نادوا شركائى أى ادعوا من زعمتم أنهم شركاء لى حيث أهلتموهم للعبادة ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم والمراد بالشركاء الجن فدعوهم ولم يذكر تعالى فى هذه الآية أنهم كيف دعوا الشركاء الا أنه تعالى بين ذلك فى آية أخرى وهو أنهم قالوا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا ثم قال تعالى فلم يستجيبوا لهم أى لم يجيبوهم الى ما دعوهم اليه ولم يدفعوا عنهم ضررا وما أوصلوا اليهم نفعا ثم قال تعالى وجعلنا بينهم موبقا وفيه وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف الموبق المهلك من وبق يبق وبوقا وو بقا اذا هلك وأوبقه غيره فيجوز أن يكون مصدرا كالمورد والموعد وتقرير هذا الوجه أن يقال ان هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم وبينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عيسى الجنة وصار الملائكة الى حيث أراد الله من دار الكرامة وحصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادى فى جهنم ﴿الوجه الثانى﴾ قال الحسن موبقا أى عداوة والمعنى عداوة هى فى شدتها هلاك ومنه قوله لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا ﴿الوجه الثالث﴾ قال الفراء البين المواصلة أى جعلنا مواصلتهم فى الدنيا هلاكا فى يوم القيامة ﴿الوجه الرابع﴾ الموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ثم قال تعالى ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها وفى هذا الظن قولان (الاول) ان الظن ههنا بمعنى العلم واليقين (والثانى) وهو الاقرب ان المعنى ان هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها فى تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقوله مواقعوها أى مخالطوها فان مخالطة الشئ لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ثم قال تعالى ولم يجدوا عنها مصرفا أى لم يجدوا عن النار معدلا الى غيرها لان الملائكة تسوقهم اليها ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شئ جدلا وما منع الناس أن يؤمنوا اذ

بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لا يتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فأحسن اليه ان قدرت عليه (فقالوا) مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك (على الله توكلنا) لانهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين (ربنا لا تجعلنا فتنة) أى موقع فتنة (للقوم الظالمين) أى لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الاتجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ما وصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ) أن مفسرة لان فى الوحى معنى القول أى اتخذا مباءة (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها أو ترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) تلك (قبلة) مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها (وأقيموا الصلوة) أى فيها أمروا بذلك فى أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم (وبشر المؤمنين) بالنصرة فى الدنيا

جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الاولين أو يأتيهم العذاب قبلا وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ اعلم أن أولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبين تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين قال بعده ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وهو اشارة الى ما سبق والتصريف يقتضي التكرير والامر كذلك لانه تعالى أجاب عن شبهتهم التي ذكروها من وجوه كثيرة ومع تلك الجوابات الشافية والامثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لا يتركون المجادلة الباطلة فقال وكان الانسان أكثر شئ جدلا أي أكثر الاشياء التي يتأتى منها الجدل وانتصاب قوله جدلا على التمييز قال بعض المحققين والآية دالة على أن الانبياء عليهم السلام جادلوهم في الدين حتى صاروا هم مجادلين لان المجادلة لا تحصل الا من الطرفين وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ثم قال وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ قالت المعتزلة الآية دالة على انه لم يوجد ما يمنع من الاقدام على الايمان وذلك يدل على فساد قول من يقول انه حصل المانع قال أصحابنا العلم بانه لا يؤمن مضاد لوجود الايمان فاذا كان ذلك العلم قائما كان المانع قائما وأيضا حصول الداعي الى الكفر قائم والا لما وجب لان الفعل الاختياري بدون الداعي محال ووجود الداعي الى الكفر مانع من حصول الايمان واذا ثبت هذا ظهران المراد مقدار الموانع المحسوسة ﴿البحث الثاني﴾ المعنى انه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الاسلام وثبت انه لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم لم يقدموا على الايمان ثم قال تعالى الا أن تأتيهم سنة الاولين وهو عذاب الاستئصال أو يأتيهم العذاب قبلا قرأ حمزة وعاصم والكسائي قبلا بضم القاف والباء جميعا وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل معكونهم أحياء وقيل مقابلة وعيانا والباقون قبلا بكسر القاف وفتح الباء أي عيانا أيضا وروى صاحب الكشاف قبلا بفتحتين أي مستقبلا والمعنى انهم لا يقدمون على الايمان الا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا واعلم انهم لا يقدمون على الايمان الا على هذين الشرطين لان العاقل لا يرضى بحصول هذين الامرين الا ان حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين ثم بين تعالى انه انما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعا وبين مع هذه الاحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق وهذا يدل على ان الانبياء كانوا يجادلونهم لما بينا ان المجادلة انما تحصل من الجانبين وبين تعالى أيضا انهم اتخذوا آيات الله وهي القرآن وانذارات الانبياء هزوا وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة قال النحويون ما في قوله وما أنذروا يجوز أن تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفا ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى انذارهم قوله تعالى ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار جدالهم بالباطل وصفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي والخذلان (الصفة الاولى) قوله ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه أي لا ظلم أعظم من كفر من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ما قدمت يداه أي مع اعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الاعمال المنكرة والمذاهب الباطلة والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم (الصفة الثانية) انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا وقد مر تفسير هذه الآية على الاستقصاء في سورة الانعام * واعلم أن قوله ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه متمسك القدرية وقوله انا جعلنا

جابة لدعوتهم والجنة في العقبى وانما ثنى الضمير أوّلا لان التبوّأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لان جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لان بشارة الامة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم للمدح بالايمان وللاشعار بأنه المدار في التبشير (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة) أي ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها (وأموالا) وأنواعا كثيرة من المال (في الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) دعاء عليهم بلفظ الامر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت أو للعلة لان ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولانهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكانهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للاول تأكيدا وتنبيها على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس المحو وقرئ بضم الميم أي أهلكها (واشدد على قلوبهم) أي اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للايمان كما هو قضية شأنهم (فلا يؤمنوا) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض

على

على قلوبهم أكنة أن يفقهوه الى آخر الآية متمسك الجبرية وقلما نجد فى القرآن آية لاحد هذين الفريقين الا ومعها آية للفريق الآخر والتجربة تكشف عن صدق قولنا وما ذاك الا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين ثم قال تعالى وربك الغفور ذو الرحمة الغفور البليغ المغفرة وهو اشارة الى دفع المضار وذو الرحمة الموصوف بالرحمة واعلم انه ذكر لفظ المبالغة فى المغفرة لا فى الرحمة لان المغفرة ترك الاضرار وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادرا عليها أما فعل الرحمة فهو متناه لان ترك ما لا نهاية له ممكن اما فعل ما لا نهاية له فمحال ويمكن أن يقال المراد انه يغفر كثيرا لانه ذو الرحمة ولا حاجة به اليها فيرحم بها من المحتاجين كثيرا ثم استشهد بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير امهال مع افراطهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل لهم موعد وهو اما يوم القيامة واما فى الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح ان يجدوا من دونه موئلا منجى ولا ملجأ يقال وأل اذا لجأ ووأل اليه اذا لجأ اليه ثم قال تعالى وتلك القرى يريد قرى الاولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار اليهم ليعتبروا وتلك القرى مبتدأ والقرى صفة لان أسماء الاشارة توصف بأصناف الاجناس وأهلكناهم خبر والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة وجعلنا لمهلكهم موعدا أى وضربنا لاهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لاهل مكة يوم بدر والمهلك الاهلاك أو وقته وقرئ لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة أى لهلاكهم أو وقت هلاكهم والموعد وقت أو مصدر والمراد أنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم ندع أن نضرب له وقتا ليكونوا الى التوبة أقرب ﴿ قوله تعالى ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا﴾ اعلم ان هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى ان موسى عليه السلام ذهب الى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم وهذا وان كان كلاما مستقلا فى نفسه الا انه يعين على ما هو المقصود فى القصتين السابقتين أما نفع هذه القصة فى الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الاموال والانصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام فى حقه ذهب الى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على ان التواضع خير من التكبر وأما نفع هذه القصة فى قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة ان أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي والا فلا وهذا ليس بشئ لانه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع كما ان كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله اياه بان يذهب الى الخضر ليتعلم منه فظهر بما ذكرنا ان هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ومع ذلك فهى نافعة فى تقرير المقصود فى القصتين المتقدمتين (المسئلة الثانية) أكثر العلماء على ان موسى المذكور فى هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن سعيد بن جبير انه قال لابن عباس ان نوفا ابن امرأة كعب يزعم ان الخضر ليس صاحب موسى بن عمران وانما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقيل هو كان نبيا قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس كذب عدو الله واعلم انه كان ليوسف عليه السلام ولدان افرائيم وميشا فولد افرائيم نون وولد نون يوشع بن نون وهو صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته وأما ولد ميشا قيل انه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران ويزعم أهل التوراة انه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم والخضر هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وموسى بن ميشا معه هذا هو قول جمهور اليهود واحتج القفال على صحة قولنا ان موسى هذا هو صاحب التوراة قال ان الله تعالى ما ذكر موسى فى كتابه الا وأراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور فى العرف من أبى

(حتى يروا العذاب الاليم) اى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك اذ ذاك (قال قد أجيبت دعوتكما) يعنى موسى وهرون عليهما السلام لانه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا فان ما طلبتما كائن فى وقته لا محالة روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الامور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة فى الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرئ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان أيضا (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) هو من جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا بما هو بمعنى التنفيذ نحو ما وقع فى قول الاعشى

* كما جوز السكى فى الباب فيتق *

والا لقيل وجوزنا بنى اسرائيل فى البحر وفى النظم الكريم عن الايذان بانقطاع الحجر عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور وفى الفرق بين أذهبه وذهب به (فأتبعهم) يقال تبعته

حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين فلو ذكرناهذا الاسم وأردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل أن نقول قال أبو حنيفة الدينوري * وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه تعالى بعد أن أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وبحج خصمه بالمعجزات القاهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها الا كثر أكابر الانبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك لتعلم الاستفادة وأجيب عنه بأنه لا يبعد أن العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعض الاشياء فيحتاج فى تعلمها الى من دونه وهذا أمر متعارف معلوم (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى فتى موسى فالاكثرون على انه يوشع بن نون وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى هريرة عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول فتاه يوشع بن نون (والقول الثانى) ان فتى موسى أخو يوشع وكان مصاحبا لموسى عليه السلام فى هذا السفر (والقول الثالث) روى عمرو بن عبيد عن الحسن فى قوله واذ قال موسى لفتاه لا أبرح قال يعنى عبده قال القفال واللغة تحتمل ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وهذا يدل على انهم كانوا يسمون العبد فتى والامة فتاة (المسئلة الرابعة) قيل ان موسى عليه السلام لما أعطى الالواح وكلمه الله تعالى قال من الذى أفضل منى وأعلم فقيل عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر وفى رواية أخرى ان موسى عليه السلام لما أوتى من العلم ما أوتى ظن أنه لا أحد مثله فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال ياموسى انظر الى هذا الطير الصغير يهوى الى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع فانت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحمل هذا الطير بمنقاره من البحر قال الاصوليون هذه الرواية ضعيفة لان الانبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لا نهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية وكل قدر متناه فان الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم الا وفوقها مرتبة ولهذا قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم واذا كانت هذه المقدمات معلومة فمن المستبعد جدا أن يقطع العاقل بانه لا أحد أعلم منى لا سيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الاشياء وشدة براءته عن الاخلاق الذميمة كالعجب والتيه والصلف (والرواية الثالثة) قيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فاى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال موسى عليه السلام ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فادللنى عليه فقال أعلم منك الخضر قال فأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرنى فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر الى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فاخبره فتاه بوقوعه فى البحر فرجع من ذلك الموضع الى الموضع الذى طفر الحوت فيه الى البحر فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال وأنى بارضك السلام فعرفه نفسه فقال ياموسى أنا على علم علمنى الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء فقال الخضر ما ينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر أقول نسبة ذلك القدر القليل الذى أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء الى كلية ماء البحر نسبة متناه الى متناه ونسبة معلوم جميع المخلوقات الى معلومات الله تعالى نسبة متناه الى غير متناه فاين احدى النسبتين من الاخرى والله العالم بحقائق الامور نرجع الى التفسير أما قوله تعالى لا أبرح قال الزجاج قوله لا أبرح ليس معناه لا أزول لانه لو كان كذلك لم يقطع أرضا أقول يمكن أن يجاب عنه بان الزوال عن الشئ عبارة عن تركه والاعراض عنه يقال زال فلان عن طريقته فى الجود أى تركها فقوله لا أبرح بمعنى لا أزول عن السير والذهاب بمعنى لا أترك هذا العمل وهذا الفعل وأقول المشهور عند الجمهور ان قوله لا أبرح معناه لا أزول والعرب تقول لا أبرح ولا أزال ولا أنفك ولا أفتأ بمعنى واحد قال القفال وقالوا أصل قولهم لا أبرح من البراح كما أن أصل لا أزال من الزوال يقال زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت الا ان المستعمل فى هذه اللفظة

يزال

حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته أى أدركهم ولحقهم (فرعون وجنوده) حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان (بغيا وعدوا) ظلما واعتداء أى باغين وعادين أو للبغى والعدوان وقرئ وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببنى اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل الى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم (حتى اذا أدركه الغرق) أى لحقه وألجمه (قال آمنت أنه) أى بأنه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيرا له (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل) لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة (وأنا من المسلمين) أى الذين أسلموا نفوسهم لله أى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم اما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الاول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل

يزال فقوله لا أبرح أي أقيم لان البراح هو العدم فقوله لا أبرح يكون عدما للعدم فيكون ثبوتا فقوله لا أزال ولا أبرح يفيد الدوام والثبات على العمل فان قيل اذا كان قوله لا أبرح بمعنى لا أزال فلا بد من الخبر قلنا حذف الخبر لان الحال والكلام يدلان عليه أما الحال فلانها كانت حال سفر وأما الكلام فلان قوله حتى أبلغ مجمع البحرين غاية مضروبة تستدعي شيأ هي غاية له فيكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ويحتمل أن يكون المعنى لا أبرح مما أنا عليه يعني الزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول لا أبرح المكان وأما مجمع البحرين فهو المكان الذي وعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وقيل غيره وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح بالخبر الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت عنه ومن الناس من قال البحران موسى والخضر لانهما كانا بحري العلم وقرئ مجمع بكسر الميم ثم قال أو أمضي حقبا أي أسير زمانا طويلا وقيل الحقب ثمانون سنة وقد تكلمنا في هذا اللفظ في قوله تعالى لابثين فيها أحقابا وحاصل الكلام ان الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه موضعه بعينه فقال موسى عليه السلام لا أزال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرا واحدا أو أمضي دهرا طويلا حتى أجد هذا العالم وهذا اخبار من موسى بانه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لاجل طلب العلم وذلك تنبيه على ان المتعلم لو سافر من المشرق الى المغرب لطلب مسئلة واحدة لحق له ذلك ثم قال تعالى فلما بلغا مجمع بينهما والمعنى فانطلقا الى أن بلغا مجمع بينهما والضمير في قوله بينهما الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) مجمع بينهما أي مجمع البحرين وهو كانه اشارة الى قول موسى لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أي تحقق ما قاله (والقول الثاني) ان المعنى فلما بلغ الموضع الذي يجتمع موسى وصاحبه الذي كان يقصده لان ذلك الموضع الذي وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذي كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه ولاجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد أن ذكر الحوت صار اليه وهو معنى حسن والمفسرون على القول الاول ثم قال تعالى نسيا حوتهما وفيه مباحث (البحث الاول) الروايات تدل على انه تعالى بين لموسى عليه السلام ان هذا العالم موضعه مجمع البحرين الا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حيا علامة على مسكنه المعين كمن يطلب انسانا فيقال له ان موضعه محلة كذا من الري فاذا انتهيت الى المحلة فسل فلانا عن داره وأينما ذهب بك فاتبعه فانك تصل اليه فكذا ههنا قيل له ان موضعه مجمع البحرين فاذا وصلت اليه رأيت الحوت انقلب حيا وطفر الى البحر فيحتمل أنه قيل له فهنالك موضعه ويحتمل انه قيل له فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فانك تجده اذا عرفت هذا فنقول ان موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة الى البحر وسارت وفي كيفية طفرها روايات أيضا قيل ان الفتى كان يغسل السمكة لانها كانت مملحة فطفرت وسارت وقيل أن يوشع توضأ في ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب في الماء وقيل انفجر هنالك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين الى السمكة فحييت وطفرت الى البحر فهذا هو الكلام في صفة الحوت (البحث الثاني) المراد من قوله نسيا حوتهما انهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول الى المطلوب فان قيل انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلا على الوصول الى المطلوب فكيف يعقل حصول النسيان في هذا المعنى أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيرا فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان وعندي فيه جواب آخر وهو ان موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيها لموسى عليه السلام على ان العلم لا يحصل الا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر * أما قوله فاتخذ سبيله في البحر سربا ففيه وجوه (الاول) أن يكون التقدير سربا في البحر سربا الا انه أقيم قوله فاتخذ مقام قوله سرب والسرب هو الذهاب ومنه قوله وسارب بالنهار (الثاني) ان الله تعالى أمسك اجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه فلما جاوزا أي موسى وفتاه

الحالية أيضا من ضمير المتكلم أي آمنت مخلصا لله منتظما في سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضي الى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آت وقوله عز وجل (آلآن) مقول لقول مقدر معطوف على قال أي فقيل آلآن وهو الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار التوبيخي على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك وفي حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكي في صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب مالا يخفى كما يفصح عنه ما روي من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولي بالرد الفعلي ولا يناقضه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبي عليهما السلام فلو رأيتني يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية أي النجاة التي هي طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما في ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته مالا يتصور في شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة في ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه

الموعد المعين وهو الوصول الى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال الفتى أرأيت اذ أوينا الى الصخرة الهمزة في أرأيت همزة الاستفهام ورأيت على معناه الاصلي وقد جاء هذا الكلام على ما هو المتعارف بين الناس فانه اذا حدث لاحدهم أمر عجيب قال لصاحبه أرأيت ما حدث لي كذلك ههنا كأنه قال أرأيت ما وقع لي منه اذ أوينا الى الصخرة فحذف مفعول أرأيت لان قوله فاني نسيت الحوت يدل عليه ثم قال وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره وفيه مباحث (البحث الاول) انه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير فاني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبا والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجري مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان (البحث الثاني) قال الكعبي وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره يدل على انه تعالى ما خلق ذلك النسيان وما أراده والا كانت اضافته الى الله تعالى أوجب من اضافته الى الشيطان لانه تعالى اذا خلقه فيه لم يكن لسعي الشيطان في وجوده ولا في عدمه أثر قال القاضي والمراد بالنسيان أن يشتغل قلب الانسان بوساوسه التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر لان ذلك لا يصح أن يكون الا من قبل الله تعالى (البحث الثالث) قوله أن أذكره بدل من الهاء في أنسانيه أي وما أنساني ذكره الا الشيطان * ثم قال واتخذ سبيله في البحر عجبا وفيه وجوه (الاول) ان قوله عجبا صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله في البحر اتخاذا عجبا ووجه كونه عجبا انقلابه من المكتل وصيرورته حيا والقاء نفسه في البحر على غفلة منهما (والثاني) أن يكون المراد منه ما ذكرنا انه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب (الثالث) قيل انه تم الكلام عند قوله واتخذ سبيله في البحر ثم قال بعده عجبا والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التي رآها ومن نسيانه لها وقيل ان قوله عجبا حكاية لتعجب موسى وهو ليس بقوله ثم قال تعالى قال ذلك ما كنا نبغ أي قال موسى ذلك الذي كنا نطلبه لانه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر وقوله نبغ أصله نبغي فحذفت الياء طلبا للتخفيف لدلالة الكسرة عليه وكان القياس أن لا يحذف لانهم انما يحذفون الياء في الاسماء وهذا فعل الا أنه قد يجوز على ضعف القياس حذفوها لانها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك ما نبغي اليوم فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضا مع غير الساكن ثم قال فارتدا على آثارهما أي فرجعا وقوله قصصا فيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر في موضع الحال أي رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما (والثاني) أن يكون مصدرا لقوله فارتدا على آثارهما لان معناه فاقتصا على آثارهما وحاصل الكلام انهما لما عرفا انهما تجاوزا عن الموضع الذي يسكن فيه ذلك العالم رجعا وعادا اليه والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ في الآية مسائل (المسألة الاولى) قوله فوجدا عبدا من عبادنا فيه بحثان (البحث الاول) قال الاكثرون ان ذلك العبد كان نبيا واحتجوا عليه بوجوه (الاول) انه تعالى قال آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى أهم يقسمون رحمة ربك وقال وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة ولقائل أن يقول نسلم ان النبوة رحمة أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة (الحجة الثانية) قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وهذا يقتضي انه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبيا يعلم الامور بالوحي من الله وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله وذلك لا يدل على النبوة (الحجة الثالثة) ان موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمن والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم وهذا أيضا ضعيف لان النبي لا يتبع غير النبي في العلوم التي باعتبارها صار نبيا أما في غير تلك العلوم فلا (الحجة الرابعة) ان ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا وأما موسى فانه أظهر التواضع له حيث قال لا أعصي

بكلمة الايمان وان كان ذلك في حالة اليأس والبأس فيحمل ردّه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة المرد فتدبر والله الموفق وحق العامل في الظرف أن يقدره مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تأخير الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه أي آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا (وقد عصيت قبل) حال من فاعل الفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان الى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر في دلائله وآياته ولا لشيء آخر مما عسى يعد عذرا في التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى (وكنت من المفسدين) عطف على عصيت داخل في حيز الحال أي وكنت من الغالين في الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع الى نفسه والساري الى غيره من الظلم والتعدي وصد بني اسرائيل عن الايمان والاول عن عصيانه الخاص به (فاليوم ننجيك) أي نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفي التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر

لك أمرا وكل ذلك يدل على ان ذلك العالم كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق النبي وهذا أيضا ضعيف لانه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها فلم قلتم ان ذلك لا يجوز فان قالوا لانه يوجب التنفير قلنا فارسال موسى الى التعلم منه بعد انزال الله عليه التوراة وتكليمه بغير واسطة يوجب التنفير فان قالوا ان هذا لا يوجب التنفير فكذا القول فيما ذكروه ‹الحجة الخامسة› احتج الاصم على نبوته بقوله في أثناء القصة وما فعلته عن أمري ومعناه فعلته بوحي الله وهو يدل على النبوة وهذا أيضا دليل ضعيف وضعفه ظاهر ‹الحجة السادسة› ماروى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى عليه السلام من عرفك هذا قال الذي بعثك الى قالوا وهذا يدل على انه انما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون الا مع النبوة ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات ‹البحث الثاني› قال الاكثرون ان ذلك العبد هو الخضر وقالوا انما سمي بالخضر لانه كان لا يقف موقفا الا اخضر ذلك الموضع قال الجبائي قد ظهرت الرواية ان الخضر انما بعث بعد موسى عليه السلام من بني اسرائيل فان صح ذلك لم يجز أن يكون هذا العبد هو الخضر وأيضا فبتقدير أن يكون هذا العبد هو الخضر وقد ثبت انه يجب أن يكون نبيا فهذا يقتضي أن يكون الخضر أعلى شأنا من موسى صاحب التوراة لانا قد بينا ان الالفاظ المذكورة في هذه الآيات تدل على ان ذلك كان يترفع على موسى وكان موسى يظهر التواضع له الا ان كون الخضر أعلى شأنا من موسى غير جائز لان الخضر اما أن يقال انه كان من بني اسرائيل أو ما كان من بني اسرائيل فان قلنا انه كان من بني اسرائيل كان من أمة موسى لقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون أرسل معنا بني اسرائيل والامة لا تكون أعلى حالا من النبي وان قلنا انه ما كان من بني اسرائيل لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله تعالى لبني اسرائيل وأني فضلتكم على العالمين وهذه الكلمات تقوي قول من يقول ان موسى هذا غير موسى صاحب التوراة ‹المسئلة الثانية› قوله وعلمناه من لدنا علما يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة في اثبات العلوم اللدنية وأقول تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول اذا أدركنا أمرا من الامور وتصورنا حقيقة من الحقائق فاما أن نحكم عليه بحكم وهو التصديق أولا نحكم وهو التصور وكل واحد من هذين القسمين فاما أن يكون نظريا حاصلا من غير كسب وطلب واما أن يكون كسبيا أما العلوم النظرية فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب وطلب مثل تصورنا الالم واللذة والوجود والعدم ومثل تصديقنا بان النفي والاثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وان الواحد نصف الاثنين وأما العلوم الكسبية فهي التي لا تكون حاصلة في جوهر النفس ابتداء بل لا بد من طريق يتوصل به الى اكتساب تلك العلوم وهذا الطريق على قسمين (أحدهما) أن يتكلف الانسان ترتيب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركيبها الى استعلام المجهولات وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروي والاستدلال وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذي لا يتم الا بالجهد والطلب (والنوع الثاني) أن يسعى الانسان بواسطة الرياضات والمجاهدات في أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوة العقلية وأشرقت الانوار الالهية في جوهر العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية اذا عرفت هذا فنقول جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية فقد تكون النفس نفسا مشرقة نورانية الهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية فلا جرم كانت أبدا شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والانوار الالهية فلا جرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الانوار على سبيل الكمال والتمام وهذا هو المراد بالعلم اللدني وهو المراد من قوله آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما وأما النفس التي ما بلغت في صفاء الجوهر واشراق العنصر فهي النفس الناقصة البليدة التي لا يمكنها تحصيل المعارف والعلوم الا بتوسط بشري يحتال في تعليمه وتعلمه والقسم الاول بالنسبة الى القسم

وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرئ ننحيك من الانحاء وننحيك بالحاء من التنحية أي نلقيك بناحية الساحل (ببدنك) في موضع الحال من ضمير المخاطب أي ننجيك ملابسا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرئ بأبدانك أي بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيل اليهم أنه لا يهلك حتى روى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه الى أن عاينوه مطرحا على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتي بعدك من الامم اذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على ان الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرئ لمن خلفك فعلا ماضيا أي لمن خلفك من الجبابرة وقرئ لمن خلقك بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على أنه قصد

منه الكشف ترو برك واماطة الشبهة فى أمرك و برهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا الوجه

الثانى كالشمس بالنسبة الى الاضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة الى الجداول الجزئية وكالروح الاعظم بالنسبة الى الارواح الجزئية فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها فى هذا الكتاب * ثم قال تعالى قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو ويعقوب رشدا بفتح الراء والشين وعن ابن عباس رضى الله عنهما بضم الراء والشين والباقون بضم الراء وتسكين الشين قال القفال وهى لغات فى معنى واحد يقال رشد ورشد مثل نكر ونكر كما يقال سقم وسقم وشغل وشغل وبخل وبخل وعدم وعدم وقوله رشدا أى علما ذا رشد قال القفال قوله رشدا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الرشد راجعا الى الخضر أى مما علمك الله وأرشدك به (والثانى) ان يرجع ذلك الى موسى ويكون المعنى على أن تعلمنى وترشدنى مما علمت (المسئلة الثانية) اعلم ان هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الادب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر (فأحدها) أنه جعل نفسه تبعا له لانه قال هل أتبعك (وثانيها) انه استأذن فى اثبات هذه التبعية فانه قال هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعا لك وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع (وثالثها) انه قال على أن تعلمنى وهذا اقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم (ورابعها) انه قال مما علمت وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله وهذا أيضا مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلنى مساويا فى العلم لك بل أطلب منك أن تعطينى جزأ من أجزاء علمك كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع اليه جزأ من أجزاء ماله (وخامسها) ان قوله مما علمت اعتراف بان الله علمه ذلك العلم (وسادسها) ان قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية والارشاد هو الامر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال (وسابعها) ان قوله تعالى مما علمت معناه انه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به وفيه اشعار بانه يكون انعامك على عند هذا التعليم شبيها بانعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم ولهذا المعنى قيل أنا عبد من تعلمت منه حرفا (وثامنها) ان المتابعة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لاجل كونه فعلا لذلك الغير فانا اذا قلنا لا اله الا الله فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم فى ذكر هذه الكلمة لانا لا نقول هذه الكلمة لاجل انهم قالوها بل انما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها أما اذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما أتينا بها لاجل أنه عليه السلام أتى بها لا جرم كنا متابعين فى فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ثبت هذا فنقول قوله هل أتبعك يدل على أنه يأتى بمثل أفعال ذلك الاستاذ لمجرد كون ذلك الاستاذ آتيا بها وهذا يدل على ان المتعلم يجب عليه فى أول الامر التسليم وترك المنازعة والاعتراض (وتاسعها) ان قوله أتبعك يدل على طلب متابعته مطلقا فى جميع الامور غير مقيد بشئ دون شئ (وعاشرها) انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا انه نبى بنى اسرائيل وانه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذى كلمه الله عز وجل من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا فى طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة وهذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأشد (والحادى عشر) أنه قال هل أتبعك على أن تعلمن فأثبت كونه تبعا له أولا ثم طلب ثانيا أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم (والثانى عشر) أنه قال هل أتبعك على أن تعلمن فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيأ كأنه قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لى الا طلب العلم ثم انه تعالى حكى عن الخضر انه قال انك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المتعلم على قسمين متعلم ليس عنده شئ من العلوم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض ثم انه يريد أن يخالط انسانا أكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم فى هذا القسم الثانى

يحتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تهمته بما ذكر ايذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس الاشهاد وزيادة تقطيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الاسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الاولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنة لمن خلفك (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جئ به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى (ولقد بوأنا بنى اسرائيل) كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال واخلالهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم (مبوأ صدق) أى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها (ورزقناهم من الطيبات)

شاق

شاق شديد وذلك لانه اذا رأى شيأ أو سمع كلاما فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكرا الا أنه كان فى الحقيقة حقا صوابا فهذا المتعلم لاجل أنه ألف القيل والقال وتعود الكلام والجدال يغتر بظاهره ولاجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته وحينئذ يقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة وذلك مما يثقل سماعه على الاستاذ الكامل المتبحر فاذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة وهذا هو الذى أشار اليه الخضر بقوله انك لن تستطيع معى صبرا اشارة الى أنه ألف الكلام وتعود الاثبات والابطال والاستدلال والاعتراض وقوله وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا اشارة الى كونه غير عالم بحقائق الاشياء كما هى وقد ذكرنا أنه متى حصل الامران صعب السكوت وعسر التعليم وانتهى الامر بالآخرة الى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج أصحابنا بقوله انك لن تستطيع معى صبرا على ان الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل قالوا لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر فيلزم أن يصير قوله انك لن تستطيع معى صبرا كذبا ولما بطل ذلك علمنا أن الاستطاعة لا توجد قبل الفعل اجاب الجبائى عنه ان المراد من هذا القول انه يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه يقال فى العرف ان فلانا لا يستطيع ان يرى فلانا وان يجالسه اذا كان يثقل عليه ذلك ونظيره قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع أى كان يشق عليهم الاستماع فيقال له هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وانه لا يجوز وأقول مما يؤكد هذا الاستدلال الذى ذكره الاصحاب قوله تعالى وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا استبعد حصول الصبر على مالم يقف الانسان على حقيقته ولو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم ولو كان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعدا لان القادر على الفعل لا يبعد منه اقدامه على ذلك الفعل ولما حكم الله باستبعاده علمنا أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل ثم حكى الله تعالى عن موسى أنه قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ احتج الطاعنون فى عصمة الله الانبياء بهذه الآية فقالوا ان الخضر قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا وقال موسى ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا وكل واحد من هذين القولين يكذب الآخر فيلزم الحاق الكذب باحدهما وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الانبياء عليهم السلام والجواب أن يحمل قوله انك لن تستطيع معى صبرا على الاكثر الاغلب وعلى هذا التقدير فلا يلزم ما ذكروه ﴿المسئلة الثانية﴾ لفظة ان كان كذا تفيد الشك فقوله ستجدنى ان شاء الله صابرا معناه ستجدنى صابرا ان شاء الله كونى صابرا وهذا يقتضى وقوع الشك فى أن الله هل يريد كونه صابرا أم لا ولا شك أن الصبر فى مقام التوقف واجب فهذا يقتضى ان الله تعالى قد لا يريد من العبد ما أوجبه عليه وهذا يدل على صحة قولنا ان الله تعالى قد يأمر بالشئ مع أنه لا يريده قالت المعتزلة هذه الكلمة انما تذكر رعاية للادب فيما يريد الانسان أن يفعله فى المستقبل فيقال لهم هذا الادب ان صح معناه فقد ثبت المطلوب وان فسد فأى أدب فى ذكر هذا الكلام الباطل ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله تعالى ولا أعصى لك أمرا يدل على ان ظاهر الامر يفيد الوجوب لان تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية والعاصى يستحق العقاب لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم وهذا يدل على أن ظاهر الامر يفيد الوجوب ﴿المسئلة الرابعة﴾ قول الخضر لموسى عليه السلام وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا نسبة الى قلة العلم والخبر وقول موسى له ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا تواضع شديد واظهار للتحمل التام والتواضع الشديد وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم اظهار التواضع باقصى الغايات وأما المعلم فان رأى ان فى التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم فى الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم ثم قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا أى لا تستخبرنى عما تراه منى مما لا تعلم وجهه حتى أكون أنا المبتدئ لتعليمك اياه واخبارك به وفى قراءة ابن عامر فلا تسألن محركة اللام مشددة

أى اللذائذ (فما اختلفوا) فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أوفى أمر محمد عليه الصلاة والسلام الا من بعد ما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب (فان كنت فى شك) أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شئ بشئ من غير تعرض لامكان شئ منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما (مما أنزلنا اليك) من القصص التى من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاحبار حسبما هو المسطور فى كتبهم وان لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ فى العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه

النون بغير ياء وروى عنه لا تسألني مثقلة مع الياء وهي قراءة نافع وفي قراءة الباقين لا تسألن خفيفة والمعنى واحد ۞ قوله تعالى ﴿فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا﴾ اعلم أن موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فركباها وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة وأقول لعله أقدم على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق الى أهلها فعند ذلك قال موسى له أخرقتها لتغرق أهلها وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ قرأ حمزة والكسائي ليغرق أهلها بفتح الياء على اسناد الغرق الى الاهل والباقون لتغرق أهلها على الخطاب والتقدير لتغرق أنت أهل هذه السفينة ﴿البحث الثاني﴾ ان موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الامر المنكر بحسب الظاهر نسي الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ما قال واحتج الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين (الاول) أنه ثبت بالدليل ان ذلك العالم كان من الانبياء ثم قال موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها فان صدق موسى في هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبي وان كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام (الثاني) انه التزم أن لا يعترض على ذلك العالم وجرت العهود المؤكدة لذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (والجواب عن الاول) انه لما شاهد موسى عليه السلام منه الامر الخارج عن العادة قال هذا الكلام لا لاجل انه اعتقد فيه أنه فعل قبيحا بل لانه أحب أن يقف على وجهه وسببه وقد يقال في الشيء العجيب الذي لا يعرف سببه انه أمر يقال أمر الامر اذا عظم وقال الشاعر * داهية دهياء (وعن الثاني) انه فعل بناء على النسيان ثم انه تعالى حكى عن ذلك العالم انه لما خالف الشرط لم يزد على أن قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا فعند هذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله لا تؤاخذني بما نسيت أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي بشيء ولا ترهقني من أمري عسرا يقال رهقه اذا غشيه وأرهقه اياه أي ولا تغشني من أمري عسرا وهو اتباعه اياه يعني ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين ۞ قوله تعالى ﴿فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا﴾ اعلم أن لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ بدليل أنه يقال رأى الشيخ خير من مشهد الغلام جعل الشيخ نقيضا للغلام وذلك يدل على أن الغلام هو الشاب وأصله من الاغتلام وهو شدة الشبق وذلك انما يكون في الشباب وأما تناول هذا اللفظ للصبي الصغير فظاهر وليس في القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان أو كان منفردا وهل كان مسلما أو كان كافرا وهل كان منعزلا وهل كان بالغا أو كان صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير أليق وان احتمل الكبير الا أن قوله بغير نفس أليق بالبالغ منه بالصبي لان الصبي لا يقتل وان قتل وأيضا فهل قتله بأن حز رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس في لفظ القرآن ما يدل على شيء من هذه الاقسام فعند هذا قال موسى عليه السلام أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا وفيه مباحث ﴿البحث الاول﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو زاكية بالالف والباقون زكية بغير ألف قال الكسائي الزاكية والزكية لغتان ومعناهما الطاهرة وقال أبو عمرو الزاكية التي لم تذنب والزكية التي أذنبت ثم تابت ﴿البحث الثاني﴾ ظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس الا لاجل القصاص بالنفس وليس الامر كذلك لانه قد يحل دمه بسبب من الاسباب وجوابه أن السبب الاقوى هو ذاك ﴿البحث الثالث﴾ النكر أعظم من الامر في القبح وهذا اشارة الى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة لان ذلك ما كان اتلافا للنفس لانه كان يمكن أن لا يحصل الغرق أما ههنا حصل الاتلاف قطعا فكان أنكر وقيل ان قوله لقد جئت شيأ امرا أي عجبا والنكر أعظم من العجب وقيل النكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس فهو أبلغ في تقبيح الشيء من الامر ومنهم من قال الامر أعظم قال لان

خرق

السلام لا أشك ولا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبي عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع أي ان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وقرئ فاسأل الذين يقرؤن الكتب (لقد جاءك الحق) الذي لا محيد عنه ولا ريب في حقيته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف ما لا يخفى (فلا تكونن من الممترين) لا تتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغي ان ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة (فتكونن) بذلك (من الخاسرين) أنفسا وأعمالا (ان الذين حقت عليهم) شروع في بيان سر اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال أي ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على

خرق السفينة يؤدى الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وأيضا الامر هو الداهية العظيمة فهو أبلغ من النكر وانه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه مازاد على أن ذكر ما عاهده عليه فقال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا وهذا عين ماذكره فى المسئلة الاولى الا أنه زاد ههنا لفظة لك لان هذه اللفظة تؤكد التوبيخ فعند هذا قال موسى ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته وهذا كلام نادم شديد الندامة ثم قال قد بلغت من لدنى عذرا والمراد منه أنه مدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة ❊ وبقى مما يتعلق بالقراءة فى هذه الآية ثلاثة مواضع (الاول) قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وأبو بكر عن عاصم نكرا بضم الكاف فى جميع القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان (الثانى) الكل قرؤا لا تصاحبنى بالالف الا يعقوب فانه قرأ لا تصحبنى من صحب والمعنى واحد (الثالث) فى لدنى قرآ آت (الاولى) قراءة نافع وأبى بكر فى بعض الروايات عن عاصم من لدنى بتخفيف النون وضم الدال (الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم لدنى مشددة النون وضم الدال (الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم بالاشمام وغير اشباع (الرابعة) لدنى بضم اللام وسكون الدال فى بعض الروايات عن عاصم وهذه القرآآت كلها لغات فى هذه اللفظة ۞ قوله تعالى ﴿فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا﴾ اعلم أن تلك القرية هى انطاكية وقيل هى الايلة وههنا سؤالات ﴿الاول﴾ ان الاستطعام ليس من عادة الكرام فكيف أقدم عليه موسى وذلك العالم لان موسى كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألا ترى أنه تعالى حكى عنه أنه قال فى قصة موسى عند ورود ماء مدين رب انى لما أنزلت الى من خير فقير (الجواب) أن اقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد ﴿السؤال الثانى﴾ لم قال حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها وكان من الواجب أن يقال استطعماهم (والجواب) ان التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائما ❊ كان الغراب مقطع الاوداج

﴿السؤال الثالث﴾ أن الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب وذلك أمر غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه انه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه مع ذلك العالم فى قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى وأيضا مثل هذا الغضب لاجل ترك الاكل فى ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلا عن كليم الله (الجواب) أما قوله الضيافة من المندوبات قلنا قد تكون من المندوبات وقد تكون من الواجبات بأن كان الضيف قد بلغ فى الجوع الى حيث لو لم يأكل لهلك واذا كان التقدير ماذكرنا لم يكن الغضب الشديد لاجل ترك الاكل يوما فان قالوا ما بلغ فى الجوع الى حد الهلاك بدليل أنه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا وكان يطلب على اصلاح ذلك الجدار أجرا ولو كان قد بلغ فى الجوع الى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل فكيف يصح منه طلب الاجرة ❊ قلنا لعل ذلك الجوع كان شديدا الا أنه ما بلغ حد الهلاك ثم قال تعالى فأبوا أن يضيفوهما وفيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ يضيفوهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفه وعن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما ﴿البحث الثانى﴾ رأيت فى كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله نشترى بهذا الذهب ان تجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما أى أتوا لان يضيفوهما أى كان اتيان أهل تلك القرية اليهما لاجل الضيافة وقالوا غرضنا منه أن يندفع عنا هذا اللؤم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله وذلك يوجب القدح فى الالهية فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة

الحكمة البالغة (كلمة ربك) حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم الى آخره (لا يؤمنون) أبدا اذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لان سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك (حتى يروا العذاب الاليم) كدأب آل فرعون وأضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة ايمان من حقت عليه كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرئ كذلك أى فهلا كانت (قرية) من القرى المهلكة (آمنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها ايمانها) بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها (الا قوم

من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ثم قال تعالى فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه أي فرأيا في القرية حائطا مائلا * فان قيل كيف يجوز وصف الجدار بالارادة مع أن الارادة من صفات الاحياء * قلنا هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة وله نظائر في الشعر

يريد الرمح صدر أبي براء * ويرغب عن دماء بني عقيل

وأنشد الفراء

ان دهرا يلف شملي بجمل * لزمان يهم بالاحسان

وقال الراعي

في مهمه قلقت به هاماتها * قلق الفؤس اذا أردن تصولا

ونظيره من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله أن يقول له كن فيكون وقوله قالتا أتينا طائعين وقوله أن ينقض يقال انقض اذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته وقيل انقض فعل من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ ان ينقض من النقض وان ينقاض من انقاضت العين اذا انشقت طولا وأما قوله فأقامه قيل نقضه ثم بناه وقيل أقامه بيده وقيل مسحه بيده فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته واعلم ان ذلك العالم لما فعل ذلك وكانت الحالة حالة اضطرار وافتقار الى الطعام فلا جل تلك الضرورة نسي موسى ما قاله من قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني فلا جرم قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا أي طلبت على عملك أجرة تصرفها الى تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرئ لتخذت عليه أجرا والتاء في تخذ أصل كما في تبع واتخذ افتعل منه كقولنا اتبع من قولنا تبع واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذا الكلام قال العالم هذا فراق بيني وبينك وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله هذا اشارة الى ماذا * والجواب من وجهين (الاول) ان موسى عليه السلام قد شرط انه ان سأله بعد ذلك سؤالا آخر يحصل الفراق حيث قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السؤال فارقه ذلك العالم وقال هذا فراق بيني وبينك أي هذا الفراق الموعود (الثاني) أن يكون قوله هذا اشارة الى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض هو سبب الفراق (السؤال الثاني) ما معنى قوله هذا فراق بيني وبينك (الجواب) معناه هذا فراق حصل بيني وبينك فاضيف المصدر الى الظرف حكى القفال عن بعض أهل العربية ان البين هو الوصل لقوله لقد تقطع بينكم فكان المعنى هذا فراق بيننا أي اتصالنا كقول القائل أخزى الله الكاذب مني ومنك أي أحدنا هكذا قاله الزجاج ثم قال العالم لموسى عليه السلام سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة وأصل التأويل راجع الى قولهم آل الامر الى كذا أي صار اليه فاذا قيل ما تأويله فالمعنى ما مصيره * قوله تعالى (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شئ واحد وهو أن أحكام الانبياء صلوات الله عليهم مبنية على الظواهر كما قال عليه السلام نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الحقيقية الواقعة في نفس الامر وذلك لان الظاهر انه يحرم التصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسئلة الاولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان تخريق السفينة تنقيص لملك الانسان من غير سبب ظاهر وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل في المسئلة الثالثة تحمل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر وفي هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم فيها مبنيا على الاسباب الظاهرة المعلومة بل كان ذلك الحكم مبنيا على أسباب معتبرة في نفس الامر وهذا يدل على ان ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها ان يشرف على بواطن الامور ويطلع بها على حقائق الاشياء فكانت

يونس) استثناء منقطع أي لكن قوم يونس (لما آمنوا) أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية (ومتعناهم) بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم (الى حين) مقدر لهم في علم الله سبحانه روي أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج وأظهروا الايمان

مرتبة موسى عليه السلام في معرفة الشرائع والاحكام بناء الامر على الظواهر وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الاشياء وحقائق الامور والاطلاع على أسرارها الكامنة فبهذا الطريق ظهران مرتبته في العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام اذا عرفت هذا فنقول المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو ان عند تعارض الضررين يجب تحمل الادنى لدفع الاعلى فهذا هو الاصل المعتبر في المسائل الثلاثة (أما المسئلة الاولى) فلان ذلك العالم علم أنه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها ذلك الملك وفاتت منافعها على ملاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها وبين أن لا يخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها ولا شك ان الضرر الاول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثاني الذي هو أعظمهما (وأما المسئلة الثانية) فكذلك لان بقاء ذلك الغلام حيا كان مفسدة للوالدين في دينهم وفي دنياهم ولعله علم بالوحي أن المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام أقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك المفاسد للابوين فلهذا السبب أقدم على قتله (والمسئلة الثالثة) أيضا كذلك لان المشقة الحاصلة بسبب الاقدام على اقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه لأنه لو سقط لضاع مال تلك الايتام وفيه ضرر شديد فالحاصل ان ذلك العالم كان مخصوصا بالوقوف على بواطن الاشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هي عليها في أنفسها وكان مخصوصا ببناء الاحكام الحقيقية على تلك الاحوال الباطنة وأما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الامور فلا جرم ظهر التفاوت بينهما في العلم ❊ فان قال قائل فحاصل الكلام انه تعالى أطلعه على بواطن الاشياء وحقائقها في نفسها وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه وموسى عليه السلام انما ذهب اليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب على ذلك العالم أن يظهر له علما يمكن له تعلمه وهذه المسائل الثلاثة علوم لا يمكن تعلمها فما الفائدة في ذكرها واظهارها ❊ والجواب ان العلم بظواهر الاشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة وأما العلم ببواطن الاشياء فانما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ولهذا المعنى قال تعالى في صفة علم ذلك العالم وعلمناه من لدنا علما ثم ان موسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة بعثه الله الى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام ان كمال الدرجة في أن ينتقل الانسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر الى علوم الباطن المبنية على الاشراف على البواطن والتطلع على حقائق الامور (المسئلة الثانية) اعلم ان ذلك العالم أجاب عن المسئلة الاولى بقوله أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان تلك السفينة كانت لاقوام محتاجين متعيشين بها في البحر والله تعالى سماهم مساكين واعلم ان الشافعي رحمه الله احتج بهذه الآية على أن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين لانه تعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (الفائدة الثانية) ان مراد ذلك العالم من هذا الكلام انه ما كان مقصودي من تخريق تلك السفينة تغريق أهلها بل مقصودي ان ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب فجعلت هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم فان ضرر هذا التخريق أسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب فان قيل وهل يجوز للاجنبي أن يتصرف في ملك الغير لمثل هذا الغرض قلنا هذا مما يختلف أحواله بحسب اختلاف الشرائع فلعل هذا المعنى كان جائزا في تلك الشريعة وأما في شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد فانا اذا علمنا ان الذين يقطعون الطريق ويأخذون جميع ملك الانسان فان دفعنا الى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقي فحينئذ يحسن منا أن ندفع بعض مال ذلك الانسان الى قاطع الطريق ليسلم الباقي وكان هذا منا يعد احسانا الى ذلك المالك (الفائدة الثالثة) ان ذلك التخريق وجب أن يكون واقعا على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية اذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها أبلغ من الضرر الحاصل من تخريقها وحينئذ لم يكن تخريقها جائزا (الفائدة الرابعة) لفظ الوراء في قوله وكان وراءهم فيه قولان (الاول) ان المراد منه وكان أمامهم ملك يأخذ هكذا قاله الفراء

والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحي حين لاحي وياحي محيي الموتى وياحي لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (ولو شاء ربك لآمن من في الارض) تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لا يكون في تعلقها به غرابة كما هو المشهور أي لو شاء سبحانه ايمان من في الارض من الثقلين لآمن (كلهم) بحيث لا يشذ عنهم أحد (جميعا) مجتمعين على الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التي عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لا محالة (أفأنت تكره الناس) على

ونظيره قوله تعالى من ورائهم جهنم أي امامهم وكذلك قوله تعالى ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وتحقيقه ان كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وأنت متوار عنه فكل ما غاب عنك فهو وراءك وامام الشئ وقدامه اذا كان غائبا عنه متواريا عنه فلم يبعد اطلاق لفظ وراء عليه (والقول الثاني) يحتمل أن يكون الملك كان من وراء الموضع الذي يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه ﴿وأما المسئلة الثانية﴾ وهي قتل الغلام فقد أجاب العالم عنها بقوله وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان أبواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير ذلك سببا لوقوعهما في الفسق وربما أدى ذلك الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا أن الله تعالى علم منه انه لو صار بالغا حصلت منه هذه المفاسد وقوله فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه وقوله أن يرهقهما طغيانا فيه قولان (الاول) أن يكون المراد ان ذلك الغلام يحمل أبويه على الطغيان والكفر كقوله ولا ترهقني من أمري عسرا أي لا تحملني على عسر وضيق وذلك لان أبويه لاجل حب ذلك الولد يحتاجان الى الذب عنه وربما احتاجا الى موافقته في تلك الافعال المنكرة (والثاني) أن يكون المعنى ان ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار فان قيل هل يجوز الاقدام على قتل الانسان لمثل هذا الظن قلنا اذا تأكد ذلك الظن بوحي الله جاز ثم قال تعالى فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة أي أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولدا خيرا من هذا الغلام زكاة أي دينا وصلاحا وقيل ان ذكر الزكاة ههنا على مقابلة قول موسى عليه السلام أقتلت نفسا زاكية بغير نفس فقال العالم أردنا أن يرزق الله هذين الابوين خيرا بدلا عن ابنهما هذا ولدا يكون خيرا منه كما ذكرته من الزكاة ويكون المراد من الزكاة الطهارة فكان موسى عليه السلام قال أقتلت نفسا طاهرة لانها ما وصلت الى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة عن المعاصي فقال العالم ان تلك النفس وان كانت زاكية طاهرة في الحال الا انه تعالى علم منها انها اذا بلغت اقدمت على الطغيان والكفر فأردنا أن يجعل لهما ولدا أعظم زكاة وطهارة منه وهو الذي يعلم الله منه أنه عند البلوغ لا يقدم على شئ من هذه المحظورات ومن قال ان ذلك الغلام كان بالغا قال المراد من صفة نفسه بكونها زاكية انه لم يظهر عليه ما يوجب قتله ثم قال وأقرب رحما أي يكون هذا البدل أقرب عطفا ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما والرحم الرحمة والعطف روى أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة عظيمة ويبقى من مباحث هذه الآية موضعان في القراءة (الاول) قرأ نافع وأبو عمرو يبدلهما بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك في التحريم أن يبدله أزواجا وفي القلم عسى ربنا أن يبدلنا والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال وهما لغتان أبدل يبدل وبدل يبدل (الثاني) قراءة ابن عامر في احدى الروايتين عن أبي عمرو رحما بضم الحاء والباقون بسكونها وهما لغتان مثل نكر ونكر وشغل وشغل ﴿وأما المسئلة الثالثة﴾ وهي اقامة الجدار فقد أجاب العالم عنها بان الداعي له اليها انه كان تحت ذلك الجدار كنز وكان ذلك ليتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحا ولما كان ذلك الجدار مشرفا على السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز فأراد الله ابقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح أبيهما فأمرني باقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح وفي الآية فوائد ﴿الفائدة الاولى﴾ انه تعالى لما سمى ذلك الموضع قرية حيث قال اذا أتيا أهل قرية وسماه أيضا مدينة حيث قال وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴿الفائدة الثانية﴾ اختلفوا في هذا الكنز فقيل انه كان مالا وهذا هو الصحيح لوجهين (الاول) ان المفهوم من لفظ الكنز هو المال (والثاني) ان قوله ويستخرجا كنزهما يدل على ان ذلك الكنز هو المال وقيل انه كان علما بدليل أنه قال وكان أبوهما صالحا والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال اذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم وقيل كان لوحا من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن

مالم يشأ الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع في الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم (حتى يكونوا مؤمنين) فيكون الانكار متوجها الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة في الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأي الجمهور وأيا ما كان فالمشيئة على اطلاقها اذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الالجاء خاصة في انكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفي ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بأن الاكراه أمر ممكن لكن الشأن في المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء في المشيئة كما أشير اليه (وما كان لنفس) بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلي عليها وجودا وعدما أي ما صح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى أنها تؤمن (ان تؤمن الا باذن الله) أي بتسهيله ومنحه للالطاف وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من

بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله (الفائدة الثالثة) قوله وكان أبوهما صالحا يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الابناء وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الاب الصالح سبعة آباء وعن الحسن بن علي انه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله مال الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه قال قد أنبأنا الله انكم قوم خصمون وذكروا أيضا ان ذلك الاب الصالح كان الناس يضعون الودائع اليه فيردها اليهم بالسلامة (فان قيل) اليتيمان هل عرف أحد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار أو ما عرف أحد منهما فان كان الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به (الجواب) لعل اليتيمين كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر العالم هذه الجوابات قال رحمة من ربك يعني انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما قررناه ثم قال وما فعلته عن أمري يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الاحوال عن أمري واجتهادي ورأيي وانما فعلته بأمر الله ووحيه لان الاقدام على تنقيص أموال الناس واراقة دمائهم لا يجوز الا بالوحي والنص القاطع * بقي في الآية سؤال وهو أنه قال فأردت أن أعيبها وقال فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وقال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما كيف اختلفت الاضافة في هذه الارادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة وفعل واحد (والجواب) انه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة نفسه فقال أردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما أضافه الى الله تعالى لان المتكفل بمصالح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا الله سبحانه وتعالى ۞ قوله تعالى ﴿ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شئ سببا فاتبع سببا﴾ اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا في أول هذه السورة أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح فالمراد من قوله ويسئلونك عن ذي القرنين هو ذلك السؤال (المسئلة الثانية) اختلف الناس في أن ذا القرنين من هو وذكروا فيه أقوالا (الاول) انه هو الاسكندر بن فيلقوس اليوناني قالوا والدليل عليه ان القرآن دل على ان الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه الى أقصى المغرب بدليل قوله حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة وأيضا بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله حتى اذا بلغ مطلع الشمس وأيضا بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل ان يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال وبدليل ان السد المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ انه مبني في أقصى الشمال فهذا الانسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على ان ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الارض ومثل هذا الملك البسيط لا شك انه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الدهر وأن لا يبقى مخفيا مستترا والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ انه بلغ ملكه الى هذا الحد ليس الا الاسكندر وذلك لانه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف الى أرمينية وباب الابواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات الى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الاسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات

قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي ما كان لنفس أن تؤمن في حال من أحوالها الا حال كونها ملابسة باذنه تعالى فلابد من كون الايمان مما يؤول اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لا محيص لها عنه فلابد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التي علم الله انها لا تؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها (ويجعل الرجس) أي الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذي هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما في القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدي اليه وقرئ بنون العظمة وقرئ بالزاي أي يجعل الكفر ويبقيه (على الذين لا يعقلون) لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التي عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ (قل) مخاطبا لمكة بمثالهم على التدبر في ملكوت السموات والارض وما فيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من

بها فلما ثبت بالقرآن ان ذا القرنين كان رجلا ملك الارض بالكلية أو ما يقرب منها وثبت بعلم التواريخ ان الذي هذا شأنه ما كان الا الاسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الاسكندر بن فيلقوس اليوناني ثم ذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوها (الاول) أنه لقب بهذا اللقب لاجل بلوغه قرني الشمس أي مطلعها ومغربها كما لقب أزدشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد (والثاني) ان الفرس قالوا ان دارا الاكبر كان قد تزوج بابنة فيلقوس فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على أبيها فيلقوس وكانت قد حملت منه بالاسكندر فولدت الاسكندر بعد عودها الى أبيها فبقي الاسكندر عند فيلقوس وأظهر فيلقوس انه ابنه وفي الحقيقة ابن دارا الاكبر قالوا والدليل عليه ان الاسكندر لما أدرك دارا ابن دارا وبه رمق وضع رأسه في حجره وقال لدارا يا أخي أخبرني عمن فعل هذا لانتقم لك منه فهذا ما قاله الفرس قالوا وعلى هذا التقدير فالاسكندر أبوه دارا الاكبر وأمه بنت فيلقوس فهو انما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم وهذا الذي قاله الفرس انما ذكروه لانهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لا يكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم وهو في الحقيقة كذب وانما قال الاسكندر لدارا يا أخي على سبيل التواضع واكرام دارا بذلك الخطاب (والقول الثاني) قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية قيل ان ذا القرنين هو أبو كرب شمس بن عبير بن افريقش الحميري فانه بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما * ملكا علا في الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب ملك من كريم سيد

ثم قال أبو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي كذا كذي النادو وذي نواس وذي النون وغير ذلك (والقول الثالث) انه كان عبدا صالحا ملكه الله الارض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وان كنا لا نعرف انه من هو ثم ذكروا في تسميته بذي القرنين وجوها (الاول) سأل ابن الكواء عليا رضي الله عنه عن ذي القرنين وقال أملك هو أم نبي فقال لا ملك ولا نبي كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الايمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الايسر فمات فبعثه الله فسمي بذي القرنين وملك ملكه (الثاني) سمي بذي القرنين لانه انقرض في وقته قرنان من الناس (الثالث) قيل كان صفحتا رأسه من نحاس (الرابع) كان على رأسه ما يشبه القرنين (الخامس) لتاجه قرنان (السادس) عن النبي صلى الله عليه وسلم سمي ذا القرنين لانه طاف قرني الدنيا يعني شرقها وغربها (السابع) كان له قرنان أي ضفيرتان (الثامن) ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من امامه وتمده الظلمة من ورائه (التاسع) يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا كأنه ينطح أقرانه (العاشر) رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها وجانبيها فسمي لهذا السبب بذي القرنين (الحادي عشر) سمي بذلك لانه دخل النور والظلمة (والقول الرابع) ان ذا القرنين ملك من الملائكة عن عمر انه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين فقال اللهم اغفر ما رضيتم ان تسموا باسماء الانبياء حتى تسموا باسماء الملائكة فهذا جملة ما قيل في هذا الباب والقول الاول أظهر لاجل الدليل الذي ذكرناه وهو ان مثل هذا الملك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الاسكندر فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو الا أن فيه اشكالا قويا وهو انه كان تلميذا ارسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بأن مذهب ارسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل اليه والله أعلم (المسألة الثالثة) اختلفوا في ذي القرنين هل كان من الانبياء أم لا منهم من قال انه كان نبيا واحتجوا عليه بوجوه (الاول) قوله انا مكنا له في الارض والاولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة (والثاني) قوله وآتيناه من كل شئ سببا ومن جملة الاشياء النبوة فمقتضى العموم في قوله وآتيناه من كل شئ سببا هو انه تعالى آتاه في النبوة سببا

الذين لا يعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا) أي تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى لام قل (ماذا في السموات والارض) أي اي شئ بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على ان ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا معلقا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذي والظرف صلته والجملة خبر للمبتدا وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر في محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق بالاستفهام (وما تغني) أي ما تنفع وقرئ بالتذكير (الآيات) وهي التي عبر عنها بقوله تعالى ماذا في السموات والارض (والنذر) جمع نذير على انه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أي لا تنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لا يؤمنون) في علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة اما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية في موضع النصب على المصدرية أي اي اغناء تغني الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) أي مشركو مكة وأضرابهم (الا مثل أيام الذين خلوا) أي الا يوما مثل أيام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركي الامم الماضية أي مثل وقائعهم ونزول بأس

(الثالث)

(الثالث) قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا والذى يتكلم الله معه لابد وأن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا وما كان نبيا ﴿المسئلة الرابعة﴾ فى دخول السين فى قوله سأتلو معناه انى سأفعل هذا ان وفقنى الله تعالى عليه وأنزل فيه وحيا وأخبرنى عن كيفية تلك الحال وأما قوله تعالى انا مكناله فى الارض فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث انه ملك مشارق الارض ومغاربها والاول أولى لان التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الاكمل الافضل أولى ثم قال وآتيناه من كل شئ سببا قالوا السبب فى أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به الى المقصود وهو يتناول العلم والقدرة والآلة فقوله وآتيناه من كل شئ سببا معناه أعطيناه من كل شئ من الامور التى يتوصل بها الى تحصيل ذلك الشئ ثم ان الذين قالوا انه كان نبيا قالوا من جملة الاشياء النبوة فهذه الآية تدل على انه تعالى أعطاه الطريق الذى به يتوصل الى تحصيل النبوة والذين أنكروا كونه نبيا قالوا المراد به وآتيناه من كل شئ يحتاج اليه فى اصلاح ملكه سببا الا أن لقائل أن يقول ان تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار اليه الا بدليل ثم قال فأتبع سببا ومعناه انه تعالى لما أعطاه من كل شئ سببه فاذا أراد شيأ أتبع سببا يوصله اليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فاتبع بتشديد التاء وكذلك ثم اتبع أى سلك وسار والباقون فأتبع بقطع الالف وسكون التاء مخففة ﴿قوله تعالى ﴿حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا﴾ اعلم ان المعنى انه أراد بلوغ المغرب فأتبع سببا يوصله اليه حتى بلغه أما قوله وجدها تغرب فى عين حمئة ففيه مباحث ﴿الاول﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى عين حامئة بالالف من غير همزة أى حارة وعن أبى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حامية وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر والباقون حمئة وهى قراءة ابن عباس واتفق ان ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بالف فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة والحمئة ما فيه ماء وحمأة سوداء واعلم انه لا تنافى بين الحمئة والحامية فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا ﴿البحث الثانى﴾ انه ثبت بالدليل ان الارض كرة وان السماء محيطة بها ولا شك ان الشمس فى الفلك وأيضا قال ووجد عندها قوما ومعلوم ان جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود وأيضا الشمس أكبر من الارض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الارض اذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب فى عين حمئة من وجوه (الاول) ان ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب ولم يبق بعده شئ من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب فى عين وهدة مظلمة وان لم تكن كذلك فى الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر اذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره (الثانى) ان للجانب الغربى من الارض مساكن يحيط البحر بها فالناظر الى الشمس يتخيل كأنها تغيب فى تلك البحار ولا شك ان البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية وهى أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله تغرب فى عين حمئة اشارة الى أن الجانب الغربى من الارض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة (الثالث) قال أهل الاخبار ان الشمس تغيب فى عين كثيرة الماء والحمأة وهذا فى غاية البعد وذلك لانا اذا أرصدنا كسوفا قمريا فاذا اعتبرناه ورأينا ان المغربيين قالوا حصل هذا الكسوف فى أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا حصل فى أول النهار فعلمنا ان أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثانى عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذى

الله بهم اذلا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها (قل) تهديدا لهم (فانتظروا) ما هو عاقبتكم (انى معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجى رسلنا) بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جئ به مسارعة الى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل أهلكنا الامم ثم ننجى رسلنا المرسلة اليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما فى قوله تعالى فنجيناه ومن معه فى الفلك الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الانجاء (حقا علينا) اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى (ننجى المؤمنين) أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والاتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان (قل) لجمهور المشركين (يا أيها الناس) أوثر الخطاب باسم

هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر ووقت الضحوة في بلد ثالث ووقت طلوع الشمس في بلد رابع ونصف الليل من بلد خامس واذا كانت هذه الاحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار وعلمنا ان الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الاوقات كان الذي يقال انها تغيب في الطين والحمأة كلاما على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق الا أن يصار الى التأويل الذي ذكرناه ثم قال تعالى ووجد عندها قوما الضمير في قوله عندها الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الشمس ويكون التأنيث للشمس لان الانسان لما تخيل ان الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس (والقول الثاني) أن يكون الضمير عائدا الى العين الحامية وعلى هذا القول فالتأويل ما ذكرناه ثم قال تعالى قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا وفيه مباحث (الاول) ان قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا يدل على انه تعالى تكلم معه من غير واسطة وذلك يدل على انه كان نبيا وحمل هذا اللفظ على ان المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الانبياء فهو عدول عن الظاهر (البحث الثاني) قال أهل الاخبار في صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة قال ابن جريج هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب (البحث الثالث) قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا يدل على ان سكان آخر المغرب كانوا كفارا فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم ان أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الامرين كما خير نبينا عليه الصلاة والسلام بين المن على المشركين وبين قتلهم وقال الاكثرون هذا التعذيب هو القتل وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء ثم قال ذو القرنين أما من ظلم أي ظلم نفسه بالاقامة على الكفر والدليل على أن هذا هو المراد أنه ذكر في مقابلته وأما من آمن وعمل صالحا ثم قال فسوف نعذبه أي بالقتل في الدنيا ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا أي منكرا فظيعا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم جزاء الحسنى بالنصب والتنوين والباقون بالرفع والاضافة فعلى القراءة الاولى يكون التقدير فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة وأما على القراءة الثانية ففي التفسير وجهان (الاول) فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الايمان والعمل الصالح (والثاني) أن يكون التقدير فله جزاء المثوبة الحسنى ويكون المعنى فله ذا الجزاء الذي هو المثوبة الحسنى والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وحق اليقين ثم قال وسنقول له من أمرنا يسرا أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما وتقديره ذا يسر كقوله قولا ميسورا وقرئ يسرا بضمتين ﴿قوله تعالى ﴿ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أولا أنه قصد أقرب الاماكن المسكونة من مغرب الشمس أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الاماكن المسكونة من مطلع الشمس فبين الله تعالى انه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا وفيه قولان (الاول) انه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم فلهذا السبب اذا طلعت الشمس دخلوا في اسراب واغلة في الارض أو غاصوا في الماء فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق (والقول الثاني) ان معناه انه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا ويقال في كتب الهيئة ان حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك وذكر في كتب التفسير أن بعضهم قال سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه الواحدة ويلبس الاخرى ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس اذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار

الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ اليهم (ان كنتم في شك من ديني) الذي
أتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ما هو وما صفته (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) في وقت من الاوقات (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أي فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما في كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الامر أو ان كنتم في شك من صحة ديني وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ما هو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لا ريب فيه وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشك في صحته وأما القطع بعدمها فما لا سبيل اليه أو ان كنتم في شك من ثباتي على الدين فاعلموا أني لا أتركه أبدا (وأمرت أن أكون من

جعلوا

جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج ثم قال تعالى كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا وفيه وجوه (الاول) أي كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الاسباب حتى بلغ ما بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به (والثاني) كذلك جعل الله أمر هؤلاء القوم على ما قد أعلم رسوله عليه الصلاة والسلام في هذا الذكر (والثالث) كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب قضى في هؤلاء كما قضى في اولئك من تعذيب الظالمين والاحسان الى المؤمنين والرابع أنه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى انه تعالى قال أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده وقد أحطنا بما لديه خبرا أي كنا عالمين بأن الامر كذلك ﴿ قوله تعالى ﴿ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما﴾ اعلم أن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب أتبع سببا آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الامور وههنا مباحث (الاول) قرأ حمزة والكسائي السدين بضم السين وسدا بفتحها حيث كان وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما في كل القرآن وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما في كل القرآن وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السدين وسدا ههنا بفتح السين فيهما وضمهما في يس في الموضعين قال الكسائي هما لغتان وقيل ما كان من صنعة بني آدم فهو السد بفتح السين وما كان من صنع الله فهو السد بضم السين والجمع سدود وهو قول أبي عبيدة وابن الانباري قال صاحب الكشاف السد بالضم فعل بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه والسد بالفتح مصدر حدث يحدثه الناس (البحث الثاني) الاظهر ان موضع السدين في ناحية الشمال وقيل جبلان بين أرمينية وبين اذربيجان وقيل هذا المكان في مقطع أرض الترك * وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه ان صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه انسانا اليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف انه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع وذكر ابن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك ان الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم فبعث بعض الخدم اليه ليعاينوه فخرجوا من باب الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ثم ان ذلك الانسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند قال أبو الريحان مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة والله أعلم بحقيقة الحال (البحث الثالث) ان ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما أي من ورائهما مجاوزا عنهما قوما أي أمة من الناس لا يكادون يفقهون قولا قرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف والمعنى انهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين ثم قال تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض (فان قيل) كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله بقوله لا يكادون يفقهون قولا (والجواب) أن نقول كاد فيه قولان (الاول) أن اثباته نفي ونفيه اثبات فقوله لا يكادون يفقهون قولا لا يدل على انهم لا يفهمون شيأ بل يدل على انهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة (والقول الثاني) ان كاد معناه المقاربة وعلى هذا القول فقوله لا يكادون يفقهون قولا أي لا يعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا وعلى هذا القول فلا بد من اضمار وهو أن يقال لا يكادون يفهمونه الا بعد تقريب ومشقة من اشارة ونحوها وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الاول في تفسير كاد (البحث الرابع) في يأجوج ومأجوج قولان (الاول) انهما اسمان أعجميان موضوعان بدليل منع الصرف (والقول الثاني) انهما مشتقان وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز وقرأ الباقون ياجوج وماجوج وقرئ في رواية آجوج ومأجوج والقائلون بكون هذين الاسمين مشتقين ذكروا وجوها (الاول) قال الكسائي يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها فلسرعتهم في الحركة سموا بذلك ومأجوج من موج البحر (الثاني)

المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحي وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوي والتوفيق الالهي وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وان يكون خاصا بفعل الامر كما في قوله
* أمرتك الخير فافعل ما أمرت به *
(وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا ضير في ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية في الموصول الاسمي انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهي لا توصف الا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفي كذلك أي وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهي عنه أو باستقبال القبلة في الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال (حنيفا) حال من الدين أو الوجه أي مائلا عن الاديان الباطلة (ولا تكونن من المشركين) عطف على أقم داخل تحت الامر أي لا تكونن منهم اعتقادا ولا عملا وقوله عز وعلا (ولا تدع) عطف على قوله تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الامر وقيل على ما قبله من النهي والوجه هو الاول لان ما بعده من

الجمل الى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد

أن يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته فلشدتهم فى الحركة سموا بذلك (الثالث) قال القتيبي هو مأخوذ من قولهم أج الظليم فى مشيه يئج أجا اذا هرول وسمعت حفيفه فى عدوه (الرابع) قال الخليل الأج حب كالعدس والمج مج الريق فيحتمل أن يكونا مأخوذين منهما واختلفوا فى انهما من أى الاقوام فقيل انهما من الترك وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة يكون طول أحدهم شبرا ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخاليب فى الأظفار وأضراسا كأضراس السباع واختلفوا فى كيفية افسادهم فى الارض فقيل كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيأ أخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الاقسام والله أعلم بمراده ثم انه تعالى حكى عن أهل ما بين السدين انهم قالوا لذى القرنين فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قرأ حمزة والكسائى خراجا والباقون خرجا قيل الخراج والخرج واحد وقيل هما أمران متغايران وعلى هذا القول اختلفوا قيل الخرج بغير ألف هو الجعل لان الناس يخرج كل واحد منهم شيأ منه فيخرج هذا أشياء وهذا أشياء والخراج هو الذى يجبيه السلطان كل سنة وقال الفراء الخراج هو الاسم الاصلى والخرج كالمصدر وقال قطرب الخرج الجزية والخراج فى الارض فقال ذو القرنين ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى أى ما جعلنى مكينا من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخرج فلا حاجة بى اليه وهو كما قال سليمان عليه السلام فما آتانى الله خير مما آتاكم قرأ ابن كثير ما مكننى بنونين على الاظهار والباقون بنون واحدة مشددة على الادغام ثم قال ذو القرنين فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما أى لا حاجة لى فى مالكم ولكن أعينونى برجال وآلة أبنى بها السد وقيل المعنى أعينونى بمال أصرفه الى هذا المهم ولا أطلب المال لآخذه لنفسى والردم هو السد يقال ردمت الباب أى سددته وردمت الثوب رقعته لانه يسد الخرق بالرقعة والردم أكثر من السد من قولهم ثوب مردوم أى وضعت عليه رقاع ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿ آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾ اعلم أن زبر الحديد قطعه قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة قراءة الجميع آتونى بمد الالف الا حمزة فانه قرأ ائتونى من الاتيان وقد روى ذلك عن عاصم والتقدير ائتونى بزبر الحديد ثم حذف الباء كقوله شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له وقوله حتى اذا ساوى بين الصدفين فيه اضمار أى فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين الى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا واعلم أن هذا معجز قاهر لان هذه الزبر الكثيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن الامع القرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها قال صاحب الكشاف قيل بعد ما بين السدين مائة فرسخ والصدفان بفتحتين جانبا الجبلين لانهما يتصادفان أى يتقابلان وقرئ الصدفين بضمتين والصدفين بضمة وسكون والقطر النحاس المذاب لانه يقطر وقوله قطرا منصوب بقوله أفرغ وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه ثم قال فما اسطاعوا فحذف التاء للخفة لان التاء قريبة المخرج من الطاء وقرئ فما اصطاعوا بقلب السين صادا أن يظهروه أى يعلوه أى ما قدروا على الصعود عليه لاجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لاجل صلابته وثخانته ثم قال ذو القرنين هذا رحمة من ربى فقوله هذا اشارة الى السد أى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته فاذا جاء وعد ربى يعنى فاذا دنا مجىء القيامة جعل السد دكا أى مدكوكا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك وقرئ دكاء بالمد أى أرضا مستوية وكان وعد ربى حقا وههنا آخر حكاية ذى القرنين ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم

للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ما عليه المشركون أى لا تدع (من دون الله) استقلالا ولا اشتراكا (ما لا ينفعك) اذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب (ولا يضرك) اذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فان فعلت) أى ما نهيت عنه من دعاء ما لا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية (فانك اذا من الظالمين) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه (وان يمسسك الله بضر) تقرير لما أورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه (فلا كاشف له) عنك كائنا من كان وما كان (الا هو) وحده فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع

فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ اعلم أن الضمير في قوله بعضهم عائد الى يأجوج ومأجوج وقوله يومئذ فيه وجوه (الاول) ان يوم السد ماج بعضهم في بعض خلفه لما منعوا من الخروج (الثاني) ان عند الخروج يموج بعضهم في بعض قيل انهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين في البلاد يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون (والقول الثالث) ان المراد من قوله يومئذ يوم القيامة وكل ذلك محتمل الا أن الاقرب أن المراد الوقت الذي جعل الله ذلك السد دكا فعنده ماج بعضهم في بعض وبعده نفخ في الصور وصار ذلك من آيات القيامة والكلام في الصور قد تقدم وسيجيء من بعد وأما عرض جهنم وابرازه حتى يصير مكشوفا بأهواله فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم وبين تعالى أنه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا أما العمى فهو المراد من قوله كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق وأما الصمم فهو المراد من قوله وكانوا لا يستطيعون سمعا يعني ان حالهم أعظم من الصمم لان الاصم قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة واحتج الاصحاب بقوله وكانوا لا يستطيعون سمعا على ان الاستطاعة مع الفعل وذلك لانهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا قال القاضي المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم اياه كقول الرجل لا أستطيع النظر الى فلان ﴿ قوله تعالى ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما بين من حال الكافرين انهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به الرسول أتبعه بقوله أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء والمراد أفظنوا انهم ينتفعون بما عبدوه مع اعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله وهو استفهام على سبيل التوبيخ ﴿المسألة الثانية﴾ قرأ أبو بكر ولم يرفعه الى عاصم أفحسب الذين كفروا بسكون السين ورفع الباء وهي من الاحرف التي تخالف فيها عاصما وذكر انه قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعلى هذا التقدير فقوله حسب مبتدأ أن يتخذوا خبره والمعنى أفكافيهم وحسبهم أن يتخذوا كذا وكذا وأما الباقون فقرؤا أفحسب على لفظ الماضي وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادي أولياء نافعا ﴿المسألة الثالثة﴾ في العباد أقوال قيل أراد عيسى والملائكة وقيل هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم وقيل هي الاصنام سماهم عبادا كقوله عباد أمثالكم ثم قال تعالى انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا وفي النزل قولان (الاول) قال الزجاج انه المأوى والمنزل (والثاني) أنه الذي يقام للنزيل وهو الضيف ونظيره قوله فبشرهم بعذاب أليم ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا قيل انهم هم الرهبان كقوله تعالى عاملة ناصبة وعن مجاهد أهل الكتاب وعن علي أن ابن الكواء سأله عنهم فقال هم أهل حروراء والاصل أن يقال هو الذي يأتي بالاعمال يظنها طاعات وهي في أنفسها معاصي وان كانت طاعات لكنها لا تقبل منهم لاجل كفرهم فأولئك انما أتوا تلك الاعمال لرجاء الثواب وانما أتعبوا أنفسهم فيها لطلب الاجر والفوز يوم القيامة فاذا لم يفوزوا بمطالبهم تبين انهم كانوا ضالين ثم انه تعالى بين صنعهم فقال أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم وفيه مسئلتان ﴿المسألة الاولى﴾ لقاء الله عبارة عن رؤيته بدليل انه يقال لقيت فلانا أي رأيته فان قيل اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك في حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله والجواب ان لفظ اللقاء وان كان في الاصل عبارة عن الوصول والملاقاة الا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقولونه من ان المراد

بالكلية (وان يردك بخير) تحقيق لسلب الضر الوارد في حيز الصلة أي ان يرد أن يصيبك بخير (فلا راد لفضله) الذي من جملته ما أرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أي لا أحد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا أوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للايذان بأن الخير مراد بالذات وأن الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعي الخارجية لا بالقصد الاولي أو أريد معنى الفعلين في كل من الضر والخير وانه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر في أحدهما المس وفي الآخر الارادة ليدل بما ذكر في كل جانب على ما ترك في الجانب الآخر على أنه قد صرح بالاصابة حيث قيل (يصيب به) اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه أي يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من

منه لقاء ثواب الله فهو لا يتم الا بالاضمار ومن المعلوم ان حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج معه الى الاضمار ﴿المسئلة الثانية﴾ استدلت المعتزلة بقوله تعالى فحبطت أعمالهم على أن القول بالاحباط والتكفير حق وهذه المسئلة قد ذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة فلا نعيدها ثم قال تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وفيه وجوه (الاول) انا نزدرى بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار (الثانى) لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين لتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت (الثالث) قال القاضى ان من غلبت معاصيه صار ما فى فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل فى الوزن شئ من طاعته وهذا التفسير بناء على قوله بالاحباط والتكفير ثم قال تعالى ذلك جزاؤهم جهنم فقوله ذلك أى ذلك الذى ذكرناه وفصلناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة وقوله جهنم عطف بيان لقوله جزاؤهم ثم بين تعالى ان ذلك الجزاء جزاء على مجموع أمرين (أحدهما) كفرهم (الثانى) أنهم أضافوا الى الكفر أن اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزوا فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزؤا بهم ﴿قوله تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد ولما ذكر فى الكفار ان جهنم نزلهم أتبعه بذكر ما رغب فى الايمان والعمل الصالح فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴿المسئلة الثانية﴾ عطف عمل الصالحات على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وذلك يدل على أن الاعمال الصالحة مغايرة للايمان ﴿المسئلة الثالثة﴾ عن قتادة الفردوس وسط الجنة وأفضلها وعن كعب ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن مجاهد الفردوس هو البستان بالرومية وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ومنها الانهار الاربعة والفردوس من فوقها فاذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فان فوقها عرش الرحمن ومنها تتفجر أنهار الجنة ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال بعضهم انه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلا للمؤمنين والكريم اذا أعطى النزل أولا فلا بد أن يتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها الا رؤية الله فان قالوا أليس انه تعالى جعل فى الآية الاولى جملة جهنم نزلا للكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر فكذلك ههنا جعل جملة الجنة نزلا للمؤمنين مع انه ليس له شئ آخر بعد الجنة (والجواب) قلنا للكافر بعد حصول جهنم مرتبة أعلى منها وهو كونه محجوبا عن رؤية الله كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فجعل الصلاء بالنار متأخرا فى المرتبة عن كونه محجوبا عن الله ثم قال تعالى لا يبغون عنها حولا الحول التحول يقال حال من مكانه حولا كقوله عاد فى حبها عودا يعنى لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد أشياء غيرها وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لان الانسان فى الدنيا اذا وصل الى أى درجة كانت فى السعادات فهو طامح الطرف الى ما هو أعلى منه ﴿قوله تعالى ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر فى هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين نبه على كمال حال القرآن فقال قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس لنفد قبل أن تنفد الكلمات وتقرير الكلام ان البحار كيفما فرضت فى الاتساع والعظمة فهى متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى قرأ حمزة والكسائى ينفد بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات الله وروى ان حيى بن أخطب قال فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت هذه الآية يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر

باب وضع المظاهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل (من يشاء من عباده) فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا (وهو الغفور الرحيم) تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها (قل) مخاطبا لاولئك الكفرة بعد ما بلغتهم ما أوحى اليك (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الاحكام التى من جملتها ما مر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما فى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) بالايمان به والعمل بما فى مطاويه (فانما يهتدى لنفسه) أى منفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عنه (فانما يضل عليها) أى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو دفع ضر كما يلوح به اسناد المجىء الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير (واتبع) اعتقادا وعملا وتبليغا (ما يوحى اليك) على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه اليهم بالمجىء واليه عليه السلام

كلمات

كلمات الله ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج المخالفون على الطعن في قول أصحابنا ان كلام الله تعالى واحد بهذه الآية وقالوا انها صريحة في اثبات كلمات الله تعالى وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى قال الجبائي وأيضا قوله تعالى قبل أن تنفد كلمات ربي يدل على أن كلمات الله تعالى قد تنفد في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه وأيضا قال ولو جئنا بمثله مددا وهذا يدل على انه تعالى قادر على أن يجيء بمثل كلامه والذي يجاء به يكون محدثا والذي يكون المحدث مثلا له فهو أيضا محدث وجواب أصحابنا ان المراد منه الالفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الازلية ❊ واعلم أنه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يسلك طريقة التواضع فقال قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات الا أن الله تعالى أوحى الي أنه لا اله الا الله الواحد الاحد الصمد والآية تدل على مطلوبين (الاول) ان كلمة انما تفيد الحصر وهي قوله أنما الهكم اله واحد (والثاني) ان كون الاله تعالى الها واحدا يمكن اثباته بالدلائل السمعية وقد قررنا هذين المطلوبين في سائر السور بالوجوه القوية ثم قال فمن كان يرجو لقاء ربه والرجاء هو ظن المنافع الواصلة اليه والخوف ظن المضار الواصلة اليه وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة قد تقدمت والعجب انه تعالى أورد في آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله في ثلاث آيات (أولها) قوله أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه (وثانيها) قوله كانت لهم جنات الفردوس نزلا (وثالثها) قوله فمن كان يرجو لقاء ربه ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال فليعمل عملا صالحا أي من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لا جرم اعتبر فيه قيدان أن يؤتى به لله وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك فقال ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ❊ قيل نزلت هذه الآية في جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني أعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه أحد سرني فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لا يقبل ما شورك فيه وروى أيضا أنه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية فالرواية الاولى محمولة على ما اذا قصد بعمله الرياء والسمعة والرواية الثانية محمولة على ما اذا قصد أن يقتدى به والمقام الاول مقام المبتدئين والمقام الثاني مقام الكاملين والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ❊ قال المصنف رضي الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة اثنتين وستمائة في بلدة غزنين ونسأل الله أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين أن يخصنا بالمغفرة والفضل في يوم الدين انه ذو الفضل العظيم

﴿سورة مريم عليها السلام ثمان وتسعون آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿كهيعص﴾ قبل الخوض في القراآت لابد من مقدمات ثلاثة ﴿المقدمة الاولى﴾ ان حروف المعجم على نوعين ثنائي وثلاثي وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا با تا ثا وكذلك أمثالها وأن ينطقوا بالثلاثيات التي في وسطها الالف مفتوحة مشبعة فيقولوا دال ذال صاد ضاد وكذلك اشكالها أما الزاي وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الامران فان من أظهر ياءه في النطق حتى يصير ثلاثيا لم يمله ومن لم يظهر ياءه في النطق حتى يشبه الثنائي يمله ﴿أما المقدمة الثانية﴾ ينبغي أن يعلم أن اشباع الفتحة في جميع المواضع أصل والامالة فرع عليه ولهذا يجوز اشباع كل ممال ولا يجوز امالة كل مشبع من المفتوحات ﴿المقدمة الثالثة﴾ للقراء في القراآت المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق (أحدها) أن يتمسكوا بالاصل وهو اشباع فتحة الهاء والياء (وثانيها) أن يميلوا الهاء والياء (وثالثها) أن يجمعوا بين الاصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا أحدهما أيهما كان ويكسروا الآخر ولهم في السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان (الاول) ان الفتحة المشبعة أصل والامالة فرع مشهور كثير

بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائي (واصبر) على ما يعتريك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالنصرة عليهم أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر ❊ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطي له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

﴿سورة هود عليه السلام مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر) محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه مبتدأ والاول هو الاظهر كما أشير اليه في سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر أو لا محل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل في أخواته وقوله تعالى (كتاب) خبر له على الوجه الثاني والمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية (أحكمت آياته) نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكمة البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ يعني التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات

الاستعمال فاشبع أحدهما وأميل الآخر ليكون جامعا للمراعاة الاصل والفرع وهو أحسن من مراعاة أحدهما وتضييع الآخر (القول الثانى) ان الثنائية من حروف المعجم اذا كانت مقطوعة كانت بالامالة واذا كانت موصولة كانت بالاشباع وهاو يا فى قوله تعالى كهيعص مقطوعان فى اللفظ موصولان فى الخط فأميل أحدهما واشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيا جانب القطع اللفظى وجانب الوصل الخطى اذا عرفت هذا فنقول فيه قرا آت (احداها) وهى القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعا (وثانيها) كسر الهاء وفتح الياء وهى قراءة أبى عمرو وابن مبادر والقطعى عن أيوب وانما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقا بينه وبين الهاء الذى للتنبيه فانه لا يكسر قط (وثالثها) فتح الهاء وكسر الياء وهو قراءة حمزة والاعمش وطلحة والضحاك عن عاصم وانما كسروا الياء دون الهاء لان الياء أخت الكسرة واعطاء الكسرة أختها أولى من اعطائها الى أجنبية مفتوحة للمناسبة (ورابعها) امالتهما جميعا وهو قراءة الكسائى والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهرى وابن جرير وانما أمالوهما للوجهين المذكورين فى امالة الهاء وامالة الياء (وخامسها) قراءة الحسن وهى ضم الهاء وفتح الياء وعنه أيضا فتح الهاء وضم الياء وروى صاحب الكشاف عن الحسن بضمهما فقيل له لم تثبت هذه الرواية عن الحسن لانه أورد ابن جنى فى كتاب المكتسب ان قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين وقال بعضهم انما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لانه تصوّر أن عين الفعل فى الهاء والياء ألف منقلب عن الواو كالدار والمال وذلك لان هذه الالفات وان كانت مجهولة لانها لا اشتقاق لها فانها تحمل على ما هو مشابه لها فى اللفظ والالف اذا وقع عينا فالواجب أن يعتقد انه منقلب عن الواو لان الغالب فى اللغة ذلك فلما تصوّر الحسن ان ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله فى حكم الواو وضم ما قبله لان الواو أخت الضمة (وسادسها) هايا باشمامهما شيأ من الضمة ﴿المسألة الثانية﴾ قرأ أبو جعفر كهيعص بفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع اظهار نون العين وباقى القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون ﴿المسألة الثالثة﴾ القراءة المعروفة صاد ذكر بالادغام وعن عاصم ويعقوب بالاظهار ﴿البحث الثانى﴾ المذاهب المذكورة فى هذه الفواتح قد تقدمت لكن الذى يختص بهذا الموضع ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى كهيعص ثناء من الله على نفسه فمن الكاف وصفه بانه كاف ومن الهاء هاد ومن العين عالم ومن الصاد صادق وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا أنه حمل الكاف على الكبير والكريم ويحكى أيضا عنه انه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى وعن الربيع بن أنس فى الياء انه من مجير وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى العين أنه من عزيز ومن عدل وهذه الاقوال ليست قوية لما بينا أنه لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز لانا ان جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم ان لكل ظاهر باطنا واللغة لا تدل على ما ذكروه فانه ليست دلالة الكاف على الكافى أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم أو الملائكة أو الجنة أو النار فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لا تدل عليه اللغة أصلا ﴿قوله تعالى ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ فيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ فى لفظة ذكر أربع قرا آت صيغة المصدر أو الماضى مخففة أو مشددة أو الامر أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر رحمة ربك على الاضافة ثم فيها ثلاثة أوجه (أحدها) نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور (وثانيها) برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هى عبده زكرياء عن ابن عامر (وثالثها) بنصب الاول وبرفع الثانى والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء وأما صيغة الماضى بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة وأما صيغة الماضى بالتخفيف ففيها وجهان (أحدهما) رفع الباء من ربك والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء (وثانيها) نصب الباء من ربك والرفع فى عبده زكرياء وذلك بتقديم المفعول على الفاعل وهاتان القراءتان للكلبى وأما صيغة الامر فلا بد من نصب رحمة وهى قراءة ابن عباس واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضى يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر

جميعها أو على حقيقة ما تشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لا سيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى أقصى غاية منه ما لا يخفى (ثم فصلت) أى جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لا يساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية لها فلا يناسب عطفه على احكامها بكلمة التراخى وأما المعنيان الاولان فهما وان كانا من الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد ان لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل الا انهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها وبملاحظة مصالح العباد ناسب

رحمة ربك ﴿المسئلة الثانية﴾ يحتمل أن يكون المراد من قوله رحمة ربك أعني عبده زكريا ثم في كونه رحمة وجهان (أحدهما) أن يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعات (والآخر) أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمة محمد لان الله تعالى لما شرح لمحمد صلى الله عليه وسلم طريقه في الاخلاص والابتهال في جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لفظا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة و يحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكريا ﴿ قوله تعالى ﴿اذ نادى ربه نداء خفيا﴾ راعى سنة الله في اخفاء دعوته لان الجهر والاخفاء عند الله سيان فكان الاخفاء أولى لانه أبعد عن الرياء وأدخل في الاخلاص (وثانيها) اخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة (وثالثها) أسره من مواليه الذين خافهم (ورابعها) خفي صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات فان قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا والجواب من وجهين (الاول) انه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان الصوت كان ضعيفا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى قصده وخفيا نظرا الى الواقع (الثاني) انه دعا في الصلاة لان الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى فكون الاجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء في الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفيا ﴿ قوله تعالى ﴿قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني و يرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾ القراءة فيها مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرئ وهن بالحركات الثلاث ﴿المسئلة الثانية﴾ ادغام السين في الشين عن أبي عمرو ﴿المسئلة الثالثة﴾ واني خفت الموالي بفتح الياء وعن الزهري باسكان الياء من الموالي وقرأ عثمان وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس خفت بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء وهذا يدل على معنيين (أحدهما) أن يكون ورائي بمعنى بعدي والمعنى انهم قلوا وعجزوا عن اقامة الدين بعده فسأل ربه تقويتهم بولي يرزقه (والثاني) أن يكون بمعنى قدامي والمعنى انهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تقو واعتضاد ﴿المسئلة الرابعة﴾ القراءة المعروفة من ورائي بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وعن ابن مقسم كذلك لكن بفتح الياء وقرأ ابن كثير وراي كعصاي ﴿المسئلة الخامسة﴾ في يرثني و يرث وجوه (أحدها) القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة (وثانيها) وهي قراءة أبي عمرو والكسائي والزهري والاعمش وطلحة بالجزم فيهما جوابا للدعاء (وثالثها) عن علي بن أبي طالب وابن عباس و جعفر بن محمد والحسن وقتادة يرثني جزم وارث بوزن فاعل (ورابعها) عن ابن عباس يرثني وارث من آل يعقوب (وخامسها) عن الجحدري أو يرث تصغير وارث على وزن أفيعل ﴿اللغة﴾ الوهن ضعف القوة قال في الكشاف شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه كل مأخذ كاشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الاجابة كما ان مقابل الامر الطاعة وأما أصل التركيب في ولي فيدل على معنى القرب والدنو يقال وليته أليه وليا أي دنوت وأوليته أدنيته منه وتباعد ما بعد وولي ومنه قول ساعدة ✲ وعدت عواد دون وليك تشعب ✲ وكل مما يليك وجلست مما يليه ومنه الولي وهو المطر الذي يلي الوسمي والولية البرذعة لانها تلي ظهر الدابة وولي اليتيم والقتيل وولي البلد لان من تولى أمرا فقد قرب منه وقوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام من قولهم ولاه ركنه أي جعله مما يليه وأما ولي عني اذا أدبر فهو من باب تثقيل الحشو للسلب وقولهم فلان أولى من فلان أي أحق افعل التفضيل من الوالي أو الولي كالادنى والاقرب من الداني والقريب وفيه معنى القرب أيضا لان من كان أحق بالشئ كان أقرب اليه والمولى اسم لموضع الولي كالمرمى والمبنى اسم لموضع الرمي والبناء وأما العاقر فهي التي لا تلد والعقر في اللغة الجرح ومنه أخذ العاقر لانه نقص أصل

أن يشار الى تراخي رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل الا انه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه من الاحكام والآثار أو فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخي زماني وان أريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبي لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها وقرئ أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أي فرقت بين الحق والباطل (من لدن حكيم خبير) صفة للكتاب وصف بها بعد ما وصف باحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفي بنائهما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمي وربطهما به لا على النهج المعهود في اسناد الافاعيل الى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على أكمل ما يكون ما لا يكتنه كنهه (ألا تعبدوا الا الله) مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعني كونه فعلا لفاعل الفعل

الحلقة وعقرت الفرس بالسيف اذا ضربت قوائمه وأما الآل فهم خاصة الرجل الذي يؤول أمرهم اليه ثم قد يؤول أمرهم اليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى كآل فرعون وللموافقة في الدين كآل النبي صلى الله عليه وسلم واعلم ان زكريا عليه السلام قدم على السؤال أمورا ثلاثة (أحدها) كونه ضعيفا (والثاني) ان الله تعالى ما رد دعاءه البتة (والثالث) كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة في الدين ثم بعد تقرير هذه الامور الثلاثة صرح بالسؤال (أما المقام الاول) وهو كونه ضعيفا فاذا أثر الضعف اما ان يظهر في الباطن أو في الظاهر والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله وهن العظم مني وتقريره هو أن العظام أصلب الاعضاء التي في البدن وجعلت كذلك لمنفعتين (احداهما) لأن تكون أساسا وعمدا يعتمد عليها سائر الاعضاء الاخر اذ كانت الاعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول (والثانية) انه احتيج اليها في بعض المواضع لان تكون جنة يقوى بها ما سواها من الاعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر وما كان كذلك فيجب أن يكون صلبا ليكون صبورا على ملاقاة الآفات بعيدا من القبول لها اذا ثبت هذا فنقول اذا كان العظم أصلب الاعضاء فمتى وصل الامر الى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى ولأن العظم اذا كان حاملا لسائر الاعضاء كان تطرق الضعف الى الحامل موجبا لتطرقه الى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الاعضاء وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر وذلك مما يزيد الدعاء توكيدا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبري عن الاسباب الظاهرة (المقام الثاني) انه ما كان مردود الدعاء البتة ووجه التوسل به من وجهين (أحدهما) ما روى أن محتاجا سأل واحدا من الاكابر وقال أنا الذي أحسنت الى وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا الينا ثم قضى حاجته وذلك انه اذا قبله أولا فلو انه رده ثانيا لكان الرد محبطا للانعام الاول والمنعم لا يسعى في احباط انعامه (والثاني) وهو ان مخالفة العادة شاقة على النفس فاذا تعود الانسان اجابة الدعاء فلو صار مردودا بعد ذلك لكان في غاية المشقة ولان الجفاء ممن يتوقع منه الانعام يكون أشق فقال زكريا عليه السلام انك ما رددتني في أول الامر مع اني ما تعودت لطفك وكنت قوي البدن قوي القلب فلو رددتني الآن بعد ما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك بالغا الى الغاية القصوى في ألم القلب واعلم أن العرب تقول سعد فلان بحاجته اذا ظفر بها وشقي بها اذا خاب ولم ينلها ومعنى بدعائك أي بدعائي اياك فان الفعل قد يضاف الى الفاعل تارة والى المفعول أخرى (المقام الثالث) بيان كون المطلوب منتفعا به في الدين وهو قوله واني خفت الموالي من ورائي وفيه ابحاث (الاول) قال ابن عباس والحسن اني خفت الموالي أي الورثة من بعدي وعن مجاهد العصبة وعن أبي صالح الكلالة وعن الاصم بنو العم وهم الذين يلونه في النسب وعن أبي مسلم المولى يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من يقوم بميراثه مقام الولد والمختار أن المراد من الموالي الذين يخلفون بعده اما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية ان كل من كان الى صاحب الشرع أقرب فانه كان متعينا في الحياة (الثاني) اختلفوا في خوفه من الموالي فقال بعضهم خافهم على افساد الدين وقال بعضهم بل خاف أن ينتهي أمره اليهم بعد موته في مال وغيره مع انه عرف من حالهم قصورهم في العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب وفيه قول ثالث وهو انه يحتمل ان يكون الله تعالى قد أعلمه انه لم يبق من أنبياء بني اسرائيل نبي له أب الا واحد فخاف أن يكون ذلك من بني عمه اذ لم يكن له ولد فسأل الله تعالى أن يهب له ولدا يكون هو ذلك النبي وذلك يقتضي أن يكون خائفا من أمر يهتم بمثله الانبياء وان لم يدل على تفصيل ذلك ولا يمتنع أن زكريا كان اليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالامامة فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما أما قوله واني خفت فهو وان خرج على لفظ الماضي لكنه يفيد انه في المستقبل أيضا كذلك يقول الرجل قد خفت أن يكون كذا وخشيت أن يكون كذا أي

العامل جريا على سنن القياس المطرد في حذف حرف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله أي اتركوا عبادة غير الله عز وجل وتمحضوا في عبادته فان الاحكام والتفصيل على ما فصل من المعاني مما يدعوهم الى الايمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أي قيل لا تعبدوا الا الله (انني لكم منه) من جهة الله تعالى (نذير) أنذركم عذابه ان لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى (وبشير) أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم في عبادته ولما ذكر شؤون الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما انتظم في سلك الغاية والامر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه أعني الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بأن التوحيد في أقصى مراتب الاهمية حتى أفرد بالذكر وأيد ايجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لا يتحقق في نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك في الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر وقد روعي في سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ما روعي في الكتاب

أنا خائف لا بد أنه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله وكانت امرأتي عاقرا أي أنها عاقر في الحال وذلك لأن العاقر لا تحول ولودا في العادة ففي الاخبار عنه بلفظ الماضي اعلام بتقادم العهد في ذلك وغرض زكرياء من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان ايراده بلفظ الماضي أقوى والى هذا يرجع الامر في قوله واني خفت الموالي من ورائي لانه انما قصد به الاخبار عن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسئلة الوارث واظهار الحاجة عن الاخبار بوجود الخوف في الحال وأيضا فقد يوضع الماضي مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس والله أعلم وأما قوله من ورائي ففيه قولان (الاول) قال أبو عبيدة أي قدامي وبين يدي وقال آخرون أي بعد موتي وكلاهما محتمل فان قيل كيف خافهم من بعده وكيف علم أنهم يبقون بعده فضلا من أن يخاف شرهم قلنا ان ذلك قد يعرف بالامارات والظن وذلك كاف في حصول الخوف فربما عرف ببعض الامارات استمرارهم على عادتهم في الفساد والشر واختلف في تفسير قوله فهب لي من لدنك وليا فالاكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولدا كان أو غيره والاقرب هو الاول لثلاثة أوجه (الاول) قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة (والثاني) قوله في هذه السورة هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب (والثالث) قوله تعالى في سورة الانبياء وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وهذا يدل على أنه سأل الولد لانه قد أخبر في سورة مريم أن له موالي وأنه غير منفرد عن الورثة وهذا وان أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه لكن حمله على الولد أظهر واحتج أصحاب القول الثالث بأنه لما بشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال أنى يكون لي غلام ولو كان دعاؤه لاجل الولد لما استعظم ذلك (الجواب) أنه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد وهذا يحكى عن الحسن وقال غيره ان قول زكرياء عليه السلام في الدعاء وكانت امرأتي عاقرا انما هو على معنى مسئلته ولدا من غيرها أو منها بأن يصلحها الله للولد فكأنه عليه السلام قال اني أيست أن يكون لي منها ولد فهب لي من لدنك وليا كيف شئت اما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن تهب لي من غيرها فلما بشر بالغلام سأل أيرزق منها أو من غيرها فأخبر بأنه يرزق منها واختلفوا في المراد بالميراث على وجوه (أحدها) أن المراد بالميراث في الموضعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك (وثانيها) أن المراد به في الموضعين وراثة النبوة وهو قول أبي صالح (وثالثها) يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدي ومجاهد والشعبي وروي أيضا عن ابن عباس والحسن والضحاك (ورابعها) يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروي عن مجاهد واعلم أن هذه الروايات ترجع الى أحد أمور خمسة وهي المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الارث مستعمل في كلها أما في المال فلقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما في العلم فلقوله تعالى ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب وقال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وقال تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة وقد يقال أورثني هذا غما وحزنا وقد ثبت أن اللفظ محتمل لتلك الوجوه واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول أما الخبر فقوله عليه السلام رحم الله زكريا ما كان له من يرثه وظاهره يدل على أن المراد ارث المال وأما المعقول فمن وجهين (الاول) ان العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل الا بالاكتساب فوجب حمله على المال (الثاني) أنه قال واجعله رب رضيا ولو كان المراد من الارث ارث النبوة لكان قد سأل جعل النبي صلى الله عليه وسلم رضيا وهو غير جائز لان النبي لا يكون الا رضيا معصوما وأما قوله عليه السلام انا معشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة فهذا لا يمنع أن يكون خاصا به واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الانبياء ان اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين وقيل لعله أوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في

من تقديم النفي على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أي الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا انني لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أي نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير ترككم له وتوحيدكم ولما سبق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع في ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل في وصف البشير والنذير فقيل (وأن استغفروا ربكم) وهو معطوف على أن لا تعبدوا على ما ذكر من الوجهين فعلى الاول أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أو نهيا كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفا لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهي لا توصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفي فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهي صلة

الدين فاهذا كان مهتمابه أماقوله النبوة كيف تورث قلنا المال انما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ماحصل لابيه والا فذلك المال من قبل الله لامن قبل الموت فكذلك اذا كان المعلوم فى الابن أن يصير نبيا بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أماقوله عليه السلام انامعشر الانبياء فهذا وان جاز حمله على الواحد كما فى قوله تعالى انانحن نزلنا الذكر لكنه مجاز وحقيقته الجمع والعدول عن الحقيقة من غير موجب لايجوز لاسيما وقد روى قوله انامعاشر الانبياء لانورث والاولى أن يحمل ذلك على كل مافيه نفع وصلاح فى الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع فى الدين والمال الصالح فان كل هذه الامور ممايجوز توفر الدواعى على بقائها ليكون ذلك النفع دائما مستمرا (السابع) اتفق أكثر المفسرين على ان يعقوب ههنا هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام لان زوجة زكرياء هى أخت مريم وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب وأما زكرياء عليه السلام فهو من ولد هرون أخى موسى عليه السلام وهرون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن اسحق وكانت النبوة فى سبط يعقوب لانه هو اسرائيل صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين ليس المراد من يعقوب ههنا ولد اسحق بن ابراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكرياء وهذا قول الكلبى ومقاتل وقال الكلبى كان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكرياء رأس الاحبار يومئذ فاراد أن يرثه ولده حبورته و يرث بنى ماثان ملكهم واعلم أنهم ذكروا فى تفسير الرضى وجوها (أحدها) أن المراد واجعله رضيا من الانبياء وذلك لان كلهم مرضيون فالرضى منهم مفضل على جملتهم فائق لهم فى كثير من أمورهم فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين لم يعص ولم يهم بمعصية وهذا غاية مايكون به المرء رضيا (وثانيها) المراد بالرضى أن يكون رضيا فى أمته لايتلقى بالتكذيب ولايواجه بالرد (وثالثها) المراد بالرضى أن لايكون متهما فى شئ ولايوجد فيه مطعن ولاينسب اليه شئ من المعاصى (ورابعها) ان ابراهيم واسمعيل عليهما السلام قالا فى الدعاء ربنا واجعلنا مسلمين لك وكانا فى ذلك الوقت مسلمين وكان المراد هنالك ثبتنا على هذا أو المراد اجعلنا فاضلين من أنبيائك المسلمين فكذا ههنا واحتج أصحابنا فى مسئلة خلق الافعال بهذه الآية لانه انما يكون رضيا بفعله فلما سأل الله تعالى جعله رضيا دل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فان قيل المراد منه أن يلطف له بضروب الالطاف فيختار مايصير مرضيا فينسب ذلك الى الله تعالى والجواب من وجهين (الاول) ان جعله رضيا لو حملناه على جعل الالطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيا لكان ذلك مجازا وهو خلاف الاصل (والثانى) أن جعل تلك الالطاف واجبة على الله تعالى لايجوز الاخلال به وما كان واجبا لايجوز طلبه بالدعاء والتضرع ﴿ قوله تعالى ﴿ يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ فيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المنادى بقوله يازكريا فالاكثرون على انه هو الله تعالى وذلك لان ماقبل هذه الآية يدل على ان زكرياء عليه السلام انما كان يخاطب الله تعالى و يسأله وهو قوله رب انى وهن العظم منى وقوله ولم أكن بدعائك رب شقيا وقوله فهب لى ومابعدها يدل على انه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول رب أنى يكون لى غلام واذا كان ماقبل هذه الآية ومابعدها خطابا مع الله تعالى وجب أن يكون النداء من الله تعالى والا لفسد النظم ومنهم من قال هذا نداء الملك واحتج عليه بوجهين (الاول) قوله تعالى فى سورة آل عمران فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى (الثانى) أن زكرياء عليه السلام لما قال أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وهذا لايجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك (والجواب) عن الاول انه يحتمل أن يقال حصل النداآن نداء الله ونداء الملائكة (وعن الثانى) انا نبين ان شاء الله تعالى ان قوله قال كذلك قال ربك هو على هين يمكن أن يكون كلام الله (المسئلة الثانية) فان قيل ان كان الدعاء باذن فمامعنى البشارة وان كان بغير اذن فلماذا أقدم عليه والجواب هذا أمر يخصه فيجوز أن يسأل بغير اذن

حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال (ثم توبوا اليه) عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر مافرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة أو تستمروا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وايتاء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى يمتعكم وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الاموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعيشكم عيشا مرضيا لايفوتكم فيه شئ مما تشتهون ولاينغصه شئ من المكدرات (الى أجل مسمى) مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لايطمع وراءها طامع جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة أو لايهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذى فضل)

ويحتمل

ويحتمل انه أذن له فيه ولم يعلم وقته فبشر به ﴿المسئلة الثالثة﴾ اختلف المفسرون في قوله لم نجعل له من قبل سميا على وجهين (أحدهما) وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة انه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم (الثاني) أن المراد بالسمي النظير كما في قوله هل تعلم له سميا واختلفوا في ذلك على وجوه (أحدها) انه سيد وحصور ولم يعص ولم يهم بمعصية كأنه جواب لقوله واجعله رب رضيا فقيل له انا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيها في الدين ومن كان هكذا فهو في غاية الرضا وهذا الوجه ضعيف لانه يقتضي تفضيله على الانبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وابراهيم وموسى وذلك باطل بالاتفاق (وثانيها) ان كل الناس انما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم في الوجود وأما يحيى عليه السلام فان الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية (وثالثها) أنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر واعلم أن الوجه الاول أولى وذلك لان حمل السمي على النظير وان كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وانه لا يجوز وأما قول الله تعالى هل تعلم له سميا فهناك انما عدلنا عن الظاهر لانه قال فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضي وجوب عبادته فلهذا السبب عدلنا عن الظاهر أما ههنا لا ضرورة في العدول عن الظاهر فوجب اجراؤه عليه ولان في تفرده بذلك الاسم ضربا من التعظيم لانا نشاهد ان الملك اذا كان له لقب مشهور فان حاشيته لا يتلقبون به بل يتركونه تعظيما له فكذلك ههنا ﴿المسئلة الرابعة﴾ في أنه عليه السلام سمي بيحيى روى الثعلبي فيه وجوها (أحدها) عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الله تعالى أحيا به عقر أمه (وثانيها) عن قتادة ان الله تعالى أحيا قلبه بالايمان والطاعة والله تعالى سمى المطيع حيا والعاصي ميتا بقوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وقال اذا دعاكم لما يحييكم (وثالثها) احياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد الا وقد عصى أو هم الا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعملها (ورابعها) عن أبي القاسم بن حبيب أنه استشهد وان الشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم (وخامسها) ما قاله عمرو بن عبد الله المقدسي أوحى الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام أن قل لسارة وكان اسمها كذلك باني مخرج منها عبدا لا يهم بمعصية اسمه حيي فقال هبي له من اسمك حرفا فوهبته حرفا من اسمها فصار يحيى وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة (وسادسها) أن يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حيا بذلك الايمان وذلك ان أم يحيى كانت حاملا به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى يا مريم أحامل أنت فقالت لماذا تقولين فقالت اني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك (وسابعها) ان الدين يحيا به لانه انما سأله زكريا لاجل الدين واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لان أسماء الالقاب لا يطلب فيها وجه الاشتقاق ولهذا قال أهل التحقيق أسماء الالقاب قائمة مقام الاشارات وهي لا تفيد في المسمى صفة البتة ﴿قوله تعالى ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي عتيا وصليا وجثيا وبكيا بكسر العين والصاد والجيم والباء وقرأ حفص عن عاصم بكيا بالضم والباقي بالكسر والباقون جميعا بالضم وقرأ ابن مسعود بفتح العين والصاد من عتيا وصليا وقرأ أبي بن كعب وابن عباس عسيا بالسين غير المعجمة والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ في الالفاظ وهي ثلاثة (الاول) الغلام الانسان الذكر في ابتداء شهوته للجماع ومنه اغتلم اذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التلميذ يقال غلام ثعلب (الثاني) العتي والعسي واحد تقول عتا يعتو عتوا وعتيا فهو عات وعسا يعسو عسوا وعسيا فهو عاس والعاسي هو الذي غيره طول الزمان الى حال البؤس وليل عات طويل وقيل شديد الظلمة (الثالث) لم يقل عاقرة لان ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فانه لا تدخل فيه الهاء نحو امرأة عاقر وحائض قال الخليل هذه صفات مذكرة وصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا رجل ملحة وربعة وغلام نفعة ﴿المسئلة الثالثة﴾ في هذه الآية سؤالان (الاول) ان زكريا عليه

في الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله اما الدنيا أو في الآخرة وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع الى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهمه من حكمته من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لا يمتع في الدنيا أكثر مما متع آخر دونه في الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل ويعط كل فاضل جزاء فضله اما في الدنيا كما يتفق في بعض المواد واما في الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع في الانذار فقيل (وان تولوا) أي تتولوا عما ألقي اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لان العذاب قد علق بالتولي عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعي سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولي (فاني أخاف عليكم) بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم في قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك في نفسه أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل في قوله تعالى ثقلت في السموات والارض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأياما كان ففي اضافة العذاب اليه تهويل

السلام لم تعجب بقوله أنى يكون لى غلام مع أنه هو الذى طلب الغلام (السؤال الثانى) ان قوله أنى يكون لى غلام لم يكن هذا مذكورا بين أمته لانه كان يخفى هذه الامور عن أمته فدل على انه ذكره فى نفسه وهذا التعجب يدل على كونه شاكا فى قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الانبياء عليهم السلام (والجواب) عن السؤال الاول أما على قول من قال انه لم يطلب خصوص الولد فالسؤال زائل وأما على قول من قال انه طلب الولد فالجواب عنه أن المقصود من قوله أنى يكون لى غلام هو التعجب من أنه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد أو يتركهما شيخين و يرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب والدليل عليه قوله تعالى وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه وما هذا الاصلاح الا أنه أعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام وذكر السدى فى الجواب وجها آخر فقال انه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال ان هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك فلما شك زكريا قال أنى يكون لى غلام واعلم أن غرض السدى من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم أن المبشر بذلك هو الله تعالى لما جاز له أن يقول ذلك فارتكب هذا وقال بعض المتكلمين هذا باطل قطعا اذ لو جوز الانبياء فى بعض ما يرد عن الله تعالى انه من الشيطان لجوزوا فى سائره ولزالت الثقة عنهم فى الوحى وعنا فيما يوردونه الينا ويمكن أن يجاب عنه بان هذا الاحتمال قائم فى أول الامر وانما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة فى هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ما عداها والله أعلم (والجواب) عن السؤال الثانى من وجوه (الاول) أن قوله انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ليس نصا فى كون ذلك الغلام ولدا له بل يحتمل ان زكريا عليه السلام راعى الادب ولم يقل هذا الغلام هل يكون لى ولدا أم لا بل ذكر أسبابا تعذر حصول الولد فى العادة حتى ان تلك البشارة ان كانت بالولد فالله تعالى يزيل الابهام و يجعل الكلام صريحا فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا الا أنه كان شاكا فى قدرة الله تعالى عليه (الثانى) انه ما ذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته وهذا كالرجل الذى يرى صاحبه قد وهب الكثير الخطير فيقول أنى سمحت نفسك باخراج مثل هذا من ملكك تعظيما وتعجبا (الثالث) ان من شأن من بشر بما يتمناه أن يتولد له فرط السرور به عند أول ما يرد عليه استثبات ذلك الكلام اما لان شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر وهذا كما ان امرأة ابراهيم عليه السلام بعد ان بشرت باسحق قالت أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب فأزيل تعجبها بقوله أتعجبين من أمر الله واما طلبا للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى واما مبالغة فى تأكيد التفسير ﴿ قوله تعالى ﴿قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله قال كذلك قال ربك هو على هين وجوه (أحدها) ان الكاف رفع أى الامر كذلك تصديق له ثم ابتدأ قال ربك (وثانيها) نصب بقال وذلك اشارة الى مبهم تفسيره هو على هين وهو كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (وثالثها) أن المراد لا تعجب فانه كذلك قال ربك لاخلف فى قوله ولا غلط ثم قال بعده هو على هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيأ (ورابعها) اذا ذكرنا ان قوله أنى يكون لى غلام معناه تعطينى الغلام بان تجعلنى وزوجتى شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد وقوله كذلك قال ربك أى نهب الولد مع بقائك و بقاء زوجتك على الحالة الحاصلة فى الحال (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وهو على هين وهذا لا يخرج الا على الوجه الاول أى الامر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك على هين (المسئلة الثالثة) اطلاق لفظ الهين فى حق الله تعالى مجاز لان ذلك انما يجوز فى حق من يجوز أن يصعب عليه شئ ولكن المراد أنه اذا اراد شيأ كان (المسئلة الرابعة) فى وجه الاستدلال بقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ فنقول انه لما خلقه من العدم الصرف والنفى المحض كان قادرا على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة

وتفظيع له (الى الله مرجعكم) رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا الى غيره (وهو على كل شئ قدير) فيندرج فى ذلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيبعدكم بافانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ما ينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب ووقع فى ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبيه اشعارا بأن ما يعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه (الا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق و ينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لان من أعرض عن شئ ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل (ليستخفوا منه) التجأ الى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب

لا

لا يحتاج فيه الا الى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معا أولى أن يكون قادرا على تبديل الصفات واذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد اليه والى صاحبته القوة التي عنها يتولد الماء الذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه فهذا وجه الاستدلال (المسئلة الخامسة) الجمهور على أن قوله قال كذلك قال ربك يقتضي ان القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله يا زكريا انا نبشرك قول الله تعالى وقوله هو على هين قول الله تعالى وهذا بعيد لانه اذا كان ما قبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح ادراج هذه الالفاظ فيما بين هذين القولين والاولى أن يقال قائل هذا القول أيضا هو الله تعالى كما أن الملك العظيم اذا وعد عبده شيأ عظيما فيقول العبد من أين يحصل لي هذا فيقول ان سلطانك ضمن لك ذلك كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطانا مما يوجب عليه الوفاء بالوعد فكذا ههنا ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم طلب الآية لتحقيق البشارة وهذا بعيد لان بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون اظهار الآية أقوى في ذلك من صريح القول وقال آخرون البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق (المسئلة الثانية) اتفقوا على ان تلك الآية هي تعذر الكلام عليه فان مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة ثم اختلفوا على قولين (أحدهما) أنه اعتقل لسانه أصلا (والثاني) أنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع انه كان متمكنا من ذكر الله ومن قراءة التوراة وهذا القول عندي أصح لان اعتقال اللسان مطلقا قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله فلا يعرف زكريا عليه السلام ان ذلك الاعتقال معجز الا اذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات وهذا مما لا يعرف الا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة الى دلالة أخرى أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية معجزة ومما يقوي ذلك قوله تعالى آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا خص ذلك بالتكلم مع الناس وهذا يدل بطريق المفهوم انه كان قادرا على التكلم مع غير الناس (المسئلة الثالثة) اختلفوا في معنى سويا فقال بعضهم هو صفة لليالي الثلاث وقال أكثر المفسرين هو صفة لزكريا والمعنى آيتك أن لا تكلم الناس في هذه المدة مع كونك سويا لم يحدث بك مرض ﴿قوله تعالى﴾ ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى فخرج على قومه من المحراب قيل كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل الى قومه فعند ذلك أوحى اليهم وقيل كان موضعا يصلي فيه هو وغيره الا أنهم كانوا لا يدخلونه للصلاة الا باذنه وانهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للاذن فخرج اليهم وهو لا يتكلم فأوحى اليهم (المسئلة الثانية) لا يجوز أن يكون المراد من قوله أوحى اليهم الكلام لان الكلام كان ممتنعا عليه فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك اما بالاشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لان كل ذلك يفهم منه المراد فعلموا أنه قد كان ما بشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم اكرام الله تعالى له بالاجابة واعلم أن الاشبه بالآية هو الاشارة لقوله تعالى في سورة آل عمران ثلاثة أيام الا رمزا والرمز لا يكون كتابة لا كلاما (المسئلة الثالثة) اتفق المفسرون على انه أراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز في اللغة يقال سبحة الضحى أي صلاة الضحى وعن عائشة رضي الله عنها في صلاة الضحى اني لاسبحها أي لاصليها اذا ثبت هذا فنقول روي عن أبي العالية ان البكرة صلاة الفجر والعشي صلاة العصر ويحتمل أن يكون انما كانوا يصلون معه في محرابه هاتين الصلاتين فكان يخرج اليهم فيأذن لهم بلسانه فلما اعتقل لسانه خرج اليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾ اعلم أنه تعالى وصف يحيى في هذه الآية بصفات تسع (الصفة

ثانفلاق ولا يخفى ان انسياق الذهن الى توسيط الارادة بين ثني الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الامر به وبين الانفلاق ولعل الاظهر أن معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر في ذلك استهجانا بذكره أو ايماء الى أن ظهوره مغن عن ذكره أو ليذهب ذهن السامع الى كل ما لا خير فيه من الامور المذكورة فيدخل فيه ما ذكر من توليهم عن الحق الذي ألقي اليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انها نزلت في الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر في قلبه ما يضادها وقال ابن شداد انها نزلت في بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه انما كان يصنع ما يصنع لانه لو رآه النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدي ذلك الى ظهور ما في قلبه من

الاولى) كونه مخاطبا من الله تعالى بقوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قوله يا يحيى خذ الكتاب يدل على ان الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذى يجوز أن يخاطبه بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه (المسئلة الثانية) الكتاب المذكور يحتمل ان يكون هو التوراة التى هى نعمة الله على بنى اسرائيل لقوله تعالى ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ويحتمل أن يكون كتابا خص الله به يحيى كما خص الله تعالى الكثير من الانبياء بذلك والاول أولى لان حمل الكلام ههنا على المعهود السابق أولى ولا معهود ههنا الا التوراة (المسئلة الثالثة) قوله بقوة ليس المراد منه القدرة على الاخذ لان ذلك معلوم لكل أحد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بامر النبوة وحاصلها يرجع الى حصول ملكة تقتضى سهولة الاقدام على المأمور به والاحجام عن المنهى عنه (الصفة الثانية) قوله تعالى وآتيناه الحكم صبيا اعلم أن فى الحكم أقوالا (الاول) انه الحكمة ومنه قول الشاعر

واحكم كحكم فتاة الحى اذ نظرت * الى حمام شراع وارد الثمد

وهو الفهم فى التوراة والفقه فى الدين (والثانى) وهو قول معمر انه العقل روى أنه قال ما للعب خلقنا (والثالث) انه النبوة فان الله تعالى أحكم عقله فى صباه وأوحى اليه وذلك لان الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمدا عليهما السلام وقد بلغا الاشد والاقرب حمله على النبوة لوجهين (الاول) ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية صفات شرفه ومنقبته ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الانسان فذكرها فى معرض المدح أولى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة فى هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة الا هذه اللفظة فوجب حملها عليها (الثانى) أن الحكم هو ما يصلح لان يحكم به على غيره ولغيره على الاطلاق وذلك لا يكون الا بالنبوة فان قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا قلنا هذا السائل اما أن يمنع من خرق العادة أولا يمنع منه فان منع منه فقد سد باب النبوات لان بناء الامر فيها على المعجزات ولا معنى لها الا خرق العادات وان لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فانه ليس استبعاد صيرورة الصبى عاقلا أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر (الصفة الثالثة) قوله تعالى وحنانا من لدنا اعلم أن الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق كما يقال حنين الناقة وهو صوتها اذا اشتاقت الى ولدها ذكر الخليل ذلك وفى الحديث أنه عليه السلام كان يصلى الى جذع فى المسجد فلما اتخذ له المنبر وتحول اليه حنت تلك الخشبة حتى سمع حنينها فهذا هو الاصل ثم قيل تحنن فلان على فلان اذا تعطف عليه ورحمه وقد اختلف الناس فى وصف الله بالحنان فاجازه بعضهم وجعله بمعنى الرؤف الرحيم ومنهم من أباه لما يرجع اليه أصل الكلمة قالوا لم يصح الخبر بهذه اللفظة فى أسماء الله تعالى اذا عرفت هذا فنقول الحنان ههنا فيه وجهان (أحدهما) أن يجعل صفة لله (وثانيهما) أن يجعل صفة ليحيى أما اذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول التقدير وآتيناه الحكم حنانا أى رحمة منا ثم ههنا احتمالات (الاول) أن يكون الحنان من الله ليحيى المعنى آتيناه الحكم صبيا ثم قال وحنانا من لدنا أى انما آتيناه الحكم صبيا حنانا من لدنا عليه أى رحمة عليه وزكاة أى وتزكية له وتشريفا له (الثانى) أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام فكأنه تعالى قال انما استجبنا لزكريا دعوته بان أعطيناه ولدا ثم آتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا عليه أى على زكريا فعلنا ذلك وزكاة أى وتزكية له عن أن يصير مردود الدعاء (والثالث) أن يكون الحنان من الله تعالى لامة يحيى عليه السلام كانه تعالى قال وآتيناه الحكم صبيا وحنانا منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وارشاده أما اذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه (الاول) آتيناه الحكم والحنان على عبادنا أى التعطف عليهم وحسن النظر لهم كما فى أوليائه من الحكم عليهم كما وصف نبيه فقال فبما رحمة من الله لنت لهم وقال حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له الى الاخلال بالواجب لان الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى الى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقال قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة

وقال

الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما تثنونى وقرئ تثنون وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ماهش من الكلأ وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كما يثنى الهش من النبات أو أراد ضعف ايمانهم ورخاوة قلوبهم وقرئ تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كما قيل ابياضت وادهامت وقرئ تثنوى بوزن ترعوى (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يتغطون بها للاستخفاء على ما نقل عن ابن شداد أو حين يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فان ما يقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى (يعلم ما يسرون) أى يضمرون فى قلوبهم (وما يعلنون) أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من أول الامر ما صنعوا وايذانا بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء

على الابداء على عكس ما وقع في قوله تعالى وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله اذلم يتعلق باشعار أن المحاسبة

وقال أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فالمعنى انما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الاخلال بالواجبات ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصي فلم يعص ولم يهم بمعصية وفي الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن أبي رباح وحنانا من لدنا والمعنى آتيناه الحكم صبيا تعظيما اذ جعلناه نبيا وهو صبي ولا تعظيم أكثر من هذا والدليل عليه ما روى انه مر ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء ويقول أحد أحد فقال والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لاتخذنه حنانا أي معظما (الصفة الرابعة) قوله وزكاة وفيه وجوه (أحدها) ان المراد وآتيناه زكاة أي عملا صالحا زكيا عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج (وثانيها) زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء عن الحسن (وثالثها) زكيناه بحسن الثناء كما تزكى الشهود الانسان (ورابعها) صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبي (وخامسها) بركة ونماء وهو الذي قال عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلني مباركا أينما كنت واعلم ان هذا يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى لانه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الالطاف بعيد لانه عدول عن الظاهر (الصفة الخامسة) قوله وكان تقيا وقد عرفت معناه وبالجملة فانه يتضمن غاية المدائح لانه هو الذي يتقي نهي الله فيجتنبه ويتقي أمره فلا يهمله وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك فان قيل ما معنى وكان تقيا وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا انما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه (الصفة السادسة) قوله وبرا بوالديه وذلك لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ولهذا السبب قال وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا (الصفة السابعة) قوله ولم يكن جبارا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادات معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر ولذلك فان ابليس لما تجبر وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذي لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد وقال سفيان في قوله جبارا عصيا انه الذي يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض وقيل كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى واذا بطشتم بطشتم جبارين (الصفة الثامنة) قوله عصيا وهو أبلغ من العاصي كما أن العليم أبلغ من العالم (الصفة التاسعة) قوله وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا وفيه أقوال (أحدها) قال محمد بن جرير الطبري وسلام عليه أي أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم ويوم يموت أي وأمان عليه من عذاب القبر ويوم يبعث حيا أي ومن عذاب القيامة (وثانيها) قال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة (وثالثها) قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أي أول ما يرى الدنيا ويوم يموت أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة ويوم يبعث حيا أي أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون (فروع * الاول) هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى (الثاني) ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الانبياء عليهم السلام كقوله سلام على نوح في العالمين سلام على ابراهيم لانه قال ويوم ولد وليس ذلك لسائر الانبياء عليهم السلام (الثالث) روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام أنت أفضل مني لان الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت على

بما يخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الامر بالعكس وأما ههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ في نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة في الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع انه وقع الغنية عنه بما قبله من قوله عز وجل اني أعلم غيب السموات والارض ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبتها

نفسي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله على يحيي لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمره الله به (الرابع) السلام عليه يوم ولد لابد وأن يكون تفضلا من الله تعالى لانه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاءله وأما السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث في المحشر فقد يجوز أن يكون ثوابا كالمدح والتعظيم والله تعالى أعلم ❊ القول في فوائد هذه القصة ﴿الفائدة الاولى﴾ تعليم آداب الدعاء وهي من جهات (أحدها) قوله نداء خفيا وهو يدل على ان أفضل الدعاء ما هذا حاله ويؤكده قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية ولان رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة واخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الانكسار والتبري عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى واحسانه (وثانيها) ان المستحب أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما في قوله تعالى عنه وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ثم يذكر كثرة نعم الله على ما في قوله ولم أكن بدعائك رب شقيا (وثالثها) أن يكون الدعاء لاجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال واني خفت الموالي من ورائي (ورابعها) أن يكون الدعاء بلفظ يارب على ما في هذا الموضع ﴿الفائدة الثانية﴾ ظهور درجات زكريا ويحيي عليهما السلام أما زكريا فامور (أحدها) نهاية تضرعه في نفسه وانقطاعه الى الله تعالى بالكلية (وثانيها) اجابة الله تعالى دعاءه (وثالثها) ان الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الامران معا (ورابعها) اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح (وخامسها) انه يجوز للانبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله رب اجعل لي آية ﴿الفائدة الثالثة﴾ كونه تعالى قادرا على خلق الولد وان كان الابوان في نهاية الشيخوخة ردا على أهل الطبائع ﴿الفائدة الرابعة﴾ صحة الاستدلال في الدين لقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ ﴿الفائدة الخامسة﴾ ان المعدوم ليس بشيء والآية نص في ذلك ❊ فان قيل المراد ولم تك شيأ مذكورا كما في قوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا ❊ قلنا الاضمار خلاف الاصل وللخصم أن يقول الآية تدل على ان الانسان لم يكن شيأ ونحن نقول به لان الانسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها اعراض مخصوصة والجواهر المتألفة الموصوفة بالاعراض المخصوصة غير ثابتة في العدم انما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهي ليست بانسان فظهر ان الآية لادلالة فيها على المطلوب ﴿الفائدة السادسة﴾ ان الله تعالى ذكر هذه القصة في سورة آل عمران وذكرها في هذا الموضع فلنعتبر حالها في الموضعين فنقول (الاول) انه تعالى بين في هذه السورة انه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه في آل عمران بقوله كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة والمعنى ان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم عليها السلام طمع فيه في حق نفسه فدعا (الثاني) وهو ان الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادي هو الملائكة لقوله فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة الاظهر أن المنادي بقوله يازكريا انا نبشرك هو الله تعالى وقد بينا أنه لا منافاة بين الامرين (الثالث) انه قال في آل عمران أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر فذكر أولا كبر نفسه ثم عقر المرأة وهو في هذه السورة قال أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وجوابه ان الواو لا تقتضي الترتيب (الرابع) قال في آل عمران وقد بلغني الكبر وقال ههنا وقد بلغت من الكبر وجوابه ان ما بلغك فقد بلغته (الخامس) قال في آل عمران آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا وقال ههنا ثلاث ليال سويا وجوابه دلت الآيتان على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن والله أعلم ﴿القصة الثانية﴾ قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام اعلم انه تعالى انما قدم قصة يحيي على قصة عيسى عليهما السلام لان خلق الولد من شيخين فانيين أقرب الى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الاب البتة وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الاخذ من الاقرب فالاقرب مترقيا الى الاصعب فالاصعب ❊ قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها

من البراعة مالا يصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ في الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التي في الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها (ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعي أو ارادي لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما جيء به على طريق الوجوب اعتبارا لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس في طلبه (ويعلم مستقرها) محل قرارها في الاصلاب (ومستودعها) موضعها في الارحام وما يجري مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لان النطفة بالنسبة الى الاصلاب في حيزها الطبيعي ومنشئها الخلقي وأما بالنسبة الى الارحام وما يجري مجراها فهي مودعة فيها الى وقت معين أو مسكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الاخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان

روحنا

روحنا فتمثل لها بشراسويا﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اذ بدل من مريم بدل اشتمال لان الاحيان مشتملة على مافيها وفيه ان المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه ﴿المسئلة الثانية﴾ النبذ أصله الطرح والالقاء والانتباذ افتعال منه ومنه فنبذوه وراء ظهورهم وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أى ناحية وهذا اذا جلس قريبا منك حتى لو نبذت اليه شيأ وصل اليه ونبذت الشئ رميته ومنه النبيذ لانه يطرح فى الاناء وأصله منبوذ فصرف الى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لانه يرمى به ومنه النهى عن المنابذة فى البيع وهو أن يقول اذا نبذت اليك هذا الثوب أو الحصاة فقد وجب البيع اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا معناه تباعدت وانفردت على سرعة الى مكان يلى ناحية الشرق ثم بين تعالى انها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجابا مستورا وظاهر ذلك أنها لم تقتصر على ان انفردت الى موضع بل جعلت بينها وبينهم حائلا من حائط وغيره ويحتمل انها جعلت بين نفسها وبينهم سترا وهذا الوجه الثانى أظهر من الاول ثم لابد فى احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكورا واختلف المفسرون فيه على وجوه (الاول) انها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكى تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام (والثانى) انها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة (والثالث) قعدت فى مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشئ يسترها (والرابع) أنها كان لها فى منزل زوج أختها زكريا محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها فتمنت أن تجد خلوة فى الجبل لتفلى رأسها فانفجر السقف لها فخرجت الى المفازة فجلست فى المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك (وخامسها) عطشت فخرجت الى المفازة لتستقى واعلم ان كل هذه الوجوه محتمل وليس فى اللفظ مايدل على ترجيح واحد منها ﴿المسئلة الثالثة﴾ المكان الشرقى هو الذى يلى شرقى بيت المقدس أو شرقى دارها وعن ابن عباس رضى الله عنهما انى لاعلم خلق الله لأى شئ اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة ﴿المسئلة الرابعة﴾ انها لما جلست فى ذلك المكان أرسل الله اليها الروح واختلف المفسرون فى هذا الروح فقال الاكثرون انه جبريل عليه السلام وقال أبو مسلم انه الروح الذى تصور فى بطنها بشرا والاول أقرب لان جبريل عليه السلام يسمى روحا قال الله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وسمى روحا لانه روحانى وقيل خلق من الروح وقيل لان الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له وتقريبا كما تقول لحبيبك روحى وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لانه سبب لما فيه روح العباد واصابة الروح عند الله الذى هو عدة المتقين فى قوله فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم أو لانه من المقربين وهم الموعودون بالروح أى مقربنا وذا روحنا واذا ثبت انه يسمى روحا فهو هنا يجب ان يكون المراد به هو لانه قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا ولا يليق ذلك الا بجبريل عليه السلام واختلفوا فى أنه كيف ظهر لها (فالاول) انه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوى الخلق (والثانى) انه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة فى اللفظ على التعيين ثم قال وانما تمثل لها فى صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها فى صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا اشكالات (أحدها) وهو انه لو جاز أن يظهر الملك فى صورة انسان معين فحينئذ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذى أراه فى الحال هو زيد الذى رأيته بالامس لاحتمال أن الملك أو الجنى تمثل فى صورته وفتح هذا الباب يؤدى الى السفسطة لا يقال هذا انما يجوز فى زمان جواز البعثة فأما فى زماننا هذا فلا يجوز لانا نقول هذا الفرق انما يعلم بالدليل فالجاهل بذلك الدليل يجب ان لا يقطع بأن هذا الشخص الذى أراه الآن هو الشخص الذى رأيته بالامس (وثانيها) انه جاء فى الاخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جدا فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه فى مقدار جثة الانسان أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك يوجب تداخل الاجزاء وهو محال (وثالثها) وهو انا

كونها دابة فى الارض والمعنى مامن دابة فى الارض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المندرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الاطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة مايليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها (كل) من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (فى كتاب مبين) أى مثبت فى اللوح المحفوظ المبين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الامر الى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الارض من المخلوقات التى لا تكاد تحصى من مبدا فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدا خلق السموات والارض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) السموات فى يومين والارض فى يومين وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الارض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالايام

لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام فى صورة الآدمى فلم لا يجوز تمثله فى صورة جسم أصغر من الآدمى حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم ان كل مذهب جر الى ذلك فهو باطل (ورابعها) ان تجويزه يفضى الى القدح فى خبر التواتر فلعل الشخص الذى حارب يوم بدر لم يكن محمدا بل كان شخصا آخر تشبه به وكذا القول فى الكل (والجواب عن الاول) ان ذلك التجويز لازم على الكل لان من اعترف بافتقار العالم الى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادرا على أن يخلق شخصا آخر مثل زيد فى خلقته وتخطيطه واذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك فى ان زيدا المشاهد الآن هو الذى شاهدناه بالامس أم لا ومن أنكر الصانع المختار وأسند الحوادث الى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب فى الافلاك يقتضى حدوث شخص مثل زيد فى كل الامور وحينئذ يعود التجويز المذكور (وعن الثانى) انه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والاجزاء الاصلية قليلة جدا فحينئذ يكون متمكنا من التشبه بصورة الانسان هذا اذا جعلناه جسمانيا أما اذا جعلناه روحانيا فأى استبعاد فى أن يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير (وعن الثالث) ان أصل التجويز قائم فى العقل وانما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا﴾ وفيه وجوه (أحدها) أرادت ان كان يرجى منك أن تتقى الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فانى عائذة به منك وهذا فى نهاية الحسن لانها علمت انه لا تؤثر الاستعاذة الا فى التقى وهو كقوله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين أى ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال (وثانيها) ان معناه ما كنت تقيا حيث استحللت النظر الى وخلوت بى (وثالثها) انه كان فى ذلك الزمان انسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى والاول هو الوجه ﴿ قوله تعالى ﴿قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا﴾ وفيه مسائل (المسألة الاولى) لما علم جبريل خوفها قال انما أنا رسول ربك ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لا بد من دلالة تدل على انه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل انها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها انما أنا رسول ربك أظهر لها من باطن جسده ما عرفت انه ملك فيكون ذلك هو العلم ﴿ وسأل القاضى عبد الجبار فى تفسيره نفسه فقال اذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم ان الله تعالى لم يرسل الى خلقه الا رجالا فكيف يصح ذلك ﴿ وأجاب ان ذلك انما وقع فى زمان زكريا عليه السلام وكان رسولا وكل ذلك كان عالما به وهذا ضعيف لان المعجز اذا كان مفعولا للنبى فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالما به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزا له بل الحق ان ذلك اما أن يكون كرامة لمريم أو ارهاصا لعيسى عليه السلام (المسألة الثانية) قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام أى ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة بعدها أما قوله لاهب لك ففى مجازه وجهان (الاول) أن الهبة لما جرت على يده بان كان هو الذى نفخ فى جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذى وهب لها واضافة الفعل الى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى فى الاصنام انهن أضللن كثيرا من الناس (الثانى) ان جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فان قال قائل ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الاجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذى يقال فيه ان جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الاشياء أما انه جسم فلانه محدث وكل محدث اما متحيز أو قائم بالمتحيز وأما ان الجسم لا يقدر على هذه الاشياء فلانه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لان الاجسام متماثلة وهو ضعيف لان للخصم أن يقول لا نسلم ان كل محدث اما متحيز أو قائم به بل ههنا موجودات قائمة بانفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالا لذات الله تعالى لان الاشتراك فى الصفات الثبوتية لا يقتضى التماثل فكيف فى الصفات السلبية سلمنا كونه جسما فلم

الاوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الارض ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء وفى خلقهما مدرجا مع القدرة التامة على خلقهما دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الامور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلمه ما يقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء) ليس تحته شئ غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث فى العالم بعد العرش وانما دل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما (ليبلوكم) متعلق بخلق أى خلق السموات والارض وما فيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم أودع فى تضاعيفهما من تعاجيب الصنائع والعبر ما تستدلون به على

قالت

ذات الجسم لا يقدر عليه قوله الاجسام متماثلة قلنا نعني به انها متماثلة في كونها حاصلة في الاحياز ذاهبة في الجهات أو نعني به انها متماثلة في تمام ماهياتها والاول مسلم لكن حصولها في الاحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات الموصوفات سلمنا ان الاجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال ان الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى انه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك (والجواب) الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال اجماع الامة فقط والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ الزكي يفيد أمورا ثلاثة (الاول) انه الطاهر من الذنوب (والثاني) انه ينمو على التزكية لانه يقال فيمن لا ذنب له زكي وفي الزرع النامي زكي (والثالث) النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يبعث نبيا وقال بعض المتكلمين الاولى أن يحمل على الكل وهو ضعيف لما عرفت في أصول الفقه ان اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين سواء كان حقيقة فيهما أو في أحدهما مجازا وفي الآخر حقيقة ﴿المسئلة الرابعة﴾ سماه زكيا مع انه لم يكن له شيء من الدنيا وأنت اذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيأ فهو شقي عندك وانما الزكي من يملك المال والله يقول كان زكيا لان سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وأنت فانما تسمي بالزكي من كانت سيرته الجهل وطريقته المال ﴿ قوله تعالى ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ أنها انما تعجبت مما بشرها جبريل عليه السلام لانها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون الا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الامور وان جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على انها لم تعلم انه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول قولها ولم يمسسني بشر يدخل تحته قولها ولم أك بغيا فلماذا أعادتها ومما يؤكد هذا السؤال ان في سورة آل عمران قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه (أحدها) انها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لانه كناية عنه لقوله من قبل أن تمسوهن والزنا ليس كذلك انما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات (وثانيها) ان اعادتها لتعظيم حالها كقوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا ان من لم تعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها اذا أتت بولد أن تكون زانية فافراد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الاول لانه أعظم ما في بابه ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال صاحب الكشاف البغي الفاجرة التي تبغي الرجال وهو فعول عند المبرد بغوي فادغمت الواو في الياء وقال ابن جني في كتاب التمام هو فعيل ولو كان فعولا لقيل بغوا كما قيل نهو عن المنكر ﴿المسئلة الرابعة﴾ ان جبريل عليه السلام أجابها بقوله قال كذلك قال ربك هو علي هين وهو كقوله في آل عمران كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في انشائه الى الآلات والمواد ﴿المسئلة الخامسة﴾ الكناية في هو علي هين وفي قوله ولنجعله آية للناس تحتمل وجهين (الاول) أن تكون راجعة الى الخلق أي ان خلقه علي هين ولنجعل خلقه آية للناس اذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا باظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب (الثاني) أن ترجع الكنايات الى الغلام وذلك لانها انما تعجبت من كيفية وقوع هذا الامر على خلاف العادة أعلمت ان الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الامر الغريب فاما قوله تعالى ورحمة منا فيحتمل أن يكون معطوفا على ولنجعله آية للناس أي فعلنا ذلك ورحمة منا فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفا على الآية أي ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك ﴿المسئلة السادسة﴾ قوله وكان أمرا مقضيا المراد منه انه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لانه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلا وهو محال والمفضي الى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وأيضا فلان جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر الى واجب الوجود والمنتهي الى الواجب

المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على انظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الاول أشرف من الثاني فكذا الحال في عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذي أثير وانما طريقها النظري التفكر في بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر في آياته البينات المنصوبة في الانفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما في مطاوي الكتاب الحكيم من الاوامر والنواهي وغير ذلك مما له مدخل في الباب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تفضلوني على يونس ابن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر في أمر الله عز وجل الذي هو عمل القلب لان أحدا لا يقدر على أن يعمل في اليوم بجوارحه

انتهاء واجبا يكون واجب الوجود واذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والاسف وهذا هو سر قوله عليه السلام من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب ۞ قوله تعالى ﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال فنفخنا فيه من روحنا أي في عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام ونفخت فيه من روحي وقال فنفخنا فيها لان عيسى عليه السلام كان في بطنها واختلفوا في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله فنفخنا فيه من روحنا وظاهره يفيد ان النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ونفخت فيه من روحي فكذا ههنا وقال آخرون النافخ هو جبريل عليه السلام لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لأهب لك انه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلا بد من احالة النفخ اليه ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين (الاول) قول وهب انه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت الى الرحم (الثاني) في ذيلها فوصلت الى الفرج (الثالث) قول السدي أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها اختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت انها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا اني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله (الرابع) ان النفخة كانت في فيها فوصلت الى بطنها فحملت في الحال اذا عرفت هذا ظهر ان في الكلام حذفا وهو وكان أمرا مقضيا فنفخ فيها فحملته ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل وليس في القرآن ما يدل على شئ من هذه الاحوال ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ فانتبذت به أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله تنبت بالدهن أي تنبت والدهن فيها واختلفوا في علة الانتباذ على وجوه (أحدها) ما رواه الثعلبي في العرائس عن وهب قال ان مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذي عند جبل صهيون وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهادا ولا عبادة منهما وأول من عرف حمل مريم يوسف فتحير في أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وانها لم تغب عنه ساعة قط واذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فأول ما تكلم ان قال انه وقع في نفسي من أمرك شئ وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت ان الكلام فيه أشفى لصدري فقالت قل قولا جميلا قال أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر انما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة أو تقول ان الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباتها فقال يوسف لا أقول هذا ولكني أقول ان الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون فقالت له مريم أولم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب فلما دنا نفاسها أوحى الله اليها أن اخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف الى أرض مصر على حمار له فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها الى أصل نخلة وذلك في زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها (وثانيها) انها استحيت من زكريا فذهبت الى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا (وثالثها) انها كانت مشهورة في بني اسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الانبياء في تربيتها وتكفل زكريا بها ولان الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى فلما كانت في نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة فذهبت الى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا (ورابعها) انها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم واعلم ان هذه الوجوه محتملة وليس في القرآن ما يدل على شئ منها ﴿ المسئلة

(الرابعة)

أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا الا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الاصلي مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الاساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدي كل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الاعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينتظم ظهوره في سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى ما فيه من الترغيب في الترقي الى معارج العلوم ومدارج الطاعات

الرابعة﴾ اختلفوا في مدة حملها على وجوه (الاول) قول ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت تسعة أشهر كما في سائر النساء بدليل ان الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر (الثاني) انها كانت ثمانية أشهر ولم يعش مولود وضع لثمانية الا عيسى بن مريم عليه السلام (الثالث) وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر (الرابع) انها كانت ستة أشهر (الخامس) ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة (السادس) وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضا كانت مدة الحمل ساعة واحدة ويمكن الاستدلال عليه من وجهين (الاول) قوله تعالى فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض فناداها من تحتها والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاآت على أن كل واحد من هذه الاحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لا يقال انتباذها مكانا قصيا كيف يحصل في ساعة واحدة لانا نقول السدي فسره بانها ذهبت الى أقصى موضع في جانب محرابها (الثاني) ان الله تعالى قال في وصفه ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فثبت ان عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له كن فيكون وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل وانما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة ﴿المسئلة الخامسة﴾ قصيا أي بعيدا من أهلها يقال مكان قاص وقصي بمعنى واحد مثل عاص وعصي ثم اختلفوا فقيل أقصى الدار وقيل وراء الجبل وقيل سافرت مع ابن عمها يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية ﴿المسئلة السادسة﴾ قال صاحب الكشاف أجاء منقول من جاء الا أن استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء فانك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول بلغنيه وأبلغنيه والمعنى ان طلقها ألجأها الى جذع النخلة ثم يحتمل انها انما ذهبت الى النخلة طلبا لسهولة الولادة لتتشبث بها ويحتمل للتقوية والاستناد اليها ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه الفالة اذا رآها ولذلك حكى الله عنها انها تمنت الموت ﴿المسئلة السابعة﴾ قال في الكشاف قرأ ابن كثير في رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضا ومخاضا وهو تمخض الولد في بطنها ﴿المسئلة الثامنة﴾ قال في الكشاف كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما أن يكون من تعريف الاسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كان تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس فاذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره واما أن يكون تعريف الجنس أي الى جذع هذه الشجرة خاصة كان الله أرشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الاشياء موافقة للنفساء ولان النخلة أقل الاشياء صبرا على البرد ولا تثمر الا عند اللقاح واذا قطعت رأسها لم تثمر فكانه تعالى قال كما أن الانثى لا تلد الا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر الا عند اللقاح ثم اني أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر ﴿المسئلة التاسعة﴾ لم قالت يا ليتني مت قبل هذا مع انها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل اليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدها بان يجعلها وابنها آية للعالمين والجواب من وجهين (الاول) قال وهب أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام (الثاني) ان عادة الصالحين اذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك وروى عن أبي بكر انه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت أني ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر انه أخذ تبنة من الارض وقال ليتني هذه التبنة يا ليتني لم أك شيأ وقال علي يوم الجمل يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده أمه فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم (الثالث) لعلها قالت ذلك لكي لا تقع المعصية ممن يتكلم فيها والا فهي راضية بما بشرت به ﴿المسئلة العاشرة﴾ قال صاحب الكشاف النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح كقوله وفديناه بذبح عظيم تمنت لو كانت شيأ تافها لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى في العادة وقرأ ابن وثاب والاعمش وحمزة نسيا بالفتح والباقون نسيا بالكسر قال الفراء هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر وقرأ محمد بن كعب القرظي نسأ بالهمز وهو الحليب المخلوط

والزاجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت) على ما يوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الاعمال (ليقولن الذين كفروا) ان وجه الخطاب في قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أي ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم (ان هذا الا سحر مبين) أي مثله في الخديعة أو البطلان وهذا اشارة الى القول المذكور أو الى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونهم بطريق الوحي المتلو الا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا الى القرآن لانبائه عنه في كل موضع وكونه علما عندهم في ذلك فعمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم في العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شئ موجود ظاهرا لا أصل له في الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث ان البعث كما أشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكانه قيل الامر كما ذكر ومع ذلك ان أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لا يتلعثمون في الرد ويعدون ذلك من قبيل ما لا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ما هذه من

بالماء بنساء أهله لقلته وقرأ الاعمش منسيا بالكسر على الاتباع كالمغير والمنخر والله أعلم ﴿قوله تعالى فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولي انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا﴾ في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فناداها من تحتها القراءة المشهورة فناداها وقرأ زر وعلقمة فخاطبها وفي الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص وفي المنادى ثلاثة أوجه (الاول) انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير (والثاني) انه جبريل عليه السلام وانه كان كالقابلة للولد (والثالث) المنادى على القراءة بالكسر هو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم والاول أقرب لوجوه (الاول) ان قوله فناداها من تحتها بفتح الميم انما يستعمل اذا كان قد علم قبل ذلك ان تحتها أحدا والذى علم كونه حاصلا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادى جبريل عليه السلام فقد صح قولنا (الثاني) ان ذلك الموضع موضع اللوث والنظر الى العورة وذلك لا يليق بالملائكة (الثالث) ان قوله فناداها فعل ولا بد وأن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام الا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى فحملته فانتبذت به والضمير ههنا عائد الى المسيح فكان حمله عليه أولى (والرابع) وهو دليل الحسن بن على رضى الله عنه أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت انه ينطق فما كانت تشير الى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادى هو عيسى عليه السلام فالمعنى انه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الامر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادى جبريل عليه السلام قال انه أرسل اليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل اليها في أول الامر ليكون ذلك تذكيرا لها لما تقدم من أصناف البشارات وأما قوله من تحتها فان حملناه على الولد فلا سؤال وان حملناه على الملك ففيه وجهان (الاول) أن يكونا معا في مكان مستو ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان أقرب منها كان فوق وكل من كان أبعد منها كان تحت وفسر الكلبي قوله تعالى اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم انه ناداها من أقصى الوادى (والثاني) أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل وعلى هذا الوجه روى عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه وجه ثالث يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته وانها ما رأته وليس في اللفظ ما يدل على شئ من ذلك ﴿المسئلة الثانية﴾ اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد ان السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه وأما الحسن وابن زيد فجعلا السرى عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أى من أشرافهم وروى ان الحسن رجع عنه وروى عن قتادة وغيره ان الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميرى قد جعل ربك تحتك سريا فقال ان كان لسريا وان كان لكريما فقال له حميد يا أبا سعيد انما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك واحتج من حمله على النهر بوجهين (أحدهما) انه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السرى فقال هو الجدول (والثاني) ان قوله فكلي واشربي يدل على انه نهر حتى ينضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من حمله على عيسى بوجهين (الاول) ان النهر لا يكون تحتها بل الى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بان المراد منه انه جعل النهر تحت أمرها يجرى بامرها ويقف بامرها كما في قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج الى هذا المجاز (الثاني) انه موافق لقوله تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين (والجواب) عنه ما تقدم ان المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت (فرعان الاول) ان

تتماته واما من حيث ان البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذي خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولوا ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائي الا ساحر على أن الاشارة الى القائل أو الى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى علك في علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره أو على انه مجاراة معهم في الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد بمجرد قرع اسماعهم بت القول بخلاف ما ألفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم الى التأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولئن أخرنا عنهم العذاب) المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود في قوله تعالى فان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يخص بعضا منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون (الى أمة معدودة) الى طائفة

جعلنا السرى على النهر ففيه وجهان (أحدهما) أن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب (والثانى) انه كان هناك ماء جار والاول أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا مشعر بالحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وذلك لا يثبت الا على الوجه الذى قلناه (الثانى) اختلفوا فى أن السرى هو النهر مطلقا وهو قول أبى عبيدة والفراء أو النهر الصغير على ما هو قول الاخفش (المسئلة الثالثة) قال القفال الجذع من النخلة هو الاسفل وما دون الرأس الذى عليه الثمرة وقال قطرب كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع وأما الباء فى قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزى اليك أى حركى جذع النخلة قال الفراء العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة أى على جذعها اذا عرفت هذا فنقول قد تقدم أن الوقت كان شتاء وان النخلة كانت يابسة واختلفوا فى انه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير وهل أثمر مع الرطب غيره والظاهر يقتضى انه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وانه ما أثمر الا الرطب (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف تساقط فيه تسع قراآت تساقط بادغام التاء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية ويساقط بالياء وادغام التاء وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع (المسئلة الخامسة) رطبا تمييز أو مفعول على حسب القراءة الجنى المأخوذ طريا وعن طلحة بن سليمان جنيا بكسر الجيم للاتباع والمعنى جعلنا لك فى السرى والرطب فائدتين احداهما الاكل والشرب والثانية سلوة الصدر بكونهما معجزتين فان قال قائل فتلك الافعال الخارقة للعادات لمن قلنا قالت المعتزلة انها كانت معجزة لزكريا وغيره من الانبياء وهذا باطل لان زكريا عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات بل الحق انها كانت كرامات لمريم أو ارهاصا لعيسى عليه السلام (المسئلة السادسة) فكلى واشربى وقرى عينا قرئ بكسر القاف لغة نجد ونقول قدم الاكل على الشرب لان احتياج النفساء الى أكل الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال وقرى عينا وههنا سؤال وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران (أحدهما) أن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن (والثانى) ماروى انه أجيعت شاة ثم قدم العلف اليها وربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفا من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف اليها فتناولت العلف مع ألم البدن فدلت هذه الحكاية على ان ألم الخوف أشد من ألم البدن اذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى فى الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف (والجواب) ان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الى التذكير مرة أخرى (المسئلة السابعة) قال صاحب الكشاف قرأ ترئن بالهمز ابن الرومى عن أبى عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين فى الابدال صوما صمتا وفى مصحف عبد الله صمتا وعن أنس بن مالك مثله وقيل صياما الا انهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا فى شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر فى شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام فى الشمس وروى انه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر ان الاسلام هدم هذا فتكلمى والله أعلم (المسئلة الثامنة) أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها فى الكلام لمعنيين (أحدهما) ان كلام عيسى عليه السلام أقوى فى ازالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على ان تفويض الامر الى الافضل أولى (والثانى) كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها (المسئلة التاسعة) اختلفوا فى أنها هل قالت معهم انى نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأن تأتى بهذا النذر عند رؤيتهم فاذا أتت بهذا

من الايام قليلة لان ما يحصره العد قليل (ايقولن ما يحبسه) أى أى شئ يمنعه من المجيء فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزئون ومرادهم انكار المجيء والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه (ألا يوم يأتيهم) ذلك (ليس مصروفا) محبوسا (عنهم) على معنى أنه لا يرفعه رافع أبدا ان أريد به عذاب الآخرة أو لا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقدمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد أن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز فى غيره توسعا وبانه قد يقدم المعمول حيث لا يجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها قال أبو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر

فيأبى فما يزداد الا لجاجة * وكنت أبيا فى الخنا لست أقدم

النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا وهذه الصيغة وان كانت عامة الا أنها صارت بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام ﴿ قوله تعالى ﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيأ فريا يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ﴾ وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ اختلفوا في انها كيف أتت بالولد على أقوال (الاول) ما روي عن وهب قال أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به الى قومها (الثاني) ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم الى غار فأدخلها فيه أربعين يوما حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال يا أماه أبشري فاني عبد الله ومسيحه وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين ﴿ المسئلة الثانية ﴾ الفري البديع وهو من فري الجلد يروى انهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها لقد جئت شيأ فريا فيحتمل أن يكون المراد شيأ عجيبا خارجا عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيأ عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا لان هذا القول ظاهره التوبيخ وأما هرون ففيه أربعة أقوال (الاول) انه رجل صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد انك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمون هرون تبركا به وباسمه (الثاني) انه أخو موسى عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم انما عنوا هرون النبي وكانت من أعقابه وانما قيل أخت هرون كما يقال يا أخا همدان أي يا واحدا منهم (والثالث) كان رجلا معلنا بالفسق فنسبت اليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة (الرابع) كان لها أخ يسمى هرون من صلحاء بني اسرائيل فعيرت به وهذا هو الاقرب لوجهين (الاول) ان الاصل في الكلام الحقيقة وانما يكون ظاهر الآية محمولا على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهرون (الثاني) انها أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ القراءة المشهورة ما كان أبوك امرأ سوء وقرأ عمرو بن رجاء التميمي ما كان أباك امرؤ سوء ﴿ المسئلة الرابعة ﴾ انهم لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت اليه أي الى عيسى عليه السلام أي هو الذي يجيبكم اذا نطقتموه وعن السدي لما أشارت اليه غضبوا غضبا شديدا وقالوا لسخريتها بنا أشد من زناها روي انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان وقيل ان زكريا عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود اياها فقال لعيسى عليه السلام انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فقال عيسى عليه السلام عند ذلك اني عبد الله فان قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم قلنا ان جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ناداها من تحتها الا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي الى زكريا أو لعلها عرفت بالوحي اليها على سبيل الكرامة ﴿ بقي ههنا بحثان الاول ﴾ قوله كيف نكلم من كان في المهد صبيا أي حصل في المهد فكان ههنا بمعنى حصل ووجد وهذا هو الاقرب في تأويل هذا اللفظ وان كان الناس قد ذكروا وجوها أخر (الثاني) اختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روي انها أخذته في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت اليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام في المهد ﴿ قوله تعالى ﴿ قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت

(وحاق بهم) أي أحاط بهم (ما كانوا به يستهزئون) أي العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاء وفي التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ما ورد في حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنهما بالماضي وارد على عادة الله تعالى في اخباره لانها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) أي أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها منه) أي سلبناه اياها وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (انه ليؤس) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به (كفور) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة أمثاله في العاجل وايصال أجره في الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة

ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حيا﴾ اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع ﴿الصفة الاولى﴾ قوله انى عبد الله وفيه فوائد ﴿الفائدة الاولى﴾ أن الكلام منه فى ذلك الوقت كان سببا للوهم الذى ذهبت اليه النصارى فلا جرم أول ما تكلم انما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال انى عبد الله وكان ذلك الكلام وان كان موهما من حيث انه صدر عنه فى تلك الحالة ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث انه تنصيص على العبودية ﴿الفائدة الثانية﴾ انه لما أقر بالعبودية فان كان صادقا فى مقاله فقد حصل الغرض وان كان كاذبا لم تكن القوة قوة الهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه الها ﴿الفائدة الثالثة﴾ ان الذى اشتدت الحاجة اليه فى ذلك الوقت انما هو نفى تهمة الزنا عن مريم عليها السلام ثم ان عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبودية نفسه كأنه جعل ازالة التهمة عن الله تعالى أولى من ازالة التهمة عن الام فلهذا أول ما تكلم انما تكلم بها ﴿الفائدة الرابعة﴾ وهى أن التكلم بازالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد ازالة التهمة عن الام لان الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد فى هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة وأما التكلم بازالة التهمة عن الام لا يفيد ازالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما فى هذا اللفظ من الفوائد واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدا وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز ومع ذلك فانا نذكر تقسيما حاصرا يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول اما أن يعتقدوا كونه متحيزا أولا فان اعتقدوا كونه متحيزا أبطلنا قولهم باقامة الدلالة على حدوث الاجسام وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه وان اعتقدوا أنه ليس بمتحيز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لان ذلك لا يعقل الا فى الاجسام فاذا لم يكن جسما استحال ذلك ثم نقول للناس قولان فى الانسان منهم من قال انه هو هذه البنية أو جسم موجود فى داخلها ومنهم من يقول انه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول فى الاجسام فنقول هؤلاء النصارى اما أن يعتقدوا ان الله أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل فى بدن المسيح أو فى نفسه أو يقولوا لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول انه تعالى أعطاه القدرة على خلق الاجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب الها أو لا يقولوا بشئ من ذلك ولكن قالوا انه على سبيل التشريف اتخذه ابنا كما اتخذ ابراهيم على سبيل التشريف خليلا فهذه هى الوجوه المعقولة فى هذا الباب والكل باطل (أما القول الاول) بالاتحاد فهو باطل قطعا لان الشيئين اذا اتحدا فهما حال الاتحاد اما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجودا والآخر معدوما فان كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل وان عدما وحصل ثالث فهو أيضا لا يكون اتحادا بل يكون قولا بعدم ذينك الشيئين وحصول شئ ثالث وان بقى أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالموجود لانه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال (وأما الحلول) فلنا فيه مقامان الاول أن التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة (أحدها) كون الشئ فى غيره ككون ماء الورد فى الورد والدهن فى السمسم والنار فى الفحم واعلم أن هذا باطل لان هذا انما يصح لو كان الله تعالى جسما وهم وافقونا على أنه ليس بجسم وثانيها حصوله فى الشئ على مثال حصول اللون فى الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون فى ذلك الحيز تبعا لحصول محله فيه وهذا أيضا انما يعقل فى حق الاجسام لا فى حق الله تعالى (وثالثها) حصوله فى الشئ على مثال حصول الصفات الاضافية للذوات فنقول هذا أيضا باطل لان المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى فى شئ بهذا المعنى لكان محتاجا فكان ممكنا فكان مفتقرا الى المؤثر وذلك محال واذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن اثباته فى حق الله تعالى امتنع اثباته ﴿المقام الثانى﴾ احتج الاصحاب على نفى الحلول مطلقا بان قالوا لو حل لحل اما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان فالقول بالحلول باطل وانما قلنا انه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لان ذلك يقتضى اما حدوث

وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتها وكونها مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى تسوءنى وان تعتريني بعد أمثالها كما هو شأن أولئك الاشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور وينغص العيش (انه لفرح) بطر وأشر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط (الا الذين صبروا) على ما أصابهم من الضراء سابقا أو لاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه (وعملوا الصالحات) شكرا على آلائه السالفة والآنفة واللام فى الانسان اما للاستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فمنقطع (أولئك) اشارة

الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان لانا دللنا على أن الله قديم وعلى ان الجسم محدث ولانه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجا الى المحل والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لا يكون واجبا لذاته وانما قلنا انه لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل لانه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله فى المحل أمر جائز والموصوف بالوجوب غير ماهو موصوف بالجواز فيلزم ان يكون حلوله فى المحل أمرا زائدا على ذاته وذلك محال لوجهين (أحدهما) ان حلوله فى المحل لو كان زائدا على ذاته لكان حلول ذلك الزائد فى محله زائدا على ذاته ولزم التسلسل وهو محال (والثانى) ان حلوله فى ذلك المحل لما كان زائدا على ذاته فاذا حل فى محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة وذلك محال لانه لو كان قابلا للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته وكانت حاصلة أزلا وذلك محال لان وجود الحوادث فى الأزل محال فحصول قابليتها وجب ان يكون ممتنع الحصول * فان قيل لم لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لانه يلزم اما حدوث الحال أو قدم المحل * قلنا لا نسلم وجوب احد الامرين ولم لا يجوز أن يقال ان ذاته تقتضى الحلول بشرط وجود المحل ففى الازل ما وجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلا جرم لم يجب الحلول وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب سلمنا انه يلزم اما حدوث الحال أو قدم المحل فلم لا يجوز قوله انا دللنا على حدوث الاجسام قلنا لم لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلا أو نفسا أو هيولى على ما يثبته بعضهم ودليلكم على حدوث الاجسام لا يقبل حدوث هذه الاشياء قوله ثانيا لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجا الى المحل قلنا لا نسلم وجوب أحد الامرين بل ههنا احتمالان آخران (أحدهما) أن العلة وان امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة الى المعلول فلم لا يجوز أن يقال ان ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها فى ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها فى ذلك المحل من معلولات ذاته وقد ثبت ان العلة وان استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضى احتياجها الى المعلول (الثانى) أن يقال انه فى ذاته يكون غنيا عن المحل وعن الحلول الا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول فالمفتقر الى المحل صفة من صفاته وهى حلوله فى ذلك المحل فاما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الاضافية الى الغير افتقار ذاته الى الغير وذلك لان جميع الصفات الاضافية الحاصلة له مثل كونه أولا وآخرا ومقارنا ومؤثرا ومعلوما ومذكورا مما لا يتحقق الا عند حصول الغير وكيف لا والاضافات لا بد فى تحققها من أمرين سلمنا ذلك فلم لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل قوله يلزم أن يكون حلوله فيه زائدا عليه ويلزم التسلسل قلنا حلوله فى المحل لما كان جائزا كان حلوله فى المحل زائدا عليه أما كون ذلك الحلول حالا فى المحل أمر واجب فلا يلزم ان يكون حلول الحلول زائدا عليه فلا يلزم التسلسل قوله ثانيا يلزم أن يصير محل الحوادث قلنا لم لا يجوز ذلك قوله يلزم أن يكون قابلا للحوادث فى الازل قلنا لا شك ان تمكنه من الايجاد ثابت له اما لذاته أو لامر ينتهى الى ذاته وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثرا فى الازل فكل ما ذكرتموه فى المؤثرية فنحن نذكره فى القابلية * والجواب انا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الاسئلة فنقول ذاته اما أن تكون كافية فى اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية فى ذلك فان كان الاول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا انه يلزم اما قدم المحل أو حدوث الحال وان كان الثانى كان كونه مقتضيا لذلك الحلول أمرا زائدا على ذاته حادثا فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله فى محل حدوث شئ فيه لكن يستحيل أن يكون قابلا للحوادث والا لزم أن يكون فى الازل قابلا لها وهو محال على ما بيناه وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لانه تعالى لذاته قادر على الايجاد فى الازل فهو قادر على الايجاد فيما لا يزال فههنا أيضا لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت فى الازل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور هذا تمام القول فى هذه الادلة * ولنا فى ابطال قول النصارى وجوه أخر (أحدها) انهم وافقونا على ان ذاته سبحانه وتعالى لم تحل فى ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه والمراد من الكلمة العلم فنقول العلم لما حل فى عيسى ففى تلك الحالة اما أن يقال انه بقى فى ذات الله تعالى أو ما بقى فيها

الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم وان جمت (وأجر) ثواب لاعمالهم الحسنة (كبير) ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والمعنى ان كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر لا يهتدى (٣) الى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه أحسن عمل الا من الصابرين الصالحين أو من حيث ان انكارهم بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا ما فعلوا لان طبيعة الانسان مجبولة على ذلك (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له أذن واعية (وضائق به صدرك

---

٣ قوله لا يهتدى الخ ظاهر العبارة خلو الجملة من رابط يربطها باسم ان لان الضمير المستتر فى يهتدى عائد على الانسان كما لا يخفى فلعل الرابط محذوف والتقدير لا يهتدى فيه الخ تأمل اه مصححه

فان

فان كان الاول لزم حصول الصفة الواحدة فى محلين وذلك غير معقول ولانه لو جاز أن يقال العلم الحاصل فى ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل فى ذات الله تعالى بعينه فلم لا يجوز فى حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى وان كان الثانى لزم أن يقال ان الله تعالى لم يبق عالما بعد حلول علمه فى عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل (وثانيها) مناظرة جرت بينى وبين بعض النصارى فقلت له هل تسلم ان عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا فان أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديما لان دليل وجوده هو العالم فاذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم فى الازل عدم الصانع فى الازل وان سلمت انه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول فنقول اذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أن كلمة الله تعالى ما دخلت فى زيد وعمرو بل كيف عرفت انها ما حلت فى هذه الهرة وفى هذا الكلب فقال لى ان هذا السؤال لا يليق بك لانا انما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص فاذا لم نجد شيأ من ذلك على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول فقلت له انى عرفت من هذا الكلام انك ما عرفت أول الكلام لانك سلمت لى ان عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فاذا كان هذا الحلول غير ممتنع فى الجملة فأكثر ما فى الباب انه وجد ما يدل على حصوله فى حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل فى حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول فثبت انك مهما جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول فى حق كل واحد بل فى حق كل حيوان ونبات ولا شك ان المذهب الذى يسوق قائله الى مثل هذا القول الركيك يكون باطلا قطعا ثم قلت له وكيف دل احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص على ما قلت أليس ان انقلاب العصا ثعبانا أبعد من انقلاب الميت حيا فاذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على الهيته فبأن لا يدل هذا على الهية عيسى أولى (وثالثها) انا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لانه كان مجتهدا فى العبادة والعبادة لا تليق الا بالعبيد فانه كان فى نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى ان اليهود قتلوه ومن كان فى الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية (ورابعها) المسيح اما أن يكون قديما أو محدثا والقول بقدمه باطل لانا نعلم بالضرورة انه ولد وكان طفلا ثم صار شابا وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر وان كان محدثا كان مخلوقا ولا معنى للعبودية الا ذلك فان قيل المعنى بالهيته انه حلت صفة الالهية فيه قلنا هب انه كان كذلك لكن الحال هو صفة الاله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالالهية (وخامسها) ان الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد فان كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه فاذن قد اشتركا من بعض الوجوه فان لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر وان حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك فيلزم وقوع التركيب فى ذات الله وكل مركب ممكن فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الاتحاد والحلول ﴿أما الاحتمال الثالث﴾ وهو أن يقال معنى كونه الها انه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الاجسام والتصرف فى هذا العالم فهذا أيضا باطل لان النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وان اليهود قتلوه ولو كان قادرا على خلق الاجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرا يذبون عنه ﴿وأما الاحتمال الرابع﴾ وهو أنه اتخذه ابنا لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الارميوسية وليس فيه كثير خطا الا فى اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه انه قال انى عبد الله ﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى آتانى الكتاب وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلف الناس فيه فالجمهور على انه قال هذا الكلام حال صغره وقال أبو القاسم البلخى انه انما قال ذلك حين كان كالمراهق الذى يفهم وان لم يبلغ حد التكليف أما الاولون فلهم قولان (أحدهما) انه كان فى ذلك الصغر نبيا

أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة (أن يقولوا) لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لا تكاد تخفى صحتها على احد ممن له أدنى بصيرة وتماديا فى العناد على وجه الاقتراح (لولا أنزل عليه كنز) مال خطير مخزون يدل على صدقه (أو جاء معه ملك) يصدقه قيل قاله عبد الله ابن أمية المخزومى وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين الى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بما فى امل من الاشفاق فقيل (انما أنت نذير) ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول (والله على كل شئ وكيل)

(الثاني) روى عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال المراد بأن حكم وقضى بانه سيبعثني من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد الى حال الصغر ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبيا واحتج من نص على فساد القول الاول بامور (أحدها) ان النبي لا يكون الا كاملا والصغير ناقص الخلقة بحيث بعد هذا التحدي من الصغير منفرا بل هو في التنفير أعظم من أن يكون امرأة (وثانيها) أنه لو كان نبيا في هذا الصغر لكان كامل عقله مقدما على ادعائه للنبوة اذ النبي لابد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجزة متقدما على التحدي وانه غير جائز (وثالثها) انه لو كان نبيا في ذلك الوقت لوجب ان يشتغل ببيان الاحكام وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبيا في ذلك الوقت أجاب الاولون عن الكلام الاول بأن كون الصبي ناقصا ليس لذاته بل لامر يرجع الى صغر جسمه ونقصان فهمه فاذا أزال الله تعالى هذه الاشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة الى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل وعن الكلام الثاني لم لا يجوز أن يقال اكمال عقله وان حصل مقدما على دعواه الا أنه معجزة لزكريا عليه السلام أو يقال انه ارهاص لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام وعندنا الارهاص والكرامات جائزة وعن الكلام الثالث لم لا يجوز أن يقال بمجرد بعثته اليهم من غير بيان شئ من الشرائع والاحكام جائز ثم بعد البلوغ أخذ في شرح تلك الاحكام فثبت بهذا أنه لا امتناع في كونه نبيا في ذلك الوقت وقوله آتاني الكتاب يدل على كونه نبيا في ذلك الوقت فوجب اجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة اما قول أبي القاسم البلخي فبعيد وذلك لان الحاجة الى كلام عيسى عليه السلام انما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام (المسئلة الثانية) اختلفوا في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم المراد هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس أي آتاني من هذا الجنس وقال قوم المراد هو التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (المسئلة الثالثة) اختلفوا في انه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبيا لان قوله آتاني الكتاب وجعلني نبيا يدل على ان ذلك كان قد حصل من قبل اما ملاصقا لذلك الكلام أو متقدما عليه بأزمان والظاهر أنه من قبل ان كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيا وأمره بالصلاة والزكاة وان يدعو الى الله تعالى والى دينه والى ما خص به من الشريعة فقيل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه وقيل لما انفصل من الام آتاه الله الكتاب والنبوة وانه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها فلهذا أشارت اليه بالكلام (الصفة الثالثة) قوله وجعلني نبيا قال بعضهم أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولا لانه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة ومعنى كونه نبيا انه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف لان النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصا اذا قرن اليه ذكر الشرع وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة (الصفة الرابعة) قوله وجعلني مباركا أينما كنت فلقائل ان يقول كيف جعله مباركا والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهودا وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق الا القليل والجواب ذكروا في تفسير المبارك وجوها (أحدها) أن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلني ثابتا على دين الله مستقرا عليه (وثانيها) انه انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلمت أم عيسى عليهما السلام عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على أن لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شئ أكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسألني فأنا أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من اداء الحق الى الله (وثالثها) البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال غالبا مفلحا منجحا لاني مادمت أبقى في الدنيا أكون على الخير مستعليا بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى

يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه في جميع أمورك فانه فاعل بهم ما يليق بحالهم والاقتصار على النذير في أقصى غاية من اصابة المحز (أم يقولون افتراه) اضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع في ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجب والضمير المستكن في افتراه للنبي صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى أي بل أيقولون افتراه وليس من عند الله (قل) ان كان الامر كما تقولون (فأتوا) أنتم أيضا (بعشر سور مثله) في البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أي أمثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما في قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للايماء الى أن وجه الشبه ومدار المماثلة في الجميع شئ واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد (مفتريات) صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف اذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض

بالرفع

بالرفع الى السماء (وراءها) مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص عن قتادة انه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى عليه السلام مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا أما قوله أينما كنت فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكاليف ﴿الصفة الخامسة﴾ قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * فان قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة مع انه كان طفلا صغيرا والقلم مرفوع عنه على ما قال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ الحديث * وجوابه من وجهين (الاول) أن قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لا يدل على انه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد انه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ (الثاني) لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغا عاقلا تام الاعضاء والخلقة وتحقيقه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام وهذا القول الثاني أقرب الى الظاهر لقوله ما دمت حيا فانه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته ولكن لقائل أن يقول لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجيبا فكان ينبغي أن لا يعجبوا فلعل الاولى أن يقال انه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على ان تكليفه لم يتغير حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل مرة أخرى ﴿الصفة السادسة﴾ قوله تعالى وبرا بوالدتي أي جعلني برا بوالدتي وهذا يدل على قولنا ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لان الآية تدل على ان كونه برا انما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على الالطاف عدول عن الظاهر ثم قوله وبرا بوالدتي اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها قال صاحب الكشاف جعل ذاته برا لفرط بره ونصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لان أوصاني بالصلاة وكلفني بها واحد ﴿الصفة السابعة﴾ قوله ولم يجعلني جبارا شقيا وهذا أيضا يدل على قولنا لانه لما بين انه جعله برا وما جعله جبارا فهذا انما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جبارا وغير بار بأمه فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ومعلوم أنه عليه السلام انما ذكر ذلك في معرض التخصيص وقوله ولم يجعلني جبارا أي ما جعلني متكبرا بل أنا خاضع لها متواضع لاني لو كنت جبارا لكنت عاصيا شقيا وروي ان عيسى عليه السلام قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا شقيا وتلا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ولا تجد سيئ الملكة الا مختالا فخورا وقرأ وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴿الصفة الثامنة﴾ هي قوله والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قال بعضهم لام التعريف في السلام منصرف الى ما تقدم في قصة يحيي عليه السلام من قوله وسلام عليه أي السلام الموجه اليه في المواطن الثلاثة موجه الي أيضا وقال صاحب الكشاف الصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه ان اللام للاستغراق فاذا قال والسلام علي فكأنه قال وكل السلام علي وعلى اتباعي فلم يبق للاعداء الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى يعني ان العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض ﴿المسألة الثانية﴾ روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيي أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي وأجاب الحسن فقال ان تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه ﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضي السلام عبارة عما يحصل به الامان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى انه فعله بيحيي ولا بد في الانبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة وأعظم أحوال الانسان احتياجا الى السلامة هي هذه الاحوال الثلاثة وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث

يدور عليه شئ في مقام التحدي وانما ذكر على تهييج المساجلة وارخاء العنان ولانه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة في الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة مختلقات من عند أنفسكم ان صح أني اختلقته من عندي فانكم أقدر على ذلك مني لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادي ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والايام وزاولتم أساليب النظم والنثر (وادعوا) للاستظهار في المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في كل ما تأتون وما تذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم في المهمات ليسعدوكم فيها (من دون الله) متعلق بادعوا أي متجاوزين الله تعالى (ان كنتم صادقين) في أني افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو أيضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فان لم يستجيبوا لكم) أي فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء الى انه عليه الصلاة والسلام على كمال امن من أمره كأن أمره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والضمير في لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما في قول من قال * وان شئت حرمت النساء سواكم * أوله وللمؤمنين

فجميع الاحوال التي يحتاج فيها الى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طالم اليكون مصونا عن الآفات والمخافات في كل الاحوال * واعلم ان اليهود والنصارى ينكرون ان عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية واحتجوا عليه بان هذا من الوقائع العجيبة التي تتوفر الدواعي على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس بحثا عن أحواله وأشد الناس غلوا فيه حتى زعموا كونه الها ولاشك ان الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا انه لم يوجد ولان اليهود اظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو انه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا انه ما تكلم أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فانه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا اقامة الحد على الزنا عليها ففي تركهم لذلك دلالة على انه عليه السلام تكلم في المهد وأجابوا عن الشبهة الاولى بانه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله

* قوله تعالى ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وابن عامر قول الحق بالنصب وعن ابن مسعود قال الحق وقال الله وعن الحسن قول الحق بضم القاف وكذلك في الانعام قوله الحق والقول والقال والقول في معنى واحد كالرهب والرهب والرهب أما ارتفاعه فعلى انه خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف وأما انتصابه فعلى المدح ان فسر بكلمة الله أو على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عبد الله الحق لا الباطل والله أعلم (المسئلة الثانية) لا شبهة ان المراد بقوله ذلك عيسى بن مريم الاشارة الى ما تقدم وهو قوله اني عبد الله آتاني الكتاب أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى بن مريم وفي قوله عيسى بن مريم اشارة الى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا انه ابن الله فأما قوله قول الحق ففيه وجوه (أحدها) وهو ان نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لان الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن تقول عيسى كلمة الله وبين أن تقول عيسى قول الحق (وثانيها) أن يكون المراد ذلك عيسى بن مريم القول الحق الا انك أضفت الموصوف الى الصفة فهو كقوله ان هذا لهو حق اليقين وفائدة قولك القول الحق تأكيد ما ذكرت أولا من كون عيسى عليه السلام ابن مريم (وثالثها) أن يكون قول الحق خبر المبتدا محذوف كانه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووصفنا له هو قول الحق فكانه تعالى وصفه أولا ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى بن مريم ثم ذكر ان هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى انه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية ويكون في معنى ان هذا لهو حق اليقين فاما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران روى ان عيسى عليه السلام لما رفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للاول ما تقول في عيسى فقال هو اله والله اله وأمه اله فتابعه على ذلك ناس وهم الاسرائيلية وقيل للرابع ما تقول فقال هو عبد الله ورسوله وهو المؤمن المسلم وقال أما تعلمون ان عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك فخصمهم أما قوله ما كان لله أن يتخذ من ولد فهو يحتمل أمرين (أحدهما) ان ثبوت الولد له محال فقولنا ما كان لله أن يتخذ من ولد كقوله ما كان لله أن يقول لاحد انه ولدي لان هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله فقوله ما كان لله أن يتخذ من ولد كقولنا ما كان لله أن يظلم أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال الهيته واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير انه ليس لله أن يفعل كل شيء لانه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الايجاد أي ليس له هذا الاختيار وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى فلا جرم قال ما كان لله أن يتخذ من ولد أما قوله سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما قال سبحانه ثم قال عقيبه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون كان كالحجة على تنزيهه عن الولد وبيان ذلك ان الذي يجعل ولدا لله

لانهم اتباع له عليه الصلاة والسلام في الامر بالتحدي وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه في الجهاد وارشاد الى أن ذلك مما يفيد الرسوخ في الايمان والطمأنينة في الايقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل (فاعلموا) أي اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كأن ما عداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم (انما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) المخصوص به بحيث لا يحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتي النظم الرائق والاخبار بالغيب (وأن لا اله الا هو) أي واعلموا أيضا أن لا شريك له في الالوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد (فهل أنتم مسلمون) أي مخلصون في الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج

اما

اما أن يكون قديما أزليا أو يكون محدثا فان كان أزليا فهو محال لانه لو كان واجبا لذاته لكان واجب
الوجود أكثر من واحد وهذا خلف وان كان ممكنا لذاته كان مفتقرا في وجوده الى الواجب لذاته غنيا لذاته
فيكون الممكن محتاجا لذاته فيكون عبدا له لانه لا معنى للعبودية الا ذلك واما ان كان الذي يجعل ولدا يكون
محدثا فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وايجاده وهو المراد من قوله اذا قضى أمرا فانما يقول له كن
فيكون فيكون عبدا له لا ولدا له فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد ﴿المسألة الثانية﴾ احتج الاصحاب بقوله
اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون على قدم كلام الله تعالى قالوا لان الآية تدل على انه تعالى اذا أراد
احداث شئ قال له كن فيكون فلو كان قوله كن محدثا لافتقر حدوثه الى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال
فثبت ان قول الله قديم لا محدث واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه (أحدها)
انه تعالى أدخل عليه كلمة اذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول الا في الاستقبال
(وثانيها) ان حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله فانما يقول له يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء
والمتأخر عن غيره محدث (وثالثها) الفاء في قوله فيكون يدل على حصول ذلك الشئ عقيب ذلك القول
من غير فصل فيكون قول الله متقدما على حدوث الحادث تقدما بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدما
بلا فصل يكون محدثا فقول الله محدث واعلم ان استدلال الفريقين ضعيف أما استدلال الاصحاب فلانه
يقتضي أن يكون قوله كن قديما وذلك باطل بالاتفاق وأما استدلال المعتزلة فلانه يقتضي أن يكون قول
الله تعالى هو المركب من الحروف والاصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه انما المدعى قدم شئ آخر
﴿المسألة الثالثة﴾ من الناس من أجرى الآية على ظاهرها اذ زعم أنه تعالى اذا أحدث شيأ قال له كن وهذا
ضعيف لانه اما أن يقول له كن قبل حدوثه أو حال حدوثه فان كان الاول كان ذلك خطابا مع المعدوم وهو
عبث وان كان الثاني فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والارادة فأي تأثير لقوله كن فيه ومن الناس من
زعم ان المراد من قوله كن هو التخليق والتكوين وذلك لان القدرة على الشئ غير وتكوين الشئ غير
فان الله سبحانه قادر في الازل وغير مكون في الازل ولانه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون
لها والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون لانا نقول المكون انما حدث لان الله تعالى
كونه فأوجده فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا المكون انما وجد بتكوين الله تعالى نازلا
منزلة قولنا المكون انما وجد بنفسه وذلك محال فثبت ان التكوين غير المكون فقوله كن اشارة الى
الصفة المسماة بالتكوين وقال آخرون قوله كن عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في الممكنات فان
وقوعها بتلك القدرة والارادة من غير امتناع واندفاع يجري مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لاوامر
مولاه فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة ❁ قوله تعالى ﴿وان الله ربي وربكم
فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم أسمع بهم
وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر وهم في غفلة وهم
لا يؤمنون انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون﴾ اعلم ان قوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه فيه
مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن ومعناه ولانه ربي وربكم فاعبدوه وقرأ الكوفيون
وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء وفي حرف أبي ان الله بالكسر من غير واو أي بسبب ذلك فاعبدوه ﴿المسألة
الثانية﴾ انه لا يصح أن يقول الله وان الله ربي وربكم فاعبدوه فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى وفيه
قولان (الاول) التقدير فقل يا محمد ان الله ربي وربكم بعد اظهار البراهين الباهرة في ان عيسى هو عبد الله
(الثاني) قال أبو مسلم الاصفهاني الواو في وان الله عطف على قول عيسى عليه السلام اني عبد الله آتاني
الكتاب كأنه قال اني عبد الله وانه ربي وربكم فاعبدوه وقال وهب بن منبه عهد اليهم حين أخبرهم عن
بعثه ومولده ونعته ان الله ربي وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى ﴿المسألة الثالثة﴾ قوله وان الله ربي وربكم يدل
على ان مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى خلاف قول المنجمين ان مدبر الناس ومصلح أمورهم في

اليقين ويجوز أن يكون الخطاب في الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الامر بالتحدي
والضمير في لم يستجيبوا
لمن استطعتم أي فان لم
يستجب لكم آلهتكم
وسائر من اليهم تجأرون
في مهماتكم وملماتكم
الى المعاونة والمظاهرة
فاعلموا أن ذلك خارج
عن دائرة قدرة البشر
وأنه منزل من خالق
القوى والقدر فايراد كلمة
الشك حينئذ مع الجزم
بعدم الاستجابة من جهة
آلهتهم تهكم بهم وتسجيل
عليهم بكمال سخافة
العقل وترتيب الامر
بالعلم على مجرد عدم
الاستجابة من حيث انه
مسبوق بالدعاء المسبوق
بعجزهم واضطرارهم
فكأنه قيل فان لم
يستجيبوا لكم عند
التجائكم اليهم بعد
ما اضطررتم الى ذلك
وضاقت عليكم الحيل
وعيت بكم العلل أو من
حيث ان من يستمدون
بهم أقوى منهم في
اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم
بعدم استجابتهم وان كان
ذلك قبل ظهور عجز
أنفسهم يكون عجزهم
أظهر وأوضح واعلموا
أيضا أن آلهتكم بمعزل
عن رتبة الشركة في
الالوهية وأحكامها فهل
أنتم داخلون في الاسلام
اذ لم يبق بعد شائبة شبهة
في حقيته وفي بطلان
ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان بكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذي هو كون القرآن من

السعادة والشقاوة وهي الكواكب ويدل أيضا على أن الاله واحد لان لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال ان الله ربي وربكم أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى وذلك يدل على التوحيد أما قوله فاعبدوه فقد ثبت في أصول الفقه ان ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فههنا الامر بالعبادة وقع مرتبا على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه انما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه ربا لنا وذلك يدل على أنه تعالى انما تجب عبادته لكونه منعما على الخلائق بأصول النعم وفروعها ولذلك فان ابراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الاوثان قال لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ يعني انها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها وبهذه الآية ثبت ان الله تعالى لما كان ربا وجب بالعبادة وجبت عبادته فقد ثبت طردا وعكسا تعلق العبادة بكون المعبود منعما أما قوله هذا صراط مستقيم يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم وانه سمى هذا القول بالصراط المستقيم تشبيها بالطريق لانه المؤدي الى الجنة أما قوله تعالى فاختلف الاحزاب من بينهم ففي الاحزاب أقوال (الاول) المراد فرق النصارى على ما بينا أقسامهم (الثاني) المراد النصارى واليهود جعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا (الثالث) المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم واذا قلنا المراد بقوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه أي قل يا محمد ان الله ربي وربكم فهذا القول أظهر لانه لا تخصيص فيه وكذا قوله فويل للذين كفروا مؤكد لهذا الاحتمال وأما قوله من مشهد يوم عظيم فالمشهد اما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به أو الشهادة وما يتعلق بها (أما الاول) فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب والجزاء في القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف أو وقت الشهود (وأما الشهادة) فيحتمل أن يكون المراد شهادة الملائكة والانبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الاعمال وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها وقيل هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه وانما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لانه لا شئ أعظم مما يشاهد في ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة ولا شئ من المنافع أعظم مما هنالك من الثواب ولا من المضار أعظم مما هنالك من العقاب ✽ أما قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالوا التعجب هو استعظام الشئ مع الجهل بسبب عظمه ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول قال الفراء قال سفيان قرأت عند شريح بل عجبت ويسخرون فقال ان الله لا يعجب من شئ انما يعجب من لا يعلم فذكرت ذلك لابراهيم النخعي فقال ان شريحا شاعر يعجبه علمه وعبد الله أعلم بذلك منه قرأها بل عجبت ويسخرون ومعناه انه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب في قلوبهم وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء الى الله تعالى واذا عرفت هذا فنقول للتعجب صيغتان (احداهما) ما أفعله (والثانية) أفعل به كقوله تعالى أسمع بهم وأبصر والنحويون ذكروا له تأويلات (الاول) قالوا أكرم بزيد أصله أكرم زيد أي صار ذا كرم كأغد البعير أي صار ذا غدة الا انه خرج على لفظ الامر ومعناه الخبر كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن والوالدات يرضعن أولادهن قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا أي يمد له الرحمن مدا وكذا قولهم رحمه الله خبر وان كان معناه الدعاء والباء زائدة (الثاني) أن يقال انه أمر لكل أحد بأن يجعل زيدا كريما أي بأن يصفه بالكرم والباء زائدة مثل قوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ولقد سمعت لبعض الادباء فيه تأويلا ثالثا وهو ان قولك أكرم بزيد يفيد أن زيدا بلغ في الكرم الى حيث كأنه في ذاته صار كرما حتى لو أردت جعل غيره كريما فهو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك كما أن من قال اكتب بالقلم فمعناه أن القلم هو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك (المسئلة الثانية) قوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو المشهور الاقوى ان معناه ما أسمعهم وما أبصرهم والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم وانما المراد ان اسماعهم وابصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا في الدنيا وقيل معناه التهديد بما سيسمعون وسيبصرون مما

عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفي هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والاول أنسب لما ساف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتي من قوله تعالى فلا تك في مرية منه واشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) أي ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن والسعة في الرزق وكثرة الاولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الاعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى (نوف اليهم أعمالهم فيها) وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد بأعمالهم أعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذي يترتب عليه الامور المذكورة بطريق الاجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا كاملة وقرئ

بسوء

يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم (وثانيها) قال القاضي ويحتمل أن يكون المراد أسمع هؤلاء وأبصرهم أي عرفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا (وثالثها) قال الجبائي ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الاتيان بمثل فعلهم أما قوله لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ففيه قولان (الاول) لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وفي الآخرة يعرفون الحق (والثاني) لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وهم في الآخرة في ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين وأما قوله تعالى وأنذرهم فلا شبهة في أنه أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن ينذر من في زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على أن قوله فاختلف الاحزاب أراد به اختلاف جميعهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وأما الانذار فهو التخويف من العذاب لكي يحذروا من ترك عبادة الله تعالى وأما يوم الحسرة فلا شبهة في أنه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من أهل النار وقيل يتحسر أيضا في الجنة اذا لم يكن من السابقين الواصلين الى الدرجات العالية والاول هو الصحيح لان الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب أما قوله تعالى اذ قضى الامر ففيه وجوه (أحدها) اذ قضى الامر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب (وثانيها) اذ قضى الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف والاول أقرب لقوله وهم لا يؤمنون فكأنه تعالى بين أنه ظهرت الحجج والبينات وهم في غفلة وهم لا يؤمنون (وثالثها) روى انه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله قضى الامر فقال حين يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا على فرح وأهل النار غما على غم واعلم أن الموت عرض فلا يجوز أن يصير جسما حيوانيا بل المراد انه لا موت البتة بعد ذلك. وأما قوله وهم في غفلة أي عن ذلك اليوم وعن كيفية حسراته وهم لا يؤمنون أي بذلك اليوم ثم قال بعده انا نحن نرث الارض ومن عليها أي هذه الامور تؤول الى أن لا يملك الضر والنفع الا الله تعالى والينا يرجعون أي الى محل حكمنا وقضائنا لانه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع اليه وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة ﴿القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى﴾ ﴿واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾ اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبودا سوى الله تعالى وهؤلاء فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا فاهما وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله جمادا ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا في الضلال الا أن ضلال الفريق الثاني أعظم فلما بين تعالى ضلال الفريق الاول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الاوثان فقال واذكر في الكتاب والواو في قوله واذكر عطف على قوله ذكر رحمة ربك عبده زكريا كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال ابراهيم وانما أمر بذكره لانه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب فاذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا قاهرا دالا على نبوته وانما شرع في قصة ابراهيم عليه السلام لوجوه (أحدها) ان ابراهيم عليه السلام كان أب العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الاوثان وان كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا (وثانيها) ان كثيرا من الكفار في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وبين

يوف على الاسناد الى الله عز وجل ونوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرئ نوفي بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله

وان أتاه خليل يوم مسغبة ... يقول لا غائب مالي ولا حرم

(وهم فيها) أي في الحياة الدنيا (لا يبخسون) أي لا ينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق مع انه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التي هي اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الاعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا كليا مطردا ولا يحرمونها حرمانا كليا وأما في الآخرة فهم في الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في سوء الحال أي أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس (الذين ليس لهم في الآخرة الا النار) لان هممهم كانت مصروفة الى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها

انه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الادب على جانب الدليل ردعلى الاب الاشرف الاكبر الذى هو ابراهيم عليه السلام (وثالثها) ان كثيرا من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قال الله تعالى قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وقالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيها لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة ثم قال تعالى فى وصف ابراهيم عليه السلام انه كان صديقا نبيا وفى الصديق قولان (أحدهما) أنه مبالغة فى كونه صادقا وهو الذى يكون عادته الصدق لان هذا البناء ينبئ عن ذلك يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الافعال (والثانى) انه الذى يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورا به والاول أولى وذلك لان المصدق بالشئ لا يوصف بكونه صديقا الا اذا كان صادقا فى ذلك التصديق فيعود الامر الى الاول فان قيل أليس قد قال تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء قلنا المؤمنون بالله ورسله صادقون فى ذلك التصديق واعلم أن النبى يجب أن يكون صادقا فى كل ما أخبر عنه لان الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق والالزم الكذب فى كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقا فى كل ما يقول ولان الرسل شهداء الله على الناس على ما قال الله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والشهيد انما يقبل قوله اذا لم يكن كاذبا فان قيل فما قولكم فى ابراهيم عليه السلام فى قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم قلنا قد شرحنا فى تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة ان شيأ من ذلك ليس بكذب فلما ثبت ان كل نبى يجب أن يكون صديقا ولا يجب فى كل صديق أن يكون نبيا ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبى فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا وأما النبى فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس وأى رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله كان صديقا قيل انه صار وقيل ان معناه وجد صديقا نبيا أى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة قال صاحب الكشاف هذه الجملة وقعت اعتراضا بين المبدل منه وبدله أعنى ابراهيم واذ قال ونظيره قولك رأيت زيدا ونعم الرجل أخاك ويجوز أن يتعلق اذ بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات أما قوله ياأبت فالتاء عوض من ياء الاضافة ولا يقال ياأبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه وقد يقال ياأبتا لكون الالف بدلا من الياء واعلم أنه تعالى حكى ان ابراهيم عليه السلام تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام (النوع الاول) قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وصف الاوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة فى الالهية وبيان ذلك من وجوه (أحدها) أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها الا من له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ما قررناه فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه وقال كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم الآية وكما يعلم بالضرورة انه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها (وثانيها) أنها اذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها فأى فائدة فى عبادتها وهذا ينبهك على ان الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات حتى يكون العبد آمنا من وقوع الغلط للمعبود (وثالثها) ان الدعاء مخ العبادة فالوثن اذا لم يسمع دعاء الداعى فأى منفعة فى عبادته واذا كانت لا تبصر تقرب من يتقرب اليها فأى منفعة فى ذلك التقرب (ورابعها) ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبادة الاخس (وخامسها) اذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأى فائدة فى عبادتها (وسادسها) اذا كانت لا تحفظ أنفسها عن الكسر والافساد على ما حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه كسرها وجعلها جذاذا فأى رجاء للغير فيها واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثة أوجه (أحدها) لا يسمع (وثانيها) لا يبصر (وثالثها) لا يغنى عنك شيأ كانه قال له بل الالهية ليست الا لربى فانه يسمع ويجيب دعوة الداعى ويبصر

وقد أحبتها وأثرتها ولم يكونوا يريدون بها شيأ آخر فلا جرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد (وحبط ما صنعوا فيها) أى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من أعمال البر اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص (وباطل) أى فى نفسه (ما كانوا يعملون) فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولاجل أن الاول من شأنه استتباع الثواب والاجر وان عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وان الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالاول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة كان فى الثانى دون الاول ايماء الى أن صدور أعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الاعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنيية وقرئ وبطل على الفعل أى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرئ وباطلا ما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو فى معنى المصدر كقوله

قال

ولاخارجا من في زوركلام * وعن أنس رضي الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود ٥٦١ والنصارى ان أعطوا سائلا أو

قال انى معكما أسمع وأرى ويقضى الحوائج أمن يجيب المضطر اذا دعاه واعلم أن قوله ههنا لم تعبد محمول على نفس العبادة وأما قوله فى المقام الثالث لا تعبد الشيطان لا يقال ذلك بل المراد الطاعة لانهم ما كانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة ولانا نقول ليس اذا تركنا الظاهر ههنا الدليل وجب ترك الظاهر فى المقام الاول بغير دليل (فان قيل) اما أن يقال ان أبا ابراهيم كان يعتقد فى تلك الاوثان انها آلهة بمعنى انها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات أو يقال انه ما كان يعتقد ذلك بل كان يعتقد انها تماثيل الكواكب والكواكب هى الآلهة المدبرة لهذا العالم فتعظيم تماثيل الكواكب يوجب تعظيم الكواكب أو كان يعتقد ان هذه الاوثان تماثيل أشخاص معظمة عند الله تعالى من البشر فتعظيمها يقتضى كون أولئك الاشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى أو كان يعتقد ان تلك الاوثان طلسمات ركبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها وأنها منشفع بها أو غير ذلك من الاعذار المنقولة عن عبدة الاوثان فان كان أبو ابراهيم من القسم الاول كان فى نهاية الجنون لان العلم بأن هذا الخشب المنحوت فى هذه الساعة ليس خالقا للسموات والارض من أجلى العلوم الضرورية فالشاك فيه يكون فاقدا لاجلى العلوم الضرورية فكان مجنونا والمجنون لا يجوز ايراد الحجة عليه والمناظرة معه وان كان من القسم الثانى فهذه الدلائل لا تقدح فى شئ من ذلك لان ذلك المذهب انما يبطل باقامة الدلالة على أن الكواكب ليست أحياء ولا قادرة على خلق الاجسام وخلق الحياة ومعلوم ان الدليل المذكور ههنا لا يفيد ذلك المطلوب فعلمنا أن هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات قلنا لا نزاع أنه لا يخفى على العاقل ان الخشبة المنحوتة لا تصلح لخلق العالم وانما مذهبهم هذا على الوجه الثانى وانما أورد ابراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لانهم كانوا يعتقدون ان عبادتها تفيد نفعا اما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر فبين ابراهيم عليه السلام أنه لا منفعة فى طاعتها ولا مضرة فى الاعراض عنها فوجب أن لا تحسن عبادتها (النوع الثانى) قوله يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ومعناه ظاهر وطمع فى التمسك به أهل التعليم وأهل التقليد أما أهل التعليم فقالوا انه أمره بالاتباع فى الدين وما أمره بالتمسك بدليل لا يستفاد الا من الاتباع وأما أهل التقليد فقد تمسكوا به أيضا من هذا الوجه ومن الناس من طعن انه أمره بالاتباع لتحصل الهداية فاذن لا تحصل الهداية الا باتباعه ولا تبعية الا اذا اهتدى لقولنا انه لا بد من اتباعه فيقع الدور وانه باطل (والجواب عن الاول) ان المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وايضاحه فعند هذا عاد السائل فقال أنا لا أنكر انه لا بد من الدلالة ولكنى أقول الوقوف على تلك الدلالة لا يستفاد الا من له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطا وهى نفس النبى المعصوم أو الامام المعصوم فاذا سلمت أنه لا بد من النبى فى هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض أجاب المجيب وقال أنا ما سلمت انه لا بد فى الوقوف على الدلائل من هداية النبى ولكنى أقول هذا الطريق أسهل وان ابراهيم عليه السلام دعاه الى الاسهل * والجواب عن سؤال الدور أن قوله فاتبعنى ليس أمر ايجاب بل أمر ارشاد (والنوع الثالث) قوله يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا أى لا تطعه لانه عاص لله فنفره بهذه الصفة عن القبول منه لانه أعظم الخصال المنفرة واعلم أن ابراهيم عليه السلام لامعانه فى الاخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان الا كونه عاصيا لله ولم يذكر معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر فى عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه وأيضا فان معصية الله تعالى لا تصدر الا عن ضعيف الرأى ومن كان كذلك كان حقيقا أن لا يلتفت الى رأيه ولا يجعل لقوله وزن * فان قيل ان هذا القول يتوقف على اثبات أمور (أحدها) اثبات الصانع (وثانيها) اثبات الشيطان (وثالثها) اثبات ان الشيطان عاص لله (ورابعها) انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته فى شئ من الاشياء (وخامسها) ان الاعتقاد الذى كان عليه ذلك الانسان كان مستفادا من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة

وصلوا رحما تعجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وانت خبير بأن ذلك انما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله تعالى ليس لهم الا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية الا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شئ أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شئ أصلا اقتضى الحال أن يتعرض

لبعض شؤنهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية

التى تورد على الخصم أن تكون مركبة من مقدمات معلومة مسلمة ولعل أبا ابراهيم كان منازعا فى كل هذه المقدمات وكيف والمحكى عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الاله الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يمكنه تسليم أن الشيطان كان عاصيا للرحمن ثم ان على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه ❊ قلنا الحجة المعول عليها فى ابطال مذهب آزر هو الذى ذكره أولا من قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ فاما هذا الكلام فيجرى مجرى التخويف والتحذير الذى يحمله على النظر فى تلك الدلالة وعلى هذا التقدير يسقط السؤال (النوع الرابع) قوله يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال الفراء معنى أخاف أعلم والاكثرون على انه محمول على ظاهره والقول الاول انما يصح لو كان ابراهيم عليه السلام عالما بان أباه سيموت على ذلك الكفر وذلك لم يثبت فوجب اجراؤه على ظاهره فانه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يصر فيموت على الكفر فيكون من أهل العقاب ومن كان كذلك كان خائفا لا قاطعا ❊ واعلم أن من يظن وصول الضرر الى غيره فانه لا يسمى خائفا الا اذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر اليه تألم قلبه كما يقال أنا خائف على ولدى أما قوله فتكون للشيطان وليا فذكروا فى الولى وجوها (أحدها) انه اذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان فى النار والولاية سبب للمعية واطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وان لم يحز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وحكى عن الشيطان انه يقول لهم انى كفرت بما أشركتمونى من قبل واعلم أن هذا الاشكال انما يتوجه اذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة أما اذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالاشكال ساقط (وثانيها) أن يحمل العذاب على الخذلان أى انى أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير مواليا للشيطان ويبرأ الله منك على ما قال تعالى ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (وثالثها) وليا أى تاليا للشيطان تليه كما يسمى المطر الذى يأتى تاليا وليا ❊ فان قيل قوله أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا يقتضى أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالا من العذاب نفسه وأعظم فما السبب لذلك (والجواب) أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم فوجب أن تكون ولاية الشيطان التى هى فى مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم ❊ واعلم أن ابراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن لانه نبه أولا على ما يدل على المنع من عبادة الاوثان ثم أمره باتباعه فى النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام على ما لا ينبغى ثم انه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونا باللطف والرفق فان قوله فى مقدمة كل كلام يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة فى صونه عن العقاب وارشاده الى الصواب وختم الكلام بقوله انى أخاف وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه وانما فعل ذلك لوجوه (أحدها) قضاء لحق الابوة على ما قال تعالى وبالوالدين احسانا والارشاد الى الدين من أعظم أنواع الاحسان فاذا انضاف اليه رعاية الادب والرفق كان ذلك نورا على نور (وثانيها) ان الهادى الى الحق لا بد وأن يكون رفيقا لطيفا يورد الكلام لا على سبيل العنف لان ايراده على سبيل العنف يصير كالسبب فى اعراض المستمع فيكون ذلك فى الحقيقة سعيا فى الاغواء (وثالثها) ما روى أبو هريرة أنه قال عليه السلام أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انك خليلى فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فان كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشى وان أسكنه حظيرة قدسى وأدنيه من جوارى والله أعلم ❊ قوله تعالى ﴿قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا﴾ اعلم أن ابراهيم عليه السلام لما دعا أباه الى التوحيد وذكر الدلالة على فساد عبادة الاوثان وأردف تلك الدلالة بالوعظ

وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل (أفمن كان على بينة من ربه) أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية ما رغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليه فى قوله تعالى (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ما وقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الاول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز (منه) أى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون. قوله تعالى فاعلموا فهل أنتم دخولا أولياء وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل

البليغ

البليغ وأورد كل ذلك مقرونا باللطف والرفق قابله أبوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر في مقابلة حجته الا قوله أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم فأصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم وقابل رفقه في قوله يا أبت بالعنف حيث لم يقل له يا بني بل قال يا ابراهيم وانما حكى الله تعالى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ليخفف على قلبه ما كان يصل اليه من أذى المشركين فيعلم ان الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة أما قوله أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم فان كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان لانه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول وان كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الاعراض عن حجة لا فائدة فيها وانما التعجب كله من الاقدام على عبادتها فان الدليل الذي ذكره ابراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها فكان أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهة ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه * أما قوله لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في الرجم ههنا قولان (الاول) انه الرجم باللسان وهو الشتم والذم ومنه قوله والذين يرمون المحصنات أي بالشتم ومنه الرجيم أي المرمي باللعن قال مجاهد الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم (والثاني) انه الرجم باليد وعلى هذا التقدير ذكروا وجوها (أحدها) لأرجمنك باظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك (وثانيها) لارجمنك بالحجارة لتتباعد عني (وثالثها) عن المؤرج لأقتلنك بلغة قريش (ورابعها) قال أبو مسلم لأرجمنك المراد منه الرجم بالحجارة الا أنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والابعاد اتساعا ويدل على أنه أراد الطرد قوله تعالى واهجرني مليا * واعلم أن أصل الرجم هو الرمي بالرجام فحمله عليه أولى * فان قيل فما يدل قوله تعالى واهجرني مليا على أن المراد به الرجم بالشتم * قلنا لا وذلك لانه هدده بالرجم ان بقي على قربه منه وأمره أن يبعد هربا من ذلك فهو في معنى قوله واهجرني مليا ﴿المسئلة الثانية﴾ في قوله تعالى واهجرني مليا قولان (أحدهما) المراد واهجرني بالقول (والثاني) بالمفارقة في الدار والبلد وهي هجرة الرسول والمؤمنين أي تباعد عني لكي لا أراك وهذا الثاني أقرب الى الظاهر ﴿المسئلة الثالثة﴾ في قوله مليا قولان (الاول) مليا أي مدة بعيدة مأخوذ من قولهم أتى على فلان ملاوة من الدهر أي زمان بعيد (والثاني) مليا بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح يقال فلان ملي بكذا اذا كان مطيقا له مضطلعا به ﴿المسئلة الرابعة﴾ عطف اهجرني على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك أي فاحذرني واهجرني لئلا أرجمنك ثم ان ابراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك أجاب بأمرين (أحدهما) أنه وعده التباعد منه وذلك لان أباه لما أمره بالتباعد أظهر الانقياد لذلك الامر وقوله سلام عليك توادع ومتاركة كقوله تعالى لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى أنه تحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له ألا ترى أنه وعده بالاستغفار ثم انه لما ودع بقوله سلام عليك ضم الى ذلك ما دل به على أنه وان بعد عنه فاشفاقه باق عليه كما كان وهو قوله سأستغفر لك ربي واحتج بهذه الآية من طعن في عصمة الانبياء وتقريره ان ابراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز لانه استغفر لابيه وهو كافر والاستغفار للكافر لا يجوز فثبت بمجموع هذه المقدمات أن ابراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز انما قلنا انه استغفر لابيه لقوله تعالى حكاية عن ابراهيم سلام عليك سأستغفر لك ربي وقوله واغفر لابي انه كان من الضالين وأما أن أباه كان كافرا فذلك بنص القرآن وبالاجماع وأما أن الاستغفار للكافر لا يجوز فلوجهين (الاول) قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين (الثاني) قوله في سورة الممتحنة قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم الى قوله لأستغفرن لك وأمر الناس الا في هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه (والجواب) لا نزاع الا في قولكم الاستغفار للكافر لا يجوز فان الكلام

مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير في منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبي صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والاولى هو الاول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تابعا له بحيث لا يفارقه في مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذي يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى في قوله عز قائلا (ومن قبله كتاب موسى) على فاعله مع كونه مقدما عليه في النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم في الذكر المؤخر في النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته في وصف التلو والتنكير في بينة وشاهد للتفخيم (اماما) أي مؤتما به في الدين ومقتدى وفي التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شأن المتلو (ورحمة) أي نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم الى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب (أولئك) الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهو الكون على بينة من الله ولما أن ذلك

عليه من وجوه (أحدها) ان القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف الا بالسمع فلعل ابراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لابيه (وثانيها) ان الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة كما في قوله قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله والمعنى سأسأل ربي أن لا يخزيك بكفرك ما كنت حيا بعذاب الدنيا المعجل (وثالثها) انه عليه السلام انما استغفر لابيه لانه كان يرجو منه الايمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار ولعل في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجى منه الايمان والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم فبين أن المنع من الاستغفار انما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم ثم قال بعد ذلك وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه فان قيل اذا كان الامر كذلك فلم منعنا من التأسي به في قوله قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك قلنا الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسي به في ذلك لكن المنع من التأسي به في ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية فان كثيرا من الاشياء هي من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لنا التأسي به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام (ورابعها) لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الاولى وحسنات الابرار سيآت المقربين أما قوله انه كان بي حفيا أي لطيفا رفيقا يقال أحفى فلان في المسئلة بفلان اذا لطف به وبالغ في الرفق ومنه قوله تعالى ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا أي وان لطفت المسئلة والمراد أنه سبحانه لطفه بي وانعامه علي عودني الاجابة فاذا أنا استغفرت لك حصل المراد فكأنه جعله بذلك على يقين ان هو تاب أن يحصل له الغفران (الجواب الثاني) من الجوابين قوله وأعتزلكم وما تدعون من دون الله الاعتزال للشئ هو التباعد عنه والمراد أني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضا وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر والذي خلقني وأنعم علي فانكم بعبادة الاصنام سالكون طريقة الهلاك فواجب علي مجانبتكم ومعنى قوله عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا أرجو أن لا أكون كذلك وانما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين وأما قوله شقيا مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم على ما قرره أولا في قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ ﴿ قوله تعالى ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾ اعلم أنه ما خسر على الله أحد فان ابراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة الى ربه الى حيث أمره لم يضره ذلك دينا ودنيا بل نفعه فعوضه أولادا أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولا الى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة فصار جعله تعالى اياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم مع النبوة ما وهب ويدخل فيه المال والجاه والاتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال وجعلنا لهم لسان صدق عليا ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يعطى باليد وهو العطية واستجاب الله دعوته في قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم وقال عز وجل ملة أبيكم ابراهيم ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا قال بعضهم ان الخليل اعتزل عن الخلق على ما قال وأعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم بارك الله في أولاده فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا (وثانيها) انه تبرأ من أبيه في الله تعالى على ما قال فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم لا جرم ان الله سماه أبا للمسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم (وثالثها) تل ولده للجبين ليذبحه على ما قال فلما أسلما وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه بذبح عظيم (ورابعها) أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فقال قلنا يا نار كوني

عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن لف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بانهم (يؤمنون به) أي يصدقون حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته (ومن يكفر به) أي بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة (من الاحزاب) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) يردها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم في الآخرة الا النار وفي جعلها موعدا اشعار بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب (فلا تك في مرية منه) أي في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غب ما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به (انه الحق من ربك) الذي يربيك في دينك ودنياك (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك اما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن في قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم وما لهم يعني أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة

بردا

برداوسلاما على ابراهيم (وخامسها) أشفق على هذه الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات الخمس كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم (وسادسها) في حق سارة في قوله وابراهيم الذي وفى لا جرم جعل موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى (وسابعها) عادى كل الخلق في الله فقال فانهم عدو لي الا رب العالمين لا جرم اتخذه الله خليلا على ما قال واتخذ الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا انه ما خسر على الله أحد ﴿القصة الرابعة﴾ قصة موسى عليه السلام ❁ قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا﴾ اعلم انه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور (أحدها) أنه كان مخلصا فاذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاجتباء كان الله تعالى اصطفاه واستخلصه واذا قرئ بالكسر فمعناه أخلص لله في التوحيد في العبادة والاخلاص هو القصد في العبادة الى أن يعبد المعبود بها وحده ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين (وثانيها) كونه رسولا نبيا ولا شك انهما وصفان مختلفان لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول ومن الناس من أنكر ذلك وقد بينا الكلام فيه في سورة الحج في قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي (وثالثها) قوله تعالى وناديناه من جانب الطور الايمن من اليمين أي من ناحية اليمين والايمن صفة الطور أو الجانب (ورابعها) قوله وقربناه نجيا ولما ذكر كونه رسولا قال وقربناه نجيا وفي قوله قربناه قولان (أحدهما) المراد قرب المكان عن أبي العالية قربه حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة في الالواح (والثاني) قرب المنزلة أي رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة قال القاضي وهذا أقرب لان استعمال القرب في الله قد صار بالتعارف لا يراد به الا المنزلة وعلى هذا الوجه يقال في العبادة تقرب ويقال في الملائكة عليهم السلام انهم مقربون وأما نجيا فقيل فيه أنجيناه من أعدائه وقيل هو من المناجاة في المخاطبة وهو أولى (وخامسها) قوله ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال ابن عباس رضي الله عنهما كان هرون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام وانما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته وذلك اجابة لدعائه في قوله واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي اشدد به أزري فأجابه الله تعالى اليه بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وقوله سنشد عضدك بأخيك ﴿القصة الخامسة﴾ قصة اسمعيل عليه السلام ❁ قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ اعلم أن اسمعيل هذا هو اسمعيل ابن ابراهيم عليهما السلام واعلم أن الله تعالى وصف اسمعيل عليه السلام بأشياء (أولها) قوله انه كان صادق الوعد وهذا الوعد يمكن أن المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس (أما الاول) فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيأ مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لان الله تعالى اذا أرسل الملك الى الانبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة (وأما الثاني) فهو أنه عليه السلام كان اذا وعد الناس بشئ أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وأيضا وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال ستجدني ان شاء الله من الصابرين ويروى ان عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرني حتى آتيك فقال عيسى عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء لحاجة الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه واعد رجلا ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى قريب من غروب الشمس وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادا الى أي وقت ينتظره فقال ان واعده نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة أخرى (وثانيها) قوله وكان رسولا نبيا وقد مر تفسيره (وثالثها) قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة والاقرب

على ما ذكر من صفاتهم وعدد من جناياتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم في الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون في العاجل والآجل كما في قوله تعالى أفاتخذتم من دونه أولياء أي أبعد أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان نسب اليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعني أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وان كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها وافادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ما سيتلى من قوله عز وجل لا جرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما انه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (أولئك) الموصوفون بالظلم البالغ الذي هو الافتراء على الله تعالى وبهذه الاشارة حصلت الغنية عن اسناد العرض الى أعمالهم واكتفي باسناده اليهم حيث قيل (يعرضون) لان عرضهم من

فى الاهل ان المراد به من يلزمه أن يؤدى اليه الشرع فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه فى جميعهم ما يلزم المرء فى أهله خاصة هذا اذا حمل الامر على المفروض من الصلاة والزكاة فان حمل على الندب فيهما كان المراد انه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله أى من كان فى داره فى ذلك الوقت بذلك وكان نظره لهم فى الدين يغلب على شفقته عليهم فى الدنيا بخلاف ماعليه أكثر الناس وقيل كان يبدأ بأهله فى الامر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها قوا أنفسكم وأهليكم نارا وأيضا فهم أحق أن يتصدق عليهم فوجب أن يكونوا بالاحسان الدينى أولى فأما الزكاة فعن ابن عباس رضى الله عنهما انها طاعة الله تعالى والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه والظاهر انه اذا قرنت الزكاة الى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء (ورابعها) قوله وكان عند ربه مرضيا وهو فى نهاية المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعاته باعلى الدرجات ﴿القصة السادسة﴾ قصة ادريس عليه السلام ۞ قوله تعالى ﴿واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا﴾ اعلم ان ادريس عليه السلام هو جد أبى نوح عليه السلام وهو نوح بن لملك بن متوشلخ بن أخنوخ قيل سمى ادريس لكثرة دراسته واسمه أخنوخ ووصفه الله تعالى بامور (أحدها) انه كان صديقا (وثانيها) انه كان نبيا وقد تقدم القول فيهما (وثالثها) قوله ورفعناه مكانا عليا وفيه قولان (أحدهما) أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود (الثانى) أن المراد به الرفعة فى المكان الى موضع عال وهذا أولى لان الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة فى المكان لا فى الدرجة ثم اختلفوا فقال بعضهم ان الله رفعه الى السماء والى الجنة وهو حى لم يمت وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه سأل ابن عباس رضى الله عنهما كعبا عن قوله ورفعناه مكانا عليا قال جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به الى السماء فلما كان فى السماء الرابعة فاذا ملك الموت يقول بعثت وقيل لى اقبض روح ادريس فى السماء الرابعة وأنا أقول كيف ذلك وهو فى الارض فالتفت ادريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هنالك واعلم ان الله تعالى انما مدحه بان رفعه الى السماء لانه جرت العادة أن لا يرفع اليها الا من كان عظيم القدر والمنزلة ولذلك قال فى حق الملائكة ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته وههنا آخر القصص ۞ قوله تعالى ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا﴾ اعلم انه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الانبياء بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخرا فقال أولئك الذين أنعم الله عليهم أى بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه وأولئك اشارة الى المذكورين فى السورة من لدن زكريا الى ادريس ثم جمعهم فى كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بانه من ذرية من حمل مع نوح والذى يختص بانه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو ادريس عليه السلام فقد كان سابقا على نوح على ما ثبت فى الاخبار والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو ابراهيم عليه السلام لانه من ولد سام بن نوح واسمعيل واسحق ويعقوب من ذرية ابراهيم ثم خص بعضهم بانهم من ولد اسرائيل أى يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الام فرتب الله سبحانه وتعالى أحوال الانبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما فضلوا باعمالهم فلهم مزيد فى الفضل بولادتهم من هؤلاء الانبياء ثم بين انهم ممن هدينا واجتبينا منبها بذلك على انهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم ولانه اختارهم للرسالة ثم قال اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا تتلى عليهم أى على هؤلاء الانبياء فبين تعالى انهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذى عند تلاوة آيات الله يخرون سجدا وبكيا خضوعا وخشوعا

ربهم) الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل (ويقول الاشهاد) عند العرض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كاصحاب وأشراف (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى ويقولون دون ويشهد الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الاول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك من الخزى على رؤس الاشهاد (الذين يصدون) أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد (عن سبيل الله) عن دينه القويم (ويبغونها عوجا) انحرافا أى يصفونها بذلك وهى أبعد شئ منه أو يبغون

وحذرا

وحذرا وخوفا والمراد بآيات الله ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم وقال أبو مسلم المراد بالآيات التى فيها ذكر العذاب المنزل بالكفار وهو بعيد لان سائر الآيات التى فيها ذكر الجنة والنار الى غير ذلك أولى أن يسجدوا عنده ويبكوا فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب لان كل ذلك اذا فكر فيه المتفكر صح أن يسجد عنده وأن يبكى واختلفوا فقال بعضهم فى السجود انه الصلاة وقال بعضهم المراد سجود التلاوة على حسب ما تعبدنا به وقيل المراد الخضوع والخشوع والظاهر يقتضى سجودا مخصوصا عند التلاوة ثم يحتمل أن يكون المراد سجود التلاوة للقرآن ويحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لالاجل ذكر السجود فى الآية قال الزجاج فى بكيا جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود ثم قال الانسان فى حال خروره لا يكون ساجدا فالمراد خروا مقدرين للسجود ومن قال فى بكيا انه مصدر فقد أخطأ لان سجدا جمع ساجد وبكيا معطوف عليه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المرى قال قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فاين البكاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن نزل بحزن فاقرؤه بحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اغرورقت عين بمائها الا حرم الله على النار جسدها وعن أبى هريرة رضى الله عنه لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو فى سجود التلاوة بما يليق بها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك ان أكون من المستكبرين عن أمرك وان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه السجدة قال اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آيات كتابك ﴿قوله تعالى﴾ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيأ﴾ اعلم انه تعالى لما وصف هؤلاء الانبياء بصفات المدح ترغيبا لنا فى التأسى بطريقتهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال فخلف من بعدهم خلف وظاهر الكلام ان المراد من بعد هؤلاء الانبياء خلف من أولادهم يقال خلفه اذا أعقبه ثم قيل فى عقب الخير خلف بفتح اللام وفى عقب الشر خلف بالسكون كما قالوا وعد فى ضمان الخير ووعيد فى ضمان الشر وفى الحديث فى الله خلف من كل هالك وفى الشعر للبيد

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ＊ وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

ثم وصفهم باضاعة الصلاة واتباع الشهوات فاضاعة الصلاة فى مقابلة قوله خروا سجدا واتباع الشهوات فى مقابلة قوله وبكيا لان بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء الشهوات يدل على عدم الخوف لهم وظاهر قوله أضاعوا الصلاة تركوها لكن تركها قد يكون بأن لا تفعل أصلا وقد يكون بأن لا تفعل فى وقتها وان كان الاظهر هو الاول وأما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الاخت من الاب واحتج بعضهم بقوله الا من تاب وآمن على أن تارك الصلاة كافر واحتج أصحابنا بها فى أن الايمان غير العمل لانه تعالى قال وآمن وعمل صالحا فعطف العمل على الايمان والمعطوف غير المعطوف عليه أجاب الكعبى عنه بأنه تعالى فرق بين التوبة والايمان والتوبة من الايمان فكذلك العمل الصالح يكون من الايمان وان فرق بينهما وهذا الجواب ضعيف لان عطف الايمان على التوبة يقتضى وقوع المغايرة بينهما لان التوبة عزم على الترك والايمان اقرار بالله تعالى وهما متغايران فكذا فى هذه الصورة ثم بين تعالى ان من هذه صفته يلقون غيا وذكروا فى الغى وجوها (أحدها) ان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد قال الشاعر

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ＊ ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

(وثانيها) قال الزجاج يلقون غيا أى يلقون جزاء الغى كقوله تعالى يلق أثاما أى مجازاة الآثام (وثالثها)

أهلها أن يفرقوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم انه ليس من عند الله (وهم بالآخرة هم كافرون) أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لا انهم يؤمنون بها ويزعمون أن لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كان كفر غيرهم ليس بشئ عند كفرهم (أولئك) مع ما وصف من أحوالهم الموجبة للتدمير (لم يكونوا معجزين) الله تعالى منفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك (فى الارض) مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من أولياء) ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لاحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية (يضاعف لهم العذاب) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد (ما كانوا يستطيعون السمع) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لا يقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة

غياعن طريق الجنة (ورابعها) الغى واد فى جهنم يستعيذ منه أوديتها والوجهان الاولان أقرب فان كان فى جهنم موضع يسمى بذلك جاز ولا يخرج من أن يكون المراد ماقدمنا لانه المعقول فى اللغة ثم بين سبحانه ان هذا الوعيد فيمن لم يتب وأما من تاب وآمن وعمل صالحا فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم وههنا سؤالات (الاوّل) الاستثناء دل على انه لابد من التوبة والايمان والعمل الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليها الصلاة والزكاة أيضا غير واجبة وكذا الصوم فههنا لو مات فى ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع انه لم يصدر عنه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح والجواب ان هذه الصورة نادرة والمراد منه الغالب (السؤال الثانى) قوله ولا يظلمون شيأ هذا انما يصح لو كان الثواب مستحقا على العمل لانه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم لكن من مذهبكم انه لا استحقاق للعبد بعمله الا بالوعد (الجواب) انه لما أشبهه أجرى على حكمه ﴿ قوله تعالى ﴿جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر فى التائب انه يدخل الجنة وصف الجنة بامور (أحدها) قوله جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب والعدن الاقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان فى الدنيا التى لا تدوم ولذلك فان حالها لا يتغير فى مناظرها فليست كجنان الدنيا التى حالها يختلف فى خضرة الورق وظهور النور والثمر وبين تعالى انها وعد الرحمن لعباده وأما قوله بالغيب ففيه وجهان (أحدهما) انه تعالى وعدها وهى غائبة عنهم غير حاضرة أوهم غائبون عنها لا يشاهدونها (والثانى) ان المراد وعد الرحمن للذين يكونون عبادا بالغيب أى الذين يعبدونه فى السر بخلاف المنافقين فانهم يعبدونه فى الظاهر ولا يعبدونه فى السر وهو قول أبى مسلم والوجه الاول أقوى لانه تعالى بين ان الوعد منه تعالى وان كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل فلذلك قال بعده انه كان وعده مأتيا أما قوله مأتيا فقيل انه مفعول بمعنى فاعل والوجه ان الوعد هو الجنة وهم يأتونها قال الزجاج كل ما وصل اليك فقد وصلت اليه وما أتاك فقد أتيته والمقصود من قوله انه كان وعده مأتيا بيان أن الوعد منه تعالى وان كان بامر غائب فهو كانه مشاهد وحاصل والمراد تقرير ذلك فى القلوب (وثانيها) قوله لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما واللغو من الكلام ما سبيله ان يلغى ويطرح وهو المنكر من القول ونظيره قوله لا تسمع فيها لاغية وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التى لا تكليف فيها وما أحسن قوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين أما قوله الا سلاما ففيه بحثان (الاوّل) ان فيه اشكالا وهو ان السلام ليس من جنس اللغو فكيف استثنى السلام من اللغو * والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان معنى السلام هو الدعاء بالسلامة وأهل الجنة لا حاجة بهم الى هذا الدعاء فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الاكرام (وثانيها) ان يحمل ذلك على الاستثناء المنقطع (وثالثها) أن يكون هذا من جنس قول الشاعر

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

(البحث الثانى) ان ذلك السلام يحتمل أن يكون من سلام بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم الله تعالى على ما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقوله سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) قوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وفيه سؤالان (السؤال الاوّل) ان المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المستعظمة * والجواب من وجهين (الاوّل) قال الحسن أراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما أحبوه فى الدنيا ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التى كانت عادة العجم والارائك التى هى الحجال المضروبة على الاسرة وكانت من عادة أشراف العرب فى اليمن ولا شئ كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك (الثانى) ان المراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة

وعشيا

بالابصار بالغرف نفى الاول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى (وما كانوا يبصرون) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فان ما لا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الامر سوء العاقبة (أولئك) المنعوتون بما ذكر من القبائح (الذين خسروا أنفسهم) باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من الآلهة أو شفاعتها أو خسروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة (لا جرم) فيه ثلاثة أوجه الاول أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق (أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب وما بعده مفعوله وفاعله ما دل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث أن لا جرم بمعنى لابد أى لابد أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وأيا ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه

وعشيا تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين ﴿السؤال الثانى﴾ قال تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا وقال عليه السلام لا صباح عند ربك ولا مساء والبكرة والعشى لا يوجدان الا عند وجود الصباح والمساء (والجواب) المراد انهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشى الا أنه ليس فى الجنة غدوة وعشى اذ لا ليل فيها ويحتمل ما قيل انه تعالى جعل لقدر اليوم علامة يعرفون بها مقادير الغداة والعشى ويحتمل أن يكون المراد لهم رزقهم متى شاؤا كما جرت العادة فى الغداة والعشى (وخامسها) قوله تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا وفيه أبحاث (الاول) قوله تلك الجنة هذه الاشارة انما صحت لان الجنة غائبة (وثانيها) ذكروا فى نورث وجوها (الاول) نورث استعارة أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث (الثانى) ان المراد ا نا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل هذا النقل ارثا قاله الحسن (الثالث) ان الاتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمراتها باقية وهى الجنة فاذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى (ورابعها) معنى من كان تقيا من تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات قال القاضى فيه دلالة على ان الجنة يختص بدخولها من كان متقيا والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك والجواب الآية تدل على أن المتقى يدخلها وليس فيها دلالة على أن غير المتقى لا يدخلها وأيضا فصاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه انه متق لان المتقى جزء من مفهوم قولنا المتقى عن الكفر واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه انه متق وجب أن يدخل تحته فالآية بان تدل على ان صاحب الكبيرة يدخل الجنة أولى من أن تدل على أن لا يدخلها ﴿ قوله تعالى ﴿وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾ اعلم ان فى الآية اشكالا وهو أن قوله تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بأمر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل والجواب انه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كما أن قوله سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون هو كلام الله وقوله وان الله ربى وربكم كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر واعلم ان ظاهر قوله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق الا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل فى سببه ما روى ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه فى كتابهم فسألوا النصارى فزعموا انهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده فى كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسئلوه عنهن فان أخبركم بخصلتين منها فاتبعوه فاسئلوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح قال فجاؤا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم بعد ذلك ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أبطأت عنى حتى ساء ظنى واشتقت اليك قال انى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فانزل الله تعالى هذه الآية وأنزل قوله ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله وسورة الضحى ثم أكد وا ذلك بقولهم له ما بين أيدينا وما خلفنا أى هو المدبر لنا فى كل الاوقات الماضى والمستقبل وما بينهما أو الدنيا والآخرة وما بينهما فانه يعلم اصلاح التدبير مستقبلا وماضيا وما بينهما والغرض ان أمرنا موكول الى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وارادته وحكمته لا اعتراض لاحد عليه فيه وقال أبو مسلم قوله وما نتنزل الا بامر ربك يجوز أن يكون قول أهل الجنة والمراد وما نتنزل الجنة الا بامر ربك له ما بين أيدينا أى فى الجنة مستقبلا وما خلفنا مما كان فى الدنيا وما بين ذلك أى ما بين الوقتين وما كان ربك نسيا لشئ مما خلق فيترك اعادته لانه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله وما كان ربك نسيا ابتداء كلام منه تعالى فى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتصل به رب السموات والارض أى بل هو رب السموات

أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم ومالهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين وما يؤل اليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل (ان الذين آمنوا) أى بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج تحته ما نحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدى الى ذلك فى الانفس والآفاق أو فعلوا الايمان كما فى يعطى ويمنع (وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهى الارض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأتهم وانجد دخل فى تهامة ونجد (أولئك)

والارض وما بينهما فاعبده قال القاضي وهذا مخالف للظاهر من وجوه (أحدها) ان ظاهر التنزل نزول الملائكة الى الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله بامر ربك وظاهر الامر بحال التكليف أليق (وثانيها) انه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة (وثالثها) ان ما في سياقه من قوله وما كان ربك نسيا رب السموات والارض وما بينهما لا يليق الا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم فكأنهم قالوا للرسول وما كان ربك يا محمد نسيا يجوز عليه السهو حتى يضرك ابطاؤنا بالتنزل عليك الى مثل ذلك ثم ههنا أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قال صاحب الكشاف التنزل على معنيين (أحدهما) النزول على مهل (والثاني) بمعنى النزول على الاطلاق والدليل عليه انه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل والمراد ان نزولنا في الاحايين وقتا بعد وقت ليس الا بامر الله تعالى ﴿البحث الثاني﴾ ذكروا في قوله ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وجوها (أحدها) له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه فلا نتمالك أن ننتقل من جهة الى جهة ومن مكان الى مكان الا بامره ومشيئته فليس لنا أن ننقلب من السماء الى الارض الا بامره (وثانيها) له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ما بين النفختين وهو أربعون سنة (وثالثها) ما مضى من أعمارنا وما غبر من ذلك والحال التي نحن فيها (ورابعها) ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا (وخامسها) الارض التي بين أيدينا اذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والارض وعلى كل التقديرات فالمقصود انه المحيط بكل شئ لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل الا بامره وحكمه ﴿البحث الثالث﴾ قوله وما كان ربك نسيا أي تاركا لك كقوله ما ودعك ربك وما قلى أي ما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه اياك أما قوله رب السموات والارض وما بينهما فالمراد أن من يكون ربا لهما أجمع لا يجوز عليه النسيان اذ لا بد من أن يمسكهما حالا بعد حال والا بطل الامر فيهما وفيمن يتصرف فيهما واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان فعل العبد خلق الله تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض والآية دالة على انه رب لكل شئ حصل بينهما قال صاحب الكشاف رب السموات والارض بدل من ربك ويجوز أن يكون خبر مبتدا محذوف أي هو رب السموات والارض فاعبده واصطبر لعبادته فهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الاداء والابلاغ وفيما يخصه من العبادة فان قيل لم لم يقل واصطبر على عبادته بل قال واصطبر لعبادته قلنا لان العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته والمعنى ان العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك من القاء أهل الكتاب اليك الاغاليط من احتباس الوحي عنك مدة وشماتة المشركين بك أما قوله تعالى هل تعلم له سميا فالظاهر يدل على انه تعالى جعل علة الامر بالعبادة والامر بالمصابرة عليها انه لا سمي له والاقرب هو كونه منعما باصول النعم وفروعها وهي خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه فاذا كان هو قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب ان تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة ومن الناس من قال المراد انه سبحانه ليس له شريك في اسمه وبينوا ذلك من وجهين (الاول) انهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شئ سواه وعن ابن عباس رضي الله عنهما لا يسمى بالرحمن غيره (الثاني) هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل لان التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية والقول الاول هو الصواب والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيأ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ اعلم انه تعالى لما أمر بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادات لا منفعة فيها في الدنيا واما في الآخرة فقد أنكرها قوم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة

المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا فقيل (مثل الفريقين) المذكورين أي حالهما العجيب لان المثل لا يطلق الا على ما فيه غرابة من الاحوال والصفات (كالاعمى والاصم والبصير والسميع) أي كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وان أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بالاعمى وبالاصم وتشبيه الفريق الثاني بالبصير وبالسميع لكن الادخل في المبالغة والاقرب الى ما يشير اليه لفظ المثل والانسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثاني بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في قوله تعالى والاصم وفي قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما في قول من قال

الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتيبة في المزدحم

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهي التي يدور عليها أمر التشبيه ما يلائم الاحوال المذكورة المعتبرة في جانب المشبه به من تعامي الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة في العالم

مفيد

مفيد فلهذا حكى الله تعالى قول منكري الحشر فقال و يقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا واغا قالوا ذلك على وجه الانكار والاستبعاد وذكروا في الانسان وجهين (أحدهما) أن يكون المراد الجنس باسره فان قيل كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح اسنادها الى جميعهم كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا واغا القاتل رجل منهم (والثاني) ان هذا الاستبعاد موجود ابتداء في طبع كل أحد الا أن بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبني على محض الطبع بالدلالة القاطعة التي قامت على صحة القول به (الثاني) ان المراد بالانسان شخص معين فقيل هو أبو جهل وقيل هو أبي بن خلف وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدلالة على صحة البعث بقوله أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيأ والقراء كلهم على يذكر بالتشديد الا نافعا وابن عامر وعاصما قد خففوا أي أولا يتذكر الانسان انا خلقناه من قبل واذا قرئ أولا يذكر فهو أقرب الى المراد اذ الغرض التفكر والنظر في انه اذا خلق من قبل لا من شئ فجائز أن يعاد ثانيا قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها اذ لا شك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ونظيره قوله قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وقوله وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان المعدوم ليس بشئ وهو ضعيف لان الانسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت بها اعراض وهذا المجموع ما كان شيأ ولكن لم قلت ان كل واحد من تلك الاجزاء ما كان شيأ قبل كونه موجودا فان قيل كيف أمر تعالى الانسان بالذكر مع ان الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخلله سهو قلنا المراد أولا يتفكر فيعلم خصوصا اذا قرئ أولا يذكر الانسان بالتشديد اما اذا قرئ أولا يذكر بالتخفيف فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل أحد يعلم انه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم انه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه (أحدها) قوله فوربك لنحشرنهم والشياطين وفائدة القسم أمران (أحدهما) ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين (والثاني) ان في اقسام الله تعالى باسمه مضافا الى اسم رسوله صلى الله عليه وسلم تفخيما لشأنه صلى الله عليه وسلم ورفعا منه كما رفع من شأن السماء والارض في قوله فورب السماء والارض انه لحق والواو في والشياطين يجوز أن تكون للعطف وأن تكون بمعنى مع وهي بمعنى مع أوقع والمعنى انهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة (وثانيها) قوله ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا وهذا الاحضار يكون قبل ادخالهم جهنم ثم انه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى جثيا لان البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز فان قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية والسبب فيه جريان العادة ان الناس في مواقف المطالبات من الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من الاستنظار والقلق أو لما يدهمهم من شدة الامر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم واذا كان هذا عاما للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار قلنا لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور في الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل في حقهم (وثالثها) قوله ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا والمراد بالشيعة وهي فعلة كفرقة وفئة الطائفة التي شاعت أي تبعت غاويا من الغواة قال تعالى ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا والمراد انه تعالى يحضرهم أولا حول جهنم جثيا ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا في كفره خص بعذاب أعظم لان عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد و يتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه في الباطل كعذاب من يقتدي به مع الغفلة قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون وقال وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فبين تعالى انه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتوا وأشد تمردا ليعلم ان عذابه أشد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب فلذلك قال في جميعهم ثم لنحن أعلم بالذين

والنظر اليها بين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر في قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون واغا لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الاعمى أظهر وأشهر في سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثاني لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغي المدلول عليه بما سبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لا جميع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدي اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ في أحدهما ومن النعيم المقيم في الآخر فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بأن ينتزع من حال الفريق الاول في تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسببه ذلك في العذاب المضاعف والخسران الذي لا خسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعري البصر والسمع فتخبط في مسلكه فوقع في مهاوي الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا وينتزع من حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما في مهماته فيهتدي الى سبيله و ينال مرامه (هل يستويان) يعني الفريقين

هم أولى بها صليا ولا يقال أولى الامم اشتراك القوم في العذاب واختلفوا في اعراب أيهم فعن الخليل انه مرتفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وسيبويه على انه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلة حتى لو جيء به لاعرب وقيل أيهم هو أشد ﴿قوله تعالى ﴿وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ واعلم انه تعالى لما قال من قبل فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم قال ثم لنحضرنهم حول جهنم أردفه بقوله وان منكم الا واردها يعني جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة قالوا انه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون والمبعد عنها لا يوصف بانه واردها (والثاني) قوله لا يسمعون حسيسها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها (وثالثها) قوله وهم من فزع يومئذ آمنون وقال الاكثرون انه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى وان منكم الا واردها فلم يخص وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الاول ويدل عليه قوله ثم ننجي الذين اتقوا أي من الواردين من اتقى ولا يجوز أن يقال ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود فقال بعضهم الورود الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة واحتجوا على ان الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى فأرسلوا واردهم ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء وقال تعالى ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون واراد به القرب ويقال وردت القافلة البلدة وان لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية ان الجن والانس يحضرون حول جهنم كان على ربك حتما مقضيا أي واجبا مفروغا منه بحكم الوعد ثم ننجي أي نبعد الذين اتقوا عن جهنم وهو المراد من قوله تعالى أولئك عنها مبعدون ومما يؤكد هذا القول ما روي انه صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية فقالت حفصة أليس الله يقول وان منكم الا واردها فقال عليه السلام فمه ثم ننجي الذين اتقوا ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازما (القول الثاني) ان الورود هو الدخول ويدل عليه الآية والخبر (أما الآية) فقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون وقال فأوردهم النار وبئس الورد المورود ويدل عليه قوله تعالى أولئك عنها مبعدون والمبعد هو الذي لولا التبعيد لكان قريبا فهذا انما يحصل لو كانوا في النار ثم انه تعالى يبعدهم عنها ويدل عليه قوله تعالى ونذر الظالمين فيها جثيا وهذا يدل على أنهم يبقون في ذلك الموضع الذي وردوه وهم انما يبقون في النار فلابد وأن يكونوا قد دخلوا النار (وأما الخبر) فهو أن عبد الله بن رواحة قال أخبر الله عن الورود ولم يخبر بالصدور فقال عليه السلام يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجي الذين اتقوا وذلك يدل على ان ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبي صلى الله عليه وسلم ما أنكر عليه في ذلك وعن جابر انه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للناس ضجيجا من بردها والقائلون بهذا القول يقولون المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر البتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لان الله تعالى أخبر عنهم انهم لا يحزنهم الفزع الاكبر ولان الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف وايصال الغم والحزن انما يجوز في دار التكليف ولانه صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة تبشر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنة حتى يرى مكانه في الجنة ويعلمه وكذلك القول في حال المعاينة فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكون في أمرهم وانما تؤثر هذه الاحوال في أهل النار لانهم لا يعلمون كونهم من أهل النار والعقاب ثم اختلفوا في انه كيف يندفع عنهم ضرر النار فقال بعضهم البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه ويكون من المواضع التي يسلك فيها الى دركات جهنم واذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل في جهنم فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار والكفار يكونون في وسط النار (وثانيها) ان الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم قال ابن عباس رضي الله عنهما يردونها كأنها اهالة

وعن

المذكورين والاستفهام انكاري مذكر لما سبق من انكار المماثلة في قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية (مثلا) أي حالا وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان (أفلا تذكرون) أي أتشكون في عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب كما في قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الانكار في قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل في شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذي أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر في تضاعيف ذلك ماله مدخل في

وعن جابر بن عبد الله انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بان نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهي خامدة (وثالثها) ان حرارة النار ليس بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لابدان المؤمنين يجعلها الله برداوسلاما عليهم كما في حق ابراهيم عليه السلام وكما أن الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطي فكان يصير دما ويشربه الاسرائيلي فكان يصير ماء عذبا واعلم أنه لابد من أحد هذه الوجوه في الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا في النار مع المعاقبين فان قيل اذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم النار فما الفائدة في ذلك الدخول قلنا فيه وجوه (أحدها) ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه (وثانيها) ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها (وثالثها) ان فيه مزيد غم على أهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين بل وعند الاولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون اليه (ورابعها) ان المؤمنين اذا كانوا معهم في النار يبكتونهم فزاد ذلك غما للكفار وسرورا للمؤمنين (وخامسها) ان المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل فما كانوا يقبلون تلك الدلائل فاذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم انهم كانوا صادقين فيما قالوا وان المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين (وسادسها) انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر * وبضدها تتبين الاشياء * فاما الذين تمسكوا بقوله تعالى أولئك عنها مبعدون فقد بينا انه أحد ما يدل على الدخول في جهنم وأيضا فالمراد عن عذابها وكذا قوله لا يسمعون حسيسها فان قيل هل ثبت بالاخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها الى الجنة قلنا ثبت بالاخبار أن المحاسبة تكون في الارض أو حيث كانت الارض ويدل عليه أيضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وجهنم قريبة من الارض والجنة في السماء ففي موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع الى جهنم ثم يرفع الله أهل الجنة وينجيهم ويدفع أهل النار فيها * أما قوله كان على ربك حتما مقضيا فالحتم مصدر حتم الامر اذا أوجبه فسمي المحتوم بالحتم كقولهم خلق الله وضرب الامير واحتج من أوجب العقاب عقلا فقال ان قوله كان على ربك حتما مقضيا يدل على وجوب ما جاء من جهة الوعيد والاخبار لان كلمة على للوجوب والذي ثبت بمجرد الاخبار لا يسمى واجبا والجواب ان وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف اليه جرى مجرى الواجب أما قوله ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين قرئ ننجي وننجي وينجي على ما لم يسم فاعله قال القاضي الآية دالة على قولنا في الوعيد لان الله تعالى بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيا ثم بين تعالى ان من عدا المتقين يذرهم فيها جثيا فثبت أن الفاسق يبقى في النار أبدا قال ابن عباس المتقي هو الذي اتقى الشرك بقول لا اله الا الله واعلم أن الذي قاله ابن عباس هو الحق الذي يشهد الدليل بصحته وذلك لان من آمن بالله وبرسله صح أن يقال انه متق عن الشرك ومن صدق عليه انه متق عن الشرك صدق عليه انه متق لان المتقي جزء من المتقي عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت ان صاحب الكبيرة متق واذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم قوله ثم ننجي الذين اتقوا فصارت هذه الآية التي توهموها دليلا من أقوى الدلائل على فساد قولهم قال القاضي وتدل الآية أيضا على فساد قول من يقول ان من المكلفين من لا يكون في الجنة ولا في النار قلنا هذا ضعيف لان الآية تدل على انه تعالى ينجي الذين اتقوا وليس فيها ما يدل على انه ينجيهم الى الجنة ثم هب أنها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على أن المتقين يكونون في الجنة والظالمين يبقون في النار فيبقى ههنا قسم ثالث خارج عن القسمين وهو الذي استوت طاعته ومعصيته فتسقط كل واحدة منهما بالاخرى فيبقى لا مطيعا ولا عاصيا فهذا القسم ان بطل فانما يبطل بشئ سوى هذه الآية فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذي ادعاه ومن المعتزلة من تمسك في الوعيد بقوله ونذر الظالمين فيها جثيا لفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم والكلام

تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع في تحقيق ماذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقين أحدهما أن ما أمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثاني أن ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي فلا يبقى في حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما في سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الامع قد لانها مظنة التوقع وأن المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو أول نبي بعث بعده * قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة

على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مرارا كثيرة فى هذا الكتاب أما قوله جثيا قال صاحب الكشاف قوله ونذر الظالمين فيها جثيا دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وان المؤمنين يفارقون الكفرة الى الجنة بعد نجاتهم وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين ﴿ قوله تعالى ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾ اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم انهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا لان الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين فى العذاب والذل وأعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة ولما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والذل دل على أن الحق ليس مع المؤمنين هذا حاصل شبهتهم فى هذا الباب ونظيره قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين انهم أكرم على الله منهم بقى بحثان (الاول) قوله آياتنا بينات يحتمل وجوها (أحدها) انها مرتلات الالفاظ مبينات المعانى اما محكمات أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات أو بتبيين الرسول قولا أو فعلا (وثانيها) انها ظاهرات الاعجاز تحدى بها فما قدروا على معارضتها (وثالثها) المراد بكونها آيات بينات أى دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض مثل قوله تعالى فى اثبات صحة الحشر أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيأ (البحث الثانى) قرأ ابن كثير مقاما بالضم وهو موضع الاقامة والمنزل والباقون بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والموضع والندى المجلس يقال ندى وناد والجمع الاندية ومنه قوله وتأتون فى ناديكم المنكر وقال فليدع ناديه ويقال ندوت القوم أندوهم اذا جمعتهم فى المجلس ومنه دار الندوة بمكة وكانت مجتمع القوم ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا﴾ وتقرير هذا الجواب أن يقال ان من كان أعظم نعمة منكم فى الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيبا لله تعالى لوجب فى حبيب الله أن لا يوصل اليه غما فى الدنيا ووجب عليه أن لا يهلك أحدا من المتنعمين فى دار الدنيا وحيث أهلكهم دل اما على فساد المقدمة الاولى وهى أن من وجد الدنيا كان حبيبا لله تعالى أو على فساد المقدمة الثانية وهى أن حبيب الله لا يوصل الله اليه غما وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكروه من الشبهة بقى البحث عن تفسير الالفاظ فنقول أهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم وهم أحسن فى محل النصب صفة لكم ألا ترى انك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية والاثاث متاع البيت أما رئيا فقرئ على خمسة أوجه لانها اما أن تقرأ بالراء التى ليس فوقها نقطة أو بالزاى التى فوقها نقطة فاما الاول فاما أن يجمع بين الهمزة والياء أو يكتفى بالياء أما اذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان (أحدهما) بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت رئيا (والثانى) ريئا على القلب كقولهم راء فى رأى أما ان اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على قلب الهمزة ياء والادغام أو من الرى الذى هو النعمة والترفه من قولهم ريان من النعيم والثانى بالياء على حذف الهمزة رأسا ووجهه أن يخفف المقلوب وهو ريئا بحذف الهمزة والقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها وأما بالزاى المنقطة من فوق زيا فاشتقاقه من الزى وهو الجمع لان الزى محاسن مجموعة والمعنى أحسن من هؤلاء والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا﴾ اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة وتقريره انفرض ان هذا الضال المتنعم فى الدنيا قد مد الله فى أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم الى النعمة العظيمة المدة الطويلة فلا بد وأن ينتهى الى عذاب فى الدنيا أو عذاب فى الآخرة بعد ذلك سيعلمون ان نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك

والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (انى لكم نذير) بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لا لان دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا ترى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم اشاره عليه الصلاة والسلام (مبين) أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه

العذاب فقوله فسيعلمون من هو شر مكانا مذكور في مقابلة قولهم خير مقاما وأضعف جندا في مقابلة قولهم أحسن نديا فبين تعالى انهم وان ظنوا في الحال ان منزلتهم أفضل من حيث فضلهم الله تعالى بالمقام والندى فسيعلمون من بعد ان الامر بالضد من ذلك وانهم شر مكانا فانه لا مكان شر من النار والمناقشة في الحساب وأضعف جندا فقد كانوا يظنون وهم في الدنيا ان اجتماعهم ينفع فاذا رأوا أن لا ناصر لهم في الآخرة عرفوا عند ذلك انهم كانوا في الدنيا مبطلين فيما ادعوه * بقي البحث عن الالفاظ وهو من وجوه (أحدها) مد له الرحمن أي أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الامر ايذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لا محالة كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال ويقال له يوم القيامة أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وكقولهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما (وثانيها) ان قوله اما العذاب واما الساعة يدل على ان المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لان قوله واما الساعة المراد منه يوم القيامة ثم العذاب الذي يحصل قبل يوم القيامة يمكن أن يكون هو عذاب القبر ويمكن أن يكون هو العذاب الذي سيكون عند المعاينة لانهم عند ذلك يعلمون ما يستحقون ويمكن أيضا أن يكون المراد تغير أحوالهم في الدنيا من العز الى الذل ومن الغنى الى الفقر ومن الصحة الى المرض ومن الأمن الى الخوف ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم ويمكن أيضا أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر وكل هذه الوجوه مذكورة واعلم أنه تعالى بين بعد ذلك انه كما يعامل الكفار بما ذكره فكذلك يزيد المؤمنين المهتدين هدى واعلم انا بينا امكان ذلك بحسب العقل فنقول انه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطا بالبعض فان حاصل الاهتداء يرجع الى العلم ولا امتناع في كون بعض العلم مشروطا بالبعض فمن اهتدى بالهداية التي هي الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطى الهداية التي هي المشروط فصح قوله ويزيد الله الذين اهتدوا هدى مثاله الايمان هدى والاخلاص في الايمان زيادة هدى ولا يمكن تحصيل الاخلاص الا بعد تحصيل الايمان فمن اهتدى بالايمان زاده الله الهداية بالاخلاص هذا اذا أجرينا لفظ الهداية على ظاهره ومن الناس من حمل الزيادة في الهدى على الثواب أي ويزيد الله الذين اهتدوا ثوابا على ذلك الاهتداء ومنهم من فسر هذه الزيادة بالعبادات المترتبة على الايمان قال صاحب الكشاف يزيد معطوف على موضع فليمدد لانه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مد له الرحمن مدا ويزيد أي يزيد في ضلال الضلال بخذلانه وذلك المد ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ثم انه تعالى بين ان ما عليه المهتدون هو الذي ينفع في العاقبة فقال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وذلك لان ما عليه المهتدون ضرر قليل متناه يعقبه نفع عظيم غير متناه والذي عليه الضالون نفع قليل متناه يعقبه ضرر عظيم غير متناه وكل أحد يعلم بالضرورة ان الاول أولى وبهذا الطريق تسقط الشبهة التي عولوا عليها واختلفوا في المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون انها الايمان والاعمال الصالحة سماها باقية لان نفعها يدوم ولا يبطل ومنهم من قال المراد بها بعض العبادات ولعلهم ذكروا ما هو أعظم ثوابا فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح وروى عن أبي الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا فأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا حطا كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة وكان أبو الدرداء يقول لاعملن ذلك ولاكثرن منه حتى اذا رآني جاهل حسب اني مجنون والقول الاول أولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقطع فبعض العبادات وان كان أنقص ثوابا من البعض فهي مشتركة في الدوام فهي بأسرها باقية صالحة نظرا الى آثارها التي هي الثواب ثم انه تعالى أخبر انها خير عند ربك ثوابا وخير مردا ولا يجوز أن يقال هذا خير الا والمراد انه خير من غيره فالمراد اذن انها خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا * قوله تعالى ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾ اعلم أنه تعالى لما

(ألا تعبدوا الا الله) أي بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولا ناهية أي أرسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل في القبول ولم يفعل ذلك في صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من اني لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى (اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليل لموجب النهي وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالاليم على الاسناد المجازي للمبالغة كما في نهاره صائم وهذه المقالة وما في معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام في أثناء الدعوة على ما عزى اليه في سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم في تلك المدة المتطاولة على ما نطق به قوله تعالى رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا الآيات عطفه على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعد مجوابهم المتعرض لاحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي بالفاء التعقيبية فقيل

ذكر الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا في القول بالحشر فقال أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا قرأ حمزة والكسائى ولدا وهو جمع ولد كأسد فى أسد أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب وعن يحيى بن يعمر ولدا بالكسر وعن الحسن نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة والمشهور أنها فى العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لى عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد قلت لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم لا حيا ولا ميتا ولا حين تبعث فقال فانى اذا مت بعثت قلت نعم قال انى اذا بعثت وجئتنى فسيكون لى ثم مال وولد فاعطيك وقيل صاغ خباب له حليا فاقتضاه فطلب الاجرة فقال انكم تزعمون أنكم تبعثون وأن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثم فانى أوتى مالا وولدا حينئذ ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا قال صاحب الكشاف أطلع الغيب من قولهم اطلع الجبل أى ارتقى الى أعلاه ويقال مر مطلعا لذلك الامر أى غاليا له مالكا له والاختيار فى هذه الكلمة أن تقول أوقد بلغ من عظم شأنه أنه ارتقى الى علم الغيب الذى توحد به الواحد القهار والمعنى أن الذى ادعى أنه يكون حاصلا له لا يتوصل اليه الا بأحد هذين الامرين اما علم الغيب واما عهد من عالم الغيب فبأيهما توصل اليه وقيل فى العهد كلمة الشهادة عن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول ثم انه سبحانه بين من حاله ضد ما ادعاه فقال كلا وهى كلمة ردع وتنبيه على الخطا أى هو مخطئ فيما يقوله و يتمناه ☼ فان قيل لم قال سنكتب ما يقول بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تأخير قال تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ☼ قلنا فيه وجهان (أحدهما) سنظهر له و يعلم انا كتبنا (الثانى) ان المتوعد يقول للجانى سوف انتقم منك وان كان فى الحال فى الانتقام و يكون غرضه من هذا الكلام محض التهديد فكذا ههنا أما قوله تعالى ونمد له من العذاب مدا أى نطول له من العذاب ما يستأهله ونزيده من العذاب ونضاعف له من المدد ويقال مده وأمده بمعنى و يدل عليه قراءة على بن أبى طالب عليه السلام ونمد له بالضم أما قوله ونرثه ما يقول أى نزول عنه ما وعده من مال و ولد فلا يعود كما لا يعود الارث الى من خلفه واذا سلب ذلك فى الآخرة بقى فردا فلذلك قال ويأتينا فردا فلا يصح أن ينفرد فى الآخرة بمال وولد ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم فى مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن فى الرد على عباد الاصنام فحكى عنهم انهم انما اتخذوا آلهة لانفسهم ليكونوا لهم عزا حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارا ينقذونهم من الهلاك ثم أجاب الله تعالى بقوله كلا وهو ردع لهم وانكار لتعززهم بالآلهة وقرأ ابن نهيك كلا سيكفرون بعبادتهم أى كلهم سيكفرون بعبادة هذه الاوثان وفى محتسب ابن جنى كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم ان معناه كل هذا الاعتقاد والرأى كلا قال صاحب الكشاف ان صحت هذه الرواية فهى كلا التى هى للردع قلب الواقف عليها ألفها نونا كما فى قواريرا واختلفوا فى أن الضمير فى قوله سيكفرون يعود الى المعبود أو الى العابد فمنهم من قال انه يعود الى المعبود ثم قال بعضهم أراد بذلك الملائكة لانهم فى الآخرة يكفرون بعبادتهم و يتبرؤن منهم و يخاصمونهم وهو المراد من قوله أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقال آخرون ان الله تعالى يحيى الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم و يتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ومن الناس من قال الضمير يرجع الى العباد أى ان هؤلاء المشركين يوم القيامة ينكرون انهم عبدوا الاصنام ثم قال تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أما قوله و يكونون عليهم ضدا فذكر ذلك فى مقابلة قوله لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أى يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وأرادوه كأنه قيل و يكونون عليهم ذلا لهم لا عزا أو يكونون عليهم عونا والضد العون يقال

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الاشراف منهم من قولهم فلان ملىء بكذا أى مطيق له لانهم ملؤا بكفايات الامور أولانهم ملؤا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الامر لا لان بعض أشرافهم ليسوا بكفرة (ما نراك الا بشرا مثلنا) مرادهم ما أنت الا بشر مثلنا ليس فيك مزية تختص بها من دوننا من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لا نراه وكذا الحال فى قولهم (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الاول بالمثلية لا بالبشرية فقط وانما لم يثبتوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بان ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الامر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من أول الامر برأى المتبعين فكان قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين

من أضـداد كم أى من أعوانكم وكان العون يسمى ضـدا لانه يضاد عدوّك و ينافيه باعانته لك عليه فان قيـل ولم وحد قلنا وحد توحيـد قوله عليه السـلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلتهم فانهم كشئ واحد لفرط انتظامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عونا عليهم انهم وقود النار وحصب جهنم ولانهم عذبوا بسبب عبادتها ❊ واعلم أنه تعالى لما ذكر حال هؤلاء الكفار مع الاصنام فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا فانهم يسألونهم و ينقادون لهم فقال انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الاصحاب بهذه الآية على ان الله تعالى مريد لجميع الكائنات فقالوا قول القائل أرسلت فلانا على فلان موضوع فى اللغة لافادة انه سلطه عليه لارادة أن يستولى عليه قال عليه السلام سم الله وأرسل كلبك عليه اذا ثبت هذا فقوله انا أرسلنا الشياطين على الكافرين يفيد أنه تعالى سلطهم عليهم لارادة أن يستولوا عليهم وذلك يفيـد المقصود ثم يتأكد هذا بقوله تؤزهـم أزا فان معناه انا أرسلنا الشياطين على الكافرين لتؤزهم أزا ويتأكد بقوله واستفزز من استطعت منهم قال القاضى حقيقة اللفظ توجب أنه تعالى أرسل الشياطين الى الكفار كما أرسل الانبياء بأن حملهم رسالة يؤدونها اليهم فلا يجوز فى تلك الرسالة الا ما أرسل عليه الشياطين من الاغواء فكان يجب فى الكفار أن يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين وذلك كفر من قائله ولان من العجب تعلق المجبرة بذلك لان عندهم ان ضلال الكفار من قبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر الكفر فلا تأثير لما يكون من الشياطين واذا بطل حمل اللفظ على ظاهره فلا بد من التأويل فنحمله على انه تعالى خلى بين الشياطين و بين الكفار وما منعهم من اغوائهم وهذه التخلية تسمى ارسالا فى سعة اللغة كما اذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال أرسل كلبه عليه وان لم يرد أذى الناس وهذه التخلية وان كان فيها تشديد للمحنة عليهم فهم متمكنون من أن لا يقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول أعظم والدليل عليه قوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم هـذا تمام كلامه ونقول لا نسلم انه لا يمكن حمله على ظاهره فان قوله الشياطين لو أرسلهم الله الى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين قلنا الله تعالى ما أرسل الشياطين الى الكفار بل أرسلها عليهم والارسال عليهم هو التسليط لارادة أن يصيروا مستوليا عليهم فأين هذا من الارسال اليهم قوله ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأى تأثير للشيطان فيه قلنا لم لا يجوز أن يقال ان سماع الشيطان اياه تلك الوسوسة يوجب فى قلبه ذلك الضلال بشرط سلامة فهم السامع لان كلام الشيطان من خلق الله تعالى فيكون ذلك الضلال الحاصل فى قلب الكافر منتسبا الى الشيطان والى الله تعالى من هذين الوجهين قوله لم لا يجوز أن يكون المراد بالارسال التخلية قلنا كما خلى بين الشيطان والكفرة فقد خلى بينهم و بين الانبياء ثم انه تعالى خص الكافر بانه أرسل الشيطان عليه فلا بد من فائدة زائدة ههنا ولان قوله تؤزهم أزا أى تحركهم تحريكا شديدا كالغرض من ذلك الارسال فوجب أن يكون ذلك الازمراد الله تعالى ويحصل المقصود منه فهذا ما فى هذا الموضع والله أعلم (المسئلة الثانية) قال ابن عباس تؤزهم أزا أى تزعجهم فى المعاصى ازعاجا نزلت فى المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط قال صاحب الكشاف الاز والهز والاستفزاز أخوات فى معنى التهييج وشدة الازعاج أى تغريهم على المعاصى وتحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات أما قوله تعالى فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا يقال عجلت عليه كذا اذا استعجلته به أى لا تعجل عليهم بأن يهلكوا أو يبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وأنفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ عن ابن عباس انه كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن ابن السماك رحمه الله انه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وذكروا فى قوله نعد لهم عدا وجهين آخرين (الاوّل) نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها (والثانى) نعد

دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزع وأن هؤلاء أراذلنا أى أخصاؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر أو جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصالة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو فى أوّله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولى الالباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهر الحياة الدنيا كان الاشرف عندهم الاكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم انما هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه نعوذ بالله من ذلك (وما نرى لكم) أى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين (علينا من فضل) يعنون ان اتباعهم لك لا يدل على نبوّتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم

الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان ثم بين سبحانه ما سيظهر في ذلك اليوم من الفصل بين المتقين و بين المجرمين في كيفية الحشر فقال يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال صاحب الكشاف نصب يوم بمضمر أى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين مالا يحيط به الوصف أواذكر يوم نحشر ويجوز أن ينتصب بلا يملكون عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان المتقين اذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال الذهب ثم تلا هذه الآية وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى هذه الآية احدما يدل على ان أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين لان المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز أن تنالهم الاهوال (المسئلة الثانية) المشبهة احتجوا بالآية وقالوا قوله الى الرحمن يفيد ان انتهاء حركتهم يكون عند الرحمن وأهل التوحيد يقولون المعنى يوم نحشر المتقين الى محل كرامة الرحمن (المسئلة الثالثة) طعن الملحد فيه فقال قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا هذا انما يستقيم أن لو كان الحاشر غير الرحمن أما اذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم ٭ أجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين الى كرامة الرحمن أما قوله ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقوله نسوق يدل على انهم يساقون الى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء والورد اسم للعطاش لان من يرد الماء لا يرده الا للعطش وحقيقة الورود السير الى الماء فسمى به الواردون أما قوله لا يملكون الشفاعة أى فليس لهم والظاهر ان المراد شفاعتهم لغيرهم أو شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا وقال بعضهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون وقال بعضهم بل المراد لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم وهذا الثانى أولى لان حمل الآية على الاول يجرى مجرى ايضاح الواضحات واذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لاهل الكبائر لانه قال عقيبه الا من اتخذ عند الرحمن عهدا والتقدير ان هؤلاء لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم الا اذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهدا التوحيد والنبوة فوجب أن يكون داخلا تحته ومما يؤكد قولنا ماروى ابن مسعود انه عليه السلام قال لاصحابه ذات يوم أيعجز احدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك انى أشهد أن لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك فانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتبعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر بهذا الحديث ان المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه دلالة الآية على الشفاعة لاهل الكبائر وقال القاضى الآية دالة على مذهبه وقد ظهر ان الآية قوية في الدلالة على قولنا والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ اعلم أنه تعالى لما رد على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من أثبت له ولدا قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله والكل داخلون فى هذه الآية ومنهم من خصها بالعرب الذين أثبتوا أن الملائكة بنات الله قالوا لان الرد على النصارى تقدم فى أول السورة أما الآن فانه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الاوثان تكلم فى افساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله أما قوله لقد جئتم شيأ ادا فقرئ ادا بالكسر والفتح قال ابن خالويه الاد والادا العجب وقيل المنكر العظيم والاد الادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى قرئ يتفطرن بالتاء بعد الياء أعنى المعجمة من تحتها واختلفوا فى يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق والانفطار من فطره اذا شقه والتفطر من فطره اذا شققه وكرر الفعل فيه وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله وتخر الجبال هدا أى تهد هدا أو

فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم انهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا (بل نظنكم كاذبين) جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة أو اياك فى دعوى النبوة واياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احترازا منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف (قال ياقوم أرأيتم) أى أخبرونى وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور (ان كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة ويجوز أن تكون هى البينة نفسها جىء بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وان أريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرئ عميت ومعناه خفيت وحقيقته ان الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء

مهدودة

مهدودة أو مفعول له أى لانها تهد والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تساقط البعض على البعض * فان قيل من أين يؤثر القول باثبات الولد لله تعالى فى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال * قلنا فيه وجوه (أحدها) ان الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها ولا حلمى وانى لا أعجل بالعقوبة كما قال ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا (وثانيها) أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها لاركانه وقواعده (وثالثها) أن السموات والارض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول وهذا تأويل أبى مسلم (ورابعها) ان السموات والارض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها * أما قوله أن دعوا للرحمن ولدا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى اعرابه ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مجرورا بدلا من الهاء فى منه أو منصوبا بتقدير سقوط اللام وافضاء الفعل أى هذا لان دعوا أو مرفوعا بانه فاعل هدا أى هدها دعاء الولد للرحمن والحاصل أنه تعالى بين أن سبب تلك الامور العظيمة هذا القول (المسئلة الثانية) انما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيها على انه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل ان أصول النعم وفروعها ليست الا منه (المسئلة الثالثة) قوله دعوا للرحمن هو من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين فاقتصر على أحدهما الذى هو الثانى طلبا للعموم والاحاطة بكل من ادعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى هو مطاوعه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم من ادعى الى غير مواليه قال الشاعر

* انا بنى نهشل لا ندعى لاب * أى لا ننتسب اليه ثم قال تعالى وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا أى هو محال أما الولادة المعروفة فلا مقال فى امتناعها وأما التبنى فلان الولد لابد وأن يكون شبيها بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض لا تصح فى الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل وكل ذلك لا يليق به ثم قال ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا والمراد انه ما من معبود لهم فى السموات والارض من الملائكة والناس الا وهو يأتى الرحمن أى يأوى اليه ويلتجئ الى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والاول أولى لانه لا تخصيص فيه وقوله لقد أحصاهم وعدهم عدا أى كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شئ من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم ﴿ قوله تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا﴾ اعلم أنه تعالى لما رد على أصناف الكفرة وبالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا وللمفسرين فى قوله ودا قولان (الاول) وهو قول الجمهور انه تعالى سيحدث لهم فى القلوب مودة يزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للاسباب التى يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك وانما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصا لاوليائه بهذه الكرامة كما قذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة اعظاما لهم واجلالا لمكانهم والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك اذا جاء الاسلام واما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية اذا أحب الله عبدا نادى جبريل قد أحببت فلانا فأحبوه فينادى جبريل عليه السلام بذلك فى السماء والارض واذا أبغض عبدا فمثل ذلك وعن كعب قال مكتوب فى التوراة والانجيل لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الارض وتصديق ذلك فى القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودا (القول الثانى) وهو اختيار أبى مسلم معنى سيجعل لهم الرحمن ودا أى

لان الاعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره وفى قراءة أبى فعماها عليكم على الاسناد الى الله عزوجل (أنلزمكموها) أى أنكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب رأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله (وأنتم لها كارهون) لا تختارونها ولا تتأملون فيها ومحصول الجواب أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الا انها خافية عليكم غير مسلمة عندكم أيمكننا ان نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام مطلقا هذا ويجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض وبه يناط الكرامة عند الله عزوجل والاجتباء للرسالة وبالرحمة النبوة التى هى أثر الكرامة ويكون عماها عليهم ... عند الله عزوجل والاجتباء للرسالة وبالكرن عليهما التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم ادراكهم

يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء يقال آتيت فلانا محبته وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده ومن كلامهم يود لو كان كذا ووددت أن لو كان كذا أى أحببت ومعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم في الجنة والقول الاول أولى لان حمل المحبة على المحبوب مجاز ولانا ذكرنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكان ذلك أولى وقال أبو مسلم بل القول الثانى أولى لوجوه (أحدها) كيف يصح القول الاول مع علمنا بأن المسلم التقي يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين (وثانيها) ان مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر فكيف يمكن جعله انعاما في حق المؤمنين (وثالثها) ان محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا أن الله تعالى فعله فكان حمل الآية على اعطاء المنافع الاخروية أولى (والجواب عن الاول) ان المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والانبياء وروى عنه عليه السلام انه حكى عن ربه عز وجل أنه قال اذا ذكرني عبدى المؤمن في نفسه ذكرته في نفسي واذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملا أطيب منهم وأفضل وهذا هو الجواب عن الكلام الثانى لان الكافر والفاسق ليس كذلك (والجواب عن الثالث) انه محمول على فعل الالطاف وخلق داعية اكرامه في قلوبهم أما قوله تعالى فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين فبين تعالى انه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر ولولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وانذار من خرج منهم فبين لكنه تعالى لما ذكر انه يبشر به المتقين ذكر في مقابله من هو في مخالفة التقوى أبلغ وأبلغهم الالد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويشتد وهو معنى لدا ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال وكم أهلكنا قبلهم من قرن لانهم اذا تأملوا وعلموا انه لابد من زوال الدنيا والانتهاء الى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها الى الحذر من المعاصى أقرب ثم أكد تعالى ذلك فقال هل تحس منهم من أحد لان الرسول عليه السلام اذا لم يحس منهم أحدا برؤية أو ادراك أو وجدان ولا يسمع لهم ركزا وهو الصوت الخفي ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه في الارض والركاز المال المدفون دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية والاقرب في قوله أهلكنا ان المراد به الانقراض بالموت وان كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل في الدنيا والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه وسلم

(تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس أوله سورة طه عليه السلام)

لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التي أنكروا اختصاصه عليه السلام بها من بين ظهرانيهم والمعنى انكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبروني ان امتزت عندكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها الى الآن حتى زعمتم أني مثلكم وهي متحققة في نفسها ألزمكم قبول نبوتي التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الانسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التي أدرجوها في خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة (وياقوم لا أسألكم عليه) أى على ما قلته في أثناء دعوتكم (مالا) تؤدونه الى بعد اعمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى في مقابلة اهتدائكم (ان أجرى الا على الله) الذى يثيبني في الآخرة وفي التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال ما لا يخفى من المزية